

تاريخ التحليل الاقتصادي

المجلد الثالث

جوزيف أ. شومبيتر

ترجمة : حسن عبد الله بدر

مراجعة : عصام الخفاجي

832

علي مولا

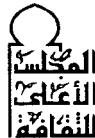
تاريخ التحليل الاقتصادي

(المجلد الثالث)

تأليف: جوزيف أ. شومبيتر

ترجمة: حسن عبد الله بدر

مراجعة: عصام الخفاجي



المشروع القومي للترجمة
إشراف: جابر عصفور

- العدد: ٨٣٢
- تاريخ التحليل الاقتصادي (المجلد الثالث)
- جوزيف أ. شومبيتر
- حسن عبد الله بدر
- عصام الخفاجي
- الطبعة الأولى ٢٠٠٦

هذه ترجمة كتاب:

History of Economic Analysis

Edited by: Joseph Schumpeter

© Introduction by Mark Perlman

«All Rights Reserved»

«Authorised translation from English language edition published by
Routledge, a member of the Taylor & Francis Group».

حقوق الترجمة والنشر بالعربية محفوظة للمجلس الأعلى للثقافة.

شارع الجبلالية بالأوبرا - الجزيرة - القاهرة ت: ٧٣٥٢٣٩٦ فاكس: ٧٣٥٨٠٨٤

EL Gabalaya st. Opera House, El Gezira, Cairo

TEL: 7352396 Fax: 7358084

تهدف إصدارات المشروع القومي للترجمة إلى تقديم مختلف الاتجاهات والمذاهب الفكرية للقارئ العربي وتعريفه بها ، والأفكار التي تتضمنها هي اجتهادات أصحابها في ثقافتهم ولا تعبر بالضرورة عن رأى المجلس الأعلى للثقافة.

المحتويات

الجزء الرابع: من عام ١٨٧٠ إلى عام ١٩١٤ (وما بعد ذلك)

9.....	الفصل الأول: مدخل وخطة.....
19.....	الفصل الثانى: الخلفية والأنماط.....
53.....	الفصل الثالث: بعض التطورات فى الحقول المجاورة.....
83.....	الفصل الرابع: السياسة الاجتماعية والمنهج التاريخى.....
119.....	الفصل الخامس: الاقتصاد العام فى الفترة: الكتاب والمجموعات.....
207.....	الفصل السادس: الاقتصاد العام: طبيعته ومحتوياته.....
291.....	الفصل السابع: تحليل التوازن.....
455.....	الفصل الثامن: النقود والائتمان والدورات.....

الجزء الخامس: الخاتمة: مسودة حول التطورات الحديثة

543.....	الفصل الأول: مدخل وخطة.....
559.....	الفصل الثانى: التطورات التى انطلقت من جهاز مارشال - فيكسل.....
565.....	الفصل الثالث: علم الاقتصاد فى الأقطار 'الشمولية'.....
575.....	الفصل الرابع: الديناميكا وبحوث الدورة الاقتصادية.....
591.....	الفصل الخامس: كينز والاقتصاد الكلى الحديث.....
611.....	قائمة الكتب المقتطف منها كثيراً.....

الجزء الرابع

من عام ١٨٧٠ إلى عام ١٩١٤ (وما بعد ذلك)

الفصل الأول

مقدمة وخطة

١- نطاق الجزء الرابع

٢- لوازم لابد منها

٣- خطة الجزء الرابع

١- نطاق الجزء الرابع

يغطي هذا الجزء تاريخ العمل التحليلي من عام ١٨٧٠ إلى عام ١٩١٤. ولتبرير التاريخ الأول، أشير إلى واقعة سينكرها بعض الاقتصاديين، أى أن عام ١٨٧٠ تقريباً شهد اهتماماً جديداً بالإصلاح الاجتماعى، شهد 'روحاً جديدة' من 'النزعة التاريخية' ونشاطاً جديداً فى حقل 'النظرية' الاقتصادية بدأت كلها بفرض نفسها؛ أو أن هذه الفترة شهدت تغيرات فى التقليد breaks with tradition كانت واضحة بالمقارنة مع ما يمكننا أن نتوقعه دائماً من عملية يُفترض أنها عملية متواصلة من حيث الجوهر. وتبرر اختيار التاريخ الثانى فكرة أن الحرب العالمية الأولى كانت 'عاملاً خارجياً' قوياً إلى حد أن اندلاعها يكفى لوضع نقطة نهاية معينة، رغم أن المؤثرات التى من شأنها أن تضع نهاية لتلك الحقبة من التحليل الاقتصادى وتبشر بحقبة أخرى كانت واضحة جداً من قبل ومع أنها لم تنتصر إلا بعد مضى عقد من الزمن أو نحو ذلك.

وينبغى أن يؤخذ كل هذا سوية مع نفس التحفظات التى تسرى على أى محاولة تقسيم أى شىء إلى فترات زمنية periodize، وبخاصة التحفظات المشابهة لتلك التى وجدناها ضرورية للدفاع عن مفهومنا للفترة السابقة. ثمة عدد من الكتاب والأعمال يطل على كلتا الفترتين ولا يمكن وضعه فى أى منهما دون قدر كبير من الاعتباطية؛ وكان هناك الكثير من التداخلات فى الآراء والمواقف والمناهج. ولهذا

السبب إلى حد ما، أدخلنا في هذا الجزء بعض الكتاب والأعمال التي تعود زمنياً أما إلى الفترة السابقة أو إلى الفترة التالية. ومع ذلك، ثمة سبب آخر للإشارة، وعلى نحو كامل نوعاً ما أحياناً، إلى تطورات حدثت في فترتنا الحالية نفسها ولحمل تاريخنا في بعض القضايا إلى وقتنا الحاضر نفسه (١٩٤٩). إن التطورات الحديثة لن تعالج في الجزء الرابع إلا كشيء دخيل عليه، ويبدو أن من المرغوب الاستفادة مما يسنح من فرص للإشارة إلى مدى ارتباط العمل الحديث، أو عدد من نقاطه المهمة على الأقل، بعمل الفترة ١٨٧٠-١٩١٤، أي إلى أي مدى نبني عملنا نحن أنفسنا عملنا في الوقت الحاضر على الأساس الذي تم وضعه في الفترة الأخيرة.

ولكن كل التحفظات الضرورية لمنع تقسيم الفترات periodization من أن يصبح مضللاً - أو حتى هراء مطبقاً - لا ينبغي أن لا تحجب عنا حقيقة أن الفترة التي نباشر بدرسها تشكل وحدة حقيقية بالفعل وكان يتعين ملاحظتها بمعزل تام عن كل متطلبات الملائمة في العرض. وقد قصدنا بالتغيرات في التقليد التي حدثت قريباً من عام ١٨٧٠ التغيرات التي أحدثها كتاب ترتبط أسماؤهم بها: ربما بدت هذه التغيرات لأولئك الكتاب حادة ومهمة أكثر مما بدت للمؤرخ ولكن هذا لا يعنى أنها كانت متصورة كلياً. فقد تبع هذه 'الثورات' عقدان من الصراع والمناقشات الساخنة إلى هذا الحد أو ذاك. وقد نجم مرة أخرى عن هذه الثورات، في التسعينيات، وضع كلاسيكي نمطي وفق مفهومنا أظهرت أعماله الكبرى مدى واسعاً من الأرضية المشتركة توحى بمشاعر الراحة والاستقرار مما خلق كلاهما لدى المراقب السطحي إحساساً بالكمال - مثل كمال كنيسة إغريقية تنشر ألوانها الزاهية على سماء صافية. ولكن حتى المراقب السطحي لابد من أن أدرك، في العقد الأخير السابق لاندلاع الحرب العالمية الأولى أو نحو ذلك، علامات التحلل، علامات على تغيرات جديدة توشك أن تحدث، على ثورات لم تتحول بعد إلى وضع كلاسيكي آخر.

٢- لوائح 'لابد منها'

شهدت هذه الفترة تقدماً كبيراً عبر 'الثورة' والدمج. ويحتمل أن نقل، كما افترضُ أنا، من شأن إنجازات الفترة بقدر ما نضخم إنجازات الفترة الممتدة من آ. سمث إلى ج. س. ميل. وهذا يعود جزئياً إلى حقيقة تشكّل السبب الرئيسى لنصوبات التى سيواجهها بعض القراء عند قراءة هذا الجزء: إذ بدأ الاقتصاد بتطوير مناهج أكثر تعقيداً أخذت تحتل بشكل متزايد مكان المناهج القديمة البسيطة التى كان بوسع أى فرد متعلم إتقانها دون إعداد خاص. وكنتيجة طبيعية يتعذر تجنبها، أصبح علم الاقتصاد أكثر تخصصاً وفى متناول الجمهور العام بدرجة أقل على حد سواء مما عرض الاقتصاديين لكثير من اللوم - غير المبرر تماماً - ليس فقط من جانب ممثلى ذلك الجمهور بل أيضاً من جانب زملائهم الذين يملكون توجهاً أقل تقنيةً *less technique minded*. ومع ذلك، فهذه العملية كانت بطيئة - وإن الاقتصاديين الكبار، مثل مارشال ممن كانوا يتطلعون إلى 'أن تكون أعمالهم مقروءة من قبل رجال الأعمال - وبالتالي كانوا يكتبون على هذا الأساس، ما زالوا يحققون انتشاراً واسعاً فى الصحافة اليومية. وليس هناك داع لأن نوضح أن مثل هذا النجاح تم إحرازه بدفع ثمن معين، وإن الفائدة التى كسبها العلم والجمهور التى يمكننا رؤيتها فى هذا النجاح تقابلها خسارة فى مجال الكفاءة التحليلية لآبد من تبصرها.

كان العلم قد نما من حيث الكم أكثر مما فى خبرته وتجربته. وهذه هى جزئياً نتاج 'تقدمه' السريع على صعيد اكتساب الطابع المهني *professionalization* واكتساب طابعه الأكاديمي *professorialization*. سبق أن رأينا أن الاقتصاديين، حتى فى الفترات السابقة، كانوا قد اعترفوا بعضهم ببعض كأفراد يمتلكون كفاءة خاصة وأنه جرى تطوير ما يشبه معايير الأداء المهنية. وقد أصبحت هذه المعايير أكثر تحديداً فى الفترة محل الدرس التى تطور خلالها علم الاقتصاد - أو حتى كل فرع من الفروع المعترف بها ضمن الكيان الاقتصادى - إلى شغل كامل *full-time* *job*. وقد شجع هذا الأمر على مزيد من ال *professionalization* مثلما شجعت هذه

الأخيرة عليه دورها. لم يكن معظم الاقتصاديين الكبار مدرسين أكاديميين فى الفترة السابقة. بينما أصبح كلهم عملياً كذلك فى الفترة محل الدرس. ويتجلى هذا التغيير بشكل مذهل فى إنجلترا أكثر مما فى أى مكان آخر وذلك لأن أساتذة اقتصاد هناك (أو المدرسين الأكاديميين بألقابهم المختلفة)، الذين كان عددهم ضئيلاً جداً فى السابق، لم يزد عددهم إلا قليلاً خلال الفترة ولكنهم سيطروا فى حقولهم رغم ذلك^(١). وفى الولايات المتحدة، كانت زيادة عدد المدرسين الأكاديميين تثير الدهشة بعد أن كسبت هارفارد كرسى الأستاذية المنتظمة الأولى فى الاقتصاد السياسى عام ١٨٧١ (يعود تاريخ كرسى الأستاذية الأقدم فى كولومبيا فى الفلسفة الأخلاقية والاقتصاد السياسى إلى عام ١٨١٨) وكسبته يال عام ١٨٧٢. وقد طورت ألمانيا، وإيطاليا، وأسبانيا وبلدان الشمال مهتهم الاقتصادية وفق الخطوط القديمة، ولكن فرنسا خطت خطوة واسعة بإنشاء كراسى فى علم الاقتصاد فى جميع كليات القانون فى البلاد عام ١٨٧٨، بينما لم يكن هناك حتى ذلك العام أى تدريس منظم ومعترف به فى الاقتصاد قط إلا فى باريس.

وعند تقييم التسهيلات المتعلقة بالبحث بحسب المعايير الحديثة، فأنها تبقى ما عدا تلك التى تقدمها المكتبة التى توسعت كثيراً وبخاصة فى الولايات المتحدة متواضعة جداً ولم يكن لها وجود قط فى كثير من الأقطار^(٢). وقد تطورت مناهج التدريس بأشكال مختلفة فى كل البلدان. ينبغى علينا أن نتذكر إن الدراسة المهنية فى علم الاقتصاد، فى إنجلترا والولايات المتحدة، كانت ما تزال شيئاً جديداً وكان عليها أن تكافح لشق طريقها ووضع طرقها من خلال عملية التجربة والخطأ^(٣)، وأن علم الاقتصاد فى بعض البلدان الأخرى ظل مادة ثانوية ملحقة بدراسة القانون.

(١) حول الشروط فى قسم النقود والصيرفة، انظر الفصل الثامن، أدناه.

(٢) ومع ذلك، فقد يعطى هذا انطباعاً غير ملائم إلى حد بعيد، ففي ألمانيا مثلاً كانت تتوفر دخول (حقيقية) كافية جداً وعطلات طويلة للأساتذة وبخاصة فى الجامعات الكبيرة مع تسهيلات كبيرة لأغراض البحث.

(٣) من المهم جداً، من هذه الناحية، أن نلاحظ أنه لم يتم تنظيم امتحان درجة الشرف Tripos فى الاقتصاد والفروع المرتبطة من العلم السياسى فى كامبريدج (إنجلترا) حتى عام ١٩٠٣. وقبل ذلك، كان يتم تدريس الاقتصاد بالفعل ولكن إعادة تنظيمه كدراسة مهنية كاملة لم تتحقق. وقد توسع التدريس بعد ذلك بيد أن الفترة كلها لم تشهد 'كلية اقتصادية' كما فى وقتنا الحاضر.

وحتى في روسيا وبعض الدول الألمانية الأخرى، حيث احتل علم الاقتصاد وضعاً مستقلاً أكثر في كليات الفنون والعلوم (الكليات 'الفلسفية') التي وضعت برنامج لدراسة ومنحت درجة الدكتوراه في علم الاقتصاد، كان يوجد أستاذان كاملان في الاقتصاد عادة^(٤) وربما واحد أو اثنان من المحاضرين (privatdozenten). ومن شأن الطلبة الأمريكيين أن يرتعّبوا حينما يعلموا أن مدرساً واحداً كان يدرس الاقتصاد العام، والمالية العامة، والعمل، والنقود والمصارف، و'السياسة الزراعية'، والتجارة الدولية، والتنظيم والسيطرة الصناعية (Industriepolitik) - وكل هذا في ثلاثة مقررات دراسية. ولكن الحلقة الدراسية (حيث يعطى كل أستاذ حلقة دراسية عامة تغطي كل تلك الموضوعات دون تمييز حينما ينتهي الطلبة من وضع تقاريرهم)، ومن ثم الحلقة المتخصصة، كانت قد تطورت لاستكمال المقررات (التي لم يكن كلها معتبراً مع الأسف) ولضمان الاهتمام الفردي على الأقل بالباحثين المنكبين على أطروحاتهم للدكتوراه. وقد أخذ التقدم خطوطاً مختلفة في بلدان أخرى، مع أن طريقة الحلقة الدراسية انتشرت على نطاق واسع. ومع ذلك، فقد قيل الكثير للتعبير عن فكرة تتعلق بحالة للأشياء تفسر الكثير من الصعوبات التي عرقلت تقدم التحليل الاقتصادي وخفضت مستوى كفاءة الاقتصادى العادى إلى أقل مما كان يمكن أن يكون عليه - ويفسر هذا المستوى بدوره تكرار المحاولات غير الهادفة التي لم تنبع من شيء غير عدم المقدرة على الفهم، ويفسر حقيقة من شأنها أن تعقد أكثر من مهمة المؤرخ. من العسير تقديم صورة واقعية ويصعب أن نصف العمل الاعتيادى average حينما تكون هناك فجوة واسعة بين عمل عدد صغير من كبار الاقتصاديين وعمل بقية أعضاء المهنة.

نظمت المهن المتنامية نفسها وهيأت منافذ لنشر إنتاجها الجارى. وليس من الضرورى أو الممكن هنا مرة أخرى أن نذهب أبعد من بضع وقائع مهمة ومألوفة. ثمة ثلاثة محطات مهمة: فقد تم تأسيس Verein fur Sozialpolitik {جمعية السياسة الاجتماعية} عام ١٨٧٢، وتأسيس الجمعية الاقتصادية الأمريكية عام ١٨٨٥

(٤) كان يوجد في عدد من الجامعات الإنجليزية والاسكتلندية مدرس اقتصاد واحد فحسب.

(والجمعية التاريخية عام ١٨٨٤)، والجمعية الاقتصادية الملكية- وهو الاسم الذى تبنته فى آخر الأمر- عام ١٨٩٠. أخذت الجمعية الاقتصادية الملكية على عاتقها تزويد المهنة الاقتصادية بكيان مركزى ومجلة؛ وزودت الجمعية الاقتصادية الأمريكية الاجتماعات السنوية التى نعرفها ببرامج واسعة من المقالات والمناقشات أيضاً. أخذت جمعية السياسة الاجتماعية اسمها من غرض خاص لم يكن 'علمياً' بذاته (انظر الفصل الرابع أدناه)^(٥) وهو يتضمن تعهداً محدداً قرّر موضوعات المناقشات السنوية وروحها معاً فى السنوات الأولى من تقدمها. ولكن الجمعية مالت أخيراً إلى أن تصبح، كما كانت عليه الجمعيتان الأخريتان منذ البداية، جمعية ذات طابع علمى أساساً تغطى كل نطاق علم الاقتصاد. وكان للجمعية جانب آخر أكثر أهمية غاب عن برنامج وممارسة الجمعيتين الأمريكية والإنجليزية: وهو تنظيم البحث الجماعى من البداية team-work research. فقد كان من حق كل عضو فى لجنّتها المركزية اقتراح مشروعات. وتقدّم المشروعات التى تقبلها اللجنة التنفيذية إلى لجان فرعية تشكل بدورها مجموعات من الأعضاء المهتمين وتقدم نتائج تحقيقاتها لمناقشتها فى الاجتماعات السنوية. وقد جرى نشر المقالات الأصلية سوية مع مناقشتها فى المجلدات الثمانية والثمانين من مجلة الجمعية Schriften^(٦). ثمة حجة لصالح، وأخرى ضد، مثل هذا الحجم من العمل الجماعى. ولكن من المهم أن يبقى القارئ فى ذهنه هذا الشكل الأقدم من العمل.

تم توفير منافذ جديدة لنشر العمل العلمى على شكل مجلات جديدة. وفيما بلى بضع منها فقط مما صدر ضمن الفترة المدروسة: the Revue of d'economie politique, the Giornale degli Economisti, the Economic Journal, the

(٥) لقد سارت اللوائح الأصلية للجمعية الاقتصادية الأمريكية إلى حد ما وفقاً للبند الثالث الذى يفيد "تعتبر الدولة كجهاز يشكل دوره الإيجابى أحد الشروط الضرورية للتقدم البشرى"- وهى عبارة قصص بها الإشارة إلى أساس معين للسياسة. ولكن أصبح من الواضح حالاً أن هذا الطرح لا يلائم الطابع الحقيقى للجمعية مما أدى إلى إسقاط البند فى وقت مبكر يعود إلى عام ١٨٨٨.

(٦) فى عمه: Geschichte des Vereins für Sozialpolitik, 1872-1932 (1939: last volume of the Schrift), يصف فرانس بويس Franz Boese- الذى عمل كسكرتير لعدة سنوات- الطريقة التى عمل بها ذلك النظام والنتائج التى قاد إليها. إن بساطة هذا التقرير الشديدة ليس من شأنها إلا أن تجعله أكثر إثارة.

Quarterly Journal of Economics, the Journal of Political Economy, the American Economic Review, the Ekonomisk Tidskrift, Schmoller's Jahrbuch, the Archiv fur Sozialwissenschaft und Sozialpolitik, the Zeitschrift fur Sozialpolitik, und Verwaltung و (التى كانت أصل Zeitschrift fur Nationalökonomie). ولم تكن قواميس الاقتصاد الشاملة جديدة طبعاً أكثر من جدة المجلات المهنية. ومع ذلك، فإن مشروعات تعاونية مثل Palgrave's Dictionary of Political Economy, the New Dictionaire d'economie politique, the Handwörterbuch der Staatswissenschaften كلها الظهور القوى- آنذاك- لعهد جديد و'إنجازاته، وخلافاته التى لا تنتهى، وثمراته الكثيرة، وتخلصه من 'الأصولية' [حقاً؟ ج. شومبيتر] التى يبدو أن الجيل السابق بالغ فيها كثيراً^(٧). كما تم أخيراً تأسيس بعض المؤسسات التى احتل فيها علم الاقتصاد مكان الشرف بصورة أو بأخرى. دعونا نحى المؤسسة الأكثر أهمية إلى حد بعيد: مدرسة لندن للاقتصاد (١٨٩٥)^(٨).

ثمة نقطة أخرى: إن مَنْ يريدون التشديد على أهمية العمل العلمى لأصحاب الاندراجات العلمية، ومراكز البحث، والجمعيات، وما شابه، من شأنهم أن يستنتجوا إن العمل الإنجليزى كان فى أسفل السلم العالمى أو قريباً منه. أما فى الواقع، فقد كان فى القمة. صحيح أن تفوق إنجلترا فى البحث الاقتصادى خلال الفترة السابقة لم يبق بعيداً عن يتحداه. فالعديد من المساهمات الحاسمة، وبخاصة الأصيلية منها، لم تكن إنجليزية إلى حد أكبر مما كان عليه الحال سابقاً. وأن إنجلترا لم تحتفظ بتفوقها إلا بنفس المعنى الذى حافظت فيه على تفوقها فى الصناعة والمالية. ولكنها حافظت عليه بالفعل، وبخاصة من ناحية الهيبة. بيد أن هذا، مرة أخرى، تحقق بفضل قادتها؛ كما أنه يعود أيضاً، وربما أساساً، إلى نوعية 'الخط الثانى': فهو

(٧) هكذا عبّر اللورد كينز عن نفسه بمناسبةيوبيل جمعية: Royal Economic Society عام ١٩٤٠ (Economic Journal, December 1940, p. 409). وينبغى علينا طبعاً أن نأخذ المناسبة بعين الاعتبار.

(٨) انظر خلاصة البروفيسور فون هايك von Hayek الأكثر فائدة حول سيرة تلك المدرسة خلال سنواتها الخمسين الأولى: Economica, February 1946.

يعود ليس فقط إلى الكفاءة المتميزة (وربما أكثر) لمارشال واديجورث بل أيضاً إلى التوافر الكامل تقريباً للكفاءة الحقيقية لدى الآخرين. ومن هنا يأتي الدرس: إن الدرجات العلمية ومراكز البحث ليست هي كل شيء؛ وأن هناك أشياء يتعذر استئجارها أو شراؤها؛ وما لم تتطور هذه الأشياء سوية مع المراكز والدرجات، فإن الأخيرة قد يكون وجودها من قبيل العبث.

٣- خطة الجزء الرابع

تشبه خطة هذا الجزء خطة الجزء الثالث بصورة عامة. ومع ذلك، فلم تتم التصحية بأي شيء مهم من أجل هذا التشابه. فثمة أشياء بدت جديرة بالتشديد رغم أن أهميتها سابقاً كانت معدومة أو ضئيلة والعكس صحيح أيضاً؛ كما بدا الكثير من إعادة الترتيب ضرورياً لأسباب أخرى.

وكما فعلنا من قبل، سوف نهئى أنفسنا للمهمة الرئيسية وذلك بإلقاء نظرة على الخلفيات الاجتماعية- السياسة الاجتماعية (Zeitgeist) - (الفصل الثاني) وعلى التطورات في الحقول المجاورة لأنها أثرت أو كان يمكن أن تؤثر على علم الاقتصاد (الفصل الثالث). ومن يجد من القراء إن هذه المواد زائدة، فإننا نذكره مرة أخرى بأن الوقائع التي ستذكر لا تورد لأجلها هي ذاتها. فعملنا هو تاريخ للتحليل الاقتصادي، تاريخ المحاولات التي بذلها البشر لاستعمال العقل لفهم الأشياء وليس تاريخاً لمحاولات الناس لاستخدام العقل- والإرادة- لمهمة تغيير هذه الأشياء. ثم ترد ملاحظتان حول مجموعتين من الناس والأفكار يسمحان بمعالجة منفصلة: المجموعة التي تركز اهتمامها آنذاك على الإصلاح الاجتماعي والتي اختار قادتها أنفسهم تسمية غير موفقة: 'الاشتراكيون الأكاديميون' socialists of the chair (Kalhedersozialisten)؛ والمجموعة التي سُميت وأسمت هي نفسها بالمدرسة التاريخية (الفصل الرابع)^(٩). يجري تناول الموضوع المثير للخلاف بين

(٩) [أراد ج. شومبيتر أصلاً معالجة هذه الموضوعات في فصلين منفصلين ولكنه ضمهما إلى بعض فيما بعد. ولم يتسن له إكمال الفصل الذي جرى دمجه، ولكن هذا الفصل يُقدم أناءه (الفصل الرابع) بالحالة نفسها التي وُجد فيها.].

الاقتصاديين: الأحكام القيمية سوية مع الفصل الثالث، بينما يجرى تقديم الموضوع الشهير: معركة المناهج (ونظيره الأمريكي: السجل المؤسسى) ضمن الفصل الرابع. إن من شأن هذا الترتيب أن يشوه لوحتنا نوعاً ما لأننا حينما نمضى فى تقديم عرض موجز للكتاب، والمجموعات، والتطورات فى 'الاقتصاد العام' (الفصلان الخامس والسادس)، نكون قد استبعدنا بالفعل اثنين من المؤثرات الأكثر أهمية على هذا 'الاقتصاد العام'. ولذلك، دعونى أناشد القارئ قراءة هذين الفصلين وفق ترتيبهما هذا. يدرس الفصلان الأخيران من هذا الجزء مجموعة من الموضوعات وجدنا من الأفضل أن تُعالج بشكل منفصل. إن الفصل السابع (تحليل التوازن) يناظر^(١٠) الفصل السادس من الجزء الثالث وهو يمنح فالرأس نفس دور الدليل الذى منحه الجزء الثالث لسنيور. ويهدف هذا الفصل إلى تقديم ظهور عناصر النظرية البحتة المعاصرة بطريقة معينة أخشى أن لا ترضى المنظر الحديث مثلما تبدو مرهقة بالنسب لغير المنظر. وقد يكون الأخير على حق بالاكْتفاء بما يتعين عليه قراءته حول هذه الموضوعات فى الفصلين الخامس والسادس. أما ملحق الفصل السابع، الذى يدور حول مصائر نظرية المنفعة ومن تابعها من الكتاب حتى الوقت الحاضر، فيبرز كموضوع قائم بذاته تقريباً ولا تنبغى قراءته إلا من قبل مَنْ لديهم اهتمام خاص بالموضوع.^(١١) إن معالجة موضوعات: النقود، والائتمان، والادخار والاستثمار، والدورات التجارية، بصورة منفصلة فى الفصل الأخير (الثامن) لا تتطلب إلا الملاحظة التالية: فقد فرضت هذه المعالجة المنفصلة نفسها لأسباب تتعلق بالعرض كما حدث هذا الأمر فى الجزء الثالث أيضاً؛ ولكننى إذ اسلم بهذه الضرورة، فلا أريد تكوين الانطباع بأننى أقبل وجهات النظر المتداولة حول النظرية النقدية فى تلك الفترة. وسوف يتضح هذا الأمر أكثر كلما مضينا فى عملنا.

(١٠) [من المؤكد أن شومبيتر كانت لديه بعض الشكوك حول ذلك. إذ ترك ملاحظة بالقلم الرصاص: 'هل يمكن أن يبقى الأمر كذلك'.]

(١١) [عند كتابة: 'Note on Utility'، قصد ج. شومبيتر أن يجعل منها فصلاً مستقلاً ولكنه حولها فيما بعد إلى ملحق للفصل السابع. وكانت الخطة الأصلية تتطلب عشرة فصول ولكنها تقلصت إلى ثمانية كنتيجة لذلك.].

الفصل الثانى

الخلفية والأنماط

١. التنمية الاقتصادية

٢. اندحار المذهب الليبرالى

٣. السياسات

(أ) مذهب حرية التجارة والسياسة الخارجية

(ب) السياسة المحلية و السياسة الاجتماعية Sozialpolitik

(ج) السياسة المالية

(د) النقود

٤. الفن والفكر

(أ) الحضارة البرجوازية ونتائجها المتمرد

(ب) الحضارة البرجوازية وفلسفتها

يتضاءل فهما لحقبة معينة كلما كانت هذه الحقبة أقرب إلينا: وإن أقل فهم هو فهما للحقبة التى نعيش فيها. ولهذا السبب وحده، فإن خلاصة النمط الحضارى sketch cultural pattern للفترة قيد الدرس ينبغى أن نرسمها بعناية ودقة أكثر مما كان ضروريًا بالنسبة للفترة السابقة. وعلاوة على ذلك، فإن النمط الحضارى قد تطور بالفعل على نحو أكثر تعقيدًا فى كل مكان كلما تقدم العمر بالحقبة البرجوازية. ومن الملائم أن يتذكر القارئ ما سبق قوله فى الجزء الثالث (الفصل الثالث) عن موضوع افتقاد النمط الحضارى أو السياسة الاجتماعية zeitgeist فى أى حقبة للتجانس: فالحديث عن هيمنة سياسة اجتماعية zeitgeist واحدة معناه تشويه الوقائع- تشويهها أيديولوجيًا فى معظم الحالات. بيد أن هذه الحقيقة الجوهرية

للسوسيولوجيا الحضارية تسرى على الفترة محل الدرس بصورة قوية. ومن شأن الملاحظات التالية أن تجعل هذا الأمر غاية في الوضوح وذلك مهما تعين علينا تبسيط الأشياء تبسيطاً شديداً.

١ - التنمية الاقتصادية

شهدت الفترة التي نزمع درسها تنمية اقتصادية سريعة هي الأخرى. فقد أصبحت ألمانيا والولايات المتحدة حينذاك قوى صناعية من الدرجة الأولى. ولكن التصنيع في البلدان الأخرى كالنمسا وإيطاليا واليابان وروسيا مثلاً مضى بمعدل لم يكن أقل بروزاً (ولو ليس بالقيم المطلقة، طبعاً). وبعد عام ١٩٠٠، فشلت إنجلترا في أن تتابع هذا المعدل، ولكنها حتى تلك السنة تقريباً حققت زيادة في الثروة يمكن أن تصفها واقعة أن الأجور الحقيقية الإنجليزية للفرد الواحد زادت بحوالى ٥٠ % من عام ١٨٨٠ إلى عام ١٩٠٠^(١). وقد أتاح هذا الأمر للجماهير مستوى معيشياً جديداً كلياً.

ولكن حتى نهاية القرن تقريباً، كان التوسع في المنتج المادى يصحبه هبوط في الأسعار وانتشار البطالة بين العمال وخسائر في الأعمال. وكانت مراحل 'الازدهار' أقصر وأضعف مما كانت عليه مراحل 'الكساد'. وفي الواقع، جرت تسمية الفترة المحصورة بين عامي ١٨٧٣ و ١٨٩٨ بـ 'الكساد العظيم'^(٢) Great Depression. وليس من الصعب تفسير هذه النسخة الخاصة من 'لغز الفقر وسط الغنى'. فمن الممكن تفسير كل الظواهر المشاهدة بواسطة تأثير المنتجات التي تدفقت بفضل الجهاز الإنتاجي الذي توسع في العقدين الأخيرين كثيراً. وفي مجتمع

(١) A. L. Bowley, Wages and Income in the U. K. since 1860, Table xiv, p. 94. وبطبيعة الحال، فهذا لم يعنى سوى أن قائمة الأجور الكلية حافظت على مكانتها النسبية في الدخل القومي الكلى.

(٢) H. L. Beales, 'The Great Depression in Industry and Trade,' Economic History Review, October 1934. فهذا المؤرخ يجعلها تستمر حتى عام ١٨٨٦ فقط. ولكن كل الأعراض التي تبينها تلك العبارة تواصلت لعقد آخر تقريباً.

اشتراكي، كان يمكن الترحيب بفترات كهذه كفترات حصاد. أما فى المجتمع الرأسمالى، فأنها لا تكف عن أن تكون كذلك. ولكن هذا الجانب يضيع كلياً فى خضم المخاوف والمعاناة والسخط الناجم عن اضطراب dislocation البنى الصناعية القائمة الذى هو أول نتيجة للتقدم التكنولوجى أو التجارى. ويوضح المثال التالى هذا الأمر. لقد جلبت التحسينات فى الأرض والنقل البحرى فى السبعينيات والثمانينيات كميات كبيرة من القمح الأمريكى الرخيص إلى أوروبا، الأمر الذى كان يعنى كساداً حاداً بالنسبة للزراعة الأوروبية. وكان هذا الأمر، طبعاً، عنصراً جوهرياً فى زيادة الأجور الحقيقية للعمل الإنجليزى بمقدار ال ٥٠ % التى أشرنا إليها قبل قليل. ولكن المزارعين الأوروبيين وممثليهم لم ينظروا إلى الأمر فى هذا الضوء. ولو أنهم فعلوا ذلك، لاستخلصوا القليل جدا من العزاء منه. فالقطاعات الزراعية كانت مهمة فى كل مكان إلى حد يكفى لأن يعم كسادها على القطاعات الأخرى. ولكن القطاعات الصناعية كانت تمتلك اضطرابات مماثلة خاصة بها، مع أن توضيح هذا الأمر يتطلب مجالاً أكبر. وبمعنى ما، فإن هذه هى اضطرابات على السطح تحدث عند عملية التكيف بعد التحول من مرحلة ازدهار طويلة-الأمد إلى مرحلة أخرى. ولكن الإفلاس كان يمثل الطريقة الوحيدة المتاحة للتكيف بالنسبة لأفراد ومجموعات كثيرة. أما بالنسبة للعمل، فذلك الطريقة كانت تعنى البطالة أو التهديد الدائم بها.

سيجد القارئ أن من السهل تصور المشاكل العملية التى تنتج عن ذلك وردود الأفعال عليها من جانب المجموعات، والطبقات، والأحزاب والحكومات. وعلى أساس هذه الخلفية بالضبط، يتعين علينا أن نرسم بقية هذا الفصل. والأمر واضح جدا إلى حد أن نسيانه يمثل خطورة أقل من المبالغة فى المدى الذى قررت فيه الوقائع المذكورة- أى 'التقدم' وتقلباته معاً- التاريخ السياسى والحضارى. فمثلاً، تفسر تلك الوقائع حقاً الكثير مما نلاحظه من راديكالية الجماهير radicalization: فتمو مستوى المعيشة وظهور إحساس جديد بالقوة قد ساهم فى تلك النتيجة ليس أقل مما ساهم به التهديد بالبطالة. كما أنها تفسر الكثير من الحماس العام للإصلاح الاجتماعى، وظهور الميول للتنظيم الصناعى (وبخاصة من نوع

الكارتل)، وللأنشطة الحكومية المتزايدة، ولعدم الرضا عن النتائج المترتبة على حرية التجارة، بل وحتى لانبعاث الميل مجدداً للروح العسكرية. ولكن الحقيقة الأخرى وهى أن أيًا من هذه الميول لم يبدِ أى علامة على الضعف خلال السنوات الخمسين التى سبقت الحرب، وهى سنوات ذات طبيعة اقتصادية مختلفة تمامًا - بل إن معظمها استجمع قوة دفع إضافية حقًا - ينبغي أن تحذرننا من الاعتماد كثيرًا على مثل هذه التفسيرات. فثمة أشياء أعمق... [كان ج. شومبيتر يريد توسيع هذا القسم].

٢- اندحار المذهب الليبرالى

على العموم، كانت طبقة رجال الأعمال ما تزال تمتلك طريقها طوال الفترة، على الأقل حتى بداية هذا القرن، مع أن هذا الأمر كان كذلك فى الولايات المتحدة أكثر مما فى أوروبا. ولكن الثقة الوادعة لهذه الطبقة فى مزايا سياسة عدم التدخل كانت قد انتهت وإن شعورها السليم كان فى سبيله نحو الانتهاء. فالقوى المعادية كانت تتجمع ببطء وكان يتعين على طبقة رجال الأعمال أن تصل إلى تسوية ما معها. وما هو أهم كان هو تزايد رغبة هذه الطبقة بالتسوية وتبنى وجهات نظر أعدائها^(٣) وهكذا جرى تشويه الليبرالية الاقتصادية^(٤) بتحفظات كانت تعنى التخلي عن أسسها أحيانًا. كما فقدت الليبرالية السياسية، بدءًا من الثمانينيات، سيطرتها على الناخبين على نحو أسرع مما كان يبدو على السطح: ففى بعض

(٣) تميز هذه العبارة بين الانسحاب الإجبارى والانسحاب الاختيارى الذى ترفض التسليم به نظرية متداولة حول السلوك السياسى. فوفقًا لهذه النظرية، ليست ثمة طبقة تتسحب طوعًا. وكل الوقائع التى يمكننى تقديمها لدعم تمييزى سيفسرها أنصار هذه النظرية كانسحاب 'إستراتيجى'. ولكن إذا جرى الاعتراف بتكرار حدوث هكذا انسحابات إستراتيجية، فإن النظرية المعنية تكف عن أن تكون ذات معنى - إذ إن أى 'تسوية' لا يجرى فرضها بالإكراه بصورة مباشرة - هى تسوية إستراتيجية بالتعريف - ما لم يتم إثبات الهدف الإستراتيجى من كل 'تسوية'. وأؤكد، مع أننى لا أستطيع أن أثبت هذا التأكيد هنا، إن هذا أمر ممكن فى بعض الحالات ولكن ليس فى كلها - فمثلاً، ليس فى حالة أصحاب الأعمال 'الأبوبين' أو حالات المجموعات التى تندرج تحت عنوان: الراديكالية البرجوازية.

(٤) حول معنى هذا المصطلح ومصطلح: الليبرالية السياسية، المستخدمَين فى هذا الكتاب، انظر الجزء الثالث، الفصل الثانى أعلاه.

البلدان فقط كألمانيا والنمسا لحقت الهزيمة الصريحة فى جميع الانتخابات بالأحزاب الليبرالية حقاً- بالمعنى الذى يحمله هذا المصطلح فى هذا الكتاب- بينما كانت قوة المنظمات السياسية القائمة وقيادتها فى البلدان الأخرى، وبخاصة إنجلترا من القوة بحيث كان بوسعها تحقيق انتصارات على البرامج الثورية^(٥). ونأمل ألا يحتاج إلى تفسير لماذا إن هذا الأمر ومداه كانا مختلفين فى الولايات المتحدة. فما كان يمكن أن يكون تحليلاً مطولاً يمكن تلخيصه- إذا استثنينا عدداً من المجموعات والحركات التى لم يكن أى منها قوياً إلى حد التأثير على السياسات الوطنية بصورة محسوسة- بالقول إن كل التطرف الذى آل إليه الفرد الأمريكى العادى- وهذا يسرى على الاقتصاديين أيضاً- هو العداء للمنشآت الكبيرة Big Business (الاحتكار القابض curbing monopoly).

وقبل أن نحاول رؤية كيف انعكس هذا الأمر فى تلك الأقسام من السياسة العامة التى نهتم بها أساساً (القسم الثالث)، ينبغى أن نلقى نظرة سريعة على مَنْ أسمىناها القوى السياسية المعادية لمذهب عدم التدخل البرجوازي التى كانت تستجمع قوة الزخم أثناء الفترة. الاشتراكية الأصولية هى القوة الأكثر وضوحاً. ولكنها لم تكن القوة الأكثر أهمية فى تلك الفترة. ومع ذلك، يمكن الافتراض أن سعى هذه القوة معروف لدى القارئ إلى حد أنه تكفيناً بضع ملاحظات للوصول إلى غرضنا^(٦). أولاً، شهدت الفترة تكوين أحزاب ماركسية فى كل البلدان تقريباً. ولكن حتى أكثر هذه الأحزاب نجاحاً: الحزب الاشتراكى الديمقراطى الألمانى، الذى كان عاملاً مهماً فى الشؤون السياسية بحكم نوعية وعدد أعضائه، قد ظلَّ

(٥) وهذا يحل لغزاً ظاهرياً يمكن أن يحير القارئ. فمن المحير حقاً أن نتحدث عن سقوط: الليبرالية الإنجليزية فى فترة كانت قد شهدت انتصارات غلادستون الكاسحة عام ١٨٨٠ وانتصارات السير كامبل-بانرمان Campbell-Bannerman عام ١٩٠٦. ومع ذلك، فإن الحيرة تزول حينما نتذكر أننا لا نهتم باليافطات الحزبية حتى حينما يتعزز استمرار منظمة سياسية معينة بالاستمرار (القوى) للقيادة الشخصية كما كان الحال بالنسبة لحزب غلادستون. وفى الحالة الأخيرة، فإن انشقاق الحرب الليبرالى فى الثمانينيات يوضح النقطة التى أود طرحها. فعند النظر إلى الانشقاق بصورة سطحية، فإنه يكون قد حدث بسبب قضية: الحكم الوطنى الأيرلندى؛ ولكن معظم من تخلو عن الإخلاص لهذه القضية كانت لديهم أسباب أخرى لاتخاذ هذا الموقف: إذ لم يحبوا متابعة السير وراء الجناح الراديكالى.

(٦) القراء الذين يجدون هذا الافتراض فى غير محله يمكنهم مقارنة الأجزاء ذات الصلة من العمل: (H. W. Laiders, Social-Economic Movements 1944).

بعيدًا عن المسؤولية السياسية من حيث المبدأ^(٧) وقلَّ بهذه الصورة إلى حد بعيد من تأثيره العملي عما كان قادرًا عليه حتى في مسائل التشريع الاجتماعي. ولم تكن الأحزاب الماركسية الأخرى مهمة عددًا فيما عدا الحزب النمساوي. إن الأحزاب الاشتراكية غير الماركسية التي تحولت ببطء إلى مجموعات عمل غير اشتراكية non-socialist labour groups والتي لم تشعر بالريبة من التعاون السياسى مع الأحزاب البرجوازية اقتربت من العمل السياسى أو انخرطت فيه هنا وهناك. ولهذه الأحداث - التي أثارت قضية Millerandism^(٨) المثيرة للخلاف - وظهور حزب عمالى فى البرلمان الإنجليزى عام ١٩٠٦ أهمية فائقة طبعًا. ولكن أهميتها حينذاك كانت كعلامة فقط. وبالنسبة لأولئك الذين يقفون على حقائق الأمور، ثمة علامة أخرى أكثر أهمية - وأكثر أهمية من الخطب الثورية الأكثر توهجًا. من المؤكد أن هناك برجوازيين كثيرين ممن يثيرهم عادة مجرد سماع كلمة: اشتراكية. ولكن هناك آخرين ممن يتعاطفون مع الأفكار الاشتراكية ويمنحونها دعمًا خاصًا - بأكثر من المدى المتصور بشكل عام - بصورة أو بأخرى ولو ليس بصورة صريحة دائمًا. ولم يكن تصويت غير الاشتراكيين للأحزاب الاشتراكية فى حالات عدة سوى تعبير عن عواطف مؤقتة طبعًا. ولكن ثمة تزايد فى عدد مَنْ يستحسنون الغايات النهائية للاشتراكية أو يستحسنون الأغراض الآنية للأحزاب الاشتراكية أو يفعلون الأمرين مع إعلانهم بأنهم غير اشتراكيين.

(٧) ليس بوسعنا تناول أسباب هذا الموقف. ولكن المسألة لم تكن مسألة عناد بصورة تامة a matter of sour grapes.

(٨) أصبح الكسندر ميليراند Alexander Millerand، رئيس الجمهورية الفرنسية فيما بعد، محاميًا مشهورًا فى قضايا العمل ودخل البرلمان radical-socialiste {كراديكالى اشتراكي}. لم يكن ال radicaux-socialistes اشتراكيين بالمعنى الحزبى بل إنهم شكلوا الجناح اليسارى من الراديكالية البرجوازية: حيث يغير اسم الحزب على نحو جيد عن الوضع الاجتماعى للرأسمالية العصرية التى أحاول وصفها. ومع ذلك، فقد جعل ميليراند موقفه اشتراكيًا بشكل محدد أكثر لاحقًا؛ وأصبح قائدًا لمجموعة من ٦٠ نائب يحملون قناعات اشتراكية إلى هذا الحد أو ذاك حينما قبل عام ١٨٩٩ العمل فى إدارة والدك-روسو Waldeck-Rousseau. وهكذا أصبح هو أول اشتراكي، والوحيد لفترة من الزمن، يعمل ضمن وزارة برجوازية فى أحد البلدان الكبيرة. وهكذا صار اسمه يشير إلى هذه الممارسة التى لم تتسبب فى أى صعوبات فى بلدان الشمال، رغم ذلك.

اكتسب نمو المجموعات والأحزاب الراديكالية البرجوازية أهمية عملية أكبر حالاً. ثمة اختلاف كبير بين هذه المجموعات والأحزاب من حيث النوع والبرنامج - وهى تتراوح من المجموعات الليبرالية من النوع القديم التى تنادى بفقرات مهمة من الإصلاح الاجتماعى إلى هذا الحد أو ذاك إلى مجموعات من المتقنين انحدرت من قدامى الراديكاليين الفلسفيين والذين لم يختلفوا إلا قليلاً، إنْ اختلفوا أصلاً، عن الاشتراكيين 'الإصلاحيين' reformists مثل ادوارد بيرنشتاين (انظر الفصل الرابع، القسم الثامن، أدناه). أما لماذا كان للراديكاليين من النوع الأكثر تقدماً وزن سياسى لا ينسجم مع مقدرتهم الانتخابية - أو دون أن يكون لهم أى مقدره قط كما هو شأن الفابيين الإنجليز^(٩) - فهذا الأمر يعود إلى أن مساعدتهم كانت ضرورية فى الغالب للحكومات فى الأوضاع غير المستقرة حينما كان الراديكاليون يشكلون أحزاباً خاصة بهم وحينما كانوا يشكلون الجناح اليسارى من حزب أكبر له طبيعة مختلفة. فتلك الحقبة كانت تتميز بهذا الوضع بالذات.

من الممكن اعتبار الراديكالية البرجوازية كمجرد نتاج ثانوى لتنامى فكرة الاشتراكية. وأن الأخيرة كانت دون شك نتاجاً لمجتمع يعتنق سياسة عدم التدخل laissez-faire society: فلا يحتاج المرء أن يكون ماركسياً لى يدرك إن نظام المشروع الخاص يتطور باتجاه شكل اشتراكى من التنظيم. والوقائع التى ما نزال نناقشها لحد الآن، مهما كانت تنذر بالشؤم بالنسبة للترتيب البرجوازى للأشياء، فهى جزء من هذا الترتيب نفسه وهى 'طبيعية' تماماً بهذا المعنى. ولكن ثمة وقائع أخرى لا تتماشى مع مخطط أو منطق التطور الرأسمالى. إن قسماً من هذه الوقائع لا يثير أى صعوبات بالنسبة للتحليل، ولكن قسماً آخر منها يفعل ذلك.

بالنسبة للفئة الأولى، لن تواجهنا صعوبة فى فهم إن التطور الرأسمالى السريع من شأنه استئثار مقاومة الفئات التى يهددها هذا التطور ولا تستطيع تكييف نفسها لشكل آخر من الوجود. وكان هذا هو حال المزارعين الأوروبيين - وكذلك

(٩) حول الفابيين Fabians: انظر أدناه [أراد ج. شومبيتر مناقشة موضوع الفابيين فى الفصل الرابع، القسم الأول، ولكن لم يتم إكمال هذا الفصل وهذا القسم].

المزارعين الإنجليز، وبخاصة الأيرلنديين - والحرفيين المستقلين فى القارة. والملأكانوا على نفس المركب، طبعاً. ومن الطبيعى جداً أن يثير هؤلاء النخب عند صدور تشريع يهدف إلى تقديم الحماية- مما قد يخرق عقيدة الليبرالية الاقتصادية- وأن يدعموا مجموعات وأحزاب كانت معادية للرأسمالية، مع أنها غير اشتراكية^(١٠). ومع ذلك، ليس بوسعنا التأكد من أن هذا هو كل شىء حتى فى حدود هذه الظواهر. فكثير من ممثلى هذه المجموعات لم يشعروا بأنهم بصد وضع اقتصادى صعب بشكل خاص: فهم، بخلاف الراديكاليين البرجوازيين، كانوا يشعرون بأن المخطط الليبرالى ككل، بما فيه جوانبه القانونية والأخلاقية، كان خاطئاً أساساً.

أما الفئة الثانية فتتألف من حالات يبرز فيها نفس الموقف بصورة أفضل وهى تطرح الكثير من مشكلة معينة لأنها لا ترتبط بالتزام اقتصادى محدد بمثل هذا الوضوح. فقد حدث تغير مهم فى الأقطار التى تشكل البيروقراطية فيها عاملاً قوياً وفى بلدان، كألمانيا، رعت فيها هذه البيروقراطية الليبرالية الاقتصادية فى الفترة السابقة: فدون أن تصبح معادية بعد بشكل واضح، بدأت البيروقراطية تنظر إلى طبقة رجال الأعمال بطريقة مختلفة- كشىء يمكن السيطرة عليه وتوجيهه بدلاً من تركه وحيداً، على غرار ما تفعل البيروقراطية الأمريكية فى الوقت الحاضر. أظهرت طبقة أصحاب اليخات البيضاء التى ازداد عددها كثيراً، والمجموعات الأخرى التى أخذت تحمل اسم 'الطبقة الوسطى الجديدة'- حيث كانت الطبقة 'القديمة' تتألف من المزارعين والحرفيين والتجار الصغار- مقاومة قوية وواضحة للدعاية الاشتراكية. ولكن الأقلية التى باشرت الليبرالية الاقتصادية أو السياسية بمفهومنا لم تكن أكبر بكثير، إن كانت أصلاً، من الأقلية التى أصبحت اشتراكية. أما الباقيون فقد طوروا مواقف وبرامج إصلاحية خاصة بهم. أخيراً، ثمة أفراد ومجموعات فرعية من كل الطبقات أفلحوا فى عدم جعل الليبرالية الاقتصادية والسياسية تعمل بصورة مشابهة- رغم احتفاظها بالاسم فى الغالب. فرغم كل

(١٠) فى إنجلترا، لم تتطور الأشياء بهذه الصورة أو أنها تطورت هكذا على نحو أقل وضوحاً على الأقل. ولكن لا ينبغى أن تؤخرنا أسباب ذلك، مع أنها أسباب مهمة إلى أقصى حد.

الاختلافات فى المصالح والاهتمامات الثقافية التى كانت موجودة فيما بينهم بالتأكيد، ولكن ثمة شىء مشترك: وهو الوضع المركزى أو المسيطر الذى أعطوه للدولة State أو البلد Nation - الدولة الوطنية National State. ومن هنا يُشار عادة إلى هذه الميول بأنها 'وطنية' nationalist أو 'ميركنتيلية جديدة' neo-mercantilist أو 'إمبراطورية' (١١) Imperialist، ولكن رغم أن هذه العبارات وغيرها تعبّر بالفعل عن جوانب فردية من موقف يصعب تعريفه مثلما يصعب تفسيره، بيد إنها لا تعبّر عن الموقف كله. ويوجد لدى الماركسيين صيغة بسيطة من شأنها موائمة هذه الظواهر مع مخطّطهم - وقد تكون هذه الصيغة هى الصيغة الأبسط ومفادها أن الإمبريالية هى المرحلة الأخيرة (أو الورقة الأخيرة) من الرأسمالية. كما يطرح علم النفس الاجتماعى المؤلف صيغ بسيطة أخرى. وليست لدى أى صيغة وينبغى على الاختصار على توضيح أننا ما نزال ننظر فى جذور المذهب الشمولى الحديث modern totalitarianism.

ثمة حركة أخرى تختلف تمامًا عن هذه الحركة من حيث طبيعتها ولكنها تشبهها تمامًا فى عدائها للبريالية الاقتصادية والسياسية بمفهومنا وهى حركة يسهل أكثر تعريفها ذلك لأنها كانت قد عرفت نفسها. ولغرض الاختصار، نقوم، للتعبير عنها، بتبني الاسم المعتاد ولكن المضلل: الاشتراكية المسيحية Christian Socialism. ولغرض الاختصار أيضًا، نقصر على الفرع الكاثوليكي الرومانى منها وهو الوحيد الذى شكل أحزابًا كبيرة مستقلة (مثل حزب المركز الألمانى) تحمل صفة فريدة: إذ يجمعها حصرًا الولاء الدينى لأعضائها الذين كانوا، فيما عدا ذلك، يختلفون فى المصالح الاقتصادية والمواقف السياسية إلى أقصى حد ممكن - من التطرف فى النزوع المحافظ إلى الراديكالية المتطرفة - ولكنهم كانوا يتعاونون بشكل فعال، رغم ذلك.

بقت الكنيسة الكاثوليكية فى قارة أوروبا طوال الفترة هدفًا للتهجمات التشريعية والإدارية من قبل الحكومات والبرلمانات المعادية - علمًا بأن العداء فى

(١١) أو إمبريالية.

إنجلترا لم يتجاوز الحديث العنيف عن 'الفاتيكانية' Vaticanism - وهو ما كان متوقعاً في عالم 'ليبرالي' طاع. والأمر الذي لم يكن متوقعاً هو أن هذه التهجّمات تراجعت وأنها تركت الكنيسة الكاثوليكية وهي أقوى مما كانت عليه لقرون. لقد انحدر المذهب الكاثوليكي السياسي political catholicism من انبعاث المذهب الكاثوليكي الديني. وإذا نظرنا إلى الخلف، فلا نجد مجرد التشديد على وجهة النظر الكاثوليكية من جانب أفراد لم يهجروها قط بل نجد أيضاً ثمة تغييراً في مواقف أفراد كانوا قد هجروها: فحوالي عام ١٩٠٠، كانت ثمة ملاحظة عامة مؤداها أن الأفراد الأكبر سناً والشيوخ في كل عائلة كاثوليكية كانوا علمانيين وليبراليين وأن الأفراد الأكثر شباباً مؤمنون و'معتنقون' clerical. وهذه هي واحدة من أهم الرقع الملونة في لوحتنا. ولكن ثمة واقعة أهم من زاوية أغراض هذا الكتاب. فالمذهب الكاثوليكي السياسي كان قد دعم الإصلاح من البداية ولا أستطيع أن أفعل سوى الإشارة إلى أسماء: دي مون de Mun، وفون كيتلر von Ketteler، وفون فوغلسانك von Vögelsang^(١٢). لم يكن اهتمام الكنيسة الكاثوليكية هذا بظروف العمل جديداً وأن كل ما جرى هو تكييف تقليد قديم لمشاكل تلك الحقبة^(١٣). ولكن الشيء الجديد تطور عند نهاية القرن، أي ثمة مخطط محدد للتنظيم الاجتماعي قام، بالاستفادة من العناصر القائمة من التعاون بين المجموعات، بتصور مجتمع - دولة - يعمل وفقاً لتعاونيات مهنية تدار ذاتياً وفقاً لإطار من التعاليم الأخلاقية. وهذه هي الدولة 'التعاونية' corporative state التي ألمح إليها المنشور البابوي (1931 Quadragesimo Anno). ولكننا لن نشير لهذه الدولة أكثر في هذا الكتاب لأنها برنامج معياري normative program وليست قطعة من التحليل. وأكتفى بالإشارة للكاتب الذي قدّم لهذا المفهوم عن المجتمع أكثر من أي فرد آخر: هنريك بيش، س. ج. (١٤).

(١٢) يجد القارئ خلاصة في العمل: (F. S. Nitti, Catholic Socialism (English trans. 1895)
 (١٣) جرى توسيع الاعتراف الرسمي ليشمل الرعاة الكاثوليك لقضية العمل في منشورات بابوية عدة، وبخاصة (1891) Rerum Novarum.
 (١٤) لم يكن ذلك الرجل العظيم Heinrich Pesch, S. J. (١٨٥٤-١٩٢٦) بارعاً بشكل خاص في الاقتصاد التحليلي مما يفسر لماذا أننا لن نشير مرة أخرى إلى بحثه Lehrbuch der Nationalökonomie (1905-23)، رغم أن نظائره هذا البحث قليلة من ناحية علميته. كما تبرز أعماله الأخرى مذهبه على نحو أفضل مثل (1896-9) (Lebiralismus, Socialismus, und christliche Gesellschaftsordnung).

أخيراً، ما هو موقف الاقتصاديين؟ من العسير الإجابة على هذا السؤال لأن جمهرة الاقتصاديين كانت تمزقهم الخلافات التي فرقّت الكيانات السياسية. فالأفراد المتمسكين بالمعتقد الليبرالي في كليته ما يزالون كثيرين - وبخاصة في الولايات المتحدة. كما كانت هناك مجموعات ليبرالية بالمعنى المحدد وهي تشكل المثال البارز - في أوروبا، كانت هناك مجموعة باريس (انظر الفصل الخامس، القسم الثالث، أدناه). ولكن مارشال أعلن تحاطه مع أهداف الاشتراكية وتحدث، دون تفسير وتحفظ، عن 'شروع عدم العدالة'؛ كما أنه كان أول منظر يثبت نظرياً أن سياسة عدم التدخل، حتى في ظل المنافسة التامة وبغض النظر عن شروع عدم العدالة هذه، لم تؤمن أقصى حد من الرفاه للمجتمع ككل؛ وأنه فضل فرض الضرائب العالية بأكثر مما يتماشى مع الليبرالية الحقيقية. وهذا الموقف يسرى على معظم الاقتصاديين الإنجليز. فإذا قمنا بتصنيفهم 'كليبراليين'، فهذا لأنهم ساعدوا مذهب حرية التجارة على تبوء منزلته القوية، وربما أيضاً لأننا لا نعبأ كثيراً بتغير عقيدة الحزب الليبرالي الإنجليزى، الذى ناقشناه آنفاً. وكان معظم الاقتصاديين الألمان بمثابة ركائز للسياسة الاجتماعية Sozialpolitik وينفرون كلياً من 'مذهب سمث' Smithianism أو 'مدرسة مانتشستر' (١٥). وعلى العموم، كان علم الاقتصاد فى جميع البلدان يدعم سياسياً الميول المضادة للمذهب الليبرالي أكثر مما يدعم الميول الليبرالية التى كانت ما تزال سائدة. وبهذا المعنى، يمكننا أن نقول إن الاتحاد بين علم الاقتصاد والمذهب الليبرالي - وبين علم الاقتصاد والمذهب النفعى، مع استثناءات - كان قد أنكسر.

= وأدعو القارئ إلى الرجوع إلى الكاتب الذى يمكن اعتباره تلميذه فى نظري: O. von Nell-Breuning, *The Reorganization of the Social Economy* (English trans, 1936). وقد جعلت إساءات التفسير الماركسية والليبرالية معاً فهم مذهب بيث أكثر صعوبة، كما فعل هذا أيضاً اتجاه - يضم الأصدقاء والخصوم على حد سواء - يربط المذهب بقوة بوجهات النظر السكولائية. وبطبيعة الحال، ثمة خلفية وأجدة من الفلسفة الاجتماعية والأخلاقية، ولكن هناك تشابه قليل بين المشاكل التى تصورها مولينا، مثلاً، وبيث.

(١٥) كان هناك دائماً ليبراليون حقيقيون بالمعنى الغلاستونى حتى فى ألمانيا. ولكنهم كانوا قلة ولا يتمتعون بقبول واضح بين زملائهم. وقد أكد شمولر ذات مرة علناً أن الاقتصادى 'السمثى' لا يصلح لنيل كرسي الأستاذية. ولم يذهب إلى هذا الحد حتى أنصار البرنامج الجديد الأمريكى New Dealers. وهذه النقطة يوضحها سجل اقتصادى أكثر من مقتدر من ذلك النوع مثل يوليوس وولف Julius Wolf. فقد كان وولف مناصراً للرأسمالية بقوة - فحصد الجفاء كنتيجة لذلك.

٣- السياسات

عكست الأحداث فى جميع دوائر السياسة العامة كلاً من ليبرالية تيار مذهب عدم التدخل الذى ما يزال سائداً والتيارات المضادة له التى كانت تدل على إعادة توزيع القوى السياسية والمواقف الجديدة التى جرى التلميح إليها فى القسم السابق.

(أ) مذهب حرية التجارة والسياسة الخارجية تتبأ مراقبون كثيرون - من بينهم م. تشيفالر - بصورة وثيقة جوالى عام ١٨٧٥ بأن مذهب حرية التجارة الشامل والكامل سيسود قبل انقضاء القرن. كما توقعوا ضمناً وصراحة انتصار أسس وممارسات السياسة الخارجية التى ترتبط بمذهب حرية التجارة مثل حسم الخلافات على أساس التنازلات المتبادلة أو التحكيم، وخفض التسليح، والنظام المعدنى الأحادى العالمى (الذهب)، وما شابه ذلك. وهذه التوقعات لم تكن حينذاك غير معقولة، كما تبدو لنا حالياً. ذلك لأن تلك الأشياء هى حقاً من أساسيات الليبرالية الاقتصادية والسياسية بمفهومنا وأن التوقعات التى تستند على منطق نظام سائد لا يمكن اعتبارها غير معقولة. وعلاوة على ذلك، كان هناك أكثر من استنتاج منطقي يدعمها حتى نهاية القرن. فقد ساندت إنجلترا مذهب حرية التجارة، وأن القوى الأخرى لم تبعد عنه إلا ضمن حدود معينة^(١٦). كانت هناك عدة حروب كبيرة. ولكن ينبغى أن نحسب حساب البقايا والأوضاع الموروثة. وعلاوة على

(١٦) فقد عادت فرنسا إلى تقليدها الحمائى - ولكن بشكل معتدل - بمجرد أن أصبحت قادرة على ذلك بعد سقوط نابليون الثالث. وواصلت ألمانيا فى البداية سياستها القائمة على حرية التجارة تقريباً. فإصلاحات بسمارك الجمركية كانت تصب فى الاتجاه الحمائى، ولكنها تفعل هذا بصورة مخففة جداً إذا قارناها بالمقاييس الحديثة. وسياسة المعاهدة التى سار عليها خليفته كابريرى تمثل محاولة للعودة إلى نظام لم يختلف جوهرياً عن مذهب حرية التجارة. ويفسر ضغط المصالح الزراعية ومصالح الصناعات الثقيلة المياسة الحمائية الهادفة أكثر - ولكنها ما تزال معتدلة - التى أخذ بها فيما بعد. أما الولايات المتحدة، فقد شددت مجدداً على التقليد الحمائى فى التسعينيات. كما واصلت روسيا وأسبانيا سياستها الحمائية. ولكن على الإجمال، وبالمقارنة بما حدث فى، ومنذ، الحرب العالمية الأولى، من الصحيح تقريباً القول نظرياً وعملياً إن 'حرية التجارة أساساً' كانت تسود العالم. ولا يمكن، إلا وفقاً لأسس انتصار حرية التجارة المتطرفين، أن نسمى ذلك العالم عالمًا حمائياً، وبخاصة إذا استثنينا الولايات المتحدة روسيا وأسبانيا. وهذا يسرى أيضاً على استعمال أدوات السياسة الخارجية الأخرى غير التعريفات. وقد جرى إلغاء الاستثناء الأكثر أهمية: المساعدات الممنوحة للسكر فى القارة ضمن الفترة نفسها.

ذلك، فإن تشكيل المحكمة الدولية فى لاهاي والحالات الكثيرة من تسوية الخلافات بواسطة التحكيم كان يعد بالتقدم صوب حالة هادئة وإن غير سلمية. وحتى عام ١٩٠٠ (تقريباً)، ظل الإنفاق العسكرى ضئيلاً نسبياً فى كل مكان^(١٧) وأن مقاومة وزراء المالية له لم تكن غير موفقة^(١٨). لقد وسّعت إنجلترا وفرنسا من إمبراطوريتهما كثيراً، وأن ألمانيا وإيطاليا أخذتا الخطوة الأولى نحو المشروع الاستعمارى بواسطة الاستعمال الوقح للقوة. ولكن حتى هنا، فإن المراقب 'الليبرالى' آنذاك يمكنه أن يستمد العزاء من وقائع معينة. إذ إن أهمية التجلى القوى للموقف 'الإمبريالى' كما فى معاملة إنجلترا لجمهوريات البوير Boer republics، مثلاً، تقلل من شأنها بصورة ملموسة واقعة التصدى القوى لهذه السياسة فى كل مكان من جانب قسم من الحزب الليبرالى وواقعة أن زعيم هذا الحزب (السير هنرى كامبل-بانرمان Henry Campbell-Bannerman) حقق نصراً باهراً فى الانتخابات بعد ذلك بقليل (١٩٠٦).

إن معرفتنا بالنتيجة هى وحدها التى تدفعنا إلى أن نضع تفسيراً مختلفاً لتلك 'الاستثناءات' و'الارتدادات' وكذلك لأشياء مثل توسيع الأسطول الألمانى، والتحضيرات العسكرية لحكومة بلفور، وصخب ألمانيا، وسياسة entente {التحالف} الفعالة التى انتهجها إنجلترا. ومع ذلك، فمن الصحيح أن كل هذا، بما فيه هذه 'الاستثناءات'، يمثل موقفاً جديداً كان قد تطور بوجه مقاومة الليبرالية الغلادستونية وانتزع أفضل ما فيها^(١٩) عند نهاية الفترة، ويشهد على هذا سباق

(١٧) جرت المقارنة نسبة إلى الدخول القومية وإلى مجاميع الميزانية.

(١٨) وقد قدم معظم هؤلاء الوزراء استقالتهم حينما تبدل الجو. والاستثناء البارز هو بوهم-باورك الذى استقال بسبب تقديرات الجيش عام ١٩٠٤ (انظر الفصل الخامس، القسم ٤، أدناه).

(١٩) دعونى أشير مرة أخرى إلى حقيقة أن هذا الموقف يسمح بتفسيرين مختلفين: التفسير الأول الذى يمكن تلخيصه بالفرضية القائلة إن 'الإمبريالية' هى المرحلة الأخيرة من تطور الرأسمالية* والذى يعنى الاعتقاد بأن المصالح الرأسمالية أصبحت 'إمبريالية' فى ظل الشروط الجديدة من الإنتاج كبير الحجم - مؤدية إلى الإغراق، زيادة التكاليف-الأجور wage costs، وهكذا؛ والتفسير الآخر الذى يمكن تلخيصه بالفرضية القائلة إن البرجوازية، بعد أن فقدت السيطرة، قبلت بالسياسات 'الإمبريالية' مثلما قبلت بأشياء أخرى - منتزعة أفضل ما فيها، طبعاً - لم تكن تتماشى مع خطها. ولكن ليس من المهم كثيراً بالنسبة لغرضنا أى من هاتين النظرتين نقبل نحن. فحقيقة ظهور موقف جديد يختلف عن العقيدة الليبرالية هى أمر مؤكد وهذا يكفيننا.

التسلح والأعراض الواضحة الأخرى. إن هذا الموقف 'الإمبراطورى' أو 'الميركنتيلى الجديد' كان موقفاً عاماً. ولكنه يتجلى بوضوح كلاسيكى فى الحملة الحمائية فى إنجلترا ('إصلاح التعريفات')، التى ارتبطت بالقيادة الباهرة لجوزيف تشامبرلين Joseph Chamberlain، رغم أنها انتهت إلى الفشل آنذاك. كانت الرغبة بالتوسع الإمبريالى Imperial Preference، وليس الحماية بحد ذاتها، هو العنصر الجوهرى فى البرنامج: وهكذا فإن حجج الاقتصاديين حول مزايا أو عيوب التعريفات الجمركية فشلت كلياً فى مواجهة القضية الحقيقية - قضية الإمبريالية.

(ب) السياسة المحلية والسياسة الاجتماعية Sozialpolitik عند نهاية الفترة السابقة، كف توسيع حق الانتخاب وشمول فئات جديدة به عن أن يكون اختراعاً كانت الأحزاب الليبرالية تطرحه كواحد من ممتلكاتها. وقد جلبت الفترة المدروسة توسيعات جديدة بشرت بحق الاختراع العام مع أنها لم تصل إليه. وهذا يتماشى طبعاً مع التيار الليبرالى؛ ولكنه كان عاملاً قوياً فى خلق التيارات المضادة. وتتمشى بقية السياسة المحلية مع هذا الأمر بصورة عامة ومع استثناءات لا تتبغى أن نعطلنا. فى حق السياسة الصناعية، بدأت بالظهور أولى الإجراءات على صعيد سياسة وضع الضوابط أو السيطرة regulation or control مثل قانون التجارة الخارجية الذى أخضع الأسعار التى تضعها المرافق للمراجعة القانونية، وقانون شيرمان المناهض للترسّات - وهذه أمثلة أمريكية^(٢٠). ولكن السياسة الحكومية لوضع الضوابط أو السيطرة تبقى 'كتداخل' interference - وهو مصطلح لا يعنى عدم الاستحسان بالضرورة بل يشير، كما يبدو، إلى رأى مفاده أن النشاط التشريعى أو الإدارى فى مجال الصناعة يتطلب تمييزاً خاصاً فى كل حالة منفردة أو مجموعة من الحالات. ومع ذلك، فالأهم كان هو الموقف الجديد من الإصلاحات الاجتماعية لصالح العمل: Sozialpolitik {السياسة الاجتماعية}.

(٢٠) ينطوى التفسير على صعوبات فى الغالب. وهكذا، فمن الممكن تفسير قانون شيرمان المناهض للترسّات Sherman Anti-Trust Act كخطوة للدفاع عن المنافسة، كواحد من العناصر الجوهرية للمخطط الليبرالى للأشياء. وهذه هى أيديولوجيته حقاً. ولكن القانون يتحمل تفسيراً آخر يضعه فى التيار المضاد بمعنى ما، أى كتعبير عن موقف جديد من مصالح الأعمال.

إن الإصلاحات التى تم تنفيذها بالفعل تتألف بشكل رئيسى من: (أ) التشريع الذى يمكن الحكومات من اتخاذ موقف مختلف من العمل المنظم والإضرابات (فى إنجلترا، جرى اتخاذ الإجراءات الحاسمة فى نهاية السبعينيات فى ظل حكومة دزرايلى (Disraeli)؛ (ب) التشريعات حول ساعات العمل وظروف العمل الأخرى (والمثال الإنجليزى هو إدخال يوم العمل من ثماني ساعات فى المناجم عام ١٩٠٨)؛ (ج) التأمين الاجتماعى (ضد الإصابات، والمرض، والشيخوخة، والبطالة فى آخر الأمر). وقد أخذت ألمانيا الصدارة فى هذا المجال (قوانين ١٨٨٤، ١٨٨٧، والتشريعات الصادرة فى التسعينيات التى وسعت هذه القوانين) ولكن معاشات الشيخوخة الممولة من قبل صاحب العمل فقط non-contributory pensions التى صدرت فى إنجلترا فى ظل حكومة كامبل-بانرمان Campbell-Bannerman والإجراءات الأخرى التى اتخذتها حكومة أسكوذ Asquith أشرت باتجاه حصول تقدم مهم تجاوز المثال الألماني. وفى الولايات المتحدة، لم يكن ثمة شيء من هذا النوع باستثناء بعض تشريعات صدرت فى ولايات منفردة. أما فى أوروبا، فقد تقدمت كل البلدان على هذه الخطوط ولو على درجات مختلفة من السرعة.

ومع ذلك، فإن الشيء المهم بالنسبة لنا ليس هو ما كان قد تحقق بالفعل. كما أننا لا نهتم أساساً بالسؤالين: إلى أى حد يمكن موازنة الإجراءات المتخذة فعلاً مع المخطط الليبرالى؛ وإلى أى حد تعنى هذه الإجراءات مجرد استمرار السياسات الأقدم- السياسات الأقدم للدولة الليبرالية، أو الدولة الأبوية paternalistic بخلاف ذلك. من المؤكد أنه يمكن إلى حد ما الإجابة على كلا السؤالين بالإيجاب؛ فقد حملت السياسة الاجتماعية Sozialpolitik منطلقاً جديداً أقل مما أراد أنصارها وخصومها التسليم به. ولكن ما يهمنا هو: الروح الجديدة التى صدرت تلك الإجراءات على أساسها، الموقف الجديد منها الذى أخذ به قسم كبير من الجمهور البرجوازى، وحقيقة أنها فهمت- مرة أخرى: من قبل الأصدقاء والأعداء معاً- كحلفاء أولى من مخطط أوسع لإعادة البناء. إن هذا الارتباط بإعادة بناء المستقبل أساساً هو الذى يضع السياسة الاجتماعية فى التيار المضاد حتى حينما تمتعت بدعم الأنواع الجديدة من الليبراليين الإصلاحيين تمييزاً له عن دعم الراديكاليين من

ناحية والمحافظين من ناحية أخرى. أخيراً، من المهم أن نلاحظ العلاقة التي أيدت فيها السياسة الاجتماعية الإمبريالية أو النزوع الوطني nationalism أو الميركانتيلية الجديدة. إن هذه العلاقة لم تكن شاملة، أى أنها لم تكن قائمة فى مخطط نوع واحد من المؤيدين: الراديكاليين البرجوازيين. فحيثما جهز هؤلاء الاحتياطي الرئيسى من المؤيدين، كما فعلوا فى إنجلترا، فإن العلاقة فشلت فى أن تتجلى على السطح. ولكن بوجود رجال من نوع جوزيف تشامبرلين Joseph Chamberlain، فإن الإصلاح الاجتماعى والإمبريالية كانا يكملان أحدهما الآخر حتى فى ذلك البلد. ويتجلى هذا الأمر فى ألمانيا بوضوح أكثر. ولكن لم يتسن فهم ذلك العهد نظراً إلى أن الذين كان تأكيد الذات الوطنية والسياسة الاجتماعية مجرد وجهين لعملة واحدة بالنسبة لهم لم يتم أخذهم بنظر الاعتبار.

(ج) السياسة المالية نتوقع أن يتجلى التيار والتيار المضاد بوضوح خاص فى حقل السياسة المالية نظراً لعدم قدرة أى شىء على عكس طابع مجتمع وحضارة ما مثلما تعكسه السياسة المالية المتبناة فى القطاعات الاقتصادية فى المجتمع. ويتجلى هذان التياران هكذا حقاً.

فمن ناحية، ظلت الميزانية المتوازنة- بل الميزانية التى تُظهر بعض الفائض بقصد استعماله لتسديد الدين- تشكل بنذاً أساسياً من المعتقد المالى، مع أن الممارسة غالباً ما أخفقت فى مراعاته؛ ثم إن فرض الضرائب كان لغرض زيادة الإيراد فقط ولم يكن الهدف منه إحداث أى تأثيرات أخرى باستثناء ما يتعذر تجنبه؛ وكان يتعين اقتصار الإنفاق على الأغراض 'الضرورية' حتى تبقى الضرائب متدنية قدر الإمكان. لقد تمسك غلادستون Gladstone (وزير مالىته) بهذه الأسس بشكل ثابت. وقد فعل هذا أيضاً غوشن Goschen: وزير مالية إدارة سالزبورغ الثانية (١٨٨٦-١٨٩٢)، وكذلك كل وزراء المالية فى القارة كلما كانوا قادرين على فعل ذلك- وهم من يحتمل أن تضيع أسماءهم فى التاريخ مثل ريموند بوينكار Raymond Poincare، ويت Witte، بيرسون Pierson، بوهم-باورك^(٢١) وميكويل

(٢١) بالنسبة لبيرسون، انظر الفصل الخامس، القسم السادس، أدناه.

Miquel. يمكن الاستشهاد بالثلاثة الأخيرين كأمثلة على تقدم يتجاوز مالية غلادستون - وهو تقدم صاحبه في إنجلترا جزئيًا إدخال الضريبة الإضافية عام ١٩٠٩ - ويمكن القول إنه ما يزال يتمشى مع مخطط ليبرالية مذهب عدم التدخل: أى فرض ضريبة دخل تصاعدية على الدخل الكلى للأفراد مما يصرحون هم به، وهى ضريبة كانت تختلف كليًا طبعًا عن ضريبة الدخل بالمعنى الإنجليزي لهذا المصطلح. لقد تعودنا على هذا الأخير إلى حد أننا فقدنا الإحساس بجرأة ذلك الابتكار. ولكن إذا تخيل القارئ أن أى بلد كبير آنذاك (بداية التسعينيات) لم يُدخل شيئًا يشبه تلك الضريبة وأن هبة النظام الإنجليزي المستحقة حينذاك إنما تتأتى من نجاحه الاقتصادي والإدارى، فإنه سيدرك عظمة ذلك الإنجاز المرتبط بوزير مالية بروسيا يوهانس فون ميكيويل Johannes von Miquel (١٨٩١-١٨٩٣) ووزير مالية النمسا بوهم-باورك^(٢٢).

ومن الناحية الأخرى، فقد أكدَّ التيار المضاد نفسه بصورة ظافرة: إذ جرى خرق المبادئ الثلاثة التى أُشيرَ إليها. إن المبدأ الأول: الميزانية المتوازنة، أو بالأحرى الميزانية مع فائض، لم يُخرَقَ عن قصد قط بقدر ما أعلم إلا إذا فسرنا بهذا المعنى برنامج فريسينيه Freycinet program لإعادة البناء بعد الحرب الفرنسية-الألمانية وبرنامج التنمية اليابانى بعد الحرب الصينية-اليابانية^(٢٣). وتواصل اعتبار التمويل بالعجز مبدأ deficit financing كشيء تافه وغير جدير بالحكومات المحترمة. ولكن المبدأين الآخرين فقدنا تدريجيًا تأثيرهما على المدارك السياسية: فمثلًا، كانت ضريبة العقار التصاعدية لدى السير ولیم هاركورت William Harcourt (١٨٩٤) و'الميزانية الشعبية' لدى لويدي جورج Lioyd George

(٢٢) كان بوهم-باورك وزيرًا للمالية ثلاث مرات ولكن ليس حينما جرى تنفيذ الإصلاح الكبير للضرائب المباشرة فى النمسا بالفعل (عام ١٨٩٦). يعود الفضل السياسى فى هذا الإصلاح إلى أفراد آخرين. ولكن بوهم-باورك تخلى عن العمل كأستاذ ودخل وزارة المالية كموظف منقرغ أقدم عام ١٨٨٩ وذلك للتحضير لذلك الإصلاح الذى يعود إليه بشكل رئيسى. ومع ذلك، فقد شارك فيه منظر آخر وهو ر. أوسبيتز R. Auspitz (انظر الفصل الخامس، القسم ٤، أدناه) الذى كان يعمل فى البرلمان حينذاك.

(٢٣) للتخفيف من أثر حالات الكساد، تم اللجوء إلى سياسة الأشغال العامة بصورة متكررة كما حدث فى النمسا فى الثمانينيات.

(١٩٠٩) تهدف إلى أغراض أخرى غير مجرد زيادة الإيراد؛ كما أخفق المبدأ الثالث من جانب الإنفاق على الأغراض الاجتماعية حيث أنهت الرغبة بهذه الأخيرة، عند أواخر الفترة المدروسة، شعبية سياسة فرض ضرائب قليلة على الدخل العالية وشعبية سياسة 'تخفيض النفقات' retrenchment.

(ج) النقود سادت عقيدة الليبرالية الاقتصادية والسياسية، من حيث الجوهر، في حقل السياسة النقدية طوال الفترة. وفي الواقع، إنها سادت أطول من ذلك، ويكفي لإثبات هذا الأمر تقرير Cunliffe الإنجليزي الصادر عام ١٩١٨ (صدر التقرير الأخير عام ١٩١٩) والقانون الإنجليزي حول قاعدة الذهب لعام ١٩٢٥: فقاعدة الذهب كانت آخر من يرحل من بين كل عناصر تلك العقيدة.

بقت الفضة تشكل المعدن النقدي المستعمل من قبل الجزء الأكبر من البشرية، كما أنها تمتعت بهذا الشكل أو ذاك من الدعم في كل مكان، كما سنرى ذلك على نحو أكمل في الفصل الثامن^(٢٤). ولكن كل البلدان 'المتقدمة' ظلت على، أو أسست، قاعدة الذهب، وعلى حساب تضحية كبيرة في بعض الحالات. إن معظم الاقتصاديين سيشعرون أن حتى إنجلترا كانت ستحتاج لقليل من التحفيز النقدي monetary stimulation خلال الثمانينيات. كما أنهم قد يستغربون من شدة توقع الإمبراطورية الألمانية للأخذ بقاعدة الذهب بعد عام ١٨٧١. ولكنهم لن يتمكنوا قط من فهم لماذا كان يتعين على بلدان مثل النمسا-هنغاريا وإيطاليا وروسيا، التي دخلت الفترة بعملات ورقية كانت قيمتها قد تدنت عند تقييمها بالفضة، أن تقيد من نموها وتخلق لنفسها صعوبات من أجل زيادة قيمة وحداتها النقدية إلى حد التماثل مع الذهب بصورة اعتباطية أساسًا. فقد كان بوسع هذه البلدان أن تبقى 'بعيدًا عن قاعدة الذهب' off gold أو، إذا كان يتعين عليها أن تمتلكه، فإنها كانت تستطيع إدخال قاعدة الذهب وفقًا للقيمة الذهبية (لعملاتها) التي حدث أن سادت حينما خطرَ ببالها الإقدام على هذه الخطوة. ويحير اللغز أكثر حينما نتصور أنه لم يكن هناك

(٢٤) ليس من غير أهمية أن نلاحظ أن أ. ج. بلفور A. J. Balfour كان يفضل نظام المعدنين، رغم أن زملاءه في مجلس الوزراء ما كانوا ليوافقوا على أبسط تنازل لهذا النظام.

ضغط سياسى من شأنه أن يجبرهم على تلك السياسة: فكل المصالح المهمة سياسياً حقاً-مزارعين، وملاك، وصناعيين، وعمال- كانت تعاني منها، وحتى أن مصلحة المقرضين لم تكن مؤكدة قط؛ فقد كان مستخدمو الحكومة هم المستفيدون الوحيدون بصورة واضحة. لا نستطيع تناول السؤال: إلى أى حد، فى ظل الظروف التى سادت حينذاك وبخاصة من زاوية كل بلد منفرد، يمكن البرهنة على حجة اقتصادية لصالح تلك القاعدة رغم كل شىء. يكفى أن نشير إلى الاعتبارات فوق-الاقتصادية وفوق-الوطنية التى كانت حاسمة دون شك: فالتجارب السابقة فى العملات التى تدنت قيمتها أضفت على قاعدة الذهب هيبه لم يكن بالإمكان تحديها حينذاك؛ وأن العملة الذهبية الحرة أو 'التلقائية' أصبحت رمزاً للسياسة السليمة وعلامة على الشرف والاحترام، ثم إن هناك مثال إنجلترا الملهم وما يضيفه وضعها الممتاز من قيمة إضافية على تلك القاعدة أيضاً. إن هذا التفسير قد يطرح المزيد من المشاكل أكثر من أنه يقدم حلاً. بيد أن صحته مؤكدة.

بيد أن التيارات المضادة أكدت نفسها فى السياسة النقدية أيضاً. إذ نلاحظ إدراكاً متنامياً لضرورة السيطرة على أسواق النقود عبر المصرف المركزى بطرق أخرى غير سياسة الخصم 'الكلاسيكية'. كما نلاحظ، عند انقضاء الفترة، وجود نفور متزايد فى كل البلدان من أداء لعبة قاعدة الذهب كما يتجلى هذا فى اللجوء إلى قاعدة الصرف بالذهب gold exchange standard، وإلى 'الإجراءات الذهبية' gold devices حتى فى إنجلترا وألمانيا. ربما أن قاعدة الذهب لم تكن 'تلقائية' قط؛ فمن المؤكد أنها كفت عن أن تكون تلقائية عند نهاية الفترة، هذا إن كانت كذلك أصلاً (انظر الفصل الثامن، أدناه). وهذا يعود إلى أسباب سياسية أكثر مما إلى أسباب اقتصادية بحتة: وهذه الأسباب ترتبط بالمواقف الميركنيلية الجديدة والتوتر المتزايد فى العلاقات الدولية الذى بدأ الشعور به حوالى عام ١٩٠٠، وكذلك تزايد الإنفاق العام. وقد تضاعفت الحجج ضد قاعدة الذهب غير المقيدة وأخذت تفقد شعبيتها كالطفل المشاغب naughty الذى يفضح الأسرار المحرجة.

٤- الفن والفكر

حينما نمعن النظر فيما وراء النشاطات الروتينية التى مضت على خطوط برجوازية فى كل مكان تقريباً، فقد كنا لحد الآن نكتشف أنماطاً جديدة وهى فى طور التكوين، وتيارات مضادة تدل على أن هناك تغيراً جوهرياً يوشك أن يحدث. ونحصل على الانطباع نفسه حينما نلقى نظرة على تجليات السياسة الاجتماعية Zeitgeist الخاصة بتلك الفترة فى حقلى الفنون والفلسفة.

(أ) الحضارة البرجوازية ونتائجها المتمرد يشير مثل دارج إلى أن تلك الفترة لم تمتلك أى طراز style. وثمة شئ من الحقيقة فى هذا القول: فمما لا شك فيه أن طبقة رجال الأعمال والطبقات المهنية عاشت، كقاعدة عامة، حياة غير موحية فى بيوت حقيرة تسيء إلى عناصر الطرز الماضية التى تجتمع فيها؛ وإنهم ابتاعوا أثاثاً حقيراً من نوع متشابه ولوحات لا تصف شيئاً وشجعوا تقليداً فى المسرح والموسيقى كانت أمجاده موروثاً من الماضى؛ وكانوا يقرعون أدباً عادياً من كل الأنواع فيما عدا الأدب العلمى المهنى. إن هذا النمط للحياة فى كل تجلياته- الذى كان يُعرف بالنمط الفيكتورى فى إنجلترا- تحوّل الآن إلى نموذج للغلاظة أو الكآبة وهو يثبت حقاً افتقاد البرجوازية للقدرة على القيادة الثقافية مثلما يكشف ضعف قدرتها على القيادة السياسية.

ومع ذلك، فإن الباحثين الذين تركوا ذلك الطراز عند هذا التشخيص مخطئون فى تشخيصهم؛ ومن السهل تعيين النقطة التى أخطئوا عندها: فقد فشلوا فى إنصاف الحضارة البرجوازية فى ذلك العهد بكل ما كان لها من إبداعات، وأخفقوا فى إدراك إن ضعف مقدرة الآباء على توجيه أبنائهم يمكن أن يقلب الأخيرين ضدهم ولكنه لا يغير شيئاً من حقيقة كونهم أبناءهم. إذ شهدت الفترة ولادة موسيقى جديدة عبر مراحل متتابعة؛ ونوع جديد من الرسم؛ ورواية جديدة ودراما جديدة وشعر جديد؛ وكذلك هندسة معمارية جديدة فى أواسط العهد الفيكتورى. ومن المؤكد أن جمهور البرجوازية وقف مذهولاً من معظم هذه الإبداعات وفعل كل ما استطاع من أجل كبجها. ومن المؤكد بالدرجة نفسها أن

كثيراً من الإبداعات كانت معادية بطبيعتها للبنية الاجتماعية التي نبعت منها، وأن كثيراً من الأفراد المبدعين كانوا أعداء للعالم الاجتماعى الذى كان أمامهم وشعروا بأنفسهم كقوة خلاقة تعود لعالم آخر. ولكن هذا لا يغير شيئاً من حقيقة أن هذه الأعمال ومبدعيها جاءوا من البنية نفسها، وإن معظم المبدعين كانوا برجوازيين من حيث ولادتهم وأصولهم؛ وأن أعمالهم تمثل نتاج للفكر البرجوازى تماماً كما هو شأن السكك الحديدية ومنشآت الطاقة. وهكذا فإن المجتمع البرجوازى كان فى طريقه نحو حضارة جديدة كلها من صنعه حينما بُوغت عام ١٩١٤-١٩١٨ بالكارثة الخالية من المعنى التى وضعت عالم هذه الحضارة فى مهيب الريح.

(ب) الحضارة البرجوازية وفلسفتها كنا قد كونا لمحات حول مخططات الفكر الدينى والسياسى فى تلك الفترة- وكذلك حول تغيرات محددة حدثت فى كليهما معاً- تكفى لإقناعنا بأن Weltanschauung {النظرة العالمية} ^(٢٥) لليبرالية العلمانية لم تهيمن دون أن تتعرض للتحدى. ولكن بالقدر الذى سادت فيه هذه النظرة، فلن تواجهنا سوى صعوبة ضئيلة فى وصف الجهاز الفكرى لجمهرة البرجوازية كما هو شأننا عند تصوير الجهاز المادى لبيوتها. حينما نصرف النظر عن الصور البراقة subliments والتمويهات المختلفة evasions، فأنا نجد علم الأخلاق النفعى- الذى يتركز على فكرة الملائمة الاجتماعية بالمعنى النفعى- كما نجد، 'كفلسفة'، المادية التطورية أكثر مما نجد المادية الميكانيكية ^(٢٦). والدين، الذى تم الابتعاد عنه فى معظم الحالات بصورة ضمنية أكثر مما تم التكرار له بشكل صريح، تم استبداله 'بموقف' attitude- وهذه كلمة نمتلك كل الأسباب لتسجيلها لأن أحد أبرز الاقتصاديين قد قام باستعمالها: أ. مارشال ^(٢٧) - حافظ على الإرث

(٢٥) النظرة العالمية هى فلسفة فردية أو عرقية فى تفسير التاريخ أو فى تفسير الغاية من العالم ككل.
(٢٦) أتق بأن هذه المصطلحات لا تحتاج إلى توضيح. ولكن ينبغي التشديد على أن المادية التطورية evolutionary materialism تأخذ شكلين متميزين: إن الاتجاه السائد هو الشكل الداروينى، ولكن المذهب التطورى من النوع الذى طرحه كوندرسيه-كونت (انظر الجزء الثالث، الفصل الثالث، القسم ٤٤، أعلاه) قد تم تبنيه على نطاق واسع من قبل أفراد لم يسموا قط باسم كوندرسيه Condorcet أو كونت Comte.

(٢٧) انظر ج. م. كينز: Essays in Biography, p. 162. إن الصفحات المحكمة من سيرة مارشال التى تتركز فى تلك الفقرة هى الصفحات الأكثر تنويراً إلى حد بعيد مما جرت كتابته منذ إيما وقت=

الأخلاقى للدين المسيحى ولم يكن على العموم معادياً بصورة فعالة للمعتقدات العتيقة والكنائس التى تعلّمها، رغم أنه كان هناك أيضاً مذهب علمانى مثابر كما نعلم.

وقد ساعدَ هذا على القراءة التاريخية: فقد كان هذا الموقف، بالنسبة للبعض، الوسيلة التى تستكمل هدم المعتقدات القديمة؛ وكان، بالنسبة للبعض الآخر، وسيلة لتلبية الميول الثقافية والأخلاقية مما أدامَ الولاء الدوغمائى. وهذا ما يفسر كما يبدو النجاح الهائل، وسط الجمهور العام، لأعمال مثل عمل أرنست رينان Ernest Renan: Life of Jesus الذى كان علمانياً فى محتواه، رغم أنه لم يبدِ أى عداء صريح للديانة المسيحية قط. ولكن تفضيل القراءة التاريخية تجاوزَ حقل اللاهوت ولسبب مماثل: إذ واجهت الليبرالية العمياء الكثير من خيبة الأمل (كما رأينا) مما جعلها بالتالى تفقد تفاؤلها السطحى؛ وأن الفترة، خارج معقلى الاشتراكية الماركسية والمذهب الكاثوليكي، كانت تتنازعها شتى المعتقدات المتذبذبة، وبخاصة حول الديمقراطية السياسية؛ وإن مثل هذا الإطار الفكرى يروق للتاريخ والنقد التاريخى. وهذا الأمر لم يكن كذلك فى أى بلد مثلاً كان فى فرنسا. ولذلك، فإن مثالنا التوضيحي الوحيد سنأخذه من النجاح الذى حققه، لدى الجمهور، عمل هيبولت تاين Hippolyte Taine^(٢٨): Origins of Modern France (English trans., 1876-94). وللسبب نفسه، فقد راق هذا الإطار إلى تاريخ الفن، تاريخ الأدب، تاريخ الفلسفة. وهذه العادات قد عززتها التربية الكلاسيكية التى لم تُمس تقريباً بعد.

=مضى حول العملية، كما جرت ملاحظتها فى وسط كمبريدج، التى تمكنت فئة المثقفين الإنجليز بواسطتها من إسقاط الديانة المسيحية بصورة مهذبة ودون فظاظه. وقد صحبت هذا التطور عمليات مماثلة فى كل البلدان الأخرى. إن حالة مارشال وحالة كتاب كمبريدج الآخرين مثل سدفيك Sidgwick لا تختلف، بقدر ما أعلم، عن حالة الكتاب الذين تحكمهم ظروف مماثلة فى القارة إلا بحقيقة أن المجموعة الأولى، بعد أن باشرت رحلاتها الفكرية من أرضية صلبة فى اللاهوت الإنجليكانى (ومن التزامات محددة تجاهه بفضل مساهمات زملاء فى جامعتى كمبريدج وأكسفورد) توصلت إلى استنتاجاتها النهائية عن طريق التصارع الواعى وليس عبر عدم الاكتراث المعبر عن لأدرية متزايدة، كما تفعل المجموعة الثانية.

(٢٨) بيد أن نجاح النقد الأدبى من النوع المتشائم أيضاً من شأنه أن يوضح نقطتنا بصورة أوضح: يكفى أن نشير إلى كاتب وكتاب كانا متداولين جداً: اميل فاكوين Emile Faguet (بروفيسور فى الشعر): Le Culte de l'incompetence (English trans. 1911) - وهو عمل متميز جداً.

ولم يكن هذا كل شيء طبعاً. فما كان يتمشى بنفس الدرجة مع روح العهد هو الاهتمام الواسع بالعلوم الطبيعية التي تجاوبت مع هذا الاهتمام وقدّمت أدباً مبسطاً ضخماً: لم يكن قد توافر بعد 'العلم للملايين'، بل كان هناك ما يمكن تسميته العلم لعشرات الألوف. ومع ذلك، فكل ما ينبغي ذكره لأغراضنا هو بروز الطلب على الكتب والمقالات الدورية عن التطور البايولوجي وبخاصة من النوع الدارويني، وذلك في إطار الطلب العام على هذا الأدب. وبعد ما تم ذكره آنفاً، فمن السهل فهم هذا الأمر وبالتالي النجاح الشعبي حتى للكتابات المهنية لكتاب مثل هيكل^(٢٩). وسوف نفهم هذا الأمر بصورة أفضل حينما يجمع كاتب ما بين مذهب التطور وتبني مذهب ساذج لعدم التدخل. وهذا الجمع يفسر شعبية كتابات هربرت سينسر^(٣٠). وكان يمكن أن نتوقف هنا لولا أن من الضروري لفت الانتباه إلى

(٢٩) إرنست هيكل Ernest Haeckel (١٨٣٤-١٩١٩)، انظر مثلاً عمله: Anthropogenie (1874 ; English trans. 1879). وقد شجع هيكل على الاهتمام العلماني عبر موقفه النضالي (انظر عمله: Kampt um den Entwicklungsgedanken, 1905, English trans. 1906 نظرية التطور وتحويلها إلى مخطط فلسفي عام (انظر عمله: Weltratsel, 1899, English trans: Riddles of the Universe, 1900). والقارئ يدرك بأنني أشير إلى هيكل كنموذج تمثيلي فقط. فقد كان بوسعي أن أذكر "دزينة: ستة" من الكتاب الآخرين الأكثر 'شعبية' بصورة واضحة.

(٣٠) كان هربرت سينسر Herbert Spencer (١٨٢٠-١٩٠٣) - الذي تلقى تعليمًا في الفيزياء والرياضيات، مهندس سكك حديد، ومخترعًا، وكاتب حول الموضوعات الاقتصادية الجارية، وأحيانًا حول الصحف (التي تضمنت العمل كمحرر مساعد في مجلة ال Economist اللندنية لمدة خمس سنوات) - فيلسوفًا حقيقياً بالمعنى الخاص الذي يفيد أنه معدّ بالفطرة لحياة الفكر، التي استقر عليها بالفعل عام ١٨٦٠ ليقدّم - من عام ١٨٦٢ إلى عام ١٨٩٦ - عمله: Synthetic Philosophy الذي تضمن، إضافة إلى عمله التمهيدى: First Principles، العمل: Principles of Biology, Psychology, Sociology, Ethics. إن عمله ذي المجلدات الثمانية: Descriptive Sociology - وهو تشكيلة مؤثرة من الوقائع جمعها مساعدوه الباحثين بصورة مرهقة - هو الوحيد من بين أعماله الأخرى الذي يلزم ذكره هنا (مع أن بعضًا من أهم تعابيرهِ المتميزة ترد في عمل مثل: The Man Versus the State, 1884). يحتل سينسر منزلة نموذجية حيث كان كاتبًا عميقًا، وذكيًا وساذجًا في وقت واحد بصورة تثير الدهشة. فالرجل الذي أعاد اكتشاف أفكار بافان Buffon حول تطور العضويات العليا (المعقدة) من العضويات الدنيا (الأبسط) قبل أن يهز بحث دارون العالم العلمي، يمكن أن نسميه كاتبًا عميقًا عن حق. والرجل، الذي اخترع ال velocimeter (الخاص بالقاطرات) ودزينة من الأدوات الأخرى، هو من تنطبق عليه عبارة: ذكي. ولكن لا تصلح إلا كلمة: ساذج للتعبير عن الرجل الذي عجز عن إدراك أنه، بحمل ليبرالية مذهب عدم التدخل إلى حد عدم استحسان الضوابط الصحية، والتعليم العام، وخدمات البريد العام، وما شابه، إنما عرض مثاله للسخرية، بل إنه كتب ما من شأنه أن يصلح كهجاء للسياسة التي دافع هو عنها. ولا يهمننا علمه الاقتصادي أو الأخلاقي (المعياري والتحليلي). فما يستحق اهتمامنا هو الحجة القائلة إن كل سياسة تهدف إلى=

الاستقبال الممتاز المثير للاستغراب من جانب جمهور القراء البرجوازيين
للمنتجات الأولى من روح تعادى حضارته بصورة ازدرائية.

أنا لا أقصد انبعاث الفكر الأكوينى الذى لا يمكن أن يوصف كفكر معادى
بصورة ازدرائية للحضارة البرجوازية ككل - بل لنسختها العلمانية تحديداً - والذى
لم يعد، على أى حال، قوة حية مؤثرة فى فكر الجمهور العام^(٣١). كما لا أقصد
الانتشار المتزايد للكتابات الماركسية وسط القراء غير الاشتراكيين ذلك لأن هذه
الكتابات، رغم أنها تعادى إلى حد الكفاية الترتيبات الاقتصادية للعالم الرأسمالى،
بيد أنه لا يمكن وصفها بأنها معادية للعبادة البرجوازية للعقلانية النفعية أو
لعلمانيته، أو حتى لمذهبها الإنسانى الديمقراطى democratic humanitarianism
(بقدر تعلق الأمر بالأصولية الماركسية)^(٣٢). بل إن ما أقصده هو تيار من الفكر
انقلب بالضبط ضد هذه العبادة الليبرالية للعقلانية و'النقد' وهذا المذهب الليبرالى
الإنسانى والديمقراطى. من الناحية السياسية، يمكن نعتبر هذا التيار معادياً
للديمقراطية، وفلسفياً يمكن اعتباره: معادى للفكر anti-intellectualist. إن نيتشه
Nietzsche من شأنه أن يطرح مثلاً سيئاً عنه لأن تعاليمه لا تمثل شكلاً نقياً لهذا
التيار من الفكر ولأن تأثير هذه التعاليم كان - وما يزال - أقل مما نتصور أحياناً.
كما إن من الأفضل الاحتفاظ بيرغسون Bergson لقائمتنا المتعلقة بالتيارات التى

=الإصلاح الاجتماعى هى سياسة جديرة بالإدانة على أساس إنها تتعارض مع الانتقاء الطبيعى
وبالتالى مع تقدم البشرية. ومع ذلك، يتعين على القارئ أن يلاحظ أن الهراء المحزن تقريباً كان يمكن
تجنبه وأن العنصر السليم فى حجته كان يمكن إنقاذه جزئياً بإضافة: 'ما لم يتم إيجاد طرق أكثر إنسانية
وأكثر علمية من الانتقاء الطبيعى لتحقيق ما يُعتقد أن بقاء الأصلح يحققه'.

(٣١) إن هذه الفترة هى التى أعلنت فيها تعاليم توما الأكوينى كتعاليم رسمية للكنيسة الكاثوليكية الرومانية
(المنشور البابوى: Aeterni Patris, 1879). ولكن هذا الأمر صادق فقط على الحالة القائمة للأشياء
ولم يمارس من التأثير ما يتجاوز رجال الدين الكاثوليك. إن رواج الفكر الأكوينى بين الأفراد العاديين
فى كل البلدان - بمن فيهم البروتستانت واليهود - الذى جعل من توما الأكوينى أحد أكثر المؤلفين
'المحدثين' تأثيراً لم يبدأ إلا من العشرينيات فقط. بل إن انتشارها فى الولايات المتحدة جاء حتى بعد
هذا التاريخ بقليل.

(٣٢) غالباً ما يُقرأ ماركس بصورة غير مباشرة من خلال كتاب آخرين وذلك بقدر ما وردت منه أفكار
مفكرين برجوازيين كثر. ولكنه يُقرأ بشكل مباشر، خارج معسكر الاشتراكيين الأصوليين، وبخاصة
من قبل متقنين ليس لديهم تعليم اقتصادى. ثمة تفسير غريب لهذا الأمر. فماركس هو أحد أصعب
الكتاب بالنسبة للاقتصاديين. ولكن الحقيقة هى أن الفرد العادى الذى يقرأه لا يكتشف قط أنه لا يفهمه.

تتضمن الفلسفة المهنية في هذه الفترة. ولكن ثمة كاتب كان يمثل بصورة مثالية ما نحاول تصويره الآن: إنه جورجس سوريل (٣٣).

حول النظرية القائلة إن عمل الفلاسفة المهنيين يرتبط بالسياسة الاجتماعية لفترة ما بصورة أوثق مما يفعل هذا عمل العلماء في 'العلوم' المختلفة، سوف أقدم عرضاً مختصراً جداً لبعض التيارات: لعشرة بالضبط من التيارات الكثيرة في الفكر الفلسفي في الفترة محل الدرس، وسنعطيها الأرقام (١)-(١٠). تُعرّف الفلسفة هنا على نحو محدد، رغم أن التعريف يشمل اهتمام الفلاسفة بقضايا نظرية المعرفة والمنطق. ولا ينبغي أن يفهم اختيارنا للتيارات بمعنى تقييمها: فنحن نهتم بالتيارات المتميزة في الفترة بغض النظر عن رأينا بحسناتها. وهذا يفسر لماذا لا أتناول مذهب توما الأكويني مرة أخرى. أما الجوانب الفلسفية البحتة من الماركسية- حيث يتابع انجلز اهتمامات ماركس الفلسفية وأن الحزب الألماني كان لديه، إن صح التعبير، فيلسوفاً حزبياً رسمياً: ديتزن Dietzgen- فهي تتماشى مع الفلسفة الكلاسيكية الألمانية للفترة السابقة وبالتالي فهي تلاحظ سوية معها بشكل ضمنى: وملاحظتنا الأساسية هنا هي أننا نؤكد على تناول الفلسفة في فترة غير فلسفية أساساً وتعدى الغيب حيث تحقق بالفعل المقترح الداعي إلى شطب كلمة 'فلسفة' من فهارس الجامعة.

(٣٣) وضع جورجس سوريل Georges Sorel (١٨٤٧-١٩٢٢) عدداً كبيراً من الأعمال يجمعها عداؤه للفكر البرجوازي bourgeois intellectualism: فمع أن هذه الأعمال، منظوراً إليها من أى زاوية أخرى، تمثل تشكيلة غريبة من موضوعات ووجهات نظر يصعب جداً تفسيرها (ويتعذر التوفيق فيما بينها أحياناً)، بيد أنها كلها تشدد على المضامين السلبية والإيجابية لمبدأ معاداة-الفكر anti-intellectualist principle وتظهر كلياً نطاق المشاكل الاقتصادية والسياسية والحضارية التي يطرحها هذا المبدأ في ضوء جديد. إن تعاطفه (المؤقت) مع النقاوية الثورية، الفاشية الإيطالية، والبشافية اللينينية، لا تجسد سوى جانب واحد من فكره وليس لها سوى أهمية ثانوية بالنسبة لأعماله ككل. قد تتمثل أعماله الأكثر تميزاً في (Procès de Socrate (1889 و (Illusions du progrès (1908 ولكن عمله: (Reflexions sur la violence (1908 ; English trans. 1914 هو المعروف بصورة أفضل إلى حد بعيد بين كل أعماله. لقد وجدت البرجوازية في تلك الأعمال، بين أمور أخرى، مشاعر الإعجاب بالقيادة الصناعية وازدراء الديمقراطية البرلمانية. ومن زوايتنا، فمن المهم أن نلاحظ القربية بين بعض أفكار سوريل وبعض أفكار أحد أعظم الاقتصاديين في تلك الفترة: باريتو Pareto. أما قرابته بكتاب آخرين، فلا تهمنا هنا.

وهكذا نتوقع من الفلاسفة المهنيين (والأكاديميين) أن يهتموا بتاريخ الفلسفة بشكل كثيف. وهذا يشكل التيار (١). إن التواريخ الممتازة حول الفلسفات في جميع العهود والبلدان كثيرة جداً. ولن أسمى إلا واحداً منها وهو التاريخ الذى كتبه الرجل الذى يبدو عمله لى قمة فى 'الفلسفة التاريخية' فى تلك الفترة وكل فترة أخرى: إنه ويلهيلم فنديلباند Wilhelm Windelband^(٣٤).

وبالمثل، سنفهم إن تضاول الحماسة للإبداع الفلسفى كان لابد من أن يسهل تواصل أو انبعاث الإبداعات الفلسفية التى تعود للماضى. وهذا نجده أيضاً. فإذا افترضنا اعتبار المذهب النفعى فلسفة أصلاً، فإن هذا المذهب يقدم مثلاً معيناً نظراً إلى أنه جرى تدريسه طوال الفترة فى إنجلترا، وبخاصة تحت تأثير ج. س. ميل (٢). وفى بلدان أخرى، نجد كانتيين جدد، وهيغلين جدد، و'جداً' آخرين؛ وأنه كان هناك دائماً أنصار لهربرت Schopenhauer وشوبنهاور (٣).

ثم نلاحظ كياناً فكرياً آخر يماشى ظهوره التوقعات ليس أقل. فمن يعتقد أن العلم التجريبي دمرَ بشكل فعال أسس ليس فقط المعتقد الدينى بل أيضاً أسس التأمل الغيبى يمكنه، إن كان يشعر بأسى عميق أو إذا كان فيلسوفاً يتطلع إلى استخدام، أن يدرك الفكرة - أو يأخذها من كونت - القائلة إن صورة الكون (Welblid) يمكن تشكيلها من جميع النتائج الأكثر عمومية التى بلغتها العلوم الفردية. إن البديل عن الفلسفة يمكن أن يأخذ أشكالاً عدة وهو لا يشكل بالضرورة الفلسفة بوصفها العلم الشامل، scientia scientiarum، رغم أنه جرى أحياناً التعبير عن الفكرة بطرق شتى توحى بتشبيه الفلسفة بشركة قابضة holding company.

وبهذا المعنى، تبدو الفلسفة مختلفة جداً وفقاً لطبيعة تعليم الفيلسوف المعنى. فثمة نوع منها خرج من أيدي فلاسفة تلقوا تعليمًا فى العلوم الطبيعية - كالمذهب الوضعى positivism أو المذهب الأحدى monism وهو نوع لا يختلف جوهرياً عن

(٣٤) لتوفير المجال، لن تكون هناك إشارات لكتب فردية معينة فى هذا العرض فيما عدا حالات تتطوى على سبب خاص للفت الانتباه إلى عمل محدد: وبوسع القارئ المهتم أن يحصل على تلك المراجع دون صعوبة.

النقد التجريبي 'emprio-criticism' لدى أفيناريوس Avenarius أو ماخ Mach (٤) (٣٥) وثمة نوع آخر خرج من أيدي فلاسفة كانوا علماء نفس أو سوسيولوجيا من حيث تعليمهم وأصبح يُعرف لاحقاً بالانثربولوجيا الفلسفية (٥) الذي ليس من السهل دائماً تمييزه عن أقسام من الفلسفة الاجتماعية أو السوسيولوجيا المباشرة. (٣٦)

وقد شجع كلا النوعين على إساءة فهم نظريات العالم المختص (٣٧) وانتهاكاً حرمة أراضيهم ولم يكن من غير الطبيعي أن يثيرا الاستياء (٣٨). وقد أفسد الجو الناشئ نجاح مشروعات معينة مثل حركة وحدة-العلم في العهود اللاحقة أو، فسي جميع الأحوال، تأثير الفيلسوف على هذه المشروعات. كما أنه قلل من اعتبار نوع آخر من البحث سيتم ذكره هنا، رغم أنه لا يعود إلى حقل الفلسفة بمعناها المحدد - وهو النوع الذي واصل جهود ويول Whewell وميل وجهود Wissenschaftslehre الألمانية أو المنهجية العامة للمدخل العلمي في الفترة السابقة. وكأمثلة، أختار أعمال جيفونس وسيغوارت Sigwart وفونت Wundt (٣٩). سنشير، ضمن سياق آخر

(٣٥) دعونا نشير إلى القرابة القوية بين وجهات نظر ماخ ووجهات نظر كل من دبليو. ك. كليفورد W. K. Clifford، ك. بيرسون K Pearson و ج. ه. بونكار J. H. Boincare. إن عمل بيرسون Grammar of Science (1892) وعمل بونكار: (La Valeur de la science) (1904) هما ما أوصى به القراء الراغبين بالحصول على دليل سهل للنقد التجريبي.

(٣٦) النقطة الأخيرة بوضوح عمل جورج سيمل George Simmel (1908: Soziologie). (٣٧) والمثال السار - أو المحزن؟ - لوقوع مثل تلك الإساءات حتى في نطاق العلوم الطبيعية هو المثال التالي: كثيراً ما يستعمل الفلاسفة مصطلح: النسبية وبمعاني عدة مختلفة. وقد حدث إن إحدى النظريات الجديدة الأكثر أهمية في حقل الفيزياء في الفترة محل الدرس أخذت اسم: النظرية النسبية - وهو مصطلح لا يمت بأى صلة إلى النسبية التاريخية أو الفلسفية بأى معنى كان. ومع ذلك، يمكن تقديم أمثلة عدة على كتاب عرضوا أنفسهم للسخرية بتفسير نظرية انشتاين كتجلى للنسبية الأخيرة. وأدين بهذه الواقعة (التي لم أصدقها في البداية) إلى البروفيسور فيليب فرانك Philipp Frank. (٣٨) وكثيراً ما كان علم الاقتصاد ضحية لذلك الأمر - وهو علم يفقد إلى الحماية التي تؤمنها الهيبة المكتسبة من تقادم العمر كما هو الحال مع علم الفيزياء. ومثال، أشير إلى العمل: G. Simmel, (1900 Philosophie des Geldes) الذي يعالج قضايا تعود كلها تقريباً إلى حقل علم الاقتصاد. ولم يحسن حالة الأشياء أن يعلن سيمل عدم وجود أى فرضية في الكتاب كان قد قصد بها أن تفهم بمعناها لدى العالم المختص (ist einzelwissenschaftlich gemeint) - وهو أمر جرى تفسيره طبعاً بمعنى أنه لن يقبل النقد الصادر فقط عن الأفراد الذين يفهمون الموضوع أو ينبغي عليهم أن يفهموه.

(٣٩) تختلف أعمال هؤلاء الكتاب الثلاثة أحدهما عن الآخر بصورة واسعة: يمثل عمل جيفونس: (Principles of Sciences) (1874) أهمية خاصة بالنسبة لنا طبعاً بحكم أن مؤلفه كان أحد الاقتصاديين الأساسيين في تلك الفترة. لم يهتم هذا الكتاب بممارسة أى من العلوم الفردية أو كلها ولكن بما يمكن تسميته نظرية التفكير العلمي. ثمة جانبان أصيلان بصورة مذهلة يبرزان هنا ويستيقان الاتجاهات اللاحقة: (١) المكانة المركزية المعطاة إلى الفكرة القائلة إن كل التحليل (سواء أكان استنتاجياً أم=

(انظر الفصل الرابع، القسم الثاني، أدناه)، إلى منهجيات العلوم الاجتماعية، وبخاصة منهجية علم الاقتصاد، لدى كارل منجر و (ج. ن.) كينز وسيمياند Simiand. ولكن ينبغي أن نشير هنا إلى مساهمات دلتى Dilthey وفندلباند Windelband وريكرت Rickert وذلك لما مارسوه من تأثير (ولو في ألمانيا فقط، بقدر ما أعلم)، ولوجود نقص نموذجي فيها من شأنه توضيح ما ورد آنفاً^(٤٠). بيد أننا نعود إلى الطريق العام. وحينما نمضي عليه، فسوف نصرف نظرنا عن كل شيء ما عدا الأجزاء التالية من المشهد.

=استقرائياً) يختزل في آخر الأمر إلى تعابير عن متطابقات؛ (٢) المكانة الأساسية المعطاة لفكرة الاحتمال probability، أى الفكرة القائلة أن الحقيقة العلمية عشوائية أساساً. أما عمل كريستوف فون سغوارت (Logik (1st ed., 1873-8 Christoph von Sigwart)، الذى هو أقل أصالة، وأكثر شمولاً، من عمل جيفونس Principles، فهو تحليل للأساسيات أيضاً. ويعتبر عمل ويلهيلم فونت Wilhelm Wundt (انظر الفصل الثالث، القسم الثالث، أدناه): (Logik ... (1st ed., 1880-83) الوحيد بين الأعمال الثلاثة الذى يحل، وينطلق من، الممارسة الفعلية للعلوم الفردية. وعليه، فإن الصعوبة التى برزت هنا هى أنه، فى الحالة القائمة للعلوم الفردية أو حتى فى حالتها عام ١٨٨٠، ليس بوسع أحد أن يمتلك تلك المعرفة الخصوصية بالمنهج الفعلى التى لا تتأتى إلا من التجربة الشخصية فى إجراء البحوث المفصلة. وقد أدرك فونت حدوده وحاول حل المشكلة بطلب مساعدة المختصين، ولكن هذا الحل كانت له طبعاً نواقص خاصة به بصورة واضحة، وإن كانت النتائج لم تختلف كثيراً.

(٤٠) ويلهيلم فندلباند Wilhelm Windelband (١٨٤٨-١٩١٥): Geschichte und Naturwissenschaft (١٨٩٤؛ History and Physics - التاريخ وعلم الطبيعة، وهذا عنوان كبير اجتذب اهتماماً واسعاً، ١٨٩٤؛ الطبعة الثالثة ١٩٠٤)؛ هنريخ ريكتر Heinrich Rickert (١٨٦٣-١٩٣٦): Kulturwissenschaft (١٩٣٦؛ Cultural and Natural Sciences) und Naturwissenschaft ; ein Vortrag (١٩١١-١٨٣٣): Einleitung in die Geisteswissenschaften (إن أفضل ترجمة لهذا المصطلح هى: "علوم الفكر والمجتمع باستثناء علم النفس الفزيولوجي"؛ ١٨٨٣). ولا أقصد إبداء عدم الإحترام لهؤلاء الرجال البارزين الذين كانوا أساتذة بارعين فى حقول واسعة. ولكن أفكارهم تكونت وفقاً لمهم وتعليم الفيلسوف والمؤرخ والفقهاء اللغويين. وهكذا، فحينما تقدموا بتقنة يُحسدون عليها لوضع القانون لنا، فأنتهم رسموا خطأ فاصلاً غير واقعي قُط بين "قوانين الطبيعة" و"قوانين التطور الحضارى" أو "صياغة القوانين" (nomothesis) و "الوصف التاريخي" (idiography) (دراسة حالات معينة مثل الشخصية والوضع الاجتماعي) ناسين أن الأقسام الكبرى من العلوم الاجتماعية تبتمد عن هذا الخط الفاصل - وهى حقيقة من شأنها أن تقلل من فائدته بشكل جدى (رغم إنه يحتفظ بصحته بالنسبة إلى العلوم اللغوية-التاريخية حقاً). فقد كانوا غريبين ببساطة على المشاكل والطابع المعرفى لتلك الأقسام من العلوم الاجتماعية، وفشلوا أيضاً فى إضافة التحفظات السليمة إلى حججهم. أما أن من شأن ذلك تضليل اقتصاديين عدة ممن أصغوا إليهم - مثل ماكس فيبر Max Weber الذى تأثر بريكتر بصورة قوية- فهذا كان أمراً محتملاً بقدر ما كان مؤسفاً. ولكن دعونا نشير إلى القول المذهل لدلتى الذى يبدو كشعار لمنهجية ماكس فيبر: "نحن نفرس ظواهر الطبيعة، نحن ندرك ظواهر العقل (أو الظواهر الثقافية)".

إن المؤرخ الذى يشدد على إكراه الفكر على الارتباط الفريد بالتغيرات الهيكلية فى النظام الاجتماعى من شأنه أن يعتدّ بشكل واثق بأن نظريته إنما تثبتت بصورة باهرة الفلسفة البراغماتية Pragmatism (٦): وهى فلسفة نشأت حينذاك ووجدت معيار - أو حتى تعريف - الحقيقة فى قيمة المعتقدات التى يلزم قبولها كمعتقدات حقيقية، وذلك بالنسبة لحياتنا الفردية والاجتماعية. ولكن عناصر هذه الفلسفة قديمة قدم الفلسفة نفسها، وأن الطريقة التى صاغها بها وليم جيمس William James لا تتعدى الإحكام النظامى لأفكار لم تكن قط غائبة تماماً عن أى نوع من الفعل أو الفكر البشرى وهى كانت بصدد تأكيد نفسها عاجلاً أم آجلاً عبر آلية تقصى جذور الفكر الفلسفى وحده.

وبينما لم تتصادم، على الأقل، الفلسفة البراغماتية مع التيارات الرئيسية فى السياسة الاجتماعية فى تلك الفترة، فإن عمل هنرى بيرغسون Henri Bergson: (١٩٠٧) L'Evolution creatrice قد فعلَ ذلك (٧). فلسفة بيرغسون المعادية - للعقلانية والمعادية - للفكر تختلف كلية عن معاداة العقلانية فى المذهب البراغماتى، التى كانت تعنى مجرد إنكار وجود الحقيقة 'البحث' كنتاج لتفكير مجرد لا يرتبط بأغراض وقيم الحياة: أما بيرغسون، فيقصد أن الحقيقة الجديدة أو، بصورة أعم، الإبداع الجديد لا تصنعه العمليات المنطقية قط. وهذا يتضمن حقاً - وهو ما لا تتضمنه فلسفة جيمس - Welschauung {رؤيا} جديدة كلياً تختلف تماماً، بين أمور أخرى، عن وجهات نظر كانت متداولة حينذاك (ومنها وجهة النظر الماركسية) حول التطور الحضارى. أما فلسفة بينيدوتو كروس Benedetto Croce (٨)، فلم تكن جديدة بنفس الدرجة، ولكنها كانت أكثر تأثيراً رغم ذلك بفضل القوة الشخصية لمعلمها العظيم. وتمتلك هذه الفلسفة أهمية خاصة بالنسبة لنا لأن كروس نفسه اقتصادى إلى حد ما ولأنه مرتبط، أكثر من أى فيلسوف آخر، مع بعض جوانب العمل المهنى للاقتصاديين الإيطاليين. ومع أن من المستحيل، بجمل قليلة، تكوين فكرة عن عمله ككل - وعن العناصر الأكثر أصالة بالضبط فى هذا العمل، لسوء الحظ - بيد أنه يمكن اختزال المبدأ الفلسفى الأساسى المعنى إلى جملة واحدة: إن

روحاً هيغلية تتجسد في المسار الفعلي للتاريخ العام بحيث يتطابق موضوع الفلسفة مع ميتافيزيقيا العملية التاريخية^(٤١).

ليس بوسع أى استعراض للتيارات الفلسفية فى ذلك الوقت أن يشطب اسم إدموند هوسيرل Edmund Husserl وبدايات علم الظواهر Phenomenology (٩)، مع أن أى محاولة لتقديم توصيف موجز له ليس من شأنها أن تخلق غير الإرباك، كما يبدو لى. ولذلك، فأنتى أفضل اللجوء إلى مرجع^(٤٢). ولكن يمكن القول إن فلسفة هوسيرل، من بين كل فلسفات عصرنا، هى الفلسفة الأكثر استقلاليةً autonomous عن الوقائع الاجتماعية أو الوقائع الاجتماعية-النفسية: وليس بوسع أى شىء أن يفسر هذا سوى جذور الأفكار الفلسفية وإنه، بمعزل عما تدين به فلسفة هوسيرل للفلسفات السابقة التى تحاول هى أن تتجاوزها، كان يمكن كتابتها فى العهود السكولانية أيضاً. وهذا يسرى أيضاً على كيان من الفكر الفلسفى يبدو أنه يتضمن فى الجوانب الأخرى- ولو 'يبدو' أكثر مما أنه 'يتضمن بالفعل'- مدخلاً مختلفاً كلياً لتناول مشاكل ليست هى بمشاكل أى علم 'آخر'. وأقصد بذلك فلسفة كمبريدج قبل أيام وتغنشتاين، التى يمكن القول إن بيرتراند رسل Bertrand Russel وج. ي. مور G. E. Moore سادا فيها فى السنوات الأخيرة من الفترة المدروسة (١٠). وكما تشير الجملة ما قبل الأخيرة، فإن هذا المفهوم يجعل الفلسفة علماً خاصاً غير تأملى، له مهمة خاصة به شأنه فى ذلك شأن أى علم آخر: وهى، فى هذه الحالة، مهمة تحليل معانى المصطلحات (كالعدد، مثلاً) أو الفرضيات التى تُستعمل بنقّة، ولكن بصورة غير انتقادية، فى تلك العلوم الأخرى أو فى الحياة اليومية. ولكن حينما تُعالج وفقاً لهذه الروح، فحتى موضوعات مثل تحليل الفكر أو تحليل المادة تنتقل، كما يبدو الأمر لى، من نطاق الفلسفة إلى نطاق نظرية المعرفة أو المنطق. وهذا هو السبب الأساسى الذى يفسر وجود ممر ما من الفلسفة إلى المنطق الجديد New Logic، وبشكل خاص، إلى عمل بيرتراند رسل و أ. ن.

(٤١) يستاء أنصار كروس أحياناً من نسبتهم إلى مذهب هيغل ويعتبرون ذلك من قبيل سوء الفهم. ومع ذلك، فمن المتعذر إنكار الطابع الانبثاقى emanatistic للمبدأ المذكور أعلاه.

(٤٢) Marvin Farber, The Foundation of Phenomenology (1943). وبطبيعة الحال، يناقش هذا الكتاب بشكل رئيسى علم الظواهر المتطور الذى يخص الفترة اللاحقة.

وايتهايد A. N. Whitehead (1911-13): Principia Mathematica. ولكن علينا أن نتوقف هنا. فلا ينبغي قط نشر تاريخ أى نوع من التحليل، سواء فى الاقتصاد أو فى غيره، دون أن تؤخذ بالاعتبار التطورات التى يشير إليها مصطلح: المنطق الجديد. ولكن هذا هو بالضبط ما لا يستطيع هذا التاريخ أن يفعله.

أخيراً، علينا أن نطرح السؤال التالى: ماذا كان يعنى أى من تلك الفلسفات بالنسبة للاقتصاديين الأساسيين فى الفترة محل الدرس؟ وأجيب بثقة تامة: القليل جداً حقاً- وحتى أقل مما كان يعنيه فى الفترتين السابقتين، وهو معنى لم يكن كبيراً، كما نعلم. ولكن نظراً إلى وجود وجهة نظر مختلفة يجرى التعبير عنها فى أحوال كثيرة، فينبغى علينا أن ندرس الموضوع بصورة أعمق. ويتوجب علينا، ونحن نفعل هذا، أن نجزأ ذلك السؤال إلى سؤالى. أولاً: ما هو تأثير الفلسفة- أو أى فلسفة محددة- على عمل الاقتصاديين التحليلى أو، بدقة أكثر، هل أنهم توصلوا إلى أى نتائج يمكن إثبات إنها تعتمد على المؤثرات الفلسفية؟ ثانياً: ماذا كانت تعنى الفلسفة، أو فلسفة محددة، بالنسبة لهم كأفراد ومواطنين؟ إن هذا التمييز، كما لاحظناه فى مناسبة سابقة، هو تمييز مهم فى جميع العهود والبلدان. ولكنه يكتسب أهمية أكثر بالنسبة لفترة أصبح فيها علم الاقتصاد متخصصاً أكثر وتكنولوجياً أكثر.

فيما يتعلق بالسؤال الأول، فقد جرت الإجابة عليه فى مكان آخر بالنسبة لماركس والماركسيين. ومع ذلك، فإن ذلك الجواب لن يختلف كثيراً عن الجواب الذى أوشك على تقديمه بالنسبة لبقية الاقتصاديين: من المتعذر إثبات وجود تأثير للفلسفة على الاقتصاديين فى الفترة المدروسة بمعنى أنهم توصلوا، أو فشلوا فى التوصل، إلى أى استنتاجات تحليلية لم يكن بوسعهم التوصل إليها، أو فشلوا فى التوصل إليها، دون توجيه من فيلسوف ما- وذلك فيما عدا تحقیقاتهم ومشاجراتهم المنهجية. ومن الطبيعى، حينما يحاول الاقتصاديون إيضاح أفكارهم بصدد طرقهم فى العمل أو حينما ينغمرون فى سجال يتعلق بها، أن يلجأ هؤلاء الاقتصاديون ليس إلى التعاليم الفلسفية حقاً بمعناها المحدد. بل إلى تعاليم عن منهجيات كتبها فلاسفة- حيث يقدم لنا ماكس فيبر مثالاً قوياً. ولكن كان سيكون من المضحك التشديد على

أن الاقتصاديين سمحوا للفلاسفة بتعليمهم كيف يعملون حينما كان يدرسون الظروف السائدة في الصناعة المحلية، أو رسوم السكك الحديدية أو مشاكل الترسات في وقتهم، أو طوائف التجار في القرن الثاني عشر، أو، بالنسبة لذلك الغرض، صحة أو عدم صحة نظرية بوهم-باورك للفائدة. لقد اعترف اديجورث بالمذهب النفعي بمناسبة ودون مناسبة. ومع ذلك، فإن التحليل يوضح أن هذه الاعترافات يمكن استبعادها من مواقفه الاقتصادية دون التأثير على هذه الأخيرة^(٤٣).

بيد أن الجواب يختلف بالنسبة للسؤال الثاني. فكل اقتصادي الفترة المدروسة عملياً ينحدرون من عائلات برجوازية، وأنهم كانوا المستفيدين من، أو ضحايا، نظام تعليمي محكم، يدرس الفلسفة في المرحلة الثانوية (أى في مرحلة ما قبل الجامعة) في معظم البلدان. ولم يكن بوسعهم، كشباب، تجنب تلقى بعض مبادئ الفلسفة حتى لو أنهم كانوا يكرهونها كراهية السم. ومع ذلك، فافتراضنا هو أنهم لم يكرهوها. فالفلسفة التي تلقوها في الغالب كانت من الأنواع (١)، (٢)، (٣)، (٥)، وربما من النوع (٨) في إيطاليا حتى نهاية الفترة محل الدرس. وهذا معناه التشديد بقوة، بصورة مباشرة أو غير مباشرة، على الكلاسيك الألمان، وبخاصة على كانت. ومن المهم أن نلاحظ أن مارشال، في مقدمة عمله Principles، أشار إلى عمل هيغل Philosophy of History - والى كتابات سينسر (!) - على أساس أنها من بين المؤثرات الرئيسية على 'مادة' وجهات نظره^(٤٤). وكان بوسع اقتصاديين آخرين في تلك الفترة أن يعبروا عن أنفسهم بصورة مماثلة؛ وأن دراسة الفلسفة جعلت منهم كائنات أكثر تحضرًا بالتأكيد. ولن يتفق معي، دون شك، كثير من

(٤٣) ولكن لم يكن بالإمكان طبعاً استبعاد تلك الاعترافات من تأملاته حول الأخلاق.

(٤٤) لو أخذنا ذلك بشكل جدي، لأصبح جوابنا على السؤال الأول المطروح أعلاه خاطئاً. ولكن لا ينبغي التعامل معه جدياً. إذ لا يمكن العثور على تأثير لهيغل أو سينسر في تحليل مارشال. فإذا تصور مارشال حقاً أن اهتمامه بـ das Werden مقابل das Sein (يستعمل مارشال هذه الكلمات الألمانية) يمت بصلة ما إلى مذهب هيغل، فإن التأثير الوحيد الممكن كان سيكون أنه لم يفهم هيغل قط! كما كان مارشال أكثر تحمساً إلى كانت الذي كان يعتبره مرشده والرجل الوحيد الذي كان يبجله (ج. م. كينز: Essays in Biography, p. 167). ولكن الحقيقة المؤكدة هي أن مارشال درس هيغل وكانت بصورة جدية.

القراء لو إننى دأبتُ على القول إن هذا كان كل شيء، وأن الفلسفات لا تؤثر إلّا قليلاً على المواقف الأخلاقية والحضارية، وأنها لا تؤثر قط على الميول الاجتماعية والتفضيلات السياسية للمرء. ولكن نظراً إلى أننا، فى هذا الكتاب، لا نهتم إلّا بطرق ونتائج التحليل، فإن الاختلاف بيننا لا يعنى الكثير.

الفصل الثالث

بعض التطورات فى الحقول المجاورة

١. التاريخ

٢. السوسيولوجيا

[(أ) السوسيولوجيا التاريخية]

[(ب) السوسيولوجيا ما قبل التاريخية-الاثنية]

[(ج) المدارس البيولوجية]

[(د) السوسيولوجيا التلقائية]

٣. علم النفس

[(أ) علم النفس التجريبي]

[(ب) المذهب السلوكي]

[(ج) سيكولوجيا الجموع]

[(د) علم النفس الفرويدى]

[(هـ) علم النفس الاجتماعى]

تحتل وقائع التطورات فى الحقول المجاورة التى تجتمع فى هذا الفصل أهمية جزئية fragmentary. ونكرر مرة أخرى إن هذه التطورات هى رقع متفرقة الألوان يملئها انطباع الكاتب impressionist patches of colour ويمكن لأى كاتب آخر أن يختارها بطريقة أخرى وفقاً لأفكاره حول أى شىء كان على صلة أو كان يمكن أن يكون على صلة بتطور التحليل الاقتصادى. وفى الواقع، كان سيتوجب على الاختيار بطريقة أخرى لو أننى قمتُ بكتابة تواريخ هذه الحقول لأجلها هى ذاتها. إن خطورة هذه الاعتباطية المحتومة- التى تعززها اعتباطية محتومة أخرى بسبب محدودياتى الشخصية- أكبر فى هذه الفترة مما كانت عليه فى الفترات السابقة ذلك لأن هذه الفترة هى التى نمت فيها ثروة العمل المتخصص إلى حد

يتعذر السيطرة عليها وأن أى محاولة للبناء والترتيب tectonics وفقاً للمنطق البحث هي ضرب من العبث. ثمة نقطة أخرى أثرت على الاختيار ينبغي تذكرها: وهى السهولة أو الصعوبة التى يحصل بها القارئ على المعلومات الضرورية. وبالنسبة لعلم الاقتصاد، فإن السوسيولوجيا هي الجار الأكثر أهمية. ومع ذلك، فإن عدم اكتمال نضوجها يجعل الإحاطة بتطورها التاريخي صعباً إلى أقصى حد. أما علم النفس وعلم التاريخ الوصفى، فهما كانت أهميتهما بالنسبة لنا، فهما بحاجة لملاحظات أقل لأن تطوراتهما جرى وصفها بصورة مرضية أكثر. ومع إن الإحصاء يمثل الحقل الأقرب لنا بين كل الحقول الأخرى، فإن تطوراتها خلال الفترة المدروسة معروفة جيداً لدى دارس علم الاقتصاد إلى حد أننا سنتجاوزه كلياً فى هذا الفصل على أساس إن المعلومات القليلة التى ينبغي تذكرها ستتم الإشارة إليها فى القسم المتعلق بالقياس الاقتصادي، أدناه^(١).

١- التاريخ

بالنسبة للتاريخ الوصفى historiography، فإن الحدث الكبير من زاويتنا هو الاتحاد الوثيق بين هذا العلم وبين علم الاقتصاد، الذى يمثل برنامج المدرسة التاريخية فى الاقتصاد Historical School of Economics. ولكن نظراً إلى أننا نتناول هذا الحدث بالضبط مع بعض التفاصيل فى الفصل الرابع، فلا يلزم أن نقول إلا القليل عن التاريخ الوصفى بصورة عامة. إن الهيمنة الجزئية للمؤرخ على حقل الاقتصاد لا تمثل طبعاً الحقل الوحيد الذى استولى عليه هذا الأخير: فكل العلوم الاجتماعية بما فيها فلسفة التشريع jurisprudence (وهو الحقل الذى تمت الهيمنة عليه فى الفترة السابقة) والسوسيولوجيا أصبحت تحت سلطانه جزئياً. وقد أتاح هذا بدوره للمؤرخ أن يدرس الأوضاع والعمليات الاجتماعية إلى درجة لم يكن عليها

(١) [الجزء الرابع، الفصل السابع، القسم الثانى. كان ج. شومبيتر ينوى أن يكتب أكثر وعلى نحو مفصل حول القياس الاقتصادي فى الفترة الأخيرة التى ترد فى الجزء الخامس ولكنه لم يستطع غير إكمال بضع صفحات تمهيدية.]

من قبل: فالتصوير غير الشخصي لوقائع التاريخ الاجتماعي (الممزوجة أحياناً بنظريات بيولوجية ونفسية لا يرقى إليها شك^(٢)) قد أحرز تقدماً على حساب رومانسية المعارك والمكائد. وحتى في إطار التاريخ الوصفي الاجتماعي، فإن العمل المصنّم لدرس مشاكل معينة - مثل نشوء الملكيات الإقطاعية في القرنين السادس عشر والسابع عشر، أصل المدن ووظيفتها، تنظيم التجارة في القرون الوسطى، نشوء الرأسمالية، وما شابه - أحرز تقدماً على حساب العمل الخاص ببلدان معينة وفترة معينة. وبطبيعة الحال، فإن مؤرخي المؤسسات التشريعية - الذين كانوا محامين في الغالب من حيث تعليمهم - كانوا يقدمون عملاً من النوع الأول دائماً، وأن كل ما نريد قوله - بقدر تعلق الأمر بهم - هو ملاحظة النطاق الواسع جداً لهذا العمل والطرق المحسنة جداً التي استعملت فيه. بيد أن الشيء المهم هو أن هذا الاتجاه أصبح اتجاهًا عامًا^(٣). والاتجاه الثاني الواضح في التاريخ الوصفي الاقتصادي الحديث - الاتجاه نحو التشديد على الجوانب الكمية - لم يكن طبعاً غائباً بصورة كلية (ولم يكن كذلك قط) ولكنه لما يزل لا يشكل فقرة معترف بها بشكل شامل في البرنامج الاقتصادي للمؤرخ. ومع ذلك، فقد اجتذبت الاهتمام

(٢) من الممكن توضيح هذا من خلال العمل الفذ لكارل لامريخت Karl Lamprecht (١٨٥٦-١٩١٥) الذي كان في المقام الأول باحثاً أصيلاً في التاريخ الاقتصادي (انظر بشكل خاص عمله: Deutsches Wirtschaftsleben im mittelalter, 1885-6) ولكنه تبنى مخططاً تطورياً (يقوم على المراحل على غرار مخطط كونت، مثلاً) ادعى لامريخت أنه يمتلك صحة شاملة وقام بصياغته على أساس علم نفس اجتماعي قام هو بوضعه (انظر نصبه التذكاري: Deutsche Geschichte, 1891-1909). وكان علم النفس الاجتماعي هذا مزيجاً غريباً من أفكار أصلية - كانت إحداها، مثلاً، دراسة لتشكيله واسعة من رسوم أطفال - وشيء كالهواية غير المسئولة أحياناً. ولكنه يقف ببسالة منتشقا سلاحه رغم النقد الذي لم يكن غير طيبيعي (انظر: Moderne Geschichtswissenschaft, 1905, English trans., 1905).

(٣) يمثل برونر Brunner، غيرك Kierke، مايتلاند Maitland، مين Maine، فينو غرادوف Vinogradoff: الشخصيات الممتلئة في جبهة المؤرخين القانونيين. ولتوضيح نوع العمل الذي قصدت حينما تحدثت عن توجه عام للكتابة عن تاريخ - مشاكل معينة problem-history، لن أذكر سوى كاتبين؛ الأول هو هيبوليت تايين Hippolyte Taine (١٨٢٨-١٨٩٣) الذي أشرنا إليه من قبل. وأن عمله الذي يهمننا في سياقنا الحالي هو: Les origines de la France contemporaine (1876-1876-94) والكاتب الثاني هو جورج فون بيلو George von Below (1876-1927; English trans., 1927). والكاتب الثالث هو جورج فون بيلو Territorium und Stadt, 1st ed., 1900-1902. وربما لم يحدث قط من قبل لهذين الكاتبين أن وُضعا أحدهما جنب الآخر.

بعض الموضوعات ذات الطابع الإحصائي^(٤). ولكن الموضوع المهم - إلى أى حد؟ - يبرز من حيث لا نتوقع^(٥). وأخيراً، فقد بات التاريخ 'العام' مؤسسياً على نحو متزايد وأخذ يميل بشكل متزايد للتشديد على التفسير الاقتصادى للعملية التاريخية. والاقتصاديون يميلون إلى إرجاع هذا الأمر إلى التأثير الماركسى. إن هذا التأثير قد فرض نفسه عند نهاية القرن. ولكن الاتجاه المعنى كان نشطاً جداً فى السابق، وأن القول أن ماركس قد أثر على المؤرخين من غير الاقتصاديين المهنيين أو الاشتراكيين المعروفين، فى السبعينيات والثمانينيات، معناه المبالغة كثيراً فى سرعة تفاعل الباحث المتخصص مع عوامل خارجية بالنسبة لحقله. وكمثال بارز، أشير إلى كارل دبليو. نيتش Karl W. Nitzsch (١٨١٨-١٨٨٠)^(٦) وهو رجل يتمتع بأهمية خاصة بالنسبة لنا لعلاقته الوثيقة ببعض الاقتصاديين التاريخيين، وبخاصة شمولر.

ملاحظة: نرجو أن يتذكر القارئ التحذير الذى ورد فى المدخل التمهيدى لهذا الفصل حول الرقع ذات الألوان المتفرقة. وحتى فى هذه الحالة، ليس بوسعى أن أترك الموضوع دون الإشارة إلى أهمية المصادر الجديدة تماماً للمادة بالنسبة لتقدم التاريخ الوصفى خلال الفترة. والمثال الفرد الأكثر أهمية تقدمه الكتابات المصرية على البردى papyri: فهذه الكتابات papyrology قد ثورت علم القانون الرومانى. ج. شومبيتر.

(٤) انظر، مثلاً، العمل الريادى، غير الكامل دون شك، الوارد فى تاريخ الأسعار الذى كتبه ثورولد روجرز Thorold Rogers (7 ; 1259-1793 History of Agriculture and Prices in England, 1866-1902 vols.) و غ. أفينل G. d' Avenel (7 vols. 1894-) Historie ... de tous les prix ... 1926) - وهما كاتبان لم ينل أى منهما فى الوقت الحاضر التقدير الذى يستحق. وعلاوة على ذلك، كان أفينل يراقب بعناية المضامين الواسعة التى تحملها تغيرات السعر المطولة والواضحة بالنسبة للتاريخ الاجتماعى والسياسى.

(٥) أذهلتنى كثيراً الروح الكمية، إذا صح التعبير، التى تسود أعمال أحد أعظم المؤرخين الاقتصاديين فى تلك الفترة: الفونس دويش Alfons Dopsch الذى لم تكن مادته ملائمة بالتأكيد. انظر عمله: (1912-13 Wirtschaftsentwicklung der Karollingerzeit) وكذلك عمله اللاحق: Wirtschaftliche und soziale Grundlagen der Europaschen Kulturentwicklung... von (1918-20 Caslar bis auf Karl den Grossen).

(٦) انظر بشكل خاص عمله الذى نشر بعد وفاته: Geschichte des deutsche Volkes bis zum Augsburgers Religionsfrieden.

٢- السوسيولوجيا

سعت السوسيولوجيا خلال الفترة محل الدرس لنيل الاعتراف الأكاديمي بها إلى هذا الحد أو ذاك، ليس كعلم شامل عن الإنسان في المجتمع - كما فهمها كونت - بل كواحد من العلوم الاجتماعية، ولو كعلم لم يكن واثقاً جداً من ماهية موضوعه حقاً. إن كل العلوم الاجتماعية تتصادم مع بعضها حينما نتناول مشاكل أساسية معينة من المجتمع، ولا يستطيع أى منها أن يتنازل عن ادعاءه ببعض الكفاءة في قضايا محركات وآليات الحياة الاجتماعية - وتشهد على ذلك الضرورة التي اضطررنا للاعتراف بالسوسيولوجيا الاقتصادية. ولكن من المؤكد أن تظهر الإمكانية والحاجة لدراسة المجتمع والعمليات الاجتماعية بحد ذاتها بمجرد أن يفرض تزايد المواد وتطور الأساليب المزيد من التخصص. شكّل العلم الاجتماعي لدى ارسطو والعلماء السكولائيين وحدة منفردة Single Unit - بل وحدة لم تكن من الأهمية بحيث تستغرق يوم - عمل كامل حتى بالنسبة لهذا العلم ككل. وكانت فلسفة القانون الطبيعي في نفس الحالة. فلم يكن من العسير على هيوم أو آ. سميث أو تورغو أو بيكاريا تناول السوسيولوجيا والاقتصاد، إضافة إلى حقول أخرى كثيرة. ولكن هذا الأمر تغير خلال القرن التاسع عشر: فسعة الموضوع ونطاقه باتا يضران بنوعية العمل حينذاك. وإن الكتاب الذين درسوا طبيعة المجتمع كما هو أو ممن طرحوا أسئلة من قبيل: ماذا يحدد البنية الاجتماعية أو يخلق الثورات أو ما شابه كفوا بصورة متزايدة عن أن يكونوا كتاباً حول قضايا النقود أو الفائدة أو الاستخدام، مثلاً. وهذا يعطى أحد أنواع السوسيولوجيا وفقاً للموضوع ولو ليس وفقاً للمنهج. وإضافة إلى ذلك، فإن علم الأخلاق، والقانون الديني، وموضوعات كثيرة، كانت قد شكّلت، كما رأينا، موضوع التحليل الوضعي - غير الغيبي - في السابق، وعليه فمن الطبيعي أن تقع فيما بعد ضمن نطاق من يدرس المجتمع بحد ذاته. أخيراً، كانت هناك مجموعات من المشاكل الاجتماعية، كالعلاقات الجنسية، ينقصها باحثون مؤهلون accredited، وهناك مجموعات أخرى من المشاكل، كالتعليم، قدّمت جوانب لم يهتم بها الباحثون المؤهلون أساساً.

وهكذا ظهرت وتوسعت سوسيولوجيا مستقلة استقلالاً غير كامل، رغم أن استقبالها لم يكن ودياً بشكل ملموس. كانت هناك طبعاً أسباب وجيهة وأسباب سيئة لهذا الاستقبال الفاتر. فالمسألة لم تقتصر على التنافس المهني بين هذه السوسيولوجيا وبين الحقول الاجتماعية الأخرى. فقد جرى تطويق الكتاب الجادين في الحقل، الذى حدث أن عُرف باسم السوسيولوجيا، من قبل أعداد كبيرة من litterateurs {أدباء} أساء وجودهم لقضية جيدة أساساً وهذا هو السبب الذى يفسر حقيقةً تزيد كثيراً من صعوباتنا فى التفسير: إذ فضّل كثير من أفضل السوسيولوجيين أن يسموا أنفسهم باسم آخر: محامين، جغرافيين، اثنيين، انثروبولوجيين، مؤرخين، اقتصاديين، حينما كان وضعهم يسمح بذلك وذلك للتشديد على عنصر كفاءتهم المهنية بوجه اتهامهم كهواة. وكانت حالة الفئتين الأخيرتين قوية بشكل خاص. فالتاريخ الوصفى كان يرتقى إلى مستوى جديد من الكفاءة التقنية: والمؤرخون الذين كانوا يفخرون عن حق بهذا الإنجاز لم يكن بوسعهم أن ينظروا بارتياح إلى نشاطات كتاب اعتادوا على استعمال نتائجهم بطرق كانت تخرق مستواهم العلمى الجديد. وبالمثل، كان الاقتصاد يتسلق طريقاً طويلة، ومرهقة، وملينة بالحجر باتجاه مستوى جديد من الكفاءة التقنية: فقد كان لدى الاقتصاديين ما يكفى للدفاع عن علمهم ضد الممتلكين فى داخل صفوفهم وضد جمهور أساء فهمهم على الدوام؛ ولم يستسيغوا أن يضايقهم أشباه-الفلاسفة وأشباه-الأدباء الطارئون. أما أن بعض هؤلاء الكتاب الطارئيين، ممن أدينوا فى وقت ما لعدم كفاءتهم المهنية، أثبتوا فى وقت آخر أنهم فى وضع سليم أساساً: فهذا ليس فيه تناقض ولا يشكل بذاته برهاناً على عدم كفاءة من حكموا بالإدانة^(٧).

كما حفل السطح أيضاً بالصراع الداخلى بين المجموعات المختلفة من السوسيولوجيين الذين طالبوا بشكل ثابت بطرق ومواد خاصة بهم شأنهم فى ذلك شأن علماء النفس والاقتصاد. ولكن تحت السطح، كان هناك عمل جيد وأمل واعد

(٧) قد تكون عدم الكفاءة المهنية طبعاً سبب الظاهرة المشار إليها. إذ يجسد تاريخ الديناميكا الحرارية حالة معروفة (روبرت ماير Robert Mayer). ولكن يجب أخذ كل حالة بمعطياتها.

بالنسبة للمستقبل. وبوسع القارئ أن يقتنع بسهولة بما ورد في الفقرة ما قبل الأخيرة: ثمة علم للمجتمع science of society كان في طور التكوين وهو يتضمن حقاً عدة حقول شبه-مستقلة أو مستقلة كلياً، ولكنه كان، رغم ذلك، محدداً definite أكثر مما كان يُتصور حينذاك. فقد كانت هناك مراكز قيادية من نوع ما headquarters - مراكز قيادية لا تملك سلطة إصدار أوامر بالتأكيد- في قطاع تغطي عليه مشاكل المجتمع، والعلاقات الاجتماعية، والعمليات الاجتماعية بحد ذاتها^(٨). كما كانت هناك الحقول 'التطبيقية' أو 'الخاصة' التي تتوسع على نحو ثابت مثل سوسيولوجيا الدين (hierology)، سوسيولوجيا الأخلاق، سوسيولوجيا الفنون كلها- وحديثاً أيضاً: سوسيولوجيا المعرفة Wissenssoziologie - كالسياسة، المؤسسات الاقتصادية، وعدة حقول أخرى. ومعظم هذه الحقول قد خدمت نوعين من الرجال المهنيين masters: فالبحوث حول سوسيولوجيا القانون أو سوسيولوجيا التعليم لن تخدم المحامي العملي أو المعلم العملي، مثلاً، إلا بشكل سيئ وكلاهما بحاجة لنوع آخر من العمل. ومع ذلك، فإن هذا التقسيم لا يعتمد بصورة تامة على احتياجات الحياة العملية فقط، بل إنه يمتد إلى الأغراض العلمية البحتة: فالالاقتصادى العلمى، بمعزل تماماً عن أى تطبيقات عملية لعمله يحتاج إلى استقلال كامل في جزء من حقله- فليس من شأن أى اعتبارات سوسيولوجية أن تحسن من عمل البروفيسور هكس Value and Capital. ولكن بين سوسيولوجيا القانون، والتعليم، والسلوك الاقتصادى، إضافة إلى سوسيولوجيا كل تلك الموضوعات الأخرى، وكذلك سوسيولوجيا المراكز القيادية، ثمة علاقة من الأخذ والعطاء التى

(٨) يمكن تعريف المجتمع بطريقة ما بحيث يعنى كياناً معيناً. ولكن من الممكن أيضاً تعريفه كمصطلح يشير إلى مجموع العلاقات بين مجموعات من الأفراد أو مجموع فئة معينة من العمليات- مثلما يمكن بالضبط تعريف الروح 'كشيء' وكذلك كمصطلح يشير إلى كل 'الظواهر النفسية'. إن مفهوم المجتمع كعلاقات جرى تفسيره بهمة متميزة على يد جورج سيميل Georg Simmel (١٨٥٨-١٩١٨) فى: (Soziologie (1908) وقبل ذلك فى عمله: (Die Probleme der Geschichtsphilosophie (1892) - وهى أعمال تؤشر إلى مضامين مهمة بالنسبة للعنوان. وهذا يجعل من السوسيولوجيا نظرية للعلاقات البشرية (Beziehungslehre) هى الكلمة المستعملة فى وقتنا الحاضر من قبل البروفيسور ليوبولد فون فايس (Leopold von Wiese). إن وجهة النظر المعاكسة التى تقترض المجتمع بحد ذاته هى تلك التى تبنّاها 'الشموليون' (اوثنار شبان Othmar Spann ومدرسته)، رغم أنها موجودة أيضاً فى الكتابات غير الشمولية: المجتمع، وفقاً للحالة الأولى، يعنى كياناً ميتافيزيقياً بشكل صريح، بينما هو مفهوم منهجى فى الحالة الثانية.

تؤخذ، بمعنى ما، كل هذه الفروع. إذ أن سوسيولوجيا المراكز القيادية لا تستطيع أن تبقى تأملية بشكل بحت- فهي بحاجة للمواد اللازمة للتوضيح والتدقيق على الأقل- مما يجبرها على الاعتماد على تلك الحقول 'التطبيقية' أو 'الخاصة'؛ كما أن هذه الحقول بدورها تستعمل مفاهيم وتفترض فرضيات تؤخذ من المراكز القيادية أو تساهم في هذه الأخيرة بصورة ما على الأقل. وقد تحقق كل هذا إلى حد ما ولو مع كثير من الفظاظه ووسط كثير من المشاجرات غير الضرورية. ومع ذلك، فلا يخبرنا هذا سوى بالقليل عن الطرق والمداخل التي تقرها المواد المستعملة إلى حد بعيد^(٩). ونتحول لتقديم اختبار موجز وانتقائي جدا لهذا الجانب.

[أ) السوسيولوجيا التاريخية] إذا تذكرنا كلاً من التقدم الهائل للتاريخ الوصفي ومظاهره البارزة أيضاً، فلن يثير استغرابنا إن الكثير من أفضل العمل المنجز خلال الفترة في السوسيولوجيا كان عملاً تاريخياً من حيث طبيعته. أولاً، إن كثيراً من العمل الذي قدمه المؤرخون كان سوسيولوجياً: فالمؤرخ الذي يكتب عما أسمىناه، لعدم وجود مصطلح أفضل، 'تاريخ مشاكل معينة' problem history يصعب تمييزه عن أي سوسيولوجي. ثانياً، إن كثيراً من أفضل السوسيولوجيين كانوا يستفيدون من المادة التاريخية أساساً وفهموا هذه المادة على نحو أفضل من غيرهم. ثالثاً، إذ ذهب بعض السوسيولوجيين بعيداً في هذا الأمر، فأنهم عرفوا السوسيولوجيا كتحليل للعملية التاريخية^(١٠). وآمل أننى أوضحت بصورة كافية

(٩) أما أن طبيعة المادة التي يستعملها كاتب معين تمثل العنصر الرئيسي في تحديد المدخل approach، والمنهج method، والعقيدة المنهجية methodological creed بما في ذلك المواقف النضالية التي يمكن أن تفترضها هذه العقيدة، فهي حقيقة ذات أهمية كبيرة لفهم تاريخ العلوم الاجتماعية، رغم أنها أصبحت أقل أهمية في الربع الأخير من القرن أو حوالي ذلك. وسوف تبرز هذه الحقيقة بكل أهميتها حينما نتأمل الحقيقة الأخرى القائلة إن اختيار المادة لم يكن حراً في كل الحالات - وربما ليس حتى في معظم الحالات. فخلال تلك الفترة، كان الكاتب في الغالب - وربما كقاعدة عامة - فيلسوفاً، مؤرخاً، اثولوجياً، محامياً، في البداية ثم يحول جهازه لأغراض السوسيولوجيا بعدئذ. ولكن في الحالات التي كان فيها الأمر كذلك، كان الكاتب أسير مادته ومنهجه ولم يكن بوسع التحويل لغيرهما في اللحظة التي يضع فيها ملاحظته: فالمواد التي تعلم إجادتها في سنوات تكوينه هي المواد والطرق التي فهمها بالفعل. ولا ينبغي أن ننسى قط هذه الحقائق إذا أردنا أن نشخص بصورة صحيحة التنافرات بين المجموعات في السوسيولوجيا (والحقول الأخرى) وتأثيرها على تاريخها.

(١٠) حدث ذلك مع ماركس وكروس Crose مثلاً، إلا أن الأخير استعمل كلمة: 'فلسفة' بدلاً من كلمة: 'سوسيولوجيا'. والعمل الذي يمثل التاريخ المكتوب وفقاً لوجهة النظر هذه هو عمل باول بارث (Paul Barth: Philosophie der Geschichte als Soziologie (1897) - وهو كتاب ناجح جداً=

مسألة أن الشيء المهم ليس هو 'نظريات التاريخ' العامة، أى الفرضيات الشاملة حول الدوافع الأولى للعملية التاريخية، إن وجدت هكذا دوافع أصلاً، حيث يشكل ما يسمى بالنفسير المادى للتاريخ، الذى درسناه فيما سبق، أكثر هذه الفرضيات نجاحاً إلى حد بعيد. فالأهم فى المدى الطويل كانت هى المساهمات الهادفة إلى حل مشكلات أكثر تحديداً كنا قد قدمنا أمثلة عنها فى القسم السابق^(١١) إن محاولات صياغة مخطط للتاريخ الاقتصادى عن طريق تحديد مراحل متعاقبة (كالاقتصاد القرية، اقتصاد المدينة، الاقتصاد الإقليمى، الاقتصاد الوطنى والاقتصاد الدولى-مخطط شمولر) لم تثر غير اهتمام قليل ولا ينبغي أن تعطينا.

[ب) السوسولوجيا ما قبل التاريخية-الاثنية] ولكن مصطلح المنهج التاريخى فى السوسولوجيا Historical Method in Sociology ينبغي توسيعه ليجب استعمال مادة مرتبطة منطقياً كعلم الآثار قبل التاريخى prehistoric archaeology- الذى لم تتوافر عنه سوى بدايات قبل الفترة المدروسة- وعلم الاثنيات ethnology الذى شهد حينذاك تطوره الحاسم. ذلك لأنه مهما اختلفت طرق تجميع الوقائع فى البحوث التاريخية، وما قبل التاريخية، والاثنية، فإن الطريقة التى يستعملها الكاتب السوسولوجى فى استخلاص استنتاجاته من تلك الوقائع هى نفسها من حيث الجوهر. وهكذا نستطيع أن نتحدث عن سوسولوجيا تاريخية ما قبل التاريخية-الاثنية كانت قد أثبتت نفسها فى الفترة المدروسة بصورة واضحة.

وبقدر ما تسمح به معرفتى المحدودة، فإن المثال الأكثر إلهاماً عن السوسولوجيا ما قبل التاريخية هو عمل أوسوالد مينغن Oswald Menghin: (Weltgeschichte der Steinzeit (1931). وأنا استعمل مصطلح: علم الاثنيات ethnology بمعنى قد يعبر عنه فى الغالب مصطلح: الانثروبولوجية الحضارية

=صدرت طبعته الرابعة عام ١٩٢٢. ورغم عنوانه الخداع، فإن هذا العمل هو تاريخ للسوسولوجيا (ما يزال مفيداً) جرت كتابته من الزاوية الموضحة آنفاً باستثناء أنه يبالغ فى دور النظريات العامة فى التعليل التاريخى. لنلاحظ ما قاله فون فيزر von Wieser: إن 'السوسولوجيا هى تاريخ من دون أسماء'. وهذا القول هو أحد تلك المبالغات التى من شأنها أن تغرس الحقائق المهمة فى الذهن. (١١) سوف أذكر العمل الأساسى لتوضيح نوع العمل الذى أقصده: Rene Maunier, L'Origine et le (fonction économique des villes (1910) - وهو عمل ينبغي أن يفهم كمثال لأدب واسع.

cultural anthropology. بيد أن مصطلح: الانثروبولوجيا anthropology يُحتفظ به للانثروبولوجيا المادية. وأمل ألا تؤثر على عاطفتي تجاه أساتذتي حينما اعتبر عملي السوسولوجي الفنلندي إدوارد وسترمارك (Edward Westermarck) (١٨٦٢-١٩٣٩)، الذي درس في مدرسة لندن للاقتصاد خلال الفترة ١٩٠٦-١٩٣٠، كذروة الإنجازات في السوسولوجيا الإثنية خلال الفترة (History of Human Marriage, 1889 and Origins and Development of Moral Ideas, 1906) مع أن أيًا منهما لم يصمد أمام اختبار الزمن من حيث التفاصيل. ولكن تكوين 'المدرسة' الأكثر أهمية خلال الفترة المدروسة (التي يعود إليها وسترمارك، بمعنى ما) ترتبط ببحوث وتدرّيس السير ادوارد ب. تايلور (Edward B. Taylor) (١٨٣٢-١٩١٧)؛ انظر بشكل خاص العمل Primitive Culture (الطبعة الأولى ١٨٧١، ثمة طبعت عدة صدرت فيما بعد). ومع أن هذه المدرسة لم تنفّر من التفسير الجريء (فتايلر نفسه، مثلاً، ناصرَ الفكرة القائلة إن المعتقدات الروحية animistic beliefs كانت تشكل الحالة الجنينية للدين)، بيد أنها احتفظت دائماً بأساس قوى في العمل الاثني-الوصفي الفعلي: إن احتفاظ المدرسة بهذا الأساس قد يميزها عن الفرع الإثني من علم النفس الاجتماعي (انظر القسم ٣هـ، أدناه) الذي كانت المدرسة ستذوب فيه لولا هذا الأساس. منهجياً، تطرح المدرسة عدة نقاط مهمة مثل استعمال المنهج الإحصائي (انظر تايلر: 'On A Method of Investigating the Development of Institutions,' Journal of the Anthropological Institute, 1888-9). كما تمثل جوانب متميزة فيها الأفضلية المنهجية والبحث الاثني الوصفي الموسع بالمقارنة مع الكيان الأوروبي من العمل الذي ربما مثّل فيه ج. ج. باكوفن (J. J. Bachofen) (١٨١٥-١٨٨٧؛ Mutterrecht [matriarchate], 1861) الشخصية الأكثر شهرة. ولا نستطيع أن نذهب أبعد من هذا - ولو أن من غير الملائم كما يبدو عدم الإشارة إلى عمل فرازر (Frazer: Golden Bough (1890) والأعمال الأخرى المشهورة بنفس الدرجة مثل عمل ل. ه. مورغان (L. H. Morgan: Ancient Society (1877) - ولكننا نمتلك دافعاً خاصاً للتشديد بشكل خاص على مدرسة تبعّت وتبّع تعاليم فريتز غراينير (Fritz Graebner: Methode der Ethnologie,)

(1911). ومن بين أمور أخرى، فإن عضواً بارزاً فيها: م. غ. شميدت M. G. Schmidt كتب البحث الوحيد الذى نمتلك حول الاقتصاد الإثنى (Grundriss der ethnologischen Volkswirtschaftslehre, 1920-21)؛ انظر كذلك ويلهيلم كويرز 'Die ethnologische Wirtschaftsforschung,' Anthropos, :Wilhelm Koppers 1915-16. ولكن الأهم بالنسبة لنا هو نظرية المناطق الحضارية (Kulturkreis-theorie) التى تميز هذه المدرسة. يمكن عرض النقطة الأساسية فى هذه النظرية كما يلى. تصطدم أى دراسة للأشكال البدائية للحضارة بمشكلة 'الأصول' origins - مثل أصل الأنواع الملحوظة من الأدوات أو مواد الزخرفة وما شابه؛ أو الأنواع المشاهدة من السلوك مثل تربية الحيوانات الأليفة- وكذلك أيضاً بمشكلة العوامل المسؤولة عن التغيرات المشاهدة عبر الزمن ('التقدم'). قدّم علماء الانثنيات أو علماء الانثروبولوجيا الحضارية تفسيرات مختلفة على نطاق واسع بشأن حالات فردية^(١٢). ولكن غالبيتهم العظمى اتفقوا على- أو اعتبروا أن من الطبيعي- أن السلوك الملحوظ أو الأنواع المشاهدة من الأشياء المادية التى تعكس السلوك ينبغى، من حيث المبدأ على الأقل، تفسيرها من خلال ظروف الجماعة أو القبيلة التى يتوجب إرجاع كل ما نعر عليه إليها: أى أن معظم علماء الانثنيات اعتنقوا ما يمكن تسميتها: نظرية 'الأصول المستقلة' و'التطور التلقائى'. وقد تحدى غريبنور وأتباعه هذه النظرية. فعلى أساس حقيقة أن الأنماط الحضارية تبقى مستقرة خلال فترات طويلة، فأنهم أنكروا الأصول المستقلة والتطور التلقائى لأشياء معينة كالأدوات المتشابهة ولكنهم اعتبروا حدوث التشابه كمؤشر على

(١٢) حول 'نظريات' أصول الاختراع Origins of Invention: انظر، مثلاً، أوتس ت. ماسون Otis T. Mason (١٨٩٥) الذى يحمل هذا العنوان، الذى من المهم مقارنته بالعمل الحديث حول هذا الموضوع كعمل يوشر Usher أو عمل غلفيلان Gilfillan. ولكن العمل الأكثر إثارة خلال الفترة فى حقل الأصول origins يمكن العثور عليه فى كتب ومقالات إدوارد هان Edward Hahn. انظر بشكل خاص عمله Die Haustiere.. (1896) and Die Entstehung der Wirtschaftlichen Arbeit (1908). وأنا لست فى وضع يمكننى من تقييم الانتقادات الموجهة إلى عمل هان. ولكن مما شك فيه هو أن قراءة هذا العمل ينبغى أن تحوّل الاقتصادى فى ذلك الوقت إلى كاتب مؤسسى institutionalist، مهما كانت وجهات نظره فى نطاق وطريقة علم الاقتصاد فى الأوقات الأخرى. فمن المؤكد أن هذه الأشياء مهمة ومنورة جداً أكثر من أى شئ آخر يمكن أن يقوله الاقتصادى فقط من حيث تكوينه a mere economist.

وجود مصدر عام يُستمد منه استعمال نوع معين من الأضرار مثلاً ويستعم عن طريق الانتشار بدلاً من أن يكون قد اخترع بصورة تلقائية. ومن هنا يأتي وجود المناطق الحضارية - Kulturkreise. وسواء قبلنا أم لا هذه النظرية بمداهها الكامل - علماً بأن منطقها ذاته لا يسمح بهذا الأمر - فإن أهميتها الأساسية واضحة بالنسبة للسوسيولوجيا ككل. وحتى القبول المحدود بها من شأنه أن يهز جدياً وجهات النظر التطورية في تلك الفترة وينطوي على اختلاف تام عما أسميناه سوسيولوجيا المراكز القيادية headquarters sociology.

ونختتم هذا الجزء من العرض بالإشارة إلى كتاب فردريك راتزل Friedrich Ratzel: (1882-91 ; 4th ed., 1921-21) - Anthropogeographie - وهو كتاب يمارس تأثيره على تكوين المرء، وهو يشكل، بصورة خاصة، باكورة، إن لم يكن أساس، العمل الموسع حول الجغرافية البشرية. وقد نبألغ إذا وضعنا هذا النوع من العمل ضمن أسس السوسيولوجيا التاريخية^(١٣). فهو يرتبط بالتأكيد بذلك التخصص الذي أخذ يُعرف بمصطلح: علم البيئة Ecology الذي يمثل دراسة حول العلاقات بين الأفراد والمؤسسات التي تقع ضمن حيز معين وهو تخصص يتمتع باهتمام كبير في الولايات المتحدة حالياً. ولكن الجغرافية البشرية، كإمكانية على الأقل، تكمل السوسيولوجيا المادية والتاريخية - مثلما أدرك ابن خلدون - وكان يتعين لذلك السبب الإشارة إلى المساهمة البارزة لتلك الفترة.

[ج) المدارس البيولوجية] دأب الفكر في تلك الفترة على تطبيق البحوث البيولوجية على الظواهر الاجتماعية على نطاق واسع جداً بحيث يتعذر علينا إغفاله كلياً. قد نحب أن نفعل ذلك لأن هذا الحقل يحفل بالتحيز الأيديولوجي وبروح الهواية إلى حد يبرز أي شيء اعتدنا عليه حتى نحن الاقتصاديين أنفسنا. ولكننا لا نستطيع أن نفعل ذلك، من بين أسباب أخرى، لأن الأفكار البيولوجية تحوم دائماً حول العمل الذي أنجزه الاقتصاديون بالفعل، رغم أنها لم تمسه إلا من بعيد. ولن

(١٣) ومع ذلك، فإن القراء المعتادين على تعاليم البروفيسور أ. ب. يوشر A. P. Usher لن يسلموا بذلك.

نقم بأى محاولة لوصف العمل البايولوجى المهني^(١٤): يكفى أن نشير إلى أنه لم يمارس أى تأثير على الفكر السوسيوولوجى والاقتصادى ما عدا العمل المنجز على خطوط المذهب الداروينى وانتقاد هذا المذهب من قبل أنصار مندل والنقاد الآخرون. إن أوغسطين وايزمان August Weismann (١٨٣٤-١٩١٤) هو الأهم بالنسبة لنا بين هؤلاء النقاد^(١٥) والنقاط المعنية الأكثر أهمية بالنسبة لنا هى أهمية الجوانب الفطرية والموروثة من الخصائص المكتسبة.

وبطبيعة الحال، لا يوجد شىء من قبيل سوسيوولوجيا بيولوجية بالمعنى الذى توجد فيه سوسيوولوجيا تاريخية. إن الاعتبارات البيولوجية يمكن أن تهىء فرضيات تفسيرية مهمة إلى هذا الحد أو ذاك - كما هو شأن الاعتبارات الاقتصادية أو أى اعتبارات أخرى - ولكن السوسيوولوجيا التى تلجأ هذه الاعتبارات تبقى كما هى بفضل طرقها وموادها الخاصة. ولذلك، فإن التشديد على العوامل أو الجوانب البيولوجية هو كل ما يمكن أن يُراد بالعبارة الرخوة: المدارس البيولوجية. وسنعالج هذه المدارس تحت أربعة عناوين.

أولاً، نظراً إلى أن المجتمع هو جهاز 'عضوى' وليس جهازاً 'ميكانيكياً'، فأنتنا نلاحظ الفكرة القائلة إن المجتمع يمكن تحليله بصورة مثمرة من خلال تشبيهه بالأجهزة العضوية مثل الجسم البشرى. وأشير إلى عمل شافل^(١٦) كمثال يعود لأحد الاقتصاديين. ولكن الصبيانية الواضحة فى هذه الفكرة لا ينبغى أن تمنعنا من رؤية حقيقة أن التشديد على 'الطبيعة العضوية' للعملية الاقتصادية قد لا يُراد بها سوى التعبير عن مبدأ منهجى سليم بصورة جلية - كما هو الحال لدى مارشال، مثلاً. فالمنظرون - وبخاصة من النوع 'المؤمن بالتخطيط' planning type - ينغمسون فى عادة بائسة فى استخلاص نتائج 'عملية' من بضع علاقات وظيفية بين بضع

(١٤) ثمة مصادر عدة يمكن سد هذه الفجوة بها مثل: History of Biology (English trans., 1928) by Erik Nordenskiöld.

(١٥) تتوافر ترجمات إنجليزية لكل أعماله المهمة بالنسبة لنا.

(١٦) Albert E. F. Schaffle (see below, ch. 5, sec. 3), Bau und Leben des sozialen Körpers (1st ed., 1875-8). ولحسن الحظ، فإن العمل لا تشوّهه كلياً محاولة مؤلفه اكتشاف الجهاز العصبى والجهاز الهضمى فى الجسم الاجتماعى.

مجاميع اقتصادية، مع إهمال كامل لحقيقة أن مثل هذه البنى التحليلية عاجزة بحكم تكوينها عن أخذ أشياء أعمق بعين الاعتبار: العلاقات الأكثر دقة التي يتعذر وزنها وقياسها، مع أنها يمكن أن تكون بالنسبة لحياة البلد الثقافية أهم من الأشياء التي يمكن قياسها^(١٧). قد تكون الاعتبارات 'العضوية' الترياق الأكثر وضوحاً - مع أنها غير كافية بحد ذاتها - إزاء مدخل غير متحضر كهذا.

نلاحظ، ثانياً، ثمة محاولات لتطبيق المفاهيم الداروينية: الصراع من أجل الوجود Struggle for Existence وبقاء الأصلح Survival of the Fittest على وقائع الحياة الصناعية والمهنية في المجتمع الرأسمالي. وهنا ينبغي التمييز بين شيئين بشكل دقيق. فمن ناحية - وليس بوسعنا الدفاع هنا عن هذه الفكرة - هناك جوانب معينة من نظام المشروع الفردي يمكن أن تفهم كصراع من أجل الوجود، وأن مفهوم بقاء الأصلح في هذا الصراع يمكن أن يُعرّف بطريقة ما لا يكون فيها مجرد حشو^(١٨) ولكن إذا كان الأمر كذلك، فكان ينبغي أن تُعالج هذه الجوانب وفقاً للوقائع الاقتصادية فحسب ولن يكون هناك ثمة سبب للجوء إلى علم الأحياء؛ على العكس، فكل الآراء التي قد تكون لدى علماء الأحياء حول الموضوع يمكن استبعادها كآراء أفراد عاديين لا يعون الموضوع. ومن ناحية أخرى، من الممكن أن يُستعان بالوقائع والنظريات البيولوجية بصورة حقيقية. وهذا يحدث حينما يُثار موضوع الموروث من الخصائص المادية أو الفكرية للمادة البشرية. إن صلة هذا الموضوع بتقييم تأثيرات مؤسسات وسياسات معينة هي صلة واضحة أو أنها ينبغي أن تكون كذلك.

(١٧) يوضح ذلك المثال التالي. سبق أن أشرنا إلى واقعة أن روسيا، في العقود الأخيرة من القرن التاسع عشر، باشرت سياسة نقدية انكماشية كان يمكن أن تكبح تطورها الاقتصادي. وقد المحت في الوقت نفسه إلى إمكانية تطوير حجة اقتصادية لصالح هذه السياسة. وليس في هذا أي تناقض. فالرأي القائل إن تلك السياسة كانت مجرد سياسة حمقاء لا يستند على شيء غير آلية النظام النقدي والانتماني الواضحة نوعاً ما ويفشل كلياً في الأخذ بالاعتبار حقيقة أن سياسة نقدية معينة هي الناتج لكل العوامل التي تشكل النمط الاقتصادي والسياسي والأخلاقي لبلد ما وتؤثر عليها كلها بطرق واضحة وبتقريب أخرى غير واضحة أيضاً. وأن التقييم لأثار سياسة ما الذي يهمل هذا الأمر هو تقييم عديم القيمة ببساطة من زاوية عملية. وهذا هو بالضبط ما يمكن أن يكون قد قصده مَنْ يدافع عن 'الأفكار العضوية'.

(١٨) إن تعريف مَنْ ييقون باعتبارهم 'الأصلح' the fit، أي تعريف الصلاحية fitness على أساس البقاء survival من شأنه طبعاً أن يكون مجرد حشو tautological (أي خالٍ من المعنى).

ولم يجرِ بصورة تامة التمييز بين هذين الشينين حينذاك وفيما بعد^(١٩). وما بهمنا هنا هو الموضوع الأول فقط وبخاصة من ناحية صلته بالمناقشة التى دارت فى تلك الفترة حول الإصلاح الاجتماعى. إن الحجة القائلة أن الإجراءات المتخذة فى صالح الفئات الأدنى من السكان يمكن أن تؤدى إلى تدهور النوعية المألوفة من رأس المال البشرى هى طبعاً فكرة أقدم من المذهب الداروينى^(٢٠) وقد وجدت هذه الحجة أنصاراً كثيرين فى الفترة محل الدرس كان أكثرهم أهمية: هربرت سبنسر الذى لم يضيف مع ذلك أى شىء سوى إحكام الفكرة عبر بحثه حول الانتقاء البيولوجى. ولم يعترض النقاد على علم الأحياء المعنى - فهم لم يكونوا فى وضع يسمح لهم بذلك فى معظم الحالات - بقدر اعتراضهم على تطبيق مفهوم الانتقاء الطبيعى على وقائع الانتقاء الاجتماعى، على عادة مطابقة 'الصلاحية' fitness، التى تساعد على البقاء، بالخصائص 'المرغوبة اجتماعياً'، وغير ذلك مما أصبح الآن أمراً بالياً ومألوفاً. تلزم الإشارة إلى نقطتين تبعثان على الأسف حول هذه المناقشة. فقد أخفق الاقتصاديون كلياً فى منح هذه المشاكل المقدار الذى تستحق من الاهتمام: فمعظم مساهماتهم هى عبارات حادة، مؤيدة أو معارضة؛ وأن الاقتصادى الوحيد بين الكبار ممن أبدى اهتماماً أكثر هو بيجو Pigou؛ وإليه أحيل القارئ الراغب بمعلومات أكثر^(٢١) والأسوأ من ذلك هو أن الاقتصاديين، عند إعرابهم عن التأييد، كشفوا عن درجة هائلة من تأثير التحيز الأيديولوجى^(٢٢). ويصح هذا الأمر، إن لم نقل أكثر، على من سخروا من فكرة وجود خطر محتمل على نوعية رأس المال

(١٩) يمثل رأى السليم فى هذا الخصوص إحدى حسنات كاتب لم تعترف به المهنة الاقتصادية قط ويبدو منسياً الآن بشكل كلى، ربما لأنه امتك الشجاعة ليقول حقيقة لم يعتد عليها أحد: ولسيم ه. مالوك William H. Mallock (١٨٤٩-١٩٣٢). انظر عمله: Social Equality 1882 and Aristocracy (1898 and Evolution).

(٢٠) للحصول على مثال، انظر الجزء الثانى، الفصل الخامس، القسم ١ ج، أعلاه.
(٢١) حدث ذلك عام ١٩١٢. ومع ذلك، فأنا أشير إلى عمله: Economics of Welfare, 3rd rev. ed., 1929, Part 1, ch. 10. وترد فى صفحة ١١٠ عبارته المفرحة والشهيرة: 'البيئات والناس لها أطفال'.
(٢٢) من المهم أن نلاحظ إن الأيديولوجيا المعنية ليست طبقية بالضرورة. إنها كذلك فى الغالب طبعاً. ولكن قد لا يكون المرء قادراً أبداً على رؤية عنصر الحقيقة فى حجة الانتقاء لأنها ببساطة لا تتماشى مع بعض مخططاته أو مثله العزيزة عليه. ولا ترتبط هذه المخططات أو المثل بالموقع فى البنية الطبقية حصراً.

البشرى مثلما يصح على مَنْ أكدوها بصورة عمياء. وهكذا ظلت مسألة: الطبيعة مقابل التنشئة والتربية Nature versus Nurture فى حالة غير مرضية إلى حد بعيد حتى يومنا هذا.

ونلاحظ، ثالثاً، العمل الذى يعود للعنوان الثانى ولكننا نفصله هنا لغرض التأكيد، أى العمل فى حقل البيولوجيا الإحصائية والقياس البيولوجى الذى ندين له بمساعدته المنهجية المهمة. يكفينا اسمان كبيران: كارل بيرسون والسير فرانسيس غالتون.

من المؤكد أن كارل بيرسون Karl Pearson (١٨٥٧-١٩٣٦) لا يحتاج إلى أى تقديم أكثر مما يحتاج إلى نصب تذكارى غير ذلك الذى يمثله عمله Biometrika. ولذلك، دعونا نستعيد فقط مثليه المشهورين والحافلين بالأهمية: 'الجنور أساس المقدرة' و'الفشل يجدد البلاد'. أما السير فرانسيس غالتون Francis Galton (١٨٢٢-١٩١١)، فهو مَنْ يمكن أن أختاره كمثال توضيحى لو طُلب منى تحديد النوع الإنجليزى على وجه التحديد لرجل العلم العظيم والنوع الإنجليزى تحديداً للإبداع العلمى. كان غالتون طبيباً من حيث تعليمه، ولكنه رغم ذلك طاف بحرية وحيوية كاملة على كل أجزاء عالم الفكر التى أثارت اهتمامه. ودون أن يرتبط بالجامعة والتدريس، فقد طرح غالتون مشاكله وشرع بمعالجتها بأصالة فطرية تبعث على الإلهام التام: إذ كان أكثر العلماء صدقاً مع أنه كان أكثرهم بعداً عن الطابع الأكاديمى، شأنه شأن نظيره دارون إلى حد بعيد. وبهنا ما يلى من بين مآثره الكثيرة: من الممكن أن يقال إنه الرجل الذى اكتشف بصورة مستقلة فكرة الارتباط كأداة تحليلية مهمة؛ والرجل الذى رستخ علم تحسين النسل eugencis (وأسس مختبر تحسين النسل Eugencis Laboratory عام ١٩٠٥)؛ والرجل الذى أدرك أهمية، ومهّد لنوع جديد من علم النفس وهو علم النفس الذى يُعنى بالاختلافات بين الأفراد psychology of individual differences؛ والرجل الذى عالج، ولو وفقاً لمنهج غير وافٍ قط، مشاكل مسألة الطبيعة مقابل التنشئة والتربية (Hereditary Genius, 1869; Inquiries into Human Faculty and its Development, 1883; Natural Inheritance, 1889) - وكل هذه الأعمال تجعل منه،

بحسب وجهة نظرى المتواضعة، واحدًا من ثلاثة كأعظم سوسيولوجيين: والاثنان الآخران هما فيكو Vico وماركس.

ونلاحظ، رابعًا، النظريات العرقية racial theories. تشكل هذه النظريات مجموعة فرعية من النظريات البيولوجية، كما نفهمها هنا^(٢٣). من الممكن تمامًا، طبعًا، أن نعتقد بأن مدى الاختلاف بين الأفراد كبير جدًا- تصور، مثلًا، الاختلافات الهائلة التى نشاهدها فى المواهب الرياضية أو الموسيقية- وحتى بأن وضع فرد ما فى التوزيع الإحصائى هو مسألة وراثية أساسًا وذلك دون الاعتقاد بأن الصفات المهمة سوسيولوجيًا تختلف اختلافًا عرقيًا. وعليه، فالإيمان بهذه الأخيرة يشكل المظهر الخاص للنظريات العرقية. وبعيدًا عن العلم، فإن هذا المعتقد 'العصرى' قديم قدم الإنسانية وأن نصبه التذكارى الشاهق هو العهد القديم Old Testament. ومع ذلك، فإن المحاولات الهادفة إلى إثباته وفق المناهج العلمية لم تحدث قبل وقت طويل من الفترة محل الدرس. وهذا يفسر لماذا امتنعت عن ذكر العمل الأقوى فى هذا الحقل (عمل غوبينو) فى الجزء الثالث، مع أنه يعود إلى هذا الأخير زمنيًا. والكاتب الآخر الوحيد الذى ستم الإشارة إليه هو آمون. أما الرأى الآخر، فى أعلى صورته، فيمثله بواس^(٢٤). وما يبرر الإيجاز الشديد هو حقيقة أن الاقتصاديين، الذين

(٢٣) إن التكافل فى إقليم معين، وبخاصة حينما تعزز الوحدة السياسية من تأثيراته، يكفى عمومًا لخلق عدد معين من المصالح والعادات المشتركة، ووعى هذه المصالح والعادات أيضًا. إن هذه الوقائع لم توضع محل شك قط. كما لم توضع موضع الشك أهمية، بالنسبة للسوسيولوجيا، الواقعة الأخرى القائلة إن هذه الوقائع تميل لأن تخلق أنواعًا ثابتة نسبيًا relatively durable من السلوك- 'وطنية'، مثلًا. ونقصد بالنظريات العرقية فقط تلك النظريات التى تربط هذه الأنواع من السلوك بالخصائص الطبيعية التى هى مشتركة بين المجموعات. تتبغى ملاحظة أنه ما دامت تلك الأنواع 'النفسية' أو 'الحضارية' تمتلك درجة ما من الثبات. ولما كانت الأنواع الطبيعية غير مستقرة بصورة مطلقة، فإن هذين النوعين من التمايز يميلان إلى الذوبان أحدهما فى الآخر. ومع ذلك، فمن المهم الآن بالذات التشديد على تمايزهما النظرى.

(٢٤) اكتسب جوزيف آرثر كونت دى غوبينو Joseph Arther Comte de Gobineau (١٨١٦-١٨٨٢) الخلود بفضل القوة المتميزة لرواياته وخلاصاته التاريخية (مثل Renaissance, 1877) التى ينبغى تقييمها عاليًا كأعمال سوسيولوجية. ويهمنى هنا عمله Essai sur l'inegalite des races humaines (5-1853) - وهو عمل يتمتع، كما هو شأن رواياته، بقوة شخصية مؤثرة مما يفسر لماذا يشدد نصنا فى المتن على عنصر 'القوة' strenght حيث يجرى استعمال الكلمة بمعنى يختلف عن المعنى الذى نتحدث فيه مثلًا عن قطعة قوية من النقد strong، أى مقنعة. ولكن الرؤية العظيمة تشوهها تقريبًا المناهج المعيبة- بل مناهج الهواة فى الواقع- والسخافات الواضحة، رغم أن من يدين غوبينو وفقًا لهذه الأسس لن يستطع قط أن يعجب بماركس إن شئنا أن نكون منصفين ومنطقيين. وبالنسبة للمادة=

يهتمون أو ينبغي أن يهتموا كثيرًا بمدى اختلاف 'قدرات' الأفراد وبمسألة موروثهم، لا يهتمون إلا قليلاً بالجانب العرقى على وجه التحديد من هذا الأخير. وفي الواقع، فإن فينر سومبارت Wener Sombart هو الاقتصادي البارز الوحيد الذي استفاد ذات يوم من عنصر العرق، بقدر ما أعلم^(٢٥). والملاحظة الوحيدة التي أشعر هنا بضرورة طرحها هي أننا هنا أمام حالة كان فيها من المستحيل تقريباً أن يتم تناول مشكلة حقيقية بسبب أشياء لا يمكن أن توصف إلا كأفعال صيبانية متصارعة- صيبانية كلا طرفي السجال. ذلك لأن المشكلة هي مشكلة حقيقية وليست مجرد إفراط في أوهام ساخنة. وهي ضرورية للسوسيولوجيا من نواح عدة، لا تشكل منها نظرية الطبقات الاجتماعية سوى حالة واحدة^(٢٦).

[د) السوسيولوجيا الثقافية] حينما يتأمل القارئ كم توسّعنا في تعريف السوسيولوجيا التاريخية، فإنه قد يتعجب عما إذا كان يمكن أن تكون هناك أي

=الطرق، فإن الفرد أ. أمون Alfred A. Ammon (١٨٤٢-١٩١٦) أفضل كثيرًا، مع أنه يبقى معرضاً لعدد من الاعتراضات (انظر عمله 1895. Gesellschaftsordnung). كان السوعي العلمي والكفاءة العالية تدفعان البروفيسور فرانس بواس Franz Boas (انظر بشكل خاص عمله The Mind of the Primitive Man, 1911 - علماً بأن الأصل الألماني يستعمل الكلمة kulturarm بدلاً من الكلمة primitive) لوضع تسويات تؤثر - وبخاصة ما بين السطور - بصورة أعمق مما يدرك هو نفسه على ما يبدو: فليست كل استنتاجاته- السلبية بصورة قاطعة - تترتب على الوقائع المقدمة. وأتخوف من ختام هذا الهامش بتقديم قطعة من النصح تفرض نفسها مع الأسف في المسائل السوسيولوجية والاقتصادية في الغالب: اقرأ خصوص النظرية العرقية لمعرفة جوانبها القوية، واقرأ أنصار النظرية العرقية لرؤية جوانبها الضعيفة.

(٢٥) وورد ذلك في كتابه (Die Juden und das Wirtschaftsleben (1911 ; English trans. 1951) الذي يصعب أن يوصف كنموذج للتحليل. ولكن الإشارات العرضية إلى العرق هي الغالبة في الكتابات الاقتصادية. وقد سبق لنا أن لاحظنا إحدى هذه الإشارات في عمل ج. س. ميل: Principles.

(٢٦) تمثل تعاليم عالم الانتباهات من جامعة كمبريدج أ. س. هادون A. C. Haddon مثلاً ساطعاً حول موقف علمي من المشكلة وحول الاستعمال الفعال للمادة الاثنية عند التعامل معها. ولكن هذا كان في محاضراته؛ ولا أستطيع العثور عليه في عمله المنشور. ويلزم أن نشير إلى كاتب آخر (كان مشهوراً ذات يوم ولكنه منسى تقريباً اليوم) تتميز معالجته للموضوع بتحررها من العنصر الخاص الذي يولد الآن كل الاضطراب trouble وتوضح كيف يمكن استغلال القدرة التفسيرية للاختلافات العرقية دون افتراض وجود علاقة فريدة بين الخصائص العرقية والثقافية، وقيل كل شيء، دون افتراض أي شيء حول 'الأفضلية' أو 'الدونية' الشاملة لعرق معين بالمقارنة مع الأعراق الأخرى. وهذا هو عمل لودفيك غومبولفيچ Ludwik Gumplowicz، ١٨٣٨-١٩٠٩ (بروفيسور القانون العام في جامعة غراس): (1885) Grubdriss der Soziologie and (1883) Rassenkampf - رغم أن علم الانثروبولوجيا (المادية) لديه يفقد شيئاً ما.

سوسيولوجيا غير - تاريخية. فكل سوسيولوجي أو تاريخي، مهما كان ميله إلى التأمل الفكري، لابد من أن يستعمل بعض الوقائع التي يحمل معظمها طابعاً تاريخياً وفقاً لفهمنا لهذا المصطلح. ولكني لم أقصد هذا الأمر. فنحن لا نعرف كاتباً ما كسوسيولوجي تاريخي إلا حينما ينجز بنفسه بحثاً تاريخياً أو اثنيًا جدياً، أو يتوصل، على الأقل، إلى نتائج بواسطة تحليل يستند على عمل كهذا ينجزه كتاب آخرون. فالاستعمال العابر للوقائع التاريخية لأغراض التوضيح أو حتى لتدقيق نظرية معينة لا يجعل من الكاتب المعنى سوسيولوجياً تاريخياً. وبالمثل، فإن النقطة الجوهرية تفوت على القارئ الذي يتعجب عما إذا كان يمكن أن تكون هناك أي سوسيولوجيا غير - نفسية لأنه من العسير حقاً تصور أي قطعة من التحليل السوسيولوجي لا تستخدم وقائع 'نفسية' psychic من هذا النوع أو ذاك. إذ إن استعمال طرق ونتائج علم النفس المهني هي التي، في كتابنا هذا، تعرف السوسيولوجيا النفسية أو علم النفس الاجتماعي (انظر القسم ٥٣، أدناه) وليس استعمال وقائع تستمد من التجربة العامة، ويقوم السوسيولوجي نفسه بملاحظتها ومفهمتها، مهما كان الطابع النفسي لهذه الوقائع. في الفصل السابع أدناه، سندرس بشيء من التفصيل مثلاً اقتصادياً عن هذا التمييز من شأنه أن يعلمنا أن هذا ليس مسألة كلمات بل نقطة ذات أهمية منهجية كبيرة ومصدر لإساءات فهم كثيرة. وقد عززت هذه الأخيرة حقيقة أن السوسيولوجيين والاقتصاديين الذين لم يستعملوا علم النفس المهني بصورة جدية قط ولم ينجزوا أبداً أي عمل يتطلب أي من طرقه، ولكنهم مع ذلك، وصفوا منهجهم كمنهج نفسي وعرضوا بذلك بناءهم النفسية الزائفة إلى النقد المهني دون ضرورة لذلك.

ولذلك، سنسلم بأن الفترة شهدت نمو سوسيولوجيا تلقائية (أو مستقلة) autonomous sociology كانت لها مشاكلها وطرقها، حتى ولو إن منتجات هذه السوسيولوجيا كانت تزخر بمفاهيم وفرضيات نفسية مزعومة وتاريخية مزعومة. إن المجتمع، والطبقة، والفئة، البنية، الهيمنة والخضوع، والقيادة، والهضم، والتكيف، هي أمثلة على البنود على دخلت ذلك الجزء من هذه السوسيولوجيا

التلقائية الذى وصفناه أعلاه بسوسيولوجيا المراكز القيادية headquarters أو 'السوسيولوجيا البحتة' headquarters or pure sociology. كولى^(٢٧)، غيدندس Giddings، هوبهاوس Hobhouse، روز، سيمل، شبان، ستيفن^(٢٨)، تارد، تونيس Tonies، هم الكتاب الذين يمثلون مناهج مختلفة كثيرًا منها مع أننا - لو تيسر لنا المجال - كنا سنرد الكثير من هذه الاختلافات إلى أقل كثيرًا مما كان سيتصور هؤلاء الكتاب أنفسهم - ممن تتبغى قراءة أعمالهم كلهم، رغم ذلك - إنها اختلافات ممكنة أو مرغوب فيها^(٢٩). ولم تخلق جهود هؤلاء الكتاب والكتاب الآخرين حقًا أى 'سوسيولوجيا عامة' مقبولة على نطاق واسع، كما هو شأن 'الاقتصاد العام' فى الفترة السابقة. فمثل هذه السوسيولوجيا العامة قد جرى التلميح إليها أكثر مما أنه قد تم خلقها. وربما لم يكن ذلك طبيعيًا إلا بالنسبة لعلم كان يصارع من أجل الوجود. ولكن لا بد من تفسير حقيقة أن الفترة التالية لم تكمل هذه المهمة. من الواضح إن سبب هذا كان يعود، أو يعود، إلى أن السوسيولوجيين المهمين لم ينكبوا عليه بدرجة كافية. وهذا يرجع بدوره ليس فقط إلى حقيقة أن المشاكل

(٢٧) جارس ه. كولى Charles H. Cooley (١٨٦٤-١٩٢٩)؛ دعونا نذكر عملاً متميزاً لهذا الكاتب: (Social Organization 1900) وكذلك عمل جون ديوى John Dewey: Human Nature (1922) and Conduct).

(٢٨) لا ينبغي ألا نذكر: غ. ف. ستيفن G. F. Stefen (١٨٦٤-١٩٢٩)، القائد الاشتراكي السويدي (١٩١٠-١٩١١).

(٢٩) لقد قمت بتدوين الأسماء المذكورة - المنتقاة على نحو غير عادل بالنسبة للآخرين - لتوضيح أنواع الأدب السوسيولوجي التي قصدت الإشارة إليها وكذلك لتزويد القارئ بإحاطة من شأنها أن تقوده أبعد تلقائياً. ومن المؤسف أن أهمل الملاحظات التي كان يمكنني استعمالها لتوصيف عمل كل واحد منهم. ومع ذلك، ثمة ملاحظة يتعذر استبعادها. لو جمعنا كاتبين متناقضين مثل سيمل وشبان، فمن شأن هذا أن يبدو للناقد كشيء لا يفسره إلا جهلى الكامل أو محدودية فهمي على الأقل. وأنه يجد تفسيراً آخر لكون قائمتي للسوسيولوجيين غير - النفسيين تضم الكاتب (إي. أ. روز E. A. Ross) الذى كتب العمل (Social Psychology 1908) وكاتباً آخر (غابرييل تارد Gabriel Trade) كتب العمل (La Psychologie economique 1901). ولذلك، سوف أشير إلى خطين يمكن أن تمضى عليهما محاولة لتقليل الاختلافات: فمن ناحية، بوسعى أن أوضح إن هذه الاختلافات تعود، إلى حد كبير الدهشة، إلى فلسفات وعقائد منهجية أثرت على اللغة أكثر مما أثرت على المحتوى؛ ومن ناحية أخرى، يمكنني أن أبين أن الاختلافات من النوع الأخير خلقت فرضيات مكملّة أكثر مما هي متنافرة. إن الكاتب الذى يرجع أكل لحوم البشر إلى طموحات روحية معينة من شأنه عموماً أن يتصور أنه قال شيئاً لا يتمشى قط مع النظرية التي تضع أساس تفسير أكل لحوم البشر في حقيقة أن طعم اللحم البشرى يشبه طعم لحم الخنزير، وأنه، فى الظروف التي يجرى فيها أكل لحم البشر، طعام شهى recgerche {نادر}. ولكن الأمر ليس كذلك.

الخاصة أو 'الوقائعية' جدا كانت تستغرق بصورة متزايدة جهود السوسيولوجيين في عهود ما بعد الحرب، ولكن ثمة عامل آخر أيضاً: وهو أن النظرية البحثية لا تزدهر حقاً إلا في الحقول الكمية؛ وحيثما تكون المشاكل غير رياضية بالضرورة، فإن نطاقها يكون محدوداً إلى حد كبير جداً وتفشل حالاً في جذب الانتباه. ونمضى الآن لتقديم بعض الأمثلة من الأعمال المقدمة خلال الفترة في حقول خاصة، تعود، رغم ذلك، إلى السوسيولوجيا التلقائية (أو المستقلة) - السوسيولوجيا التي لم تستعر طرق ونتائج من الخارج. ونختار دوركهيم لتمثيل سوسيولوجيا hierology، وأرلخ لتمثيل سوسيولوجيا القانون، ولى بون لتمثيل سوسيولوجيا السياسة politics.

لا ينبغي استبعاد اسم دوركهيم من هذه الصفحات لأسباب أخرى غير كونه أحد سوسيولوجي الدين الكبار. فإضافة إلى مساهمته في عدة حقول خاصة أخرى، فقد شكّل دوركهيم مدرسة في السوسيولوجيا كانت تأخذ بطريقة تقوم على مبدأ لم يكن جديداً ولكنه أخذ شكلاً خاصاً على يديه. إذ إنه أدرك أن السلوك الفردي لا يمكن تفسيره قط وفقاً لوقائع تتعلق بالفرد نفسه فقط وأن من الضروري مراجعة العوامل المؤثرة في بيئته الاجتماعية. وهذا يمكن أن يتحقق بطرق عدة. وطريقة دوركهيم هي بناء فكر جماعة a group mind - أو فكر قبيلة tribal mind، لأن طريقته كانت معنية بتفسير الأشياء وفقاً لمادة تخص الحضارات البدائية - يشعر ويفكر ويتصرف في حد ذاته. ولما كانت هذه الفكرة نفسها تعود لأصل رومانتيكي، فبوسعنا وصف موقف دوركهيم كنوع من الرومانتيكية الوضعية. إن التفسير الأساسي لظاهرة الدين، مثلاً، والذي يُشتق من ذلك المبدأ يمكن التعبير عنه بواسطة العبارة: الدين هو تأليه الجماعة لنفسها. ولم تُبدل أى محاولة لدعم هذه النظرية بأى شيء يشبه علم النفس المهني، الاجتماعي أو غيره. وهذا يفسر لماذا لا ينبغي خلط طرق دوركهيم^(٣٠) بطرق ليفي-برول.

(٣٠) انظر بشكل خاص: Emile Durkheim (1858-1917), *Les Formes elementaires de la vie religieuse* (1912 ; English trans., 1915) ; *De la Division social* (1893), and *Les Regles de la methode sociologique* (1895). ثمة أدب واسع حول دوركهيم. ويهتم به البروفيسور بيتيريم سوروكين Pitirim Sorokin في عمله: *Contemporary Sociological Theories* (1928) - وهو عمل انتهاز هذه الفرصة للتوصية به.

تضمنت 'فلسفة' القانون التي قدسها تقادم الزمن عناصر سوسيولوجية أصيلة دائماً، طبعاً. وقد تواصلت هذه الفلسفة خلال الفترة - وذلك، جزئياً، بفضل الحاجة إلى مقررات عن 'تاريخ فلسفة القانون' - ولكن بمعزل عن هذا، فقد تطور بحث علمي تحديداً في الظواهر القانونية. وقد تمثل أحد الخطوط الأكثر أهمية للتقدم في دراسة الأفكار والعادات القانونية الفعلية للناس ('القانون الدارج'، *Lebendes Recht*) وفي وضع تعميمات من هذه الأفكار والعادات وليس تجريدات فلسفة التشريع *jurisprudence* التي هي أساس نظرية الممارسة القانونية. وهذه كانت فكرة أرلخ Ehrlich التي أثمرت تكوين جامعة نمساوية صغيرة في ظل أقل الظروف ملائمة واجتذبت الاهتمام العالمي، ولو المتقطع، بجهدا البحث^(٣١).

ولم يبقَ قسم من الحياة الاجتماعية في حاجة ماسة إلى البحث الذي يوجهه الاهتمام العلمي مثلما بقي علم السياسة، حيث تمخضت أحلام الفلاسفة عن أعمال إيديولوجية تهمل كلياً أكثر الوقائع وضوحاً. فقد دأب علماء السياسة والاقتصاديون معاً، عند الحديث عن السياسة العامة، على بناء صور ملونة كانت لمصلحة عامة ما تشكل المثل الأعلى الذي يطمح 'رجال السياسة' إلى متابعته، وحول دولة كانت تطوف في السماوات كأنها إله الخير^(٣٢). أما وقائع الصراع بين الجماعات، والأجهزة السياسية المصغرة في داخل الحكومات والأحزاب نفسها *machines*، الزعماء، الضغط الذي تمارسه دعايات جماعات الضغط، الاضطراب النفسي العام *mass psychosis*، والفساد، فقد نُظر إليها كانهزافات - وتم اعتبار 'السياسة الحزبية' كشيء كان ينبغي أن لا يوجد حقاً - بدلاً من النظر إليها كأشياء أساسية. لكن تلك الفترة شهدت بداية شيء ما من قبيل صحوة الوعي العلمي وكذلك ظهور السوسيولوجيا السياسية - أي دراسة المؤسسات السياسية كما تعمل بالفعل. كعلامة،

(٣١) Eugen Ehrlich (1862-1922), *Grundlegung der Sozialogie des Rechts* (1913) ; see Roscoe Pound, 'Scope and Purpose of Sociological Jurisprudence,' *Harvard Law Review* (1911-2).

(٣٢) سبق أن لاحظنا أن سمث كان متحرراً من ذلك الشيء، بينما لم يكن جيمس ميل كذلك. سمث لم يكن 'نصيراً' لتدخل الدولة 'statist' طبعاً، ولكن المبادئ الأساسية لمثاله عن الديمقراطية كانت تخلق كثيراً من الاهتمام بالتحليل.

كان بوسعنا أن نختار العمل الممتاز لكاتب ممتاز من شأن كل فرد أن يقرأه وهو يشعر بالمتعة والفائدة معاً^(٣٣). وبدلاً من ذلك، فأنتى اختار كتب كاتب-كانت موفقة حينذاك بينما خنقها النقد العدائي في الوقت الحاضر- تكمن ميزتها في أنها توضح بقوة لا تُضاهى نقطة لها أهمية أساسية لتحليل ليس فقط الحركة السياسية بل حركة أى مجموعة أيضاً. فعمل لى بون هو عمل ينتمى إلى فئة واسعة: فئة الأعمال التى تجيد أن تُبرز أمام أعيننا وبالتالي 'تكتشف' لأغراض التحليل، ما كان يعرف كل فرد أنه صحيح فى الحياة اليومية. فكل واحد يعرف، من تجربته، أنه حينما يتجمع الأفراد، ولا يهم إن كان هذا تجمع غوغاء مهتاجون فى شارع فى مدينة غير-إنجليزية (ذلك لأن الرعاع الإنجليز لا 'يهيجون') أو تجمع لجنة جامعية من قدامى الأساتذة، فأنا نهبط إلى مستوى من الذكاء والأخلاق والمسئولية يقل عن المستوى الذى اعتدنا عليه حينما نفكر ونتصرف من تلقاء أنفسنا. إن ميزة تقديم هذه الظاهرة بكل مضامينها كبيرة حقاً، رغم كل شيء يمكن طرحه ضد مادة وطرق لى بون^(٣٤).

أخيراً، ينبغي علينا أن نذكر ثلاثة أعمال أخرى لها أهمية كبيرة كتبها مؤلفون اقتصاديون: فيلن، فيزر وباريتو. ومع ذلك، فإن المجال المتاح لا يسمح لنا بتقييمها أو حتى مجرد وصفها. أما العمل السوسيولوجى لماكس فيبر، فسنشير إليه فى الفصل الرابع، أدناه^(٣٥).

(٣٣) Human Nature in Politics (1908 ; 3rd ed., 1914) by Graham Wallas
(٣٤) Gustave Le Bon (1841-1931), La Psychologie des foules (1895 ; English trans.: The Crowd ; A Study of the Popular Mind, 1896, 16th impression, 1926). وقد قاد هذا الكتاب إلى أدب واسع نجح إلى حد بعيد فى إزالة الاعتراضات التقنية. ولكن الدفاع الذى تقوم به المحاجة الرشيدة لن ينقذ أبداً فكرة أو حقيقة ما غير مستحبة.
(٣٥) يرد عمل ثورشتاين فيبلن Thorstein Veblen كله فى حقل السوسيولوجيا الاقتصادية ولكننى أشير تحديداً إلى عمله (Theory of Leisure Class (1899). أما عمل فردريك فون فيزر Friedrich von Wieser (الذى يمكن أن يُترجم إلى: Sociology of Power - Gesetz der Macht) كأفضل ترجمة له) فقد ظهر فى extenso عام ١٩٢٦، ولكن الفكرة الأساسية كانت قد قدمت فى العمل (Recht und Macht (1910). وقد حقق عمل فيلفريدو باريتو Vilfredo Pareto: Trattatto di sociologie generale (1916) الذى ظهرت ترجمته الإنجليزية تحت عنوان Mind and Society (1935) نجاحاً كبيراً فى الولايات المتحدة خلال الثلاثينيات. ولم استطع قط التأكد من أن ذلك يعود إلى المخطط التحليلي المهم لذلك العمل أم إلى غزارة الوقائع المحلية التى قدمها باريتو حول إمكانية فناء الليبرالية المنفسخة.

٣- علم النفس

من العسير وصف ثروة الفترة المدروسة من التطورات في حقل علم النفس المهني- بالمقارنة مع العمل ذي الطبيعة النفسية إلى هذا الحد أو ذاك المتحقق في حقول أخرى- رغم إن معظم هذه الثروة يعود إلى جذور قديمة وأن قسماً منها فقط يحمل منطقات جديدة. ومع ذلك، يمكننا لأغراضنا أن نرد هذه التطورات إلى خمسة بنود: (أ) علم النفس التجريبي، (ب) المذهب السلوكي، (ج) سايكولوجية الجموع، (د) علم النفس الفرويدي، (هـ) علم النفس الاجتماعي. ولم يمارس أى من هذه البنود أى تأثير حقيقى- بالمقارنة مع التأثير اللفظي- على البحث الاقتصادى. ولكن من الضروري الإشارة إليها لأن تطورها يلقى ضوءاً على السياسة الاجتماعية Zeitgeist في الفترة المدروسة وكذلك لما لها من تأثير محتمل سيتم التعرض إليه في كل حالة خاصة.

(أ) علم النفس التجريبي إن البحث عن وقائع قابلة للقياس أو على الأقل وقائع يمكن ملاحظتها بطرق أخرى غير المعاينة الداخلية introspection لم يكن جديداً طبعاً. فعلم النفس كان دائماً وقائعياً بهذا المعنى observational. وأن الكثير من أنصاره أعلنوا على الدوام التزامهم بطريقة علم الطبيعة. ولكن 'التجريبية' empiricism لدى هوبز، ولوك، وهيوم، وميل، بقدر تعلق الأمر بعلم النفس، كانت نظرية فحسب programmatic ولم تشجع على الاختبار experiment والقياس الفعلي. لقد تطور هؤلاء في الفترة السابقة واستجمعوا الزخم في الفترة قيد الدرس. ويشكل إنشاء المختبر النفسى العلامة الأكثر وضوحاً على ذلك. ويمكن أن يخدم كمعلم مختبر لايبزيك الذى وضعه ونت^(٣٦). فقد مارست طرق وروح هذا المختبر

(٣٦) يمتل ويهيلم ونت Wilhelm Wundt (١٨٣٢-١٩٢٠) أحد أبرز رجال العلم وأكثرهم تأثيراً في ذلك العهد. لم يكن أصيلاً من الدرجة الأولى، بيد أنه كان عاملاً وكاتباً، وقائداً، ومدرساً، على نحو لا يصدق من الهمة والفعالية، وقد ترك بصماته على خطوط التقدم الأخرى (انظر الفصل الثانى، القسم ٤، أعلاه). يمتلك مختبر لايبزيك تاريخاً طويلاً وهو ثمرة ناضجة لخط طويل من الجهود السابقة. تلقى ونت تعليمًا طبيًا ومضى لدرس علم النفس من ناحية علم الفلسفة بطريقة تجعله وريثاً مباشراً لـ ر. ه. لوتز R. H. Lotze (Medicinische Psychologie, 1852). وما يلي يمتل الكتاب الذين يمكن أن يصلحوا كمعالم بالنسبة للقراء الراغبين بمتابعة جذور ما كان في الماضى أحياناً وما يمكن أن=

تأثيراً أساسياً حتى على كُتّاب مثل وليم جيمس وغ. ستانلى هال اللذين تجاوزا حالاً كلاً من النطاق الضيق لعلم النفس التجريبي بهذا المعنى experimental psychology والرسالة الشخصية لونت. كما تطور كثيراً المتّم الإحصائي لهذا النوع من العمل فى الولايات المتحدة فيما بعد (ادوارد ل. ثورندك Edward L. Thorndike). وثمة إشارة فى الهامش أدناه إلى أحد الفروع الكثيرة لهذا العمل الذى كان يجب أن يثير اهتمام الاقتصاديين كثيراً ولكنهم لم يفعلوا هذا^(٣٧).

وقد وجد عمل ونت المتعلق بالمختبر تكملة مثيرة له فى عمله ذى المجلدات العشرة: (Volkerpsychologie 1900-1920). وهذا العمل هو دراسة حول اللغة والأسطورة والعرف يبدو أنه على علاقة بأفكار هوبز وفيكو أكثر مما بمختبر لايبزك. وأنه يُذكر هنا بدلاً من درسه ضمن السوسيوولوجيا الاثنية التى يعود إليها حقاً لأن هذا النوع من البحث^(٣٨)، وفقاً لوجهة نظر ونت وضمن إطار مخططه الفكرى، يكمل بالفعل المادة التى قدمها المختبر، رغم أنه يحقق هذا عبر فجوة واسعة ومع أن الأمر ليس كذلك من أى زاوية أخرى. ولم يبدِ علم القياس النفسى الحقيقى psychometrics أى ميل لولوج حقل الظواهر الاجتماعية إلا فيما بعد.

= يلوح فى نقطة ما من المستقبل كحليف مهم للنظرية الاقتصادية: يوهانس بيتر Johannes Peter Muller، إى. ه. ويبر E. H. Weber، غ. ت. فيجندر G. T. Fechner، إيwald هيرنغ Hering، ه. فون هيلمهولتز H. von Helmholtz - وكلهم علماء نفس فسلجيون تركّزت أعمالهم على قياس الحس Measurement of Sensation (علم الفيزياء النفسى psycho-physics). ومن المهم ملاحظة أنه لم يحدث أن قام الاقتصاديون إلى الآن باستشراف الإمكانيات التى يمكن أن يتيحها هذا اللون من البحث (حول هذا الأمر، انظر الفصل السابع أدناه).

(٣٧) تلك هى دراسة الاختلافات بين الأفراد من حيث صفاتهم وبخاصة قابلياتهم. ومن الضروري التمييز بين جذور وألوان كثيرة، لن أذكر سوى واحد منها يرتبط بتعاليم ونت Wundt ويمثله عمل وليم ستيرن William Stern (1911: Differentielle Psychologie) وعمل آخر ينحدر إلى حد ما - وذلك بقدر ما يحقق فكرة معينة خاصة به - من غالتون Galton وتمثله نظرية جارلس سبيرمان Charles Spearman حول العامل المركزى (انظر عمل الأخير: Abilities of Men, 1927)، الذى يتضمن مسحاَ عاماً حول الحقل). وتتبعى على الاقتصاديين قراءة كلا العاملين. وبطبيعة الحال، فإن هذا الجانب الخاص من علم نفس الطفل وعلم أصول تدريس الطفل يمتلك أيضاً أهمية واضحة بالنسبة لنا (انظر مثلاً: E. L. Thorndike, Educational Psychology, 1913-14, vol. 111).

(٣٨) وهذا يفسر أيضاً لماذا أوردُ هنا الكاتبين لازاروس Lazarus وشتاينثال Steinthal (الذين تلاثهما عبارة Volkpsychologie التى تترجم عادة إلى folk psychology - علم النفس الشعبى، مع أن عبارة tribal psychology - علم النفس القبائلى من شأنها أن تعبر عن المعنى على نحو أفضل) اللذين يمكن اعتبارهما الكاتبين اللذين جاءا مباشرة قبل ونت فى هذا الحقل.

(ب) المذهب السلوكى يمكن القول بمعنى ما إن علم النفس المقارن (علم النفس الحيوانى بشكل رئيسى) ^(٣٩) والمذهب السلوكى Behaviourism ^(٤٠) من خلال علم النفس المقارن، نبعا من علم النفس التجريبي لدى ونت، رغم أنهما يمثلان منطلقين جديدين. ونظراً لاهتمام بعض الاقتصاديين الأمريكان بالأحكام النظرية للسلوكيين أكثر من اهتمامهم بأى من التطورات الأخرى فى علم النفس ^(٤١)، فمن المهم بالنسبة للقارئ أن يدرك القيود الشديدة التى يخضع لها تطبيق الأسس السلوكية على العلوم الاجتماعية. من الناحية الجوهرية، يعنى المنهج السلوكى إرجاع السلوك إلى ردود أفعال يمكن ملاحظتها بصورة موضوعية - أى ردود أفعال يمكننا ملاحظتها دون اللجوء إلى المعاينة الداخلية introspection أو أى تفسير نفسى آخر 'للمقاصد' meanings - أى إلى دافع يمكن السيطرة عليه بصورة موضوعية: إذ ينظر هذا المنهج إلى جهاز التفاعل reacting organism كفراغ كامل لا يملك أى ميول خاصة به (كما هو شأن 'الذهن' لدى لوك) ويتجنب (متجاوزاً لوك) النسيج الكامل من المفاهيم والتفسيرات التى تشير إليها كلمات كالوعى، والحس، والفهم، والإرادة، والدافع، أو الغريزة. وهذا يفسر لماذا كان سلوك الحيوانات الأقل تطوراً وأبسط ردود أفعال الإنسان فى مرحلة الطفولة المبكرة تمثل معقل المنهج السلوكى. إن أى خروج من حدود هذا المعقل هو إنجاز يساعدنا على العمل دون أدوات معينة يمكن تحدى صحتها. ولكن خارج النطاق الذى يسرى فيه هذا المنهج، أى خارج النطاق الذى يمكن فيه بالفعل توليد ردود أفعال يقررها حصراً الأداء الخاضع للسيطرة conditioning controllable، فإن المنهج لا يعود صحيحاً. إن التعميم القائل إن بيئة الإنسان فقط تقرر سلوكه الأمر الذى يتعذر إثباته تجريبياً experimentally هو استنتاج غير خاطئ بقدر ما هو خالى من المعنى. ولكن هذا التعميم بالضبط هو هدف حجة بعض السلوكيين: أنه يؤشر الحد

(٣٩) See C. L. Morgan, Introduction to Comparative Psychology (1894)

(٤٠) تعود تلك الكلمة والصياغة الأكثر راديكالية للبرنامج إلى جون بروداس واتسون John Broadus

Watson؛ انظر عمله ; (1914) Behaviour: An Introduction to Comparative Psychology

(also Behaviourism) (1925)

(٤١) وقد يفسر ذلك الأمر الاستعمال الواسع لكلمة Behaviour - سلوك فى الأدب الاقتصادى الحديث.

الذى يفصل منهجًا فى البحث سليم أساسًا عن أيديولوجيا ليس من الصعب فهم شعبيتها. ويبرز بوضوح الدعم الذى يقدمه هذا التعميم إلى المذهب البيئى المتطرف.

(ج) سيكولوجية الجموع تتطور سيكولوجية الجموع Gestalt Psychology (ايرنفيلز Ehrenfels، كولر Kohler، كافكا Koffka، ويرثايمر Wertheimer، ريزلر Riezler) عن حقيقة أساسية فريدة: إن أى عنصر من العناصر المكوّنة لمجموعة معينة يتعذر فهمه أو تقييمه أو تفسيره فرديًا: فصول ما فى أغنية، أو لون فى سجادة، أو حتى قدح النبيذ الذى يقدم مع العشاء، لا يمكن قط أن يتم الشعور بها 'experienced على انفراد وإنها، إذا صح التعبير، كانت ستعنى شيئًا آخر له معنى مختلف تمامًا عما تعنيه بالفعل أى حينما تؤخذ كجزء من المجموعة المحددة التى تحدث فى إطارها. إن كل ما يلزمنا قوله حول هذا الاكتشاف المهم جدا، كما هو واضح- فهو كان كذلك بالضبط، رغم أن صياغاتي تبدو مبتذلة- هو ما يلى. أولاً: إن تطوره يعود إلى الفترة اللاحقة بشكل رئيسى وأن الفترة محل الدراسة لم تشهد سوى بداياته؛ ثانيًا: إن من بين التطبيقات الكثيرة الممكنة لسيكولوجية الجموع، ثمة تطبيق واحد على الأقل له أهمية كبيرة. إذ يمكن استعمال سيكولوجية الجموع للتوصل إلى مفهوم معقول وغير-غيبى للجماعات النفسية-السوسيولوجية psycho-sociological collectives كالمجتمع نفسه، مثلاً.

(د) علم النفس الفرويدى قبل نهاية القرن، كان التحليل النفسى عبارة عن طريقة للعلاج- تعود لتعاليم ج. م. شاركو J. M. Charcot فى باريس- حققت نجاحات كبيرة، وبخاصة فى حالات الكبح 'الهستيرى' للحركة hysterical inhibition، على يد جوزيف بروير Joseph Breuer و سيغموند فرويد Sigmund Freud. ولكن عند حوالى العام ١٩٠٠، بدأ هذا التحليل بالتحول إلى نظرية عامة حول أداء العقل البشرى- رغم أنه بقي كطريقة علاجية therapeutic method. إن الفكرة القديمة حول وجود شخصية خفية وصراعها مع الذات الواعية قد جرى

إحكامها وتفعيلها بصورة لا مثيل لها على يد فرويد^(٤٢). ولا يسعني مرة أخرى - وقد لا يلزمني - سوى الإشارة إلى الإمكانات الضخمة التي تلوح في المستقبل لتطبيق مذهب فرويد على السوسولوجيا - وبخاصة السوسولوجيا السياسية - وعلم الاقتصاد. إن سوسولوجيا فرويدية لعلم السياسة (وبضمنها السياسات الاقتصادية) يمكنها ذات يوم ما أن تبرز في أهميتها أى تطبيق آخر لمذهب فرويد، رغم أن ما تحقق لحد الآن هو بداية صغيرة ليس إلا (دبليو. ه. ر. ريفر W. H. R. Rivers). كما لا يسعني تناول تيارات الفكر الأخرى التي تظهر ندية مع تيار فرويد مهما اختلفت في المنهج والهدف من النواحي الأخرى. ومع ذلك، فأنتى أذكرت. ريبوت^(٤٣).

(هـ) علم النفس الاجتماعى يُعرّف هذا الفرع عادةً بصورة موسعة لكى يشمل كل أنواع البحث التى لها صلة مهما كانت بالوقائع النفسية المتعلقة بالظواهر الاجتماعية، وبخاصة كل البحوث القائمة على مفهوم فكر مجموعة ما أو فكر وطنى أو كل الجماعات collectives من هذا النوع. قد يفيد هذا التقليد لغرض تنسيق كل المصادر المتصورة للوقائع أو المقترحات التى يُتصور أنها ذات صلة. ولكننا لا نستطيع أن نتبناه لأنه يجعل علم النفس الاجتماعى غير ذات فائدة كأداة للتصنيف pigeonhole (وهذا هو الاستعمال الوحيد لهذا المصطلح هنا): فمن زاوية أغراضنا، ليس ثمة معنى قط لأن نضم معاً كتاباً ومناهج تختلف عن بعضها بدرجة واسعة مثل: هيردر Herder والفلسفة الرومانتيكية والتاريخ، سترمارك

(٤٢) بوسع القارئ الرجوع إلى كتابات فرويد التى تتوافر عنها الآن نسخة أمريكية رخيصة. ويرادونى شعور أن جملى القليلة حول فرويد كان يمكن تفسيرها بمعنى يحمل الازدراء. ولكن لا شئ أبعد من ذلك عما قصدته. فكل الأعمال العظيمة لا تمثل سوى أفعال من الإبداع كانت قد سبقها تاريخ طويلة كانت موجودة قبل صدورها. كان لدى فرويد عدد كبير من التلاميذ ممن انشطروا، مع ذلك، إلى مجموعات مختلفة يتعذر قط تسمية بعضها كمجموعات فرويدية. ولكن كان يتوقع منهم كلهم (أى الكل منهم الذى أعرفه) أن يخدموا العلوم الاجتماعية.

(٤٣) انظر بشكل خاص: Theodule Ribot (1839-1916), *Maladies de la personnalite* (1885) (English trans. 1895) - وهذا كتاب آخر أرى ضرورة قراءته من قبل الاقتصاديين. والندية المشار إليها فى المتن تبرز بصورة واضحة ليس بالمقارنة مع كتابات فرويد نفسه بقدر ما هى مع كتابات بعض الكتاب ممن شرعوا كأتباع لفرويد، وبخاصة الفرد أدلر Alfred Adler. كما تنبغى الإشارة إلى كتاب آخر من كتب ريبوت: (Evolution of General Ideas (English Trans. 1926).

Westermarck أو تايلر Tylor والانثربولوجيا الحضارية، روز Ross والسوسيولوجيا 'الثقائية'، وهكذا... وعليه، يتبقى لدينا حقل ضيق جدا كان ماك دوغال أكثر شخصياته أهمية خلال الفترة المدروسة^(٤٤). كان ماك دوغال عالماً نفسياً مهنيًا وحاول تطوير علم نفس خاص من شأنه تفسير ظواهر التفاعل بين الأفراد أو المجموعات وتفسير التأثير الأساسي الذي يمارسه فكر مجموعة ما، ما أن يتشكل، على الأفراد الذين يدخلون في المجموعة المعنية. إن حقيقة أن ماك دوغال شدّد على العنصر الخلاق وحاجج من خلال الغريزة والإحساس يفسر لماذا فقدت تعاليمه، بعد نجاح أولى قوى، طعمها في وقت كان يشهد انتشار المذهب السلوكي والبيئي. أما ليفي برول^(٤٥)، فكان أقل من عالم نفس مهني، ولكنه كان ما يزال يهتم بالفكر أساساً وبالمجتمع بدرجة ثانوية فقط. ولا يتطلب الأمر إضافة أسماء كثيرة لكي نضع قائمة شاملة بصورة عادلة. فقد كان يجري إنجاز بحوث نفسية (ذات طابع إحصائي أساساً) لخدمة تخصصات عملية عدة يتعذر تناولها هنا- يعتبر علم نفس الطفل أقربها صلة بالسوسيولوجيا العامة، في نظري.

(٤٤) See, especially, William McDougall, Introduction to Social Psychology (1908)
(٤٥) من بين الأعمال الكثيرة لـ لوسن ليفي برول Lucien Levy-Bruhl (١٨٥٧-١٩٣٩)، يكفي أن نذكر: Les Fonctions mentales dans les sociétés inférieures (1910 ; English trans. (1926).

الفصل الرابع

السياسة الاجتماعية

والمنهج التاريخي^(١)

[١. السياسة الاجتماعية Sozialpolitik]

[أ) تأثيرها على العمل التحليلي]

[ب) جمعية السياسة الاجتماعية Verein fur Sozialpolitik]

[ج) مشكلة "الأحكام القيمية"]

(١) ملاحظة للنشر: كان هذا الفصل في حالة غير نهائية وغير مرضية. فلم تكن هناك عناوين أو عناوين فرعية؛ حيث عمد الناشر إلى وضع هذه العناوين. تأتي معرفتي بهذا الفصل مما أشار شومبيتر إليه في مقدمة الجزء الرابع ومن ملف عثرت عليه وهو يتضمن قسمين مطبوعين ومرفقين بنسختهما المكتوبتين باليد. ويتضمن هذا الملف أيضاً عدداً كبيراً من الملاحظات والكراسات والمطبوعات التي من الواضح إن شومبيتر كان ينوي استعمالها في التنقيح. وقد كتب على غلاف الملف: "الجزء الرابع / ٤". وفي الأصل، كان المكتوب هو: "الجزء الرابع / ٤، ٥"، ولكن المؤلف شطب الرقم ٥ حينما قرر دمج المادة في فصل واحد بدلاً صدورهما في فصلين مستقلين. لقد تعين على ج. شومبيتر أن يقول ما يلي في الجزء الرابع، الفصل الأول، القسم الثالث: خطة الجزء: "ثم تأتي ملاحظات حول مجموعتين من الكتاب والأفكار يتم تناولهما بصورة مستقلة: المجموعة التي تركز عملها في الاهتمام القائم حينذاك بالإصلاح الاجتماعي والتي جرت تسمية قادتها على نحو غير موفق بتاتا: 'الاشتراكيون الأكاديميون' (Kathedersozialisten)؛ والمجموعة التي سميت وتسمى نفسها: المدرسة التاريخية (الفصلان الرابع والخامس). إن موضوع الأحكام القيمية، الذي تجادل الاقتصاديون بشأنه طويلاً، يجري تناوله سوياً مع الفصل الرابع، بينما يتم تناول 'معركة المناهج' الشهيرة (ومقابلها الأمريكي: السجل المؤسسي) بالارتباط مع الفصل الخامس.

إن معالجة موضوع اشتراكي الكراسي غير مكتملة. وفي الواقع، تبدو المعالجة كما لو إن قسمًا كاملاً حول هؤلاء الكتاب في ألمانيا جرى شطبه. ومن الواضح أنه جرى شطب معالجة كتاب من هذا النوع في فرنسا. وتعود النسخة الكاربنونية من هذا القسم الخاص إلى تاريخ ١٧ كانون أول ١٩٤٣. ومن المؤكد أن هذه المعالجات تشكل دراسات تمهيدية وكان سيعاد كتابتها على نحو كامل. إن القسم المتعلق باشتراكي الكراسي والأحكام القيمية غير مرضى بصورة خاصة؛ ومع ذلك، فقد نشر هنا لأن شومبيتر كان يشعر بشكل قاطع أن الأحكام القيمية كانت وما تزال تشوّه عمل اقتصاديين كثيرين وأن تحليلهم لا يتأثر بالضرورة بهذه الأحكام. وتبرز قناعة شومبيتر هذه في كل كتاباته بشكل واضح.

إن معالجة المدرسة التاريخية غير مكتملة أيضاً. وبعد بعض المناقشة للمدرستين التاريخيتين القديمة والحديثة و methodenstreit {معركة المناهج}، ترد مناقشة لعلم الاقتصاد التاريخي خارج ألمانيا، وبخاصة في فرنسا وإنجلترا، ولكن ليس ثمة تحليل للولايات المتحدة أو المذهب المؤسسي الأمريكي American Institutionalism الذي وعد به في القسم: خطة الجزء.]

٢. [المذهب التاريخي]

[أ] المدرسة التاريخية 'القديمة'

[ب] المدرسة التاريخية 'الحديثة'

[ج] معركة المناهج [Methodenstreit]

[د] المدرسة التاريخية 'الأحدث': شبيثوف، سومبارت و م. فيبر

[هـ] التاريخ الاقتصادي وعلم الاقتصاد التاريخي في إنجلترا

١. السياسة الاجتماعية [Sozialpolitik]

جربَ الاقتصاديون تأثير الجو الجديد مثلما كانوا قد جربوا تأثير الليبرالية المبكرة وكما قد يتعين عليهم أن يجربوا تأثير الاشتراكية في وقتنا الحاضر. وفي كل هذه الحالات، كان هذا يعني بروز ليس فقط أو حتى أساساً وقائع ومشاكل جديدة بل أيضاً مواقف جديدة وعقائد (فوق علمية)^(٢) وبالتالي، على الأقل لوقت ما، الثورة على القيود التي يجد الرجال الذين ينغمرون في التحليل من الضروري فرضها على أنفسهم، وذلك عند انقضاء كل حقبة وحينما تبرد الحماسات الأولى. فالكُتاب 'الميركنتيلون' لم يكتشفوا أن على الاقتصاديين أن يفعلوا شيئاً غير اقترح الإجراءات والسعى وراء تطبيقها؛ بينما لم يكن اقتصاديو العهد 'الليبرالي' في وضع أفضل في البداية، رغم أنهم اكتشفوا أخيراً الاختلاف بين موضوعة معينة وتوصية معينة؛ أما اقتصاديو الفترة محل الدرس، فإذ استسلموا لما بوسع القارئ أن يسميه الإغراء أو نداء الواجب، فأنهم انحرفوا بالمثل عن الطريق الوعرة التي تقود إلى الفتح العلمي.

[أ] تأثيرها على العمل التحليلي [إن الطريقة والدرجة التي سمح بها الاقتصاديون لعملهم التحليلي أن يتأثر بالروح الجديدة للسياسة الاقتصادية اختلفت كثيراً من بلد إلى آخر ومن مجموعة إلى أخرى. ففي إنجلترا، لم تتعرض

(٢) [في أعلى هذه الصفحة: ثمة ملاحظات موجزة كثيرة والعبارة التالية بخط ج. شومبيتر: "لا أرى أنه كان يوسعى أن يفعل أكثر لحماية القطعة الجميلة التالية من إساءة الفهم".]

الاستمرارية فى البحث والتعليم لخطر حقيقى قط. لقد سايرت تطور الأزمنة، طبعاً، المجموعة الصغيرة من الاقتصاديين الإنجليز - وهذا ليس صعباً على تلاميذ ج.س. ميل - ولكنها لم تهجر قطع الجهاز العلمى سوية مع الأحكام القيمية القديمة. وهذا يعود، جزئياً، إلى حقيقة أن العضو الاعتيادى فى تلك المجموعة كان يفهم النظرية الاقتصادية بصورة أفضل كثيراً من الاقتصادى الاعتيادى فى أى بلد آخر وبالتالي فإنه كان فى وضع يمكنه من إدراك المدى الكامل لحرية الاختيار الذى تتركه تلك النظرية لأى عقيدة اجتماعية قد يفكر باعتناقها. وتكمن الأسباب الأخرى فى أن تلك الحالة السعيدة من الأشياء على نحو فريد تمثل ببساطة حالة من الحرية الحقيقية تضمنها البيئة الإنجليزية التى أزالّت مصادر كثيرة للاحتياج. إن معارضة ما يمكن أن يتصور الناس أنه تحالف بين علم الاقتصاد وسياسة عدم التدخل كانت توجد فى إطار وخارج إطار المجموعة الصغيرة من الاشتراكيين الأصوليين. ولكن هذه المعارضة لم تكن تعنى الكثير. وبشكل خاص، فأنها لم تعنِ 'مدرسة فكرية' جديدة. [حول هذه النقطة، ثمة ملاحظة تشير إلى أن شومبيتر كان ينوى كتابة فقرة حول الفابييين].

فى الولايات المتحدة، لم يكن التقليد العلمى قوياً كما يبدو. ولكن 'راديكالية' العدد النمطى من الاقتصاديين لم تتجاوز النقاط التى يغطيها المذهب القديم: العداء للحماية ومؤسسات الأعمال الكبيرة 'الاحتكارية' الذى تطور لاحقاً إلى كراهية محبة لدى الاقتصادى الأمريكى الاعتيادى. كما تعرضت للانتقاد عمليات الرأسمالية التنافسية أيضاً: فقد تعاطف بعض الاقتصاديين مع الحركة 'المؤيدة للنمو السكانى'، بينما قدّم البعض الآخر دعماً متحفظاً لأفكار هنرى جورج Henry George^(٣)، وأن الآراء التى تدل على عداء للنظام الرأسمالى بحد ذاته لم تكن غائبة، مع أن من ناصروها بإخلاص مثل فيبلن Veblen كانوا قليلين. ولكن الانتقاد كان ضعيفاً: إذ تكيفت الغالبية الكبيرة من الاقتصاديين مع القناعات الخداعة لرجال الأعمال الذين لم يشاركوا بعد فى هواجس وظنون نظائرهم الأوروبيين. ولم يعلن

(٣) [لم تجر كتابة الهامش المتعلق بهنرى جورج الذى كان متوقفاً حول هذه النقطة. حول المناقشة الخاصة بهذا الكاتب، انظر الفصل الخامس، القسم السابع، أدناه.]

أى اقتصادى، ممن يمكن أن يعتبره المرء اقتصاديًا 'قياديًا'، تأييده لأى مخطط جذرى حول الإصلاح الاجتماعى.

[القسم غير مكتمل: من الواضح أن ج. شومبيتر كان ينوى وضع خلاصة حول تطور الإصلاح الاجتماعى فى فرنسا وألمانيا قبل الانتقال إلى الفقرة التالية].

ولا أتردد فى القول إن هذا الإنجاز هو أحد أهم الإنجازات فى سجل المهنة الاقتصادية. وأمل ألا يتعرض ما يلى إلى سوء فهم بعد أن أوضحت هذا الأمر بصورة تامة. لم يتحقق ذلك الإنجاز، الذى كان كبيراً، فى حقل التحليل العلمى كما هو واضح. ولما كان هذا الكتاب يُعنى بتاريخ التحليل العلمى، فإن ذلك الإنجاز لا يهمننا. فما يهمننا هو جانب آخر منه - الذى اسلم حالاً أنه أقل أهمية - أى تأثيره على التعليم والبحث. إن تقييم هذا التأثير من شأنه إذن أن يقدم فرصة لتناول مشكلة الأحكام القيمية لدى الاقتصاديين، بقدر ضرورة هذا الأمر.

لقد تأثرت كفاءة التعليم دون شك. لقد شددتُ أنفاً على الدور الذى أدته المحاضرات الأكاديمية فى انتشار روح الإصلاح الاجتماعى. فمن المؤكد أن 'الاشتراكيين الأكاديميين' الألمان قد حققوا المثل بالنسبة للسياسيين والأفراد العاديين التقدميين - مثال البروفيسور الذى يبشر بالإصلاح ويشجب المصالح التى تعوقه. كان لوجو برنتانو Lugo Brentano يخاطب طلابه كما لو أنه كان فى اجتماعات سياسية، وقد ردوا هم بسرور قابله برنتانو بسرور مضاعف. وكان أدولف فاغنر Adolf Wagner^(٤) يصرخ ويشجب ويهز يديه أمام خصوم متخيلين، على الأقل قبل أن تخرسه الشيخوخة. وكان الآخرون أقل حيوية وفعالية ولكن ليس أقل وعظيمة فى نواياهم^(٥). ولا يُفترض بهذه المحاضرات أن تكون ضعيفة بالضرورة من حيث التعليم التقنى الذى تُقدمه، ولكنها كانت كذلك كقاعدة عامة. ومن يرى أن هذا سعر

(٤) حول فاغنر، انظر الفصل الخامس، القسم الرابع، الفصل الثامن، القسم الثانى، أدناه.

(٥) لا أهداف إلى التشديد على أن المحاضرات أو السينمات الألمانية كانت مثيرة تامة. فالمثالان المشار إليهما هما مثالان استثنائيان. وكقاعدة، فإن البروفيسور كان يحاضر وفقاً لمخطوطة قديمة فى الغالب أو يترأس سينمات فاترة يلقى فيها المرشحون للدكتوراه خلاصات من أطروحاتهم. وهذا هو المشهد الذى شاهده الزائرون الأمريكيون وقد تكون تجربتهم هذه هى أحد أسباب العداء الشديد لطريقة المحاضرة فى التعليم الذى نلاحظ فى جامعات أمريكية كثيرة.

زهيد نظير الأخلاق والغيرة، فمن الملائم أن يتأمل للحظة ما كان يمكن أن يكون عليه الطب الباطنى لو أن معلميه انغمسوا فى الخطابة حول مفاخر المعالجة بدلاً من تطوير القدرات التحليلية لدى تلاميذهم. وقد ترك الجامعات عددٌ كبير من الباحثين واشتغلوا بالمهن العملية المتاحة للاقتصاديين وهم يتمتعون بمستوى يبعث على الأسى، وأن البعض من أفضلهم تركها وهم فى غاية الاشمئزاز^(٦).

[ب) جمعية السياسة الاجتماعية Verein fur Sozialpolitik] أما بالنسبة للبحث، فينبغى أولاً تمييز الجانب الحسن منه. فقد أشرنا آنفاً إلى أن حماس الاقتصاديين الألمان للإصلاح تركّز على مشاكل أو إجراءات فردية على غرار حماس الفايين فى إنجلترا: أما إعادة البناء الأساسى للمجتمع، فهذا أمر يتحقق فى أوانه وكأثر جانبي by-product أكثر مما كنتاج للجهود الهادفة إلى تحقيقه بشكل مباشر. إن هذا المدخل ينطوى على تراكم وقائع كثيرة، وتشهد السلسلات المثيرة من Schriften des Verein fur Sozialpolitik (مجلة جمعية السياسة الاجتماعية) - وهى ١٨٨ 'مجلد' تتألف معظمها من مجلدات عدة بالفعل - على التصميم القاطع على البحث وبذل الجهد، وهو أمر ندين له بالتوسع الهائل فى معرفتنا الوقائعية. وقد تحقق عمل إضافى كثير من نفس النوع، من قبل أفراد ومجموعات، سواء بالارتباط مع ذلك الجهد المشترك أو بمعزل عنه^(٧). ولو قررنا، لضيق المجال

(٦) ثمة حالات توضح فيها المزحة والنكات وضعاً ما بصورة أفضل من أى شئ آخر وذلك مهما كانت المزحة والنكات مكروهة من زاوية التقاليد العلمية. وهكذا أجازف بتقديم مثالين توضيحين من هذا النوع. يتمثل أولهما فى تعريف لعلم الاقتصاد كان قد كسب بعض الانتشار حينذاك: 'علم الاقتصاد، ماذا يعنى ؟... أوه، نعم، أنا أعلم بأنك تكون اقتصادياً حينما تقيس مساكن العمال وتقول إنها ضيقة جداً'. والمثال الثانى هو قول مأثور سمعته ذات يوم من امرأة ألمانية مثقفة ومهذبة: 'تلقيت مقررات وامتحانات فى علم الاقتصاد ولكنى لا أعرف شيئاً ولست مهتمة بذلك. وكما ترى، كنت أشعر بأنه كان على أن أتقيد بطريقة 'الدراسة' studing فى جامعة ما، ولكنى لم أنو العمل الجدى. ولذلك، اخترت علم الاقتصاد لأن كل المطلوب فيه لنيل رضا الممتحنين هو القدرة على المحادثة البليغة حول علم الأخلاق والإصلاح والسيطرة، وشئ من هذا القبيل'. ولا أقصد طبعاً أن أقول إن هؤلاء الممتحنين هم النماذج لمعظم أو حتى كثير من المعلمين. إذ ينبغى عدم المبالغة فى مغزى النكتة. ولكن لا ينبغى التقليل منه أيضاً إلى حد إنكاره التام، على الأقل بالنسبة إلى العقود الثلاثة الأخيرة من القرن التاسع عشر.

(٧) إن أهمية ذلك الجهد، كجهد ليس له نظير قامت به مجموعة وطنية من الاقتصاديين المهنيين، تجعل من المستحسن أن نقول بضع كلمات حول كيفية تنظيمه. لقد أخذ ذلك الجهد شكلاً جماعياً أساساً team-work. وكان بوسع كل عضو، وبخاصة عضو المجلس الكبير، أن يقترح مشروعاً ما=

المتاح لنا، إن مجلة الجمعية Schriften تقف باعتبارها المثال الوحيد على هذا النوع من التحليل، فمن الضروري أن نفهم أن هذا المثال يوضح ما شكّل الجزء الأكبر من العمل الذى قدمه الاقتصاديون فى كل البلدان - فى إنجلترا، كان هذا العمل يتحقق كما فى السابق من قبل اللجان الملكية إلى حد ما^(٨).

قدّم كثير من تلك المجلدات عملاً رفيع المستوى كان نموذجياً ليس فقط فى اهتمامه الدقيق بالتفاصيل ولكنه مهم تحليلياً أيضاً ويستلهم الاعتبارات العلمية والعملية معاً. إن الدراسات الشاملة للجمعية حول الأسعار (بدءاً من عام ١٩١٠) تصلح كمثال على ذلك. ومع ذلك، فإن معظم تلك الدراسات لم يكن أفضل أو أسوأ من التحقيقات التى كانت وما تزال تتجذّر فى كل العهود وفى كل البلدان. ولكن البحث حول تأثير إنتاج الذهب الذى أشرف عليه أرثر شبيثوف Arther Spiethoff (Der Einfluss der Gold-erzeugung auf die Preisbildung, 1890-1913, vol. 149) (of the Schriften) والذى هو جزء من تلك الدراسات، كان يتجاوز المستوى العام. ورغم ذلك، وعلى الإجمال، فإن الاقتصاديين الذين أنجزوا التقارير التى تملأ مجلدات الجمعية لم يهتموا بالتقنية التحليلية إلا قليلاً. ولم ييغوا إزعاج أنفسهم بتحليل ما جمعوا من وقائع بل مضى معظمهم مباشرة من انطباعاتهم الأولى التى تنتيحها الوقائع إلى تقديم التوصيات وذلك بالضبط كما يمكن أن يفعل أى باحث غير متخصص. كما أنهم لم يستعملوا، ولم يساهموا فى، التكنيك النظرى أو الإحصائى رغم توافر فرص واضحة لهم لأن يفعلوا ذلك. وأن الجهاز التحليلى لعلم الاقتصاد لم يتطور على أيديهم، بل إنه تعرض إلى التدهور.

=للبحث. ثم تختار الجمعية مشروعات معينة من بين ما يقترح وتختول أفراداً أو لجاناً صغيرة بالإشراف على البحث المعنى. ثم تقسم هذه اللجان بدورها البحث بين عدد من المشاركين وتتولى تنسيق النتائج التى تنشر فى المجلة بعدئذ. وعلاوة على ذلك، تنظم هذه اللجان مناقشة تلك النتائج فى اجتماعات الجمعية، ولدى مقررى الجمعية (وهما اثنان عادة) وبقية المساهمين. وكان للنجاح فى تلك الاجتماعات بعض الأهمية بالنسبة لسيرة الباحث المعنى الأكاديمية [لقد جرى تقديم بعض هذه المعلومات فى الفصل الأول من هذا الجزء].

(٨) تشير فيما يلى إلى قسم من تلك اللجان التى كانت تقاريرها تحمل أهمية خاصة من زاوية التحليل الاقتصادى: Shipping Dues (1853) ; Coal Supply (1866); Agriculture (1881) ; Housing (1885) ; Depression of Trade (1886, particularly the 3rd report) ; Gold and Silver (1887) ; وكذلك Poor Laws (١٩٠٩)، وبخاصة التقرير الشهير حول الأقلية).

وعلاوة على ذلك، فحينما تمثل المهارات المميّزة لموزعى الحليب زائدًا الولاء المتوهج لمثل الجمعية- مع قليل من الفلسفة والعناصر الأخرى من الحضارة الألمانية- كل ما كان مطلوبًا من المرء لكى لإثبات نفسه كإقتصادي ونيل الترقية الأكاديمية بالشكل المناسب، فمن العسير أن نستغرب كيف أن العرض قد تكيف مع نوعية الطلب. ولولا ذلك لما كف الكتاب الممتازون عن الاهتمام بالحقول الأرفع من الابتكار والصرامة العلمية. والكتاب الذين يتعذر وصفهم ككتاب ممتازين لولا الاهتمام بهذه الحقول كانوا قد رفضوها فرحين ومتباهين بفعلتهم هذه. ومع أنه كان هناك دائمًا بضعة كتاب حاولوا إبقاء الرؤية خفاقةً دائماً^(٩)، فإن النظرية الاقتصادية بالصورة التى جرى فهمها فى إنجلترا، كانت فى بلدان عدة معطلة لعدة عقود بشكل كامل تقريبًا ليس فقط كحقل بحث ولكن أيضًا كوسيلة لتدريب الباحثين على عادات التفكير العلمية. وحينما انطلق فى العقد الأول من هذا القرن، وتحت التأثير النمساوى والأجنبى، رد الفعل ضد 'علم إقتصادي دون تفكير'، فقد تجلّى المدى الكامل للدمار فى حقيقة أن الناس نادرًا ما كانوا يعرفون ما تعنيه النظرية الاقتصادية: إذ تصور كثيرون أنها نوع من فلسفة الحياة الاقتصادية أو مجرد منهجية، بخلاف ذلك. وقد ألقى مراقبون أجانب كثيرون كل اللوم على المدرسة التاريخية فى وجود هذه الحالة من الأشياء. ولكن المدرسة التاريخية، رغم أنها كانت تشجع اهتمامًا علميًا بحثًا آخر، بيد أنها كانت ما تزال تشجع اهتمامًا علميًا معينًا؛ وينبغي عدم تحميلها مسئولية إحلال العقائد convictions محل البحث.

[ج) مشكلة 'الأحكام القيمية'] قد يمثل القلق على مصير علم الاقتصاد أحد الأسباب التى تفسر لماذا شعر عدد متزايد من الكتاب بأن من المستحسن تحويل الجمعية Verein إلى شىء ما أكثر شبهاً بجمعية علمية؛ وطرح السؤال، بعد تحقق هذا الأمر إلى حد ما، عما إذا كان من حق الإقتصاديين أن يمرروا الحكم- الأخلاقى أو غيره- على الظواهر التى كان يحللونها. وفى العقد الأول من هذا

(٩) إكان ج. شومبيتر ينوى كتابة هامش هنا حول ديال Diehl، ديتزل Dietzel، أوبنهايمر Oppenheimer، وليكس Lexis.

القرن، كانت مشكلة Werturteil {الحكم القيمي} وراء المناقشات الساخنة التي بلغت ذروتها فيما حدث من شجار تقريبيًا في مؤتمر فيينا عام ١٩٠٩. وبالنسبة لكثيرين، فمن الواضح بصورة مسبقة أن الهجوم على مبدأ الممارسة التاريخية للجمعية كان لابد من أن يأتي من اقتصاديين لا يتعاطفون مع السياسات التي تبنتها الجمعية. بيد أن الأمر لم يكن كذلك. فأعداء الجمعية كانوا طبعًا يحتجون بشكل ثابت على افتقاد الجمعية 'للموضوعية' العلمية. ولكن في إطار الجمعية، كان م. فيبر M. Weber و سمبارت Sumbart أبرز قائلين لتلك الحملة الهادفة إلى التحرر من التقييم (Wertfreiheit)، وهما من الجناح الراديكالي من الجمعية ولم يكونا نصيرين للمصالح الرأسمالية قط^(١٠).

ومع ذلك، فمن الواضح جدا مما قيل لحد الآن، إن المشكلة المعرفية المعنية ليست هي التي تفسر حدة المناقشة بل اعتبارات ذات طابع آخر. فقد لا يشعر المرء قط بأى ارتياب في المكانة المنطقية للأحكام القيمية في إطار علم ما، ومع ذلك فإنه يعتقد (أ) بأن إحلال عقيدة معينة محل المقدرة التحليلية عند اختيار ملاك علم ما هو أمر يعوق التقدم؛ و (ب) إن مَنْ يعلنون انصرافهم لمهمة توسيع وتعميق و'تكنكة' tooling رصيد الإنسانية من المعرفة ويتباهون بالأفضليات التي تمنحها المجتمعات المتحضرة لأنصار هذا النشاط الخاص، إنما يعجزون عن الوفاء بتعهدهم حينما يكرسون أنفسهم، وهم يرتدون الرداء الواقى لرجل العلم، لما هو حقًا نوع خاص من الدعاية السياسية. ومن السهل أن نرى أن مَنْ كانوا يفكرون بطريقة مختلفة، يدركون على الأرجح إن ما كان في خطر لم يكن هو نقطة من المنطق العلمى بل مكانتهم المهنية وكل ما كان عزيزًا عليهم في نشاطهم المهني.

إن المشكلة المعرفية بذاتها لم تكن صعبة جدا أو مهمة جدا ومن الممكن تناولها وحسمها بكلمات قليلة. ومن الملائم أن نفعل هذا من خلال البيئة الإنجليزية حيث برزت المشكلة ضمن السياق الطبيعى للأشياء - إذ إن الأضواء الكاشفة تتسلط على المواقف والممارسات المعتادة لعلم ما كلما تقدم هذا العلم بالعمر -

(١٠) [كتب ج. شومبيتر: أتركى صفحة هنا لوضع هامش حول سومبارت.]

وحيث تكون تلك الفظاظلة السياسية، التى أثرت على معالجة المشكلة فى البلدان الأخرى، أقل أهمية. سبق لنا أن رأينا كيف جرى إدراك المشكلة وكيف تمت معالجتها من قبل الاقتصاديين المتعاقبين بين سنيور وكيرنس. إن التمييز بين المحاجة حول 'ما هو كائن' و'حول' ما يجب أن يكون' كان قد تحقق من قبل حينما صاغ سيدفك Sidgwick^(١١) التفسير الصحيح لهذا التمييز بطريقة لم تترك إلا شيئاً قليلاً دون إنجاز، هذا إن تركت شيئاً ما أصلاً، والتى يبدو أن مارشال وأتباعه المباشرين سلموا بها- من حيث المبدأ على الأقل.

إن 'ما ينبغي أن يكون'، أى الوصفة أو النصيحة المطلوبة، يمكن لأغراضنا أن نردها إلى تعبير ما statement عن تفضيل أو 'رغبة ما' desirability. إن الاختلاف المهم بين تعبير من هذا النوع- كالقول، مثلاً، 'إن من المرغوب تحقيق عدالة اقتصادية أكبر'- وبين تعبير يخص علاقة ما- كالقول، مثلاً، 'إن المبلغ الذى يحاول الأفراد أن يدخروه من دخل قومى معين يعتمد على طريقة توزيع الدخل، بين أمور أخرى'- يتجلى فى حقيقة أن قبول التعبير الثانى يعتمد حصراً على القواعد المنطقية للمشاهدة والاستنتاج، بينما أن قبول التعبير الأول ('الأحكام القيمية') يتطلب دائماً، إضافة إلى ذلك، القبول بأحكام قيمية أخرى. ليس لهذا الاختلاف سوى أهمية ضئيلة حينما تكون الأحكام القيمية 'النهائية'، التى ننقاد إليها كلما دأبنا على السؤال لماذا يقيم فرد معين بصورة معينة بالضبط، مشتركة لكل الأفراد الاعتياديين فى بيئة حضارية معينة. وهكذا، ليس ثمة ضرر فى موقف

(١١) إذ نجد ما يلى فى مقدمة كتابه Principles of political Economy, 1883, (3ed ed., 1901, pp. 7-8): 'لقد حرصت بصورة عامة على تجنب العبارات الدوغمانية حول النقاط العملية. فمن النادر جداً، إن كان هناك أصلاً، أن يمكن تقرير المسائل الاقتصادية العملية، التى تقدم إلى رجال الحكم، بصورة حاسمة وفقاً لمحااجة مجردة تستند على أسس أولية معينة. فالحل الصحيح يتطلب عموماً معرفة كاملة ودقيقة بوقائع الحالة المحددة المعنية؛ وأن صعوبة التأكد من هذه الوقائع تحول فى الغالب دون الحصول على استنتاجات وضعية positive من جانب أى منهج علمى على وجه التحديد.'

وفى الوقت نفسه، ورغم ذلك، فإن وظيفة النظرية الاقتصادية بالنسبة لمثل هذه المشاكل ليست أقل أهمية أو ضرورة قط: ما دامت الاستنتاجات العملية للخبير الأكثر بعداً عن النظرية يتم التوصل إليها ضمناً أو صراحة بواسطة محااجة ما وفقاً لبعض الأسس الاقتصادية؛ فلا يمكن للاستنتاجات أن تكون صحيحة إلا بالمصادفة حينما تكون الأسس أو المحااجة غير سليمة.'

الطبيب أن تكون النصيحة التي يقدمها تنبع من مقدمات علمية ذلك لأن الأحكام القيمية المعنية- فوق العلمية، إن تحدثنا بصورة صارمة- هي عامة بالنسبة لكل الأفراد الاعتياديين ضمن بيئتنا الحضارية: فكلنا نقصد الشيء نفسه تقريباً حينما نتحدث عن الصحة ونجد إن من المرغوب التمتع بالصحة. ولكننا لا نقصد الشيء نفسه حينما نتحدث عن المصلحة العامة لأننا ببساطة نمتلك رؤى حضارية مختلفة جداً، نقوم على أساسها بتعريف المصلحة العامة في كل حالة منفردة.

كان لسيدفك Sidgwick حصته الكاملة من الثقة الإنجليزية التقليدية 'بالقيم النهائية' التي حدث أن سادت في بلد المرء في وقت معين. ولذلك، وبعيداً عن حدود 'علم' الاقتصاد، سلم سيدفك بوجود 'فن' مناظر تشكل فرضياته تعاليم ولكنها تعاليم لا تقل إلزاماً من الفرضيات من النوع المنطقي-الوقائعي. ومع ذلك، فقد أبصر المشكلة الحقيقية حينما أوضحها بمثال ممتاز من شأنه، بعد توسيعه قليلاً، أن يلخص النقطة المركزية في ذلك السجال.

ثمة عدد غير محدود من الدوافع والاعتبارات تشارك في جعل فرد ما مناصراً للحماية أو لحرية التجارة. ومن بينها أشياء ترتبط بتفضيل المرء لأنماط أو مثل وطنية معينة. وعليه، ليس بوسع أى حجة علمية أن تكرهه على اعتناق أو نبذ مذهب الحماية^(١٢). ولكن دوافعه يمكن أيضاً أن تتضمن، وهي تتضمن عادةً، فرضيات عن أسباب ونتائج قد يقع بعضها أو كلها ضمن نطاق المحلل الاقتصادي. فإذا حدث إن صاحبنا كان حمائياً لإيمانه بأن الحماية تصلح كحل لمعالجة البطالة، فإن الاقتصادي يكون على حق حينما يشير إلى أن الأمر هو كذلك في حالات معينة وليس كذلك في غيرها، وأن صاحبنا، بهذا المعنى، 'ينبغي' أن لا يكون حمائياً

(١٢) تبتغي ملاحظة أن ذلك لا يعنى أن قناعات الاقتصادي حول الموضوع لا يمكن أن تكون موضوعاً للتحليل العلمى أو أنها لا تثير الاهتمام. فبالنسبة للنقطة الأولى، فقد نحب أن نفسر لماذا يضر فرد أو مجموعة معينة قناعة معينة حول سياسات اقتصادية معينة. إن مثل هذا التحليل هو تحليل علمى بصورة تامة. أما بالنسبة للنقطة الثانية، فقد تعكس وجهات نظر اقتصادى ما مواقف الفئة الاجتماعية التى ينحدر هو منها مما يساعد على تشخيص نمط سياسى معين؛ وعلاوة على ذلك، فإن الاقتصادى المعنى، كفرد، قد يكون مهماً إلى حد يبرر ملاحظة وتسجيل تفضيلاته السياسية. ولكن أيًا من هذه الأشياء لا يمت إلى الموضوع قيد الدرس بأى صلة.

بشكل غير مطلق. لابد من أن القارئ يدرك أن الاعتبارات من هذا النوع تخفض كثيراً من الأهمية العملية للموضوع بقدر تعلق الأمر بجانبه المعرفى البحث. وبشكل خاص، إذا كان الاقتصادى مفتوناً بالحس التاريخى المميز للبيئة، فقد يمكنه أن يقدم - انطلاقاً من معرفة أن الأحكام القيمية ترتبط ببيئة معينة - نصيحة نسبية تاريخياً دون أن يتجاوز حدود كفاءته المهنية. إن من شأن هذا أن يمضى بنا إلى حد ما، ولو ليس إلى الحد الكامل، باتجاه تبرير الأحكام القيمية للاقتصاديين. كما إنه يفسر، جزئياً على الأقل، لماذا أن السجال بشأن الأحكام القيمية لم يؤد إلى أى نتائج مهمة. ولكن هذا لا يغير شيئاً من حقيقة أن الأنشطة شبه السياسية للاقتصاديين عرقلت تقدم علم الاقتصاد بشكل حاد - بما فيه تقدم فائدته العملية.

[٢. المذهب التاريخى]

يتمثل أحد أهداف كتابنا هذا فى دحض الخرافة القائلة بأنه كان هناك وقت احتقر فيه الاقتصاديون، كمجموعة، درس الواقع التاريخى أو الواقع القائم حينذاك أمامهم، أى وقت ما كان فيه الاقتصاد ككل علماً تأملياً بحثاً أو يفتقد إلى ملحقه الوقائى. إذن، ما هى الصفة المميّزة للمجموعة التى أسمت نفسها: المدرسة التاريخية Historical School وكيف كان بوسع أعضائها أن ينظروا لبرنامجهم كمنطلق جديد؟ من الواضح إن هذه الصفة لا تكمن فى إدخال كل مَنْ اعترفوا بالتاريخ الاقتصادى كمصدر مهم للحقيقة الاقتصادية. كما إننا لا نستطيع أن نرسم دائرة نضع فيها كل مَنْ أظهروا تمكناً كبيراً من الوقائع التاريخية أو امتلكوا فهماً للتدفق التاريخى من السياسات وللنسبية التاريخية للفرضيات: فهذا كان سيعنى إدخال ليست وماركس ومارشال. ولا يكفى حتى القيام بالفعل بعمل تاريخى: فلا معنى لتعريف من شأنه أن يشمل جيمس ميل.

ومع ذلك، فإن هذه الأفكار تشير بشكل مباشر إلى ما نبحث عنه. فالنقطة الأساسية والمميّزة للعقيدة المنهجية للمدرسة التاريخية هى إن جهاز الاقتصاد العلمى ينبغى بشكل رئيسى أن يتكون من نتائج الكتابات التاريخية ومن التعميمات

القائمة عليها- وفى البداية، كان يُعتقد بأن ذلك الجهاز ينبغي أن يتألف من هذه النتائج والتعميمات حصراً. كان على الاقتصادى أن يتقن التكنيك التاريخى قبل أى شىء آخر، وذلك بقدر تعلق الأمر بالجزء العلمى من عمله. ويتعين عليه، بمساعدة هذا التكنيك الذى يمثل كل ما يحتاج إليه من جهاز علمى، أن يغوص فى بحر التاريخ الاقتصادى لدرس الأنماط والعمليات الخاصة بكل تفاصيلها الحية، المكانية والزمنية، التى يجب أن يستطيط طعمها. وعندئذ، فالنوع الوحيد من المعرفة العامة، الذى يمكن الحصول عليه فى العلوم الاجتماعية، من شأنه أن ينمو من بين هذا العمل بصورة تدريجية. وكان هذا هو أصل ما أصبح يُعرف بالمنهج التاريخى Historical Method فى علم الاقتصاد^(١٣). ويمثل الموقف والبرنامج الناشئان ما كان يقصده الاقتصاديون، الذين لديهم مذاهب أخرى، بالمذهب التاريخى Historism.

وبطبيعة الحال، ينبغي تفسير مصطلح 'تاريخ' History بصورة واسعة بحيث يشمل الواقع ما قبل التاريخى والواقع القائم ومساهمات علم الاثنيات. ومن المؤكد أن طريقتنا فى تعريف المدرسة التاريخية تميل إلى طمس الحد الفاصل بين الاقتصادى التاريخى historical economist والمؤرخ الاقتصادى economic historian. ولكن ليس فى هذا أى ضرر. ذلك لأن العقيدة المنهجية للمدرسة التاريخية يمكن أن تلخصها بالضبط الفرضية القائلة إن الاقتصادى، كباحث، يجب أن يكون مؤرخاً اقتصادياً فى الأساس. فعمل اقتصادى المدرسة التاريخية كان يُكْمَلُ حقاً، وقد تم استكمالها ب، عمل المؤرخين الاقتصاديين البحث، وهو عمل ذو طابع تاريخى ترسخ قبل ذلك الحين ولم يرحب دائماً بما بدا أحياناً كمنافسة غير عادلة^(١٤).

(١٣) سيتضح أن هذا المعنى للمنهج التاريخى المبين أعلاه لا يمت بأية صلة إلى معانى أخرى يحملها نفس المصطلح مثل: المجموع الكلى من الأساليب التى يستعملها المؤرخ أو طريقة تطويرية method genetic للعرض.

(١٤) لن يعجز أحد عن ملاحظة جانب التنافس المهنى فى ذلك العداء. ولكن كان هناك سبب آخر أكثر وجاهة لهذا العداء من جانب مؤرخى الاقتصاد، وكذلك المؤرخين الآخرين نظراً إلى أن الاقتصاديين التاريخيين ذهبوا أحياناً أبعد من أى شىء يمكن أن يسمى كتاريخ اقتصادى. فالاقتصاديون، وبخاصة تلاميذ شمولر، لم يهتموا كثيراً بإتقان جهاز المؤرخ، وإن عملهم فشل فى=

وعند تعريف المدرسة التاريخية بهذا المعنى، فمن المتعذر القول أنها سادت ذات يوم فى أى بلد. ولكن هذه المدرسة شكلت، خلال العقدین أو الثلاثة الأخيرة من القرن التاسع عشر، العامل الأكثر أهمية ذی الطابع العلمی البحت بالنسبة للاقتصاد الألماني. وهذا ما يفسر توجهنا الآن نحو التعرف بصورة أكمل نوعاً ما على عمل المدرسة التاريخية الألمانية قبل أن نتناول بإيجاز الحركات المناظرة فى البلدان الأخرى.

(أ) المدرسة التاريخية 'القديمة' [سنعمد أولاً إلى الإشارة إلى عمل ثلاثة كتاب تمشیاً مع التقليد الدارج: برونو هلدبراند Bruno Hidlebrand، وويلهيلم روشر Wilhelm Roscher، وكارل نيس Karl Knies، الذين يُذكرون سوية عادةً تحت عنوان: المدرسة التاريخية الأقدم Older Historical School. وفى الواقع، مع ذلك، فإن هؤلاء الكتاب لا يشكلون مدرسة حقاً بحسب مفهومنا- على القارئ أن يتذكر أن مصطلح مدرسة School، فى هذا الكتاب، يعنى ظاهرة سوسيولوجية محددة وبالتالي لا يجوز استعماله كيفما نشاء للإشارة إلى أى مجموعة من الكتاب نحب اختيارها- وأن علاقتهم بالنظرية الاقتصادية لم تكن موحدة، ولا أن تختلف كثيراً عن علاقة جمهرة الاقتصاديين الآخرين فى كل العهود الأخرى. كان هلدبراند كاتباً نشطاً يتمتع بمزايا عدة ويشدد، فى برنامجهِ وعملهِ، على الطابع التطورى للحضارة الاقتصادية- دون أن يتخلى عن إيمانه بالقوانين الطبيعية، رغم ذلك- وعلى الأهمية الأساسية للمادة التاريخية أكثر مما فعل معظم معاصريه. أما روشر، فهو التجسيد لتعاليم الأكاديميين ذات الطبيعة الفلسفية- التاريخية أساساً، وهو جدير حقاً بالذكر هنا وذلك لأعماله فى حقل تاريخ الفكر الاقتصادى، إلى جانب كونه

=تلبية لمقاييس مهنة المؤرخ أحياناً. وقد أثّرت اتهامات من هذا النوع ضد شمولر نفسه. مهما كانت الحقيقة، بالنسبة لنا، التى يأخذها تعريفنا بنظر الاعتبار، أى حقيقة عدم وجود حد فاصل حقاً، بيد أنها تثير صعوبة كبيرة. فليس بوسعنا شمول الأدب التاريخى المتعلق بالفترة؛ ومع ذلك، يجب علينا أن نفعل ذلك حقاً. فكل تاريخ لعلم الاقتصاد بالمعنى الواسع الذى تتبناه المدرسة التاريخية سيكون ناقصاً بشكل بائس ما لم يذكر رجالاً مثل جورج فون بيلو George von Below، ألفونس دويش Alphons Dopsch، السير هنرى ماين Henry Maine وكثيرين غيرهم ممن أضافوا إلى معرفتنا بالمؤسسات والعمليات الاقتصادية والاجتماعية الخاصة بالصور الوسطى أكثر مما فعل الاقتصاديون يوماً ما، ولكن ينبغي على أن أبين الحد الفاصل فى بعض المواضع.

شخصية قيادية في الاقتصاد الأكاديمي. ومن موقعه هذا، في مجلداته الثقيلة ومحاضراته غير الحيوية، كان روشر يطرح بوعي المذهب الأصولي - الإنجليزى بشكل رئيسي - السائد في زمنه، مستعيناً بالمادة التاريخية لتوضيحه وتبسيطه. ومع ذلك، فهذا الأمر لا يخلق اقتصادياً تاريخياً a historical economist بالمعنى المتميز لهذا المصطلح. كما لا يخلقه الحديث عن 'قوانين تاريخية' أو استحسان حكمة مانغولد Mangoldt القائلة إن علم الاقتصاد هو 'فلسفة التاريخ الاقتصادي' - وبخاصة حينما نتذكر أن هذا الكاتب ينظر بطريقة تشبه بالضبط الطريقة التي ينظر بها الآخرون. أما نيس، فكان الأبرز بين الثلاثة. ولكن عمله الرئيسي يقع في حقل النقود والائتمان حيث صنع شهرته كمنظر. وتتجسد صلتة الوحيدة بالمدرسة التاريخية في كتاب برنامجي شدد فيه على النسبية التاريخية ليس فقط للسياسات بل وللمذاهب أيضاً، وقد أشاد بكتابه اقتصاديون تاريخيون حقاً - وهي شهرة لا يستحقها بصورة تامة^(١٥).

(ب) المدرسة التاريخية 'الحديثة' من العدل أن يرتبط المنطلق الجديد، برنامج البحث المتميز، وظهور مدرسة حقيقية باسم غوستاف فون شمولر Gustaf von Schmoller (١٨٣٨-١٩١٧)^(١٦). وفي خلاصة كهذه، ينبغي علينا أن نركز على عمله وقيادته. أما رجال خط القيادة الثاني: برنتانو، وبوخر، وهيل، وناب-

(١٥) [Die Politische ökonomie vom Standpunkte der geschichtlichen Methode (1853 ; enlarged ed., 1883. ثمة مناقشة لنيس في الفصلين الخامس والثامن، أدناه.]

(١٦) من كتاباته حول الموضوع، يكفي أن نذكر المختارات: Zur Literatur-geschichte der Staats-Grundfragen der Sozialpolitik und Sozialwissenschaften (1888) و Volkswirtschaftslehre (١٨٩٧؛ حيث يرد في هذا العمل الخطاب المهم حول: * Changing Thories and Established Truths in the Field of the Social Sciences)؛ والطبعة الأخيرة من مقالته: "Volkswirtschaft und Volkswirtschaftslehre" في الموسوعة الألمانية (Handwörterbuch für Staatswissenschaften) التي تعكس أكثر فكره نضجاً حول الموضوع. وانتهاز هذه الفرصة للإشارة إلى أن شمولر كرس لمهمة القيادة ليس فقط كل طاقته وروحه الكفاحية وإمكاناته الهائلة في العمل ولكن أيضاً مقدرة إستراتيجية وتنظيمية كبيرة. فمن بين أشياء أخرى، أصدر مجلة دورية - كانت تعرف بـ Schmoller's Jahrbuch - ونشر عدداً من الدراسات - the Forschungen - خدمت القضية وقدمت تسهيلات لنشر عمل المدرسة. وكان شمولر Scholarch {أكاديمياً} نمطياً.

من دواعي العدل ذاته أن نسمي هؤلاء بهذا الاسم - فنكتفى بالإشارة إليهم أدناه^(١٧). ويتعين علينا أن نغفل كلياً عمل الكتاب الأقل بروزاً.

قاد شمولر هذه المدرسة - المدرسة التاريخية الأحدث، كما أصبحت تُسمى - بالمثال كما قادها بالكلمة. وفي أيامه الأولى، قدّم شمولر دراسة حول براعة البزازين والحائكين في ستراسبورغ تكمن أهميتها في إطارها البرنامجي (الذي لولاه لما كان فيها ما يميزها بشكل خاص) وغدت نموذجاً لعمل جمهرة من تلاميذه وأتباعه من غير تلاميذه. ومع ذلك، فقد ذهب اهتمامه بالتاريخ أبعد بكثير مما كان يوحي به هذا المثال. إذ أنتج أيضاً عملاً لا يُقدّمه عادة إلا مَنْ هو مؤرخ محترف؛ فقد قام بدور أساسي مثلاً في العمل الكبير حول وثائق تاريخ الإدارة العامة في بروسيا الذي كان يتباهى به بصورة محببة. وهكذا، فمع أن تقديم العمل التاريخي من قبل الاقتصاديين لم يكن جديداً بذاته، بيد أنه كان يُقدّم حينذاك بحجم لا سابق له وبروح جديدة. وبالنسبة للنقاد الذين يعتقدون إن هذا العمل ذهب أبعد كثيراً مما ينبغي - وممن يتحدثون عن المذهب التاريخي بنبرة من الازدراء - فمن العدل أن نجيبهم، أولاً، بأن العمل البشري كله هو عمل أحادي - الجانب بالضرورة؛ وثانياً، أنه بالرغم مما تم إنجازه كله، فإن من المستحيل أن نعثر على حقل واحد فقط - أو من المستحيل على أنا، على الأقل، أن أفعل ذلك - ذهب فيه العمل المنجز خلال الفترة المدروسة إلى الحد الذي سيتمناه المرء.

من المؤكد أن الكثير من هذا العمل كان مبتدلاً نوعاً ما^(١٨). ولكن حصيلته الكلية كانت تعني تقدماً هائلاً في دقة المعرفة حول العملية الاجتماعية: يكفي أن نذكر قائمة العناوين الرئيسية - السياسة الاقتصادية (وبخاصة المالية) والإدارة؛ بنية المجتمع الطبقي؛ أشكال الصناعة في القرون الوسطى وما بعدها، وبخاصة

(١٧) [لم يُكتب الهامش الذي خطط له هنا، ولكن ثمة مناقشة حول برنتانو، هيل، وناب في مكان آخر.]
(١٨) الواقعة التالية سيقدرها المعجبون بمقدرة هنريك إبسن Henrik Ibsen الهائلة على وصف شخصياته من خلال بضع جوانب مهمة. ففي عمله: Hedda Dabler، يحب إبسن أن يخلق، بأسرع ما يمكن، الانطباع بأن إحدى الشخصيتين الذكورتين: زوج هيدا، هو باحث أكاديمي ذو كفاءة متوسطة بكل معنى الكلمة، إن لم نقل غيباً. فما هو الشيء الأول الذي يقوله إبسن إلى قراءه ومستمعيه حوله؟ إنه يتمثل في إن الدكتور تيسمان أكمل توماً عملاً حول صناعة الكتان في براينت في القرن السادس عشر! لقد أنجز ذلك بالتأكيد من قبل فرد عادي لصالح فرد عادي. ولكن مع ذلك...

الطوائف الحرفية وطوائف التجار؛ نمو المدن ووظائفها وبناها؛ تطور الصناعات الفردية؛ تطور مصرف الائتمان؛ وتطور المشروع الحكومي والمشروع الخاص (وهو واحد من أجمل القطع في عمل شمولر).

لم تقدم حلقة شمولر نفسه الكثير في حقل الزراعة. ولكن كُتِّبَ آخرون اهتموا بهذا الأخير بصورة مثابرة وكتبوا بعضاً من أفضل الاقتصاد التاريخي حيث يمثل هانسن، وميتزن، وناب البارزين منهم^(١٩).

وقبل أن نلقى نظرة على بعض محاولات التأليف synthesis، من الضروري التشديد على جوانب معينة من هذا العمل لم تتل دائماً ما تستحقه من اهتمام.

(١٩) كان عمل جورج هانسن Geoege Hansen (١٨٠٩-١٨٩٤) - يكفي أن نشير من هذا العمل إلى كتابه 1880-1884 (Agrarhistorische Abhandlungen) - وتدرسه (في غوتنبورغ) أصليون منهجياً من ناحيتين. أولاً؛ أنه علم تلاميذه الكثيرين أن يشرعوا، عند إعادة كتابة التاريخ الزراعي، من الأوضاع التي تقع عليها أبحاثهم الأمر الذي يبرز القيمة التحليلية أو التفسيرية للأوضاع القائمة في الماضي بقوة وحيوية تعودان إليه؛ ثانياً، أنه استحدث مصدراً جديداً للحصول على المادة: الخرائط والوثائق الطبوغرافية الأخرى، عاكساً بذلك الأشكال الأقدم لمليكات الفلاحين وملقياً ضوءاً جديداً على بنية اقتصاد مالكي العزبات manorial economy. وقد استفاد أوغسطين ميتزن August Meitzen (١٨٢٢-١٩١٠) من هذه المادة كلياً حيث كرس خبرته الإحصائية لهذه المهمة. ويشكل عمله: Siedelung und Agrarwesen der Westgermanen (1895) (und Ostgermanen, der Kelten, Römer, Finnen, und Slawen)، في المقام الأول، محاولة لوصف ومقارنة الطرق التي استخدمها الناس في استيطان أرضهم، وبناء قراهم، وتخطيط اقتصادهم. ولكن الأهمية أكثر بالنسبة لأغراضنا هو الاستعمالات التحليلية لنتائج هذا النصب التذكاري من البحث. إذ حاول ميتزن أن يستنتج منها التوزيعات الجغرافية المبكرة لأولئك الأفراد، تقنياتهم الزراعية، وعاداتهم، وأصولهم العرقية؛ كما جازف بوضع نظريات جريئة حول العوامل التي شكلت تنظيمهم الاجتماعي - وهي نظريات لم تبقى بعيدة عن يتحداها. ظل جورج فريديريك ناب Georg Friedrich Knapp (١٨٤٢-١٩٢٦) في هذا الحقل - الذي لا يمت بأية صلة إلى الحقليين الآخرين الذين ترك آثاره فيهما أيضاً - لمدة ١٥ سنة تقريباً كتب خلالها عمله البارزين - 'الكلاسيكيين' بمعنى الثناء من هذه الكلمة - Die Bauernbefreiung und Grundherrschaft und Rittergut (1897) (der Ursprung der Landarbeiter) حيث يصف تحول العالم الزراعي الألماني الذي حدث عند عتبة الحقبة الرأسمالية وكان في وقت واحد نتيجة في وقت واحد ل، وعاملاً قوياً في تشكيل، التطور الاجتماعي لألمانيا. إن تحليل ناب لم يخلق نمطاً نموذجياً للأدب حقاً فقط ولكن نتائج الرئيسية صبت في المجرى العام للتعاليم الاقتصادية. ومن المؤسف أن يتعذر، في خلاصة كهذه، إيصال ما يمكن تسميتها الرسالة العامة لعمل من هذا النوع. إن التوازن المذهل الذي يحققه ناب بين الرؤية الشاملة والبحث المفصل مثلاً هو شيء يمكن أن يحس به المرء وأن يتعلمه من خلال هذا الإحساس، ولكن يتعذر وصفه في بضعة جمل. ومن المعقول أن المرء يندر أن يشعر، طوال اهتمامه بعمل من هذا النوع، بالحاجة للتعليم النظري الذي يشكل النقص فيه عقبة جدية في حقل النقود.

أولاً: رأينا أن شمولر نفسه ومعظم تلاميذه كرسوا أنفسهم للنضال من أجل الإصلاح الاجتماعى، مؤكدين أحكامهم القيمية الشخصية بقوة شديدة^(٢٠). وقد طمسَ هذا الأمر حقيقة أن scientific credo {عقيدتهم العلمية} تنتقد بشدة الأحكام القيمية واعتياد الاقتصاديين على مطابقة أنفسهم بالأحزاب السياسية والتوصية بوضع إجراءات معينة. ويكمن أحد اعتراضات شمولر على ما أسماه 'مذهب سمث' Smithianism بالضبط فى أن أنصار سمث كانوا يميلون لإعطاء 'الوصفات' السياسية. ومن المؤكد أن هذا الموقف يعود جزئياً إلى أن شمولر لم يحب الوصفات الخاصة التى ترد من مذهب الليبرالية الاقتصادية. ولكن هذه الوصفات لم تكن كل شىء فى هذا الموقف. فرغم التزام شمولر بالأسس المختلفة للسياسة الاقتصادية، بيد أنه كان يحترم الحقيقة الاقتصادية ولديه التصميم على ترك الأخيرة تتحدث هى عن نفسها.

ثانياً: إن نفس روح النقد العلمية هذه حقاً جعلت المدرسة تنتظر شزراً إلى التعميمات الواسعة التى تحمل طابع فلسفات التاريخ. كان شمولر يدرك طبعاً ضرورة النظريات كفرضيات تفسيرية وإنه كان أقل تحفظاً، عند وضع هذه الفرضيات، مما اعتاد المؤرخون المهنيون أن يكونوا عليه. ولكنه توقف بعيداً عن أى محاولة لإرجاع كل العملية التاريخية إلى تأثير عامل واحد أو عاملين. فالفرضية الوحيدة من النوع الذى طرحه كونت-بوكل-ماركس لم يتصورها شمولر كهدف نهائى له. فحتى مجرد الفكرة القائلة إن هناك نظرية بسيطة حول التطور التاريخى بدت له كفكرة خاطئة، وغير علمية حقاً.

وهذه النقطة جوهرية لفهم مخططه الفكرى وبخاصة لتمييز هذا المخطط عن كل المخططات الأخرى التى لا يجمعها به أى جامع سوى الإشارة إلى التاريخ التى كانت، كما رأينا أعلاه، إشارة عامة جداً إلى حد يتعذر الاستفادة منها. إذ يمكن مثلاً رد الفكرة القائلة إن التاريخ هو مصدر حقائقنا إلى كونت. ولكن كونت اهتم بهذا

(٢٠) [من الواضح إن ج. شومبيتر كان ينوى تناول هذا الموضوع بصورة أعمق فى الصفحات الأولى من القسم الأول من هذا الفصل، ولكنه لم يفعل ذلك.]

المصدر (أو أنه طلب منا أن نفعل هذا) لاكتشاف 'قوانين تاريخية'، باستخدام طريقة تصور كونت إنها هي نفسها الطريقة المستخدمة في العلوم الطبيعية. أما شمولر، فكانت لديه نية علمية مختلفة بشكل كامل. إذ إنه نظر إلى فكرة كونت بوصفها التجسيد ذاته لـ 'خطأ محاكاة العلوم الطبيعية' naturalist error واعتبر قوانين كونت التاريخية أشياء زائفة. وفي الواقع، ليس ثمة أى أثر لوجود تأثير لكونت على عمله. ويُفترض أن هذا الأمر أصبح واضحاً من خلاصتنا لهذا العمل والبرنامج الكامن فيه. كما يُفترض أنه أصبح من الواضح أن جذور كل من العمل المنجز والبرنامج يمكن العثور عليها في الماضي الألماني تحديداً: المستوى الرفيع من التاريخ الوصفى؛ الاحترام الكبير للحقيقة التاريخية؛ المستوى المتواضع للاقتصاد النظري؛ ضالة احترام قيم هذا الأخير؛ الأهمية الكبيرة المعطاة للدولة؛ ضالة الاهتمام بأى شيء آخر - وهذه نقاط تميّز individualize مدرسة شمولر، وهي كلها نقاط ألمانية بصورة نمطية في جوانبها القوية والضعيفة.

ثالثاً: احتج شمولر على الدوام ضد التحليل الذي يقوم 'بتجريد' الظواهر الاقتصادية - وقد تحدث هو وأتباعه عن 'طريقة معينة في التجريد' - وذهب إلى أننا نفقد جوهر هذه الظواهر حينما نجردها. إن وجهة النظر هذه تنتج ببساطة عن إصرار شمولر على تغذية علم الاقتصاد بالدراسات التاريخية فقط. ذلك أن مواد هذه الدراسات ونتائجها عسوية بشكل واضح على أى محاولة تجريد - وهي تفقد معناها حقاً في معظم الحالات حينما تُجرّد. ومع إن هذه النتيجة مفهومة تماماً - ومقبولة تماماً لدى الاقتصاديين الذين ليس لديهم ميل لأى 'نظرية' - بيد أنها تعكس محدودية نطاق التحليل الاقتصادي لدى المحللين من نوع شمولر، وهي محدودية يناظرها توسع ليس له حدود واضحة تقريباً في موضوع هذا التحليل. فلا شيء مما يوجد في العالم أو الفوضى الاجتماعية يقع خارج نطاق اقتصاد شمولر حقاً. ومن الناحية النظرية، والعملية تقريباً، فإن الاقتصادى من نمط شمولر هو بمثابة سوسيولوجى يحمل توجهاً تاريخياً بالمعنى الأوسع لكلمة 'سوسيولوجى'. وعلى هذا المستوى، فإن التخصص كان يمكن أن يفرض نفسه مرة أخرى لو أريد تقديم عمل مقبول. ولكن التخصصات يمكن أن تفرضها المادة ويمكن أن تكون من نوع

تلك التخصصات نفسها التى ينبغى أن توجد بين العلماء المتخصصين فى تاريخ وثقافة القرون الوسطى medievalists وبين الرومانسيين مثلاً.

وهذا هو المعنى العلمى للتسمية التى لصقها شمولر بمدرسته. فهو لم يسمها مدرسة تاريخية فقط بل تاريخية-أخلاقية. كما تحمل التسمية معنى آخر: إذ قصدَ بها التعبير عن الاحتجاج ضد التأييد المتخيل كلياً للركض وراء الربح الخاص، الذى وُجدَ إن 'الكلاسيك' الإنجليز مسئولون عنه. ولكن خلف هذا المعنى الظاهرى، الذى كان له أثره وسط الجمهور دون شك، ثمة معنى آخر أقل إحياءاً بالبراعة salesmanship: فقد أعلنت المدرسة أنها تدرس كل جوانب ظاهرة اقتصادية ما؛ ومن هنا كل جوانب السلوك الاقتصادى وليس فقط منطق الاقتصادى؛ وبالتالي كل الدوافع الإنسانية كما تجلت تاريخياً بحيث إن الدوافع الاقتصادية تحديداً لا تتل عناية أكثر من بقية الدوافع- وهو الأمر الذى قصدَ بمصطلح 'أخلاقى' أن يعبر عنه، ربما لأنه يشدد على المكونات فوق -الفردية كما يبدو.

رابعاً، إن من الوهم طبعاً أن نأمل إن تلتحم نتائج البحث التاريخى المحدد monographic historical research 'بعلم الاقتصاد العام' بمجرد أن يجرى التنسيق بينهما ودون مساعدة عمليات فكرية غير تلك التى قدمت الدراسات المحددة monographs. ولكن مع أن مثل هذا البحث زائداً الدراسة التى تتولى تنسيق نتائجه ليس من شأنهما قط أن يخلقا موضوعات متماسكة، ولكن لا ينبغى أن نتجاهل أن بوسعهما، لدى مفكر يعمل ذهنه بصورة ملائمة، تقديم شىء ما أكثر أهمية. فقد يفرزان رسالة ذات مغزى، إيصال فهم عميق لعمليات اجتماعية أو اقتصادية تحديداً، الإحساس بالأفق التاريخى أو، إن شئت، بالتماسك العضوى للأشياء وهو أمر يصعب، أو حتى يتعذر، التعبير عنه. وقد يكون من المفيد أكثر مما هو ضار تشبيهه بالعلاج السريرى الذى يجريه الطبيب- أو بجزء منه.

إن من شأن هذه الاعتبارات أن تمضى بنا بعيداً نحو توضيح إمكانات التأليف synthesis التى كانت فى متناول مدرسة شمولر. وتمثل كتابة تاريخ

اقتصادي شامل، طبعاً، الإمكانية الأكثر وضوحاً؛ والمثال البارز، بالنسبة لألمانيا فى القرون الوسطى، هو عمل: (Inama-Sternegg, Deutsche Wirtschaftsgeschichte (1879-1901) ^(٢١)). ولكن شمولر نفسه تصور إمكانية أخرى. فحينما كثرت الصور الباهتة، حاول شمولر أن يقيّم ما حاول هو وأتباعه تحقيقه أو أرادوا تحقيقه وأن يبين كيف يمكن أن تبدو للعالم دراسة نظامية معينة من المدرسة التاريخية. وتمثلت نتيجة ذلك فى عمله: (Grundriss) 'Outline' الذى يقع فى مجلدين ^(٢٢). ولكن شمولر أغفل حينذاك عن عمد دروس 'المذهب التاريخي' المتطرف. فقد لائم، وفق إطار لم ينحرف أساساً عن التقليد الأقدم، المواد الغنية من التاريخ الاجتماعى، ووضع خلاصة (بل وخلاصة بارعة فى بعض الحالات) للتطور التاريخي لكل نوع أو مؤسسة وذلك وفقاً لخطوط نظريته الشخصية حولها: فى الفصل المتعلق بالطبقات الاجتماعية، مثلاً، يرتب شمولر المادة التاريخية والاثنية وفق نظرية لهذه الظاهرة تقوم على تقسيم-العمل. وبطبيعة الحال، كان يتعين عليه أن يستخدم جهازاً معيناً من المفاهيم وأن يحتاج أحياناً بالطريقة نفسها التى يستعملها المنظرون الاقتصاديون، كما تجرى تسميتهم تقليدياً. وقد نظر بصورة ضعيفة-ضعيفة حقاً إلى حد أن نظريته (بهذا المعنى) ليست حتى سيئة بتاتاً- بيد أنه لم ينفر من التنظير. وفى قضايا القيمة والسعر، تبنى شمولر بالفعل أو أراد تبنى، تعاليم كارل منجر. ويغرنى أن أعمد للتخلص بالقول: تأمل دراسة ج. س. ميل، وتخيّل دراسة أخرى تمنح الجوانب المؤسسية

(٢١) كان كارل ثيودور فون إنامه-ستيرنغ Karl Theodor von Inama-Stenegg (١٨٤٣-١٩٠٨) اقتصادياً وإحصائياً اكتسب فى الجزء التالى من سيرته شهرة عالمية بفضل عمله على رأس الإدارة الإحصائية النمساوية (المجلس الإحصائى، كما ينبغي أن نقول) ونشاطه فى نفس الوقت كمعلم أشرّ بقوة على جيل من الإحصائيين والاقتصاديين. إن القيمة التوضيحية للسيرة العلمية لهذا الرجل البارز تتمثل فى حقيقة أن بحثه الشخصى كان بحثاً تاريخياً بحثاً. إذ نشر وثائق تاريخية. كما أصدر دراستين تاريخيتين بصورة بحثية عرض فيهما ما يسمى بنظرية اقتصاد العزبة Manorial Theory أى النظرية القائلة إن تنظيم العزبة كان يمثل العامل الأساسى فى تشكيل الأسواق، والمدن والحياة الصناعية فى فجر الرأسمالية. إن التاريخ المذكور فى المتن كان ثمرة لطريقته فى التأليف، وأن هذا التأليف الذى يقوم به اقتصادى ما هو المهم هنا: فهو لم يختلف من حيث المبدأ عن فكرة المؤرخ المحترف عن التأليف.

(٢٢) (Grundriss der allgemeinen Volkswirtschaftslehre (1900-1904).

من التشديد والكفاية. ما منحه ميل منها إلى النظرية بالمعنى التقليدي، وقلل بالمقابل المجال والفكر الممنوحين إلى الأخيرة؛ فتحصل عندئذ على عمل شمولر: Grundriss، فيما عدا طبعاً الخلفيات السياسية-الفلسفية التي لا تهتما هنا.

[ج) معركة المناهج Methodenstreit] وهكذا أغمد القائد سيفه. والأكثر أهمية، رغم ذلك، هو أن طوفان 'المذهب التاريخي' بدأ بالانحسار وأن شعوراً من التسامح الودي بدأ يسود في كل مكان. ونظراً لتأكدنا على نحو مريح من استمرار كلا الطرفين، فإن بوسعنا أن نعود للحظة لتأمل الصدام الشهير بين الاقتصاديين النظريين والتاريخيين الذي عُرف بمعركة المناهج (Methodenstreit). وتتمثل الوقائع الرئيسية لهذه المعركة بما يلي. حينما بلغ مد 'المذهب التاريخي' ذروته، نشر كارل منجر، عام ١٨٨٣، كتاباً حول المنهجية^(٢٣) تناول جبهة واسعة من المشاكل الأساسية حول المنهج في العلوم الاجتماعية ولكنه كان يهدف بشكل واضح إلى إثبات أفضلية التحليل النظري وإلى وضع مدرسة شمولر في مكانها- الذي كان ثانوياً^(٢٤). قام شمولر بعرض الكتاب بصورة سلبية في مجلته Jahrbuch وردّ عليه كارل منجر في كراس عنوانه Errors of Historism^(٢٥) كان يزخر عن حق بالغضب الشديد مما استثار الرد طبعاً. ولم يثر هذا كثيراً من المشاعر السيئة فقط بل أطلق أيضاً دفقاً من الأدب أخذاً كلاهما عقوداً من الزمن لكي يخدم. ورغم وجود بعض المساهمات الرامية إلى استيضاح الخلفيات المنطقية، بيد أن تاريخ هذا

(٢٣) Untersuchungen über die methode Sozialwissenschaften und der Politischen Ökonomie insbesondere. ونظراً لمحدودية اهتمامنا بالمنهجية بحد ذاتها، فليس بوسعنا هنا أن ننصف هذا الكتاب الذي هو دون شك أحد الأعمال المهمة في مجاله، مع أنه لا يتجاوز عمل ميل Logic بقدر تعلق الأمر بالأصول المنطقية. وانتهاز الفرصة لإحالة القراء المهتمين إلى العمل الممتاز للبروفيسور فيليكس كاوفمان Felix Kaufmann: Methodenlehre der sozialwissenschaften [English trans., Methodology of Social Sciences, 1944] ; (1936)

(٢٤) وبعد ذلك بقليل، اتخذ الموقف نفسه أساساً أتباع منجر بقيادة بوهم-بارك (The Historical vs. Deductive Method in Political Economy", Annals of the American Academy of Political and Social Science, 1890) ومنظرون ألمان لم يكونوا أتباعاً لمنجر بل خصومه، وبخاصة ه. ديتزل (Beitrag zur Methodik der Wirtschaftswissenschaften", Jahrbucher fur Nationalökonomie, 1884, and other publications)

(٢٥) Die Irrthümer des Historismus in der deutschen Nationalökonomie (1884)

الأدب هو أساسًا تاريخ للطاقات المهدرة التي كان يمكن استعمالها بصورة أفضل.

ولما كان من المتعذر أن يثور شك جدى حول الأهمية الأساسية للبحث التاريخى فى علم يهتم بعملية تاريخية معينة أو حول ضرورة تطوير مجموعة من الأدوات التحليلية لمعالجة المادة، فمن الممكن أن يبدو ذلك السجال خاليًا من المعنى تمامًا مثل كل السجلات المشابهة. وتغرزُ هذا الانطباع الواقعة المثيرة للاستغراب: واقعة أن أيًا من الطرفين لم يشكك حقًا بموقف خصمه بصورة صريحة- وهى واقعة تبرز بوضوح عند تدقيق ما يقبع خلف السطح الحافل بالحجج والشعارات الخلافية. فالخلاف كان حول الأسبقية والأهمية النسبية وكان يمكن حسمه بأن يأخذ كل نوع من العمل المكان الذى تؤهله له أهميته. ومن المهم، بالنسبة للسوسيولوجيا وتاريخ العلم- تاريخ أى علم- المطالبة بتفسير صريح للأسباب التى لم تجعل كلا الطرفين، لوقت ما، قادرين على تبني وجهة النظر هذه.

إن أول ما تتبغى ملاحظته حول السجلات بين الأطراف العلمية هو أنها تتطوى على مقدار كبير من سوء الفهم المتبادل. ولا يغيب هذا العنصر حتى عن العلوم الأكثر تطورًا التى كان يُتوقع أن تكون بمنأى عنه بفضل تعليمها المتجانس وتقاليدها فى الصياغة الدقيقة ومستواها العالى من الكفاءة العامة. ولكن حينما تكون هذه الاعتبارات، كما هو شأنها فى علم الاقتصاد، أقل ملائمة بصورة هائلة مما هى فى الرياضيات والفيزياء، فلا يكون لدى العلماء فى الغالب سوى فكرة غير كافية عما يُقلق الطرف الآخر حقًا. وهكذا ينصب جزء كبير من النزاع على مواقف تمثل حصونًا معادية بالفعل فى خيال المتحاربين بينما هى، عند التدقيق، مجرد طاحونات هواء غير ضارة.

ثانيًا، ومما فاقم هذا الوضع هو حقيقة أن الصدامات المنهجية تقع بين أمزجة وبين ميول فكرية. وكان الأمر كذلك فى حالتنا. فثمة أشياء هى من قبيل الأمزجة التاريخية والنظرية. أى أن هناك أنواع من الفكر تستطيط كل ألوان العمليات التاريخية وكل الأنماط الحضارية الفردية. بينما هناك أنواع أخرى تفضل موضوعة دقيقة معينة على أى شئ آخر. ونحن بحاجة للثنتين. ولكنهما لم يتم

تصميمهما بحيث تتقبل إحداها الأخرى. ونجد ما يناظر هذا الأمر فى العلوم الطبيعية: فالعاملون فى المختبرات والمنظرون ليسوا دائماً على ود. ولكن مرة أخرى، فإن الأمور تصبح أكثر صعوبة حينما لا يكون بوسع كل طرف أن يتباهى بنجاحاته المذهلة التى تبعث على التراضى والإعجاب. وعلاوة على ذلك، فإن كل باحث محترم يحب عمله. وهذا وحده يعنى، بالنسبة للبعض منا، كراهية 'الطرق' الأخرى بصورة غير معقولة ومتهورة تماماً.

ثالثاً، لا ينبغي أن ننسى قط إن المدارس الحقيقية هى حقائق سوسيولوجية- كائنات حية. فهى تمتلك بُناها- العلاقات بين القادة والأتباع- أعلامها، شعاراتها التعبوية، أمزجتها، وكل مصالحها الإنسانية العادية. وإن التناظر بين المدارس يدخل ضمن السوسيولوجيا العامة للتناظر بين الجماعات والصراع الحزبى. فالانتصار والفتح، الهزيمة وخسارة الأرض، هى بحد ذاتها قيم بالنسبة لمثل هذه المدارس وجزء من وجودها نفسه. وهى تحاول أن تكتسب تسميات مشرقة- وفى حالتنا، حاول كلا الطرفين أن يدعى أنه 'تجريبى'، 'واقعى'، 'وحدىثى'، 'ودقيق' - وأن تلصق تسميات معيبة بعمل خصمها كالقول إنه 'تكهنى'، 'وعقيم'، 'وثانوى'. أن هذه التسميات قد لا تعنى غير القليل أو لا شىء بحد ذاتها، ولكنها تكتسب حياة خاصة بها وتبقى السجلات حية. وكل هذا يفسح المجال لتضارب الأشياء التافهة والمصالح والميول الشخصية- كما هو الحال فى الشئون السياسية التى تحدث داخل البلد وفيما بين الدول- بحيث تؤثر هذه الأشياء أكثر مما تؤثر أى قضية حقيقية أخرى- بل إن تأثيرها قد يصل إلى حد طمس القضايا الحقيقية بالفعل.

[د) المدرسة التاريخية 'الأحدث': شيبيتوف، سومبارت و م. فيبر] لقد تلاشى هذا السجال كما تتلاشى كل السجلات من هذا النوع وأخذت الحماسة للكتابات التاريخية المحددة حجمها الطبيعى. ولكن عمل مدرسة شمولر تواصل تحت قيادة رجال انحدروا من شمولر؛ إذ جربوا تأثير رسالته فى سنواتهم التكوينية؛ وظلوا مخلصين للمبادئ الأساسية التى شددَّ عليها شمولر قبل أى شىء

آخر، رغم أنهم كانوا يختلفون عنه وعن بعضهم بعضاً في الأهداف وطرق البحث والأداء. وهكذا بوسعنا أن نتحدث عن مدرسة تاريخية 'أكثر حداثة'. إن شبيثوف، وسومبارت و م. فيبر هم أعضائها الأكثر بروزاً إلى حد بعيد^(٢٦).

(٢٦) سوف أذكرهم هنا على سبيل الملائمة، مع أن عملهم، وبخاصة تأثيرهم، يعود إلى الفترة التالية. تقوم شهرة آرثر شبيثوف Arther Spiethoff - الذى عمل مساعداً لشمولر لفترة طويلة (ولفترة طويلة أيضاً كمدير تحرير de facto {فعلي} لمجلة شمولر الفصلية: Jahrbuch قبل أن يبدأ بنشرها باسمه الخاص) ثم بروفيشوراً فى بون - على عمله البارز فى حقل بحوث الدورات التجارية. وإذا نهمل مقالاته الأبرك ذات الطابع النظرى البحث حول هذا الموضوع وموضوعات أخرى مهمة وبخاصة نظرية رأس المال، فأننا نكتفى بالإشارة إلى المقالة: 'Krisen' الواردة فى الطبعة الرابعة من: Handwörterbuch der Staatswissenschaften (vol. ٧١, 1925) التى تقدم، فى شكل مضغوط، عملاً يرقى إلى بحث حقاً. وترد عقيدته credo العلمية المهمة جداً - التى تتضمن الاعتراف بعدد كبير جداً من 'الأشكال' Styles التاريخية للحياة الاقتصادية، التى يتطلب كل واحد منها نظرية خاصة به إضافة إلى رصيد مشترك من المفاهيم والفرضيات، تشكل 'نظرية لا ترتبط بزمان معين' Timeless theory - فى المقالة: 'Die Allgemeine Volkswirtschaftslehre als geschichtliche Theorie: die Wirtschaftsstile' in Schmollers Jahrbuch 1932. ورغم ابتعاد موقف شبيثوف عن موقف شمولر، بيد أنه يمكن أن يُفسر كتطوير لهذا الأخير باتجاه معين. أما منهجه الموصوف فى المتن فيجرب توضيحه فى كتابه: (Boden und Wohnung ... (1934) - وهو بحث فى تسعير غرفة سكنية وريع أرض حضرية - وفى سلسلتين من المنشورات تعود لتلاميذه قام هو بنشرها وأشرف على إعدادها بعناية قصوى: the Bonner Stadteunter-suchungen and the Beitrage zur Erforschung der wirtschaftlichen Wechsellagen (مساهمات فى دراسة الدورات التجارية).

إحينا كان ج. شومبيتر يدرس فى بون (١٩٢٥-١٩٣٢)، وجدّ شبيثوف زميلاً يحظى بالتقدير وصديقاً مخلصاً. وبعد وفاة ج. شومبيتر، أعّد شبيثوف، سوية مع إيرك شنيدر، مختارات من المقالات والبحوث الأبرك لشومبيتر لى ينشرها بالألمانية (وقد نشرت بالفعل). وسوف يظهر المجلد الأول من المجلدات الثلاثة عام ١٩٥٢.

كرجل وعالم، يمثل ويرنر سومبارت Werner Sumbart (١٨٦٣-١٩٤١) النقيض لشبيثوف من جميع النواحي. ويهيئ الاختلاف بين شهرة الاثنين - ليس فقط بالنسبة للجمهور - مادة للفكر حول سوسيولوجيا العلم. وعمله الوحيد الذى يلزم ذكره هنا: Modern Capitalism [Der Moderne Kapitalismus, 1902, 2nd ed., much enlarged, 1916-27] كان قد صدم المؤرخين المهنيين ببريقه غير القوى فى الغالب. إذ فشلوا أن يجدوا فيه أى شىء يمكن تسميته بحثاً حقيقياً - وفى الواقع، فإن مادة الكتاب ثانوية كلياً حقاً - واحتجوا ضد كثرة ما فيه من اللامبالاة، ومع ذلك، فإن العمل، بمعنى ما، كان من الإنجازات القصوى للمدرسة التاريخية، وكان مثلاً مشجعاً إلى حد كبير حتى فى أخطائه.

يشكل ماكس فيبر Max Weber (١٨٦٤-١٩٢٠) إحدى الشخصيات الأكثر قوة فى مشهد العلم الأكاديمي فى كل العهود. إن التأثير العميق لقيادته على زملائه والباحثين - الذى يعود بشكل رئيسي إلى غيرته الشديدة على فعل الشىء الصحيح التى تصل حد الخيال أحيانا - ينبع تماماً من خارج عمله كأكاديمي. ومع ذلك، فقد كان فيبر قوة حيوية يتعذر إغفالها (فهو خالق - أجواء أكثر مما هو خالق - أعمال علمية). من الممكن إهمال بعض الأعمال الأبرك لفيبر مثل: Romische Agrargeschichte (1891)، مكتفين بملاحظة إنه، بخلاف سومبارت، قد قدم بعض البحث التاريخي بمعناه لدى المحترفين. إن الجمل القليلة الواردة فى المتن، التى يتعين على لسوء الحظ الاكتفاء بها =

لم يكن شبيثوف مؤرخاً قط، بقدر تعلق الأمر بتعليمه التقني. ولكنه أضاف تعاليم شمولر إلى طريقته في تناول مشكلة معينة بالصورة التالية: في بداية كل واحد من مشروعات بحثه الكبيرة التي ذكرت آنفاً، كان يبرز جهاز بسيط من المفاهيم ثم وضعه بعناية ولكن بقصد تسهيل البحث الخاص أكثر مما بقصد التقية بحد ذاتها؛ وبمساعدة هذا الجهاز زائداً فكرة أو فرضية تحليلية مؤقتة، كان شبيثوف يهاجم بالتفصيل مجموعة منتقاة من الوقائع، التي تعتبر مهمة بمقتضى ذلك الجهاز والفكرة، ذاهباً أحياناً إلى حد تحليل اقتصاد شقة سكنية فردية أو منشأة خاصة؛ وأخيراً، يقوم شبيثوف بوصف السمات العامة للنمط الناشئ دون مساعدة أى منهج محكم وأن هذه السمات العامة، المكيفة بصورة صحيحة للأسئلة التي يُراد الإجابة عليها، تمثل نتائجه 'النظرية'. وأجروا على القول إن القارئ لم يتأثر كثيراً بجدة هذه الطريقة التي قد لا تبدو له سوى كمعرفة فطرية واضحة. ولكنها جديدة في إحكامها، وفي تمييزها الواضح جداً بين خطأها، والعناية الملائمة الممنوحة لكل

=عند معالجة الجوانب التحليلية للبحث من عمل فذ، يمكن إثباتها إلى حد كاف من خلال الإشارة إلى الأعمال التالية. (١) The Protestant Ethic and the Spirit of Capitalism (appeared in German as 'Die protestantische Ethik und der "Geist" des Kapitalismus' in Archiv für Sozialwissenschaft und Sozialpolitik, 1904-5; republ. in: Gesammelte Aufsätze zur Religionssoziologie; English trans. by T. Parsons, 1930). وهذا هو العمل الذي طرح النظرية الشهيرة، ذات المضامين العميقة، القائلة إن الثورة الدينية، التي انبثقت منها المذهب البروتستانتي، تشكل العامل الطاغى في قبولية الفكر الرأسمالي وبالتالي الرأسمالية نفسها. وقد اجتنب هذا العمل من الاهتمام أكثر مما اجتنبته الدراسات في سوسيولوجيا الأديان الكبرى التي تلت (في المجلدات التالية من الـ Archiv) وقاد إلى سجل ساهم فيه سوسيولوجيون من كل البلدان. (٢) Roscher und Knies and die logischen 'probleme der historischen Nationalökonomie', Schmollers Jahrbuch, 1903-5 - وهو العمل الأهم في دراساته 'المنهجية' الكثيرة. (٣) General Economic History - وهو تقرير حول مقرر دراسي ألقاه فيبر في جامعة ميونيخ قبل سنة من وفاته وقد تم وضعه وفقاً لمذكرات الطلبة؛ وترجمه إلى الإنجليزية المرجع الكبير فرانك ه. نايت Frank H. Knight (Economy and Society (Wirtschaft und Gesellschaft) (٤) - وهو جزء من العمل: Grundriss der Sozialökonomik (الذي يتكون من مجلدات عدة وكتبه مؤلفون كثيرون بدأ بالظهور عام ١٩١٤) الذي يادر فيه ونشره فيبر ويشكل معلماً مهماً على طريق علم الاقتصاد الألماني، رغم أننا لا نستطيع أن نشير إليه إلا بصورة عابرة فقط. (٥) Adaptation and Selection in the Labour Force (وهو بحث يعود إلى جمعية السياسة الاجتماعية Verein für Sozialpolitik كان فيبر قد اقترحه وأشرف عليه؛ ولم تظهر إلا مقاطع منه في مجلة الجمعية: Schriften، والذي أشير إليه لمجرد إعطاء مثال على طزاجة وأصالة أفكاره وكتوضيح لنوع المشكلة التي تخطر بباله بشكل جاز. وستكون لهذا المثال فائدته أيضاً حينما نقاش المذهب المؤسسي الأمريكي.

واحدة منها- حيث يحقق شبيتوف نجاحًا قاده إلى تطوير 'نظريات واقعية'، من نوع معين، رغم عدم مطالبته بذلك. تتبغى ملاحظة إن شبيتوف بقى يعمل كباحث ضمن الحدود التقليدية لعلم الاقتصاد بصورة صارمة، مع أنه كان يتمتع باهتمامات ثقافية واسعة. إذ لم يهتم شبيتوف بدمج علم الاقتصاد بعلم شامل للسوسيولوجيا all-embracing sociology. ومن هذه الناحية، فهو لم يتبع مثال شمولر.

ولكن سومبارت قد فعل هذا؛ وإذ يرمى سومبارت جانبًا كل المشاجرات حول حدود التخصص المهني، فإنه قد تجاوزَ حتى شمولر في هذا الشأن. ويمثل عمله Modern Capitalism- الذى يغطى عنوانه مساحةً أوسع بالفعل- نوعًا ثالثًا من التأليف الذى قامت به المدرسة التاريخية يحسن تمييزه عن النوع المتمثل بالتاريخ الاقتصادى العام وعن النوع الذى يمثل عمل شمولر Grundriss على حد سواء. فهو عبارة عن رؤية للعملية التاريخية تمتلك نوعية فنية والتى تُدفع إلى حقل العلم عن طريق تغذيتها بالمادة التاريخية والتعبير عنها من خلال مخطط تحليلى بدائى. إنه historie raisonnee {علة التاريخ} مع التشديد على التعليل reasoning، وإنه التاريخ المنظم systematized history مع التشديد على النظام system بمعنى تتابع صور الأوضاع الاجتماعية. إن النوع الناشئ من النظرية التاريخية توضحه بأحسن شكل نظرية سومبارت- رغم إمكانية إرجاع هذه النظرية إلى ماركس، ومع أن سومبارت تراجع عنها فى الطبعة الثانية - عن التراكم المبكر لرأس المال الصناعى من ريع الأرض: فهذه النظريات هى فرضيات تفسيرية أُوحتُ بها الوقائع. مع ذلك، فإن نظرياته ليست اقتصادية حصراً أو حتى أساساً. ومن العسير تجزئة محاولة كمحاولته. فكل العوامل الفاعلة ضمن إطار العملية التاريخية ككل هى عوامل ذات صلة ويجب أن تكون كذلك: فالحروب واليهود يدخلون pari passu {بخطى متساوية} مع الادخار أو المكتشفات من الذهب. وكل هذا أمر حسن تماماً ما دمنا نتذكر: (أ) إن هذه الشمولية هى ميزة ذلك النوع الفريد تماماً من المحاول العلمية؛ (ب) وأن هذا النوع لا يمكن أن يحيا إلا على الغذاء الذى تزودها به الأنواع الأخرى من العمل إذا أُريد له ألا يتحلل إلى هوية لا تقوى على تفسير شئ ما؛ (ج) إن نجاح سومبارت يعتمد على تشكيلة

من خواص شخصية لا تتوافر سوية عادة بالكثافة اللازمة ويتعذر امتلاكها بمجرد الرغبة في ذلك - وهذا ما يحسن التشديد عليه بالنظر إلى الإعجاب العالمى الواسع بعمل سومبارت.

إن الإعلانات 'المنهجية' لسومبارت قد تابعت الموضوعات بصورة وثيقة تستحق الانتباه. ففي البداية، كان سومبارت يزدري كثيراً مَنْ كانوا 'يهجون روبنسون كروزو' (انظر الفصل السادس، القسم الأول، الهامش رقم {٢}، أدناه)، ولكن حينما مالت الريح، أصبح توافاً لأن يُميز كمنظر ونال الاستحسان لاستعماله 'الطريقة الاستنتاجية' فى المآزق. ومن المهم أن نتذكر هذا التبدل فى المواقف حينما نأخذ بالاعتبار علاقة عمله بالمذهب المؤسسى الأمريكى. ومن المهم أكثر، مع ذلك، أن نلاحظ نفس هذا الغياب لمعاداة النظرية الاقتصادية (بمعناها الضيق) لدى ماكس فيبر الذى كانت وجهات نظره حول طبيعة العمليات المنطقية فى العلوم الاجتماعية أكثر أهمية بكثير^(٢٧).

ولم يقتصر م. فيبر على التصريحات المنهجية المصاغة فى عبارات عامة. فقد درس المسألة حقاً وحلّل أشكال الفكر المستعملة بالفعل فى حدود فهمه، أى ما يُستعمل منها من قبل الاقتصاديين التاريخيين والسوسيولوجيين بشكل رئيسى. وقد ظفر من أعماله الهائلة بمذهب محدد ووضعى positive. ينطوى هذا المذهب على مفهومين: النموذج المثالى Ideal Type والمعنى المقصود Meant Meaning. وذهب فيبر إلى أننا، فى العلوم الاجتماعية، نقوم بعمليات من نوع غريب كلياً على العلوم الطبيعية. فال تفسير فى هذه الأخيرة لا يتجاوز الوصف. بينما أنه يتضمن، فى العلوم الاجتماعية، فهم 'المضامين الحضارية'، تفسير المعانى Meanings: ومن هنا يأتى مصطلح السوسيولوجيا التفسيرية: Interpretative Sociology (Verstehende Sozialogie). فليس ثمة معنى من السؤال عما يعنيه سقوط الحجر

(٢٧) حينما صاغ طريقة بشأن منهجيته، حاول م. فيبر أن يستفيد من المساعدة التى تصور أن بوسعه استخلاصها من العمل الفلسفى القائم حينذاك (دون أن ينجح فى ذلك دائماً). وبشكل خاص، كان تأثير تعاليم ريكتر Rickert، وكذلك تأثير تعاليم ويندلبان Windelband، ملحوظين جداً أحياناً.

أكثر من شرح قانون سقوطه. ولكن ثمة معنى من السؤال عما تعنيه أسرة استهلاكية معينة. ولتحقيق تقدم فى تحليل هذه الأخيرة -وكل الظواهر الاجتماعية- ينبغي على المراقب أن يفهم موضوع بحثه بمعنى لا يستطيع أو يحتاج فيه إلى فهم سقوط الحجر. ولهذا الغرض، يتوجب عليه أن يخلق أنواعًا types تشكل تجريدات بمعنى أنها لا تمتلك غير الجوهر وتتقصها الصفات غير-الجوهرية، رغم أنها ليست بالضرورة أنواعًا بحثة كالإنسان الاقتصادى: فهى نماذج منطقية. وبالنسبة لمثل هذا النوع، نحاول نحن أن نفهم ما يفعله ويشعر به، يقوله، من خلال السؤال ليس عما تعنيه أفعاله ومشاعره وأقواله بالنسبة لنا نحن المراقبين بل عما تعنيه بالنسبة للنوع قيد الدرس أو، بعبارة أخرى، نحن نحاول اكتشاف المعانى التى تحاول الأنواع أن تنسبها إلى نفسها وسلوكها. وإذا كان هذا القول يوصل شيئاً ما إلى القارئ، فمن شأنه أن يدرك أن هذه النظرية حول المنطق فى العلوم الاجتماعية - مهما كانت حسناتها أو محدودياتها ومصادرها فى الفلسفة المهنية - هى نظرية محايدة تماماً بين الأنواع المختلفة من النشاط التحليلي. وبشكل خاص، فإن النظرية الاقتصادية بالمعنى التقليدى غير مستبعدة. وليس هناك غير فارق ضئيل جداً بالنسبة للبحث العلمى الذى يقوم به منظر ما، سواء حينما يخبره السيد العالم المنهجي methodologist بأنه حينما يدرس شروط تعظيم الربح إنما يدرس 'المعانى المقصودة' 'لنوع مثالى' أو أنه يسعى وراء 'قوانين' أو 'موضوعات'. وفى الواقع، فإن م. فيبر، حينما كان فكره أشد نضجاً، لم تنقصه الرغبة لأن يعلن - بقدر ما سمح له به جهله المطبق تقريباً بالأمر - بأنه لم يرَ أى اعتراض أساسى على ما يفعله المنظرون الاقتصاديون فعلاً، مع أنه اختلف معهم حول ما تصوروا أنهم كانوا يفعلون، أى حول التفسير المعرفى لمنهجهم^(٢٨).

(٢٨) إن هذا الدافع هو الذى كان وراء دعوته لاثنتين من الأنصار الأقوياء للنظرية الاقتصادية، بالمعنى المارشالى، لكتابة 'النظرية' والخلاصة لتاريخ المذاهب والطرق لعمله: Grundriss der Sozialökonomik. ومرة أخرى، إن صلة هذا الأمر تأتى من حقيقة أن اللجوء إلى م. فيبر يتم على أساس إن فيبر، أحياناً، يؤخذ كمدافع عن علم الاقتصاد المؤسسى. [النصيران القويان للنظرية] هما جوزيف أ. شومبيتر وفرديريك فون فيزر. وخلاصة تاريخ المذاهب كان هو Epochen der Dogmen und Methodengeschichte الذى يعتبر هذا الكتاب: تاريخ الفكر الاقتصادى بمثابة نتاج له بمعنى ما.]

وفى الواقع، إن م. فيبر لم يكن قط اقتصاديًا حقًا. ولو تهىء جو لا تعكره التيارات المهنية المتعارضة، فإن الشيء الواضح هو أن يُسمى ككاتب سوسيولوجي sociologist a. فعمله وتدرسه يرتبطان كثيرًا بنشوء السوسيولوجيا الاقتصادية Economic Sociology بمعنى تحليل المؤسسات الاقتصادية الذى يتيح الاعتراف به كحقل متميز توضيح موضوعات 'منهجية' عدة.

لقد كنا، لحد الآن، ندرس ظواهر ألمانية على وجه التحديد، كانت قد انبثقت عن جذور ألمانية على وجه التحديد، وأظهرت جوانب ألمانية على وجه التحديد فى قوتها وضعفها. وبطبيعة الحال، فإن بعض العوامل التى تفسر نشوء المدرسة التاريخية الألمانية كانت عوامل كلية الوجود ubiquitous. وعلاوة على ذلك، ففى كل بلد كانت هناك عوامل أخرى استحسنّت حركات مناظرة - حيث يمثل مذهب كونت واحدًا من هذه الحركات الأكثر أهمية. وأخيرًا، فإن عمل المدرسة الألمانية كان من الأهمية بحيث يمتد تأثيره إلى مسار الأشياء فى البلدان الأخرى. ومع ذلك، فمن المهم إدراك أن هذه الحركات المناظرة رغم تشابهها، بيد أنها مختلفة جوهريًا؛ فهى تدين إلى المثال الألمانى بأقل مما يتصوره المرء؛ وإن أيا منها، ربما باستثناء المذهب المؤسسى الأمريكى، لم يكن قويًا بما يكفى لإحداث تغيير break فى التقاليد وإعادة توجيه البحث وذلك، جزئيًا، لأن هذه التقاليد كانت أقوى وجرى الدفاع عنها باقتدار.

ففى إيطاليا، قوبل هذا التطور الألمانى بالتعاطف من قبل البعض، على غرار ما حدث مع السياسة الاجتماعية الألمانية Sozialpolitik. ولكن أيا منهما لم يؤثر بحيث يقلب الأنماط القائمة. فعلم الاقتصاد الإيطالى كان قويًا فى الجانب 'الوقائى' دائمًا وظلّ كذلك. ولم يفكر أحد بمحاربته كما يبدو. ومع إن بعض القادة - مثل إناودى Einaudi - كتبوا بعض أو معظم عملهم فى حقل التاريخ الاقتصادى، بيد أنه يندر أن خطر ببال أحد التحدث عن مدرسة تاريخية إيطالية ككيان علمى متميز.

ويصح الأمر نفسه على فرنسا. إذ استمر طبعًا التقاليد القوى للتاريخ الوصفى الفرنسى، وأجذب اهتمامًا إضافيًا تمشيًا مع تطور العهود. لقد قدم بعض

الاقتصاديين عملاً تاريخياً. ومنهم أذكر ليفسور فقط^(٢٩). وفيما بعد تم تقديم بعض الأعمال وفقاً لخطوط كانت تستوحى عمل سومبارت كما هو شأن عمل هنرى سى Henry See مثلاً. وقد قام المؤرخون أو السوسيولوجيون التاريخيون اللامعون مثل هيبولت تاين Hippolyte Taine، أو الكس دى توسكوفل Alexis de Tocqueville من قبله، ممن أصبحت أعمالهما 'قراءات ضرورية' لكل فرد مثقف، برسم مساحة كبيرة بألوان اقتصادية. بيد أن هذا لم يعنِ أى منطلق جديد لعلم الاقتصاد المهني^(٣٠). ولكن عمل سيمياند وعقيدته المنهجية كانا يعنيان هذا. ومع أن سيمياند لا يدين بشيء إلى التأثير الألماني - فلو كان عمله يدين بشيء إلى مصدر من الماضى، فالمصدر هو كونت - بيد أن وجهات نظره حول النظرية التقليدية، التى أراد استبدالها بعمله theorie experimentale، وحججه ضدها (وهى عبارة عن حصون وهمية معلقة فى الهواء، وما شابه) هى وجهات نظر وحجج شمولر تقريباً. إلا أن أى مجموعة لم تتضوى بعد تحت لوائه^(٣١).

(٢٩) يتمثل العمل الأكثر أهمية لـ بيير إميل ليفسور Pierre Emile Levasseur (١٨٢٨-١٩١١) فى: *Historie des ouvriers en France depuis la conquete de Jules Cesar jusqu a la Revolution (1859)* و *Historie des classes ouvrieres en France depuis 1789 jusqu a nos jours (1٨٦٧)*؛ وقد أضافت الطبعة الثانية من العملين الأخيرين كلمات: (et de l'industrie). ولكن لم يخطر بباله أن ينسحب - لسبب منهجى أو لأى أسباب أخرى - من المجموعة المذكورة فى الفصل الخامس، أدناه، كما هو واضح جداً من مرجعه المدرسى.

(٣٠) قد يفوت على بعض القراء اسم الاقتصادى البلجيكى إميل دى ليفلى Emile de Laveleye (١٨٢٢-١٨٩٢) الذى كانت له مزايا عدة وتمتع فى وقته بسمعة عالمية عن جدارة أبقته اسمه حياً. ولكن السبب الوحيد الذى يجعله عضواً أما فى المدرسة التاريخية الألمانية أو فى مدرسة تاريخية فرنسية لا وجود لها هو أنه ألف الكتاب: (De la Propriete et de ses formes primitives) وهو تحليل تاريخى - اثنى للملكية الخاصة. أما كتابه المدرسى حول الأسس: *Elements d' economie politique*, 1882 فهو عمل غير متميز أو بارز ويبين أنه لم يذهب بعيداً عن الجادة المألوفة (وقد ترجمه إلى الإنجليزية مع كتابة مقدمه له: ف. دبليو. تاوسك F. W. Taussig, ١٨٨٤).

(٣١) صاغ فرانسيس سيمياند Francois Simiand (١٨٧٣-١٩٣٥) عقيدته المنهجية فى عمله *La Methode positive en science economique (1912)* الذى يبدو لى أقرب، مما كتب فى أوروبا حول قضية المنهج، من تمثيل وجهة النظر المؤسسية. كما أن الانتقاد، الذى يقلل من فعاليته سوء الفهم الواسع الذى يتضمنه، والاعتبارات المنهجية الثمينة جداً فى الغالب فى مقترحاتها الوضعية، تشغل أيضاً مكاناً واسعاً فى عمله الآخر الذى أنا بصدد ذكره *Le Salaire, l'evolution sociale et la monnaie (3 vols., 1932)*. يبين هذا العمل مناهج سيمياند العملية *in action* وهو فريد فيما يديه من عناية فائقة بتطوير كل خطوة من تحليله أمام أعين القارئ. ومع أن النتائج قد لا تكون مشجعة كلياً، وكان يمكن التوصل إليها، بالصورة التى هى عليها، بجهد أقل، بيد أن العمل يدين بأهميته الفائقة جداً إلى هذه العناية بالضبط - وهو عمل كان ينبغى حقاً أن يكون معروفاً أكثر. أليس من الظلم أن نضيف، فى خلاصة كهذه، نقطة من شأن خلاصتها ذاتها أن تجعل لها أهمية غير

[هـ] التاريخ الاقتصادي وعلم الاقتصاد التاريخي في إنجلترا] حينما نتحول إلى إنجلترا، نلاحظ أولاً نوعية وكمية العمل المنجز من قبل المؤرخين الاقتصاديين والذي ارتفع إلى مستويات جديدة خلال الفترة وأرسى الأسس للإنجازات التي تحققت في وقتنا الحاضر. ويصلح عمل كوتنغهام كمثال^(٣٢) فقد قدّم كوتنغهام، وكان يشعر هو نفسه بأنه كان يقدم، عملاً كان حينذاك وعلى الدوام عملاً جوهرياً 'للعلم الاقتصادي' الذي هو 'تحليلي أساساً' كما صاغها بنفسه (Growth of English Economic Industry, vol. 1, p. 18). وكان يحب أن يرى الاقتصاديين وهم يستعملون ذلك العمل وشدد على حق هذا الأخير بمكانة ما ضمن البرامج المدرسية للاقتصاديين. ولكن باستثناء التعبير عن اعتقاده بأن جهاز المفاهيم في الاقتصاد التحليلي لا يمكن تطبيقه بشكل جاهز على الظروف السابقة على الحقبة الرأسمالية، فإنه لم يُشر في أى مكان إلى رغبته في حلول التعميمات النابعة من البحث التاريخي محل ذلك الجهاز.

ملائمة؟ يدعم البروفيسور سيميناند (op. cit. vol. 11, pp. 544 et seq.) بصورة موفقة ذم نظرية الأجور القائمة على حد الكفاف، مما يشكل حقاً مثلاً ممتازاً على براعة سيئة (مع أنه ينبغي حقاً عدم اللجوء إليه في نقد النظرية الحديثة). ولكنه يهمل حقيقة أن عيب هذه النظرية لا يثبت شيئاً ضد أى نوع من المنهج باستثناء أنه غير مضمون. كما يهمل أيضاً أن هذا الإخفاق الخاص يحدث بالضبط لأن الاقتصاديين في القرن الثامن عشر وبداية القرن التاسع عشر أخذوا بالمنهج الذي يدافع عنه البروفيسور سيميناند: فقد تأكدوا مما كان واقعاً قائماً على نطاق واسع حينذاك - أى أن العمال لا يحصلون، كعادة، على أكثر من مجرد الكفاف - ولأنهم فرضية معينة وفقاً لهذا الواقع وجدوها مؤكدة، وظلوا على ذلك الحال. ولو كانت لديهم مقدرة أفضل على التتظير، لما كان بوسعهم، ربما، أن يتقوا بذلك الواقع بهذا الشكل الصريح.

(٣٢) كان وليم كوتنغهام William Cunningham (١٨٤٩-١٩١٩) كاتباً غزير الإنتاج. ولأغراضنا، يكفي أن نذكر عمله: The Growth of the English Industry and Commerce During the Early and Middle Ages (1st ed. 1882, greatly improved 5th ed. 1810-12), An Essay on Western Civilization in its Economic Aspects (1898-1900) and his Progress of (Capitalism in England (1916).

ويبدو من غير المبرر إهمال عمل مميز كمعمل ليون ليفي Leone Levi: History of British Commerce.. (1872, 2nd ed. 1880), أو العمل المشهور لـ أرنولد توينبي Arnold Toynbee: Lectures on The Industrial Revolution in England (posthumously: ١٨٥٢-١٨٨٣) (published in 1884) الذي ظل العمل القياسي حول الموضوع إلى أن حل محله كتاب مانتكس Mantoux: La Revolution industrielle au XV¹¹e siecle, 1905. ولكن من المستحيل، ضمن المجال المتاح في هذا الكتاب، إنصاف العمل التاريخي في حد ذاته، وإدراج أسماء وعناوين ليس من شأنها أن تخدم غرضاً نافعاً. وهذا هو نفس السبب الذي يفسر لماذا لن يجد القارئ أى إشارة إلى المؤرخين الاقتصاديين الأساسيين خلال السنوات الثلاثين الأخيرة.

ولم يلقَ هذا الادعاء لصالح التاريخ الاقتصادي معارضة تُذكر. فهناك اقتصاديون عدة، مثل روجرز^(٣٣)، كانوا مؤرخين اقتصاديين أساسًا بقدر تعلق الأمر ببحوثهم. وكان الفرد مارشال مؤرخًا أفضل من معظم مَنْ هاجموا علمه الاقتصادي على أساس أنه غير تاريخي، وتأملي، وما شابه. ويكفى عمله Industry and Trade وحده لإثبات هذا، رغم أن المدى الكامل لبراعاته التاريخية لم يكن معروفًا خارج حلقته إلى حين نشر عمل كينز عن سيرته.

وفي ظل هذه الظروف، وكما هو واضح، لم يكن ثمة مجال لمدرسة تاريخية ككيان علمي يلتزم بالنضال من أجل برنامج واضح. وفي الواقع، لم يكن هناك سوى الأجزاء الأوهى من مدرسة ما. وكان ثمة 'رائد' لهذه المدرسة: جونز^(٣٤). وفيما بعد، حينما هيمنت مدرسة شمولر في ألمانيا، أظهر بعض

(٣٣) مُنح ج. ي. روجرز J. E. Thorold Rogers (١٨٩٠-١٨٢٣) درجة الأستاذية مرتين في جامعة أكسفورد. عمله الرئيسي هو: History of Agriculture and Prices in England, 1259-1793. وهو يسبع مجلدات ظهر الأول منها عام ١٨٨٤. بيد أن عمله الأكثر شعبية: Six Centuries of Wealth of Nations (1884) معروف أكثر رغم ذلك. كما أنه أعد طبعة جديدة للعمل Manual of Political Economy for Schools (1868) وكتب مقالة لا تتميز باللمعان الشديد: (1868) وأشياء أخرى. وقد بذل جهدًا كبيرًا للدعاية لأفكار كوبدن وبريت. ومع ذلك، فإن شهرته كعالم أكاديمي تقوم على عمله: History.

(٣٤) يمثل ريجارد جونز Richard Jones (١٧٩٠-١٨٥٥) الذي كان، بين أمور أخرى، خليفة مالثوس في جامعة هاليبورغ، شخصية حيوية ويتمتع بقناعات قوية. وقد أخذت كراهيته للاقتصاد الريكاردى شكل احتجاجات شديدة ضد التعميم المتعجل وشكل دفاع عن البحث الوقائي الصبور the results of which were eventually to replace the provisional structures of existing 'systems' (الذي كان ينبغي أن تحل نتائجه أخيرًا محل البنى المؤقتة 'للأنظمة' القائمة). وقد أعطى جونز مثالًا عما كان يجول في ذهنه في البداية وأكمل جزءًا فقط - المتعلق بالريع - من عمله: Essay on the Distribution of Wealth and the Resources of Taxation (1831). وهكذا فإن جونز لم يبتعد كثيرًا عن الدور الذي خصّه به مؤرخو علم الاقتصاد، رغم أنه ليس من السهل التأكد عما كان يعنيه بإعلانه البرنامجي أو مثاله. إن بعض اعتراضاته ضد ريكاردو لم تكن ناضجة بصورة كافية؛ ولكن الأكثر أهمية هو أن الكثير منها كان من النوع الذي يمكن أن يثيره أي منظر ضد أي منظر آخر كالاعتراض، الذي تنبأ به ريكاردو سلفًا وحضه، القائل إن قانون الأخير حول تناقص الغلة في الزراعة تبطله حقيقة التقدم التكنولوجي. وعلاوة على ذلك، فإن جونز يحتاج، عند مناقشته 'للاقتصاد السياسي البدائي' (المذكور في الجزء الثاني، الفصل السابع، القسم الثالث، أعلاه)، من زاوية المذاهب السائدة في عصره دون إظهار أي إدراك للنسبية التاريخية للمذاهب. بل إن الإعلانات والبرنامج معًا توحى بأفكار المدرسة التاريخية. هذا وقد تم نشر محاضراته ومقالاته، الجديرة بالقراءة، من قبل و. وبول تحت عنوان: (Literary Remains 1859).

الاقتصاديين الإنجليز ولائهم لمبادئ مماثلة تقريباً. والاقتصاديون الأجدر بأن نتذكرهم هم: أشلي، وانغرام، وكليف ليسلي^(٣٥).

ومع أن هؤلاء الاقتصاديين الثلاثة اجتذبوا الاهتمام وتركوا بصماتهم، بيد أن أيًا منهم لم يشكل مجموعة، دُع عنك مجموعة مكافحة.

(٣٥) وليم جيمس أشلي William James Ashley (١٨٦٠-١٩٢٧) هو الشخصية الأقوى بين الثلاثة دون شك؛ وكان بروفيسورا في جامعة برمنغهام، القائد الأكاديمي في مجموعة تشامبرلن الحمائية؛ والذي توافق، أكثر من أي اقتصادي إنجليزي آخر، مع النوع المهني الألماني في ذلك الوقت. وإذا جرب تأثير المؤرخين الاقتصاديين والقانونيين (توني وماين بشكل خاص، وتأثير الألمان فيما بعد)، فقد تقدم بصدق نحو ذلك النوع في أعماله - مثل دراساته الصناعية المحددة الممتازة وعمله الناجح جدا: (Introduction to English Economic History and Theory ... 2 vols. 1888 and 1893) - وفي إعلاناته البرنامجية أيضا وفي ميوله المتعاطفة مع السياسة الاجتماعية Sozialpolitik ونزوعه الوطني الاقتصادي economic nationalism. ولكنه تشرّب من بيئته الإنجليزية إلى حد يكفي لأن يثبت بساطة نموجه: فلا يمكن لمن عاش في إنجلترا أن يسيء فهم النظرية الاقتصادية بصورة كاملة كما فعل شمولر في الجزء الأول من حياته.

يمثل جون كيلز انغرام John Kells Ingram (١٨٢٣-١٩٠٧) كاتبًا من نوع مختلف تمامًا. إذ كان يمتلك خلفية ثقافية أوسع بكثير (حيث كان فيلسوفاً وشاعراً، وشغل منصب البروفيسور الملكي للأدب الأيرلندي في دبلن عام ١٨٨٦، كما كتب حول شكسبير وتينيسون) ولكن من العسير القول إنه كتب بحثاً اقتصادياً قط. يشكل عمله: History of political Economy (الذي نشر أولاً عام ١٨٨٥ في Encyclopaedia Britannica؛ ثم نشر بصورة مستقلة عام ١٨٨٨؛ الطبعة الأخيرة عام ١٩١٥، مع فصل إضافي كتبه دبليو. أ. سكوت W. A. Scott) برهانا قاطعاً على كل من معرفته الواسعة الفلسفية (وبخاصة فلسفة كونت) والتاريخية وبراعته غير الكافية بالاقتصاد التقني. والنقطة الثانية جعلت من الأسهل، بالنسبة له طبعاً، مما كان سيكون عليه الأمر لولاها، أن يتحدث بلسان زلق عن: علم الاقتصاد الجديد الذي يعود إليه المستقبل (قارن مثلاً خطابه في اجتماع الجمعية البريطانية لتقدم العلم في دبلن عام ١٨٧٨: 'The Present Position and Prospects of Political Economy' والذي ارتبط اسمه به حول قوة الإعلانات البرنامجية. إن العواطف السامية والنبرة الأخلاقية - التي نافسه فيها مارشال فيما بعد حالاً - الاحتجاج ضد عزل الاقتصاد عن عمل العلوم الاجتماعية الأخرى، التشديد على التطور (بمفهوم كونت) والنسبية التاريخية، الاستقرار مقابل الاستنتاج: هي النقاط الرئيسية التي خاطب الجمهور بها.

لا يعود خلود اسم توماس ي. كليف ليسلي Thomas E. Cliffe Leslie (١٨٢٦-١٨٨٢) إلى عمله العلمي من النوع 'الوصفي' - مع أن بعضاً منه كان على مستوى رفيع مثل عمله حول أنظمة الأرض الأيرلندية والإنجليزية والأوروبية - أو مقالاته حول القضايا الجارية للسياسة policy، والتي يتمتع بعضها بالقوة والألمعية، ولكن إلى دفاعه عن المنهج التاريخي، الذي كان حكيماً وفعالاً معاً ولم يكف عن التأثير. تبدو مقالاته اللتان تطرحان منهجيته أو، كما يحب هو أن يسميها، فلسفة العلوم الاجتماعية (واللتان أعيد نشرهما في العمل Essays on Political and Moral Philosophy، 1879؛ كما ظهرت طبعة ثانية بعد وفاة المؤلف، وهي تهمل بعض النقاط وتضيف نقاط أخرى) كإعادة صياغة لبرنامج شمولر؛ ولكن بالنظر إلى تاريخ نشر المقالتين للمرة الأولى (عامي ١٨٧٦ و ١٨٧٩)، فهذا الأمر ينبغي أن لا يدفعنا إلى إنكار الأصالة عليهما. وإذا تأملنا وجود عبارات معينة غير دقيقة لدى بعض المنظرين كسنيور فيمكن أن نكتشف حتى بعض الميزة في العبارة البديهية القائلة بأن الاقتصاديين يجب أن ينطلقوا دائماً من الوقائع ويتحققوا من استنتاجاتهم وفقاً لها.

وقد حدث ذلك حتى فى السبعينيات. وفيما بعد، حينما فرضت قيادة مارشال نفسها، فإن غالبية الاقتصاديين (وعملياً كل الموهوبين منهم) كانت تتدفع أفواجا تحت لوائه. كانت هناك بعض المعارضة، ولكن جزءا منها فقط كان يحمل طابعاً منهجياً. ويمكننا أن نذكر هوبزن وآل ويب^(٣٦). ولا ينبغي أن يعطينا السيل الهزيل من الأدب السجالي. ولكن يجب أن نسجل عمل ج. ن. كينز الممتاز الذى حسم معظم هذه القضايا المنهجية بروح من الفكر الحنيف وبما يرضى المهنة. فقد ظلّ هذا العمل يتمتع بمنزلة رفيعة لعقدين من الزمن عن جدارة. ومن الممكن التوصية بقراءته، رغم تقادم الزمن، وذلك لمزاياه إضافة إلى نجاحه^(٣٧). [مخطوطة هذا الفصل تتوقف

(٣٦) لم يكن عداء جون أ. هوبزن John A. Hobson (١٨٥٨-١٩٤٠) للاقتصاد المارشالي منهجياً أساساً. ومهما عارض هوبزن نظريات معاصريه، فإنه قد حاربها دائماً بنظريات دون تحدى قناعاتها المنهجية. ومع ذلك، قسمة جانب منهجى لذلك العداء. فمثلاً: إن تشديد هوبزن على ما كان يعتبره هو سلوكاً غير رشيد من جانب المستهلكين وعلى العوامل المؤسسية التى تحدد هذا السلوك، أكثر مما يحدده 'الاختيار الرشيد'، يفترض بالفعل برنامج بحث من النوع التاريخي-السوسيولوجي. ومن المهم إدراك هذا الأمر لأنه يُظهر إحدى الصلات بين هوبزن والمذهب المؤسسى الأمريكى.

كان يتعين الإشارة إلى بترك Beatrice (١٨٥٨-١٩٤٣) و سدنى ويب Sidney Webb (١٨٥٩-١٩٤٧) فى هذا السياق نظراً، أولاً، إلى طبيعة عملهما الذى ساهم بشكل جوهري فى إنجازات المؤرخين الاقتصاديين الإنجليز (انظر بشكل خاص: History of Trade Union, 1849, and the Manor and the Borough, 1908)؛ وثانياً، بسبب حقيقة أنهما أرجعا قوة تأثيرهما الواسع على قطاع كبير من المذهب إلى وجهات نظر منهجية تشبه تلك التى تعود إلى المدرسة التاريخية الألمانية. وهذا هو الانطباع الذى خرجت به أنا على الأقل من قراءة محاضرات حول المنهج أُلقيت من قبل س. ويب فى مدرسة لندن للاقتصاد.

(٣٧) جون نيفل كينز John Neville Keynes (١٨٥٢-١٩٤٩؛ والد اللورد كينز): Scope and Method of Political Economy (1st ed., 1891). ومن المساهمات الثانوية، ولكن الملحوظة، التى كانت تنذر بنجاحه، يمكننا أن نشير إلى مساهمات باغيهوت وكيرنس. تناولت ريشة باغيهوت Bagehot القوية الموضوعات المنهجية غير مرة. ودون التشكيك بصحة المنهج الريكاردي، كان باغيهوت يميل إلى حصر تطبيق هذا المنهج بالنمط الحضارى للنشاط الرأسمالى capitalist business ويميل إلى النظر إلى البحث التاريخي كتكملة طبيعية له. انظر بشكل خاص مقالته: 'The Postulates of (English Political Economy)', republished in Economic Studies (1880).

لم يُقدّر عمل جون إى. كيرنس John E. Cairnes: Character and Logical Method of Political Economy (محاضرات ملقاة عام ١٨٥٦ ونشرت عام ١٨٥٧) وفقاً لمزاياه سواء فى وقته أو فيما بعد لأنه، كما هو حال سنيور من قبله، استعمل مصطلح 'الاقتصاد السياسى' للإشارة إلى ما يعتبره معظم الناس على الدوام كجزء صغير أما من الاقتصاد السياسى political Economy أو من الاقتصاد Economics، أى المخطط المنطقى للعقلانية الاقتصادية المعروف=

هنا. ويبدو أن القسم المتعلق بالكتاب المؤسسين الأمريكيان لم تتم كتابته قط].

=على نطاق واسع باسم 'النظرية البحتة'. تبين أعمال كيرنس الخاصة ببساطة إنه كان بعيداً عن الاعتقاد بأن هذا المخطط العقلاني (الذي، كما نتذكر، لا يشكل حتى كل النظرية الاقتصادية، وفق مفهومنا) يمثل كل معرفتنا حول الشؤون الاقتصادية. ولكن نتيجة لسوء الفهم، الذي يلام هو عليه جزئياً، فقد جرى تقديمه فيما بعد، من قبل انغرام وشمولر، كمدافع مثابر عن 'المنهج الاستنتاجي' لا يجد أى جدوى فى أى بحث وقائعى. ومع ذلك، يشكل تحليليه لطبيعة ذلك المخطط مساهمة حقيقية. إذ إن الطابع الافتراضى البحت لذلك المخطط، فرضياته غير الواقعية، عمق الفجوة التى تفصله عن الظواهر الاقتصادية القابلة للمشاهدة، وصعوبة التحقق من فرضياته المكونة من خلال الأدلة الإحصائية أو الأدلة الوقائعية الأخرى (بل إن كيرنس تحدث حتى عن استحالة إثبات أو إنكار 'القوانين الاقتصادية' من خلال هذه الأدلة): جرى عرضها كلها على نحو أوضح من أى وقت مضى، رغم أنه توقف بعيداً عن الاستنتاج الواضح القائل إن هذا المخطط لا يمكن قط أن يخلق أى 'قوانين' ولكنه مجرد أداة مساعدة.

الفصل الخامس

الاقتصاد العام في الفترة: الكتاب والمجموعات

١. جيفونس، منجر، فالراس
٢. إنجلترا [عهد مارشال]
[أ] إيجورث، فكستد، بولى، كانان، هويزن
[ب] مارشال ومدرسته
٣. فرنسا
٤. ألمانيا والنمسا
[أ] المدرسة النمساوية أو مدرسة فينا
[ب] الزعماء القدامى
[ج] الممثلون
٥. إيطاليا
[أ] الزعماء القدامى
[ب] بانثانيولى
[ج] باريتو
٦. هولندا والبلدان الاسكنديناوية
٧. الولايات المتحدة
[أ] الكتاب الذى هيئوا الأرضية
[ب] كلارك، فيشر، وتاوسك
[ج] بضع شخصيات قيادية أخرى
٨. الماركسيون
[أ] الماركسية فى ألمانيا
[ب] الحركة التنقيحية وانبعاث الماركسية]

١- جيفونس، منجر، فالراس

خلقت الدعوة للإصلاح الاجتماعى بؤرة جديدة للاهتمامات العملية لدى الاقتصاديين؛ ولكن رغم تأثيرها على نبرة واتجاه العمل التحليلي، بيد أنها لم تؤثر على تقنيته. وقد قصدت المدرسة التاريخية أن تتورط طرق العلم حقاً؛ ولكن هذه الثورة انتهت إلى تسوية حتى في ألمانيا. وإلى المدى الذى بلغته هذه التأثيرات، فإن علم الاقتصاد العام، من حيث نطاقه ومنهجه، ظل على ما كان عليه أساساً. ولكن جوهره التحليلي، الذى أصبح مصطلح القيمة والتوزيع Value and Distribution يعبر عنه بصورة مألوفة، تعرض إلى ثورة خاصة به استقرت عند وضع كلاسيكى نمطى حوالى العام ١٩٠٠ وشكلت الحدث الكبير الثالث فى حقائنا فى تلك الفترة. ووفقاً لتقليد مألوف يستحسن الانطلاق منه، فقد تركزت الثورة فى ظهور نظرية القيمة القائمة على المنفعة الحدية marginal utility theory of value التى ترتبط بأسماء ثلاثة قادة: جيفونس، منجر وفالراس. وننوقف هنا لنحييهم^(١).

فى سيرته المتواضعة كموظف مدنى ومعلم، لم يترك وليم ستانلى جيفونس William Stanley Jevons (١٨٨٢-١٨٣٥) أى علامة قط تتناسب مع أهمية إنجازاته. فقد كان معروفاً أثناء حياته بكتاباته عن النقود والمالية والقضايا العملية الأخرى ذات الأهمية العامة- وحتى بكتابات حول نظريات الدورة الاقتصادية القائمة على البقع الشمسية أو الحصاد (انظر الفصل الثامن، أدناه) - أكثر مما كان معروفاً بالعمل الذى خلده. وعلاوة على ذلك، فإن ذكره فى إنجلترا حجبته القيادة القوية لمارشال الذى قرّم 'الثورة الجيفونسية' بصورة مطردة. وثمة أسباب أكثر لهذا الأمر. إذ يندر أن كان لجيفونس تلاميذ شخصيين- وهى حقيقة تعود بدورها ليس فقط إلى ضالة الفرصة التى أتاحت له للتدريس (حيث لم يدرس فى أى مكان ستراتيغى البتة) بل أيضاً إلى بساطته الوديدة أو عدم ميله إلى التشديد والحزم assertiveness (مما كان يتوافق تماماً مع كثرة الادعاء بالجدة الثورية لأفكاره،

(١) سيتم ذكر الرواد فى الفصل السادس، القسم الثالث، أدناه.

وهي عادة من شأنها أن 'تعوض' عن ذلك النقص). ولكن من الصحيح أيضاً إن عمله في النظرية الاقتصادية يفتقر إلى اللمسات الأخيرة. إذ إن عمله لم يكن بمستوى رؤيته. فمفاهيمه اللامعة وبصائره العميقة (وبخاصة دفاعه عن الأشكال الرياضية للفكر، نظريته للقيمة، نظريته لرأس المال والفائدة) لم يجرِ التعبير عنها بشكل دقيق قط؛ بل تمت صياغتها as aperçus {كلمحات خاطفة وموجزة} وجرى مزجها كثيراً بالمادة القديمة بحيث بدت كأشياء سطحية تقريباً. ومن المؤكد أن موقف مارشال غير الكريم منه قد تكفلَ بالباقي من أسباب عدم بروزه. وهكذا فإن جيفونس لم ينل قط في إنجلترا ما يستحقه. وبشكل خاص، لم يتم الاعتراف قط بأصالته كما ينبغي. فمن المؤكد أنه كان أحد أكثر الاقتصاديين أصالة بشكل حقيقي منذ إيماناً وقت مضى. وضمن حالات أخرى قليلة جداً، لا يصعب الحديث عن 'الجنور' مثلما يصعب هذا في حالته (حيث يشكل جون راى John Rae حالة أخرى منها). فجيفونس لم يسمع بسابقيه forerunners إلا فيما بعد، الأمر الذي كان مبرراً تماماً في حالته، وبخاصة بعد أن سجل بصورة كريمة فضل من اكتشفهم فيما بعد. ربما يدين جيفونس إلى ميل بأكثر مما يتصور هو نفسه: فإنه كان يضمّر نفوراً كبيراً من عمل ميل Principles الذي كان يتعين عليه استعماله في التدريس؛ ولكن أقوال ميل الرخوة tergiversations، وهي أهداف مثلى للانتقاد، ربما علّمت أشياء جيفونس كثيرة، رغم ذلك. وباستثناء هذا، فيبدو أنه وضع أساسيات تعاليمه من أحجار كانت قد صنعها بنفسه. يرد الجزء الأكبر من عمله في حقل النظرية البحثية في كتابه Theory of Political Economy (الطبعة الأولى، ١٨٧١؛ ومع ذلك، فإن التاريخ الذي يثبت أسبقية جيفونس بالنسبة لمفهوم 'الدرجة الأخيرة من المنفعة' final degree of utility هو عام ١٨٦٢ حينما طرح المقالة 'Notice of a General Mathematical Theory of Political Economy' في اجتماع الجمعية البريطانية لتقدم العلم في كمبريدج [القسم F]؛ كما تم تجميع معظم عمله في حقول النقود والدورات من قبل البروفيسور فوكسويل Foxewell في مجلد تحت عنوان (Investigations in Currency and Finance) (1884) - وهو عمل لا ينبغي أن يهمل درسه أي اقتصادي. وعلاوة على ذلك، فقد كان جيفونس عالم منطق بقدر ما كان

اقتصاديًا. كما أذكر عمله (Principles of Science 1874) - وهو عمل يحمل قوة وأصالة جيفونسية حقًا ولم ينل الاعتراف الذى يستحقه، كما يبدو الأمر لى. وثمة فهرست ملحق بعمله Letters and Journal نشرته السيدة دبليو. س. جيفونس W. S. Jevons عام ١٨٨٦. وقد ساهم البروفيسور ه. س. جيفونس H. S. Jevons وزوجته بمقالة مختصرة حول حياته وعمله: *Econometrica*, July 1934^(٢).

بعد عمل وظيفى قصير، تم تعيين كارل منجر Carl Menger (١٨٤٠-١٩٢١) فى أحد كرسيى الاقتصاد السياسى فى كلية القانون فى جامعة فينا وظلّ فى ذلك العمل حتى نهاية مسيرته الرسمية (١٨٧٣-١٩٠٣). لم يكن هذا الموقع مثاليًا بأية حال لأنه لم يكن ثمة تقليد محلى حول الموضوع، ناهيك عن أن يجتذب هذا الموقع الاهتمام العالمى؛ ولأن تلاميذ منجر، من المحامين والموظفين المدنيين المنتظرين فى المستقبل، لم يهتموا إلا قليلاً بما كان يتعين عليه قوله - فإذا كنت فى وضع جيد فى مادتي القانون المدنى والعام، فبوسعك إسقاط الامتحان فى مادة الاقتصاد. ولكنه لم يرهب ذلك. فقد أكد هذا الرجل الصلب نفسه أخيرًا، ووجد تلاميذ شخصيين له على مقياسه من الذكاء - كما أنه وجد، ولو ليس دون معاناة لفترة من الزمن - مدرسة أظهرت الحيوية والتماسك ومارست التأثير العالمى إلى أن تلاشت (مؤقتًا؟) فى الثلاثينيات، رغم افتقارها إلى الوسائل والإمكانات التى تحدد مثل هذا الإنجاز عادة. يعود مبدأه الأساسى عن المنفعة الحدية إليه شخصيًا، مع أن جيفونس يحتفظ طبعًا بأفضلية إعادة اكتشافه. وتعود إليه أيضًا، شخصيًا وموضوعيًا، موضوعات كثيرة أخرى اكتشفها فى مجرى إحكامها. كان منجر مفكرًا دقيقًا يندر أن يزل، هذا إن زلّ قط، وأن عبقريته لا تبرز على نحو مؤثر إلاّ لأنه كان يفتقد إلى الأدوات الرياضية الملائمة. تكمن الجذور النهائية لتعاليمه فى التقليد النظرى الألمانى الذى بلغ ذروته لدى هيرمان وتونن؛ بيد أن تأثير سمث

(٢) قد تكون هذه أفضل فرصة لى للإشارة إلى عمل كاتب منسى الآن ولكنه انتزع النشاء من جيفونس ومارشال معًا: *Plutology* (London, 1864; Melbourne, 1863) الذى كتبه دبليو. س. هيرن W. Hearn الذى كان يدرّس فى جامعة ميلبورن. لم يؤثر الكتاب فى بقوة. ولكنه، فى أجزاء منه، يبدو شبيهًا بكتاب جيفونس بصورة تلفت النظر. ومع ذلك، فإن تاريخ الكتاب يثبت استقلال جيفونس بالنسبة لموضوع المنفعة.

وريكاردو، وبخاصة ج. س. ميل، واضح أيضًا. فما أراد منجر تثويره هي تعاليم هؤلاء الكتاب، شأنه في ذلك شأن جيفونس. ولهذا السبب بالضبط، فهؤلاء هم معلموه بمعنى ما. لقد أعيد نشر عمله Grundsätze der Volkswirtschaftslehre (الطبعة الأولى ١٨٧١؛ الطبعة الثانية ١٩٢٣- وتتمثل هذه الطبعة العمل الذى قدمه فى شيخوخته ولم يضيف شيئاً جوهرياً) إضافة إلى كتاباته الأخرى، التى سنذكر قسمًا منها فيما بعد، فى أربعة مجلدات من قبل مدرسة لندن للاقتصاد خلال الفترة ١٩٣٣-١٩٣٦. وتتمثل المقدمة التى كتبها ف. أ. فون هايك F. A. von Hayek لهذه المجلدات (vol. ١) Collected Works أفضل مصدر للمعلومات عن هذا الرجل والمفكر. انظر أيضًا: H. S. Bloch, 'Carl Menger', Journal of Political Economy, June 1940. [فى عام ١٩٥٠، نُشرت ترجمة إنجليزية للعمل Grundsätze تحت عنوان Principles of Economics مع مقدمة كتبها نايت F. H. Knight].

وكما ذكرنا من قبل، فإن علم الاقتصاد هو بمثابة حافلة كبيرة تحمل ركابًا كثيرين لهم اهتمامات وقدرات متفاوتة. ومع ذلك، فإن فالراس هو أعظم الاقتصاديين فى نظرى، بقدر تعلق الأمر بالنظرية البحثية. إذ إن نظامه للتوازن الاقتصادى، بتوحيده نوعية الإبداع 'الثورى' مع نوعية التأليف الكلاسيكى، يشكل النظام الوحيد الذى قدمه اقتصادى ما بما من شأنه أن يضاهى إنجازات الفيزياء النظرية. إن معظم الكتابات الأخرى فى الفترة المدروسة- وما بعدها- مهما كانت ثمينة فى حد ذاتها، ومهما كانت أصيلة ذاتيًا، بيد أنها، بالمقارنة مع عمل فالراس، تبدو كمراكب صغيرة بجانب باخرة، تبدو كمحاولات غير كافية لفهم جانب محدد من الحقيقة التى عبّرَ عنها فالراس. إذ يشكل ذلك العمل العلامة البارزة على الطريق التى تقود علم الاقتصاد نحو احتلال منزلة علم محدد rigorous أو دقيق exact وأنه ما يزال، رغم قدمه الآن، فى صلب الكثير من أفضل العمل النظرى فى وقتنا الحاضر. ولسوء الحظ، فإن فالراس نفسه أعارَ أهمية كبيرة لفلسافته المثيرة للشك حول العدل الاجتماعى، مخططة لتأميم الأرض، مخططاته للإدارة النقدية، وأشياء أخرى لا شأن لها بعمله الفذ فى النظرية البحثية. وقد كلفه هذا

خسارة ود الكثير من النقاد المقتدرين ويتوجب، كما أتصور، أن يمتحن صبر الكثير من قراءه. على أى حال، ينبغي فهم التقدير المذكور أعلاه على أنه يشير إلى عمله النظري فحسب.

كان ماري اسبرت فالراس Maire Esprit Walras (١٨٣٤-١٩١٠) رجلاً فرنسيًا وذلك ليس فقط بحسب مسقط رأسه. إن نمط تفكيره وطبيعة عمله تحمل طابعًا فرنسيًا متميزًا بنفس المعنى الذى تكون فيه مسرحيات راسين Racine ورياضيات بوينكار Poincare فرنسية بصورة متميزة. وكذلك هو شأن كل جذور عمله. وقد أكد فالراس بنفسه تأثير والده أوغسطين فالراس وكذلك كورنو Cournot عليه. ولكن ينبغي أن نضيف اسم ساي كسابق حقيقى له. وخلف شخصية ساي، يلوح كل التقليد الفرنسى - كانتيلون، وتورغو، وكيني، وبواغيلبر - مهما كثر أو قل ما يُستخلص منه بصورة واعية. كما عبّر فالراس عن تقدير تقليدى لسمث. بينما لم يمثل بقية كبار الكتاب الإنجليز سوى القليل بالنسبة له.

تعكس سيرة فالراس العجز المؤلف للمفكر الأصيل عن السيطرة على المشاكل العملية لحياته الشخصية. كان فالراس أصيلاً إلى حد أعاقه عن تحقيق النجاح فى مدارسه. وقد فشل تعليمه كمهندس معادن، الذى يدين له بتمكنه من الرياضيات، فى أن يؤمن له مصدر رزق. فتحوّل إلى الصحافة الحرة، مطّوراً أفكاره المختلفة حول الإصلاح الاجتماعى - وهى أفكار نمطية بالنسبة لراديكالى فرنسى من الطبقة الوسطى فى عصره - ولكنه لم يترك أثراً متميزاً^(٣). ومع ذلك، أنقذت الصدفة السعيدة عبقريته من أن تضيع هباء. فقد حضر عام ١٨٦٠ مؤتمراً عالمياً عن فرض الضرائب فى لوزان حيث قدّم مقالة نالت الاستحسان. وكان بين مستمعيه م. لويس روكونين M. Louis Ruchonnet الذى أصبح فيما بعد رئيس قسم التربية فى Canton de Vaud وأسس عام ١٨٧٠ كرسى الاقتصاد السياسى فى كلية القانون وعرضه على فالراس. وبعد أن عثر على مرساه، شرع فالراس

(٣) على أى حال، فقد عمل فالراس (١٨٦٦-١٨٦٨) كمحرر لمجلة Le Travail وهى مجلة تنطق بلسان الحركة التعاونية التى كان يكتب فيها بصورة عامة.

بالعمل الذى ظلّ منكبًا عليه حتى النهاية. ولكن الفترة الخلاقة من حياته توافقت تقريبًا مع توليه العمل الأكاديمي خلال الفترة ١٨٧٠-١٨٩٢. تم أخيرًا تضمين كل عمله المهم (وبعض المواد غير المهمة) ومعظم ما نُشر سابقًا من مذكرات ومقالات (بدءًا من عام ١٨٧٣) فى ثلاثة مجلدات: *Elements d'economie politique pure* (1st., ed. 1874-7 ; 5th definitive ed. 1926) ; *Etudes d'economie politique applique* (1st ed. 1898 ; 2nd ed. edited by Professor Leduc, 1936) ; *Etudes d'economie sociale* (1st ed. 1896 ; 2nd ed. edited by Leduc, 1936). يتضمن المجلد الأول (leçons 5-34) عمل فالراس العظيم. ويتضمن المجلد الثانى بعض الملاحق التى يتمتع بعضها بأهمية من الدرجة الأولى، وبخاصة تلك التى تتعلق بالنقود والانتماء. أما المجلد الثالث، فيمثل أهمية ضئيلة من زاويتنا. انظر: 'Autobiography' in: *Giornale degli Economisti*, December 1908 ; his 'Bibliography' in: *Revue du droit public et de la science politique*, May and June 1897 ; his correspondence with Jevons in *Journal des economistes*, June 1874; William Jaffe, 'Unpublished Papers and Letters of Leon Walras,' *Journal of Political Economy*, April 1935; and J. R. Hicks, 'Leon Walras,' *Econometrica*, October 1934.

وفى وقتنا الحاضر حيث يندر أن نجد منظّرًا لا يعترف بتأثير فالراس، فمن الغريب أن نقول إن الأخير لم يشكل أى مدرسة شخصية. ولكن لم يكن بوسع طلبة القانون، الذين استمعوا إليه، تلقى رسالته العلمية: فعمله الأكاديمي جلب له الأمان والضمان ولكن القليل من التأثير. كما كان معاصروه من زملاء المهنة غير مكثرئين أو معاديين فى الغالب. ففى فرنسا، لم يتم تمييزه من الناحية العملية أثناء حياته، رغم أنه وجد بعض الأتباع مثل أوبت. وفى إيطاليا، كان بارون أول نصير له. وكان بانثالوني بين أول من فهموا أهمية عمله. وأنصوّر أنه تم لفالراس، عبر بانثالوني، العثور على تلميذه وخليفته اللامع: باريتو^(٤) الذى يمثل

(٤) حول تأثير فالراس على أوبت Aupetit، وبارون Barone، وبانتاليوني Pataleoni، وباريتو، انظر القسمين الثالث والخامس، أدناه.

الرجل الذى تعينَ عليه، والحال هذه، تشكيل ما أصبح يعرف بمدرسة باريتو أكثر مما 'بمدرسة فالراس فى لوزان'. ومع ذلك، فهذه المدرسة، كمدرسة متماسكة، كانت مقتصرة على إيطاليا أو تقريبًا كذلك. أما فى إنجلترا، فقد استبعدت النعالييم المناظرة والأقوى لمارشال أى تأثير مباشر لفالراس إلى أن قدّم البروفيسور بولى Bowley زبدة نظام فالراس-باريتو فى صورة مرجع مدرسى (Mathematical Groundwork, 1924). ولم يجد الألمان (بمن فيهم النمساويون) أى شىء فى عمل فالراس سوى أن المذاهب النمساوية ظهرت بالرداء الرياضى الباعث على النفور بشكل خاص. وكسبَ فالراس نصيرين من الدرجة الأولى فى الولايات المتحدة وهما فيشر ومور، ولكنه تعرض عمليًا للإهمال من قبل بقية رجال المهنة. وكان لديه معجبون متفرقون فى كل مكان، طبعًا. ولكنه لم ينل استحقاقه إلا فى العشرينيات، أى بعد فترة طويلة من انتصار أفكاره وبعد عقد أو نحو ذلك من وفاته. 'إذا أراد المرء أن يحصد بسرعة، فعليه بزراعة الجزر والخضر؛ وحينما يطمح المرء بزراعة البلوط، فعليه أن يمتلك الحس ليقول لنفسه: سيدين أحفادى لى بهذا الظل' (٥). - هكذا كتبَ فالراس ذات يوم لصديق له (٦).

وقبل أن نتناول، فى هذه اللحظة، ماذا كانت تعنيه 'ثورة' جيفونس-منجر-فالراس وفيما إذا نجحت أم لا فى خلق محرك جديد للتحليل، فأننا نمضى بعرض الكتاب والمجموعات بقصد تكوين فكرة مؤقتة عن طبقة الأرض التى كان عليها علم الاقتصاد العام فى تلك الفترة. وكما فعلنا فى الفصل الرابع من الجزء الثالث، فإن هذا عرض المادة سيتم بحسب البلدان.

(٥) مقتطف من مقدمة عمل البروفيسور ايثن انتونيللي Etienne Antonelli: L'economie pure du capitalisme, 1939 [ترجمة المقتطف: ج. شومبيتر]

(٦) إنذكر القارئ بأن ج. شومبيتر كان ينوي كتابة كل الخلاصات المتعلقة بالسيرة (ومعها مراجعها الكثيرة) بالحرف الطباعى الصغير لكى تعامل كهوامش عمليًا.

٢- إنجلترا [عهد مارشال]

يمكننا، كما يلي، أن نصف الوضع الإنجليزي عام ١٨٨٥ وهو العام المبارك الذى ألقى فيه أ. مارشال أول محاضرة فى جامعة كامبريدج. كان هناك الكثير من العمل الجيد والعام، وبخاصة العمل الوقائعى كعمل نيومارش Newmarch؛ لم يكن ثمة نقص فى الشرارات التى تحدث من حين إلى آخر كتلك التى يمكن العثور عليها فى كتابات باغيهوت Bagehot أو كليف ليسلي Cliffe Leslie؛ وكانت هناك تعاليم مقتدرة مستمدة من ج. س. ميل، وكيرنس، وفاوست Fawcett رفعت الراية بجدارة. ولكن هذه الأشياء العامة لم تكن تتطوى على شيء ما باستثناء رسالة جيفونس، وحتى هذه لم تكن بعد سوى صرخة فى غابة مقفرة، بقدر تعلق الأمر بالنظرية. فقد عبّر أحد المتحدثين عام ١٨٧٦ عن شعور عام جداً^(٧) حينما أشار بنباه إلى أن العمل الأعظم قد تم تحقيقه، رغم أن هناك الكثير أمام الاقتصاديين ليعملوه على صعيد تطوير وتطبيق المذهب القائم. وكان مارشال هو الذى غير كل هذا وأخرجه من الوادى إلى مرتفع شاهق. ففى إنجلترا، كانت الفترة فترة مارشالية بصورة حاسمة. وكان نجاحه عظيماً يضاهاى نجاح سمث إذا أخذنا بالاعتبار حقيقة أن العلم يصبح بالضرورة أبعد عن متناول الجمهور العام كلما تطورت تقنياته وحقيقته أن مارشال لم يتمتع بدعم الفرس السياسى الراجح كما هو شأن مذهب حرية التجارة عند ظهوره.

[أ) إديجورث ، فكستد، بولى، كانان وهوبزن] إن شخصية مارشال لم تحجب فقط أولئك الكتاب الإنجليز الذين تابعوا خط ما بعد-ميل من التحليل مثل سيدفك ونيكولسون، رغم أن أيًا منهما لم يخلو الحسنات^(٨)؛ بل إنها حجبت أيضاً

(٧) انظر: W. S. Jevons, 'The Future of Political Economy' Fortnightly Review, November 1876.

(٨) العمل الوحيد لهنرى سيدفك Henry Sidgwick (١٨٣٨-١٩٠٠)، الذى يتعين ذكره هنا هو (Principles of Political Economy (1883, 3rd ed., 1901). وإذ يماشى الكتاب تقليد ميل أساساً، فإنه يحسن من هذا الأخير عبر إضفاء المزيد من الدقة على مفهّمته ويقدم عدة مقترحات ثمينة حتى فى مجالات، مثل نظرية القيم الدولية، يفشل فيها فى متابعة ذلك التقليد أو متابعته بصورة صحيحة. وتستحق معالجته للنقود والفائدة اهتماماً خاصاً. وقد أشرنا من قبل إلى طريقته فى تعقب معانى=

إديجورث وفكستد اللذين كانا بنفس منزلته الفكرية في حدود قدراتهم كمنظرين، مع إنه كان ينقصهما حقاً ما كان لدى مارشال من سعة نظر بالنسبة للواقع التاريخي والواقع القائم حينذاك ويفتقدان أيضاً ما كان له من قوة شخصية.

فرانسيس اسدروا إديجورث Francis Ysidro Edgeworth (١٨٤٥-١٩٢٦) هو أحد خلفاء سنيور في كرسي الاقتصاد السياسي في جامعة أكسفورد (١٨٩١-١٩٢٢)، ومحرر أو محرر مشارك لمجلة Economic Journal خلال الفترة (١٨٩١-١٩٢٦)، وهو ينحدر من عائلة إنجليزية-ايرلندية من النبلاء، وكان، في كل شيء باستثناء الرياضة، نتاج نمطٍ للتعليم الكلاسيكي في أكسفورد. ثمة كاتبان بارعان رسماً شخصية هذا الرجل والمفكر: كينز، في مجلة Economic Journal (آذار ١٩٢٦؛ وهذه المقالة أعيد نشرها في عمله Essays in Biography, pp. 267 et seq.؛ وبولي، في مجلة: Econometrica (April 1934) - ويكفي أن أحيل القراء إلى هذين العاملين. ولكن ثمة بضع نقاط لابد من ذكرها لاستحضار الرجل أمام أعيننا. أولاً: أشيرُ إلى مذهبه النفعي الذي فرض نفسه منذ البداية (New and Old Methods of Ethics, 1877) وبدا غريباً بالنسبة لإنسانٍ كان ذهنه مهذباً؛ حيث فعل هذا المذهب الكثير للإبقاء - دون ضرورة قط - على حيوية الحلف غير المقدس بين علم الاقتصاد وفلسفة بنثام، وهو أمر أشرت إليه غير مرة. ولكن دعوني أكرر بأننا في حالته، كما في حالة سنيور، نستطيع التخلي عن المذهب النفعي في أي من كتاباته الاقتصادية دون أن تتأثر هذه الكتابات علمياً بذلك. ثانياً: سيبقى اسم إديجورث في علم الإحصاء خالداً إلى الأبد: وأنا لا أقصد عمله حول الأرقام القياسية أساساً (انظر الفصل الثامن، القسم الرابع، أدناه)، بل عمله حول طرق الإحصاء وأسسها التي تركزت على قانونه المعمم عن الخطأ Generalized Law of Error. ثالثاً: هناك السلسلة الطويلة من مقالاته حول القضايا الاقتصادية

=الكلمات. قدم جوزيف شيلد نيكولسون Joseph Shield Nicholson (١٨٥٠-١٩٢٧)، الذي احتل كرسي الاقتصاد السياسي في أدنبرغ من عام ١٨٨٠ إلى عام ١٩٢٥، عملاً جيداً عن النقود، ولكننا، في هذه اللحظة، نهتم فقط بعمله (Principles of Political Economy (1893, 1897, 1901). ورغم أن العمل غير أصيل البتة وقزمه عمل مارشال، بيد أنه يبقى عملاً قيماً.

التي لم يرحب قط، سوى بضع كتاب، بالأصالة القوية لقسم منها التي تخفيها حقًا خصوصيات عرضه الغريبة (وهي أشياء لا يجدها كل فرد طريفة كما أفعل أنا). وفيما يتعلق بمساهماته الجديدة بالفعل (منحنيات السواء، منحني التعاقد contract curve، تناقص الغلة، التوازن العام، وما شابه) فإن هذه المساهمات تعنى نفس ما يعنيه، أو أكثر مما يعنيه، عمل مارشال: Principles بالنسبة للجهاز التحليلي لعلم الاقتصاد. فلماذا إذن، رابعًا: حجب مارشال هذه الشخصية الكبيرة بصورة تامة؟ إن الجواب - المهم من زاوية سوسيولوجيا العلم، وبخاصة بالنسبة للسؤال: من ينجح وكيف ولماذا؟ - يبدو كما يلي: يفتقد إديجورث إلى القوة التي تخلق البحوث المؤثرة وتستجمع الأنصار؛ وإنه كان ودودًا وكريمًا^(٩)؛ ولم يفرض نفسه قط في أى ادعاءات خاصة به؛ كما أنه كان حساسًا جدًا من ناحية، ومزاجيًا جدًا من ناحية أخرى؛ ويرضى بمقعد خلف مارشال الذي قام إديجورث بتجديده وتحويله إلى Achilles؛ وكان إديجورث مترددًا عند المناقشة، شارد الذهن إلى درجة مَرَضِيَّة، وأسوأ متحدث ومحاضر يمكن تصوره، وكان غير فعال من الناحية الشخصية - إنه غير أهل للقيادة، وهذه أصلح كلمة يمكن أن تعبر عنه. يتضمن كتابه Papers Relating to Political Economy (3 vols. 1925) سوية مع كتابه Mathematical Psychics (1881, London School Reprint, 1932) كل عمله في حقل النظرية الاقتصادية. وقد لخص البروفيسور بولي Bowley عمل إديجورث Edgeworth's Contributions to Mathematical Statistics في كراس صدر تحت رعاية الجمعية الإحصائية الملكية عام ١٩٢٨.

أتمنى أن يسمح لى المجال بإنصاف شخصية فيليب هنرى فكستد Philip Henry Wicksteed (١٨٤٤-١٩٢٧)، كما تتراءى أمامى عام ١٩٠٦ خلال محادثة استمرت لمدة ساعة، كنا جالسين فيها على العشب أمام منزله فى وانتج Wantage،

(٩) أتصور أن كل من كان يعرف إديجورث من شأنه أن يستحسن وصفه بأنه 'كريم' generous. بيد أن كرمه كان من نوع خاص. إذ انتصب كله لصالح مارشال وميراث ريكاردو-ميل. واحسرتاه على الطبيعة البشرية! فهو لم يكن كريمًا مع النمساويين، ومع فالراس، وفكستد، ومع مور، لأسباب لم أستطع فهمها.

حيث لمست لديه: سكينة لا تضر القسوة؛ نزوع لعمل الخير دون ضعف؛ بساطة متماشية جيداً مع نقائه refinement؛ تواضع حقيقى لم تنقصه الرفعة. وفى الواقع، يمكننى أن أسجل إن هذا اللاهوتى، الذى كان يحاضر حول دانته Dante، كان يقف خارج المهنة الاقتصادية نوعاً ما- وهذه هو أحد الأسباب التى تفسر لماذا لم يترك عمله، الذى هو عمل ممتاز من الناحية التعليمية بشكل خاص، أثراً يمكن الإحساس به أكثر. هل يُصدق أن عمله الأكثر أصالة An Essay on the Co-ordination of the Laws of Distribution (1894, London School Reprint, 1932) ذهب دون أن يحس به أحد؛ ولم تُبع منه سوى نسختين؛ وأن البروفيسور ستغلر Stigler، حتى اليوم، هو الاقتصادى الوحيد، على حد علمى، الذى يقدر ذلك العمل حق قدره؟ يتضمن عمله ... Common Sense of Political Economy (١٩١٠)؛ وقد صدرت الطبعة الجديدة منه، سوية مع عمله Selected Papers and Reviews الذى كتب مقدمته البروفيسور ليونيل روبنز Lionel Robbins، عام ١٩٣٣ (بمجلدين) عدة نقاط أصيلة وهو أكثر بكثير من تبسيط للمذاهب التى استقرت حينذاك. كما إن أفكاره تتقدم عصره كثيراً فى قضايا الأسس وقضايا التوضيح النقدي للمفاهيم بشكل خاص (مثلاً، بالارتباط مع نظرية الأبعاد التى قدم لها الكثير فى مقالته ' On Certain Passages in Jevons' Theory of Political Economy in the Quarterly Journal of Economics, April 1889). إن الطبيعة العامة لنظام فيكستد هى طبيعة جيفونسية- وفى الواقع، فهو المنظر الجيفونسى المهم الوحيد- ولكنه هزّ نقاطاً كثيرة، كانت ما تزال تلتصق بعرض جيفونس وأضاف العديد من التصحيحات والتطويرات- تحت التأثير النمساوى إلى حد ما- بحيث يمكن القول إنه طور شيئاً ما كان يعود إليه شخصياً، رغم أن هذا الشيء هو تنقيح لنظام المنفعة الحدية.

كان فيكستد مستقلاً عن مارشال أكثر مما كان خصماً له. أما بولى، البروفيسور فى مدرسة لندن للاقتصاد، فكان مستقلاً عنه بنفس الدرجة وأقل من خصم. يقع الجزء الأول من سيرته ضمن الفترة المدروسة وقد طُور، فيما بعد، ما يمكن أن نسميه أسلوبه العلمى الذى استبق تحديد نطاق الدراسة الوارد فى لائحة

(القسم الأول) جمعية القياس الاقتصادي التى تشكأت لاحقاً: تطوير النظرية الاقتصادية فى علاقتها بالإحصاء والرياضيات'. إن هذا البرنامج، الذى كان بولى بصدد تحقيقه عبر سلسلة طويلة من الأعمال، كان جديداً حينذاك ومثلاً موقفاً متميزاً. ولكنه اجتذب القليل من الانتباه فى ذلك الوقت لأن بولى لم يفعل شيئاً لتشجيعه عن طريق الإعلانات المنهجية حول السياسة policy. ثم كان هناك 'مستقل' آخر هو أكثر من خصم (بالنسبة لمارشال)، وكان معلماً حيويًا، وفى مدرسة لندن أيضاً، ومعروفاً حينذاك على نحو أفضل بين رجال المهنة والطلبة معاً: إنه كانان^(١٠). هناك آخرون ممن يتعين علينا أن نشير إليهم ولكن ليس بوسعنا أن نفعل ذلك. كما كانت هناك معارضة، وليس فقط وسط مَنْ تمسكوا بالأشكال الأقدم من الفكر. وكان هناك 'منشقون' طبعاً مثل هوبزن^(١١). وما كان أكثر أهمية

(١٠) يعرف قراء هذا الكتاب من قبل: ادون كانان Edwin Cannan (١٨٦١-١٩٣٥) من خلال كتابه History of the Theories of Production and Distribution ... from 1776 to 1848 الذى أشرفنا إليه غير مرة فى الجزء الثالث. ويشكل عمله هذا، وطبعاته من عمل آدم سميث، وكتابه Local Rates in England (1896) إنجازاته العلمية الرئيسية. ولكن ليس بوسع أحد أن يتابع مقالاته حول النقود والسياسة النقدية من دون أن يستمتع ويستفيد معاً. بيد أن هذا القول يعجز طبعاً عن إنصاف هذا المعلم والإنسان: معرفته الفطرية، تلقائيتها المحببة، قوة قناعاته - وهذه مزايا تشكل، لدى آخرين غيرى، أكثر من تعويض عن ضعف جانب التحليلية analytic refinemen لديه.

(١١) كان جون أ. هوبسن John A. Hobson (١٨٥٨-١٩٤٠)، الذى حالفه الحظ فى إثبات نفسه كمنشوق أكبر فى ذروة انتشار المارشالية وفى أن يستمر لوقت أصبح فيه هذا الأمر علامة مشرفة، رجلاً مثيراً للاهتمام فى جوانب عدة: حيويًا وموسوعيًا وعدوانيًا. كان هوبزن رجلاً متعلماً - بمعنى إنه كان يمتلك تعليمًا كلاسيكيًا - وراديكاليًا عاطفيًا: وهذه توليفة تفسر كثيرًا من أدب العلم-الاجتماعى فى ذلك الوقت. وفى علم الاقتصاد، فقد علم هوبزن نفسه بنفسه بطريقة عنيدة wilful جعلته قادرًا على أن يرى جوانب يرفض الاقتصاديون المتعلمون رؤيتها وجعلته عاجزًا عن رؤية جوانب أخرى كان الاقتصاديون المتعلمون يفترضونها. ولم يستطع هوبزن قط أن يفهم لماذا لم يهتم المهنيون برسائله وأنه، مثل كثيرين من أمثاله، لم يفر بأية حال من التفسير المريح القائل إن خصومه المارشاليين كان يحركهم الفضول العلمى بسحق الانشقاق، إن لم يكن المصلحة الطبقية: فرغم التوضيحات الكثيرة، فإن هوبزن لم يستوعب أبدًا إمكانية أن تكون الكثير من فرضياته، وبخاصة انتقاداته، خاطئة بصورة قابلة للإثبات وذلك لعدم كفاية تعليمه ولعجزه عن الفهم. وقد تم الاعتراف به فى وقت متأخر، فى الأوقات الكينزية، وذلك، بشكل رئيسى، لمذهبه حول نقص الاستهلاك الذى ستجرى الإشارة إليه فى الفصل الثامن، أدناه. يكفى أن نذكر ما يلى من القائمة الطويلة من كتبه وكراساته: Physiology of Industry (with A. F. Mummery; 1889) وكذلك العمل The Evolution of Modern Capitalism (1894)؛ الذى قد يكون أفضل أعماله؛ Gold, Prices, and The Industrial System (1909)؛ Wages ... (1913) The Economics of Unemployment (1922). ولكن كل مَنْ يرغب بفهم هذا الرجل، وارتباطاً بذلك، فهم كوميديا - أو تراجيديا - الأخطاء، لا ينبغي أن تفوت عليه قراءة عمل هوبزن السار: (Confessions of an Economist Heretic) (1938).

هو وجود كتاب معادين للتتظير، مثل سيدنى ويب، ممن لم يحتقروا شيئاً مثلما احتقروا التقية التحليلية^(١٢) analytic refinement. ولكن لم تكن هناك معارضة من جانب من كانت لديهم منزلة رفيعة فى التحليل. فقد سيطر مارشال على المشهد بأكثر مما فعل ريكاردو ذات يوم. فهذا الأستاذ العظيم، الذى كان مستبدًا أيضًا - وقدسياً pontifical فى أعين البعض - قد جعل من كل الجيل الصاعد من الاقتصاديين الإنجليز تلاميذ له وأتباعًا.

[ب) مارشال ومدرسته] خلق مارشال مدرسة حقيقية كان أعضائها يفكرون من خلال جهاز علمى معرفً جيداً وقد أكملوا ذلك برباطٍ من التماسك الشخصى القوى. إن البروفيسور بيجو، خليفته فى كمبريدج؛ والبروفيسور روبرتسون Roberston الذى خلف بيجو؛ واللورد كينز - إذا اكتفينا بذكر بضع من الأسماء الأكثر شهرة - خلقتهم تعاليم مارشال التى انطلقوا منها، مهما كانوا قد ابتعدوا عنها أثناء رحلتهم. وبعد عام ١٩٣٠، أنكر كينز نفسه ومعظم من يمكن أن نسميهم الجيل الثالث ولانهم لتلك التعاليم. ولكن هذا، من الناحية التحليلية البحتة، يعنى أقل مما يبدو أنه يعنيه. ومع أن بعضاً منهم نشأ على النفور من مارشال، ليس فقط من أنماط تفكيره ولكن من طعمه الشخصى أيضاً، ولكنه ما يزال، رغم ذلك، يطبعهم جميعاً بطابعه^(١٣).

كانت تلك المدرسة - وما تزال بمعنى ما - مدرسة وطنية تدرك جيداً طابعها الإنجليزى المتميز. سبق لى أن قارنت نجاح مارشال بنجاح سمث. وفى الواقع، كان نجاح الأول عفويًا ومباشرًا أكثر من الثانى. فقد تم تلقى Principles

(١٢) فى عام ١٩٠٦ أو عام ١٩٠٧، ألقى سيدنى ويب Sidney Webb مقررًا جامعياً من المحاضرات حول المنهج فى مدرسة لندن للاقتصاد حضرت واحدة منها. وإذا صح التعميم من تلك المحاضرة ونبرتها، فلا بد من أن ويب كان قد قدّم، فى ذلك المقرر، ما يمكن أن يعنيه المصطلح الألماني Kathedersozialist {اشتراكي الكراسى}. فالمحاضر لم يقل شيئاً عن مارشال وتعاليمه. ومع ذلك، كانت المضامين معادية للمارشالية بقوة. والاختلاف لم يكن سياسياً بشكل رئيسى: فمارشال كان يتعاطف مع الغابيين كثيراً (كما كانوا فى ذلك الوقت)؛ بل إن الاختلاف كان حول المنهج العلمى أساساً.

(١٣) لا يصح ذلك على البروفيسور هيكس Hicks الذى كان فى الأساس فالراسياً أكثر بكثير مما كان مارشالياً. وهذه الحقيقة لها أهمية أكثر من قطيعة الكينزيين المثيرة للعجب.

بترحيب شامل من جانب الجميع، وأن الصحف، التي كانت باردة إلى حد ما مع العمل Wealth of Nations، تسابقت فيما بينها في تقديم عروض تمتدح Principles بصورة مطولة. ولكن ثمة تحفظ يفرض نفسه: إن عمل مارشال لم ينجح في الخارج كما نجح عمل سمث. ولا ينبغي أن نذهب بعيداً للبحث عن السبب. فرسالة مارشال كان موجهة إلى مهنة الاقتصاد رغم كل شيء ومهما أحبّ هو فكرة أن يكون عمله 'مقروءاً من جانب رجال الأعمال'. وأن الاقتصاديين في جميع البلدان، ممن كانوا متقنين على النظرية الاقتصادية أصلاً، كانوا قد طوروا أو قبلوا أنظمة كانت تشبه أنظمة مارشال أساساً في أفكارها الأساسية - وذلك مهما كانت أقل تطوراً من ناحية تقنياتها. فمارشال، أولاً وأخيراً، كان الاقتصادي الإنجليزي الأعظم في تلك الفترة وكان يشعر هو نفسه بهذا. ولكن هذا لا يغير شيئاً من حقيقة أن عمل مارشال هو العمل الكلاسيكي في تلك الفترة، أي العمل الذي جسّد، بصورة أكمل مما فعل أي عمل آخر، الوضع الكلاسيكي الذي نشأ حوالى العام ١٩٠٠. وتصور أن اللورد كينز قصد التعبير عن تقييم مماثل حينما وضع نشر Principles في أول الأحداث التي وقعت عام ١٨٩٠ - وهو العام الذي يؤرخ بداية 'العهد الحديث من علم الاقتصاد'^(١٤). ومع أننا سوف نتحرك في فلك عمل مارشال في هذا الجزء، فمن الملائم أن نستجمع هنا أفكاره الرئيسية ككل.

إن صورة الفرد مارشال (١٨٤٢-١٩٢٤)، الإنسان، الرجل الأكاديمي، المعلم، المفكر، صوّرت بالمعنية لا نظير لها من قبل اللورد كينز (Alfred Marshall, 'Economic Journal, September 1924, reprinted in Essays in Biography, 1933) وكذلك هو شأن صورة آلهة الرعاية في حياته: زوجته السيدة مارشال التي لا يمكن أن تتفصل ذكراها عن صورتها (Mary Paley Marshall, 'Economic Journal, June 1944, (1850-1944)). ثمة مصدران آخران يُوصى

(١٤) Economic Journal, December 1940, p. 409. والحدثان الآخران هما تأسيس الجمعية الاقتصادية الملكية (الجمعية الاقتصادية البريطانية) وإكمال قاموس بالغراف Palgrave's Dictionary of Political Economy. [كان كينز على خطأ بالنسبة لتاريخ الحدث الثاني. إذ تم إكمال قاموس بالغراف عام ١٨٩٣ ونشر عام ١٨٩٤. وكان تاريخ مقدمة القاموس، التي كتبها بالغراف، هو عيد الميلاد Christmas عام ١٨٩٣].

بهما القارئ بقوة: The Memorials of Alfred Marshall (ed. by A. C. Pigou, 1925، والمقالة: 'The Place Of Marshall's Principles in Economic Theory' Economic Journal, December 1942). وقد تم نشر قائمة موسعة وربما كاملة بكتابات مارشال من قبل كينز في مجلة Economic Journal, December 1924؛ وقد أعيد نشرها العمل في The Memorials. ولكن معظم العمل المنشور لمارشال يرد في عمله Principles of Economics (أسس علم الاقتصاد، الطبعة الأولى ١٨٩٠، الذي يوصف باعتباره المجلد الأول حتى الطبعة السادسة التي صدرت عام ١٩١٠؛ بينما ستكون كل الإحالات التالية إلى الطبعة الرابعة ١٨٩٨)؛ وفي عمليه Industry and Trade (1919) and Money Credit and Commerce (1923). والمجلدات الثلاثة هذه كلها أساسية: فمن يعرف العمل Principles فقط لن يعرف مارشال قط. كما يكمل هذه المجلدات المجلد الذي نُشرَ بعد وفاته: Official Papers (1926). وفيما عدا ذلك، يكفي أن نذكر عمله: Pure Theory of Foreign Trade and his Pure Theory of Domestic Values (Privately printed 1879, London School Reprint, 1st ed., 1930)؛ وعمله وعمل السيدة مارشال: Economics of Industry (1879) - الذي هو العلامة الأكثر أهمية على الطريق المؤدية إلى Principles؛ وأخيرًا، هناك الخطاب الذي يكشف الكثير: (1896 'The Old Generation of Economists and the New') المنشور في مجلة Quarterly Journal of Economics, January 1897.

إن الأمور المشتركة بين مارشال وسمث هي أكثر من التشابه في النجاح والموقع في تاريخ علم الاقتصاد. فإذا أهملنا الاختلافات المؤقتة، فأنا نجد شبهة قوية في الرؤى أو المفاهيم العامة للعملية، وبخاصة بالنسبة للتطور الاقتصادي. كما نجد نفس الأهمية النسبية تقريبًا المعطاة لـ 'النظرية' و'الوقائع'، مع أن فن مارشال نجح في إبعاد السرد المجرد من صفحات Principles - بحيث تبدو معالجته، لمن لم يقرأ عمله: Industry and Trade، 'نظرية بحتة' أكثر مما هي في الواقع وأكثر مما يبدو عمل سمث. كما أن الشبه يزداد ليمتد إلى الهدف، والخطوة

(وأنا أهمل بعض الأمور غير الجوهرية كتسلسل الموضوعات) وطبيعة العمل. وكان مارشال يعي هذا الأمر. إذ يُروى أنه كان قد قال: 'كل شيء موجود لدى آ. سمث'. وتتطوى هذه الملاحظة على أكثر من مجرد الاعتراف بحقيقة أن عمل اليوم ينبع من عمل الأمس: فثمة اعتراف بالقراءة. ثم هناك الشبه الأخير: إن العملين Wealth of Nations و Principles معاً بلغا ما بلغاه لأنهما، جزئياً على الأقل، نتاج لعمل أمتد لعقود من الزمن ونضج كلياً، نتاج لعقلين بذلا أقصى عناية، عقليْن معدّين للعمل ولم يباليا بمرور السنوات. وهذه هي العلامة الأكثر أهمية لأن كلاً من سمث ومارشال كان متشوقاً جداً للتبشير بمعرفته والتأثير فى الممارسة السياسية- ومع ذلك، فإن أيّاً منهما لم يسمح لنفسه بالاستعجال ودفع المخطوطات إلى الطباعة قبل أن يشعر بأنها قد اكتملت بقدر قدرته على أن يجعلها كذلك^(١٥).

أما وضع دليل للقارئ عن Principles، فهو غير ضرورى فى نظرى. يكفى أن نقول إن الكتاب الخامس Theory of the Equilibrium of Demand and Supply) يتضمن لب العمل التحليلي. ولكن الكتاب السادس حول Distribution يمثل تطبيقاً موسعاً للكتاب الخامس. يعرض الكتاب الأول، أولاً، 'تاريخاً اقتصادياً معيناً فى محاضرة واحدة' وهو يرد على نحو موجز جداً إلى حد أن ما يتبقى يبدو كسياقات من أشياء معروفة trivialities ويعجز كلياً تقريباً عن التعبير عن سعة وعمق الجهد المبذول فعلاً فى هذا الكتاب؛ وثانياً، ثمة خلاصة منفصلة على نحو لا يصدق تقريباً حول تاريخ علم الاقتصاد. كان يمكن كتابة الكتاب الثانى Some Fundamental Notions (المفاهيم) من قبل خطاب أو نادل فى القرن التاسع عشر. يتضمن الكتابان الثالث (Wants) والرابع (Agents of Production) عدة نقاط جديدة، وبصيرة عميقة أحياناً (كما فى الفصل الثانى عشر والمبحثين ١١ و ١٢)، وإن كل هذا يخلتق بكثرة من الأشياء كان يمكن تحسينها عن طريق التشذيب.

(١٥) يشكل ذلك ميزة كاملة فى نظرى. ولكن المبرر لرأى آخر نجده فى مقالة كينز. بيد أن حجج اللورد كينز تبدو شبيهة بـ oratio pro domo (خطاب سياسي). ورغم أن مارشال لم يفقد حقاً بعض الحقوق التى ربما كانت له فى موضوع النقود، فليس من الصحيح أن تأخير النشر حرمة من أى من تلك الحقوق بالنسبة للموضوعات المعالجة فى Principles. فوضع Principles، من هذه الناحية، ما كان ليختلف لو أنه صدر عام ١٨٨٠.

إن القارئ الذى ينفذ عبر السطح المصقول جيدًا، حيث يبدو فيه كل شىء مألوفًا، ستذهله الثروة الهائلة من التفاصيل التحليلية والوقائعية، المرتبة على يد أستاذ بارع لم يخطر بباله قط أن المحاولة الهادفة إلى جعل الكتاب سهلاً جداً من شأنها أن تجعله أكثر صعوبة. فكل شىء يأخذ موضعه المخصص له ضمن بنية واسعة. وقبل أن يحتل كل شىء موضعه، تجرى صياغته تحليليًا على يد فنان فى الصياغة الدقيقة والاقتصادية للمفاهيم. ثانيًا، يكتشف القارئ نوعية تقترب من حق مارشال الرئيسى بالخلود: إذ إنه يجد الأخير ليس فقط تقنيًا يتمتع بمهارة عالية، ومؤرخًا متعلمًا بصورة عميقة، وعالمًا واثقًا من فرضياته التفسيرية، بل أيضًا اقتصاديًا عظيمًا قبل كل شىء. فبخلاف تقنى الوقت الحاضر ممن، بقدر تعلق الأمر بتكنيك النظرية، يتمتعون بمستوى أرفع من مستواه مثلما يتمتع هو بمستوى أرفع من مستوى سمث، فإنه فهم أداء العملية الرأسمالية؛ وبشكل خاص، فهم طبيعة الأعمال business، ومشاكل الأعمال، ورجال الأعمال، بصورة أفضل من معظم الاقتصاديين العلميين الآخرين بمن فيهم من كانوا من رجال الأعمال هم أنفسهم. وقد أحس مارشال بالضرورات العضوية الصميمية للحياة الاقتصادية على نحو أدق حتى من صياغته هو نفسه لها؛ ولذلك، فقد كان يتكلم كصاحب شأن وصلة power وليس كما يتكلم المؤلفون - أو كالمُنظَرِّين الذين لم يكونوا سوى منظرين فقط. وأخشى إن هذا الإنجاز - البارز جدا لدى كاتب كان يتحرك وسط حلقات أكاديمية أساسًا ويشاركها أحكامها المسبقة إلى حد بعيد - سوية مع الهدوء الشديد Olympian الذى تعكسه مواقفه من المشاكل العملية المناقشة بحرارة، تفسر جزئيًا عدم الشعبية التى تحيط باسمه اليوم.

ثالثًا، إن القارئ، الذى يحصل على أكثر من ذلك ويتعلم كيف ينظر إلى الهيكل العظمى من خلف الجلد الناعم واللحم الكثير، سيشهد الجهاز الذى نسميه الآن: التحليل الجزئى Partial Analysis، أى مجموعة الأدوات التى تمت صياغتها بقصد تحليل الظواهر فى قطاعات صغيرة نسبيًا من الاقتصاد - 'صناعات' فردية هى من الضالة بحيث أنها لا تترك، عبر التغيرات فى النواتج والأسعار والطلبات

على العوامل، آثارًا على المؤشرات الكلية الاجتماعية (وبخاصة على الدخل القومى الحقيقى والنقدى)، بحيث إن كل الأشياء التى تحدث خارج هذه القطاعات يمكن التعامل معها على إنها معطاة (انظر الفصل السابع، القسم السادس، أدناه). يمثل الكتاب الخامس الرائعة الكلاسيكية لهذا التحليل-الجزئى التى أثارها الكثير من الإعجاب لدى البعض والكثير من الانتقاد لدى البعض الآخر. ستناقش فيما بعد القضايا المهمة. أما الآن، فثمة مسألة تستدعى الانتباه. إن الوضوح الشديد الذى تبرز به وجهة نظر التحليل الجزئى فى عمل مارشال، والتقبل العام فى التعليم الجارى، الذى حظيت به مفاهيم التحليل-الجزئى الميسرة التى صاغها مارشال أو أعاد صقلها، تعطى بعض العذر لمن يجد مارشال أستاذًا للتحليل الجزئى ولا شيء غير ذلك. ومع ذلك، فهذا لا ينصف عمق وسعة تفكير مارشال. إذ تتلقى المفاهيم الأوسع للاعتماد المتبادل العام بين كل الكميات الاقتصادية ليس فقط اهتمامًا ينتشر هنا وهناك فى Principles: بل إن مارشال قام بصياغة هذا المفهوم الأوسع- بصورة جنينية ولكن صريحة- فى الملاحظات ١٤-٢١ من الملحق. وأن العمل Memorials يتضمن فقرة (ص ٤١٧) كان السيد شوف قد شدّد عليها عن حق فى المقالة المشار إليها أعلاه، تشير إلى: 'لقد أعطيت حياتى كلها وسوف أعطيها لكى أضع ملاحظتى الحادية والعشرين بشكل واقعى بقدر ما أستطيع'. ولذلك، فمن العدل أن نضع مارشال ضمن بناء نظام التوازن-العام إضافة إلى تحليل المنفعة الحدية بحد ذاته.

ثمة ما يمكن قوله لصالح رأى آخر يقلل من إنجاز مارشال. فجهازه النظرى ستاتيكي بصورة صارمة. ولكن هذا لا يمنع مارشال من معالجة ظواهر تطورية أو بالفعل أى من ظواهر الحياة الاقتصادية التى لا تتقبل تطبيق الطرق الستاتيكية. فكما أوضح كينز فى عمله (Treatise on Money 11, p. 406): إن مارشال كان يميل أحيانًا لتتبع النظام الستاتيكي أساسًا لنظرية التوازن لديه بكثير من obiter dicta {الملاحظات العابرة} الحكيمة والنافذة عن المشاكل الديناميكية. ولكن مارشال، لكى يفعل ذلك، كان عليه أن يترجل عن مقعد القيادة فى ماكنته

التحليلية التي لا تصل أذرعها إلى هذه المشاكل: إذ إن نطاق Principles أوسع بكثير من نطاق النظرية التي يفسرها هذا العمل، وأن هذه النظرية نفسها تضعفها الصرامة التي تخضع لها، وبخاصة عند تناول ظواهر تناقص معدل التكاليف.

رابعاً، لن يعجز القارئ غير المتحيز عن إدراك الواقعتين التوأمين اللتين ستتم مناقشتهما بصورة كاملة فيما بعد، أي إن بنية مارشال النظرية، إذا استثنينا تفوقها التقني والتطورات المختلفة في التفاصيل، هي نفسها أساساً بنية جيفونس، ومنجر، وبخاصة فالراس، ولكن الغرف في هذا البيت الجديد مغرقة على نحو غير ضروري بقطع من الأثاث الريكاردى التي يجرى الاهتمام بها على نحو لا يتناسب قط مع أهميتها الفعلية. ولذلك، فمن المفهوم أن البعض من الاقتصاديين الإنجليز والغالبية من الاقتصاديين غير الإنجليز قللوا من شأن مارشال كانتقائى حاول التوليف أو التوفيق (تحقيق تسوية) بين الأسس التحليلية 'لمدرسة المنفعة الحدية' (أي الإنجليزية (أي المذهب الريكاردى) والأسس التحليلية 'لمدرسة المنفعة الحدية' (أي جيفونس والاقتصاديين النمساويين بشكل رئيسي). ومن المفهوم بدرجة ليس أقل إن مارشال نفسه والمارشاليين على حد سواء رفضوا هذا التفسير بشكل لا يخلو من الغضب. وهم على حق. فماكنة مارشال التحليلية القوية - مع إنها قد لا تبدو كافية الآن - كانت نتاج جهد خلاق وليس نتيجة لجهد تجميعى synthetic؛ وسيسلم بهذا القول من يقللون - مثلى أنا- من شأن المذهب الريكاردى الوارد فى تلك الماكنة. ومع ذلك، فهذا يثير قضية جذور عمل مارشال وقضية أصالته. وهذه المسائل ليست مجرد مسائل معايير قديمة. إذ ينبغى الإجابة عليها لتوضيح مرحلة مهمة من تاريخ علم الاقتصاد.

من السهل تحديد جذور عمل مارشال. كاقصادى، فقد تكونَ مارشال، أو بالأحرى كَوّنَ نفسه وفقاً لتقليد سمث وريكاردو وميل. وبشكل خاص، فإن إطلاعه على علم الاقتصاد ابتداءً بقراءة ميل فى العام ١٨٦٧-١٨٦٨ (Memorial, p. 10) وأنه احتفظ بما يمكن أن نسميه احترام المرجعية filial respect بالنسبة لميل طوال

حياته، مع أنه لم يكن لديه أى وهم حول المكانة الفكرية لهذا الأخير. وإضافة إلى ذلك، فإن مقدمة عمله *Principles* تتضمن اعترافاً حذراً بتأثير كورنو *Cournot* وتونن *Thunen*، وهو تأثير واضح حقاً. ولم يكن لغير هؤلاء الخمسة، أو حتى لجيفونس ودوبو *Dupuit* أو جنكن^(١٦)، أى تأثير فى الأمور الأساسية، ولو أن هناك اعترافاً بتأثير كثيرين فى نقاط فردية ذات أهمية ثانوية. ولكن اللوحة الناشئة ممكنة تماماً. فقد سبق أن لاحظنا الطابع المميز لبحث ج. س. ميل الذى يتأرجح بين ريكاردو وسائى ويسمح بإعادة الصياغة التصحيحية. ولكن رجلاً مثل مارشال، الذى درس الرياضيات والفيزياء ويعرف جيداً مفهوم النهايات *limits* وبالتالى الجزء الأساسى من المبدأ الحدى مثلما يعرف طعام فطوره، لم يعوزه سوى أن يدع فكره يلعب على تعابير ميل الرخوة وأن يطور لها نموذجها الدقيق (نظام المعادلات) لكى يصل إلى النقطة المعينة التى ظهرت بها إلى الوجود الأجزاء النظرية البحتة من عمله *Principles*. وعندئذ، فمن الطبيعى أن تبدو له الابتكارات ذات الصلة كمجرد تطويرات مشتقة من ميل وليس كابتكارات ثورية. وعلاوة على ذلك، فإن القادة الأقوياء، المتأكدين من وجود غالبية علمية *disciplined majority*، لا يصنعون ثورات - سواء فى العلم أو فى السياسة - بل يقودون بصورة سلسلة، تاركين الاحتجاج والثورة لمجموعات من الأقلية تقوم بالصراخ لكى يسمعوها أصلاً. واعتقد

(١٦) هـ. س. فليمينج جنكن *H. C. Fleeming Jenkin* (١٨٣٣-١٨٨٥) كان اقتصادياً له أهمية ثانوية تعود مقالاته الرئيسية، زمنياً، إلى الفترة السابقة ولكن جرى الاحتفاظ بها لمناقشتها هنا لأنها تشكل خطى واضحة بين ج. س. ميل ومارشال من أربع نواحي هامة: لأنه كان أول إنجليزى يناقش دوال الطلب بنفس الوضوح تقريباً الذى ناقشها به فيرى *Verri* وكورنو *Cournot*؛ أنه ناقش مفهوم ربيع المستهلك وطبقه على مشاكل فرض الضريبة؛ أنه استخدم تعبيراً بيانياً كما فعل مارشال فيما بعد من حيث المبدأ؛ وأنه طور كثيراً من نظرية الأجور، وبخاصة من ناحية تأثير نقابات العمال على معدلات الأجور. وإضافة إلى ذلك، وكما فعل سيسموندى ولكن على نحو أدق، فقد اقترح جنكن نظاماً زمنياً للأجر: 'الأجر المضمون' من حيث الجوهر. كان جنكن مهندساً عملياً فى البداية وأصبح مهندساً أكاديمياً فيما بعد. ولم تثر الانتباه كل مساهماته فى علم الاقتصاد تقريباً. ولكن مارشال أشار إليه. انظر كولفن و ادون *Colvin and Edwin* (ناشرين: ١٨٨٧) *Papers, Literary and Scientific* مع سيرة حياة لا تقل شهرتها عن تلك التى تعود إلى ر. ل. ستيفينسن *R. L. Stevenson*. على أى حال، تتوافر الآن طبعة مدرسة لندن للاقتصاد للمقالات الاقتصادية لجنكن تحت عنوان: *The Graphic Representation of the Laws of Supply and Demand, and other Essays on Political Economy, 1868-1884* (1931).

أن هذا الرأي يتماشى تقريباً مع الرأي الذى يعتنقه المارشاليون^(١٧). وعلى أى حال، فهذا هو تبريرى لأن ننسب عملاً خلاقاً إلى مارشال (ضمن النظرية البحتة، تذكر).

وهكذا نكون بهذا الاعتراف قد حسنا مسبقاً قضية أصالة مارشال. ورغم أن مارشال لم يترك أى شك قط بأنه لا يشعر بأى دين إلى جيفونس، فضلاً عن النمساويين وفالراس، بيد أن المدى الكامل لادعائه بالأصالة الذاتية لم يعرفه العالم قبل نشر العمل memorials ومقالة كينز حول سيرته ومقالة شوف. وهذا الادعاء مقبول هنا دون أى مناقشة. ولكن هذا لا يشير طبعاً إلى الأصالة أو الأسبقية الموضوعية. فنشر مقالة 'حدية' عام ١٨٩٠- أو عام ١٨٨٠ بقدر تعلق الأمر بذلك الموضوع- كان من شأنه تحسين وتطوير المذهب القائم (وهو ما فعله مارشال بالتأكيد) ولكن ليس بوسعه اكتشاف حقيقة جديدة. فوفقاً لما أرى أنها المعايير العادية فى التاريخ الوصفى العلمى، فإن مثل هذا الفضل فى إعادة اكتشاف مبدأ المنفعة الحدية يعود إلى جيفونس؛ وإن نظام التوازن العام (بما فيه نظرية المقيضة) يعود إلى فالراس، وإن مبدأ الإحلال ونظرية الإنتاجية الحدية يعودان إلى تونن، وإن منحنيات الطلب والعرض ونظرية الاحتكار الستاتيكية تعود إلى كورنو (وكذلك مفهوم مرونة الطلب السعرية price elasticity، ولو ليس الكلمة ذاتها)؛ وأن ريع المستهلك يعود إلى دوبو Dupuit؛ وإن الطريقة البيانية فى العرض تعود إلى دوبو أيضاً، أو إلى جنكن بخلاف ذلك. ولو تم فهم هذا الأمر بصورة واضحة دائماً، لما كان ثمة داع لقول المزيد^(١٨). ولكنه لم يفهم بصورة

(١٧) إذا أخذت مقالة السيد شوف Shove بوصفها الإعلان الرسمى للمجموعة المارشالية (وهو أمر ممكن فى نظرى)، فلا يتبقى ثمة اختلاف بشكل رئيسى إلا على نقطة واحدة. فالسيد شوف يرى أن أساس عمل مارشال يكمن فى ريكاردو أكثر مما فى ميل، وهو يورد مقتطفات لدعم مقولته. ولكن هذا القول لا يعنى الكثير نظراً لاعتماده على تفسير السيد شوف لريكاردو وميل، الذى يقلل الاختلاف بينهما إلى أدنى حد. أما وفقاً لتفسيرى للعلاقة بين الاثنين، فثمة فارق أكبر بينهما الأمر الذى يتوافق مع الاعتراف، أو رفض الاعتراف، بدور ج. ب. سائى فى نشوء الاقتصاد المارشالى. ليس ثمة جسر سالك يربط بين ريكاردو ومارشال حقاً، مع أن من الممكن بناء هذا جسر كهذا دون شك. بينما هناك جسر، موجود بالفعل، بين ميل (أو حتى سمنت) ومارشال.

(١٨) إن قضية مدى لياقة الادعاء، حتى على سبيل التلميح فحسب، باكتشاف نتائج معينة بصورة مستقلة مع معرفة المدعى بأنها نشرت من قبل هى قضية يجب حلها من قبل كل واحد مع نفسه. فثمة من= احتقر القيام بهذا الأمر.

عامة - وربما لا يُفهم حتى في الوقت الحاضر من قبل كل الاقتصاديين^(١٩) - مما أدى إلى الإضرار بمكانة الآخرين وإلى وجود صورة، في أذهان كثيرين، حول الوضع العلمي في ذلك الوقت تفيد بأن مهمة المؤرخ هي التي ينبغي تصحيحها. وهذا أمر ضار لأن السبب في هذا النوع من الرأي يعود إلى خطأ مارشال نفسه أساسًا. ستتم دراسة حالة النمساويين مقابل مارشال (وإديجورث) فيما بعد وبالتالي فليس ثمة داع لتناولها هنا. وبينما كان مارشال، في تناظر مثير، سخيا جدا في كرمه مع ريكاردو وميل، فإنه كان أقل من كريم مع كل الكتاب الذين كانت مساهماتهم مرتبطة بمساهماته بصورة وثيقة. ويمثل تونن الاستثناء الوحيد حيث ميّزه مارشال بصورة ملائمة ليس فقط بشكل عام في مقدمة الطبعة الأولى من Principles ولكن أيضًا في الفقرة (ص ٧٠٤ من الطبعة الأولى) التي تتحدث عن 'القانون العظيم للإحلال لدى فون تونن'. ولكن كورنو حصل على الاعتراف العام فحسب ولم يشر إليه في المواضيع التي كان ينبغي أن نتوقع أن يحصل فيها على إشارة محددة، وبشكل خاص في نظرية الاحتكار. ومع ذلك، فلننا مهتمين باتهم مارشال بعدم كفاية اعترافه ب فضل الآخرين - فقد برأه كينز وشوف من هذه التهمة إلى حد بعيد - ولكن بعدم كفاية اعترافه ب الأسبقية. ويمثل جيفونس الحالة الأكثر وضوحًا. ولكن حالة فالراس أسوأ. فمارشال، المتميز بين الجميع بتمكنه من الرياضيات والذي نال أقصى شهرة بفضل الأهمية المركزية لملاحظته الحادية والعشرين، لا يمكن أن يكون قد تعامى عن رؤية عظيمة وأسبقيه عمل فالراس. ومع ذلك، فإن اسم فالراس الكبير لا يرد في Principles سوى في ثلاث مناسبات غير مهمة لا تمت بصله ما إلى ذلك العمل^(٢٠). ويحصل الأمر نفسه بالضبط مع

(١٩) أذهلتني، مرة تلو أخرى، حقيقة أن الاقتصاديين المقتدرين وحتى البارزين منهم ينسبون، بتأثير العادة العمياء، أشياء إلى مارشال كان ينبغي، بالمعنى الموضوعي، إرجاعها إلى آخرين (وهذا يشمل حتى منحنى الطلب 'المارشالي'). ولنا حاجة للذهاب بعيدًا عن حلقة مدمسة كمبريدج. فعلى صفحة ٢٢٢ وما بعدها من عمله Essays on Biography، يحاول كينز، بمساعدة الملاحظات التي قدمها البروفيسور إديجورث، أن يدرج بعض 'المساهمات المثيرة في المعرفة' التي ترد في Principles. هناك ست منها (باستثناء الملاحظة حول المدخل التاريخي) أخذت بصورة جلية على إنها مبتكرات موضوعية. ولا يمكن قبول واحدة منها دون إشارة من شأنها توضيح عمل الآخرين، مع أنها حينما تؤخذ معًا وكعناصر من بحث عام يُقدّم لحلقة أوسع من القراء، فإنها طبعًا جديدة إلى حد كاف.

(٢٠) كما كان إديجورث أيضًا غير كريم مع فالراس والنمساويين. ولكن قلة كرمه كانت تشبه، نوعًا ما، عدم الكرم المحبب للألم أو الزوجة المحبة ممن لا يستطيعن رؤية أى ميزة لدى أنداد أبنائهن أو =

دوبو وجنكن، وهما الحالتان الأقل أهمية، حيث لم يحصل سوى على اعتراف فى الهامش وفى غير المواضع المناسبة حتى هنا. ولكننى أسارع إلى التشديد على الظروف التى من شأنها أن تخفف من هذا الأمر. صاغ كينز أحد هذه الظروف: وجد مارشال فى عمل جيفونس والنمساويين عيوبًا تكنيكية ونواقص أخرى كان من شأنها أن تضعف نجاح الجهاز الجديد ما لم يتم التحفظ على المؤلفين المعنيين بتلك النواقص. وكانت هناك ظروف أخرى من هذا النوع. فاستمرارية العمل التحليلى هى رصيد، وأن خالقى النظام النظرى الجديد، أو جيفونس والنمساويين على الأقل، كانوا قد وسّعوا الفجوة التى تفصلهم عن سابقهم دون ضرورة ما. كما أن مارشال كان يعي جيدًا دوره كقائد وطنى. ولابد أنه شعر إن من واجبه تعزيز التقليد الوطنى.

ومع ذلك، فمن حسن الحظ أن يكون بوسعى أن اختتم بملاحظة مسرة أكثر. فالشيء الأعظم عن العمل العظيم لمارشال لم يُقَل بعد. فثمة رسالة أعظم تكمن خلف هذا العمل العظيم. إذ ألمح مارشال - أكثر مما فعل أى اقتصادى آخر، ربما باستثناء باريتو - إلى ما هو أبعد مما ذكره بنفسه. فلم تكن لديه نظرية حول المنافسة الاحتكارية. ولكنه أشار إليها حينما تأمل السوق الخاص Special Market لمنشأة ما. وقد أشير أعلاه إلى أن نظريته البحتة كانت نظرية ستاتيكية بصورة صارمة، ولكنه أشار إلى الديناميكا الاقتصادية أيضًا. ولم يقدم مارشال عملاً معيناً فى القياس الاقتصادى. ولكنه كان ينظر دائماً وعينه على المتّم الإحصائى للنظرية الاقتصادية. وقد فعل ما استطاع لوضع مفاهيم من شأنها أن تكون فاعلة إحصائياً؛ وفى خطابه: 'The Old Generation of Economists and the New' كان قد وضع مخطط الأجزاء المهمة من برنامج القياس الاقتصادى الحديث. إن هذا العمل قديم طبعًا. ولكنه ينطوى على حيوية دائمة تقيه من الابتذال.

=أزواجهن المعزوزين كليًا. فلم ينقص إديجورث الكرم قط، بقدر ما أعلم، إلا مع نفسه.

كان الوضع الفرنسى من عام ١٨٧٠ إلى عام ١٩١٤ متميزاً حقاً. ففالراس كان فعالاً (إلى عام ١٨٩٢ أو نحو ذلك) وكورنو كان يُبحث من عالم النسيان. وفى القسم الوقائى من التحليل، كان هناك ليبلای ومدرسته، وسيمياند، ولافاسور، ومانتوكس Mantoux، ومارتن Martin، وآخرون كثير^(٢١). ونظراً لاهتمامنا بقمم الأعمال فقط، فقد نميل إلى وضع علم الاقتصاد الفرنسى على رأس كل البلدان الأخرى. ولكن، باستثناء تلك الأعمال من القسم الوقائى، فإن قمم الأعمال فشلت كلياً تقريباً فى أن تنشط الوضع، ونادراً ما كانت هناك علامة على ذلك النشاط الأوسع الذى يعوض الأرض التى تضيع بسرعة فى وقتنا الحاضر^(٢٢). ومع ذلك، فإن الشهرة الضئيلة للاقتصاد الأكاديمى الفرنسى فى تلك الفترة لا تعود إلى عيوبه فى حقل 'النظرية البحتة' - وليس ثمة داع للاستهانة به، بقدر تعلق الأمر بالحقول التطبيقية - بل إلى شيء آخر يحول دون اعتراف الراديكاليين المحدثين به a limine {قط}، أى إلى مذهبه الليبرالى بالمعنى الغلادستونى. إن الفروع السياسية للمجموعة القائدة من الاقتصاديين الفرنسيين، وكذلك الهيمنة التامة لعلمهم السياسى فى كل خط كتبوا فيه، كانت من الوضوح بحيث لا نملك أى خيار سوى أن نتبنى المعيار السياسى فيما تبقى من هذه الخلاصة.

وعليه، سندرس، أولاً، الأنصار المغالين لمذهب عدم التدخل الذين يُعرفون بـ مجموعة باريس لسيطرتهم على Journal des economistes {مجلة

(٢١) بخصوص ليبلای Leplay، انظر الجزء الثالث، الفصل الرابع، أعلاه؛ أما بالنسبة لسيمياند Simiand ولافاسور Levasseur، فتجرى مناقشتهم فى الفصل الرابع من هذا الجزء.

(٢٢) ينبغى أن نشير إلى عمل أوبتت ذى الطابع الفالراسى والتحضيرات التى قام بها لاورن وانتونيلي لوضع مرجع مدرسى وفق مذهب فالراس أو باريتو. يشير عمل ألبرت أوبتت Albert Aupetit: (Essai sur la theorie de la monnaie) 1901، وهو عمل قوى من نوعية مذهلة ما يزال جديراً بالقرءاء، إلى خطوة ليست غير مهمة فى نظرية النقود ولكن يجرى ذكره لما يمثله من أهمية أكبر بالنسبة لإعادة الصياغة المبكرة لنظرية التوازن الفالراسية. أما هيرمان لاورن Hermann Laurent (١٨٤١-١٩٠٨)، فقد كتب خلاصة موجزة، ولكن صالحة جداً، لنظرية فالراس-باريتو: Petit Traite d'economie politique mathematique, 1902، كما جازف البروفيسور اينتن انتونيلي Etienne Antoneli بوضع مقرر فالراسى من المحاضرات فى كلية College Libre des Sciences Sociales ونشره عام ١٩١٤ تحت عنوان: Principes d'economie pure وهى محاولة نادرة. وكانت هناك كتابات مختلفة حول 'علم الاقتصاد الرياضى' سوف يتم ذكر قسم منها فيما بعد. ولم يكن لها سوى تأثير ضئيل.

الاقتصاديين}، والقاموس الجديد، والمنظمة المهنية المركزية في باريس، College de France {كلية فرنسا}، والمؤسسات الأخرى، إضافة إلى معظم وسائل الدعاية- وإلى حد بعيد بحيث إن خصومهم السياسيين أو العلميين أخذوا يعانون من عقدة الاضطهاد. إن من الصعب جدًا، حتى بعد مضي هذا الزمن الطويل، إنصاف هذه المجموعة التي شكلت أيضًا مدرسة وفق مفهومنا. سوف أذكر فقط بضعة أسماء من شأنها إرشاد القارئ المهتم إلى أعمال المجموعة، وسأحاول وصف المجموعة ككل من خلال بعض الخطوط بدلاً من توصيف أفراد تلك المجموعة. تمثل القائمة التالية الشخصيات الأكثر تميزًا حينذاك: بول ليروي-بوليو، كورسيل-سينويل، لافاسور مرة أخرى، غوستاف دي موليناري Gustave de Molinari الذي لا يعرف التعب، يس غويت Yves Guyot، مورييس بلوك^(٢٣)، وليون ساي Leon Say. كان هؤلاء anti-etatistes {معادين للاشتراكية الحكومية}، أى أنهم انغمسوا فى رسالة مفادها أن مهمة الاقتصاديين الرئيسية هى رفض المذاهب الاشتراكية ومقاومة المغالطات الشنيعة التى تتضمنها كل خطط الإصلاح الاجتماعى وخطط التدخل الحكومى من أى نوع. وقد ظلوا، بشكل خاص، أوفياء للرأية المنكسة لمذهب حرية التجارة وعدم التدخل بشكل مطلق. وهذا يفسر بسهولة عدم شعبيتهم وسط الاشتراكيين، والراديكاليين، والمصلحين الكاثوليك، والتضامنيين، وما شابه، مع أن هذا الأمر لا ينبغى أن يهمنى. ولكن ما يهمنى هو حقيقة إن تحليلهم كان 'رجعيًا' من الناحية المنهجية كما هو شأن علمهم السياسى. فلم يهتموا ببساطة بالجوانب العلمية البحتة من موضوعنا. وكان يكفيهم ج. ب. ساي وباتيسا، وفيما بعد نظرية ضعيفة للمنفعة الحدية، لإشباع شهيتهم العلمية. إن البعض ممن تعاطفوا مع علم السياسة لدى المجموعة- رغم أنهم ليسوا أعضاء فى حلقتها الداخلية وبالتالي فلا يُشار إليهم إلا نادرًا الأمر الذى له دلالتة - حلقوا عاليًا وقدموا عملاً مهمًا. وهذا يسرى، خاصة، على اثنين ممن ينبغى دائمًا إدراجهم ضمن قائمة الاقتصاديين البارزين: كولسن وتشيسون. ولا يخلو من الأهمية أن نلاحظ إن كليهما كانا مهندسين من حيث تعليمهما وهما، من هذه الناحية، يواصلان تقليدًا فرنسيًا استهله دوبو وما

(٢٣) تجرى مناقشة ليروي-بوليو وكورسيل - سينويل فى الجزء الثالث، الفصل الرابع، أعلاه. وسنطرح عمل مورييس بلوك Maurice Block: Le Progres de la science economie depuis Adam Smith (1890 ; 2nd ed., 2 vols., 1897) كغينة مناسبة لما تعنيه المدرسة بالعمل التحليلى البحت. كما أننا لن نهمل عمل ليروي-بوليو Leroy-Beaulieu: Essai sur la repartition des richesses (1881).

يزال حيويًا أكثر من أى وقت مضى: ولو قُدِّرَ لى أن أستعمل مصطلح مدرسة School بمعنى آخر غير المعنى الذى يتبناه هذا الكتاب، لتوجبَ على بالتأكيد أن أشكّل مدرسة من أولئك المهندسين الفرنسيين اللامعين ممن يعملون فى الخدمة العامة وساهموا وما زالوا يساهمون فى الاقتصاد العلمى^(٢٤).

ولكن حتى الآخرين، ممن يتعذر القول أنهم حلقوا عاليًا، كانت لهم ميزة عظيمة. ففلسفاتهم يرثى لها، ونظريتهم ضعيفة؛ ولكنهم حينما كتبوا عن القضايا العملية، فأنهم، كسابقهم ومثل مارشال، كانوا يعرفون عن ماذا كانوا يكتبون. أى أنهم عاشوا وفكروا قريبًا جدًا من ممارسة الأعمال business والممارسة السياسية التى عرفها معظمهم من التجربة وليس من الصحف. ثمة جو من الواقعية والصرامة فى أعمالهم من شأنه أن يعوض جزئيًا عن نقص الإلهام العلمى لديهم^(٢٥).

من النادر أن يحب السياسيون مجموعة كانت قد تبنت مذهب حرية التجارة وانغمست، على العكس، فى برنامج ليبرالى غير عملى. وهكذا، فحينما مضت

(٢٤) كليمنت كولسن Clement Colson (١٨٥٣-١٩٣٩) لم يعمل فى المهنة التى تأهل لها وفق تعليمه، ولكنه كان موظفًا عمومياً بالمعنى الأوسع والأكثر تشريفًا لهذه الكلمة. ليس بوسعنا أن نتناول أنشطته العديدة (التي تشمل التدريس) ومزاياه. يكفى أن نذكر عمله: (Transports et tarifs) (1890) الذى ما يزال جديرًا بالقراءة، وعمله: (Cours d'economie politique) (1901-7) -وهو عمل يتعذر التوصية بقراءته بنفس الدرجة من ناحية جميع أجزائه. ولكنه يخلق عاليًا فى مواضيع مهمة عدة، وبخاصة حقل فى النقل.

يتمتع إميل تشيسون Emile Cheysson (١٨٣٦-١٩١٠؛ Oeuvres choisies, 1911) هو الآخر بمزايا عدة. سأنشير فقط إلى عمله: conference الذى صدر عام ١٨٨٧ تحت عنوان: 'Statistique geometrique' وهو يزخر بمقترحات يتمتع بعضها بأصالة قوية حول الطلب الإحصائى، والإيراد، ومنحنىات التكلفة، والموقع وأسعار النقل (حيث كان لديه نوع من منحنيات السواء بالنسبة للسعر rate-indifference curve)، والأجور (حيث يطور نموذجًا من النوع الذى يُعرف بـ 'العنكبوت' cobweb فى وقتنا الحاضر)، والمبيعات كدالة للأجور، والاختيار العقلانى بين مصادر المواد الخام، والعدالة، وتنويع المنتج، وتعظيم الربح، وأنا أدين للدكتور ستال H. Staehle الذى أوضح لى هذه التوليفة المدهشة من الأدوات والأفكار التى كنت سأغفل عنها لولاه.

(٢٥) ولذلك، يتعذر تبرير الإزدراء الصريح الذى عامل به المنظرون المققدرون والمعادون لليبرالية تلك المجموعة. خذ، مثلاً، يس غويوت Yves Guyot (١٨٤٣-١٩٢٨) الذى كان يشير إليه منظر لأمع بـ ce pauvre Guyot {البائس غويوت}. فهذا المنظر كان سيكون على حق لو أن باريتو، مثلاً، كان فى ذهنه كأساس للمقارنة. ولكن ينبغى على أن أضيف بأننى لو كنت رجل-أعمال أو من رجال-الحكم لتعّين على أن أتشاور مع غويوت الذى كان رجلاً ساحراً فى التشخيص العملى، أكثر مما مع باريتو، لكى أتعرف، مثلاً، على آفاق التشغيل أو أسعار المعادن فى الشهور الست القادمة. أننا جميعاً نستحق اللقب: ce pauvre حينما نواجه مهمة لا تقع فى الخط الذى نعمل فيه.

الحكومة لتأسيس كراسي في الاقتصاد في جميع كليات القانون في جميع الجامعات الفرنسية (١٨٧٨)، فأنها نظرت إلى هذا الأمر على أساس أن البروفيسورات لا ينبغي أن يكونوا كلهم على غرار المزاج السياسي لمجموعة باريس. وقد أدى هذا إلى تغيير ما طبعاً، ولكن هذا التغيير كان، في البداية، سياسياً أكثر مما كان علمياً- باستثناء نور العلم الاقتصادي الذي سلطه هذا التغيير على الأماكن الأقل حظاً التي كانت قد ظلت في العتمة حتى ذلك الحين. ومع ذلك، فإن الرجال الجدد، الذين شعروا بأنفسهم كرجال جدد بأكثر من معنى، قد اتحدوا، وأسسوا المجلة 'الانشقاقية': (Revue d'economie politique 1887)، وشككوا بالقانون الطبيعي الذي يساعد على ازدهار مذهب عدم التدخل، ونظروا بمزيد من الاستحسان إلى الحماية التي كانت سائدة نوعاً ما، وسمحوا لأنفسهم ببنّي برامج متواضعة من الإصلاح الاجتماعي. أما من الناحية العلمية، فلم ينتج عن هذا سوى القليل أول الأمر. ولكن في سياق السنوات الخمس والثلاثين بدءاً من التعيينات المذكورة، وبفضل روح العصور، فقد تحقق تحسن جوهري وليس فقط على يد البروفيسورات الجدد أنفسهم؛ إذ انتعش جو باريس، رغم أن الجماعة الصغيرة من فرسان مذهب عدم التدخل، التي تميزت بقوة معتقدها وتحملها معاً، قد صمدت صمود جنود Leonida، ملك إسبارطة، في معركة Thermoplae. وكتاب تمثيليين، يكفي أن نذكر ب. ل. كاوس P. L. Cauwes، وهو قانوني أكثر مما هو اقتصادي وقد تأثر بالسياسة الاجتماعية الألمانية Sozialpolitik والمذهب التاريخي الألماني، الذي كان يتمتع بالحس والقوة مع أنه لم يتمتع بالكثير كالاقتصادي علمي؛ جارسلس جيد وجارسلس رست اللذين برزا في الفترة اللاحقة^(٢٦)؛ وكاتبين كان عمليهما من بين البشائر الأولى بعهد جديد في علم الاقتصاد الفرنسي: لاندرى وافتاليون^(٢٧).

(٢٦) ليس بوسع جارسلس جيد Charles Gide (١٨٤٧-١٩٣٢) أن يحتل أي مكانة كبيرة في تاريخ التحليل ولكنه، رغم ذلك، لعب دوراً من أكثر الأدوار نفعا واستحساناً. فقد كان قائداً متعدد-البراعات، متحرراً من الأحكام المسبقة، متعاطفاً مع كل ما كان يتواصل، وساعد طبعاً على تسريب هذا التعاطف إلى الآخرين. وقد كتب واحداً من الكتب المقررة الأكثر نجاحاً في الفترة المدروسة وكذلك، بالاشتراك مع جارسلس رست Charles Rist، العمل الأكثر نجاحاً حتى من هذا العمل الأخير: Historie des doctrines economiques (الطبعة الأولى ١٩٠٩؛ الطبعة السابعة ١٩٤٧؛ الترجمة الإنجليزية ١٩١٥؛ مع إضافات من الطبعتين الفرنسيتين السادسة والسابعة ١٩٤٨) الذي ما يزال يستعمل على نطاق واسع لحد الآن. وقد كانت هناك عدة أعمال أخرى في هذا الحقل (بيسن، اسبيناس، دينس، ديبويس، رامباود، غونارد).

(٢٧) (Adolphe Landry, L'Interet du capital 1904). وستتم الإشارة إلى افتاليون Aftalion وجوغلار Juglar في الفصل الثامن، أدناه، في الحقول التي يعود إليها عمليهما.

وبقدر ما أعلم، فلم تقدم أى من المجموعات التى طرحت أنظمة إعادة البناء الاجتماعى، بمن فيها الاشتراكيون والتضامنيون، أى مساهمة جديرة بالملاحظة فى تاريخ للتحليل^(٢٨).

٤- ألمانيا والنمسا

نعلم أن السياسة الاجتماعية Sozialpolitik وعمل المدرسة التاريخية فرضا تأثيرهما على علم الاقتصاد العام فى ألمانيا أكثر مما فى أى بلد آخر. لم يدمر هذان الأمران التقليد الجارى كلياً مثلما لم يسحقا العنصر 'النظرى' فى الاقتصاد العام بصورة كلية. ولكنهما اقتربا من هذا فى مواضع معينة. ومع إن الارتداد reaction بدأ حوالى العام ١٩٠٠، وأنه أخذ يمضى بقوة حوالى العام ١٩١٤، فإن الرجال الذين كانوا حينذاك فى العشرينيات من أعمارهم لم يكونوا عملياً قد تعلموا فن معالجة الأدوات التحليلية وإن بعضاً منهم فهموا 'النظرية' على أنها تتكون من فلسفات حول الاشتراكية والمذهب الفردى وما شابه، ومن المشاجرات عن 'المناهج' methods- إذ لم يكن لديهم أى مفهوم للنظرية 'كصندوق أدوات'. وبشكل عام، فإن النظرية التى تطورت محلياً بشكل حقيقى كانت غير مهمة وغير حيوية وأن الدوافع الحية الوحيدة جاءت من المدرستين النمساوية والماركسية. ومن الصعب، فى خلاصة موجزة، وصف هذا الوضع غير الممركز قط decentralized، كما كان عليه الحال فى الفترة السابقة أيضاً. وبتبسيط الوضع إلى أقصى حد، اقترح معالجة الأمر كما يلى. سندر، أولاً، المدرسة النمساوية؛ ثم ندرس عدداً من الكتاب التمثيليين ممن لا يشكلون أى مدرسة إلا بمعنى أنهم أرسوا الأسس لشهرتهم فى الفترة السابقة، وتمتعوا- 'كزعماء قدامى' elder statemen- بتأثير كبير فى الفترة محل الدرس؛ وإذ نحفظ بالماركسيين لمعالجة منفصلة فى نهاية الفصل، فسنضيف عدداً من الأسماء التمثيلية من شأنها أن تكمل لوحة 'حياة

(٢٨) من شأن الأعمال التالية أن تكمل الخلاصة المقدمة آنفاً: البروفيسور ج. ه. بوسك G. H. Bousquet: (1927) Essai sur l'evolution de la pensee economique (1927) Gaetan Pirou (Les doctrines economiques (1925 وكذلك العمل المشهور لجيد ورست: History.

وعمل ' علم الاقتصاد الألماني، وهي اللوحة التي بدأت في الفصل السابق، وذلك بقدر ما يصح القول إن الرقع الملونة التي يملئها الانطباع impressionist patches of colour يمكنها أن تستكمل أى لوحة. وفي الأقسام الفرعية الثلاثة التالية، لا نهدف سوى أن نرسم لوحة معينة لا ينبغي أن تغرقها كثرة الأسماء، رغم إن هذا ينطوى على عدم إنصاف كتاب كثيرين^(٢٩).

[أ] المدرسة النمساوية أو مدرسة فينا] لم تمنع العلاقات الثقافية الوثيقة بين مملكة النمسا-هنغاريا وألمانيا من نشوء وضع علمي في حقنا في النمسا يختلف عن الوضع في ألمانيا بصورة تامة. وهذا يعود إلى واقعتين شخصيتين: واقعة أن كارل منجر Carl Menger كان قائدًا يتمتع بقوة غير مألوفة قط وواقعة أنه وجد نصيرين: بوهم-باورك Bohm-Bawerk وفيزر Wieser اللذان كانا على نفس مستواه الفكري وأكملنا نجاحه. من غير الممكن اعتبارهما جيلًا ثانيًا ولكنهما يستحقان أن ننظر إليهما كمشاركين في تأسيس ما أصبح، إذا راعينا كل الظروف، مدرسة تتمتع بأهمية مذهلة وبلاستمرارية. كان هناك الكثير من الأتباع المشهورين نوعًا ما (مثل ساكس Sax وزوكر كاندل Zucherland)، وجيل ثانٍ برز طبعًا في نفس الفترة. ولكنني أرى إن من الصحيح والموصّل إلى انطباع صحيح معًا أن يقتصر هذا القسم الفرعي على هذين الكاتبين^(٣٠) وكاتبين آخرين وقفنا بعيدًا، شخصيًا أكثر مما مذهبياً، ولم يحصلوا على التقدير الذي يستحقان: اوسبتر Auspitz ولبين Lieben.

كان يوجين فون بوهم-باورك Eugen von Bohm-Bawerk (١٨٥١-١٩١٤)، بقدر تعلق الأمر بسيرته، موظفًا حكوميًا أساسًا. وينبغي أن نتذكر هذا الأمر عند تقييم عمله العلمي مثلما نتذكر بالضبط المهن التي مارسها ريكاردو إذا

(٢٩) ومن هذه الناحية، فأني أتعرض للنقد لأنني لا أستطيع الدفاع عن تجاهل تفاصيل أشياء مألوفة جدًا بالنسبة لي. ولكن من الممكن سد الفجوة في عرضي من خلال عدة مصادر، وبخاصة Festschriften {المجلتين} التاليتين اللتين تلقيا ضوءاً على الفترة المدروسة، مع أن واحدة منهما فقط ظهرت خلالها (١) مجلة شمولر لعام ١٩٠٨: Die Entwicklung der deutschen Volkswirtschaftslehre im neunzehnten Jahrhundert؛ (٢) مجلة برنتانو لعام ١٩٢٥: Die Wirtschaftswissenschaft nach dem Kriege؛ وبخاصة مساهمة البروفيسور أمون Amonn: (Der Stand der reien Theorie' (vol. ١١, part 3).

(٣٠) سنذكر فون فيليبفج von Philippovich فيما بعد. أما ل. فون مايسس L. von Mises، الذي ظهر كتابه حول النقود في نهاية الفترة المدروسة، فنشير إليه في فصلنا المتعلق بالنقود.

شئنا إنصافه. إن العمل المطروح أمامنا للقراءة ليس هو العمل المكتمل الذى كان فى ذهن بوهم-باورك - فالعمل المنشور جرت كتابته بصورة متعجلة ولم يتسن لبوهم-باورك قط أن يصحح نتائج هذا الاستعجال. ولكى نوضح هذا الأمر، دعونا نغربل وقائع قليلة ذات صلة من حياته تعكس انكبابه على العمل بعزيمة راسخة، وتجرده الكامل، واهتماماته الثقافية الواسعة وبساطته الحقيقية- وهذه كلها كانت متحررة كلياً من الاستعلاء أو أى ميل نحو الوعظ. ولابد من أن تطوره العلمى المبكر كان قد تضارب جدياً مع دخوله مجال الخدمة المدنية وما تتطلبه من استكمال الدراسات القانونية المعتادة التى لا تترك سوى حيز ضئيل لعلم الاقتصاد كما نعلم. كان بوهم-باورك فى الثلاثين من عمره حينما تم تعيينه فى جامعة انسبروك، وتمثل السنوات الثمانى التى أمضاها فى التدريس هناك كل الوقت الذى كان بوسعه تخصيصه للاقتصاد العلمى بما كانت له من قوى وفيرة. إذ كان بوهم-باورك باحثاً مثابراً ونظامياً وفعالاً، وقد لا نحتاج إلى أن نخصص الكثير من جهده للتعليم الأكاديمى. ومع ذلك، فقد اتجه كثير من هذا الجهد إلى المناظرات التى أثبت بها نفسه كأبرز مدافع عن تعاليم منجر^(٣١). وانصب الباقي من هذا الجهد فى العمل الرئيسى فى حياته: Kapital und Kapitalzins (1st vol., 1884 ; 4th ed., 1921 ; English trans., 1890 ; 2nd vol., 1889 ; 4th ed., 1921 ; English trans., 1891 المجلد الأول: Geschichte und Kritik der Kapitalzinstheorien وقد ظهر بالإنجليزية تحت عنوان: Capital and Interest؛ المجلد الثانى - Theorie des Kapitaless (English trans: Positive Theory of Capital). وإذ توقع عودته إلى وزارة المالية لغرض التحضير للإصلاح المالى الكبير عام ١٨٩٦، فقد تعين على بوهم-باورك بتر العمل على المجلد الثانى الذى يتضمن مساهمته الإبداعية- بينما يتضمن المجلد الأول سلسلة من الانتقادات حول نظريات الفائدة- واضطر إلى طبعه على عجل فى أجزاء كلما فرغ من كتابتها. ولم يجر عرض الأفكار الواضحة بصورة متماسكة بشكل تام؛ كما أن الكاتب قد غير وجهات نظره فى الجوانب الأساسية أثناء الكتابة؛ إذ تجلت تيارات مختلفة من فكره الخاص جنباً إلى جنب؛ وإن الفصول الحاسمة اللاحقة هى فصول مؤقتة حقاً وقد ظهرت كما أمكن

(٣١) تم نشر هذه المناظرات والمناظرات اللاحقة بوصفها: (Gesammelte Schriften (2 vols., 1924-6 من قبل البروفيسور فرانس اكس. فيس Franz X. Weiss، وهو أحد تلاميذ بوهم-باورك الأكثر اقتداراً.

له أن يكتبها وليس كما أراد (انظر مقدمة الطبعة الثانية التي لم تتغير). وقد تبعت ذلك سيرة لامعة، ولكن مزدحمة، من عام ١٨٨٩ إلى عام ١٩٠٤ دخل خلالها الوزارة ثلاث مرات ولم يكن له وقت فراغ سوى ما تتيحه الإجازات الهزيلة والساعات المتفرقة التي يمكنه انتزاعها من الدوام الرسمي، وبخاصة في ساعات الصباح الأولى. ولكنه حتى في هذه الحالة، حافظ على علاقة عن بعد مع التعليم الأكاديمي (حيث كان بروفيسورا فخرياً في جامعة فينا، ويقود سمنارا من حين إلى آخر). كما كان يتمكن أحياناً من تقديم كتابات تحمل طابع المناظرة أو التوضيح. وقد قدّم، بين أمور أخرى، نقده المشهور للنظام الماركسي^(٣٢). ولكنه لم يكن قادراً على وضع عمل أصيل. وقد توافر له وقت فراغ بالفعل حينما قبل العمل كبروفيسور 'اعتيادي' (كامل) في جامعة فينا (رافضاً أكثر المناصب أبهة كهديّة من التاج). وقد أتاح له هذا التحرر من كل الواجبات التي فرضها على نفسه تقريباً وكذلك من كل الازعاجات التافهة للحياة الحديثة ما دامت 'سلطات' ذلك الوسط كانت تبدى الاحترام للمستشار الخصوصي المهيّب. ولكن ذهنه وبدنه كانا قد شاخا بأكثر من سنوات عمره. فمع أنه ظلّ يقدم سمناره المشهور حتى وفاته (عام ١٩١٤)، بيد إن قوته الخلاقة كانت قد أستهزئت. فقد انكب على عمله Kapital وأضاف ملاحق هائلة، ولكن تحقيق تقدم حقيقي لم يكن ممكناً. فالطبعة المنقحة والموسعة من Kapital und Kapitalzins صدرت بثلاثة مجلدات ١٩٠٩-١٩١٤ [حيث تم توسيع المجلد الثاني إلى مجدين]؛ كما ظهرت عام ١٩٢١ طبعة رابعة لم تتضمن أى تغيير مع مقدمة كتبها فون فيزر.

دعونا نهمل دفاع بوهم-باورك عن مبدأ المنفعة الحدية، ونقده لماركس، وأشياء قليلة أخرى مما يمكننا أن نذكر، ونسأل: ما هي طبيعة وأهمية مساهمته الرئيسية؟ إن الجواب، الذي يحتمل أن يعطيه معظم الناس هو: نظريته للفائدة، وارتباطاً بها، فكرته عن 'فترة الإنتاج'. وهذا جواب غير كاف كلياً. إذ إن نظرية بوهم-باورك للفائدة، وارتباطاً بها، فكرته عن فترة الإنتاج، هما عنصران فقط من نموذج شامل للعملية الاقتصادية يمكن العثور على جذوره لدى ريكاردو، وهو يناظر نموذج ماركس. إن جزءاً من النموذج يمثل، طبعاً، نظرية كاملة للتوزيع-

(٣٢) (Zum Abschluss des Marxschen Systems 1896) الذي تُرجم تحت عنوان: Carl Marx and (the Close of His System (1898). [ثمة طبعة جديدة (مع رد هلفردنغ) نشرها وكتب مقدمتها بول سويسزي، ١٩٤٩.

وليس فقط نظرية للفائدة- بلغت أوجها في 'سوق رأس المال المتطور كلياً' (انظر الجزء الثاني من العمل (Positive Theorie, Book 1v, 3rd and 4th eds. حيث يتحدد، في وقت واحد، خزين السلع، وفترة الدوران turnover، والأجور والفائدة. ولو شئنا تسمية مكانته في تاريخ علم الاقتصاد، لكان من الأفضل أن نسميه ماركس البرجوازي^(٣٣).

إن ثمة جذر ريكاردى فى عمل بوهم-باورك، مع إن الأخير لم يع هذا قط^(٣٤). وينفس الدرجة، فإنه لم يع حقيقة إن رأى كان قد أستبقه فى نقطة جوهرية واحدة^(٣٥). أخيراً، فإن جيفونس كان قد أستبقه بصورة أكثر وضوحاً- ولم تكن علاقته بهذا الأخير تختلف عن علاقته بمارشال. إن الاستباق العرضى لهذه النقطة أو تلك تحدث كثيراً وقد وقعت واحدة منها مع سنيور وأخرى فى عمل نيوكومب Principles: Newcomb. ومع ذلك، فإن بوهم-باورك، ذاتياً، يمثل النصير المتحمس لمنجر بحيث إنه ليس من داع تقريباً للبحث عن مؤثرات أخرى. إذ إنه تبع منجر ليس فقط فى قضيتى القيمة والسعر: فحتى الفرضية القائلة بأن من الممكن زيادة إنتاجية كمية معينة من رأس المال بإطالة فترة الإنتاج والفرضية القائلة أننا نقلل بصورة معتادة من الاشباع المستقبلي بالمقارنة بالاشباع الحالية- وهما الفرضيتان اللتان تشكلان حجرا الزاوية بالنسبة لنظرية بوهم-باورك فى رأس المال والفائدة تحديداً، كما سنرى- كان منجر قد أشار إليهما^(٣٦).

(٣٣) ثمة سبب جيد وآخر سيئ للاستغراب الذى قد يشعر به القارئ من تلك العبارة. السبب الجيد هو إن ماركس كان أكثر بكثير من اقتصادى. وبطبيعة الحال، فإن تلك العبارة تشير إلى النظرية الاقتصادية لماركس حول العملية الرأسمالية. ويتمثل السبب السيئ فى أننا، حينما نفكر بماركس، نضع فى أذهاننا أشياء غير جوهرية، بالنسبة إلى هذا الكتاب، مثل التحريض والغضب الشبيه بغضب الأنبياء. ولكن القارئ لن يجد فى عبارتى ما يثير استغرابه إذا تخلى عن هذه الأشياء ونظر إلى الإطار التحليلي البارد، المقدم أدناه. فالمبدأ الحدى لبوهم-باورك لا ينطوى سوى على اختلاف تكنيكي: فلأنه يمثل أداة أكثر فعالية، فإنه يزيل من على درب بوهم-باورك المشاكل الزائفة التى اصطدم بها ماركس فى طريقه.

(٣٤) كرر ذلك غير مرة البروفيسور نايت والدكتور ادلبيرغ Edelberg (انظر الجزء الثالث، الفصل الرابع، القسم الثانى، أعلاه).

(٣٥) حينما كتب بوهم-باورك عمله الأصلي، فإنه لم يكن يعرف سوى المقطعات الواردة فى عمل ميل التى لا تكشف لب تحليل راي Rae. إذ أنه استعمل عمل راي فى الطبعة الثالثة. حول هذه النقطة، انظر س. دبليو. مكستر S. W. Mixter (Quarterly Journal of Bohm-Bawerk on Rae, May 1902 Economics) الذى، مع ذلك، يبالغ كثيراً فى حالة راي.

(٣٦) وهذا هو الجدير بالملاحظة لأن منجر، الذى كان بعيداً عن الترحيب بتلك النظرية كتطوير لإحياءاته، كان قد أدانها منذ البداية. فقد أخبرنى ذات مرة، بطريقته المتصنعة نوعاً ما: 'سيأتى يوم=

إن هذا الأمر، أكثر من أسبقية جيفونس، هو الذى يثير قضية أصالة بوهم-باورك. فمن الممكن القول إن مَنْ يحمل فى داخله الميل لتطوير إichاءات جنينية كهذه إلى كيان عضوى مهيب يندر أن يحتاج إلى أى إichاءات أصلاً. ولكن ليس من الضرورى أن نفعل هذا. فنمذج أو مخطط بوهم-باورك حول العملية الاقتصادية، الذى أشرنا إليه آنفاً، هو الذى يجعل منه أحد أعظم مهندسى العلم الاقتصادى، وإن هذا المخطط كان يقع خارج نطاق رؤية منجر أو جيفونس بصورة تامة.

وكانت بضع أفضل العقول فى حقنا، وبخاصة فيكسل وتاوسك^(٣٧)، قد قيمته بهذا الشكل. ولكن النقاد والمنتقسين كانوا أكثر منذ البداية. وهذا يعود، أولاً، إلى تحفظ بوهم-باورك الذى منعه من تحويل تلاميذه الكثيرين إلى أنصار له، كما فعل مارشال. وعليه، فلم يكن له قط أى حارس علمى يقف جاهزاً للوثوب دفاعاً عنه. ثانياً، لقد حقق هذا المناظر الشهير مكاسب كثيرة لم يتباطأ بعض الناس فى النيل منها^(٣٨). ثالثاً، لم ينل عمل بوهم-باورك الفرصة الكافية للنضوج، كما أوضحنا آنفاً: فهو، من حيث الجوهر (وليس من الناحية الشكلية)، عبارة عن مسودة أولى توقف تطويرها إلى شىء ما أكثر كمالاً ولم يستأنف هذا التطوير قط. وعلاوة على ذلك، فمن المشكوك فيه عما إذا تكنيك بوهم-باورك البدائى، وبخاصة افتقاده إلى التعليم الرياضى، كان يمكن أن يمكنه من بلوغ الكمال. وهكذا فإن عمل بوهم-باورك، إضافة إلى صعوبة فهمه، ينطوى على نواقص تشجع على انتقاده - ففكرة 'فترة الإنتاج' مثلاً، كما وضعها هو، هى شىء يقترب من الهراء - وتعوق قراءه عن استيعاب جوهر فكره. وبالنتيجة، فإن الانتقاد الموجه لنقاط فردية كان ناجحاً فى الغالب، وإن هذه الاختراقات الجزئية قد أضعفت سمعة العمل ككل. فقد

يذكر فيه الناس أن نظرية بوهم-باورك هى واحدة من أعظم الأخطاء التى ارتكبت منذ إيمان وقت مضى. وقد ألغى تلك التلميحات فى الطبعة الثانية.

(٣٧) أخبرنى ذلك الرجل البارز (تاوسك) ذات يوم (فى ربيع ١٩١٤ كما أتصور) بأنه يعتبر بوهم-باورك أعظم اقتصادى فى كل العصور باستثناء ريكاردو فقط (أو حتى بأنه يعتبر ريكاردو وبوهم-باورك، بصورة متكافئة، الاقتصاديين الأعظم: ولكن أيهما أعظم: فلا أتذكر).

(٣٨) دعونا نلاحظ بشكل عابر تهمة عدم عدالة الانتقادات التى وجهت إلى بوهم-باورك كثيراً من قبل مارشال، مثلاً. أعتقد أن هذه التهمة ليس لها أساس بالصورة التى أثبتت فيها. ولكن ذهن بوهم-باورك هو ذهن محامى. فهو لم يكن قادراً على أن يرى شيئاً غير المعنى الحرفى فى حجة الخصم ولا يبدو عليه أنه سأل نفسه عما إذا كان هذا المعنى الحرفى المزعج يتضمن بعض الحقيقة. وقد أضعف هذا الأمر من محابته الناقدة فى كثير من الأحوال، مع أن نقده يبقى رغم ذلك أفضل سياق قائم من الممارسات فى التفكير النظرى من ذلك النوع. وعليه، فمن المفهوم أن يستخلص قرائه غير المتعاطفين انطباعاً تعبّر عنه تلك التهمة.

تعرض للنقد حتى من جانب كتاب نزيهين مثل إرفنج فيشر Irving Fisher الذى لا يبدو عليه أنه كان يدرك قط مدى ما يدين به عمله Theory of Interest إلى بوهم-باورك، مع أنه كان، بين كل الكتاب، يتلف، بل يتلف كثيرًا، لإنصاف أى من سابقه لو تيسر له إيجادهم. وفى الوقت الذى كتب فيه كينز عمله Treatise، كانت هناك قناعة شبه عامة مفادها أن نظرية بوهم-باورك هى غلطة طريفة- وهى غير جديرة أكثر بالمناقشة الجدية. ومع ذلك، فإن أفكار بوهم-باورك ظلت تواصل البروز وتعلّم الناس، بمن فيهم النقاد والمنقّصين، كيف يمارسون عملهم. وفى الواقع، فإن أفكاره قامت بهذا الأمر منذ البداية: فمع أن بوهم-باورك حصل على القليل من الثناء واكتسب القليل من الأنصار، بيد أنه كان وما يزال واحدًا من أعظم المعلمين فى المهنة الاقتصادية^(٣٩).

كان فردريك فون فيزر Friedrich von Wieser (١٨٥١-١٩٢٦) رجلاً مختلفًا. فقد كان مفكرًا بالفطرة. قضى فيزر فترة قصيرة فى الخدمة المدنية فى شبابه وفترة أخرى أقصر فى الوزارة منتصف الستينيات من عمره وهما الانقطاعان الوحيدان فى حياته الأكاديمية المسالمة والهادئة فى براغ وفينا. ومع ذلك، فمن الصعب توصيف هذا المفكر. يتمثل الشئ العظيم المميّز له فى رؤيته الشاملة التى توغلت تحت السطح عميقًا. ولكنه عبّر عن هذه الرؤية على نحو غير كامل لأنه لم يفتقر إلى التعليم التكنيكى الضرورى فقط، كما هو شأن بوهم-باورك، بل أيضًا إلى المقدرة الطبيعية لإبراز حجة فعالة. سبق أن أشرنا إلى سوسيولوجته التى تستحق من الاهتمام أكثر مما نالت بالفعل (Recht und Macht, 1910 ; Gesetz der Macht, 1926)؛ كما سنذكر، فى الموضع الملائم، مساهمته فى نظرية النقود. ومن بين المساهمات الثلاث الكبيرة لفيزر فى النظرية العامة، فإن العمل الأول: Über den Ursprung und die Hauptgesetze des wirtschaftlichen Werthes

(٣٩) وهذا يصح بمعزل عن انبعاث بوهم-باورك بالارتباط مع النجاح الكبير، فى الثلاثينات، الذى حققته نظرية فون هايك للدورات التجارية. لم يكن البروفيسور نايت يحارب أعداء وهميين حينما استهمل هجومه الضارى على تعاليم بوهم-باورك عام ١٩٣٣ ('Capitalist Production, Time, and the Rate of Return,' Economic Essays in Honour of Gustav Cassel, ١٩٣٤) و عام ١٩٣٤ ('Capital, Time, and Interest Rate,' Economica, August ١٩٣٤) الذى أثار سجالات حيوية (حول الفقرات الرئيسية، انظر: 'The Recent Controversy on the Theory of Capital,' N. Kaldor, Economitrica, July 1937). ومن سوء الحظ، فإن النقطة الرئيسية الجوهرية فى رسالة بوهم-باورك لم تتم ملاحظتها إلا نادراً، أو أنها أهملت، فى ذلك الأدب.

(1884) يمتلك ميزة إعادة التشديد وتطوير حجة منجر حول القيمة (حيث كان هو من صاغ مصطلح 'marginality' Grenznutzen: - المبدأ الحدي)، ولم يكن أى عمل آخر، وحتى ذلك العمل، الشيء الكثير حينذاك؛ أما العمل الثانى (Der Natürliche Werth, 1889, English trans. 1893) فقد طوّرت النظريات النمساوية للتكلفة والتوزيع (وكان فيزر هو من صاغ مصطلح 'Zurechnung': -imputation- نظرية العزو) التى لم يكن لدى منجر سوى خلاصة عنها، وينبغي تقدير هذا العمل عاليًا كإنجاز أصيل، رغم الحقيقة الأخيرة ورغم أخطائه التكنيكية الواضحة؛ أما العمل الثالث: Theorie der gesellschaftlichen Wirtschaft (in M. Weber's Grundriss der Sozialökonomik, 1, 1914 ; English trans. Social Economics, 1927)، فرغم أنه لم يضيف شيئاً جديداً من حيث الجوهر، بيد أنه يمثل خلاصة مذهلة للفكر الاقتصادى على مدى العمر. إن التاريخ يعرف فيزر بشكل رئيسى- مع أن مدى معرفة التاريخ به يختلف من مؤرخ إلى آخر- بوصفه الكاتب الذى أكمل البنية النمساوية، رغم أن بعض أفكاره تشبه أفكار فالراس أكثر مما تشبه تلك الخاصة بمنجر. ويمكن العثور على أفضل تقدير له كمنظر فى كتاب البروفيسور ستغلر الذى نوصى القارئ بالرجوع إليه مرة وإلى الأبد^(٤٠). وقد نُشر عمله Gesammelte Anhandlungen، مع مقدمة حول سيرته، من قبل البروفيسور فون هايك (١٩٢٩).

إن المجال لا يسمح بغير إشارة موجزة لعمل اثنين من الكتاب البارزين: رودلف اوسبيتز Rodolf Auspitz (١٨٣٧-١٩٠٦) وهو صناعى حارب الكارتل الذى رَفَعَ من أرباحه (التي حولها اوسبيتز بدوره إلى مستخدميه) وسياسى شارك فى وضع القانون الذى أدخل ضريبة الدخل التصاعدية؛ وكان ريجارد ليبن Richard Lieben (١٨٤٢-١٩١٩)، وهو رجل يمثل توجهه ووزنه العلمى، مصرفياً خاصاً لديه ميول فنية. قدّم هذان الكاتبان أحد الأعمال النظرية البارزة فى ذلك العهد Unterschunung uber die Theorie des Preises (١٨٨٩)؛ وقد نُشر

(٤٠) George J. Stigler, Production and Distribution Theories [of Jevons, Wicksteed, Marshall, Edgeworth, Menger, Wieser, Bohm-Bawerk, Walras, Wicksell, and J. B. Clark], (1941). وقد يمثل هذا العمل الممتاز، الذى وضعه منظر مقنن، أفضل عرض موجود للعمل النظرى لقادة الفترة المدروسة ويوصى به بقوة. ولكن هذه التوصية لا تعنى الاتفاق فى كل نقطة من العرض أو التقييم.

الجزء الأول بصورة منفصلة عام ١٨٨٧؛ الترجمة الفرنسية ١٩١٤). والكاتبان، من الناحية التقنية، أفضل كثيرًا من بنى بلدهم من الكتاب وبسبب هذا ولأنهما أبرزا أيضًا مشاكل التحليل-الجزئي إلى الصدارة، فإن عملهما يبدو 'نمساويًا' أقل مما هو بالفعل. وقد حصل هذا العمل على بعض التقدير من إديجورث وأكثر منه من جانب أرفنج فيشر بينما لم ينل شيئًا في بلده. ويمثل جهاز أوسيتز وليبن من المنحنيات الكلية والحدية للعرض والطلب (لم يستعمل المنحنيات المتوسطة) مساهمة أصيلة حينذاك كما هو شأن النظرية العامة الواردة في الملحق التي لم يتم الانتباه إليها قط.

سبق لى أن وصفت المدرسة النمساوية كأحد مصدرين أثرا بقوة على الاقتصاد العام الألماني، ولكن هذا المؤثر لم يفرض نفسه بصورة محسوسة حتى بعد العام ١٩٠٠، وكان الموقف الألماني منه غير ودى بشكل كامل حتى فيما بعد^(٤١). ثمة أسباب كثر لهذا الأمر. أولاً، كان من غير الطبيعي أن يرحب الكتاب، الذين يهتمون أساسًا بالمشاكل العملية في أيامهم وبالعمل التاريخي، بانبعاث نوع من البحث كانوا يعتبرونه خاطئًا أساسًا، أو مضللًا على الأقل. ثانيًا، إن كثيرًا من الكتاب، وبخاصة شمولر - الذى اعترف بخطئه فيما بعد - ربطوا النظرية بـ 'مدرسة مانشستر' Manchesterism أى بمذهب عدم تدخل مطلق. ولذلك، فقد تصوروا أنهم كانوا يشهدون ليس فقط انبعاث نوع من التحليل لم يحبوه بل أيضًا انبعاث نوع من الفكر الاقتصادي -أو من الاقتصاد السياسى- كانوا يمتقونه بشدة. ثالثًا، كان معظم المنظرين حينذاك أما واقعين تحت التأثير الماركسى- والماركسيون غير قادرين طبعًا على أن يجدوا فى أى نظرية جديدة سوى نوع من التبرير البرجوازي - أو، بخلاف ذلك، كانوا الأتباع الأمناء 'للكلاسيك' الإنجليز: حيث كان معظمهم أكثر مارشالية من مارشال من حيث الإعجاب بريكاردو و ج. س. ميل، ولكنهم، بعكس مارشال، رفضوا تجاوزهما بإصرار^(٤٢). كما أن ال guerrilleros {الفدائيين}، الذين حاولوا شق بدايات جديدة لأنفسهم، لم يميلوا أكثر

(٤١) فحتى العام ١٩١٨، كان النجاح الكبير الذى حققه كتاب غ. كاسل G. Cassel: Theoretische Sozialökonomie يعود إلى فائدته ككتاب مدرسى وإلى حقيقة أنه، ظاهريًا، كان يعادى كلاً من النمساويين وفالراس.

(٤٢) فقد ذهب ديتزل Dietzel (الذى سنمر به بعد قليل أدناه) أبعد من أى كاتب آخر: إذ آمن بالفعل بأنه كان من الممكن الاحتفاظ بكل البنية 'الكلاسيكية'، وكان هذا عام ١٩٢١! (Von Lehrwert der Wertlehre..., 1921)

لقبول مخطط تحليلي لم يكن تقديره ممكناً دون بعض التعليم النظري وذلك مهما كان المخطط بسيطاً. وفي إنجلترا، اصطدم التقدم الأولى الذي تم تحقيقه بالقلعة المارشالية التي 'عبست بصورة شنيعة' بوجه الكوخ النمساوي. وفي الولايات المتحدة، كان الاعتراف يتحقق بحرية أكثر على يد بعض الاقتصاديين. ولكن نظراً إلى إن هذا البلد قد طور مدرسة 'حديثة' خاصة به ونظراً إلى أن معظم الاقتصاديين الأمريكيين الأكثر بروزاً، وبخاصة أرفنج فيشر، تبعوا فالراس أكثر مما تبعوا الثلاثي النمساوي، فإن الوضع لم يختلف كثيراً عن الوضع في إنجلترا. وفي فرنسا، تماشى التعليم النمساوية مع تقليد وطني، وأنها، بحكم كونها مقبولة أكثر من مدرسة فالراس الرياضية، قد حققت تقدماً أكثر بحيث إن ليروى-بوليو Leroy-Beaulieu، وجيد Gide، ولاندرى Landry، وكولسون Colson (مهما كان أكثر ميلاً إلى فالراس) وآخرين كثر أبدوا الترحيب بتلك التعليم إلى هذا الحد أو ذاك. وفي إيطاليا، كان النجاح كبيراً في أول الأمر. ولكن الاندفاع النمساوي تلاشى حالاً أو اندمج بتعاليم باريتو. بيد إن النجاحات النمساوية المبكرة والأكثر دواماً تحققت في هولندا والبلدان الاسكندنافية.

(ب) الزعماء القدامى يتقدم العلم حينما يموت البروفيسورات العجائز: هكذا قالها بوهم-باورك ذات يوم إلى شاب قلق ومتمرد. ومع ذلك، فقبل أن يقوموا بتشجيع العلم بهذه الطريقة، فإن هؤلاء العجائز موجودون في الصورة ويتعين ذكر قسم منهم. وقد اخترت روشر، الذي استمر حتى عام ١٨٩٤، نيس، شافل، شتاين، الذين صادفناهم كلهم من قبل ومارسوا كلهم تأثيراً مهماً.

ليس من داع لقول المزيد عن روشر. كان كارل نيس Karl Knies (١٨٢١-١٨٩٨)، قبل كل شيء، معلماً عظيماً أسس في هايلدبيرغ مركزاً للدراسة والبحث كان يرحب بالكتاب من شتى الأنواع وأتاح لهم أن يعملوا بصورة مشتركة. ومن بين كتاباته الكثيرة، اكتفى بذكر عمله الرئيسي Geld und Credit (١٨٧٣-٩). ألبرت شافل Albert Schaffle (١٨٣١-١٩٠٣)، الراديكالي المساح Swabian radical - لو قدر له أن يحيا الآن وفي الولايات المتحدة، لتعين علينا أن نصفه كنصير للبرنامج الجديد New Dealer أو حتى كراديكالي معتدل Parlor Pink - كان وزيراً في الوزارة النمساوية (١٨٧١)، ثم انصرف للكتابة في بلدته الصغيرة لمدة ثلاثين سنة، ولم تتوافر له سوى فرصة ضئيلة للتدريس، بيد أنه،

ككاتب، مارس تأثيره على تكوين الآخرين. ولكن ما لم ينطو عمله Bau und Leben des sozialen Körpers (1875-8) على أكثر مما أستطيع أن أجده فيه، فمن المتعذر القول إن التحليل الاقتصادي يدين له بالكثير. سوف نذكر أعماله حول فرض الضرائب في موضعها المناسب. [لم يكتمل العمل حول فرض الضرائب في الفصل السادس- الناشر]. لورنس فون شتاين Lorenz von Stein (١٨١٥-١٨٩٠)، الباحث حول الاشتراكية الفرنسية، البروفيسور في جامعة فينا خلال الفترة ١٨٥٥-١٨٨٨، كان قد أثبت نفسه كمرجع في الإدارة الحكومية والمالية العامة. وليس ثمة أهمية لكتابه المدرسى في الاقتصاد وأنا لم أذكره إلا لأن من غير اللائق أن نترك الصورة خالية من شخصية لامعة دون شك.

(ج) الكتاب الممثلون حينما يفكر المرء بالاقتصاديين الألمان في الفترة المدروسة، فإن أسماء القادة الأكاديميين التي تبرز في الذهن هي، طبعًا، تلك الأسماء التي وردت في الفصل السابق، وبخاصة برنتانو Brentano، بوخر Bucher، ناب Knapp، شمولر، سومبارت، فاغنر، و م. وفير. ولتوضيح الجوانب المختلفة من الوضع، فأنتى أختار بورتكفيج، ديل، ديتزل، لاونهارت، ليكسس، فيليبفج، وشولتز-غافرنتر. ولكن يتعين أن أتوقف هناك. كما ينبغي أن نتجاوز الكثير من المعلمين الناجحين مثل يوهانس كونارد Johannes Conard، والكثير من الزائرين الأمريكيين ممن يقدمون النصح، أو غوستاف كون Gustav Cohn أو بول Pohle أو هيلد Held أو الكاتب الممتاز ناس Nasse أو هيركنر Herkner.

من المجموعة الأولى، لا نحتاج إلى تعليق إضافي إلا على أدولف فاغنر Adolf Wagner (١٨٥٥-١٩١٧). كنا قد تعرفنا من قبل على فاغنر من الناحية السياسية كقائد في النضال من أجل Sozialpolitik، وكمصلح محافظ بشكل خاص. وإضافة إلى ذلك، فمما يُحسب له هو عمله في حقل النقود الذي ستم الإشارة إليه في الفصل الثامن. كما يتوجب أن نشير إلى عمله في حقل المالية العامة (Finanzwissenschaft, 4 vols. 1877-1901). ومن المتوقع أن تقوم الشهرة التاريخية لفاغنر على هذه الإنجازات. وهنا ينبغي علينا أن ننظر إليه كإقتصادي تحليلي بشكل عام. لقد شعر فاغنر بنفسه كمنظر بمعنى أنه كان يعارض المذهب التاريخي. ولكن رغم أنه لم يكن ودّيًا مع مدرسة شمولر، بيد أنه شدّد على النسبية التاريخية من خلال تمييزه المشهور، إن لم نقل الجديد تمامًا، بين

المقولات التاريخية-القانونية' و'الاقتصادية' (للمؤسسات، وأشكال السلوك، والعمليات) التي قد لا يكون من الضروري توضيحها. لقد اعتاد فاغنر على القول إن رودبرتوس وشافل هما الاقتصاديان اللذان استمدَّ منهما معظم معارفه، وكان يبدى دائماً اهتماماً نقدياً بريكاردو الذى يبقى 'ال' منظر إلى النهاية بالنسبة له. لم يستوعب فاغنر سوى المعانى السطحية من العمل المقدم فى عصره، رغم اعترافه باقتصاديين أجانب كثر وبخاصة مارشال وتاوسك- وذلك بالمعنى الشكلى الذى يعنى القليل- وأنه حصل على اعتراف مماثل مقابل ذلك، وبخاصة من مارشال. وإذا نستثنى حقل النقود على الدوام، فمن المتعذر أن نقدر أصالته كثيراً أو حتى مقدرته فى الاقتصاد التحليلي. ومع ذلك، فإن اسمه سيخلد لفترة أطول من اسم كثير من الخبراء التحليلين. ومن بين أعماله التى تضم مجلدات عدة، والتى تتأثر بصورة تكاد لا تطاق ب rabies systematica {مرض كثرة التصنيفات}، لا نحتاج إلى ذكر سوى عمله Principles (Grundlegung der politischen Oekonomie, 1st ed. 1876) الذى خلفه مشروعه التعاوني: Handbook (Lehr-und Handbuch der politischen Oekonomie).

تتألف مجموعتنا الثانية من مادة متفاوتة. كان لادسلاوس فون بورتكيفيج Ladislaus von Bortkiewicz (١٨٦٨-١٩٣١) رياضياً وفيزيائياً وفقاً لتعليمه^(٤٣) ويُعَيَّم عالمياً كرجل إحصاء فى مدرسة ليكسس Lexis. وكمنظر، فإن بورتكيفيج معروف أساساً كواحد من أكثر نقاد ماركس^(٤٤) وبوهم-باورك اقتداراً. ولكن ميله النقدى أساساً منعه من تقديم أى عمل خلاق، بقدر تعلق الأمر بالنظرية الاقتصادية. وهذا ليس كل شيء. فنقده كان فى أحسن حالاته حينما يدور حول التفاصيل- فهو متصيد كلمات comma hunter بمعنى ما- مغفلاً الجوانب الأوسع والمعانى الأعماق التى يتضمنها نموذج ما نظرى. وقد وصف نفسه كمارشالى. ولكن هذا لم يعن

(٤٣) تجمعه هذه الصفة بويلهيلم لانهارت Wilhelm Launhardt (١٨٣٢-١٩١٨)، البروفيسور فى مدرسة هانوفر التكنولوجية، الذى ينبغى النظر إلى عمله (Mathematische Begründung der Volkswirtschaftslehre, 1885) كعمل قيم، وكعمل أصيل فى بعض نقاطه (وبخاصة بالنسبة للنقل والموقع)، رغم أنه يحمل طابعاً فالراسياً أساساً ويشوّه عدد من العيوب. وهكذا، فإن ألمانيا لم تكن دون اقتصاد رياضى كلياً. ومن الطريف أن نلاحظ- ومما يميز الظروف فى حقنا- أن نوعاً من العمل قد يكون موجوداً وعلى مرأى من الجميع ومع ذلك تغفل عنه.

(٤٤) حول هذه النقطة، انظر بول سويزى (المصدر السابق) الذى يقبل كلياً تنقيح revision بورتكيفيج لنظرية الأسعار لدى ماركس.

سوى أنه أحبَّ بعض الجوانب الأقل مدعاة للإعجاب والأقل تقدّمية من عمل مارشال Principles. ومع ذلك، كان بوسع بورتكليف أن يمارس تأثيراً نافعاً فى برلين لو أنه لم يقف جانباً- محجوباً من قبل شمولر وفاغنر بصورة تامة- ولو أنه كان أقل ضعفاً كمعلم.

وعلى العكس من ذلك، فإن كارل ديل Karl Diehl (١٨٦٤-١٩٤٣) لم يقف جانباً: إذ شغل، فى فريبورغ، ما يمثل أحد كراسى الاقتصاد الأكثر بروزاً فى ألمانيا- وهو أمر كان قائماً من قبل جزئياً، وتحقق بفضلها فى جزئه الآخر. كما كان ديل معلماً من أعلى درجات الفعالية-ولو ليس فى قاعة المحاضرات مثلما هو فى قاعة السيمينار، حيث تم تكوين وتشجيع عدد كبير من الطلبة. كان لدى ديل ميل قوى للمذهب المؤسسى- وكله نحو النسبية التاريخية بشكل خاص. ولكن هذا لم يمنعه من أن يكون 'منظراً' حقيقياً، أى كاقصادى لا يُسقط النظرية حينما يكون قد صفى بعض الفلسفات والمشاجرات بشأن المفاهيم، بل كاقصادى يستعمل النظرية كأداة لحل مشاكل. ونظريته لم تكن أصيلة أو حديثة أو منقاة جداً- وتتبع جذورها من 'الكلاسيك' الإنجليز^(٤٥)- بيد أنها كانت نظرية متينة، رغم ذلك، وتعنى الكثير فى الوضع القائم.

أما هنريك ديتزل Heinrich Dietzel (١٨٥٧-١٩٣٥)، وهو يشغل منصباً أكاديمياً قيادياً آخر (فى بون)، فكان رجلاً من طبيعة أخرى. كان ديتزل أيضاً منظراً بشكل رئيسى وأرفع من ديل فى المنطق الصارم. ولكنه كان أقل فعالية كمعلم وذلك لمزاجيته والعقم الغريب المميز لرسائله العلمية معاً. إذ أنه لم يفعل سوى أن 'حفر لنفسه موضعاً' وبقى، فكرياً، فى الموضع، الموضع 'الكلاسيكى' الذى كان قد بلغه فى أول سيرته. ومع أنه قدّم عملاً محترماً نوعاً ما وفقاً لخطوط 'كلاسيكية' وساهم فى عمل فاغنر Lehr und Handbuch بمجلد مهم حول النظرية (Theoretische Sozialökonomie؛ حول المنهج بشكل رئيسى)، فمن المستبعد أن يجرى تذكره إلا لسجله مع بوهم-باورك.

(٤٥) يمثل عمله: Sozialwissenschaftliche Erläuterungen zu David Ricardos Grundgesetzen (انظر الجزء الثالث، الفصل الرابع، أعلاه) إنجازاه العلمى الوحيد فى هذا الحقل. ولكن عمله التذكارى: Principles (Theoretische Nationalökonomie, 4 vols. 1916-33) يمثل هو الآخر عملاً معتبراً وما يزال جديراً بالقراءة. كما كنا قد أشرنا من قبل إلى عمله حول برودون.

تبين حالتا فاغنر وديتزل أن طبيعة 'النظرية' التي يجرى تدريسها هي التي تفسر، أكثر من السياسة الاجتماعية Sozialpolitik أو المذهب التاريخي، ما يبدو لأول وهلة ككسوف للعمل التحليلي من هذا النوع، الذي قد لا يعنى الكثير في حد ذاته ولكنه ضرورى لتصور العمل الباقي. وتُظهر حالة ويلهيلم ليكسس Wilhelm Lexis (١٨٣٧-١٩١٤) عالم الإحصاء الكبير، الشيء نفسه من زاوية مختلفة قليلاً. قدّم ليكسس عملاً رفيعاً في حقول عدة، وبخاصة في قضايا السياسة النقدية والتجارة الخارجية. كما كان ضمن البارزين ممن هاجموا النظام الماركسي حينما صدر المجلد الثالث (من Das Kapital). ولكن كل هذه الكتابات تعكس ضعفاً في الجانب النظري بصورة تثير الاستغراب بالنسبة لكاتب يتمتع بفكر حاد على نحو ملحوظ دون شك. ومع ذلك، فإن كتابه المدرسي يحل اللغز: فهو يبين بصورة قاطعة أن ليكسس لم يبدِ أى اهتمام بالعمل الذي من شأنه تحسين جهاز التحليل؛ ونظراً إلى أنه نشأ في بيئة معادية للنظرية، فقد عجز كلياً عن إدراك الإمكانيات العلمية للأفكار الجديدة التي كانت تبرز في عهده الوسيط. ونظراً إلى أن اهتماماته الفكرية البحتة كانت، في جميع الأحوال، في نظرية الإحصاء، فإنه لم يهتم حتى باستعمال الرياضيات - التي لم يكن اكتسابها يتطلب منه جهداً كبيراً - لخدمة علمه الاقتصادي.

ولا ينبغي أن نغفل، لأى سبب كان، الإشارة إلى يوجين فون فيليبفج Eugen von Philippovich (١٨٥٨-١٩١٧)، رغم أننا سنضطر للإشارة إليه مرة أخرى لاستعمال كتابه المدرسي الشهير كنموذج تمثيلي لما 'يتلقاه الطالب'. كان فيليبفج أحد أعظم المعلمين في الفترة المدروسة، ويتمتع بمنزلة فكرية، ويهتم إلى درجة الانفعال بقضايا عصره الاجتماعية والاقتصادية. وإلى جانب ذلك، كان فيليبفج مفكراً دقيقاً ومنفتحاً على كل التيارات في الاقتصاد العلمى مما كانت في متناوله. وقد جعلت منه هذه الخصال، وبخاصة سعة أفق ميله العلمى، وسيطاً مثالياً حينما كان التوسط مطلوباً جداً. كما إن فيليبفج قد منح شمولر ومنجر ما يستحقاه وكل ما كانا يؤيدانه؛ وكان يتعاطف من كل قلبه مع السياسة الاجتماعية Sozialpolitik من نوع البرنامج الجديد New-Deal، ومع إنه لم يكن رجل 'نظرية' - إذ يحمل بحثه طابعاً 'عملياً' بصورة كاملة - بيد أنه نظر إلى النظرية بطريقة مفادها إن الثقافة التحليلية لا ينبغي - في حدود مجال تأثيره - أن تهبط إلى

مستوى الصفر. كما أنه توافق، قبل النمساويين الآخرين، مع روح الاقتصاد الألماني، ويعود الفضل إليه في تسلي نظرية المنفعة الحدية إلى الباحثين الألمان أصلاً- علماً بأنه كان يدرّس في فينا- وذلك عبر كتابه المدرسى بشكل رئيسي.

يوضح غير هارت فون شولتز-غافرنتز Gerhart von Schulze-Gaevernitz (١٨٦٤-١٩٤٣) نوعاً آخر- وعلى أكمل وجه. إذ يصعب اعتبار هذا البروفيسور من فريبورغ اقتصادياً أصلاً، بقدر تعلق الأمر بالاقتصاد التقني. ولكنه كان أكثر من ذلك: فيلسوف اجتماعي حقيقي يقترب مما ينبغي على أن أسميه لاهوتياً اجتماعياً وهو، في نفس الوقت، سياسي لا تتقصه الواقعية. وهكذا قدّم شولتز-غافرنتز أعمالاً^(٤٦) ذات نطاق واسع، لها مكانتها مهما كان رأينا بمنزلتها المعرفية، إضافة إلى كونها روائع من النوع الخاص بها. إذ إنها كتبت لهدف محدد: التبشير برسالة اجتماعية. ومع إن هذا كثير، بيد أنه غير كاف ما لم يكن ثمة تقنى جيد technician يقوم بالتعليم في الغرفة المجاورة. ولكن لا يبدو عليه قط أنه قد أدرك بأننا إذا شئنا تطبيق فكرنا على الشؤون الاجتماعية والدولية، فإننا نحتاج ليس إلى رؤى ومثّل ووقائع فقط بل أيضاً، ما دمنا لسنا من أتباع لابلاس، إلى أساليب محددة certain techniques؛ وأنه ألحق الضرر عن غير عمد بتلاميذه، ممن صار بعضهم من المشاهير، حينما عجز عن تزويدهم بالحد الأدنى الضروري من الاقتصاد التقني (وعن تعلمها بنفسه لهذا الغرض).

كان هناك الكثير من أشباه هوبزن حتى في إنجلترا المارشالية. ولكن في ألمانيا، في وضع كالوضع الذي كنت ولما أزل أحاول أن أصفه من خلال 'الرقع الملونة' patches of colour حيث يتعذر أن تكون الكفاءة العامة لدى كل الاقتصاديين المهنيين وبالتالي مستوى الانتقاد على مستوى عالٍ، لأبد من ازدهار أشباه هوبزن وتزايد عدد الاقتصاديين المستقلين free-lance economists. كما أن الكتاب المتعلمين أيضاً، بحسب التعلم القائم حينذاك، كانوا ينغمسون في الغالب بتقديم أعمال أصيلة في غير موضعها misplaced originality وذلك لمجرد عدم

(٤٦) تذكر هذه الأعمال بعمل ادولف هيلد: Zwei Bucher zur sozialen Geschichte Englands (ed., G. F. Knapp, 1881)، وهو كاتب آخر من هذا النوع أكره إغفاله. إن كتابي شولتز-غافرنتز (١٨٩٠؛ الذي يترجم عنوانه الفرعي كما يلي: 'وصف تعاليم السياسة الاجتماعية في إنجلترا في القرن التاسع عشر' و (Britisher Imperialismus und englischer Freihandel 1906).

فهم أو إتقان الجهاز القائم للعلم. وعندئذ، فحتى الكتاب المقتردين يمكن أن يخطئوا بصورة شنيعة، وأن يسيئوا فهم المشاكل، وأن ينظروا إلى أخطائهم كمكتشفات. وبالنتيجة، فقد تكونت لدينا قائمة طويلة من كُتّاب تمكنوا حتى من تحقيق النجاح بالنسبة للمهنة وشغلوا مواقع معتبرة ولكن يتعذر توصيفهم من وجهة نظر مهنية. سوف أذكر بعضًا من أبرز الكتاب من هذا النوع ولكنني لن أعود إلى بعضهم: افرتز، غوتل، لايفمان، اوبنهايمر وشبان. إن معالجة هؤلاء الكتاب بهذه الصورة لأبد من تبريرها.

يتعذر تحقيق هذه المهمة بصورة دقيقة. فهذا يتطلب مجلدًا كاملاً. وليس بوسعي سوى طرح أسبابي دون إثباتها. اوتو افرتز Otto Effertz، وهو الوحيد في قائمتنا الذي فشل في نيل الأستاذية وكان يمثل شخصية تراجيدية نوعًا ما، قدّم افرتز العمل: (Arbeit und Boden 1890-91) الذي يختلف كثيرًا في شكله النهائي عن شكله الأصلي ونُشر بالفرنسية تحت عنوان: Les Autagonismes (economiques 1906). إنه عمل نمطي لكاتب مقتدر لا يعرف كيف يبدأ مهمته. والسبب الذي يدفعني لاستبعاد افرتز من تقريرى التالى هو أن إزالة أخطائه القابلة للإثبات من شأنها أن تجعل من حجته أمرًا معروفًا ومبتدلاً. وللإطلاع على رأى مختلف، انظر مقدمة المجلد الفرنسى. أخشى أن الطريقة الوحيدة لتقدير البروفيسور ف. فون غوتل-اوتلينفيلد F. von Gottl-Ottlilienfeld - أو، بعبارة أخرى، لاستبعاده من تقريرنا- الذى شغل موقعًا بارزًا وتبعه أنصار كثيرون، تتمثل فى قراءته^(٤٧). كان روبرت لايفمان Robery Liefmann (١٨٧٤-١٩٤١) اقتصاديًا ممتازًا، وبخاصة حول الكارتلات. مشكلتنا هى مع نظريته (التي ترد خلاصة لها فى، مثلاً، العمل Grundsätze der Volkswirtschaftslehre, new ed., 1922) التى تتطوى على جانب مهم. إن مبدأه الأساسى حول مساواة العوائد الحدية بالنقود (وكل نظريته 'الذاتية' للأسعار) لا تمثل (إذا أهملنا الهفوات) سوى تعبير غير ملائم بصورة خاصة عن المحتوى الرئيسى للنظرية النمساوية. ولكنه إذ

(٤٧) ومع ذلك، يمكن إلى حد بعيد تخفيض التكلفة النفسية لاستبعاده بقراءة عرض البروفيسور فون هابرلر von Haberler للكتابات المنهجية لغوتل Gottl التى أعيد نشرها عام ١٩٢٥ تحت عنوان: Wirtschaft als leben. (العرض موجود فى مجلة Zeitschrift für Nationalökonomie May 1929, entitled 'Kritische Bemerkungen zu gottls methodologischen Schriften'). ولكن لا تتوافر أعمال مماثلة تساعد على قراءة كتابات غوتل الأخرى.

اكتشف هذه الأخيرة بصورة مستقلة، فقد أنكر بقوة أى جذور لها، وبدد طاقات غير عادية فى المناظرات، وادعى أشياء ليس من شأن أحد أو بوسع أحد أن يأخذها بصورة جدية. وقد تكفل بالباقي حديثه الخالى من المعنى حول قضايا متصورة كالعوامل 'الذاتية' و'الموضوعية' (أو 'المادية' materialism و'الطبيعية' naturalism) فى نظرية السعر. إن مساهمته الصافية فى القضايا ذات الصلة بهدف هذا الكتاب تساوى صفرًا، باستثناء عمله حول الكارتلات. كان فرانز اوبنهايمر Franz Oppenheimer (١٨٦٤-١٩٤٣) رجلاً بارزًا، قائدًا صهيونيًا، سوسيولوجيًا 'وضعيًا' positivist لا يحتمل أن يفقد مكانته فى تاريخ ذلك اللون من الفكر، معلمًا فعالاً شكّل العديد من العقول الناشئة وفعل الكثير لكى تبقى راية النظرية الاقتصادية خفاقة عبر مناظرة مفعمة بالحياة. إن موقفه من التملك الخاص للأرض^(٤٨)، الذى يشبه موقف هنرى جورج، لا يكفى بحد ذاته لتبرير رفضى لتناول مذاهبه بالتفصيل. فهذا الرفض يعود إلى إن جهازه التحليلى (نظريته 'الموضوعية' للسعر) يتعذر إصلاحه أو، بالأحرى، لأن الطريقة الوحيدة لتخليصه من عيوبه هى دراسة النظرية. بيد أنه لم يخلو من بصيرة عميقة وقد طرح أفكارًا سليمة كثيرة. ومن بين أشياء أخرى، فقد أبصر اوبنهايمر فائدة مفهوم الستاتيكاء المقارنة وهو الذى صاغ هذا التعبير (انظر الفصل السابع، القسم الثالث، أدناه)^(٤٩).

(٤٨) كان اوبنهايمر أحد الكتاب الكثيرين الذين تحدثوا عن احتكار الأرض ومن بينهم آ. سميث وسنيور. ومع ذلك، فلم أقصد هذا الأمر فى عبارتى الواردة فى المتن. فقد كان اوبنهايمر أيضًا أحد أولئك الكتاب الأقل عددًا ممن، مثل هنرى جورج (وبعض الكتاب الآخرين الذين ورد ذكرهم فى الجزء الثالث)، يرجعون كل الظواهر التى تشخص أمامهم، كانهراف الماكسة الرأس مالية عن الأداء الصحيح، إلى تملك الأرض أو إلى جعل الأرض فى غير متناول العمال (Boden-sperre) مما يتضمن طبعًا موضوع أن الملكية الخاصة هى السبب الذى يفسر كون الأرض عاملاً نادرًا أصلًا. إن إلغاء هذا أل Boden-sperre هو (أساسًا) ما تعنيه اشتراكيته الليبرالية التى تقبلتها عقول كثيرة.

(٤٩) من بين أعمال اوبنهايمر الكثيرة، يلزمنا أن نلاحظ ما يلى لأغراضنا: Theorie der reinen und politiscgen Okonomie (vol. 111 of his comprehensive System der Soziologie ; 5th rev. ed., 1924) and Wert und Kapitalprofit (2nd ed., 1922). وقد يمكن الاستفادة من التحليل النقدى المحكم للبروفيسور ألفرد أمون Alfred Amonn لبنية اوبنهايمر النظرية (Zeitschrift fur Volkswirtschaft und Sozialpolitik, 1924). ثمة أدب واسع جدا حول اوبنهايمر ليس بوسعى أن أذكر منه سوى: E. Heimann, 'Franz Oppenheimer's Economic Ideas' in Social Research, February 1944. وإذا رجع القارئ إلى هذه المقالة، فسيجد: مع أن البروفيسور هايمان يمتدح اوبنهايمر كفيلسوف اجتماعى وكفكر سياسى ويجل النقاط القوية فى تعاليمه - وهذا شئ صحيح فى مقالة للذكرى - بيد أن تقييمه الضمنى للعمل التحليلى البحث لدى اوبنهايمر لا يختلف كثيرًا عن التقييم الوارد آنفاً.

أما البروفيسور أوثمار شبان^(٥٠)، الذى حقق تدريسه فى جامعة فينا (بدءاً من عام ١٩١٦) نجاحاً كبيراً والذى شكّل مدرسة حقيقية وفق مفهومنا، فقد تمّ التعرض إليه سابقاً فى مناسبات عدة. فلا محل هنا لدراسة فلسفته الاجتماعية أو نظريته المعرفية أو سوسيولوجيته. فما يهمنا هو نظريته فحسب. وهذه كانت خالية من أى نتائج على الإطلاق. إذ إن استعمال عبارات معينة فقط هو الذى يميز أعماله حول المالية العامة أو الدورات أو أى أعمال أخرى تعلن تطبيق تلك النظرية^(٥١).

٥- إيطاليا

ليس بوسع المراقب الأكثر إحساناً أن يطرى الاقتصاد الإيطالى بأى صورة كانت فى أوائل سبعينيات القرن التاسع عشر؛ وليس بوسع المراقب الأكثر حقداً أن ينكر أنه صار الاقتصاد الأفضل حوالى العام ١٩١٤. ويمثل عمل باريتو ومدرسته العنصر الأكثر بروزاً فى هذا الإنجاز المدهش حقاً. ولكن لابد من التشديد مرة أخرى على أن المدارس السائدة لا وجود لها. فمدرسة باريتو وحلفائها ومن يتعاطف معها لم تسد يوماً فى الاقتصاد الإيطالى بأكثر مما سادت مدرسة ريكاردو فى الاقتصاد الإنجليزى ومدرسة شمولر فى الاقتصاد الألمانى. على العكس، فإن الشيء البارز حقاً هو أن علم الاقتصاد الإيطالى، حتى بمعزل عن باريتو، قد حقق مستوى عالياً فى مجموعة من الخطوط وفى كل الحقول التطبيقية. سوف نذكر فيما بعد قسماً من العمل الممتاز الذى تمّ تقديمه بشكل خاص فى حقول النقود والصيرفة، والمالية العامة، والاستراكية والاقتصاد الزراعى، ولكن من المتعذر إبراز هذا العمل كما ينبغى. بل إن التيارات المختلفة فى الاقتصاد العام يتعذر أن تنال ما تستحقه، وبخاصة تلك التيارات التى نشأت عن العمل التاريخى أو العمل الوقائعى الآخر الذى أخصب الاقتصاد العام فى إيطاليا بالفعل ولم يتعارض مع النظرية، كما حدث فى ألمانيا- ذلك النوع من الاقتصاد العام الذى يمكن تمثيله بعمل لوغى أينابودى Luigi Einaudi، رغم أنه لم يبرز ويتقدم إلى الموضع القيادى إلا بعد عام ١٩١٤. سوف نقسم خلاصتنا إلى ثلاثة أجزاء على التوالى: الزعماء

(٥٠) انظر، مثلاً، عمله: (Fundament der Volkswirtschaftslehre (3rd. ed., 1923).

(٥١) إن مذهب، أو تأثير، غونل، أوبنهايمر أو شبان، لم ينضج حتى العشرينيات من القرن العشرين. ولكننى أحببت أن أعتنم الفرصة للتخفيف عن الجزء الخامس. إذ إن المرحلة التكوينية، على الأقل، من فكر هؤلاء المؤلفين تقع ضمن الفترة محل الدرس.

القدامى، وبانتاليونى، وباريتو. ونشير فى الهامش أدناه إلى أخيل لوريا^(٥٢)، وهو شخصية مهمة لم تسع لها صورتنا شديدة التبسيط.

(أ) الزعماء القدامى يرتبط الانبعاث الهائل لعلم الاقتصاد الإيطالى، كما أشرنا من قبل، بتعاليم فيرارا، وميسيداغليا^(٥٣) وكوسه^(٥٤) فى الغالب. إن وعينا السوسيولوجى يجبرنا على التشديد على وقائع من قبيل أن إيطاليا كانت واثقة من انبعاث تقليدها اللامع فى هذا الحقل بمجرد أن أصبح الظروف أكثر ملائمة؛ وإن الوحدة الوطنية خلقت مثل هذه الظروف وأنتجت، أيضاً، مشاكل وطنية جديدة وفرصاً لحلها؛ وأن هناك عدداً كبيراً من مناصب الأستاذية، رغم إن الموارد العالمية فى متناول الاقتصاد الإيطالى كانت متواضعة. ومع ذلك، فإن هذه الوقائع لا تنتقص

(٥٢) يمثل عمل أخيل لوريا Achille Loria (١٨٥٧-١٩٤٣) مزيجاً غريباً من العبقريّة والتعليم السيئ فى مجال التحليل. ولكن هذا التعليم السيئ نفسه كان من نوع غريب ليس من النادر أن يحدث فى مجال الاقتصاد على أى حال. لوريا لم يكن جاهلاً، على العكس، فإنه كان متعلماً حتى بصورة غير مألوفة. فقد كان يعرف 'الكلاسيك' الإنجليز عن ظهر قلب تقريباً، ويعرف ماركس على نحو أقل قليلاً من المعرفة الكاملة. كما كان لوريا يقرأ التاريخ والفلسفة أيضاً على نحو جيد. ولكن أما أنه لم يتعلم فن التحليل الاقتصادى أو، بخلاف ذلك، لم يكن يميل إليه، وعلاوة على ذلك، كان يفتقد إلى النقد الذاتى بصورة كاملة بقدر تعلق الأمر بالأفكار المحببة لديه. وهكذا، فقد ذهب - مثل كثيرين غيره من الكتاب الأقدم - إلى إعطاء أهمية غير مبررة قط للقيمة التفسيرية لوجود أو غياب الأرض الحرة التى أصبحت الفكرة الأساسية فى فكره الاقتصادى والسوسيولوجى. وقد ربط لوريا هذه الفكرة مع تطوير يتعذر الدفاع عنه لنظرية القيمة الريكاردية والمفهوم الماركسى الموحد للدخل غير الأجرى - الذى ينشطر، بنقطة واحدة، إلى فائدة (ربح) وربح - وقد وضع من هذه العناصر، نظام علم الاقتصاد القائم على ملكية الأرض 'land-property system of Economics' الذى يناظر فى مفهومه وفى هدفه - سيقول الماركسيون: كاريكاتير - النظام الماركسى بطريقة لا تختلف عن نظام اوينهايمر. وكان لوريا يعتقد هو نفسه بأنه أسس مدرسة ما. ولكن كل ما أستطيع إثباته من الأدب هو أن لوريا أثار اهتمام كثير من معاصريه وشجعهم، وحصل من قسم منهم، على اعتراف يصعب فيه تمييز الكياسة عن الامتنان والامتنان عن الولاء.

(٥٣) حول فيرارا Ferrara وميسيداغليا Messedaglia، انظر الجزء الثالث، الفصل الرابع، القسم السادس.

(٥٤) لوغى كوسه Luigi Cossa (١٨٣١-١٨٩٦) البروفيسور فى بافيا، كان معلماً عظيماً فى المقام الأول، أحد أولئك الذين لا يحتاجون إلى الفرص التى يتمتع بها المعلم الأمريكى الحديث ولكنه يستخلص، كلمح البصر، من طبقات واسعة من الطلبة المهمتين بصورة عادية، العدد القليل منهم الجاهز لفتح ذهنه للتأثير الذى يتيحه الاتصال الشخصى. ثانياً، كان كوسه إنساناً متعلماً جداً. إن كتابه: Guida allo studio dell' economia politica (1876, English trans., 1880) هو دليل حقا ولكنه دليل يفقد عن طريق تعريف المبتدئ بالكتاب السابقين. ويتميز عنوان ترجمته الفرنسية بأنه يعبر حقا عن محتوى هذا العمل: (Histoire des doctrines économiques (1899) (علماً بأن العمل مترجم إلى لغات عدة ويُقرأ على نطاق واسع). ولأن العمل يقوم على بحث أصيل، فإنه يُقِيم عالِياً كتاريخ لعلم الاقتصاد. [تستند الترجمة الفرنسية والترجمة الإنجليزية الجديدة (١٨٩٣) على الطبعة الإيطالية الثالثة (المنقحة والموسعة): (Introduzione ... dell' economia politica (1892)].

من فضل هؤلاء المعلمين العظام ومن تبعهم. ويلوح العنصر الشخصي كبيراً فى تفسير هذا الإنجاز: فالعدد غير المعتاد من الكتاب المقتررين بصورة غير معتادة قد خلق معظم تلك الفرص. ويتمثل الفضل الخاص لكوسه وميسيداعليا فى تدريس العلم وبث روح الزمالة العلمية وفى الابتعاد عن المشاجرات المزمنة حول التفضيلات السياسية politics - سياسة عدم التدخل مقابل السياسة الاجتماعية Sozialpolitik بشكل خاص- وإفساح المجال أمام الأجيال الصاعدة لاكتشاف أن هناك عملاً جدياً ينبغي إنجازه. ومع أنهما لم ينجحا إلا جزئياً فقط- فمن كان بوسعهم أن يفعل أكثر؟- ورغم استمرار السجال القديم ليس فقط بشكل غير خفى بل أيضاً فى صورة مشاجرات علمية واضحة حول 'القوانين الطبيعية'، بيد إنهما لم يكتفيا بتشجيع البحث بل ساعدا على خلق جو للبحث أيضاً. من المؤكد أن هذا البحث قد انطلق من الأمثلة الأجنبية، وبخاصة أمثلة المدرسة التاريخية والمدرسة النمساوية، بقدر تعلق الأمر بالاقتصاد العام. ولكن هذا العمل أصبح حالياً عملاً 'وطنيًا' nationalized، بفضل الانتقاد إضافة إلى العمل الأصيل. فقد نجح كثير من الكتاب الكبار فى التجاوب مع هذا المصدر للتشجيع ولا بد هى أن نذكر كثيراً من الكتاب الكبار مثل سوبينو Supino أو ريكاسالرنو Ricca-Salerno، وهو تلميذ كوسه وأستاذ لوريا، وكونغلياني Conigliani، وغراسياني Graziani. ولكن يتعين علينا أن نمتنع عن ذلك.

(ب) بانتاليونى^(٥٥) سنتخذ من كتاب بانتاليونى Principi di economia pura

(٥٥) كان مافيو بانتاليونى Maffeo Pantaleoni (١٨٥٧-١٩٢٤) يقوم بأنشطة عدة وأن الآثار التى تركها هى آثار حقيقية حتى إذا أهملنا كل البقايا غير-العلمية. بدأت شهرته فى الاقتصاد الإيطالى من بعد صدور كتابه المذكور فى المتن أعلاه، ولكن شهرته فى المهنة الإيطالية بدأت عام ١٩٠٠ حينما أسند إليه كرسى الاقتصاد فى بافيا، أو بالأحرى منذ عام ١٩٠٢ حينما خلف ميسيداعليا فى جامعة روما. وقبل كتابة عمله: Principi (الترجمة الإنجليزية ١٨٩٨؛ وقد تمت هذه الترجمة من الطبعة الثانية ١٨٩٤)، فإنه كتب عملاً مهماً آخر حول عائدات الضرائب (Teoria della traslazione dei tributi - وهى موضوعاته الرئيسية، ١٨٨٢). ولكن هذين العاملين لا يكفيان لتقدير المدى الكامل لتأثيره وأصالته حق قدره. إذ تنتشر مقترحاته فى مقالات يتعذر حصرها أعيد نشر أهمها فى: Annali di economia 1905-07 المنشور فى: 1925 Annali di economia مساهمة جوهرية فى نظرية التقلبات الدورية، رغم أنه عبارة عن تقرير يرد فى تحقيق حكومى. ولا بد من أخذ هذا العمل والعمل الوثائقي الآخر - الذى لا يخلو من الأهمية بالنسبة للنظرية الإحصائية - عند تقييم هذا الرجل والعالم: فهو لم يكن سوى 'منظر بحث'، رغم أنه فهم 'النظرية البحتة' مثلما فهمها بعض الناس دائماً. وبعد وفاته، كتب عدد من الاقتصاديين الإيطاليين البارزين مقالات على شرفه نشرت فى مجلة: Giornale degli Economisti, 1925 (التي أضيف فهرست إليها). انظر أيضاً: G. Pirou, 'Pantaleoni et la theorie economique,' Revue d'economie politique

(1889) كمَعْلَمٌ. إن هذا الكتاب هو عمل نمساوى أو نمساوى-فالراسى فى أساسياته، وهو يغتنى بجهاز مارشال حول التجارة الخارجية والمحلية (وفقاً لكراساته المنشورة بشكل خاص عام ١٨٧٩)، ويشكل مبادرة ذهبية بعيداً عن الأشياء القديمة وباتجاه أشياء جديدة. وفى هذا تكمن أهميته لأنه لا ينطوى على أى شىء أصيل قط، مع أنه كان مكتوباً بصورة باهرة - ولم يكن إديجورث على خطأ حينما أسماه 'جوهره' - وما يزال جديرًا بالقراءة. تنتشر الأفكار الأصلية بانتاليونى فى مقالاته وخطبه. وإذا اكتفينا بذكر أشياء قليلة، فهو أحد أوائل المنظرين ممن حاولوا الكتابة لأول مرة عن موضوع تحديد السعر (prezzi politic)؛ وساهم فى نظرية الاتحادات الصناعية (sindacati)؛ وكان يتسلى، ليس دون نجاح، بالمفهوم الخداع: الإشباع الجماعى الأقصى (collective maxima of satisfaction)؛ ويكتب بصورة موحية عن مشكلة تقييم الأصول فى ظل غياب الأسعار؛ وقبل كل شىء، وكما لاحظ مور فيما بعد، كان هو أول منظر يلمح إلى نظرية للتقلبات تقوم على عوامل داخلية (a theory of endogenous fluctuations). ولم يذهب بانتاليونى فى أى من هذه الأشياء بعيداً. ولكنه كان ينشر إحياءات حول الأشياء ويساعد على البدء بدرسها. كما أنه قام بتعريف باريتو بعمل فالراس.

ومرة أخرى، ثمة أسماء كثيرة ينبغى ذكرها هنا. ومع ذلك، سوف اقتصر على ثلاثة فقط. أولهم هو بارون^(٥٦) الذى بدأ بالنشر فى أوائل تسعينيات القرن التاسع عشر. وبارون كان هو من أوضح لفالراس كيف يستغنى عن المعاملات الثابتة للإنتاج؛ وصاغ حدود صحة التحليل الجزئى لدى مارشال (formulated limits of validity)، وذهب أبعد من مارشال فى بعض النقاط، وأبعد من إديجورث فى نقاط أخرى (فى نظرية المالية العامة)؛ ورسم النظرية لاقتصاد اشتراكى - على الأساس الذى قدمه باريتو دون شك - بطريقة لم يقود انكبابنا عليها فى الوقت الحاضر إلى إدخال تطوير جوهرى عليها. بيد إن ما نال الاعتراف الكافى هو عمله الأخير وكتابه المدرسى الممتاز فقط. ولكنه أبلى على نحو أفضل من الكاتب

(٥٦) كان انريكو بارون Enrico Barone (١٨٥٩-١٩٢٤) جندياً، وسياسياً، ومعلمًا يتمتع بتعليم رياضى جيد. ظهرت معظم منشوراته فى مجلة: Giornale degli Economisti. سنشير فيما بعد إلى بعض منها. ظهر عمله Principi di economia politica عام ١٩٠٨ لأول مرة. ولم أستطع قط أن أفهم لماذا لم يتم الاعتراف أكثر بخدمات هذا الاقتصادى اللامع فى بلده.

الآخر الذى أنا بصدد طرحه الآن: س. ب. انتونيلي^(٥٧). والاسم الثالث هو ماركو فانو^(٥٨) الذى يعود عمله المبكر إلى هذه الفترة.

(ج) باريتو بعد طول انتظار، تقترب من العلاء الذى هو باريتو. وإذا صدقنا حديث أنصاره عن 'عهد باريتو'، فينبغى علينا تأريخ هذا العهد من العام ١٩٠٠ تقريباً حينما شرع باريتو بتحديد موقف وتأسيس مدرسة تعودان إليه، كما لاحظنا آنفاً. ومثل كل المدارس الحقيقية، فقد كان لهذه المدرسة مركز، وحلفاء أو متعاطفين، ودائرة من التأثير الأجنبى. يندرج كثير من الكتاب تحت كل واحد من هذه الأوصاف. وحينما نأخذ، كعينة، الاقتصاديين الإيطاليين الذين حققوا الشهرة العالمية، حينذاك وفيما بعد، نجد إن الأتباع ذوى الالتزام الصارم - ممن يشكلون المركز - كانوا أقلية صغيرة. واعتقد إن أسماء الكتاب: أموروسو Amoroso، وبريشيانى - تورونى Bresciani-Turroni، وديل فكيو Del Vecchio، وآناودى Einaudi، وفانو Fanno، وغينى Gini، ودى بترى - تونيلي de Pietri-Tonelli، وريسى Ricci، سترد فى ذهن كل من يعرف الوضع العلمى فى الفترة ١٩١٠-١٩٤٠. ومن بين هؤلاء الكتاب، فإن أموروسو ودى بترى - تونيلي فقط يعودان إلى مركز مدرسة باريتو^(٥٩). ويقف آناودى وتلاميذه بعيداً جداً وعلى أرضية خاصة بهم. أما الآخرون، فكانوا 'حلفاء أو متعاطفين' بمعنى أنهم سلموا بعلاء باريتو وسمحوا له بالتأثير عليهم فى نقاط فردية، مع أنهم كانوا أساساً يسيرون فى طريق خاصة بهم - بحيث أنه قد يكون من المبالغة الشديدة استخدام كلمة 'حليف' لوصفهم. ولتقييم المجال العالمى لتأثير باريتو، يتعين على القارئ أن يميز بين أربعة أشياء. أولاً، حققت سوسيولوجيا باريتو نجاحاً على المستوى العالمى وخلقت، لوقت قصير خلال الثلاثينات، الانتشار المحدد لباريتو الذى سبق أن

(٥٧) (C. B. Antonelli, Sulla teoria matematica della economia politica 1886). ويبدو لى إن هذا البحث الصغير يستبق العمل اللاحق فى بعض النقاط المهمة.

(٥٨) انظر بشكل خاص عمل ماركو فانو Marco Fanno: Contributo alla teoria dell'offerta a costi congiunti فى ملحق مجلة: Giornale degli Economisti, October 1914.

(٥٩) ترد مساهمات لوغى أموروسو Luigi Amoroso، البروفيسور فى روما، فى عدد كبير من المقالات، ولكننا، الآن، نذكر فقط عمله: (Lezioni di economia matematica 1921). وبالمثل، فإن العمل الأصيل ل ألفونسو دى بترى - تونيلي Alfonso de Pietri-Tonelli، البروفيسور فى فينيسيا، ينبغى البحث عنه بين مقالاته. ومع ذلك، نشير إلى بحثه الذى تتوافر الطبعة الثالثة منه بالفرنسية: (Traite d'economie rationnelle 1927). لاحظ أن المصطلح الفرنسى: rationnelle يعنى نفس ما تعنيه كلمة: pure.

لاحظناه في الولايات المتحدة. ثانيًا، أثار قانون باريتو للتوزيع (الإحصائي) للدخول الكثير من الاهتمام والانتقاد في العالم كله، وكان معظمه معاديًا^(٦٠). ثالثًا، أصبح باريتو، كإقتصادي بحت، شخصية معروفة في إنجلترا والولايات المتحدة حينما طور آلان Allen وهيكس Hicks نظريته للقيمة (منهج منحنيات السواء، انظر ملحق الفصل السابع، أدناه) مع الثناء عليه كثيرًا. ومع ذلك، كان هذا في ثلاثينيات القرن العشرين فحسب. رابعًا، أما الباقي من علمه الاقتصادي، فقد بقي عمليًا غير معروف في الدول الجرمانية ما عدا بعض الانتقادات السلبية لنظريته حول الاحتكار، وبخاصة في ألمانيا. بيد إن وضع باريتو في فرنسا كان أفضل (ولكن ليس قبل عشرينيات القرن العشرين) حينما ساند بوسكو مذهبها وأشار إليها ديفيسيا وبيررو^(٦١).

المركزيز فلفيدو باريتو Vilfredo Pareto (١٨٤٨-١٩٢٣)، وهو ابن أب من جنوة وأم فرنسية، تلقى تعليمًا في الهندسة (ومارسها في شبابه). وهذا يعنى أكثر من أنه كان يمتلك أساسًا جيدًا في الرياضيات. إذ إن ذهنه القوي تجاوز حدود العلم التطبيقي إلى عالم المفاهيم البحتة ذات الطابع العام بصورة تامة: فلم يدرك قط بالعمق الذى أدرك به باريتو سوى قلة من الكتاب إن كل العلوم الدقيقة أو أجزاء العلوم هي شيء واحد أساسًا في نهاية المطاف. لقد انعكس اهتمامه المبكر

(٦٠) نشر باريتو قانونه الإحصائي لتوزيع الدخل وفقًا لحجمها في عمله: Cours (1896-7) وفي عمله: Recueil الذى نشرته كلية القانون في جامعة لوزان بمناسبة المعرض الوطني السويسرى عام ١٨٩٦ تحت عنوان: 'La courbe de la repartition de la richesse'. ويشهد شهادة قاطعة الأدب الواسع الذى أثاره هذا العمل (والذى ما يزال يتدفق) على أهميته وتأثيره المشجع. ولكن الاهتمامات السياسية لكل من نقاد باريتو وأنصاره معًا شوّهت تلك المناقشة مع الأسف. ولكن يمكن توصية القارئ باثنتين من المساهمات (كمدخل) من بين القائمة الطويلة من المساهمات الجدية والمقتدرة: D. H. Macgregor, 'Pareto's Law,' Economic Journal, March 1936, and C. Bresciani-Turroni, 'On Some Methods of Measuring the Inequality of Incomes,' in the Egyptian The :E. C. R hodes periodical Al Quanoun Wal Iqtisad, 1938. أما عمل ي. س. رودس E. C. R hodes 'Pareto Distribution of Incomes,' Economica, February 1944 فهو عمل ممتاز ولكنه يثير صعوبات بالنسبة لغير الرياضيين. إن مضامين القانون - سواء أكانت حقيقية أم متصورة - بالنسبة لمستقبل بنية الدخل في المجتمع الرأسمالي كانت قد توقفت في إنجلترا بصورة جدية من قبل البروفيسور بيجو في عمله (1912) Wealth and Welfare. إن مناقشة بيجو، رغم جديتها، تظهر أعراضًا من التحيز العاطفي.

(٦١) انظر بشكل خاص: G. H. Bousquet, Cours d'economie pure (1928) ; Essai sur l'évolution de la pensee economique (1927) and Institute de science economique Fransois Divisia, Economique rationelle (1928) ; G. Pirou, Les (1930-36). وكذلك: (theories de l'équilibre economique: L. Walas et V. Pareto (1934

بالنظرية الاقتصادية فى خطابه عام ١٨٧٧ إلى Reale Accademia dei Giorgofili^(٦٢) حول منطق 'المدارس الاقتصادية الجديدة'. كما أنه أبدى اهتماماً مبكراً أكثر وضوحاً بالسياسة الاقتصادية. وهذا يستدعى التعليق لأن نفور الكثير من قراء باريتو من علمه السياسى قلَّ من تأثيره المشروع. فقد بدا باريتو لهم (وفى جميع الأحوال قبل أن تظهر سوسيولوجيته العامة عام ١٩١٦: *Tratatto di sociologia gnerale*) كليبى إلى أعمى متطرف بالمعنى الذى يتطلبه مذهب عدم التدخل. ولكن لبراليته، الاقتصادية والسياسية، كانت من نوع خاص وتحد من جذر خاص. فقد كان باريتو رجلاً يمتلك حمية قوية، من النوع الذى يمنع المرء من النظر بقوة من أكثر من زاوية واحدة إلى قضية سياسية ما أو إلى حضارة ما، بقدر تعلق الأمر بهذا الموضوع. وقد عززَ هذا الميل، أكثر مما كان قد أضعفه، تعليم باريتو الكلاسيكى المتين الذى أتاح له أن يعرف العالم القديم مثلما كان يعرف إيطاليا وفرنسا- وقد بدا له باقى العالم هكذا بالضبط. وإذ راقبَ باريتو بغضب شديد أفعال رجال السياسة فى الديمقراطيات الليبرالية الإيطالية والفرنسية، فقد انقاد ساخطاً ويائساً إلى موقف معادى للاشتراكية الحكومية، وهو موقف لم يكن نابعاً من صلبه حقاً كما كشفت الأحداث. فإذا أضفت إلى هذا الأمر، فى الوقت نفسه، حقيقة أنه كان (مثل ماركس) نتاج حضارة كان يكرهها، مما جعله وضعياً *positivist* وعلمانياً *laicist* (شأن ماركس أيضاً)، فستفهم الوجه الليبرالى لكتاباتهِ الأُبكر.

كان باريتو يبلغ من العمر خمسة وأربعين عاماً حينما غادر إيطاليا ثم اتجه لممارسة الأعمال بعد أن قبل كرسى الاقتصاد فى لوزان الذى أصبح فارغاً حينما تقاعد فالراس. إن صحته غير الجيدة جداً وحصوله على موارد كافية عن طريق الإرث دفعناه هو ذاته إلى التقاعد فى سن مبكرة نسبياً والاستقرار فى سيلغنى على بحيرة جنيف. وهناك، وعلى مدى عشرين سنة من الفكر والكتابة المثابرة التى كان يتعين عليه إنجازها، تيسر له وقت الفراغ اللازم لتحقيق نبوغه وكذلك طموحاته الفكرية. وقد تحول باريتو هناك إلى 'مفكر سيلغنى المنعزل' الذى ينظر الناس إليه،

(٦٢) وإلى هذا الحد، ينبغي تعديل ما سبق قوله حول تأثير بونتاليونى. ويعود الفضل، فى هذه الإشارة، إلى خطاب البروفيسور دى بترى-تونيللى فى ذكرى باريتو أمام الجمعية الإيطالية لتقدم العلوم، المنشور، فى ثلاثة أجزاء: فى *Rivista di Political Economica*, 1934-5، الذى نوصى به القارئ.

بقدر من الخشية، كحكيم جليل نوعاً ما. إن الحقيقة التي تستحق الانتباه هي التأثير الكبير الذي كان يمكن أن يمارسه إنسان صمم على العيش في عزلة، ولو بصورة منفتحة، في بيت رديء تملأه القطط (ومن هنا جاءت تسمية البيت: فيلا-هرة أنقرة) لم تكن زيارته ملائمة حينذاك^(٦٣).

وإذا أهملنا الآن سوسيولوجيته وقانون باريتو، فمن العسير تحديد العظمة المؤكدة لعمله بقدر ما يسهل بيان جذوره. يمكن أن يكون فيراراً وآخرون، من بينهم كورنو، قد قدموا إichاءات له، ولكن عمل باريتو، كما تشكل في لوزان حيث كرس ذهنه كلياً للاقتصاد التحليلي للمرة الأولى، تعود جذوره إلى نظام فالراس إلى درجة كبيرة بحيث إن الإشارة إلى مؤثرات أخرى ليس من شأنها سوى أن تضللنا. وقد يبدو هذا الأمر لغير-المنظرين أقل وضوحاً مما ينبغي لأن نظرية باريتو تعوم في سوسيولوجيا وفلسفة ومنهجية ليس فقط تختلف عن تلك الخاصة بفالراس بل أنها تتعارض تماماً مع أفكار فالراس. ولكن كنظرية بحثية، فإن نظرية باريتو هي نظرية فالراسية- في أساسياتها ومعظم تفاصيلها معاً. ولن يعترض أحد طبعاً على هذا القول بالنسبة لعمل باريتو حتى العام ١٩٠٠ الذي يتركز في كتاب Cours d'economie politique (1896-7). فهذا العمل هو مجرد بحث فالراسي لامع. أما فيما بعد، فقد هجر باريتو نظرية فالراس للقيمة وأسس نظريته الخاصة به وفقاً لجهاز منحنيات-السواء التي ابتكرها إديجورث وأحكم فيشر صياغتها. كما أن باريتو تجاوز نظرية فالراس للإنتاج والرسملة وابتعد عن تعاليم هذا الأخير في قضية النقود وقضايا أخرى، مضيفاً تطورات مختلفة خاصة به. وقد قدم باريتو النظام الجديد في عمله (Manuale di economica politica 1906)، الذي تم تطوير ملحقه الرياضي إلى حد بعيد في الطبعة الفرنسية (Manuel, 1909)^(٦٤). ولكن حتى

(٦٣) ثمة صورة جذابة لهذا الرجل والمفكر رسمها البروفيسور غ. ه. بوسكو G. H. Bousquet في عمله: Vilfredo Pareto, sa vie et son oeuvre, (1928 ; English trans. same year). وانتبه هذه الفرصة للإشارة إلى عمل المؤلف نفسه: Introduction a l'etude du Marme de Vilfredo Pareto (١٩٢٧).

(٦٤) بعد أن ذكرنا عمل باريتو: (Trattato di sisiologia generale 1916)، فلا يلزمنا، لأغراض هذا الكتاب، سوى أن نضيف إلى عمله: Cours و Manuel، الأعمال التالية: Les Systemes 'Economie mathematique' and (1902-3) socialistes المنشورين في الطبعة الفرنسية من: Encyclopaedia of the French Mathematical Sciences, 1911 (علماً بأن المقالة المناظرة في الطبعة الألمانية الأبر غير مهمة). إن المقالات التي ظهرت في تسعينيات القرن التاسع عشر في مجلة: Giornale degli Economisti، مع أنها لا تخلو من الأهمية، بيد أنها، من وجهة-نظر

العمل Manuel ذاته- مهملين سوسيولوجية باريتو على الدوام- ليس سوى عمل فالراس بعد أن تم وضعه من جديد، وهذا أمر يمكن إثباته بطرح النموذجين الدقيقين لكلا المؤلفين. ومع ذلك، فقد جرى وضع هذا العمل من جديد بمزيد من القوة والألمعية بحيث إنه تطورَ إلى شيء يستحق أن يسمى إبداعاً جديداً، رغم أن استخلاص استنتاجات مختلفة من العمل هو أمر ممكن: فثمة نقاط مهمة ما يزال نظام فالراس متفوقاً فيها. ولكن الاعتراف بنوعية إبداع باريتو لا تبرر موقفه الأقل من كريم من تعاليم فالراس التي أبعدَ نفسه عنها بمسافة تزيد عما هو ضروري حقاً^(٦٥).

٦- هولندا والبلدان الاسكندنافية

ثمة واقعان يصفان الوضع العلمي في هولندا، الذى ساد فى بداية الفترة المدروسة: مستوى رفيع من الكفاءة والثقافة فى حقننا يقوم على تقليد قديم حافظَ عليه عن جدارة كتاب مثل ميس؛ وعدم وجود دافع محلى للثورة العلمية. فالاقتصاديون الهولنديون كانوا بعيدين تماماً عن أى 'معركة مناهج' ولكنهم كانوا يتأثرون أما بالمذهب التاريخي أو بأى من اتجاهات العصر الجديدة. فقد واصلوا المناقشات المعتادة حول الاشتراكية، السياسة الاجتماعية Socialpolitik، النقود، مذهب حرية التجارة، ولكنهم كانوا هادئين فى كل شيء. وهكذا كانوا قادرين وراغبين معاً بقبول 'النظريات الجديدة' - بنسختها النمساوية أكثر مما بالنسختين الفالراسية أو المارشالية وذلك لمجرد إن تعاليم منجر كانت متوافرة، فى شكل عملى، أمام الآخرين. فقد أدخل الاقتصادى الهولندى القيادى فى الفترة: بيرسون هذه التعاليم ضمن تعاليمه وأسس^(٦٦)، بمساعدة قادة مثل فيرجن ودى فريس،

باريتو، أصبحت مهجورة حوالى العام ١٩٠٠؛ ولا تشكل المقالات التى ظهرت فيما بعد فى حقل النظرية البحتة سوى مستلزمات من Manuel أو مقالة Encyclopaedia. (٦٥) ومن الناحية الشخصية، فإن باريتو الأرستقراطى وفالراس الراديكالى من الطبقة-الوسطى لم يحبا أحدهما الآخر.

(٦٦) كان نيكولاس جيرارد بيرسون Nicolas Gerard Pierson (١٨٣٩-١٩٠٩) موظفاً حكومياً أساساً- مديراً للمصرف المركزى الهولندى فى عهد ميكر؛ ثم رئيساً له فيما بعد، ووزيراً للمالية، ورئيساً للوزراء، وعضو برلمان إلى النهاية. بيد أن سيرة كهذه لم تمنع مفكر قوى مثله، مع طاقة هائلة على العمل، من تحقيق العلاء كاققتصادى علمى- وفى الواقع، كان بيرسون كاتباً غزير الإنتاج نشر حوالى مائة كتاب ومقالة - ولكنها سيرة من شأنها أن تستوعب كل مصادر الطاقة التى تخلق=

مدرسة استمرت حتى عشرينيات القرن العشرين حينما استوعبت الاتجاهات الجديدة دون أى تغيير حاد^(٦٧).

ويمكننا أن نكرر كل هذا، مع تغيير طفيف، بالنسبة للبلدان الاسكندنافية التى يمكن أن تؤخذ ككيان واحد من زاوية أغراضنا. وهكذا سوف أذكر فقط برك (كوبنهاغن) وديفيدسون (أوبسالا) وكاسل^(٦٨) (ستوكهولم)، ثم نمضى سريعاً إلى مارشال بلدان الشمال: فيكسل الذى يمثل عمله أحد أكثر العوامل أهمية فى نشوء علم الاقتصاد فى وقتنا الحاضر، وليس فقط فى السويد.

لم يشرف حقناً مفكر أطيب وشخصية أرفع من فيكسل قط. وحينما لا يبرز عمقه وأصالته بصورة أكثر وضوحاً مما يحدث بالفعل، فهذا لا يعود إلا إلى

=إبداعات أصيلة. ويتوافر كتابه الرئيسى: (Leerboek der Staatshuishoudkunde (1884-90) باللغة الإنجليزية (Principles of Economics, 1902-12, from the 2nd ed., of the original) - وهو عمل أدنى، ضمن تطور المذاهب خلال الفترة محل الدرس، وظيفته تشبه تلك التى أداها عمل بانثاليونى.

(٦٧) انظر، مثلاً، C. A. Virrijin, Stuart's Grondslagen..[Fundaments..], 1920
(٦٨) يمكن مقارنة وضع البروفيسور ل. ف. برك L. V. Birck (١٨٧١-١٩٣٣) بوضع بيرسون، بقدر تعلق الأمر بالنظرية الاقتصادية. انظر عمله (Theory of Marginal Value (1922). أما البروفيسور ديفيد ديفيدسون David Davidson، فمعروف أساساً كمؤلف لتاريخ المصرف المركزى فى السويد، ولمساهماته فى نظرية النقود، وكناقد معتدل لفيكسل. ولكنه كان أيضاً منظرًا مشهورًا - وهذا ما استنتجته أنا من عمله حول تكوين رأس المال (ومع ذلك، وبسبب قراءتى الهزيلة باللغة السويدية، فلا يسعنى أن أقول أننى أعرفه). انظر العمل الممتاز للسيد برنلى ثوماس Brinley Thomas الذى يترجم المذهب السويدى لجمهور القراء الإنجليز (Monetary Policy and Crises: A. Study of Swedish Experience, 1936). تقوم الشهرة العالمية للبروفيسور غوستاف كاسل Gustav Cassel (١٨٦٦-١٨٤٥) على مساهماته، ودوره، فى المناقشة حول السياسة النقدية أثناء الحرب العالمية الأولى وبعدها (انظر الفصل الثامن، أدناه)، وعلى كتابه المدرسى: Theoretische Sozialökonomie (1st ed. 1918 ; English trans. The Theory of Social Economy, 1923). ولكن كاسل ابتدأ كمنظر بمقالته: Grundriss einer elementaren Preislehre, (Zeitschrift für die gesamte Staatswissenschaft, 1899)، التى جعلت المحاولة، المهمة بحكم تاريخها، تعيد صياغة معادلات فالراس دون استعمال مفاهيم المنفعة. إن كتابه الطازج - الطازج بأكثر من معنى واحد - حول (The Nature and Necessity of Interest (1903)، رغم انتقاداته الخالية من أى أساس وادعاءاته بالأصالة الأكثر خلواً من أى أساس، هو عمل قيم يستحق القراءة كترىاق لنظريات الفائدة التى انتشرت فى ثلاثينيات القرن العشرين. إن كاسل كمنظر يعود إلى هذا السياق لأنه هو أيضاً كان أحد الكتاب الذى كانوا يدورون فى فلك بنية جيفونس-منجر-فالراس. إلا أنه تبع فالراس أكثر مما تبع منجر. ويشكل كتابه المدرسى بشكل رئيسى رؤيا - أو تبسيطاً popularization - لمذهب فالراس (ناقصاً المنفعة)، رغم حقيقة أن اسم فالراس لا يرد فيه. كان كاسل محاضراً فعالاً ومؤثراً وأن بعض الآراء، فى قضايا النظرية البحتة التى تعود إلى أنصار فيكسل المحدثين، يمكن إرجاعها إلى تعاليمه.

تواضعه الجرم، الذى قاده إلى طرح الشئ الجديد- بشكل شبه متردد- كمقترحات صغيرة لتطوير قطع الجهاز القائم، وإلى كرمه الجميل الذى جعله يشير بصورة متواصلة إلى سابقه: فالراس ومنجر وبوهم باورك، رغم أنه كان يستطيع- مع مبررات أكثر بكثير مما هو الحال مع الآخرين - تقديم نظامه التحليلي كشئ من إبداعه هو أساساً.

تلقى كنوت فيكسل Knut Wicksell (١٨٥١-١٩٢٦) تعليمًا رياضيًا، شأنه شأن مارشال. كما كان أيضًا، بالنسبة لوقته، راديكاليًا عَرَفَ كيف يضع نفسه فى مشاكل، بل أنه لم يتعلم قط كيف يحبس عواطفه عما آمن به كحقيقة علمية. وفى هذا الأمر، لم يبتعد فيكسل عن ج. س. ميل الذى ينبغي تصنيفه ضمن العوامل التى أثرت فى تكوين عمل فيكسل والذى شاركه فيكسل الإيمان بمذهب عاطفى من المalthusية-الجديدة^(٦٩). وعند استثناء هذا التحفظ، فإن حياة فيكسل يمكن وصفها بأنها حياة عالم هادئ ومنعزل. وقد حصل على كرسى الأستاذية (فى لوند) فى وقت متأخر فقط من حياته وشغله لسنوات قصيرة نسبيًا. ومع ذلك، فقد انتشر تأثيره- وفقًا للزخم الخاص به- وبخاصة بعد تقاعده حينما كان يشارك فى المناقشات الجارية بشكل فعال أكثر من السابق. كان لدى فيكسل تلاميذ أكثر من نوعية رفيعة. ومن الناحية العملية، فإن كل الاقتصاديين السويديين والنرويجيين المعروفين فى الوقت الحاضر كانوا تلاميذه إلى هذا الحد أو ذاك. ومع ذلك، فإن شهرته العالمية لم تتناسب مع عمله إلى إن أخذ هذا العمل، فى أواخر عشرينيات وبداية ثلاثينيات القرن العشرين، يسطع على العالم المهني بحيث إن ما تنبأ به يمثل، إلى حد بعيد، كل ما هو أكثر أهمية فى العمل الحديث حول النقود والفائدة. سنتناول فيما بعد هذا الجزء من عمله وكذلك عمله بشأن فرض الضرائب. أما فى هذا الفصل والفصلين القادمين، فنهتم بعمله عن 'النظرية العامة' أساساً. ونلفت النظر إلى الفهرست الأساسى، الذى يحلل عمل فيكسل بعناية، الذى وضعه البروفيسور إميل سومارن Emil Sommarin، والذى لا يتوافر بالإنجليزية لسوء

(٦٩) كان بوسع فيكسل أن يمنح وزنًا أكبر لعمله حول مشاكل السكان، ولكننا فى هذا الجزء من هذا الكتاب، لا نهتم إلا عن بعد بهذه المشاكل وبالتالي لا نستطيع إنصاف هذا العمل. يكفي أن نقول إن فيكسل كان ينظر دائماً إلى محدودية معدل الولادة كعامل جوهري بالنسبة لمستقبل الطبقة العاملة، ويرحب بصورة مطلقة بميل معدل الولادة للانخفاض، الذى بدأ يفرض نفسه فى وقته، مثلما كان سيكون عليه موقف ميل.

الحظ ، 'Das Lebenswerk von Knut Wickel,' Zeitschrift fur Nationalökonomie, October 1930.

إن العمل الأول لفيكسل حول النظرية الاقتصادية: *Über wert, Kapital* (und Rente (1893, London School Reprint, 1923) هو عمل كاتب ناضج له من العمر اثنتان وأربعون عام ويتضمن الهيكل العظمى للمجلد الأول من عمله *Lectures* (١٩٠١؛ الطبعة الألمانية ١٩١٣؛ الطبعة الإنجليزية، مع مقدمة ممتازة للبروفيسور روبنز وملحقين مهمين، ١٩٣٤). يتضمن المجلد الأول من *Lectures* معظم مساهمات فيكسل في ذلك الحقل، رغم ضرورة إضافة عدة مقالات أخرى ((مثل الجزء الأخير من عمله، مقالته حول نظرية الفائدة 'Zur Zinstheorie' المنشورة في: *Die Wirtschaftstheorie der Gegenwart*, ed. by H. Mayer, 111, 1928)). لن نقدم أى دليل للقارئ: فليس ثمة باحث في علم الاقتصاد أكمل تعليمه دون أن يقرأ كل هذا المجلد، رغم أن الجزء الأول منه أساسى وقيم جدا بالنسبة لنا وذلك أساسا لغرض تبديد الأفكار الخاطئة، القديمة والجديدة، حول نظرية المنفعة و'المبدأ الحدى' *marginalism* بصورة عامة. كما أن مساهماته الأصلية الرئيسية ترد في مقدمة البروفيسور روبنز.

٧. الولايات المتحدة

إن الوقائع المألوفة التالية تصف بصورة كافية خلفية العمل الفردي فى الولايات المتحدة من عام ١٨٧٠ إلى عام ١٩١٤. لقد أثبتت المهنة الاقتصادية نفسها خلال تلك الفترة محليا ودوليا. واكتسبت هذه المهنة منزلة محددة فى الجامعات والبلاد وصارت لها منظمة معينة تمتلك كل ما يلزم لقسم راسخ من المعرفة العلمية؛ كما أنها أخذت تنال الاعتراف المتزايد من جانب المهن الوطنية الأخرى. واكتسب علم الاقتصاد الأمريكى طابعا أكاديميا متزايدا. ولكن هذه التطورات تواصلت، بدءا من الصفر تقريبا عام ١٨٧٠، بمعدل سريع بحيث إن تطوير ملاك مقتدر بصورة كاملة قد تخلف بصورة كاملة وراء الفرص التى تهيأت. إن كثيرا ممن دخلوا المهنة الجديدة لم يكونوا متعلمين عمليا؛ وقد مارسوا

أنشطتهم المهنية بأذهان تزخر بأفكار مسبقة لا تتم عن استعدادهم لاجتياز اختبار تحليلي- بل إن روح حركة العلم الاجتماعي القديمة قد واصلت تأكيد نفسها وفعلت الكثير لنجاح المذهب المؤسسي. كما كان هناك الكثير من التعاطف مع مبادئ حزب الشعب الأمريكي Populism التي كان كثير من الاقتصاديين يفكرون بها. ودأب آخرون، ممن لم يجدوا في البلاد ما يريدون، على الاعتماد على الأفكار والطرق الأوروبية، مع أنها لم تعد تقتصر على الأفكار الإنجليزية حصراً- بحيث أصبح الحجج إلى ألمانيا بشكل خاص، للقادرين عليه، فقرة ثابتة تقريباً في مسيرتهم، أصبح شيئاً يشبه رحلة الفرسان في العصور الماضية. وحينما تقابل هؤلاء الاقتصاديون، بعد أن عثروا على ضالتهم، كان من الصعب أن يفهموا بعضهم بعضاً وأن يحددوا وجهات-نظر بعضهم بعضاً، ناهيك عن تقديرها. وهكذا فالاختلاف كان يعود إلى سوء الفهم أساساً. فقد أصطفت مستويات فكرية مختلفة بصورة تثير الاستغراب بجانب بعضها بعضاً- ليس فقط بشأن الجهاز العلمي- ذلك لأن لم يكن هناك تشابه سواء في التعليم المهني أو في التعليم العام. فلم تتوافر معايير مهنية معترف بها لفترة طويلة مهمة من الزمن، وإن التعليم الكفاء لم يكن مضموناً دائماً. وكان معظمهم في أحسن أحواله حينما ينكب على درس مشكلة وقائية ذات أهمية بالنسبة للبلاد، وهو المجال الذي برعوا فيه على أحسن وجه وشهد النجاحات الأولى من المحاولة العلمية. ولكن 'النظرية' كانت غير مألوفاً unpopular لدى الغالبية منذ البداية وعرضة لأن تثير المعارضة، وذلك بمعزل تماماً عن التأثير الألماني الذي يشجع على هذا وقبل فترة طويلة من عقلنة هذه المعارضة والإحساس بها. وكان لكل هذا مزاياه وعيوبه الواضحة. وعلاوة على ذلك، فإنه قد عدل نفسه مع الزمن- عبر صراع طويل وشاق ومبدد للطاقات، ولكنه صراع لا يخلو من الروعة.

تتمثل الطريقة الفضلى لتذكير القارئ بعدد من الكتاب، ممن ينبغي أن يكونوا معروفين لديه باستثناء واحد أو اثنين منهم، بوضع مخطط يشبه المخطط الذي خدمنا من قبل. (أ) سنلقى نظرة سريعة على بعض الكتاب ممن ساعدوا على تهيئة الأرض للتطورات التي ابتدأت في تسعينيات القرن التاسع عشر. إن هؤلاء الكتاب لا يناظرون بالضبط من أسميناهم سابقاً: الزعماء القدامى'. فهم مجرد اقتصاديين جيدين ومعلمين جيدين كانوا، قبل أن تبدأ تلك التطورات وبعدها على

حد سواء، يؤيدون التفكير الدقيق وساعدوا على وضع معايير عامة. (ب) ثم نشكل مجموعة تضم كلارك وفيشر وتاوسك. (ج) وعندئذ نشكل مجموعة نهائية من بعض الكتاب الممثلين ممن نحتاجهم، بطريقة أو بأخرى، لغرض الاسترشاد العام.

ولكن يتعذر علينا أن نهمل الاقتصادى الذى كان نجاحه أكبر من نجاح كل الكتاب الآخرين الذين يدخلون فى قائمتنا: هنرى جورج^(٧٠). إن أفكاره التالية هى تلك ذات الصلة بتاريخ التحليل. كان هنرى جورج اقتصادياً قد علّم نفسه بنفسه، ولكنه كان اقتصادياً. فقد اكتسب فى مجرى حياته معظم المعرفة والقدرة على معالجة حجة اقتصادية معينة مما كان بوسعه اكتسابها من خلال التعليم الأكاديمي، كما كان قائماً حينذاك. وقد تميز هنرى جورج فى هذا تميزاً كان فى مصلحته عن معظم الكتاب ممن قدموا وصفات عامة. وفيما عدا وصفته العامة (الضريبة الوحيدة) والصياغة المرتبطة بها، كان هنرى جورج اقتصادياً أصولياً جداً ومحافظاً إلى أقصى حد بالنسبة للمناهج. وهذه المناهج هى مناهج 'الكلاسيك' الإنجليز حيث كان سمث بصورة خاصة هو المفضل لديه. وعجز هنرى جورج عن فهم مارشال وبوهم-باورك. ولكنه كان مطلعاً أتم إطلاع على الاقتصاد العلمى بما فى ذلك عمل ميل؛ ولم يشارك بالأشكال السائدة من سوء الفهم أو الأحكام المسبقة بشأن هذا الاقتصاد. وقد استفادت حتى وصفته العامة- تأميم ليس الأرض بل ريع الأرض بواسطة ضريبة تصادر هذا الأخير- من كفاءته كإقتصادى ذلك لأنه صاغ هذا 'الحل' بطريقة تسبب أقل ما يمكن من الضرر بالنسبة لفعالية اقتصاد المشروع الخاص. ويندر أن أنصفه الاقتصاديون المهنيون الذين ركزوا انتباههم على مقترح الضريبة الوحيدة وشجبوا تعاليمه أصلاً وفرعاً. فالمقترح نفسه، الذى هو من سلالة impot unique {الضريبة-الوحيدة} لدى كينييه، رغم

(٧٠) هنرى جورج Henry George (١٨٣٩-١٨٩٧) كاتب مشهور جداً إلى حد أنه لا يحتاج إلى أى تقديم. وإضافة إلى عمله: (Progress and Poverty) (١٨٧٩)، فلا يلزمنا أن نذكر هنا سوى عمله الذى صدر بعد وفاته (Science of Political Economy) (١٨٩٧) وقد نشر ابنه أعماله الكاملة: Complete Works مع سيرته: Life خلال الفترة ١٩٠٦-١٩١١. ومن الممكن العثور على تقييم علمى لكل خلفيات وصلات مذهب هنرى جورج فى: E. Teilhac, Pioneers of American (Economic Thought) (١٩٣٦).

إفساده من خلال الارتباط بالنظرية التي يتعذر الدفاع عنها والقاتلة إن ظاهرة الفقر تعود كلياً إلى إن ريع الأرض الذى يمتص كل الفوائض الأخرى^(٧١)، بيد أنه مقترح ليس غير سليم اقتصادياً باستثناء أنه ينطوى على تفاؤل غير مبرر بمردود ضريبة كهذه. وفى جميع الأحوال، ينبغي عدم تصنيف هذا المقترح كهراء. ولو صحت رؤية ريكاردو للتطور الاقتصادى، فقد كان من شأن المقترح أن يشكل حكمة واضحة. بل إن الحكمة الواضحة تكمن حقاً فيما قاله هنرى جورج فى عمله إزالة الأعباء المالية- لو أمكن تحقيق هذه الإزالة. (Progress and Poverty (ch. 1, Book 1x) حول الآثار الاقتصادية التى تنتجها

(أ) الاقتصاديون الذين هبوا الأرضية سوف نوضح عمل وخدمات الرجال فى أولى مجموعتنا من خلال الكتاب دونبار، وهادلى، ونيوكمب، وسامنر، ووكر، وويلز.

لم يكن جارلس ف. دونبار Charles F. Dunbar (١٨٣٠-١٩٠٠) نتاجاً للتعليم الأكاديمى. فقد تجلت سيرته الأمريكية ذاتها- أمريكية بمعنى لم يعد قائماً الآن سوى كذكرى- فى نشاطه فى حقل الأعمال business، والزراعة، والقانون، والصحافة، وإدارة الصحف إلى أن نال الأستاذية الأولى (المنظمة) فى الاقتصاد فى جامعة هارفارد إضافة إلى المشاركة الواسعة فى إدارة الجامعة والنشاط الواسع جدا فى تحرير مجلة: Quarterly Journal of Economics التى أسسها عام ١٨٨٦. لا نتوقع أن يكون دونبار قد قام حقاً ببحث خلاق. ولكن كيف حدث، إذن، إن كل تاريخ لعلم الاقتصاد الأمريكى لم يكن بوسعه أن يكتمل دون الإشارة إليه، وماذا كان بوسع الطلبة أن يتلقوا منه؟ يمكن الإجابة على كلا السؤالين فى وقت واحد: إن دونبار كان قد عرف موضوع علم الاقتصاد من تجربته الممتازة؛ وكان ذهنه صافياً وثاقباً؛ وربما لم تكن كتاباته 'علمية' scholarly بالمعنى المحدد ولكن كان (وما يزال) بوسع كل عالم أن يتعلم منها^(٧٢) وقد أتاحت له قدرته الإدارية أن ينظم

(٧١) فقد حُلَّ أرباح الأعمال business profits وحولها إلى علاوة مقابل المخاطرة، وأجور وفائدة، بالضبط كما فعل ميل؛ ولذلك فلم يعتبر أنها فوائض يمكن التصرف بها.

(٧٢) تم تجميع أفضل كتاباته فى عمله: Economic Essays (الذى نشره و. م. دبليو. سيراغ O. M. W. Sprague، مع مقدمة كتبها ف. دبليو. تاوسيك F. W. Taussig، عام ١٩٠٤). ولكن عمله Chapters on Banking (الذى تم نشره بصورة شخصية عام ١٨٨٥؛ الطبعة الأولى ١٨٩١=

الدراسات فى حقلنا بطريقة انتزعت أعظم فائدة من الفرص التى كانت متوافرة حينذاك؛ ولا ينبغي أن ننسى أن أساسيات الجهاز العلمى فى ذلك الوقت لم تكن معقدة إلى حد يتعذر على رجل مقتدر - وذهن يعرف غريزياً ماهية هذه الأساسيات - إتقانها فى فترة قصيرة جداً. وهكذا، فمع أن دونبار لم يكن اقتصادياً عظيماً بالمعنى المناسب لهذا الكتاب، بيد إنه كان اقتصادياً عظيماً فى نظر الرب.

كان آرثر ت. هادلى Arthur T. Hadley (١٨٥٦-١٩٣٠) أكثر من رجل أكاديمى بحث، مع أنه أيضاً كان مديراً أكثر مما هو أو معلم أو عالم. والعمل، الذى نشير إلى هادلى بسببه، هو (Economics ... 1896) الذى ينبغي على القارئ أن يعود إليه حقاً. وعندئذ سيجد القارئ لب نظرية غير منقاة جداً، ولكنها متينة وواقعية بشكل ملحوظ، ترد ضمن عرض قوى للإطار المؤسسى (حيث تكثُر السياسات policies والتفضيلات السياسية politics) - وهو الشئ المثالى لمقدمة شاملة وضعت وفقاً لمستوى محترم تزيته موهبة الصياغة الساحرة، كما هو شأن تعاليمه بشكل عام كما يبدو. فمن يستطيع أن ينال - عند ذلك المستوى - من تعريفه للتكلفة المتزايدة والمتناقصة؟ فالتكلفة تتزايد حينما يضع منتج معين سعراً يكون عنده هذا المنتج مستعداً لبيع كمية معينة أو أقل، وتتناقص التكلفة حينما يرغب المنتج، عند ذلك السعر، ببيع كمية معينة أو أكثر.

كان سيمون نيوكم Simon Newcomb (١٨٣٥-١٩٠٩) عالماً فلكياً بارزاً، يدرس ويكتب حول الاقتصاد ولكن ليس إلى حد كاف لاكتساب التأثير الذى يستحقه. ونشير هنا إلى نيوكم كنصير لفكرة النقود القوية sound-money ونصير مغالٍ لسياسة عدم التدخل بشكل رئيسى؛ بيد أن اسمه يورد هنا بسبب عمله (Principles of Political Economy 1885) - وهو العمل البارز فى الاقتصاد العام الأمريكى فى حقبة ما قبل كلارك-فيشر-تاوسك. صحيح أن نيوكم لم 'يعتل' مستوى جيفونس-منجر - فالراس وكان تحليله 'كلاسيكياً' أساساً. بيد إن عرضه كان عرضاً موحياً بصورة بارعة وراقية، وأصيلاً فى نقاط عدة. ولكن معادلة المبادلة Equation of Exchange، التى أرجعها فيشر إليه، لم تكن من بين هذه النقاط؛ فهذه لم تكن سوى صياغة لما كان قصة قديمة حينذاك.

=الطبعة الخامسة أصدرها سبراغ تحت عنوان: (Theory and History of Banking, 1929) ما يزال جديراً بالقراءة.

كان وليام غ. سامنر William G. Sumner (١٨٤٠-١٩١٠)، وهو رجل أكاديمي كلياً ونصير أيضاً لفكرة النقود-القوية ونصير مغال لسياسة عدم التدخل^(٧٣)، رجلاً مختلفاً في الأشياء الأخرى. فقد كان سوسيولوجياً بارزاً (حيث شكّل تحليله 'طرق تفكير' الناس folkways مساهمة مثمرة إلى أقصى حد) ويضاهي عمله التاريخي حول النقود والمالية أفضل أعمال الاقتصاد الأمريكي^(٧٤). ولكننا نذكره هنا ليس لهذا السبب فقط. فإضافة إلى كل ذلك، كان سامنر معلماً قوياً ومشجعاً يتمتع بأفاق واسعة- فقد لفت، وهو المؤرخ والسوسيولوجي، أنظار أرفنج فيشر إلى الإمكانيات التي تتيحها النظرية الرياضية!- والذي، من كرسية في جامعة يال، ساعد على انتشار رسالة المعايير العلمية العليا scholarship.

كان فرانسيس أماسا ووكر Francis Amasa Walker (١٨٤٠-١٨٩٧)، وهو ابن أماسا، مديراً أساساً (لمعهد ماساشوسيتس للتكنولوجيا) شأنه في ذلك شأن دونبار وهادلي. كما كان أيضاً، لفترة من الزمن، جندياً حقيقياً وموظفاً مدنياً متميزاً (في شئون الإيراد والتعداد). ولكن جهده الذي لا يكل ولا يمل مكّنه من تحقيق شعبية واسعة كعالم. وتقوم هذه الشهرة أساساً على عمله في النقود وسياسة العملة (انظر الفصل الثامن، أدناه). ولكنه قدّم أيضاً عملاً يستحق التقدير في حقل الاقتصاد العام^(٧٥). كان ووكر من النوع الذي لا يمسس شيئاً دون أن يحسّنه، وأن نشاطاته الكثيرة وضعته في الصدارة- فمن بين أمور أخرى، كان ووكر رئيساً للجمعية الاقتصادية الأمريكية، رئيساً للجمعية الإحصائية الأمريكية، رئيساً مشاركاً (أو رئيساً 'مساعداً') للمعهد الدولي للإحصاء. ولذلك، فإن ووكر، كاققتصادي علمي، قد حصل حتى على أكثر من استحقاقه في أيامه وفي السجل التاريخي معاً.

(٧٣) رغم عدم اهتمامنا بالتفضيلات السياسية politics لدى كتابنا هؤلاء، بيد أنه يمكن القول إن غلو الليبرالية نيوكم وسامنر ذهب بعيداً إلى حد افتراض حجج تؤثر سلبيًا، نظريًا وواقعيًا، على حكمهما كاقصاديين علميين. ويمكن أن يصح هذا على أي كاتب أوروبي معاصر. ولكن لا ينبغي أن ننسى إن موقف نيوكم وسامنر، في أجواء الولايات المتحدة في ذلك الوقت، كان يمكن أن تدعّمه وقائع كان من شأنها أن تؤثر في ماركس نفسه، بمزاجه التاريخي، ولكنها لا تقدم أي دعم إلى الليبرالية الاقتصادية لدى م. دي موليناري M. de Molinari، مثلاً.

(٧٤) يمثّل: (History of American Currency 1874) عمله الرئيسي الذي تبعه عمله: History of Banking in the United States (1896).

(٧٥) انظر بشكل خاص عمله The Wages Question (1876) وكذلك كتابه المدرسي Political Economy (1883). ويرد الفهرست الذي يعطى فكرة عن حجم نشاطاته في العمل Publications of the American Statistical Association June 1897.

وبشكل خاص، فقد نالت مساهماته فى النظرية الاقتصادية (نظرية الأجور القائمة على المدعى الأخير residual-claimant theory of Wages؛ التشديد على دور المنظم؛ نقد نظرية مخصص الأجور) ربما أكثر مما كانت ستنااله لو كان قد قدمها كاتب آخر أقل بروزاً. ولكننى أقول هذا للدفاع عن ذكرى الآخرين - والمنزلة التاريخية للاقتصاد الأمريكى حينذاك - وليس للنيل من خدمات رجل يستحق بالتأكيد أن يخلد اسمه إلى الأبد فى تاريخ موضوعنا.

أما ديفيد أ. ويلز David A. Wells، فقد التقينا به من قبل. وهو يورد هنا ثانيةً لتذكير القارئ بأهمية العنصر الوقائعى فى مجموع البحوث الأمريكية - وكذلك فى أعمال علم الاقتصاد العام الأمريكى. إن عمله Recent Economic Changes (1889)، الذى يتعين على كل دارس حديث لعلم الاقتصاد أن يدرسه، يوضح ما أعنيه بشكل باهر. ويرد ويلز هنا كممثل لفئة واسعة. ومن شأن كارول د. رايت Carroll D. Wright (١٨٤٠-١٩٠٩) أن يكون ممثلاً آخر بنفس الجودة تقريباً. ولكن ينبغى أن نكف لكى لا تتحول هذه الخلاصة إلى مجرد فهرست.

[ب) كلارك، فيشر، تاوسك] من المتعذر أن يبرز اختلاف كبير فى الرأى بين الأنصار أو الخصوم حول المكانة الفعلية التى شغلها كلارك وتاوسك فى علم الاقتصاد الأمريكى فى العقد الأول من العقد العشرين، مع إن مثل هذا الاختلاف يمكن أن يبرز بالنسبة لفischer. وتكمن الصعوبة فى تقييم مكانتهم فى تاريخ ذلك العلم الاقتصادى. فقد انصهر الثلاثة بقوالب مختلفة جداً. فكل ما هو مشترك فى ما بينهم هو شهرتهم وحقيقة أن ثلاثتهم كانوا اقتصاديين أكاديميين بشكل بحت. ومع ذلك، قد يكون هناك شىء آخر. إذ برزوا كلهم كإقتصاديين بالمعنى التكنيكي؛ وفيما عدا ذلك، فأنهم سلموا بالأشياء الأساسية فى زمانهم وبلدهم بشكل كامل: فالثلاثة كانوا كلهم animae candidae Americanae {أمريكيين متوهجين حيويين} بصورة نمطية. ومع ذلك، فلن ينكر حتى منتقسيهم إنهم كانوا، بالنسبة للعالم، 'ال' اقتصاديين الأمريكيين الكبار فى تلك الفترة وذلك مهما كان زمانهم قد ساعدهم.

جون باتس كلارك John Bates Clark (١٨٤٧-١٩٣٨)، وهو آخر مَنْ ادعى اكتشاف مبدأ التحليل الحدى بصورة مستقلة ومهندس إحدى أهم بُنَاه النظرية، لم يصل إلى منصب واعظ كنسى حتى العام ١٨٩٥ حينما تم استدعاؤه إلى كولومبيا. وقد ظلَّ هناك لحين تقاعده (١٩٢٣) حيث شهد انتشار تعاليمه التى يمكن

القول أنها استمرت من عام ١٨٩٥ إلى عام ١٩١٠. ولكن العناصر الأساسية فى نظامه النظرى كانت قد تطورت قبل ذلك، وبشكل رئيسى أثناء ثمانينيات القرن التاسع عشر فى نظرى، رغم أن قسمًا منها برز فى ذهنه كما يبدو فى السبعينيات قبل أن يزور أوروبا. وهذا يتجلى جزئيًا فى المقالات التى نشرها فى الثمانينات التى كان يمكن أن تظهر، لو سمح المجال لنا، مراحل تطور فكره بصورة ممتعة جدًا. كما إنها تؤيد الادعاء الذى أشرنا إليه لأنها تكشف طريقته الفردية الخاصة به لتوزيع الإنتاجية الحدية: فما فعله كلارك هو تحويل نظرية الربيع 'الريكاردية'، التى ليس لها من وظيفة لدى ريكاردو غير إزالة الربيع من مشكلة السعر بجعل هذا الربيع فائضًا ما قبل حدى *intramarginal surplus*، إلى مبدأ عام يمكن تطبيقه على كل أنواع العوائد المتنافسة ('قانون الربيع الثلاثة') دون أن يصبح هذا المبدأ تكرارًا زائدًا *tautological* أثناء هذه العملية - حيث ترد المنفعة الحدية (أو الضرر الحدى) بصورة طبيعية تمامًا وفقًا لهذه الطريقة. ورغم أسبقية تونن من ناحية، وجيفونس ومنجر وفالراس من ناحية أخرى، فهذا إنجاز مهم من الدرجة الأولى، ويتمتع بالأصالة الذاتية الأمر الذى ينبغى أن نضيفه الآن. كما إنه ليس بالإنجاز الوحيد لدى كلارك. فبمعزل عن نظريته لرأس المال (انظر الفصل السادس، القسم ٢ ج، أدناه)، فقد خطا كلارك خطوة كبيرة نحو تقديم نظرية مرضية لوظيفة المنظم ومكسب المنظم، وحقق خطوة كبيرة أخرى، بالارتباط بهذه النظرية، نحو توضيح كل المشاكل الاقتصادية التى لابد من أن تترتب على التمييز الواضح بين الحالة الراكدة والحالة التطورية *stationary and evolutionary states*. صحيح أن كلارك طابق هذا الأمر بالتمييز بين الستاتيكا والديناميكا. ولكن هذا لا يهم كثيرًا. ذلك لأنه أبصر النقاط الجوهرية ذات الصلة ببناء نموذج لحالة راکدة وخلق، لغرض وصف خصائص هذا النموذج، مفهوم الحدوث المتزامن *Synchronization*. وهكذا فحينما نسمى كلارك مجرد أستاذ بارع *master* فى المبدأ الحدى الأمريكى، فهذا يعنى أننا عاجزون عن إدراك كل رسالته التحليلية. وأنه إذا كان قد تخلف عن بوهم-باورك ومارشال وفالراس فى نواحي معينة، فقد تجاوزهم فى نواحي أخرى^(٧٦).

(٧٦) إن الكتاب الأول لكلارك (The Philosophy Of Wealth (1885)، وهو كتاب مميز لهذا الرجل ونظراته للعالم - وربما لروح بيئة معينة أيضًا - لا يتصل بأغراض هذا الكتاب إلا من ناحية معينة أوشك أن أتعرض لها فى المتن. ومع ذلك، فقد ساهم هذا العمل فى ترسيخ شهرة كلارك إلى حد=

كان كلارك وما يزال معروفاً لدى المهنة في أمريكا وفي العالم كأستاذ للمبدأ الحدى الأمريكى بشكل رئيسي^(٧٧). ربما كان القارئ قد سمع كثيراً بمدرسة كلارك أو المدرسة الحدية بحيث أنه قد يستغرب من الصعوبة التى واجهت فى تبنى هذه العبارة. إن كل الاقتصاديين الأمريكان وكثير من الاقتصاديين الأجانب المهتمين بالنظرية الاقتصادية أصلاً قد تأثروا كثيراً بكلارك طبعاً وتعلموا منه. ليس ثمة شك فى هذا. فحلقة 'الحلفاء والمتعاطفين' كانت واسعة جداً. كما كانت هناك 'دائرة للمعجبين الأجانب' بالتأكيد. ولكن من العسير جداً تحديد المدى الدقيق لتأثير كلارك لأن هذا التأثير - إلى الحد الذى وصلته نظريته للتوزيع - يختلط بصورة لا فكاك منها بتأثيرات المؤلفين الآخرين لأنظمة متشابهة. إذ يتعين على المرء، حتى فى الولايات المتحدة، أن ينظر بشكل دقيق إلى مؤلف معين - إلى عاداته النظرية mannerisms، مثلاً - لى يتأكد من إن نظريته للإنتاجية الحدية كان قد أخذها من كلارك أم من مارشال أم من النمساويين. والأكثر أهمية هو عدم وجود 'مركز' يمكن الإحساس به بصورة واضحة، بمعنى وجود نواة من الأنصار المخلصين، كما كان عليه الحال مع ريكاردو أو مارشال. فالبحوث الكلاكية (نسبة إلى كلارك) على وجه التحديد نادرة بقدر كثرة البحوث التى تبدو تأثرها به. ومن بين الكتابات المهمة الكثيرة، فإن البحث الأقرب إلى تطوير مذهب كلاركى هو بحث كارفر^(٧٨)،

= بعيد. أما عمله المشهور Distribution of Wealth، فظهر عام ١٨٩٩ وهو يمثل نظرية حول عملية رائدة معينة كانت كل عناصرها الجوهرية قد نشرت من قبل. وبقدر تعلق الأمر بالجوانب الشخصية، فإن ذلك العام هو تاريخ مضلل كما هو شأن العام ١٨٩٠ بالنسبة لحالة مارشال. ويحتل عمله: (Essentials of Economic Theory 1907) نفس الأهمية تقريباً. ومن بين أعماله الأخرى، لسنا بحاجة هنا لأن نذكر سوى عمله: Control of Trusts (١٩٠١)، وقد أعيدت كتابته مرة أخرى عام ١٩١٢ بالاشتراك مع ابنه) وعمله (The Problem of Monopoly 1904). ولكن لا ينبغي علينا أن ننسى عمله الوقائعى الذى يهتم بشكل رئيسى بتقسيم علم الاقتصاد وتاريخ مؤسسة كارنيجى* أندرو كارنيجى (١٨٣٥-١٩١٩) هو ممول أمريكى وقف أموالاً طائلة للأغراض التربوية}. دعونى ألقت نظر القارئ إلى العمل الساحر حول ذكريات هذا الرجل العظيم والمحب والذى أعده أبناءه ونشر بصورة شخصية عام ١٩٣٨: Memorial.

(٧٧) حول هذه النقطة من كلارك، انظر: Paul T. Homan, Contemporary Economic Thought (1928).

(٧٨) (Thomas N. Carver, Distribution of Wealth 1904). وانتبه هذه الفرصة للإشارة إلى منظر أمريكى كان قد طور النظرية الحدية بصورة مستقلة عن كلارك: ستوارت وود Stuart Wood الذى يمثل حالة أخرى من 'الأصالة الذاتية' المذهلة. فحوالى العام ١٨٨٩، كان وود قد اكتشف بنفسه=

ولكننى لا أعرف أى بحث آخر سوى المراجع المدرسية.

ومع ذلك، أخذ المبدأ الحدى يكتسب طابع مدرسة متميزة بشكل سريع. ولا يقتصر الأمر على هذا: فإنه أكتسب دلالة سياسية متزايدة تحمل، فى أعين البعض، طابعاً رجعيًا يقف جاهزاً للدفاع عن الرأسمالية وتخريب الإصلاح الاشتراكى. إن هذا القول لا يحمل أى معنى من الناحية المنطقية. فالمبدأ الحدى بحد ذاته هو أداة تحليلية يفرض استعمالها نفسه بمجرد أن يتقدم التحليل فى العمر. وكان ماركس سيستعمله كشيء طبيعى لو أنه كان وُلد بعد خمسين سنة من ولادته الحقيقية. وليس بوسع هذا المبدأ أن يعرف characterize مدرسة ما فى الاقتصاد أكثر مما بوسع التفاضل أن يعرف مدرسة ما فى الرياضيات أو الفيزياء. إذ إن مجرد استعمال مصطلح المبدأ الحدى Marginalism يدل، حتى هذا اليوم، على مفاهيم خاطئة حول طبيعة المبدأ. وبشكل خاص، لا يمكن أن تكون للمبدأ الحدى أى صلة أو تأثير على السياسة أو الفلسفة الاجتماعية: وهذا مفهوم تمامًا فى إنجلترا حيث لا ينظر إليه أى راديكالى أو اشتراكى نظرة عدوانية. فالتفسير السياسى أو الأخلاقى، الذى يتم إضفائه على نتائج التحليل الحدى، هو الوحيد الذى يمكن أن يكون له مثل هذا التأثير. ولا يقف كلارك بمنأى عن اللوم، كما أشرنا من قبل. لقد كان من حقه طبعاً أن يشرح تقييماته الأخلاقية فى كتاب يدور حول Philosophy of Wealth، مع إن هذه التقييمات كانت من نوع يميل إلى إزعاج الأعصاب الراديكالية. ولكنه ذهب أبعد من هذا وشدّد على إن التوزيع وفق 'قانون' الإنتاجية الحدية هو توزيع 'عادل'. وقد خلق هذا الأمر، فى أعين مهنة لا يتوافر لدى غالبيتها موقف ودى من النظرية أصلاً، ارتباطاً ما بين 'المبدأ الحدى لدى كلارك' والتبرير الرأسمالى، رغم الحقيقة التى تدحض ذلك والقائلة إن هذا 'المبدأ الحدى'، باستثناء الاختلافات فى التكنيك، يلعب لدى كلارك نفس الدور بالضبط الذى لعبه فى تفكير الاقتصاديين العلميين من المذهب الاشتراكى مثل لانجه وليرنر^(٧٩).

=بالفعل نظاماً فالراسياً كاملاً مع معاملات إنتاج (إحلال) متغيرة. وقد كان بوسعه أن يكتب البحث المارشالى، بقدر تعلق الأمر بالأساس النظرى. انظر: G. J. Stigler, 'Stuart Wood and the Marginal Productivity Theory,' Quarterly Journal of Economics, August 1947, especially p. 644.

(٧٩) حتى لا نعود لهذا الموضوع ثانية، دعونا ننتهز هذه الفرصة للإشارة إلى عامل آخر من شأنه أن يُبقى هذا الارتباط حياً. فالمصلحون ليسو بمنأى عن ارتكاب الأخطاء مثل غيرهم من الناس. ومن واجب الاقتصادى المهنى توضيح هذه الأخطاء. وهنا، فحينما يستعمل الاقتصاديون طرق 'حدية' =

يعانى فرانك وليم تاوسك Frank William Taussig (١٨٥٩-١٩٤٠)، الذى نُقِلَ على درسه الآن، أكثر من كلارك أو فيشر من عدم قدرتى، ضمن المجال المتاح، على رسم لوحات شاملة عن الكتاب بالصورة التى هم عليها. أصبح تاوسك مشهوراً فى وقت متأخر أكثر مما حدث مع كلارك، وكان تأثيره يتزايد، حينما قبل عام ١٩١٧ رئاسة لجنة التعريفات التى كانت قد شكّلت حديثاً، ومهام وظيفية أخرى، أثناء الحرب، كسب منها مزيداً من الشهرة والنفوذ. وباستثناء هذا الانقطاع، كان تاوسك معلماً فى هارفارد فى السن الناضج من عمره- وأحد أعظم مدرسى الاقتصاد ممن عرفتهم المهنة منذ إيمانها وقت مضى بالتأكيد. وقد شكّل تدريسه فى قاعة الدرس، ونصحه عند الإشراف، وأخيراً ولكن ليس أقل أهمية، مثاله، عقولاً شابة لا تحصى ولم يفعل أحد أكثر مما فعل هو بالنسبة للتطوير الثابت للمعايير طوال حياته. ومع ذلك، فهو لا يشكل مدرسة وفقاً لمفهوما باستثناء ما قدمه فى حقل التجارة الدولية. فعمله كان وقائعيًا أساساً إذا قسنا الأمر بحسب عدد ساعات العمل: وبشكل خاص، فإنه يعتبر المرجع الأكبر فى البلد بالنسبة للتجارة الدولية، وبخاصة التعريفات. وحتى فى هذا الحقل، فإن الوقائع تأتى أولاً- حيث تطورت منشوراته الأبرك حول الموضوع إلى عمله الكلاسيكى: Tariff (History of the United States 1888) - وأن النظرية تأتى فيما بعد (International Trade, 1927)، مع أنه كان أستاذاً بارعاً فى فن لحم التحليل الوقائعى والنظري أحدهما بالآخر. ويشكل عملاه (Inventors and Money Markets 1915) و Americans Business Leaders (بالاشتراك مع س. س. جوسلن C. S. Joslyn، ١٩٣٢) المثلّين الرئيسيين على ذلك. يمكن العثور على جذور نظريته لدى ريكاردو وبوهم-باورك اللذين يتجلى تأثيرهما بشكل واضح على عمله النظرى الأكثر طموحاً (Wages and Capital 1896 ; London School Reprint, 1932). وإذ

=عند التوضيح، فإن استياء الفرد المنتقد، المفهوم إنسانياً، يأخذ فى الغالب شكل التذمر من إنه تعرض للهجوم من جانب البشاعة الرجعية التى تحمل اسم المبدأ الحدى. فلو أنه ارتكب خطأ منطقياً حقاً، فكان يمكن على العموم إقناعه به دون استعمال هذه القطعة التافهة من الجهاز. ولكن نظراً لعدم فهم النظرية، فإنه لا يعى هذا الأمر وينقلب بصورة طبيعية ضد هذه الأجزاء من حجة الناقد التى يفهمها هو أقل من غيره.

تَكُونُ تاوسك وفقاً لتقليد أقدم، فقد أبدى مقاومة غريبة للمذاهب الأحدث - باستثناء نظرية بوهم-باورك لرأس المال - مما قد يفسر لماذا كان مارشال يستشهد به إلى أبعد حد من بين كل أنصارهما. ولكن هذه المقاومة تلاشت، ولم يتبقَ شيء منها في النهاية ما عدا تحفظات شكلية معينة لا تختلف كلياً عن مثيلاتها لدى مارشال. وتتجلى نقطة تحول تاوسك في عمله 'Outlines of a Theory of Wages' (Proceedings of the American Economic Association, April 1910) الذي باشر فيه تاوسك التحليل الحدى بشكل صريح. من الممكن طبعاً إثارة انتقادات من زاوية تكتيكية ضد الاقتصاد العام الذي قام بتدريسه، وأن بعض هذه الانتقادات صحيح حتى ex visu of {انطلاقاً من} عام 1900. ولكن تاوسك كان أكثر من منظر ومؤرخ وسوسيولوجي اقتصادي. فهو اقتصادي عظيم قبل كل شيء. وتساعد الطبعة الأولى من عمله (Principles of Economics 1911) على تقييم 'ما كان يتلقاه الطلبة' في ذلك الوقت^(٨٠).

كان أرفنج فيشر Irving Fisher (١٨٦٧-١٩٤٧) رجل جامعة يال من البداية وحتى النهاية - وهو ثان نجمين من الدرجة الأولى يشرفان السجل العلمي ليال، والثاني هو الفيزيائي العظيم ويلارد غبس. كان فيشر رياضياً من حيث تعليمه وقد قام بتدريس حتى الفلك لسنة واحدة. ونحن نهمل هنا كل أنشطته العلمية أوالدعائية (نشاطه في جمعية محاربة الإدمان على المشروبات الكحولية temperance، علم تحسين النسل، علم الصحة، وأشياء أخرى) التي لا تمت إلى التحليل الاقتصادي بأية صلة وكذلك، في هذه اللحظة، كل كتاباته عن النقود والدورات التي سيتم درسها في الفصل الثامن من هذا الجزء. كما لا نستطيع تناول مساهماته المهمة في نظرية الإحصاء (الأرقام القياسية، توزيع فترات الأبطاء^(٨١) وأشياء أخرى) باستثناء التشديد على إن النظرية الإحصائية أصبحت

(٨٠) نظراً لاستحالة إنصاف هذه الشخصية العظيمة ضمن هذا الكتاب، فإننا نلقت نظر القارئ إلى مذكرة نشرت في مجلة: Quarterly Journal of Economics, May 1941 كتبها قسم من زملاءه. [كتب السيرة المذكورة ج. أ. شومبيتر بمساعدة آرثر ه. كول Arthur H. Cole و إدوارد س. ماسون Edward S. Mason].

(٨١) ومع ذلك، ينبغي ملاحظة أن فكرة توزيع أثر اضطراب ما في قيم متتالية متعددة للمتغير المتأثر بالاضطراب لها أهمية قصوى بالنسبة للنظرية الاقتصادية. من الواضح إن من غير الواقعي - بل مما يبعث على اليأس حقاً - أن نقول إن الاضطراب في متغير مثل x الذي يحدث في الزمن $t =$

بفضله جزءاً من النظرية الاقتصادية ولم تعد ملحق بها- وبعبارة أخرى، كان فيشر رجل قياس اقتصادى يقف فى خط واحد مع بتى وكينيه. وتقتصر الملاحظات التالية على أعمال فيشر الرئيسية الثلاثة فى النظرية العامة. إن كتابه الأول، الذى هو أطروحته *Mathematical Investigations in the Theory of Value and Prices* (1892 ; reprint 1926) هو تقديم بارع للعمل الأساسى لفالراس. ومع ذلك، فقد أضاف فيشر إلى هذا العمل الأساسى مساهمتين (على الأقل)^(٨٢) ذات أهمية وأصالة من الدرجة الأولى: إذ أشار فيشر إلى طريقة معينة لقياس المنفعة الحدية للدخل (التي طورها فيما بعد فى مقالته المنشورة فى: *Economic Essays* contributed in Honour of John Bates Clark, 1927) وطورَ أسس تحليل منحنيات السواء فى الجزء الثانى من عمله *Mathematical Investigations*، حيث عالِج فيشر (كما فعلَ اديجورث) منفعة كل سلعة كدالة للكميات من كل السلع. ثم قدّم فيشر عمله الثانى (1906) *Nature of Capital and Income* الذى أعجب باريثو كثيراً والذى، إضافة إلى أنه يضع أول نظرية اقتصادية للمحاسبة، يشكل (أو ينبغي) أساس التحليل الحديث للدخل^(٨٣). وفى عمله الثالث *The Rate of Interest* (1907) الذى كُتب مجدداً وتم نشره فى شكل جديد عام ١٩٣٠ بوصفه *The Theory of Interest* ^(٨٤)، فإن الاعتراف الجميل لفيلشر بأسبقية راي وبوهم-باورك معاً لم تسمح بإبراز الأصالة القوية لعمله كما ينبغي. فنظرية الفائدة القائمة على

=من شأنه أن يؤثر على قيم x فقط (أو أى متغير آخر يعتمد على x) فى الزمن $t+n$ وليس على أى شىء آخر. ولكننا نعلم بأن التغير الحاد فى سعر معين أو مجموعة من الأسعار يؤثر على القيم اللاحقة من هذا السعر والأسعار الأخرى عبر فترة قد تطول أو تقصر وبدرجة من الحدة تتفاوت فى حدود تلك الفترة. ومن المتعذر القول إن التفكير الاقتصادى، الذى يعجز عن أخذ هذا الأمر بنظر الاعتبار، قد تجاوز مرحلة الطفولة. ومع ذلك، كان فيشر أول من واجه هذه المشكلة وحاول تطوير طريقة من شأنها الاهتمام بذلك إحصائياً. إن هذه الطريقة (التي حسنها فرانز ل. ألت Franz L. Alt كانت غير كاملة إلى حد بعيد. ولكنها تشكل عملاً رائداً من شأنه أن يعطى ثماره عبر العهود. يجد القارئ كل المراجع فى مقالة ألت: 'Distributed Lags', *Econometrica*, April 1942).

(٨٢) ثمة مساهمات أخرى. ولكننى أحب الاقتصاد على هاتين المساهمتين المقبولتين بصورة عامة فى الوقت الحاضر.

(٨٣) وهذا هو الشىء الرئيسى، مرة أخرى، فى ذلك العمل. وتتضمن الملاحق ثروة من المقترحات من شأنها أن تشجع حتى من لا يتفق مع كل استنتاجات فيشر.

(٨٤) يشتمل ذلك العمل على الكثير، ولكن غير الكاف، من عمله *Capital and Nature*، وكذلك لب دراسة فيشر 'Appreciation and Interest.' Publications of the American Economic Association, August 1896.

‘القلق’ *impatience theory of interest* لا تشكل سوى عنصر منه. وكان من الممكن التعبير عن طبيعته على نحو أفضل بكثير لو جرى استخدام عنوان آخر مثل: نظرية أخرى للعملية الرأسمالية. ومما يستحق الانتباه الخاص، ضمن الأشياء الجديدة الكثيرة من التفاصيل، هو تقديم مفهوم الكفاية الحدية لرأس المال *marginal efficiency of capital* (الذى أسماه فيشر بالمعدل الحدى للعائد من التكلفة *marginal rate of return over cost*)^(٨٥).

ومن شأن هذه الملاحظات، سوية مع عمل فيشر فى حقل النقود والدورات، أن تثبت القول إن بعض المؤرخين فى المستقبل سيعتبروا فيشر كأعظم اقتصادى علمى فى أمريكا حتى هذا اليوم. ولكن معاصروه لم يروا هذا. إذ لم يتم الاعتراف بفيلشر على نطاق واسع داخل المهنة وفى العالم ككل إلى أن أصبح معروفاً بوصفه فيشر ‘الدولار المعوّض’ *compensated dollar* الأمر الذى لم يحبه معظم الناس. فحتى فيما بعد، كانت فكرة ‘النقود المستقرة’ *stable money* و‘تغطية الودائع بالاحتياطى بنسبة ١٠٠ ٪’ هى التى صرفت الانتباه عن عمله العلمى حقاً. ففى هذه القضايا وقضايا أخرى، فإن فيشر، كمصلح من الدرجة الأعلى والأنقى، لم يراعِ التكاليف قط- أو حتى التكاليف المعنوية الأكثر إيلاماً التى تتمثل فى النظر إليه كإقتصادى قلق- مما أثر على سمعته كعالم. وإضافة إلى ذلك، فإن طبيعة عمله ذاتها لم تساعد على النجاح السريع. ومن الناحية العملية، لم يتم الانتباه طبعاً إلى عمله *Mathematical Investigations* إلا حينما لم تعد محتوياته تمتلك شيئاً غير الأهمية التاريخية. كما نظر معظم الناس إلى عمله *Capital and Income* كإحكام لأشياء معروفة. وقد مضى عمله *Rate of Interest* على حال أفضل محلياً ودولياً، ولكن من المشكوك فيه أن يكون قد أبلغ رسالته بشكل كلى قبل إعادة صياغته المنشورة عام ١٩٣٠.

(٨٥) ثمة ملاحظتان لابد من طرحهما ضمن ذلك السياق. أولاً، سلم كينز (وكان) بتطابق مفهوم فيشر مع مفهومه حول الكفاية الحدية لرأس المال ولكن بعض أتباع كينز، وبخاصة ليرنر *Lerner*، رفضوا التسليم بذلك. ثانياً، لا تتعارض إشارتى إلى الاعتراف الجميل من جانب فيشر بعمل بوهم-باورك مع ما قلته فى القسم ٤ أعلاه. فلم يدرك فيشر بصورة كلية مدى سعة عمل بوهم-باورك وأنه تأثر كثيراً جداً بالنواقص السطحية فى عرض الأخير. وهذا يتمشى تماماً مع القول الواضح حقاً بأن فيشر لم يسلم بدرجة كافية بكل ما وجده لدى بوهم-باورك: إن فيشر وكينز وفيكسل هم الكتاب الثلاثة الذين كنت سأسميهم لو سئلت أن أعطي أمثلة على ما أقصده ‘بالاعتراف الكافى’. وفى الواقع، يجسد هؤلاء الثلاثة أكثر مما أقصد: إذ ينبغي الدفاع عنهم ضد نتائج استعدادهم لتسمية سابقبهم، الذى ذهب فى بعض النقاط بعيداً جداً إلى حد طمس الوضع الحقيقى للأشياء.

[ج) بضع شخصيات قيادية أخرى] إن مهنة الاقتصاد لا تذكر الأفراد فى خارجها بشيء ما غير جنائن بابل المعلقة. ومع ذلك، وكما رأينا من قبل إلى حد ما، وكما سنرى بدرجة أكبر فى الفصل القادم، فإن تفسير هذا الانطباع ليس سهلاً فقط بعد إنعام النظر، بل إن مبرراته أقل مما يبدو عليه أيضاً. وفى هذا القسم الفرعى، سنحمل عملنا الوصفى أبعد قليلاً من خلال الإشارة إلى بضع شخصيات قيادية أخرى تبرز هنا وهناك فى تقسيمات الجيش المتزايد دوماً للاقتصاديين الأمريكان الذى تدفق حينذاك، كما هو حاله اليوم، فى فوضى ظاهرة. وندعو القارئ مرة أخرى إلى أن يتذكر أننا أشرنا من قبل إلى كتاب من الحركة المؤسسية^(٨٦) فى الفصل السابق (فيبلن veblen وكومنس Commons بشكل خاص) وأنه ستنم ملاحظة بعض الكتاب الآخرين ضمن عرضنا للعمل المنجز فى الحقول التطبيقية^(٨٧) خلال الفترة محل الدرس. كما نرجو القارئ أن يتذكر أيضاً إن وجهة النظر التى تلائم أغراضنا إنما تستبعد أو تدفع إلى الخلف كتاباً كانوا قد قدموا للمهنة ولتلاميذهم خدمات يتعذر تثمينها وذلك حينما لا يكون عملهم من النوع الذى نهتم به هنا والذى يتمثل بشكل رئيسى بتطوير جهازنا التحليلي أو إثبات براعتهم فى استعماله. ولتوضيح هذا أشيرُ إلى أسماء مشرقة مثل هنرى س. آدم Henry S. Adams، وإيلي Ely، وهولندر Hollander، ولاولن Laughlin، وسيجر Seager، وسيليغمان Seligman^(٨٨).

(٨٦) [نذكر بأن ج. شومبيتر كان ينوى أن يكتب حول المذهب المؤسسي الأمريكي فى الفصل الرابع الذى لم يكتمل].

(٨٧) من الواضح إن هذا الإجراء له عيوبه بغض النظر عن استحالة تحقيق الإنصاف الكامل للعمل المنجز فى الحقول التطبيقية. ولتوضيح هذه العيوب، دعونى اختار كاتباً مثل وليم ز. ربلـى William Z. Ripley (١٨٦٧-١٩٤٤). فهذا الكاتب، الذى كتب حول الأعراق فى أوروبا وكتب وحاضراً حول السكك الحديدية والعمل - وهذه الأمور تعجز عن وصف نشاطاته بصورة كاملة - لا يتميز عمله بشكل كاف بالتأكد فى أى أو كل هذه الحقول. ولكن تلاميذه فى هارفارد أخبرونى بأنهم تأثروا به أكثر من تأثرهم بأى أستاذ آخر، علماً بأن قسمه العلمى كان يضم حينذاك تاوسك وكارفر Carver ويونغ Young. وعليه، فمن الضروري بالتأكيد إبرازه وسط 'الاقتصاديين العاميين' مهما كانت نواقصه فى التحليل التكنيكي. ويسرى هذا الأمر على كتاب كثر من هذا النوع.

(٨٨) بوسع القارئ، الذى يجب أن يفعل ذلك، أن يتتبع بسهولة المقترح الذى تتضمنه الإشارة إلى تلك الأسماء. وينبغى أن نشير بشكل خاص إلى النعى المهم لايلى، ذلك البروفيسور الألماني الممتاز ذو المظهر الأمريكي (والذى كتبه تايلر فى: Economic Journal April 1944) والنعى الهام لسيليغمان: القائد المحبوب والباحث الذى لا يكل ولا يمل (والذى كتبه غ. ف. شيراس G. F. Sherras، أيلول ١٩٣٩). ومع ذلك، فقد سبق أن أشرنا إلى عمل هولندر حول ريكاردو، وأن قسمًا من عمل لاولن حول النقود وعمل آدم وسيليغمان حول المالية العامة سيتم ذكرها فى مواضعها المناسبة. كما كنا قد أشرنا إلى كارفر أنفاً.

اعتلى البروفيسور فرانك أ. فيتر Frank A. Fetter (١٨٦٣-١٩٤٩)، فى واحدة من تلك التقسيمات التى قدّم هو الكثير لخلقها حقاً، وضعاً قيادياً فى العقد الأول من هذا القرن. كان فيتر بشكل رئيسى، ولو ليس حصراً، منظّراً، ورجل التقدم العلمى الذى لا يحب المخلفات النظرية. لقد تم تصنيفه 'كنمساوى' أحياناً، بيد إن هذا غير صحيح بصورة تامة. صحيح أن المحاولات العلمية الجادة فى ذلك الوقت كان ينبغى عليها أن تنطلق من الأسس التى وضعها جيفونس ومنجر وفالراس، وإن الكتاب غير الرياضيين كانوا يفضلون نسخة منجر على نسختي الكاتبين الآخرين. صحيح أيضاً إن فيتر لم يحب مارشال- وذلك بالضبط لأن الأخير يحاول المحافظة على الموروثات العتيقة- وهو شعور ربما كان متبادلاً. ولكن هذا كله لا يكفى لأن يجعل المرء تابعاً لمنجر. وعلى ذلك الأساس، فقد اختار فيتر مبنى كان مبناه الخاص به، سواء بصورة عامة أو فى الكثير من النقاط التفصيلية، مثل نظريته للدخل 'النفسى'. ومن المتعذر أن نقدر كثيراً التأثير المشجّع لمآثره النقدية على اهتمام المهنة الأمريكية بالنظرية^(٨٩).

فريد م. تايلر Fred M. Taylor (١٨٥٥-١٩٣٢) هو اسم آخر يخطر على البال كلما شعرنا بقدرتنا إلى حد كاف على تهنئة أنفسنا بالمستوى الحالى للتحليل الاقتصادى فى البلد. كان تايلر معلماً بارزاً فى النظرية الاقتصادية- نزولاً إلى دقائق التفكير النظرى- وقد شكّل كثيراً من العقول بمن فيهم بعض من الاقتصاديين الأكثر بروزاً فى وقتنا الحاضر: فثمة مدرسة فكرية لتايلر ولو ليس بمعنى أستاذ واحد ومذهب واحد. لقد تطور عمل تايلر عن جهوده فى التدريس وصنّب فيها وأنه تردد كثيراً فى نشره. ولكن هذا العمل شكّل نجاحاً كبيراً حينما ظهر أخيراً: Principles of Economics, (1911 ; 9th ed., 1925). ورغم إمكانية الاعتراض على نقاط كثيرة من هذا العمل من الناحية التكنيكية، بيد أننى أشك فيما إذا كان الباحثون الحديثون قد أفلحوا فى إنعاش أنفسهم بالغوص فى عالم المشاكل التى

(٨٩) لا تكفى قراءة عمل فيتر: Principles of Economics (1904) لإثبات الأحكام الواردة آنفاً. ولكن الكتاب يضم كل أساسيات ما يمكن أن نسميه نظام فيتر. سنمر ببعض من مقالاته فيما بعد. وتوضح إحدى هذه المقالات، وهى تخص العلاقة بين الربح والفائدة، حقيقة من شأنها أن تعتم على الخط الأمامى لتأثير فيتر، أى حقيقة وجود تشابهات بين تعاليمه وتعاليم فيشر. وتمثّل مقالته: 'The Passing of the Old Ricardian Rent Concept' [عمل فيتر الأكثر مباشرة فى طابعه المعادى للمارشالية. ولا أعرف كيف تعامل مارشال مع هذا اللوم -المبرر كلياً. ولكننى أعرف إن إدجورث استاء من المقالة كثيراً على أساس غير مقنع قط مفاده أنه لا يجب مقالات تحمل مثل ذلك العنوان.

درسها تايلر والتي تبدو طبعاً ضئيلة جداً الآن - كما هو حال مشاكل معظم المنظرين في ذلك الوقت. وسنشير في موضع آخر إلى مساهمة تايلر المهمة جداً في نظرية الاقتصاد الاشتراكي.

وحينما اقتربت الفترة من نهايتها، وجد المنظر غير الرياضي نفسه أمام مهمة صعبة بصورة متزايدة. وهذا هو مازق تايلر والمصدر الرئيسي لنواقصه. ويسرى هذا الأمر على هربرت ج. دافينبورت Herbert J. Davenport (١٨٦١-١٩٣١). وإذا شئنا تقييم الوضع والخدمات التاريخية لهذين الكاتبين وأمثالهما من الكتاب، فلا ينبغي استعمال المعايير الحديثة الصارمة لأنه كان هناك، حتى ذلك الوقت، عذر مشروع لمن لم يستوعبوا المفاهيم التي تبدو أولية الآن كالاستمرارية، والكميات الحديثة، والتحديد determinacy، والاستقرار، وما شابه ذلك. وبالنتيجة، فقد صار ع هؤلاء الكتاب مشاكل تبدو متخيلة في الوقت الحاضر، من ناحية، وعجزوا عن رؤية المشاكل التي تزعجنا، من ناحية أخرى^(٩٠). كان ه. ج. دافينبورت منظرًا ممتازًا ومعلمًا عظيمًا في أيامه تدين له المهنة بالكثير لجهوده الهائلة لتسوية المشاكل الأساسية للنظرية في وقته^(٩١). ثمة نقطة مهمة أخرى تتعلق به. فقد كان دافينبورت نصيرًا متحمسًا لفيلن وراي كاليًا قويًا من النوع الموجود في الغرب الأوسط {من الولايات المتحدة الأمريكية} الذي أبصر الأشباح الرجعية الشريرة وهي تمشي بخيلاء في الساحة المهنية والوطنية معًا دون أن يقوم بأى

(٩٠) يوضح ذلك جيدًا المعنى الذي يمكن فيه، حتى في علم الاقتصاد، التحدث عن 'تقدم' وتقييم حالة معينة من التطور بوصفها حالة أدنى من حالتنا الخاصة بنا. ولكن من المتعذر إجراء هذا مع 'الفكر الاقتصادي' بصورة عامة. فقد كان لدى اقتصاديي ذلك الزمن آراء حول السياسة الاجتماعية والاقتصادية تختلف عن تلك التي تسود الآن. ولكن هذا الاختلاف يعود إلى الظروف الاجتماعية وإلى السياسة الاجتماعية Socialpolitik، ولن يكون هناك حقًا معنى قط لشعورنا بأننا أفضل منهم أو في الحديث عن تحقيق تقدم. ولكن في قضايا التحليل، بقدر ما نحاول نحن الآن أن نفعل نفس ما حاول منظر ذلك الزمن أن يفعلوه، من الممكن الحديث عن تقدم من تكتيك أدنى إلى آخر أفضل مثلما نجد معنى في القول إن طب الأسنان أو النقل أفضل الآن مما كانا عليه عام ١٩٠٠.

(٩١) انظر بشكل خاص عمله: (Value and Distribution 1908) - وهو كتاب من شأنه أن يضجر ويفيد قرائه معًا. يتضمن هذا الكتاب عدة نقاط أصيلة، ذاتيًا على الأقل. أما كتابه: Economics and Enterprise (1913) فهو أقل أصالة مع أنه مخصص للبناء، وليس للنقد. لقد سمعت بمخطوطته حول النظام المارشالي: (Economics of Alfred Marshall 1935) ولكنني لا أعرفها. ولا تتميز كتبه المدرسية بشيء ما. ولو توفر لي المجال، لدرست بعضًا مقالاته.

جهد- الذى هو غير ضرورى، كما هو واضح- للتأكد من وجودها. وهكذا يجسد دافينبورت أحد الأمثلة التى تبين إن الاهتمام بالنظرية فى تلك الحقبة كان ينسجم تمامًا مع الميول المؤسسية.

يصب عمل هذين الكاتبين وكتاب آخرين، دون انقطاع حاد، فى ذلك الجزء من العمل المتحقق فى وقتنا الحاضر الذى يمكن أن يتطابق مع كتاب مثل ج. م. كلارك J. M. Clark، ف. ه. نايت F. H. Knight، ج. فاينر J. Viner، أ. أ. يونغ. ويكفي هذا المؤشر^(٩٢). وينبغي أن نكتفى بنظرة على واحدة من ألمع 'الرقع الملونة' فى الفترة محل الدرس: باتن ومن ثم على ذروة فريدة: مور.

لو أن الرؤيا هى كل شيء، لتوجب إذن أن نصنف سيمون باتن Simon Patten (١٨٥٢-١٩١٧)- الذى كان يدرس فى جامعة بنسلفانيا من عام ١٨٨٨ إلى عام ١٩١٧- ككاتب ليس له سوى نظائر قليلين، إن كان له أصلاً. ولو كان التكنيك هو كل شيء، لما عثرنا له على موضع. وفى الواقع، كان موضعه بين هذين الأمرين حيث كان يقف بعيداً على أرض هى أرضه الخاصة به إلى حد بعيد. والإشارة إلى باتن تتم بشكل رئيسى لدفاعه عن مذهب الحماية- الذى كان يحول لوحده بينه وبين الغالبية الكبيرة من المهنة- وكذلك لمفهومه 'لاقتصاد وفرة

(٩٢) مع أنه ليس من الضروري 'تقديم' شخصيات معروفة جيداً مثل أولئك الكتاب الثلاثة الأول، فأننى انتهز الفرصة لأقول بضع كلمات حول ألن أ. يونغ Allyn A. Young. يتعرض هذا الاقتصادى العظيم والمنظر اللامع لخطر النسيان. إن المجلد الذى يضم: Essays, Economic Problems, New and Old (1927) and An Analysis of Bank Statistics for the United States (1928 ; first published in the Review of Economic Statistics, 1924-7) يشكل الجزء الأكبر من عمله المنشور ولا يوصل أى فكرة عن عمق وسعة فكره بل ويعطى فكرة أقل عما كان يعنيه بالنسبة إلى الاقتصاد الأمريكى وتلاميذه الكثيرين. ولكن ex ungue leonem {هذا الشبل من هذا الأسد} أى إن بوسع القارئ أن يكون بعض الفكرة عن ذلك الأسد من خلال مخطب واحد من مخالفه أى عمله: 'Increasing Returns and Economic Progress', Economic Journal, December 1928. كان يونغ من بين الأوائل الذين فهموا مرحلة التحول التى دخلها التحليل الاقتصادى بعد العام ١٩٠٠ ووضع تعاليمه بناءاً على ذلك- وهى تعاليم يمكن أن توصف، بقدر قدرتى على استجلاء الأمر، كقطاع بين تعاليم مارشال وتعاليم فالراس مع إدخال مقترحات خاصة به. ويعود أحد الأسباب التى تفسر لماذا لم يبق اسمه إلا لدى من كانوا يعرفوه معرفة شخصية إلى تعوده على إخفاء أفكاره بدلاً من التشديد عليها: فمثلاً، لا يتطلب الأمر أن يكون المرء مختصاً بل مجرد قارئ دقيق لكى يدرك إن تحليله الموجز والمتواضع للمصرف الوطنى للإحصاء يحفظ الجزء الأفضل من نظرية كاملة حول النقود والائتمان.

معين' لا يحتل فيه تناقص الغلة أو التوفير thrift أهمية كبيرة بعد. وينم هذا الطرح عن عمل هواة delittantism، من ناحية، ولكن عن تيارات لاحقة من الفكر كان باتن قد استبقها بنجاح، من الناحية الأخرى. بيد أن كلا الانطباعين غير صحيح بصورة تامة، ولكن المهنة فى ذلك الوقت كانت تميل إلى وجهة النظر الأولى، رغم أنها لم تفشل فى إدراك ما يمكن تسميته الأهمية الواعدة لأفكار باتن وعن تقدير المعلم النشيط والمحاور الرائع ممن يمتد الفطور معه إلى وقت الغداء.

يحتل هنرى لودول مور Henry Ludwell Moore (المولود عام ١٨٦٩) وضعاً مؤكداً فى تاريخ علم الاقتصاد مثلما كان عليه وضع باتن بين معاصريه. ومن السهل نسيان هذا الكاتب فى أى سجل تاريخى لعلمنا فى المستقبل مثلما يمكن أن يحدث هذا مع السير ولیم بتي. وهذا يصح على اقتصاديى المستقبل ممن يحبون، وعلى اقتصاديى المستقبل ممن لا يستحسنون، أى خط كان مور قد كتب حوله ذات يوم. ذلك لأن اسمه يرتبط بصورة وثيقة بظهور القياس الاقتصادى الحديث الذى لا بد من أن يصبح مترادفاً أكثر فأكثر مع الاقتصاد التقنى سواء أردنا هذا أم لا. إن أقل لقب من ألقاب الشهرة المستمرة لمور هو أن عمله يمثل المنبع العلمى لسيل منحنيات الطلب الإحصائى، وهو السيل الذى كان يتدفق فى أوائل الثلاثينيات. إن أعظم ما حققه مور هو أنه حاول أن يخلق بشكل جري، عبر عدد من الخطط البارعة، الستاتيكا المقارنة التى تعمل من خلال الإحصاء statistically operative comparative statics (انظر الفصل السابع، أدناه). إن هذا العمل، الذى يرد فى سلسلة من مقالات كان مور قد طورها إلى عمله Synthetic Economics المنشور عام ١٩٢٩، يشكل أحد تلك المعالم - الإنجازات التى من المرجح جدا تبرز بغض النظر عما إذا كنا نستفيد منها أم لا. وهكذا فمن الضرورى، سواء لصالح اللوحة التى نرسمها للوضع العلمى فى الحقبة المدروسة أو من زاوية سوسيولوجيا العلم، أن نتوقف للحظة لتفسير لماذا لم يكتسب رجل بهذه المنزلة شهرة أكثر. فرغم حصول مور على بعض الثناء لمنحنياته الإحصائية للطلب - وذلك أساساً عبر نصيره هنرى شولتز Henry Schultz - وأنه تسبب فى إثارة بعض التساؤلات حول نظريته للدورة الاقتصادية القائمة على الحصاد Crop Theory of Cycles - وهى نسخة محسنة من نظرية جيفونس - بيد أن شهرته لم تكن كما كان ينبغي لها أن تكون.

يكن السبب الأول في طبيعة عمله، طبعاً. إذ إن محاولة جعل نظام فالراس يسرى إحصائياً هو شيء يتجاوز تماماً الأفق العلمى لتلك الحقبة^(٩٣). ويعود السبب الثانى إلى أن مور كان رجلاً متواضعاً جداً، وحساساً جداً فى الوقت نفسه. إذ كان يمكن فهم برنامجه حول البحث، وربما كان يمكن لهذا البرنامج أن يجتذب الدعم المؤسسى، لو كانت وراءه دعاية نشيطة ولو أنه طرح كبرنامج لنظرية ثورية ضد نظرية قائمة-أصولية^(٩٤)-(علماً بأنه كان كذلك بمعنى ما). ولكن مور لم يكن أهلاً لمثل هذه التكتيكات: فقد أنكفى على ذاته حينما لم يجد استجابة ما؛ فهو النقيض الدقيق للبائع الذى يتفنن فى تصريف بضاعته^(٩٥) high-pressure salesman. ولكن ثمة سبب ثالث. كان مور قد نشر فعلاً عدداً من المقالات يُفترض أنها عرفت المهنة بفكره. ومع ذلك، فإن كتبه الأولى قد أعاققت أكثر مما اجتذبت حتى القضاة المقتدرين. ولغرض تقييم أعماله التالية حق قدرها: (1911) Laws of Wages, or his Economic Cycles: Their Law and Cause (1914) or his Generating his Economic Cycles (1923)، فمن الضروري مراعاة الكثير من الاعتبارات وذلك للميزة الخاصة لجهد الرائد. وهذا يسرى أيضاً، فى بعض النقاط، على عمله Synthetic Economics الذى كان معروفاً عالمياً على أى حال. ومع ذلك، فإن الطريق التى سلكها هذا العمل لم تكن طريقاً صعبة فقط، ولكن غير مألوفة أيضاً فى وقت كان يشهد تطور البدائل. بيد أنه يتعين على كل الكتاب التحليلين المحدثين دراسة هذا الكتاب بعناية، مع إن من الممكن تماماً أن يصبحوا، حينما يفعلون ذلك، معجبين بمور أكثر من أتباع له.

٨- الماركسيون

لاحظنا أحياناً إن كثيراً من الاقتصاديين فى تلك الفترة كانوا راديكاليين بالمعنى الذى يحمله هذا المصطلح اليوم. لقد سُميت الاشتراكية باسم بروتيس-إليه

(٩٣) بيد أن عمله: (Forecasting the Yield and the Price of Cotton (1917) لم يكن كذلك. ولكن المنظرين لم يكتشفوا بعد أن هذا الكتاب كان يشكل نظرية اقتصادية.

(٩٤) أنا مدِين للبروفيسور ف. س. ميلز F. C. Mills بالصورة التى أعطانى لشخصية مور وطرق تفكيره. وتشبه هذه الصورة الانطباع الذى تركه مور فى نفسى حينما التقيت به فى كولومبيا عام ١٩١٣. [حتى عام ١٩١٥، كان مور ما يزال حياً ويعيش فى عزلة تامة.]

المتقنين intellectual Proteus، ومن العسير أن نحدد كم من أولئك الراديكاليين ينبغي علينا أن نسميهم اشتراكيين - كإمكانية على الأقل. ولكن راديكالييتهم أو اشتراكييتهم لا تهمنا ما دامت لا تتضمن اختلافات فى المنهج التحليلي، أو، إذا وضعناها بصورة أخرى أكثر تنويراً، ما دامت لا تتضمن سوى أهداف وميول وتقييمات مختلفة للاقتصاد والحضارة الرأسمالية ولكن ليس 'نظرية' مختلفة للعملية الرأسمالية: وإذا كنا قد ذكرنا المذاهب الراديكالية أو الاشتراكية أصلاً، فذلك فقط لغرض تصفية الأحكام المسبقة واسعة الانتشار ضد العمل العلمى فى تلك الفترة. فالقبايون، مثلاً، هم بالنسبة لنا مجرد مجموعة قامت بالبحث الاقتصادى وليس ثمة سبب لفصلها عن الآخرين ممن قاموا بنفس الشيء على أساس أنهم كانوا من أنصار التخطيط planners، أو اشتراكيين وفق بعض التعريفات. وفى هذا القسم، نهتم فقط بأولئك الاشتراكيين الذين تبنا اقتصاداً علمياً مختلفاً واشتراكياً على وجه التحديد. ومن بين هؤلاء الاشتراكيين، كان الماركسيون أكثر أهمية من الآخرين بحيث يمكن أن نعتبرهم، لأغراضنا، الماركسيين الوحيدين. ولكننا طبعاً سنشير أيضاً إلى منتقديهم الاشتراكيين الذين يستمد عملهم معناه من ارتباطه بالنظام الذى ينتقدونه فحسب.

يشكل الماركسيون مجموعة أو طائفة بأكثر من معنى واحد. ولكنهم، بين أمور أخرى، كانوا يشكلون مدرسة علمية أيضاً، ذلك لأن الاعتماد على عقيدة معينة لا يدمر، رغم أنه يمكن أن يؤثر على، الطابع العلمى لعمل مجموعة معينة، مثلاً أوضحنا هذا من قبل. ولا يرد الماركسيون هنا كمدرسة علمية معينة إلا وفقاً لمفهومنا فقط - أى كمجموعة أنجز أعضاؤها عملاً تحليلياً معيناً وكان لها أستاذ واحد ومذهب واحد وتربطهم علاقة عمل وثيقة، وإن لم تكن علاقة انسجام على الدوام. وينبغي إهمال كل الجوانب الأخرى من الماركسية والتي قد تكون الجوانب الجوهرية منها. وهنا، فإن العمل العلمى المنجز وفقاً لخطوط ماركسية والقائم حتى على الإتقان الكامل للمحتويات العلمية من عمل ماركس، كان، حتى أوائل ثلاثينيات القرن العشرين، يقتصر على كتاب ألمان وروس أساساً بحيث ليس من داع قطعاً، لأغراض الاسترشاد العام، للإشارة إلى كتاب آخرين^(٩٥). فالماركسية لم

(٩٥) وهذا واضح بالنسبة لإنجلترا: فلم يعزو أحد لحد الآن إلى ه. م. هيندمان H. M. Hyndman ومجموعته أى مساهمة فى التحليل الاقتصادى. ولا يعنى هذا القول إنكار بعض التأثير على المتقنين الإنجليز، مع أن هذا التأثير كان محدوداً حينذاك. كما لا يعنى إنكار أن الماركسية =

تمارس تأثيراً قوياً على الاقتصاديين غير الاشتراكيين إلا في ألمانيا وروسيا، كما ذكرنا سابقاً: فلفترة من الزمن، لم يكن لدى الاقتصاديين ذى التوجه النظرى فى هذين البلدين أى خيار تقريباً سوى ماركس (أو رودبرتوس فى ألمانيا).

إن كسب الحزب الاشتراكى للمتقنين الروس عبر تبنيه للماركسية لا يعود كلياً إلى التأثير الثقافى القوى لألمانيا؛ فهو يعود إلى حد ما أيضاً إلى حقيقة أن التأمل الماركسى كان يلائم الذهن الروسى. ولكنه يعود إلى تأثير ألمانيا أساساً، وأن العلاقة بين الماركسيين الروس والألمان بقت قوية جداً (ولو إنها غير ودية دائماً) بمعنى شخصى ما حتى وفاة لينين أو حتى هزيمة تروتسكى. ومن زواوية العمل التحليلى المنجز، يمكننا أن نشير فقط إلى بليخانوف وبوخارين من بين الكتاب الأصوليين بشكل صارم^(٩٦). ولكن لا ينبغي أن ننسى أن الماركسية كانت

= أصبحت عاملاً مؤثراً فى علم الاقتصاد الإنجليزى فيما بعد. ولكن هذا القول يتطلب بعض التعديل بالنسبة للبلدان اللاتينية بسبب العمل المنجز، من قبل الاشتراكيين وغيرهم، وفقاً للنظرية الماركسية للتاريخ. ومع ذلك، فإن الاعتراف بحقيقة أن الأفكار الماركسية كانت، فى فرنسا وإيطاليا وأسبانيا، معروفة بصورة أوسع وتفسر بعناية أكثر مما كانت عليه فى إنجلترا لا ينطوى على أى تعديل ذلك لأن هذا الأمر لا يعنى تحقيق أى عمل تحليلى فى الاقتصاد التكنيكى. كما ظهرت الماركسية اليابانية فيما بعد. ويسرى الأمر نفسه على الولايات المتحدة، ولكن لابد من استثناء كتابات دانييل دى ليون (Daniel De Leon، انظر عمله: 1899) (Reform or Revolution ?).

(٩٦) يستحق غ. ف. بليخانوف G. V. Plekhanov (١٨٥٥-١٩١٨)، القائد السابق للحزب الماركسى الصغير فى روسيا والشخصية القيادية فيه حتى بداية هذا القرن، مكاناً مختلفاً جداً فى تاريخ من نوع آخر غير ما بوسعنا أن نخصصه له فى تاريخنا هذا. ولكنه، إضافة إلى ذلك، كان عالماً ومفكراً. ومع أنه لا يعنى الكثير كاقصادى، بيد إنه سوسيولوجى ماركسى رفيع المستوى، ومحلل 'للبنية-الفوقية' الاجتماعية-النفسية بشكل خاص. إن هذا الانطباع، على الأقل، هو ما كونه أنا عن عمله الكثير الذى كان فى متناولى بشكل مباشر أو غير مباشر. انظر بصورة خاصة عمله N. I. Bukharin (١٨٨٠-١٩٣٨)، وهو أحد الشجعان الذين سحقهم ستالين، فكل ما أعرفه عنه هو عمله: (Der Imperialismus und die Akkumulation des Kapital (1926) الذى يعتمد كثيراً على الأعمال الألمانية التى سيتم ذكرها (والذى يشكل جزءاً من المناقشة الألمانية بالفعل) وعمله: The Economic Theory of the Leisure Class (written 1914; English trans., 1927) وهو عمل أقل أصالة. وقد يفوت على القراء اسم لينين الذى يقع الجزء الأفضل من كتاباته الغزيرة فى الفترة محل الدرس. ولكنه كان رجل-حركة وواحد من أصحاب التكتيكات الأكثر دهاء والأكثر حصافة منذ إيماناً وقت مضى. إن من الخطأ، بالنسبة للمعجبين بلينين من الروس وغير الروس، التشديد على أنه كان، بعد تقديسه الآن، مفكراً عظيماً من كل بد. ربما ساهم لينين بشيء ما فى الفكر السياسى، رغم أننى أجد لدى ماركس كل النقاط التى وضعها فى كتاباته التى هى فى متناولى مع استثناء واحد: فقد سلم لينين بشكل صريح بما لم يراه ماركس أو يسلم به قط، أى أن 'انعتاق' البروليتاريا يتعذر تحقيقه من قبل البروليتاريا نفسها - وهذا تصحيح عظيم (بعد مراعاة كل المضامين) فى=

العامل المؤثر الرئيسى فى تكوين كل الاقتصاديين الروس عمليًا فى ذلك العهد. فماركس كان هو الكاتب الذى حاولوا إتقان تعاليمه حقًا. وإن التعليم الماركسى واضح حتى فى كتابات من انتقدوا الماركسية بصورة معادية. ويعتبر توغان-بارانوفسكى، الذى نشير إليه أدناه، الأكثر بروزًا بين نقاد ماركس شبه-الماركسيين هؤلاء.

[أ] (الماركسية فى ألمانيا) ثمة واقعتان وراء النجاح فى ألمانيا. أولاً، النجاح الهائل للحزب الاشتراكى الألمانى؛ ثانيًا، تبنى هذا الحزب للماركسية بشكل رسمى (مؤتمر إرفورت Erfurt، ١٨٩١). وتثير هاتان الواقعتان أهم المشاكل فى السوسيولوجيا السياسية يتعذر علينا تناولها. ولكن من الضرورى التشديد، من ناحية، على أن هاتين الواقعتين، من زاوية الأصولية الماركسية، هما واقعة واحدة فى الواقع لأنه ينبغى على كل حزب اشتراكى حقًا أن يكون ماركسيًا بحكم الضرورة - 'الدialeكتيكية'، ربما - ومن ناحية أخرى، فإن تبنى الحزب، الذى كان يتوسع بسرعة فى مسئوليته السياسية، لعقيدة معينة تفرض عليه الإحجام عن المسؤولية السياسية فى مجتمع رأسمالى، لم يكن السبيل الممكن الوحيد عند النظر إليه من أى زاوية أخرى غير الأصولية الماركسية: على العكس، فهو السبيل الأكثر مدعاة للاستغراب لأنه يميل إلى إثارة نزاعات داخل الحزب من شأنها إضعافه وهو ما حصل بالفعل قبل انقضاء القرن. ومع ذلك، فإن الحزب مضى عمليًا كحزب ماركسى بعزم وتصميم، وقد أتاح تنظيمه الهائل الإلهام، والدعم، والتشغيل - ضمن مسيرة منظمة حقًا - للماركسيين الأصوليين فحسب، وليس للاشتراكيين الآخرين، من حيث المبدأ على الأقل، مهما كانوا مخلصين أو راديكاليين. وقد تطور على هذا الأساس قطاع واسع ومقتدر من الأنصار المفكرين ممن قدموا أدبًا أصوليًا واسعًا. وإضافة إلى الصحف الحزبية، فقد كان لدى الحزب مجلة 'ثقيلة': Die Neue Zeit - كما صدرت فيما بعد المجلة النمساوية أيضًا: Kampf - قد تشكل دراستها أفضل طريقة للتعرف على عمل هذه المجموعة. أما الاشتراكيين غير الماركسيين، فكانوا فى عداد المنبوذين وخاضوا معركة شاقة

=السوسيولوجيا السياسية. انظر عمله: (State and Revolution English trans., 1919). لم يصف لينين أى شىء إلى التحليل الاقتصادى مما لم يستبقه ماركس نفسه أو الماركسيين الألمان. وهذا يسرى على تروتسكى أيضًا.

نوعًا ما كان الحزب يمتلك فيها وسائل كثيرة لكسبها. وهذه هو الوجه الأول من الميدالية. وقبل أن ننظر في وجهها الآخر، سنفحص ماهية النتائج التي تركها ذلك على التحليل الاقتصادي. من الواضح من البداية أن الأدب كان يميل، في ظل تلك الظروف، إلى أن يكون تبريريًا وتفسيريًا من حيث طبيعته، وأنه لم يكن من الممكن تحقيق أشياء جديدة كبيرة وظهور اختلافات جدية باستثناء تلك التي تتخذ صورة إعادة التفسير الحذر لمقاصد الأستاذ.

حتى وفاته (عام ١٨٩٥) كان فردريك انجلز، بوصفه رجل الحزب الأقدم، يفرض سلطة تعرضت للتحدي حقًا أحيانًا (من قبل روزا لوكسمبرغ Rosa Luxemburg، مثلًا) ولكنها لم تنجح في أي قضية قط ما عدا قضية التكتيكات. وقد انتقلت شئون القيادة العقائدية (مع شئون قليلة أخرى، كما في السياسة العملية مثلًا) إلى كارل كاوتسكى Karl Kautsky (١٨٥٤-١٩٣٨) الذي كان يعرف ماركس وكان صالحًا لدور الرئيس الأعلى لأسباب ليس أقلها أنه لم يكن صارمًا بصورة مطلقة وكان يعرف كيف يعقد التسويات عند الاختلاف، في إطار الحلقة الداخلية من الكتاب داخل الحزب، حول نقاط فردية^(٩٧). وقد نشر كاوتسكى العمل theorie (uber den Mehrwert (1905-10) {نظريات القيمة الفائضة}، ووضع ما يمكن تسميته الرد الرسمي على انتقادات بيرنشتاين Bernstein، وقطع كثيرة أخرى من التبريرية والانتقاد المضاد، وأنه كتب باقتدار عن التفسير الاقتصادي للتاريخ، وعالج نقاطًا من النظرية التطبيقية، وبخاصة قضية السياسة الزراعية الاشتراكية، مساهمًا بهذا الشكل في تطوير المذهب الماركسي هنا وهناك. ولم ينطو كل هذا على شيء أصيل جدًا. إذ إن طبيعة الموقف الذي تبناه من البداية كان سيحول دون الأصالة حتى إذا كان لديه قدر منها. ولكن إذا أخذنا عمل كاوتسكى ككل، فمن الممكن

(٩٧) لا تشكل صلة كاوتسكى بماركس وانجلز وولائه المؤكد للحزب المميزات الوحيدة التي أهلته لذلك الدور. فمما لاشك فيه أن ليس بوسع أحد أن يسير على طوالات طوال حياته دون أن يبدو عليه التكلف حينما يسير. إن كلا من إخلاصه لكل حرف من المذهب، من حيث المبدأ، وإعادة التفسير التي سمح هو بإجرائها لنفسه وللآخرين بالفعل، قللتا من شعبيته وسط الأتباع المتحمسين المصممين على المحافظة على أدوارهم الخاصة بهم. ومع أن كاوتسكى كان منظرًا، بيد أنه لم يكن منظرًا جيدًا، ولم يكن نذاً للمفكرين الأكثر المعية في المجموعة. ولكن لا ينبغي أن نسمح لهذه الأشياء بطمس شخصيته الرفيعة أو قدرته أو الخدمات التي قدمها للماركسية، وللعلوم الاجتماعية عمومًا عبر الماركسية.

التحدث عن عمل مهم تاريخياً^(٩٨). ويُشار عادة إلى الكتاب الذين نجحوا، وسط المناظرات الحادة، في تطوير جوانب جديدة إلى هذا الحد أو ذاك من المذهب الماركسي بالماركسيين-الجدد. ومع إن السنوات المنتجة لدى معظمهم تقع ضمن الفترة محل الدرس، فإن كثيراً من أعمالهم تعود إلى الفترة القادمة. ومع ذلك، فأنا نتبنى نفس التقليد الذي أخذنا به في قضايا أخرى، أي حمل عرضنا إلى الوقت الحاضر وذلك للتخفيف عن الجزء الخامس. وقد اخترت لأغراض التوضيح: باور، كوناو، غروسمان، هلفردنغ، لوكسمبرغ، شتينبيرغ.

من بين أكثر مَنْ أشعر بالأسف لعدم وجودهم في تلك القائمة هو ماكس أدلر Max Adler^(٩٩). ولكن هذا الرجل اللامع عانى من ضياع طاقته الكبيرة جراء نشاطاته الحزبية وممارسته للقانون بحيث إنه لم يكن قادراً على إنصاف مواهبه قط، رغم أنه كان عضواً مهماً في حلقة فينسيا من المنظرين الماركسيين. كان أوتو باور Otto Bauer (١٨٨١-١٩٣٨)، وهو رجل يتمتع بمقدرة استثنائية بشكل تام وشخصية رفيعة ليست أقل استثنائية، في نفس المآزق حتى قبل أن يعتلى منصبه القيادي. وإضافة إلى عمله حول السياسة الزراعية الذي ذكرناه من قبل، يمكننا أن نشير، على الأقل، إلى عمله: 'Akkumulation des Kapitals,' Die Neue Zeit, 1912-3 كمساهمة قوية وأصلية في التحليل؛ والكثير من كتاباته الأخرى يحمل أهمية كبيرة لدارس الفكر السياسي الماركسي. كتب رودلف هلفردنغ Rodolf Hilferding (١٨٧٧-١٩٤١)، وهو صديق حميم وحليف لباور، رداً بارزاً على انتقاد بوهم-باورك لماركس (Bohm-Bawerks Marx-Kritik, 1904 ; English).

(٩٨) إن الكتاب الذي قد يتضمن الكثير مما يعتبر عمل كاوتسكي على وجه التخصيص هو: Die Dgrafage (1899) حيث حاول كاوتسكي توسيع قانون ماركس للتركز ليشمل الزراعة. وقد جرى انتقاده في داخل معسكره حيث يمثل عمل أوتو باور: Sozialdemokratische Agrapolitik (1926) وجهات نظر بعيدة عن كاوتسكي. ولكن عمل كاوتسكي خلق الأدب الذي يظهر فيه عمل باور بوصفه العمل الأكثر بروزاً. والأعمال الأخرى التي ينبغي ذكرها قد تتمثل بما يلي: رد كاوتسكي - غير الخالي من النجاح - على بيرنشتاين: Bernstein und das Sozialdemokratische Progtamm (1899)؛ و (Die materialistische Geschichtsauffassung (2nd ed., 1929)؛ والعمل التفسيري ل: Das Erfurter Progtamm (١٨٩١)؛ الترجمة الإنجليزية تحت عنوان: Class Struggle, 1910)؛ والمقالة: 'Krisentheorien' (Die Neue Zeit, 1901-2).
(٩٩) الذي ينبغي عدم خلطه بفكتور أدلر Victor Adler، القائد الذي وحد (لفترة من الزمن) القطاعات الوطنية المختلفة من الاشتراكية النمساوية و فرتز أدلر Fritz Adler، ابن فيكتور، الذي حقق شهرة من نوع آخر أثناء وبعد الحرب العالمية الأولى.

1949 (trans. with introduction by P. M. Sweezy, 1949) وأشياء أخرى ما كنا لنهملها لو كان بوسعنا تقديم عرض أكمل، ولكن يجب أن يُشار إليه أساساً بوصفه مؤلف العمل الأكثر شهرة لدى مجموعة الماركسيين الجدد: (Das Finanzkapital 1910). فمهما كان رأينا بالنظرية النقدية القديمة إلى حد ما التي ترد في الفصل الأول من هذا العمل والنظرية النقدية في وقت الأزمات التي ترد في الفصل الرابع منه، فإن موضوعه المركزية (القائلة إن المصارف تميل لاكتساب السيطرة على الصناعة إلى حد بعيد وتنظيم هذه الأخيرة كمؤسسات احتكارية بما من شأنه أن يعطى النظام الرأسمالي استقراراً متزايداً)، هي موضوعة مهمة وأصلية (انظر الفصل الثالث من العمل بشكل خاص) وكان لها بعض التأثير على لينين، رغم أنها تمثل تعميماً مستعجلاً من مرحلة من التطورات الألمانية. أما ه. كونواو H. Conow (١٨٦٢-١٩٢٦)، فإن عمله الوحيد الذي له صلة بسياقنا هو سلسلة مقالاته ' Zur Rosa Luxemburg (١٨٧٠-١٩١٩)، فقد نُشرت أعمالها الكاملة Gesammelte Werke خلال الفترة ١٩٢٥-١٩٢٨، ولكن مساهمتها الأهم بالنسبة للنظرية الماركسية هي: ... Akkumulation des Kapitals (الذي يحمل عنواناً فرعياً: Contribution to the Economic Explanation of Imperialism, 1912). [أخبرني ب. م. سويزي أن هناك كتاباً ثانياً يحمل العنوان نفسه (ولكنه يحمل عنواناً فرعياً آخر) كتبته روزا لوكسمبرغ ردّاً على منتقديها حينما كانت في السجن أثناء الحرب وتم نشره عام ١٩٢١- الناشر]. يمثل ه. غروسمان H. Grossmann (Das Akkumulations- und Zusammenbruchsgesetz des kapitalistischen Systems, 1929) وفرتز شتيرنبرغ Fritz Sternberg (Der Imperialismus, 1926) جيلاً أكثر شباباً. الأول هو عالم ماركسي بشكل رئيسي. والثاني، الذي نُشرَ عملاً ناجحاً حديثاً (The Coming Crisis, 1947)، أقل اهتماماً بالنظرية الماركسية ولكنه يفضل أن يكتب عما يتصور هو أن ماركس كان سيكتبه لو كان حياً اليوم. وتدرج أعمالهما ضمن الانبعاث الماركسي الذي سنشير إليه بعد قليل.

تشير معظم تلك العناوين نحو هدف كان يجمع الماركسيين الجدد، رغم ما كان بينهم من مشاجرات حادة. فإذا طابقوا، وفقاً لروح ماركسية حقيقية، بين الفكر والعمل، النظرية والسياسة، فإنهم اهتموا أساساً بتلك الأجزاء من النظام الماركسي

التي لها صلة مباشرة، أو يبدو لها، بالتكتيكات الاشتراكية حول ما آمنوا أنها المرحلة الأخيرة- 'الإمبريالية'- من الرأسمالية^(١٠٠). وعليه، فأنتهم لم يهتموا إلا قليلاً بالديالكتيك الهيجلي، ونظرية القيمة القائمة على العمل، وقضايا من قبيل هل يمكن أم لا تحويل قيم ماركس إلى 'أسعار إنتاج' دون تغيير المجموع الكلي للقيمة الفائضة. فكل ما شغلهم هي الإمبريالية ومشكلة انهيار الرأسمالية وبالتالي نظرية التراكم، والأزمات، وتزايد البؤس. ومن المستحيل إنصاف الجوانب المختلفة جداً من الأنظمة البارعة إلى هذا الحد أو ذلك لدى الكتاب الفرديين. وتتمثل حصيلة محاولتنا بما يلي على نحو عام جداً. لقد نجح هؤلاء الكتاب نسبياً في إحكام نظرية اقتصادية للحماية، ولميل المجتمع الرأسمالي، سواء أكان الميل حقيقياً أم مزعوماً، لتطوير اتجاه متزايد لتأجيج الحروب. لن نحاول هنا عرض هذه النظرية أو نقدها^(١٠١). ولكن ينبغي على النقاد، الذين يشعرون بالميل للقسوة على هذه النظرية، أن يتذكروا ذلك اللون من المحاجة الذي تهدف هذه النظرية أن تحل محله: فهي قد تكون خاطئة، ولكنها أول محاولة للنظر إلى الظاهرة بطريقة تشبه الروح العلمية. إذ يجري بهدوء أما إهمال فكرة الميل المتزايد للبؤس أو ترحيلها إلى مستقبل غير محدد حيث تكون العوامل المضادة قد لعبت دورها (قارن، مثلاً، نظرية 'الموسم المغلق' الذي يتجمد خلاله ذلك الميل - نظرية شتيرنبرغ). لقد هيأت طريقة تأثير نظرية التراكم والانهيار ساحة القتال التي كانت حرارتها على أشدها. وهنا، يشكل تخلي هلفردنغ الصريح عن نظرية انهيار الرأسمالية الحدث الأكثر إثارة: إذ شدد هلفردنغ حتى على أن المجتمع الرأسمالي، لو يُترك لحاله، من شأنه أن يعزز من وضعه بشكل متزايد ويتحجر نحو نوع من التنظيم 'الإقطاعي' أو 'الهرمي'. لقد كان هذا خيانة كبيرة بالنسبة للبعض، طبعاً. ولكن حتى أولئك أو البعض من أولئك الذين رفضوا نظرية هلفردنغ إنما خفوا وحولوا

(١٠٠) وهذا يسرى عليهم جميعاً ولو بدرجات مختلفة جداً. وهذه هي نقطة الارتباط بمذهب لينين وتروتسكي، التي هاجمت الإمبريالية بصورة كلية. ومن المفيد مقارنة أفكار باور وهلفردنغ، مثلاً، بالأفكار المعروضة في عمل لينين 1933 (Imperialism (English trans., حيث يتبين، من نواح أخرى، أن الماركسيين الجدد كانوا معادين للبشافية.

إثمة مقالتان طويلتان كتبهما ج. شومبيتر (وتم نشرهما عام ١٩١٩ وعام ١٩٢٧ أصلاً) هاجمت الأولى منهما وجهات النظر الماركسية-الجديدة هذه، وقد ترجمت إلى الإنجليزية تحت عنوان: [Imperialism and Social Classes (1951).

(١٠١) يجد القارئ عرضاً أصولياً جداً لذلك اللون من المحاجة في عمل ب. م. سوزي، المذكور سابقاً: Theory of Capitalist Development.

نظرية انهيار الرأسمالية، المذهلة، لماركس - ذلك لأن الكلمات لو كان لها معنى، فإن هذا الشيء هو ما تصوره ماركس - إلى مجرد عدم قدرة المجتمع الرأسمالي على المحافظة على المعدل التقليدي للتراكم، الأمر الذي يعنى تقريباً الاستقرار عند حالة راكدة stationary state، كان ريكاردو قد تصورها، ويصعب أن يماثل الأفكار التى تثيرها كلمة: انهيار Breakdown (١٠٢).

[ب) الحركة التنقيحية وانبعاث الماركسية] قبل أن نستمر، لنلقى نظرة على الوجه الآخر من الميدالية: الحركة التنقيحية. وكما أوضحنا، فلم يكن من المتوقع من حزب كبير جداً، وجمهور كبير جداً من المتعاطفين، أن يقبلوا إلى ما نهاية ترتباً مذهبياً كهذا الذى يشدد الماركسيون الصارمون على فرضه. إن عدم الاكتراث بالتفاصيل الفلسفية والنظرية، أكثر من قبولهما، هو الذى ضمنَ تمرير قرارات إرفورت. وجاءت المكافأة حينما عزم بيرنشتاين (١٠٣) - وهو رجل مهم للغاية، ولم يكن من النوع الذى لا يهمه المذهب، وآمن، علاوة على ذلك، بأن العقيدة الماركسية يمكن أن تضر الحزب - على المخاطرة بشن هجوم مباشر. إذ أدان بيرنشتاين بصورة شاملة كل مفاهيم: 'الديالكتيك'، والمادية التاريخية، والصراع الطبقي، ونظرية العمل، والبؤس المتزايد، والتركز، والانهيار (بما فى ذلك الإيديولوجيا الثورية). ونحن هنا لا نهتم بالشجار الناشئ، أو بتكتيكات أوغسطين بيبيل August Bebel، رجل القيادة العليا، الذى أبدى، بوصفه رجل التكتيك المقدر، القدر المطلوب من الغضب الشديد فى البداية ثم أثر الخضوع الأساسى بعيداً عن التطرف - ولو أن المنارات الأقل شأنًا عوقبت بصور مختلفة - وأذن أخيراً لحالة من الأشياء سمح فيها بالتنقيح فى الحزب شريطة الامتناع عن النشاط العدائى الفعال. كما أننا لا نهتم بواقع أن كثيراً من رجال الحزب البارزين كانوا أو أصبحوا تنقيحيين، وواقع أن هذا الجناح اكتسب مجلته الخاصة به (Sozialistische Monatshefte) وكتابه الخاصين به. فمع إن بعض الكتاب أنجزوا عملاً يستحق الثناء، وبخاصة حول قضايا عملية فردية - كما فعل شيبيل مثلاً حول

(١٠٢) جرت مناقشة عمل هلفردنغ ولوكسمبرغ بصورة موجزة، ولكن باهرة، فى عمل ادوارد هايمان (History of Economic Doctrines (1945: Eduard Heinmann).

(١٠٣) كان ادوارد بيرنشتاين Eduard Bernstein (١٨٥٠-١٩٣٢) اشتراكياً مجرباً، وفوق ذلك، رجلاً عالماً وبيعت على البهجة، ورجلاً مهماً بوصفه من الحرس القديم. ولكن سنوات الاغتراب لم تجعل منه راديكالياً؛ بل فابياً. ولا يلزمنا من كتبه سوى الكتاب الذى صدر عام ١٨٩٩. والكتاب متوافر بالإنجليزية تحت عنوان: (Evolutionary Socialism (1909).

سياسة التجارة الخارجية - بيد أن هذا العمل فقدَ معظم طابعه المتميز بشكل محتوم. فكل ما يهمنا هو النتائج الصافية التي تركتها المناظرة التنقيحية على التحليل الماركسي. ومن المأمون أن نقول أن هجوم بيرنشتاين كان له أثر تشجيعى وقدمَ صياغات أفضل وأكثر دقة هنا وهناك، وربما ساهم نوعاً ما فى تزايد استعداد الماركسيين لنبذ النبوءات التي تشير إلى البؤس المتزايد والانهيـار. ومع ذلك، يتعذر أن نقدر هذه النتائج كثيراً، بقدر تعلق الأمر بالوضع العلمى للماركسيين. ذلك لأن هجوم بيرنشتاين أثبت أنه أضعف أثراً على التحليل من الأثر الذى يمكن استنتاجه على الحزب وعلى الجمهور العام. كان بيرنشتاين رجلاً باهراً، ولكنه لم يكن مفكراً عميقاً، لم يكن منظرًا بشكل خاص. وقد كانت حجته ضحلة فى بعض النقاط، وبخاصة بالنسبة للتفسير الاقتصادى للتاريخ وتركز القوة الاقتصادية. وفى نقاط أخرى، قدّم بيرنشتاين لوناً من المعرفة البديهية كان بوسع أى راديكالى برجوازى أن يقدمه. وكان كاوتسكى، بمعزل عن أى شىء آخر، أكثر من ند له عند الرد عليه. ولولا الدلالة السياسية للاهتمام الذى حصل عليه بيرنشتاين، لكان بوسع الماركسيين ألا يقلقوا كثيراً بشأنه.

ونمضى الآن لملاحظة ظاهرتين تعودان لفترات لاحقة. لم يبدِ التحليل الماركسى، قبل عام ١٩١٤، سوى علامات قليلة على الاضمحلال. والزعم المعاكس لم يأت فى الغالب، طبعاً، إلا من الكتاب الذين تهيمن الرغبات على فكرهم. ولكننا، أثناء عشرينيات القرن العشرين، نلاحظ ظاهرة أهم علمياً من الحركة التنقيحية: إذ إن عدداً متزايداً من الاقتصاديين الاشتراكيين - كان بعضهم راديكالياً جداً فى الشؤون السياسية، ولم يكن كلهم تنقيحيين revisionists - أو من أنصار أحزاب العمل 'laborist بالمعنى السياسى - كانوا يبدون الاحترام الكامل لماركس، بيد أنهم شرعوا، رغم ذلك، بإدراك إن علمه الاقتصادى البحت بات عتيقاً obsolete. لقد ظلت الماركسية عقيدتهم وأنهم بقوا ماركسيين من حيث الولاء، ولكنهم، فى القضايا الاقتصادية البحتة، شرعوا يحتاجون وكأنهم غير ماركسيين. وبعبارة أخرى، لقد تعلم هؤلاء الاقتصاديون الاشتراكيون حقيقة أن النظرية الاقتصادية هى أداة للتفكير؛ وإن هذه الأداة محايدة من حيث طبيعتها وأن من الخطأ الاعتقاد إن النضال لصالح النظرية الماركسية أو ضد نظرية القيمة القائمة على المنفعة الحدية هو أمر يخدم الاشتراكية؛ وأن كل أداة ليست بمنجى من

أن تصبح عتيقة؛ وأن الدفاع الأدبي عن قضية الاشتراكية يفقد فعاليته عند التمسك بالأدوات البالية. ومن المتعذر أن نظرى كثيراً أهمية هذا الطرح بالنسبة لتطوير اقتصاد علمى بصورة حقيقية: فهنا هنا أخيراً ثمة اعتراف، من جانب المجموعة الأشد كرهاً لهذا الاعتراف، بوجود قطعة من الأرض يمكن أن تشيد عليها بُنى علمية بشكل موضوعى. ويمكن أن يمثل هذا الاتجاه فى العشرينيات كل من ليدرر ودوب اللذين يمكن الاستشهاد بهما أيضاً للتدليل على حقيقة أن هذا الاعتراف لا ينبغى، على الأقل، أن يؤثر على الحماسة السياسية^(١٠٤): فالاعتراف لم يعنِ بالنسبة لهما الاستهانة بالقضايا العملية، بل هو قضية منطق لدى كليهما. إن هذا الكسب لم يضع كلياً فى الاضطراب الذى حدث فى الثلاثينيات التى شهدت الانبعاث الماركسى الذى نلاحظه. فما يزال من الممكن التشديد على أن الاشتراكي المتعلم بصورة علمية لم يعد ماركسياً إلا فى قضايا السوسيولوجيا الاقتصادية. ويصلح الكاتبان لانجه O. Lange و أ. ب. ليرنر A. P. Lerner كأمثلة على ذلك^(١٠٥).

إن الظاهرة الأخرى التى تتبغى ملاحظتها هى ذلك الانبعاث الماركسى بالضبط. إن سوسيولوجيا هذا الانبعاث واضحة جداً بحيث إنه لا ينبغى أن نسمح لها أن تعطلنا. ولكن ثمة ثلاثة جوانب منها تستحق الاهتمام من زاويتنا. أولاً، رغم أنه لم يضيع كلياً الكسب الذى حققه التحليل من الاتجاه المذكور تَوّاً - كما بينت ذلك أمثلتنا التوضيحية - بيد أن هذا الكسب قد ضاع جزئياً: إذ انقلب اقتصاديون مرموقون إلى ماركسيين، ليس بمعنى قبول رسالة ماركس الاجتماعية والسياسية - فهذا كان سيكون شأنهم - أو بمعنى أنهم (كأوسكار لانجه) قبلوا الكثير أو كل

(١٠٤) يمكن وصف إميل ليدرر Emil Lederer (١٨٨٢-١٩٣٩)، الذى كان فى سنوات عمره الأخيرة عضواً فى كلية الخريجين فى العلم السياسى والاجتماعى فى المدرسة الجديدة للبحوث الاجتماعية فى نيويورك، بأنه الاشتراكي الأكاديمي الأساسى فى ألمانيا فى العشرينيات وكان معلماً مؤثراً فى جامعات هايدلبرغ وبرلين. ويعكس كتابه المدرسى الصغير (Grundzüge der ökonomischen Theorie, 1922) الاتجاه المذكور فى المتن على نحو جيد. لم يكن موريس دوب Maurice Dobb مشعباً بالماركسية قط؛ وينبغى رد هذا إلى البيئة الإنجليزية. ولكن عواطفه، الفكرية وغير الفكرية، كانت مع ماركس أكثر مما مع مارشال أو مع الفايين. ومع ذلك، يتعذر وصفه كماركسى بقدر تعلق الأمر بالتحليل الاقتصادى. انظر عمله: Capitalist Enterprise and Social Progress (1925).

(١٠٥) جعل أوسكار لانجه O. Lange الاتجاه المعنى واضحاً جداً فى مقالته: 'Marxian Economics and Modern Economic Theory,' Review of Economic Studies, June 1935 الذى أحيل القارئ إليه.

السوسيولوجيا الاقتصادية لماركس - فهذا أمر كان يمكن الدفاع عنه - وليس بمعنى أنهم يحترمون العظمة التاريخية لماركس - فلا يختلف معهم في هذا سوى قليلين - ولكن بمعنى أنهم يحاولون بالفعل إحياء الاقتصاد البحت لدى ماركس، موحدين جهودهم بهذا الشكل مع بقايا الماركسيين الجدد. والمثالان البارزان هما ب. م. سويزي P. M. Sweezy و ج. روبنسون J. Robinson^(١٠٦). ثانيًا، ثمة محاولات لجعل ماركس كينزيًا أو مركسة كينز. تكشف هذه المحاولات الكثير جدا عن الإيديولوجيا السائدة ولكنها تعكس أيضًا إدراك مهمة تحليلية بحثية. إن من الممكن حقًا إغناء معاني كلا هذين الكاتبين من خلال نقاط تُستخلص من أحدهما الآخر، رغم إنهما يقفان في أقطاب متعارضة في قضايا ذات أهمية حاسمة تحليليًا. ولكن هذه المحاولات لم تصل قط، بقدر ما أعلم، إلى محاولة تنشيط الجهاز النظري لماركس^(١٠٧). ثالثًا، مع أن انتشار ماركس في إنجلترا والولايات المتحدة يمثل، جزئيًا، مجرد النتيجة الطبيعية للاغتراب، ولكنه شيء أكثر من ذلك أيضًا. فالطالب الإنجليزي أو الأمريكي لعلم الاقتصاد يتلقى مذهب ماركس كشيء جديد وطازج، كشيء يختلف عن المادة المتداولة ويوسع من آفاقه^(١٠٨). إن هذا التأثير يمكن أن يضيع حقًا في عواطف ليس لها من قيمة علميًا، ولكنه قد يثبت فعاليته. وفي جميع الأحوال، ينبغي إدراج تأثير ماركس ضمن عوامل الوضع العلمي في الوقت الحاضر.

(١٠٦) لقد أوصيت بقوة بعمل سويزي: (Theory of Capitalist Development (1942) كعرض ممتاز لتعاليم ماركس الاقتصادية (وتعاليم معظم الماركسيين الجدد). إن الشيء الذي يسترعى الانتباه الآن هو أن الدكتور سويزي يعتقد أن النظرية الاقتصادية المطروحة هناك يمكن استعمالها حقًا ex visu of {انطلاقًا من} اليوم وأنها لا تضاهي فقط التكنيك المستخدم لدى لانجه، مثلاً، بل إنها أرفع منه. بل إن ما يبرز أكثر، ويمثل لغزًا نفسيًا نوعًا ما، هو مقالة ج. روبنسون: Essay on Marxian (1942 Economics). حول هذا الأمر، انظر مقالة السيد شوف Mrs. Robinson on 'Shove'. Marxian Economics,' in the Economic Journal, April 1944.

(١٠٧) قام بإحدى أهم هذه المحاولات س. الكسندر S. Alexander في مقالته: 'Mr. Keynes and Mr. February 1940. Marx,' Review of Economic Studies

(١٠٨) يعود أحد أسباب ذلك إلى أن ماركس كان وما يزال لا يُدرس في التعليم الجارى، وبخاصة في المقررات النظرية. ويعود أحد أسباب هذا السبب بدوره إلى صعوبة موازنة ماركس مع التعليم الجارى. فبسبب محاسن وعيوب ماركس معًا (مثلاً، بسبب إسهابه وتكراره اللذين يجعلان المواد التي تقرر على الطلبة assignments صعبة)، يجرى أما استبعاده لعدم كفاية المجال أو، على العكس، يقوم هو باستبعاد بقية المادة التي يشعر المعلمون بضرورة تغطيتها.

الفصل السادس

الاقتصاد العام: طبيعته ومحتوياته

- ١- الإطار العام
 - (أ) الإطار السوسيولوجي للاقتصاد العام
 - (ب) السكان
- ٢- الرؤيا، والمنشأة، ورأس المال
 - (أ) الرؤيا
 - (ب) المنشأة
 - (ج) رأس المال
- ٣- الثورة فى نظرية القيمة والتوزيع
 - (أ) نظرية القيمة التبادلية
 - (ب) التكلفة، الإنتاج، التوزيع
 - (ج) الاعتماد المتبادل والتوازن
- ٤- موقف مارشال والتكلفة الحقيقية
- ٥- الفائدة، الربح، الأجور
 - (أ) الفائدة
 - (ب) الربح
 - (ج) الأجور
- ٦- مساهمة الحقول التطبيقية
 - (أ) التجارة الدولية [عنوان فقط؛ القسم غير مكتوب]
 - (ب) المالية العامة [غير مكتمل]
 - (ج) اقتصاد العمل
 - (د) الزراعة [عنوان فقط؛ القسم غير مكتوب]
 - (هـ) السكك الحديدية، المرافق العامة، 'الترسبات'، والكراتلات

١- الإطار العام outposts

(أ) الإطار السوسيولوجي للاقتصاد العام^(٢٤٥) سبق أن رأينا أن السوسيولوجيا الاقتصادية، وبخاصة المعرفة التاريخية والاثنية المتعلقة بالمؤسسات الاجتماعية، كانت تتقدم بصورة مرضية خلال الفترة محل الدرس. ولكن الاقتصاد العام، الذى ننوئ تناوله الآن، لم يتأثر إلا قليلاً بهذه التطورات. فالإطار المؤسسى لم يُمس عملياً، أى أنه ترك على نفس الشكل الذى صاغه 'الكلاسيك' الإنجليز، وبخاصة ج. س. ميل. فالبلدان nations ما تزال تُفهم ككتل غير منظمة من الأفراد. كما أن الطبقات الاجتماعية لم يتم النظر إليها ككيانات حية ومكافحة ولكن كمجرد أسماء تُلصق بوظائف اقتصادية (أو فئات وظيفية). كما أن الأفراد أنفسهم لم يجرِ النظر إليهم ككائنات حية ومكافحة: فقد استمروا كمجرد حبال غسيل تُعلق عليها فرضيات المنطق الاقتصادي. ومع تزايد صرامة العرض، أصبحت هذه الحبال مرئية أكثر مما كانت عليه فى أعمال الفترة السابقة^(٢٤٦). وقد أثار هذا سخرية النقاد. إذ وجدوا فيه سوسيولوجيا فقيرة وحتى علم نفس أقر. وكما فعل سابقوهم فى النصف الأول من القرن التاسع عشر، فقد عجز هؤلاء النقاد عن رؤية

(٢٤٥) أشير 'مجدداً إلى: (P. T. Homan, Contemporary Economic Thought (1928). يعالج هذا الكتاب فكر الفترة التى ندرسها الآن أكثر من الفكر الذى كان 'قائماً' عام ١٩٢٨. والمرجع الثانى الذى ينبغي تكرار الإشارة إليه هو: (G. J. Stigler, Production and Distribution Theories 1941).

(٢٤٦) وهذا يفسر بقاء وحتى الإكثار من استعمال اثنين من المفاهيم كانا بشكل خاص وراء إثارة مرح النقاد أو غضبهم. أولاً، لإظهار جوانب معينة من المنطق البحث من الاختيار، فقد استعمل بعض المنظرين المفهوم القديم عن فرد منعزل أسموه روبنسون كروزو. وهنا فكلما كان الناقد يفهم أقل مما كان يطرحه المنظر، فإنه كان يزداد مزحاً وهو يشهد الاقتصاديين يحاولون حل المشاكل الاجتماعية من خلال 'درس وتمحيص كروزو' drilling Crusoe. ثانياً، لإظهار جوانب أخرى من المنطق البحث من السلوك الاقتصادي، استعمل بعض المنظرين (مثل باريتو) مفهوم الإنسان الاقتصادي، homo oeconomicus. لم ينطو الاستعمال الفعلى الذى استخلصه المنظرون من هذا المفهوم على أى شىء خاطئ. ولكن النقاد لم ينظروا إلى هذا الاستعمال الفعلى بل إلى الصورة الكاريكاتورية المضحكة ذاتها التى تصوروا أنها فكرة الاقتصاديين عن الطبيعة البشرية. وقد جعل الدفاع غير الملانم الأمور أكثر سوءاً أحياناً، رغم أن بعض الاقتصاديين القياديين وبخاصة منجر ومارشال أشاروا إلى كل ما هو ضرورى لتجنب سوء الفهم. إن العبارة الموقفة للأخير التى تقول إن الاقتصادى يدرس الإنسان فى المسارات العادية لحياة الأعمال ذهبت فى الاتجاه الصحيح نوعياً ما. ثمة ملاحظتان تتبغى إضافتهما: حقيقة أن الكلمة الألمانية wirtschaftssubjekt لا تشكل مرادفاً للإنسان الاقتصادي، رغم أنها ترجمت بهذا الشكل فى الغالب؛ ثانياً، إن من السهل تجنب استعمال المصطلح الأخير دون تغيير معنى العبارات التى يُستعمل فيها- فبدلاً من القول إن هذا أو ذاك سوف يحدث، يمكننا أن نقول بأن هذا أو ذاك من الأفعال من شأنه مضاعفة الإشباع أو الربح، مثلاً.

إن هذه المنهجية، بالنسبة لمدى محدد من المشاكل، كانت منهجية سليمة رغم ذلك. ونظراً لأهمية مشاكل التفسير بهذا الخصوص، فأنتنى سوف استطرد للحظة لمحاولة التوضيح مرة أخرى.

اتهم الماركسيون بشكل خاص، ولكن آخرين أيضاً، منظري المنفعة الحدية بالمذهب النفسوى Psychologism أى بالإهمال التام للمشكلة الحقيقية لعلم الاقتصاد التى تتمثل بالوقائع الموضوعية لعملية الإنتاج الاجتماعية، وبإحلال المشاكل الثانوية تماماً لردود الأفعال النفسية أو مواقف الأفراد الذاتية محل تلك الوقائع الموضوعية (انظر، مثلاً، ملاحظة كاوتسكى على المدرسة النمساوية، ص ١٩، من مقدمته للمجلد الأول من Theorien uber den Mehrwert, 1905-1910). إن النمساويين والمجموعات الأخرى، لسوء تشديدهم على الكميات 'النفسية'، ينبغي أن لا يلوموا غير أنفسهم لهذا الاعتراض الخاطئ الذى يمكن التخلص منه، بقدر تعلق الأمر بالمعترضين الماركسيين، من خلال الإشارة إلى أن النظريات 'الجديدة' يندر أن تكون أكثر 'نفسانية' من نظريات ماركس الذى لم يتردد قط فى اللجوء إلى نفسية الرأسمالى (كما فى موضوع التراكم، مثلاً) كلما شعر أن من الملائم أن يفعل هذا. ومع ذلك، فقد اعترض أيضاً عدد متزايد من النقاد ليس على علم النفس بحد ذاته حقاً بل على علم النفس القائم على المتعة hedonistic psychology أو على علم نفس آخر غير سليم بصورة أخرى يُعتقد أن المنظرين الاقتصاديين استخلصوا فرضياتهم منه. سنمر بهذه الاعتراضات فى موضع آخر بصورة موجزة (انظر الفصل السابع، أدناه). أما هنا، فنهتم بثلاثة مصادر أخرى من النقد أو سوء الفهم، سنسميها لغرض التعريف: المذهب الفردى السياسى، المذهب الفردى السوسيولوجى، والمذهب الفردى المنهجى.

نقصد بالمذهب الفردى السياسى Political Individualism مجرد الموقف القائم على عدم التدخل فى قضايا السياسة الاقتصادية، الموقف الذى أخذ، فى ألمانيا، اسم مذهب سمث أو مدرسة مانشستر. لقد رُمى الاقتصاديين، الذين وضعوا بُناهم النظرية وفقاً لفرضيات عن سلوك الأسر أو المنشآت الفردية، بشبهة التوصية بنتائج التفاعل الحر لمصالح الأفراد الشخصية التى قاموا بوصفها. ومما أكد هذه الشبهة، من زاوية المنتقدين، واقعة أن كثيراً من أولئك المنظرين كانوا ليبراليين اقتصاديين فعلاً بذلك المعنى وواقعة إن بعضاً منهم، مثل باريتو فى المرحلة الأولى

من سيرته، سخرّوا نظريتهم لخدمة سياسة ليبرالية متطرفة. ولكن هذا لم يعن أكثر من إن أنصار عدم التدخل، شأنهم شأن غيرهم، انغمسوا بالعادة السيئة المتمثلة بإطلاق العنان لتفضيلاتهم السياسية كلما كانت تجرى مناقشة التطبيقات العملية. ومع ذلك، وكما سبق لنا أن لاحظنا، فإن الغالبية لم تعد تناصر سياسة عدم التدخل المطلقة. وأن هذه السياسة كانت تتغير مع تغير الأزمنة. إذ أخذ المنظرون الإنجليز والنمساويون بالسياسة الاجتماعية Sozialpolitik والضرائب التصاعدية. وجاهر مارشال بتعاطفه مع الأهداف النهائية للاشتراكية مع أنه عبّر عن مناصرته بصورة ليس من شأنها أن تستثير سوى النخبط. أما فالراس، فأحسن ما يُوصف به هو أنه شبه-اشتراكي، وأن أحسن وصف لفكره هو إنه راديكالي برجوازي. ومع ذلك، فإن الأهم هو إدراك إن الليبرالية السياسية، بقدر تعلق الأمر بتبنيها حقاً من جانب منظري الفترة، لا تمت بأية صلة لنظريات المنفعة الحدية لدى هؤلاء المنظّرين. من المؤكد إن الماركسيين كانوا يعتقدون بأنه قد تم ابتكار هذه النظريات لأغراض التبرير الاجتماعي. ولكن النظريات الجديدة ظهرت كتخصية تحليلية بحثة لا شأن لها بالقضايا العملية. وليس فيها ما يخدم التبرير أفضل مما كان في النظريات الأقدم. وفي الواقع، أن من الأسهل التشديد على العكس (قارن، مثلاً، المضامين المساواتية 'لقانون' تناقص المنفعة الحدية)؛ وأن الاقتصاديين 'البرجوازيين' كانوا هم من طوروا، خلال تلك الفترة، النظرية العقلانية للاقتصاد الاشتراكي (انظر الفصل السابع، القسم الخامس، أدناه)؛ وإن مارشال وإديجورث وفيسكل كانوا هم من اخترعوا المذهب القائل إن المنافسة الحرة والتامة تمنع الإشباع لدى الجميع إلى مستوى كلام زائد ليس منه ضرر^(٢٤٧).

نقصد بالمذهب الفردي السوسيولوجي Sociological Individualism وجهة النظر التي كانت سائدة على نطاق واسع في القرنين السابع عشر والثامن عشر القائلة إن الفرد المسير ذاتياً يشكل الهدف النهائي للعلوم الاجتماعية؛ وأن كل الظواهر الاجتماعية تتحلل إلى قرارات وأفعال للأفراد لا تحتاج، أو يتعذر تحليلها من خلال، عوامل فوق فردية. ليس من الممكن طبعاً الدفاع عن وجهة النظر هذه طبعاً بقدر ما فيها من نظرية للعملية الاجتماعية. ومع ذلك، فلا ينتج عن هذا،

(٢٤٧) تبين حالاً فالراس وباريتو كيف أن النظرية الجديدة للقيمة كانت مستقلة عن التفضيل السياسي حقاً: فباريتو، الذي لم يكن سوى تابع لفالراس في قضايا النظرية، قد طور نظام الأخير في عدد من النقاط التقنية، بينما ثمة فجوة واسعة بين الاثنين من الناحية السياسية.

بالنسبة للأغراض الخاصة لمجموعة محددة من البحوث، إن من غير المقبول قط الانطلاق من السلوك المعطى للأفراد دون تناول العوامل التى شكلت هذا السلوك. إذ يمكن تحليل سلوك ربة البيت فى السوق دون درس العوامل التى شكلته. فقد تتطلب هذا الأمر اعتبارات تقسيم العمل بين الأنظمة الاجتماعية المختلفة وليس من داع للجوء إلى أى نظرية حول موضوع: الفرد والمجتمع. وفى هذه الحالة، فإننا نتحدث عن: المذهب الفردى المنهجي Methodological Individualism. كيف يسرى هذا المفهوم على المدخل الفعلى للاقتصاد العام فى تلك الفترة؟

من ناحية، صحيح أن العوامل التى تؤثر فى تشكيل البيئات، ومواقف الجماعة، تقييمات الجماعة، وما شابه، لم تؤخذ بالاعتبار بأى صورة غير تلك التى أخذ بها ج. س. ميل^(٢٤٨)، وهذا يشكل أحد الأسباب التى تفسر لماذا كان ينبغى على المدرسة التاريخية، فى تميز واع، أن تشدد على الجوانب 'الأخلاقية' بالقدر الذى شددت عليه. وأن مارشال، الذى فعل فى هذا الاتجاه أكثر من أى من المنظرين القياديين، ما يزال ضمن ذلك التقليد المستقر. صحيح أيضاً أن فشل المنظرين فى تجاوز هذا الأمر كان يتجلى - كما هو شأنه اليوم أيضاً - فى معالجتهم لعدد من المشاكل التى هى 'اقتصادية بحتة' رغم ذلك. ومن ناحية أخرى، مع ذلك، يمكن أن نبين إنه، ضمن حدود المشاكل التى تهمهم أساساً، أى ضمن حدود المشاكل التى تقع فى نطاق منطق الآليات الاقتصادية، يمكن تعريف مدخل منظرى تلك الفترة بأنه مذهب فردى منهجى، وإن نتائجهم، إلى الحد الذى بلغته، لم تضعفها المحدوديات الكامنة فى هذا المدخل.

(ب) السكان نعلم بأن نظرية السكان، النظرية المalthusية بشكل رئيسى، تشكل جزءاً جوهرياً من الاقتصاد العام فى الفترة السابقة. وهذا يعنى أكثر من أن الاقتصاديين كانوا قلقين بشأن ضغط السكان، وأن هذه المدارك قد أثرت على رؤاهم للمستقبل الاجتماعى وأفكارهم بشأن السياسة الاقتصادية. أنه يعنى إن الفرضيات المتعلقة بمعدلات الزيادة السكانية، الفعلية والمتوقعة، دخلت فى تنظيرهم تماماً كما دخل قانون تناقص الغلة، وبالتالي فإن تحليلهم النظرى كان سيكون غير

(٢٤٨) يجد القارئ تحليلاً منوَّراً لهذا النطاق من المشاكل، مع إشارة خاصة إلى مارشال، فى مقاليتين للبروفيسور تالكوت بارسون Talcott Parsons فى مجلة: Quarterly Journal of Economics، November 1931 and February 1932 ('Wants and Activities in Marshall' and 'Economics and Sociology Marshall in Relation to the Thought of His Time').

كامل من دون تلك الفرضيات. وعليه، فإن سنيور كان على حق حينما أدخل مذهباً مalthوسياً ضعيفاً ضمن مسلماته الأساسية للنظرية الاقتصادية. والنقطة الجوهرية التي ينبغي إدراكها هي أن هذا الأمر قد كف عن أن يكون كذلك خلال الفترة المدروسة. فليس من منظر عام ١٨٩٠، مثلاً، كان يمكنه بالتفكير بفعل ما فعله سنيور. ولا يعود السبب أساساً، كما هو واضح، إلى أنه لم يعد هناك سبب مباشر للقلق من ضغط السكان: بل يعود إلى أن نظام المنفعة الحدية لم يعد يعتمد على فرضية محددة بشأن معدلات الولادة أو الوفاة وأن هذا النظام كان في وضع يسمح بأن يأخذ بالاعتبار أى فرضية يفكر بها باحث ما. وهكذا مال الفرع السكاني من الاقتصاد العام للتلاشي، وأن حقلاً خاصاً بالدراسات السكانية تطور في مكانه ليس من الضروري أن يقتصر الاهتمام فيه على الاقتصاديين. وهذا يفسر لماذا لم نعد نهتم بالموضوع بصورة حيوية ما دمنا غير قادرين على استعراض هذا الحقل بدقة ولماذا نعتزم التخلص منه عبر الملاحظات الثلاثة التالية.

أولاً، رغم أن هذا الموضوع لم يعد جوهرياً بالنسبة إلى الاقتصاد العام، بيد إنه لم يُهجر بصورة سريعة وذلك لطول فترة الاهتمام به. ومن المهم نوعاً ما أن نلاحظ إن معظم الاقتصاديين القياديين واصلوا قبول الموضوعة المalthوسية بشكل أو بآخر، على الأقل بالنسبة لمستقبل غير منظور: فقد أظهر بوهم-باورك، ومارشال، وفالراس (إلى حد ما) وفيكسل^(٢٤٩). احترامهم لهذه الموضوعة حتى ولو أنهم لم يعودوا يبنون عليها أى جزء من بُناهم التحليلية. وبالنسبة للأمور الأخرى، فقد تواصلت في المراجع المدرسية والدراسات التاريخية مناقشة غير حاسمة حول القانون المalthوسي أنقسم فيها الاقتصاديون بين مؤيد له ومعارض^(٢٥٠).

(٢٤٩) تميّز فيكسل بشكل خاص في اعتبار زيادة السكان بوصفه الخطر الرئيسي الذي يتهدد مستوى معيشة الطبقة العاملة المتزايد بصورة مطردة - إلى حد عرضه إلى مشاكل مع الحكومة السويدية. لنلاحظ بشكل عابر إن فيكسل كان قد أحى مفهوم السكان الأمثل. حول هذا الأمر، انظر: L. Ronnins, 'The Optimal Theory of Population,' (in Gregory and Dalton. Eds., London Pareto on 'Essays in Economics in Honour of Edwin Cannan, 1927 Quarterly 'Population', انظر المقالات المنوّرة التي كتبها ج. ج. سينغلر J. J. Spengler فى: 'Journal of Economics, August and November 1944

(٢٥٠) ربما يتعين على أن أذكر، كأفضل مما في البقية، المقالة الأحدث التي كتبها ف. أ. فيتر F. A. Fetter (1894: Versuch einer Bevölkerungslehre) وعمل ف. أوبنهايمر F. Oppenheimer: Das Bevölkerungsgesetz des T. R. Malthus (Law of Population, 1900) وعمل أ. لوريا A. Loria (1909: Malthus). وللحصول على استعراضات عامة، انظر: R. Connard, Historie des (doctrines de la population (1923) and F. Virgili, Il problema della popolazione 1924)

ثانيًا، إن الهبوط في معدل الولادة، الذي ظهر أولاً لدى مجموعات الدخل - الأعلى أولاً ثم امتد إلى المجموعات الأقل دخلاً، وفي المدن أولاً وفي الريف من ثم، وفي بعض البلدان أولاً ومن ثم في كل البلدان المصنعة عملياً، قد قاد في الفترة اللاحقة إلى نوع من المذهب المalthوسي باتجاه معاكس، أى القلق الواسع على النتائج الاقتصادية المتوقعة لو تواصلت معدلات الولادة والوفاة بنفس الحال الذي كانت عليه في العشرينيات - وهو استقرار يعيد وضع المنهجية المalthوسية بالاتجاه المعاكس إذا أهملنا التفاصيل والتكنيك^(٢٥١). ولا نجد في الفترة محل الدرس سوى بداية هذا الاتجاه. وعلاوة على ذلك، فإن هبوط معدل الولادة ذاته - أو بالأحرى الدوافع المسؤولة عن سببه المباشر الواضح: منع الحمل - قد طرح مشكلة في التفسير تعرض للهجوم من لدن وجهات نظر مختلفة. ويتعين على الاكتفاء بما يبدو لي العمل الأكثر أهمية في هذا الحقل، رغم أنه يعود إلى الفترة اللاحقة: 'نظرية الازدهار' كتفسير لهبوط معدل الولادة، وهي النظرية التي وضعها مومبرت^(٢٥٢).

ثالثاً، إن التقدم الثمين حقاً الذي تحقق في هذا الحقل هو التطوير الواسع لطرق عرض وتفسير المادة الديموغرافية. فقد ساعد هذا الإنجاز كثيراً على خلق التخصص الجديد المذكور آنفاً وإبعاد مشاكل السكان عن حقل تخصص

=ومن الضروري أن نلاحظ احتدام المناقشة بشكل بلغت النظر (Economic Journal, December 1923) وذلك حتى لمجرد توضيح العمليات الفكرية للاقتصاديين. فعلى عتبة مرحلة شهدت وجود كميات كبيرة من المواد الغذائية والمواد الأولية التي تعذر تصريفها، شدد كينز على أن 'الطبيعة'، في لحظة ما من العقد الأول من القرن العشرين، بدأت تستجيب للجهود الإنسانية على نحو أقل كرمًا من السابق - وهذا سوء فهم مثير للاهتمام لزيادة الأسعار الزراعية التي حدثت حينذاك - كما شدد كينز حتى على أن ضغط السكان شكّل أحد أسباب الحرب العالمية الأولى، والثورة الروسية أيضاً. وقد هاجمه، بسبب ذلك، السير وليم ه. بيفيرج William H. Beveridge باسم المعرفة البديهة، ولكن كينز، ودون أن تنتشط همته، وأصل التشديد (لفترة من الزمن) على أن الشر المalthوسي كان يطل مرة أخرى. ومع ذلك، ينبغي أن نضيف إن أحداً لم يتبع كينز في هذا الموقف سوى بضعة اقتصاديين فقط، إن تبعه أحد أصلاً. فقد شعر معظمهم بالحاجة للقلق حقاً. ولكنهم شرعوا حالاً بالقلق في الاتجاه المعاكس.

(٢٥١) انظر مثلاً: Enid Charles, The Twilight of Parenthood (1934). وللحصول على الصياغة الأكثر دقة لقلق الاقتصاديين الجديد هذا، انظر المقالة الرائعة للسيد ر. ف. هارود R. F. Harrod: 'Modern Population Trends,' Manchester School, 1939 وكذلك انتقاد البروفيسور جون جيوكس John Jewkes لهذا القلق: 'The population Scare,' ibid, October 1939.

(٢٥٢) ثمة رواد عدة ضمن الفترة المدروسة - ل. برنتانو L. Brentano، مثلاً - ولكن ليس بوسعنا استعراضهم. أما بالنسبة ليول مومبرت Paul Mombert، انظر مساهمته (Bevolkungslehre) في عمل م. فيبر M. Veber: Grundriss وكذلك عمله: Bevolkerungsentwicklung und wirtschaftsgestaltung (1932).

الاقتصاديين فقط^(٢٥٣). وهذا لا يعنى طبعاً أن هذه المشاكل لن تعود ثانية لعلم الاقتصاد العام. إذ تتضمن نظرية الركود المزمن secular stagnation أو 'النضوج' maturity فرضية عن السكان ضمن مجموعة مسلماتها الأساسية وهى توضيح، بالتالى، إمكانية أن الاتجاه الملاحظ فى هذا القسم الفرعى يمكن عكسه فى المستقبل.

٢- الرؤيا، المنشأة، ورأس المال

لم تمس 'الثورة' فى النظرية الاقتصادية، التى نحن بصدد عرضها الآن، أشياء أخرى فى الاقتصاد العام، إضافة إلى الإطار السوسولوجى لهذه الأشياء. إن هذا القول ينبغى أن لا يفهم بمعنى عدم تحقيق أى تقدم فى تلك الأجزاء من الاقتصاد العام التى لم تتأثر بتلك الثورة. فقد حدث تقدم كبير - كما سنرى أثناء مسيرتنا، وبخاصة حينما نناقش نظرية النقود والدورات الخاصة بهذه الفترة. بيد أن هذا التقدم لم يرتبط بصورة جوهرية بالنظرية 'الجديدة' للقيمة والتوزيع وكان يمكن أن يتحقق دون مساعدة هذه النظرية تقريباً. سنتناول، فى هذا القسم، بعض الموضوعات التى لم يمسه 'الثوار' - وبخاصة مارشال، الذى لم يشعر هو نفسه بأنه 'ثورى' - فى إطار التعريف الأكثر تحديداً للنظرية الاقتصادية.

(أ) الرؤيا تشكل رؤية الاقتصاديين للعملية الاقتصادية الفقرة الأولى التى ينبغى ذكرها. سبق أن تعرفنا على هذا المفهوم والدور الذى تلعبه الرؤيا Vision

(٢٥٣) لو كان بوسعنا أن ندرس أدب هذه الفترة، لتعين علينا، فى الخط الإحصائى البحث، أن نذكر أسماء مثل ليكسس Lexis، وناب Knapp ونييس Knibbs، وبيرسون Pearson. ولكى لا أترك القارئ دون مؤشرات قط، فأنتى أذكر أيضاً: H. Carr-Saunders: Population Problem (1922) ; Wright's textbook on Population ; R. R. Kuzynski, Measurement of Population Growth (1936) ; and L. I. Dublin (ed.), Population Problems in the U. S. and Canada (1926). ولا نريد بهذا الاختيار سوى التعبير عن الاعتقاد بأن هذه الأعمال تشكل مداخل ملائمة لدرس تاريخ الموضوع. وسيختار الآخرون أسماء أخرى فى نظرى. وأخيراً، ينبغى الانتباه إلى أحد الإنجازات التى تحققت خلال الفترة مما لم يجر ذكره قط - وهو عمل المؤرخين حول مشاكل السكان فى الماضى - وذلك بالإشارة، على الأقل، إلى الكاتب الذى أرى أنه صاحب العمل البارز فى هذا الحقل: Julius Belock, Die Bevolkerung der Griechisch-Romischen Welt, 1886.

فى المحاولة العلمية (انظر الجزء الأول)، ولسنا بحاجة لأن نقول أكثر من ذلك. وهنا، فمن الواضح تمامًا إن قادة الفترة المدروسة مثل جيفونس، وفالراس، ومارشال، وفيكسل، وكلاارك، والخ... قد تصوروا العملية الاقتصادية على نحو يشبه كثيرًا ما فعله ج. س. ميل أو حتى سمث؛ أى أنهم لم يضيفوا شيئًا إلى أفكار الفترة السابقة بخصوص ما يحدث فى العملية الاقتصادية وكيف أن هذه العملية تحدث بصورة عامة؛ أو بعبارة أخرى، إن قادة الفترة محل الدرس أبصروا موضوع التحليل الاقتصادى، المجموع الكلى من الأشياء التى تتطلب التفسير، مثلما أبصرها سمث أو ميل إلى حد بعيد، وإن كل هذه الجهود كانت تهدف إلى تفسير تلك الأشياء بصورة مقبولة أكثر. فما تحقق فى هذه الفترة من إبداع فى المفاهيم لا يشير نحو أى حقيقة جديدة أو ميل جديد. ويمكننا توضيح هذا الأمر من خلال معالجتهم لموضوع المنافسة. فعالمهم الاقتصادى، الشبيه بعالم 'الكلاسيك'، كان فيه الكثير جدا من المنشآت المستقلة. كما أنهم دأبوا، إلى حد يثير الدهشة، على النظر إلى حالة المنافسة ليس فقط بوصفها الحالة الأساسية Standard case التى يجد المنظر أن من المفيد بنائها لأغراض معينة، بل أيضًا بوصفها الحالة العادية فى الواقع. وحتى المنشأة التى يديرها مالكها استمرت فى النظرية الاقتصادية بشكل أفضل مما هى عليه فى الحياة الفعلية. ولكن الفضل الكبير الذى يجب أن ننسبه لهم، رغم ذلك، يتمثل بأنهم أكملوا هذه الرؤية بتحليل كان أفضل كثيرًا من تحليل 'الكلاسيك'. إذ عرفوا المنافسة وحلّوا طريقة تأثيرها بنجاح أكبر كما سنرى؛ كما أنهم طوروا النظرية المتعلقة بالحالات الأخرى كالاحتكار المباشر، واحتكار القلة، وما شابه؛ وأن مارشال، علاوة على ذلك، ألقى نظرة على الحالة التى تدفع فيها المنشأة منحنيات التكلفة نحو الانخفاض، مشيرًا بوضوح بهذا الشكل إلى مجموعة من الظواهر اجتذبت اهتمام المنظرين فى عشرينيات وثلاثينات القرن العشرين. ولكن رؤية المحللين، فى كل الأساسيات، بقيت هى رؤية ميل نفسها. فمهما زاد قلقهم من 'الترسّات' والكارتلات، بيد أنهم عاملوها كاستثناءات أو، فى جميع الأحوال، كانحرافات عن السير العادى للأشياء (انظر الفصل السابع، القسم الرابع، أدناه).

كما نعلم أيضًا بأن الموضوع الأكثر ارتباطًا بالرؤيا هو موضوع التطور الاقتصادى economic evolution أو 'التقدم' progress، كما أسماه عمليًا كل الكتاب

غير الماركسيين فى تلك الفترة. وفى حدود هذا المفهوم، لم يحدث أى تغيير قط. ويمكن للقارئ أن يتأكد من هذا بالرجوع إلى الدرس السادس والثلاثين من عمل فالراس^(٢٥٤): *Elements d'economie Politique pure* (1926). كانت نظرية مارشال للتقدم أغنى من تلك التى وضعها معاصروه أو سابقوه، ولكنها، إذا اقتصرنا على الأساسيات، تصل إلى نفس النتيجة: يزداد السكان؛ فيزداد التراكم؛ وتتوسع الأسواق بالتالى؛ وهذا يحفز الوفورات الداخلية والخارجية (التحسينات فى التنظيم وتكنيك الإنتاج التى تخفض من التكلفة). وإلى هذه الآثار، ينبغى أن نضيف تلك الآثار التى تنشأ عن الابتكارات غير المحفزة أو التطورية التى تحدث تلقائياً - وهى آثار يمكن أن تتصادم كلها، ولكن ليس بالضرورة بالنسبة للمستقبل المنظور، مع مفعول قانون تناقص الغلة فى إنتاج الغذاء والمواد الأولية. ولكن كل هذا لا يتجاوز ميل أو حتى سمث من حيث الجوهر. فقد جرى بشكل خاص التفكير بالتقدم كعملية مستمرة وتلقائية تقريباً لا تتضمن أى ظواهر أو مشاكل خاصة بها.

(ب) المنشأة أن من شأن فكرة التطور، فى معظم الأذهان، أن توقظ فكرة المنشأة المرتبطة بها. وهنا مرة أخرى، فإن التقدم التحليلي، مع أنه تقدم كبير، بيد أنه مضى وفقاً للخطوط القديمة بشكل رئيسي. لا شك أنه جرى تمييز المنظم عن الرأسمالي، وربحه عن الفائدة، بوضوح متزايد كلما مرّ الزمن. ولكن غالبية المساهمات لا تكاد تتجاوز إحكام فكرة ميل حول العناصر الثلاثة للأرباح أو إحكام فكرة مانغولد عن ريع القدرة *rent of ability*، وأن الاختلافات فى التفسير تنصب على التشديد أو الصياغة أساساً. وكفيينا عرض مختصر فى ظل هذه الظروف. لم يكن لدى جيفونس والنمساويين (باستثناء بوهم-باورك) ما يقولوه حول هذا الموضوع إلا القليل. أما نظرية بوهم-باورك، فهى نظرية تباين *friction* أو عدم تأكد *uncertainty*، إن شاء القارئ: فمصدر أرباح المنظم لديه هو أن الأشياء لا تحدث كما هو مخطط، وإن استمرار الأرباح الموجبة فى منشأة ما يعود إلى أن تقديرها أفضل من التقدير العادى. لاحظ أن المعرفة-البديهية الواضحة فى هذا

(٢٥٤) إن خط المحاجة الذى يهمنى هنا يحجب إدخال أفكار الإنتاجية الحدية، وبخاصة إدخال المعاملات المتغيرة للإنتاج. ولكن البقية - رغم التمييز بين التقدم الاقتصادى والتكنولوجى - كان بوسع ج. س. ميل أن يكتبها. انظر الموضوعة الواردة على صفحة ٢٨٣ بشكل خاص.

التفسير يمكنها بسهولة أن تغطي عدم كفايته بسهولة^(٢٥٥). كانت مساهمة فالراس مهمة رغم سلبيتها. فقد أدخل فالراس في نظامه شخصية المنظم الذى لا يربح ولا يخسر شيئاً (entrepreneur ne faisant ni benefice ni perte). وما دام هذا النظام يشكل نظرية ستاتيكية أساساً - رغم بعض العناصر الديناميكية التى ستلاحظ فى الفصل القادم - فإن فالراس، بهذا ذاته، أشار إلى اعتقاد مفاده إن أرباح المنظمين لا يمكن أن تظهر إلا فى الظروف التى لا تلبى متطلبات التوازن الستاتيكي، وإن من شأن المنشآت، عند سيادة المنافسة التامة، أن تخسر حتى وهى فى حالة توازن - وهى الفرضية التى يبدأ منها كل التفكير الواضح حول الأرباح^(٢٥٦) ومع ذلك، ذهب مارشال أبعد من معظم الكتاب الآخرين فى تحليله الدقيق لمكاسب الإدارة earnings of management، الذى وسع وعمق كثيراً مفهوم أجور الإدارة wages of superintendence لدى ميل بحيث إنه صنع منه شيئاً جديداً من الناحية العملية. كما أنه قدّم مقترحات مساعدة أخرى. وقد تمثّل أحد هذه المقترحات فى تلقف مارشال لفكرة مانغولد عن ريع القدرة، رغم أنه لم يستعمل هذه الفكرة للأغراض الخاصة بتقديم تفسير للأرباح بل فى التفسير الأكثر عمومية لكل العوائد فوق العادية (أو الإضافية) super-normal returns الناجمة عن الجهد الشخصى. ويرقد مقترح مارشال الآخر فى مفهومه: شبه-الريع quasi-rent^(٢٥٧) أما مساهمة

(٢٥٥) لنلاحظ حالاً أن بوم-باورك يربط هذه النظرية للربح (بمعنى الكسب الذى يحصل عليه المنظم، Unternehmergeinn) بنظرية للفائدة (kapitalzins) كانت ما تزال هى نظرية للربح بالمعنى الذى يأخذ به ريكاردو-ماركس. سنناقش هذه النقطة فيما بعد.

(٢٥٦) عند فالراس، يعنى ذلك فقط، طبعاً، إن المنشآت (المنظمة) ليس من شأنها تحقيق فوائض تتجاوز الفائدة الجارية على رأسمال كهذا الذى يمكنهم أن يمتلكوه، الربح وفق سعر السوق لعوامل طبيعية كتلك التى يمكنهم أن يمتلكوها، والأجور المدفوعة إلى مديريهم بالمعدل الذى يدفع عادة لخدمات إدارية كتلك التى يستخدمونها (بما فى ذلك المدراء - المالكين فى داخل منشآتهم). وعلاوة على ذلك، فإن هذه الظروف ستحمل طبيعة الحالة القصوى limiting case: وإذا حدثت هذه الحالة القصوى بالفعل، فما يزال بوسع المنظم أن يأمل تحقيق أكثر من ذلك نظراً إلى أن الواقع لا يكون راکداً قط. ولذلك، فلم يكن لدى إيديجورث أى مبرر للاعتراض على مفهوم entrepreneur ne faisant ni benefice ni perte على أساس إن مثل هذا المنظم لن يكون لديه دافع للاستمرار. ومع ذلك، قشمة اعتراض آخر يفرض نفسه: فقد افترض فالراس أرباحاً (فائضاً) بمقدار الصفر (بالمعنى الموضح) ولكنه لم يثبت ذلك كموضوعة مفادها إن الأرباح من شأنها أن تقترب من الصفر. ورغم ذلك، فليس من الصعب القيام بذلك، فى ظل فرضياته الأخرى. وهكذا فإن هذا الاعتراض شكلى بحت، رغم أنه صحيح منطقياً (انظر الفصل السابع، القسم الرابع، أدناه).

(٢٥٧) لا أقصد طبعاً إن شبه-الريع يتطابق مع، أو يرتبط حصراً ب، ربح المنظم. ولكنه يتمشى بصورة ملائمة مع كل مكاسب الأعمال business gains. وقد يمكن أن ننسب إلى مارشال مقترحاً ثالثاً =

كلارك، فهي الأهم: فهو أول من طرح فكرة جديدة حينما ربطَ أرباح المنظم، كشىء يزيد على الفائدة (والربح)، بإدخال التحسينات التكنولوجية أو التجارية أو التنظيمية في العملية الاقتصادية.

وضمن البقية، هناك كثيرون ممن طوروا عنصر المخاطرة الذى طرحه ميل (أو آ. سمث) ^(٢٥٨). وقد حقق هاولي، وبخاصة البروفيسور نايت، أعظم نجاح فى هذا الأمر. وندين لهذا الأخير، أولاً، بتشيده على التمييز المفيد بين المخاطر المحسوبة insurable risks وعدم-التأكد غير المضمون non-insurable uncertainty؛ وثانياً، بنظرية للربح تربط عدم التأكد غير المضمون، من ناحية، بالتغير الاقتصادى السريع- الذى هو المصدر الرئيسى لعدم التأكد، إذا أهملنا الاضطرابات فوق الاقتصادية- ومن ناحية أخرى، بالاختلافات فى القدرة على ممارسة الأعمال business ability- التى تتصل بتفسير الأرباح والخسائر فى ظروف التغير الاقتصادى السريع بصورة أكثر وضوحاً مما يمكن أن تكون عليه فى الظروف الأخرى. وبهذا الشكل يكون نايت قد ألّف فكرة تنقضى الاعتراض الرئيسى على النوع المعتاد من نظريات المخاطرة. وقد أخذ دوبر خطوة أخرى فى الاتجاه نفسه ^(٢٥٩). ويتعذر علينا أن نتناول الأدب الواسع حول الموضوع الذى يتضمن، بل ويشخص، جزء كبيراً من التطورات التحليلية فى الفترة محل الدرس، وأننتج بعضاً من أفضل الأعمال فيما بعد، فى العشرينيات، وتلاشى أخيراً بقدر تعلق الأمر بمكونه النظرى ^(٢٦٠). أما العمل الوقائعى، الذى يلقى صعوبات فى هذا

=فقد ميزَ اقتصاديو كمبريدج، فى العشرينيات والثلاثينيات، الأرباح العادية normal profits عن تلك الأرباح القدرية windfall profits التى تنشأ عن فعل النظام النقدي. لسنا جاهزين بعد لتأمل هذا المخطط. ولكننا يمكن أن نلاحظ إن obiter dicta {الملاحظات العابرة} لمارشال حول السلوك الدورى للائتمان والأسعار تتضمن بذور نظرية أرباح قدرية من هذا النوع مثلما تتضمن معالجته لمكاسب الإدارة للمادة لنظرية الربح العادى.

(٢٥٨) سبق أن تم إيضاح الاعتراضات على ذلك العنصر. ونقصد فى المتن الإشارة إلى F. B. Hawley, Enterprise and the Productive Process (1907) و F. H. Knight, Risk, Uncertainty and Profit (1921). ومع إن عمل الأخير لا يعود إلى الفترة المدروسة من الناحية الزمنية، بيد إن ذكره هنا، كغيره، يأتى لتوضيح خط مهم من التقدم التحليلى تكمن جذوره فى هذه الفترة.

(٢٥٩) M. Dobb, Capitalist Enterprise and Social Progress (1925)، الذى سبق أن استشهدنا به فى سياق آخر.

(٢٦٠) ومع ذلك، سوف أذكر فى هذا الهامش بعض المساهمات التى يمكن اعتبارها مساهمات تمثيلية لسبب أو لآخر. من الممكن القول إن العمل الأبعد حول الموضوع استهله ف. أ. ووكر F. A. Walker 'The Source of Business Profits,' Quarterly ; 'The Wages Question, 1876 ;

المجال، فلم يتجاوز البدايات. إذ يبدأ العمل الناجح في العشرينيات عملياً، وبخاصة في الولايات المتحدة حيث شكلت ندرة المواد قبل ذلك التاريخ عقبة معوّقة تقريباً^(٢٦١).

ومع ذلك، ثمة نقطة أخرى يتعذر إهمالها. فكل النظريات التي ذُكرت حول نشاط المنظم ومكاسب المنظم هي نظريات وظيفية. أي تبدأ كلها بأن تعزو إلى المنظمين وظيفة أساسية في العملية الإنتاجية، ودأبت كلها على تفسير مكاسب المنظم على أساس النجاح في أداء هذه الوظيفة. ومن المؤكد أن الكتاب المختلفين قد عرّفوا هذه الوظيفة بصور مختلفة. ولكن التعريف الأحدث للسيد دوب الذي يشير فيه إلى أن المنظمين ('المتعهدين' undertakers) هم الأفراد الذين يتخذون القرارات الحاسمة في الحياة الاقتصادية (المصدر السابق، ص ٥٤) يمكن أن يصلح كشعار عام لهم كلهم. وقد أخذنا بوجهة النظر هذه عند وصف العمل المنجز في هذه الفترة حول هذه النقطة بوصفها واحدة من مساهماتها الكبرى في التحليل الاقتصادي^(٢٦٢). ومع ذلك، فمن الطبيعي، في قضية تخص الشخصية المركزية في

C. A. تولت. س. أ. (Journal of Economics, April 1887= 'The Function of the Entrepreneur,' American Economic Review, March 1927: Tuttle (see also his survey, 'The Entrepreneur Function in Economic Literature,' Journal of Political Economy, August 1927). أما العمل الألماني، فقد تواصل وفق التقليد القدي م فحسب. انظر، مثلاً، فيكتور ماتايا (Victor Mataja 1884: Der Unternehmergewin) والعمل الأكبر الذي كتبه ج. بيرشتورف (J. Pierstroppf 1875: Die Lehre vom Unternehmergewin). ثمة سؤال مهم إلى حد ما: لماذا كان يجب على هذا الأدب أن يكون أمريكيًا أو ألمانيًا. ربما لأن شخصية المنظم في ذلك الوقت كانت بارزة في الولايات المتحدة وألمانيا أكثر منها في إنجلترا وفرنسا. وربما أيضًا لأن الاقتصاديين الإنجليز، على الأقل، كانوا قد افترضوا وظيفة المنظم وربح المنظم إلى حد بعيد بحيث إنهم لم يجدوا ثمة سبب لتحليلها بأكثر من التحليل الذي وجدوه لدى مارشال - مثلما اعتبر معظمهم أن مشكلة الفائدة قد تم حلها بصورة مرضية. وانتهاز الفرصة لألفت نظر القارئ إلى مساهمة مهمة، مع أنها لا تعنى بمشاكل أرباح المنشأة بالضبط، ولكنها على صلة بها مما يدفعنا إلى الإشارة إليها: F. Lavington, 'An Approach to the Theory of Business Risks,' Economic Journal, June 1925.

(٢٦١) يعود أحد أسباب ذلك إلى أن النشاط الاقتصادي الأمريكي لم يتبن طرقاً كافية للاندثار ومحاسبة النقل حتى عام ١٩٠٧. وعليه، فقد تعين على الأبحاث الوقائية حول حقائق الأرباح أن تعتمد على مؤشرات تقريبية من السهل أن تكون مضللة.

(٢٦٢) ومع ذلك، ينبغي التشديد حالاً، بالنسبة إلى تلك النظريات المتعلقة بنشاط المنظم - أو بعض منها - على أن من غير الضروري، لكي تكون هذه النظريات صحيحة، تجاوز الفرضية القائلة إن هذا النشاط يلبي وظيفة أساسية في المجتمع الرأسمالي. أما كيف، ومن قبل من، وبأى درجة من الكفاءة، يمكن أداء وظائف مماثلة في أي تنظيم آخر للمجتمع، كالتنظيم الاشتراكي مثلاً، فهذه مسألة مختلفة تماماً. فما كان يفكر فيه كتاب تلك الفترة حول هذا الأمر لا يؤثر قط على القيمة التفسيرية=

الاقتصاد الرأسمالي، وفي قضية، علاوة على ذلك، يصعب جدا على معظم الاقتصاديين الحصول على بيانات وقائية موثوقة عنها، أن أى نظرية وظيفية لابد أن تُرمى بشبهة التحيز الإيديولوجي، وبأنها، عاجلاً أم آجلاً، لابد من أن تواجه نظريات معارضة مشبوهة بنفس الدرجة يتم إثباتها بالقول إن المنظم لا يؤدي أى وظيفة 'إنتاجية' قط ولكنه يفترس النشاط الإنتاجي للآخرين ليس إلا. وتنتشر مثل هذه النظريات في الاقتصاد الشائع في وقتنا الحاضر. ولكن سؤالنا الأول هو: هل أخذ بمثل هذه النظرية أى اقتصادى ذو وزن؟

قد يفكر القارئ بماركس والماركسيين. وإذا كان الأمر كذلك، فهو على خطأ بالنسبة للنقطة المطروحة في هذه اللحظة. فطوال الفترة، كان هناك عدد كبير من الاقتصاديين ممن لم يسايروا الميل لفكرة فصل المنظم عن الرأسمالي ومكسب المنظم عن مكسب الرأسمالي. ودأب كل هؤلاء الاقتصاديين، كقضية مبدأ، على المطابقة بين المنظم وبين الرأسمالي بالمعنى الذى كان عليه الحال مع سمث وريكاردو. وهكذا، فإن الشيء الرئيسى الذى يتطلب التفسير لديهم هو العائد الذى يؤول إلى رأس المال. ومن بين هؤلاء الاقتصاديين الذين احتفظوا بهذا المدخل، فإن الماركسيين، كمجموعة، هم المجموعة الأهم. وهكذا، فإن النظرية الماركسية للاستغلال هى نظرية استغلال العمل من قبل رأس المال؛ وبالتالي، فمن الصحيح، كما كان عليه الحال لحد الآن، إدراج هذه النظرية ضمن نظريات الفائدة. فالمنظم موجود ضمن الدراما الماركسية، دون شك. ولكنه بعيد عن الأضواء، وأن مكسبه ليس محل اهتمام الماركسيين. إذ يتعذر إدخاله فى النظام الماركسى إلا وفقاً لإعادة تفسير غير-ماركسية. فحتى فى وصف ماركس لعملية التركيز، فإن الرأسماليين الكبار هم الذين يفترسون- 'يستغلون'- الرأسماليين الأصغر منهم. وما أن ندرك هذا الأمر ونستبعد الماركسيين بالتالى، إضافة إلى الكتاب الآخرين ممن يتبنون وجهة نظر مشابهة^(٢٦٣)، تبرز أمامنا مشكلة العثور على أنصار يُعتد بهم لما يمكن أن نسميها: نظرية النهب كتفسير لربح المنظم depredation theory of entrepreneurial gain. يكاد فيبلن Veblin أن يشكل مثلاً على ذلك. فمع أن من الضروري وضع تحفظات حتى فى حالته، فقد يمكن اعتباره السلف العلمى للنظرية

=instrumental value لنظرياتهم عند تطبيقها على العملية الرأسمالية.

(٢٦٣) ونستبعد بشكل خاص، على الأساس نفسه، النظريات المختلفة حول القوة التفاوضية التى استعملت أيضاً لغرض تفسير ربح رأس المال.

الشائعة التي أَلَمَحْنَا إليها آنفاً: ولكن الاشتراكيين العلميين المعاصرين لا يضعون أى تحفظ - كما يتضح من كتابات لانجه ودوب.

ومن النادر في ظل هذه الظروف أن يستحق الأمر إثارة سؤال عما إذا كانت التفسيرات الوظيفية لدور المنظم والكسب الذي يحصل عليه هي تفسيرات مشوهة أيديولوجياً أو يجدر إهمالها على أساس إن مؤلفيها قد تكون لديهم نوايا تبريرية^(٢٦٤). ولكن هذا لا يحسم الأمر لسوء الحظ. أولاً، لأن النظريات الوظيفية لا تغطي كل محتويات فقرة الربح والخسارة كما تألفها حياة الأعمال. ولا يعود هذا فقط إلى أن هذه الفقرة تتضمن عوائد العوامل المملوكة ذاتياً أيضاً - فبعض هذه النظريات، وبخاصة القديمة منها، تتضمن هذه العوائد سيراً على مثال ميل - ولكن أيضاً لأن المنظم، وحتى المدير ذاته، وبخاصة المدير - المالك لمنشأة ما، يُصور بوصفه المتسلم 'للبقايا' (الموجبة أو السالبة) leftovers: ولذلك، فإن كلمة الباقي residual، كما تسرى على ربح المنظم، تحمل معنى أكثر تحديداً مما في حالة المدعين الآخرين بحصص في الإيراد الكلي. وعلاوة على ذلك، فإن المنظم أو المدير - المالك الذي يقف بين السلعة وسوق عوامل الإنتاج يمتلك إمكانية أكبر للاستفادة من الأوضاع المؤاتية favourable situations^(٢٦٥) وهو أكثر حساسية من أى فرد آخر من قيام الآخرين بفعل الشيء نفسه. وهكذا فإن الأرباح الصافية الكلية، بمعنى فقرة الكسب في قائمة الدخل الشخصي لدى منظم ما، هي تجميع لعناصر ذات طبيعة مختلفة تماماً، وهي لا ترتبط قط ارتباطاً وثيقاً بأى شيء بحيث نستطيع، بتبنى نظرية خاصة نوعاً ما، أن نفهم الأرباح 'البحتة' على أنها

(٢٦٤) إن هذا لا يستبعد، طبعاً، إمكانية وجود التحيز الإيديولوجي في رؤية العملية الاقتصادية، التي تحمل الاقتصاديين على التشديد على الجانب الوظيفي على حساب الجوانب الأخرى حينما يقومون بتحليل تطور تاريخي معين.

(٢٦٥) ثمة حالة خاصة لذلك الأمر يقدمها ما أسماه البروفيسور روبرت أ. جوردون Robert A. Gordon: 'مكاسب الموقع' gains of position التي يتمتع بها أعضاء الجهاز التنفيذي في جمعية ما. انظر عمله: Business Leadership in the Large Corporation (1945), p. 272. ومع ذلك، فأنا أقصد، في المتن، فئة أوسع من المكاسب يمكن استعمال نفس المصطلح للتعبير عنها، أى المكاسب التي لا تتحقق من أداء 'الوظيفة' التنظيمية ولكن يمكن أن ينالها من يؤدي هذه الوظيفة. وأرى أن من العدل أن نقول إن الاقتصاديين المعنيين قد لاحظوا هذه الظاهرة بالفعل. وكان سيكون من الصعب عليهم ألا يفعلوا ذلك حقاً.

الإيرادات الكلية للأفراد الآخرين من دخولهم 'الوظيفية'. وقد يكون الفرق كبيراً ويشكل سبباً، ولو أنه ليس بالسبب الرئيسى، يفسر لماذا لا ينبغي علينا أن نتحدث عن اتجاه مكاسب المنظم نحو التساوى.

والسبب الرئيسى لهذا هو أن مكاسب المنظم *entrepreneurial gains* هى عوائد غير دائمة قط بل أنها تنشأ فى كل مرة- إذا استخدمنا لغة نظرية نايت-دوب- يثبت فيها قرار المنظم أنه قرار ناجح فى ظل ظروف عدم التأكد، وإن هذه المكاسب لا ترتبط بعلاقة محددة بحجم رأس المال المستخدم. وبعبارة أخرى، إن مكاسب المنظم، مع إنها تأتى دائماً مثلما تأتى البطالة التكنولوجية، بيد أنها، كالبطالة التكنولوجية أيضاً، تنتج عن سياق من الحوادث لا يسبب كل واحد منها، لكونه حدثاً فريداً، مكاسب أو بطالة دائمة من تلقاء ذاته. ليست هناك آلية لتساوى مثل هذه المكاسب 'المؤقتة' لدى هذا الفرد أو ذاك ' إلا عند مستوى الصفر. بيد أن منظرين كثر فى تلك الحقبة افترضوا، صراحة أو ضمناً، وجود مثل هذا الميل لأنهم ببساطة لم يتخلصوا كلياً من ارتباط مكاسب المنظمين بمكاسب رأس المال، التى يمكن حقاً - لو أخذنا المخاطرة بنظر الاعتبار- أن نبين أنها تبدى مثل هذا الميل. إن هذا الموضوع صعب- وإن بمعنى يختلف عن المعنى الذى يجد فيه الطالب غير الرياضى فى أيامنا النظرية الحديثة صعبة- وتتعد متابعته أكثر. ولكنى أريد أن أضيف، لهذا السبب جزئياً، أنه لا ينبغي علينا أن نتحدث عن 'عرض القدرة على ممارسة الأعمال' *supply of business ability*. ولكن المؤلفين الإنجليز والآخرين فعلوا هذا الأمر لأنهم يميلون لتشبيه ما أسموه مكاسب الإدارة *earnings of management* بالأجور، وهو تشبيه له مغزى. من الممكن الدفاع عن هذه اللغة ولكنها يجب أن لا تدفعنا إلى رسم منحنيات لعرض الخدمات التنظيمية حتى رغم إيماننا بمنحنيات العرض لأى نوع آخر من العمل.

ثانياً، تتبغى ملاحظة إن مكاسب المنظمين ستحمل على الدوام عملياً بعض الصلة بالتحديد الاحتكارى للأسعار *monopolistic pricing*، وذلك مهما كانت طبيعتها من النواحي الأخرى. فمهما كانت طبيعة ما يخلق هذه المكاسب، فهو بالضرورة شئ يتعد على المنافسين الآخرين تحقيقه، فى لحظة الحصول عليه على الأقل، ذلك لأنهم لو فعلوا هذا فلن يظهر أى فائض بالنسبة للتكاليف (بما فيها 'أجور' المنظم). قد يمثل النجاح فى إدخال سلعة جديدة أو علامة تجارية أحسن

توضيح لهذا الأمر. وإضافة إلى ذلك، فإن المنظم الناجح تتوافر لديه وسائل- كبراءات الاختراع، و'الاستراتيجية'، وما شابه- لإطالة عمر موقعه الاحتكاري أو شبه الاحتكاري ولجعل اقتراب منافسيه منه أكثر صعوبة. ومن الواضح إن هذا الأمر قد يرتبط بعناصر الفكرة التي ألقينا نظرة عليها في الفقرة السابقة بطريقة ما بحيث تتكون صورة عن الواقع قد لا تختلف، للأغراض العملية، إلا قليلاً عن الصورة التي ترسمها نظرية نهب مباشرة. وفي الواقع، فثمة ندرة في الاقتصاديين الذين يعطون الوزن الصحيح لهذه المجموعة من الوقائع دون أن يبالغوا فيها في الوقت نفسه. إن التحيز الأيديولوجي وكذلك المصلحة السياسية إنما يؤكدان نفسيهما هنا أكثر مما في الموضوع الأساسي للنظرية المعنية. وكقضية مبدأ، فإن من يناصر نظرية وظيفية معينة يتمتع بالحرية لأن يمنح أنشطة النهب الوزن الذي يريده^(٢٦٦). ولكن معظم الاقتصاديين ممن كتبوا قبل عام ١٩١٤ ربما قللوا من استعمال هذه الحرية بقدر ما أساء خلفاؤهم استعمالها. ومع ذلك، لا ينبغي أن ننسى أن الكراهية الواسعة للمنشآت الكبيرة و'الترسّات'، بقدر ما كان لها أى معنى تحليلي، تتضمن الاعتراف الواسع بنفس الدرجة بالوقائع المشار إليها.

(ج) رأس المال يتعين علينا، مرة أخرى، أن نشير إلى حصول تقدم، ولكنه تقدم لا يرتبط كلياً تقريباً 'بالثورة' في القيمة والتوزيع^(٢٦٧). فقد أبدى الاقتصاديون طوال الفترة ميلاً لتبني 'الطريقة' البائسة التي تقوم على حل المشاكل بتعقب معنى الكلمات. فقد كان هناك سجال حول مفهوم رأس المال أو، بالأحرى، كانت هناك سجلات عدة، وبخاصة السجال الذي كان فيه بوهم-باورك الشخصية الرئيسية والسجال الذي كان أرفنج فيشر شخصيته الرئيسية^(٢٦٨). ولكن كل هذا لا ينبغي أن

(٢٦٦) وتلك هي ميزة ذلك النصير إزاء أنصار نظريات النهب الذين ينبغي عليهم الاعتقاد، إذا أرادوا لنظريتهم أن تكون متميزة، بأن المانظمين ليس لهم أى صلة قط بنشوء الجهاز الصناعي الحديث باستثناء نهبه وتعطيله: وهذا قول من السهل طبعاً تنفيذه وفقاً للتحليل النظرى والتاريخى.
(٢٦٧) سيتم مناقشة التحليل الذي تحقق في الفترة بشأن تكوين رأس المال (الادخار والاستثمار) في القسم الخامس، أدناه، وفي الفصل القادم.

(٢٦٨) ترد مساهمة بوهم-باورك، في هذا المجال، في المجلد الثاني من عمله: Kapital und Kapitalzins وترد مساهمة أرفنج فيشر في عمله: Nature of Capital and Income وعند كل الكتاب المذكورين لديهما رأي جانبي هذا السجال حول رأس المال، مضى سجال حول الدخل (الذي شهد انبعثاً ملفتاً للنظر في أيامنا هذه). كانت المساهمة الألمانية بشكل خاص كبيرة جداً، بيد أنني سأذكر واحدة منها: (R. Meyer, Wesen des Einkommens (1887). أما بالنسبة لليقينة، فأنتى أحيل القارئ إلى فيشر. ونظراً إلى أن الدخل لم يلعب، لغاية هذه الفترة، الدور الذي لعبه في تحليل الدخل في وقتنا الحاضر، فأنتى لن نذكر هذا المفهوم أكثر. ومع ذلك، دعونى أذكر بمفهوم فيتر Fetter للدخل=

يعمينا عن رؤية حقيقة أنه تم إنجاز عمل جدى ومفيد بالفعل حتى ولو من خلال تلك 'الطريقة' غير الجذابة. سوف نسجل النقاط الرئيسية.

أولاً، وكما نعلم، فقد عرّف فيشر رأس المال كخزين من الثروة الموجودة فى أى لحظة. يستفيد التحليل من هذا التعريف من ناحيتين: أنه يستفيد دائماً حينما ينصب التشديد المضاف على التمييز الأساسى بين الأرصدة funds والتدفقات flows؛ وفى هذه الحالة، مثلما تبين محاجة فيشر، كسب التحليل معلماً بارزاً يقع بين مفهوم الاقتصادى لرأس المال ومفهوم المحاسب لحساب رأس المال. وفى الواقع، واصل معظم الاقتصاديون تعريف رأس المال كخزين من السلع ولكن كخزين من فئة خاصة من السلع أكثر مما كخزين من كل السلع^(٢٦٩).

ثانياً، مع إن المفاهيم 'المادية' ما تزال تمتع بشعبية أكبر، بيد إن المفاهيم غير المادية أخذت بالانتشار السريع. فقد كان هناك ميل لفهم رأس المال كرصيد أو مبلغ من الأصول تتألف من النقود أو تُقِيم بالنقود. ويتجلى هذا الميل جيداً فى مفهوم منجر الذى، فى البداية (فى عمله Grundsätze)، عرّف رأس المال 'كسلع من درجة عليا'، ولكنه، فيما بعد (فى مساهمته فى نظرية رأس المال Zur Theorie des Kapitale التى نشرها فى Jahrbucher für Nationalökonomie, July 1888)، عرّفه 'كشئ منتج ... [مأخوذاً] كمبلغ من النقود تُستعمل بشكل منتج'. إن هذا التعريف يبشر باتجاهات لاحقة. ولكننا لن نمضى لنبين كيف أن وجهة-النظر هذه كانت تبرز هنا وهناك ذلك لأنه لم يرد الكثير منها إلى الفترة المدروسة إلا فى أمثلة غير مؤثرة^(٢٧٠). لقد ظهر مفهوم رأس المال بوصفه القيمة المخصصة من

=النفسى (Principles, ch. 6) وتطوير فيشر لنفس المفهوم (op. cit. ch. 10).
(٢٦٩) كما انشغل عدد منهم أيضاً- دون ضرورة ما فى نظرى- بالتمييز بين رأس المال الاجتماعى ورأس المال الخاص.

(٢٧٠) ومع ذلك، يمكننا أن نلاحظ بشكل عابر أن المفاهيم النقدية لرأس المال تحمل دون شك فائدة ضئيلة مفادها إن هذه المفاهيم تحمل علاقة معينة بمفهوم الرأسمالية Capitalism وهو أمر لا تقدمه المفاهيم المادية بحد ذاتها. من النادر، حتى ذلك الحين، استعمال مصطلح: رأسمالية إلا من قبل حلقة الماركسيين والاقتصاديين المتأثرين بالمذهب الماركسى إلى هذا الحد أو ذاك. وكما نعلم، فإن ماركس يعرّف اقتصاداً ما كإقتصاد رأسمالى حينما يجرى تملك رأس المال المادى من قبل غير العمال. قد يتصور المرء أن هذا التعريف كان يجب أن يشجع الاقتصاديين غير الماركسيين على إيجاد مميزات خاصة بهم بالنسبة للاقتصاد الرأسمالى. ولكن الأمر لم يكن كذلك إلا إذا اكتفيننا بعناوين من قبيل اقتصاد المشروع-الخاص أو اقتصاد الملكية-الخاصة، التى لا تختلف عن التعريف الماركسى كثيراً.

التدفقات من العوائد المتوقعة، بتأثير أعمال بوهم-باورك وفيشر، فى صورة قيمة لرأس المال أكثر مما كراسمال sans phrase {دون تحفظ}. ولكن ينبغى أن يكون من الواضح أن هذا الأمر لا يختلف إلا قليلاً عما تصوره الكتاب اللاحقون^(٢٧١).

ثالثاً، احتفظت غالبية الكتاب بالمخطط الثلاثى لعوامل الإنتاج- التى يعتبر 'رأس المال' واحداً منها- والتناظر بين فقرات هذا المخطط الثلاثى وفقرات مخطط ثلاثى للدخول مناظر له (حيث يقف دخل المنظم بعيداً عنه). وهذا يسرى أيضاً على مارشال، رغم أنه أدخل عاملاً رابعاً بصورة شكلية: التنظيم organization.

وهنا، فقد كانت لدى المحللين الذين احتفظوا بذلك المخطط، ومخطط الدخل المناظر له، مصلحة تحليلية قوية- فمن المضحك التحدث عن مصلحة سياسية- لتعريف رأس المال بطريقة من شأنها تكييفه لكى يقف، فى حقل الإنتاج والتوزيع، على قدم المساواة مع عامل العمل وعامل الأرض. كما كانت لديهم أيضاً مصلحة تحليلية أضعف حقاً، ولكنها ما تزال قوية، لمعاملة رأس المال ككمية متجانسة من شأن زيادتها أو هبوطها أن يحمل معنى واضحاً. وقد حقق بعض الكتاب هذا الأمر بطريقة غير منطقية قط وذلك بالتعبير عن رأس المال بالدولارات سوية مع التعبير عن عامل العمل بالساعات وعن عامل الأرض بالأكرات- وهى ممارسة يمكن العثور على أمثلة عنها حتى فى ثلاثينيات القرن العشرين^(٢٧٢). ومع ذلك، وفى جميع الأحوال، فمن الواضح، كقضية مبدأ، إن أى تكييف كهذا لرأس المال غير مقبول أبداً نظراً إلى أن رأس المال يعنى توليفة من السلع: مصانع، معدات، زيوت تشحيم، مواد أولية، وما شابه. ومن غير الممكن قط اعتبار مثل هذه التوليفة كمية بالمعنى الاعتيادى لهذا المصطلح ولكن فقط بالمعنى الذى يمكن أن يُشار فيه إلى مصفوفة معينة 'كمية معقدة'^(٢٧٣) complex

(٢٧١) إن طريقة بوهم-باورك غير الموفقة كلياً فى التعبير عن نفسه ربما تفسر إن منتقديه كثيراً ما فشلوا بملاحظة إن هذه الفكرة- فكرة أن قيمة رأس المال هى نتاج لعملية خصم ('رسمة' بمعنى خاص) هى واحدة من النقاط الرئيسية فى نظريته لرأس المال.

(٢٧٢) سنذكر بعد قليل محاولة ج. ب. كلارك الرفيعة للتعبير كمياً عن رأس المال؛ وهذه المحاولة لا تذكر هنا بقصد عدم تشتيت انتباه القارئ.

(٢٧٣) لفهم ذلك، لا يتعين على القارئ غير-الرياضى سوى الرجوع إلى الصفحة الأولى من الفصل الثانى والصفحة الأولى من الفصل السادس من كتاب بوخر Bocher: Introduction to Higher Algebra دون إزعاج نفسه بما يتبع هاتين الصفحتين. ولا ينبغى خلط مصطلح: معقد بمعناه فى ذلك=

quantity. وهذا ليس كل شيء: إذ يسرى الأمر نفسه على عاملى الأرض والعمل حيث إن أيًا منهما ليس كمية متجانسة. بل وحتى هذا ليس بكل شيء أيضًا. فعناصر هذه 'الكميات المعقدة' أو المصفوفات لا تتميز أحدها عن الآخر بصورة واضحة بل يذوب أحدها فى الآخر: فطريق السكك الحديدية يتصرف وكأنه عامل طبيعى، مع إنه من صنع الإنسان؛ وإن مهارة المحامى هى نتاج 'استثمارات' - أو يمكن النظر إليها بهذه الصورة؛ وما شابه. لقد أصبحنا نفهم هذا فى وقتنا الحاضر، بعمق ليس له نظير، بفضل البروفيسور نايت الذى وَّصفَ 'الفكرة الكاملة' 'عامل الإنتاج' 'كابوس بالنسبة للتحليل الاقتصادى' 'تنبغى إزالته من المناقشة الاقتصادية بأسرع ما يمكن' (٢٧٤). ومع ذلك، فإن اتفاقنا معه يحيطه تحفظان: أولاً، عند التشديد على رأيه الصحيح تمامًا، فإن البروفيسور نايت لم يكن عادلاً بصورة جديّة مع العمل السابق وعلى نحو غير ضرورى. فكما أوضحنا آنفاً، يمثل مخطط العوامل الثلاثة أحد تلك الأشياء التى يشكل إدخالها خطوة على طريق التقدم، مع أن إزالتها، فى مرحلة تالية من التحليل، يمكن أن يشكل خطوة أخرى (٢٧٥). ثانياً، ليس من السهل إزالة فكرة عامل الإنتاج كلياً. ذلك لأن الشجب، الذى يمرره البروفيسور نايت بشأنها، يمكن التعبير عنه بالقول بأنه يعترف بتوليفة غير محدودة من العوامل (٢٧٦) لا يوجد اختلاف مهم اقتصادياً فيما بينها. ولكن، إذ نهمل صعوبات العرض التى تنشأ عن تبني مثل هذا الرأى، فثمة اختلافات مهمة فى إطار عالم مستلزمات الإنتاج وهى اختلافات ليست أقل حقيقية وأهمية وذلك لعدم وجود خط فاصل فيما بينها. وحتى إذا حاولنا أخذ هذه الاختلافات بنظر الاعتبار بأن نحاجج وفقاً لعمل بحت (ومتجانس) بصورة مثالية، وعامل طبيعى بحت (ومتجانس) مثالياً، ونوع، من سلعة رأسمالية، بحت (ومتجانس) بشكل مثالى - كالمجارف التى

=السياق، بمعناه فى عبارة: 'العدد المعقد' complex number.

(٢٧٤) الاقتباس من: Econometrica, January 1938, p. 81.

(٢٧٥) ينبغى على البروفيسور نايت أن يكون أول من يعترف بذلك لأن النصير الأول لمخطط العوامل الثلاثة، ج. لا. سائ، استعمله للتشديد بالضبط على كثرة العوامل وفكرة التوزيع ذاتها التى يتبناها البروفيسور نايت نفسه أى وجهة-النظر القائلة إن 'التوزيع' هو مجرد تسعير للخدمات الإنتاجية. ربما كان المخطط الثلاثى وسيلة بسيطة بالنسبة لهذه الأغراض ولكنه كان وسيلة فعالة بالتأكيد. أما الأمثلة الأخرى على الظلم الجدى، مما سيذكر بعد قليل، فتزد فى نقد نايت لمذهب بوهم-باورك الذى تمت متابعتة بصورة محكمة.

(٢٧٦) إذا تكلمنا بمنطق صارم، فمن شأن عدد هذه العوامل أن يكون غير-نهائى ذلك لأنها تشكل كمية متصلة continuum من الناحية النظرية.

تشبه الواحدة منها الأخرى - فهذه المحاولة يصعب تصنيفها من بين أكثر الآثام بشاعة التي اقترفها المنظرون ضد الواقعية يومًا ما. ينبغي على القارئ أن يلاحظ بعناية أن هذه المحاجة لا تهدف إلى العودة بنا إلى وجهة نظر الاقتصاديين التي أشرنا إليها في بداية هذه الفقرة. فكل ما أريد قوله هو إن فصل السلع الرأسمالية المادية عن العمل والأرض هو فكرة لا تثير الاعتراض من حيث الأساس وأنها يمكن أن تخدم أغراضًا مفيدة في تحليل العلاقات البنوية داخل الاقتصاد. ولم أشأ الدفاع عن الغرض المحدد الذي كان في أذهان أولئك الاقتصاديين أولاً، أى هدف بناء كيان اسمه: رأس المال (المادى) من شأن الفائدة أن تشكل فيه سعرًا لخدماته مثلما تشكل الأجور سعر خدمات العمل والريع سعر خدمات العوامل الطبيعية. فنحن لا نهتم بالفائدة الآن بالضبط^(٢٧٧). ولكن لتجنب أى سوء فهم، فأنى أقول حالاً بأننى اعتبر إن من المتعذر تمامًا الدفاع عن نظرية الفائدة تلك^(٢٧٨)، وأن المخطط الثلاثى هو مخطط منحوس بقدر ما يخدم أهداف تلك النظرية.

ومع ذلك، فرغم تبني المخطط الثلاثى من قبل غالبية من الاقتصاديين، بيد إن الاتجاه كان بعيدًا عنه حتى وسط أنصار مفاهيم رأس المال (المادى). وكان مفهوم منجر حول السلع 'من الدرجة العليا' (حيث تعامل السلع الاستهلاكية كسلع من الدرجة الدنيا) يُورد ضمن هذا السياق فى الغالب. ولكن الهجوم الأقوى على المخطط الثلاثى جاء من بوهم - باورك. فالأخير لم يدمر فقط، فى واحدة من مجهوداته الكثيرة الأشد لمعاناً فى مجال النقد، نظرية الفائدة المشار إليها أعلاه، بل أنه حارب أيضاً فكرة أن رأس المال (المادى) هو عامل متميز للإنتاج يمكن معاملته على مستوى واحد مع العاملين 'الأصليين': العمل والعوامل الطبيعية^(٢٧٩).

^(٢٧٧) مثلما أوضح البروفيسور فون هايك (The Pure Theory Of Capital, p. 5)، فقد تعطل تحليل رأس المال بالتشديد الاستثنائى على مشكلة الفائدة التي كانت تميل إلى إزاحة كل المشاكل الأخرى من رأس المال المادى. ويجد القارئ، فى ذلك الكتاب، كثيرًا من الأمثلة حول هذه المشاكل الأخرى.

^(٢٧٨) وبطبيعة الحال، فإن كل شيء يرتبط بكل شيء فى النظام الاقتصادى. وعليه، فإن العبارة الواردة آنفا لا تعنى القول إن بنية المجموعة المسماة رأس المال المادى غير ذات صلة بالفائدة.

^(٢٧٩) ولذلك، فمن المؤسف أن نجد منظورًا بمنزلة السيد كالدر يعبر عن رأى مناقض تمامًا لنظرية بوهم-باورك حول رأس المال بجمل تخرق بشكل واضح نص وروح تحليل بوهم-باورك [أي بيان إن رأس المال هو عامل متميز للإنتاج وإن رأس المال والفائدة يمكن إدخالهما فى إطار نظرية الإنتاج والتوزيع على قدم المساواة مع العمل والأرض] هو ما كانت تهدف إليه نظريته، فما هو هدفها؟ ما كان ينبغي على زميل البروفيسور فون هايك أن يجد الجواب على هذا السؤال صعبًا. ولكن بمعزل عن كل هذا، فأنى أذكر السيد كالدر بحقيقة إن بوهم-باورك كان مؤلف =

إن من الممكن التشكيك بكل من الدافع التحليلي والحكمة من تحويل المخطط الثلاثي إلى مخطط ثنائي، ولكن هذا التحويل ساعد على الإساءة للمخطط الثلاثي بالتأكيد، بقدر ما كان له من تأثير أصلاً. ومن الضروري طبعاً تمييز هذا المخطط الثنائي عن مخطط ثنائي مختلف، يتمشى أكثر مع وجهات-نظر البروفيسور نايت، وأصبح مألوفاً أكثر وأكثر عند انقضاء الفترة: إذ قرر عدد متزايد من الاقتصاديين استيعاب العوامل الطبيعية ضمن السلع الرأسمالية على أساس إن خصوصيات الأولى، إن كانت موجودة أصلاً، لا تبرر معاملتها بصورة منفصلة^(٢٨٠).

أخيراً، ينبغي علينا أن نلاحظ المحاولة الأكثر جرأة، بين كل المحاولات التي تم الإقدام عليها حتى ذلك الحين، للتعبير كمياً عن رأس المال 'المادى': محاولة ج. ب. كلارك. فقد أدخل كلارك الأرض أيضاً ضمن مفهومه للسلع الرأسمالية. ولكنه إلى جانب هذا المفهوم، وضع مفهوماً آخر وهو: رأس المال البحت pure capital الذي قصد به خزيناً من القوة الإنتاجية المجردة. لو أن كلارك قد عرف رأس المال البحت هذا في صورة نقدية (أو في أى قيمة أخرى)، لأصبح بنائه مفهوماً في الحال. ولكنه كان يفكر فيه كشيء فزيولوجي حاول إيصال معناه من خلال التشبيه. فشلل الماء يتألف، في أى جزء من الثانية، من قطرات ماء فردية، ولكن هذه القطرات الفردية تزوج وتحل محلها قطرات أخرى ويبقى الشلال في حد ذاته نفس الشلال كما كان. وبالمثل، يتألف رأس المال البحت، في أى لحظة، من سلع رأسمالية فردية؛ وأن هذه السلع الفردية (أو معظمها) تنفى وتحل محلها سلع أخرى؛ بيد أن رأس المال البحت في حد ذاته يبقى (أو يمكن أن يبقى في حالة ثابتة) رأس المال البحت نفسه. وبطبيعة الحال، يمكن التعبير، بهذه الطريقة، عن أى مجموعة من العناصر التي تجدد نفسها، كالسكان مثلاً^(٢٨١).

=نظرية للفائدة يمكن تسميتها كنظرية علاوة (Agió) كأفضل تسمية لها.
(٢٨٠) قد يكون أو لا يكون ذلك ملائماً تبعاً للهدف منه. وهذا هو كل ما ينبغي قوله بشأنه. وبالفعل، فقد كانت هناك مناقشة مطولة حول ما إذا كان إدخال الأرض ضمن مفهوم رأس المال 'صحيحاً' أم 'خاطئاً' كما لو كنا أمام قضية حقيقية. إن الاهتمام الذي أبداه الاقتصاديون - في هذه الحالة كما في حالات كثيرة أخرى - في 'مشكلة' متصورة كلياً هو، على أى حال، الشيء الوحيد الذي تجدر ملاحظته بشأن هذه المناقشة، ولا ينبغي علينا أن نبقى هنا لطرح حجج معينة والحجج المضادة لها.
(٢٨١) أسمى ف. ديفيسيا F. Divisia مثل تلك المجموعات ensembles renouveles.

مادام المرء لا يخدع نفسه بالاعتقاد بأن مفهومًا كهذا من شأنه أن يحل مشكلة ما. ومع ذلك، فقد سمح كلارك لنفسه أن يخدع بهذا الشكل وتصورَ عن فناعة بأنه أثبت وجود عامل دائم للإنتاج يمكنه أن يغل دخلاً صافياً.

رابعاً، إن الحدث الذى اجتذب أقصى اهتمام عالمى فى هذا الحقل وأثبت منذ ذلك الحين أنه مصدر خصيب للمناقشة والعمل الوضعى معاً، هو نشر نظرية بوهم-باورك لرأس المال. ولما كان جيفونس قد استيق النقاط الرئيسية، فمن الملائم أن نبتدأ بفصله المتعلق بنظرية رأس المال (Theory of Political Economy, ch. 7). أعلن جيفونس هناك أنه يواصل التقليد 'الكلاسيكى' (الريكاردى) الذى أعلن اتفاهه الأساسى معه^(٢٨٢). ومع ذلك، فإن يلاحظ جيفونس- مثلاً فعلَ ماركس- إن مفهوم ريكاردو لرأس المال يتضمن أشياء مختلفة كالسلع الأجرية wage goods من ناحية، والآلات والمعدات والمواد الخام من ناحية أخرى، فقد اقترح أن يقتصر مصطلح رأس المال على السلع الأجرية فقط وذلك، على ما يبدو، لنفس السبب الذى دفعَ ماركس إلى فصل السلع الأجرية كرأسمال متغير عن بقية رأس المال، أى عن رأسمال الثابت. وإذ يسأل جيفونس نفسه عن أفضل طريقة لتعريف الوظيفة المميزة لرأس المال المخصص للسلع الأجرية هذا wage good capital، فمن الطبيعى جداً أن يعثر على الجواب، الذى لم يكن جديداً حقاً، القائل إن رأس المال هذا يستخدم فى تمويل العمل^(٢٨٣)- ولو أراد، لكان بوسعه أيضاً أن يقول: لاستغلال العمل- أثناء الوقت المطلوب لإنتاج الأشياء التى تم تشغيل العمال من أجلها فعلاً. ولكن عند هذه النقطة، يرد تيار من الأفكار لم يكن موجوداً فى محاجة الريكارديين صراحة^(٢٨٤). إذ يخبرنا جيفونس أن رأس المال 'يسمح لنا بالإففاق على العمل مقدماً'. وعليه، فإن امتلاك wage good

(٢٨٢) حينما نأخذ بالاعتبار أن الكتاب ككل يحمل طابع المقالة أو 'المسودة' أساساً، فأنتى أجازف بطرح الفرضية القائلة إن جيفونس، حينما شرع بالكتابة حول موضوع رأس المال، أدرك بأن الموضوع لا يمت بأى صلة إلى ذلك القسم من النظرية الذى تصورَ هو نفسه أنه قام بتثويره. ولذلك، فقد عزم فعلاً على تناول رأس المال وفقاً لخطوط 'كلاسيكية'. وحينما كانت أفكاره تتطور، فلا يمكن أن يكون قد فشل فى ملاحظة أنه كان يطرح أفكاراً جديدة. ولكن نظراً لعدم اكترائه، فقد ترك المقدمة كما كتبت قبل أن يعرف كلياً ما كان يصدد قوله.

(٢٨٣) العمل فقط- إنها لزلّة غريبة بالنسبة للخصم الكبير لنظرية القيمة القائمة على العمل، أن يتجاهل، فى هذه المحاجة، كل مستلزمات الإنتاج الأخرى.

(٢٨٤) ومع ذلك، ربما شجعَ على تلك الأفكار كتاب آخرون، مثل هيرن Hearn، الذى استشهد جيفونس بعمله: Plutology (1863) فى هذا الفصل، إضافة إلى الفصول الأخرى.

capital هو شرط مسبق لإدخال 'التحسينات في عرض السلع مهما أطالت هذه التحسينات متوسط الفترة الفاصلة بين لحظة ممارسة العمل وظهور نتيجته أو هدفه النهائي' (ص ٢٤٨، الحروف المائلة لجيفونس) كبناء طريق سكة حديد، مثلاً. وعليه، فإن الوقت الذي يمكننا 'تمويله' finance - والذي هو، لدى جيفونس، نفس الوقت الذي نملك فيه السلع الأجرية لتمويل العمل المستخدم في بناء الطريق بشكل مباشر وغير مباشر - هو أحد الشروط التي تُحد من اختيارنا بين طرق الإنتاج، ومن هنا فهو محدّد للمنتوج الذي يجري إنتاجه. ومع ذلك، فإن هذا الوقت، الذي يدخل الآن عملية الإنتاج ومفهوم رأس المال معاً، ينبغي أن يشمل ليس وقت الإنتاج والبناء فقط ولكن، في حالة المنتوج الذي يتألف من سلع معمرة أو من تدفق معين من السلع، وقت 'عدم الاستثمار' أيضاً uninvestment. وهكذا ننقاد إلى التمييز بين 'كمية رأس المال المستثمر' amount of capital invested و'كمية ما يُستثمر من رأس المال' amount of investment of capital حيث يتحدد الأخير بضرب كل جزء من رأس المال المستثمر في أي لحظة 'بطول الوقت الذي يبقى فيه ذلك الجزء مستثمراً' (ص ٢٤٩). ثم تتبّع ذلك الأشكال التوضيحية المعروفة إضافة إلى الأمثلة التوضيحية. إن هذا القول يمثل (أو يوحي ب) مفهوم جديد للبنية الزمنية للجهاز الإنتاجي. ويحسن القارئ صنعا لو رجع بنفسه إلى جيفونس. وإضافة إلى ذلك، فأنتى أجازف بأن أطلب من القارئ شيئين: أن يهمل التفاصيل وأن يركز على الفكرة الأساسية؛ وأن يعترف بأن هذه الفكرة إلى هذا الحد هي فكرة غير واضحة وهراء كامل^(٢٨٥).

سبق أن قدمنا أسباب الاعتقاد بأن نظرية بوهم-باورك حول رأس المال كانت نظرية أصيلة ذاتياً. ولكن من الملائم معاملة هذه النظرية كما لو إنها لم تكن سوى إحكام لأفكار جيفونس^(٢٨٦).

أولاً، يتعين علينا إهمال الصعوبة التي تنشأ عن حقيقة إن بوهم-باورك قد عرفَ رأسماله كمنتجات وسيطة، رغم إن مفهومه عن رصيد الكفاف subsistence

(٢٨٥) قد يبدو ذلك الطلب غريباً ولكن تشجعت عليه كثيرًا بعض الحجج التي قُدمت في المناقشة في الثلاثينات. وقد أطلب طلباً آخر وهو الاعتراف بأن 'العمر الإنتاجي' duration، بالمعنى الذي هو واضح من النص الوارد في المتن، لا يمثل مجرد تفصيل تكتيكي ليس له صلة اقتصادية ما. (٢٨٦) ومع ذلك، فإن صلة القرى التي تربطها بالأفكار الريكاردية والماركسية واضحة (انظر الفصل الخامس، القسم السادس، أعلاه).

fund يلعب نفس الدور بالضبط الذى يلعبه مفهوم جيفونس: رأس المال المخصص للسلع الأجرية wage good capital^(٢٨٧). نحن نقبل مفهوم جيفونس ولكننا لا نستطيع أن نترك هذه النقطة دون التشديد على مفهوم بوهم-باورك للمنتجات الوسيطة (كالأدوات والمواد الأولية) كسلع استهلاكية فى طور النضوج (مفهوم تاوسك: 'الثروة الأولية غير المكتملة' inchoate wealth). إذ ينطوى هذا المفهوم على عمق لا نجده لدى جيفونس^(٢٨٨).

وإذ نستعيد التشديد الذى وضعه جيفونس على العلاقة بين طول الفترة التى يسمح لنا مفهومه عن wage good capital 'بتمويلها' واستعمال طرق إنتاج أفضل، نجد إن نفس الفكرة ترد، مع تشديد إضافي، فى مفهوم بوهم-باورك حول 'عملية الإنتاج غير المباشرة' roundabout process of production (Produktionsumwege) أى إنتاج السلع الاستهلاكية بواسطة إنتاج السلع الوسيطة. إن الإنتاجية الأكثر (Mehrergerbigkeit) التى تتيحها التكنولوجيا الأفضل ترتبط بشكل وثيق بإدخال مراحل إضافية من الإنتاج، وهذا يرتبط بدوره بإطالة الوقت الذى يبقى خلاله استثمار معين محجوزاً locked-up، بحيث نبقي نتساءل، مع إهمال الاستثناءات غير المهمة نسبياً (التي شدد بوهم-باورك على تمييزها)، عما إذا كان بوهم-باورك فى وضع يسمح بالاعتراف بحدوث تحسينات تقصر من ذلك الوقت بدلاً من إطالته^(٢٨٩). افترض بوهم-باورك حينذاك إن منتج كمية معطاة

(٢٨٧) يعانى رصيد الكفاف لدى بوهم-باورك حتى من نفس العيب- الذى أزاله فيكسل فيما بعد- أى أنه رصيد مخصص لتمويل العمل فقط (مفهوماً كعمل متجاسس، بالضبط كما هو لدى ريكاردو) وليس لدفع خدمات العوامل الطبيعية أيضاً (وربما خدمات رأس المال أيضاً). ولكن هذا لا يعود إلا إلى الرغبة بتبسيط مشكلة كانت قد أرهقت قدرته التكنيكية كما كانت عليه.

(٢٨٨) هناك أيضاً شئ يلزم قوله حول الوجه الآخر من ميدالية بوهم-باورك. إذ تمثل منتجاته الوسيطة سلعاً استهلاكية غير مكتملة inchoate consumers' goods. ولكن حينما ننظر إليها من الجانب الآخر، فهي خدمات إنتاجية مترakمة (كما كانت عملاً مكتنزاً بالنسبة 'للكلاسيك'). يثير هذا الأمر حقاً قضية 'انحلال' resolution رأس المال إلى 'خدمات العاملين الأصليين' التى استخلص بوهم-باورك منها الكثير واستخلص منها نقاده أكثر. ونظراً إلى أنه لم يتم، منذ أيام غوريلا، أى منتج وسيط بواسطة العمل وخدمات العوامل الطبيعية فقط، فلا يمكن قبول هذا الانحلال. كما إنه ليس ضرورياً، مثلما سيبتين فى نهاية هذا القسم.

(٢٨٩) نظراً لكثرة الانتقادات الموجهة إلى بوهم-باورك من هذه الناحية، ينبغي أن نتذكر نقطتين. أولاً، وكما سنرى بعد قليل، يصف بوهم-باورك عملياته غير المباشرة برقم لا يمثل الوقت البحت. إذ يمكن أن ترداد 'فترة الإنتاج' لديه حينما لا يزداد الوقت الذى تأخذه العملية الإنتاجية - وهذه هى حالة 'توسيع' أى إطالة بنية رأس المال - أو حتى حينما ينخفض. ثانياً، كان على بوهم-باورك أن يوضح إن محاججته تسرى فقط على 'التحسينات' التى كانت ضمن الأفق التكنولوجى =

من 'العمل' يزداد مع كل زيادة في 'كمية ما يُستثمر من رأس المال' بمفهوم جيفونس amount of investment of capital. ولكنه افترض أيضاً إن هذه الزيادة تمضى بمعدل متناقص^(٢٩٠). وهذا بمثابة قانون معين لتناقص الغلة (المادية) يشبه أساساً تناقص قانون الإنتاجية الحدية من أى عامل آخر: وفي الجداول الحسابية التى استعملها بوهم-باورك لتوضيح أفكاره (انظر، مثلاً، عمله: Kapital und Kapitalzins, 11, p. 463 et seq. Of 3rd ed.)، فإنه 'أضاف'، إذا صح التعبير، وحدات متتالية من الزمن إلى كمية معطاة من الموارد (فعلياً: من العمل فى الشهر الواحد). إن القيد الذى يتضمنه هذا أقوى مما هو ضرورى ولكنه جعل التقدم أسهل بالنسبة لبوهم-باورك مما كان سيكون الحال عليه من دونه. ومع ذلك، لا ينبغي أن ننسى، عند تقييم مستوى هذه الفرضية، الدرس التالى من أحد علماء الطبيعة: من الممكن تبرير فرضية معينة ليس فقط عن طريق الإثبات، القائم على المشاهدات،

technological horizon= للمنتجين من البداية. وينبغي استبعاد الاختراعات التى توسع من هذا الأفق كما هو شأنها على الدوام بالمعنى المألوف فى نظرية الإنتاج التى يعتبر الأفق التكنولوجى ('حالة الفنون') معطى بالنسبة لها. ولكن غزو الاختراعات هذا- أى طرق الإنتاج، الجديدة، ليس بمعنى إنها لم تكن مطبقة من قبل بل بمعنى إنها لم تكن معروفة من قبل- هو الذى، عند التدقيق، يهبط الحالات التى يقترن فيها تكتيك 'أفضل' بتقصير 'فترة الإنتاج' حتى بمعنى بوهم-باورك. إن مسلمة بوهم-باورك لا تعد غير معقولة ما دمنا نتحرك ضمن أفق تكنولوجى معطى وثابت. ولكى نوضح هذا، لنبدأ من حالة يكون فيها الاقتصاد فى توازن (تتافس) كامل؛ ولنفترض أيضاً، بقصد تبسيط المحاجة ليس إلا، أن الموارد الإنتاجية معطاة، وثابتة، ومخصصة بصورة مثلى (وهذا حشو حقاً). إن السبب الوحيد الذى يتيح، فى هذه الظروف، وجود طرق إنتاج 'أفضل' من تلك المستعملة بالفعل ولكنها ما تزال غير مستعملة رغم ذلك يتمثل، كما هو واضح، فى إن الطرق الأفضل يتعذر 'تمويلها' بمعنى جيفونس-بوهم باورك. ولكن نظراً، فى ظل الشروط المفترضة، إلى إن رأس المال مستعمل كلياً وبصورة مثلى، فإن السبب الوحيد لتلك الاستحالة بعود، بدوره، إلى إن الطرق الأفضل من شأنها أن 'تحتجز' كثيراً من رأس المال لوقت طويل. والآن، لنضع رأس المال المخصص للسلع الأجرية wage good capital يزداد مع بقاء كل المستلزمات الأخرى ثابتة. سيوافق كل واحد على أن ذلك سيكون لصالح الاستثمار الجديد فى المنتجات التى تتضمن 'فترة' أطول. وهذا هو كل ما هو ضرورى. أما أن جزءاً من الزيادة سيتم امتصاصه من قبل الأجور وبالتالي يتجه نحو تمويل الإنتاج المخصص للاستهلاك المباشر فهذا بعيد جداً عن أن يشكل اعتراضاً إلى حد أنه يشكل جزءاً جوهرياً من نظرية الأجور لدى بوهم-باورك. وللتخفيف من ذنوب النقاد، ينبغي الاعتراف، أولاً، بأن بوهم-باورك لم يكتب حاجته بصورة مرضية لأن الناشر كان ينتظر بالحاح دفعات جديدة من المخطوطة عام ١٨٨٨؛ وثانياً، بأن بوهم-باورك، لانهمار الانتقادات عليه، لم يحسن الدفاع فى الغالب (وبخاصة فى موضوع الاختراعات).

(٢٩٠) إذا رمزنا إلى المنتج المادى ب p، وسائل الإنتاج ب a, b, c, ...، ورمزنا إلى الزمن ب t، يكون لدينا:

(t = f a, b, c, ... p)، أى الفكرة التى تختزل بالفعل إلى نوع ما من الزمن (انظر الفصل السابع، القسم الثامن، أدناه). كانت فرضيتنا بوهم-باورك كما يلى:

للحقائق التي تشدد عليها بل عن طريق نتائجها أيضًا.

أخيرًا، إن تقسيم مفهوم جيفونس 'كمية ما يُستثمر من رأس المال' - الذي يمتلك بُعدًا زمنيًا - على مفهومه الآخر 'كمية رأس المال المستثمر' - الذي لا يمتلك بُعدًا زمنيًا - يعطى مفهوم بوهم-باورك المشهور: 'فترة الإنتاج'. يراد بهذه الكمية أن تصف، برقم واحد، بنية الإنتاج، وإذا أمكن بنية الإنتاج الوطنى الكلى، وأن تؤدي دورها بوصفها المتغير الأساسى فى نظرية رأس المال. شكلًا، تمثل هذه الكمية مركزًا للجاذبية. تصورُ العدد n من الجسيمات من الكتل m, m, \dots, m التي تقف فى خط مستقيم. إذا أخذنا هذا الخط كمحور ورمزنا إلى إحداثيات الجسيمات على هذا المحور ب x, x, \dots, x ، فإننا نجد إن إحداثية X لمركز جاذبية تلك الجسيمات هو

$$X = \frac{m x + m x + \dots m x}{m + m + \dots m}$$

والآن، دع كتل الجسيمات m 's تمثل، بدلاً من العدد n من كتل الجسيمات، الكميات n من الموارد المادية التي تُضاف بشكل متتابع، عند النقاط n من الزمن،: $t \dots t$ لإنتاج سلعة استهلاكية يتم بيعها واستهلاكها بعد فترة أخرى تقضيها السلعة فى المخزن^(٢٩١). إن هذه البنية تفرض علينا أما ضرورة مطابقة هذه الموارد المادية بعامل وحيد متجانس - علمًا بأن بوهم-باورك اختار وحدات متجانسة من العمل كما هو شأن جيفونس^(٢٩٢) - أو افتراض إن هذه الموارد تتألف من جرعات لا يتغير تركيبها. وكمحور، نختار الآن الزمن بدلاً من البعد، وعلى النقطة صفر على هذا المحور نختار تلك النقطة من الزمن التي تُباع عندها السلعة الاستهلاكية. ومن الواضح، إن كل النقاط الزمنية t 's ستكون على يسار نقطة الصفر وبالتالي سالبة، وأنها تتناقص عدديًا كلما مضينا من الفعل الأول من الاستثمار فى النقطة الزمنية t التي على اليمين نحو نقطة الصفر. يمثل التعبير^(٢٩٣):

(٢٩١) هذا هو انحراف بسيط عن بنية بوهم-باورك.

(٢٩٢) وبشكل محدد، فأنها ينبغي أن تكون 'حد الكفاف' ككمية متجانسة. ومع ذلك، فمن الواضح إن بوهم-باورك لم يحب أن يذهب بعيدًا إلى هذا الحد.

(٢٩٣) لقد جعل التعبير موجبًا وذلك بوضع علامة ناقص فى بدايته نظرًا إلى أن النقاط الزمنية t 's تدخل بصورة سالبة. سيرى القارئ إن من المعقول تمامًا اعتبار 'الاستثمار' ككمية سالبة أساسًا من زاوية 'المستثمر': فالاستثمار هو شيء معين يتخلى هذا الأخير عنه. ومع ذلك، فإن T نفسها ينبغي أن تكون موجبة.

$$T = \frac{m t + m t + \dots m t}{m + m + \dots m}$$

الذى يمتلك بعداً زمنياً فقط (ما دام بعد الموارد يلغى بعضه بعضاً) فترة الإنتاج لدى بوهم-باورك. إن هذه العبارة غير ملائمة إلى أقصى حد-ويصعب تصور عبارة أخرى تتفوق عليها فى هذا- وهى تفسر إلى حد بعيد غزارة الانتقادات العدائية. ولكن معنى العبارة نفسها واضح: فهى تمثل متوسط المسافات الزمنية لبيع كل المنتجات من كل وحدات 'العمل المستثمر' (٢٩٤).

إن الحاجة إلى طرح ملاحظات على هذه النظرية حول رأس المال (إضافة إلى تلك التى قُدمت بالفعل) قد قللت منها كثيراً حقيقة إن البروفيسور نايت، وهو الأكثر بروزاً بين نقاد هذه النظرية، اعترف بأن النظرية صحيحة فى ظل كل الفروض التى وضعها بوهم-باورك (٢٩٥). أولاً، ينبغى التشديد مجدداً على أننا لا نهتم هنا بنظرية بوهم-باورك للفائدة أو بدلالات أى من عناصر نظريته عن رأس المال على تلك النظرية. وهذا يخلق الكثير من الاختلاف. وكمثال، تخيل الحاجة التى تدور حول عملية مترامنة يمضى فيها الإنتاج والاستهلاك بصورة مستمرة معاً

(٢٩٤) فى عمله: Rate of Interest، تساءل ارفنج فيشر لماذا ينبغى اعتبار ذلك المتوسط الموزون بوصفه الطريقة 'الصحيحة' لقياس فترة الإنتاج. ومن الواضح إن ذلك السؤال أربك بوهم-باورك كثيراً (انظر: Exkurs 3, in the 3rd and 4th ed. Of Kapitak und Kapitalzins, 2) ولكن كان ينبغى أن يكون من السهل الإجابة على ذلك السؤال. بل ما كان ينبغى حقاً إثارته أصلاً.

(٢٩٥) إن لذلك الطريق المختصر مخاطره طبعاً؛ كما أنه يحرم القارئ من الفوائد من التدريب على فن التنظير التى يمكنه أن يكسبها من المناقشة الأكمل. وللتعويض عن ذلك، أحيله إلى مقالة السيد كالدر: 'The Recent Controversy on the Theory of Capital,' Econometrica, July 1937، حيث تقدم الهوامش الثلاثة الأولى فيها ثبوت مراجع بالنسبة للثلاثينات بما فيها طبعاً مقالة النصير الفعال البروفيسور نايت. ولا أضيف إلى ثبوت المراجع هذا (ما عدا رد نايت: Reply, ibid, January 1938) ورد كالدر (Rejoinder, ibid, April 1938: Kaldor) سوى الأعمال التالية: F. Burchardt, 'Die Schemata des stationären Kreislaufs bei Bohm-Bawerk und Marx' (Weltwirtschaftliches Archiv, October 1931 and January 1932) ; W. Eucken, Kapitaltheoretische Untersuchungen (1934) ; J. M. Thompson, 'Mathematical Theory of Production Stages in Economics,' Econometrica, January 1936. أما عمل ف. أ. هايك: Pure Theory of Capital (1941)، فلا يقدم وجهات النظر الأحدث فقط ولكنه أيضاً يلقي ضوءاً مهماً (فى الجزء الأول منه) على السجال حول رأس المال. ومن بين الانتقادات الأبرك، سوف أذكر فقط انتقاد فيشر السوارى فى عمله: Rate of Interest وكذلك عمل فون بورتكيفيج von 'Der Kardinalfehler der Bohm-Bawerkschen Zinstheorie' (Schmoller's: Portkiewicz Jahrbuch, 1906. وما يثير الانتباه فى العمل الأخير هو روحه المعادية التى لا تقبل المهادنة والتى تختلف بصورة تثير الدهشة عن الروح التى أبداها فى أعماله النقدية المشهورة حول ماركس. ويأتى رد بوهم-باورك غير الموفق كلياً على الاثنين فى الطبعيتين الثالثة والرابعة من عمله Kapital und Kapitalzins.

وحيث جرى تنسيق كل عناصرها بشكل تام، فإن فكرة فترات الإنتاج تكف عن أن تمتلك أى أهمية وحتى أى معنى ويمكن بأمان معاملة الإنتاج كعملية لا ترتبط بزمان معين timeless. وهنا، فقد يصح القول إن فترة الإنتاج فى عملية كهذه تكف عن أن تكون لها أى أهمية فى تفسير الفائدة^(٢٩٦). ولكن هذا لا يعنى نفس ما يعنيه القول إن المفهوم لا يمتلك جدوى أو حتى معنى فى عملية كهذه. فحتى فى شلال كلارك، الذى نفترض أنه منتظم بصورة تامة، يمكننا مثلاً أن نحاول تعريف الوقت الذى تأخذه قطرة من الماء فى المتوسط من قمة الشلال إلى قاعه مما يهيئ طريقة لوصف بعض خصائص الشلال، رغم إنها طريقة غير كاملة إلى حد بعيد. وبالمثل، فمن شأن فترة الإنتاج لدى بوهم-باورك أن تعبر، عند قبول فرضياتها، عن إحدى أكثر الخصائص دلالة بالنسبة لعملية اقتصادية معينة مهما كانت هذه العملية 'غير دورية' cycleless. وقد أوضح البروفيسور مارشاك Marschak^(٢٩٧) هذا الأمر فى واحدة من المساهمات البناءة القليلة فى نظرية بوهم-باورك لرأس المال.

ثانياً، ينبغى أن نضع فى أذهاننا نواقص بوهم-باورك التقنية التى جعلت فكرته عرضة لهجوم ناجح شكلياً أكثر مما كانت ستكون عليه تلك الفكرة لو كانت قد قدمت بجهاز تقنى أقوى. على أى حال، لقد تمت تقوية هذا الجهاز من قبل كتاب عدة، وبخاصة غيفورد^(٢٩٨) ومارشاك. ثالثاً، وبمعزل عن نواقصه التقنية، فلا ينبغى أن ننسى إن مفهوم فترة الإنتاج، كما صاغه بوهم-باورك، كان مجرد وسيلة للتعبير عن جانب واحد من العملية الاقتصادية وأنه أهمل كل الجوانب الأخرى، وإن هذا هو ما قصده فيكسل حينما قال إن نظرية بوهم-باورك كانت نظرية 'مجردة' جداً إلى حد أنها يصعب أن تشكل حتى مقاربة أولية للحقيقة. ولهذين السببين معاً، فإن هذه البنية كلها تبدو كئيبة، إن لم نقل غريبة.

ومن الممكن، دون صعوبة كبيرة، إزالة بعض الجوانب التى تفسر هذا الانطباع. كانت معرفة جيفونس أفضل من أن يترك العمل يُضاف إلى منتج

(٢٩٦) رغم أننى قد أثرت بنفسى هذه النقطة قبل أربعين سنة، فلا أرى الآن إنها تُستقبل جيداً.

(٢٩٧) Jacob Marschak, 'A Note on the Period of Production,' *Economic Journal*, March 1934. إن محاججته تجرى من خلال القيم كما يبدو، ولكن فى نسبة القيمة الكلية للمخزونات القائمة من السلع إلى قيمة التدفق من السلع الاستهلاكية الجاهزة، فإن بُعد القيمة يلغى بعضه بعضاً.

(٢٩٨) C. H. P. Gifford, 'The Concept of the Length of the Period of Production,' *Economic Journal* December 1933. أما مارشاك، فقد أشرنا إليه تواتراً.

وسيط لیتنامی إلى أن يظهر منتج استهلاكي نهائي يستهلك في الحال. فكما ذكرنا آنفاً، فإن جيفونس قد أدخل عملية 'عدم الاستثمار' بحيث إن فترته لم تكن فترة إنتاج فقط. وقد أضاف بوهم-باورك نفسه، متأثراً برأى، فكرة الاستنفاد التدريجي للسلع الاستهلاكية المعمرة. كما إن فيكسل قد أوضح كيف إن خدمات العوامل الطبيعية يمكن أن تدخل في الصورة سوية مع العمل. وقد عالج تلميذه البروفيسور أوكرمان Akerman، المتأثر برأى أيضاً، في واحد من الأعمال الأكثر أهمية في هذا الحقل، مشاكل رأس المال الثابت الذي يغيب عن مخطط بوهم-باورك بصورة ملفتة للنظر^(٢٩٩) يمكن إزالة أحد تلك الجوانب التي تبعث على السخرية إلى أقصى حد كما بدا الأمر للنقاد - أى أن فترة الإنتاج لدى بوهم-باورك تبدأ، كما يبدو، من حالة يتحقق فيها كل الإنتاج دون أدوات أو مواد قط وإن الأفراد يصطادون السمك بأيديهم العارية - وذلك بمجرد أن ندرك إن كل النظرية الاقتصادية هي نظرية تخطيط ويتعين عليها بالضرورة أن تقبل كل نتائج الماضي - بما في ذلك المصانع، والمعدات والخزین - كمعطيات. وعندئذ فإننا نكف عن محاولة بناء عملية اقتصادية ما ab ovo {من البداية} وأن نأخذ بالاعتبار، ونحن نتطلع إلى الأمام فقط، كمية ما ينبغي تحقيقه من الاستثمار 'amount of investment to be done' بدلاً من كمية ما يستثمر من رأس المال 'amount of investment of capital'^(٣٠٠). وارتباطاً بذلك، فمن شأن هذا أيضاً أن يزيل أحد الدوافع 'لانحلال' resolution كل السلع

(٢٩٩) (٤٦ 1923-4) Gustaf Akerman, Realkapital und Kapitalzins. حول هذا الموضوع، انظر ملاحظة فيكسل التي أعيد نشرها في الملحق الثاني من عمله: Lectures، وإعادة الصياغة الجزئية التي وضعها أوكرمان نفسه: Om den industrialia rationaliseringen.. (1931). وتكمل هذا العمل مساهمة اريك ليندال Erik Lindahl (التي تتوافر باللغة الإنجليزية تحت عنوان: 'The Place of Capital in the Theory of Price' بوصفها الجزء الثالث من عمله: Studies in the Theory of Money and Capital, 1939) وذلك من زاوية أخرى تقترب من فالراس.

(٣٠٠) إن السؤال: لماذا لم يفعل بوهم-باورك ذلك هو سؤال مهم نوعاً ما. وأنصوّر إن الجواب يمكن العثور عليه في الموقف الغريب الذي كان موقفاً عاماً بين الكتاب النمساويين. إذ لم يقتنعوا قط بتفسير حالة معينة من عملية معينة وفقاً للحالات السابقة من نفس العملية. فقد كانوا يشكون بوجود تفكير دائري في أى محاجة تفعل ذلك - أو، على الأقل، تتعامل مع المسألة الأساسية كحقيقة، رغم أنها لم تثبت بعد. فأى تفسير سببي 'ينبغي أن يكون' أصلياً 'genetic'. ويتعين عليه أن يسيطر اللثام عن الأصول 'المنطقية' للأشياء. وهكذا، كان يجب، بالنسبة لنظرية رأس المال، أن تتطور عن ظروف لم يكن فيها رأسمال. وفي الواقع، اعتمد بوهم-باورك، لغرض الحصول على فترة قصيرة بشكل معقول، على فرضية أعدت خصيصاً مفادها أننا كلما عدنا إلى تاريخ عملية صناعية معينة، فإن كميات الموارد التي استعملت في الماضي ولكنها ما تزال موجودة فيها (الحديد المستخرج من المناجم في الأزمنة الرومانية الذي ربما ما يزال موجوداً في سكينه الجيب الحديثة) تتناقص بزمان معدله أسرع من الزمن الذي ينبغي أن تتضاعف فيه.

نرأسمالية إلى 'أرض وعمل' أو إلى عمل فقط. وبالمثل، يمكننا أن نتخلص من 'خطية' مخطط الإنتاج لدى بوهم-باورك- أى من الفكرة القائلة إن كل المنتجات تظهر كنتيجة لعمليات لا يُضاف خلالها إلى نتائج المرحلة السابقة، في كل مرحلة وسيطة، سوى العمل. كما لا يبدو من المستحيل أن نشق، من 'فترات' المنشآت 'فردية'، الفترة الاجتماعية للإنتاج التي هي ضرورية في نظرية بوهم-باورك. ولجعل مفهوم بوهم-باورك لبنية رأس المال يخدم نيته التحليلية، ينبغي أن تكون هذه البنية واقعاً مادياً؛ ويجب أن تكون الكميات المختلفة من المنتج، التي تنتجها بنى مختلفة زمنياً، قابلة مادياً للمقارنة. لتأمين المستلزم الأول، يلزمنا بالفعل مورداً متجانساً من الناحية المادية لا تختلف عناصره إلا في البعد الزمني؛ ولتلبية المستلزم الثاني، ينبغي أن تكون المنتجات، التي تدخل جداول بوهم-باورك، متماثلة نوعاً ونوعية ولا تختلف إلا من حيث كميتها المادية. ومن المتعذر تلبية هذين المستلزمين إلا في حالات خاصة. وإن هذا هو ما يختزل القيمة التحليلية لنظرية رأس المال لدى بوهم-باورك، إلى هذا الحد، إلى مثال توضيحي غير عملي لجانب من الواقع^(٣٠١). ولكن القارئ قد يسأل هنا: إذا كنا نعترف بكل هذا، وإذا كنا ندخل كل هذه التصحيحات، فماذا يتبقى من نظرية بوهم-باورك لرأس المال، وبخاصة مفهومه لفترة الإنتاج؟ حسناً، لا يتبقى شيء غير الفكرة الجوهرية. وإن هذه الفكرة تبقى تثبت فعاليتها عبر ما نثيره من نقد وكل قطعة في العمل البناء^(٣٠٢).

(٣٠١) تتكرر مثل هذه الأوضاع في علم الاقتصاد على نحو أكثر مما يمكن أن يتصوره المرء. يقدم عمل ماركس أمثلة عدة عنها. والمثال الثاني هو فكرة البروفيسور بيجو عن باوند من الموارد كان قد طرحها أولاً (في الطبعة الأولى من عمله Wealth and Welfare) ثم أسقطها فيما بعد. وتقدم سلّة مارشال من السلع، التي استعملها في نظريته للتجارة الدولية، مثلاً آخر. والمشكلة قد لا يتعذر حلها. (انظر، مثلاً: W. Leontief, 'Composite Commodities and the Problem of Index Numbers,' *Econometrica*, January 1936). وفي جميع الأحوال، فإن هذه الأمثلة تبين إن الحجج التي تشير إلى العمل في ظل الصعوبة المذكورة هي حجج لا تخلو من القيمة بالضرورة.

(٣٠٢) ثمة إعادة تفسير بناءة حديثة لبوهم-باورك لم نورد لها لحد الآن وهي ترد في عمل هيكس: Value and Capital (1939), ch. 17. إن إعادة التفسير هذه لم تتم وفقاً لروح بوهم-باورك. ولكنها تثبت إن أفكار بوهم-باورك أفلقت البروفيسور هيكس. وقد أقام البروفيسور دوغلاس Douglas عن غير قصد نصيباً تذكاريًا لبوهم-باورك في الفصل التاسع من عمله: Theory of Wages (1934), p. 128.

٣- الثورة في نظرية القيمة^(٣٠٣) والتوزيع

نحاول في هذا القسم أن نصوغ بشكل أولى تماماً ما تضمنته هذه الثورة، كما تُسمى، والإضافة التي قدمتها إلى التحليل الاقتصادي. ولهذا الغرض، سننتبني لغة نظرية المنفعة الحدية في شكلها الأصلي والأكثر بساطة. كما سنستعمل بشكل رئيسي النسخة النمساوية منها لأن النمساويين (منجر وفيزر وبوهم-باورك)، رغم تخلف تكنيكهم، نجحوا في إبراز جوانب أساسية معينة بصورة أوضح مما فعل جيفونس أو فالراس. أما تعاليم مارشال، فتزد، كمقارنة منورة، في كل من هذا القسم والفصل القادم حيث نتحرك على المستوى الأرفع لفالراس^(٣٠٤).

وسنعالج في الفصل السابع تاريخ نظرية المنفعة الحدية نفسها وتاريخ خلفائها. ولكننا بحاجة لوضع جوانب منها هنا بالضبط. لقد انطلق منجر مما تصور إنها الحقائق الواضحة عن الحاجات البشرية التي صاغها كما يلي: أولاً، هناك فئات مختلفة من الحاجات wants أو الأذواق testes أو الرغبات desires (Bedurfniskategorien) كالرغبة في الطعام، والسكن، والملبس، وما شابه، التي تعرف مفهوم السلع Goods ويمكن ترتيبها في ترتيب محدد من الأهمية (الذاتية)؛ ثانياً، في إطار كل فئة من هذه الفئات، ثمة، كحقيقة نفسية معطاة، سياق محدد من الرغبة بتحقيق زيادات إضافية من كل سلعة (Bedurfnisregungen) نحس بها كلما واصلنا استهلاك زيادات متتالية من السلعة. لقد أوضح منجر هذا في جدول رقمي، أعاد البروفيسور ستغلر تقديمه (المرجع السابق، ص ١٤٤)، ودرس بشكل دقيق عدداً كبيراً من الأسئلة التي تبرز بالارتباط مع المخطط- مثل إلى أي حد يمكن أخذ هذه الحاجات كمعطيات، رغم قابليتها للتوسع وسهولة التحكم فيها malleability. وإن نهمل هذه الأسئلة، فأنتنا نتقدم حالاً لطرح المسئلة- أو 'القانون'- التي كانت أساسية للنظرية 'الجديدة' أو 'النفسية' للقيمة: كلما تناولنا

(٣٠٣) بدلاً من استعمال هذه العبارة التقليدية، يمكننا استعمال عبارة 'نسب المبادلة' exchange ratios أو 'الأسعار النسبية' relative prices. فهذه المصطلحات الثلاثة هذه تعني الشيء نفسه بالنسبة لمعظم أغراض نظرية الفترة المدروسة.

(٣٠٤) لأن تتم مناقشة سوى بضع أساسيات ولن نغم بأى محاولة منظمة لإعادة طرح وانتقاد صياغات الكتاب الفرديين. وللحصول على تحليل أكثر كمالاً، أحيل القارئ إلى كتاب البروفيسور ستغلر (Stigler: Production and Distribution Theories 1941).

زيادات متتابعة من كل سلعة، فإن شدة رغبتنا في 'وحدة' إضافية منها تهبط بصورة ثابتة *monotonically* إلى أن تصل إلى الصفر حيث يمكن أن تصل إلى ما دون الصفر بعد ذلك. وإذا استبدلنا الأرقام المنفصلة *discrete* لدى منجر بمنحنى أو دالة متصلة *continuous*، واستبدلنا عبارة 'الرغبة بوحدة إضافية' ^(٣٠٥) بعبارة: المنفعة الحدية، يمكننا أن نعيد صياغة تلك المسلمة كما يلي: 'تتناقص المنفعة الحدية من أى شيء، بالنسبة لأى فرد، مع كل زيادة فى الكمية التى لديه منها أصلاً' (Marshall, Principles, p. 168). وإذا نرجأ بعض الاعتراضات المختلفة على هذه المسلمة، يمكننا أن نعرّف وفقاً لها، مفهوم المنفعة الكلية (كمجموع أو مكامل *integral*) بقولنا أيضاً بأن المنفعة الكلية من أى شيء، بالنسبة لأى فرد، تتزايد إلى حد نقطة الإشباع مع كل زيادة منها ولكنها تتزايد بمعدل متناقص.

وفى أى من هذين الشكلين، نجد ما أسماه مارشال قانون الحاجات القابلة للإشباع وما أسماه النمساويون *Gesetz der Bedürfnisattigung*. وعلى شرف رائده 'الأكثر أهمية، فقد جرت تسمية هذا القانون بقانون غوسن الأول *Gossen* ^(٣٠٦). ونضيف حالاً الفرضية التى تسمى - أو يجب أن تسمى - قانون غوسن الثانى. إن هذا القانون، بخلاف القانون الأول، لا يمثل مسلمة *postulate* بل موضوعة *theorem*: فلضمان أقصى إشباع من أى سلعة قابلة لإشباع حاجات مختلفة (بما فى ذلك العمل أو النقود)، ينبغى على الفرد أو (المنشأة) تخصيص تلك السلعة للاستعمالات المختلفة بطريقة من شأنها تسوى بين المنافع الحدية فى جميع هذه الاستعمالات ^(٣٠٧). تبدو كلتا العبارتان، لأول وهلة، مجرد صياغات تكتيكية

(٣٠٥) بدلاً من كلمة: وحدة، قال منجر: *Teilquantitat*، التى أراد بها، كما أوضح البروفيسور ستغلر، زيادة صغيرة ولكن متناهية. وحينما نستعمل، لغرض الملائمة التحليلية، دوالاً متصلة وتحليلية، فإننا نقصد زيادات صغيرة إلى أبعد الحدود *infinitesimal increments*. إن كلمة وحدة: *unit* غير دقيقة قط. تعود عبارة: المنفعة الحدية *Marginal Utility* إلى فيزر (*Grenznutzen*). وقد استعمل جيفونس عبارة: الدرجة الأخيرة من المنفعة؛ أما فالراس، فإنه استعمل عبارة: *rarete*. والتعبير الأخير، الذى سوف نترجمه بالتأكيد بمعنى الندرة، لا يترك سوى الشئ القليل للمعترضين الذين، مثل كاسل، أرادوا التخلص من المنفعة والاحتفاظ بالندرة *Scarcity* رغم ذلك. أما التعبير: 'الرغبة فى بوحدة إضافية' فيعود إلى فيشر الذى تكلم أيضاً عن 'إمكانية الشعور بالحاجة' *wantability*. وقد أدخل باريثو مفهوم: *ophelimité elementaire* وأما كلارك، فقد أدخل مفهوم: المنفعة المحددة *Specific Utility*.

(٣٠٦) انظر الملحق إلى الفصل السابع: 'ملاحظة حول المنفعة'، أدناه.

(٣٠٧) لقد تكلم منجر عن الحاجات المختلفة التى يمكن أن تشبعها سلعة معينة 'حيث تُشبع إلى حد مستوى واحد من الإلحاح'. وهذا أمر حسن إلى الحد الذى بلغه. ولكن من المهم ملاحظة التردد الذى أبداه =

لأشياء مبتذلة كئيبة. ولكن لا ينبغي أن ننسى أن البنى التحليلية الأكثر شموخاً تقوم على أشياء مبتذلة لا تثير الاهتمام بحد ذاتها قط. فهل ثمة ما هو أكثر ابتذالاً من الفكرة القائلة إن الجسم الساكن يبقى ساكناً ما لم يحركه شيء ما ('قوة' ما) (قانون نيوتن الأول)؟ لنلقى، إذن، نظرة على البنية التي قامت على مثل تلك الأشياء المبتذلة.

(أ) نظرية القيمة التبادلية كانت مشكلة المقايضة هي المشكلة الأولى التي عالجها جيفونس ومنجر وفالراس (وكذلك غوسن Gossen) وفقاً لجهاز المنفعة الحدية. أدرك هؤلاء، مثل سابقهم 'الكلاسيك'، الأهمية المركزية للقيمة التبادلية، مع أنهم، كسابقهم هؤلاء أيضاً، لم يوضحوا لقرائهم بدرجة كافية من الوضوح وربما لم يدركوا هم أنفسهم بصورة كافية، إن القيمة التبادلية هي شكل خاص من المعامل الشامل للتحويل الذي يستند على اشتقاقه كل منطق الظواهر الاقتصادية^(٣٠٨). كانت نظرياتهم المقايضة لديهم، أو إذا استعملنا مرة أخرى مصطلح واتلي whateley، نظريات catallactics لديهم، تختلف كثيراً فيما بينها من ناحية الكمال والدقة التكنيكيتين: حيث يرد أفضل عمل خلال الفترة في الدروس ٥١-٥٥ من عمل فالراس Elements^(٣٠٩). ولكنهم كلهم - وغوسن أيضاً - استهدفوا نفس الهدف وهو إثبات أن مبدأ المنفعة الحدية يكفي لاشتقاق نسب المبادلة بين

=كتاب كثيرون حول هذا القانون الثاني.

(٣٠٨) وبالنتيجة، فإن النقاد ذوي التوجه التاريخي أو التوجه السوسيولوجي كانوا يفهمون حتى أقل مما كان يعنيه هؤلاء المنظرون الاقتصاديون. فإذ أخذوا المخططات البسيطة، التي أدخل الأخيرون بواسطتها موضوعهم، بقيمتها الظاهرية؛ وإذا وجدوا، مثلاً، إن هذه المخططات تعالج مقايضة السلع الاستهلاكية، التي كانت موجودة بكميات معطاة، فقد استغرب هؤلاء النقاد من ماهية الصلة التي يمكن أن تكون لمثل هذا التحليل ليس فقط بالمشاكل الكبرى للحياة الاجتماعية بل أيضاً بالمشاكل الاقتصادية البحتة الهامة حقاً: الإنتاج والتوزيع.

(٣٠٩) فالراس هو الوحيد، بين الثلاثة، الذي استعمل حالة من ثلاث سلع وأكثر - متتالواً بالمبادلة غير المباشرة - وأن يشير إلى أي شيء يقترب من شروط التوازن المرضية من خلال فائض الطلب. أما عمل جيفونس حول 'نظرية المبادلة' فهو على درجة أدنى إلى حد بعيد. معالجة منجر للمشكلة مقبولة إلى الحد الذي بلغته. ولكنه لم يذهب بعيداً. وحينما حاول بوهم-هاورك إحكام نظريته، خذله تكنيجه المعيب حالاً، وتعرض سوق خيله المشهور إلى انتقاد سهل من قبل إديجورث: وقد وردت المساهمات الأكثر أهمية لهذا الأخير في عمله Mathematical Psychics وفي كثير من مقالاته أيضاً. وأذكر، بشكل خاص، المقالة الواردة في مجلة Giornale degli Economist, March 1891 حيث يجد القارئ أيضاً مقالة أخرى مهمة كتبها آرثر بيلي Arthur Berry في عدد شهر حزيران من العام ١٨٩١. ويتضمن عمل مارشال: Principles كل ما يحتاجه القارئ حول نظرية المقايضة (وبشكل رئيسي في الصفحات ٤١٤-٤١٦، والملحق، والملاحظات ١، ٢، و ١٢).

السلع التى ستتبدل نفسها فى الأسواق التنافسية، وكذلك الشروط التى فى ظلها ينبغي أن يحل نطاق من نسب المبادلة الممكنة محل النسب التى تتحدد بشكل فريد. وبعبارة أخرى، أثبت أولئك الكتاب ما تصور آ. سميث وريكاردو وماركس أنه أمر مستحيل، أى إمكانية تفسير القيمة التبادلية من خلال القيمة الاستعمالية^(٣١٠). ومن شأن جيفونس ومنجر وفالراس أن يستحسنوا كلهم هذه العبارة. وهذا هو ما قصده حينما ادعوا انهم اكتشفوا 'سبب' القيمة (التبادلية). ومع ذلك، فليس من شأن هذا أن يعنى الكثير حتى إذا افترضنا صحته، وبخاصة منذ أن تم حل 'غزr القيمة' مرات عدة من قبل ذلك، كما نعلم. فالأكثر أهمية هو إن النظرية 'الجديدة' للمبادلة أكثر عمومية مما كانت عليه النظريات القديمة^(٣١١)، وإنها أثبتت إنها أكثر فعالية فى نتائجها- التى يعود الفضل فى الكثير منها إلى إديجورث- حتى فى الحالات التى تغطيها النظريات القديمة^(٣١٢). ولكن هذه أيضاً ليست هى النقطة الجوهرية. فالنقطة الجوهرية هى أنه، فى النظرية 'الجديدة' للمبادلة فإن تحليل المنفعة الحدية قد خلق

(٣١٠) إذا عبرنا بمصطلحات ماركسية، فذلك يعنى إن 'اقتصاد المبادلة' أساساً (Tauschwertwirtschaft) هو 'اقتصاد استعمالي' أيضاً (Gebrauchswertwirtschaft) الأمر الذى ينكره المذهب الأصولى الماركسى كقضية مبدأ. وبطبيعة الحال، نحن لا نريح ولا نخسر شيئاً بالنسبة للاشتراكية من تبني أى من هذين الرأيين. ولكن كلا الطرفين، أو الماركسيين فى جميع الأحوال، تصورا إن هذه القضية تحمل أهمية عملية. وقد لا يكون من الزائد أن نوضح إن هذه القضية لا تمت منطقياً بأية صلة إلى قضية الاقتصاد الشائع الحديث: الإنتاج لأجل الحاجة مقابل الإنتاج لأجل الربح. انظر، مثلاً، الجزء الرابع، الفصل الرابع، القسم السادس، أعلاه. ومع ذلك، فثمة معنى من التشديد، إزاء شكل واحد محدد من النقد غير العادل، على أن من غير الصحيح إن آ. سميث أو ريكاردو أو ج. س. ميل سخروا من هذا المدخل للظاهرة الاقتصادية بسبب بساطته. والحقيقة هى أنهم لم يعرفوا كيف يمكن الاستفادة من القيمة الاستعمالية لتفسير القيمة التبادلية. فهم لم يروا سوى إن الأولى هى شرط للثانية.

(٣١٢) يمكن إدراك ذلك على أفضل وجه بمقارنته بنظرية القيمة التبادلية التى تقوم على كمية-العمل. فهذه الأخيرة، كما سبق لنا أن رأينا، هى نظرية غير 'خاطئة'، كما تعود الثوار أن يقولوا، وبخاصة النمساويون منهم. ومن المفيد أكثر أن نقول إنها لا تغطى سوى حالة خاصة فقط. وحتى فى الحالة التى تصح فيها، فإن الموضوعات القائلة إن 'أسعار' السلع تميل للتناصب مع كميات العمل المتجسد فيها لا تفعل سوى أن تشير إلى صفة معينة من الأسعار التوازنية. فهى لا تقدم وصفاً معيناً للعملية التى تخلق هذه الأسعار وبالتالي لا يمكن قط تسميتها كنظرية أسعار؛ وذلك بأكثر مما نستطيع أن نسمى، كنظرية نقد، العبارة القائلة إن مستوى السعر، فى ظروف معينة، يتناسب مع كمية النقود وذلك حتى حيثما تصح هذه العبارة؛ أو بأكثر مما نستطيع أن نسمى، كنظرية أجور، العبارة القائلة إن الأجور الحقيقية، فى ظروف معينة، تساوى حد الكفاف الأدنى وذلك حتى حيثما تصح هذه العبارة. وإلى هذا الحد، فإن الثوار لم يثوروا بنية نظرية قائمة، ولكنهم وضعوا نظرية معينة فى موضع لم يكن فيه شئ ما من قبل.

أداة تحليلية تسرى سرياناً عاماً على المشاكل الاقتصادية^(٣١٣). وسيوضح هذا أكثر كلما مضينا في عملنا.

(ب) التكلفة، الإنتاج، التوزيع تشير مفاهيم المنفعة الحدية والكلية إلى حاجات المستهلكين. وهكذا فهي لا تحمل معنى مباشراً إلا بالنسبة للسلع أو الخدمات التي يتيح استعمالها إشباع حاجات المستهلكين. ولكن منجر دأب على القول إن وسائل الإنتاج- أو 'السلع من الدرجة العليا'، كما كان يسميها- تتدرج ضمن مفهوم السلع الاقتصادية بفضل حقيقة إنها أيضاً تتيح إشباع حاجات المستهلكين، ولو بصورة غير مباشرة فقط، عبر المساعدة على إنتاج الأشياء التي تشبع الحاجات الاستهلاكية بشكل مباشر. لنتوقف للحظة لتأمل معنى هذه الأداة التحليلية التي تبدو بسيطة وحتى مبتذلة ولكنها تشكل ضربة من النبوغ الحقيقي رغم ذلك^(٣١٤). فهي تمكننا من معاملة أشياء كالحديد أو السمنت أو المخصّبات- وكذلك كل خدمات العوامل الطبيعية والعمل التي لا تستهلك بصورة مباشرة- كسلع استهلاكية غير مكتملة، وتوسع بهذا الشكل من نطاق مبدأ المنفعة الحدية ليشمل كل مجال الإنتاج و'التوزيع'. لقد نسب إلى مستلزمات أو عناصر أو عوامل الإنتاج قيم استعمالية: فهي تكتسب مؤشرات أهميتها الاقتصادية وبالتالي قيمها التبادلية من نفس مبدأ المنفعة الحدية الذي يزود مؤشرات الأهمية الاقتصادية وبالتالي يفسر القيم التبادلية للسلع القابلة للاستهلاك. ولكن القيم التبادلية هذه أو الأسعار النسبية للعوامل تشكل تكاليف إنتاج بالنسبة للمنشأة المنتجة. وهذا يعنى، من ناحية، إن مبدأ المنفعة الحدية يغطى الآن ظاهرة التكلفة ومنطق تخصيص الموارد (بنية الإنتاج) بالنتيجة أيضاً وبالتالي 'جانب العرض' من المشكلة الاقتصادية، بقدر ما يتحدد كل ذلك بالاعتبارات الاقتصادية. ومن الناحية الأخرى، فنظراً إلى أن التكاليف، بالنسبة للمنشأة، هي دخول بالنسبة للأسر، فإن المبدأ الحدى نفسه، مع نفس الشرط، يغطى تلقائياً ظواهر تكوين الدخل أو 'التوزيع' التي لم تعد حقاً موضوعاً متميزاً، رغم

(٣١٣) هذا هو ما شعر به الثوار أنفسهم ولكنهم لم يبرزوه بصورة صحيحة. وهذا يعود، جزئياً، إلى حقيقة إن الأداة ذات الانطباق العام- نظرية تعظيم السلوك- تظهر فى نظرية المبادلة بهيئة حالة خاصة. فهي لم توضع قط وهى منقاة من كل الأشياء غير الجوهرية (بما فى ذلك المنفعة الحدية نفسها) ومختزلة إلى الأساسيات المنطقية وذلك قبل أن ينشر ب. أ. ساملسون P. A. Samuelson عمله: Foundations of Economic Analysis (1947 ; ch. 1, 2 and 3).

(٣١٤) كان قد تم استعمال تلك الأداة من قبل غوسن بالفعل بصورة جنينية.

إنها طبعاً يمكن أن تُدرّس بصورة منفصلة لغرض ملائمة العرض. وهكذا يتوحد كل جهاز الاقتصاد البحت على أساس مبدأ واحد - بمعنى ما لم يكن عليه هذا الجهاز من قبل أبداً.

لا يمكن مناقشة معظم المشاكل التى تنشأ عن هذه البنية إلا على مستوى تبرز فيه منزلة فالراس الرفيعة. ورغم اعتقادى بأحقية جيفونس فى نسخة من الوقائع المذكورة قبل قليل وبالتالى حقه فى الأسبقية إذا صح ذلك، بيد أننى أعتقد بأن الفضل يجب أن يكون من نصيب النمساويين، وبخاصة منجر الذى يتضمن عمله Grundsatzes كل الأساسيات. يشير البروفيسور ستغلر حقاً إلى 'فجوات' كثيرة فى معالجة منجر ويعزوها، عن حق، إلى انشغاله بمشاكل بدء تقييم السلع القابلة للاستهلاك بشكل مباشر. وهذا يفسر بالفعل الانطباع بأن منجر كان يهمل جوانب التكلفة. ولكن وفقاً لعرض ستغلر نفسه، فإن منجر توصل إلى كل الاستنتاجات الجوهرية. كما لا ينبغي أن ننسى أن العمل Grundsatzes كان يهدف، بمعنى يختلف تماماً عن المعنى الذى يمكن تطبيقه على عمل مارشال Principles، إلى أن يكون مجرد مقدمة. وبالفعل، فقد تركت إلى فيزر صياغة النظرية النمساوية للتكلفة والتوزيع بشكل محدد. ولكن فيزر كان الأسوأ تكتيكاً بين النمساويين الثلاثة الكبار. وهكذا تكومت أمام قرائه - وبخاصة فيكسل - الاعتراضات على الطرق، التى كانت غريبة عليه بحيث إنها أضعفت عملاً كان كبيراً حقاً. وقد عرض بوهم-باورك النظرية النمساوية للقيمة وطورها ودافع عنها. ولكنه، فى هذا المجال، لا يمتلك الأصالة التى لم يدعيها هو نفسه. وقد قدّم فيكسل فيما بعد أفضل صياغة للمذهب النمساوى.

إذا كان تفسير القيمة التبادلية لوسائل الإنتاج يقوم على منفعتها غير المباشرة أو قيمتها الاستعمالية لمستهلكى منتجاتها النهائية، أى، إذا كان يتوجب اشتقاق الأهمية الاقتصادية لوسائل الإنتاج من المساهمة التى تقدمها هذه الوسائل مجتمعة فى تحقيق إشباع المستهلكين، فإن المشكلة التى تبرز بصورة طبيعية هى كيفية فصل مساهمة كل واحدة منها، مفترضين أن كل 'العوامل' تمثل 'مستلزمات' ضرورية للمنتج النهائى بدرجة متساوية وأن السحب الكامل لأى منها يؤدى، فى معظم الحالات، إلى عدم إنتاج أى شىء. إن مجرد دأب بعض النقاد الألمان على القول إن هذه المشكلة غير قابلة للحل وإن نظرية المنفعة

الحدية، بسبب ذلك، غير قابلة للانطباق على تقييم سلع أخرى غير السلع الاستهلاكية، الموجودة فى كمية معطاة، وبالتالي غير قابلة للانطباق على الإنتاج، يكفى لأن نقول إننا هنا بصدد مشكلة حقيقية وغير مبتذلة، تشكل إزالتها الشرط المسبق لأن تصبح الفكرة الأساسية فكرة تسرى تحليلياً بالفعل. وقد أزال منجر تلك المشكلة عن طريق تطبيق ما يشبه الطريقة التى استعملها لحل لغز القيمة. فقد سلم باستحالة فصل مساهمة 'العوامل' فى المنتج الذى يُنتج بفضل تعاون هذه العوامل. ولكنه لاحظ بأنه يكفى، لإزالة الصعوبة، تحديد المساهمات الحدية لتلك العوامل (فكرة فيزر حول Grenzbeitrag)^(٣١٥). ومن الممكن بسهولة تحديد هذه المساهمات عن طريق سحب كميات ضئيلة بصورة متتالية من كل واحد من مستلزمات الإنتاج، مع إبقاء المستلزمات الأخرى على حالها فى كل مرة، والتحقق من الخسارة فى الإشباع التى تلحق بمستهلكى المنتج أو المنتجات.

سوف نناقش، فى الفصل القادم، بعض النقاط التكنيكية حول هذا المدخل^(٣١٦). ولكن ينبغى أن نلاحظ حالاً أن هذا المدخل يشكل الطريقة التى أعاد بها النمساويون اكتشاف فكرة الإنتاجية الحدية. ومع ذلك، فالإنتاجية الحدية لديهم كانت إنتاجية حدية مع فارق معين. ولإيضاح هذه النقطة، لنتذكر التمييز المعتاد

(٣١٥) ومع ذلك، فقد أُنقِعَ ذلك الحديين ونقدهم معاً بأن نظرية تكوين الدخل القائمة على المنفعة الحدية غير قابلة أساساً للدفاع عن الطريقة الرأسمالية للتوزيع. ذلك لأن من الواضح أن المزايا-الأخلاقية أو غيرها- لعامل العمل، مثلاً، لا تتأثر حينما يكون العمال من الكثرة، نسبة إلى الكميات المتاحة من العوامل الأخرى، بحيث تكون مساهماتهم الحدية صغيرة.

(٣١٦) من الممتع ملاحظة بعض المشاكل التى صادفت النمساويين أنفسهم ونقدهم معاً بسبب نقص خبرتهم فى معالجة مثل هذه المفاهيم. فقد كانت هناك مناقشة ضمن حلقة النمساويين عما إذا كان منجر مصيباً أم لا حينما اتخذ من الخسارة فى إشباع المستهلكين دليلاً على الخسارة التى تصحب سحب كمية ضئيلة من عامل ما: إذ رأى بعضهم أن نلاحظ، بدلاً من ذلك، الكسب الذى يترتب على زيادة ضئيلة فى عامل ما. وفى الواقع، ثمة مشكلة ذات أهمية ثانوية تبرز فى حالة الانقطاعات discontinuities، ولكن، بقدر تعلق الأمر بأول صياغة للمبدأ الأساسى، من حقنا أن لا نهتم بهذه الأشياء وبالتالي أن نرد كل المشاجرات فى هذا الموضوع إلى القشل فى فهم منطق الأشياء متناهية الصغر infinitesimals- التى يمكن الاستشهاد بأمثلة منها تعود حتى إلى العشرينيات. ومرة أخرى، برز بوقت مبكر تماماً اعتراض مفاده: إذا سحبت كمية صغيرة من عامل إنتاجى معين من منشأة ما يمتضى عملها على نحو ملائم تكنيكياً، فإنك تخلق اضطراباً إن يكن أصغر من الاضطراب الذى ينجم عن سحبيات أخرى ولكن من شأنه، على العكس، التأثير على كل خطة الإنتاج بحيث يحيل المتبقى من ذلك العامل إلى شىء عديم النفع تقريباً وتحويل جدول الإنتاجيات المتناقصة من الوحدات المتتالية من عامل ما إلى شىء خيالى. وقد نشأ وضع غريب ظل فيه هذا الاعتراض واعتراضات أخرى مماثلة دون جواب لأن بعض منظرى المنفعة الحدية لم يعرفوا كيف يجيبوا ولأن الآخرين، ممن كانوا يعرفون ذلك، وجدوا أن الأمر لا يستحق الإجابة.

بين الإنتاجية المادية الحدية والإنتاجية القيمة الحدية. تمثل الإنتاجية المادية الحدية لـ 'عامل' معين الزيادة فى المنتج الناشئة عن زيادة متناهية الصغر infinitesimal فى كمية ذلك العامل. أما الإنتاجية القيمة الحدية لعامل معين فى منشأة معينة^(٣١٧) فهى الزيادة المادية مضروبة فى الزيادة المناظرة فى الإيراد الكلى لهذه المنشأة أو إيراداتها الإجمالية. يدخل كلا المفهومين فى النظرية النمساوية بالفعل. ولكنهما لا يدخلان فى أساس هذه النظرية ground floor، وأنهما تطوراً بمعزل عنها^(٣١٨). وفى الأصل، فإن الإنتاجية الحدية النمساوية كانت إنتاجية قيمة حقاً ولكنها إنتاجية قيمة لم تفترض مسبقاً سعر المنتج: فهى لم تكن إنتاجية مادية حدية مضروبة بأى سعر بل إنتاجية مادية حدية مضروبة بالمنفعة الحدية لبعض المستهلكين. وعلى هذا الأساس، فقد طورَ النمساويون نظريتهم التى كانت نظرية للإنتاج والتوزيع فى الوقت نفسه: وعندئذ، فإن أدوات نظرية المقايضة لديهم، التى كانت مصاغة من قبل، قد أتت لتحقيق تلك النظرية ولتبين كيف أنها تؤدى دورها فى اقتصاد المشروع الخاص.

وهنا، فإن هذا المفهوم للإنتاجية الحدية القيمة marginal value productivity أو المنفعة marginal utility productivity لا يكون مفهوماً بصورة واضحة إلا فى حالة اقتصاد كروزو. فمن الممكن الافتراض بشكل معقول حقاً أن كروزو يقيم مختلف وسائل إنتاجه النادرة وفقاً للاشباع التى يعرف أنها تعتمد على تملك تلك الوسائل بالتحديد. وإذا استعملنا مصطلح فيزر، فقد يمكن فعلاً افتراض أن كروزو يعزو impute هذه الاشباعات إلى تلك الوسائل (التى تشكل قدرته الشخصية على العمل واحدة منها فقط)، وأنه يحقق بهذا الشكل، لأغراضه

(٣١٧) يجرى تعريف الإنتاجية المادية والإنتاجية القيمة معاً بالنسبة إلى منشآت فردية فى المقام الأول. ولكن النمساويين، وبخاصة فيزر، وكذلك ج. ب. كلارك، لاهتمامهم بالعملية الاجتماعية ككل، حاولوا التقدم بشكل مباشر صوب الإنتاجيات الاجتماعية، والقيم الاجتماعية، والمنافع الاجتماعية الحدية. وقد خلق هذا الأمر مجموعة أخرى من الصعوبات تعدّ نمطية بالنسبة لمرحلة مبكرة من التحليل، صعوبات كان مارشال وفيكسل مجهزين بصورة أفضل لتجنبها. ومع ذلك، فإن المناقشة حول موضوع القيمة الاجتماعية لم تسفر عن الكثير، وأننا لن نذكر عنها سوى إن هذه الرغبة بالتفكير على أساس اجتماعى تفسر المساهمات شبه-الاشتراكية بشكل متميز التى قدمها فيزر وكلارك حيث يلعب المجتمع نفسه دور العامل الموجّه.

(٣١٨) وهذا يفسر، فى هذه الحالة، لماذا نجد مجموعة مختلفة من الرواد: فإز نجد دوبي Dupuit، وغوسن، والخ...، فى قضايا المنفعة الحدية، فإننا نجد هنا لونغفيلد Longfield وتونن Thunen بشكل رئيسى. وهذا هو السبب الذى يفسر فشل منجر، إن كان مطلقاً حقاً على عمل تونن، فى أن يكتشف فيه ما يتصل بنظريته الخاصة به.

العملية الخاصة به، عملية عزو imputation دون أن يعى هذا. ولكن إذا شئنا التشديد على أن عملية imputation مماثلة تشكل المعنى الأعمق لآليات 'المجتمع الاكتسابي' acquisitive society (وهذا تعبير تاوونى Tawney)، فمن الضروري تفسير هذا الـ imputation كشيء يتحقق تصوريًا من قبل المنشآت التي لا تشعر نفسيًا بأشباع المستهلكين تلك وتريد، بدلاً من ذلك، تعظيم مكاسبها المالية فى جميع الأحوال. إن إثبات هذا الأمر هو المشكلة الحقيقية. ولا يمكن إثباته، بقدر ما يمكن إثباته أصلاً، إلا بإيضاح أن المقايضة أو آليات السعر فى الأسواق الحرة سوف تعمل بطريقة ما لضمان النتائج التي من شأنها أن تتحقق إذا جرى تقسيم الموارد أولاً كما يقيّمها كروزو وإذا كان يجرى بعدئذ تحويل هذه القيم المحتسبة على أساس المنفعة utility values إلى قيم تبادلية أو أسعار بنفس الطريقة التي تتحول بها الـ utility values للسلع الاستهلاكية إلى قيم تبادلية فى سوق بسيط للسلع الاستهلاكية^(٣١٩). إن من شأن حتى افتراض وجود هذه المشكلة، التي هي ليست مشكلة مبتذلة أو غير مهمة كما هو واضح، أن يعنى إنجازاً كبيراً. ولكن منجر وفيزر، إذا أهملنا النواقص التكنيكية، قد قطعاً الطريق كله تقريباً نحو حلها بالفعل، وأنهما، من خلال ذلك، حلا أيضاً المشاكل الأساسية لتخصيص الموارد (الإنتاج) ولتسعير هذه الموارد (التوزيع).

على أى حال، فإن التفسير الذى يتضمنه استعمال طريقة العزو imputation لم يكن بعيداً فقط عن أى عمليات فكرية فعلية يمكن أن تُنسب لأى عوامل مقررّة - فهذا لا يهم كثيراً إذا أخذنا بالاعتبار عبارة 'كما لو' التي تدخل فى هذا التفسير كما تدخل فى تفسيرات علمية كثيرة - ولكنه غير ضرورى أيضاً.

(٣١٩) شدّد بعض النقاد بصورة متبادلة على أن نظرية القيمة النمساوية، لكونها نظرية لتقييم السلع الاستهلاكية، غير قابلة للانطباق على سلوك الأفراد الذين لا ينتجون لإشباع حاجاتهم ولكن من أجل السوق. يبين هذا طبعاً العجز الكامل عن فهم حاجة منجر. ووجد آخرون، فى الفرضية المبينة أعلاه، تفكيراً دائرياً لأن المنتجين، الذين ينتجون من أجل السوق، يقيمون منتجاتهم من أجل النقود التي يأملون الحصول عليها مما يفترض مسبقاً فكرة الأسعار المتوقعة وهي نفس الشيء المراد تفسيره. إن الخطأ الوارد فى هذه المحااجة ينبغي أن يكون واضحاً. وانتهاز هذه الفرصة للإشارة إلى حلقتي مفرغتين أخريتين جرى اتهام المنظرين النمساويين بهما (من قبل أعضاء فى مجموعتهم ذاتها فى الغالب)، رغم أننا سنشير إليهما مجدداً. الحلقة المفرغة الثانية هي: نحن لا نعلم، إلا من سلوك المرء (خياراته الفعلية)، أى من الكميات العديدة من السلع يختار هو؛ وعليه، فإن تفسير اختياره بتفضيله هو بمثابة تفكير دائرى. أما الحلقة الثالثة، فهي: نحن نقيم النقود من أجل السلع التي ستشتريها؛ وعليه، فمن باب التفكير الدائرى، فى حالة الشراء بواسطة النقود، الاعتقاد بأن السعر يتحدد بقيم المنافع للشينين اللذين يتم تبادلها.

فلتحديد أسعار العوامل وحصصها التوزيعية، لسنا بحاجة لمعرفة قيمها المحتسبة على أساس المنفعة *utility values* في البداية. فكل ما نحتاج معرفته هو أذواق المستهلكين، وشروط الإنتاج التكنولوجية، والتوزيع الأولى لمليكة العوامل؛ وعندئذ فإن مبدأ الإيراد الصافي الأقصى، الذي يتضمن مبدأ أدنى تكلفة، سوف يتكفل بالباقي. ولكن النمساويين واصلوا التشديد على فكرتهم الأساسية، وتصوروا، لتحقيق ذلك، إن من الضروري تقسيم القيمة الاستعمالية *use value* للمنتوج بين العوامل بالضبط كما تقسم الإيرادات من بيع المنتوج بين العوامل بالفعل، بمعنى إن من شأن العملية الأولى (وهي خيال منهجي) أن تفسر العملية الثانية (الواقع). ولذلك، فإن مشكلة العزو لديهم *(Zurechunug) imputation* أخذت الشكل التالي: استخلاص دوال المنفعة للسلع الإنتاجية من دوال منفعة معطاة للسلع الاستهلاكية. وقد عقدت النواقص التقنية للنمساويين المهمة وأدت إلى أدب واسع - وقائعي ونقدي - كان قد استكشف، بانطلاقه من المساهمات الأصلية لمنجر وفيزر وبوهم - باورك، عدة مسالك مسدودة وأثار قضايا معينة أكثر من أنه قد أجاب عليها. ومع ذلك، فليس من الضروري بالنسبة لنا الدخول في هذا الموضوع^(٣٢٠). ولكن مهما كان رأينا في المزايا التكنيكية لنظرية العزو، فإنها تعبر عن حقيقة عميقة لا تبلغها بد ذاتها العبارة البسيطة القائلة إن الإنتاج والتوزيع هما قضيتان تخصان تقسيم الخدمات الإنتاجية. كما أنها تقدم نظرية مرضية للتكاليف.

إن مناقشة المنافع الحدية لوسائل الإنتاج بروح من نظرية العزو *imputation* تقود بسهولة إلى التسليم بأهمية عناصر التكامل والإحلال فيما بين عوامل الإنتاج^(٣٢١) والاستعمالات البديلة لهذه لعوامل وذلك بالنسبة لهذه المنافع

(٣٢٠) شدد البروفيسور ستغلر على التعبير عن نفس الرأي. ومع ذلك، فهو يورد عينة صغيرة من هذا الأدب (*op. cit. p.5n*). وأخشى إن حكمه القائل إن الدراسات التاريخية حول الموضوع كانت غير كفوءة إلى حد بعيد هو رأي غير مبرر تمامًا.

(٣٢١) كانت فكرة إمكانية الإحلال معروفة لدى تونن، طبعًا. بيد أن منجر كان أول من صاغها بصورة صريحة: 'كان ... من المؤكد ليس فقط أن من الممكن، في عملية الإنتاج، توليف كميات محددة من سلع الدرجة العليا بالصورة التي نلاحظها في المنتجات الكمياوية ... [ولكن] التجربة العامة تعلمنا إن كمية معطاة من أي سلعة من سلع الدرجة الدنيا يمكن أن تنتج بتوليفات مختلفة جدًا من سلع الدرجة العليا'. *Grundsätze p. 139* [ترجمة النص إلى الإنجليزية تعود إلى ج. شومبيتر]. وهذا قد بشر بـ 'قانون النسب المتغيرة' *law of variable proportions* وحتى بمفهوم 'منحنيات الناتج المتساوي' *equal product curves*، هذا إذا لم نقل أكثر. وعلاوة على ذلك، فإن هذه الصياغة أرفق من 'مبدأ الإحلال' *principles of substitution* الأحدث لدى مارشال.

الحدية. وقد توصل النمساويون، على هذه الطريق، إلى ما جرت تسميته بـ نظرية تكلفة الاستعمال البديل alternative use cost أو نظرية تكلفة الفرصة البديلة opportunity cost^(٣٢٢) - حيث يمكن التعبير عن فلسفة ظاهرة التكلفة من خلال القول بالمأثور: إن التكلفة الحقيقية لشيء ما بالنسبة لنا هي التضحية بمنفعة تلك الأشياء الأخرى التي كان بوسعنا الحصول عليها من الموارد التي دخلت في الشيء الذي أنتجناه.

كانت نظرية التكلفة هذه تظهر في الماضي بصورة متقطعة، وبخاصة في عمل ج. س. ميل: Principles، ولكن فقط لتفسير حالات خاصة لم تتوافق مع المخططات القديمة. ولكنها، كنظرية عامة وكتفسير للمعنى الاجتماعي الأساسي للتكلفة - في المجتمع الرأسمالي والاشتراكي معاً - كانت نظرية جديدة. كما لا ينبغي الشك في أنها طرحت نظرية للتوزيع أفضل كثيراً. ولكنني ألفت النظر، بخاصة، إلى حقيقة أنها تشدد على ظاهرة ضاعت في تحليل مارشال تقريباً. تأمل تخصيص مستلزم إنتاجي معين، كالعامل من نوع معطى، في اقتصاد مكوّن من إنتاج سلعتين. فكلما مضينا في تخصيص أكثر وأكثر منه لإنتاج السلعة (أ) وأقل فأقل لإنتاج السلعة (ب)، فإن المنافع الحدية للسلعة (أ) سوف تهبط بينما ترتفع المنافع الحدية للسلعة (ب). ويمكننا أن نعبر عن ذلك بالقول إن العوائد - المنافع utility returns من إنتاج السلعة (أ) تتناقص وأن التكاليف في إنتاج السلعة (أ) تتزايد: وهكذا نكون قد استخلصنا، من مبدأ المنفعة الحدية، 'قانوناً جديداً' لتناقص الغلة، وهو مستقل عن أى قانون مادي للتناقص وسيؤكد نفسه حتى في مواجهة قانون مادي لتزايد الغلة.

(ج) الاعتماد المتبادل والتوازن حينما نراقب التجمعات الصاخبة التي تعمل وتتعقد صفقات سعياً وراء رزقها، فلن تواجهنا صعوبة حقاً في ربط نشاط هذه التجمعات برغبتها بالكسب ورغبتها بالسلع. ولكن لن يكون من الواضح لنا قط إن

(٣٢٢) يعود المصطلح الأخير - الموفق جداً - إلى د. آي. غرين D. I Green: 'Pain Cost and Opportunity Cost,' Quarterly Journal of Economics, January 1894 وقد حضى هذا المصطلح باستعمال واسع في الولايات المتحدة بفضل التأييد القوي له من جانب البروفيسور نايت. ويمكن العثور على معالجة مستفيضة لهذه المجموعة الكاملة من المشاكل لدى: H. J. Davenport, 'Value and Distribution (1908) الذي فضل أن يستعمل مصطلحاً معادلاً وهو تكلفة الاستبدال Displacement Cost.

العملية التى تولد الدخل الحقيقى، بقدر تعلق الأمر بمنطقها الأساسى، يمكن أن توصف بصورة مرضية من خلال أى مبدأ بسيط أو أن هناك منطقاً كامناً فيها أصلاً. إن تاريخ التحليل فى هذا الحقل هو تاريخ الإدراك المتزايد، الذى كان جزئياً فى البداية وصار عاماً أكثر فيما بعد، بوجود عملية اقتصادية متماسكة منطقياً - وهو الإدراك الذى صاغه لأول مرة بصورة واعية كُتاب مثل كانتيلون، وكينييه، وسمث، وسائى وريكاردو. ولكن الفترة محل الدرس فقط هى التى شهدت التطوير الشامل للمفهوم القائل بوجود عالم اقتصادى يتألف من نظام للكميات التى تعتمد بعضها على بعض، سوية مع كل مشاكل ذلك العالم التى، وإن لم تحل بشكل مرضى تماماً، بيد أنها رُتبت بصورة واضحة على الأقل، ومع الفكرة القائلة بوجود توازن عام بين هذه الكميات ووضعها فى مركز النظرية البحتة.

وهذا ما أنجزه فالراس. وما أن ندرك أن نظام التوازن العام هو الشيء المهم حقاً، فإننا نكتشف أن مبدأ المنفعة الحدية بحد ذاته ليس مهماً إلى الحد الذى تصوره جيفونس والنمساويون وفالراس نفسه رغم كل شيء. ولكن تحليل مخطط فالراس يكشف، فى الوقت نفسه، حقيقة أن المنفعة الحدية تمثل السلم الذى استعمله فالراس للوصول إلى مستوى نظامه للتوازن العام. ومع أن مبدأ المنفعة الحدية لم يعد الشيء المهم جداً بعد بلوغ ذلك المستوى، بيد أنه كان، رغم ذلك، الشيء المهم جداً لأغراض التوجيه heuristically. إن هذه الملاحظة تلقى ضوءاً جديداً على عمل جيفونس والنمساويين. فهم أيضاً كانوا قد عثروا على ذلك السلم. إلا أن تكتيكهم المعيب منعهم من بلوغ قمة ذلك السلم. ولكنهم بلغوا مستوى عالياً حقاً، بقدر ما سمح به ذلك التكتيك. وبعبارة أخرى، ينبغي أن نجد فى نظرية جيفونس-منجر للمنفعة الحدية نظريةً جنينية للتوازن-العام^(٣٢٣)، أو، فى جميع الأحوال، شكلاً خاصاً للمبدأ التوحيدي الذى يقع فى أساس أى نظام للتوازن العام. ومع أنهما لم يجعلاً تلك النظرية متماسكة بصورة تامة، وذلك لعدم فهمهما ما تعنيه مجموعة معينة من المعادلات الآتية بشكل رئيسى، ومع إنهما وجدا فى المنفعة الحدية جوهر ابتكارهما بدلاً من أن يبصرا فيها وسيلة منهجية مفيدة لأغراض التوجيه، بيد إنهما يعتبران، رغم ذلك، وكما هو شأن فالراس بالضبط، من بين الآباء المؤسسين للنظرية المعاصرة. وهذا يسرى على كلارك أيضاً. وكان النقاد اللاحقون فرحين

(٣٢٣) إن هذا الجانب واضح على نحو خاص فى عمل فيزر: Natural Value.

جدا بتطويراتهم التكنيكية الخاصة بهم ومتلهفين لإنكار التشارك مع جيفونس والنمساويين إلى حد أنهم فشلوا تمامًا في فهم هذا الأمر.

بأى معنى كانت هناك ثورة؟ وهل قدمت هذه الثورة نظرية جديدة للعملية الاقتصادية؟

إن الجواب على السؤال الأول يعتمد على ما نقصده بتلك الكلمة التى أسىء فهمها كثيرًا. فإذا قصدنا بها إحداث تغيير شامل وخارق thoroughgoing and discontinuous، فينبغى التسليم بادعاء هؤلاء الرواد للنظرية الحديثة- الادعاء بتثوير الجزء 'البحث' من علم الاقتصاد. فمع أن البنية القلقة shaky structure لدى ج. س. ميل شجعت على إعادة البناء وفقًا للخطوط التى تبناها جيفونس ومنجر وفالراس بالفعل، ومع أن من الممكن القول إن مارشال كان قد فعل الشيء نفسه إلى حد بعيد عن طريق الإصلاح أكثر مما عن طريق الثورة، بيد أن المناظرات فى تلك الفترة تشهد بقوة على التغير break الذى حدث. أننا نميل إلى السخرية من تباهى غوسن بأنه حقق عملاً فذاً بمستوى عمل كوبرنيكوس. ولكن هذا التباهى أقل بعداً عن المعقولة مما قد يبدو للوهلة الأولى. إذ إن استبدال النظام القائل بأن الأرض هى مركز الكون geocentric system بنظام شمسى المركز heliocentric system واستبدال النظام 'الكلاسيكى' بنظام المنفعة الحدية هما إنجازان من طبيعة واحدة: فكل منهما هو إعادة بناء تبسيطية وتوحيدية من حيث الجوهر. وإن المقارنة لا تحملنا على السخرية إلا لاختلاف المنزلة الفكرية التى يحتلها علم الفلك وعلم الاقتصاد. وبالمثل، فنحن نسخر أيضاً من الجندي ورجل الدولة الزنجى توستنت لوفرتز (١٧٤٣-١٨٠٣) الذى وصف نفسه بأنه بونوبارت سانتو دومنغو. ولكن هذه السخرية تعود فقط إلى أن أهمية فرنسا فى العالم أكبر بكثير من منزلة سانتو دومنغو أكثر مما تعود إلى انعدام التناسب بين الرجلين بصورة واضحة، إذا نظرنا إلى كل واحد من زاوية بيئته^(٣٢٤).

ولهذا الأمر صلة بالتعود على وصف النظرية 'الحدية' كنظرية كلاسيكية

(٣٢٤) فى الواقع، وبعد تحليل السيرتين اللتين تظهرا تشابهات معينة مذهلة فى بداياتهما الممتازة ونهاياتهما الكئيبة، فأرى إن من المستحيل أن أقول بثقة أنه قد دخلت فى أعمال توستنت لوفرتز من الطاقة الشخصية والنبوغ أقل مما دخل فى أعمال نابليون. ولكن علم الاقتصاد بالنسبة لعلم الفلك هو كسانتو دومنغو بالنسبة لفرنسا.

جديدة- وهى العادة التى تطورت فى الولايات المتحدة بشكل خاص. وقد كان يمكن أن نميل للموافقة على ذلك حينما نأخذ بنظر الاعتبار مدى ما تبناه 'الحيثيون' من الإطار القديم والمواقف القديمة. كما إن الجهود التى بذلها مارشال للمحافظة على الاستمرارية - وعلى المظهر الخارجى منها أكثر- قدّمت دعمًا إضافيًا للتقييم المفترض، والازدراى نوعًا ما، لعمل الثوار. ولكن، بقدر تعلق الأمر بالنظرية البحثية، ليس ثمة معنى من تسمية نظرية جيفونس-منجر-فالراس كنظرية كلاسيكية جديدة بأكثر من المعنى الكامن فى تسمية نظرية انشأتين كنظرية نبوتينية جديدة: فكما أصبحنا نعلم بالفعل، فإن مصطلح الانتقائية Eclectics، عند تطبيقه على مارشال وأتباعه، هو مصطلح مضلل أكثر من مصطلح كلاسيكى جديد. ومع ذلك، فلا ينبغي أن نلوم أحدًا على ذلك سوى مارشال نفسه.

أما السؤال الثانى، بالصورة التى هو عليها، فينبغى الإجابة عليه سلبيًا. فأى نظرية ليس بوسعها كنظرية بحثية أن تكون نظرية بمعنى التحليل الكامل للظواهر التى تشير إليها. فالفرضيات الوقائعية factual assumptions مهمة بقدر أهمية الجهاز التحليلي الذى يستخلص النتائج منها^(٣٢٥). وعلاوة على ذلك، فإن الحياة الاقتصادية هى عملية تاريخية فريدة وإن مؤلفينا هؤلاء ليس لديهم مخطط لتفسير التغير الاقتصادى غير المخطط الذى ورثوه من آ. سميث؛ وحتى إذا كان لديهم مخطط خاص بهم، فإن نظريتهم للمنفعة الحدية يمكن أن تكون محايدة تمامًا بالنسبة لهذا المخطط. أخيرًا، فلم تكن لديهم مخططات ديناميكية صريحة أكثر مما كان لدى سابقهم 'الكلاسيك' وأنهم كابدوا النواقص التى نجمت عن ذلك بنفس الطريقة إلى حد بعيد. ربما كان سيتعين الإجابة بنعم لو جرت إعادة صياغة سؤالنا فى

(٣٢٥) لم يكن منظرو المنفعة الحدية - كمعظم المنظرين حتى هذا اليوم - يعون الطابع الأساسى لتحليلهم إلا بصورة غير كاملة. فنظرًا لانشغالهم بما اعتبروا إنها وقائع نفسية psychic facts، فقد تصوروا أنهم كانوا يضعون التعاليم حول الواقع الاقتصادى بأكثر مما كان عليه واقع الحال بالفعل. وانتهز هذه الفرصة للتعلق، مرة أخرى، على مناظرة خالية من المعنى ولكنها، رغم ذلك، بدت مهمة لكثير من الكتاب المقتدرين، أى المناظرة حول الذاتية والموضوعية فى النظرية البحثية بصورة عامة وفى نظرية السعر بشكل خاص. ومن الناحية الفعلية، فإن النظرية 'الذاتية' ينبغى عليها على الدوام أن تستشهد بالوقائع 'الموضوعية' (المعطيات) إذا أريد تقديم نتائج محددة؛ وينبغى على النظرية 'الموضوعية' ذكر أو افتراض مسلمات أو فرضيات حول العوامل 'الذاتية' للسلوك. وبعبارة أخرى، ينبغى على أى نظرية ذاتية كاملة أن تكون نظرية موضوعية أيضًا والعكس بالعكس، وإن الاختلافات من هذه الناحية لا يمكن إرجاعها إلا إلى اختلافات فى التشديد على أجزاء مختلفة من مهمة المحلل. ومع ذلك، فقد جرى قبول هذه 'القضية' كقضية حقيقية ومناقشتها من قبل كل الجهات العلمية على حد سواء بصورة رزينة.

ضوء هذه التحفظات الثلاثة: إذ يبدو أن منظرى المنفعة الحدية نجحوا بالتأكيد فى وضع مخطط قيمة استعمالية للاستاتيكا الاقتصادية كان كاملاً بحد ذاته. ولكن يتعين أن نضع تحفظاً آخر لسوء الحظ. فلم تكن كل مشاكل النظرية البحتة قابلة لحل فريد فى إطار نظرية المنفعة الحدية. وقد مررنا بأمثلة على ذلك بالفعل، أى نظريات المنشأة ونظريات رأس المال: فبالنسبة لهذه المشاكل، تفشل نظرية المنفعة الحدية كلياً- وبصورة طبيعية جداً - فى الحد من نطاق الاختلاف الممكن فى الرأى. وتمثل نظرية الفائدة حالة أخرى تفشل فيها القوة التوحيدية لمبدأ المنفعة الحدية. وهذا هو السبب الذى يفسر لماذا يتعين علينا أن ندخل فى مناقشة منفصلة حول الحصص التوزيعية رغم كل شىء، مع أننا سنستغل المناسبة لتناول قضايا أخرى أيضاً (القسم الخامس، أدناه). ولكن قبل أن نفعل ذلك، فمن المفيد مناقشة موقف مارشال من تحليل جيفونس-منجر-فالراس.

٤- موقف مارشال والتكلفة الحقيقية

نرجو من القارئ تنشيط ذاكرته حول ما قيل فى الفصل الماضى بشأن موضوع موقف مارشال من عمل معاصريه والكتاب الأبرك الذى يشبه عمله كثيراً من حيث الأساسيات. ونظراً إلى التفسير غير المارشالى قط لعمل النمساويين، وعمل جيفونس إلى حد أقل، الذى قدمناه فى القسم السابق^(٣٢٦)، فمن الضرورى تأمل تقييم مارشال المختلف لهذا العمل وبعض الحجج التى أسند بها هذا التقييم^(٣٢٧).

إننى أسلم بأن الانطباع الذى من المؤكد أن يخرج به قارئ عمل مارشال Principles هو ما يلى، رغم التحفظات التى أدخلها مارشال من حين إلى آخر. لقد

(٣٢٦) ينبغى التشديد حالاً على نقطة ذات أهمية خاصة. فقد رأينا، فى الفصل الخامس، القسم الثانى، إن محتويات "الملاحظة الحادية والعشرين" من ملحق عمل مارشال Principles تشكل لب التحليل النظرى لدى مارشال. إذ ترسم هذه الملاحظة نظاماً للتوازن العام. وقد جرى التشديد، فى القسم السابق، على أن لب التحليل النظرى لدى النمساويين هو بمثابة نظام جينى-ومعيب جداً- للتوازن. (٣٢٧) لغرض الاختصار، سوف تعامل الانتقادات المارشالية لجيفونس كما لو إنها كانت موجهة ضد النمساويين والعكس بالعكس. ولن يجد القارئ أى صعوبة فى الاقتناع بأن هذا الأمر ممكن فى الحالات المطروحة للمناقشة.

شدّد مارشال على (١) إن تحليل 'الكلاسيك' الإنجليز كان بحاجة إلى تفسير يقوم بتصحيحه هنا وهناك، ولكن هذا التحليل خالٍ من الخطأ من الناحية الأساسية؛ (٢) إن انتقادات جيفونس والنمساويين تعود بشكل رئيسي إلى فشلهم في فهم وتفسير ذلك التحليل بصورة صحيحة^(٣٢٨)؛ (٣) إن المساهمة الإيجابية لجيفونس والنمساويين تمثلت في تفسير جانب الطلب من ظواهر السوق، مع أن ريكاردو، طبعًا، لم يهمل هذه الجوانب الواضحة إلى حد ما؛ (٤) إن جيفونس والنمساويين، بإفراطهم في التشديد على جوانب الطلب، قد أخطئوا، على الأقل، بقدر ما أخطأ ريكاردو و ج. س. ميل في الاتجاه المعاكس. إن هذه المسائل ينبغي درسيها من الزوايا الثلاث التالية. أولاً، بالنسبة لانتقادات جيفونس والنمساويين لريكاردو، فإن غضب مارشال، مع أنه كان غير مبرر جزئيًا^(٣٢٩)، بيد أنه لم يكن غير طبيعي. ويمكننا أن نفترض حالاً إن نيكولاس كوسانوس وكوبيرنيكوس لم يثبتا أن النظرية القائلة إن الكون مركزه الأرض geocentric system هي نظرية 'خاطئة' بل أدخلوا بعض التصحيحات عليها وحسب. ثانيًا، بالنسبة لعمل جيفونس والنمساويين، فإن مارشال، بطبعه وتكوينه، لم يستطع أن لا يكون قاسيًا مع تقنياتهم المعيبة جدًا. وهذه نقطة لم نعد نهتم بها. ومع ذلك، ثالثًا، فمن ناحية المعنى الأساسي لذلك العمل، فإن تفسير مارشال ينطوي على سوء تفسير خطير، مع إنه غير مقصود طبعًا. وهذه هي النقطة التي تحتاج فيها محاجبتنا في الأقسام السابقة إلى إضافة من شأنها أن تواجه نقد مارشال.

إن انتقاد مارشال لما اعتبره كإفراط في التشديد على جوانب الطلب كان قد أوضحه من خلال تشبيهه شهير. "من المؤكد أن 'مبدأ تكلفة الإنتاج' ومبدأ 'المنفعة الأخيرة' هما الجزءان المكونان للقانون الوحيد والشامل - قانون العرض والطلب^(٣٣٠)؛ حيث يمكن تشبيه كل جزء منهما بأحد كفي مقص. وحينما نثبت أحد

(٣٢٨) لا شيء يوضح ذلك أفضل من عبارة إديجورث المشهورة، التي هي صدى لصوت مارشال، القائلة إن مارشال بدّد ضباب 'النقد سريع الزوال' الذي غمر الأعلى الخالدة' بالغيوم لبعض الوقت.

(٣٢٩) يفترض أن مناقشتنا في الجزء الثالث كانت قد أوضحت ذلك. ولكننا نعلم أيضًا أن غضب مارشال كان غير مبرر بالنسبة للانتقادات الموجهة إلى ميل بدرجة أقل مما بالنسبة للانتقادات الموجهة إلى ريكاردو. ومع أن مارشال لم يعترف بهذا حرفيًا، بيد إنه يمكن أن يكون شاهدًا على وجهة-نظرنا: فهو لم يعتقد قط العناصر الريكاردية على وجه التحديد في البنية 'الكلاسيكية' كنظرية القيمة القائمة على كمية العمل التي كيّفها بهدوء بحيث أنها لم تعد كما أراد لها ريكاردو أن تكون.

(٣٣٠) ينبغي على القارئ أن يلاحظ أن هذه العبارة غير-ريكاردية قط، رغم إمكانية الاعتقاد بأنها تتوافق مع تعاليم ميل. إنها عبارة مارشالية.

الكفين ونقوم بالقص بتحريك الكف الآخر، يمكننا أن نقول، باختصار غير دقيق، إن القص حققه الكف الثاني؛ ولكن العبارة لا ينبغي وضعها بصورة اصطلاحية والدفاع عنها بشكل مقصود" (٣٣١). وحتى إذا اخترلنا التحليل النمساوى إلى هذه النقطة المحددة - وهو أمر يعنى إهمال كل جوانبه الأوسع - فسندرى رغم ذلك إن إنجاز الجوهري يتمثل بالضبط فى النظرية الجديدة للعرض والتكلفة التى يقدمها. وبهذا المعنى فقط، ينبغي فهم قول جيفونس: 'إن القيمة تعتمد على المنفعة كلياً' (Theory, p. 1). وهكذا فليس ثمة معنى من اتهام جيفونس أو النمساويين بالرغبة بتقليل أهمية المقولة ذاتها التى كانوا هم أول من استخلصها بشكل عقلاني والتى أسماها فيزر 'قانون التكلفة'. فهم ليسوا بحاجة لمن يخبرهم بشيء ما عن كفى مقص مارشال. فما أرادوا توضيحه هو إن كلا الكفين يتألفان من نفس المادة، أى إن الطلب والعرض يمكن تفسيرهما معاً من خلال 'المنفعة' (ولا يهم إن كانت الحالة هى مبادلة السلع القائمة أو إنتاجها).

ثمة الكثير، ظاهرياً على الأقل، لشكل آخر قدمه مارشال حول نفس التهمة أساساً. فقد كان من عادة جيفونس والنمساويين التعبير عن أنفسهم من خلال سلسلات سببية تبدأ من قيمة السلع الاستهلاكية إلى قيمة الموارد كما لو إن منفعة كمية معينة من سلعة استهلاكية ما تتحدد بشكل مستقل أولاً ومن ثم تحدد سببياً هى بدورها قيمة السلع الإنتاجية التى دخلت فى إنتاجها. إنها لعبة أطفال بالنسبة لتقضى ماهر يحلو له أن يبين إن هذا غير مقبول ما دامت منفعة السلعة الاستهلاكية تعتمد

(٣٣١) Principles, p. 569. إن تلك العبارة هى تكرار حرفي تقريباً لعبارة أخرى وردت فى صفحة ٤٢٨ تفيد: 'كقاعدة عامة؛ كلما قصرت الفترة المتاحة أمامنا، فإن الاهتمام بتأثير الطلب [المنفعة] على القيمة يكون أكبر؛ وكلما كبرت تلك الفترة، فإن تأثير تكلفة الإنتاج على القيمة سيكون أكثر أهمية' ص ٤٢٩. وإذا فسرنا هذه العبارة بشكل محدد، فإنها صحيحة طبعاً بقدر ما هى مبتذلة. ومع ذلك، فهى، فى أهميتها العامة، تعطى مبادرة خاطئة. ويمكن توضيح هذا بأفضل صورة من خلال التشبيه التالى. من الخطأ أن نقول إن أسعار الصرف تتحدد بالعرض والطلب فى حالة العملات الورقية وبألية الذهب فى حالة العملات الذهبية؛ فما ينبغي قوله إن العوامل التى تكمن خلف العرض والطلب تحدد أسعار الصرف الأجنبي فى جميع الحالات، ولكن فى حالة العملات الذهبية، فإن آلية الذهب تمنع عموماً ابتعاد أسعار تكافؤ الذهب gold parities بأكثر من نقاط الذهب gold points. وبالمثل، فإن مبدأ المنفعة الحدية يسرى على جانبي الطلب والعرض من مشكلة القيمة فى كلتا الحالتين، فى حالتى المدى الطويل والمدى القصير. إن مبدأ تكلفة الإنتاج لا يشكل مبدأً مستقلاً يفعل مفعوله فى المدى الطويل. ولكن مبدأ المنفعة الحدية، بتأثيره فى معطيات الوضع، سيؤثر فى المدى الطويل (فى ظل فروض معينة) بحيث يساوى القيمة التبادلية بالتكلفة. سوف يعتبر المارشاليون اللبقون هذه الملاحظة زائدة. ولكنى سمعت بالتفسير السيئ المعنى كثيراً - وكثيراً بالنسبة لمارشال حتى من قبل كتاب مقتدرون مثل بورتيكفيج - بحيث لا أستطيع أنا نفسى أن لا أفكر به هكذا.

على كميتها والأخيرة تعتمد على تكلفتها. وهكذا جرت السخرية من جيفونس والنمساويين كأفراد ينبغي تعليمهم، كأولاد المدارس، بأنه 'حينما تكون هناك ثلاث كرات (أ)، (ب)، (ج)، تواجه إحداها الأخرى في تجويف ... فإن الكرات الثلاثة تحدد إحداها الأخرى بشكل متبادل بتأثير الجاذبية'، لأنهم، بدلاً من ذلك، كانوا يؤكدون على أن ' (أ) تحدد (ب) و (ب) تحدد (ج) (Principles, p. 567). ولكن كان على مارشال، من بين الجميع، أن يدرك إن هذا الانتقاد يستغل النواقص التقنية لدى جيفونس والنمساويين، وبخاصة عدم المقدرة الواضحة على فهم منطق الاعتماد المتبادل، ويعجز كلياً عن إنصاف جوهر الموقف المنتقد. وإذا تابعنا تشبيه مارشال، مرة أخرى، فما فعله جيفونس والنمساويون حقاً لم يكن الهراء المنسوب إليهم في تلك الفقرة بل شيء مختلف كثيراً؛ حيث اكتشفوا بالضبط بأن وضع الكرات ينبغي تفسيره وفقاً لمبدأ واحد: الجاذبية في حالة الميكانيك، المنفعة في حالة الاقتصاد. كان يمكن، بنصف الكرم الذي أعدق على ريكاردو، اكتشاف العمل العظيم الذي يكمن خلف التكنيك الفقير وردّ النقد إلى النقطة الوحيدة التي كان يمكن طرحها عن حق، مع أن مارشال لم يفعل هذا قط: وهي إن جيفونس لم يعرف الرياضيات بدرجة كافية وإن النمساويين لم يعرفوها البتة^(٣٣٢).

النقطة الأخرى الوحيدة التي يلزم الاهتمام بها في هذا السياق هي مفهوم مارشال: التكلفة الحقيقية. فلو أن النمساويين استعملوا هذا المصطلح، لكانوا أرادوا به السلع الاستهلاكية (تمييزاً لها عن الاشباع التي تقدمها هذه السلع) التي 'نضحى' بها حينما نقرر إنتاج سلع أخرى. وقصد مارشال 'الجهود المتمثلة بكل الأنواع المختلفة من العمل التي لها صلة مباشرة أو غير مباشرة بإنتاجها [بسلعة ما]؛ سوية مع كل الامتناع abstinences أو بالأحرى كل الانتظار waitings الضروري لإدخار رأس المال المستعمل في إنتاجها' (Principles, p.481). إن هذه النقطة هنا تُثار لأنها كانت تُناقش حينذاك ضمن المناظرة العامة حول طبيعة، سبب، أو 'المقياس النهائي' للقيمة أو التكلفة. يتعلق الشجار بمنجر حصرًا. ذلك لأن معظم الأنصار الآخرين للنظرية 'الجديدة' للقيمة، مثل غوسن وجيفونس وأوسبتز وليبين، وكلاكرك - ولكن ليس فالراس، رغم ذلك - لم يُظهروا أى شك

(٣٣٢) إن صرامة مارشال تفتقد أكثر إلى التبرير لأنه هو نفسه كان يقع في نفس الخطأ من حين إلى آخر. فعلى صفحة ٤٤٠ من عمله Principles، نقراً: إذن، إن القاعدة الواضحة، في حالة راكدة، هي إن تكلفة الإنتاج تحكم القيمة.

بالاعتراف بكل من مشقة العمل (وهذا مصطلح جيفونس) ولامتناع فى بناهم التحليلية. ونظرًا إلى أنه لم يكن فى ذهن أى من هؤلاء الكتاب رد الاعتبار إلى 'الكلاسيك' من خلال تثبيت الدور المستقل للتكاليف أو عبر أى طريقة أخرى، فهذا يكفى لأن نبين أن الاعتراف بالمشقة أو الامتناع لا يضعف موقف المنفعة الحدية أو يعنى تبنى أى موقف أخرى. ولكن النمساويين كان لديهم رأى آخر. فقد جاهد بوهم-باورك كثيرًا حقًا للتقليل من أهمية الاثنين، معتقدًا بوضوح أن الولاء لنظرية المنفعة الحدية قد أجبره على ذلك. لنتعرف على طبيعة المشاكل المعنية.

إن مفهوم الامتناع مهم جدًا، طبعًا، لكل اقتصادى يسلم بنظرية الفائدة القائمة على الامتناع. ولكن مع إن التسليم بنظرية الامتناع كتفسير للفائدة يتضمن، طبعًا، إدخال الامتناع فى النظرية العامة للقيمة، بيد أن معالجة موضوع الامتناع قد ارتبطت على الدوام بنظرية الفائدة بشكل رئيسى، وسنعمل نحن المثل (القسم الخامس). أما بالنسبة لمشقة العمل، فلدينا خياران: أما أن نأخذ كمية ساعات العمل المتاحة (ضمن سكان معطى) كشئ معطى، كأنها ثابتة مؤسسيًا على سبيل المثال؛ أو يمكننا أن نعتبرها متغيرًا ينبغى تحديده - وفى هذه الحالة، فإن نظامنا يتضمن متغيرًا 'مجهولاً' آخر ومعادلة مستقلة أخرى (نقول: بالنسبة لكل عامل، ينبغى أن تساوى المشقة الحدية للعمل، عند التوازن، المنفعة الحدية لأجره). وما نختاره سيعتمد على اعتبارات الواقعية واعتبارات الملائمة التحليلية^(٣٣٣). ولكن المسألة هى أن اختيارنا لا يحدث أى اختلاف كبير بالنسبة لنمطنا التحليلى. ذلك لأن عنصر المشقة لا يؤثر على قيمة المنتجات إلا من خلال تأثيره (المحتمل) على كمية العمل المعروضة ولا يمس مبدأ التكاليف البديلة لأغراض تخصيص الكمية المعروضة. إن الكمية الأخيرة هى التى تهتم فى المقام الأول دائمًا، بينما لا تهتم المشقة إلا فى مرحلة واحدة، هذا إن كانت تهتم أصلًا. وعلاوة على ذلك، فإذا منحنا أهمية كافية لتأسيس نظريتنا للقيمة على المنفعة فقط، فأن كل ما يتعين علينا فعله

(٣٣٣) ربما يعلم القارئ إن اللورد كينز استبعد معادلة المشقة وفقًا لاعتبارات الواقعية. كما استبعدنا بوهم-باورك على أساس الواقعية ولو إنها واقعية مختلفة، أى إن على العامل الفردى قبول نظام يوم-العمل وليس بوسعه تغيير كمية العمل التى يرغب بتقديمها. ولكن بينما كان بوسع بوهم-باورك زج معادلة المشقة لو أنه أراد ذلك، فإن البنية التحليلية لدى اللورد كينز جعلت استبعادها أمرًا ضروريًا.

أن نستبدل مشقة العمل بوقت الفراغ^(٣٣٤). ومن هنا فإن بوهم-باورك لم يكسب كثيراً من نجاحه المحدود في محاولة التقليل من أهمية المشقة. ولكن مارشال أيضاً لم يكسب كثيراً من إدخال 'التكلفة الحقيقية': فلأنه يستبعد دائماً الخدمة الخاصة التي يقدمها مفهوم الامتناع إلى نظريته للفائدة، فمن الممكن استبعاد التكلفة دون افتقادها- فضلاً عن الصعوبات الكامنة في مفهوم يدور حول مجموع من كل المشقة والامتناع 'المتصلة بشكل مباشر' أو غير مباشر 'بإنتاج سلعة ما. وهكذا نعود من هذه الرحلة بنفس النتيجة التي نحصل عليها دائماً حينما ندرس طبيعة وأهمية انحرافات مارشال: وهى إنها أشياء يمكن إهمالها^(٣٣٥) عند مقارنتها بما تبدو كأساسيات في تحليل جيفونس-منجر-فالراس.

٥- الفائدة، الربح، الأجور

تحتاج كل نظرية بحتة إلى وقائع للتوصل إلى نتائج ملموسة. إن هذه الملاحظة المعروفة ينبغي تكرارها لأن من عادة الاقتصاديين زج وقائع خاصة محددة فيما يسموه نظرية بحتة، رغم ذلك. وهكذا يتحدثون عن 'نظرية' معينة للأجور تقوم على حد الكفاف، مع إن موضوع حد الكفاف يمكن استخلاصها من أى نظرية أجور عامة، شريطة أننا ندخل الفرضية الواقعية الملائمة حول سلوك العمال. ولكن نظرية المنفعة الحدية تحتاج ليس فقط إلى استكمالها بعرض من الوقائع الخاصة إذا أريد لها أن تسرى على حالات ملموسة، بل تحتاج أن تستكمل بمادة إضافية لوضع فرضيات نظرية عامة. وكما أوضحنا في نهاية القسم الثالث، فإن نظرية المنفعة الحدية، من تلقاء نفسها، لا تنتج أى نظرية عامة للفائدة، مع أنها، من تلقاء نفسها، تقدم تفسيرات كافية للربح والأجور. ونظراً إلى أن الفائدة

(٣٣٤) هذا ما نوصى به في جميع الحالات. إن حل المشكلة الخاصة التي تلعب فيها المشقة دوراً ما، مثل مشكلة تفسير لماذا تؤدي الزيادة في معدلات الأجر إلى تخفيض كمية العمل المقدمة أحياناً، يصبح أسهل حينما نستعمل مفهوم وقت الفراغ (بأن نضع وقت الفراغ على أحد المحورين في رسم بياني من أشكال السواء بينما يمثل المحور الآخر الأجور، النقدية أو الحقيقية).

(٣٣٥) إضافة إلى ذلك، فمن الصعب فهم كيف توصل مارشال إلى الاعتقاد (إن كان قد فعلَ هذا) بأن إدخال التكلفة الحقيقية من هذا النوع من شأنه مساعدة ريكاردو بأى صورة كانت.

هى التى تتسبب فى الاضطراب، فإننا نبدأ بمناقشة نظريات الفائدة فى الفترة المدروسة.

(أ) الفائدة نعلم مما سبق بأن الاقتصاديين فى هذه الفترة قد عمّقوا التمييز بين مكاسب المنظّم والفائدة. ولكن معظمهم كان ما يزال يأخذ بوجهة نظر معينة كنا قد أرجعناها إلى نيكولاس باربون Nicholas Barbon (الجزء الثانى، الفصل السادس، القسم ٧ب) أى أن الفائدة تشكل الجزء الأعظم من مكاسب الأعمال business gains - ذلك الجزء من مكاسب الأعمال الذى ينتج عن استعمال رأس المال المادى، والذى يشكل مردود رأس المال المادى بنفس المعنى الذى يشكل فيه الربح مردود الأرض والأجر مردود العمل. ومن هذه الناحية، فمن المهم جدا أن بوهم-باورك، فى تأريخه الناقد لنظريات الفائدة، كان قد عالج نظريات 'الربح' لدى ريكاردو وماركس وذلك دون أن يثير السؤال عما إذا كانت العوائد المذكورة تمثل حقاً الشيء نفسه 'كفائدة'. فهذا السؤال كان يمكن أن يجيب عليه بوهم-باورك على غرار جواب آ. سميث أو ج. س. ميل. إذ ظلت الفائدة النقدية لديه مجرد ظل للفائدة التى يتيح كسبها تجهيز سلع رأس المال المادى - التى تمثل حقاً ما يمتلكه الرأسمالى، 'ولو ربما فى صورة نقود'. وهذا هو الشيء الأكثر بروزاً لأن عمل بوهم-باورك ساهم أساساً فى تفكيك هذا المخطط.

أولاً، لم يتم التسليم بصورة كافية إن انتقادات بوهم-باورك للتفسيرات المطروحة للفائدة قد خلقت فهماً جديداً للمشكلة المعنية بذلك المعنى المذكور تـواً. صحيح، إلى هذا الحد أو ذاك، إن كل نظريات الفائدة التى واصلت البقاء كان قد تم توارثها عن الفترة السابقة. بل إن كاتباً بمنزلة باريتو لم يجد حرجاً فى الإعلان إن حقيقة إن رأس المال (المادى) يغل فائدة هو أمر لم يكن يشكل مشكلة أكثر من حقيقة إن شجرة الكرز تغل كرزاً^(٣٣٦). ولكن منزلة بعض النظريات البسيطة التى

(٣٣٦) ثمة رأى آخر لباريتو يستحق التعليق. فقد وجد باريتو إن البحث عن 'سبب' الفائدة غلط بحد ذاته. إن معدل الفائدة، باعتباره أحد عناصر النظام العام للتوازن، كان يتحدد طبيعياً فى وقت واحد سوية مع كل هذه العناصر بحيث ليست ثمة معنى قط من البحث عن أى عنصر خاص كان قد 'تسبب' الفائدة. ولكى نبين غلط وجهة-النظر هذه، يكفى - كما فى حالة اعتراض مارشال الوارد فى مثاله حول الكرات الثلاث التى تواجه بعضها بعضاً فى تجويف - أن نتذكر إن تلك الفرضية (فرضية 'إن الفائدة تتحدد بكل شروط نظام التوازن العام') تغش فى إثبات وجود معدل فائدة موجب. فلماذا يعمل النظام بطريقة ما بحيث ينتج معدلاً موجباً: هو سؤال متميز يتطلب جواباً واضحاً. أنه يتطلب أساساً تفسيرياً معيناً كما هو شأن الكرات الثلاث فى تجويف مارشال. ولا يمكن العثور على مثل =

استعملت لإقناع غالبية من الاقتصاديين قد تدهورت بسرعة. لقد استمر بعض الكتاب في الاعتقاد بأنه ما دام المرء ينتج من القمح بمساعدة المساحة أكثر ما كان سينتج من دونها، فإن العائد الصافي لابد أن ينتج عن استعمال هذه المساحة: إن تحذير بوهم-باورك القائل إن الإنتاجية المادية لرأس المال لا تكفي لإثبات إنتاجيته القيمة قد قوّضَ نظرية الفائدة القائمة على الإنتاجية، رغم أنها لم تدمر حالاً^(٣٣٧). وبالمثل، أوضح بوهم-باورك بنجاح إن 'نظريات الاستعمال' بذاتها كتفسير للفائدة use theories of interest (نيس، منجر، فالراس) لم تكن صالحة: فليس ثمة شك إن خدمات السلع المعمّرة كالمساكن والآلات يتم تسعيرها وإن أسعارها مضروبة في كمياتها تشكل عوائد لمالكى هذه السلع؛ ولكن لما كان يتعين التأمين على هذه السلع وتخصيص مبالغ لاندثارها، فلا ينتج عن ذلك، دون الرجوع إلى عنصر آخر يخص هذه الحالة، إن هذه العوائد هي عوائد صافية. وإذ نهمل عددًا من النظريات الأخرى التى تلقت coups de grace {الضربة القاضية} على يدى بوهم-باورك، يمكننا أن نقول عمومًا إن النظريات الباقية الوحيدة التى تركت أثرًا هى نظرية الاستغلال الماركسية، ونظرية الامتناع، وأشكال عدة من نظريات القوة-التساومية ولكن على مستوى أقل بشكل واضح. ومن النظريات الجديدة، سنلاحظ نظريات بوهم-باورك وأرفنج فيشر فقط.

كان انتقاد بوهم-باورك لنظرية ماركس موفقًا من حيث الجوهر. ولكن الأخيرة قد تواصلت ضمن حلقة الأصولية الماركسية إلى أن تم نبذها بهدوء من قبل المنظرين الاشتراكيين المعاصرين الذين لم يعودوا ماركسيين. ولما كنا قد علّقنا سابقًا على هذه النظرية (الفصل الخامس، القسم الثامن)، فإننا ننتقل إلى نظرية الامتناع حالاً. لم يوفق هجوم بوهم-باورك هنا ليس فقط بمعنى أن الهجوم قد عجز عن الإقناع بل أيضًا بمعنى أنه لم يكن هجومًا مقنعًا^(٣٣٨). لم تواجه

= هذا الأساس في مجرد حقيقة وجود اعتماد متبادل عام بين كل الكميات الاقتصادية. وعليه، فمن الممكن أن نقول شيئًا ما لصالح تمييز بوهم-باورك بين مشكلة وجود الفائدة ومشكلة العوامل التى تحدد معدلها، مهما بدا هذا التمييز مضحكًا لأول وهلة.

(٣٣٧) [كان ج. شومبيتر ينوئ أن يكتب هنا هامشًا طويلًا يتضمن أسماء فيزر وكلاكرك ونايت].
 (٣٣٨) حاول بوهم-باورك أن يبين أن أى لجوء إلى فكرة الامتناع ينطوى على 'ازدواجية في الحساب'. كان يمكنه أن يقول حقًا إن من يدخر إنما يختار بين استمتاع حالى واستمتاع مستقبلي، وأنه حينما يتم خصم الأخير بصورة صحيحة بسبب الفارق في الزمن، فإن يتبقى مجال لتعويض إضافي مقابل أى امتناع. ولكن ينبغي عدم إنكار وجود التعويض إذا لم يجر خصم العوائد المستقبلية التى يحققها المبلغ المدخر. وفي الواقع، يمكن الاعتقاد إن التشديد على 'التضحية' عند القيام بالادخار يمثل =

مارشال أى صعوبة فى صياغة تفسير للفائدة يأخذ فكرة الامتناع بنظر الاعتبار^(٣٣٩) دون أن يكون عرضة للاعتراض المنطقي. وفى الواقع، فقد نجح مارشال فى أحياء نظرية الإنتاجية أيضاً من خلال ربطها بعنصر الامتناع. فحينما يتعين على رأس المال المادى أن يغل ليس فقط عوائد بل عوائد صافية أيضاً، فثمة شىء ينبغى أن يحول دون إنتاجه إلى حد النقطة التى لا تمكن عوائده عندها إلا من استعادة تكاليفه فقط. والامتناع يصلح - منطقياً - لأداء دور هذا الشىء. وبوسعنا، سوية مع سنيور، أن نسميه تكلفة معينة بحيث إن استخدام رأس المال يغل عائداً يزيد على العناصر الأخرى للتكلفة. أو يمكننا أن نقول إن الامتناع يتصرف كفرامل بالنسبة لإنتاج السلع الرأسمالية لمنعه من الوصول إلى تلك النقطة - وهذه هى نسخة كارفر Carver^(٣٤٠). وقد هاجم بوهم-باورك كلتا النسختين دون نجاح، كما يبدو الأمر لى^(٣٤١). إن معظم الكتاب الذين كانت وجهات نظرهم قريبة إلى هذا الحد أو ذاك من وجهة نظر بوهم-باورك - مثل جيفونس من قبله وفيتز Fetter من بعده - لم تكن لديهم صعوبة مع نظرية الامتناع قط باستثناء فيشر.

قلت إن نظريات القوة التساومية كانت تتحرك عند مستوى أقل من التحليل النظرى. وفى الواقع، لم يسلم بها يوماً منظر من الدرجة الأولى. وهذا يعود إلى سبب وجيه. فأمّا إن القوة التساومية، التى ينبغى أن تفسر الفائض الذى يسمى

=بالضبط الطريقة التى أدخل بها منظر الامتناع عنصر التفضيل الزمنى، مع إن بوهم-باورك رفض التسليم بهذا. ومن الناحية الفعلية، على أى حال، فإنه قد وجد إن هناك ازدواجية فى الحساب عند قيام منظرى الامتناع باحتساب الامتناع كتكلفة إلى جانب 'العمل' المبذول فى إنتاج سلعة رأسمالية معينة. ولم استطع فهم هذه الحجة أبداً. إن هذه الأفكار لا تنفذ نظرية الامتناع ولم يكن القصد منها أن تحقق ذلك. ولكنها تعفيها من تهمة ارتكاب خطأ منطقي وتشهد، مرة أخرى، على ما أسميناه القوة المنطقية لنظرية الامتناع. بيد أن نظرية ما يمكن أن تكون خاطئة لأسباب أخرى غير ارتكاب الخطأ المنطقي.

(٣٣٩) وكما نعلم، فإنه فضل، دون سبب وجيه كما اعتقد، مصطلح: 'الانتظار' Waiting الذى اقترحه س. م. ماك فان (S. M. Mc-vane) Quarterly Journal of Economics, July 1887.

(٣٤٠) انظر عمل كارفر: (Distribution of Wealth (1904) وكذلك مقالاته الأبرك حول: 'The Place of Abstinence in the Theory of Interest,' Quarterly Journal of Economics, October 1893.

(٣٤١) يعود ذلك، مرة أخرى، إلى محاولته إثبات إن النسختين خاطئتان منطقياً. ولكن هذا لا ينبغى أن يدفعنا إلى الانضمام إلى نقاد بوهم-باورك الذين يتحدثون عن إبداع فى غير محله، خلاف لفظى، ميتافيزيقا، سايكولوجيا غير ملائمة، وغير ذلك. فحينما يُراد أخذ النظرية الاقتصادية على محمل الجد أصلاً، فينبغى بالتأكيد الترحيب بكل جهد لتوضيح هذه القضية. فنحن لا نحل مشاكلنا حينما نتعب منها.

فائدة، تتمثل في امتلاك مستلزم معين للإنتاج. وفي هذه الحالة، فلا يجدى اللجوء إلى القوة التساومية لمالكي هذا المستلزم لأنه ما يزال من الضروري البحث، عن التفسير الحقيقي للعائد الصافي المتحقق، في الدور الذى يؤديه هذا المستلزم فى العملية الاقتصادية. وهكذا لم يلجأ ماركس أو بوهم-باورك إلى القوة التساومية للرأسمالى، مع إن هذا العنصر كان يمكن بسهولة تمييزه فى نظريتهما. وبدلاً من ذلك، حاول كلاهما أن يبينا بإحكام كيف إن آليات الأسواق الرأسمالية كانت تنتج الفائض أو العلاوة، التى لا يفعل مصطلح: القوة التساومية ذاته شيئاً لتفسيرها. أو، بخلاف ذلك، يُعتقد بأن القوة التساومية تتألف من شىء ما يختلف عن تملك مستلزم معين. إذ يمكنها أن تكمن، مثلاً، فى القدرة على فرض الضرائب لمصلحة الرأسماليين. ولكن من الضروري، فى هذه الحالة، إثبات وجود مثل هذه القدرة وكفايتها لتفسير ظاهرة الفائدة - وهذه مهمة لن يتولاها أى منظرٍ يعرف عمله جيداً^(٣٤٢). سنأخذ مثلاً واحداً على نظرية من هذا النوع: نظرية التعويض التى وضعها ليكسس. تعود الفائدة بحسب هذه النظرية إلى إن رجال الأعمال هم فى وضع يسمح لهم بتقاضى أسعار، لأى شىء يبيعونه، تزيد على تكاليفه. فإذا قصدنا بالتكاليف costs: النفقات expenses، فالأمر كذلك، ولكنه لا يفسر وجود فائض يزيد على النفقات زائداً تعويضات خدمات العوامل المملوكة ذاتياً مقومةً وفقاً لأسعار التوازن. فلكى نثبت وجود مثل هذا الفائض، العام إلى درجة تكفى لتفسير الفائدة، من الممكن بالتأكيد اللجوء إلى نواقص المنافسة؛ ولكن هذا كان سيعنى الموضوعة القائلة بعدم وجود فائدة فى حالة التوازن التام والمنافسة التامة، التى تحتاج بدورها إلى برهان كاف^(٣٤٣).

يشكل عمل بوهم-باورك العمل البارز فى الفترة المدروسة والذى هيمنَ على المناقشة وأثرَ على تكوين حتى أقصى نقاده. وسبق لنا التشديد (القسم ٢ ج،

(٣٤٢) وهكذا، فإن القوة السياسية لأصحاب المصالح الزراعية فى الولايات المتحدة تفسر بالتأكيد، من بين أشياء أخرى، الضريبة التى فرضت لصالحها فى الأيام الأولى من إدارة روزفلت. ومن الممكن القول إن هذه الضريبة قد ساعدت على زيادة 'أرباح' أو 'ريوع' المزارعين. ولكن يتعذر، كما هو واضح، اللجوء إلى تلك الضريبة كتفسير أساسى لأى منهما. ويسرى الأمر نفسه على تعريفات الحماية.

(٣٤٣) قد لا يكون من الضروري أن نعيد مناقشة نظريات العوائد الصافية (سواء أكان العائد فائدة أو ربحاً) التى لا تقوم على شىء سوى سوء استعمال مفهوم الاحتكار وتجد المكسب الاحتكارى فى كل حالة تتطوى على عامل نادر على أساس إن هذا العامل، فى المجتمع الرأسمالى، غير متاح للجميع بنفس الدرجة.

أعلاه) على أن هذا العمل قد تجسّد في تقديم صورة مبسطة جداً للطريقة التي تتحدّد بها معدلات الأجر والفائدة في وقت واحد (مفترضين عرضاً محدداً من العمل ومن وسائل الكفاف) وتحدّد هذه المعدلات بدورها التركيب العضوى لرأس المال^(٣٤٤). كما جرى التشديد من قبل أيضاً على أن هذا المخطط المركزى مستقل جزئياً عن، وغير منسق جزئياً بصورة تامة مع، تفسير بوهم-باورك السببى للفائدة-وهى حقيقة كنا قد أرجعناها إلى الحالة غير المكتملة لعمله. ويهنا الآن هذا التفسير السببى. كان بوهم-باورك يعتقد بقوة إن النقود لا تلعب أى دور فى هذه القضية سوى كونها أداة تكتيكية قد تخرج عن النظام أحياناً^(٣٤٥). وتتمثل الفرضية الأساسية فى إن الفائدة تنشأ عن مبادلة سلع استهلاكية حالية مقابل سلع الاستهلاكية مستقبلية وهى تمثل علاوة (Agiو) أساساً تضاف إلى السلع الأولى. وعند تعريف المشكلة بهذا الشكل، فهذه المشكلة تتمثل بأن نبين لماذا تتصرف السوق، التى تبادّل فيها السلع الاستهلاكية الحالية مقابل (الحق ب) السلع الاستهلاكية المستقبلية، بتلك الطريقة بحيث تخلق مثل تلك العلاوة بشكل عادى أو، بعبارة أخرى، لماذا يكون الأفراد مستعدين عادةً للتعهد بتسليم، مقابل السلع الحالية، كميات أكبر من السلع من نفس النوع والتنوعية فى وقت ما من المستقبل^(٣٤٦). وكما قد يعرف القارئ، فإن

(٣٤٤) إن هذا المفهوم الماركسى ملائم هنا تماماً. كما أن كلمة: رأس المال تستعمل هنا بمعناها الماركسى. أتصور أن هذا الاستعمال من شأنه أن يساعد على إيصال فكرة بوهم-باورك بصورة أفضل وبإيجاز أكثر مما كان سيكون عليه الحال باستعمال مصطلحاته هو. وإضافة إلى ذلك، يعرف استعمال هذا المفهوم كلاً من مدى التشابه بين المخططين والمدى الذى يبرز به مخطط بوهم-باورك المخطط الماركسى بمعالجته لمشكلة معينة لم يعالجها ماركس بشكل صريح. ومع ذلك، لابد من ملاحظة، أولاً، إن نظاماً للعلاقات أعقد من نظام بوهم-باورك سيكون ضرورياً لتقدير هذه المشكلة حق قدرها؛ وثانياً، بأننا حينما ندخل التجهيزات والمعدات المعمّرة بشكل صريح، فأنا نكتشف حالاً بأن مخطط بوهم-باورك هو مخطط طويل-الأمد أساساً ذلك لأن التجهيزات والمعدات معطاة ببساطة فى المدى-القصير كما هو حال العوامل الطبيعية ويمكن أن تخصص لها إنتاجية حدية ليس بمعناها لدى جيفونس-بوهم باورك ولكن بالمعنى المعتاد.

(٣٤٥) وعلى نحو أكثر دقة، كانت لدى بوهم-باورك نظرية كمية خام: فالنقود كلها (آخذين سرعة تداولها بنظر الاعتبار) تشتترى السلع كلها. ثمة تشابه مذهل بين هذه الفرضية وفرضية أخرى: إن مخصص الكفاف كله يشتترى عرض العمل كله. تذكر كلتا هاتان الفرضيتان بالنظريتين 'الكلاسيكيتين' (النظرية الكمية ونظرية مخصص الأجور) فى غير أحسن حالتيهما. بيد إن من الممكن إدخال التصحيحات الضرورية دون صعوبة كبيرة.

(٣٤٦) لنكرر: مهما كانت الاعتراضات الأخرى على هذه الطريقة بطرح مشكلة الفائدة، فلا معنى للاعتراض عليها لأنها تستخدم علم النفس. فلو رمينا جانباً حجة بوهم-باورك على هذا الأساس، فعلينا أن نرمى أيضاً حجة اللورد كينز وحتى حجة ماركس (انظر، مثلاً، حجج ماركس بشأن التراكم).

بوهم-باورك طرح ثلاث أسباب. أولاً، قد يكون المرء مستعداً لأن يدفع للمقرض أكثر مما كان قد أخذ منه لأنه يتوقع أن يكون أكثر غنى في المستقبل^(٣٤٧). ثانياً، قد يكون المرء مستعداً لأن يدفع أكثر مما كان قد استلم لأن معظم الأفراد لا يحسون بالمتع المستقبلية بنفس الإحساس الحاد من الواقعية الذى يحسون به المتع الحالية^(٣٤٨). يتباين الأفراد والطبقات والأمم من هذه الناحية كثيراً، وأن الاختلافات فى الحدة التى يدركون بها المستقبل تمثل أحد أهم العوامل التى تحدد مصيرهم- وهى حقيقة يتعذر توضيح أهميتها بقوة أمام الاقتصاديين الحديثين. ولكن بوهم-باورك، كما فعل بنثام وجيفونس من قبله، كان يعتقد أن بعض التقدير البخس undervaluation للمستقبل بهذا المعنى هو صفة عامة للإنسان العادى. إن السلوك الفعلى، وبخاصة لدى أعم الناس، يدعم هذا التأكيد إلى حد بعيد^(٣٤٩). ثالثاً، قد يكون المرء مستعداً لدفع العلاوة نظير السلع الحالية لأن السيطرة على السلع الحالية ربما تساعده على أن يباشر عملية إنتاج منتجة مادياً أكثر تتطلب فترة إنتاج أطول بمعنى بوهم-باورك (الأفضلية التكنولوجية للسلع الاستهلاكية الحالية؛ انظر القسم

(٣٤٧) حول هذا السبب، ثمة ما هو أكثر مما يسلم به النقاد عادة: أنه يسرى ليس فقط على حالة الطالب الذى لديه عمة غنية وبصحة جيدة: ففي مجتمع يتقدم باطراد progressive society، قد يتوقع غالبية من الأفراد بشكل صحيح تدفقات أكبر من الدخل فى المستقبل؛ بينما فى مجتمع متقهقر retrograde society، فإن بوهم-باورك كان مصيباً تماماً فى افتراض أن التوقعات الصحيحة لتدفقات الدخل المتناقصة لن تجعل العلاوة سلبية لأى فرد يتصرف بشكل معقول بحيث إن العلاوة الموجبة، التى قد يكون البعض ما يزال مستعداً لدفعها، سوف تتحقق حتى فى هذه الحالة.

(٣٤٨) فى الحالة الأولى - حالة التوقعات الملائمة - يبخس المقترضون تقدير السلع المستقبلية، بالمقارنة بالسلع الحالية، لأنهم يتوقعون، فى المستقبل، هبوطاً أكثر على نفس منحى المنفعة الحدية للدخل. وفى الحالة الثانية - حالة التقدير البخس النظامى للمتعة المستقبلية التى يتوقع أن تعطى متعة بنفس الحدة حينما تصبح متعة حالية- فإن المقترضين يمتلكون منحى مختلفاً للمنفعة الحدية للدخل بالنسبة إلى الوقت الحاضر ولكل فترة من فترات الدخل التالية.

(٣٤٩) لا يمكن إثبات ذلك إلا بمناقشة موسعة للدليل التاريخى مما لا يسمح المجال لنا بتناوله. صحيح تماماً أن انطباعنا العام، المتمثل فى إن التقدير البخس العام للمستقبل يوجد فى المجتمع الحديث بالفعل، يمكن أن يكون جزئياً نتيجة بسيطة لوجود الفائدة وبالتالي فإن مهمة إثبات إن هناك أيضاً تقديراً بخساً مستقلاً، قادراً على "التسبب" فى الفائدة، ليست مهمة سهلة، وبخاصة مع وجود دليل مناقض لذلك ظاهرياً. كما إن من شأن مثل هذه المناقشة أن تتخبط فى سجال مع الاعتراضات الكثيرة التى أثيرت. ومع ذلك، تنبغى الإشارة إلى واحد من هذه الاعتراضات يتمتع بأهمية خاصة. إذ يرى بعض الكتاب إنه إذا كان هناك تقدير بخس نظامى للمستقبل systematic undervaluation، فالمجتمع كان سيكون لديه تحوط لهلاك اقتصادى أو زوال عام. ولكن هذا ما يفعله المجتمع بالفعل، وتكمن إحدى المشاكل الأكثر عمقاً للتحليل الاقتصادى فى أن يبين لماذا تتوسع المعتقدات الرأسمالية، رغم ذلك، بدلاً من أن تنقلص. إن ما يحجب هذه المشكلة هو التعود على الافتراض إن الماكنة الاقتصادية يحافظ عليها، أو تحافظ هى على نفسها، باعتبار إن هذا شئ طبيعى.

٢ج، أعلاه) بحيث إن الخزين القائم من السلع الاستهلاكية قد يتيح إنتاج سلع استهلاكية أكثر في المستقبل. كان ينبغي أن يتردد قليلاً الجدل الذي شهد الخطط الخمسية الروسية في منح ثقة محدودة لهذه الحجة، على الأقل. وبطبيعة الحال، فإن من الضروري التشديد على عبارة 'نباشر' أكثر مما شدد عليها بوهم-باورك الذي ارتكب عدة أخطاء حينما عالج هذا 'السبب الثالث' (٣٥٠). إذ يمكن أن نقع في شرك حجة التزامن synchronization argument ما لم نفعل ذلك: فبسبب بوهم-باورك الثالث، بحد ذاته، ليس من شأنه أن يفسر أى فائض متواصل من التكرار المستمر لعملية معينة ذات 'طول' معطى بمجرد أن يتم إدخال الفائض ويتكيف له الاقتصاد ككل؛ إن 'التوسعات' المتعاقبة لفترة الإنتاج فقط هي التى تبقى الفائدة حية حتى ولم تكن هناك أسباب أخرى لدوامها (٣٥١).

(٣٥٠) جرى تصحيح معظم تلك الأخطاء من قبل فيكسل وأنصاره ((انظر بشكل خاص عمل فيكسل 'Zur Zinstheorie (Bohm-Bawerk dritter Grund) التى هى تمثيل مساهمة فيكسل فى (Wirtschaftstheorie der Gegenwart, vol. 111, 1927)). ومع ذلك، فقد تركت تلك الأخطاء تلعب دوراً كبيراً غير ملائم بصورة عامة: فبعكس نقاد ماركس أو ريكاردو أو كينز المتعاطفين، فإن نقاد بوهم-باورك لم يهتموا قط بتمييز أفكاره الجوهرية عن ردائها سيئ الخياطة. وانتهز الفرصة للإشارة إلى صعوبتين مرتت بهما عند محاولة تقديم أفكار بوهم-باورك بصورة ملائمة. الأولى هى الاعتقاد إلى المجال، والثانية هى أننى امتهل أقوى سبب يمكن للمنظر أن يمتلكه لعدم الاتفاق مع بوهم-باورك، أى السبب المتمثل بكونى امتهل نظرية مختلفة خاصة بى. ولكنى لا أحب فرض أرائى على القارئ أو انتقاد بوهم-باورك من الزاوية الخاصة بى. ولذلك، فإننى أقبل 'بنسخته' حول المشكلة؛ ولا أتحدث عن 'الخطأ' إلا فى الحالات التى توجد فيها عبارة أو ترتيب تحليلى يمكن إثبات أنه خاطئ من زاويته إتباع ج. شومبيتر منظرته شهيرة مع بوهم-باورك بخصوص النظرية الديناميكية للفائدة فى: Zeitschrift für Volkswirtschaft, Socialpolitik und Verwaltung, 1913).

(٣٥١) إن فكرة مماثلة تدافع عن نظرية الامتناع ضد الاعتراض القائم على التزامن. ومع ذلك، توجد أيضاً فى كلتا الحالتين أسئلة دقيقة يلزم أخذها بعين الاعتبار ولكن يتعذر علينا أن نتناولها. ولكنى سأوضح باختصار واحداً منها كان قد أزعج بوهم-باورك نفسه وأنصاره ونقاده. فلم يكن كلهم متأكدين من صلات 'الأسباب الثلاثة' بعضها ببعض. لأول وهلة، تمثل كلها أسباباً تراكمية بمعنى أنها كلها أسباب للتقدير البخس لرغيف الخبز المستقبلى بالمقارنة مع الرغيف الحالى. ولكن هذا ليس بكل شيء عنها. فإذا صغنا السبب الثالث بالقول أنه يقود إلى التقدير البخس لأن السيطرة على السلع الاستهلاكية الحالية تمكن المرء من أن يصبح أكثر غنى فى المستقبل، فإن بوسعنا استيعاب السبب الثالث ضمن السبب الأول، أخذين بنظر الاعتبار الطرف المتمثل فى إن حيازة السلع الحالية تمثل شرطاً للغنى فى المستقبل فى حالة السبب الثالث ولكن ليس فى حالة السبب الثانى. ولكن، فى كلتا الحالتين، يتعين علينا أكثر أن نأخذ بالاعتبار حقيقة إنه إذا كان السبب الثانى يفعل مفعوله، فإن الغنى المستقبلى الأكبر سيكون 'مخصوصاً نفسياً'. وإلى الحد الذى يحدث فيه هذا الأمر، فإن الدافع الثانى يُضعف الدافعين الأول والثالث لدفع علاوة ما. ومرة أخرى، وبحسب ظاهر الأمور، فإن كل سبب من الأسباب الثلاثة، على فرض إيماننا بها، يجب أن يكون قادراً على خلق العلاوة حتى ولو كان يفعل ذلك فى ظل غياب السببين الآخرين. وقد حاول بوهم-باورك نفسه أن يبين: (أ) إن=

إن هذا التفسير للفائدة، كما جرى طرحه، لم يقبله أى اقتصادى ذو وزن. وحتى فيكسل أضاف إليه الكثير من التحفظات والتطبيقات بحيث يتعذر تصنيفه كنصير له بأى معنى محدد. ومع ذلك، فإن نظرية بوهم-باورك للفائدة لم تمارس فقط ذلك النوع من التأثير الذى تتضمنه إثارة المناقشة وتشجيع الفكر بل مارست تأثيراً مباشراً أيضاً. وهذا يعود إلى حقيقة إن هذه النظرية تسمح بتبسيط معين يمكن للمرء قبوله دون أن يلتزم بتفاصيل بنية بوهم-باورك التحليلية. إن هذه النسخة المبسطة تبدو كما يلى: إن الفائدة تنتج عن التفاعل بين التفضيل الزمنى ('النفسى') والإنتاجية المادية للاستثمار. وقد باتت نظرية بوهم-باورك، بهذا الشكل الرقيق، ليس فقط واحدة من نظريات الفائدة فى الفترة المدروسة بل أيضاً أكثر هذه النظريات قبولاً بشكل واسع، مع أن كل كاتب أضاف جوانب خاصة به، لم يستحسنها، كقاعدة عامة، أى عدد مهم من الكتاب الآخرين. ويمكن الاستشهاد بأمثلة كثيرة^(٣٥٢). ولكن العمل الأقوى والأكثر لمعاناً من هذا النوع تمثله نظرية أرفنج فيشر التى تفسر الفائدة على أساس القلق Impatience Theory of Interest^(٣٥٣). توضح هذه العبارة نفسها بنفسها. ولكنها تشير حصراً إلى السبب الثانى لدى بوهم-باورك. ولكن سببه الثالث لا يغيب عن فيشر: حيث يظهر هذا السبب فى صورة الفرصة الاستثمارية Investment Opportunity التى، ولو بعد نزغ جوانب بوهم-باورك تحديداً عنها، تعبّر عن نفس الحقيقة ولكن بصورة أنيقة وأكثر وجوهية^(٣٥٤). كما أبرز فيشر، على نحو أوضح من بوهم-باورك، جانباً

=السببين الأولين لن يخلقا علاوة معينة بالضرورة دون السبب الثالث (انظر مناظرته ضد فيشر: Exkurs X11, in the 3ed ed.). (ب) ولكن السبب الثالث قادر لوحده على توليد العلاوة. (٣٥٢) فمثلاً، يمكن تفسير إشارة مارشال (Principles, p. 142) إلى 'إنتاجية وآفاق' رأس المال بهذا المعنى. ولذلك، كان اللورد كينز مصيباً حينما عالج ما أسماه: النسخة المبسطة من نظرية بوهم-باورك كنسخة كانت مقبولة بشكل عام حتى فى عام ١٩٣٦ (انظر General Theory, p. 165). ومع ذلك، فإن الشيء المهم هو حقيقة أنه قبلها هو نفسه. لقد أعلن كينز حقاً أنها غير كافية ولكن فقط بمعنى أنها تحتاج إلى أن تكمل بعنصر تفضيل السبولة (نفس المصدر، ص ١٦٦). ولكن هذا، بالنسبة لكينز، ولو ليس بالنسبة لأخصاره، لم يعن إنكار تلك النسخة بل تعديلها وحسب. (٣٥٣) أحكم فيشر هذه النظرية (دون أن يحل بعد مصطلح: القلق impatience محل مصطلح 'agio' {العلاوة} أو مصطلح التفضيل الزمنى) أولاً فى عمله (Rate of Interest (1907) ومن ثم قدم نسخة أخرى فى عمله (The Theory of Interest (1930)). وليس عيباً أنه كتب، فى مقدمة عمله الأخير، أن نظريته هى 'نظرية كل واحد إلى حد ما'. وما هو مبرر أكثر إهداء هذه النظرية إلى جون راي ويوجين فون أكثر إهداء هذه النظرية إلى جون راي ويوجين فون بوهم-باورك اللذين وضعها الأسس لما حاولت أن أبنيه. (٣٥٤) ولذلك، فمن الصعب أن نفهم كيف استطاع فيشر أن يقول فى المقدمة نفسها: 'بقدر ما أعلم، لم=

من تحليل هذا الأخير للفائدة قد يمثل الجانب الأهم.

رأينا أن غالبية من الكتاب غير الماركسيين دأبوا، في تلك الفترة، على النظر للفائدة كدخل يقف على قدم المساواة مع الربح والأجور بوصفها مبلغ يُدفع مقابل خدمات مستلزم مادي معين للإنتاج (تجهيزات، معدات، وما شابه، أو مقابل الامتناع، بخلاف ذلك) يقف بدوره، ضمن حدود الإنتاج، على قدم المساواة مع خدمات العوامل الطبيعية والعمل. إن نظرية 'agio' أو العلاوة للفائدة تتضمن مفهوماً مختلفاً تماماً. فبوصفها خصماً زمنياً عاماً يسرى على الخدمات الإنتاجية من كل نوع، فإن الفائدة تفترس، إذا صح التعبير، كل هذه العوائد، تفترس عوائد خدمات السلع الرأسمالية المادية ليس أقل مما تفترسه من أى عوائد أخرى. ولذلك، فهي شيء يختلف في طبيعته عن كل ما يسمى بعوائد الإنتاجية حقاً^(٣٥٥)، ليس فقط عن ربح العوامل الطبيعية وأجور العمل بل وعن العوائد من إنتاجية السلع الرأسمالية أيضاً. لم يُبرز بوهم-باورك هذا الأمر جيداً، مع إن نظريته، للرسملة^(٣٥٦) (للطريقة التي تتحدد بها قيم الأرض والسلع الرأسمالية) تكفى لإثبات أن ذلك

=يستند أى كاتب آخر من الكتاب الذين كتبوا حول الفائدة من تدفقات الدخل وتغيراتها أو من معدلات العائد من التكلفة في كل سنة. فإذا لم تشكل الجداول الرقمية لبوهم-باورك طريقة خرقاء لتمثيل نقاط من تدفقات الدخل (الناتج) وتغيراتها، فلا استطع تحديد ما تمثله. وانتهر هذه الفرصة للإشارة إلى نقطة ثانوية. فقد حاول بقوة كل من بعض النقاد وبعض الأنصار (بمن فيهم فيكسل وبيرسون) تفسير نظرية بوهم-باورك للفائدة كنظرية إنتاجية، وأن بوهم-باورك نفسه، بعد أن أضناه إصرارهم، احتج في النهاية ولكن بشكل ضعيف. ولكن نظريته لا تمثل نظرية إنتاجية إلا بالمعنى الذي تمثل فيه كل نظريات الفائدة، بما فيها نظريات ماركس وكينز، هذا الأمر. ذلك لأن الفائدة هي عنصر في كل سعر؛ فكل سعر يمكن تمثيله بوصفه النتيجة لطلب معين وعرض معين؛ وبغض النظر عن الطريقة التي نعرف بها رأس المال، فإن الأغراض الإنتاجية ينبغي أن تبرز من بين العوامل التي تدعو إلى طلبه. ومع ذلك، فإن نظريته، بأى معنى غير مبتذل، لا تشبه النظريات المسماة نظريات إنتاجية عن حق بل هي نقيضها ذاته، كما سيبتين بعد قليل.

(٣٥٥) أقول: ما يسمى بعوائد الإنتاجية حقاً. وذلك لوجود غموض في مصطلح 'الإنتاجية' كما هو الحال أيضاً في مصطلح 'مستلزم' requisite، من شأنه أن يحجب المعنى الذي أحاول طرحه. فبمعنى ما، فإن الوقت هو مستلزم إنتاج وبالتالي فهو منتج. وهكذا أيضاً تكون النقود في المجتمع الرأسمالي. ويمكن أن يسرى مصطلح: الإنتاجية الحدية على الاثنين لبعض الأغراض. ولكن أيًا منهما ليس مستلزماً ومنتجاً بنفس المعنى الذي يكون فيه العمل أو الأرض أو المجرفة. وقد شدّد بوهم-باورك على أن مفهومه لمخصص الكفاف كان منتجاً بالمعنى الأول ولكن ليس بالمعنى الثانى، بالضبط على غرار ما كان سيفعله ماركس. ولكن بوهم-باورك نفسه وأنصاره ونقاده خلطوا بين هذين المعنيين.

(٣٥٦) طورت تلك النظرية من قبل فيكسل وفيشر، ولكنها تشكل إحدى المساهمات الأكثر تمييزاً لبوهم-باورك. وقيل بوهم-باورك، كان جانب التكلفة يهيمن على معالجة هذه المشكلة. وبطبيعة الحال، فإن ممارسة الأعمال كانت على دراية بعملية الخصم قبل ذلك بوقت طويل وذلك كما كانت تطبق على =

كان رأيه حقاً. ولكن مصطلحات فيشر حققت ذلك. وللتشديد على جِدَة هذا الرأى، لنلاحظ، مرة أخرى، قرابته من نظرية الاستغلال لماركس، من هذه الناحية؛ وإذا افترضنا الأيديولوجيا الملائمة- وكذلك طرق التعبير- فقد كان يمكن تقديمه كنظرية استغلال جديدة.

وقد ترتبت على ذلك نتيجة ثانوية مفادها أنه لم يعد من الممكن بعد تشخيص العوائد من السلع الرأسمالية المادية كفائدة بالصورة التي وضعها باربيون وأقرها آ. سمث. فقد توافرت ظروف عدة تشير إلى استيعابها ضمن الربيع من العوامل الطبيعية (انظر القسم ب، أدناه). والنتيجة الأهم من ذلك هي أن الفائدة الآن دخلت نظريات الربيع والأجور بطريقة جديدة تماماً. وفي الواقع، فهذا هو السبب الأهم الذي دفعنا لتناول هذه الموضوعات مرة أخرى بدلاً من الاكتفاء بمجرد الرجوع لنظرية العزو أو نظرية الإنتاجية الحديثة sans phrase {دون تحفظ} (٣٥٧).

(ب) الربيع سنستعرض التطورات في هذا الحقل في ثلاث خطى، مهملين قضايا ثانوية وطرقاً مسدودة عدة. أولاً، سندرس نظرية الربيع التي تفسر الدخول المستخلصة من ملكية العوامل الطبيعية، بغض النظر عما يُعتقد بأن هذه العوامل 'غير قابلة للفناء' أم لا. ثانياً، كما ندرس تعميمات معينة لمفهوم الربيع توحى بها تلك النظرية. ثالثاً، سنشير إلى وجود ميل معين لتسخير مفهوم الربيع لخدمة أغراض متباينة تماماً. وتحت كل واحد من هذه العناوين، سنلاحظ ثمة صراع بين الأفكار القديمة والجديدة كان يشكل سبباً مهماً، وإن لم يكن السبب الوحيد، لتقلبات وغموض وقضايا زائفة (٣٥٨).

= مسكن أو ماكينة. ولكن بوهم-باورك هو مَنْ أدخل هذه الممارسة في النظرية الاقتصادية ومنحها تفسيرها الاقتصادي، مثلما أدخل مارشال بالضبط التكاليف الأولية والتكاليف الثانوية التي كانت مألوفة لكل رجل أعمال ولكنها، رغم ذلك، شكلت أشياء جديدة في التحليل الاقتصادي. (٣٥٧) وبعبارة أخرى، فإن 'العلاقات بين الربيع والفائدة' باتت الآن مشكلة لم تكن قائمة أمام ج. س. ميل. انظر بشكل خاص مقالة البروفيسور فيتر التي تحمل هذا العنوان في: Publications of the American Economic Association, 3rd series, vol. v, February 1904. وقد انتقاد مارشال بطريقة أخرى لصياغة مفهوم: شبه-الربيع الذي يُعنى بجزء من تلك المشكلة. وإضافة إلى ذلك، فقد لاحظ مارشال أن مفهوم الفائدة قابل للتطبيق على الاستثمار الجديد (المستقبلي؟) فحسب؛ وأن رأس المال المستثمر في التجهيزات والمعدات بالفعل يغل شبه-ربيع وليس فائدة (-) (Principles, pp. 605-6).

(٣٥٨) بقدر تعلق الأمر بتعاليم مارشال، فقد جرى تحليل التقلبات والغموض بصورة واضحة من قبل ف.=

أولاً، فيما يخص ريع العوامل الطبيعية، فمن الواضح إن تحليل جيفونس-منجر-فالراس قد قدّم تفسيراً صالحاً تماماً لظاهرة الريع هذا، كما قدّم كل 'القوانين' أو النسب التي نحتاجها عنه حينما يتم بصورة كافية استكمال هذا التحليل بوقائع كل حالة ملموسة متصورة. إن كل ما كان يتعين عمله هو أخذ التلميح من ساي أو كانتيلون، أى إدراك أن الريع هو مجرد قضية تسعير خدمات مستلزمات الإنتاج وتطبيق المبدأ الحدى على تكوين هذه الأسعار. وحينما نأخذ بعين الاعتبار مفهوم التفضيل الزمنى لدى بوهم-باورك، فإن النتيجة تبدو كما يلي: يميل ريع العوامل الطبيعية إلى التساوى مع القيمة المخصومة من منتجاتها الحدية. إن هذه النظرية تسمح تلقائياً بمراعاة الاختلافات فى نوعية العوامل الطبيعية من النوع الواحد. وحينما يفسر الريع بهذا الشكل، فإنه يدخل ولا يدخل فى أسعار المنتجات على غرار الأجور بالضبط. وفى الواقع، فإن الريع بهذا المعنى والأجور هما ظاهرتان متشابهتان. والاختلاف الاقتصادى البحت فيما بينهما هو أن العرض الكلى من أى عامل طبيعى يمكن أن يكون ثابتاً فى حالات عدة وبالتالي لا يستجيب للتغيرات فى سعره بينما يكون العرض الكلى للعمل أقل جموداً *less irresponsive* بشكل عام. ولكن هذا الاختلاف لا يؤثر على المبدأ التفسيري المعنى الذى يبقى هو نفسه فى كلتا الحالتين. وعلاوة على ذلك، فالأمر سيان بالنسبة لموضوع تخصيص العرض المتاح، من عامل طبيعى معين قابل لأن يخدم أكثر من استعمال واحد، لأى استعمال محدد: فكم من الأرض، وبأى ريع للوحدة الواحدة منها، يُخصص لإنتاج قصب السكر حينما يمكن استعمال نفس الأرض لإنتاج القطن أيضاً، هى قضية تكلفة الفرصة البديلة ليس إلا^(٣٥٩).

ومع ذلك، فإن هذه النظرية، التى أيدها النمساويون وفالراس، لم يتم قبولها حالاً أو بشكل عام كما كنا نتوقع بحكم بساطتها وفائدتها. ثمة سببان لهذا الأمر ولبقاء نظرية الريع 'الريكاردية' فيما بعد^(٣٦٠). فمن ناحية، أبدى اقتصاديون كثير

أ. فيتر F. A. Fetter: 'The Passing of the Old Rent Concept,' Quarterly Journal of Economics, May 1901. من الممكن تعميم محاولة البروفيسور فيتر بحيث تشمل عدداً كبيراً من الاقتصاديين.

(٣٥٩) قد لا يكون من الضروري تفسير معالجة حالة العوامل الطبيعية التى لا تسمح إلا باستعمال واحد ومعالجة الحالات التى تثير صعوبات ماثلة (كحالة الكرم الذى يمكن استعماله كمرعى للأغنام أيضاً).

(٣٦٠) استفادت قليلاً نظريتنا ماركس ورودبرتوس للريع من كراهية كثير من الاقتصاديين لنظرية=

مقاومة عاطفية لنظرية بدا أنها تعامل 'الدخول غير المكتسبة' التي يحصل عليها مالك-الأرض على قدم المساواة مع التعويض الذي يناله العامل عن عرق جبينه. إن هذه العواطف غير معقولة قط لأن تلك النظرية ليس فيها ما يمنع اقتصاديًا ما من أن يميز، كما يحب، بين مالك الأرض والعامل وفقًا لأسس أخلاقية أو سياسية^(٣٦١). ولكن العواطف كانت قوية رغم ذلك وفي صالح النظرية 'الريكاردية' لأن الأخيرة بدت مؤهلة أكثر لدعم حكم قيمي معادى لريع الأرض-رغم إنها ليست كذلك حقًا. ومن ناحية أخرى، وكما رأينا، فقد احتفظت المذاهب 'الكلاسيكية' بسيطرة قوية على فكر اقتصاديين كثيرين خلال الفترة المدروسة. ومن بين هذه المذاهب، فلم ينتشر مذهب على نطاق أوسع أو يستمتع بشهرة راسخة أكثر من مذهب الريع 'الريكاردى'. وعلاوة على ذلك، كان الدفاع عن هذا الأخير أسهل من الدفاع عن بقية أجزاء التحليل 'الكلاسيكى' ذلك لأنه، لصياغته الدقيقة، لم يشدد على أى شىء خاطئ حقًا. كان انتقاد منجر لهذا المذهب (Grundsätze, pp. 144-5) مبررًا ولكنه لم يعن سوى القول بأن الضرورة التي دفعت إلى بناء جهاز نظرى منفصل، لطائفة مهمة من الظواهر، كانت تبرهن بذاتها على نواقص التحليل 'الكلاسيكى'^(٣٦٢). ولذلك، كان المدافعون فى وضع ملائم أكثر نسبيًا. وكان مارشال أكثر هؤلاء بروزًا حيث انتزع من هذه الفرصة أقصى ما يمكن لمحاربة عمل مبنى جيدًا دفاعًا عن ريكاردو^(٣٦٣).

الإنتاجية الحدية، رغم إن نظرية ماركس استمرت ضمن حلقة الأصوليين الماركسيين طبعًا. إن انتقاد ل. فون بورتكيفيتش L. Von Bortkiewicz غير البناء لكتلتا النظريتين كان ضروريًا بالكاد لإفناع الاقتصاديين بنقاط الضعف فيهما: انظر مقالتيه حول: 'Die Rodbertus'sche Grundrententheorie und die Marx'sche Lehre von der absoluten Grundrente,' Archiv für die Geschichte des Socialismus und der Arbeiterbewegung, 1910-11. ومع ذلك، تستحق كتلتا المقالتين أن تشير إليهما كمثالين رائعين على نوع من العمل النظرى يبدو أنه خرج عن المألوف بشكل تام.

(٣٦١) وهكذا، فإن فالراس كان يناصر بقوة إصلاح نظام الأرض، رغم أنه كان يؤيد نظرية الإنتاجية كتفسير للريع.

(٣٦٢) وبعبارة أخرى، فإن النقد قد شدد ببساطة على أن نظرية ريكاردو زائدة بالنسبة لتحليل جيفونس-منجر-فالراس. والأمر كذلك (انظر الجزء الثالث، الفصل السادس، القسم السادس، أعلاه، حول الدور الذى لعبته نظرية الريع فى النظام الريكاردى). أو، إذا وضعناها بصورة أخرى أكثر بساطة: كان 'الثوار' فى وضع يسمح لهم بالتخلص من كل الفصل الثانى من عمل ريكاردو باستثناء الجملة الأولى من الفقرة الثانية.

(٣٦٣) قد يتغاضى المارشاليون عن الانزعاج الضئيل الذى قد يشعر به بعض قراء مارشال من المدى الذى ذهب فيه فى هذا المجال، رغم حقيقة (مهملين كل الأشياء الأخرى) إن خلاصة مارشال المهمة لنظريته للتوزيع بينت بما لا يدع مجالاً للشك بأنه قد سلم بنظرية الريع القائمة على=

على أى حال، ظلت النظرية 'الريكاردية' فى مركز المناقشة وواصلت الاستحواذ على اهتمام حتى خصومها الذين لم يأت كلهم من معسكر الإنتاجية الحديثة. إذ تعرضت نظرية الريع القائمة على الاحتكار لأن تنقذ أساسها حينما تطور تحليل نظام السعر العام إلى حد بعيد ولكنها لم تمت كلياً^(٣٦٤). كما تم تجريب مناهج أخرى ولكن لم يحقق أى منها أى نجاح كبير^(٣٦٥).

ثانياً، إن توسيعات مفهوم الريع المناقش تَوَّاه تطرح نفسها حالاً نظراً إلى صعوبة رسم خط يمكن الدفاع عنه بشكل منطقي بين الموضوعات التى تشكل، وتلك التى لا تشكل، عوامل طبيعية، أو، بعبارة أخرى تعبّر عن الشيء نفسه، لصعوبة الاتفاق على الخصائص المميزة للعوامل الطبيعية. وهكذا أنكر مارشال أن تشكل الضرائب من التعدين mining royalties ريعاً^(٣٦٦)، منتهكاً بذلك تعريفه الأصلي للريع (الدخل المستمد من ملكية الأرض والهبات الحرة الأخرى من الطبيعة، Principles, p. 150). كان الكتاب الآخرون أكثر قبولاً بهذه المشابهة. ولكن مارشال لم يواجه أى صعوبة فى توسيع مفهوم الريع من الأرض الزراعية ليمتد إلى الأرض الحضرية^(٣٦٧). ومع ذلك، فالأكثر أهمية هو أحد أنجح ابتكاراته: مفهوم شبه-الريع quasi-rent أو 'الدخل المستمد من استعمال أداة معينة فى إنتاج

الإنتاجية الحديثة (●) أو بنظرية الإنتاجية الحديثة كتفسير للريع) marginal productivity theory of rent. ولكن مارشال رفض الاعتراف بما يتضمنه هذا التسليم من انتهاك لنظرية ريكاردو العامة، وأنه، مثلاً، هاجم جيفونس (الذى كان لطيفاً، بشكل استثنائي، مع نظرية الريع 'الريكاردية') لاعتقاده بأن 'الريع يدخل فى السعر' (Principles, p. 483n) كما لو إن هذه الفرضية، مثلما قصد جيفونس، كانت زائفة بشكل واضح. وبوسع القارئ أن يتأكد بسهولة من أن الأمر ليس كذلك - وهو أمر يمكن أن يشكل تمريناً جيداً حقاً. إن صياغة مارشال الصحيحة (الواردة فى المقتبسات) لا تشدد على أى شيء خاطئ، ولكنها أيضاً لا تشدد على أى شيء يُبطل فرضية جيفونس التى تعرضت للهجوم. وعلاوة على ذلك، فإن فرضية جيفونس كان قد تم التنبؤ بها من قبل ج. س. ميل - ولو أن هذا كان قد حدث دون إدراك أهميتها.

(٣٦٤) يمكن الاستشهاد بعمل أوبنهايمر عن ريكاردو كمثال: F. Oppenheimer, David Ricardos (Grundrententheorie (1909 ; 2nd ed., 1927).

(٣٦٥) انظر، مثلاً، عمل أكيل لوريا (Achille Loria (1880: Rendita fondiaria).

(٣٦٦) علاوة على أنه فعل ذلك على أساس يتعذر الدفاع عنه مفاده إن الضرائب royalties تدخل فعلاً فى سعر المعدن المستخرج بمعنى معين غير المعنى الذى يدخل فيه ريع الأرض الزراعية.

(٣٦٧) انظر أيضاً عمل إيدجورث حول موضوع الريع (الذى أعيد نشره فى المجلد الأول من عمله: Papers) وعمل فيزر: (Theorie der städtischen Grundrente (1909). والعمل الأخير يبدو كتطبيق لنظرية ريكاردو حيث تستبدل الأرض الحديثة لدى ريكاردو بالأرض الحضرية 'النائية' urban land peripheral التى لا تغل، عند استعمالها فى البناء، ريعاً أعلى مما كانت ستغله من استعمالها الزراعى الأمثل.

كان يتم من قبل الإنسان قبل ذلك' الذى يتضمن الاعتراف بحقيقتين كانت لهما أهمية خاصة بالارتباط مع نظريات الفائدة الجديدة: حقيقة أن أى سعر يُدفع مقابل السلع الرأسمالية يشبه تمامًا السعر المدفوع نظير العوامل الطبيعية؛ وحقيقة أن هذا التشابه يسرى على المدى القصير بشكل خاص وأنه يتضاءل كلما تزايد طول الوقت الذى يُراد تطبيق فرضية معينة عليه^(٣٦٨).

ثمة طائفة أخرى من التوسيعات تُستخلص بشكل مباشر من جذور ريكاردية. فالمرء الذى يصر على أن يجد معنى معيناً فى تشديد ريكاردو على 'الريع التفاضلى' differential rent، يحتمل أن يكتشف، كما فعل بيلي من قبل، إن هذه الفروقات differentials لا تقتصر على الأرض. فقد أشرنا من قبل^(٣٦٩) إلى تفسيرات ميل ومانغولد و ووكر لمكاسب المنظم entrepreneurial gains كربوع تعود إلى القدرة المختلفة من فرد إلى آخر differential ability. وقد قدّم مارشال الفكرة العامة لهذا المفهوم الأخير، مع إن هذا لا يكشف سوى خواء هذا المفهوم فى نظرى^(٣٧٠). وبالمثل، يمكن للمرء الذى اكتسب عادة ريكاردو بشأن استخلاص الريع من 'قانون تناقص غلة الأرض' المادية أن يكتشف بسهولة كلية وجود ubiquity هذه الظاهرة حينما تضاف عوامل إنتاج معينة إلى كمية ثابتة من أحدها^(٣٧١): فهذا بمثابة تعميم لمفهوم ريكاردو للريع من خلال تعميم المفهوم

(٣٦٨) وبطبيعة الحال، ليس ثمة خط فاصل بين شبه-الريع والريع البحت. فإذا افترضنا إن الجزء الأكبر من دخل مالك-أرض معين هو شبه-ريع أيضاً، فيمكننا إذن أن نقول، فى أى وقت معطى، إن الجزء الأعظم من دخل الرأسمالى (بالمعنى الماركسى) هو شبه-ريع. إن الريع أو شبه-الريع المنتج فى قطعة من الأرض جرى استصلاحها بواسطة عمل المالك يحمل طبيعة الأجور، جزئياً على الأقل. إن قليلاً من التأمل يبين إن هذا الأمر ليس مجرد تلاعب بالمفاهيم لا جدوى منه.

(٣٦٩) [حول بيلي Bailey، انظر الجزء الثالث، الفصل الرابع، القسم ٣، أعلاه؛ وحول تفسير مكاسب المنظم entrepreneurial gains كربوع ناجمة عن القدرة المختلفة، انظر القسم ٢، أعلاه].

(٣٧٠) Principles, v1, ch. 5, §7, ch. 8, §8. ثمة حاجة لتحسين العبارة الواردة فى المتن ضد اثنين من سوء الفهم. أولاً، ينبغى عدم فهمها بمعنى يشير إلى المحتويات الكاملة للفقرتين المذكورتين تَوْاً اللتين تتضمنان ملاحظات عميقة كثيرة. ثانياً، يجب أن لا نفهم بمعنى يتضمن إنكار أهمية المدى الواسع لاختلاف القدرات 'الطبيعية' لدى الأفراد- على العكس، فهى مهمة للتحليل الاقتصادى والموسىولوجى معاً. إن كل ما أقصده إن نظرية الريع لا تصيف شيئاً إلى فهمنا لدور القدرات فوق-العادية supernormal abilities وأنا لا نكسب شيئاً حينما نسميها: ريعاً باستثناء أن القيام بهذا يمكننا من أن نبين- وكان هذا هو هدف بيلي حقاً - إن الخصوبة المختلفة لقطع مختلفة من الأرض هى عنصر زائد كلياً بالنسبة لنظرية الدخل المستمد من ملكية العوامل الطبيعية.

(٣٧١) دعونى أكرر بأن هذه الطريقة هى التى قادت ج. ب. كلارك نحو نظرية معينة للتوزيع تقوم على الإنتاجية الحدية. وهذا هو ما يبدو، على الأقل، الاستنتاج الطبيعى من عمله: 'Distribution as Determined by a Law of Rent,' Quarterly Journal of Economics, April 1891 ولكنه=

الريكاردى لتناقص الغلة. فإذا كانت التجهيزات والمعدات هي العامل الثابت - وهذه يمكن أن تؤخذ بالفعل على إنها ثابتة في المدى القصير - فسنلاحظ، بعد الوصول إلى نقطة معينة، تناقص الغلة المادية من 'الحرعات' المتعاقبة من تلك العوامل التي يمكن أن تتغير في المدى - القصير، وإن مفهوم شبه -الريع المارشالى يظهر عندئذ بوصفه النظير الدقيق لمفهوم الريع 'الريكاردى' من الأرض^(٣٧٢).

ثالثاً^(٣٧٣)، إن الجانب من نظرية الريع 'الريكاردية' الذي فُتِنَ أكثر من غيره الاقتصاديين المهتمين بالسياسة policy هو الجانب الذي تعكسه كلمات: فائض Surplus أو متبقى Residual. وإذا تكلمنا بشكل محدد، فإن هذه الكلمات، كما تُطبق على ريع العوامل الطبيعية، كانت قد فقدت معناها في تحليل جيفونس -منجر - فالراس الذي لم يعد بحاجة لتفسير الريع كشيء 'متبقى' قائم بذاته leftover sui generis بل كان قادراً على تفسيره بشكل مباشر ووفقاً لنفس المبدأ الأساسي أسوة بأنواع الدخل الأخرى. بيد أن الاقتصاديين وجدوا حالاً إن بإمكانهم الاحتفاظ بجانب الفائض surplus aspect حتى في هذه الحالة. إذ يمكن تفسير الريع كمبلغ يُدفع مقابل خدمات مستلزم معين للإنتاج، ولكن هذا المبلغ لم يكن ضرورياً للحصول على الخدمة المعنية بينما كان كذلك في حالتى خدمات السلع الرأسمالية والعمل - وهي حقيقة بدت مهمة لقضايا اقتصاد الرفاه وفرض الضرائب. إن مارشال، بتحويله الاهتمام إلى هذا الجانب من الريع، جانب الفائض، يكون قد وضع سابقة

=لكى يمضى على هذه الطريق، كان يتعين عليه إنكار وجود شيء مشترك مع ريكاردو الذى كان من الجوهري بالنسبة لتعاليمه أن يعتقد بأن الريع هو ظاهرة خاصة بالأرض.

(٣٧٢) وبشكل أكثر دقة، أنه يبدو النظير الدقيق لما يسمى بالحالة الثانية من الريع الريكاردى، التي تشير ليس إلى إضافة رأس المال والعمل إلى قطع من الأرض أقل خصوبة أو أكثر بعداً، بل إلى إضافة 'جرعات' متعاقبة من رأس المال والعمل إلى نفس القطع من الأرض. ومع ذلك، تنبغى ملاحظة أن الأهمية الحقيقية لمفهوم شبه -الريع مستقلة تماماً عن تلك المشابهة.

(٣٧٣) أنا لا أنوى أن أضم هنا 'الريوع النفسية' psychological rents التي تنجم عن 'قوانين' تناقص المنفعة الحدية أو تزايد الضرر الحدى. سنقوم فيما بعد بدراسة أحد هذه الريوع وهو ريع المستهلك (انظر الفصل السابع، القسم السادس، والملحق، أدناه). وإضافة إلى ذلك، يمكننا أن نتحدث عن ريع المدخر الذي يمكن اشتقاقه، لو شئنا، من حقيقة إن سلوك المدخرين يمكن أن يوصف من خلال مساواة حدية معينة بين مزايا ادخار أو استهلاك ما قيمته دولار إضافي من الموارد وأنه، لذلك، ثمة ميزة فائضة من الدولارات قبل الحدية intramarginal؛ كما يمكن الحديث عن ريع العامل (ريع المنتج لدى مارشال) الذي يمكن اشتقاقه بصورة مماثلة من الموازنة، عند الحد، بين ساعة أخرى من وقت الفراغ أو العمل مما يتضمن إن هناك ميزة فائضة من ساعات العمل قبل الحدية. إن صحة هذه المفاهيم هي شيء وقيمتها هي شيء آخر. وفي جميع الأحوال، ينبغى عدم خلط هذه 'الريوع' بتلك المرتبطة بـ 'قوانين' الغلة المادية.

للتعبير عن الربيع بالقول إن خدمات العوامل الطبيعية كانت 'مجانبة' costless بمعنى إن المجتمع لا يضطر إلى تحمل 'تكلفة حقيقية' (متاعب العمل disutilities of labour أو الادخار) للحصول على هذه الخدمات^(٣٧٤). ولكننا نكتشف شيئين اثنين حينما نحكم هذا الجانب من الربيع - جانب الفائض غير المكتسب بالعمل.

أولاً، نكتشف، مثلما اكتشفنا من زاوية أخرى سابقاً، إن الربيع المعرف 'كفائض' لا يقتصر على العوامل الطبيعية أكثر من الربيع المعرف كدخل ناجم عن الإنتاجية. فثمة فوائض مماثلة، أى ما يزيد على المدفوعات التى يمكن أن تكون ضرورية للحصول على العروض المعنية من السلع والخدمات، تنتشر فى كل النظام الاقتصادى. فكثير من العمال، وليس فقط نجوم السينما، يتسلمون أكثر من المبلغ الضرورى لتشجيعهم على تقديم ما يقدمونه بالفعل، وأنهم يمكن أن يقدموا، فى حالات عدة، خدمة أكثر لو كان يُدفع لهم أقل لكل وحدة واحدة من الخدمة. وحتى إذا حملنا فرضية المنافسة التامة إلى أبعد ما يمكن دون أن نبعد عن الوقائع بصورة مضحكة، فهناك أوضاع مميزة كثيرة situations of advantage، بعضها قصير الأمد وبعضها لأمد أطول، يتم فيها اكتساب مثل هذه الفوائض. ولا بد من أن تتكرر أكثر مثل هذه الفوائض فى ظل المنافسة الاحتكارية، فضلاً عن الاحتكار المباشر^(٣٧٥). أخيراً، يمكننا أن نضم المكاسب من الأوضاع المميزة التى يخلقها 'التواطؤ' (الندرة المفتعلة) أو الأنماط المؤسسية الخاصة specific^(٣٧٦). ثمة اتجاه

(٣٧٤) سلاحظ القارئ أن هذا أمر مختلف عن القول إن ما يُدفع مقابل مثل هذه الخدمات لا 'يدخل فى سعر المنتجات'.

(٣٧٥) مرة أخرى، سيدرك القارئ الفارق الجوهرى بين تصنيف المكاسب الاحتكارية كفوائض من هذا النوع وتفسير ربيع الأرض كمكسب احتكاري: إذ لا يمت أحدهما بأية صلة إلى الآخر. ولكن أى صعوبة قد يجس بها القارئ لإدراك هذا الأمر إنما تشهد ضد الحكمة من تسمية هذه الفوائض كريع. فهى تشكل حقاً مثلاً نمطياً لخلط غير ضرورى لا يرد إلا لتفضيل مصطلحات اكتسبت دلالات ازدرائية كالريع، مثلاً. ولولا ذلك، لأدركنا حالاً أن المصطلح 'فائض' يودى كل ما هو مطلوب، وأن المصطلح 'ريع' زائد فى هذا السياق.

(٣٧٦) إن القصد من تشديدي على كلمة 'specific' هو إيصال فكرة أن مجرد الإشارة إلى المؤسسات العامة للمجتمع الرأسمالى، كالملكية الخاصة، إنما تغطي فشل اقتصادى ما فى تفسير عائد معين أكثر بكثير مما تقدمه تلك الإشارة من تفسير. وهذا يبين لماذا كان الاقتصاديون المقتدرون فى كل الأزمنة ينظرون بازدراء على الدوام إلى العمل الذى يستعمل عبارة الربيع المؤسسى بصورة عمياء - وهذا أمر يزعج النقاد من نوع معين. ولكن الحالة تختلف طبعاً حينما يمكن البرهنة كلياً على وجود، وطريقة عمل، العوامل المؤسسية الخاصة. وتقدم أمثلة على ذلك تعريفات الحماية (بما فيها الإجراءات التى تتخذها دولنا فى الوقت الحاضر والتى ترقى إلى تعريفات الحماية من حيث النتيجة) وجوانب معينة من تشريع العمل الحديث، وغير ذلك.

أكد نفسه في وقتنا الحاضر لتجميع كل هذه الفوائد تحت عنوان: الربح. ورغم أن هذا العنوان يشمل الدخول الناجمة عن ملكية العوامل الطبيعية، بيد إن هذه الدخول لا تشكل سوى حالة خاصة من الربح بهذا المعنى، حيث لا تمتلك النظرية الخاصة بها إلا شيئاً مشتركاً قليلاً مع نظرية الربح التي تم عرضها في الجزء الأول من هذا القسم الفرعي.

ولكننا، ثانياً، نكتشف أن جزءاً من المكاسب الفائضة قيد المناقشة surplus gains تنقسم إلى فئتين يقوم بينهما اختلاف مهم من ناحية التحليل. تأملُ عاملاً طبيعياً معيناً، متجانساً كلياً في نوعيته، قابلاً للتجزئة بصورة تامة، ويمكن تحويله تماماً بين الاستعمالات المختلفة (الصناعات) التي بوسعه أن يخدمها، ولنفترض سيادة المنافسة التامة في كل مكان. إن كل استعمال من هذه الاستعمالات تحكمه ما أسميناها تكلفة الفرصة البديلة opportunity cost. وعليه، يتعين على مستعملي العامل الإنتاجي أن يدفعوا له عن كل الخدمة التي يقدمها لهم - وهي حالة لا يتحقق فيها فائض من استعمال ذلك العامل^(٣٧٧). وإن مالكي العوامل لن يمكنهم أن يحصلوا، من أي مجموعة من مستعملي هذه العوامل، على أكثر مما يمكنهم الحصول عليه من أي مجموعة أخرى. فهم لن يحصلوا على فائض يتجاوز تكلفة الفرصة البديلة، مع إن مجموع متحصلاتهم يمكن أن يكون، بمعنى آخر، فائض بالنسبة للتكلفة الحقيقية المارشالية^(٣٧٨). ولكن الأمر ليس كذلك في الفئة الأخرى من الحالات. أمل أن لا نحتاج إلى تقديم أمثلة يحصل فيها مالكو مستلزمات الإنتاج، سواء أكانت طبيعية أم لا، على مكاسب فائضة بالنسبة لتكلفة الفرصة البديلة: إذ إن الصعوبات التكنولوجية 'لتحويل الادخارات' إلى أنواع محددة من السلع الرأسمالية تكفي لخلق، لمالكي السلع هذه، مكاسب تتجاوز تكاليف الفرصة البديلة التي هي أيضاً فوائض بالنسبة للتكاليف الحقيقية التي قد لا تكفي حتى المنافسة الحرة تماماً لإزالتها، في المدى القصير على الأقل^(٣٧٩). إن التمييز بين المكاسب الفائضة عن

(٣٧٧) لا يسرى ذلك على الكميات الحدية إذا كان 'الفائض' ما قبل الحدى intramarginal يذهب لتسديد المدفوعات للعوامل الأخرى [كان ج. شومبيتر يشك بهذه الملاحظة والجملة التي تخصها].

(٣٧٨) ينبغي أن يكفي هذا الشرط لدحض أي فكرة حول استعمال تكلفة الفرصة البديلة لأغراض تبريرية.

(٣٧٩) تستوحى صياغة هذه الجملة فقرة ترد في عمل باريتو Cours (المجلد الثاني، الفقرة ٧٤٥ وما بعدها). إن مشاركة باريتو في هذا التقييم لجانب مهم من مفهوم الربح القديم، الذي كسب الشهرة في الأدب الإنجليز-أمريكي، يستحق أن يُذكر رغم الشكوك المحيطة بالتقدم التحليلي المتحقق هنا. لاحظ أن الوقائع التي تتصورها نظرية باريتو للربح هي وقائع غير مهمة. ولكنني لا أجد معنى في=

التكاليف الحقيقية التي هي أيضاً مكاسب فائضة عن تكلفة الفرصة البديلة والمكاسب الفائضة عن التكاليف الحقيقية التي هي ليست مكاسب فائضة عن تكلفة الفرصة البديلة هو أمر مهم إلى حد يكفي لتوصية القارئ به وبخاصة لأن الأولى لا تلعب، والثانية تلعب، دوراً جوهرياً في تخصيص الموارد^(٣٨٠).

(ج) الأجور إن نظرية الأجور القديمة لدى لونغفيلد Longfield وتونن Thunen، التي تقوم على الإنتاجية الحدية، هي الشيء الجديد في ثمانينات وتسعينات القرن التاسع عشر، على الأقل بالنسبة للمنظرين الأساسيين، والشيء المقبول في بقية الفترة وفيما بعدها. إن التعديل الذي أدخله بوهم-باورك، أي إن معدل الأجر الحقيقي، عند التوازن التام والمنافسة التامة، ينبغي أن يساوى الناتج الحدى المخصص للعمل أكثر مما يساوى الناتج الحدى للعمل، قد كسب بعض الأصوات في الولايات المتحدة بعد عام ١٩١٠ لأن تاوسك ألقى بقله لصالحه^(٣٨١).

=تطعيمها بالوقائع المغايرة تماماً التي تصفها نظرية الإنتاجية الحدية بصورة مرضية. ومع ذلك، انظر عمل أحد أنصار بارييتو: (G. Sensini, La teoria della rendita (1912).

(٣٨٠) انظر بشكل خاص: Joan Robinson, The Economics of Imperfect Competition (1933), ch. 8. يمكن اعتبار السيدة روبنسون المرجع الرئيسي حول نظرية الربح 'الجديدة' التي ألقينا عليها نظرة سريعة. حول موضوع هذا القسم الفرعي، ثمة مراجع أربعة نضيفها لتمكين القارئ المهتم من سد الفجوات الكبيرة التي تتخلل خلاصتنا هذه: A. S. Johnson, 'Rent in Modern Economic Theory,' Publications of the American Economic Association, 3rd series, 111, November 1902; B. Samsonoff, Esquisse d'une theorie generale de la rente (1912) وكذلك المساهمات حول ربح الأرض، وبخاصة مساهمة: F. X. Weiss, 'Die Grundrente in System der Nutzwertlehre,' in Wirtschaftstheorie der Gegenwart (111, ed. Hans Mayer, 1928-32); and Gerhard Otte, Das Differentialeinkommen in Lichte der neueren (Forschung 1930) - ويوضح هذا العمل الكثير من النقاط الغامضة ويثبت عَرَضاً خواء مفهوم الربوع التفاضلية، بأقصى فعالية، ذلك لأن الكاتب لم يقصد أن يفعل ذلك.

(٣٨١) يمثل تعديل بوهم-باورك، كما هو حال التعديل المماثل في حالة الربح، مجرد نتيجة لنظريته حول الفائدة. وعليه، فمدى تأثير صحة هذا التعديل بحجة التزامن synchronization لا يمثل قضية منفصلة: ويتم الإجابة عليها بمجرد أن نجيب على موضوع الفائدة. ولكن ثمة قضية أخرى تبرز هنا: إلى أي حد ينبغي تفسير نظرية بوهم-باورك (ونظرية تاوسك) حول الأجور كرد اعتبار لنظرية مخصص الأجور؟ من الممكن حقاً أن نرتب محاججتنا بطريقة معينة تبرز شيئاً قوياً (كان يميل تاوسك إلى إبرازها). كما يمكننا أن نفسر الكثير بهذه الصورة وننسبه إلى ريكاردو وماك كولوخ وج. س. ميل بحيث نجعل منهم 'رواداً'. ومع ذلك، وعلى العموم، فأنا أميل إلى الاعتقاد بأن ذلك يطمس الخطوط الجوهرية لتطور المذهب بدلاً من إبرازها. ففي بنية بوهم-باورك، يلعب 'رأس المال' دوراً مختلفاً جداً بالمقارنة مع دور الأجور ويتضافر مع عناصر كثيرة، لا ييسرها منظرو الأجور، بحيث إن من المربك أكثر مما من المفيد التشديد على الصلة الضعيفة التي لا شك بوجودها. وعلى أي حال، فإذا لم نرضَ بجيفونس وراي Rae كسلف، فينبغي التشديد على الصلة بسنيور وماركس أكثر مما بمنظري مخصص الأجور.

لنا حاجة لأن نتوقف طويلاً لمناقشة نظريات الأجور التي سبقت انتشار تحليل الإنتاجية الحديثة لأن معظمها لم يعن الكثير من ناحية، ولأننا درسنا بالفعل الحد الأدنى الضروري من تلك النظريات من ناحية أخرى^(٣٨٢). يكفي إذن أن نتذكر إن معظم منظري الأجور دأبوا على تصفية نظرية مخصص الأجور - حيث تصور بعضهم عن خطأ أنهم يسجلون بذلك نقطة لصالح العمل - وتصوروا، بالإجماع عملياً، إن الأجور لم تكن تدفع من دخل المستهلكين (جورج، ووكر، سدفيك، برنتانو، وآخرون كثر). ومع أن هذه الحجة تستند، كما نعلم، على سوء فهم لنظرية مخصص الأجور، بيد أن من الضروري أن نلاحظ أنها مهدت الطريق لنظرية الإنتاجية الحديثة حتى وإن كان عن غير قصد حقاً.

(٣٨٢) لقد جرت متابعة مناظرة مخصص الأجور في الفترة المدروسة ضمن عرضنا للموضوع في الجزء الثالث (الفصل السادس، القسم السادس و٦). وبالنسبة لنظرية الأجر الماركسية، انظر الجزء الثالث، الفصل السادس، القسمين الثاني والسادس. يتوافق طبعاً استعمال عنصر قوة المساومة في تفسير الأجور مع استعماله في تفسير 'الربح'. ومع أن منظري الأجور، من غير منظري الإنتاجية الحديثة، أضافوا بعض النقاط المهمة هنا وهناك (فقد درسوا بعناية، مثلاً، العلاقة بين الأجور والساعات من ناحية، وأداء العمال من الناحية الأخرى؛ انظر المساهمة المهمة لـ ل. برنتانو L. Brentano تحت ذلك العنوان، الترجمة الإنجليزية: 1894, *Hours and Wages in Relation to Production*)، بيد أنهم مضوا لمناقشة المشاكل 'الكلاسيكية' في الغالب. ومع ذلك، ثمة عملان أمريكيان حلّقا عالياً: يتمثل أحدهما في عمل ف. أ. ووكر (F. A. Walker, 1876: *Wages Question*) الذي عرض نظرية 'المدعى الأخير' residual-claimant theory. لم تكن الفكرة جديدة تماماً حقاً: إذ كان سنير قد أدركها من حيث الجوهر (Outlines, p. 185 et seq.) ولكن ووكر صاغها ونشرها في كتبه المدرسية المبسطة. إن مقارنتها بريكاردو قد تمثل أفضل وسيلة لعرضها. فريكاردو، كما نعلم، عمد إلى استبعاد الربح من مشكلة السعر لكي لا تتبقى أمامه سوى 'الأرباح' زائداً الأجور. ثم مضى ريكاردو لتحديد الأجور بصورة مستقلة (بمساواتها بالحد الأدنى-الضروري للكفاف) بحيث تبقى الأرباح كمتبقى (هذا ما لم نعوذ إليه نظرية امتناع، وهو أمر لم يفعله كما نعلم). وبالمثل، فقد عمد ووكر إلى تحديد حصص التوزيع الأخرى بصورة مستقلة بحيث لم تتبقى سوى الأجور كمتبقى. وقد أشار الخصوم (مثل تاوسك) إلى إن هذا يتعارض مع حقائق عقد العمل الحديث. ولكن الاعتراض النظري الحاسم يكمن في المنهجية التي تتضمنها مثل هذه النظرية، أي في مجرد محاولة تحديد أي من عناصر نظام معين بصورة مستقلة عن العناصر التي يعتمد بعضها على بعض.

والعمل الثاني هو عمل تاوسك: (Wages and Capital (1896, London School Reprint, 1932). إن هذا العمل يجب أن يُذكر هنا وليس مع المساهمات الأمريكية في نظرية الإنتاجية الحديثة لأن مؤلف هذا العمل لم يكن قد سلّم بعد بهذه النظرية عام ١٨٩٦. وفي الواقع، فإنه لم يكن حتى قد انتبه إليها بقدر تعلق الأمر بكتابه: فليس ثمة ذكر حتى لاسم تونن. إن حق هذا العمل بالأهمية التاريخية يقوم على محاولته، الأصلية إلى حد بعيد، بتطعيم مذهب بوهم-باورك بالنظام 'الكلاسيكي'. ولكن القارئ يوصى بهذا العمل لسبب آخر أيضاً: فالكتاب عمل بارع جرت كتابته بأسلوب من المحاجة النظرية يخرج عن المؤلف بشكل كامل. إن قراءة الكتاب تجعل القارئ، إضافة إلى تعلم الكثير، قادراً على اكتساب فكرة عما كان هذا الأسلوب يشبه في أفضل أحواله.

لنلقى إذن نظرية روتينية، على الأقل، على التقدم الظاهر لهذا التحليل كما جرى تطبيقه على الأجور مهملين كل النقاط الثانوية. يتعين أن نشير أولاً إلى عبارة جيفونس^(٣٨٣) في الفصل الخامس، الأصيل واللامع، من عمله Theory. ومع ذلك، فإن تقديم منجر يضاهي تلك العبارة تماماً، رغم أنه غير كامل أكثر. ومما يُضعف صياغة فالراس الأبكر حقيقة إن معاملات الإنتاج الثابتة لديه، كمثلياتها لدى فيزر، تستبعد إمكانية الأخذ بنظر الاعتبار علاقات الإحلال بين العمل ومستلزمات الإنتاج الأخرى ضمن حدود كل منشأة. وقد أرسى مارشال تحليل الأجور القائم على الإنتاجية الحدية في إنجلترا، محققاً نجاحاً أكثر مما كان يطمح إليه. ولكن لا ينبغي أن ننسى مساهمات إديجورث المختلفة (انظر بشكل خاص مقالته: 'Theory of Distribution' 1904, republished in Papers Relating to Political Economy, vol. 1). ومن بين أمور أخرى، فقد استغل إديجورث catallactics الجديدة لأغراض معالجة حالات خاصة من تحديد الأجر. وتتمثل فكرته الموفقة بشكل خاص في اللجوء إلى نظرية القيم الدولية لتوضيح العلاقة بين أصحاب العمل employers والعمال employees- حيث درسهم على سبيل تشبيههم بدول مختلفة تتاجر فيما بينها- أو بين مجموعات من العمال لا تتنافس فيما بينها. وقد طورَ فيكستد وفيكسل النظرية النمساوية إلى حد بعيد.

كان التطور في الولايات المتحدة مستقلاً كثيراً عن التطور في أوروبا الذي كان يحدث حينذاك. إن نظرية الإنتاجية الحدية، في نسختها المتقدمة جداً التي راعت تماماً علاقات الإحلال بين عوامل الإنتاج، واقتربت من المفهوم الحديث: المعدل الحدى للإحلال، تبرز بصورة جاهزة من ذهن ستوارت وود Stuart Wood الذي ينبغي أن تضمن له مقالاته عن الموضوع مكانته في تاريخ الاقتصاد التحليلي^(٣٨٤): 'A New View of the Theory of Wages' (Quarterly Journal of Economics, October 1888 and July 1889) and 'The Theory of Wages' (Publications of the American Economic Association, 17, 1889). ونشر ج. ب. كلارك، في وقت واحد مع العمل الأخير (في نفس المجلد من أ. Publications)

(٣٨٣) من المهم ملاحظة أن العبارة، رغم ذلك، لا تُدخل أي خصم زمني على الناتج الحدى للعمل.
(٣٨٤) لقد أنصف، ولكن ليس أكثر من إنصاف، البروفيسور ستغلر عمل وود (Stuart Wood and the Marginal Productivity Theory, Quarterly Journal of Economics, August 1947) علماً بأن العبارة المقتطفة في المتن تعود إليه.

نظريته للأجور القائمة على الإنتاجية الحدية: 'The Possibility of a Scientific Law Of Wages'. وظهر فى عام ١٨٩٢ عمل ه. م. ثومبسون H. M. Thompson: Theory of Wages. وقد أدخل تاوسك تعديل بوهم-باورك فى نظرية الأجر الأمريكية وبذلك أنظّم إلى الحديين ('Outlines of a Theory of Wages,' (Proceedings of the American Economic Association, April 1910).

وبالنسبة للعمل المتبقى، سوف اقتصر على ثلاثة أعمال نموذجية تعود إلى وقتنا الحاضر وتقوم كلها على نظرية الإنتاجية الحدية الخاصة بتلك الفترة: العمل الأول يعود إلى ب. ه. دوغلاس: P. H. Douglas, Theory of Wages, 1934 الذى سنشير إليه مرة أخرى باعتباره أحد أجراً المحاولات فى القياس الاقتصادى منذ ايما وقت مضى؛ والعمل الثانى- الذى تضعف نوعاً ما من مزاياه الكبيرة معالجته غير الكافية للأدوات النظرية- هو عمل ج. دبليو. ف. رو: J. W. F. Rowe, Wages in Practice and Theory (1928)؛ والعمل الثالث، الذى يشكل العمل المارشالى الأهم فى هذا الحقل، بقدر تعلق الأمر بالنظرية، هو عمل ج. ر. هيكس: J. R. Hicks, Theory of Wages, 1932. إن هذه المحطات البارزة ستحمل القارئ إلى بداية المناظرات الكينزية.

ونظراً إلى أن معالجة قسم من القضايا الأكثر دقة من الإنتاجية الحدية ينبغي تأجيلها إلى الفصل القادم، فما ذكرناه يشكل حقاً كل ما يلزم قوله فى هذه اللحظة (ومع ذلك، انظر القسم الفرعى حول اقتصاد العمل، أدناه). ولكن بسبب استمرار سوء الفهم حتى يومنا هذا حول طبيعة وأهمية تحليل الإنتاجية الحدية من ناحية تطبيقه المحدد على الأجور، فإن القارئ قد يهمل أو يرحب، تبعاً للحالة نفسها، بالملاحظات التفسيرية التالية، رغم تكرار بعضها.

لنتذكر، أولاً، ما سبق قوله حول الفرق بين نظرية الإنتاجية الحدية لدى لونغفيلد وتونن، وجيفونس ومنجر. إن مفهوم لونغفيلد وتونن هو المفهوم الذى أحياه ستوارت وود والمستعمل على نطاق واسع فى وقتنا الحاضر. فالكتاب المدرسى المتداول يقول ببساطة إن معدل الأجر النقدي لكل نوع من العمل، عند التوازن التام والمنافسة التامة، يساوى الزيادة المادية الحدية فى الناتج، التى تعود إلى الزيادة 'الأخيرة' فى العمل المستخدم (الناتج الحدى للعمل)، مضروبة فى السعر التوازنى للناتج. ولكن هذا المفهوم لم يكن المفهوم الأساسى لدى جيفونس ومنجر،

وكذلك لدى مارشال. فمفهومهم الأساسى هو الزيادة فى الإشباع التى يحصل عليها المستهلكون الفرديون من الزيادة فى الناتج^(٣٨٥). إلا أن النظرية التى تستعمل هذا المفهوم هي نظرية أجور تقوم على عزو (أو تقدير) حقيقى *imputation genuine* وينبغى حقاً تمييزها عن نظريات الإنتاجية الحدية البسيطة التى لا تستعمله. ولكن الائتئين تؤديان إلى نفس النتيجة طبعاً، وإذا أهملنا 'المعانى الأعماق' التى اعتقد جيفونس ومنجر أن نظرية ال *imputation* تكشف عنها، فيمكننا أن نستخلص الصيغة المعتادة لمعدل الأجر التنافسى دون استعمال ذلك المفهوم^(٣٨٦). ولا نحتاج، فى الكثير من الحالات المهمة من نظرية الأجر التطبيقية، حتى الصيغة المعتادة حيث يمكن أن نعالج تحديد معدل الأجر كمسألة عرض وطلب ببساطة. وهذا يفسر لماذا ينبغى أن نضيف الآن اسم فليمينج جنكين *Fleeming Jinkin* إلى قائمة مؤسسى نظرية الأجر الحديثة (الجزء الثالث، الفصل السادس، القسم ٦ و). فهو لم يستعمل سوى جهاز العرض والطلب البسيط - مفترضاً كل الأشياء الأخرى القابعة خلفهما - وكان قادراً، رغم ذلك، على استخلاص نتائج مهمة حول إمكانات السياسة النقابية، مثلاً. ولكن عمله الكبير ينطوى على محدودية مهمة ينبغى ذكرها حالاً، وبخاصة لأنها انتقلت إلى تحليل مارشال للأجور. إن التحليل الذى يستعمل جهاز العرض والطلب البسيط هو تحليل جزئى أساساً، أى أنه يعتبر العوامل التى تحدد جداول الطلب والعرض عوامل معطاة بصورة مستقلة. وكما سنرى، فهذا غير مقبول بالنسبة لعنصر من النظام الاقتصادى مهم جداً مثل العمل ككل. ولتوضيح هذه النقطة، لنأمل للحظة المضمون الأكثر عملية بشكل واضح لهذا الجهاز. فما دمنا

(٣٨٥) إذا رمزنا إلى الإشباع الكلى للمستهلك i ب U_i ، وإلى الكمية التى يستهلكها من السلعة j ب X_{ij} ، وإلى العمل المستخدم فى إنتاجها ب L_i ، فإن المفهوم المعنى تعطيه (L_i / X_{ij}) و (U_i / X_{ij}) . وحينما نستبعد الأشياء الجزئية، فإن هذه المعادلة تمثل تعبير جيفونس الذى يتكرر فى عمل مارشال: *Principles*. ينبغى أن نعيد التشديد على أن المنافع الحدية، إضافة إلى المنتجات المادية الحدية المعنية، هي منافع حدية فردية ومنتجات حدية لمنشآت فردية. وليس هناك أى تقييم اجتماعى من شأنه أن يكثر من مشاكلنا، رغم أن تفسير فيزر وكلارك يوحى بذلك كما يبدو. كما أننا لسنا بحاجة لتناول شئ من قبيل ناتج حدى اجتماعى. وفى الواقع، جرى إدخال هذا المفهوم من قبل البروفيسور بيجو كأداة فى اقتصاده الخاص بالرفاه وناقشه البروفيسور إيدجورث (انظر مقالته: "The Revised Doctrine of Marginal Social Product," *Economic Journal*, March 1925). ولكن هذا المفهوم يمثل نظرية خاصة وضعت لغرض خاص وليس لها مكان فى النظرية التفسيرية للأجور التى نناقش الآن.

(٣٨٦) إن هذه الصيغة المعتادة (الناتج المادى الحدى مضروباً فى السعر التوازنى) لا تسرى طبعاً على أى حالة أخرى غير حالة المنافسة البحتة أو التامة فى جميع أسواق العوامل والمنتجات. انظر الفصل السابع، أدناه.

نتعامل مع جداول طلب وعرض معطاة لا تتغير حينما تتغير معدلات الأجر، فسيكون لدينا إذن بصورة معتادة معدل أجر توازني وحيد بحيث إن أى زيادة فيه تخلق البطالة (أو تزيدها). ومن الناحية العملية، فإن كل اقتصادي الفترة المدروسة يمكن أن يقرروا الاستنتاج الأخير حتى بالنسب لزيادة عامة فى معدلات الأجر^(٣٨٧).

ثانياً، إذ نتذكر ما سبق قوله حول الطابع الأساسى لنظرية الإنتاجية الحدية، دعونا نسأل أنفسنا: إلى أى حد تهىئ هذه النظرية تفسيراً 'سببياً' لمعدلات الأجر. من ناحية، من الواضح أنه لتمكين هذه النظرية من تفسير أى مستوى محدد من الأجور نلاحظه فى أى وقت معين وفى أى مكان معين، فمن الضروري تغذيتها بالوقائع الخاصة بذلك الزمان والمكان؛ وبالتالي فإن هذه الوقائع، كالكميات المتاحة من عوامل الإنتاج المكتملة وليس حدود الإنتاجية margins of productivity، يمكن تسميتها الأسباب الحقيقية أو النهائية لمعدل الأجر هذا. ومن ناحية أخرى، فمن الواضح بنفس الدرجة أن معدلات الأجر، بحكم كونها عناصر فى نظام من كميات يعتمد بعضها على بعض، تتحدد فى وقت واحد سوية مع كل العناصر الأخرى بحيث يتعذر القول حتى فى النظرية البحتة - أى بغض النظر عن وقائع أى حالة محددة - أنها تعتمد على حد ما للإنتاجية كما لو إنه معطى نهائى. ومع ذلك، فهذا هو كل ما يمكن أن يكون مارشال قد قصده حينما كتب قائلاً إن معدلات الأجر تتحدد عند الحد at the margin وليس بواسطة الحد by the margin. بيد إن هذه المحاجة تشبه محاجة مارشال عن المنفعة الحدية - حول الكرات الثلاث المستقرة أمام بعضها بعضاً فى تجويف - وهى تسمح برد مماثل^(٣٨٨). وفى جميع الأحوال، فإن هذه المحاجة لا تقلل من قيمة نظرية الإنتاجية الحدية كأداة لحل مشاكل الأجور^(٣٨٩).

(٣٨٧) تبدو نسخة بوهم-بارك على وجه التحديد كما يلى: إذا كانت هناك حالة توازن، وفرضت زيادة معينة فى معدلات الأجر، فإن 'فترة' أخرى وأطول من الإنتاج تصبح الفترة الأكثر ربحاً؛ وإذا تم تبني هذه الزيادة، فإن مخصص الكفاف الموجود لن يكفى إلا لعدد أقل من العمال؛ مما يجعل البقية عاطلين عن العمل. لاحظ إن هذه المحاجة تتجاوز كثيراً محاجة العرض والطلب البسيطة؛ ولاحظ أيضاً إن الهدف منها هو أن تسرى على زيادة مفروضة فى الأجور فقط وليس على زيادة تنتج عن زيادة فى مخصص الكفاف.

(٣٨٨) نترك صياغة هذا الرد إلى القارئ وذلك كتمرين مفيد.

(٣٨٩) انظر، مثلاً، معالجة مشكلة الحد الأدنى للأجر فى عمل بيجو Pigou: Wealth and Welfare (1912).

ثالثاً، ينبغي على مَنْ يريد استعمال نظرية الإنتاجية الحدية للعمل كأساس تفسيري وكأداة لحل مشاكل الأجر أن يفهمها وأن تكون لديه خبرة بها، طبعاً. وحينما يفشل في تلبية هذه الشروط، فإن المشاكل تتكوم أمامه مما يحمله، بحكم الطبيعة البشرية، إلى تحويل هذه المشاكل إلى اعتراضات عدة، وبخاصة حينما لا يحب هذه النظرية أصلاً وذلك لشكه بوجود كمائن تبريرية^(٣٩٠). ولكن ثمة عذر لهذا الأمر بالنسبة للفترة محل الدرس. فالنظرية ليس فقط لم تتطور بصورة معينة تُظهر فائدتها - كما تبرز مثلاً في عمل هيكس (Theory of Wages 1932) - بل جرت أيضاً صياغتها بصورة معيبة في حالات عدة. فقد كان هناك بعض الاقتصاديين ممن وجدوا صعوبة حتى في التفريق بين الناتج الحدى للعمل marginal product of labour وناتج العمل الحدى product of marginal labour (العمل الأقل كفاءة). بينما ذهب آخرون إلى الاعتقاد، كما يبدو، بأن نظرية الأجور القائمة على الإنتاجية الحدية تنهار حينما تقود زيادة مدخولات الأجر أو تخفيض ساعات العمل إلى زيادة كفاءة العمل^(٣٩١).

رابعاً، وكنتيجة لذلك، فقد استمرت في هذا الحقل معالجة الكثير من مشاكل العمل بواسطة أدوات كانت قد خدمت 'الكلاسيك'. ويسرى هذا بشكل خاص على مشكلة استعمال المكين machinery problem. إذ جرى الاهتمام بهذه المشكلة كثيراً ولكن التحليل يندر أن تخطى الحجج القديمة التى تؤيد أو تعارض 'نظرية التعويض'. ومع ذلك، تهىء هذه المناقشة لموضوع البطالة التكنولوجية technological unemployment، كما كانت هكذا، أحد الأجوبة على التهمة الكينزية القائلة إن منظري تلك الفترة لم يعرفوا عن البطالة سوى البطالة

(٣٩٠) أمل أن لا نحتاج إلى تناول هذا الأمر مرة أخرى. ومع ذلك، فربما ينبغي على أن أضيف أنه لدى غالبية الاقتصاديين الكبيرة ممن يدافعون عن الزيادة في معدلات الأجر النقدية أو يقامون تخفيضها القليل من الخوف من الاعتراف بصحة هذه النظرية. ذلك لأن محاججاتهم ستقوم عموماً على تأكيدات من الواقع لا شأن لها بالنظرية. ولن يعتمد إلا القلة، إن كان هناك أصلاً، إلى اعتناق الحجج التى تتعارض مع النظرية حقاً حينما يتم تقديم الجانب البديهي من هذه الأخيرة في كل حالة خاصة. وعلاوة على ذلك، فإن حقيقة أن جدوى نظرية الإنتاجية الحدية تمثل فرضية حول معدل للأجور من شأنها أن تسود عند التوازن التام والمناقشة التامة تكفى بذاتها لتوضيح المساحة الواسعة من الأرض التى لا تغطيها هذه النظرية.

(٣٩١) لم تصبح نظرية الإحلال، رغم عرض مارشال لها، ملكاً مشاعاً حتى نهاية الفترة. وهذا هو السبب الذى يفسر لماذا تستحق مقالة جارس ج. بولوك Charles G. Bullock أن تسجل كمساهمة كبرى، رغم نواقصها المختلفة: (Quarterly Journal of Economics, August 1902).

‘الاحتكاكية’ frictional: ذلك لأن البطالة التكنولوجية، حتى حينما كانت مؤقتة أساساً، بقدر تعلق الأمر بآثار أى فعل فردى من المكننة mechanization، يمكن بوضوح أن تصبح ظاهرة دائمة عبر تكررها على نحو لا نهاية له^(٣٩٢). سوف نعالج فى الفصل القادم الفرضية النظرية البحتة للتشغيل الكامل ولسنا بحاجة لأن نضيف أى شىء لما سبق قوله عن عرض العمل.

٦- مساهمات الحقول التطبيقية^(٣٩٣)

لاحظنا غير مرة إن اقتصادى الفترة، أو معظمهم، قد عالجوا مشاكل السياسة الاقتصادية، أو معظمها، بروح جديدة. وفى هذا القسم، لن نتوقف عند هذه الواقعة مرة أخرى، بل سوف نبجث عن المساهمات فى مجال التحليل التى نتجت عن اهتمامهم بالقضايا العملية. وفى جميع الأحوال، فإن هذا الاهتمام قد طرح معرفة علمية تجلت فى زيادة سيطرتنا على الوقائع بشكل رئيسى. إن مكاسب الجهاز التحليلى هنا، رغم أنها غير معدومة، بيد إنها كانت أقل مما كان يمكن أن تكون عليه. سنستعرض بإيجاز الحقول الواعدة أكثر (باستثناء النقود والدورات التى تجرى دراستها فى الفصل الثامن).

ولكننا سوف لن نتناول التطورات فى حقل اقتصاد الأعمال (إدارة الأعمال، privatwirtschaftslehre) بما فى ذلك المحاسبة و‘علم التأمين’. لقد جرى التشديد منذ البداية على أنه ليس ثمة سبب لفصل اقتصاد الأعمال عن الاقتصاد العام أفضل من إن غالبية الاقتصاديين اعتادوا، لاعتقادهم بأن من شأنهم العناية بشئون الدول، على اعتبار إن تفاصيل الحياة الاقتصادية للأسر والمنشآت تقع خارج مجالهم

(٣٩٢) نحن أحرار طبعاً فى أن نعرف مفهوم البطالة الاحتكاكية بصورة واسعة جداً بحيث نضمه البطالة التكنولوجية وكذلك الأنواع الأخرى الملاحظة من البطالة - وبشكل رئيسى: البطالة الناجمة عن نواقص المنافسة؛ البطالة الناتجة عن أسباب نقدية؛ والبطالة التى تنشأ عن تقلبات النشاط الاقتصادى أياً كانت أسبابه - ولكن التهمة تفقد قوتها عندئذ، ذلك لأن الاحتكاك، معرّفاً بهذه الصورة، لم يعد بشكل واضح تفسيراً غير كاف للوقائع المشاهدة من البطالة. وبشكل خاص، كان لا ينبغي توجيه التهمة ضد عمل ييجو: Theory of Unemployment (1933). وبالنسبة للفترة المدروسة، انظر بشكل خاص: W. H. Beveridge, Unemployment (1909).
(٣٩٣) [هذا القسم غير كامل ولم يكن مطبوعاً عند وفاة ج. شومبيتر.]

وربما أدنى منه نوعاً ما أيضاً. وفي الواقع، إن هذه المادة أساسية لعمل الاقتصادى بمجرد أن يتجاوز الفرضيات الأكثر تفاهة عن السلوك الفردى، وأن التعاون بين اقتصاد الأعمال والاقتصاد العام يمثل ضرورة أولية لكليهما. ولكن كان هناك، خلال الفترة محل الدرس، القليل جداً من هذا التعاون بحيث إن كل ما يمكننا أن نفعل يتمثل فى تسجيل نتائج استكشافات ممارسة الأعمال التى تولها اقتصاديو الأعمال، التى فشلت فى إلهام الاقتصاديين العموميين مثلما فشلت النظرية الاقتصادية تماماً فى إلهام اقتصاديى الأعمال^(٣٩٤). ومع ذلك، لنلاحظ أن مارشال، بتعامله الواسع مع سلوك رجال الأعمال، قد قدّم سابقة مهمة نحو دمج أجزاء كبيرة من اقتصاد الأعمال والاقتصاد العام، وإن أرفنج فيشر (فى عمله Capital and Income) خطا الخطوة الأولى نحو التنسيق بين عمل الاقتصاديين والمحاسبين^(٣٩٥).

(أ) التجارة الدولية [كان مخططاً كتابة هذا القسم الفرعى، ولكنه لم يُكتب].

(ب) المالية العامة نذكر، من الملاحظات التى قدّمت حول هذا الموضوع فى الفصل الثانى، إن الفترة محل الدرس يمكن وصفها بأنها فترة مريحة مالياً بصورة واضحة- وهذا يأتى كنتيجة لتزايد الثروة والظروف السلمية نسبياً، من ناحية، ونتيجة لتزايد التأثير البرجوازي على الإنفاق العام وفرض الضرائب، من الناحية الأخرى. وعليه، كان الضغط على النشاط الاقتصادى خفيفاً- بل خفيفاً جداً إلى حد يبرر استبعاده من التحليل العام للعوامل المقررة العملية الاقتصادية. كما لاحظنا أنه كانت هناك، فى نهاية الفترة، روح جديدة بدأت تفرض نفسها فى الممارسة السياسية وإن هذه الروح لم تكف عن الانعكاس فى كتابات الاقتصاديين. إذ إن مراجع أكاديمية أساسية، مثل مارشال، ليس فقط شرعوا باستحسان ما كان يعتبر حينذاك ضرائب مباشرة عالية- بما فى ذلك الضرائب على الميراث- بل شرعوا أيضاً بتأييد ما كان يعتبر جريمة كبرى ضد روح مالية غلادستون، أى تأييد السياسة التى تجاوزت فرض الضرائب بقصد تمويل الإيراد إلى فرض ضرائب لغرض تغيير ('تصحيح') توزيع الدخل. ويصلح أدولف فاغنر فى ألمانيا

(٣٩٤) لا شيء يصف الوضع أفضل من حقيقة إن فرضيات أساسية معينة من النظرية الاقتصادية (حول زيادة أو انخفاض التكاليف المتوسطة مثلاً) 'جرى اكتشافها' من قبل اقتصاديى الأعمال أنفسهم.
(٣٩٥) ثمة استجابة مهمة، ولو أنها حدثت فيما بعد، لا بد من ذكرها حالاً وهى عمل البروفسور ج. ب. كاننغ (Economics of Accountancy (1929 : J. B. Canning).

ويبدو في إنجلترا كأمثلة على تلك السياسة. أما الحجة المضادة التي تشير إلى الآثار الضارة المحتملة التي تتركها الضرائب العالية والتصادمية على النشاط وتكوين رأس المال - التي أخذت لدى الجمهور صورة الأوزة التي تبيض ذهباً - فكانت تطرح كثيراً ذلك لأن كل الاقتصاديين البارزين، عملياً، كانوا يؤيدون الادخار بقوة.

لقد انصبَّ جهد تحليلي أكثر على موضوعين قديمين كان من المؤكد أن يستفيدا من النظريات الجديدة. الموضوع الأول هو 'العدالة'. لقد تغيرت طبعاً المسلمات الأخلاقية مع الزمن وأن مبدأ 'القدرة على الدفع' والنظرية الاجتماعية لفرض الضرائب - بما في ذلك، بين أشياء أخرى، التمييز الضريبي: وهذا مصطلح كان يتزايد نطاق شموله - بدأت تكسب الأنصار^(٣٩٦). ولكنني لا أقصد هذه القواعد أو غيرها من قواعد العدالة بذاتها، بل الأعمال التحليلية حقاً التي شجعها الدفاع عن هذه القواعد. قد يكون وقد لا يكون من واجب الاقتصادى أن يضع قواعد؛ ولكن من واجبه بالتأكيد عقلنة قواعد معطاة عن طريق تحليل مضامينها. أما مدى ما كان يمكن عمله ضمن هذا الخط، فهذا أمر يمكننا استنتاجه من حقيقة الإرباك الذى عانى منه اقتصاديون كثيرون حول معنى أفكار معينة كالتضحية المتساوية والمتناسبة والدنيا. فقد تصور البعض (وهذا خطأ ميل أصلاً، كما أعتقد) إن التضحية المتساوية تتضمن التضحية الدنيا؛ بينما تصور آخرون أن 'قانون' تناقص المنفعة الحدية من الدخول يكفى بذاته لاستخلاص الضرائب التصاعدية من قاعدة ما للتضحية المتساوية^(٣٩٧). وقد تم إيضاح هذه القضايا وقضايا أخرى من هذا النوع من قبل عدد من الاقتصاديين، أذكر من بينهم المساهمات البارزة

(٣٩٦) ينبغي أن يرمز عملى. ر. أ. سيليغمان: E. R. A. Seligman, Progressive Taxation in Theory and Practice (2nd ed., 1908) إلى أدب واسع موجود فى كل الأقطار. ولكن لمكانة المؤلف وكذلك لأصالة فكرته حول جعل فرض الضرائب أمراً شبه-طوعى، فأنتنى أذكر أيضاً مقالة فيكسل (1919) (Finanztheoretische Unter-Gerechtigkeit der Besteuerung) التى طورها جزئياً إى. ليندال: E. Lindahl, Gerechtigkeit der Besteuerung (Justice in Taxation), 1919. {العدالة فى فرض الضرائب}.

(٣٩٧) والأمر كذلك حينما تتناقص المنفعة الحدية من الدخل بمعدل أكبر مما تفترضه فرضية دانييل بيرنولى (انظر الجزء الثانى، الفصل السادس، القسم ٣، أعلام). أما إذا تناقصت بمعدل أقل، فإن فرضية التضحية المتساوية فى 'المنفعة' تتطلب أن تدفع الدخول الأعلى نسبة أقل مما تدفعه الدخول الأقل (ولو أنها تمثل مبالغ مطلقة أعلى طبعاً).

لإديجورث وبارون وبيجو (٣٩٨).

والموضوع الثانى هو تحويل وعائدية الضرائب. [لم يكن هذا القسم الفرعى مكتملاً.]

(ج) اقتصاد العمل فى الفصل الثانى، استعرضنا الظروف السياسية فى الفترة المدروسة التى كانت تتجه لأن تقدم دافعاً قوياً لدراسة مشاكل العمل. وفى الفصل الرابع، سجلنا بعض الآثار التى خلقتها السياسة الاجتماعية Sozialpolitik وروح آل Sozialpolitik بدرجة أكبر، على المهنة الاقتصادية. وفى القسم ٥ ج من هذا الفصل، عرضنا المساهمة التى قدمتها النظرية الاقتصادية لاقتصاد العمل. ويتبقى أن نلاحظ بإيجاز الجزء الوصفى أو 'العملى' أو المؤسسى من اقتصاد العمل، الذى لم يرتبط حينذاك بالاقتصاد التحليلى عموماً أفضل مما هو عليه الآن وذلك لنفور الاقتصادى المهتم بالسياسة policy من 'النظرية' (٣٩٩). وبشكل عام، يمكننا أن نقول إن الفترة محل الدرس، من حيث الأساسيات، وضعت أساس اقتصاد العمل الحديث. إن الموضوع لم يكتسب منزلته كحقل تخصصى معترف به بالمعنى الأمريكى الحديث للتعليم وممارسة البحث. ولكنه سيطر على خدمات عدد يتزايد بسرعة من المختصين. كان هؤلاء المختصون يحاولون من حيث الأساس

(٣٩٨) ترد مقالات ف. و. إديجورث حول مشاكل فرض الضرائب، التى تحتل إحداها أهمية أساسية، فى المجلد الثانى من: (Papers Relating to Political Economy (1925). وكالمعتاد يضى عرضه وفقاً لما أستاذان بوصفه كائنقاء كشمش - مثل فرضية إن فرض ضريبة على واحدة من سلعتين مكملتين يمكن أن يودى إلى تخفيض سعر كليهما؛ أو فرضية أن فرض ضريبة على كلتا السلعتين قد يمنح فائدة صافية لمنتج إحدى السلعتين - بحيث إننا نجد صعوبة فى تصور هذا العمل الشامل الذى هو حقاً ذروة الإنجاز فى هذا الحقل فى الفترة محل الدرس. ويمثل عمل بارون E. Barone: Studi di economia finanziaria, 'Giornale degli Economisti, April, May, June and August 1912 بحثاً أكثر شمولاً ويتمتع بقوة وأصالة أعظم، جرت كتابته فى ثلاث دراسات منفصلة. أما مساهمات بيجو المختلفة، فقد جمعت أخيراً فى العمل: A Study in the Public Finance (1928).

(٣٩٩) لا ينبغي تفسير ذلك بمعنى إن الأخطاء كانت كلها من جانب واحد. فقد أظهر اقتصاديو العمل حقاً نفوراً غير معقول من أى شىء يبدو كتنقية تحليلية وشكا غير معقول بالصياغات الغامضة لمنظرى تحليل الأجر. وحاولوا بالفعل أن يجعلوا الأشياء أسهل بالنسبة لهم وذلك بإهمال الحجج النظرية a limine {سلفاً}. ولكن المنظرين أيضاً لم يتناولوا دائماً مشاكل اقتصادى العمل بروح تعاونية صحيحة. فلم يتلهفوا دائماً للاستفادة من وقائع وتوصيات هؤلاء الآخرين لإثراء تحليلهم. وقد تجرأ بعضهم على إهمال حاجة الزميل الآخر a limine شأنهم فى ذلك شأن معظم اقتصادىي العمل. ومع ذلك، وعلى العموم، كانت الدلائل على التعاون والتفاعل الناشئ عن ذلك أقل حضوراً من العكس.

تحقيق الإصلاح العملى للمؤسسات القانونية والممارسة الإدارية، وكانت لديهم أفكارهم الخاصة بهم بشأن معنى 'استخدام العقل للأغراض الإنسانية'. ولكن طريقتهم فى جمع الوقائع وتوصياتهم لم تتخلف عن إفادة الاقتصاد العام. وكمثال على ذلك، خذ تقرير الأقلية الصادر عن لجنة قانون الفقراء الإنجليزى عام ١٩٠٩. لقد علمَ هذا العمل الواعد، الذى هو رد فعل متأخر على البطالة التى سادت فى إنجلترا خلال الفترة ١٨٧٣-١٨٩٨، كثيرًا من الاقتصاديين ممن كانوا بحاجة لدرس مفاده أن البطالة أحيانًا لا تتأثر إلا قليلاً بالعوامل التى يعرفها الباحث ويسيطر عليها: وفى جميع الأحوال، يشكل ذلك التقرير، أو كان ينبغى أن يكون، مادة خام ضرورية كان بوسع الاقتصادى العام أن يمارس عليها قواه التحليلية.

وإضافة إلى ذلك، أخذت الدراسات التاريخية والبحوث عن قضايا العمل بالظهور بكميات متزايدة. وتشكل الدراسات التاريخية التى قدمها بيتر كرسدن وبوب وبوت أو كتاب هر كنر المدرسى أمثلة مألوفة من بين أدب يتزايد بسرعة^(٤٠٠). لقد أعاققت عدم كفاية المواد البحث الإحصائى. ومع ذلك، فقد جرت بعض المحاولات فى كل البلدان^(٤٠١). وكما يعلم كل من قرأ عمل مارشال Principles، فقد أفسحت البحوث العامة مجالاً أكثر وأكثر لاقتصاد العمل وكذلك لجوانبه المؤسسية البحتة. وتوفّق كثيرًا كتاب فون فيليبفج von Philippovich المدرسى على تجربة الكتاب المدرسى السابقة فى هذا المجال. وقد يكون من المناسب أن نختم هذه الملاحظات بالإشارة مرة أخرى إلى العمل الأعظم حول

B. and S. Webb, The Public Organization of the Labour Market (1909) ; and The History of the Trade Unionism (rev. ed., 1920). H. Herkner in Die Arbeiterfrage (1894) .. ونوصى بقوة بمقارنة محتويات وطرق كتاب هر كنر مع محتويات وطرق أى كتاب مدرسى أمريكى حول اقتصاد العمل.

(٤٠١) بالنسبة لإنجلترا، إضافة إلى عرض بوث Booth: Life and the Labour of the People in : انظر: مقالات روبرت غيفن Robert Giffen (London (2 vols., 1889-91 ; 17 vols., 1903 'Progress of the Working Classes in the Last Half Century,' and 'Further Notes on the Progress of the Working Classes in the Last Half Century'. وفى عام ١٨٩٥، بدأت الأعمال الفذة ل. ل. بولى A. L. Bowley حول الأجور الإنجليزية. وقد ظهرت المقالة الأولى من مقالات كثيرة: 'Changes in Average Wages in the United Kingdom between 1880 and 1891' فى: Journal of the Royal Statistical Society, 1895 وللحصول على قائمة كاملة، انظر الفهرست الملحق بعمل بولى: Wages and Incomes in the United Kingdom since 1860 (1937). ومن بين المحاولات الكثيرة التى تحققت فى الولايات المتحدة للتغلب على صعوبات هائلة، أذكر فقط: Scott (1911) Nearing, Wages in the United States, 1908-1910.

اقتصاد العمل منذ اياما وقت مضى، الذى كتبه كاتب كان منظرًا أساسًا وهو عمل البروفيسور بيجو: (Wealth and Welfare (1912) (٤٠٢).

(د) الزراعة [لم تتم كتابة هذا القسم الفرعى الذى كان مخططاً].

(هـ) السكك الحديدية، المرافق العامة، 'الترستات'، الكارتلات. إن العبارات التى استهلكت بها القسم الفرعى الخاص باقتصاد العمل يمكن تكرارها بالكامل تقريبًا لتحديد ما تم إنجازه خلال الفترة المدروسة فى موضوعات الحقوق المرتبطة هذه. وهنا مرة أخرى، فإن من شأن مؤرخ الفكر الاقتصادى أن يلاحظ ليس فقط وجود مشاكل جديدة بل روحًا جديدة فى التعامل مع هذه المشاكل أيضًا. ولكن مؤرخ التحليل الاقتصادى لن يجد ما يكتب عنه سوى القليل باستثناء حصاد غنى من العمل التاريخى و'الوصفى' ما يزال بعضه يحتفظ بأهميته حتى هذا اليوم. وفيما عدا هذا العمل، ينبغى علينا أن نقصر على بضع ملاحظات بسيطة كإطار لموجزنا هذا.

ينبغى على أى نظرية متينة للتكلفة أو السعر أن تكون قادرة على تقديم مساهمات قيمة لاقتصاد السكك الحديدية، ويتعين على اقتصاد السكك الحديدية أن يكون قادرًا على رد الخدمة من خلال تزويد النظرية العامة بأنماط ومشاكل خاصة مهمة. وكما أوضحنا من قبل، فثمة إمكانات كبيرة تكمن فى تعاون الاقتصاديين والمهندسين؛ وإن بعض الحقوق تقدم مثل هذه الإمكانيات بشكل واضح كما يفعل اقتصاد السكك الحديدية. ونجد شيئًا من هذا ولكنه ليس بكثير، مع أن من الممكن العثور على أكثر من ذلك فى المجالات التكنولوجية. وكمثال، أشيرُ إلى عمل ويلهيلم لونهاردت الذى تحرّى ليس تأثير الانحدارات والمنحنيات على تكاليف التشغيل فقط بل قدّم أيضًا نظرية حول أسعار السكك الحديدية التى، بين أشياء أخرى، تضمنت الموضوعة القائلة- والتى تقوم عليها حجته المؤيدة للملكية الحكومية- إن الميزة الاجتماعية من السكك الحديدية تتضاعف حينما لا تكون أسعارها أعلى من التكلفة الحدية- كما ينبغى أن نقول. ويترتب على هذا أن كل

(٤٠٢) يتضمن هذا العمل أساسًا النقاط الرئيسية للعمل السابق للمؤلف: Principles and Methods of (Industrial Peace (1905). وفى عمله: Economics of Welfare، الذى جاء بعد العمل: Wealth and Welfare، ينبغى العثور على اقتصاديات العمل لدى بيجو فى الفصول: ١، ٥، ٧ و ١٣ من الجزء الثانى.

النفقات كان يتعين تمويلها من الإيراد العام للحكومة- وهى الموضوع التى جرت مناقشتها طويلاً فى وقتنا الحاضر بعد أن اكتشفها البروفيسور هوتيلنغ بصورة مستقلة^(٤٠٣). إن هذه الموضوعة أكثر أهمية بكثير من العبارات العامة حول الرغبة فى التأمين أو وضع الضوابط regulation التى كانت تُتشر بغزارة طبعاً.

ومع ذلك، فإن معظم العمل، الذى يشكل عمل لوهاردت مثلاً حوله، قد تم تحقيقه فى فرنسا. يكفى أن نذكر أعمال تيشيسون^(٤٠٤) وبيكارد وكولسون. تمثل التحليلات الوصفية والكتاب المدرسى الصغير لأكورث، أحسن تمثيل، فى نظرى، اقتصاد السكك الحديدية الإنجليزى. ومع ذلك، فإن معالجة البروفيسور بيجو لأسعار السكك الحديدية أكثر نفعاً فى نتائجها ذات الصلة بالاقتصاد العام^(٤٠٥)، وبخاصة بالنسبة لقضية: مبدأ تكلفة الخدمة مقابل مبدأ قيمة الخدمة ('ماذا يقدم النقل'). إن كمية الأعمال الأمريكية حول السكك الحديدية لا تتناسب قط مع نوعيتها مع الأسف. ومن الممكن إثبات وجود زلات تحليلية جدية حتى فى أعمال مهمة تمثل أعمالاً ممتازة من نواح أخرى وأصبح معظمها منسياً تماماً فى الوقت الحاضر. إن كتاب هادلى^(٤٠٦) المدرسى هو واحد من استثناءات ليست كثيرة. ففى

(٤٠٣) W. Launhardt, Die Betriebskosten ger Eisenbahnen.. (1877). ترد الموضوعة المذكورة فى

المتن فى ص ٢٠٣ من عمله: Mathematische Begründung der Volkswirtschaftslehre (1885)، الذى يتبنى، فى مجال النظرية الأساسية، أسس جيفونس وفالراس، مع أنه يتعين علينا أن نقبل بادعاء لوهاردت بأنه اكتشف 'مدخلاً جديداً' بشكل مستقل ما دمنا قد قبلنا بادعاء مماثل لكتاب آخرين. تقدم معالجته عدة نقاط أصيلة تشهد على جدارتها. ولكن استعماله الجامد تقريباً لأشكال خاصة من الدوال- التى يستخدمها للوصول إلى نتائج ذات تعريف مريب- ينبغى درسه وتحسينه وليس شجبه a limine {سلفاً}. كما أننى أضيف عمله: Kommerzielle Trassierung der Verkehrswege (1872). كان هذا المؤلف بروفيسوراً فى المعهد التكنولوجى فى هانوفر. ولا يرد ذكر لاسمه فى Palgrave's Dictionary أو فى Encyclopedia of the Social Sciences.

(٤٠٤) أميل تيشيسون Emile Cheysson. ويحمل كتابه: 'Statistique geometrique,' 1887 عنواناً مضللاً لعمل كان يطفح بأفكار أصيلة. إذ تمثل تكاليف وأسعار السكك الحديدية موضوعاً واحداً فقط من بين موضوعات كثيرة يهتم بها هذا العمل وفقاً للروح الحقيقية لعلم القياس الاقتصادى. وتشير موسوعة العلوم الاجتماعية إلى أنه لم يسهم بشيء جديد فى السوسيولوجيا والاقتصاد. أما عمل أ. م. بيكارد A. M. Picard، فهو: (Traite des chemins de fer 1887)، وعمل س. كولسون S. Colson: Transports et tarifs (1890 ; English trans. 1914).

(٤٠٥) W. M. Acworth, Railways of England (1889), Railways of Scotland (1890) - وهو عمل ما يزال جديراً بالقراءة حتى من زاوية النظرية 'البحتة'؛ وعمله الآخر Elements of Railway Economics (1st ed., 1905). أما مساهمة البروفيسور بيجو، فكانت ضمن إطار عمله: Wealth and Welfare (الجزء الثانى، الفصل الثامن عشر فى: Economics of Welfare).

(٤٠٦) A. T. Hadley, Railway Transportation (1885)

هذا العمل، تُعالج بشكل كاف كل جوانب الموضوع، التاريخية والمؤسسية. وعلاوة على ذلك، يمضى الكتاب وفقاً لمستوى عال من الدقة التحليلية؛ ولن يكون بوسع أحد قط أن يتفوق عليه في المثال الذى ساقه لتوضيح حقيقة أن التمييز يمكنه أن، وفى الغالب سوف، يفيد كل الجهات ذات العلاقة بما فى ذلك الجهة التى يُوضع التمييز ضدها (حالة قريتين تنتجان المحار ولا تتمكنان من تمويل سوق محلى معين به ما لم تدفع واحدة منهما تكاليف شحن أعلى من الأخرى). ومع ذلك، فإن ذلك العمل ينطوى على وضع مختلف نسبياً من التحليل يتجسد فى إن هذه الحالة قد عولجت وكأنها استثناء غريب بدلاً من إدراجها ضمن بنية أكثر عمومية يشكل فيها غياب التمييز حالة خاصة (أو قصوى limiting).

وكما هو شأن السكك الحديد، فإن المرافق العامة أثبتت أنها حقل تطبيقى مهم ومصدر مهم لأنماط خاصة بالنسبة للمنظر. ومع ذلك^(٤٠٧)، فما تحقق كان قليلاً بالمقارنة مع المساهمات الأبرك لدوبو Dupuit^(٤٠٨). ولا تثير المناقشات الأوروبية حول التأمين وتملك البلديات سوى اهتمام قليل من زاويتها. كما ليس هناك نفع يجنيه الجهاز التحليلى لعلم الاقتصاد من تناول المناقشة الأمريكية لضوابط التسعير rate-regulation التى عالجتها مشكلة 'العائد المعقول من القيمة العادلة للملك' الذى رأت المحكمة العليا ضرورة حصول المرافق العامة عليه. تقدم 'النظريات' المختلفة للتقييم لأغراض التأمين، وفرض الضرائب، وضوابط تحديد الأسعار، التى خلقها الفكر القانونى، أمثلة متميزة على الالتباس المنطقى. وقد قدم العديد من الاقتصاديين عملاً مفيداً عند محاولة تصحيحها ويبدو، بعد جهود استغرقت أكثر من نصف قرن، أنهم اقنعوا رجال القانون بأن محاولة تحديد معدل 'معقول' للعائد بالنسبة لقيمة ملك معين ناجم هو نفسه عن عوائد متوقعة تنطوى على تفكير دائرى. ولكن هذا بحد ذاته يكفى لوصف مستوى التحليل الاقتصادى فى هذا الفرع.

(٤٠٧) يمكننى توضيح نوع الشيء الذى كان يتعين على أن أتوقع وجوده بواسطة دراسة مارشال لغاز بوتسبورغ. انظر: A. Smithies, 'Boundaries of the Production Function and the Utility Function,' in *Explorations in Economics* (1936) p. 328 يتضمن بحث مارشال عدداً كبيراً من مقترحات مماثلة لم تقدر حق قدرها قط.

(٤٠٨) انظر، بخاصة، مساهمته اللتين ستتم ملاحظتهما مرة أخرى فى الفصل السابع، أدناه: De la Mesure de l'utilité des travaux publics (1844) and De l'Influence des peages sur (l'utilité des voies de communication (1849).

الفصل السابع^(٢٤٥) تحليل التوازن

- ١- الوحدة الجوهرية للنظرية الاقتصادية خلال الفترة
- ٢- كورنو و 'المدرسة الرياضية': القياس الاقتصادي
(أ) الخدمة التي قدمتها الرياضيات للنظرية الاقتصادية
(ب) مساهمة كورنو
- ٣- مفهوم التوازن
(أ) الستاتيكا، الديناميكا؛ الحالة الراكدة، التطور
(ب) التحديد، التوازن، والاستقرار
- ٤- الفرضية التنافسية ونظرية الاحتكار
(أ) الفرضية التنافسية
(ب) نظرية الاحتكار
(ج) احتكار القلة والاحتكار الثنائي
- ٥- نظرية التخطيط والاقتصاد الاشتراكي

(٢٤٥) [ملاحظة الناشر حول الجزء الرابع، الفصل السابع. رغم إنه جرى التخطيط لهذا الفصل حول تحليل التوازن بعناية منذ البداية، بيد أنه لم يأخذ شكله النهائي عند وفاة ج. شومبيتر. وُجد الفصل بهيئة عدد كبير جدا من أجزاء صغيرة بعضها كان مطبوعاً وبعضها ما يزال مكتوباً باليد. وكانت هناك نسخ بديلة للموضوع الواحد في بعض الحالات. ثمة معالجة موجزة ومبكرة جداً للفصل ككل لم يتم استعمالها لأنني تصورت أنه يجب أن تحل محلها النسخة الأحدث، الأكثر إحكاماً، التي استعملت في النشر هنا. لقد تمت كتابة الأقسام الأربع الأولى منذ فترة طويلة ولكن القسمين الثالث والرابع كانا في طور التنقيح. أما القسمين الأخيرين والملاحظة حول نظرية المنفعة، التي تظهر كملحق لهذا الفصل، فقد كتبت في العامين ١٩٤٨ و ١٩٤٩. لم يكن معظم القسم السابع (نظرية التوازن العام الفالراسية) مطبوعاً بعد. كان القسم الثامن (دالة الإنتاج) والملاحظة حول المنفعة مطبوعين، ولكن ج. شومبيتر يندر أن قرأ الأول ولم تتوافر له فرصة ما لتنقيح الثاني. وبمعنى ما، فإن الأقسام كلها لم تكن في حالة نهائية حيث ترك ج. شومبيتر ملاحظات كتبها بيده تفيد بأنه كان سيُدخل تغييرات على النص ويضيف هوامش حول المراجع. وأشعر بالامتنان الشديد إلى ريجارد م. غودون Richard M. Goodwin الذي كان أول من جمّع لى أجزاء هذا الفصل. وقد عمل، كباحث وكزميل عزيز، مع زوجي حول هذه المشاكل وقد يكون أفضل من أي فرد آخر لأداء هذه المهمة. وقد أخذت بمقترحاته في أكثر الأحيان، ولكنني أضفت مقترحاً أو مقترحين برزا أمامي بعد سفره إلى أوروبا، وأزلت النسخ البديلة والنسخة المبكرة للفصل ككل التي ذكرت في بداية هذا الهامش. ويجد العالم المهتم هذه المادة، سوية مع بقية المخطوطة، في مكتبة هوغتون في جامعة هارفارد.]

٦- التحليل الجزئي

(أ) منحني الطلب المارشالي

(ب) مفاهيم المرونة

(ج) مفاهيم نافعة للتحليل العام

٧- نظرية التوازن العام الفالراسية

(أ) مفهومة فالراس

(ب) نظرية التبادل

(ج) تحديد واستقرار التبادل البسيط

(د) نظرية الإنتاج لدى فالراس

(هـ) إدخال تكوين رأس المال والنقود

٨- دالة الإنتاج

(أ) معنى المفهوم

(ب) تطور المفهوم

(ج) فرضية التجانس من الدرجة الأولى

(د) تزايد الغلة والتوازن

(هـ) ميل الأرباح نحو الزوال

ملحق الفصل السابع

ملاحظة حول نظرية المنفعة

١- التطورات المبكرة

٢- بدايات التطور الحديث

٣- صلتها بالمذهب النفعي

٤- علم النفس ونظرية المنفعة

٥- المنفعة القابلة للقياس

٦- المنفعة الترتيبية

٧- مسلمة الانسجام

٨- اقتصاد الرفاه

١- الوحدة الجوهرية للنظرية الاقتصادية خلال الفترة

استطعنا أن ندرك، حتى بالنسبة للفترة السابقة، وجود مدى واسع من الاتفاق حول أساسيات التحليل الاقتصادي؛ وفي الواقع، استطعنا إدراك وجود نوع من نظام وسطى أو نموذجي من الاقتصاد العام، كانت الانحرافات الكبيرة عنه قليلة. وبالنسبة للفترة محل الدرس، يمكننا أن نؤكد بثقة أكثر أنه كان هناك، حوالى العام ١٩٠٠، محرك معين للتحليل النظرى كانت معالمه الأساسية هى نفسها فى كل مكان، مع أنه لم يكن قد تكون بعد علم اقتصاد موحد. ولابد أن عرضنا فى الفصل السابق كان قد أوضح هذا. ولكن قد يكون من المفيد تناوله مرة أخرى نظرًا إلى الانطباع المختلف الذى نحصل عليه حينما ننظر إلى السطح الحافل بالمشاكل ونظرًا إلى وجود وجهة نظر مختلفة لدى مؤرخين كثير.

لا ينكر أحد أن جيفونس- منجر- فالراس كانوا يعلمون نفس المذهب من حيث الجوهر، رغم الاختلافات الكثيرة فى التفاصيل. ولكن بنى جيفونس ومارشال التحليلية لا تختلف جوهريًا أكثر من اختلاف السقالات عن المسكن الجاهز والمؤثث، وإن الملاحظة الحادية والعشرين من ملحق عمل مارشال Principles تشكل برهانًا حاسمًا على التشابه الأساسى بين نماذجه ونماذج فالراس. إن صراحة فيكسل الأسرة تكشف قطبى دعامته حتى للنظرة الأكثر روتينية: فالراس من ناحية، وبوهم-باورك من الناحية الأخرى. ويجسد مخطط ج. ب. كلارك أساسًا، مهما فهمناه كعمل مستقل، نفس الأسس التى جسدها كتاب مارشال السادس؛ وأن باريتو وفيشر قد طورًا فالراس. ومن الناحية العملية، فإن هؤلاء الكتاب يغطون، بقدر تعلق الأمر بالنظرية المهنية، كل ما يمكننا أن نسميه العمل الأولى فى النظرية العامة خلال الفترة المدروسة؛ وإن التعاليم المرتبطة بهم، كما تبين فى الفصلين السابقين، قد شكلت عمليًا كل العمل الثانوى أو المشتق خلال الفترة، باستثناء عمل الماركسيين.

فلماذا، إذن، تبدو بنى هؤلاء الكتاب مختلفة إلى هذا الحد؟ ولماذا، رغم ذلك، ينكر العديد منا، ممن يبصر التشابه الأساسى فيما بينهم، الوحدة

الجوهرية، لعلم لاقتصاد العام' خلال الفترة؟ إن الجواب على السؤال الأول هو كما يلي: لأن هناك الكثير من الاختلافات في التكنيك، وفي التفاصيل، وفي وجهات النظر حول المشاكل الفردية، ولأن القادة والأتباع معًا بالغوا في التشديد على هذه الاختلافات أيضًا. انصبّت الاختلافات الأكثر أهمية على استعمال، أو رفض استعمال، التفاضل وأنظمة المعادلات الآتية: إذ بدت نفس 'النظرية'، وهي ترتدى هذا الرداء، مختلفة تمامًا عما تكون عليه من دونه- وبخاصة لغير المطلعين على التفاضل. وتشكل المناظرة حول 'التكلفة الحقيقية' (انظر الفصل السادس، القسم الرابع، أعلاه) مثالاً على الاختلافات في التفاصيل وعلى الميل للمبالغة في التشديد عليها في الوقت نفسه. أما الأمثلة على الاختلافات في وجهات النظر حول المشاكل الفردية، فتبرز في نظرية رأس المال والمواقف المختلفة من التحليل الجزئي (انظر القسم السادس، أدناه) الذي أحكمه مارشال وساعدَ باريتو على احتقاره^(٢٤٦). ولكن الاختلافات من هذا النوع- والمناظرات المضادة الناشئة عنها- هي اختلافات طبيعية جداً في حياة كل حقل من حقول المعرفة: وإذا تركنا هذه الاختلافات تطمس التشابه في الأساسيات، فلن يكون بوسعنا قط أن نتحدث عن العلماء الأكاديميين كمجموعة كانت موحدة في طرقها واستنتاجاتها الأساسية؛ وقد لا نقدر على التحدث حتى عن مدرسة ماركسية.

أما بالنسبة للسؤال الثاني، فينبغي أن نتذكر إن فرضيتنا حول الوحدة الجوهرية لا تسرى على الجزء الأول من هذه الفترة ولكن على الوضع الكلاسيكي

(٢٤٦) يشكل مارشال وباريتو- والثاني يفعل الأمر ليس فقط بالنسبة 'للاقتصاديين الأدبيين' بل بالنسبة لفالراس أيضاً- أمثلة جيدة على المبالغة في التشديد على مسائل الاختلاف النسبي، التي خلقت الانطباع بوجود 'أنظمة' مختلفة جوهرياً ليس لدى الفرد العادي فحسب. ولكن كاسل Cassel هو المثال الأبرز: فالخطوط الأساسية لبنيته التحليلية فالراسية. ولكنه، في الطبقات اللاحقة من عمله: Theoretische Sozialökonomie (Theory of Social Economy, 1st German ed. 1918 ; 4th ed. rev., 1927 ; English trans. 1923 and 1932) لم يذكر حتى اسم فالراس. وفي مقالته الأولى حول النظرية العامة ('Grundriss einer elementaren Preislehre,' Zeitschrift für die gesamte Staatswissenschaft, 1899)، طرح كاسل نسخة مبسطة من نظام فالراس ادعى أنها تتطوّر على شيء جوهرى جديد على أساس إنها استبعدت نظرية القيمة القائمة على المنفعة الحدية، مع أنها حافظت، باستخدام مصطلحات مختلفة، على كل ما هو أساسى فيها. وقد تم قبول هذا الادعاء على نطاق واسع!

Classic Situation الذى نشأ حوالى العام ١٩٠٠. وقبل ذلك، لم يكن هناك، طبعاً، اتفاق أكثر بين الاقتصاديين الأساسيين، بل اتفاق أقل مما كان عليه الحال حوالى العام ١٨٥٠. لقد تلقى معظم المنظّرون النظام الذى أسسه جيفونس-منجر-فالراس فى سبعينيات وثمانينيات القرن التاسع عشر ووجدَ شكله الكلاسيكى فى عمل مارشال (1890) Principles كشيء جديد وغير مألوف. وفى الواقع، فلا شيء يثبت بصورة مقنعة، رغم وجود الرواد، إن ذلك النظام كان شيئاً جديداً حقاً كما تثبته المقاومة الشديدة التى قوبل بها. وبينما كانت المعركة دائرة ويتم اكتساب الأنصار الفرديين هنا وهناك، فإن اقتصاد ميل- ونحن نختار ميل كممثل مرة أخرى- كان قائماً فى الساحة، مضيئاً سبباً آخر للشقاق الذى شطّر الاقتصاديين فى نهاية الفترة السابقة. وهذا يفسر أيضاً حقيقة أن المترددين، الذين تمسكوا بالمذاهب القديمة حتى بعد انتصار المذاهب الجديدة إلى حد بعيد، كانوا أكثر عدداً واحتراماً مما كان سيكون عليه الأمر لو أن التغييرات كانت أقل 'ثورية'. وهكذا، فإن عينة عشوائية من الاقتصاديين- أو حتى من المنظّرين- من شأنها أن تدحض الفرضية التى نقدمها هنا. ولكن كان هناك، إضافة إلى ذلك، عدد كبير من 'الغريباء' outsiders، أى من الكتاب الذين ناصرُوا أنظمة نظرية خاصة بهم وأدانوا النظرية المهنية دون الاهتمام بدرسها وفهمها. وأخيراً، كان هناك شيء آخر. ففى ذلك الوقت، كما هو الحال دائماً، انشغلت غالبية من الاقتصاديين بدرس الوقائع والمشاكل العملية فى الأقسام المختلفة من السياسة العامة. إن هذه الغالبية، التى عززتها المجموعات التاريخية والمؤسسية، لم تجد سوى فائدة ضئيلة فى 'النظرية' ولم ترحب بنوع جديد منها. ولم يقبل هؤلاء الاقتصاديون تلك النظرية قط كأداة فى البحث بل نظروا إلى 'المبدأ الحدى' marginalism كنوع من فلسفة تأملية أو كطائفة جديدة 'sectarian' ism وجدوا أن من واجبهم تصفيتها بالضبط بواسطة ما اعتبروا أنه البحث العلمى والواقعى حقاً (انظر الفصل الرابع، أعلاه). وعليه، فقد مررُوا، من خلال تصريحاتهم المنهجية والبرنامجية، كل أحكامهم القيمة الكاسحة بشأنها. ومن حيث الظاهر، فإن النتيجة كانت هرجاً ومرجاً، وبخاصة فى ألمانيا والولايات المتحدة، أى مزيجاً من أصوات متنافرة تشهد كلها على وجود مأزق معين. ولكن

ينبغي على القارئ أن يحاول أن يفهم كم أن هذا الأمر كان طبيعياً جداً، من ناحية، وأنه لم يكن يعنى ما كان يبدو أنه يعنيه، من الناحية الأخرى^(٢٤٧). فلم يكن هناك أى مازق خلف السطح الحافل بالمشاكل.

٢- كورنو والمدرسة الرياضية: القياس الاقتصادي

إن هذه الفترة هي التي شهدت ما يتعذر تجنبه: حيث شرعت الطرق الرياضية فى المحاجة تلعب دوراً مهماً، بل حاسماً، فى النظرية البحتة لعلمنا. إن الصياغات العددية أو الجبرية والحسابات العددية كانت قد حدثت فى المراحل المبكرة من التحليل الاقتصادى، طبعاً: إذ كان هناك علماء الحساب السياسى، والفزيوقراط، وكتاب منفردون كثر مثل برسكو Briscoe، كيفا Ceva، ه. لويدي H. Lloyd، كونديلاك، كنا مررنا بهم فى مواضعهم، أو الكاتين الذى أنقذهما من النسيان ر. أ. سيليجمان E. R. A. Seligman^(٢٤٨). ولكن استعمال الأرقام- حيث استعمل ريكاردو التوضيحات العددية بصورة واسعة- أو استعمال الصيغ- كما نجدها لدى ماركس- بل وحتى إعادة وضع نتيجة معينة، تم التوصل إليها من محاجة غير-رياضية، فى صيغة جبرية لا تشكل اقتصاداً رياضياً: إذ إن العنصر المتميز لا يرد إلا حينما تكون المحاجة نفسها، التى تقود إلى النتيجة، محاجة رياضية بشكل صريح^(٢٤٩). ومع ذلك، فأنا لا أعرف عن هذا الأمر سوى ثلاث

(٢٤٧) إن حقيقة أن النظرية الاقتصادية ليست سوى محرك تحليل لم تكن مفهومة إلا قليلاً فى كل مكان، وأن المنظرين أنفسهم، حينذاك كما هم الآن، قد طمسوها عبر رحلات الهواة التى كانوا يقومون بها فى عالم القضايا العملية. ولكن مارشال شدد على تلك الحقيقة فى كتابه الذى دشن به عمله فى جامعة كامبريدج (‘The Present Position of Economics’ 1885) حيث صاغ العبارة الشهيرة القائلة إن النظرية الاقتصادية لا تمثل حقيقة مطلقة بل ‘أداة ذات سريان عام تستخدم لاكتشاف طائفة معينة من الحقائق’.

(٢٤٨) Essays in Economics (1925), pp. 82-3. كان أحدهما يحمل اسماً مستعاراً: E. R. ، الذى، فى عمله: (Essay on Some General Principles of Political Economy 1822)، استعمل الجبر حينما عالج موضوع عائدات الضرائب؛ والكاتب الثانى هو صامويل غال: Samuel Gale, An (Essay on the Nature and Principles of Public Credit 1784-6)

(٢٤٩) ولذلك، لا تظهر هنا أعمال ن. ف. كانارد N. F. Canard (Principles d’economie politique, 1801) وويليم ويول William Whewell (Mathematical Exposition of Some Doctrines of ‘Political Economy’ Cambridge Philosophical Transactions, 1829, 1831, and 1850). ومع ذلك، فربما كان ينبغي معاملة ويول كحالة وسيطة- فهو لا يستحق قط ملاحظة جيفونس التى تحط منه.

حالات تستيق فون تونن وكورنو: د. بيرنولى D. Bernoli وبيكاريا، واسنارد Isnard إذا أولينا اهتماماً كافياً لمجرد وجود تلميح إلى نظام ما للتوازن^(٢٥٠). وقد يرحب القارئ غير-الرياضي أن نحاول بدقة أكثر تحديد الخدمة التي قدمتها الرياضيات للمنظرين الاقتصاديين خلال الفترة المدروسة.

[أ] الخدمة التي قدمتها الرياضيات للنظرية الاقتصادية] سنتناول بعد قليل الخدمات التي قدمتها الرياضيات في معالجة المادة الإحصائية. أما الآن، فنهتم باستعمال الرياضيات في التحليل النظري الذي هو كمي quantitative ولكن غير عددي numerical. وهنا، فإن الفرد العادي، حينما يسمع باستعمال الرياضيات في الاقتصاد، يفكر بالعمليات التكنيكية أساساً ('الحسابات' calculations) التي تتضمن استعمال رياضيات 'عالية'، أى الأشياء التي ترد في المراحل المتقدمة من الجبر والهندسة التحليلية التي يتلقاها طلبة الكلية والتي لا تكون بالتالي في متناول الفرد غير-الرياضي. صحيح تماماً أن طرقاً متقدمة حقاً قد فرضت نفسها بشكل متزايد على الاقتصاديين خلال (ما يزيد قليلاً على) الربع الأخير من القرن، وهى طرق يمكن أن يقول عنها الرياضيون المهنيون أنها أما 'صعبة' أو 'خاصة' جداً. ومع ذلك، فإن الأمر لم يكن كذلك حتى عام ١٩١٤، وأن الدراسات القليلة جداً التى ظهرت قبل ذلك التاريخ لم تتطلب من قرائها - وحتى من مؤلفيها - أى كفاءة فى الرياضيات التكنيكية. فما كان مطلوباً، فيما عدا أوليات الجبر والهندسة التحليلية، هو معرفة التفاضل calculus: بل وحتى هذا الأخير، كان المطلوب منه هو الأفكار العامة أو المنطق وليس الأساليب الأصعب كالتكامل، مثلاً. وكان بارون Barone على حق تماماً حينما أكد عام ١٩٠٨ على أن الرياضيات، رغم إنها أصبحت ضرورية إلى حد يتعذر على النظرية أن تستغنى عنها، بيد أن كل فرد عادى كان قد تلقى تعليمه بشكل عادى بوسعه اكتساب ما هو ضرورى منها بعمل إضافى لمدة ستة شهور.

(٢٥٠) حول تونن Thunen، انظر الجزء الثالث، الفصل الرابع، القسم الأول، أعلاه؛ د. بيرنولى: الجزء الثانى، الفصل السادس، القسم الثالث، أعلاه؛ بيكاريا Beccaria: الجزء الثانى، الفصل الثالث، القسم ٤، أعلاه؛ اسنارد: الجزء الثانى، الفصل السادس، القسم الثالث، أعلاه. إن ثبوت المراجع التى وضعها جيفونس (فى ملحق عمله Theory) وأرفنج فيشر (فى ملحق الترجمة الإنجليزية من عمل كورنو Recherches) غير كاملة تماماً ولكنها، من الناحية الأخرى، تتضمن الكثير جداً، فهى تدرج كل كتابة معروفة لديهما حتى لو كانت تتضمن رمزاً واحداً.

من الممكن التعبير عن منطق الـ calculus من خلال عدد صغير من المفاهيم كالمتغيرات، الدوال، الحدود، الاستمرارية، المشتقات والتفاضلات derivatives and differentials، والنهايات القصوى والدنيا. إن اكتساب المعرفة بهذه المفاهيم - وبأفكار معينة كأنظمة المعادلات والتحديد determinateness والاستقرار، وهى كلها تسمح بتفسيرات بسيطة - تغيّر الموقف الكلى للمرء من المشاكل التى تنتج عن المخططات النظرية للعلاقات الكمية بين الأشياء: حيث تكتسب المشاكل وضوحاً جديداً new definiteness؛ كما تبرز بوضوح النقاط التى عندها تفقد هذه المشاكل الوضوح definitenes؛ وتظهر طرق جديدة للبرهان والدحض؛ ويمكن استخلاص الحد الأقصى من الفائدة من الشيء القليل الذى نعرفه عن العلاقات بين متغيراتها؛ ويتخلص تلقائياً منطق الأشياء متناهية الصغر infinitesimals من السجلات الكثيرة التى تعوق عجلات التقدم التحليلى لولا مساعدة ذلك المنطق^(٢٥١). ولو كان لدينا مجال كاف، لبينا بشكل واضح أن قسماً كبيراً من السجلات فى تلك الفترة كانت ببساطة تتألف من سجلات بين كُتاب تنقصهم وسيلة قوية للتفكير وكتاب لديهم هذه الوسيلة. وقد قدمنا، رغم ذلك، بعض الأمثلة فى الفصل السابق، وسترد أمثلة أخرى فى هذا الفصل.

ونظراً إلى إن هذا النوع من الخدمة لا يتمثل إلا بشحد حافات أدواتنا التحليلية وبالتالي لا يتضمن بالضرورة حسابات محكمة، فإن معرفة المرء بالرياضيات لا تتجلى بالضرورة على سطح محاجة ما: فالنظرية الرياضية ليست مجرد ترجمة لنظرية غير-رياضية إلى لغة الرموز، بل يمكن ترجمة نتائجها إلى لغة غير-رياضية بشكل عام. وهذا هو السبب الذى يفسر لماذا لم تدرك قط غالبية الاقتصاديين غير-الرياضيين المدى الكامل لفضل الأقلية الرياضية منهم عليهم: فالمنظر النمطى لم يدرك قط، مثلاً، أنه لم يفهم مارشال كلياً الذى كان حريصاً على استبعاد علمه الرياضى عن سطح محاجته. وهكذا وجدت هذه الغالبية أن من السهل النظر إلى الاقتصاديين الرياضيين، الذين كانوا يتباهون بالفعل بعلمهم الرياضى، كطائفة أو 'مدرسة' خاصة لم يكن لها أى أهمية خاصة بالنسبة للمهنة بشكل عام. ولكن الاقتصاديين الرياضيين لا يشكلون مدرسة بأى معنى معقول لهذا

(٢٥١) فيقدر تعلق الأمر بالأساليب، فإن النظريات 'الجديدة' للقيمة والتوزيع ليست سوى اكتشاف الـ calculus للاقتصاد - الأمر الذى يكفى بحد ذاته لتوضيح عدم معقولية أى معارضة 'للمبدأ الحدى' كقضية مبدأ.

المصطلح مثلما لا يشكل مدرسة ما الاقتصاديون الذين يقرعون بالإيطالية: فكل الاختلافات في الرأي التي يُتصور وجودها بين الاقتصاديين أصلاً، يمكن وجودها، وهي توجد بالفعل، بين الاقتصاديين ذوي التعليم الرياضي. وأن مساهمة هؤلاء الآخرين في البنية التحليلية السائدة خلال الفترة كانت أكبر بكثير مما يدركها الناس حتى في وقتنا الحاضر. لنَرَ. ففي القسم السابق، ربطنا تلك البنية بتسعة كُتاب: جيفونس، منجر، فالراس، مارشال، فيكسل، بوهم-باورك، كلارك، باريتو، فيشر. وهذا يعنى وجود ستة اقتصاديين رياضيين مقابل ثلاثة من غير الرياضيين. وحينما نضيف، كما ينبغي أن نفعل، فون تونن، كورنو، دوبو، وغوسن، فيصبح لدينا عشرة مقابل ثلاثة. وليس من شأن الوضع أن يتغير لو تصورنا أن هناك حلقة أوسع من الاقتصاديين كانت تكتب أو شرعت بالكتابة قبل العام ١٩١٤ ذلك لأن هذا الأمر يمكن أن يضيف ف. جنكن F. Jenkin، إديجورث، أوزبتز Auspitz وليبن Lieben، بيجو، مور، بولى Bowley، كاسل Cassel، وبانتليونى Pantaleoni، وغيرهم ممن يصعب على معسكر الاقتصاديين غير-الرياضيين مجاراتهم، بقدر تعلق الأمر بالعمل المرموق: وهذا درس يمكن أن يتأمله القارئ غير-الرياضي لهذه الصفحات، وبخاصة إذا كان شاباً^(٢٥٢).

ولكن ما دامت أساسيات نظريتي المنفعة الحدية والإنتاجية الحدية قد تطورت أيضاً على أيدي كُتاب كانوا غرباء تماماً على الرياضيات 'العالية'، فقد كان من الطبيعي بالنسبة لهؤلاء وبالنسبة للغالبية غير-الرياضية من الاقتصاديين المهنيين أن يعتقدوا بأن المحاجة الرياضية في الاقتصاد لم تضيف شيئاً لما كان يمكن تحقيقه من دونها، ربما باستثناء بضع تكتيكات لا جدوى منها. لقد كان من السهل جداً بالنسبة لهم تبني وجهة-النظر هذه لأنهم لم يعوا نواقص أعمالهم نفسها: على العكس؛ فقد جعلوا من هذه النواقص مزايا في حالات كثيرة لها بعض

(٢٥٢) ثمة اختلاف واسع في المهارات الرياضية للكُتاب الذين تم ذكرهم. فإذا اقتصرنا على الستة الأول منهم، نجد إن جيفونس كان يعرف القليل جداً من الرياضيات- أقل بكثير مما كان سيكون من الملائم له أن يعرف. وكان لدى فالراس ومارشال وفكسل تعليم رياضي منظم، حيث كان مارشال يعرف من الرياضيات أكثر مما كان يبيده منها، وكان لدى فالراس أقل مما يحتاجه منها. أما باريتو وفشر، فكانا رياضيين بارعين. إن الاختلافات من هذا النوع ما تزال قائمة حتى في وقتنا الحاضر. ولكن الاختلافات في القابلية الطبيعية كانت وما تزال ليست أقل أهمية من الاختلافات في التعليم: فبوهم-باورك لم يتلق تعليماً رياضياً ولكنه، كريكاردو، كان موهوباً.

الأهمية^(٢٥٣). وهكذا نفهم أن الكتاب الذين كانوا، حوالى العام ١٩٠٠ أو حتى بعد ذلك، فى وضع قيادى أو مؤثر - وهذا يعنى أنهم فى أواسط عمرهم أو أكثر منه - لم يواجهوا صعوبة فى إعفاء أنفسهم من تعلم ما وجدوه تكتيكاً صعباً وغير مألوف وقد لا تكون له سوى أهمية ضئيلة، رغم كل شيء. كما أن من المفهوم بدرجة ليست أقل أنهم برروا هذا الموقف ودافعوا عنه بعدد من الحجج المنهجية من قبيل إن محاولة تطبيق الرياضيات، وهى أداة الفيزياء، على العلوم الاجتماعية هو خطأ من حيث المبدأ المنطقى، وحجج أخرى من نفس النوع لا تستحق أن نتناولها لغاية هذه اللحظة^(٢٥٤). لقد اندثرت محاولات التبرير هذه، مع إن الموقف نفسه لم يندثر. ولكن الحركة كسبت خلال الفترة قوة تكفى لخلق لتلك العلامة المهمة على النجاح: ظهور حصيلة صغيرة من العمل المشتق derivative - التفسيرى والتمهيدى^(٢٥٥). ومن العلامات غير المشجعة، نلاحظ التجاهل وحتى العداء الذى أبداه رياضيون بارزون^(٢٥٦) وحقيقة أنه كان هناك اقتصاديون بارعون فى الرياضيات ولكن

(٢٥٣) والمثال الطريف على هذا النوع يعكسه اعتقاد ساد فى الحلقة النمساوية مفاده أن النظرية النمساوية غير - الرياضية قد قُدمت تفسيرات 'سببية' لظاهرة السعر فى حين إن نظرية السعر 'الدالية' فقط لدى فالراس لم تفسر سوى العلاقات بين الأسعار، متصورة أن هذه العلاقات ناتت مفهومة حقاً. إن بناء حلقات سببية بين المنفعة والتكلفة والأسعار، التى كانت تعنى الفشل فى أعين مارشال كما رأينا سابقاً، كانت تعنى لدى النمساويين تقديم نظرية مختلفة - وأرفع - بكل بساطة.

(٢٥٤) إن المثال على 'الطريقة الرياضية فى الاقتصاد السياسى'، بدءاً من تلك الفترة، قُدمه إديجورث تحت ذلك العنوان فى قاموس بالغراف Palgrave's Dictionary، وأرفنج فيشر فى ملحق عمله Mathematical Investigations in the Theory of Value and Prices، حيث يجد القارئ أيضاً مجموعة من الحجج المؤيدة والمعارضة، يعكس بعضها المواقف السائدة على نحو جيد. ولكن الحجة الأقدم، وربما الأفضل فى إيجازها، من بين كل الحجج المؤيدة للطريقة 'الرياضية' - وهى حجج تقتزن فعلاً بالشكوى من إن استعمالها هو 'لعنة' على الاقتصاديين - ينهى العثور عليها فى عمل دوبو: (De la Mesure de l'utilite des travaux publics 1844) الذى أعيد نشره، سوية مع أعمال أخرى كتبها دوبو، فى: Dupuit, De l'utilite et des la mesure Jules (الذى نشره م. دى بيرناردى M. de Bernardi عام ١٩٢٣).

(٢٥٥) إن النص الأقدم، بقدر ما أعلم، هو عمل دبليو. لونهاردت: W. Launhardt, Mathematische Begründung der Volkswirtschaftslehre (1885) الذى علم مذاهب جيفونس وفالراس وكذلك بعض النتائج الأصلية للكاتب، وبخاصة عن النقل (انظر الفصل الخامس، القسم الرابع، أعلاه). وقد ظهر عام ١٩٠٤ عمل ه. غونغهام: H. Cunyngame, Geometrical Political Economy، وعام ١٩١٣ عمل أ. أوسوريو: TA. Osorio, Theorie mathematique de l'echange؛ وعام ١٩١٤ عمل دبليو. زاوادمسكى: W. Zawadski, Les Mathematiques appliquees a l'economie politique وعام ١٩١٥ عمل ج. مور: J. Moret, L'Empoli des mathematique en economie politique. ثمة أعمال أخرى ولكن لا نظير لعمل بولى Bowley: Mathematical Groundwork (see ch. 5, sec. 1) الذى ظهر أوائل العام ١٩٢٤.

(٢٥٦) المثال الأبرز هو هجوم ج. بيرتراند J. Bertrand على هذا الفرع الناشئ من العلوم 'الرياضية' =

موقفهم لم يكن ودياً من 'الاقتصاد الرياضى': ويمثل ليكسس Lexis المثال الأبرز. سبق أن ذكرنا بعض الأعمال فى هذا الحقل التى تعود إلى الفترة السابقة من حيث الزمن. ولكننا أرجأنا دراسة العمل الأعظم بينها، عمل كورنو، إلى هذه اللحظة لأنه اكتسب أهمية واحدة خلال الفترة محل الدرس بعد أن تعرض إلى الإهمال الكامل قبل ذلك.

[(ب) مساهمة كورنو] بعد سيرة ناجحة فى Ecole Normale Supérieure (معهد المعلمين)، عمل أنتونيو أوغسطين كورنو Antoine Augustin Cournot (١٨٠١-١٨٧٧)^(٢٥٧) كمعلم أكاديمي وكمدبر بصورة لا تقل نجاحاً: فقد تم تعيينه كبروفيسور للتحليل والميكانيكا فى ليون (١٨٣٤)؛ ومديراً لأكاديمية (جامعة) غرنوبل (١٨٣٥)؛ ومشرفاً عاماً على الدراسات (١٨٣٨)؛ ومديراً لأكاديمية (جامعة) ديون (١٨٥٤). وأنا أشيرُ إلى هذه الوقائع التى كان يمكن أن لا تكون

= وذلك فى مجلة: Journal des Savants, September 1883. وقد تم تلقف هذا الهموم، كما لو أنه لعنة أبوية، من قبل أناس لم يفهموا الرياضيات أو النظرية الاقتصادية وأخذ بالتأني من الاهتمام أكثر مما يستحق. ومع أن بعض انتقادات بيرتراند كانت مبررة تماماً، بيد أن معظمها كان أقل جدية مما تصور هو وذلك، جزئياً، لأنه لم يكن على معرفة كافية بعلم الاقتصاد المعنى.

(٢٥٧) قِيمَ كثيرون عمل كورنو الاقتصادى، ومن بينهم إديجورث (المقالة: Cournot* فى: Palgrave's Dictionary)؛ كما جرى التعليق على كل من الكاتب وعمله فى حقل الاقتصاد فى الأوقات الأخيرة مرات عدة. انظر بشكل خاص: H. L. Moore, 'The Personality of Antoine Augustin Cournot,' Quarterly Journal of Economics, May 1905 ; Rene Roy, 'Cournot et l'ecole mathematique,' Econometrica January 1933 ; and 'L'oeuvre economique d'Augustin Cournot,' ibid, April 1939 ; A. J. Nichol, 'Tragedies in the Life of Cournot,' and I. Fisher, 'Cournot Forty Year Ago,' both in Econometrica, July 1938.

نشرَ عمل كورنو: Recherches sur les principes mathematiques de la theorie des richesse عام ١٨٣٨؛ وقد قَدَّمَ أرفنج فيشر، للترجمة الإنجليزية لهذا العمل التى أنجزها ن. ت. باكون N. T. Bacon عام ١٨٩٧، بملاحظات حول سيرة كورنو، كما قَدَّمَ أيضاً، للطبعة الثانية من الترجمة (١٩٢٧)، بـ 'Notes on Cournot's Mathematics' (ملاحظات على الرياضيات لدى كورنو) وهى ملاحظات مفيدة. وسوف نقتصر على درس عمل كورنو هذا. (وسنشير، إلى الترجمة الإنجليزية لهذا العمل التى عنوانها 'Researches into the Mathematical Principles of the Theory of Wealth'، من الآن فصاعداً بكلمة Researches). ولكن كورنو أعاد تناول النظرية الاقتصادية مرتين دون أن يترك انطباعاً ملحوظاً فى كليهما: إذ نشر عمله Principes de la theorie des richesse عام ١٨٦٣ وعمله Revue sommaire des doctrines economiques عام ١٨٧٧. ولا يخلو هذان العملان من الفائدة ولكنهما يتجنبان استعمال الرياضيات. ولكن الرياضيات المستعملة فى العمل Researches تحمل لمسة كاتب محترف (رغم وجود بعض الزلات، كانت إحداها زلة جدية) ولكنها رياضيات أولية جداً. فلا وجود للمحددات فيها؛ وبالنسبة للتفاضل calculus، فما يُستعمل منه لا يتجاوز موضوعاً تاييلر.

ذات صلة لولا أن قسمًا من المعجبين الأمريكيان به، ممن أخطئوا في فهم سايكولوجيا الخدمة المدنية الفرنسية، أبدوا ميلاً لتحويل كورنو إلى شهيد من نوع ما بسبب فشل عمله Recherches. ومن المؤكد تقريباً أن كورنو نظر إلى فشله كحادث عرضي بسيط كرية ضمن مسيرة ناجحة من نوع آخر. وعلاوة على ذلك، فقد كان لديه كل الأسباب لتهنئة نفسه على استقبال ما اعتبره هو - بشكل مؤكد تقريباً، مرة أخرى - أعماله المهمة حقاً. ومن هذه الأعمال، أذكر 'Exposition de la theorie des chances et des probabilites, 1843، وهو عمل يثير الإعجاب وقد قوبل باعتراف يستحقه حينذاك وفيما بعد^(٢٥٨). وكذلك مغامراته الثلاثة في نوع من الفلسفة أو نظرية المعرفة التي تطورت عن الفيزياء النظرية والتي نالت الشهرة فيما بعد على أعتاب العام ١٩٠٠: Essai sur les fondements de nos connaissances (1851) ; Traite de l'enchainement des idees fondamentales dans les sciences et dans l'histoire (1861) ; and Considerations sur la marche des idees et des evenements dans les temps modernes (1872).

كانت أعمال كورنو في حقل الاقتصاد تُقرأ جيداً. ولكن مهما كانت طبيعة المصلحة التي حملته على تبني سمث أو ساي أو ريكاردو، فمن المؤكد إن مصلحة علمية بحثه جعلته يتبنى خطه. لم يكن في ذهنه أي موضوع عملي وكان حريصاً على التأكيد لقرائه على 'ضرورة عدم خلط النظرية بموضوع الأنظمة [أتصور أنه يقصد: أنظمة قواعد السياسة policy]، مع أن غريزة النظام، في المرحلة الأولى من نشوء كل العلوم، تحاول بالضرورة أن تضع للنظريات خطوطها العريضة'. وقد اقترح كورنو معالجة عدد من المشاكل التي تسمح بشكل خاص بالمعالجة بواسطة ذلك الفرع من التحليل الذي يبني الدوال الاعتيادية التي لا تقيد إلا لمجرد تلبية شروط معينة' (من مقدمة عمله Recherches). ولم يستهدف كتاب كورنو، ولم يحقق، بلوغ الكمال النظامي أو وضع مبدأ جديد. إن بعض المفاهيم والفرضيات، التي كانت موجودة من قبل ولكن في شكل غامض ومربك فقط، جرت إعادة صياغتها بدقة وصرامة أكثر. وتكمن كل العظمة التاريخية لهذا العمل في نجاحه المذهل في تحقيق هذا البرنامج المتواضع.

(٢٥٨) هذا هو تقدير الفرد العادي طبعاً. ولكن البروفيسور المتمرس ي. جوبر E. Czuber من فيينا، وهو مرجع في موضوع الاحتمالات كنت قد قرأت الكتاب قبل أربعين سنة بناءً على نصيحته، عبّر عن إعجابه به أيضاً. وأتصور أن جوبر حتى لم يسمع بالعمل Recherches.

يتضمن العمل ثلاثة فصول تمهيدية يوحى الثانى منها (حول التغيرات، النسبية، و، المطلقة، فى القيمة) بشىء من تأثير ريكاردو؛ ويقدم الفصل الثالث جبر أسعار الصرف الأجنبى foreign exchanges التى تتمثل أهميتها (التي لم يبصرها إديجورث، بينما أبصرها فالراس واستفاد منها) فى الظرف التالى: إن هذه الأسعار تقتضى جبر آلية السعر عموماً - إن هذا السبب، وليس أى مكسب كبير مما يمكن استخلاصه لصالح نظرية أسعار الصرف ذاتها، هو الذى يبرر الحكمة من عدم إهمال هذه النظرية. الفصول ٤-٩ هى الفصول المشهورة. فهى نواة التحليل الجزئى لدى مارشال، أى دالة الطلب؛ ونظرية الاحتكار، بما فى ذلك أيضاً الموضوعات المعتادة بشأن فرض الضرائب على السلع المحتكرة؛ ونظرية المنافسة التامة؛ وأخيراً، معالجة احتكار القلة وحالة خاصة من الاحتكار الثنائى، اللذين تعرضا للنقد ككبش فداء من جانب أدب واسع (انظر القسم الرابع، أدناه). أما الفصل العاشر، فيستحق من الاهتمام أكثر مما ناله لحد الآن، رغم ضعفه الناتج عن وجود زلة جدية فيه. لقد أهمل الفصلان الحادى عشر والثانى عشر من جانب غالبية النقاد الساحقة بشكل مبرر إلى حد ما. ولكن الأول، على الأقل، مهم تاريخياً لأن حاجته تستحق الفكرة ما بعد المارشالية (الكينزية) القائلة بضرورة تكملة التحليل الجزئى بتحليل الدخل: لقد لاحظ كورنو طبعاً بأنه 'للحصول على حل كامل ودقيق للمشكلة بالنسبة لبعض أجزاء النظام الاقتصادى'، فمن 'الضرورى أخذ النظام ككل بنظر الاعتبار' (نفس المصدر السابق، ص ١٢٧) - وهذا ما أراد فالراس تحقيقه بالضبط. ولكن، وكما هو شأن المجموعة الكينزية من الاقتصاديين اللاحقين لمارشال، وجدّ كورنو 'أن هذا الأمر كان يمكن أن يتجاوز قوى التحليل الرياضى وقوى طرقنا العملية فى الحسابات'. وهكذا تخيل كورنو، بدلاً من ذلك، إمكانية معالجة مثل هذه المشاكل من خلال مجموعة قليلة من المؤشرات الكلية aggregates يحتل فيها الدخل الاجتماعى Social Income وتغيراته مكان الشرف. لم يذهب كورنو بعيداً، ولكن يبدو إن من المبرر اعتبار هذا القول أول إعادة صياغة صريحة لممارسة قديمة يتعين علينا أن نعود لمناقشتها مرة أخرى.

لكى نقدر حق التقدير عمل كورنو فى ما أسميتها: الفصول المشهورة، وبخاصة عمله فى الفصل الرابع (Of the Law of Demand) وفى الفصل الخامس (On Monopoly)، فمن الضرورى أن نذكر أنفسنا بأن 'الاقتصاديين الأدبيين' ❁

بمعنى الاقتصاديين غير الرياضيين} فى ذلك الوقت واجهوا أشد صعوبة فى صياغة العلاقة البسيطة التى أصبحت معروفة 'بمنحنى طلب مارشال'؛ وبأن كورنو، إذا أهملنا مساهمة فيرى Verri المنسية، وضعَ نظرية هذه العلاقة؛ وبأن معالجته للاحتكار هى عمل مذهل عند مقارنته بالأعمال من النوع نفسه، وذلك لأن أحدًا لم يطرح شيئاً مفيداً عن التجديد الاحتكارى للأسعار إلى أن نشرَ مارشال نسخته البارعة من نظرية كورنو. وحينما نضيف نظرية كورنو للآلية التنافسية ونظريته للتكلفة، فسرى أن انبعاثه، بعد وفاته، من عالم النسيان الكامل تقريباً إلى مكانه الحالى فى عالم الشهرة كان جديراً به حقاً. ولكن هذا المكان محجوز لأستاذ التحليل الجزئى الذى كان، علاوة على ذلك، أول من أوضح ما يمكن أن تقدمه الرياضيات لنا. ولا أرى إن من الصحيح تاريخياً أن نعزو إليه أكثر من فكرة غامضة وغير - عملية nonoperational حول التوازن العام.

لقد كنا لحد الآن نعالج المساعدة التى شرعت الرياضيات بتقديمها، خلال الفترة محل الدرس، إلى النظرية البحتة كأفضل وصف لهذا الحقل. كان برنامج القياس الاقتصادى على وجه التحديد econometric program - النظرية الرياضية زاندا الأرقام الإحصائية - يسعى نحو تحقيق الصياغة الواعية لذاته طوال الوقت، ولكنه لم يحقق هذا الأمر بصورة تامة رغم ذلك، مع بعض استثناءات مهمة، سنلاحظها بعد قليل. لم يكن لرسالة بتي ودافينانت Davenant تأثير بعد؛ وأن معظم المنظرين، الذين قدموا عملاً إحصائياً أيضاً، لم يفكروا بربط هذين الخطيين من البحث. والشئ الأكثر أهمية هو أن نلقى نظرة على العلاقة بين الاقتصاديين ونظرية الإحصاء، من ناحية، وعلى تقدم العمل الذى كان هو القياس الاقتصادى econometrics دون أن يحمل هذا الاسم، من الناحية الأخرى.

بالنسبة للناحية الأولى، دعونا نتذكر بعض الوقائع. لقد تطور الإحصاء عن نظرية الاحتمالات. إن موضوعه جاك بيرنولى Jacques Bernoli، التى تمتلك كل الحق، فى خلاصة كهذه، لأن تكون فى الصدارة، قد حفزت العمل الذى بلغ ذروته فى مساهمات أ. دى موفير A. de Moivre وليبلاس Laplace وغاوس Gauss. إن قانون الخطأ وطريقة المربعات الصغرى لدى هذا الأخير - اللتان عملَ كوتيل Quetelet على انتشارهما فى العلوم الاجتماعية بشكل واسع - صارتا موضع فخر

ولعنة على الإحصاء التطبيقى فى الوقت نفسه لأكثر من نصف قرن^(٢٥٩). بيد أن كل هذا يعود إلى الفترة السابقة مثلما يشير عمل بويسون Poisson وكورنو. أما الفترة محل الدرس، فتبدأ (تقريباً) بمدخل ليكسس الجديد الذى لم يحدث فى البداية سوى ثغرة صغيرة فى وضعية قانون الخطأ لدى غاوس. ومع ذلك، وفيما بعد وقبل انقضاء القرن التاسع عشر، ازدهرت نظرية الإحصاء كثيراً؛ ويكفى، لوضع القارئ فى صورة الإنجازات، أن نشير إلى أسماء فيجنر Fechner، ثيل Thiele، برونس Bruns، بيرسون Pearson، إديجورث، وشارلر Charier. ومع أن ليكسس وإديجورث^(٢٦٠) كانا اقتصاديين، بيد أن الاقتصاد التحليلي جنى القليل فى الفترة محل الدرس من مساهماتها فى المنهجية الإحصائية - أقل مما كسبته علوم الفلك والنفس والأحياء، على سبيل المقارنة.

أما بالنسبة للناحية الثانية، فيمكننا توضيح نوع مهم من العمل القياسى الاقتصادى econometric work بواسطة قانون انجل^(٢٦١) مرة أخرى، الذى لم يجتذب الاهتمام الدولى قبل الفترة محل الدرس، رغم أنه نُشر عام ١٨٥٧ أصلاً. وحتى فيما بعد، لم يدرك انجل نفسه أو أى كاتب آخر أهمية القانون بالنسبة

(٢٥٩) لعنة لأن ذلك قد شجع على معتقد عرضى مفاده إن الانحرافات فى المادة الإحصائية عن قانون الخطأ تعود إلى قلة المشاهدات ببساطة.

(٢٦٠) ننتهز هذه الفرصة لنلاحظ بشكل عابر مساهمات إديجورث فى الموضوع: Economic Theory and Probability. ليس بوسعى أن استثير أى حماسة لطريقته فى إدخال الاحتمالات فى المحاجة النظرية البحتة. ومع ذلك، فإن عمله: Metretike أو the Method of Measuring Probability (1887 and Utility) لم يزل الاهتمام الكافى. انظر أيضاً مقالاته: 'Miscellaneous Applications of the Calculus of Probabilities,' Journal of Royal Statistical Society, 1897 and 1898. وتحتل أهمية كبرى محاولته استخدام أفكار الاحتمال لتحديد المبلغ الأمثل من الاحتياطى النقدى للمصرفيين، وأرقامه القياسية طبعاً التى ظهرت فيما بعد.

(٢٦١) ارنست انجل Ernst Engel (١٨٢١-١٨٩٦)، مدير جهاز (Amt) الإحصاء فى بروسيا، كان رجلاً إدارياً فى الأساس وأحرز نجاحاً كبيراً فى هذا العمل. ولكن ذهنه النشط طرح لنفسه، إضافة إلى ذلك، مهاماً غير مألوفة قادته إلى تقديم أعمال تحتل أهمية دائمة مثل دراساته التاريخية حول عقد العمل (المنشورة فى مجلة: Arbeiterfreund, 1876) وكذلك: Die industrie der grossen Stadte (1883)؛ الذى يشكل الجزء الأول من عمله: Der Kostenwerth des Menschen (1868)؛ الذى يصدر أجزاءه الأخرى (قط)؛ وأعمال أخرى. وصدرت المقالة، التى نشر فيها 'قانونه' لأول مرة، تحت عنوان: 'Die Produktion- und Consumtionsverhältnisse des Konigtrichs Sachsen' (Zeitschrift des statistischen Bureaus des Koniglich Sachsischen Ministeriums des Innern, November 1857). وقد أعيد نشرها عام ١٨٩٥ (Lebenskosten Belgischer Arbeiterfamilien) وفى السنة نفسها فى مجلة: Bulletin de l' Institut International de Statistique.

للنظرية الاقتصادية. يشير القانون (ضمن مجموعة من الأسر لا تختلف أذواقها كثيراً وتواجه كلها نفس الأسعار) إلى أن الإنفاق النسبي على الغذاء هو دالة متناقصة للدخل في المتوسط. وكنا لاحظنا سابقاً أيضاً مثلاً آخر على مثل هذه 'القوانين' الإحصائية التي كان يمكن إدخالها في النظرية الاقتصادية كقانون باريتو لتوزيع الدخل وفقاً لحجمها.

تعتبر أعمال فيشر ومور Moore، التي نوقشت آنفاً، أعمال قياس اقتصادي حقيقية بالفعل ويمكن القول إن مور أعطى الدفعة الحاسمة التي أطلقت السيل الحديث من منحنيات الطلب الإحصائية.

توجد لهذا الغرض فهارس كثيرة من شأنها أن تساعد القارئ المهتم مثل الفهرست الذي وضعه لويس و. بيركاو Louise O. Bercaw: 'Price Analysis,' Econometrica, October 1934 الذي يقدم المادة التي ظهرت خلال الفترة ١٩٢٧-١٩٣٣ وهو يشير إلى فهارس أخرى تعود إلى فترة أقدم. ويمثل عمل هنري شولتز: Henry Schultz, Theory and Measurement of Demand, 1938، كما قد يعلم القارئ، العمل النموذجي حول الموضوع الذي لا يسعنا تناوله في هذا الكتاب مع الأسف. ومع ذلك، فثمة أعمال رائدة عدة، إضافة إلى عمل مور، ظهرت حوالى العام ١٩١٤ ومن بينها عمل ليفيلدت Leffeldt: 'The Elasticity of Demand for Wheat,' Economic Journal, June 1914. ويمثل الأخير، بقدر ما أعلم، أول نصير حديث لجريجورى كينغ Gregory King.

ومهما تكن الظنون بالقيمة العملية المباشرة لمنحنيات الطلب الكثيرة التي تم بنائها، فإن من المؤكد أن محاولة مواجهة المشاكل التي تنشأ عند بناء وتفسير هذه المنحنيات هي واحدة من أفضل الطرق لتطوير قوى جهازنا التحليلي. وعليه، يحتل موضوع منحنيات الطلب الإحصائية أهمية قصوى بالنسبة للنظرية بالضبط. ومع ذلك، فإن تاريخ هذا النوع من العمل يقع كلياً تقريباً في الفترة الحالية. ويسرى الأمر نفسه على العمل فى حقول أخرى غير نظرية الطلب، وبخاصة حقول دوال الإنتاج الإحصائي، والتكلفة الإحصائية، ودوال العرض الإحصائي. وللحصول على دراسة أولية، ندعو القارئ إلى الرجوع إلى: H. Schultz, Statistical Laws of Demand and Supply (1928) ; J. Dean, Statistical Determination of Costs (1936) ; W. A. Tweddle and Richard Stone, 'Study of Costs,' Econometrica,

July 1936؛ وتقارير لجنة جمعية القياس الاقتصادى التى يرأسها السيد إى. ه. فيليبس براون E. H. Phelps Brown، نفس المصدر السابق، نيسان، تموز ١٩٣٦؛ وكذلك: Reinhard Hildebrandt, Mathematisch-graphische Untersuchungen (1925) (über die Rentabilitätsverhältnisse des Fabrikbetriebs). إن قراءة هذه الكتب والمقالات تمكن القارئ من استيعاب الطرق والمشاكل والنتائج التى تبشر بالأجزاء المهمة من النظرية الاقتصادية فى المستقبل.

ولكن كما رأينا، فرغم تحقيق بعض التقدم قبل العام ١٩١٤ فى الخطوط التى ألمحنا إليها آنفاً، فإن البحث فى التكنولوجيا الزراعية، وبخاصة فى التجهيزات وتغذية التربة - التى هى جوهرية لموضوعات قديمة من النظرية الاقتصادية مثل قانون تناقص الغلة- وكذلك تغذية الماشية حققت فعلاً درجة عالية من التطور خلال الفترة محل الدرس. فتقارير لجنة فيليبس براون المذكورة توّأ تمتلك ميزة خاصة فى تنوير قرائها بالأهمية النظرية لمثل هذا العمل ولمنعهم من إساءة فهم الفكرة القائلة إن نظرية الإنتاجية الحديثة هى مجرد تأمل نظرى.

ولكن نظرية الفترة المدروسة لم تسمح بإدخال مثل هذه النتائج. إذ إن غالبية المنظرين، بمن فيهم قسم من أكثرهم بروزاً، لم يعوا قط قدرة نظرية ما على تحقيق نتائج عددية أخيراً. ولذلك، لم يخطر ببالهم البتة وضع مخططاتهم فى صورة معينة من شأنها أن تجعل هذه المخططات طيّعةً بالنسبة للمعالجة الإحصائية. فالفكرة ذاتها كانت ستبدو غريبة بالنسبة لهم. ومع ذلك، كانت هناك استثناءات. إذ أبصر كورنو وجيفونس معاً ثمة إمكانية تلوح فى المستقبل. كما أدرك باريتو ومارشال وجود هذه الإمكانية بالفعل. فقد يمثل خطاب الأخير 'The Old Generations of Economists and the New' (1896) أول تصريح من قبل اقتصادى بارز لصالح برنامج قياس اقتصادى معين. والأكثر أهمية هو إن مارشال كان ينظر بقصد أن يجعل مفاهيمه تسرى عددياً numerically operative وأن لجوءه، من حين إلى آخر، إلى الأرقام الإحصائية^(٢٦٢) كانت أهميته تتجاوز الإيضاح. ولم ينصف النقاد المؤسسيون مضامين هذا العمل إلا نادراً. ومع ذلك، فإن باحثين فرديين فى حقول خاصة حققوا بعض التقدم كما نعلم (انظر، مثلاً، عمل

(٢٦٢) انظر، مثلاً، جداوله الرقمية حول آثار المبالغ المختلفة، المنفقة على الحرث والمسح، على الناتج كما تذكرها محطة التجارب فى أركانساس (Principles, p. 232).

جيسون Cheysson أو عمل الكتاب حول النقل بالسكك الحديدية المذكور آنفاً، الفصل السادس، القسم السادس).

٣- مفهوم التوازن^(٢٦٣)

(أ) الستاتيكا، الديناميكا، الحالة الراكدة، التطور نعود الآن إلى الموضوع الذى تركناه على الشكل الذى أخذه على يد ج. س. ميل. سأعمد أولاً إلى إعادة صياغة التعريفات المتبناة فى هذا الكتاب من خلال بضع ملاحظات تفسيرية. نعود أول ملاحظتين إلى راغنار فريش Ragnar Frich.

التحليل الستاتيكي static analysis هو طريقة معينة، لمعالجة الظواهر الاقتصادية، تحاول أن تضع علاقات بين عناصر النظام الاقتصادى - أسعار السلع وكمياتها - تمتلك كلها نفس المؤشر الزمنى time subscript، أى أنها تشير إلى نفس النقطة الزمنية. وتساعدنا نظرية الطلب والعرض المعتادة من سلعة فردية معينة فى السوق، كما ترد فى أى كتاب مدرسى، على توضيح هذه الحالة: فهذه النظرية تربط ما بين الطلب والعرض والسعر التى يُعتقد أنها موجودة فى أى لحظة من المشاهدة - وذلك دون أن تأخذ أى شىء آخر بنظر الاعتبار.

ولكن عناصر النظام الاقتصادى التى تتفاعل فى لحظة معينة من الزمن تمثل بوضوح نتائجاً للترتيبات السابقة preceding configurations؛ وإن ذات الطريقة التى تتفاعل بها لا تقل وضوحاً فى تأثرها بما يتوقع الناس أن تكون عليه الترتيبات المستقبلية. وهكذا، إذا تابعنا مثالنا، يمكننا أن نفهم الوضع فى سوقنا كوضع تحدده، أو تؤثر عليه على الأقل، قرارات المنتجين السابقة التى لا يمكن فهمها وفقاً للظروف القائمة فى اللحظة الزمنية التى تم اختيارها للمشاهدة بل فقط وفقاً للظروف السائدة فى اللحظة التى وُضعت فيها تلك القرارات. وهكذا ننقاد إلى أن نأخذ بالاعتبار القيم السابقة والقيم المستقبلية (المتوقعة) للمتغيرات، وفترات

(٢٦٣) [ترك ج. شومبيتر نسخة مبكرة (مطبوعة) وثلاث 'صياغات بديلة' غير كاملة (مكتوبة باليد) حول هذا القسم. إن نسختين من النسخ اللاحقة تظهران هنا بوصفهما القسمين الفرعيين (أ) و(ب). أما النسختين الأخريتين، فقد تم إيداعهما، سوياً مع بقية هذه المخطوطة، فى مكتبة سوتون فى جامعة هارفارد.]

الإبطاء lags، والسياقات، ومعدلات التغير، والكميات التراكمية، والتوقعات، وما شابه. إن الطرق التي تهدف إلى تحقيق هذا الأمر تشكل الديناميكا الاقتصادية economic dynamics.

من الممكن توضيح العلاقة بين النظرية الستاتيكية والديناميكية من خلال نقطتين مختلفتين، وإن كانتا مرتبطتين إحداها بالأخرى. فمن ناحية، تتضمن النظرية الستاتيكية درجة أعلى من التجريد: إن الأنماط الديناميكية هي الأخرى تتجرد من عدد كبير من الأشياء؛ بيد أن النمط الستاتيكي يُسقط جوانب إضافية من الواقع، أي تلك الجوانب التي عددناها في نهاية الفقرة السابقة، ولكنه مع ذلك أقرب إلى المنطق البحث للكميات الاقتصادية من الديناميكا. ومن ناحية أخرى، يمكن القول إن النظرية الستاتيكية هي حالة خاصة من نظرية ديناميكية أكثر عمومية: ونلاحظ هذا الأمر في حقيقة أننا نشق الأنماط الستاتيكية من الأنماط الديناميكية عبر العملية البسيطة التي تتمثل بمساواة 'عوامل الدينامية' dynamizing factors، التي يمكن أن تحدث في الأنماط الأخيرة، بالصفر^(٢٦٤).

وهنا، فقد يتصور المراقب المبتدئ، معذوراً، بأن الفكر البشري، مدفوعاً بتجربته، يشرع بالتحليل مما هو ملموس نسبياً، ومن ثم، ومع تكشف العلاقات الأكثر دقة، يمضي نحو المجرد نسبياً، أي الابتداء بالعلاقات الديناميكية ومن ثم المضي نحو وضع العلاقات الستاتيكية. ولكن الأمر لم يكن كذلك في أي شكل من المحاولات العلمية^(٢٦٥): فالنظرية الستاتيكية دائماً قد سبقت تاريخياً النظرية الديناميكية، وإن أسباب هذا تبدو بسيطة بقدر ما هي قوية: فمن الأسهل كثيراً صياغة النظرية الستاتيكية؛ ومن الأسهل إثبات فرضياتها؛ وهي تبدو أقرب إلى الأساسيات (المنطقية). والتحليل الاقتصادي لا يشكل أي استثناء عن ذلك.

(٢٦٤) في مثلاً، تتمثل البنية الممكنة الأبسط في جعل الكمية المعروضة (S) في الزمن t تعتمد، ليس على السعر السائد في اللحظة المعنية، ولكن على السعر الذي ساد في لحظة من الزمن قبل ذلك. فإذا أخذنا فترة إبطاء الإنتاج هذه production lag بوصفها وحدة الزمن، وإذا كانت الكمية المطلوبة (D) في الزمن t تعتمد على السعر (P) السائد في الزمن t، فيمكننا إذن أن نعبر عن هذه البنية بمعادلتين هما: $D = f(P)$ and $S = f(P)$. ومن هاتين المعادلتين، نحصل على البنية الستاتيكية بجعل فترة الإبطاء تساوي صفراً: $D = f(P)$ and $S = f(P)$.

(٢٦٥) في الميكانيكا، مثلاً، تم تطوير العلاقات الستاتيكية أولاً والعلاقات الديناميكية من ثم، وإن لاجرانج Lagrange كان الوحيد الذي فكر بالستاتيكا كحالة خاصة من الديناميكا.

لا نقصد بحالة راكدة معينة stationary state، كما يفترض هذا المصطلح، طريقة أو موقفاً فكرياً للكاتب التحليلي بل حالة محددة يكون عليها الموضوع المطروح للتحليل، أى عملية اقتصادية تتواصل وفقاً لمعدل منظم at even rate، أو بعبارة أدق، عملية تجدد نفسها فحسب. ومع ذلك، فهذه الحالة، حينما تؤخذ بالمعنى الذى نهتم به هنا، ليست سوى تخيل منهجى. فهى جهاز تبسيطى أساساً. ولكنها شىء أكثر من ذلك أيضاً. فحينما نحاول تصور كيف يمكن لهذه العملية أن تبدو وأى من ظواهر الواقع يمكن أن تكون موجودة فيها، فإننا ipso facto {بذلك} نكتشف ما يُفتقد من هذه الظواهر. وهكذا نكتسب أداة للتحليل تساعدنا على تعيين مصادر هذه الأخيرة - وهى خدمة لا ينبغي أن نحتاج إلى التشديد على أهميتها (ولكن الأمر ليس كذلك مع الأسف) (٢٦٦). أما المصطلح تطور evolution فيمكن استعماله بمعنى أوسع وبمعنى أضيق. وبالمعنى الأوسع، فهو بشكل كل الظواهر التى تجعل عملية اقتصادية معينة عملية غير راكدة. وبمعناه الأضيق، يمثل هذا المصطلح تلك الظواهر ناقصاً تلك التى يمكن وصفها من خلال التغيرات المستمرة فى المعدلات فى إطار ثابت من المؤسسات، والأذواق، أو الآفاق التكنولوجية، والتى تدخل فى مفهوم النمو growth.

من المهم أن يلاحظ القارئ إن 'النظرية الستاتيكية' و'النظرية الديناميكية'، من ناحية، والحالتين 'الراكدة' و'التطورية'، من ناحية أخرى، مستقتلتان إحداهما عن الأخرى، من حيث المبدأ المنطقى على الأقل. إذ يمكن أن نصف عملية راكدة بواسطة نموذج ديناميكي: وهى حالة تحصل حينما نجعل الشروط الركودية stationarity فى عملية ما فى أى فترة معطاة تعتمد على ما حدث للعملية فى فترات سابقة. كما يمكننا أن نصف عملية تطورية من خلال تتابع نماذج ستاتيكية: وهى الحالة التى تحصل حينما نعالج اضطرابات disturbances حالة معطاة عبر محاولة إيضاح العلاقات الستاتيكية المكتسبة قبل أن يصطدم اضطراب ما a given disturbance بالنظام وبعد أن يكون لديه الوقت للتعبير عن نفسه (٢٦٧). وتُعرف هذه

(٢٦٦) نهمل هنا طائفة من المشاكل يكون فيها مفهوم حالة راكدة معينة - كمفهوم حالة 'الركود المزمن' secular stagnation - بحاجة لمعنى آخر، أى حالة مجتمع اقتصادى محتملة الحدوث بالفعل. وهذا هو المعنى الذى اشتهر به خط من الفكر يمكن وصفه بإيجاز من خلال السلسلة: آ. سميث - ريكاردو - ميل - كينز - هانسن (انظر الجزء الخامس، الفصل الخامس، أدناه).
(٢٦٧) وهذا ما فعلته مثلاً النظرية الكمية القديمة للنقود old quantity theory of money، بقدر ما كانت تتضمن الفرضية القائلة إن الزيادة فى كمية النقود تؤدي، ceteris paribus {عند بقاء الأشياء =

الطريقة الأخيرة بالساتاتيكا المقارنة comparative statics. وقد أستعمل هذا المصطلح لأول مرة، بقدر ما أعلم، من قبل ف. أوبنهايمر F. Oppenheimer^(٢٦٨) في عمله (Wert und Kapitalprofit (1916, 2nd ed., 1922).

أخيراً، ينبغي على القارئ أن يلاحظ أيضاً أن هذه المفاهيم conceptual devices لا تمت بأية صلة إلى أى أداة قد تكون مستعملة في العلوم الطبيعية. أما الانطباع المعاكس واسع الانتشار، فيعود إلى حقيقتين. أولاً، رغم أن هذه المفاهيم لا تتضمن أى شيء سوى عادات التفكير البشرى، التى هى عادات عامة بقدر ما هى منطق عادى، بيد أنها- أو المفاهيم المماثلة- جرى تبنيها، لذلك السبب بالضبط، حينما تطلبت الوقائع المعنية ذلك. ونظراً إلى أن العلوم الطبيعية، وبخاصة الميكانيكا، كانت تتقدم كثيراً على الاقتصاد فى مجال التقنية، فقد تم تعريف هذه المفاهيم بصورة واعية من قبل علماء الطبيعة قبل أن يجرى تعريفها من قبل الاقتصاديين بحيث إن الفرد العادى المتعلم كان يعرفها قبل أن يطلع عليها فى علم الاقتصاد الأمر الذى قد يحمل على الشك بأنه قد تمت استعارتها من الميكانيكا بصورة غير شرعية. ثانياً، نظراً إلى أن هذه المفاهيم غير مألوفة فى حقل تسوده مفهومة رخوة looser conceptualization، فقد وجد بعض الاقتصاديين، وبخاصة أ. فيشر، أن من المفيد إيصـال مقاصدهم إلى الذهن البسيط من خلال المقارنة بالميكانيكا. ولكن هذا هو كل شيء. إذ إننا نعلم بأن مفهوم الساتاتيكا الاقتصادية يمكن بالفعل إرجاعه إلى علم الحيوان أكثر مما إلى الميكانيكا، وأن التحليل الاقتصاد استفاد منه بشكل بدائى وضمنى منذ بداياته الأولى - وهذا هو الأمر الأهم.

وبعد تمهيد الأرضية على هذا النحو، سأحاول أن أوضح: (١) أنه كان يجرى، بالفعل أو بصورة كامنة، صياغة تلك التطورات فى الجهاز التحليلى

=الأخرى على حالها، إلى زيادة مستوى السعر بنفس النسبة. من الواضح أن هذا يفترض أن الظواهر 'الانتقالية' transitional يمكن أن تهمل وبالتالي فهو يشير إلى 'نتيجة نهائية' ultimate outcome للعمليات التى أطلقها هذا الاضطراب فى الحالة السابقة للنظام الاقتصادى. والمثال يوضح جيداً أن هذه الطريقة لابد أن تثير الكثير من النزاع.

(٢٦٨) ينبغي أن نشير صراحة إلى أن النظرية الديناميكية فى ذاتها، كما عرفت، لا تمت بأية صلة إلى التحليل التاريخى: إذ إن مؤشرات الزمنية time subscripts الخاصة بها لا تشير إلى زمن محدد- فالنموذج الذى استعملناه كمثال لا يخبرنا بشيء عما إذا كان ترتيب الطلب-العرض كان قد تحقق فى عهد الرئيس واشنطن أم فى عهد الرئيس روزفلت؛ وإن نتائج نظرية وليست تاريخية، أو بعبارة أخرى، أنها تستعمل تواريخ نظرية وغير تاريخية.

للاقتصاد خلال الفترة محل الدرس بشكل بطيء ولكن هذا لم يتم بالسرعة الكافية- أو بالصرامة الكافية- لإحداث الأثر الكامل على ممارسة المحللين قبل عام ١٩١٤؛ (٢) وأن الحقيقة الأخيرة قد أبطأت التقدم وهي تفسر بعض النواقص الأكثر جدية في الإنجازات المتحققة.

(١) كان مفهوم الحالة الراكدة stationary state مألوفاً تماماً في الفترة السابقة كما نعلم. ولكنه كان يُستعمل للإشارة إلى حالة فعلية في الاقتصاد يتوقع ظهورها في مستقبل قريب أكثر من استعماله كتخيل منهجي methodological fiction: فبهذه الصفة الأخيرة، لم يُستعمل هذا المفهوم إلى أقصى حد إلا من قبل ماركس الذي أسماه إعادة الإنتاج البسيطة. ومع ذلك، وبمعزل عن ماركس، فقد تم الشروع باستعمال المفهوم خلال الفترة محل الدرس، كتخيل تمهيدى، لغرض إبراز مجموعة من المشاكل البسيطة بشكل خاص. إذ جرى تمييزه من قبل مارشال، مثلاً،^(٢٦٩) الذي تحدث عن "التخيل المشهور" للحالة الراكدة - "مع إن الحالة الراكدة كتخيل منهجي لم تكن 'مشهورة' عام ١٨٩٠ - واستعمله غير مرة وكان، بقدر ما أعلم، أول من أوضح أننا يمكن أن نزيد من فائدته للتحليل عن طريق تعريفه بصورة مختلفة (إلى هذا الحد أو ذاك من التحديد) للأغراض المختلفة. كما قدم مارشال أيضاً سابقة، تبعها كثيرون وبخاصة كاسل^(٢٧٠)، لتوسيع الفكرة لتشمل حالة التقدم المتوازن، أي حالة مجتمع ينمو فيه السكان والثروة بنفس المعدل تقريباً، والذي لا تتغير فيه إلا قليلاً طرق الإنتاج وظروف التجارة؛ وحيث، تكون طبيعة الإنسان نفسه كمية ثابتة، قبل كل شيء - وهو مفهوم اكتسب أهمية في وقتنا الحاضر لصلته بمشكلة التشغيل الكامل ليس في نماذج اقتصاد راكد فقط بل وفي اقتصاد توسعي أيضاً^(٢٧١). كان يفترض بهذا التوسيع لمفهوم الركودية stationarity أن يفصل بدقة ظواهر التطور بالمعنى الضيق للمصطلح، وأنه قد

(٢٦٩) انظر: Principles, p. 439 وما بعدها. تتمثل طبعاً ذروة الإنجاز في هذا الخط من التحليل في هذه الفترة بعمل البروفيسور بيجو: (The Economics of the Stationary states (1935). إن أول كاتب منهجي حلل هذه الأداة هو: J. N. Keynes, Scope and Method of Political Economy. (٢٧٠) قارن: Theory of Social Economy, ch. 1. وترد إشارة مارشال في صفحة ٤٤١ من عمله Principles.

(٢٧١) ولذلك، فمن المفيد أن نشير إلى القطع المعاصرة الثلاثة التي تعكس حجم التطور منذ ذلك الحين: E. Lundberg, Studies in the Theory of Economic Expansion (1937) ; R. F. Harrod, 'An Essay on Dynamic Theory,' Economic Journal, March 1939 ; E. Domar, 'Capital Expansion, Rate of Growth, and Employment,' Econometrica, April 1946.

حقَّقَ هذا الأمر. ولكن هذا كان يعنى، لدى كل الاقتصاديين البارزين فى الفترة المدروسة، إهمال هذه الظواهر أكثر من بناء نظرية شاملة منها.

لم يكفُ فالراس، الذى استعمل عبارة *phase point de vae statique*، أو مارشال، الذى استعمل عبارة الطريقة الستاتيكية *statical method*، عن تمييز النظرية الستاتيكية عن نظرية الحالة الراكدة. ولكن معظم الكتاب خلطوا بين هاتين النظريتين بدليل الشعبية المتزايدة لعبارة 'الحالة الستاتيكية' التى تمثل السمة المميَّزة على هذا الخلط^(٢٧٢). ورغم ذلك، ومع إن نظام الستاتيكا الاقتصادية قد جرى تصويره بوضوح أكثر من إنه تم تعريفه بصورة صارمة، بيد أنه قد ظهرَ خلال الفترة محل الدرس وهو يشكل إنجازها الأكبر حقًا. أما الديناميكا الاقتصادية، فلم يتم حتى تكوين تصور واضح عن طبيعتها: إذ طابقتها البعض بنظرية تاريخية للتغير أو، بخلاف ذلك، بنظرية تسمح بالإشارة إلى اتجاهات؛ فى حين عرفها غيرهم كنظرية للاعتماد العام المتبادل مقابل التحليل الجزئى للظواهر القطاعية؛ بينما طابقتها آخرون أيضًا بنظرية للاقتصاد الحديث مقابل نظرية اقتصاد القرون الوسطى المقيَّد بالتقاليد *tradition-bound economy of the Middle Ages*؛ فى حين، ببساطة، وجدَّ فيها بعض الكتاب نظرية للتغيرات الصغيرة فى الكميات الاقتصادية^(٢٧٣). ثمة كثيرون، من بينهم بوهم-باورك، لم يسمعوا بالستاتيكا والديناميكا قط: فبالنسبة لهؤلاء، لم يكن هناك سوى نوع واحد من النظرية يسمح بدرجات مختلفة من التجريد بالتأكيد ولكن ليس 'بطرق' متميزة منطقيًا. وكان هناك أولئك من انحلت المناقشة الكاملة على أيديهم إلى نزاع لفظى. ومن شأن كل هذا أن يبين أهمية التعريفات الصارمة منطقيًا حتى للأغراض العملية البحتة: فلو أن طبيعة النظرية الستاتيكية الخاصة بوقتنا الحاضر خضعت لتحليل صارم، لبرزت مشاكل الديناميكا من تلقاء نفسها. ولكن كان هناك شيء آخر غير الخلط.

(٢٧٢) لدى ج. ب. كلارك J. B. Clark، تشكل النظرية الستاتيكية النموذج لمجتمع راكد فحسب؛ أما النظرية الديناميكية، فتمثل النموذج لتغير تطورى (انظر بخاصة: *Essentials of Economic Theory*, 1907). أما كاسل Cassel (المصدر السابق)، فقد استعمل عبارتى ستاتيكي وراكد كمترادفات.

(٢٧٣) اعتقد أن ذلك هو ما قصده فالراس بعبارة: *phase dynamique de trouble continuel de l'équilibre par des changements dans ses donnees* (Elements, p. 302). ومن المؤكد أنه يمثل ما قصده بارون Barone فى مقالته المهمة: 'Sul Trattamento di questioni dinamiche', *Giornale degli Economisti*, November 1894.

إذ نجد أيضًا إحياءات تؤثر نحو الديناميكا الخاصة بوقتنا الحاضر. ولكنها لم تكن سوى إحياءات، وليست سوى obiter dicta {ملاحظات عابرة} أحيانًا. وليس بوسعى إلا الإشارة إلى ما هو أوضح وأهم (نسبيًا) منها الذي يعود كله إلى بانتيوني Pantalonioni^(٢٧٤).

(٢) وبالضبط لأن حتى المفكرين الأكثر تقدمًا في ذلك الوقت لم يكن لديهم مخطط أو طريقة ديناميكية صريحة من شأنها أن تساعدهم، فقد فشلوا في إدراك المحدوديات الجدية التي يتضمنها مخططهم أو طريقتهم الستاتيكية. ذلك لأن هذه المحدوديات لا تكشف عن نفسها إلا في ضوء الاعتبار الديناميكية. وبالنتيجة، فقد كانوا يخرجون بشكل متواصل عن ستاتيكيتهم دون أن يكون لهم أى حق في أن يفعلوا ذلك ودون أن يعوه. ومما فاقم الوضع هو الخلط بين النظرية الستاتيكية ونظرية حالة راكدة- أو شبه راكدة.

[تنتهى النسخة هنا دون أن تكتمل كما هو واضح مع ثلاثة سطور من ملاحظات باليد تشير إلى كيفية متابعة المحاجة].

(ب) التحديد، التوازن، والاستقرار أسفر عمل فالراس عن ظهور النظرية الستاتيكية للعالم الاقتصادي في صورة عدد كبير من العلاقات الكمية (المعادلات) بين عناصر أو متغيرات اقتصادية (أسعار وكميات السلع أو الخدمات الاستهلاكية والإنتاجية) فهت على أنها تحدّد إحداها الأخرى في وقت واحد. وما أن تم إنجاز هذا العمل الفذ- الذى هو بمثابة Magna Charta للاقتصاد الدقيق، الذى سندرسه

(٢٧٤) فى هذا السياق، لديه مقالتان تمتلكان أهمية أساسية: Caratteri delle posizioni iniziali e 'influenza che esercitano sulle terminali,' Giornale degli Economisti, October 1901 ; and 'Di alcuni fenomeni dinamica economica,' وهو خطاب ألقاه أمام الجمعية الإيطالية لتقدم العلوم، أيلول ١٩٠٩. ونشرت كلتاها فى: Erotemi di economia, vol. 11, 1925. إن النقاط الرئيسية تتمثل بما يلى. (١) أثار بانتيوني قضية العلاقة بين ترتيب مشاهد من عناصر نظام معين وبين ظروف سابقة يتم الانطلاق منها بصورة مؤقتة (ليس فقط منطقياً)؛ وبمجرد أن يثير المرء هذه القضية، فإنه يكون قد أثار القضية الأساسية للديناميكا. (٢) رغم أن تعريف بانتيوني غير مرضى بصورة تامة (Erotermi, p. 79)، بيد أنه أمثل الفكرة الحاسمة وأدرك بالنتيجة أن الستاتيكا الاقتصادية ليست سوى caso particolare {حالة خاصة} من الديناميكا الاقتصادية (ibid p. 73). (٣) أدرك بانتيوني إن هناك اثنين من أنماط الديناميكا: الأول يصب فى وضع للتوازن والثانى لا يفعل ذلك بل يطرح تقلبات قد تستمر دون نهاية (ibid p. 77). وقد تأثر بهذه الأفكار كثيرًا ه. ل. مور H. L. Moore الذى ربما كان أول من أدرك أهميتها بالنسبة للنظرية العامة. ومع ذلك، فقد كانت طريقتة هى طريقة الستاتيكا المقارنة أساسًا.

بعد قليل بشيء من التفصيل- فقد أخذ يفرض نفسه نوعٌ من البحث لم يكن معروفاً في اقتصاد ما قبل-فالراس. لقد تضمن هذا العمل نظرية بحثة منذ البداية، أو تقريباً منذ البداية. بيد أن تكنيكه كان بسيطاً. ومع ذلك، فإن نظام فالراس للمعادلات الآتية قد قدّم حصيلة من المشاكل الجديدة ذات طبيعة منطقية أو رياضية على وجه التحديد، وهى مشاكل أدق وأعمق بكثير مما تصوره فالراس نفسه أو أى فرد آخر منذ ايما وقت مضى. لقد انصبت هذه المشاكل بشكل رئيسى على موضوعات: التحديد determinateness والتوازن equilibrium والاستقرار stability^(٢٧٥). إنها مشاكل صعبة جداً، وتكنيكية جداً بشكل خاص، بالنسبة لنا. ولكن ينبغي أن نطرح بضع ملاحظات أساسية حولها إذا شئنا فهم طبيعة الإنجاز فى تلك الفترة والكيفية التى يرتبط العمل الحديث به.

ولهذا الغرض، لنأمل تمييزاً معيناً، كان نمطياً جداً بالنسبة للطرق التحليلية فى تلك الفترة، كما يطرح نفسه فى كل من الجزء النقدي والجزء البناء من عمل بوهم-باورك. كان بوهم-باورك يحاول 'تفسير' أو 'فهم' ظاهرة الفائدة. لقد بدت هذه المهمة تتضمن شيئين مختلفين بالنسبة له. أولاً، كان من الضروري بشكل واضح الكشف عن 'سبب' أو 'مصدر' أو 'طبيعة' الفائدة. ثانياً، وبعد إنجاز هذا والتأكد بشكل حاسم من النتائج بمقابلتها 'بالنظريات' الأخرى، برزت مشكلة: ما الذى يحدد معدل الفائدة. لقد غمر الاقتصاديون، وبخاصة باريتو، هذه المهمة بالازدراء. ولكن المهمة يمكن إنقاذها إلى حد ما عن طريق إعادة صياغتها كما يلى: نظراً لتعذر معاملة النظام الاقتصادي كمجموعة من أشياء غير معروفة، فينبغى علينا أولاً بالفعل تعريف ما يجب أن تعنيه عناصر النظام (بما فيها الفائدة)

(٢٧٥) يمكن للقارئ غير الرياضى، رغم ذلك، أن يكتسب فكرة عن هذا النوع من المشاكل من خلال كتاب البروفيسور هيكس: Value and Capital؛ والقارئ الرياضى من ملحق كتاب هيكس: Value and Capital ومن المقالات التى كتبها البروفيسور أ. والد A. Wald: 'Uber einige Gleichungssysteme der mathematischen Okonomie,' Zeitschrift fur Nationalokonomie, December 1936 (وهى تلخص نتائج المقالين الأكر ومقالات تكنيكية كثيرة)؛ وعمل البروفيسور ب. أ. ساملسون A. Samuelson 'The Stability of Equilibrium: Comparative Statics and Dynamics,' Econometrica, April 1941 ; and 'The Stability of Equilibrium: Linear and Nonlinear Systems,' ibid, January 1942. فون نيومان J. von Neumann: 'A Model of General Economic Equilibrium,' Review of Economic Studies. 1945-6 (trans. of an earlier German paper R. Frisch, 'On the Notion of Equilibrium,' Review of Economic Studies, February 1936).

قبل أن نتمكن من صياغة المشكلة الدقيقة: تحديد هذه العناصر من خلال سمات معينة للدوال (العلاقات) التي يتضمنها هذا المعنى. ثم يتبع ذلك، منطقيًا، البرهان على أن المشكلة يمكن أن تُحل حقًا (البرهان على وجود حل ما)، وأخيرًا، درس 'القوانين' التي يكشفها الحل (صفات الحل). وحينما ننجز كل ذلك، نقول إننا 'فسرنا' أو 'فهمنا' العنصر أو العناصر التي شئنا 'تفسيرها' أو 'فهمها'.

وبعبارة أعم، وأبسط في الوقت نفسه، نقول أننا حددنا مجموعة من الكميات (المتغيرات) إذا استطعنا توضيح العلاقات التي ينبغي أن تتوافق الكميات معها والتي ستحدد المدى range الممكن لقيم هذه الكميات. فإذا حددت العلاقات قيمة واحدة أو سلسلة من القيم فقط، فنكون أمام حل فريد - وهي الحالة المرضية بشكل خاص طبعا. ولكن العلاقات يمكن أن تعطى أكثر من قيمة ممكنة واحدة أو سلسلة من القيم - وهي حالة مرضية بدرجة أقل ولكنها أفضل من لا شيء. وبشكل خاص، فإن العلاقات قد تحدد مدى معينًا فقط^(٢٧٦). وفي ضوء ما ورد في الفقرة السابقة، ندرك إن 'تحديد' مجموعة من الكميات بالمعنى الذي تستعمل به هذه العبارة لا يتضمن حقًا كل ما تتضمنه مهمة 'تفسير' ظاهرة معينة. ولكننا ندرك أيضًا أنه يمثل جزءا ضروريًا مهمًا من هذه المهمة - أو، بعبارة أدق، خطوة ضرورية منها. وهذا يجيب على السؤال الذي يُطرح على نحو ساخر في الغالب: لماذا ينبغي على المنظرين أن يقلقوا إلى هذا الحد على 'مجرد تحديد'.

فحينما تأخذ العلاقات، التي تُستقًى من فحصنا 'لمعنى' ظاهرة ما، شكلًا معينًا تحدّد فيه مجموعة من قيم المتغيرات التي لن تظهر أي ميل للتغير في ظل التأثير الوحيد للوقائع التي تتضمنها تلك العلاقات ذاتها، فأنا نتحدث عن توازن: حيث نقول إن تلك العلاقات تعرف شروط التوازن أو وضعًا توازنياً معينًا للنظام وأنه توجد exist مجموعة من قيم المتغيرات تلبي شروط التوازن. ولكن هذا الأمر

(٢٧٦) أمثلة توضيحية: لنفترض أن هناك أفرادا، ممن يحصلون على دخل مقداره دولار واحد، يقترون بشكل متواصل دولارًا آخر وينفقون الدولارين حالاً (إذا عبرنا باللغة الكينزية، فهذا يعني وجود ميل حدى للاستهلاك قدره (٢)؛ فإذا تواصل ذلك، فإن القيم النقدية للنظام سوف تتضخم إلى ما لا نهاية، ولكن العملية محددة بصورة تامة perfectly determined. ينبغي على القارئ أن يتذكر هذا الأمر دائماً بسبب الخلط المتكرر بين التحديد والتوازن. ومرة أخرى، يمكن للقارئ أن يتأكد بسهولة من أن بوسع محقق ما تحقيق نفس المبلغ الأقصى من الأرباح عند سعرين مختلفين أو أكثر لسيلته. أخيراً، أن السعر غير قابل للتحديد indeterminate بشكل عام في حالات الاحتكار الثنائي. ولكنه غير قابل للتحديد ضمن حدود قابلة هي نفسها للتحديد بصورة تامة.

لا يتطلب أن يكون كذلك طبعاً - فلا حاجة لأن تكون هناك مجموعة من قيم المتغيرات تلبي مجموعة معطاة من العلاقات، وأنه يمكن أن توجد عدة مجموعات من هذا النوع أو عدد لا نهائي منها. إن التوازنات الكثيرة لا تخلو من الفائدة بالضرورة، ولكن وجود توازن محدد بشكل فريد (لمجموعة قيم) 'uniquely determined equilibrium (set of values) يحتل أهمية قصوى طبعاً بالنسبة إلى أى علم دقيق، حتى ولو تطلب البرهان وضع فرضيات مقيدة جداً؛ وحينما لا تتوافر أى إمكانية لإثبات وجود توازن محدد بشكل فريد - أو، فى جميع الأحوال، وجود عدد صغير من التوازنات الممكنة - عند مستوى معين من التجريد مهما كان عالياً، فإن حقل الظواهر يتحول إلى فوضى ويتعذر أن يكون هذا الحقل تحت السيطرة التحليلية. ومرة أخرى، فإننا نستخلص إجابة بسيطة ومقنعة للسؤال الذى يطرحه الفرد العادى عن الفائدة التى نتوقع أن نحصل عليها من اهتمامنا 'بالتوازن المحدد' - وعن السؤال الأكثر تحديداً: لماذا لعب هذا المفهوم مثل هذا الدور فى فكر فالراس ومارشال^(٢٧٧).

إن العلاقات التى ننطلق منها يمكن أن تحدد توازناً ستاتيكيًا أو ديناميكيًا وذلك وفقاً لما إذا كانت هذه العلاقات تربط ما بين عناصر تحمل نفس المؤشر الزمنى time subscript أو مؤشرات زمنية مختلفة. لقد استعمل قادة الفترة المدروسة المفهوم الأول فقط - فى بناءهم الرياضية، على الأقل - ولا يبدو أنه كانت لديهم أفكار دقيقة حول المشاكل التى تتركز فى المفهوم الثانى. ولذلك، سوف نقصر على التوازن الستاتيكي إلا إذا فرض علينا وصف ونقد تحليلهم تناول جوانب ديناميكية. وينبغى التشديد، كما فعلنا فى الجزء الأول من هذا القسم بشأن المصطلحين 'ستاتيكي' و'ديناميكي' ذاتهما، على أن مفهوم التوازن، سواء أكان ستاتيكيًا أم ديناميكيًا، لا ينطوى على أى استعارة، شرعية أو غير شرعية، من العلوم الطبيعية التى تستعمل مفاهيم مماثلة. فهذه المفاهيم هى مقولات منطقية، وهى، بهذه الصفة، مقولات عامة عمومية المنطق نفسه. وهى تستعمل فى العلوم

(٢٧٧) كان دوره فى فكر النمساويين، وبخاصة فى فكر فيزر، أساسياً بنفس الدرجة حقاً. وإذا كان ذلك لا يتجلى بصورة صريحة، فهذا يعود إلى نواقصهم التكنيكية حصراً. وقد تحدث المؤرخون، ممن يعانون من هذه النواقص أيضاً، عن 'التوازنيين' equilibrists {هكذا حرفياً} كنوع من مدرسة أو طائفة. وفى الواقع، على أى حال، فإن هؤلاء الكتاب الذين جرت تسميتهم هكذا لم يفعلوا سوى أنهم أبرزوا على نحو أكثر وضوحاً ما تحسسه كل منظر فى تلك الفترة - والفترة السابقة أيضاً فعلاً.

الطبيعية والعلوم الاجتماعية على حد سواء لأن نفس العقل البشرى هو الذى يضعها.

وسواء أكان ستاتيكيًا أم ديناميكيًا، فإن التوازن يمكن أن يكون مستقرًا أو محايدًا أو غير مستقر. وقبل أن نتناول هذا الموضوع، فمن الملائم أن نعلق بإيجاز - وبشكل سطحي جدا - على معنى نظام معين من المعادلات الآتية وعلى مفهوم التحديد المتزامن لمجموعة من المتغيرات simultaneous determination. ونبدأ، مرة أخرى، من أول خطوتين من الخطى الأربع التى يتكون منها المدخل التحليلي الدقيق والتى تُدرك بشكل واضح فى عمل فالراس وذلك لأول مرة فى تاريخ علم الاقتصاد، أى فحص طبيعة الظواهر التى نزمع درسها واكتشاف العلاقات التى نرى أنها موجودة فيما بينها وذلك استرشادًا بمعرفتنا بطبيعتها. وحينما ننجح فى التعبير عن تلك العلاقات بمعادلات، فأننا نصبح جاهزين لأخذ الخطوة الثالثة: أن نضع تلك العلاقات معًا فى نظام معين (فى 'نموذج' نظرى) ونتساءل عما إذا كانت هناك مجموعة فريدة من قيم العناصر تظهر فى هذا النظام كمتغيرات (أو 'كمجاهيل') يمكن أن تلبي كل تلك المعادلات التى يجب أن تسرى كلها فى وقت واحد - ومن هنا تأتى تسميتها كمعادلات آتية. وإلى هنا، نأمل أن كل شيء يمضى جيدًا. ولكن من الصعب جدا الإجابة على هذا السؤال - التى هى إجابة سلبية طبعًا فى معظم الحالات. إن بوسع المعرفة الفطرية السليمة أن تشير إلى شروط معينة ينبغي توافرها إذا أريد الحصول على مجموعة فريدة من القيم - على 'حل' ما. وهكذا، فإن المعادلات ينبغي أن تكون معادلات حقيقية وليس مجرد متطابقات (كالقول إن x هى x)؛^(٢٧٨) ويجب أن تكون مستقلة بمعنى أن أيًا منها ينبغي أن لا يكون متضمنًا فى معادلة أخرى أو أكثر أو فى كل المعادلات؛^(٢٧٩)

(٢٧٨) ولكن المتطابقات، التى تعكس حقيقة إن x و y التى تحدث فى بقية النظام هى متطابقة ($x \equiv y$) حقًا، تسمح باستبعاد x أو y وتساعد بالتالى على التحديد مثلما تفعل معادلة ما بالضبط. إن الخلط بين الفرضيات التى هى متطابقات والفرضيات التى يمكن أن تحدد قيم التوازن تمثل مصدرًا للخطأ والخلاف فى الغالب. انظر: J. Marschak, 'Identity and Stability in Economics: A Survey,' *Econometrica*, January 1942.

(٢٧٩) على أى حال، ينبغي التمييز بين الاستقلال independence والحكم الذاتى autonomy. فليس مطلوبًا، فى الحاجة المبينة أعلاه، أى شيء سوى أن أى معادلة لا يجب أن تنتج عن المعادلات الأخرى رياضياً. ولا يهم هنا ما إذا كانت أم لا، لأسباب اقتصادية، معادلة واحدة أو أكثر لا يمكن أن تسرى ما لم تسر المعادلات الأخرى، رغم أهمية هذا الأمر مهم من النواحي الأخرى. إن مفهوم autonomy، الذى يعود إلى فريش، بعيد جدا عن نطاق اهتمامنا.

وينبغي أن تكون كافية من حيث العدد؛ ولا تتعارض بعضها مع بعض طبعاً^(٢٨٠). ولكن هذه الشروط كافية ويمكن التحقق منها بسهولة في طائفة بسيطة جداً من الحالات لا يعود إليها نظام فالراس. تلزمنا، بحاجة متقدمة جداً وتتضمن أدوات معقدة من الرياضيات الحديثة، لمتابعة المشكلة التي لن نحصل سوى على لمحة عنها في القسم السابع. وكان فالراس ومارشال بعيدين عن حلها - لأن الأدوات الرياضية المطلوبة لم تكن موجودة في زمنهما الخلاق، وذلك كأحد أسباب ذلك - وكان يتعذر حتى تكوين مفهوم واضح عن طبيعتها وصعوبتها. ولكن فالراس قدم أكثر من 'معادلات محاسبية' كما سنرى أيضاً^(٢٨١).

[النسخة غير مكتملة أيضاً. ثمة فقرة منعزلة من النسخة المبكرة (انظر الملحق) يجرى إدخالها هنا وذلك لأنها تعرّف بإيجاز شديد التوازن المستقر، والمحايد، وغير المستقر. سيتم التعرض إلى هذه المفاهيم مرة أخرى في الأقسام المتأخرة من هذا الفصل].

وهكذا يمكننا أن نتصور عمليات راکدة وتطورية ويمكننا أن نحلل كليهما بواسطة أما طريقة ستاتيكية أو ديناميكية. سنطرح مفهوم التوازن الآن. يمثل التوازن الستاتيكي الحالة الأبسط، والأكثر أهمية بالنسبة لمعظم الأغراض. افترض أننا حسماً موضوع: أى عناصر من العالم الاقتصادي نريد تحديدها وما هي المعطيات والعلاقات التي نستخدم في تحديدها. وعندئذ يبرز سؤال حول فيما إذا كانت هذه العلاقات، التي يفترض أنها تسرى في وقت واحد (معادلات آنية)، تكفي بالضبط لتحديد مجموعات من القيم لتلك العناصر (المتغيرات) التي تقي بالعلاقات. قد لا يكون هناك هكذا مجموعة، أو قد تكون هناك مجموعة واحدة من هذا النوع، أو أكثر من مجموعة واحدة منها، دون أن ينتج عن ذلك أن نظامنا ليس له قيمة ما valueless إذا كانت هناك مجموعات عدة. ولكن الحالة الأكثر ملائمة والتي يصلح من أجلها كل منظر طبعاً هي أن تكون هناك مجموعة فريدة. إن مجموعة أو

(٢٨٠) في هذا السياق، تنبغي ملاحظة الأهمية الكبيرة للنقطة الأخيرة (التي تعكس أيضاً أن قضايا منطقية بحثة كهذه يمكن أن تؤثر بشكل مباشر على قضايا عملية تجري مناقشتها بحرارة). فإذا كان النظام أو النموذج، الذي يعبر عن السمات الجوهرية للمجتمع الرأسمالي بصورة صحيحة، يتضمن معادلات متناقضة، فمن شأن هذا أن يبرهن على التوقفات المتأصلة في النظام الرأسمالي - برهان على 'التناقضات الرأسمالية' الحقيقية بدلاً من الوهمية.

(٢٨١) انظر عمل مارشال Principles، الملحق الرياضي، الملاحظة الحادية والعشرين: in fine.

مجموعات كهذه نسميها مجموعات توازنية ونقول إن النظام فى توازن حينما تأخذ متغيراته القيم التى تتحدد بهذا الشكل. ومن البدهى إن هذه القيم تكون مفيدة لنا أكثر حينما تكون مستقرة أكثر مما لو كانت محايدة أو غير مستقرة. القيمة التوازنية المستقرة هى قيمة توازنية، والتى لو تعرضت إلى تغير طفيف، فإنها تخلق قوى من شأنها أن تعيد إنتاج القيمة القديمة؛ القيمة التوازنية المحايدة هى قيمة توازنية لا تعرف مثل هذه القوى؛ والقيمة التوازنية غير المستقرة هى قيمة توازنية يخلق التغيير فيها قوى تميل إلى تحريك النظام بعيداً أكثر وأكثر عن قيم التوازن. توضح الكرة المستقرة فى قاع تجويف ما الحالة الأولى؛ وتوضح الكرة الجائئة على طاولة بليارد الحالة الثانية؛ بينما توضح الكرة المستقرة على قمة تجويف مقلوب الحالة الثالثة. ومن الطبيعى أن الشروط التى تؤمن الاستقرار والتى يخلق غيابها عدم الاستقرار تحتل أهمية خاصة لفهم منطق النظام الاقتصادى. وقد قيل، بهذا المعنى، إن شروط الاستقرار هى التى تولد موضوعاتنا.

٤. الفرضية التنافسية ونظرية الاحتكار^(٢٨٢)

أشير أعلاه إلى أن اقتصادى الفترة المدروسة حافظوا على عادة سابقهم 'الكلاسيك' فى النظر إلى 'المنافسة' بوصفها الحالة العادية عند بناء تحليلهم العام^(٢٨٣)؛ وأنهم، كسابقهم هؤلاء، بالغوا فى نطاق سريان هذا التحليل. وفى الواقع، ثمة أمثلة كثيرة حول الكتاب الذين نظروا إلى المنافسة بوصفها الحالة العادية أما بمعنى أنها تغطى معظم نشاط الأعمال الفعلى (فالراس، النمساويين)؛ أو بمعنى إن الانحراف عن المخطط التنافسى، رغم كثرته، لا يلاحظ إلا أحياناً (مارشال، فيكسل)^(٢٨٤)؛ أو بمعنى إن المنافسة 'يجب' أن تكون الحالة العادية وأنها

(٢٨٢) [وجد هذا القسم فى أربعة أجزاء، ثلاثة منها مطبوعة (ومرقمة بصورة مستقلة أحدها عن الآخر) والرابع مكتوب باليد وغير مرقم. وتبدو هذه الأجزاء وهى تتلو أحدها الآخر ما عدا الأخير الذى كان موجزاً جداً ومكتوباً حديثاً كما يبدو. يدور الجزء المكتوب باليد حول احتكار القلة وهو غير كامل بصورة واضحة. ثمة معالجة أكثر إيجازاً عنوانها 'الاحتكار، واحتكار القلة، والاحتكار الثنائى' يحتمل أن تشكل دراسة تمهيدية (غير مطبوعة) وقد تم إيداعها، سوية مع المخطوطة، فى مكتبة هوتون فى هارفارد.]

(٢٨٣) ولكن قارن أيضاً ما قيل أعلاه حول تحفظات وتحذيرات ميل التى لم تُقدّر حق قدرها على السدوم. كما لا ينبغي أن ننسى أن كورنو أقام تحليله وفقاً لحالة الاحتكار.

(٢٨٤) ولكن باريتو أنكر بصورة مشددة أن 'تسود' المنافسة فى مجتمعنا بالفعل؛ انظر: Cours, vol. 11, p. 130.

‘ينبغي’ ويمكن، أن تتعزز سياسات ملائمة (كلارك)؛ أو، أخيراً، بمعنى أن النظام الفعلي، مهما كان غير تنافسي في أجزاء منه، يمضي عموماً كما لو أنه نظام تنافسي (كاسل). وعلاوة على ذلك، فرغم أن ليس كلهم كانوا يمدحون المنافسة بصورة عمياء (انظر القسم الخامس، أدناه)، فكلهم تقريباً كانوا يميلون لإبداء التحيز المميز للمنظر الاقتصادي والذي لا شأن له بالترفضيل السياسي: التحيز لأنماط تسهل إدارتها. ومن البديهي القول إن قيام المنظرين بالوصف المعمّم للسلوك الاقتصادي إنما تبسّطه كثيراً فرضية أن أسعار كل المنتجات و‘العوامل’ لا يمكن أن تؤثر عليها بشكل محسوس الأسرة الفردية والمنشأة الفردية وبالتالي إمكانية اعتبارها كأسعار معطاة (كمعاملات) في إطار نظرية سلوك هذه الأسرة والمنشأة^(٢٨٥). وعليه، فإن الأسعار ستحدد، عموماً، وفقاً للأثر الكلي لأفعال كل الأسر والمنشآت في ‘أسواق’ يسهل وصف آلياتها بحكم إن الأسر والمنشآت لا تملك أي خيار سوى أن تكيف، للأسعار السائدة، كميات السلع والخدمات التي ترغب بشرائها وبيعها. يمكننا أن نسمي هذا مبدأ غياب الإستراتيجية Principle of Excluded Strategy وأن نقول، بالتالي، إن الجزء الأكبر من النظرية البحتة في الفترة المدروسة كان نظرية بحتة للتوازن الستاتيكي قامت باستبعاد الإستراتيجية. وأخيراً، فإن النمو الشامل لمستوى الصرامة العلمية قد خلق أخيراً جوهر ما نسميها الآن المنافسة البحتة أو التامة، ولو ليس هذا المصطلح نفسه بعد^(٢٨٦).

(أ) الفرضية التنافسية لقد جعل كورنو هذه الفكرة صريحة في نهاية الفصل السابع وبداية الفصل الثامن من عمله Researches: فبعد أن ابتدأ كورنو بحالة الاحتكار المباشر (الذي يُناقش، أدناه)، فإنه أضاف في البداية بائعاً آخر ثم بائعين آخرين، إلى أن توصل أخيراً، عن طريق جعل عدد البائعين يزداد إلى حد كبير جداً، إلى حالة المنافسة ‘غير المحدودة’ (illimited unlimited competition)،

(٢٨٥) من المهم أن نلاحظ أن البروفيسور هيكس كان مقتنعاً، عام ١٩٣٩، بأن التحليل النظري الناجح يقتصر على الحالة التنافسية مثلاً فعل ميل عام ١٨٤٨: إن التخلي عن الفرضية التنافسية يهدد بتحطيم ... الجزء الأكبر من النظرية الاقتصادية* (Value and Capital, 1939, p. 84).

(٢٨٦) قدم مصطلح المنافسة البحتة pure competition، الذي سيُستعمل في هذا الكتاب، من قبل البروفيسور إي. ه. جامبرلين E. H. Chamberlin في عمله: Theory of Monopolistic Competition (إن مقدمة الطبعة الأولى لهذا الكتاب تُؤرخ بعام ١٩٣٢، ولكن جوهر المحاجة، في كل أساسياتها، ترد في أطروحة غير منشورة قدمت عام ١٩٢٧). انظر الجزء الخامس، الفصل الثاني، أدناه.

حيث تكون الكمية التى ينتجها كل منتج صغيرة جدا بحيث لا تؤثر بشكل محسوس على السعر أو أن تسمح بوضع إستراتيجية سعرية^(٢٨٧). وقد أضاف جيفونس قانونه للسواء Law of Indifference الذى يعرف مفهوم السوق الكاملة التى لا يمكن أن يوجد فيها، فى أى لحظة، أكثر من سعر واحد لكل سلعة متجانسة. تعبر هاتان الصفتان - استبعاد إستراتيجية السعر وقانون السواء - عما قصده فالراس بعبارة libre concurrence {المنافسة الحرة}، وذلك بقدر ما يمكننى أن أرى. وقد توصل تعريف باريثو إلى الشيء نفسه (Cours, 1, p. 20). ومع ذلك، فإن هذا لم يصف كل الصعوبات المنطقية التى تختفى خلف مفهوم سوق تنافسى معين^(٢٨٨)، التى يجب ملاحظة بعضها بإيجاز الآن.

إن آلية المنافسة البحتة تؤدى دورها، كما يُعتقد، عبر رغبة كل فرد بتعظيم ميزته الصافية (إشباعه أو مكسبه النقدي) من خلال محاولة التكيف الأمثل للكميات التى يُراد شرائها وبيعها. ولكنك يمكن أن تستبعد 'الستراتيجية' كما نشاء؛ ورغم ذلك، فستبقى حقيقة إن هذا التكيف يخلق نتائج تختلف تبعاً لمدى معرفة المنظمين، وفورية قراراتهم، و'عقلانيتهم'، وكذلك وفقاً لتوقعاتهم عن مستقبل الأسعار، فضلاً عن الحقيقة الأخرى المتمثلة بأن سلوكهم يخضع لقيود أخرى تنتج عن أوضاع كانوا قد خلقوها هم لأنفسهم عبر قراراتهم السابقة. وسنرى، أدناه، أن فالراس كان يدرك هذه الصعوبات جيداً وأنه أبصر، فى مواضع معينة (كما فى الفقرة الأخيرة من الدرس الخامس والثلاثين من عمله Elements) الضرورة التى تلوح فى المستقبل لبناء مخططات ديناميكية لأخذ تلك الصعوبات بنظر الاعتبار. ومع ذلك، فإنه وجد بنفسه بصورة لا تقل وضوحاً، حينما انكب على عمله الرائد لتطوير أساسيات النظرية الرياضية بالنسبة للعملية الاقتصادية، أنه لا يملك أى خيار سوى التبسيط الشديد (Elements, p. 479). وهكذا افترض فالراس (فى

(٢٨٧) تتمثل ميزة هذا المدخل فى أنه يشدد على حقيقة أن المنافسة البحتة تنتج عن شروط معينة: وهذا المدخل أفضل كثيراً من افتراض المنافسة البحتة كشيء مؤسسى معطى. وإضافة إلى ذلك، شدد كورنو (المصدر السابق، ص ٩٠) على أن الكمية التى ينتجها كل منتج يجب أن تكون 'ضئيلة ليس فقط بالنسبة للإنتاج الكلى، ($D = F(p)$)، ولكن أيضاً بالنسبة للمشتقة ($F'(p)$)، بحيث إن الإنتاج الجزئى [لكل منتج فردي] يمكن طرحه من D دون التأثير على سعر السلعة بشكل محسوس'.

(٢٨٨) كان مور أول من أبدى عدم الارتياح المنطقي من معالجة المؤلفين الآخرين لذلك المفهوم: H. L. Moore, 'Paradoxes of Competition,' Quarterly Journal of Economics, February 1906, and Synthetic Economics, pp. 11-17. ولكن معالجته هو نفسه للمفهوم لم تكن مرضية أكثر.

البداية) إن كميات الخدمات الإنتاجية التى تدخل فى كل وحدة من المنتج (معاملات الإنتاج) هى معطيات تكنولوجية ثابتة؛ وأنه لا يوجد شىء من قبيل التكلفة الثابتة؛ وأن كل المنشآت فى صناعة معينة تنتج نفس النوع من المنتج، وبنفس الطريقة، وبكميات متساوية؛ وإن العملية الإنتاجية لا تستغرق وقتًا؛ وأن مشاكل الموقع يمكن إهمالها. وفى ظل هذه الظروف، لم يكن من غير الطبيعي أن يستغل أو يسعى فالراس إلى امتيازات الريادة التى يتمتع بها وذلك بأن يختزل كل الأنواع الممكنة لرد الفعل إلى نوع قياسي واحد^(٢٨٩). والسؤال الذى يبرز بالنسبة لنا: كم من هذا قصد فالراس أن يُدخل بالفعل فى 'منافسته الحرة'؟ لقد أعلن (من قبل البروفيسور نايت، من بين آخرين) إن فالراس، ومنظرى تلك الحقبة عمومًا، كانوا يريدون وضع 'علم كلى الوجود' ومنافسة بحثة يكون فيها رد الفعل عقلائيًا بصورة مثلى وفوريًا؛ بحيث إن الانحراف عن هذا النمط يمكن أن يوضع عندئذ فى الحظائر الفسيحة لكيان معين اسمه 'الاحتكاك' friction الذى يمكن أن يساعد المنافسة البحثة بالنقاط أى مادة تعجز عن استيعابه. ومع ذلك، فقد جرى التشديد على أنه لا معنى من تحميل المنافسة البحثة بهذا الشكل المفرط، وبأن من الممكن تمامًا، عند تفسير كتاب تلك الحقبة، فصل مفهومهم عن المنافسة البحثة، كما تم تعريفها فى الفقرة السابقة، عن أى فرضيات أخرى، ربما كانوا وضعوها بشكل عام أو لأغراض خاصة، بشأن مدى معرفة الأفراد وفورية وعقلانية تصرفاتهم وكل الأشياء التى ذكرت آنفًا وذلك حتى فى الحالات التى لم يقوموا هم أنفسهم بهذا الفصل^(٢٩٠).

أما مارشال، فلم يأخذ هذا الخط على أى حال. فكما فعل فالراس حينما عَزَمَ، أكثر من أى اقتصادى آخر من اقتصادىي الفترة البارزين، على التخلص من أى شىء آخر لا يعتبره هو جوهريًا لمخططه النظرى، عَزَمَ مارشال، سيرًا على

(٢٨٩) ومع ذلك، فقد استفاد فالراس، هنا وهناك، من قانون الأعداد الكبيرة الذى لم يعرفه قط بشكل دقيق. وقد اتبع فالراس فى ذلك تلميح كورنو.

(٢٩٠) إن المثال الذى يوضح أهمية تلك النقطة تقدمه العبارة القائلة، وفقًا لنظرية ما قبل-كينز، بعدم إمكان قيام 'بطالة إجبارية' فى ظروف المنافسة التامة باستثناء البطالة من النوع 'الاحتكاكى' unemployment frictional (Keynes, General Theory, p. 16). ويمكن التخلص كليًا من النقد الضمنى بمجرد أن نتذكر أن 'التشغيل الكامل' هو فرضية ليس للمنافسة البحثة ذاتها بل للتوازن التام فى ظروف المنافسة البحثة. ولكن إذا كانت المنافسة البحثة تتضمن التكيف الفورى الأمثل، فينبغى عمومًا أن يتحقق التشغيل الكامل والتوازن التام معًا دائمًا من الناحية العملية، وأنه يمكن المجاجة حقًا بأن هكذا نظرية لا تطابق الواقع.

التقليد الإنجليزي، على إنقاذ كل قطعة من الحياة الحقيقية إذا كان بوسعها أن لا يهملها. وبالنسبة للموضوع المعنى، فلم يحاول مارشال أن يختزل منطق المنافسة إلى أرق جزء منه. ففي الصفحات الأولى من عمله Principles، شدد مارشال على الحرية الاقتصادية أكثر مما على المنافسة وامتنع عن تعريف الأخيرة بشكل صارم. وقد أولى مارشال، في كل موضع من Principles، اهتماماً واسعاً لمشاكل المنشآت الفردية: للطريقة التى تفتح بها هذه المنشآت أسواقها الخاصة Special Markets وتتاور فى إطارها، والطريقة التى تفقد بها هذه الأسواق، وما يترتب على ذلك من نتائج محددة. ويجرى التأكيد على أن هذا الاهتمام ينطوى على أكثر من مجرد النفور من التجريد الشديد. إذ يتم إدراك تلك المجموعة من المشاكل التى تطورت فيما بعد إلى نظرية المنافسة الاحتكارية monopolistic competition (جامبرلين Chamberlin) أو غير التامة imperfect (روبينسون Robinson) حيث يمكن القول إن مارشال كان النصير المدافع عنها حقاً. ولكن هناك أيضاً فارقاً ضئيلاً فى موقفه من هذه المشاكل وموقف الأنصار الحداثيين لهذه النظرية ليس من السهل إيضاحه.

إذا كنا، من ناحية، نعتقد بأن الاحتكار البحث أو التام والمنافسة البحثية أو التامة تبرزان من بين الأنماط الكثيرة جداً بسبب توافر خواص معينة- يتمثل أهمها فى أن كلتا الحالتين تسمحان بالمعالجة بواسطة مخططات بسيطة نسبياً وعقلانية تتحدد بشكل فريد (عموماً)- وأن الغالبية العظمى من الحالات التى تظهر عملياً ليست سوى توليفات mixtures وتفرعات hybrids من هاتين الحالتين، من الناحية الأخرى، فمن الطبيعى إذن أن نقبل الاحتكار البحث والمنافسة البحثية بوصفهما النمطين الحقيقيين أو الأصليين وأن نمضي لدرس كيفية ظهور تفرعاتهما hybrids. إن هذا الطرح يعكس موقف منظري المنافسة الاحتكارية أو غير التامة. ولكن بدلاً من معالجة الحالات المتفرعة hybrid cases كانحراف عن الحالتين الأصليتين أو كترفيف لهما، فمن الممكن أيضاً أن ننظر إليها كحالات أصلية، وأن ننظر إلى الاحتكار البحث والمنافسة البحثية كحالات قصوى تم فيها تنقية المحتوى الفعلى لسلوك منشآت الأعمال. إن هذا الطرح يشبه أكثر الخط الذى أخذ به مارشال. وإذا تصور القارئ أننى أسعى لوضع تمييز لا يختلف بشيء ما، فأنتنى أدعوه لأن يسأل نفسه عما إذا كان تعريف المنافسة البحثية المقدم أعلاه يطابق حقاً

ما نقصده حينما نتحدث عن النشاط التنافسي لمنشآت الأعمال Competitive Business. أليس حقيقة أن ما نقصده إنما هو مخطط لدوافع، وقرارات، وأفعال تفرضها الضرورة على منشأة ما تسعى لجعل الأشياء أفضل أو أكثر نجاحًا مما تفعله المنشأة المجاورة في جميع الأحوال؛ وبأن هذا الوضع هو الذى نعزو إليه الكفاءة التكنولوجية والتجارية للنشاط 'التنافسي'؛ وبأن هذا النمط من السلوك يغيب كليًا عن حالتى الاحتكار البحث والمنافسة البحتة معًا مما قد يجعلهما، كما يبدو، أكثر استحقاًا لأن تُسمى كحالات متفرعة degenerate cases أكثر من تسميتها كحالات أصلية؟^(٢٩١) وما لم أكن مخطئًا، فثمة شعور واسع بهذا الأمر أخذ بالظهور فى وقتنا الحاضر - ومن هنا يأتى البحث عن مفهوم 'عملى' للمنافسة workable (ج. م. كلارك) يمكن أن يبدأ من تحليل محاجة مارشال. ومع ذلك، فهذه الأخيرة كان حظها سيئًا بشكل غريب فى هذا الجزء من تعاليمه. فلم يبصر المنظرون أو الخصوم المؤسسيون للنظرية ما فيها من التلميحات التى كان يمكنهم تطويرها.

(ب) نظرية الاحتكار سبق أن فحصنا عمل ووجهات نظر اقتصاديى الفترة حول القضايا العملية للاحتكار، واحتكار القلة، والممارسة الاحتكارية ذلك لأن التطورات فى مجال المنشآت الأكبر حجمًا قد فرضت عليهم أن يهتموا بهذه القضايا. ويترتب علينا الآن أن نلتفت إلى الأدوات النظرية التى استعملوها فى هذا الحقل. ثمة تواريخ ناقدة ممتازة تتيح لنا الاقتصار على الخطوط الأكثر عمومية^(٢٩٢). يمثل عمل كورنو العمل الرئيسى بحيث إن عمل الفترة يمكن أن يوصف كسلسلة من المحاولات الناجحة لتطوير نظريته الستاتيكية statics للاحتكار المباشر straight monopoly وكسلسلة أخرى من محاولات أقل نجاحًا لتطوير وتصحيح نظرياته لاحتكار القلة والاحتكار الثنائى. أما مرتبة الشرف الثانية، فينقاسمها مارشال وإديجورث^(٢٩٣).

(٢٩١) إن الحكمة من هذه القصة تتمثل طبعًا بأن تفكيك ظاهرة ما إلى مكوناتها المنطقية واستخلاص المنطق البحث من كل من هذه المكونات يمكن أن تجعلنا نفقد الظاهرة عند محاولة فهمها: فجوهر مركب كيميائى معين يمكن أن يتجسد فى المركب وليس فى أى من عناصره أو كلها.

(٢٩٢) انظر: Gaston Leduc, Theorie des prix de monopole (1927)؛ والفصلين الأول والثالث من عمل إى. ه. جامبرلين: Monopolistic Competition (5th. 1946) حيث يجد القارئ أيضًا فهرسًا كاملاً تقريبًا؛ F. Zeuthen, Problems of Monopoly and Economic Welfare (1930)؛ H. von Stackelberg, Marktform und Gleichgewicht (1934, ch. 5)؛ J. R. Hicks, 'The Theory of Monopoly,' Econometrica, January 1935.

(٢٩٣) مساهمة فالراس غير مهمة. وإلى جانب كورنو، ربما كان يتعين علينا أن نشير إلى دوبو Dupuit=

ولتقدير عمل كورنو، فمن الضروري أن نتذكر، كما سبق أن لاحظنا باستغراب، أنه لم تكن هناك عملياً أى نظرية للاحتكار قبل كورنو رغم كثرة الحديث عنها، وحتى أن نقطة انطلاق كورنو: دالة الطلب 'المرشالية' (loi du debit) لم يتم تعريفها بدقة حتى عام ١٨٣٨. لنلاحظ أولاً أن دالة الطلب $D = F(p) + pF'(p)$ ، وبالتالي أيضاً دالة الإيراد الكلى $pF'(p)$ ودالة الإيراد الحدى $F'(p)$ ((Researches, p. 53))، هي معطاة موضوعياً بالنسبة للمحتكر الذى، من ناحية، يمكنه أن يستعمل جدول طلب معطى كما يشاء، ومن ناحية أخرى، لا يفترض فيه أن يكون قادراً على تغييره لصالحه عن طريق الدعاية أو بواسطة تعليم زبائنه استعمالات جديدة لمنتجاته. وهكذا لأول مرة نحصل، ضمناً، على تعريف للاحتكار، ولكنه تعريف يستبعد الغالبية الكبيرة من كل 'الباعة الفرديين' الذين يمكن ملاحظتهم فى الحياة الواقعية^(٢٩٤). ثم يمضى كورنو لمواجهة دوال الإيراد المعطاة بمنحنيات التكلفة الكلية والحدية^(٢٩٥) لاستخلاص الموضوعات التى يعرفها كل مبتدئ فى وقتنا الحاضر والقائلة إن المكسب (الآننى instantaneous) يتعظم حينما يضع المحتكر سعراً معيناً يساوى الإيراد الحدى عنده التكلفة الحدية (نفس المصدر السابق، ص ٥٧). إن هذه الموضوعات ستاتيكية طبعاً وتعود إلى عالم

= وإليت Ellet. ترد بعض مساهمات إديجورث فى عمله (1881 Mathematical Psychics)، وترد البقية الباقية منها، وبخاصة ترجمة العمل المهم: 'Teoria pura del monopolio' (Giornale degli Economisti, July 1897) فى عمله: Papers Relating to Political Economy. انظر كذلك عمل أ. س. بيجو: Wealth and Welfare (1912) and Economics of Welfare (4th ed., 1932, part 15, ch. 11)؛ وكذلك عمل بولى Bowley: (1924 Mathematical Groundwork)، وذلك رغم تاريخه.

(٢٩٤) ومع ذلك، فقد قبل معظم الاقتصاديين ذلك التعريف المقيّد جداً حتى هذا اليوم وأصروا، رغم ذلك، على تطبيق مصطلح: الاحتكار ونظرية كورنو بشأنه على كل حالات الباعة الفرديين. وقد حلل ب. م. سويزى P. M. Sweezy المضامين المنطقية لنظرية كورنو: 'On the Definition of Monopoly,' Quarterly Journal of Economics, February 1937. إن هذا العمل يمثل نظرية جامبرلن للاحتكار المنعزل Isolated Monopoly؛ أما الاحتكار البحث لديه، فهو ... [الهامش غير مكتمل].

(٢٩٥) لم يعتبر كورنو، مثلما فعل مع دوال الإيراد، إن منحنيات التكلفة هذه معطاة بصورة مستقلة عن سلوك المحتكر: إذ اعتبر بشكل خاص أن المحتكر الذى يسيطر على عدة تجهيزات plants يشغل فقط تلك التى يمكنها أن تدر أقصى ربحية، بينما من شأن المنشآت المتنافسة أن تشغل كل التجهيزات مادامت هناك إمكانية لتحقيق أى ربح من تشغيلها (ص ٨٧). كما تنبغى ملاحظة أنه ناقش حالة تناقص التكلفة الحدية-، وبالتالي، ضمناً أيضاً، تقديم المعنى الصحيح 'التناقص التكلفة' الذى أحكمه إديجورث بعد ٦٠ سنة من ذلك. أخيراً، شدّد كورنو على حقيقة أن العناصر الثابتة فى التكلفة الكلية لا تؤثر على السعر، وذهب، بشكل خاص، إلى أن التكلفة لا تؤخذ بالاعتبار إذا كانت كلها ثابتة وبالتالي فإن التكلفة الحدية تساوى صفراً.

التحليل الجزئي (انظر القسم السادس، أدناه). كما أنها أيضاً تعتمد حصراً على معايير النهاية القصوى maximum التي يقدمها التفاضل والتكامل calculus، أى أن وجود existence وفردة uniqueness النهاية القصوى مثبتان، وإن الطريقة التي يتأثر بها السعر الأمثل للمحتكر بتغير معين فى التكلفة هى طريقة محددة determined وذلك بالنسبة للتغيرات الصغيرة فقط^(٢٩٦). ولكن بالرغم من هذه وغيرها من الانتقادات التي يتعذر تقديمها هنا^(٢٩٧)، فقد كان ذلك عملاً ممتازاً ينبغي أن نبدي أقصى إعجاب به، وكذلك بمعالجة الضرائب على السلع فى ظل الاحتكار (الفصل السادس)^(٢٩٨).

فى الفصل الثالث عشر من الكتاب الخامس، أعاد مارشال طرح هذا التحليل عن طريق تكتيك خاص به لن يعتبره أحد أفضل من تكتيك كورنو. ولكنه أضاف شيئاً يعود إليه حقاً. فكورنو كان قد أدرك بالفعل أن بنية التكلفة لدى المحتكر قد تكون أكثر ملائمة من تلك الخاصة بصناعة تنافسية معينة. ولكن توضيح الأهمية الكاملة لهذه الإمكانية قد ترك إلى مارشال ليقدمه وفق لمساته الكاملة المستمدة من معرفته العملية: إذ ترقى حاججته بالفعل إلى إنكار وجود

(٢٩٦) إن المعايير التي يقدمها التفاضل والتكامل calculus لمعرفة ما إذا كانت دالة مستمرة ذات متغير واحد تظهر قيمة قصوى فريدة unique maximum هى أن المشتقة الأولى للدالة ينبغي أن تختفى وأن مشتقتها الثانية يجب أن تكون سالبة؛ وأن هذه المعايير تجيب على السؤال بالنسبة لفترة interval قصيرة فقط ولا تقول شيئاً عما إذا كانت نفس الدالة تبدي نهاية قصوى أخرى بعد ذلك ال interval. ومع ذلك، وضع كورنو فرضياته حول شكل دوال الإيراد الكلى والتكلفة الكلية بطريقة معينة تتيح نهاية قصوى فريدة. ولكن برهانه الذى يفيد بأن زيادة صغيرة فى التكلفة الحدية ترفع السعر الأمثل للمحتكر (ولو أكثر حيناً وأقل حيناً آخر من مقدار الزيادة وذلك وفقاً لشكل منحنى الطلب) تقوّده بصورة جدية الفرضية القائلة إن الزيادة فى التكلفة والسعر ضئيلة جداً بحيث يمكن إهمال مربعاتها (وأسسها الأعلى) وحواصل ضربها. وفى §32 من الفصل الخامس، حاول كورنو تحرير نفسه من هذا القيد وذلك بشطر الزياتين، حينما لا تكونا صغيرتين، إلى عناصر صغيرة وبالاتقال من شكل التكلفة القديمة إلى الشكل الجديد بواسطة هذه الخطى الصغيرة التي يُعتقد إن برهانه يسرى على كل واحدة منها. ربما من الواضح لماذا هذا هو مدخل غير مقبول.

(٢٩٧) وبشكل خاص، فإن برهان كورنو الوارد فى الصفحات ٨٧-٨٩ من الفرضية القائلة إن السعر الأمثل للمحتكر أعلى دائماً من السعر فى ظل المنافسة البحتة حتى حينما، عند إنتاج كميات متساوية، تكون التكاليف لدى المنتجين المتنافسين دائماً أعلى مما يمكن أن تكون عليه فى ظل احتكار ما* هو برهان يمكن الاعتراض عليه.

(٢٩٨) حاجج مارشال من خلال الإيراد الصافى الكلى للمحتكر أكثر مما فعل ذلك من خلال الشرط الحدى (Monopoly Revenue Schedule, Principles, p. 539). وهذا يبين لماذا أدّش منحنى الإيراد الحدى، الذى أعاد التشديد عليه جامبرلن وروبينسون، الاقتصاديين حوالى عام ١٩٣٠ كشيء يتمتع ببعض الجودة.

فرضية مسبقة تعتبر إن السعر الذى يضعه عادة احتكار صناعى حديث هو أعلى، وأن الكمية المنتجة أقل، مما يمكن أن يكونا عليه لو أنتجت نفس السلعة فى ظل المنافسة الحرة. ومرة أخرى، كان كورنو يعلم طبعاً، ولكنه فشل فى التشديد على أن السعر الاحتكارى هو سعر محدد determinate بمعنى معين يختلف عن المعنى الذى يكون فيه السعر التنافسى determinate: ففى ظل المنافسة البحتة، يتعين على المنشآت قبول السعر السائد؛ فى حين لا يكون المحتكرون تحت مثل هذا الإكراه وأن بوسعهم وضع أسعار تقل عن المستوى الأمثل القائم وذلك أما لأسباب إستراتيجية تتعلق بأرباحهم الخاصة أو لأسباب أخرى تفيد جهة أخرى، وبخاصة زبائنهم. وقد أدرك مارشال ما يعنيه هذا. وهكذا انفتح أفق على مجموعة واسعة من الظواهر والمشاكل المهمة^(٢٩٩)، الذى عاد ليضيق حالاً مرة أخرى فى ضباب الإيديولوجيا^(٣٠٠). ولكن مارشال، مثل كورنو، فشل فى الاهتمام بدرجة كافية بجانب مهم من الإستراتيجية الاحتكارية: التمييز السعري Price Discrimination. لقد تطورت نظرية هذا الجانب فى شكل أولى على يد دوبو، وفالراس^(٣٠١). وإديجورث. ويبين تقديم بيجو Pigou لهذا النطاق من المشاكل فى عمله Wealth and Welfare مدى فهم اقتصادي الفترة محل الدرس للتمييز السعري. كما لا ينبغي أن ننسى أن المتخصصين فى الحقول التطبيقية، وبخاصة فى النقل، ذهبوا أبعد من ذلك^(٣٠٢).

(٢٩٩) انظر: §§ 6-8 من الفصل المتعلق بالاحتكار، وبخاصة محاجة مارشال حول ما يسميه هو مكسب التسوية compromise benefit، ص ٥٤٩. لاحظ مرة أخرى: إن مارشال لم يصف فى هذا الفصل إلا القليل، إن أضاف شيئاً أصلاً، إلى الهيكل العظمى التحليلي لدى كورنو؛ ولكنه هنا، كما فى مواضع أخرى، طور منه، بفضل بصيرته الواسعة والعميقة، تحليلاً اقتصادياً كان قد قزّم ذلك الهيكل والعمل التحليلي الأرفع للفترة اللاحقة على حد سواء. وقد تم تصور حتى المتمم الإحصائي لنظرية الاحتكار بشكل واضح.

(٣٠٠) ومع ذلك، فإذا كان إدراك مارشال الواسع والعميق للظواهر الاحتكارية وشبه-الاحتكارية فى عهده قد فشل فى أن يعطى ثماره، فإن عظمته التاريخية تبرز على نحو ساطع لأنه أبصر فى تلك الظواهر أكثر من نتائج لجشع لا يقوم على أداء دور ما rapacity functionless، أو، كما وضعها اقتصادى بارز من اقتصاديين وقتنا الحاضر، نتائج لرغبة المنتجين بحياة سهلة.

(٣٠١) Elements, §§ 382-4. آمن فالراس بأن التمييز ممكن فى 'المنافسة الحرة' أيضاً. وهو يشكل مثلاً مهماً - ولكن ليس فى التوازن التام للمنافسة البحتة - على ضرورة التمييز الدقيق بين الخواص التى تعرف المنافسة، والخواص التى تعرف التوازن، والخواص التى تعرف التوازن التنافسى. ومع ذلك، لم يرتكب فالراس أى خطأ: إذ وجد أن التمييز لا يخرق ظروف التوازن إلا عند وجود عناصر من الاحتكار.

(٣٠٢) لا يمكننى أن أجد أى برهان للظروف التى يمكن فى ظلها أن يحسن التمييز وضع كل الأطراف المعنية بما فيها الطرف الذى وُضع التمييز ضده. ولكن حالة المحار لدى هادلي Hadley تقدم=

[ج] احتكار القلة والاحتكار الثنائي] ومع ذلك، ترك لنا كورنو ارثين آخرين. الأول هو نظرية معينة لاحتكار القلة oligopoly^(٣٠٣) أو الاحتكار الثنائي duopoly، كما أصبحت تسمى من زاوية الحالة الخاصة التي غالباً ما تناقش. وكما أشرنا من قبل، فقد عثر كورنو على احتكار القلة في طريقه حينما كان يضيف، انطلاقاً من الاحتكار، منشأة واحدة، منشأتين، ثلاثة،... منشآت متنافسة ذات أحجام مقاربة إلى أن استقر على 'المنافسة غير المحدودة' illimited competition (unlimited)، التي اشتق لها، بصورة صحيحة، موضوعاً أخرى من تلك الموضوعات المعروفة لكل مبتدئ، أي أن السعر يساوي التكلفة الحدية عند توازن المنافسة البحتة. وكانت محاججته، في بدايتها كما في نهايتها، مقبولة إلى الحد الذي بلغته. وعليه، فليس ثمة شيء طبيعي أكثر من استخدام الطريقة نفسها للتوصل إلى الأوضاع الوسيطة. فإذ سلم كورنو، لغرض البساطة، بوجود متنافس واحد فقط؛

=مثالاً طريفاً يبين هذه الإمكانية. تصور أن هناك كمية من المحار، بمقدار سيارة شحن، يمكن بيعها في سوق محلي (أ) مقابل ١٥٠ دولار، وإن القرية (أ) ترتبط بالقرية (ب)، التي تنتج المحار، بطريق سكك حديد يكلف ٢٠ دولار لسيارة الشحن كحد أدنى. المنتجون في (ب) مستعدون فقط لتزويد نصف سيارة شحن يومياً بتكلفة ٦٢،٥٠ دولار. ولكن نظراً إلى أنه يتعين عليهم أن يدفعوا تكلفة شحن كل السيارة، فإن الصفقة ستحملهم خسارة قدرها ٧،٥٠ دولار (٦٢،٥٠ - ٥٥ - ٢٠ + ٦٢،٥٠). على أي حال، ثمة قرية أخرى قريبة، (ج)، يكون منتجو المحار فيها مستعدين لبيع كمية منه مقدارها نصف سيارة شحن، مما يملأ النصف الآخر من السيارة، بتكلفة ٦٢،٥٠. يكلف النقل من القرية (ج) إلى القرية (ب) خمسة دولارات. ومن الواضح، أن الصفقة تصبح ممكنة بحيث 'تستفيد' كل الأطراف منها - المستهلكون في (أ)، المنتجون في كل من (ب) و(ج) والسكك الحديدية - إذا وافق المنتجون في (ب) و(ج) على تقاسم الدولارات الخمسة، وهو ما يمكن تحقيقه لو تقاضت السكك الحديدية أجور شحن تمييزية عن نفس الخدمة المقدمة للناس في (ب) و(ج). Arthur T. Hadley, Railroad Transportation, 1885, ch. 6, pp. 116 ff.

(٣٠٣) يعود إدخال هذا المصطلح إلى السير توماس مور Thomas More (انظر الجزء الثاني، الفصل السادس، أعلاه). وقد أعاد إدخاله كارل شليسنجر Karl Schlesinger (Theorie der geld- und-) U. Ricci (Kreditwirtschaft, 1914)؛ ويو. ريسي (Dal protezionismo al sindacalismo, 1926)؛ وجامبرلن Chamberlin (المصدر السابق). ولكن لم يجر استعمال ذلك المصطلح خلال الفترة المدروسة لاهتمام الكتاب بحالة الاحتكار الثنائي فحسب duopoly. أما كورنو، فنظراً إلى أنه استعمل مصطلح 'المنافسة غير المحدودة' بمعنى مصطلح المنافسة البحتة الذي نستعمله نحن، فمن الممكن أن يُعزى له مصطلح 'المنافسة المحدودة'. وقد استعمل بيجو مصطلح 'المنافسة الاحتكارية'. ويستعمل أحياناً مصطلح 'الاحتكار غير الكامل' للإشارة إلى حالة يسيطر فيها متنافس واحد، من بين متنافسين عدة، على جزء كبير من ناتج صناعة ما بحيث يستطيع التأثير على السعر بجهده الخاص بينما يتعين على الآخرين قبول السعر الذي 'يضعه هو'. انظر، مثلاً: Karl Forchheimer, 'Theoretisches zum unvollständigen monopolie,' Schmollers Jahrbuch, 1908. إن هذه الحالة من القيادة السعرية لا تطرح مشاكل احتكار القلة 'الأصلي' وقد أهملها ضمناً بالفعل معظم من كتبوا حول الموضوع خلال الفترة المدروسة.

وإذ أهملَ تكلفة الإنتاج^(٣٠٤) لغرض البساطة أيضاً، فإنه انقادَ بسهولة للاعتقاد بأن هذا المتنافس، حينما يكون هناك محتكر فردى واحد، سيعرض فى السوق - التى يفترض أنها تامة - تلك الكمية من السلعة (المتجانسة تماماً) التى تعظم إيراده؛ حيث يبقى إنتاج المحتكر الفردى السابق كما هو. وعندئذ يكيف هذا المحتكر الفردى السابق إنتاجه للوضع الجديد مما يحمل القادم الجديد على فعل المثل، وهكذا... الأمر الذى يقود إلى هبوط السعر بشكل تلقائى مع كل خطوة يجرى فيها طرح الناتج الكلى المتحقق فى المزاد العلنى. وأوضح كورنو، بشكل لا يخلو من الدقة عبر جهازه القائم على منحنيات رد الفعل^(٣٠٥) Reaction Curves. إن هذا التكيف التدريجى للكميات يودى، فى ظل فرضياته، إلى حالة فريدة من التوازن المستقر، أى حالة يبيع فيها المحتكران التئانيان كميات متساوية عند سعر يقل عن السعر الاحتكارى الفردى ويزيد على السعر التنافسى والذى، عند الابتعاد عنه، تجرى استعادته 'بواسطة سلسلة من ردود الأفعال يتدنى عددها بشكل ثابت' (op. cit. p. 81).

ونظراً إلى أن هذه النتيجة أصبحت العمود الفقرى للعمل اللاحق حول احتكار القلة ونقطة الانطلاق فى مناقشة تواصلت حتى ثلاثينيات القرن العشرين -

(٣٠٤) إن مثال كورنو، وهو عينان ينتجان ماء معدنياً من نوعية متماثلة، يطرح فرضية تم تبنيها بشكل شامل تقريباً فى المناقشة اللاحقة حول الاحتكار التئانى، أى إن بنى التكلفة متماثلة بالضبط فى ظل الاحتكار التئانى. ويبدو أن هذا يبرز المنطق البحت للوضع الذى يضم محتكرين اثنين. وبالفعل، فإنه يعرف حالة خاصة جداً ويمثل عنصراً من أوضاع الاحتكار التئانى له أهمية خاصة بالنسبة لحالة احتكار القلة الأكثر عمومية ويمكننا فى الغالب من تقليص نطاق ال indeterminateness. ومن الممكن تبرير مدخل كورنو على أساس الامتيازات التى يتمتع بها كران. ولكن الكتاب الذين تعاملوا مع المشكلة من بعده كان عليهم أن يدركوا أنهم لم يكسبوا، بل خسروا، شيئاً ما من الأخذ بنفس الفرضية. ويبدو إن مارشال هو الوحيد لذى أدرك هذا الأمر كلياً.

(٣٠٥) إذا وضعنا منتجات أحد المحتكرين، المحتكر الفردى السابق، على المحور X من نظام الإحداثيات المتعامدة، ووضعنا منتجات المحتكر الآخر على المحور Y، فإن منحنيات رد الفعل تبين المعادلات التى تمثل شرط الإيراد الأقصى لكلا المحتكرين (فبالنسبة للمحتكر الأول، مثلاً، إذا رمزت D_1 و D_2 إلى الكميات التى يعرضها كلاهما وإذا رمزت $f(D_1 + D_2)$ إلى السعر، فإن $f(D_1 + D_2) + (D_1 - f(D_1 + D_2)) = 0$). أى أن منحنى رد الفعل يبين، للمحتكر التئانى، الكمية التى سيعرضها هو حينما يعرض المحتكر الأول أى كمية معطاة (3 and 2 and figs. op. cit. p. 81). إن كلا منحنى رد الفعل مقعران من ناحية نقطة الأصل ويتقاطعان فى نقطة وحيدة وبطريقة ما بحيث إن هذه النقطة تحقق شرط الاستقرار. (للإطلاع على التفسير الكامل، انظر الملاحظة السابعة عشر من ملاحظات فيشر: 'Notes on Cournot's Mathematics'، الواردة فى المقدمة التى كتبها فيشر للترجمة الإنجليزية لكتاب كورنو (Researches).

سواء كهجوم عليها أو تسليمًا بها- فسنحاول، لاستخلاص مغزى القصة^(٣٠٦)، أن نوضح لأنفسنا قبل كل شيء كيف ينبغي أن نفكر في حل (أو معالجة) كورنو Cournot's solution وماذا كان يمكن أن نتوقع، في غياب المعلومات التاريخية، أن تكون عليه التطورات الأبعد. أولاً، ينبغي أن يكون من الواضح أن حل كورنو لا يجافى العقل. فليس صحيحاً أنه تصور أن محتكريه الاثنين يتصرفان وفقاً لفرضية حول سلوكهما تتناقضها الوقائع على الدوام، أى فرضية أن كلا منهما يأخذ الكمية التى يعرضها الآخر ككمية ثابتة بينما هو لا يمتلك نفسه وهو يشاهد الآخر يواصل تكيفها. فلا وجود لمثل هذه الفرضية. فكل المطلوب هو أن كلا منهما يختار هذه الطريقة الخاصة لمعرفة الكيفية التى سيرد بها الطرف الآخر، أو أنه يأخذ إنتاج الطرف الآخر كمعطى فى هذه اللحظة وكدليل يسترشد به فى خطواته المقبلة. ويجب أن يكون من الواضح بنفس الدرجة، رغم ذلك، أن السلوك الذى يختاره كورنو لا يمثل السلوك الممكن الوحيد أو حتى السلوك 'العادى'. فقد يتفق المحتكران على التعاون. أو، قد يضعان معاً السعر الاحتكارى دون أى اتفاق، صريح أو ضمنى^(٣٠٧). أو، يمكن أن يحارب أحدهما الآخر بقصد إقصاء أو إبعاد

(٣٠٦) فهذا سيكون مفيداً لنا أكثر مما كان سيكون عليه تقديم تفاصيلها. وللإطلاع على هذه التفاصيل، أشير مرة أخرى إلى الفصل الخامس من عمل فون ستاكلبيرغ: Marktform und Gleichgewicht (1934)، رغم أننى لا أستطيع الاتفاق كلياً مع تاريخه للعمل الخاص بمشكلة الاحتكار الثنائى أو مع نظريته هو للاحتكار الثنائى. انظر عرض البروفيسور ليونتييف لكتاب فون ستاكلبيرغ 'Stackelberg on Monopolistic Competition,' Journal of Political Economy, August 1936.

(٣٠٧) كان كورنو يعي، طبعاً، إمكانية التحالف، وكان على حق حينما استبعد هذه الإمكانية لكى يعالج الاحتكار الثنائى. كما كان يعي أيضاً إمكانية أن الاثنين يمكن أن يقررا بشكل مستقل تقاضى السعر الاحتكارى، ولكنه استبعد هذه الإمكانية على أساس أن أحد المحتكرين، فى أى لحظة معطاة، يمكن أن تحفزه على أخذ خطوة أخرى، ضمن سلسلة كورنو من ردود الأفعال، الميزة المؤقتة التى ينالها بهذا الشكل (المصدر السابق، ص ٨٣). ولكن من السهل بدرجة أقل تبرير هذا. ذلك أما لأن كلا المحتكرين رشيد بشكل تام ومتساو ويواجهان سوقاً تاماً بصورة مثالية يتحول فيها الزبائن كرد فعل على أقل اختلاف فى السعر وحيث لا توجد اختلافات أخرى فى معروضاتهما، حتى ولو فى الموقع أو ملائمة الخدمة المقدمة؛ وبالتالي لا يأمل أى منهما أن يكسب، أو يخشى أن يفقد، أكثر من نصف السوق حتى ولو بصورة مؤقتة، وأن من العسير جداً أن تستمد العزاء من تنبيه كورنو العام القائل 'أنه يتعذر افتراض إن الناس بعيدون عن ارتكاب الخطأ فى الجانب الأبدى' لأن الخطأ المعنى، فى ظل فرضياته، كان سيكون واضحاً جداً. أو، إن الوضع لا يحقق بعض أو كل تلك الشروط: إذ تصبح كل محاجة كورنو غير قابلة للانطباق عندئذ. ينبغي على القارئ أن يلاحظ حقيقة أننا نملك هنا إمكانية حل فريد ومستقر عند السعر الاحتكارى ما دام أن ليس هناك اتفاق بين المحتكرين بالضبط. وحينما يتعاونان بالفعل، يبرز السؤال المتعلق بكيفية تقاسم المكسب=

المنافس خارج حلبة الأعمال أو بقصد حملته على التوافق مع نمط معين من السلوك. وحينما يفعّل ذلك، فقد يلجأ أحدهما أو كلاهما إلى الخداع. إن أيّا من هذه التصرفات يمكن أن يقود أخيراً إلى وضع مستقر. ولكن ليس ثمة ضمانات أن ذلك سيحدث، وحتى إذا حدث، فسيحدث في معظم الحالات عن طريق تدمير نمط الاحتكار الثنائي على وجه التحديد. وهكذا، وإلى الآن، فإن الشيء الوحيد الذي يمكن تأكيده حول هذا الأخير، دون إدخال فرضيات أخرى هو أنه ليس هناك حلاً عاماً كما يبدو^(٣٠٨). ومع ذلك، نرى حالاً أنه مع أن السلوك الذي يختاره أحد المحتكرين أو المحتكر ضمن أقلية يعتمد جزئياً على نوعيته هو - وإلى الحد الذي يكون فيه الأمر كذلك، فإن كل ما نستطيع أن نفعل هو أن نذكر الأنماط المحتملة من السلوك - بيد أنه يعتمد أيضاً جزئياً أيضاً على وضع النشاط الاقتصادي العام ومكانة المنشأة بالمقارنة مع مكانة منافسيها، وبخاصة بنى التكلفة لديها ولدى منافسيها. وهذا يفتح طريقاً يسمح بالخروج من المأزق ويقود إلى نتائج كثيرة، خاصة بأوضاع محددة ولا تفعل في الغالب سوى تقليص نطاق 'عدم التحديد' indeterminateness، ولكنها لا تخلو من الأهمية، رغم ذلك.

ومما سبق نعلم لماذا أهمل كورنو كل هذا: ففي مسودته الموجزة لنظرية تحديد السعر، كان كورنو يرغب بشكل واضح أن يتبع، انطلاقاً من الاحتكار البحت، خطاً غير مثلوم من التفكير unbroken line of reasoning من شأنه أن يتصاعد إلى حالة المنافسة البحتة (المنافسة غير المحددة 'illimited') دون أن يترتب عليه تغيير أى شيء سوى عدد المتنافسين. وعلى هذا الخط، لم يصادف كورنو شيئاً غير تكيف الكمية، وبالتالي فليس من غير الطبيعي أن هذا النمط قد تحول لديه إلى وضع أساسي. ولذلك، فإن النقد الذي يمكن أن يُوجه له يكمن في أنه أهمل أو تجاوز حقيقة أن هناك عوامل تفرض نفسها حينما نغادر حالة الاحتكار البحت، وهي عوامل تغيب في هذه الحالة وتختفى مرة أخرى كلما اقتربنا من

= الاحتكاري الذي يحققه بشكل مشترك - وهو سؤال ليس له حل فريد أو أى حل قط. ولكن سؤالاً كهذا لا يبرز حينما يتصرف المحتكران بصورة مستقلة.

(٣٠٨) غالباً ما يعبر عن هذا بالقول، عموماً، أن المشكلة غير محددة indeterminate. ولكن، كما أوضح باريتو، ففي كل الحالات التي ينشأ فيها انعدام الحل عن عدم توافق أهداف المحتكرين، فمن الصحيح أكثر أن نتحدث عن وجود حلول كثيرة overdeterminateness (Manuel, p. 597).

المنافسة البحتة؛ وبعبارة أخرى، فإن الخط المتلوم من الاحتكار إلى المنافسة هو مرشد مضلل. ولذلك، فإن الخطى التحليلية المقبلة التى يلزم اتخاذها - حينما اكتشف الاقتصاديون حل كورنو وشرعوا بالاهتمام به بدءاً من ثمانينيات القرن التاسع عشر - كانت تتمثل فى إدراك هذا الوضع، إدراك تلك العوامل التى تشكل استراتيجية السعر، وتطوير النظرية للعوامل الأكثر أهمية التى كان من شأنها كلها أن تفتح حقلاً مفيداً وهو حقل مشاكل تحديد السعر فى الصناعة الحديثة بما فيها، بين أمور أخرى، مشكلة 'الأسعار المسلمة' delivered prices أو مشكلة التمييز السعري الموضعي locational price discrimination. وهذا كان من شأنه أن يربط التحليل البحت بالواقع 'المؤسسى' وأن يخلق نظرية سعرية أغنى وأنفع.

من الناحية الفعلية، ومع تأخر يزيد على نصف قرن، فقد وصلنا إلى هذا الموقف تقريباً، رغم أن هناك الكثير مما ينبغى إنجاز. يمكن أن نشير حالاً إلى عمل البروفيسور جامبرلن كعلامة بارزة على هذه الطريق^(٣٠٩). ولكن الفترة محل الدرس لم تشهد سوى تحقيق القليل مما يبشر بهذا التطور. وكأمثلة على ذلك، أذكر تشديد مارشال المتكرر على حقيقة أن المحتكرين الثانئين (محتكرى القلة) إذا كانا يتصرفان فردياً فى 'ظل قانون ما لتزايد الغلة'، فإن المحتكر الذى يستطيع أن يحقق أقصى ميزة نسبية يمتلك إمكانية 'إقصاء كل منافسيه عن الساحة' مما يتضمن، مع أن مارشال لا يقول هذا^(٣١٠)، الاعتراف بنوع مهم بصورة خاصة من 'القيادة السعرية'^(٣١١). كما أشير إلى المحاولة التى قام بها إديجورث لمعاملة الاحتكار الثانى كحالة قصوى من الطلب المرتبط على سلع محتكرة^(٣١٢). وبالنسبة

(٣٠٩) يبدو لى أن الأهمية الرئيسة لعمل جامبرلن: Monopolistic Competition تكمن بعيداً عن مشكلة احتكار القلة البحت. ولكنه، فى الفصل الثالث، عالج هذه المشكلة أيضاً وفقاً للقول المأثور: 'الاحتكار الثانى ليس مشكلة واحدة بل مشاكل عدة'، أى أنه اعتراف بضرورة القيام بتحليل نظامى لكل الأنواع الممكنة من السلوك. ولا أفهم بتاتا لماذا وصف البروفيسور فون ستاكلبيرغ von Stackelberg هذا الموقف بأنه 'انتقائى' ما دام موقفه، رغم اختلافه، يصل إلى نفس الاستنتاج أخيراً، بقدر تعلق الأمر بهذه النقطة.

(٣١٠) تعرضت الفقرة، التى تظهر فى الطبعة الأولى على صفحة 485n إلى عدد من التغييرات فيما بعد. فإذا كان معنى ذلك إن مارشال لم يكن مرتاحاً تماماً من الفقرة، فلا يسعنى سوى الاتفاق معه.

(٣١١) تنشأ القيادة السعرية price leadership، بدلاً من الاحتكار، حينما لا تستطيع، أو لا تحب، المنشأة الأقوى إقصاء كل منافسيها. وهذا يعنى أن من غير الحكمة، مع أنه لا يثير الاعتراض من الناحية المنطقية، أن نهمل كلياً الاحتكار غير الكامل أو الجزئى فى أى معالجة لاحتكار القلة.

(٣١٢) In his paper, 'La teoria pura del monopolio,' *Giornale degli Economisti*, 1897, trans. in: *Papers Relating to Political Economy*, vol. 1, pp. 111 et seq

للبقية، على أى حال، فإن معظم العمل المنجز يأتي كنفد عقيم أو كدفاع عقيم بنفس الدرجة عن حل كورنو. وكان ج. بيرتراند J. Bertrand، بقدر ما أعلم، أول من هاجم هذا الحل على نحو شكّل تحدياً لها كقضية مبدأ، ولكن المحاولة غير كاملة إلى حد بعيد^(٣١٣) بحيث أشك بأنّها كانت ستترك انطباعاً قوياً لو لم يتبرأ مارشال، وإديجورث، وارفتج فيشر، وباريتو،^(٣١٤) من حل كورنو، ولو لأسباب أخرى كلياً أو جزئياً. وبحلول نهاية القرن، لم يتبق، بين الاقتصاديين الكبار، من يدافع عنه سوى فيكسل^(٣١٥)، وأن بيجو، حوالى العام ١٩١٢ فى عمله Wealth and Welfare، كان قادراً على أن يكتب بأن عدم التحديد indeterminateness، أو، بعبارة أدق، وجود مدى من indeterminateness لكمية من الموارد المخصصة للإنتاج فى أوضاع الاحتكار الثنائى، كان 'مقبولاً الآن من قبل الاقتصاديين الرياضيين'. ومع أن هذا الموقف مقبول حقاً حينما توضع المشكلة بعمومية تامة، أى دون أى معلومات مهما كانت باستثناء أن هناك عدة بائعين (أو مشترين) يمكن لكل واحد منهم أن يؤثر على السعر والإنتاج بدرجة مهمة، فإن القارئ سيدرك أن هذا لا يشكل سوى خطوة أولى تدعو إلى مزيد من التحليل فى ضوء معلومات (فرضيات) إضافية. ولذلك، فلن يستغرب القارئ حينما يعلم، مفترضين الضعف الأساسى للانتقادات وعقمها، إن حل كورنو قد انبعث خلال عشرينيات القرن العشرين، وهو انبعث اندمج فى الوضع المشار إليه آنفاً.

[تتوقف المخطوطة هنا. وما دام ج. شومبيتر أشار، فى بداية هذا القسم الفرعى (٤ ج)، إلى إن كورنو ترك إرثين كان أحدهما نظرية حول احتكار القلة، فيبدو إن الفقرات الثلاث التالية، التى ترتبط بمساهمات كورنو حول الاحتكار

(٣١٣) Journal des Servants, September 1883. يعزو بيرتراند إلى كورنو فرضية إن كل محتكر ثنائى يعرض سعراً أقل من المحتكر الثنائى الآخر مما يعنى إساءة فهم حاجة كورنو ويشير إلى نتيجة أسوأ من النتيجة التى توصل كورنو إليها.

(٣١٤) Cours, 1, p. 67، وكذلك، بصورة مختلفة، فى: Manuel, pp. 595 et seq. وتتكرر المعالجة الأخيرة فى مقالته السوارة فى الـ Encyclopedia وهى ترقى ببساطة إلى 'إثبات overdeterminateness للمشكلة' التى ذكرناها آنفاً. ولكن باريتو (Manuel, pp. 601 et seq) أشار بالفعل إلى كثرة الأنواع الممكنة، التى يكون بعضها محدداً determinate، والتى نميزها فى وقتنا الحاضر، وبالتالي فهو يمتلك بعض الحق فى أن يعتبر رائد النظرية الحديثة لاحتكار القلة.

(٣١٥) انظر محاكمة فيكسل الموجزة فى عمله Lectures 1, pp. 96-7، وكذلك استعراضه الأكثر إحكاماً نوعاً ما لعمل بولى Bowley: Mathematical Groundwork (المنشور فى: Economisk Tidsskrift, 1925، الترجمة الألمانية فى: Archiv für Socialwissenschaft und Sozialpolitik, October 1927 [مع مقدمة كتبها ج. شومبيتر]).

الثنائى، تأتى فى سياق منطقى. كُتبت هذه المعالجة فى وقت أبكر وكانت مطبوعة وكُتبت حولها ملاحظات كثيرة بقلم رصاص.]

ترك كورنو إرثاً آخر. فقد عالج، فى الفصل التاسع من عمله Researches، حالة تختلف عن الاحتكار الثنائى ولكنها تحمل تشابهاً أساسياً به. ثمة سلعتان مختلفتان، يسيطر على كل منهما محتكر معين، تطلبان بشكل مشترك من قبل منتجين متنافسين ينتجون سلعة ثالثة لا تخدم أى غرض آخر مهما كان. إن هذا الأمر يفتح أفقاً على مجموعة واسعة من الترتيبات الصناعية ما نزال بعيدين جداً عن استكشافها لحد الآن. وعلاوة على ذلك، تعلم معالجة (أو حل) كورنو دروساً مهمة حول كيفية درس مشاكل من هذا النوع وحول تبسيطات مفيدة يمكن إدخالها كوسائل لتحقيق نتائج أكثر. وتحمل هاتان الميزتان أهمية واعدة. ولكن فيما عدا ذلك، فإن معالجة كورنو عرضة لاعتراضات تشبه تلك التى أثّرت ضد معالجته لمشكلة الاحتكار الثنائى المباشر. فقد ترك كورنو أسعار هاتين السلعتين تتحددان بشكل مستقل عن طريق الشرط القائل إن كل محتكر يحاول أن يعظم إيراده الصافى الخاص به، مفترضاً هذه المرة أن سعر السلعة الأخرى معطى؛ أى إن كورنو افترض تصرفاً معيناً لا يشكل غير تصرف واحد فقط من تصرفات عدة ممكنة والذى، علاوة على ذلك، لا يقود دائماً إلى وضع من التوازن المستقر حتى إذا تم إدراكه. يمثل إديجورث وبولى وفيكسل أهم الكتاب الذين حملوا المناقشة أبعد. ولكن المواد الأكثر قيمةً بالنسبة لتحليل مشاكل من هذا النوع ينبغى العثور عليها فى كتاب مارشال الخامس.

وبالنسبة للاحتكار الثنائى، فلدينا نموذج نظرى أى نظرية المبادلة المنعزلة. فعدم تحدد indeterminateness النظرية الأخيرة كان قد أدركه جيداً كتاب كثر من القرن الثامن عشر مثل بيكاريا. وقد شدد كارل منجر، ومن بعده النمساويون، على هذه النتيجة لأنها كانت جزءاً من حاجتهم لإثبات تحدد determinateness سعر التوازن التنافسى. إن أسهل طريقة للتحقق من هذا تكون فى دراسة حالة سوق الخيول لدى بوهم-باورك حيث يبقى سعر الحصان indeterminate ضمن حدود تقديرات المنفعة لدى المشتري والبائع إلى أن يقلص العدد المتزايد من المشترين والبائعين المدى إلى نقطة معينة فى آخر الأمر^(٣١٦). وما حاول النمساويون التعبير

(٣١٦) يتعذر طبعاً، فى حالة سوق يتعامل مع وحدات كبيرة كالخيول، تقليص المدى إلى نقطة معينة =

عنه كان إديجورث قد عبّر عنه بمزيد من الصحة والدقة في عمله Mathematical Psychics عام ١٨٨١^(٣١٧) حيث جرى استعمال جهاز منحنيات السواء والتعاقد بالضبط لأغراض تحليل مدى الـ indeterminateness في الاحتكار الثنائي. وقد بسّط مارشال المشكلة بواسطة مثاله حول سوق التفاح والجوز (Principles, p. 416، والملحق، الملاحظة الثانية عشرة). وأضاف مارشال، هناك أيضاً، نتيجة بيرى^(٣١٨)، أى إذا كانت المنفعة الحدية لإحدى السلعتين المتبادلتين ثابتة - وهى حالة لها بعض القيمة كمقاربة حينما تكون السلعة المعنية هى النقود - فإن الكمية المشتراة من السلعة الأخرى ستكون محددة بشكل فريد 'بأى مسلك ربما تكون المقايضة قد استهلته'^(٣١٩).

إن هذا الارتباط بين نظرية الاحتكار الثنائي أو احتكار القلة وبين حالة المبادلة المنعزلة يعلمنا أن نرى المشكلة الرئيسية في تحديد العوامل التى تقلص مدى عدم التحديد indeterminateness. ومع ذلك، فإن نظرية المبادلة المنعزلة لا تقول سوى القليل عن هذا حقاً. وفي جميع الحالات من هذا النوع التى تظهر فى الصناعة المعاصرة، وبخاصة فى أسواق العمل المعاصرة، فإن تحديد المدى ranges التى يتوقع أن تهبط معدلات المبادلة فيما بينها - وأحياناً حتى التحديد الفريد لمعدلات المبادلة الفردية - سيعتمد على الظروف الخاصة للحالة التى يجب إدخالها وفقاً لفرضية خاصة. وسيعتمد النجاح على قدرتنا على إيجاد الفرضيات التى، مع

= بشكل محدد قط. ولكن القارئ سيدرك حالاً أن هذا الأمر لا ينطوى، من حيث المبدأ، على أى اختلاف جدى.

(٣١٧) انظر أيضاً مقالته فى: Giornale degli Economisti ; March 1891.

(٣١٨) Giornale Degli Economisti, June 1891.

(٣١٩) ومع ذلك، فالأمر ليس كذلك بشكل عام. وعند تحليل الأسواق القائمة فى الواقع يجب أن نأخذ بالاعتبار حقيقة أن الصفقات المتحققة فى بداية السوق سوف تؤثر على الأسعار والكميات التى يجرى تبادلها فيما بعد فى السوق نفسه. وهذا يسرى على المنافسة البحتة بقدر ما يسرى على الاحتكار الثنائي أو احتكار القلة. ومع أن الأهمية العملية لهذا الأمر تقلصها، فى حالات عدة، حقيقة إن كل صفقة فردية تشكل عادة حلقة فى سلسلة من العلاقات المستقرة تعلم كل طرف الشروط التى تنصرف كل الأطراف الأخرى فى ظلها، فمن الصحيح تماماً أنه، للوصول إلى أسعار وكميات محددة بشكل فريد فى سوق تنافسى، من الضروري وضع فرضيات محددة تبدو مصطنعة للوهلة الأولى. وهذا هو معنى 'الكوبونات' bons لدى فالراس و'إعادة التعاقد' لدى إديجورث (انظر: N. Kaldor, 'A Classificatory Note on the Determinateness of Equilibrium,' Review of Economic Studies, February 1934). وقد لا يكون من الزائد أن نلاحظ أن الاحتكار الثنائي أو احتكار القلة يُبرز ببساطة، ويتميز واضح على نحو خاص، بعض الصعوبات المنطقية التى سادت فى كل النظرية البحتة حول الأسواق.

أنها لا تسرى سرياً عاماً، تغطي عددًا كبيراً من الحالات أو تصف حالات فردية لها أهمية خاصة. ولكننا نواجه مرة أخرى، كما هو الحال في الاحتكار الثنائي واحتكار القلة، نوعين من الصعوبات الهائلة: فما يشكل السلوك عملياً هو التوقعات التي تتغير بسرعة في خضم اضطراب التنمية الرأسمالية، أكثر مما تحدده المعطيات المشاهدة حول وضع ما؛ وحتى إذا كان الأمر ليس كذلك، فلا يمكن قط فهم الموقف كلياً وفق العوامل الموضوعية للوضع المعطى دون الأخذ بالاعتبار نوع الناس الذين هم في وضع يسمح باتخاذ القرارات المهمة إستراتيجياً والذين يكون عددهم، في معظم الحالات، من القلة بحيث يجعل الاعتماد على الأنماط أمراً متعذراً.

٥- نظرية التخطيط والاقتصاد الاشتراكي

نعلم من قبل أن معظم المنظرين الكبار في تلك الفترة لم يناصروا قط بصورة عمياء مذهب عدم التدخل، وهو الأمر الذي ثبت أنهم كانوا يفعلونه أحياناً. ومع ذلك، فمن المهم حتى أكثر، لأغراض هذا الفصل، التشديد على أنهم، كلهم، لم يكونوا مداحين لمفهوم المنافسة البحتة بصورة مطلقة. لقد أعاد فالراس حقاً، رغم إن مخططه حول تأميم الأرض يشكل استثناء، تقديم الفرضية القديمة القائلة إن حالة من التوازن التنافسي البحت تضمن، على الإجمال، حداً أقصى من الإشباع لدى كل الأطراف المعنية. ولكنه قدّم هذا في شكل جديد وصارم أوضح فيه بشكل تام كل الفرضيات ذات الصلة، رغم أنه لم يدرك كما يبدو إلى أي حد كان هو بذلك قد أختزل الأهمية العملية لتلك الحالة. ولكن يبدو إن مارشال قد أدرك ذلك. فهو لم يوضح فقط الحقيقة المبتدلة التي تقول إن الفرضية المعنية تفترض 'إمكانية إهمال كل الفروقات في الثروة بين الأطراف المختلفة المعنية' (Principles, p. 532)، بل أنه أوضح أيضاً بأنه حتى إذا أهملنا هذه الحقيقة المبتدلة^(٣٢٠)، فلا

(٣٢٠) وكما كان مارشال يعرف، فإن هذه الحقيقة المبتدلة تعنى عملياً أقل مما تعنيه للوهلة الأولى. ذلك لأنها لا تقيم وزناً للأثار الممكنة لعدم العدالة على الدخل الاجتماعي Social Dividend، التي يمكن أن تكون مهمة جداً إذا فكرنا في تطور الأخير عبر الزمن. وكما في حالة حجة حرية التجارة، ينبغي علينا أن نميز بين الآثار على الرفاه ex visu of (انطلاقاً من) لحظة معينة من الزمن والآثار على الرفاه انطلاقاً من التطورات التاريخية التي قد تعوقها الترتيبات الاجتماعية التي تزيد من 'الرفاه' عند مستوى معين من الدخل الاجتماعي. ولكن التحليل الذي يقتصر جوهره الصارم =

نستطيع التأكيد على أن أسعار وكميات التوازن التنافسي تمثل بالضرورة الأسعار والكميات التي تعظم الإشباع الكامل - مفترضين، لغرض المحاجة، إن هناك معنى لهذا المفهوم - بالمقارنة مع الأسعار والكميات التي يمكن أن تقدمها ترتيبات أخرى. وقد أوضح مارشال هذا من خلال حالات يمكن فيها زيادة 'الرفاه' عن طريق تقديم إعانات لتشغيل الموارد في صناعات معينة يصحب توسع الإنتاج فيها تحقيق وفورات أكثر مما في الصناعات الأخرى^(٣٢١). سنعود إلى هذا الموضوع وموضوعات مرتبطة في الاستطراد في الملحق بهذا الفصل. وفي الأثناء، يكفي أن أوضح أن الإجراءات من النوع الذي تصوره مارشال تقع ضمن إطار أى تعريف معقول للتخطيط. لا شك بأن مارشال قد خدش السطح فقط. ولكن أى فرضية تشدد على أن قطعة معينة من التخطيط يمكن أن 'تحسن' من أداء المنافسة التامة تصورياً إنما هى صدع فى حائط قديم وبالتالي تكتسب أهمية تاريخية كبيرة. ولم يكن بوسع أى نقد مجرد للرأسمالية وفقاً لخطوط أخلاقية أو حضارية أن يحقق هذا بالضبط - وذلك مهما كان هذا النقد مهماً من نواح أخرى. ولم يتأخر الآخرون، ومن بينهم إديجورث وباريتو، فى توسيع هذا الصدع^(٣٢٢).

ثمة عمل آخر كانت له أهمية أكبر بكثير. فقد وضع ثلاثة من الكتاب: فيزر وباريتو وبارون، الذين لم يتعاطفوا مع الاشتراكية قط، ما يعد النظرية البحتة

= على الستاتيكا يشجع على إهمال هذا التمييز ويبالغ فى التشديد على الوضع القائم فى لحظة معينة (انظر المناقشة حول اقتصاد الرفاه فى ملحق هذا الفصل، أدناه).

(٣٢١) تتفق هذه الصياغة مع صياغة جوان روبنسون ('Mr. Fraser on Taxation and Returns,' R. F. Kahn (Review of Economic Studies, February 1934) ومع صياغة ر. ف. كان ('Some Notes on Ideal Output,' Economic Journal, March 1935). ويتعرض عرض مارشال (op. cit. pp. 533-6) للاعتراض من نواح عدة (وبخاصة من زاوية مَنْ يُمَقَّنُون استعمال مفهوم فائض المستهلك) ولكننى اعتقد بأن العبارة الواردة فى المتن تعبر عما قصده مارشال بالفعل ويندر أن أنصفه النقد المعتاد. إن النقطة الرئيسية فى هذا النقد لم توجه ضده فى البداية بل ضد صياغة بيجو لمذهبه، وذلك فى المقالة 'Pigou's Wealth and Welfare' التى كتبها أ. أ. يونغ. A. Young (Quarterly Journal of Economic, August 1913). وتنصب هذه المقالة على فكرة مارشال القائلة إن الإعانات المقدمة للصناعات التى تحقق (نسبة إلى غيرها) وفورات كبيرة عند توسعها يمكن بشكل مفيد زيادتها من الضرائب التى تفرض على صناعات تخضع لقانون تناقص الغلة'. ومع أن هذا الاعتراض وارد فى حدود النظرية الستاتيكية، إلا أن من الممكن الرد عليه وفق اعتبارات من خارج هذه النظرية.

(٣٢٢) لقد هاجم فيكسل أيضاً مذهب الإشباع الأقصى. ولكنه (Lectures 1, pp. 141 et seq.) آمن بأن المنافسة الحرة هى عادة شرط كاف لتعظيم الإنتاج (الحروف المائلة لى). وهذا غير صحيح أيضاً، رغم أن حجم الخطأ يعتمد على ما نقصده بعبارة 'عادة'. ولكن هذا الموقف كان، رغم ذلك، يتقدم كثيراً على موقف فالراس.

للاشتراكية بكل المقاييس تقريباً، مقدمين بذلك خدمة للمذهب الاشتراكي لم يستطع الاشتراكيون أنفسهم تقديمها. فماركس نفسه، كما نعلم، لم يحاول أن يصف طريقة عمل الاشتراكية المركزية التي تخيلها للمستقبل. فنظريته هي تحليل للاقتصاد الرأسمالي يقوم بلا شك على فكرة أن هذا الاقتصاد سيؤدي إلى ولادة الاقتصاد الاشتراكي عبر 'الانهيار' الحتمي و'دكتاتورية البروليتاريا' الناشئة عن هذا الانهيار؛ ولكن ثمة توقف كامل بعد ذلك حيث لم تظهر أى نظرية للاقتصاد الاشتراكي تستحق هذا الاسم^(٣٢٣). كما نعلم أيضاً بأن معظم أنصار ماركس تجنبوا المشكلة بدلاً من مواجهتها، رغم إن بعضهم، وبخاصة كاوتسكي، أظهرُوا أنهم يدركون المشكلة بإشارتهم إلى أن النظام الاشتراكي، بعد الثورة، سيكون قادراً على استعمال معالم السعر القائم في ظل الرأسمالية كدليل مؤقت- وهي فكرة تشير إلى الاتجاه الصحيح.

وهنا، كان من عادة الكتاب النمساويين استعمال اقتصاد كروزو لغرض توضيح الخصائص الأساسية للسلوك الاقتصادي. وهكذا كان من السهل جداً بالنسبة لهم أن يدركوا أنه لم يكن هناك أى شيء رأسمالي على وجه التحديد في مفهومهم الأساسي للقيمة وما يُستق من مفاهيم كالتكلفة والعوائد المنسوبة imputed: فهذه المفاهيم هي حقاً عناصر من منطق اقتصادي عام تماماً، من نظرية للسلوك الاقتصادي يمكن جعلها تبرز في نموذج لاقتصاد اشتراكي موجه مركزياً أكثر مما تبرز بالرداء الرأسمالي الذي تقدم نفسها به للمراقب الذي تكون تجربته التاريخية والحالية مع عالم رأسمالي. فحينما نحاول، مثلاً، أن نصف كيف يخصص كروزو موارده النادرة لتعظيم إشباع حاجاته أو، بعبارة أخرى، لصياغة القواعد التي يتبعها في تحويل هذه الموارد إلى مواد تشبع حاجاته، فإننا نكتشف حالاً إن اقتصاده يمكن أن يوصف وفقاً 'لمعاملات تحويل' coefficients of transformation تؤدي نفس الوظيفة التي تؤديها الأسعار في الرأسمالية التنافسية. وحينما نتأمل اقتصاداً اشتراكياً، فمن الواضح أكثر إن تعظيم الحاجات، مثلاً،

(٣٢٣) من الممكن حقاً أن نجمع من كتابات ماركس عدداً من التلميحات تتجاوز العبارات المطروحة في عهده، كالتلميح، مثلاً، إلى ضرورة وجود نظام محكم لمسك الدفاتر في الكومونولث الاشتراكي. ولكن ماركس اقتصر أساساً على عبارات من قبيل أن العمال، طبعاً، سوف ينتجون بأقصى كفاءة بحيث نقاد إلى استنتاج مفاده أنه لن تكون هناك قط مشكلة ندرة (مشكلة 'الاقتصاد' في العوامل economizing factors).

يتطلب أن نسبة المنافع الحدية لكل زوج من السلع الاستهلاكية يجب أن تكون متشابهة لجميع الرفاق؛ وإن الإنتاج في كل الخطوط يجب تنظيمه بطريقة تتيح الاستعمال الأمثل تكنولوجياً لجميع وسائل الإنتاج؛ وإن الإنتاجية الحدية القياسية marginal value productivity لجميع الوسائل النادرة يجب أن تكون هي نفسها في جميع استعمالات تلك الوسائل؛ أو، في جميع الأحوال، يجب أن تكون على الأقل بقدر ما كانت ستكون عليه في أى استعمال آخر. ولكن كل هذا يرقى إلى القول إن أى محاولة لتطوير منطق عام للسلوك الاقتصادى إنما تقدم تلقائياً نظرية للاقتصاد الاشتراكي كمنتج ثانوى. وكان فون فيزر أول من أدرك هذا بشكل صريح (Natural Value, 1st German ed., 1889).

وقد برّر باريتو، في المجلد الثانى من (Cours (1897)^(٣٢٤)، فيزر من ناحية الوضوح وإحكام العرض، إن لم يكن من حيث قوة البصيرة، وهو يمتلك الحق، أكثر من أى كاتب آخر، فى أن يعتبر خالق النظرية البحتة الحديثة للاقتصاد الاشتراكي^(٣٢٥). ومع ذلك، فإن مساهمته، من الناحية الفعلية، كانت قد استبقتها مساهمة بارون الذى وضع كل الموضوع فى قطعة شهيرة من العمل لم يتفوق عليها أى عمل آخر لحد الآن، بقدر تعلق الأمر بالأساسيات^(٣٢٦). وقد أضاف اقتصاديون كثر من وقتنا الحاضر تفاصيل وبعض التطويرات الأخرى. أذكر منهم: أوسكار لانجه O. Lange، أ. ب. ليرنر A. P. Lerner. كما يمكن للقارئ أن يرجع إلى مقالة بيرغسون المذكورة فى الهامش ٦.

يتمثل عمل بارون فيما يلى باختصار. بعد أن قدّم بارون، وفقاً لخط فالراس^(٣٢٧)، نظام المعادلات التى تصف التوازن الاقتصادى فى ظل المنافسة البحتة فى اقتصاد قائم على الملكية الخاصة، فإنه طرح نظاماً مماثلاً من المعادلات

(٣٢٤) انظر مثلاً ص ٩٤ من المجلد الثانى. وقد حمل باريتو حاجته أبعد كثيراً فى الفصل السادس، الفقرات ٥٢-٦١ من عمله (Manuel (1909).

(٣٢٥) لقد جرى وصف تطوير هذه النظرية من قبل أبراهام بيرغسون Abram Bergson، فى مساهمته: 'Socialist Economics' (التي وردت فى العمل الذى نشره ه. س. إليس H. S. Ellis: Survey of Contemporary Economics, 1984) بطريقة لم تترك شيئاً يمكن وصفه.

(٣٢٦) Enrico Barone, 'Il Ministro della produzione nello stato collettivista,' published in the Giornale degli Economisti, 1908؛ وترد ترجمتها، فى العمل الذى نشره ف. أ. فون هايك F. von Hayek: 'Production in the Collectivist State' (1935: A. von Hayek)، تحت عنوان 'The Ministry of'

(٣٢٧) ومع ذلك، فثمة نقاط أصيلة عدة ستتم الإشارة إلى اثنتين منها أدناه.

لاقتصاد اشتراكي من نوع خاص. ففي حين، في اقتصاد يقوم على الملكية الخاصة، تتحدد الدخول، في آن واحد سويةً مع كل متغيرات النظام الأخرى، بالعملية الاقتصادية ذاتها- بحيث لا يشكل الإنتاج والتوزيع سوى جانبين مختلفين من العملية نفسها، كما قلنا هذا سابقاً- فثمة، في الكومونولث الاشتراكي، مشكلة منفصلة تتعلق بالتوزيع، طبعاً. أى ينبغي على المجتمع أن يقرر أولاً بفعل منفصل، بجملة معينة في دستوره مثلاً، كيف يجب أن تكون 'الدخول' أو الحصص النسبية للرفاق الفرديين في الناتج الاجتماعي. وعندئذ، فمن الممكن تكوين جهاز اجتماعي مركزي أو وزارة للإنتاج تدير العملية الإنتاجية، كما يمكن تأسيس وحدة محاسبية. من الممكن تخصيص مقدار معين من هذه الوحدات لكل رقيق حيث يمكنه إنفاقها بحسب ذوقه على السلع الاستهلاكية، التى يقرر الكومونولث إنتاجها، أو أن 'يدخرها'، أى أن يعيدها إلى وزارة الإنتاج المعنية مقابل علاوة تكون الأخيرة مستعدة لدفعها نظير تأجيل الاستهلاك.

وهكذا نستطيع اشتقاق دوال الطلب على السلع الاستهلاكية ودوال عرض العمل والادخار، وأن القارئ لن يواجه صعوبة كبيرة فى أن يرى كيف تعمل الوزارة على إنتاج الكميات الملائمة من السلع الاستهلاكية والاستثمارية مسترشدة بهذه الدوال والمعرفة التكنولوجية الخاصة بها. إن هذا الترتيب ليس بالترتيب الممكن الوحيد طبعاً وأن من الممكن تغييره بطرق عدة. إذ يمكن، مثلاً، استبعاد الاستثمار من بين الأشياء التى يتمتع بها الرفاق بحرية الاختيار وإخضاعه لقرار من الوزارة أو من البرلمان، تماماً كما هو شأن الإنفاق على الدفاع الوطنى. وكذلك، نستطيع أما أن نعرض على الرفاق 'دخولاً' متساوية ونسلم بعدئذ بأن عليهم قبول تعليمات الوزارة حول نوع وكمية العمل الذى ينبغي عليهم أن يقدموه؛ أو يمكننا أن نبتكر نظاماً تتباين فيه الدخول بغية الحصول على العرض الحر من أنواع ومقادير العمل الذى ينبغي عليهم تقديمه فى كل خط، وبذلك يتم إدخال «الأجور» وأسواق العمل. وقد وضع بارون نظرية لكومونولث اشتراكي تقتضى حرية الاختيار بشكل عام بالنسبة للاستهلاك، وبالنسبة للادخار (الاستثمار)، وبالنسبة للتشغيل. ولكن بغض النظر عما إذا كنا نتفق معه أم لا فى هذا، فإن التشابه الأساسى formal similarity بين نظام اشتراكي للأشياء والنظام الذى يمكن الحصول فى مجتمع رأسمالى تنافسى بصورة تامة يبرز بقوة. ولا يضيع هذا

التشابه حتى في الاشتراكية الأمرة dictatorial socialism: فالدكتاتور الأمر من شأنه في الواقع أن يتصرف وفقاً لنمط يشكل اقتصاد كروزو النموذج بالنسبة له. ولكن الكومونولث الاشتراكي غير الأمر أيضاً يمكنه أن يمضي وفقاً لمبادئ أخرى غير مبدأ سيادة المستهلك. فمن المتصور تماماً، مثلاً، إن الرفاق لا ينبغي عليهم الحصول على ما يريدونه هم بالفعل بل ما يقرره لهم الخبير أو الأجهزة البيروقراطية. ومع ذلك، فلا تبرز صعوبات نظرية في أي من هذه الحالات ولكنها تبرز فقط في حالة الاشتراكية الفدرالية، حيث لا يوجد جهاز مركزي وحيث يسيطر على كل صناعة بشكل مستقل العمال المرتبطون بها: وفي هذه الحالة، فإن المشكلة يتعذر تحديدها على غرار ما يحدث في ظل احتكار القلة oligopolistically indeterminate.

إن النتيجة الأساسية لبحث بارون، أو أي بحث مماثل، هي أنه يوجد، بالنسبة للاشتراكية الموجهة مركزياً، نظام معادلات تمتلك فئة من الحلول تتحدد بشكل فريد بنفس المعنى ومع التحفظات نفسها كما هو الحال مع الرأسمالية التنافسية بصورة تامة^(٣٢٨)، وأن هذه الفئة تتمتع بخصائص نهاية قصوى مماثلة^(٣٢٩). وبعبارة أقل تكنيكية، إن هذا يعني إن الخطة الاشتراكية، بقدر تعلق الأمر بمنطقها البحث، تحمل ثمة معنى وأنه لا يمكن رفضها على أساس أنها تعنى الفوضى والضياع أو اللاعقلانية بالضرورة. وهذا ليس بالأمر القليل ومن حقنا التشديد، مرة أخرى، على أهمية حقيقة أن هذه الخدمة للمذهب الاشتراكي قدمت من جانب كتاب أثبتوا بذلك، لكونهم غير اشتراكيين هم أنفسهم، استقلال التحليل الاقتصادي عن التفضيل السياسي والحكم المسبق. ولكن هذا هو كل شيء في الوقت نفسه. فلا ينبغي أن ننسى أن النظرية البحتة للاشتراكية، تماماً كما هو شأن النظرية البحتة للاقتصاد التنافسي، تمضي وفق مستوى عال من التجريد وثبتت من 'عملية' workability النظام أقل مما يتصوره الفرد العادي (أو حتى المنظّر أحياناً). وبشكل خاص، فإن الفرضية المتعلقة بخصائص النهاية القصوى

(٣٢٨) انظر القسم السابع، أدناه. وفي الواقع، من الممكن أن نوضح أن إثبات حالة التحديد الفريد unique determination (الذي يفترض الانسجام، طبعاً) في الاشتراكية المركزية أسهل نوعاً ما مما في اقتصاد الملكية الخاصة حتى ولو كان تنافسياً بشكل تام.

(٣٢٩) وبطبيعة الحال، بقدر ما يكف النظام التنافسي عن تحقيق نهاية قصوى حقيقية، فإن من شأن الخطة الاشتراكية أيضاً أن تتحرف عن النمط التنافسي.

maximum properties للحل الذى يميز توازن اقتصاد اشتراكى معين هى مسألة تتعلق طبعاً بمعطياتها المؤسسية ولا تؤكد شيئاً بصدد السؤال فيما إذا كانت هذه النهاية العظمى الشكلية تماماً أعلى أم أدنى من النهاية العظمى المناظرة فى الاقتصاد التنافسى- وبخاصة حينما نرفض أن نتناول أسئلة أخرى بشأن ما إذا كانت البنية المؤسسية الأولى أم الثانية أقل عرضة للانحراف عن مثلها ذاتها أو أنها أكثر ملائمة 'للتقدم'. فهذه الأسئلة عملياً أهم بكثير من السؤال المتعلق بالتحديد determinateness أو العقلانية بحد ذاتها بحيث إنه ليس من السهل أحياناً معرفة فيما إذا كان النقد اللاحقون للخطة الاشتراكية، وبخاصة فون مايسس^(٣٣٠)، قد قصدوا حقاً رفض استنتاج باريتو-بارون. ذلك لأن من الممكن تماماً قبوله مع الاعتقاد، فى الوقت نفسه، بأن الخطة الاشتراكية، بسبب الصعوبات الإدارية أو لأى قائمة طويلة أخرى من الأسباب، 'غير عملية من الناحية الفعلية'^(٣٣١) بمعنى أنه يُتوقع أن لا تعمل بكفاءة تضاهى كفاءة المجتمع الرأسمالى، كما يبينها مؤشر الناتج الكلى. ولكن مع إن النظرية البحتة لا تقدم سوى القليل لحل هذه المشاكل^(٣٣٢)، بيد أن هذه النظرية تساعدنا على وضعها بشكل صحيح وتضييق نطاق الاختلاف المبرر فى رأى. وهكذا نصل إلى نفس الاستنتاج كما فى حالة التخطيط غير الاشتراكى: فمذ مارشال، لم يعد من الضروري أن تبقى الإمكانية النظرية لتحسين الآلية التنافسية البحتة على يد السياسة العامة موضع نزاع؛ ولكن ما يزال من الممكن طبعاً- كما فهم مارشال الأمر جيداً- انتقاد أما الإجراءات المحددة أو حتى كل فكرة التخطيط وفق أسس معينة، من قبيل غياب الثقة بالأجهزة

L. von Mises, 'Die Wirtschaftsrechnung im sozialistischen Gemeinwesen,' Archiv fur (٣٣٠) Sozialwissenschaft und Sozialpolitik, 1920 وترد ترجمتها، فى العمل الذى نشره ف. أ. فون هايك: (Collectivist Economic Planning (1935 تحت عنوان: 'Economic Calculation in the Socialist Commonwealth

(٣٣١) انظر بيرغسون، أعلاه. ومع أننا لا نستطيع تناول هذه المجموعة من المشاكل، فمن الضروري أن نوضح إن هناك حاجة نظرية بحتة معادية للاشتراكية (تبنها الأساتذة فون مايسس، وفون هايك von Hayek، وروبنز Robins) وهى خاطئة بشكل واضح، أى الحاجة القائلة: مع أنه توجد exist فئة محددة من الحلول للمعادلات التى تصف الحالة الستاتيكية statics لكونونولث اشتراكى ما، بيد أنه، فى غياب التملك الخاص لوسائل الإنتاج، لا توجد أى آلية لتحقيق تلك الحلول. إن هذه الحلول يمكن تحقيقها عن طريق تجربة 'التجربة والخطأ' الموصوفة أدناه.

(٣٣٢) ومع ذلك، فهى تقدم شيئاً ما بالفعل. أولاً، أنها تزيل اعتراضاً معيناً يمكن للنقاد بمقتضاه أن يعفى نفسه من الدخول أصلاً فى مناقشة معينة حول التفاصيل العملية للخطة الاشتراكية. ثانياً، أنها تبرز خصائص محددة تتمتع الأخيرة بها: إذ يمكنها، مثلاً، أن تتحرر من طائفة من الخسائر، الكامنة، فى الأوضاع التنافسية غير التامة كالصراع الاقتصادى بين محتكرى القلة، مثلاً.

السياسية أو الإدارية المتاحة لتحقيق هذه المهمة. (ويبدو كما لو إن مارشال كان وحيذاً في فهم هذا الوضع.)

٦- التحليل الجزئى

إن النظام غير العملى من الكميات الهائلة التى تشكل ميزانيات الأسر الفردية والمنشآت- أى التحليل الجزئى microanalysis، إذا استعملنا تعبير فريش Frisch مرة أخرى- يشجع على التبسيط بواسطة، مثلاً، توحيد هذه الكميات ضمن بضع مجاميع اجتماعية شاملة comprehensive social aggregates- أى التحليل الكلى macroanalysis. ولكن ثمة أيضاً طريقة أخرى تحقق التبسيط، لبعض الأغراض، بنفس الدرجة من الفعالية. فحينما نهتم بتلك الظواهر الاقتصادية التى يمكن ملاحظتها فى قطاعات صغيرة من الاقتصاد، مثل 'الصناعات' الفردية صغيرة الحجم، والأسر أو المنشآت الفردية فى الحالة القصوى، يمكننا أن نفترض أن ما يحدث فى هذه القطاعات الصغيرة لا يؤثر بشكل ملموس على بقية الاقتصاد. إن هذه الطريقة لا تفترض أن هذه القطاعات لا تتغير بالضرورة، مع إن هذا هو ما نقصده حينما نستعمل شرط بقاء الأشياء الأخرى على حالها؛ بل نفترض أنه إذا جرت ممارسة بعض التأثير الخارجى على القطاع الصغير المعنى، فإنه يكيف نفسه دون أن يمارس بدوره سوى تأثير طفيف على باقى الاقتصاد أو أى عنصر منه (مبدأ إمكانية إهمال الآثار غير المباشرة): فالتغير فى معدلات الأجر، مثلاً، الذى يحدث فى قطاع صغير، سواء نتج عن ظروف هذا القطاع أو فرض عليه من خارجه فحسب، يمكن أن يعامل كما لو أنه لم يؤثر على الدخل القومى أو جدول طلب السوق قط. إن هذه الفرضية تعرف طريقة التحليل الجزئى Partial Analysis. ورغم أنه قد تم استعمال هذه الطريقة منذ البداية، بيد أنها اكتسبت وضوحاً جديداً وجهازاً خاصاً بها على يد كورنو، وفون مانغولدت von Mangoldt، وكذلك، فى الفترة المدروسة، مارشال الذى أصبح وبقي أستاذاً للتحليل الجزئى أساساً فى أعين اقتصاديين كثير، كما لاحظنا هذا من قبل^(٣٣٣). تخاطب هذه

(٣٣٣) إضافة إلى تطوير جهاز ملائم من المفاهيم، فقد طورَ مارشال أيضاً الفلسفة العامة للطريقة التى تنصب على مبدأ إمكانية إهمال الآثار غير المباشرة. انظر بخاصة عمله: Industry and Trade, 3 ed., Appendix A, pp. 677. ولم يتردد مارشال هناك فى اللجوء إلى مرجعيات مثل نيوتن=

الطريقة حسناً الفطرى الذى يخبرنا، ما دمنا نكتفى بمقاربة معينة، بأننا لا نحتاج، على الأقل، إلى أن نأخذ بالاعتبار الغالبية العظمى من الآثار والآثار المضادة التى يحدثها، كقضية مبدأ، أقل تغيير فى إنتاج الدبابيس مثلاً على الدخل القومى، وعلى الطلب على البنزين من خلال الدخل القومى. ولكن الحس الفطرى نفسه ينبغى أيضاً أن يخبرنا أن هذه الفرضية، التى هى فرضية تبسيطية قوية، تقيد بشكل صارم من نطاق سريان هذه الطريقة، وأنها تستبعد منها فعلاً العلاقات التى لا يمكن ملاحظتها فى القطاعات الصغيرة بل فى الاقتصاد ككل فقط^(٣٣٤). وعليه، فمع إن من المفهوم إن التحليل الجزئى كان وما يزال يستعمل على نطاق واسع، فمن المفهوم بنفس الدرجة أنه تعرض للشجب من البداية من قبل منظرين أكثر صرامة، وبخاصة فالراس وباريتو^(٣٣٥).

[أ) منحنى الطلب المارشالى] يشكل منحنى طلب السوق market demand curve لدى كورنو أو مارشال الأداة الأساسية للتحليل الجزئى. يمثل هذا المنحنى الكمية من سلعة معينة التى يكون المشترى على استعداد لشرائها عند سعر معين كدالة لهذا السعر فحسب^(٣٣٦): أما كل العوامل الأخرى التى تؤثر على استعداد

=وليبينز مع إضافة التقويم البحرى. ومع فائق الاحترام لكل من مارشال ومحاولته الباهرة لإظهار، فى هذه الحالة، العلاقة الحميمة التى توجد بالتأكيد بين الطرق العلمية فى كل حقول تطبيقها، فأنا لا نستطيع إنكار أن الحجة المؤيدة للمبدأ المذكور لا تحمل نفس الأهمية التى تحملها فى علم الفلك. (٣٣٤) توضح مشكلة معدل الأجر كيف أن إهمال هذه القيود يمكن أن يقود إلى الخطأ والمناقشة العميقة. إن نتائج التحليل الجزئى المتعلقة بآثار التغيرات فى معدلات الأجر فى القطاعات الصغيرة لا يمكن قط تطبيقها فى حالة التغيرات فى معدلات الأجر فى القطاعات الكبيرة أو فى الاقتصاد ككل: فالفرضيات التى تصح بالنسبة للقطاعات الصغيرة يمكن أن تكون هراء بالنسبة للاقتصاد ككل. (٣٣٥) هاجم فالراس التحليل الجزئى لدى كورنو، وفون مانغولت، واوزبيتز Auspitz، وليبين Lieben (١٨٨٧) ويتضمن منحنىات التكلفة والإنفاق، الصناعية الكلية، مرسومة سوية مع منحنىات مشتقاتها وذلك فى مقالة أعيد نشرها بوصفها 11 Appendice للطبعة الرابعة من عمله Elements. وقد أوضح فالراس هناك أنه يتعذر قبول منحنى طلب ما أو منحنى عرض ما، وهما المنحنيان اللذان يمثلان الكمية المطلوبة أو المعروضة كدالة لسعر تلك السلعة فحسب، يتعذر قبولهما كشئ دقيق لأن تغيير سعر سلعة ما يعنى بث الاضطراب فى كل وضع التوازن القائم حيث ينبغى إعادة تكيف كل عنصر منه بصورة متتازة؛ وأنه، إذا شئنا تأييد الطريقة كمقاربة، فستواجهنا صعوبة أن الفرضيات التى يلزم وضعها لهذا الغرض هى فرضيات متناقضة وفقاً للمنطق الصارم. وقد كرر باريتو هذه الحجج مع تشديد إضافى. وقد أعيد التأكيد عليها مراراً وتكراراً (٣٣٦) نضع عادة المتغير المستقل، وهو السعر فى هذه الحالة، على المحور X من نظام الاحداثيات المتعامدة، ونضع المتغير التابع، وهو الكمية فى حالتنا، على المحور Y. وفى الواقع، يجرى الأمر على هذا النحو عادة فى الأدب الفرنسى. ولكن مارشال اختار المحور X للكمية والمحور Y للسعر - وهكذا يجرى الأمر فى الأدب الإنجليزى-أمريكى بصورة معتادة.

المشتريين للشراء، وبخاصة دخولهم، فيهتم بها شكل منحني الطلب. وعلاوة على ذلك، فإن الأهمية الحدية لوحدة الدخل ('المنفعة الحدية للنقود')، بالنسبة لهم، لا يُفترض أن تتغير حينما تتغير هذه العوامل على طول منحني الطلب بحيث إن المشتريات التي قاموا بها عند أى سعر P_o لا تؤثر على استعدادهم لشراء كميات إضافية عند أى سعر $P_i < P_o$. فإذا كانت الأهمية التي يمنحها الناس لوحدة معينة من دخولهم ينبغي أن تتغير لأسباب أخرى غير كونهم ينفقون أكثر أو أقل على السلعة المعنية، فإن الطلب الفردي والسوقي يبدلان موقعيهما displaced و/ أو يتغيران في شكليهما ('يتحولان' they shift). وفي عمله Principles (p. 171 et. seq.)، طورَ مارشال نظرية هذين المنحنيين بدقة بحيث أنه وضعَ حقاً كل أساس دراسة الطلب في المستقبل. ولكنه يندر أن شدّد بدرجة كافية على صرامة القيود التي تتوقف عليها صحة المنحنيين حتى ولو كمقاربة. فمن الناحية الفعلية، يتعذر استعمالهما إلا بالنسبة للسلع غير المهمة نسبياً - التي لا تمتص سوى جزء صغير من الإنفاق الكلى للمشتريين - أو بالنسبة لتغيرات صغيرة جداً في أسعار السلع المهمة^(٣٣٧). إذ لا يمكن إلا في مثل هذه الحالات أن تعامل منحنيات طلب الأسر الفردية 'كترجمات'، لقانون تناقص المنفعة، إلى سعر (نفس المصدر السابق، ص ١٦٩) دون إعادة رسمها بالنسبة لكل سعر، وأن يكتسب تطوير مارشال لابتكار دوبو: ريع المستهلك consumers' rent، معناه الحقيقي.

[ب) مفاهيم المرونة] سنناقش مفهوم ريع المستهلك في ملحق هذا الفصل، أدناه. واستغل هذه الفرصة لتقديم مفهوم مارشال: مرونة الطلب السعرية (الذي ترد حالاته الجينية في دراسات كورنو وميل، كما سبق أن رأينا). إن السلوك، عند أى

(٣٣٧) كان مارشال نفسه يعي طبعاً حقيقة إن 'المنفعة الحدية للنقود' marginal utility of money ليست ثابتة عموماً إزاء التغيرات في الإنفاق على أى سلعة معينة؛ ويتجلى هذا الوعي في ملاحظتيه الرياضيتين الثانية والسادسة في ملحق عمله Principles وفي نص Principles نفسه (انظر ص ٢٠٧ بشكل خاص). ولكن رغم ذلك، فإن مارشال، في الفصلين الثالث والرابع من الكتاب الثالث، يحتاج وفقاً لفرضية الثبات (وإذا كان قد ترك، في هذين الفصلين، 'المنفعة الحدية للنقود' تتغير، فذلك لتغير الدخول النقدية لدى لأفراد). بيد أن ذلك لم ينطو على خطأ كبير لأن مارشال حرص على جعل الشئ المثال الأساسى الذى يحتاج على أساسه ويوضح من خلاله - وهو سلعة ضئيلة الأهمية إلى حد كافٍ فى الغرض كمثال يكون فيه التحليل الجزئى، حتى عند قبوله بأضيق نطاق، مقاربة مقبولة ولا يهمل بالفعل أى شئ سوى كميات من الدرجة الثانية من الضائلة. وقد تجاوز النصار والنقاد هذا الأمر على حد سواء. وبالارتباط مع هذا، فقد أهملوا أيضاً أن الأهمية الضئيلة المطلوبة يمكن دائماً عملياً تعزيزها بتعريفات ضيقة بدرجة كافية للسلع: فإذا كان اللحم غير ضرورى إلى حد كافٍ، فيمكننا التفكير فى طلب أفخاذ الحمل.

نقطة من أى 'منحنى' مستمر وقابل للتفاضل، يترجمه ميل هذا المنحنى أو معامل التفاضل عند تلك النقطة: إذا رمزنا إلى الاحداثى الرأسى (السعر فى حالتنا) بـ Y وإلى الاحداثى الأفقى (الكمية فى حالتنا) بـ X وإذا كانت x_0 تعرف النقطة المعنية، فإن الصيغة التى تعبّر عن ذلك المفهوم للمرونة هى . يمكن الحصول على معلومات أكمل من خلال مشتقات أعلى ولكن هذا لا يهمنا الآن. ومع ذلك، فإن صيغتنا تعانى من عيب مفاده أنها ليست عددًا بحتًا وإن قيمتها تتغير بالنسبة للوحدات التى يقاس بها السعر Y والكمية X . ثمة طريقة بسيطة لإصلاح هذا الوضع تتمثل بتقسيم الزيادات dy و dx على السعر والكمية المناظرتين لتلك الزيادات على التوالى. وهكذا نحصل على: $dy/y \div dx/x$ أو: xdy / ydx التى تسمى حساسية السعر flexibility of price. ومع ذلك، إذا شئنا أن نعبر عن حساسية الكمية المطلوبة للتغيرات البسيطة فى السعر، فمن الأفضل أن نختار مقلوب ذلك، أى $dx/x \div dy/y$ التى تساوى xdy / ydx أى 'المرونة' elasticity. ولكن نظرًا إلى أن هذه الصيغة سالبة أساسًا لأن الكمية المطلوبة تهبط حينما يرتفع السعر والعكس بالعكس، على الأقل ضمن الطلب المارشالى، فيمكن أن نضع علامة ناقص لى نحصل على عدد موجب: وعليه، فإن $-ydx / xdy$ تمثل ما أسماها مارشال مرونة الطلب وتسمى الآن، بدقة أكثر، مرونة الطلب السعرية price elasticity of demand. وفيما عدا حالات نادرة، فلم تقابل مساهمة متواضعة كهذه بمثل هذا الترحيب (انظر مديح اللورد كينز فى: Essays in Biography, p. 228). ويحسن بنا مواصلة هذا العرض لتاريخ مفاهيم 'المرونة' حتى لا نعود إليها فى الجزء الخامس - علمًا بأن كلمة: مرونة غير ملائمة لأنها تثير فى ذهن المبتدئ دلالات غير مبررة قط.

أولاً، تشير مرونة الطلب المارشالية إلى نقطة ما على منحنى الطلب - أنها «مرونة نقطة» - وبالتالي فهى قابلة للانطباق، بدرجة متزايدة من عدم الدقة، على التغيرات الطفيفة infinitesimal فقط فى السعر والكمية. ومن هنا تأتى الرغبة بالحصول على مقياس يسرى على التوسعات المحددة finite فى منحنى الطلب. وكانت هذه المشكلة، التى وضعها السيد ه. دالتون H. Dalton أولاً، موضوعاً لمناقشة طرح فيها البروفيسور أ. ب. ليرنر A. P. Lerner المساهمة الأساسية: 'The Diagrammatical Representation of Elasticity of Demand,' Review of

Economic Studies, October 1933) انظر كذلك المعالجة التحليلية للبروفيسور ر. غ. د. آلن R. G. D. Allen ورّد ليرنر: 'The Concept of Elasticity of Demand,' (1 and 11, Review of Economic Studies, June 1934). ولكن لا ينبغي أن ننسى أن مرونة النقطة point elasticity تخدم بصورة مقبولة التغيرات المئوية الصغيرة في السعر بينما تكون مرونة القوس arc elasticity المصممة لخدمة التغيرات الأكبر، أكثر قابلية لخرق القيد الذي يخضع له التحليل الجزئى.

ثانيًا، إن المحاجة من خلال المرونات تتيح المزايا نفسها التى تمتلكها المحاجة على أساس منحني الطلب المارشالى فى عدة حالات أخرى. وهكذا تكونت حصيلة غنية من مفاهيم المرونة- إذ نتحدث عن مرونات دوال التكلفة الكلية والمتوسطة والحدية؛ وعن مرونة الكمية المطلوبة بالنسبة للدخل؛ وعن مرونة الإحلال (هيكس، ج. روبنسون)؛ وما شابه. وي طرح مفهوم مرونة الطلب الدخلى income elasticity مشكلة جديدة: إذ لا تبرز أى مشكلة حينما نعبر عن مرونة طلب فرد معين على سلعة معينة بالنسبة لدخله؛ ولكن حينما نعبر عن مرونة الطلب الكلى على سلعة معينة بالنسبة للدخل القومى، فأنا نصطدم بحقيقة إن تغيرات معينة فى هذا الأخير تكون لها آثار مختلفة على الكمية المطلوبة وذلك وفقًا للطريقة التى تتوزع بها الزيادة أو الانخفاض فى الدخل القومى بين المشتريين أو المشتريين المحتملين. وقد عولجت هذه المشكلة من قبل البروفيسور مارشاك Marschak والسيد ب. دى ولف P. de Wolf (انظر، مثلاً، عمل الأخير Income Elasticity of Demand,' Economic Journal, April 1941). أخيرًا، يحسن بنا أن نلاحظ مساهمة ر. فريش R. Frisch: 'elasticity calculus' (انظر: R. G. D. Allen, Mathematical Analysis for Economists, 1938, pp. 253-3).

ثالثًا، بتقديم مفهوم مرونة الطلب الدخلى، نكون قد خرجنا بالفعل من نطاق منحني الطلب المارشالى ولكن دون أن نغادر نطاق التحليل الجزئى. إذ نفعل نحن الشيء نفسه أو، فى جميع الأحوال، نمارس التحليل الجزئى حينما نلاحظ إن القطاع المدروس يمثل بالفعل عنصرًا معينًا من نظام أكثر شمولاً وذلك بأن نستعمل مفهوم 'المرونة الجزئية' partial elasticity كالمرونة الجزئية بالنسبة للسعر partial price elasticity، مثلاً. إن التسوية، ذاتها، التى نقوم بها فى هذه الحالة تتمثل فقط باستبدال المعامل التفاضلى المعتاد، الذى يدخل فى صيغة

المرونة، بمعامل تفاضلى جزئى partial differential coefficient لى نشير إلى أننا لا نقوم بمجرد 'تجميد' بقية الاقتصاد بل نبقى عناصره ثابتة عند مستوى معين. ولكننا بمجرد أن نذهب إلى هذا الحد، فيمكننا بنفس الدرجة أن نعبر عن مرونة الطلب على سلعة ما بالنسبة للتغيرات فى سعر أى سلعة أخرى ('مرونة التقاطع' cross elasticity)، أو بالنسبة للتغيرات فى أسعار كل السلع، أسعار العوامل إضافة إلى المنتجات على التوالى. وقد أنجزه ه. ل. مور. H. L. Moore هذا بصورة نظامية (انظر عمله 1929, Synthetic Economics)، وهيكس وآل بالنسبة لمرونة الإحلال (انظر عرض الأخير فى المصدر السابق، ص ٥٠٣ وما بعدها). وقد أصبحت مفاهيم المرونة فى تلك الحالات أدوات للتحليل العام، أى أدوات يمكن أن تستعمل لأغراض استكشاف العلاقات التى نهتم بها أساساً لأنها تؤكد نفسها أيضاً فى مجال الاقتصاد ككل.

[ج) مفاهيم نافعة للتحليل العام] ينتج عن ذلك إن التحليل الجزئى لا يفصله عن التحليل العام general analysis أى خط فاصل حاد ولكنه بالأحرى يذوب فى هذا الأخير كلما وسعنا نطاق المفاهيم التى فهمت أولاً لأغراض خاصة به. ويشكل كتاب مارشال الخامس خير توضيح لذلك. فهذا الكتاب هو أساساً المثال الكلاسيكى على التحليل الجزئى، على نظرية الصناعة الفردية individual industry التى هى صغيرة بالنسبة للاقتصاد ككل^(٣٣٨). وفى هذا العمل، تجرى مواجهة منحنيات الطلب الصناعية بمنحنيات العرض الصناعية التى يُفترض إن تلك المنحنيات مستقلة عنها^(٣٣٩). إن هذه النظرية لمنحنيات العرض هى تطوير لنظرية كورنو للتكاليف وتخضع لقيود أكثر صرامة من تلك التى يضعها التحليل الجزئى على منحنيات الطلب^(٣٤٠). ولكن مارشال أضفى على مخططة الكثير من التفاصيل

(٣٣٨) يفترض هذا طبعاً وجود أسواق تامة - أسواق لا يوجد فيها سوى سعر واحد لكل المشتريين - وبالتالي وجود 'سلع' معروفة جيداً ومتجانسة بشكل كامل، يعرف الإنتاج فى كل واحدة منها 'صناعة' معينة تواجه منحنى طلب سوقى محدد. إن مارشال وكل الاقتصاديين فى عهده لم يدركوا بصورة تامة الصعوبات الكامنة فى هذه المفاهيم، التى شجعت البروفيسور جامبرلن وغيره على التخلي عن فكرة 'منحنيات الطلب الصناعية' إجمالاً. ولكنهم لم يتعاملوا عن رؤية هذه الصعوبات.

(٣٣٩) يتطلب مبدأ إهمال الآثار غير المباشرة أن التغيرات فى الكمية المنتجة من قبل أى صناعة لا ينبغي أن تؤثر على الدخول المكتسبة فى نفس الصناعة بدرجة قوية بحيث تحول منحنى الطلب على منتجاتها، ناهيك عن الطلب الإجمالى على كل المنتجات.

(٣٤٠) وهذا هو السبب الذى جعل بارون Barone، الذى فعل أكثر من غيره لتوضيح هذا الوضع، لم يستعمل منحنيات العرض للمنتجات بحرية بقدر ما فعل مارشال. وبدلاً من ذلك، فإنه اقتصر على =

المنمقة بحيث اكتسب المخطط أهمية لا يمتلكها أصلاً وبات العمود الفقري لدراسة لكل العمليات الصناعية غير الكلية non-aggregative - وهو دور تم إعداد هذا المخطط ليؤدي في حقيبتنا الحالية^(٣٤١). وحينما قام مارشال بذلك، فإنه طور مفاهيم مهمة بالنسبة للتحليل العام أيضاً، أو، كما صغناها قبل قليل، مفاهيم تخدم هدف استكشاف العلاقات القائمة في مجال الاقتصاد ككل. إن مفهوم شبه الربيع هو مثال على ذلك: أى حقيقة أن 'الأدوات appliances التي يصنعها الإنسان' يمكن أن تتصرف كعوامل طبيعية بالضبط لفترات زمنية تطول أو تقصر؛ ورغم أن هذا المفهوم يظهر لدى مارشال بالارتباط مع تحليله الجزئي، بيد أنه مهم، طبعاً، بنفس القدر بالنسبة لتحليل عام كتحليل فالراس^(٣٤٢). ولكن المثال الأهم هو 'مبدأ

= الحديث عن منحنيات العرض للعوامل الفردية لتجنب افتراض أن أسعار هذه الأخيرة معطاة ولا تتغير بالنسبة لبعضها بعضاً كلما تحركنا على طول منحنيات العرض للمنتجات - وهو افتراض مقبول في حالات خاصة ولكن ليس بصورة عامة. انظر: 'Sul trattamento di quistioni dinamiche,' *Giornale degli Economisti*, November 1894 الخاصة، هذا القيد بشكل صريح أكثر مما فعل مارشال. انظر، بشكل خاص، عمله: 'Analysis of Supply' المنشور في *Economic Journal* في وقت متأخر يعود إلى حزيران ١٩٢٨. (٣٤١) عند تطوير هذا المخطط، ألقى عليه مارشال، دون شك، من الثقل أكثر من قدرته على تحمله. يمكننا أن نشير هنا إلى المثال الأكثر أهمية حول هذه الممارسة. يعمل هذا المخطط على أفضل وجه حينما يتقاطع منحنى طلب سوقى متناقص بصورة ثابتة monotonically، على منتج صناعة صغيرة، مع منحنى عرض صناعى متزايد بصورة ثابتة فى الفترة المعنية the operative interval. ولكن مارشال كان يكره بشكل واضح أن يقتصر على هذه البنية التى يبدو أنها لم تأخذ بنظر الاعتبار حقيقة أن المنشأة والصناعات تعمل من الناحية العملية عند منحنيات عرض متناقص فى أغلب الوقت. ولذلك، فإنه سلم بمنحنيات العرض المتناقصة هذه وطرح، لتفسيرها، مفاهيمه المشهورة حول الوفورات الداخلية والخارجية. ولكن يجب أن يكون من الواضح أن منحنيات العرض التى تصف هذه الظواهر بالفعل تعالج عملية لا يمكن قلبها وبالتالي فهي ليست أبداً منحنيات العرض المعتادة التى تتحرك عليها منشأة ما صعوداً وهبوطاً. فهي تصور عمليات تاريخية فى شكل معمم. وقد قاد هذا إلى الصعوبة المعروفة حول توازن صناعة ما فى ظل ظروف المنافسة البحتة: فحينما يتقاطع منحنى عرض متناقص مع منحنى طلب من الأسفل، أى بطريقة ما بحيث، عند يسار نقطة التقاطع، تكون التكاليف الحدية أقل من، وعند يمين نقطة التقاطع، تكون التكاليف الحدية أكثر من، أسعار الطلب للكميات المعنية، فإن مارشال كان سيقول أن نقطة التقاطع هى نقطة توازن مستقر، فى حين أن من الواضح عدم وجود سبب لدى أى منشأة يدعو للتوقف عند تلك النقطة ما لم نعترف بوجود عنصر ما احتكارى. ولكن الصعوبة لا مبرر لها قط. ففي حالة كل من الوفورات الخارجية والداخلية، فإن منحنى العرض الصناعى يغير موقعه displaced (متحولاً نحو الأسفل) وليس ثمة أى معنى من تسمية المنحنى الذى يصف هذا التغير فى الموقع displacement كمنحنى عرض.

(٣٤٢) إن معالجة مارشال لهذا المفهوم، كما هو شأن معالجته لمفهوم الربيع، قد أضعفتها نوعاً ما عدم التوافقات inconsistencies. ولكن المفهوم، كما رأينا من قبل، يمثل إحدى أهم الأدوات التى استعملها مارشال للتغلب على الصعوبات الكامنة فى 'عنصر الزمن'. وبالمثل، فإن نظريته للفترات الزمنية الطويلة والقصيرة تطورت عن اعتبارات تتعلق بصناعات صغيرة وحتى منشآت فردية، =

الإحلال' الذى (نفس المصدر، ص ٤٢٠) يتسلل بهدوء تام إلى قرار المنتجين بإحلال توليفات من العوامل أقل تكلفةً محل توليفات أخرى أكثر تكلفةً إلى أن يتطور هذا المبدأ أخيراً إلى الموضوعة المهيبة: 'القانون العظيم للإحلال لدى تونن' الذى يسود ويسيطر على كل العملية الاقتصادية ويفتح أحد الدروب، الكثيرة الممكنة، نحو التسليم بالاعتماد المتبادل العام ما بين الكميات الاقتصادية^(٣٤٣). ومن زاوية التحليل الجزئى وضمن حدوده، فقد جرى إثبات هذا الاعتماد المتبادل العام بواسطة دراسات كثيرة تدور حول: نظرية الطلب والعرض المشترك والمركب، ونظرية قيم السلع المرتبطة عموماً، التى أثمرت قسماً من أكثر الصفحات بروزاً من الكتاب الخامس من Principles والتى طورها إديجورث أكثر فيما بعد. وفى الواقع، فإن من المعقول أن نقول إن الفكرة الشاملة، ولكن الكئيبة والشاحبة، للاعتماد المتبادل العام القائم بين كل عناصر النظام الاقتصادى - والتى تثير بسهولة الدهشة من اعتماد كل شىء على كل شىء آخر - يمكن فهمها وتقريبها من إدراك الكثيرين من خلال أمثلة ملموسة عن العلاقات بين قيم لحم البقر ولحم الضأن، أو الشاى والسكر، أى العلاقات بين قيم السلع المنافسة والسلع المكملّة (فيشر). ويمكن القيام بذلك دون خرق القيود الملازمة لطرق التحليل الجزئى. وفى الواقع، فأنا فى حالات كهذه، ومع إهمال طفيف للمنطق الصارم أحياناً، إنما نتجاوز الآثار المباشرة ونأخذ بالاعتبار الآثار غير المباشرة أيضاً؛ ولكن مع ذلك، فأنا نفعل هذا الأمر ضمن قطاعات صغيرة فقط لا تُحدث آثاراً مهمة على الاقتصاد كله، قطاعات لا تُحدث، على الأقل، تأثيراً مهماً إلى حد يكفى للتأثير على تلك الكميات التى تحدد الإطار للقطاع الصغير، كالدخل القومى. وفى حالات كهذه، فإن العلاقات فى القطاع الصغير الذى يمكن أن يتولاه التحليل الجزئى، توضح أو

=ولكنها أيضاً قابلة لأن تسرى سرياناً عاماً (انظر: Principles, p. 519)؛ والحالة الأكثر وضوحاً هى نظرية مارشال للتوقعات (انظر، مثلاً، ص ٤٢٢ و ٤٤٦) والمخاطرة. (٣٤٣) وهذا يصبح واضحاً حينما نضيف، إلى مفهوم الإحلال التكنيكى أو إحلال العوامل factor substitution الذى يطرّح فى ص ٤٢٠ من Principles، الإحلال الأكثر أهمية، إحلال المنتجات product substitution، الذى يقوم به المستهلكون. ومع أن مارشال يعترف بهذا الأخير أيضاً، بيد أنه لم ينسق الاثنين قط على النحو الذى طورّه كارل منجر Carl Menger من قبله. وبالنتيجة، فإن مبدأ الإحلال لدى مارشال لم يظهر ألبتة فى عمله، وفى عمل مجموعته، فى ضوءه الحقيقى، أى كفرضية خاصة ضمن نظرية المنفعة الحدية: فهما جرى التشديد على ذلك المبدأ، فإنه ظل، كما هو شأنه لدى كاسل Cassel فيما بعد، كمبدأ مكملّ أضيف إلى النظرية الأصلية للقيم والتكاليف بدلاً من أن يُشتق منها.

تمثل إلى درجة محدودة العلاقات في كل العالم الاقتصادي^(٣٤٤).

ولكن هذه العلاقات تقوم بهذا إلى نقطة معينة فقط. ففيما بعد هذه النقطة، تبقى طرق ونتائج التحليل الجزئي غير كافية ويمكن أن تصبح حتى مضللة. وقد أدرك مارشال هذا الأمر. ومن المفيد جدا أن نلاحظ الدقة التي راقب بها مارشال خطوته حينما كانت محاججته تطأ عالم النظرية 'العامة' للتوزيع^(٣٤٥). ومع ذلك، فمن الواضح، من الملحق (الملاحظة الحادية والعشرين)، إن مارشال، لو أنه أراد أن يذهب أبعد، كان يمكن أن يبحث عن التكملات الضرورية للتحليل الجزئي partial analysis في طرق التحليل الجزئي العام general microanalysis من النوع الفالراسي أكثر مما كان سيبحث عنها في كيان منفصل من التحليل الجمعي aggregate analysis (التحليل الكلي macroeconomics).

وسنرى (في الجزء الخامس، الفصل الخامس) إن الحل الأخير هو الذي فتن معظم الاقتصاديين في وقتنا الحاضر، وبخاصة أنصار المجموعة الكينزية. إذ يقسم هؤلاء النظرية الاقتصادية إلى نظرية المنشأة الفردية وإلى نظرية التحليل الكلي تعني بالعلاقات بين الاستهلاك الكلي، والاستثمار، والتشغيل، وهكذا. ولذلك، يجدر بنا، أولاً، إبراز الصلة التاريخية الموجودة من هذه الناحية بين مارشال وأتباعه المتمردين على ما يبدو في ثلاثينيات القرن العشرين؛ وثانياً، أن نبين إلى

(٣٤٤) من بين مساهمات إديجورث الكثيرة في هذا الخط- المساهمات التي تعالج حالات التحليل الجزئي ولكنها توضح العلاقات العامة من خلال ذلك - سوف أذكر واحدة منها فقط: لغزه المشهور حول فرض الضرائب التي يحسن بالقارئ درسها في نسخة البروفيسور ه. هوتلنج H. Hotelling منها: 'Edgeworth's Taxation Paradox and the Nature of Demand Supply Functions,' published in Journal of Political Economy, October 1932. كما أن المدى الذي يمكن به التنسيق بين التحليل الجزئي والعام بالمعنى الموضح في المتن، يبرز جيداً في عمل ماركو فانو: 'Contributo alla teoria dell' offerta a costi congiunti,' Giornale degli Economisti, October 1914، وفي عمل لاحق لنفس المؤلف: 'Contributo alla teoria economica dei beni succedanei,' Annali di Economia, 1926.

(٣٤٥) انظر، بشكل خاص، Principles, p. 587 وما بعدها. والطريقة التي توصل مارشال بها إلى 'الموضوعات العامة' general theorems في ص ٦٠٩ و ٦١١. وبالنسبة للفقرة السابقة، فمن الملاحظ أنه لم يفترض وجود دوال الإنتاج الاجتماعي (أي دوال إنتاج تسرى على الاقتصاد ككل)، ولكنه، بعد إنجاز تحليله ضمن إطار الصناعة الفردية أو حتى المنشأة الفردية، اقتصر على الإشارة إلى أن «جوهر المشكلة هو نفسه في كل صناعة» (ص ٥٨٨). هذا وسنعود إلى هذه النقطة في القسم الثامن.

أى حد كان هذا الخليط من نظرية المنشأة الفردية والتحليل الكلى قد جرى التنبؤ به خلال الفترة محل الدرس أصلاً.

وبالنسبة للنقطة الأولى، فإن حقيقة إن مارشال جعل من الصناعة الصغيرة *cheval de bataille* {حصان الوثب} فى الكتاب الخامس من عمله *Principles* لا ينبغي أن نسمح لها بطمس الحقيقة التى لا تقل أهمية والقائلة بأن الكثير من تحليله للصناعات تم بالفعل من خلال اقتصاد المنشأة الفردية^(٣٤٦)، وأنه حتى بمعزل عما يعنيه هذا، فإن مارشال جمعَ عملياً كل الحجرات وكل الملاط اللازم لنظرية المنشأة الفردية بما فى ذلك حتى تشكيلة كاملة تماماً من تلك الظروف التى تحول دون تجلّى التعميمات الكاسحة للنظرية البحتة فى الحياة الواقعية والتى أُشير إليها غير مرة كاعتراضات ضد تعميماته (انظر، بشكل خاص، *Principles*، الكتاب السادس، الفصل الثامن، وفكرة الربح العادى التى طُوّرت هناك، وبخاصة ص ٦٩٦ و ٧٠٠). وهكذا، فما أن تراجعَ مفهوم الصناعة أمام النقد المعاصر، فإن أحد تلك التقسيمات كان يتوافر بصورة جاهزة بينما فرضت الرغبة بالتقسيم الآخر نفسها على تلاميذه بشكل أوضح بكثير مما كانت ستفرض نفسها على تلاميذ فالراس.

وبالنسبة للنقطة الثانية، فليس من دأع لتكرار القول إن مارشال نفسه لم يقدم أى مبادرة نحو التحليل الكلى. بيد إن التحليل الكلى نفسه وتوليفه مع تفسيرات تحليلية جزئية للسلوك الفردى هى أشياء قديمة. إذ يمثل *tableau* {جدول} كينيه وصفاً تحليلياً كلياً للتدفق الدائرى الراكذ للحياة الاقتصادية، وإن كينيه قد أكمله، كما سبق أن رأينا، بنظرية تحليلية جزئية للتبادل. وقد فعل ريكاردو الشيء نفسه إلى حد بعيد فى الفترة التالية: فحصه التوزيعية هى مجاميع *aggregates* ولكن

(٣٤٦) كانت الصلة بين نظرية الصناعة الصغيرة *small industry* ونظرية المنشأة الفردية *individual firm* تتمثل بمفهوم المنشأة النموذجية لدى مارشال *Representative Firm* (التي أعاد ييجو صياغتها فيما بعد فى: مفهوم المنشأة التوازنية *Equilibrium Firm*). يتضمن هذا البناء المتميز محاولة هى الأكثر أهمية لحل، أو للالتفاف على، الصعوبات التى تبرز حينما نحاول وصف العمليات الصناعية من خلال مفاهيم تطورت عن حياة المنشآت الفردية. إن هذه المنشأة ليست منشأة عادية أو منشأة حدية أو منشأة قاندة ولكنها منشأة لها وضع وبنية تنعكس فيها ظروف الصناعة فى أى وقت معطى بطريقة معينة تسرى فيها فرضيات معينة بالنسبة لها دون أن تسرى بالنسبة لأى منشأة أخرى قائمة بالفعل أو بالنسبة لأى صناعة ككل. لقد ضمنت هيئة مارشال كمعلم لهذا المفهوم القبول الميكانيكى به. ولكنه لم يزل النقد أو التطوير الذى يستحقه.

السبب الذى يفسر لماذا تتصرف هذه الحصص كما يُعتَقَد أن تفعل هو سبب مشتق من تحليل جزئى fragmentary microanalysis. وقد فعل الشيء نفسه بوهم باورك أيضًا بدرجة كبيرة فى الفترة محل الدرس: إذ ابتدأ بنظرية للسلوك الفردى وبنظرية تبادل تقوم عليها؛ ولكنه لم يترك، فى الطابق الأعلى من مبناه، أى شيء تقريبًا سوى مجاميع مثل (قيمة) المجموع الكلى من السلع الأجرية، وكذلك (قيمة) الناتج الكلى و'فترة إنتاج' جمعية aggregative period of production، علاوة على ذلك. وبالمثل، كان فيكسل يحتاج وفقًا لدالة إنتاج اجتماعية دون أن يبدى أى علامة من عدم الارتياح الشديد. وليس من دأع لأن نضيف بأن طريقة كينيه-ريكاردو- بوهم باورك- فيكسل هذه هى طريقة اللورد كينز أيضًا.

٧- نظرية التوازن العام الفالراسية^(٣٤٧)

فى هذا القسم، نحلل البنية المنطقية لنظام فالراس المتعلق بالشروط أو العلاقات (المعادلات) التى تحدد قيم التوازن لجميع المتغيرات، أى أسعار كل المنتجات والعوامل وكميات هذه المنتجات والعوامل التى يمكن أن تشتريها كل الأسر والمنشآت عند التوازن التام والمنافسة البحتة. ونظرًا إلى أن تحديد هذه الكميات يفترض تحديد الدخول الفردية إضافة إلى دخول المجموعات والدخول الاجتماعية، فلنلاحظ حالاً أن هذه النظرية تتضمن أيضاً كل ما يغطيه مفهوم تحليل الدخل Income Analysis، وأن الشروط أو العلاقات التى يلزم مراعاتها، رغم أنها

(٣٤٧) [كتب هذا القسم حول نظرية التوازن العام الفالراسية فى السنة الأخيرة من حياة المؤلف (وربما فى الشهور القليلة الأخيرة منها). وقد وجدت الأقسام الفرعية (أ) و(ب) و(ج)، مطبوعة (دون أن يقرأها ج. شومبيتر بعد) بينما كان القسمان (د) و(هـ)، مكتوبين باليد. وربما كان ج. شومبيتر ينوئ كتابة أربع أقسام فقط؛ إذ اشتمل قسمه (ب) على ما هو (ج) الآن. الصفحات لم تكن مرقمة ولم توضع عناوين للأقسام الفرعية. ولكن الترتيب المقصود يبدو واضحاً جداً وينسجم مع الترتيب الموجود فى جدول محتويات عمل فالراس (Elements, pp. 489-91). لم تتوافر أى فرصة للتقحيحات والتصحيحات القليلة المحتومة فى عمل من هذا النوع. ولكن الكتابة الأخيرة تكشف عن كل علامة من شأنها أن تفيد أن الكاتب كان يعرف ما كان يريد قوله. فقد باشر وهجر محاولات أخرى كثيرة قبل الوصول إلى محاولاته الأخيرة.]

ومع ذلك، لم يكن شومبيتر قد قرر شيئاً ما بصدد الفقرات التمهيدية الصغيرة والموجزة. فثمة ثلاث مقدمات غير مكتملة على الأقل، تظهر واحدة منها فى هذا الهامش أدناه، وتظهر الاثنتان الأخريتان بوصفهما أول فقرتين من النص الوارد فى المتن أعلاه. كما كان هناك مقترح بثلاث عناوين مختلفة: العنوان المستخدم بالفعل لهذا القسم والمبين فى المتن أعلاه؛ والثانى المستعمل للمقدمة التمهيدية المطروحة أدناه؛ والثالث هو 'التحليل العام: النظام الفالراسي'.
قد تكون المقدمة التمهيدية التالية غير المكتملة هى المقدمة الأخيرة:

٧. التحليل الجزئى الفالراسي سوف أضع، فى هذا القسم، موجزًا حول الخصائص الرئيسية لنظام فالراس، معيذاً صياغة نقاط محددة منه لغرض ملأمة العرض، وتاركاً عدداً آخر لفحص أدق فى القسم الثامن وفى ملحق هذا الفصل. سنناقش هذا النظام، الذى جسده فالراس فى نظام من المعادلات، بأسلوب أدبى. وباستثناء ملاحظة قصيرة، فإننا نفترض المنافسة البحتة بصورة عامة.
نحن نعالج نظاماً مقفلاً لا يؤثر على، أو يتأثر بالعالم الخارجى. وفى هذا النطاق، توجد أسر تبّيع خدمات إنتاجية (ولغرض الاختصار، نهمل الخدمات المستهلكة بشكل مباشر كالخدمات الشخصية ما عدا تلك التى يستهلكها أصحابها بصورة فراغ أو مواد للاستمتاع) وتشتري منتجات؛ كما توجد منشآت تشتري خدمات إنتاجية وتبيع منتجات. ولكن بينما تبّيع الأسر خدماتها إلى المنشآت فقط، فإن المنشآت تبّيع المنتجات ليس إلى الأسر فقط ولكن بعض المنشآت تنتج أيضاً منتجات معينة (مواد أولية ومعدات) بقصد بيعها إلى منشآت أخرى. ومن أجل إبراز المشاكل الجوهرية بصورة واضحة، فسوف نهمل، فى البداية، المنتجات الوسيطة هذه ونحتاج كما لو أن المنشآت لا تفعل سوى تجميع العمل وخدمات العوامل الطبيعية وتحويلها إلى منتجات لغرض بيعها إلى الأسر ومن ثم تقديم ...]

ذات طبيعة تحليلية جزئية أساساً (أنها تشير أساساً إلى الكميات التى تشتريها وتبيعها الأسر والمنشآت الفردية)، بيد أنها تتضمن أيضاً جوانب تحليلية كلية كتلك التى تخص التشغيل الكلى فى المجتمع، على سبيل المثال. ويتعذر أن نشدد أكثر على القارئ على أن من غير الصحيح مواجهة تحليل الدخل أو التحليل الكلى من النوع الكينزى، مثلاً، بالتحليل الجزئى الفالراسى كما لو أن هذا الأخير يمثل نظرية تهمل تحليل الدخل والتحليل الكلى ويلزمها أن تستكمل بهذا التحليل.

كما ينبغي الاهتمام حالياً بثلاثة نقاط أخرى. أولاً، تحدثت أنفاً عن أسعار منتجات وعوامل. ولكن نظرية التسعير pricing لدى فالراس تشير، أساساً وفى الطابق الأرضى من مبناه، إلى أسعار خدمات المنتجات والعوامل. وهذا لا يعنى الشيء نفسه إلا بالنسبة لمنتجات وعوامل تخدم مرة واحدة فقط. وفيما عدا ذلك، فإن مشكلة تسعير المنتجات والعوامل نفسها هى مشكلة متميزة تحل عند طابق ثانى، كما سنرى. ومع ذلك، فإن التشديد على هذا الأمر ليس سوى حذقة زائدة ما دمنا لا نخشى أى سوء فهم. ثانياً، لقد تحدثت عن أسعار 'يمكن أن تدفع عند التوازن التام والمنافسة البحتة'. إن هذه ليست طريقة فالراسية فى الطرح: ففالراس، وإلى حد بعيد على غرار ج. ب. كلارك J. B. Clark، قد فهم أسعار التوازن هذه على أنها تمثل، عادةً، المستوى الفعلى الذى تتذبذب حوله الأسعار فى الحياة الواقعية^(٣٤٨)، مما يتضمن حقاً معيناً لا أحب أن أدعيه. ثالثاً، لقد جمّع فالراس خدماته الإنتاجية فى خدمات الأرض والعمل و'رأس المال ذاته' capital proper^(٣٤٩)، ولكن هذا لا يعنى قبول المخطط الثلاثى القديم للعوامل: فقد اعترف

(٣٤٨) ومثلما فعل كلارك، فإن فالراس قام بالتشبيه ب 'مستوى' بحيرة ما لإيصال فكرته - وهى فكرة آ. سميث القديمة.

(٣٤٩) وكما نعلم، فقد عرّف فالراس capitaux {رءوس الأموال} بمعنى أوسع بوصفها كل 'السلع' التى كثيراً ما تخدم أكثر من مرة واحدة؛ وبمعنى أضيق بوصفها السلع المعمّرة التى يتم إنتاجها هى نفسها (capitaux proprement dits). يسمّى فالراس خدمات هذه السلع revenus بغض النظر عما إذا كانت هذه الخدمات تستهلك من قبل أصحابها (كالفراغ فى حالة 'رأس المال الشخصى': فهذا الفراغ ما يزال travail {عملاً} أو أنها تستعمل بصورة إنتاجية. إن هذه المفهومة conceptualization، التى اشتقها فالراس من والده انتونيو أوغسطين فالراس Antoine August Walras (١٨٠١-١٨٦٦؛ ١٨٤٩: theorie de la richesse sociale) والتى تم تبنيها (أساساً) من قبل أرفيج فيشر، لها مزاياها المنطقية ولكن ليس لها من أهمية بالنسبة لنا إلا بقدر ما ينبغي تذكرها إذا أريد فهم حاجة فالراس بصورة صحيحة (الدرس السابع عشر). والسبب نفسه، أكرر بأن رءوس الأموال، إضافة إلى أنها تقدم خدمات تستهلك مباشرة أو تتحول إلى سلع، يمكنها أن تجهز خدمة معينة أيضاً d'approvisionnement service يمكن دورها أن تكون استهلاكية أو إنتاجية. =

فالراس بالفعل بعدد كبير من وسائل الإنتاج والخدمات. [تتوقف هذه القطعة من المخطوطة هنا.]

(أ) مفهومة فالراس إن وصف النمط الاقتصادي، الذي تعبر عنه معادلات فالراس، يرد في عمله Elements, lecons 17-19 (٣٥٠). ويتبين أكثر أداء هذا النمط في tableau economique المعروف في lecons 35 من ذلك العمل حيث، هنا أيضاً، يشير فالراس إلى آرائه بخصوص النقطيات التي تحوم حول حالة التوازن (٣٥١). كما نتعرف على مفهوم المنظم لدى فالراس، وعلى بنية العمليات في منشأة نمطية من خلال تحليل مفيد إلى أبعد حد لنظام محاسبي مبسط. ويتوافق هذا التحليل مع قائمة للأصول (٣٥٢) assets تحدد الكثير، إن لم نقل كل، الجهاز النظري

=يصف الدرسان الثامن عشر والتاسع عشر بدقة بنية عملية الإنتاج لدى فالراس والنظام المحاسبي لمنشأته- وهي قضايا لم تجتذب الانتباه الذي تستحقه.

(٣٥٠) [Elements d' economie politique pure ou theorie de la richesse sociale (1st ed. 1874-7 ; 4th ed., 1900) وتمثل طبعة عام ١٩٢٦ : the edition definitive الطبعة التي يقتطف منها في كل مكان في هذا الكتاب إلا إذا أشير إلى غير ذلك].

(٣٥١) لا تختلف هذه عن آراء آ. سمث من حيث الجوهر. إن تشبيه فالراس توازن السوق a lac agite par le vent (كبحيرة تتقاذفها الرياح)، الذي هو أمر مميز بالنسبة لاعتقاده بواقعية- وحتى باعتمادية - المستوى التوازني للقيم، قد كرره ج. ب. كلارك. وينبغي التشديد مرة أخرى على أن هذا الاعتقاد الأعمى، الذي كان واسع الانتشار في ذلك الوقت دون شك، يتعذر الدفاع عنه؛ ولكن هذه الحقيقة لا تجعل تحليل خصائص تلك المستويات التوازنية زائداً أو عديم الجدوى عملياً (انظر القسم الثالث عن 'أرض الأحلام التوازنية'، أعلاه). كما ينبغي التشديد أيضاً على أن فالراس (انظر، مثلاً، Elements, p. 370) لم يغفل وجود الواقع الرأسمالي قط، رغم أنه قلل من شأن الاختلاف بين نظريته وحقائق الواقع الرأسمالي. هذا ولا يمكن توجيه أى تهمة البتة ضد باريتو من هذه الناحية.

(٣٥٢) إن كل مادة تدخل نطاق الاعتبارات الاقتصادية، حتى قوة العمل (لدى ماركس) و capitaux personnels (رءوس الأموال الشخصية) (لدى فالراس)، يمكن أن تعالج كأصل إذا أوقفنا العملية الاقتصادية للحظة وعددنا كل عنصر منها. ويقوم فالراس ببث الحركة في هذه العملية حالاً حينما يفرض نفسه الاختلاف بين الأصول التي هي خزين (أو رصيد) funds وتلك التي هي تدفق flows، حيث يتبين لنا كيف أن الأصول تبقى تعيد إنتاج نفسها. ثمة ثلاثة عشر نوع من الأصول: رءوس الأموال (وهي كل الأشياء التي كثيراً ما تخدم أكثر من مرة واحدة بما في ذلك الأرض، وقوة العمل، ورءوس الأموال المنتجة) التي تقدم 'خدمات' للاستهلاك المباشر (بما في ذلك الفراغ)؛ رءوس الأموال (الأرض، وقوة العمل، ورءوس الأموال المنتجة التي تتألف من التجهيزات والمعدات) التي تقدم خدمات إنتاجية؛ وإضافة إلى هذه البنود الستة، ثمة رءوس الأموال المنتجة (التجهيزات والمعدات) التي هي جاهزة للبيع في أيدي منتجيها دون أن تقدم خدمات بعد (the capitaux neufs) (رءوس الأموال الجديدة)؛ خزين السلع الاستهلاكية التي تخدم في أيدي المستهلكين مرة واحدة فقط؛ المواد الأولية والسلع شبه-الجاهزة في أيدي المنتجين ممن هم في طريقهم لاستعمالها؛ خزين السلع الاستهلاكية (الموقّعة transient) والمواد الخام في أيدي المنتجين ممن يحتفظون بها للبيع؛ وأخيراً، ثمة ثلاثة أنواع من خزين النقود، أى النقود التي يحتفظ بها المستهلكون لتمويل معاملاتهم الاستهلاكية، النقود التي يحتفظ بها المنتجون لتمويل المعاملات=

لفالراس. ومن المفيد لغرضنا الحالي أن نلاحظ، أو أن نلاحظ مرة أخرى، قسماً من الصفات البارزة في قائمة الأصول هذه. وكما نعلم، فإن المنظم الفالراسي هو العامل agent (سواء أكان شخصاً طبيعياً أم مؤسسة^(٣٥٣)) الذي يشتري المواد الخام من منظمين آخرين، ويستأجر الأرض من مالكيها، والقدرات الشخصية (facultes personelles) من العمال، والسلع الرأسمالية من الرأسماليين، ويبيع لمصالحته المنتجات التي تنتج عن التعاون بين خدمات هذه الأصول أو التآليف فيما بينها^(٣٥٤). ولسنا بحاجة لأن ندخل مجدداً في مناقشة هذا الموضوع ومعنى مفهوم

=الإنتاجية monnaie d'epargne. وتجعل المناقشة الكينزية ترجمة هذا البند الأخير مهمة متعة. وأتصور أن النقود المخصصة لغرض الاستثمار هي أقرب معنى للمعنى الذي قصده فالراس. رغم أن فالراس يلوم الاقتصاديين الإنجليز على خلط وظيفة المنظم بوظيفة الرأسمالي ويلوم الاقتصاديين الفرنسيين على خلط وظيفة المنظم بالعمل (حيث يشكل الجهد التنظيمي entrepreneurship نوعاً من العمل)، فإن نظريته عن entrepreneurship لا تذهب أبعد كثيراً من نظرية ج. س. ميل أو ج. ب. ساي. فكل ما فعله فالراس هو إبراز وظيفة التآليف بين عوامل الإنتاج بوضوح أكثر. وكما تبين حقيقة كونه قد ضَمَّ الشركات إلى حلقة المنظمين، فإن مفهومه يعود إلى نطاق نشاط الأعمال المعتاد ويعادل تقريباً العامل الإنتاجي الرابع لدى مارشال: التنظيم organization.

(٣٥٤) كنتيجة لتمييز فالراس الدقيق بين رءوس الأموال (capitaux) أى السلع (بما فيها قوة العمل) التي كثيراً ما تخدم أكثر من مرة واحدة، والخدمات (أو revenus) - وهو تمييز يختفى في حالة السلع التي تخدم مرة واحدة فقط- فإن نظرية التسعير لدى فالراس تمضي على مستويين: فورياً (على المستوى الأول)، يتعين علينا الاهتمام بتسعير الخدمات فقط (الذي يتضمن تسعير المنتجات المؤقتة transient). ثم بعدئذ، على مستوى آخر، نواجه مشكلة تسعير هذه السلع الرأسمالية نفسها (التي يُستبعد منها تسعير قوة العمل عملياً، طبعاً، ما لم يكن هناك استبعاد). تنشأ كل الدخول بصورة موحدة عن بيع الخدمات - وهو ترتيب مفهومي conceptual arrangement لا يخلق صعوبة في حالة الأرض (العوامل الثابتة permanent) والعمل، ولكنه، بالطريقة التي سيتم تفسيرها، يفترض موضوع وجود دخل صافى في حالة السلع المعمرة والمنتجة التي تستنفد مع الزمن. وبالنسبة لهذه اللحظة، نلاحظ مجدداً أن فالراس سلم حقاً بعدد غير محدد من الخدمات الإنتاجية، رغم أنه استسلم للتقليد بتجميع هذه الخدمات في صورة خدمات من أنواع مختلفة من الأرض وقوة العمل ورءوس الأموال المنتجة مما يجعله يبدو وكأنه يقبل مخطط العوامل الثلاثي القديم. وينبغي أن نلاحظ أيضاً إن فالراس، مستبقاً تطورات لاحقة، أشار حالاً (ص ١٩٧) إلى أن الأرض والعمل فقط (زائداً التجهيزات plant وبند قليلة جداً من المعدات equipment) تستأجر عينا. أما معظم وسائل الإنتاج المعمرة، فلا يستأجرها المنظمون عينا بل في صورة نقود وهي تمثل ما يدره الرأسماليون ويقوموا بإقراضه، مع أن فالراس، في البداية، قبل قيامه بإدخال النقود في العملية الإنتاجية، سمح للسلع الرأسمالية أن تستأجر عينا. ويبدو إن هذا يتضمن منازرة parallelism، بين إقراض النقود وإقراض السلع الرأسمالية، أكثر صرامة مما كان فالراس مستعداً للتسليم به كما سنرى: فعلياً، ما يتوافر لدى رأسماليه هي النقود، وليس السلع، لإقراضها للمنظمين؛ وأن العملية، عند التوازن التام في ظل المنافسة البحتة فقط، تمضي كما لو أن الرأسماليين يملكون السلع المعمرة المنتجة. وينبغي أن نتذكر هذه النقطة الدقيقة- رياضياً، أنها تفسر كل الفرق بين مطابقة معينة وشرط توازني معين- وبخاصة حينما نريد رؤية القرابة بين النظام الفالراسي والنظام الكينزي.

المنظمين الذين، كمنظمين، لا يربحون ولا يخسرون. ومع ذلك، فإن المهم هو ملاحظة ثلاثة أشياء.

أولاً، حرص فالراس - أكثر بكثير من الكتاب الآخرين - على أن يبنى نظرياً وأن يطابق عملياً 'الأسواق' المختلفة التى تعمل آليته الاقتصادية من خلالها ويتشكل جهازه التحليلي من خلال التفاعل فيما بينها. وإذا نبسط ونجمع بقدر ما نستطيع، يتكون لدينا نوعان أساسيان من الأسواق، سوق المنتجات وسوق الخدمات الإنتاجية، وكذلك السوق الذى يحدد أسعار رءوس الأموال وبالتالي أيضاً معدل الإيراد الجديد، وسوق وسائل الدفع. قد يستغرب القارئ من تشديدي على هذه المسألة المعروفة على ما يبدو. ولكن الارتباط الصارم لكل جزء من المحاجة بسوق قابلة للتعريف، حتى عند أعلى مستوى من التجريد، يمثل صفة جوهرية من منهج فالراس الذى يبتدأ، فى كل واحدة من هذه الحالات الأربع، بحل نظري لمشكلة توازن معينة ومن ثم يتحقق من الطريقة التى يتجلى فيها هذا الحل النظرى عملياً فى السوق المعنية^(٣٥٥).

ثانياً، نلاحظ، حينما نفحص قائمة الأصول لدى فالراس، وجود تشديد كبير على المخزونات stocks or inventories: فهناك مخزونات من السلع الرأسمالية الجديدة، ومخزونات من السلع الاستهلاكية تحتفظ بها الأسر والمنشآت، ومخزونات من المواد الخام يحتفظ بها منتجوها ومستعملوها معاً، وكذلك، كما رأينا، مخزونات من النقود (أرصدة نقدية سائلة) من مختلف الأنواع. ولما كان وجود هذه المخزونات يفترض مسبقاً سلوكاً ماضياً معيناً لدى الأفراد المعنيين، وما دامت إعادة إنتاجها الجارية تفترض مسبقاً وجود توقعات معينة، فإن النظام - حتى إذا كان راكداً بصورة تامة - ما يزال يصف عملية تجرى عبر الزمن وبالتالي يمكن أن نسميه نظاماً 'ديناميكياً ضمناً'. وإذا كان فالراس لا يشعر بهذا، وإذا وافقناه على

(٣٥٥) وهكذا نُحل مرتين كل واحدة من المشكلات الأربع - تسعير المنتجات، تسعير الخدمات الإنتاجية، تسعير السلع الرأسمالية و'تسعير النقود': إذ لدينا أولاً، فى كل حالة، برهان ما على وجود حل توازنى معين؛ وثانياً، البرهان على أن هذا الحل هو الحل الذى تميل آلية السوق، فى ظل المنافسة البحتة، إلى إثباته، أو، بلغة تقنية أكثر قليلاً، لدينا فى كل حالة من الحالات الأربع برهانان متميزان (محاوِلتان للبرهنة): الأول هو البرهان على وجود existence حل توازنى معين والثانى هو البرهان على وجود ميل نحو ذلك الحل. ولما كان الحل الثانى يتضمن الموضوعات القائلة بأنه إذا تم العثور على الحل التوازنى مرة واحدة، فلا يتم التخلّى عنه إلا بتدخل قوة إضافية معينة، فإننا نسوّى البرهان على الميل نحو توازن ما بالبرهان على استقرار stability الحل التوازنى.

تسمية هذا النظام ستاتيكيًا، فهذا يعود إلى ترتيب معين device قد تبرره رغبة فالراس بإظهار الهيكل العظمى المنطقي للحياة الاقتصادية، ولكنه ترتيب مصطنع إلى حد بعيد رغم ذلك: فقد حاول فالراس أن يبنى حالة توازنية معينة ab ovo {من البداية} بالطريقة التي كان يمكن أن تبنى فيها هذه الحالة لو أمكن أن نكيف بشكل سلس وفوري كل المنتجات والعمليات القائمة للشروط التي تبرز في الحين. إذ إن الأسر لدى فالراس لا تشتري المنتجات الاستهلاكية أو تباع الخدمات الإنتاجية حالاً. كما أن منشآته (المنظمين) لا تشتري الخدمات الإنتاجية وتعرض المنتجات فوراً. فكل هؤلاء يعلنون فقط ما يمكنهم أن يشتروه ويبيعوه (ينتجوه) تباعاً عند أسعار cries au hasard، أى أسعار تعلنها بعض المنشآت بصورة تجريبية فى السوق، وهم أحرار تماماً فى تغيير آرائهم حينما يتبين أن هذه الأسعار ليست هى أسعار التوازن: وهكذا تعلن أسعار أخرى وتسجل إعلانات أخرى عن الاستعداد للشراء أو البيع (والإنتاج) على bons {كوبونات}- وهى قصاصات ورق لا تحمل أى التزام - إلى أن تظهر قيم التوازن، أى أسعار لا يبقى عندها دون إشباع أى طلب مستعد لدفعها أو عرض يقبلها. والآلية الوحيدة التى يسلم بها فالراس للتفاعل مع هذه التغييرات فى الأسعار التجريبية تكمن فى رفع أسعار المنتجات والخدمات التى يكون الطلب عليها أكثر من العرض عند هذه الأسعار، وتخفيض أسعار المنتجات والخدمات التى يكون عرضها أقل من الطلب عند هذه الأسعار^(٣٥٦). ولن أتوقف لعرض الحجج الواضحة التى يمكن تقديمها فى محاولة لتلطيف تنظير فذ كهذا.

[من الواضح عدم وجود أى مناقشة حول الشئ الثالث من 'الأشياء الثلاثة' التى من المهم ملاحظتها.]

[ب) نظرية التبادل] نظراً إلى أن التوازن فى السوقين الأساسيين، سوقى السلع الاستهلاكية والخدمات، والطريقة التى يتفاعلان بها- حيث يحددان أحدهما الآخر آنياً- تحتل أهمية حاسمة بالنسبة لقوة بنية فالراس، فسنعالج الآن هذين السوقين الأساسيين على حدة. وسنهمل، لهذا الغرض، كلاً من الادخار وإنتاج

(٣٥٦) إن طريقة إديجورث فى الوصول إلى أسعار وكميات التوازن عن طريق 'إعادة التعاقد' recontracting تصل إلى الشئ نفسه طبعاً.

capitaux neufs {رءوس الأموال الجديدة} (٣٥٧) - وهو أسلوب يتضمن فرضية أن رءوس الأموال المنتجة تكون معمرة permanent وغير قابلة للتلف كما هو شأن 'الأرض' بالضبط. وللتشديد على الخطى فى هذا الأسلوب، سندخل بالفعل numeraire - وهى السلعة القياسية التى تستعمل للتعبير عن كل علاقات التبادل - دون أن يجرى تداول لأى نقود بالفعل أو أن يتم الاحتفاظ بها (٣٥٨). ثمة أسئلة كثيرة سنحتفظ بها إلى القسم الثامن لأنه يتعذر أن نجيب عليها هنا دون إعاقة التقدم فى محاجبتنا.

نعلم مما سبق أن فالراس قد أسسَ بنيته وفقاً لنظرية محكمة للتبادل تؤدي دورين متميزين: أولاً، كان على هذه النظرية أن تصف الخصائص الأساسية للمنطق الاقتصادى الذى يعنى لدى فالراس الشئ نفسه الذى تعنيه الآلية الأساسية للأسواق التنافسية بشكل عام؛ ثانياً، كان عليها أن تعطى معادلات سلوك الأسر (معادلات التعظيم). بخصوص الدور الأول، تتمخض نظرية المنطق الاقتصادى لدى فالراس عن تفسير للقيمة الاقتصادية يقوم على المنفعة الحدية، وهو تفسير ستجرى مناقشته فى إطاره التاريخى فى ملحق هذا الفصل. أما هنا، فلا نهتم بقضايا من قبيل ما إذا كان ثمة معنى من الحديث عن المنفعة الحدية بوصفها 'السبب' للقيمة بل نمضى مباشرة لمناقشة الجانب الثانى من نظرية التبادل لدى فالراس. ونحن نستطيع أن نفعل هذا لأن مفاهيم المنفعة الحدية والكلية، كما أوضح باريتو (٣٥٩)، تتوافر بإسهاب ما دمنا نريد صياغة شروط التوازن فحسب. ومع ذلك، فمن المرغوب تقديم بضع ملاحظات حول جوانب أخرى من نظرية التبادل هذه.

(٣٥٧) للاختصار، نفترض أيضاً أن المنشآت لا تشتري مواد خام من بعضها بعضاً: فكلها ببساطة تضم 'خدمات' إلى منتجات تنتج للبيع إلى الأسر. ولسوء الحظ، أننا لا نستطيع بالمثل إظهار الخدمات المستهلكة مباشرة من قبل مالكيها.

(٣٥٨) ومع ذلك، لا ينبغي تفسير هذه الخطوة التبسيطية، سواء من ناحية فالراس نفسه أو من ناحية تقديمنا نحن، على اعتبار أنها النظرية القائلة إن النقود لا تدخل فى العملية الأساسية المتعلقة بتحديد القيم بل هى مجرد أداة تكنولوجية أو حجاب. فكل ما نقصد أننا سنضع هذا الموضوع على حدة مع احتفاظنا بحق إلغاء أو تعديل النتائج التى نسعى إليها الآن بالضبط إذا تبين إن تدخل النقود يتطلب منا أن نفعل ذلك.

(٣٥٩) كان انتونيلي Antonelli وبونينسيغنى Bonensegni وآخرون قد أبصروا ذلك ضمناً. وبالنسبة لعبارة باريتو، انظر، مثلاً، عمله Manuel, p. 542. والمعادلة التاسعة، الواردة فى تلك الصفحة، تسرى ليس فقط من دون المنفعة الحدية بل وأيضاً من دون أى 'دالة أسية' index function: إن الفقرات السادسة والسبعين الأولى من ملحق العمل Manuel تعكس نسخة باريتو من دروس فالراس ١٦-٥.

وإذ استفاد فالراس كثيراً من المفاهيم التى أعلننا تَوّاً إنها مفاهيم زائدة، فقد طوّرَ فى البداية نظرية التبادل (التنافسى) بين سلعتين بشكل باهر. والنقطة الجديرة بالملاحظة هى أن فالراس قد أدرك بصورة كاملة الإمكانات المتمثلة بأنه يمكن أن لا يكون هناك أى حل للمشكلة أو، بخلاف ذلك، أن تتوافر توازنات عدة تُختزل، فى بنيتها، إلى ثلاثة توازنات، اثنان منها توازنان مستقران والثالث توازن غير مستقر، بينما أن مثل هذا الوضع لا يحدث عموماً وأن أسعار التوازن الفريدة تظهر دائماً من الناحية العملية إذا كانت تتوافر سلع كثيرة فى السوق.

[تنتهى هذه القطعة من المخطوطة هنا ولكن يبدو أن القطعة التالية تتبعها من دون انقطاع جدى فى المحاجة].

[ج) تحديد واستقرار التبادل البسيط] نظراً إلى إن نظرية التبادل، إلى جانب تقديم الوصف النظرى لسلوك المستهلكين (الأسر)، تقوم أيضاً بإظهار الخصائص الأساسية للفعل الاقتصادى بشكل عام (منطق الاختيار)، فثمة معنى أن نثير هنا بالضبط الأسئلة المتعلقة بالتحديد determinateness والاستقرار Stability للتبادل البسيط فى سوق تنافسى تام، حيث يؤخذ بالاعتبار كما ينبغى التبادل غير المباشر (عمليات الموازنة arbitrage) وحيث يجرى استعمال سلعة قياسية (numeraire) ولكن ليس نقوداً^(٣٦٠). ونحن نثير هذه الأسئلة هنا بنفس المعنى الذى أثارها به فالراس ما عدا نقطة ستظهر بعد قليل.

ثمة أفراد - لنقل n منهم - ممن لديهم أذواق محددة ويمتلكون أصلاً كميات اعتباطية من عدد اعتباطى من السلع المعروفة جيداً، لنقل m إجمالاً، يظهرون فى السوق بقصد الاستفادة من الإمكانات التى قد تقدمها هذه السوق لتحسين إشباع حاجاتهم كما تضمنها ممتلكاتهم الأصلية^(٣٦١). وهكذا نقبل طريقة

(٣٦٠) يُفترض إجراء عمليات الموازنة من خلال numeraire. ومع ذلك، لا بد من أن نكرر إن هذه العمليات يفترض أن تنظم بطريقة معينة لا تحرف أى كمية من السلعة القياسية عن استعمالها كسلعة. فإذا احتفظ الأفراد بأى كمية من السلعة القياسية، فهذا من شأنه تحويلها إلى نقود.

(٣٦١) إن الممتلكات الأصلية لكل مشارك فى السوق هى معطيات تخضع إلى شروط محددة من قبيل إن الكميات المملوكة أصلاً ينبغى أن تكون كلها غير سالبة، وأن واحدة منها على الأقل يجب أن تكون أكثر من صفر، وأن التوزيع الأسمى لا ينبغى أن يخرق فرضية المنافسة البحتة. وفيما عدا ذلك، فإن فالراس، فى الدرس الرابع عشر، يبرهن على أن الأسعار عند التوازن التام ليس من شأنها أن=

فالراس فى الحديث عن ميل كل المشاركين لتعظيم إشباعهم^(٣٦٢). كما نقبل الفرضيات المعتادة حول الاستمرارية وقابلية التفاضل، على الأقل بالنسبة 'للمنحنيات' السوقية الناتجة. أخيراً، بالنسبة لهذه اللحظة، نفترض كما فعل فالراس، إن دوال المنفعة الحدية لدى كل مشارك، بالنسبة لكل سلعة، ليس فقط موجودة بل إنها أيضاً دوال لكمية هذه السلعة فقط، أى أنها مستقلة عن أى سلع أخرى قد تكون لديه. إن كل هذه الدوال متناقصة بصورة ثابتة *monotonically*. وعليه، يكون لدينا: $(m-1, n)$ من معادلات السلوك التى تعبر، بالنسبة لكل المشاركين n ، عن الكميات (بما فيها الكميات صفر) التى سيتخلى عنها هؤلاء المشاركون أو يحصلون عليها عند أى نظام معطى من العلاقات التبادلية (أو الأسعار معبراً عنها بالسلعة القياسية *numeraire*) بفضل الشرط القائل أنهم سيواصلون التبادل إلى أن يعجز أى تبادل إضافى عن زيادة إشباعاتهم الفردية^(٣٦٣)؛ n من المعادلات التى تفيد إن كل الكميات التى يحصل عليها المشاركون ويتخلون عنها، عند ضرب كل كمية بسعرها وفقاً للسلعة القياسية، ينبغى أن تساوى صفراً، إذا أعطينا علامات ناقص للكميات المتخلى عنها وعلامات زائد للكميات المكتسبة (معادلات الموازنة الفردية)؛ أخيراً m من معادلات تفيد إن المبلغ الكلى من الكمية المتخلى عنها، بالنسبة إلى لكل سلعة، ينبغى أن يساوى المبلغ الكلى من الكمية المكتسبة بالنسبة للسوق ككل (معادلات

=تتغير إذا جرت إعادة توزيع للسلع بين المشاركين ما دام أن مجموع الممتلكات لدى كل مشارك يبقى كما هو كما تعبر عنه السلعة القياسية *numeraire* (*theoreme des repartitions*) *equivalentes*). وتأتى إشارتى إلى هذه الموضوع، التى لا يسمح المجال بمناقشتها، لى أعطى مثلاً على إدراك فالراس لضرورة التحقق من كل نقطة فى مخططة بواسطة برهان أساسى. إن هذا الوعى (مهما كان النجاح الذى حققته براهين فالراس أو نواقصها) هو الذى جعل منه معلماً لكل منظرى المستقبل.

(٣٦٢) وهذا غير ضرورى، كما ذكرنا من قبل. ولكنه كان يمثل عادة شبه شاملة ليس فقط لدى الاقتصاديين الرياضيين مثل إديجورث ومارشال ولكن أيضاً لدى النمساويين، وبخاصة بوهم-باورك. وأن الأسئلة المطروحة أمامنا الآن لا تتأثر بانحدارنا إلى نظرية منفعة بدائية. فنحن لا نفترض إمكانية قياس المنفعة، وأن تعظيم مؤشر ما للإشباع يمكن أن يفى بالغرض.

(٣٦٣) يعنى هذا، كما تعلم، أنهم سيواصلون التبادل إلى أن تتساوى منافعهم الحدية من الكميات من كل السلع التى يمكن الحصول عليها مقابل وحدة واحدة من السلعة القياسية *numeraire* (إذا كانت السيكاير هى ال *numeraire*، والوحدة هى علة السيكاير، فإن المنافع الحدية لكل سلعة تصبح مساوية لعلة من السيكاير).

الموازنة السوقية^(٣٦٤). وهذه هي $(m + 1)$ من الشروط أو المعادلات. ولكن، وكما يلاحظ بسهولة، فإن إحدى هذه المعادلات، كالمعادلة الأخيرة من مجموعة معادلات الموازنة السوقية مثلاً، يمكن أن نبين أنها تنتج عن بقية هذه المعادلات ومن معادلات موازنة الأسرة وبالتالي ينبغي أن تُتخى جانباً باعتبارها معادلة غير مستقلة. وهكذا يتبقى لدينا $m + 1 - 1$ من المعادلات المستقلة لتحديد المتغيرات أو 'المجاهيل'، أى الأسعار التوازنية للكميات m والكميات mn التى تتبادل بها الأسر. والآن يمكننا أن نقول، نظراً إلى أن سعر السلعة القياسية commodity numeraire the فيذاتها يساوى الوحدة الواحدة دائماً بالضرورة، أما إن هناك $m-1$ من الأسعار يلزم تحديدها، أو، ما دامت المعادلتان الاثنتان الأوليان من المعادلات (معادلات السلوك ومعادلات موازنة الأسرة)، مأخوذتين فى ذاتهما، هما معادلتان متجانستان من الدرجة صفر فى الأسعار، إن نسب التبادل فقط وليس الأسعار المطلقة هى التى يمكننا تحديدها، رغم أن من الممكن بعدئذ أن نترجم هذه النسب إلى أسعار مطلقة بواسطة تعريف السعر المحتسب وفقاً للسلعة القياسية - numeraire price identity^(٣٦٥). وينبغي على القارئ أن يتأكد من أنه يفهم التعادل التام بين هاتين الطريقتين لصياغة الموضوع وكذلك المعنى الخاص الذى يصح فيه أن نقول إن الأسعار المطلقة (أو 'مستوى السعر') فى هذه البنية هى أسعار غير قابلة للتحديد indeterminate^(٣٦٦).

(٣٦٤) تمثل الأسعار، التى لأجلها نتحقق من المجموعة الأخيرة من المعادلات، أسعار التوازن السوقية. وباستخدام المصطلحات التى بشر بها فالراس وأثبتها البروفيسور هيكس بصورة محددة (Value and Capital, p. 63)، يمكننا أن نعبر عن هذه المجموعة الأخيرة من المعادلات بالقول إن فائض الطلب يجب أن يساوى صفراً بالنسبة لكل سلعة.

(٣٦٥) إن الدالة $x_1 = f(x_2, x_3, \dots, x_r)$ تسمى دالة متجانسة من الدرجة صفر إذا بقى المتغير التابع على حاله عند ضرب المتغيرات المستقلة بـ λ ، حيث λ هى أى ثابت اعتباطى موجب، بحيث إن $x_1 = f(\lambda x_2, \lambda x_3, \dots, \lambda x_r)$. وإذا جعلنا الآن λ تساوى $1/x_2$ ، مثلاً، فإننا نحصل $x_1 = f(1, x_3 / x_2, \dots, x_r / x_2)$ ، أى نحصل على علاقة تستبدل فيها المتغيرات المستقلة الأولى، التى يوجد r منها، بنسب يوجد منها $r - 1$ فقط.

(٣٦٦) هذا يعنى ببساطة أنه، مع أن من الطبيعى كما يبدو أن نجعل 'سعر' السلعة القياسية numeraire، p_n ، الذى يساوى الوحدة الواحدة بالتعريف، يأخذ الشكل $p_n - 1 \equiv 0$ ، إلا أننا يمكن أيضاً أن نجعله يساوى أى رقم اعتباطى دون تغيير أى شئ فى هذه البنية. وقد ناقش فالراس نظرية السلعة القياسية بدقة، متوصلاً، بين أمور أخرى، إلى وضع قاعدة لترجمة الأسعار المعبر عنها بسلعة معينة كـ numeraire إلى أسعار باستعمال سلعة قياسية أخرى numeraire أخرى (Elements, p. 150).

ونطرح الآن السؤال التالي: هل تكفى هذه الشروط لتحديد قيم هذه المتغيرات؟ هذا هو، مرة أخرى، السؤال حول 'وجود' existence، بالمعنى الرياضى، مجموعة من القيم تفي بالشروط. وهذا السؤال يرادف السؤال ما إذا كانت المعادلات التى تجسد الشروط قابلة لأن تُحل آنياً. ولكنه لا يعنى السؤال ما إذا كان هناك فى سوقنا أى ميل للتحقق من هذه الحلول، إن كانت هذه الحلول موجودة، أو السؤال عما إذا كانت هذه الحلول أو قيم التوازن مستقرة أم لا.

ومن بين كل الاعتراضات غير العادلة أو حتى الخالية من المعنى التى أثّرت ضد فالراس، فإن الاعتراض الأكثر ظلمًا هو القول بأن فالراس ربما كان يعتقد بأن السؤال المتعلق بالوجود existence تتم الإجابة عليه بمجرد أننا نحسب عدد 'المعادلات' و'المجاهيل' وأن نجد أنها متساوية فى عددها. فقد رأينا أن فالراس تحقّق من متطلب إضافى آخر: استقلال المعادلات. ولكننا، حينما نحلل محاججته، نكتشف أيضًا، رغم عيوب تجهيزه الرياضى دون شك، إن عبقريته أبصرت أو شعرت بكل المشاكل المهمة الأخرى أو بجلها وأنه توصل دائمًا إلى نتائج صحيحة عمليًا. وإذا كان فالراس قد فشل فى الإجابة على كل الأسئلة بصورة مرضية، فميزته الخالدة تكمن فى طرح تلك الأسئلة. وإذا كان عمله لا يشكل ذروة هذا النوع من التحليل، فهو أساسه بالتأكيد.

أبصر فالراس إمكانية إن نظامنا للمعادلات قد لا يسمح بأى حل قط. كما أنه أبصر، بل أثبت أن الحل، إن وُجد، قد لا يكون فريدًا. فكل ما ادعاه هو إن الحلول توجد فى العادة، وأنه سيكون هناك عمومًا حل فريد إذا كانت السلع فى السوق كثيرة جدًا (Elements, p. 163). ولما كانت الكميات المطلوبة والمعروضة، فى مخططه، هى دوال فريدة-القيمة للأسعار single-valued functions، وما دامت دوال المنفعة الحدية لديه هى دوال متناقصة بصورة ثابتة monotonically، فيمكن أن نفترض حالاً أن الحل الفريد، حيثما 'يكون له وجود'، ليس له بالضرورة معنى من الناحية الاقتصادية بمعنى أن نظامًا فعليًا معينًا كان يمكن أن يعمل وفقًا له^(٣٦٧) - رغم أن فالراس لم يشدد على هذا الحل الفريد وربما لم يعيه كليًا.

=وينبغي أن يكون من الواضح أن هذه القاعدة لا تسرى على النقود أو أنها تسرى عليها فى ظل فروض غير واقعية تمامًا.

(٣٦٧) إن حدوث حالة معينة، مثل عدم قدرة بعض المشاركين فى السوق على تأمين حد أقصى من الإنشباع فوق نقطة المجاعة، يمكن أن تعالج كشكل خاص من الانهيار الاقتصادى للنظام، وإن لم=

كما يمكننا أن نسأل السؤال التالي أيضًا: ألا نستطيع أن نفعل أفضل من ذلك؟ ينقسم هذا السؤال إلى قسمين: إذ نسأل أولاً: هل نستطيع أن نصوغ بشكل أكثر صرامة الشروط التي يعتمد عليها وجود الحلول، وبخاصة وجود حل فريد، في حدود فرضيات فالراس نفسها؟ الإجابة إيجابية. إن مثل هذه الصياغة الأكثر صرامة كان قد قدمها البروفيسور والد حقاً^(٣٦٨). ودون الدخول في أسئلة دقيقة كثيرة يثيرها عمل والد اللامع (ودون الموافقة على كل جملة فيه) نكتفي بملاحظة أن تحليل فالراس لا يظهر وهو ضعيف من حيث الجوهر^(٣٦٩). ولكن يتوجب علينا، ثانياً، أن نسأل ما إذا كانت موضوعة الوجود ستصمد حينما نجعل، كما ينبغي علينا أن نفعل، المنفعة الكلية والحدية دالة لكل السلع التي تدخل في ميزانية أسرة ما. هذه هي الصعوبة الحقيقية طبعاً. ولكن الإجابة إيجابية حتى في هذه الحالة وذلك في ظل قيود تبدو مقبولة. وقد قدم البروفيسور أموروسو هذه الإجابة^(٣٧٠). وللإطلاع على معالجة تتناول الموضوع كله من زاوية نظرية

= يمكن الانهيار الرياضى. ومع ذلك، بالنسبة للحالة بذاتها، فمن الطبيعي تماماً أن نظاماً لا يمثل سوى منطق علاقات معينة لا يمكنه، في غياب معلومات إضافية، أن يخبرنا بشيء ما عن حجم الحصص الناتجة في هيئة سلع. وكذلك، نظراً إلى أن فالراس كان قد عالج فقط مشكلة في المنطق البحت الخاص بالتحديد المترام للمتغيرات وبالتالي أهمل كل أنواع فترات الإبطاء مثلًا *lags*، فليس من داع لتكرار القول إن القيمة التفسيرية لهذا الجزء من حاجته لا تتجاوز توضيح جانب واحد من جوانب عدة ينبغي حتى على النظرية البحتة أن تعنى به.

(٣٦٨) انظر (Abraham Wald (1902-50) فى مجلة: *Ergebnisse eines mathematischen Kolloquiums* (vols. 6 and 7, 1935 and 1936) وتقرير والد غير التكنيكى حول بحثه فى: *Über einige Gleichungssysteme der mathematischen Ökonomie*, *Zeitschrift für Nationalökonomie*, December 1936. [لقد ترجمت هذه المقالة فى ذكرى والد: 'On Some System of Equations of Mathematical Economics,' *Econometrica*, October 1951]

(٣٦٩) إن هجوم والد 'المبرر' على الطريقة التي حاول فيها فالراس إثبات الاستقرار هو موضوع آخر ستجرى مناقشته بعد قليل. ولا أرى من الصحيح، كما فعل والد، خلط هذا الموضوع بالسؤال حول 'وجود' الحلول بالمعنى الذى أوضحناه. كما أرى أيضاً أن السبب، الذى أورده فالراس فى صفحة ١٦٣ من *Elements* حول توقعه أن يكون الحل فريداً بشكل عام إذا كانت هناك سلع كثيرة جداً فى السوق، بضاهى الصياغة الأكثر صرامة لوالد التي تقول بأن فريدة الحل توجد إذا كانت دوال المنفعة الحدية هكذا بحيث إن قيمة المنفعة *utility value* (المنفعة الحدية مضمرة فى الكمية، وهو مفهوم يعود إلى فون فيزر وفيشر) هي دالة متزايدة للكمية. انظر أيضاً فالراس: *Elements*, p. 125.

(٣٧٠) أى أن أموروسو *Amoroso* أثبت، بطريقة لا أستطيع أن أجِد فيها أى عيب (جدى)، أن كميات السلع التي يحملها فرد ما وهو يغادر السوق، فى ظل أسعار معطاة، تتحدد بشكل فريد، ليس دائماً حقاً ولكن تحت فرضيات مقبولة. وهذا جزء فقط من *thema probandum* {الموضوع الطاعى}، ولكنه جزء مهم جداً فى الحالة التي تكون فيها المنافع الحدية مشتقات جزئية. انظر: *'Discussione del sistema di eqazioni che definiscono l'equilibrio del consumatore'*, *Annali di Economia*, 1928.

الطلب، أدعو القارئ إلى الرجوع إلى العمل الأساسى للبروفيسور وولد^(٣٧١).

نتحول الآن إلى السؤال حول الاستقرار الذى سنضمّنه السؤال بشأن وجود ميل ما نحو حلول (نظرية) فريدة كذلك التى يمكن أن توجد^(٣٧٢). تكمن إحدى أعظم مآثر فالراس فى تمييزه بين مشكلتي 'الوجود' و'الاستقرار' وفى أنه قرنَ الحاجة الخاصة بالأولى بمحااجة محكمة حول الثانية. ومع ذلك، فقد عالَج فالراس مشكلة الاستقرار بطريقة خاصة لأنها طرحت نفسها أمامه بالارتباط مع ما هى، بالمنطق الصارم، مشكلة أخرى تمامًا، أى العلاقة بين الحل الرياضى لمعادلاته وبين العمليات فى أى سوق فعلى. فهو، أولاً وقبل كل شيء، كان مثلهُفا لى يبين أن الأفراد فى السوق، مع أنهم لا يحلون أى معادلات كما هو واضح، بيد أنهم يحققون بطريقة مختلفة الشيء نفسه الذى يحققه المنظرون من خلال حل المعادلات؛ أو، إذا صغناها بطريقة أخرى، إن الطريقة 'التجريبية' empirical المستعملة فى الأسواق التنافسية البحتة والطريقة 'النظرية' أو 'العلمية' للباحث تميلان إلى خلق نفس الترتيب التوازنى. إذن، إن طرح هذه المشكلة يقَدِّم بصورة طبيعية موضوع الاستقرار إلى الصدارة، أى كيف أن آلية الأسواق التنافسية تسيّر النظام باتجاه التوازن وتبقيه هناك.

ونظرًا إلى إن من الواضح منذ البدء أن الأسواق فى الحياة الواقعية لا تعرف التوازن قط، فلا يمكن وضع هذا السؤال إلا لأسواق لما تزل مخلوقات مجردة يصنعها ذهن الباحث. إن الأفراد، الذين يظهرون وبحوزتهم مخزونات أولية من السلع وجداول منفعة حدية محددة، تواجههم أسعار وَضَعها فرد ما بصورة اعتباطية cries as hasard. قرر هؤلاء الأفراد التخلّى عن كميات محددة من بعض السلع والحصول على كميات محددة من سلع أخرى عند هذه الأسعار.

Herman Wold, 'A Synthesis of Pure Demand Analysis,' three (English) papers in the (٣٧١) Skandinavisk Akturietidskrift, 1943-4.

(٣٧٢) بوى أن أعيد التشديد على أننا، عموماً، نرتكب غلطة حينما نطابق مشكلة 'الميل' tendency بمشكلة 'الاستقرار' stability: إذ إن كرة الغولف المستقرة على الحشيش لا تملك أى ميل للدخول فى الحفرة المقصودة ما لم يضربها لاعب ما، وقد لا يتحقق هذا حتى فى هذه الحالة. ولكن الكرة ستبقى فى توازن مستقر لو وضعها لاعب ما فى الحفرة. وهذا القول ينبغى أن يبين الحكمة من التمييز بين الحالتين. وفى حالتنا، مع ذلك، فإن العوامل التى تساعد على استقرار وضع التوازن تمثل فى الوقت نفسه 'قوى' يمكن أن تفسر ميلاً ما فى متغيرائنا لأن تدخل فى الترتيب التوازنى. وهكذا نرجأ اعتراضنا الذى هو مهم للعمليات التطورية فحسب.

بيد إن الأفراد، كما نعلم، لا يفعلون هذا حقاً بل يسجلون على 'bons {كوبونات} ما يزمعون أن 'يشتروه' أو 'يبيعوه' عند تلك الأسعار عند استمرارها، أو أنهم يحتفظون بحق إعادة التعاقد حينما يدخلون في عقود. ومن السهل أن نرى أنه إذا تبين أن إعادة التعاقد غير ضرورية وإذا تم الوفاء بالكوبونات، فإن الشروط التى تجسدها المعادلات ينبغي أن تتحقق فى الواقع حقاً. وحينما لا تتحقق، يُصار إلى إعادة تعاقد عند أسعار مختلفة، أعلى أو أدنى من الأسعار الأصلية، وذلك تبعاً لما إذا كان هناك فائض طلب موجب أو سالب فى السلع المعنية إلى أن يتساوى الطلب مع العرض فى كل الحالات (Elements, p. 133). وأياً كان ما يجب قوله عن واقعية هذا الأمر^(٣٧٣)، فمن الواضح غريزياً، لأول وهلة، بقدر عدم التسليم بأى آلية أخرى للتفاعل غير الآلية التى يقدمها فالراس حصراً، إن التوازن سيتحقق فى ظل هذه الفرضيات؛ وإنه سيكون توازناً فريداً ومستقراً على العموم؛ وأن الأسعار والكميات فى هذا الترتيب ستكون هى تلك التى نحصل عليها من حلنا النظرى^(٣٧٤). ومع ذلك، فقد ترددَ فالراس نفسه بشأن نقطة مهمة جداً كان البروفيسور والد قد أعاد التشديد عليها كثيراً (Zeitschrift, op. cit, p. 653). وهى كما يلى. تتأسس قيم التوازن فى السوق التام بواسطة لعبة التجربة والخطأ (tatonnement) - حيث تتكيف الأسعار، وتتكيف الكميات مجدداً كنتيجة لذلك. ولغرض الوضوح، تصورُ أن الأسعار كلها، ما عدا سعر واحد، تسوّى الطلبات والعروض المعنية. تتوافر لدينا قاعدة لتكييف السعر الوحيد الذى لا يسوّى الطلب والعرض. ولكننا إذا كیفناه بالفعل، فأننا بذلك نقرب التوازن فى كل الأقسام الأخرى من السوق التى لم تعد أسعارها أسعاراً توازنيةً ما دامت هذه الأسعار لا تسوّى الطلب والعرض فى هذه الأسواق الأخرى إلا بالارتباط مع السعر الوحيد الذى

(٣٧٣) انظر، مجدداً: Nicholas Kaldor, 'A Classificatory Note on the Determinateness of

Equilibrium,' Review of Economic Studies, February 1934.

(٣٧٤) إن هذا الانطباع prima facie {الأولى} قد يفسر حقيقة إن المنظرين، حتى فى وقتنا الحاضر، لم يقلقوا كثيراً بشأن هذه المشكلة كما جرى وضعها هكذا. إذ نستطيع أن نجتمع الطلبات والعروض الفريدة من السلع m فى m من المعادلات من الشكل $O_i(p_1... p_m) = D_i(p_1... p_m)$. ومن هذه المعادلات، نفقد معادلة واحدة بسبب حقيقة أنها تنتج عن المعادلات الأخرى. ونفقد من الأسعار m سعراً واحداً بسبب فرضية التجانس من الدرجة صفر. كما إن الاستقرار مضمون بفضل الشرط القائل إن أى سعر أعلى من السعر التوازنى يخلق فائض طلب سالب وأى سعر أقل من السعر التوازنى يخلق فائض طلب موجب - وهو شرط شددَ عليه فالراس عليه كثيراً. إن كل الشكوك التى تقلق المنظرين حقاً، بقدر ما لا تكون ناتجة عن ارتياحهم بالفرضيات التى تعرف بنية فالراس، لا ترد إلا عند إدخال النقود الحقيقية.

فشل فى أن يفعل ذلك. ولذلك، يتعين علينا أن نكيف الأسعار الأخرى بدورها، وإن السبب الوحيد، الذى يقدمه فالراس لتوقع أن الترتيب الجديد أقرب إلى التوازن بشكل عام مما كان عليه الترتيب الأصلي، هو أن هذا الأمر 'محتمل' لأن آثار تكيف السعر الذى خرج عن الخط أصلاً، على فائض الطلب من السلعة المعنية، هى آثار مباشرة وقوية وكلها فى نفس الاتجاه، بينما تكون معظم آثار التكييفات الجديدة الضرورية للأسعار الأخرى غير مباشرة وأضعف وليست كلها فى نفس الاتجاه: فهى تلغى بعضها بعضاً إلى حد ما. وبوضعها هكذا، فإن هذه المحاولة لإثبات كل من الميل نحو توازن السوق واستقرار هذا التوازن تعوزها الصرامة بشكل واضح. وقد لوحظ هذا الأمر حديثاً بصورة متزايدة ولكن لم يتم تقديم حل مرضى كلياً للمشكلة^(٣٧٥). [هذا القسم الفرعى غير مكتمل.]

(د) نظرية الإنتاج لدى فالراس] نتحول الآن إلى الفرع الثانى من النظرية البحتة للعملية الاقتصادية لدى فالراس، أى نظرية الإنتاج التى، كما نعرف، ليست سوى الطريقة التى تخصص فيها آلية المنافسة البحتة 'خدمات' كل الأنواع والنوعيات المختلفة من العوامل الطبيعية، وقوة العمل، والوسائل المنتجة للإنتاج^(٣٧٦). تمثل نظرية التخصيص هذه بدورها الشيء نفسه كنظرية تسعير هذه الخدمات لأن آلية السعر هى التى تضع هذه الخدمات فى المكان الذى تشغله بالفعل فى لغز الصور المتقطعة الكبير وتبقيهم هناك. وأخيراً، فنحن لا نقول سوى هذا حينما نقول إن نظرية الإنتاج تبلغنا بتلك الكميات من تلك السلع التى ستقرر منشأة

(٣٧٥) قد يرحب بعض القراء، ممن يهتمون كثيراً بهذه الأسئلة الدقيقة، بالمعالم التالية على ذلك الطريق. أولاً، إن باريتو لم يطوّر محاكاة فالراس من هذه الناحية باستثناء إدراكه الأكثر صراحة إن التقلبات قريباً من القيم يمكن أن تنجبع بعيداً عنها إضافة إلى أنها يمكن أن تنجبع نحوها. ثانياً، من باريتو إلى هيكس، لم يتم إحراز سوى تقدم ضئيل من هذه الناحية، رغم تحقيق تقدم كبير فى المجالات الأخرى. وكان البروفيسور هيكس هو من صاغ شروط الاستقرار التى تم تطويرها فيما بعد من قبل كتاب آخرين، وبخاصة ساملسون Samuelson وميتزلر Metzler. وكان ساملسون، كما اعتقد، أول من أوضح أن مشكلة الاستقرار لا يمكن قط وضعها دون مخطط ديناميكى صريح، أى دون تخصيص specification الطريقة التى يتفاعل بها النظام مع الانحرافات عن التوازن. ثالثاً، يبين عرضنا أن فالراس يقدم بالفعل مثل هذا المخطط الديناميكى: إذ إنه حدد سلسلة من الخطى يُعتقد إن النظام يشق طريقه بواسطتها باتجاه التوازن المستقر - وهذا أمر لم يزل فالراس عنه التقدير الذى يستحقه. ولا يغطى هذا المخطط أكثر من حالة خاصة، ولكن ثمة برهان أكثر صرامة يتوافر لهذه الحالة الخاصة، رغم حقيقة أن فالراس فشل أن يعطيه هو نفسه.

(٣٧٦) تذكر أن هذه الوسائل المنتجة للإنتاج، على المستوى الذى نتحرك عليه الآن، تُستأجر عينا وأن استعمالها يستمر لفترة غير محددة - وهما فرضيتان نتجه إلى استبعادهما الآن.

ما إنتاجها وتلك الكميات من الخدمات التي تتوى شرائها فى ضوء الأذواق المعطاة للمستهلكين المحتملين لمنتجاتها والميول المعطاة لنفس هؤلاء المستهلكين، كمالكين' للخدمات الإنتاجية. وهنا، فإن الكميات الكلية من هذه الخدمات، أى الكميات المتوافرة منها بصورة كامنة أثناء فترة زمنية محددة، هى كميات معطاة لأن مصادرها معطاة. ولكن ليس ضرورياً استخدامها فى الإنتاج بشكل كامل، ولا أن تتعرض هى للضياع بالضرورة إن لم تُستخدم فى الإنتاج. ذلك لأن جانباً أساسياً من مخطط فالراس يتمثل بأن كل هذه الكميات يمكن أن تُستخدم من قبل مالكيها بصورة مباشرة^(٣٧٧). وهكذا فإن كمياتها الكلية وميول مالكيها لاستهلاكها- وحتى احتمال اكتساب كميات إضافية منها لغرض الاستهلاك - أو للتخلي عنها تشكل المجموعة الثانية من المعطيات، وكانت مشكلة فالراس تكمن فى إيضاح كيف تتشابك هذه المعطيات مع معطيات المجموعة الأولى، أذواق المستهلكين، لخلق مجموعة منسجمة من الكميات والقيم^(٣٧٨).

نحن نفهم حالاً إن فالراس سعى من أجل الوصول إلى حل لهذه المشكلة كان يجب أن يكون متماثلاً symmetrical مع الحل الذى طورّه سابقاً فى نظريته العامة للمقايضة فى سوق لسلع استهلاكية متعددة. وفى الواقع، يمكن وصف نظريته للإنتاج كمحاولة، وفقاً لروح ج. ب. ساي، لتحويل حالة الإنتاج إلى الحالة

(٣٧٧) ولذلك، عند فالراس، فإن هذه الخدمات التي تستعمل فى الإنتاج تمتلك أيضاً قيمة استعمالية بالنسبة 'لمالكيها'. وهذا يخلق صعوبات تتضح بشكل خاص فى حالة الأدوات الخاصة specific بالإنتاج مثل الآلات. إن الافتراض، كإمكانية على الأقل، إن آلة تتحول فى الحال إلى مقعد مريح، وفقاً لرغبة صاحبها، هو تنظير فذ حقاً إلى حد بعيد. ولم يضعف هذا الافتراض إلا جزئياً فيما بعد فى نظرية 'رئوس الأموال الجديدة' (capitaux neufs). ولكنه يمتلك ميزته حينما يكون المطلوب تفسيره ab ovo (من البداية) هو منطق بنية خزين السلع الرأسمالية. ويمكننا أن نجعل الفرضية مقبولة أكثر بالقول إن القرار السابق لرأسمالى معين باستعمال السلعة الرأسمالية التي يمتلكها بالفعل إنما يكون قد حدّد أى نوع يمتلك هو بالفعل من السلعة الرأسمالية. ومن المعقول أن نقول إن هذه المحاولة لإنقاذ الوضع تدمر تماماً الإطار الستاتيكي للنظرية. إن مثل هذا الافتراض لم يوضع من قبل مارشال أو النمساويين ولكن هذا لا يعود إلا إلى أنهم كانوا أقل صرامة من فالراس. دعونى انتبهز هذه الفرصة لأؤكد، مرة أخرى، على أن فالراس، وبصرامة أكثر، أعاد حقاً صياغة نظريات الإنتاج لدى آ. سميث، وج. ب. ساي، وج. س. ميل. كما إن نظرية الإنتاج لدى الأخير لا ينبغي طبعاً البحث عنها فى كتابه الأول فحسب.

(٣٧٨) فى عمله Manuel، شذّب باريتو هذه البنية محولاً إياها إلى نظريته العامة للأذواق والعقبات التي تمضى حقاً على مستوى أرفع من التجريد وتساعد بوضوح أكثر، بشكل خاص، على إبراز المشاكل المنطقية التي تتوارى فى هذه البنية. إن القيمة العملية لتعميم باريتو تتجلى فى السهولة التي اعتنق بها هذا التعميم فكرة الاقتصاد الاشتراكي. ولكنها لا تساعدنا كثيراً على المستوى الذى نكتشف به أنفسنا.

الأكثر عمومية من المبادلة بين الخدمات والمنتجات، وفي التحليل الأخير، بين الخدمات ببساطة. كان فالراس يدرك تكاليف هذه المحاولة وكان مستعداً لدفعها. أولاً، رغم أن فالراس ضمن آلية شخصية المنظم الذي لم يكن مجرد رأسمالي، بيد أنه اختزل هذا المنظم كما رأينا إلى دور شكلي بحث كمشتري لخدمات إنتاجية^(٣٧٩) وبائع لسلع استهلاكية دون أن تكون له أى مبادرة- أو دخل- خاص به^(٣٨٠). وللتشديد على هذا، سنستبدل مصطلح 'منظم' بالمصطلح غير الشخصي 'منشأة': فمن الواضح في تفكير فالراس إن الأسر، كمشتري للمنتجات وبائعة للخدمات معاً، هي التي تقرر العملية الاقتصادية. ثانياً، رغم أن فالراس يدرك طبعاً حقيقة أن الإنتاج وتكليف الإنتاج يتضمنان فترات إبطاء delays، بيد أنه في البداية قد أهمل هذه الفترات purement et simplement ببساطة^(Elements, p. 215)، مؤجلاً اعترافه الجزئي بدورها إلى القسم البعيد المتعلق بالتداول والنقود. ونحن نفعل الشيء نفسه بل ونقبل، بالنسبة لهذه اللحظة، الفرضيات المستحيلة على ما يبدو: معاملات الإنتاج الثابتة^(٣٨١)، وغياب أى نفقات أولية overhead، وإن كل المنشآت في كل صناعة تنتج كميات متساوية من السلعة بالضبط^(٣٨٢). ونسأل، قبل كل شيء، كما فعلنا من قبل في حالة المقايضة بسلع متعددة، ما إذا كان هناك،

(٣٧٩) سبق أن رأينا أن فالراس كان يدرك بشكل كامل أهمية مخزونات وتدفقات المواد الخام والسلع شبه- الجاهزة التي يشتريها المنظمون من منظمين آخرين. ولكنه حينما تناول المشكلة الأساسية للإنتاج (الدرسان العشرون والحادي والعشرون)، فإنه طرح تلك المخزونات والتدفقات بصورة مختالة، مقتصرًا على إيضاح- وهو أمر سهل لو أهملنا كل السلاسل أو فترات الإبطاء- إن هذه المشتريات التي يقوم بها منظمون من منظمين آخرين هي خطى وسيطة في عملية لن يؤثر على فهمها إهمال هذه الخطى.

(٣٨٠) دعوني أشدد، مرة أخرى، على أنه في توازن عملية تنافسية بحتة، حيث لا يستطيع أى فرد أن يمارس أى تأثير على أسعار أى من الخدمات أو المنتجات، فإن كل منظم سيكون حقاً entrepreneur ne faisant ni benefice ne perte (منظمًا لا يربح ولا يخسر): وهذا ليس لغزًا أو حشواً زائداً (أى أنه ليس نتيجة لتعريف ما)، ولكنه، في ظل فرضيات فالراس، شرط توازنى (أو، إن شئت، موضوعة مثبتة). [نناقش هذه النقطة أكثر في القسم الثامن القادم].

(٣٨١) يتضمن هذا فرضيتين مختلفتين حقاً: ١) إن هذه المعاملات، أى الكميات من كل الخدمات التي تدخل في الوحدة الواحدة من المنتجات، معطاة تكنولوجياً أو إن هناك، بالنسبة لكل منتج، طريقة واحدة ممكنة تكنولوجياً لإنتاجه؛ ٢) وإن هذه المعاملات لا تتغير وفقاً للكمية المنتجة أو أنه ليست هناك وفورات حجم economies of scale أو تناقص ناجم عن الحجم diseconomies of scale. وقد تغيرت هذه البنية فيما بعد على يد فالراس نفسه. ولكن هذه القضايا سنتناولها في القسم القادم، الثامن.

(٣٨٢) لا يبدو أن فالراس قد لاحظ ما كان يُطرح للمناقشة كثيراً: أى أن هذا يجعل عدد المنشآت غير قابل للتحديد indeterminate، رغم أنه لا يمنع تحديد determinateness إنتاج كل صناعة. ونظراً إلى عدم أهمية هذا بالنسبة لمناقشتنا الحالية، فإننا نرجى درس هذه النقطة أيضاً إلى القسم القادم.

بوجود كل هذه 'التبسيطات' - التى وُجِدَ أن بعضها كان مجرد تعقيدات فى النهاية - مجموعة فريدة من الحلول بالنسبة لنظام معادلات يغطى سلوك المستهلكين والمنتجين معاً أو يمثل هيكل الحياة الاقتصادية إذا صح التعبير.

ندرك غريزيًا أن الجواب سيكون إيجابيًا وذلك فى ظل نفس التحفظات التى كان يتعين علينا أن نضعها فى الحالة العامة للمبادلة بسلع متعددة وفى ظل التحفظات الأخرى التى تفرضها علينا الفرضيات الإضافية التى يفترضها فالراس لتسهيل السيطرة على مشكلة الإنتاج. بوسعنا تجميد الفرضيات. ويمكننا أن نشكك بقيمة نظرية معينة لا تسرى إلا فى ظل شروط يعتبر مجرد وضعها بمثابة تنفيذ لهذه النظرية^(٣٨٣). ولكن إذا كنا نقبل هذه التحفظات والفرضيات، فثمة خطأ صغير يمكن إيجاده فى حل فالراس. وهذا الخطأ هو: إن الأسر التى تقوم بتزويد الخدمات تمتلك، فى بنية فالراس، جداول محددة وفريدة القيمة لاستعدادها للتخلى عن هذه الخدمات. تتحدد هذه الجداول، من ناحية، بتقييم الأسر للإشباع المستخلص من الاستهلاك المباشر لهذه الخدمات^(٣٨٤)؛ ومن ناحية أخرى، بمعرفتها بالإشباع الذى كان يمكن استخلاصه من الدخول، معبرًا عنها بالسلعة القياسية numeraire، التى يمكنهم كسبها عند أى مجموعة من 'أسعار' السلع الاستهلاكية والخدمات. ذلك لأن

(٣٨٣) ينبغى على أولئك، أمثالى، ممن لا يذهبون بعيدًا إلى هذا الحد، أن يقيموا عاليًا هذا العمل الرائد ويصبروا ميزة معينة بالضبط فى حقيقة إن فالراس وصف العمل الذى يتعين تحقيقه فى المستقبل (وما يزال يتعين تحقيقه جزئيًا).

(٣٨٤) يفقد تبسيط كاسل لنظام فالراس إلى هذا الجانب. وبالنتيجة، توجب على كاسل أن يجعل الكمية القائمة (بشكل كامن) من الخدمات تساوى الكمية التى ينبغى استخدامها فى الإنتاج عند التوازن. لقد أوضح فيكسل، وستاكليبرغ Stackelberg فيما بعد (Zwei kritische Bemerkungen zur 'Preistheorie Guatav Cassels,' Zeitschrift fur Nationalökonomie, June 1933) أنه سيكون من المستحيل عمومًا تحقيق شرط التوازن هذا مع معاملات إنتاج ثابتة. وهذا ليس أمرًا خطيرًا لأن الصعوبة تتلاشى حينما ندخل معاملات متغيرة، أى إمكانية الإحلال (انظر القسم الثامن). ولكن إذا قبلنا المعاملات الثابتة ورفضنا، فى الوقت نفسه، أن نقبل نظرية فالراس القائلة إن جزءًا من الخدمات يُستهلك بصورة مباشرة من قبل 'مالكيه'، فستبرز، بشكل عام، بطالة فى بعض الخدمات التى لا تتوافر تكملاتها الضرورية. إن هذه الخدمات الفائضة العاطلة، إذ تبحث عن العمل، سوف تخفض لاحقًا من أجور الخدمات الموظفة من النوع نفسه، ولكن هذا التخفيض قد لا يفعل سوى القليل (أى بواسطة ترخيص المنتجات التى تستوعب نسبيًا الكثير من الخدمات التى يتوافر فائض منها) لتخفيض البطالة وبالتالي يمكنه أن يعمل على عدم الاستقرار فى النظام كله نظرًا لتضارب شروط التوازن. وهذه الحالة غير مهمة. ولكن بعض الكينزيين استحضروها فى أذهانهم حينما حاججوا لصالح إثبات إمكانية توازن البطالة.

أسعار السلع الاستهلاكية تتحدد آنياً مع «أسعار» الخدمات وعلى نحو بحيث يرتبط أحدهما بالآخر: فكل عامل مثلاً يقرر عدد الساعات في اليوم الواحد أو الأسبوع الواحد التي ينوي عرضها مقابل أجر معين، معبراً عنه بالسلعة القياسية numeraire، يرتبط بأسعار محددة، معبراً عنها بالـ numeraire، لكل السلع الاستهلاكية التي سيتم إنتاجها باستخدام كل العمل المعروض عند ذلك الأجر. رياضياً، نعبر عن هذا بجعل كل ما يعرضه كل فرد من كل خدمة 'يمثلها' دالة لكل الأسعار (أسعار السلع الاستهلاكية والخدمات معاً). وللسبب نفسه، فإن طلب كل فرد على كل سلعة دالة لكل الأسعار (لكل من الخدمات والسلع الاستهلاكية). إن طلب كل فرد على السلعة القياسية numeraire ينشأ ببساطة عن معادلة الموازنة لدى كل فرد، التي (ما دمنا، لحد الآن، نتجرد عن النقود الحقيقية والادخار) تماثل تماماً معادلة الموازنة في حالة المقايضة بسلع متعددة باستثناء أن العروض، في الحالة القائمة، هي عروض خدمات وأن الطلب وحده يشير إلى سلع^(٣٨٥). ومن هذه الطلبات والعروض الفردية نحصل على العروض الكلية (الصافية) من الخدمات والطلبات الكلية على المنتجات في السوق وكلها دوال لأسعار كل الخدمات والمنتجات. ولكن بقية البنية تشلها- وذلك كما هو واضح لتركيز الانتباه على العلاقة الاجتماعية المهمة بين العوامل النهائية التي تشكل الاستهلاك والإنتاج في وقت واحد- فرضية معاملات الإنتاج الثابتة والمقررة تكنولوجياً technologically fixed and constant coefficients التي تعطي حالاً القيود المتبقية التي نحتاجها لتحديد الأسعار. فلتحديد الأسعار، نحتاج المعادلات، التي يساوي عددها عدد الخدمات، التي تعبر عن إن كميات الخدمات في كل الصناعات يجب أن تساوي العرض الكلي من هذه الخدمات، والمعادلات، التي يساوي عددها عدد المنتجات،

(٣٨٥) جرى توبيخ فالراس في أحوال كثيرة من ناحية عدم إتقان رياضياته أو نقلها. ومع ذلك، فمن المؤكد أن الحجة الواردة في الدرس العشرين، حيث يحل فالراس المشكلة 'النظرية'، ليست غير دقيقة، وبخاصة من ناحية الطريقة التي تنتج فيها عروض الخدمات عن شروط التوازن الحدية (op. cit. p. 210). ويبدو لي أن بعض النقاد يتعلمون من هذه الطريقة، ومن ضمنهم نقاد رياضيون. ونتجّه الممارسة في الوقت الحاضر، القائمة على الملائمة التعليمية، نحو جعل الطلبات الفردية على السلع دوالاً لأسعارها فقط وللدخل. وفي حين تمتلك هذه الطريقة مزاياها، وبخاصة الآن حيث تساعد الباحث على إدراك صلة الاقتصاد الكينزي باقتصاد فالراس، فإنها تخفى حقاً مفهوم فالراس الأساسي وتجعل الأمور أصعب في نهاية المطاف.

التي تعبر عن أن معاملات إنتاج الخدمات المستعملة في كل صناعة، حيث يضرب كل معامل بسعر الخدمات هذه، يجب أن يساوى سعر الوحدة من منتوج الصناعة أو أن متوسط التكلفة في كل الصناعات، الذي يساوى التكلفة الحدية في حالة فالراس، يجب أن يساوى السعر.

من السهل أن نبين أن عدد المتغيرات التي يلزم تحديدها يجب أن يساوى عدد المعادلات. أما بالنسبة للسؤال الرياضى بشأن ما إذا كانت هذه المعادلات يمكن حلها بالنسبة للمتغيرات- ما إذا كان الحل التوازنى له 'وجود'- فيتعين علينا أن نقول نفس ما قلناه في السابق إلى حد بعيد: إن فالراس لم يقدم حلاً يرضى معايير عالم الرياضيات الحديث، رغم أن بوسعنا أن نبين^(٣٨٦) أنه أبصر الأمر وأنه أما عالج أو تفادى كل الحواجز التي كانت تقف في طريقه نحو حل إيجابى. وبطبيعة الحال، كان عليه أن يكرر، وبنفس المعنى كما فى السابق، أن وجود مجموعة من الحلول أو حتى مجموعة من الحلول غير السالبة لا يعنى بالضرورة وجود حلول لها معنى من الناحية الاقتصادية- أى حلول ممكنة عملياً، 'مقبولة'، وهكذا. ولكن، فى ظل فرضيات فالراس والتحفيزات التي جرت الإشارة إليها آنفاً، فإن الحل الإيجابى متاح وأن الاعتراضات ضده تعود إلى فشل النقاد بفهم فالراس أكثر مما تعود إلى أخطائه وسهوه^(٣٨٧). كما يمكن التأكيد أيضاً، بقدر تعلق الأمر

(٣٨٦) لا يسمح المجال لنا بإجراء ذلك. وينبغى علينا الاختصار على تكرار أن فرضيته القائلة إن الخدمات تملك قيمة استعمالية 'لمالكها' تتفادى، فى الواقع، الصعوبة الوحيدة الجدية التي، فى الحالة قيد المناقشة الآن، تتضاف إلى الصعوبات التي مرت بنا فى حالة المقايضة البسيطة بسلع متعددة، أى الصعوبة التي تتخفى خلف معاملات الإنتاج الثابتة. وبطبيعة الحال، فإن العبارة الواردة فى المستن ينبغى فهمها على أنها تسرى دون تحفظ إلا حينما تكون المنافع الحدية دوالاً لكمية السلعة المعنية حصراً^١.

(٣٨٧) إن أحد هذه الاعتراضات، الذي لم يثره طبعاً الاقتصاديون الرياضيون قط، يستحق أن نذكره فى هذا السياق. فبعد إجراء حذوفات ملائمة، نستطيع تمثيل أسعار وكميات كل المنتجات كدوال لأسعار الخدمات. ينبغى أن يكون من الواضح أن هذه الحقيقة الشكلية لا تجعل من الأخيرة 'أسباباً' للأولى ما دامت أسعار الخدمات نفسها تتحدد وفقاً لمحااجة تأخذ بنظر الاعتبار أسعار المنتجات المعنية فى كل خطوة. ومع ذلك، فإن بعض الاقتصاديين، وبخاصة النمساويين، استنتجوا من هذا الاعتماد المتبادل العام والمترام بين الأسعار كلها أن نظام فالراس يفشل فى تفسير أى أسعار قط: وقد جرى أحياناً التعبير عن هذا الرأى بتسمية نظام فالراس نظاماً 'وظيفياً' وذلك لتمييزه عن النظام النمساوى 'السببى'. وآمل أن لا يكون من الضروري الدخول فى هذا الموضوع فى هذه الساعة من النهار.

بهذا الجزء من تحليل فالراس، إن نتيجتنا تمثل الرأى المشترك بين المنظّرين أو أنها تقترب من هذا^(٣٨٨).

وبالنسبة للسؤالين المتعلقين بالاستقرار وبوجود ميل ما فى العملية الاقتصادية لإثبات تلك المجموعة التوازنية من الأسعار والكميات، فإن الوضع يتأثر جدّياً بصعوبة قبول فرضيات فالراس حتى أكثر مما وجدنا فى حالة المقايضة ذات السلع المتعددة^(٣٨٩). ويتعين علينا، مرة أخرى، أن نعتد على طريقة ال bons {الكوبونات}. ولكن فى هذه الحالة، إذا كانت الأسعار التى تحدّدت تجريبياً (cries) فى البداية لا تثبت أن تكون (بأعجوبة) هى الأسعار التوازنية، فإن الترتيبات الجديدة rearrangements، التى يُفترض أن تقود نحو التوازن، تتضمن ترتيبات جديدة آنية لكل القرارات التجريبية بشأن الإنتاج التى تتضمنها ال bons - وهذه قضية أصعب بكثير مما كانت ستكون عليه مجرد إعادة ترتيب القرارات التحريبية بشأن الحصول على السلع القائمة أو التخلّى عنها. وحتى إذا نجحت كل المنشآت وكل مالكو الخدمات الإنتاجية فى هذه المهمة، فما يزال يتعين عليهم تحقيق برنامج الإنتاج هذا الذى يأخذ وقتاً ينبغى خلاله عدم تغيير أى شىء. وكان فالراس نفسه قد وضع المشكلة بالضبط كما وضعها بالنسبة للمقايضة بسلع متعددة، أى بهيئة سؤال ما إذا كانت مشكلته النظرية هى المشكلة التى تُحل فى أسواق الخدمات بالفعل؛ وأنه توصل، وفقاً لنفس المحاجة، إلى نفس الاستنتاج، أى أن عملية من التجربة والخطأ، تجرى فى ظل كل شروط المنافسة البحتة وبمساعدة الآلية الوحيدة للتفاعل

(٣٨٨) للإطلاع على برهان دقيق، ندعو القارئ إلى الرجوع إلى أ. والد (Zeitschrift, op. cit.). وقد يحصل القارئ حقاً على انطباع أقل قوة نوعاً ما من هذه المقالة، ولكن يتعين عليه أن يلاحظ أن البروفيسور والد يعالج نظام كاسل أكثر مما يعالج نظام فالراس. إن التعديل الذى اقترحه زيوشن Zeuthen وك. شلسنجر K. Schlesinger، والذى يذكره والد فى ص ٦٤٠، يمتلك أهمية خاصة به ولكنه غير ضرورى لتطوير نظام فالراس.

(٣٨٩) ومع ذلك، فإذا قبلنا تلك الفرضيات، فمن الممكن، على الأقل، إثبات الاستقرار بصورة مقنعة أكثر مما يمكن فى حالة المقايضة. وقد تم إنجاز هذا بالنسبة لنمط يسمح بالإحلال من قبل البروفيسور هيكتس (Theorie mathématique de la valeur, 1937) ومن قبل آخرين، وبخاصة ل. م. كورت L. M. Court ('Invariable Classical Stability of Entrepreneurial Demand and Supply', Quarterly Journal of Economics, November 1941) ويعيد الاثنان تقديم شخصية المنظم، الذى استبعدناه، ويضعان بالتالى برهانهما بالشكل الذى يشير إليه عنوان المقالة الأخيرة. ومن الناحية التاريخية، يمكن أن نلاحظ أن هذه المساهمات وغيرها، مهما كانت أرفع مستوى من حيث التكنيك، بيد أنها لا تقدم سوى إبراز التلميحات الموجودة أصلاً فى تحليل فالراس، مع أن بعضها موجودة بشكل ضمنى فحسب.

المسموح بها - حيث تترادف الأسعار حينما يكون هناك فائض طلب موجب وتتناقص حينما يكون هناك فائض طلب سالب - 'يحتمل' أن تضمن كل خطوة في التنكيف أن تقود فعلاً باتجاه التوازن وليس بعيداً عنه. لقد وجدت من الضروري طرح هذه القضية بشكل كامل أمام القارئ. ولولا خوفاً من انصرافه عن نظرية فالراس على أساس تعارضها الصارخ مع أى عملية من الحياة الواقعية، لسألته عما إذا كان يوماً ما قد شاهد سلكاً مطاطاً لا يزداد طوله حينما يتم سحبه، أو حركات بدون احتكاك *movements frictionless*، أو أى بنى أخرى يجرى استعمالها فى الفيزياء النظرية بشكل عام؛ وما إذا كان، بناء على ذلك، يعتقد بعدم جدوى الفيزياء النظرية. وفى الهامش أدناه، أضيف ملاحظة أو اثنتين يمكن أن تخففاً من عدم ارتياح القارئ. ومع ذلك، يبقى من الصحيح إن فالراس نفسه وأتباعه معاً قد قلّلوا من شأن ما كان وما يزال يلزم فعله قبل أن نتاح إمكانية مواجهة نظرية فالراس بوقائع حياة الأعمال المألوفة^(٣٩٠).

(٣٩٠) ينبغى على القارئ، أولاً، أن يلاحظ أن عدم ارتياحه يأتي بشكل رئيسي من تعوده على عملية اقتصادية لا تكف الثورات التكنولوجية عن إثارة الاضطراب فيها دون انقطاع. ففي أى عملية ليست بعيدة جداً عن الركودية *stationarity* على الأقل، ولكنها غير راكدة *stationary* بصورة صارمة، فإن الأسر والمنشآت من شأنها أن تمتلك تجربة كافية تساعدها كثيراً على تحقيق المهام التى تبدو مستحيلة لأول وهلة: فالأسعار التجريبية، التى يتعين عليهم التفاعل معها عبر وضع برامج تجريبية للإنتاج والاستهلاك، ليست أسعاراً *cries au hasard* {اعتباطية} حقاً، كما هى لدى فالراس، بل هى تخمينات موقّعة نوعاً ما يلزم، كقاعدة عامة، تصحيحها بتعديلات صغيرة نسبياً. فحرص فالراس على إبراز منطق أو أساس اشتقاق دوال الطلب والعرض هو وحده الذى يجعله يرفض الاستفادة من هذه الحقيقة. ويمكن التعلم من مارشال كيف نكسو هيكل فالراس العظمى باللحم والجلد، مع أنه يبقى من الصحيح أن من شأن نظرية ما أكثر واقعية أن تثير عالماً من المشاكل الجديدة يتجاوز نطاق فالراس (ومارشال أيضاً). ثانياً، إن ما جعل عناصر الحقيقة، التى تدخل مخطط فالراس، تتضخم بصورة مشوهة حقاً هى عناصر أخرى ينبغى أن نحاول التغلب عليها بصورة ملائمة. ولكن العناصر الأولى يمكن مشاهدتها أو يمكن التحقق منها حتى حينما تأخذ أشكالاً غير مألوفة مثل *tatonnement* {تجريبية والتجربة والخطأ} من خلال ال *bons* {الكوبونات}. ثالثاً، ينبغى أن لا يقال إن عبأ التنكيف فى نظام فالراس يقع كله على عاتق الأسعار فقط: فالكميات تنكيف للأسعار مثلاً تنكيف الأسعار للكميات، وأن الطريقة المختصرة فى الحديث هى وحدها المسئولة عن الانطباع المشار إليه. رابعاً، ثمة واقعية فى بعض بنود بنية فالراس حيث لا ينبغى أن نتوقع سوى أقل حد منها. وهكذا، فإن قليلاً من التفكير يبين أن طلب العمال على 'خدمات' قوة عملهم (أى على الفراغ) هو عامل مهم جداً بالفعل فى تشكيل عملية الإنتاج. ومع أن من غير المعقول إنكار هذا بالنسبة للوقت الحاضر، فلم تكن هناك قط حقبة كان فيها هذا الطلب غير فعال، وأن الحقيقة السطحية القائلة بأن العامل يقبل بيوم عمل ثابت يعجز عن تغييره ('ينبغى عليه أن يقبله وإلا يموت')، هكذا يقول أحد الاقتصاديين المعاصرين) تناقض ترتب فالراس أقل بكثير مما يبدو عليه ذلك. أخيراً، خامساً، تشجعت خبرة التدريس أن أضيف أن فرضيات معينة مثل قانون فالراس حول التكلفة أو التشغيل الكامل عند المنافسة الكاملة تشكل حقاً خصائص نظامه عند التوازن التام. ولكن يتعذر الاعتراض =

[(هـ) إدخال تكوين رأس المال والنقود] يمكن طرح بقية هذا القسم فى صورة جواب على السؤال التالى: كيف يتأثر المخطط الأساسى لسلوك المستهلكين والمنتجين - أو يُحتمل أن يضطرب- عند إدخال تكوين رأس المال والنقود؟ ومع أنه قد تم تناول هذين الموضوعين فى الفصل السابق وستجرى دراستهما فى الفصل القادم، بيد أن من الضروري الاهتمام بهما هنا لتمكين القارئ من تقدير بنية فالراس ككل ولإدراك المدى الذى استبق به فالراس العمل الحديث فى هذه الحقول، من بعض النواحي، وأعد الأرض، فى نواحي أخرى.

فى نظام فالراس، تمثل نظرية تكوين رأس المال الأساس لنظرية الفائدة، من ناحية، وتقوم هى نفسها على نظرية أسعار السلع الرأسمالية، من ناحية أخرى. وفى البداية، سنعالج فقط أسعار السلع الرأسمالية المنتجة. ولحد الآن، لا نمتلك سوى نظرية لأسعار خدمات هذه السلع، وحتى هذا كان قد جرى التوصل إليه وفقاً لفرضية بتعين علينا إسقاطها الآن، أى أن كميات السلع الرأسمالية المنتجة معطاة مرة وإلى الأبد، وأنها لا تتدثر أو تتلاشى قط عن طريق الحوادث العرضية. وهكذا نقطع الآن مبلعاً لغرض الاندثار وكذلك قسماً للتأمين^(٣٩١). وما يتبقى بعد ذلك هو 'الإيراد الصافى' net revenue الذى تغله السلع الرأسمالية. سبق أن لاحظنا أن فالراس اعتبر وجود فائض كهذا بعد اقتطاع ما يخصص للاندثار والتأمين كحقيقة يتعذر إنكارها والتى لم يقم هو بأى جهد للتحقق منها^(٣٩٢). ومع ذلك، فإذا قبلنا بهذه الحقيقة لغرض المحاجة، فيمكننا إذن أن نمضى حالاً لبناء السوق النظرية للسلع الرأسمالية، التى، وفقاً لعادة فالراس الحميدة، نحتاجها لها لأجل تحديد هذه أسعار هذه السلع^(٣٩٣). وفى هذه السوق، يطلب الرأسماليون-

=عليها حينما تُفهم بصورة صحيحة (حول فرضية التشغيل الكامل، انظر الملاحظة الواردة فى نهاية هذا القسم)، وهى، قبل كل شيء، موضوعات تتجم عن مسلمات تعرّف النظام وليس عن مسلمات مفروضة عليه (بحيث أنها يمكن أن تسبب ال overdeterminateness).

(٣٩١) اعتبر فالراس أن الاثنين هما ثابتان يتحددان تكنولوجياً. وهذا غير مقبول أيضاً ولكن يجب مراعاته كامتياز آخر من امتيازات فالراس كرائد.

(٣٩٢) ولم يفعل ذلك أيضاً باريثو وبارون، وآخرون ممن خلفوا فالراس مباشرة. ولكن فيكسل وفيشر قد سدا هذه الفجوة باستعمال مادة بوهم-باورك.

(٣٩٣) إن السوق التى نصفها الآن لا تشكل سوى بناء منظر معين كان قد هجره فالراس نفسه فيما بعد لاستبداله بسوق الخزين stock market. إن انتقاد هذا الجهاز النظرى من ناحية افتقاره إلى الواقعية لا ينم إلا عن سوء فهم.

وليس المنظمين (المنشآت) - سلعا رأسمالية جديدة تعرضها المنشآت التى تقوم بإنتاجها استجابة لذلك الطلب.

إن السلع الرأسمالية الجديدة التى إذ تُطلب وتُنتج قد لا تكفى، وقد تكفى بالضبط، أو قد تكون أكثر من كافية لتعويض الخسارة التى تصيب الخزين الرأسمالى القائم بشكل جارى نتيجة الحوادث والاندثار. ولذلك، فإن الحالة الأخيرة من هذه الحالات الثلاث تعرف الادخار الذى، معبرا عنه بالسلعة القياسية numeraire، يشكل الفائض من الدخل الصافى، أى القيمة الكلية الصافية لكل الخدمات التى تتبعها الأسر، على الاستهلاك، أى القيمة الكلية للمنتجات التى تشتريها الأسر. وهكذا، وكما هو الحال بالضبط فى عمل كينز General Theory، فإن الادخار الجارى يساوى 'الاستثمار' الجارى كمجرد تكرار زائد tautologically. الادخار هنا مجرد كلمة تشخص نوعا خاصا من الطلب، أى الطلب على السلع الرأسمالية. وإلى هنا، فليس ثمة معنى لعبارة 'عرض الادخار' إلا إذا رغبت أن نشير بها إلى ذلك الجزء من خدمات الأسر التى تعرض مقابل السلع الرأسمالية^(٣٩٤) بدلا من عرضها مقابل الخبز أو البيرة، وإن القول بأن الادخار الجارى يمكن أن لا يتوافق مع الاستثمار الجارى ليس له من معنى أكثر من القول إن الادخار يمكن أن لا يتوافق مع نفسه. وعليه، فإن تساوى الادخار الجارى والاستثمار الجارى هو متطابقة وليس شرطا توازنيا. أما الشرط التوازنى فهو أن المجموع الكلى للادخار فى فترة معطاة يجب أن يساوى، بالنسبة للمنشآت المنتجة للسلع الرأسمالية، تكاليف السلع الرأسمالية (التي تم إنتاجها و) بيعها فى الفترة، ما دامت هذه المنشآت، كباقي المنشآت كلها، تخضع لقانون فالراس عن التكاليف.

والآن - وهذا هنا ليس كما هو فى نظام كينز الوارد فى عمله General Theory - فإن الدافع الوحيد الذى يمكن أن يحمل الرأسماليين، فى هذه البنية، على طلب السلع الرأسمالية هو الإيراد الصافى المتوقع من هذه السلع سواء أكان هذا الإيراد الصافى يتمثل بالقيمة الاستعمالية للمواد المعمرة المكتسبة بالنسبة للرأسماليين أو بالعائد، فى صورة ال numeraire، الذى يمكن الحصول عليه من

(٣٩٤) تذكر أن السلع الرأسمالية هى سلع تخدم أكثر من مرة واحدة. وكان سيكون من الأصح تعريفها كسلع تدوم (أو قسم منها) طوال فترة محاسبية.

تأجير هذه المواد إلى المنشآت (أو إلى الأفراد ممن يرغبون باستهلاك خدماتها بصورة مباشرة). يترتب على هذا شرط توازنى آخر ينبغى أن تلبيه أسعار هذه المواد: إذ يتعين على هذه الأسعار، فى ظل الشروط المثلى، أن تتناسب مع عوائدها الصافية وإلا فإن عمليات الموازنة arbitrage operations ستقحم لفرض هذا التناسب. ولكن هذا يمكن التعبير عنه بالقول إن سوقنا للسلع الرأسمالية هو حقاً سوق تدفقات من الإيرادات الصافية الدائمة net revenues perpetual التى تقف إزائها كل السلع الرأسمالية على قدم المساواة بعض النظر عن أشكالها المادية. وللتشديد على هذا الجانب، فقد خلق فالراس سلعة مثالية أو متصورة تمثل 'الإيراد الصافى الدائم'. تمكنا هذه الأداة - وهى بناء نظرى بحث آخر^(٣٩٥) - من تزويد كل أسرة بدالة منفعة حدية ودالة طلب على 'الإيراد الصافى الدائم'^(٣٩٦)، ومن استبدال كل الأسعار (المجهولة) للسلع الرأسمالية ب سعر وحيد يساعدنا عندئذ على تحديد هذه الأسعار، أى سعر وحدة من 'الإيراد الصافى الدائم' لكل وحدة من الزمن - وهذه نقلة عميقة على الرقعة التحليلية. إن هذا السعر الوحيد ينتج عن شرط التناسب المذكور آنفاً، الذى يمكن إعادة صياغته بالقول إن الطالب الكلى على السلع الرأسمالية الجديدة (الذى يساوى الادخار على نحو متطابق) ينبغى أن يتوزع بين الصناعات المنتجة لهذه السلع الرأسمالية الجديدة بطريقة ما تسوى equalize منتجاتها القيمة الصافية (من خلال السلعة القياسية numeraire) لكل وحدة من التكلفة (من خلال ال numeraire)^(٣٩٧). وهكذا فإن السعر الوحيد المعنى هو مجرد

(٣٩٥) قبل باريثو وبارون وآخرون هذه السلعة المثالية أو المتصورة وأسموها 'الادخار' (risparmio) ببساطة. لاحظ أن هذا البناء يمكن تسخيره لخدمة مخططات نظرية أخرى غير مخطط فالراس. وحتى فى مخطط فالراس، فقد اكتسبت هذه السلعة دلالة جديدة - وأكثر واقعية - حينما أدخل فالراس النقود كما سنرى بعد قليل. وبالنسبة لهذه اللحظة، فإن المفهوم لا يعنى أى شئ سوى الكمية الكلية لكل السلع الرأسمالية الجديدة، معبراً عنها من خلال ال numeraire، ولا يخدم سوى عزل جانب واحد منها ولكنه لا يمتلك وجوداً مستقلاً: فإذا كان فالراس يتحدث، رغم ذلك، عن سوق numeraire رأسمالى، فهذا السوق - بخلاف سوق capital monnaie {النقود المستخدمة كرأسمال} الذى لم ندخله بعد - لا يتميز عن سوق السلع الرأسمالية نفسها.

(٣٩٦) إن دوال المنفعة الحدية تفهم كدوال متناقصة بصورة ثابتة monotonically للكمية من هذه السلعة المتصورة فقط وذلك كما هو الحال بالنسبة للسلع الأخرى. ولكن دوال الطلب على هذه السلع، أيضاً كما هو الحال مع كل السلع الأخرى، هى دوال لكل أسعار كل المنتجات والخدمات. لاحظ أن هذا يتضمن إنها دوال للدخول أيضاً: فالاختلاف، من هذه الناحية، بين نظريات فالراس ونظريات كينز (General Theory) لا يكمن فى أن فالراس قد أهمل تأثير الدخل بل فى أن كينز أهمل تأثير أسعار المنتجات.

(٣٩٧) تذكر أن التكلفة الحدية والمتوسطة متساويتان بالضرورة لدى فالراس. والتصحيح الضرورى=

مقلوب معدل 'الإيراد الصافى الدائم' (taux du revenu net perpetual) الذى هو عامل تناسب، عام لقيم كل السلع الرأسمالية، ويتطابق بصورة جاهزة مع معدل الفائدة- ما دامت النقود غير موجودة.

وبعناية شديدة يتعذر تقديرها حق قدرها هنا، طور فالراس هذه النظرية لكل من حالة السلع المعمرة المنتجة التى تستهلك خدماتها بصورة مباشرة كالبيوت وحالة السلع المعمرة المنتجة التى تستعمل فى الإنتاج، واضعاً شروط المنفعة الحدية (المعظمة) للتوازن الستاتيكي^(٣٩٨)، ومتوصلاً، بشأن التحديد والاستقرار، إلى نتائج تماثل تلك التى تم التوصل إليها فى حالة المبادلة بسلع متعددة وحالة الإنتاج. ولو إن المجال يسمح لنا بالتعليق، لكانت تعليقاتنا مماثلة لتلك التى قدمناها فى هاتين الحالتين. ولكننا نكتفى بالإشارة، دون إثبات، إلى أن نظام فالراس- وما زلنا بصدد تحليل يتجرد عن النقود الحقيقية - لا يضطرب بوقائع تكوين رأس المال كما صاغها هو وبالفكرة القائلة إن نظرية تكوين رأس المال تتداخل مع حالة 'التقدم' progressive state أو، بخلاف ذلك، مع حالة 'التقهقر' retrograde state، أى مع الحالات غير الراكدة non-stationary states. ولكن لنلخص حصيلتنا لحد الآن.

أولاً، لدينا نظرية لأسعار (للقيم، معبراً من خلال ال (numeraire) السلع الرأسمالية لم تكن متوافرة لدينا من قبل. وهذه كانت، فى المقام الأول، نظرية لتسعير السلع الرأسمالية الجديدة. ولكن هذه النظرية تمتد بصورة جاهزة إلى حالتى السلع الرأسمالية المنتجة القائمة والسلع الرأسمالية غير-المنتجة ('الأرض'؛ بل إن فالراس يوسّعها لتشمل قوة العمل) وذلك بفضل الإجراء البسيط المتمثل بأن نطبق، على هاتين الحالتين، نفس 'معدل الإيراد الصافى الدائم' (أو معدل الفائدة)^(٣٩٩)

=معروف إذا لم يكن الأمر كذلك.

(٣٩٨) أدرك فالراس طبعاً إن الاقتصاد المعنى لا يبقى راكداً عند زيادة الادخار. ولكنه أدرك أيضاً إن نظرية الادخار يمكن أن تكون ستاتيكية مع ذلك إذا بقيت الميول للادخار (dispositions a l'épargne) والميول للاستهلاك (dispositions a la consommation) ثابتة خلال فترة زمنية معينة (Elements, p. 244)؛ وربما يمثل هذا الفقرة الأكثر إقناعاً بأن فالراس كان يدرك كلياً الفرق بين نظرية ستاتيكية وعملية ركودية. (انظر القسم الثالث، أعلاه).

(٣٩٩) لنلاحظ أن النصير المعاصر الأهم لهذه المطابقة- التى تفترض الاعتقاد بأن وجود 'معدل الإيراد الصافى الدائم' هو حقيقة يتعذر إنكارها لا تحتاج إلى أى برهان أو تدقيق- هو البروفيسور ف. ه. نايت F. H. Knight.

الذى يظهر فى حالة السلع الرأسمالية الجديدة^(٤٠٠). ثانياً، كنتيجة عَرَضِيَّة لنظرية أسعار السلع الرأسمالية، نحصل على نظرية للفائدة تدخل الآن كل معادلات الطلب والعرض. ومن هذه المعادلات إذن يمكن تلمس نظرية شاملة حول دور الفائدة فى الاقتصاد^(٤٠١). إن أسعار السلع الرأسمالية نفسها لا تدخل أيًا من المعادلات النهائية فى تحليل فالراس باستثناء تلك الأسعار التى تصف شروطها الخاصة بالعرض والطلب كمنتجات. ثالثاً، لما كان الادخار هو نوع من الطلب، فلا يمكن أن يثور سؤال حول مساواة 'طلبه وعرضه' بواسطة تغيير معدل الفائدة أو بأى شىء آخر. فما تجرى مساواته بواسطة شرط توازنى معين - وليس مجرد جعله مساوياً من باب الكلام الزائد tautologically - هو المبلغ، الذى قرر الأفراد ادخاره واستثماره، وتكاليف السلع الرأسمالية الجديدة. وهنا، فإذا لم تتحقق هذه المساواة، فهذا يعنى إن قيم السلع الرأسمالية الجديدة سوف تكون أكثر أو أقل من تكاليفها بالنسبة للمنشآت التى تنتجها وسيكون لديها بالتالى دافع لأن توسع أو تقلص من إنتاجها. ولكن ثمة جانب آخر لهذا الأمر. تصور أن قيم السلع الرأسمالية الجديدة قد تجاوزت تكاليفها. فإذا فرضنا، لأجل المحاجة، إن العائد الصافى المتوقع من السلعة الرأسمالية لم يتغير، فهذا يعنى أن معدل العائد الصافى الدائم كان قد انخفض، وبعبارة أخرى، إن وحدة من العائد الصافى الدائم سيتكلف، الرأسمالى الذى يشتري السلع الرأسمالية، أكثر مما كانت عليه سابقاً: إن هذا الانخفاض فى أسعار السلع الرأسمالية الجديدة، معبراً عنها بالسلعة القياسية numeraire، هو الذى يجعل الرأسمالى يفهم الانخفاض المعنى فى معدل عائده الصافى. وبعبارة أخرى، إن الدور السببى المباشر لا يأتى من الانخفاض فى معدل الفائدة بل من الزيادة فى قيم السلع الرأسمالية التى تخفض (ككلام مكرر tautologically) معدل الفائدة^(٤٠٢).

(٤٠٠) من هذا يمكن أن نستنتج، ولو ليس بصورة حاسمة كلياً، إن فالراس كان يربط حقيقة الفائدة بمجتمع 'يحقّق التقدم' progressive society وأنه لم يكن غير مدرك لإمكانية إن الفائدة يمكن أن تختفى فى مجتمع متقهقر retrograde، وإن لم يكن فى مجتمع راكد. وانتهاز هذه الفرصة لإحالة القارئ إلى المقالات اللاحقة للبروفيسور بريسيانى-توروني C. Bresciani-Turroni حول: 'The Theory of Saving' Economica, February and May 1936، التى ألقت الكثير من الضوء على نظرية الادخار وتاريخها.

(٤٠١) كان هذا ضرباً من النبوغ. ولكن صحتها تعتمد طبعاً على مفهوم فالراس للفائدة. ومن الملائم بالنسبة لى أن لاحظ، مهملًا مبدأً بطمس نفسى فى هذا الكتاب، إن الإعجاب الذى أوصل التعبير عنه بنبوغ فالراس، بل بعظمة تحليله، لا ينبغى فهمه بمعنى اتفاقى معه من جميع النواحي.

(٤٠٢) من الممكن تعويض خسارة الرأسمالى الفردى طبعاً جزئياً، أو كلياً، أو أكثر من كلياً، بما يحقّقه من كسب من خزين السلع الرأسمالية التى يملكها من قبل. إن هذه الحقيقة ليس لها من أهمية هنا،=

وبطبيعة الحال، فإن معدل الفائدة يمارس بهذا الشأن أيضاً دوراً فعالاً بقدر ما يدخل في دوال الطلب والعرض لكل المنتجات والخدمات. ومع ذلك، فمن المهم ملاحظة أن معدل الفائدة، في هذا التحليل، يلعب دوراً خاملاً passive في المقام الأول ذلك لأن هذا التحليل يضيف مظهرًا مختلفًا حول أهميتها في العملية الاقتصادية ويظهر، بشكل خاص، ردود أفعال الرأسماليين في ضوء مختلف: فهي ردود على الزيادة في سعر نوع خاص من السلع التي يطلبها الرأسمالي وليست ردوداً على انخفاض سعر خدمة معينة يقدمها هو^(٤٠٣). وأخيراً، ينتج عن المحاجة السابقة، إن تحليل فالراس، بعد أن أكرر بشكل حاد التسليم بنظرية تورغو-سمث للادخار، يتفق مع تحليل بوهم-باورك في توليد النتيجة القائلة أن أسعار السلع الاستهلاكية وأسعار السلع الرأسمالية يتحركان، في إطار فرضيات هذا التحليل، في اتجاهات متعاكسة من حيث المبدأ.

وأخيراً نقوم بإدخال النقود والمعاملات النقدية. وإذا نرجأ مآثر فالراس الأخرى في حقل النظرية والسياسة النقدية إلى الفصل القادم، فينبغي أن ننظر الآن بالضبط في الكيفية التي لائم بها فالرس النقود في مخططة للعملية الاقتصادية، كيف حدّد الأسعار المطلقة من خلال النقود ومن خلال numeraire، وما إذا كان مصيباً في الادعاء أن اقتصاده النقدي يتمتع بنفس الخصائص، من حيث التحديد والاستقرار، التي يمكن أن تُنسب لاقتصاده القائم على استعمال سلعة قياسية numeraire. ويكفي لهذا الغرض أن نعالج حالة من النقود، بكمية معينة، تتألف من مادة لها قيمة استعمالية تافهة^(٤٠٤)، وأن نلاحظ باختصار أن فالراس الذي، كان قد

=مهما كانت أهميتها من النواحي الأخرى.

(٤٠٣) دون أن يشير إلى فالراس، كان كاسل Cassel قد تبنى نفس وجهة النظر: فالادخار، بالنسبة إليه، يتمثل بالطلب على السلع الرأسمالية أو في استعمال الخدمات الإنتاجية لإنتاج هذه السلع. ولكنه فشل في أن يفهم كيف إن فالراس، عند إدخال النقود الحقيقية، غير وجهة نظره جذرياً كما سنرى حالاً. كما يمكن الإشارة إلى نقطة أخرى. إن إهمال زيادة أو انخفاض ما في أسعار الأصول التي يُراد الحصول عليها هو أقل احتمالاً مما كان سيكون الأمر عليه من انخفاض أو زيادة في سعر خدمة ما: وهذا يقدم حجة محتملة ضد وجهة نظر تردد كثيراً في الوقت الحاضر ومفادها أن التغييرات الطفيفة في معدل الفائدة لا يبدو أن لها أي تأثير ملحوظ. وكذلك، لما كانت جدوى الأصول، بالنسبة للرأسمالي، تتمثل بجنى ثمارها، فإن نظرية فالراس تترك مجالاً لإمكانية أن تسبب زيادة ما في سعر السلع الرأسمالية توسيع الطلب عليها مثلما بالضبط... [النص غير مكتمل].

(٤٠٤) كما سنرى في الفصل القادم، فقد حلّ فالراس أيضاً حالات المذهب المعدني الأحادي، والمعدن المعدني الثنائي، والمذهب المعدني الأحادي 'مقترناً' regulated بإصدار النقود الرمزية token money. ولكن تحليل فالراس الأساسي يجري من خلال حالة من نقود ورقية حكومية بكمية=

أسس تحليله النقدي على مفهوم 'الاحتياجات النقدية' للاقتصاد في الطبعة الأولى (١٨٧٤-١٨٧٧) من عمله Elements^(٤٠٥)، تبنى في الطبعة الثانية من هذا الكتاب مفهوم 'مبلغ النقد الذى يرغب الأفراد فى الاحتفاظ به' (encaisse desiree)^(٤٠٦) الذى لم يشكل، مع ذلك، جزء من نظريته البحتة للتوازن العام- لم يندمج معها كلياً- قبل الطبعة الرابعة (١٩٠٠)^(٤٠٧). فلم تظهر كل بنية النظرية البحتة لدى فالراس بكل جمالها المنطقي إلا فى تلك الطبعة.

تحتل نظرية 'سوق' السلع الاستهلاكية الطابق الأرضى من هذه البنية. وفى الطابق الثانى، نجد نظرية الإنتاج و'سوق' الخدمات الإنتاجية دون أن تتفصل عن، بل تتكامل مع، السوق الأولى. ونجد فى الطابق الثالث سوق السلع الرأسمالية وهى متكاملة بالمثل مع السوقين السابقين. وفى الطابق الرابع، ثمة 'سوق' آخر يتكامل مع هذه الأسواق الثلاثة وهو سوق 'رأس المال الدائر'، أى سوق 'مخزونات من السلع stocks or inventories of goods الضرورية لاستمرار سير

=معينة. لاحظ أن هذا يعنى فقط أن المادة التى تُصنع النقود منها ليس لها قيمة استعمالية ولكنه لا يعنى أن هذه النقود نفسها ليس لها قيمة: سنوضح هذا بعد قليل. ولكن لاحظ أيضاً أن التبسيط الذى يتمثل بعدم الاهتمام، عند مناقشة الأساسيات، بالمشاكل التى تثيرها قيمة المادة النقدية، كسلعة، يتحقق على حساب افتراض كمية ثابتة بصورة اعتباطية من النقود. وبهذا المعنى المعروف، فإن سؤالنا يكون قد أجيب عليه: فما دامت هذه الكمية اعتباطية، فلا يمكن تحديد الأسعار بصورة فريدة. ولكن هذا ليس هو السؤال الذى نثيره: وبدلاً منه، نسأل ما إذا كان مستوى السعر وكل الكميات الأخرى النقدية وغير النقدية فى النظام تتحدد بصورة فريدة حينما يتم تثبيت كمية النقود.

(٤٠٥) Circulation a desservir - وهو مفهوم قديم كان مألوفاً لدى بتي. وقد استعار فالراس نفسه (المقدمة، ص ١١) هذا المفهوم من الفزيوقراط. أما المفهوم: encaisse desiree فقد ظهر لأول مرة فى عمله: (Theorie de la monnaie 1886).

(٤٠٦) لقد تعودنا على ربط 'منهج الرصيد النقدي' cash-balance approach بمارشال الذى طوره بصورة مستقلة خلال ثمانينيات القرن التاسع عشر. حول أهمية هذا المنهج وقضايا ذات صلة، انظر المقالات العلمية للبروفيسور مارغيت Marget: 'Leon Walras and the Cash-Balance Approach to the Problem of the Value of Money,' Journal of Political Economy, October 1931, and the 'The Monetary Aspects of the Walrasian System,' ibid, April 1935.

(٤٠٧) أو، بدقة أكثر، قيل أن قدم فالراس، فى مجلة ال Societe vaudoise des Sciences Naturelles مقالته حول (1899) 'Equations de la circulation'. وهذا يتأخر كثيراً عن نتائج مماثلة تقريباً يفترض أن مارشال كان قد توصل إليها (انظر عمل ج. م. كينز حول ذكرى مارشال: Essays in Biography, pp. 196-206). ولكن مارشال ليس فقط لم ينشر هذه النتائج إلا بعد عشرين سنة من ظهور مقالة فالراس، ولكنه أيضاً لم يرق بصياغة منطق هذه النتائج بصورة دقيقة وكاملة كما فعل فالراس. ومع ذلك، ينبغي أن نضع فى الذهن أن كل ما سيرد يسرى، من حيث المبدأ، على اقتصاد مارشال وفالراس معاً.

الأشياء^(٤٠٨) - حيث تُعرض سلع رأسمالية جديدة للبيع في منشآت منتجيها، وكذلك مخزونات استهلاكية وإنتاجية من كل الأنواع.

وهكذا، فبعد أن حدّد فالراس، في نظريته للإنتاج، الأسعار والكميات التوازنية *numeraire* (من خلال السلعة القياسية) للسلع الاستهلاكية والخدمات الإنتاجية معاً - التي كلها، بمجرد أن تتحدد مرة، فإنها تبقى ثابتة حينما يجرى إنتاج السلع - فإن فالراس يجعل التسليم الفعلي من هذه الخدمات، والسلع (المعادلة لها)، يبدأ حالاً، أى قبل تنفيذ برنامج الإنتاج المقرر، من حيث المبدأ. وبطبيعة الحال، إن هذا يفترض مسبقاً أن الأسر والمنشآت تمتلك، من البداية، مخزونات من السلع (*inventories*) يجرى إدخالها الآن من بين معطيات مشكلة التوازن العام^(٤٠٩). وكما سبق أن رأينا، فإن فالراس قد عالّج هذه المخزونات من حيث الشكل كما كان قد عالّج السلع الرأسمالية: فهناك المخزونات نفسها، وهناك أيضاً الخدمات التي تقدمها هذه المخزونات على نحو جارٍ أى فكرة *service d'approvisionnement*. وعليه، ينبغي تسعير المخزونات وخدماتها كل على حدة، ولكن سعر كل مخزون يواجه سعر الخدمة التي يقدمها وفقاً لنفس العلاقة التي يواجه فيها سعر الخدمة التي

(٤٠٨) لتسهيل المعالجة الرياضية، فقد عمد فالراس إلى توسيع معنى معاملات الإنتاج بطريقة لها أهميتها ذلك لأن البروفيسور ليونتييف كان قد طور في الآونة الأخيرة أداة مشابهة في تحليله لمفهوم المستخدم-المنتج. باختصار وبشكل ملموس، إذا كانت لدينا السلعة A التي تمتلك، بالنسبة للخدمة التي تقدمها السلع الرأسمالية K، المعامل الإنتاجي ak، فإن ak هذا يجب أن يتضمن ليس فقط تلك الكمية من K الضرورية لإنتاج وحدة واحدة من A ولكن أيضاً تلك الكمية من K التي تلزم، عند زيادة A بمقدار وحدة واحدة، للزيادة المصاحبة في المخزونات التي يحتفظ المنتجون بها (Walras, *Elements*, p. 298 ; W. W. Leontief, 'Input-Output Analysis...' American Economic Association, Papers and Proceedings, May 1949, pp. 219-20).

(٤٠٩) توجد هذه المخزونات طبعاً في أشكال محددة *specific* كالنبيذ في القبو والمنشأر اليدوي في الورش. وفي الواقع، فإن هذه السلع المحددة لا تحتاج، في أي وقت معطى، حتى ولو بشكل تقريبي، أن تكون كما تتطلب شروط التعظيم في الفترة لتالية. وهنا، كما يبدو الأمر لنا الآن، لدينا المشكلة الديناميكية أساساً: كيف تكيف العملية الاقتصادية نفسها لأوضاع موروثّة من الماضي وهي عتيقة الطراز دوماً حينما يتعين استخدامها في الإنتاج. ولكن فالراس تمكن من إزالة المشكلة بواسطة الفرضية الفذة التي تقول إن المخزونات، على غرار السلع الرأسمالية، تكون بالضبط كما لو أنها كانت قد أنتجت في الماضي بقصد خدمة الظروف القائمة في الوقت الحاضر. وهذا هو معنى عبارته التي تذهب إلى بناء النظام التوازني *ab ovo* (من البداية). ويمكننا التعبير عنها بالقول أنه خلق عالماً اقتصادياً يلائم كل عنصر فيه موضعه *niche* بشكل تام حتى إذا، بسبب حقيقة أن الإنتاج يأخذ وقتاً، كان هذا العنصر يتطلب أن يتم إنتاجه دون أن يعلم أحد بالضبط ما يمكن أن يكون عليه الموضع. فثمة معنى ما في مثل البناء *construction*. ولكنه، مرة أخرى، مجرد الخطوة الأولى على طريق الألف ميل.

تقدمها كل سلعة رأسمالية السلعة الرأسمالية نفسها^(٤١٠). لاحظ أن إدخال المخزونات وخدمات المخزونات يشكل طريقة فالراس لمزامنة synchronizing العملية الاقتصادية: فعند اشتراط دفع سعر الخدمة- أى تكلفة فائدة على رأس المال دائر المعنى- فإن الأسر تصبح قادرة الآن على 'تحويل' خدماتها إلى سلع استهلاكية حالاً. ولكن من الواضح أن هذا ليس مجرد تفصيل بل سمة جوهرية لنظام التوازن العام الذى كان فالراس قد أشار إليه بالفعل، على سبيل الحدى، فى نظريته للإنتاج (Elements, p. 215).

أما النقود، فيتم إدخالها سوية مع المخزونات. فهى مجرد بند خاص من قائمة المخزونات inventories وهى تقدم أيضاً خدمة معينة service d'approvisionnement تكتسب سعراً، كأى خدمة أخرى، بفضل دوال منفعتها الحدية^(٤١١). يظهر هذا السعر فى سوق خاص أسماه فالراس سوق رأس المال

(٤١٠) إن هذه المفهمة، إذ تفترض مسبقاً وجود سعر صافى لكل خدمة service d'approvisionnement، تتعرض لنفس الاعتراض الذى يمكن أن يثار ضد مسلمة العائد الصافى الذى تغله سلعة رأسمالية معينة. ولكن بمجرد أن نسلم بوجود هكذا خدمة service d'approvisionnement قابلة لأن تمتلك سعراً صافياً (أى سعراً أكبر من نصوب المخزون زائداً التامين) فلا نستطيع الاعتراض على هذا التمييز بين المخزون والخدمة على أساس أن هذا يعنى الحساب المزدوج. وفى الواقع، لما كان فالراس يستخلص أسعار المخزونات، بواسطة معدل الفائدة، من أسعار خدماتها- أى بطريقة تعادل عملية خصم ما- فيوجد هنا تشابه شديد مع مخطط بوهم-باورك، ومع أن هذين الكاتبين العظيمين لم يفهما أحدهما الآخر تماماً وعلى نحو فاجع تقريباً. ولكن التشابه يصبح واضحاً حينما نطرح القضية كما يلى: تستلم الأسر المنتجات التى تريدها على الفور (بدلاً من استلامها فى نهاية فترة الإنتاج) وهى تدفع الفائدة لى تستلمها بهذه الصورة. انظر الجملة التالية فى المتن.

(٤١١) ينبغى عدم خلط هذا السعر بسعر النقود نفسها. فإذا رمزنا ب p' إلى سعر النقود من خلال ال numeraire، وب π إلى سعر خدماتها service d'approvisionnement، وب i إلى معدل الفائدة، إذن، وفقاً للقاعدة الخاصة بقيمة السلع الرأسمالية التى لا تتدثر (كالأرض)، يكون لدينا $\pi' = p' i$. وإذا خدمت النقود ك numeraire، فإن $p = i$ و $\pi = i$.

وبالنسبة لمنحنيات المنفعة الحدية لخدمات النقود والمخزونات بشكل عام، فيجب أن نلاحظ، مع ذلك، إنها ليست 'معطاة' بنفس المعنى الذى تكون فيه منحنيات المنفعة الحدية للخبز أو البيرة: وإذا استعملنا مصطلح فريش Frisch، فهى ليست مستقلة autonomous كما هو شأن الأخيرة وهى لا تصح إلا إلى بنية إنتاج وعادات دفع تجعلها العملية الاقتصادية نفسها تواصل التغير. لقد أبصر فالراس هذه الصعوبة ولكنه عزى نفسه بالقول إن الأسر والمنشآت عملياً تعرف عادة 'بشكل تقريبي' جداً حجم الرصيد الدائر الذى تحتاجه من السلع والنقود. وهذا صحيح، ولكن المنظر الذى يستفيد من هذه الحقيقة يجب أن يوضح، كما فعل فالراس، أنه يستبعد عدم التأكد وفق فرضية خاصة. وفى هذا السياق، يمكننا أن نلاحظ أن فالراس، ودون أن يقصد، تخلص بهذا الشكل من النظرية اللاحقة (ج. ر. هيكس) التى تقول أنه لن يكون هناك داع للاحتفاظ بالنقد عند غياب عدم التأكد من أى نوع، وتفيد، لذلك، إن وجود ظاهرة النقود يعتمد على عدم التأكد. وفى حدود مخطئه، ليس لدى فالراس أى فرصة لتقدير أهمية عنصر عدم التأكد حق قدرها. ولكنه أوضح إن مواجهة عدم التأكد=

(marche du capital) - تمييزاً له عن سوق السلع الرأسمالية (marche des capitaux) - والذي هو 'متمم' لسوق كل الخدمات الإنتاجية (Elements, p. 245). لقد جرى الآن الدفع إلى كل مجهزى الخدمات وهم يشترون المنتجات بالنقد. ولم يعد الرأسماليون يدخرون بواسطة مبادلة الخدمات الإنتاجية مقابل السلع الرأسمالية بل يدخرون بواسطة النقود وأننا نمتلك كمية تسمى monnaie d'epargne {النقد المدخر} إضافة إلى كميتين من نقود المعاملات (monnaie de circulation) فى أيدي الأسر والمنشآت. تقتضى الأخيرة النقود وتشتري بها سلعا رأسمالية جديدة. إن السعر التوازنى 'للسلعة' فى هذه السوق، أى سعر الخدمة التى تقدمها النقود service d'approvisionnement يتحدد بشرط مفاده أن طلب الأفراد على هذه الخدمة - كما يمثلته encaisse desiree {مبلغ النقد الذى يرغبون بالاحتفاظ به} - يساوى المبلغ الكلى من النقود الموجودة. وبعد تحديد هذا السعر التوازنى، يمكننا أن نختار النقود نفسها ك numeraire وأن نعيد عندئذ صياغة الشرط بالقول إن معدل الفائدة يجب أن يكون هكذا بحيث يسوَّى equalize بين encaisse desiree {مبلغ النقد الذى يرغب الأفراد بالاحتفاظ به} - والمبلغ الكلى من النقود الموجودة^(٤١٢).

=ليست أساسية بالنسبة للنقود المحتفظ بها لغرض التداول بحيث إن الفرضية القائلة إن الاقتصاد الذى يستعمل النقود هو اقتصاد ديناميكي بالضرورة هى فرضية ليس لها من أساس. ولكن هذا لا يعنى إنكار أن كل المشاكل المزعجة حقا حول النقود تنشأ فى العمليات التطورية. (٤١٢) لا ينبغى أن نستغرب أن نجد أنفسنا فجأة أمام تشابه شديد بنظرية الفائدة الكينزية ('النظرية-الذاتية' own-rate theory: General Theory, p. 223). ويبرز التشابه - وكذلك الاختلاف - جيدا بشكل خاص حينما نلاحظ، ضمن مخطط فالراس، إن هناك مجالا للدافع الأول فقط من دوافع كينز الثلاثة للاحتفاظ بالنقود، أى دافع المعاملات، فى حين ليس ثمة مجال للدافعين الآخرين، أى 'الاحتياط' والمضاربة' (General Theory, p. 170). وهكذا يتطابق جدول الادخار مع جدول العرض فى سوق رأس المال، ولكن الدافعين الآخرين يمكن زجهما بصورة جاهزة فى لوحة فالراس. وحينما نفعل هذا، فإن جدول المدخرات يكف عندئذ عن التطابق مع جدول عرض الأرصدة القابلة للإقراض. ولكن هذا لا يجعل نظرية فالراس غير صحيحة: فهو يعنى فقط أنه يكملها بواسطة فرضيات إضافية. حول هذا الموضوع، انظر: O. Lange, 'The Rate of Interest and the Optimum Propensity to Consume,' Economica, February 1938, and Franco Modigliani, 'Liquidity Preference and the Theory of Interest and Money,' Econometrica, January 1944. ولا تتأثر صحة حاجة هؤلاء الكتاب بانتقادات د. باتنكن Patinkin فى عمله: 'Relative Prices, Say's Law, and the Demand for Money,' Econometrica, April 1948، رغم أنها صحتها يمكن أن تتأثر بانتقادات أخرى.

ولحد الآن، فإن 'وجود' مجموعة فريدة من الحلول أو من القيم التوازنية لنظام فالراس لم يتأثر بإدخال النقود: فالوضع من هذه الناحية، بما فى ذلك التحفظات، يبقى كما وجدناه إلى حد بعيد فى حالة الاقتصاد القائم على استعمال سلعة قياسية numeraire. ومن الممكن إثبات هذا ولكنه واضح غريزيا من حقيقة إن فالراس يدخل النقود بطريقة ترقى إلى صياغة الخدمة التى تقدمها service d'approvisionnement بالضبط كخدمة إضافية (ليس لها منفعة مباشرة) يُراد أن تحل محل الخدمة السابقة- الأمر الذى لا يغير من منطق الوضع كما هو واضح^(٤١٣) أكثر مما يغيره إدخال أى سلعة أو خدمة إضافية أخرى. ومع ذلك، وبسبب طبيعة الخدمة التى يفترض إن النقود تقدمها، فينبغى أن نضيف إن سعر خدمتها يدخل طلب وعرض المعادلات التى تحدد أسعار كل السلع والخدمات الأخرى بطريقة خاصة. ويمكن رؤية هذا بأسهل ما يمكن بملاحظة أن التغييرات فى سعر الخدمة التى تقدمها النقود- أو الفائدة، إذا اخترنا النقود ك numeraire - تؤثر بصورة مباشرة على قيم السلع الرأسمالية والمخزونات stocks (inventories)، ومن خلال هذه على كل الأسعار والكميات الأخرى فى النظام بما فى ذلك تلك الخاصة بالخدمات الإنتاجية كالأجور، وكذلك الكمية المطلوبة والمعروضة من العمل. ومن المهم إبقاء هذا فى الذهن: فكل تغيير فى أى سعر يؤثر على الأسعار والعروض والطلبات الأخرى، ولكن التغيير فى سعر النقود يمتلك تأثيراً إضافياً له أهمية خاصة. وهكذا فإن الأسعار النقدية ليست مجرد ترجمات، لأسعار يعبر عنها بسلعة قياسية numeraire ليست هى بنقود، إلى أسعار يعبر عنها بسلعة قياسية أخرى ليست هى نقوداً: فالأسعار النقدية money prices (أى المعبر عنها بالنقود) لا تتناسب مع الأسعار المعبر عنها بسلعة قياسية prices numeraire؛ فهى أسعار متكيفة مع شرط جديد، أى الشرط الذى يحكم التوازن فى سوق رأس المال لدى فالراس. ومع ذلك، نستطيع أن نصوغ شرط التوازن النقدى

(٤١٣) أنكر هذا الأمر حديثاً على أساس إن فالراس استبعد النقود من الأشياء أو الخدمات التى تمتلك دوال منفعة حدية، أى من مجموعة الأشياء التى تصلح كسلع. ولكن وجهة-النظر هذه لا تقوم إلا على سوء فهم لقرار فالراس بأن يأخذ، أولاً، نوعاً من النقود لا تمتلك المادة التى تصنع منها قيمة كسلعة (Elements, p. 303) وذلك لتأجيل درس المشاكل التى تبرز حينما تصنع النقود من مادة تمتلك قيمة استعمالية كبيرة كالذهب والفضة. إن هذا الموقف لا يمت بأية صلة إلى موقفين آخرين قريبين منه: (أ) ما إذا كان مفهوم 'خدمة النقود' هو موقف مقبول؛ (ب) ما إذا كان فالراس قد شدد بقوة أم لا على التناظر بين العمليات النقدية و'الحقيقية'.

هذا كما فعلنا آنفاً، أى أن *total encaisse desirée* {مبلغ النقد الكلى الذى يرغب الأفراد بالاحتفاظ به} يجب أن يساوى الكمية الكلية الموجودة من النقود، ولكن يجب أن نستحضر فى الذهن أن *encaisse desirée* يعتمد، بين أمور أخرى، على قيمة المعاملات الكلية معبراً عنها بسلعة قياسية *numeraire*، وأن المعاملات تعتمد أيضاً على سعر خدمة النقود وأنها لا يمكن أن تبقى ثابتة إذا تغير هذا السعر - أو معدل الفائدة. وبعبارة أخرى، لا نستطيع تلبية شرط التوازن النقدى بأن نعامل كمعطاة ليس فقط الكمية القائمة من النقود بل *total encaisse desirée* أيضاً، وأن ندع التوازن النقدى يتحقق عن طريق تغييرات ملائمة فى معدل الفائدة فحسب. وحينما يتم إدراك هذه الحقيقة والاستفادة منها، فإننا نستطيع أن نشدد حقاً على أن محاجة فالراس تحدد مجموعة منسجمة ليس فقط من الأسعار النسبية بل أيضاً من الأسعار النقدية أيضاً *money prices*، أو من مستوى السعر إن شئت.

وقد أدرك فالراس نفسه هذا الوضع وينبغى تسجيل فضله فى خلق نظرية للنقود كاملة ومنسجمة وكافية تماماً، ضمن فرضياتها الخاصة بها، لتحديد الأسعار المطلقة من خلال النقود^(٤١٤). ولكنه أخفق فى النقطة الحساسة. فعلى أساس إن تأثير التغييرات فى معدل الفائدة على المجموع الكلى للمعاملات، وبالتالي على *encaisse desirée*، هو مجرد تأثير 'غير مباشر وضعيف' (Elements, p. 311)، فقد قرر فالراس إهماله كلياً ومضى منذئذ لإقامة الكثير من محاجته بشأن النظرية النقدية التطبيقية على فرضية تبسيطية مفادها غياب هذا التأثير. إن هذه الفرضية، بمعزل تماماً عما إذا كانت مبررة واقعياً أم لا، من شأنها تغيير الوضع الكلى إذا كان علينا أن نأخذها كجزء من نظرية فالراس الصارمة^(٤١٥). وعندئذ، وكما لاحظ فالراس نفسه، فإن معادلة التداول النقدى ستكون حقاً 'خارجية بالنسبة لنظام المعادلات التى تحدد التوازن الاقتصادى' (ibid)، وسيكون هناك عندئذ بعض المبرر للقول إن نظام فالراس، من حيث الجوهر، هو نظام 'حقيقى' *real system* أو قائم على سلعة قياسية *numeraire*، وكامل بشكله هذا، بيد أن فالراس قد ألقى

(٤١٤) ليس فى هذه النظرية ما تخشاه، بشكل خاص، من دمية القش، التى أسماها الاقتصاديين المعاصرين: قانون ساي Say's Law. كما أنها لا تتأثر بدوال الطلب والعرض ذات التجانس من الدرجة صفر، مع أنه ليس ثمة فرق فى نظام فالراس، كما فى أى نظام آخر، أن يقوم الأفراد بالحساب بالدولارات أو بالسنتات.

(٤١٥) يبدو لى أن مما لا شك فيه عموماً أن الفرضية غير مبررة. ومع ذلك، فإنها قد تخدم بعض الأغراض الخاصة.

عليه 'حجاب النقود' كقطعة من الكساء قابلة للخلع (ومع ذلك، انظر الفصل القادم) (٤١٦). وعندئذ، فإن الفائدة النقدية والأسعار النقدية ستكف عن أن تتحدد آنياً مع الأسعار النسبية ولن تكون منسجمة معها على العموم (٤١٧). ومع ذلك، ففي ضوء روح عمل فالراس، إضافة إلى نصه، فمن الطبيعي أكثر أن نقول، لأغراض النظرية النقدية التطبيقية، إن فالراس قرر أن يهجر طريقته في التحليل العام وتبنى طريقة التحليل الجزئي. وهذا يعنى أنه قرر تبنى مقارنة معينة لا تسرى عليها معايير التحليل الصارم rigorous analysis (٤١٨).

ولكن الإجابة على السؤال المتعلق بالاستقرار (والسؤال المتعلق بوجود مِلّ في النظام لتحقيق القيم التوازنية لعناصره) هي الآن أصعب مما كانت من قبل. وهذا لا يعود إلى أى تغيير فى الوضع المنطقي كان قد أحدثه إدخال النقود - فهذا النظام ما يزل إلى حد بعيد كما كان فى ظل الاقتصاد القائم على numeraire - ولكن إلى حقيقة أن من الأصعب، فى اقتصاد يستخدم النقود money economy، قبول النمط العام للعملية الاقتصادية لدى فالراس. وكان فالراس يعي هذا كلياً. والبرهان على ذلك هو تشديده على عدم استقرار الائتمان النقدي (مثلاً، Elements, p. 353-4). وبمعزل عن ذلك، فمن المعقول أن نقول إن إدخال سوق لرأسمال نقدي يقدم للماكنة الاقتصادية فرصاً جديدة للانهياء، تغيب عن الاقتصاد الذى يستخدم numeraire: يمكننا أن نستبعد ظروف عدم التأكد uncertainties، كتجاوب مع توجهات فالراس؛ ولكن فى حالة 'سلعة'، متقلبة كالنقود، ويمكن بسهولة إعادة توجيهها بناءً على ملاحظة ما تبرز آنياً، فلا يسعنا أن لا نفكر بتلك الظروف، رغم ذلك. وفى ظل هذه الأوضاع، فمن المؤكد أن تتدنى كثيراً القيمة العملية للنتيجة

(٤١٦) تشكل هذه الفرضية السبب الثانى (إضافة إلى عبارة فالراس غير الدقيقة على صفحة ٣٠٣ والتي مفادها أن النقود ينبغي اعتبارها objet sans utilite propre (كشيء عديم النفع قط)) الذى يمكن ذكره لصالح الكتاب الذى يفسرون فالراس بذلك المعنى. وثمة سبب ثالث. فنظام فالراس يسرى من دون نقود أطول ما يمكن، وبذلك فإنه يخلق الانطباع بأن نظرية النقود هي حقاً شيء ما يجرى لصقه على واجهة مبنى ما كان مكتملاً من قبل. ومع ذلك، فإن التحليل الدقيق يبين أن هذا مجرد وسيلة لإيضاح بالنسبة لطريقة فالراس فى التجرد من وقائع الإنتاج عند عرض نظريته للمبادلة. إذ ينبغي تربية المعلم العظيم فى الاعتماد المتبادل العام من الشك من هذه الناحية.

(٤١٧) وهذا واضح. فإذا تضمن تغير ما فى معدل الفائدة، من حيث المبدأ على الأقل، إعادة ترتيب كل المقادير الحقيقية والنقدية فى النظام، فإن المسلمة القائلة إن encaisse desiree ينبغي أن تبقى كما هي إنما تعادل إدخال شرط آخر من شأنه على العموم أن يجعل النظام overdetermined، وهى تعنى التناقض، بهذا المعنى.

(٤١٨) يبدو أن الدافع الرئيسى هو رغبة فالراس فى اكتساب شكل بسيط من 'النظرية الكمية'.

النهائية التى نصل إليها مع ذلك. وهذه النتيجة تبدو كما يلى: بالنسبة لاقتصاد يستخدم numeraire واقتصاد يستخدم النقود معاً، فإن نظام العملية الاقتصادية لدى فالراس هو نظام محدد ومستقر، رغم أن فالراس لم ينجح بصورة تامة فى إثبات هذا بصورة صارمة؛ وبالنسبة للعملية، التى هى راكدة stationary، إذا استثنينا الاستثمار الموجب والسالب على الخطوط التقليدية، فهى عملية غير توقفية hitchless بالمعنى المحدد آنفاً، وأن التشغيل الكامل للموارد هو أحد خصائص هذه العملية حقاً؛ وأن استنتاجات أخرى غير هذه لا يمكن التوصل إليها إلا بإدخال فرضيات تختلف عن فرضيات فالراس. وفى التحليل الأخير، إذا كان نظام فالراس ربما مجرد برنامج بحث هائل، فإنه، بفضل نوعيته الفكرية، ما يزال عملياً الأساس لكل العمل الأفضل فى وقتنا الحاضر^(٤١٩).

٨- دالة الإنتاج

إن كل ما تبقى قوله حول العمل المنجز فى الفترة وفق مستويات أعلى من التحليل النظرى يمكن محورته بشكل ملائم حول مجموعتين من المعطيات شكلتنا الدعامتين للهيكل الكلاسيكى للعام ١٩٠٠، ميول المستهلكين المعطاة والإمكانات

(٤١٩) يمكن توضيح هذا من خلال موضوع إمكانية حدوث البطالة فى العمل عند التوازن، الذى لعب دوراً واضحاً فى السجال الكينزى. إن هذه البطالة، فى نظام فالراس، غير ممكنة إلا حينما نستبدل شروط عرض العمل الفالراسية بفرضية مفادها أن معدلات الأجر جامدة إزاء الانخفاض 'rigid downwards' عند رقم أعلى من رقم التوازن الفالراسى. ولكن بوسعنا أن نضيف فرضية أخرى مفادها أنه إذا تم التخلص من الجمود، فإن الهبوط الذى سيحدث فى الأجور، يفشل فى خلق التوازن لأن هذا الهبوط يمكن أن يخفض إيرادات المنشأة أو، حتى من دون هذا، فإنه يخلق توقعات متشائمة تشجع على تقليص العمليات بصورة عامة بحيث إن معدلات الأجور الهابطة لن تلحق أبداً بالمستوى التوازنى المتناقص باستمرار. ويمكننا أن نصل إلى نتيجة مماثلة، مفترضين درجة ما من جمود الأجور، بالافتراض أن الرأسماليين، إذ يصممون على الادخار دون أى اهتمام بالعوائد، غير مستعدين لقبول العوائد الجارية من الاستثمار ويفضلون الاحتفاظ بكل ما قرروا ادخاره 'فى صورة طلب فوري، سائل' (أى فى صورة نقود أو ما يعادلها) (General Theory, p. 166). ومهما كان رأينا فى المزايا الواقعية لمثل هذه الفرضيات، فإن النقطة التى يلزم تذكرها هى أن هذه الفرضيات، حتى عند قبولها، ليس من شأنها أن تبطل صحة نظرية فالراس ضمن إطار فرضياته. وبشكل خاص، فإنها لن تثبت أن 'شرط التشغيل الكامل' لدى فالراس - الذى هو ليس مسلمة بل موضوعة - يجعل نظام فالراس overdetermined، ومتناقض داخلياً بهذا المعنى. وينبغى أن نضيف مجدداً أن الاقتصاديين الذين يحبون التحقق من وجود اتجاه فى الاقتصاد الرأسمالى لخلق بطالة دائمة ليس لديهم ما يخشوه من البرهان القائل، عند مستوى عال من التجريد، إن التوازن التام عند المنافسة التامة من شأنه يتضمن التشغيل الكامل. كما أن هذا البرهان ذاته ليس فيه ما يخشاه من الوجود الكلى ubiquity للبطالة فى عالم لم يكن يوماً قط فى توازن تام ولم يكن تنافسياً بصورة تامة أبداً.

تكنولوجيا المعطاة في إطار أفق المنتجين horizon of producers. سنناقش موضوع الأول في ملحق هذا الفصل، بينما يعتبر هذا القسم أفضل مكان لتناول موضوع الثاني. وفي كلتا الحالتين، لن نفعل سوى تكملة ما سبق أن تعلمناه عند تحليل أقل دقة. في كلتا الحالتين، سوف أتابع الأقصوصة إلى أن نصل إلى الوضع نقائم حاليًا. وسيتعين على، في كليهما، أن أجعل العرض موجزًا إلى حد عدم نزقة^(٤٢٠).

(أ) معنى المفهوم] نستهل درسنا بتذكر مفهوم دالة الإنتاج production function كما يستعمل في وقتنا الحاضر بصورة عامة. تصور إن هناك رجل أعمال A يفكر بإنتاج سلعة معروفة جيدًا X بمعدل \bar{x} في كل وحدة من الزمن، مستعملًا تجهيزات واحدة تصمم لهذا الغرض. قد يحتاج هذا الإنتاج مجموعة فريدة من معدل المستخدمات في كل وحدة من الزمن مثل $\bar{v}_1, \bar{v}_2, \dots, \bar{v}_n$ من الخدمات V_1, V_2, \dots, V_n المعروفة جيدًا بنفس الدرجة - وهي مستخدمات ثابتة تكنولوجياً على غرار معاملات الإنتاج لدى فالراس وتعرف، بالنسبة لنا نحن الاقتصاديين، 'العملية' process أو 'الطريقة' method الوحيدة المتاحة للإنتاج. ومع ذلك، وكقاعدة عامة، ثمة طرق أو عمليات للإنتاج كهذه كثيرة وحتى غير محدودة يمكن بها إنتاج \bar{x} . وتعرف كل واحدة من هذه الطرق أو العمليات بتشكيلة متميزة من معدل المستخدمات في وحدة من الزمن - ومرة أخرى، بالنسبة لنا نحن الاقتصاديين: إذا حدث أن اثنتين أو أكثر من العمليات المختلفة تكنولوجياً تستخدم نفس التشكيلة بالضبط من معدلات المستخدمات لإنتاج \bar{x} ، فهي تمثل نفس العملية بالنسبة لنا. ويختار السيد A من بين هذه الإمكانيات بقصد تقليل التكلفة الكلية لإنتاج \bar{x} إلى أدنى حد ممكن وبالتالي فهو يرفض، من البداية، كل تلك العمليات التي تستعمل من كل الخدمات (النادرة)، V_1, V_2, \dots, V_n ، أكثر مما تستعمله منها غيرها. ومن بين العمليات المتبقية، التي يمكن أن نسميها البدائل الملائمة eligible choices، فإن رجل الأعمال يقوم بالاختيار وفقًا لحالة السعر التي يتوقع أن تسود

(٤٢٠) إن عدم قدرتي على تقديم تقرير بأى من الموضوعين من شأنه، في الوقت نفسه، أن يكون مختصرًا وأوليًا ودقيقًا - وهي عدم قدرة لم أكن أعياها قبل كتابة ذلك الملحق وهذا القسم في شكلهما النهائيين - كان ينبغي التشديد عليها لأنها تبين بصورة واضحة الظروف في كلا الحقلين حيث كان التقدم الطفيف يتعطل دون انقطاع بسبب سوء الفهم المتبادل بين العاملين - مصحوبًا بنكد غير ضروري - وعدم استعدادهم الكامل تقريبًا للسير في نفس الطريق. وقد وصل الارتباك أحيانًا إلى حد كان من الصعب التأكد مما كان يعنيه بعض الكتاب بنظرية الإنتاجية الحديثة، مثلًا.

فى أسواق العوامل خلال الفترة التى يخطط أن يعمل خلالها.

إن القائمة الكاملة من تلك البدائل الملائمة، التى يعرفها جيداً رجل الأعمال أو مهندس الاستشارى، تحدد الأفق التكنولوجى لـ A أو مهندس^(٤٢١). وإذا تركنا الخدمات، \bar{v} 's، تتغير بصورة مستمرة وسلسة^(٤٢٢)، وإذا جعلنا المنتج x يتغير بشكل مستمر وسلس أيضاً، فيمكننا أن نعبر عن الأفق التكنولوجى لمنتج ما ببناء دالة تحويل transformation function من النوع: $x = f(v_1, v_2, \dots, v_n)$ ، التى نسميها دالة الإنتاج، التى تربط أى تشكيلة معطاة من المستخدمات v_i 's ($i = 1, 2, \dots, n$) بقيمة قصوى محددة من المنتج x يمكن أن ينتجها ذلك المنتج بالتشكيلة المعطاة. إن أى تغيير فى الأفق التكنولوجى، كالتغير الناجم مثلاً عن اكتشاف عملية جديدة أو حتى معروفة ولكنها تصبح مجدية تجارياً بعد أن لم تكن كذلك من قبل، يحطم دالة الإنتاج هذه ويستبدلها بدالة أخرى. إن كل هذا بسيط جداً، ويجب أن يكون من الواضح جداً نوع الخصائص التى نريد إضفاءها على دالة الإنتاج عند المستويات المختلفة من التجريد التى تملئها علينا متطلبات المشاكل الخاصة التى نريد درسها. وهكذا، حينما نلحق عالياً فى الهواء الطلق ونبحث عن الصفات 'الأنقى' لمنطق الإنتاج، فسوف نفترض، كما فعلنا تَوَّاً، أن دوال الإنتاج مستمرة وأنها قابلة للتفاضل مرتين فى كل الاتجاهات^(٤٢٣). إن هذه الفرضيات غير واقعية فى الغالب. ولكن هذا ليس مدعاة للاعتراض ما دمنا نهتم بالمنطق البحث للإنتاج. فهى تثير الاعتراض فقط حينما نطبق النتائج، التى نحصل عليها بواسطة، على أنماط ومشاكل ذات صلة بقضايا الاستمرارية continuity وعدم وجود المشتقات الجزئية من الدرجة الأولى والثانية: فليس ثمة أى معنى، سواء فى التشديد على وجود الاستمرارية وقابلية التفاضل أو فى إنكاره، بالنسبة لكل المشاكل وكل الأنماط. لقد شكّل إهمال هذه الحقيقة البديهية مصدراً خصيباً بصورة لا تُصدق لمناقشة عقيمة تواصلت حتى يومنا هذا وأعاقَت تقدم التحليل بشكل مثير للاهتمام من زاوية باحث 'التقدم العلمى' و'طرق التفكير الإنسانى'. ولإيضاح هذا الجانب،

(٤٢١) ينبغى تمييز هذا الأفق التكنولوجى technological horizon عن الأفق الزمنى time horizon للمنشأة (أو لأى فرد) أى المدة الزمنية التى تشملها خططها. وكان تينبرجن Tinbergen قد أدخل مفهوم الأفق الزمنى.

(٤٢٢) ليس للدالة المستمرة قفزات jumps، وليس للدالة السلسة فجوات kinks.

(٤٢٣) أى سنفترض أن كل التعابير ذات الأشكال لها وجود ومستمرة حيث تمثل v_i و v_j الخدمات الإنتاجية $(i, j = 1, 2, \dots, n)$.

من الملائم أن نتناول، أولاً، عددًا من النقاط كما تطرح نفسها اليوم وذلك لتمهيد الأرضية (أو جزء منها) لأقصوصتنا للتطور التاريخي ولتزويد القارئ بمعلومات قد تساعد على تقديرها. ثمة بعض العروض الحديثة لنظرية الإنتاج والتكلفة ذات جوانب ستاتيكية بشكل رئيسي) نقدمها في الهامش أدناه لإتاحة إمكانية الرجوع إليها^(٤٢٤).

(١) لم نعد نثق بفكرة أى سلعة أو خدمة معرّفة جيدًا. وعلاوة على ذلك، فإن المنشآت كقاعدة عامة لا تنتج سلعة واحدة من نوعية واحدة فقط بل عدة سلع عدة ذات نوعيات عديدة، وأن قدرة هذه المنشآت على تغيير الإنتاج من سلعة إلى سلعة أخرى تمثل عاملاً مهماً بشكل واضح عند اختيار بنية إنتاجية معينة^(٤٢٥). وأخيراً، فإن إجراء تغيير معين فى تشكيلة الخدمات الإنتاجية كثيراً ما يؤثر من تلقاء ذاته على نوعية السلعة التى تنتجها منشأة ما وحتى على نوعها. وإلى حد ما، يمكن أن نأخذ هذا بنظر الاعتبار عبر إدخال سلع عدة (x_1, x_2, \dots, x_n) فى دالة الإنتاج وبواسطة كتابة الأخيرة بالشكل الضمنى: $\varphi(x_1, x_2, \dots, x_m; v_1, v_2, \dots, v_n) = 0$. وقد فعل هذا آلن Allen، وهيكس، وليونيتيف، وتنتنر Tintner، وآخرون.

(٢) إذا شئنا تأسيس نظريتنا للإنتاج على نظرية جيفونس-بوهم-تاوسك العملية 'غير المباشرة'، فيمكننا أن ندخل الزمن فى دالة الإنتاج بشكل صريح، أى بكتابة $x = \psi(v_1, v_2, \dots, v_n; t)$. إن هذه الممارسة توحى بقوة بمعالجة فيكسل لمشاكل رأس المال وقد تبناها مؤلفون حديثون كثر (مثلاً، انظر آلن، المصدر السابق، ص ٣٦٢)^(٤٢٦). ومع ذلك، فمن الواضح أن هناك صفات أخرى يمكن أن

(٤٢٤) R. G. D. Allen, *Mathematical Analysis for Economists* (1938)؛ وحول دالة الإنتاج ومنحنيات الناتج الثابت، انظر بشكل خاص الصفحات ٢٨٤-٢٨٩ التى يفهمها القارئ غير الرياضى على الفور حقاً وتساعد قراءتها كثيراً على فهم هذا القسم؛ J. R. Hicks, *Value and Capital* (2nd ed. 1946)، وبخاصة الجزء الثانى؛ P.A. Samuelson, *Foundations of Economic Analysis* (1947)، وبخاصة أن الفصل الرابع، الذى نوصى به بقوة، يحتاج إلى شيء من الرياضيات ولكن إلى قليل جداً منها؛ E. Schneider, *Theorie der Produktion* (1934)، وكذلك عمل Gerhard Tintner, 'A Contribution to the Nonstatic Theory of Production', *Studies in Mathematical Economics and Econometrics* (وهو عمل مكرس لذكرى ه. شولتز H. Schultz) ١٩٤٢. (٤٢٥) كان لويس م. كورت Louis M. Court 'Entrepreneurial and Consumer Demand Theories' *Econometrica*, April and July-October 1941 (for Commodity Spectra) قد اعتبر حالة السلع الكثيرة جداً فكرة ذات أهمية كبرى. (٤٢٦) إن معاملة الوقت كمتغير مستقل تلائم النظام المارشالى جيداً أيضاً، ولو لأسباب أخرى. ولكن=

تكون مهمة بالنسبة للنمط التكنولوجي لمنشأة ما غير معدلات المستخدمة والوقت: فمعدلات تغير هذه المعدلات، فترات الإبطاء الموجودة في بعضها، تراكم (مكاملات) بعضها الآخر، الإنتاج المتوقع ليس في المستقبل القريب جدا بل في مستقبل أبعد. ودون الدخول في هذه المشاكل، سنشير إلى التقليد المتمثل بإدخال معاملات التغير shift coefficients (α, β, \dots) في دالة الإنتاج التي ستبدو هكذا عندئذ: $x = f(v_1, v_2, \dots, v_n; \alpha, \beta, \dots)$. وهذا لا يعنى أكثر من اعتراف شكلي بحت بحقيقة أن دوال الإنتاج تتغير عبر الزمن. وقد يبرر هذا التقليد نفسه يومًا ما طبعًا، ولكن لحد الآن، يبدو لي أن من الممكن التعبير عن هذه الحقيقة بنفس الدرجة من الملائمة بالقول، كما أشرنا أعلاه، إن الابتكار يدمر دالة ما للإنتاج ويطرح دالة أخرى جديدة^(٤٢٧).

(٣) بالنسبة للاقتصادى، فإن تعريف عملية أو طريقة معينة للإنتاج يتم عن طريق المتغيرات المستقلة في دالة الإنتاج، حتى إذا كان هذا يعنى، في أعين المهندس، وضع عمليات أو طرق مختلفة جدا بجانب بعضها: فهذا التقليد يعنى ببساطة إن الاختلافات التكنولوجية بذاتها ليس لها من أهمية بالنسبة لنا. ولكن هذا يفرض علينا شمول كل الخدمات الإنتاجية الضرورية لأى من الطرق الملائمة لإنتاج سلعة ما، مع إن قسمًا من هذه الطرق قد يحتاج خدمات معينة لا تتطلبها طرق أخرى. وهذا يتضمن صعوبة معينة دفعت بعض المنظرين (انظر، مثلاً، شنايدر Schneider، المصدر السابق، ص ١) إلى عدم تضمين دالة الإنتاج إلا تلك العمليات أو الطرق التي تستعمل نفس الخدمات (ولو بنسب مختلفة) وإلى تعريف الأفق التكنولوجي ليس بدالة إنتاج واحدة بل بدوال عدة.

ومع ذلك، فالأكثر أهمية هو النقطة التالية. فدالة الإنتاج لدينا، كما عرفت،

=مارشال، مع أنه عامل الوقت بهذا الشكل في تعاييره الأدبية، بيد أنه لم يفعل ذلك في صياغاته الرياضية ما عدا مشاكل القيمة، طبعًا- وهذا موضوع آخر.

(٤٢٧) إذا شكلنا، بطريقة مارشال وهيكس، فئة مستقلة من تلك الابتكارات التي 'يحفزها' توسع الإنتاج فحسب- التي ينبغي عدم خلطها بالتغيرات البسيطة في طرق الإنتاج التي تتم ضمن الأفق التكنولوجي للمنشأة من البداية ولكنها لا تكون مجدية إلا بعد وصول الناتج إلى مستوى معين- فإننا نميز، في الواقع، فئة وسيطة من الحالات من المفيد إبرازها لبعض الأغراض. ولكن بقدر ما يتعذر التنبؤ بدقة بآثار الابتكارات المحفزة، فلا معنى من إدخالها في دالة الإنتاج أو في منحنيات التكلفة. فإذا كان من المستحيل التنبؤ بهذه النتائج بدقة، فينبغي عندئذ أن تكون الابتكارات المحفزة ضمن الأفق أصلاً وليس من داع 'لإدخالها'.

تشير إلى منشأة واحدة - تحديدًا، إلى وحدة وحيدة من الإنتاج أو إلى 'التجهيزات' plant^(٤٢٨) - وليس إلى الاقتصاد ككل. ولكن في تلك الفترة وحتى في الوقت الحاضر، كان هناك وما يزال تقليد عام وهو التفكير كما لو أن هناك شيئًا ما من قبيل دالة إنتاج اجتماعية^(٤٢٩)، وليس من الصعب تفسير ذلك: فنحن نحس بشكل واضح أن نتحدث عن إنتاجية حدية 'اجتماعية' عند شرح نظرية الحصص التوزيعية. وهكذا، فإن معظم الاقتصاديين البارزين في تلك الفترة، ومن بينهم بوهم-باورك وج. ب. كلارك وفيكستد وفيكسل، افترضوا وجود دالة إنتاج كلية (اجتماعية) $aggragative (social) production function$ ، ضمناً على الأقل، دون أن يدركوا أن الحق المنطقي باستعمال هذا المفهوم ينبغي نبذ ببهان معين^(٤٣٠). إن كثيراً من المؤلفين الحديثين، وبخاصة من الكينزيين، كانوا على نفس الدرجة من عدم الاكتراث بهذا الأمر.

(٤) رياضياً، إن دالة الإنتاج تدخل البنية النظرية - بقصد تكوين دوال الطلب على الخدمات الإنتاجية، انظر، مثلاً، آلن، المصدر السابق، ص ٣٦٩ وما بعدها - كقيد على سلوك المنشآت: فهذه المنشآت تسعى إلى تعظيم الأرباح الصافية مع خضوعها للإمكانات التي تبينها دالة الإنتاج. كان يمكن أن نحاول، في صيغة واحدة، حشر كل الوقائع التكنولوجية التي تبدو ملائمة لنا لأي غرض مهم. ولكن حتى حينما يمكن تحقيق هذا، فمن الملائم أكثر أن نجعل من علاقة وحيدة علاقة أساسية - سنختار طبعاً علاقة معينة تمتلك بعض الأهمية الاقتصادية الأولية؛ وسنشير إلى هذا بعد قليل - وأن نعمد، من ثم، إلى إدخال الوقائع الأخرى (الفرضيات) التي يجب أخذها بنظر الاعتبار كقيود إضافية أو، كما يمكننا أن نقول، كقيود على القيد الذي نعتبره أساسياً. إن الطريقة التالية هي الأفضل لتوضيح

(٤٢٨) لتوفير المجال، سنستبعد من دراستنا مشكلة دوال الإنتاج بالنسبة للمنشآت التي تشغل أكثر من plant. ومع ذلك، فقد جرى في الآونة الأخيرة وضع بعض الأعمال حول تلك المشكلة.

(٤٢٩) يبدو أن محاكاة مارشال وفالراس - وهي محاكاة فيها انعدام نظر - هي الوحيدة حقاً التي كانت متحررة من أي مضامين من ذلك النوع.

(٤٣٠) كان إهمال هذا أمراً طبيعياً بالنسبة للاقتصاديين الأدبيين ممن لم يكن لديهم قط أي مفهوم محدد لدالة الإنتاج. وأنه كان أقل طبيعياً بالنسبة لفيكسل وفيكستد. ولكن لا يجب أن ننسى إن من السهل، في ظل المنافسة البحتة، التأكد من العلاقات التوازنية بين الإنتاجيات المادية الحدية التي تتحقق في المنشآت والصناعات المختلفة وأن هذا كان هو كل شيء لأغراضها: فمفهوم 'الراعي الحدي' لسدي مارشال كان صالحاً لتمثيل الإنتاجية الحدية لنوعه من العمل في أي استخدام وبالتالى الإنتاجية الاجتماعية من هذا النوع من العمل عموماً.

هذا الأمر. تصور أن لدينا n من الخدمات^(٤٣١) التى تحدد 'حيز إنتاج ما' فى كيان أبعاده $(n + 1)$. وعلى العموم، فإن المنشآت لا تستطيع أن تتحرك بحرية على كل هذا الحيز وأن الشروط التكنولوجية لا تسمح بالاختيار إلا ضمن حدود منطقة معينة. وهكذا يمكن أن تكون هناك 'عوامل مقيدة' *limitational factors* ينبغى، بحكم الضرورة التكنولوجية، استخدامها دائماً فى تناسب محدد مع كمية السلعة أو مع كمية عامل معين آخر (ر. فريش (R. Frisch)^(٤٣٢)؛ ويمكن أن تكون هناك قيود من أنواع أخرى (أ. سميثيز (A. Smithies). سنعود إلى هذه النقطة بعد قليل. ولكن يجب أن نشير الآن إلى نوع خاص قصير الأجل من هذه القيود الإضافية، كان البروفيسور سميثيز قد أوضح أهميته بالنسبة لنظرية الإنتاجية الحديثة.

سبق أن شددت على حقيقة أن المعنى المنطقى الكامل لمفهوم دوال الإنتاج لا يتجلى إلا حينما نفكر بها كدوال 'للتخطيط' *planning functions* فى عالم من التصاميم، حيث يمكن تغيير كل عنصر من العناصر، التى هى قابلة تكنولوجياً للتغير بصورة تامة، حينما يشاء المرء هذا وذلك دون خسارة فى الوقت ودون أى تكلفة.

ولكن حينما نطبق المفهوم، كما نحب أن نفعل بالتأكيد، على المنشآت التى تمتلك مصالح قائمة خاصة بها *own going concerns* وترتبط بتجهيزات ومعدات *plant, equipment* أنفقت عليها من قبل، وربما ترتبط أيضاً بجزء من جهاز إدارى قائم، فإن تلك العناصر من بنيتها القائمة التى تقاوم التغيير ستؤثر، عند الوقت الذى نسمح به للتكيف، على الاختيار التكنولوجى كقيود إضافية^(٤٣٣). أما أن نستبعد هذه المنشآت، فهذا من شأنه أن يعيدنا إلى حقل المنطق البحث ولا يغير من حقيقة أن الواقع سيكشف عن التوافق مع النموذج النظرى ومع الموضوعات، وبخاصة

(٤٣١) ينبغى، طبعاً، إذا كنا ندرس الخدمات النادرة فحسب، أن نأخذ بالاعتبار الحالات التى يعتمد فيها على حجم الطلب على المنشآت تقرير ما إذا كانت خدمة ما نادرة أم لا: فالماء يمكن أن يكف عن أن يكون 'حزاً' فى مكان معين إذا كانت المنشآت تحتاج منه أكثر من كمية معينة. وكنا قد تناولنا هذه النقطة فى سياق آخر.

(٤٣٢) R. Frisch, 'Einige Punkte einer Preistheorie..', *Zeitschrift für Nationalökonomie*, 1931; A. Smithies, 'The Boundaries of the Production Function and the 'September Utility Function, Exploration in Economics, Notes and Essays Contributed in Honour of F. W. Taussig' (1936).

(٤٣٣) كان مارشال يعي جيداً هذه الحقيقة وأهميتها بالنسبة لتفسير سلوك نشاط الأعمال الفعلى. انظر فكرة غاز بتربورغ لديه: سميثيز، المصدر السابق، ص ٣٢٨.

موضوعات الإنتاجية الحديثة، التي تُستخلص من النموذج؛ كما أن إتاحة وقت كاف للتكيف الكامل - وهي طريقة مارشال لمعالجة هذا الوضع - لن تساعدنا أيضاً لأنه عند انقضاء الوقت الضروري تحدث اضطرابات أخرى تحول دون تحقيق التوافق مع النموذج. ومن المهم إدراك التناقضات الحتمية بين النظرية والواقع التي لا بد أن تنتج عن هذا بقدر أهمية إدراك أن هذه التناقضات لا تشكل اعتراضاً صحيحاً على النظرية؛ فليس مدعاة للاعتراض على قانون الجاذبية أن ساعتى المطروحة على طاولتى لا تتحرك باتجاه مركز الأرض، مع أن الاقتصاديين، من غير المنظّرين المهنيين، يحاججون أحياناً كما لو إن الأمر كذلك.

(٥) وهكذا، فإننا لن نشاهد دوال إنتاج 'بحة منطقياً' إلا فى ظل ظروف ملائمة بصورة استثنائية. وهذا هو الحال فى الزراعة بشكل خاص حيث تتيسر لنا، لبناء الدوال، ليس فقط مادة وقائعية observational بل ومادة تجريبية أيضاً experimental. ولكن حينما نحاول أن نفعل هذا وفقاً لمشاهدات تخص المصالح القائمة going concerns فقط، فإننا نصادف صعوبات تماثل تلك التي نصادف عند محاولة بناء منحنيات طلب إحصائية ولا يمكن أن نتوقع عمومًا - دون أخذ احتياطات خاصة فى جميع الأحوال - أن نحصل على دوال الإنتاج للنظرية الاقتصادية. ومع ذلك، ورغم الأخطاء فى التفسير التي يمكن أن تؤدي إليها دوال الإنتاج^(٤٣٤)، فإن لدوال الإنتاج 'الواقعية' أهمية كبرى. فهي تساعد على تصفية انطباع الفرد العادى بأن دوال الإنتاج وجداول الإنتاجية الحديثة هي مجرد تخيلات منظّرين. وهي تجعلنا نواجه مشاكل جديدة وتضى مساحة الطريق الممتدة أمامنا. وللحصول على أمثلة، أحيل القارئ إلى تقرير لجنة جمعية القياس الاقتصادى الذى نشره رئيسها السيد إى. ه. فيلبس براون E. H. Phelps Brown فى: *Econometrica* (April 1936).

[ب) تطور المفهوم] كما سبق أن لاحظنا فى الفصل السابق وفى الجزئين الثانى والثالث، فإن جداول الإنتاجية الحديثة، فى صورة ناتج مادى وناتج قيمي،

(٤٣٤) ينبع أحد هذه الأخطاء من الملاحظة، الصحيحة تماماً بحد ذاتها، القائلة إن تجهيزات قائمة going plant، والمصممة لمنتوج محدد ولعملية إنتاج محددة، غالباً ما تكون جامدة جداً ولا تترك، للتشكيلة الإنتاجية التي تجسدها، غير مجال ضئيل للتكيف مع الأوضاع الجديدة، وبخاصة للتغيرات فى الأسعار النسبية للخدمات. إن أخذ هذه الأسعار النسبية بعين الاعتبار، كما بدت عند نصب التجهيزات، يتجسد (ضمناً فى الغالب) فى بنية التجهيزات ذاتها.

كانت تستعمل منذ أيام تورغو وحتى قبل ذلك. وقد ظهرت دالة الإنتاج نفسها فى الأوقات 'الكلاسيكية' تحت عنوان 'حالة الفنون' States of the Arts - حيث لوحظ أن هناك محاجبات معينة لا تصح إلا عند افتراض ثبات المعرفة التكنولوجية. كان قانون تناقص الغلة أكثر هذه المحاجبات أهمية، بل إن ريكاردو من قبل ذلك، بملاحظته أن 'القيم الحقيقية' للسلع 'تنظمها' 'الصعوبات الحقيقية' التى تواجهها المنشأة ذات الظروف الأسوأ، كان قد أشار باتجاه تعميم أوسع. ثم كان هناك ما دعاه مارشال 'قانون الإحلال العظيم' لدى تونن. ومع ذلك، كان يتعين على كل هذا أن يجد صلته الصحيحة بمبدأ المنفعة الحدية، ولكن المتبقى، حينما ننظر إليه من وقت متأخر - بمعزل عن المشاكل الأصعب التى تتخفى خلف أبسط حالة - يبدو كمشكلة سهلة جدا تنحصر فى تشذيب وتنسيق وتطوير أفكار قائمة كان ينبغى العثور عليها كلها، بشكل أو بآخر، فى عمل ج. س. ميل: Principles أو لدى ميل وتونن فى جميع الأحوال. وقد أنجزَ هذا من قبل النمساويين، وكذلك مارشال، فى سياق عملهم^(٤٣٥). وفى الواقع، فأنا نجد فى عمل مارشال Principles، رغم أنه لم يستفد بشكل صريح من مفهوم دالة الإنتاج، نظرية إنتاجية حدية للمنشأة وللتنويع، مكتملة جدا ومصاغة بدقة. كما نجد أيضا مؤشرات كثيرة على أنه أبصر مشاكل أخرى أبعد^(٤٣٦). وإذا فهمنا معالجته للموضوع بصورة كلية، حتى بالشكل الذى

(٤٣٥) يتعين أن نشير إلى مساهمتين أخريين يبدو أنه لم تتم الإشارة إليهما تقريبا لسبب نمطى جدا فى الظروف القائمة فى حقنا - طابعهما المختصر: فى مقالته 'Pure theory of Distribution' التى قرأت أمام القسم F من الجمعية الإنجليزية لتقدم العلم، ونشرت فى تقرير الجمعية، Report 1890، قدم أ. بيرى A. Berry 'معادلات الإنتاجية الحدية' التى سوت equated أسعار الخدمات الإنتاجية بالإنتاجيات المادية الحدية مضروبة فى أسعار المنتجات. وقد فعل إديجورث المثل عام ١٨٨٩ ومن ثم عام ١٨٩٤ مرة أخرى (انظر 111, 54 and 11, p. 298 Papers). ويستعمل كلاهما دوال الإنتاج بشكل صريح ويقدمان المساواة المشار إليها كعناصر من نظام توازنى شامل. ولم ينل الاثنان فضلا كبيرا لما يجب تسجيله كإنجاز كبير. وعلى أى حال، فقد أشار البروفيسور ستغلر Stigler إلى كليهما (322 and 132 pp. Production and Distribution Theories). ونظرا لصلتهما القوية بمارشال، وبكل الاقتصاديين الآخرين فى ذلك الحقل، وبخاصة بالنسبة لإديجورث، فليس ثمة أمل من محاولة تقييم 'الحقوق' الفردية. ولكن مساهمتها تساعدنا على إدراك سعة الموجة التى يقف عمل مارشال فى قمته.

(٤٣٦) أوضح جيدا البروفيسور ستغلر (المصدر السابق، الفصل الثانى عشر) كيف أن مارشال، وهو يشق طريقه ببطء عبر العوائق التقليدية، خلص أخيرا إلى القبول بكل جهاز الإنتاجية الحدية. ومع ذلك، فإذا كان مارشال سيمتنع دائما عن التسليم بالمدى الكامل لما أنجزه فعلا من ذلك، فهذا يمكن تفسيره، فى نظري، بصورة مرضية بما يلى: (١) نفور مارشال من وضعه إلى جانب الاقتصاديين غير الإنجليز ممن أنجزوا الشئ نفسه؛ (٢) بغضه المشروع لعزو دور 'سببى' إلى المعاملات الجزئية لدالة الإنتاج؛ (٣) وعيه للصعوبات المفهومية التى أشير إلى قسم منها آنفا.

أخذته في الطبعة الأولى من Principles، فلا يسعنا أن لا نستغرب نوعاً ما من العبارات الواردة في بداية عمل فيكستد: Essay، أى، 'عند درس قوانين التوزيع، كان من المعتاد أخذ كل عامل من عوامل الإنتاج المهمة... لدرس... الطبيعة الخاصة للخدمة التي يقدمها هذا العامل و... استنباط قانون خاص ينظم حصته [العامل] في السلعة' ولتوحيد هذه القوانين على أساس 'الطبيعة العامة للخدمة المقدمة' (٤٣٧). ولكن فيكستد، بإسقاطه ترددات وتحفظات مارشال المشروعة وبقيامه بكتابة دالة الإنتاج بشكل صريح، قد طرح بشكل واضح المنطق المجرد للموضوع وحاول أيضاً إثبات الفرضيتين القائلتين إن الحصة التوزيعية لكل 'عامل'، في ظل الظروف المثلى، تميل للتساوى مع كميته مضروبة بدرجة الحدية من الإنتاجية؛ وإن هذه الحصص تميل لأن تساوى (لأن 'تستنفد' to exhaust) الناتج الصافي لكل منشأة، و'الدخل الوطني' national dividend المارشالي على مستوى المجاميع الاجتماعية - علماً بأن مارشال كان قد شدد على كلتا هاتين الفرضيتين ولكن دون يقوم بإثباتهما. وهنا، فإن كلتا الفرضيتين فرضية توازنية ولا ينبغي أن تسريا خارج نقطة التوازن، مفترضين وجود هذه النقطة. كان مارشال يعي هذا طبعاً ولكن صياغة الأمر بشكل صريح تركت إلى فيكسل (٤٣٨). ومع ذلك، فقد أسس فيكستد برهانه على المسلمة الضرورية، ولكن غير الكافية، التي تذهب إلى أن دالة الإنتاج هي متجانسة من الدرجة الأولى - وهي حالة يمكن أن تسرى

P. H. Wicksteed, An Essay on the Co-ordination of the Laws of Distribution (1894), p. (٤٣٧) 7. وإذا لم تتصف تلك العبارات مارشال إلا نادراً، فأنها غير عادلة بالنسبة لفالراس وحتى بالنسبة إلى ج. ب. ساي بصورة مثيرة. وعليه، فإن الغضب الذي أبداه فالراس في عمله: 'Note sur la refutation de la Theorie anglaise du fermage [rent of land] de M. Wicksteed' (المنشور في: Recueil publie par la Faculte de Droit de l'Universite de Lausanne, 1896، وقد أعيد نشره بوصفه الملحق الثالث للطبعة الثالثة من عمله Elements، ولكنه أهمل في الطبعة الرابعة التي تضمنت، رغم ذلك، الدرس الجديد رقم ٣٢٦ حول الإنتاجية الحدية) غير مبرر بدرجة أقل مما أعلنه البروفيسور ستغلر. وعلاوة على ذلك، فمن باب سوء الفهم الذهاب إلى أن فالراس ادعى الأسبقية الشخصية في نظرية الإنتاجية الحدية كما عرفها هو نفسه. وإلى هذا الحد، فإن الملاحظة الواردة في ص ٣٧٦ من عمله Elements هي ملاحظة حاسمة.

(٤٣٨) انظر عمله: Lectures 1, p. 129. إن عرض البروفيسور ستغلر لمساهمة فيكسل في حل نظرية الإنتاجية الحدية 'الحديثة' - أسميتها 'حديثة' لتمييزها عن نظرية كل من لونفيلد longfield وتونن Thunen - هو عرض مهم جداً لأنه يبين صعوبة، حتى بالنسبة للعقول الثاقبة، فهم وتقدير أفكار جديدة نسبياً كانت قد تجلت بالفعل في ضوء ساطع. وكان يمكن لفيكسل أن يعلم كل أو تقريباً كل ما يمكن تعلمه من مارشال والنمساويين. ولكن الأمر أخذ منه عقداً آخر، بعد ما أشار هو نفسه إلى النظرية عام ١٨٩٣، للتوصل إلى وجهة نظره النهائية حول القضية (انظر ستغلر، ص ٣٧٣) بمساعدة البروفيسور د. دافيدسون جرنياً D. Davidson، كما يبين ذلك امتثانه له.

فيها 'موضوعة الاستنفاد' على نحو متطابق، أى على طول الخط كله وليس فى نقطة التوازن فقط^(٤٣٩). لقد تراجع فيكستد حقاً فى ما بعد (انظر: Common Sense of Political Economy, p. 373 n) ولكن دون تحقيق التغييرات التى كان سيتطلبها هذا التراجع. وقبل أن نستمر، فمن الأفضل أن نرى ماذا حدث فى لوزان فى نفس الوقت تقريباً.

تذكر أن فالراس استعمل أصلاً ما يمكن تسميته دالة إنتاج متفرعة degenerate، أى دالة إنتاج مقيدة بمعاملات ثابتة ومقررة تكنولوجياً. وفى العام ١٨٩٤، اقترح عليه بارون فكرة تحويل هذه الثوابت التكنولوجية إلى متغيرات اقتصادية وفكرة إدخال، لتحديد هذه المتغيرات، علاقة جديدة، ال equation de fabrication {معادلة الإنتاج}، قصد بها التعبير عن حقيقة أنه إذا انخفضت بعض المعاملات، فإن الإنتاج يمكن المحافظة عليه بزيادة تعويضية ملائمة من العوامل الأخرى: إن 'المجاهيل' الجديدة، أى المعاملات المتغيرة الجديدة، ينبغى عندئذ تحديدها بواسطة الشرط القائل إن التكاليف تقل إلى الحد الأدنى بالنسبة لأى ناتج معطى وأى أسعار معطاة للعوامل. وقد باشر بارون نفسه العمل على هذه الخطوط

(٤٣٩) إن الدالة التى تضم اثنين أو أكثر من المتغيرات المستقلة تسمى دالة متجانسة من الدرجة الأولى أو 'خطية ومباشرة' فى كل أو قسم من هذه المتغيرات حينما يزداد المتغير التابع أو ينخفض بنفس النسبة وذلك عندما تزداد أو تنخفض تلك المتغيرات بنسبة عامة معينة - كما هو الحال مثلاً عندما يتم مضاعفتها بالثابت λ . لنرمز إلى الناتج بـ x كالسابق، رغم أن x هذه الآن، إذ تشير إلى الناتج الوطنى الكلى، من شأنها أن تثير مشاكل دقيقة جداً تتعلق بالرقم القياسى، ولنرمز إلى كميات العوامل النادرة المستعملة فى إنتاج x بـ (v_1, v_2, \dots, v_n) . وعندئذ، يقال بأن دالة الإنتاج، $x = f(v_1, v_2, \dots, v_n)$ هى متجانسة من الدرجة الأولى إذا كانت λx تساوى $\lambda v_1, \lambda v_2, \dots, \lambda v_n$ بالنسبة لأى نقطة (v_1, v_2, \dots, v_n) وبالنسبة لأى λ . وفى هذه الحالة الخاصة، فإن العلاقة

تسرى على كل الفترة interval التى توجد فيها دالة x . وهذه هى موضوعة يولر حول الدوال المتجانسة أو بالأحرى حالة خاصة من موضوعة يولر. وبمطابقة الـ s بالدرجات الحدية من الإنتاجية المادية للعوامل المختلفة نجد أن حصصها تستنفد الناتج الاجتماعى على كل تلك الفترة interval، ومهما كانت كمية الناتج، مع أن كل ما يمكننا التأكيد عليه فى حالات غير خطية ومتجانسة هو أنها تفعل هذا فى نقطة التوازن. وحينما نترجم هذا إلى لغة الاقتصاد، فإن التجانس من الدرجة الأولى يعنى عدم وجود وفورات حجم economies of scale أو تناقص فى الناتج بسبب الحجم diseconomies of scale أو إن الإنتاج الكبير والإنتاج الصغير على درجة واحدة من الكفاءة، أو إن هناك 'غلة ثابتة بالنسبة للحجم'. وبذاته، فهذا لا يعنى طبعاً أى شئ بشأن ما يحدث حينما يزداد أحد هذه 'العوامل' فقط بينما تبقى العوامل الأخرى على حالها، أى بشأن شكل منحنى الإنتاجية الحدية لكل واحد من 'العوامل'. لاحظ أنه ما دامت λ اعتباطية، فمن الممكن أن نجعلها تساوى مقلوب أى من الخدمات الإنتاجية، v_i^{-1} ، أى تساوى. وعندئذ فإن دالة الإنتاج تبدو هكذا: أى إن الإنتاجيات المتوسطة لكل 'العوامل' هى دوال للنسب، وليس للمبالغ المطلقة، التى تستعمل بها هذه العوامل.

ونشر حلقتين من نظرية مماثلة للتوزيع: 'Studi sulla distribuione: la prima approssimazione sintetica' in *Giornale degli Economisti*, February and March 1896^(٤٠) دون أن يستمر في ذلك - وهو أمر ستعرف أسبابه حالاً. كان فالراس قد ألقى من قبل نظرة سريعة على إمكانية تغيير معاملات الإنتاج وذلك بالارتباط مع نظريته، للتقدم الاقتصادي الذي عرفه (عند مواجهته 'بالتقدم التكنولوجي') بأنه إحلال متواصل لخدمات السلع الرأسمالية محل خدمات 'الأرض'. وعندئذ أعاد فالراس طرح مقترح بارون في عمله 'Note' الصادر عام ١٨٩٦ (المذكور آنفاً) وفي الدرس الجديد رقم ٣٢٦ من الطبعة الرابعة من عمله *Elements*. وقد صاغ فالراس هناك 'نظرية الإنتاجية الحدية' في فرضيات ثلاثة: حُذفت الثالثة منها، دون تنبيه أو تفسير، من العمل: (1926: *edition definitive*): (١) إن المنافسة تحقق أقل متوسط تكاليف؛ (٢) عند التوازن وإذا كان متوسط التكاليف يساوى السعر، فإن أسعار الخدمات الإنتاجية تتناسب مع المشتقات الجزئية لأى دالة إنتاج [تتضمن فقط الخدمات القابلة للإحلال (أى التعويضية)] أو مع الإنتاجيات الحدية؛ (٣) تتوزع كل كمية الناتج بين الخدمات الإنتاجية^(٤١). وفى العام ١٨٩٧، انتقد بارييتو (Cours 11, §§ 714-19) نظرية الإنتاجية الحدية - بشكل رئيسى على أساس أنها تنهار فى حالة ما يسمى الآن بالعوامل المقيدة *limitational factors* - ورسمَ نظرية غطت كل الإمكانيات المهمة والتي تطورت من حيث تقنياتها فى عمله *Manuel*. ولكنه نظرَ إلى هذا ليس كتطوير - وبشكل خاص ليس كتطوير وفقاً لخطوط فالراس - بل كتخلٍ عن نظرية الإنتاجية الحدية التى أعلن

(٤٠) See Stigler, op. cit. pp. 357 et seq.

(٤١) فى الفرضية الثانية، كتبت الحرف 'و' مانلاً وأدخلتُ الشرط القائل بأن العوامل القابلة للإحلال فقط *substitutional factors* هى المعنية لأن هذا كان هو قصد فالراس بشكل واضح كما تبين هذا الأمر جملة سابقة على نفس الصفحة (٣٧٥) حيث يميز فالراس بشكل صريح وجود العوامل الأخرى غير القابلة للإحلال. وأرى أن كلا العبارتين لا تفعلاّن سوى التشديد على المعنى الحقيقى لدى فالراس. ولكننى لا أستطيع تفسير لماذا أن فالراس، عند استبدال عبارته الأصلية غير المبالية *careless* (والخالية من المعنى) القائلة إن معدل مكافأة كل خدمة 'يساوى' المشتقة الجزئية لدالة الإنتاج بالعبارة القائلة إن ذلك المعدل يتناسب مع تلك المشتقة، لم يذكر ما هو عامل التناسب، أى سعر السلعة فى ظل التوازن التام عند المنافسة البحتة. كما أننى غير قادر أيضاً على تفسير لماذا، إذ نرى أن فالراس كان قد فرضَ الشرط القائل إن الإيرادات الكلية تتساوى مع التكاليف الكلية، فإنه أسقط موضوعاً الاستغناء *exhaustion theorem* التى تترتب على هذا الشرط. لاحظ أنه ما دامت المنشآت تحاول دائماً تقليل تكاليفها الكلية مهما كان مستوى نواتجها، فإن الفرضيتين الأولى والثانية تسريان أيضاً على نواتج أخرى غير الناتج التوازنى للمنافسة البحتة. وعندئذ، فإن عامل التناسب لم يعد هو سعر السلعة ولكنه ما يزال التكلفة الحدية.

أنها نظرية 'خاطئة' في عمله Resume الخاص بسيرته في باريس (١٩٠١). لقد كان من الضروري طرح هذه التفاصيل أمام القارئ لأنها تقيد في توضيح الوضع في أواخر تسعينيات القرن التاسع عشر^(٤٤٢).

إذن، فإن دالة الإنتاج قد فرضت نفسها على أعتاب عام ١٩٠٠، كنتاج لجهود كثيرة^(٤٤٣)، من حيث وضعيتها الأساسية بجانب دالة المنفعة بوصفها ثنائية الدالتين الوصفيتين اللتين أسميتهما دعامتى النظرية الكلاسيكية في ذلك الوقت^(٤٤٤). كما تتوافر لدينا 'قوانين الغلة' القديمة، بعد تعميمها وتشذيبها بصورة صحيحة، لتقديم الخصائص التي كان يجب أن تتمتع بها دالة الإنتاج أما عمومًا أو 'عادة' والتي سنعيد صياغتها الآن. إذا شئنا تعريف الإنتاجية الحديثة لخدمة معينة بوصفها المشتقة الجزئية لدالة الإنتاج بالنسبة لكمية تلك الخدمة، فينبغي علينا أن نفترض أولاً، كما سبق الإشارة إلى هذا، إن هذه المشتقات الجزئية لها وجود. كما نستطيع أيضاً أن نفترض أنها موجبة، أى أن زيادة صغيرة فى كمية أى من الخدمات تؤدي إلى زيادة كمية الناتج^(٤٤٥). وبإتباع تورغو، يمكننا كذلك أن نفترض

(٤٤٢) يجد القارئ تفاصيل أخرى فى عمل ستغلر (وبخاصة فى ص ٣٢٣ وما بعدها) وفى عمل ه. شولتز H. Schultz: 'Marginal Productivity and the General Pricing Process,' Journal of Political Economy, October 1929. وتتضمن هذه المقالة الكثير من المعلومات المفيدة وتمثل، بشكل خاص، أبسط عرض بالإنجليزية لنظرية باريتو للإنتاج. بيد أن المقالة، لسوء الحظ، مضللة ليس فقط فى النقاط الفردية بل أيضاً فى الانطباع العام الذى تعطيه. ومن هذه الناحية، فإن قراءة عمل هيكس: 'Marginal Productivity and the Principle of Variation,' Economica, February 1932 والمناظرة اللاحقة بين هيكس وشولتز (ibid. August 1932) من شأنها أن تهيئ تريقاً ما.

(٤٤٣) من الصعب جداً أن نسمى كتاباً آخرين أكثر مما فعلنا آنفاً. فأسماء بيرى Berry، إيدجورث، مارشال، بارون Barone، فالراس وفيكستد Wicksteed ترد كلها، بشكل أو بآخر، حينما نناقش هذه الحالة الصعبة من السبق. وتذكر أننا نناقش الآن مولد نظرية دالة الإنتاج ذاتها وليس أفكار الإنتاجية الحديثة الأقدم أو الأحداث التى أشارت، بهذه الدرجة أو تلك من الوضوح، إلى الدالة منذ قرن من الزمان أو أكثر. فمعادلة الإنتاج equation de fabrication لدى فالراس-بارون ليست سوى شكل خاص من دالة الإنتاج، طبعاً.

(٤٤٤) انظر إلى الجملة الأولى فى هذا القسم. ولا أقصد، من استعمال هذا التشبيه، أن أنكر أن هناك، من بعض الزوايا وبخاصة الزاوية النمساوية، معنى من الاعتراض على النظر إلى دالتى الإنتاج والمنفعة كدالتين متكافئتين تماماً من ناحية المنزلة التحليلية، وأن هناك شيئاً ما يمكن قوله لصالح اعتبار المنفعة الدعامة الوحيدة، والوحيدة فقط، للبناء.

(٤٤٥) بطبيعة الحال، لا يكون الأمر كذلك بالضرورة بعد 'فترة معينة' operative interval: فإذا كان هناك أصلاً عدد كبير من العمال يستعملون تجهيزات معينة، فإن تشغيل عمال إضافيين من شأنه تخفيض الناتج. فتشغيل أى عامل يكون على حساب تجهيزات عامل آخر. ولا يوجد أى اختلاف حقيقى سواء أن عبرنا عن هذه الإمكانية بالقول إن الإنتاجية الحديثة، بعد نقطة محددة، تصبح=

$$\frac{\delta f}{\delta v}$$

إن معدل الزيادة هذا نفسه يزداد في البداية ($\frac{\delta f}{\delta v} > 0$)، ويمر بنقطة قصوى بعد ذلك، ومن ثم، بعد بلوغ تلك النقطة، يواصل المعدل انخفاضه ($\frac{\delta f}{\delta v} < 0$)؛ قانون تناقص الغلة بالمعنى الأولي). وفي هذه الحالة، ترد نتيجتان طبيعيتان: (١) ثمة نقطة معينة تنخفض أيضًا بعدها الإنتاجية المتوسطة لكل خدمة (x / v_i) (قانون تناقص الغلة بالمعنى الثانوي)؛ (٢) إن مشتقات التقاطع cross derivatives تكون موجبة مما يعنى أنه إذا قمتُ أنا بزيادة كمية خدمة إنتاجية معينة v_i بمقدار صغير، فهذا لن يخفض (بعد النقطة المذكورة) إنتاجيتها الحدية فقط بل يزيد أيضًا الإنتاجيات الحدية لكل الخدمات الإنتاجية الأخرى ($\frac{\delta f}{\delta v} > 0$).

ثمة ملاحظة منهجية من المفيد إدخالها هنا. فمن ضمن الخصائص التي يمكن أن تُنسب إلى دالة الإنتاج، هناك خصائص تنتج عن خصائص أخرى وبالتالي يمكن إثباتها عن طريق الاستنتاج أو أن 'تصاغ كموضوعات'. وهكذا، فإن انخفاض الإنتاجية المتوسطة (بعد نقطة معينة) يمكن استنتاجها من، أو إثباتها ب، انخفاض الإنتاجية الحدية بحيث لا تبقى عندئذ حاجة ما لأى برهان وقائعى أو تجريبي منفصل. وعليه، فقد كان فيكسل (انظر مقالته فى: Thunen Archiv, 1909) على حق فى الاعتقاد ب، وكان ف. ووترستراتد (ibid) F. Waterstradt على خطأ فى إنكار، أن 'قانون' تناقص الغلة المتوسطة ينتج عن خصائص أخرى لدالة الإنتاج نقوم نحن بافتراضها عادة. ولكن رغم أننا نتمتع بحرية الاختيار فى أن نقرر أى فرضيات نحب أن نأخذها كفرضيات وأى فرضيات نحب أن نصوغ كموضوعات، فإن الأمر ليس كذلك دائماً. وهكذا فليست هناك أى قاعدة من شأنها أن تتضمن الفرضية القائلة إن الإنتاجية المادية الحدية (بعد نقطة معينة) تتناقص بصورة ثابتة monotonically. وفى جميع الأحوال، يتعين علينا على الدوام أن نسلم ببعض الفرضيات التى يتعذر تقديم برهان منطقي لها ضمن قسم استنتاجي معين من علمنا (وكل علم). شكلياً، تدخل هذه الفرضيات كفرضيات (أو كتعريفات، بمفهوم ب. رسل B. Russell) يمكن أن نصوغها حينما نشاء من حيث المبدأ. ولكن حينما نسأل، لغرض التطبيق، عما إذا كانت هذه الفرضيات 'حقيقية' أو 'شرعية'، أى عما إذا كانت النتائج التى نحصل عليها بواسطتها يمكن أن نتوقع

=سالية أو بالقول أنه ما دام أى صاحب عمل لن يقوم، إذا كان حرًا ويتصرف وفقًا لقواعد المنطق الاقتصادى، بإضافة زيادات من أى خدمة تؤدي إلى تخفيض الناتج، فإن الناتج الحدى لا يمكن أن ينخفض إلى ما دون الصفر. ويُفضل البديل الأول لبعض الأغراض المحددة.

أن تكون قابلة للتدقيق (بصورة عامة أو بالنسبة لظواهر معينة أو جوانب من ظواهر معينة)، فعندئذ ثمة اثنتان من الإمكانيات فقط: يمكن إثبات النتائج عن طريق الاستنتاج وفقاً لنظام ما أوسع يتجاوز علم الاقتصاد أو قسمه الاستنتاجي، أو ينبغي إثباتها عن طريق المشاهدة أو التجربة. وهذه هي حالة الفرضية التي تشدد على انخفاض (بعد نقطة معينة) الإنتاجيات الحدية للخدمات الإنتاجية كدالة لكميات هذه الخدمات. وهذا يعني أنه حينما نشدد على هذه الفرضية، فإننا نشدد على واقعة معينة مما يفرض علينا مهمة التدقيق الوقائي. وبطبيعة الحال، قد تكون الأدلة على هكذا فرضية قوية جداً إلى حد أننا قد نرفض التحدى كشيء مغيض. ولكن نظراً لعدم وجود قاعدة ملزمة لتقرير ما هو مغيض وما هو غير ذلك، فيجب أن نستعد لمواجهة التحدى من حيث المبدأ: إذ ليس من حقنا منطقياً أن نجيب بالقول إن الفرضية التي تواجه التحدى هي فرضية 'واضحة' obvious؛ وأننا نرتكب خطأ مؤكداً إذا أسميناها 'بيّنة' evident. وبالنسبة لنا، فإن هذه الحقائق مهمة لأنها كثيراً ما تنتهك، سابقاً وحاضراً، في مجال 'قوانين الغلة': وسنرى بعد قليل أن المناقشة حول فرضية التجانس من الدرجة الأولى تقدم مثلاً ممتعاً حول هذا. ولنلاحظ بشكل عابر أننا نمس الآن مساً خفيفاً مشكلة مهمة من نظرية المعرفة العامة.

وأنتهز هذه الفرصة للإشارة إلى تحليل إديجورث 'لقوانين الغلة' (المنشور أصلاً فى: Economic Journal, 1911 ; republished in Papers Relating to Political Economy, vol. 1, pp. 151 et seq. الذى تم اعتباره بحق كأحد أهم مساهماته فى النظرية الاقتصادية من قبل البروفيسور ستغلر Stigler (المصدر السابق، ص ١١٢ وما بعدها، والذى أحيل القارئ إليه). ومن المهم أن نلاحظ أنه ما يزال يتعين على إديجورث أن يسعى لإدراك مسائل أولية تماماً من قبيل أن 'قانون' تناقص الغلة لا يسرى على الأرض فقط، مثلما أن من المهم أن نلاحظ إن إديجورث، الذى تتمثل مآثرته الرئيسية فى تعليم الفرق بين تناقص الغلة الحدية والغلة المتوسطة، كان هو نفسه قد خلط غير مرة بين الاثنين وأن ما طرحه، فى المقالة المعنية، غير صحيح فى كل تفاصيله. وقد تم تناول هذا الموضوع مرة أخرى من قبل كارل منجر (الرياضى، وابن الاقتصادى) فى عمله: 'Bemerkungen zu den Ertragsgesetzen' (وهو عبارة عن مقالتين نشرتا فى: Zeitschrift für Nationalökonomie, March and August 1936 انظر كذلك تعليق

شلسنغر، نفس المصدر السابق). ويجب أن نشعر بالامتنان لهذا الرياضي البارز لما كشفه لنا من درس حول التفكير غير المتقن والذي يصلح كمثال ساطع على الاتجاه العام نحو الدقة المتزايدة، الذي هو صفة مهمة لعلم الاقتصاد في وقتنا الحاضر. ولكن من حيث النتيجة، فإن الأخطاء المنطقية التي كشفت - باستثناء الخلط بين تناقص الغلة الحديدية والمتوسطة - يندر أن أدت إلى نتائج خاطئة جدًّا. وحتى بشأن ذلك الخلط، فرغم أن من المستغرب أن يرتكبه مفكر بمنزلة بوهم - باورك، ولكن تتبغى ملاحظة أن الخلط لم يترتب عليه أى ضرر فى حالته ذلك لأنه كان يحتاج بصورة صحيحة حول تناقص الغلة الحديدية من عمليته غير المباشرة.

لن يجد القارئ أى صعوبة فى أن يفهم لماذا أن خصائص دالة الإنتاج - أى استعمال دالة إنتاج معينة تشكل العلاقة الوحيدة بين الخدمات الإنتاجية المستخدمة والتي يفترض أنها كلها خدمات 'قابلة للإحلال' substitutional - هى التى فرضت نفسها على المنظرين، وبخاصة لأغراض التدريس ووضع المراجع المدرسية. إذ إن من السهل معالجة مثل هذه الدالة واستخلاص نتائج بسيطة. وعلاوة على ذلك، فإن دالة الإنتاج لا تلتقط، من بين الكثرة الكثيرة من الوقائع التكنولوجية المعنية، سوى تلك الوقائع التى تخضع للاختيار الاقتصادى وبالتالي فهى تصلح جيدًا لإظهار المنطق الاقتصادى للإنتاج. ليس ثمة داع لتكرار القول إن دالة الإنتاج هذه لا تسرى إلا على مستوى عالٍ من التجريد، وهى تخص تجهيزات مخططة planned plants وليس تجهيزات قائمة، وتسرى على منطقة محددة من حيز الإنتاج علاوة على ذلك. ولكن عند ذلك المستوى وبالنسبة لذلك المدى، فإنها لميزة، وليس عيبًا، أن الدالة تستبعد كل الحالات التى يعاق فيها المنطق الاقتصادى من قبل قيود إضافية ذات طبيعة تكنولوجية بحتة. ومع ذلك، فهذه القيود الإضافية موجودة حتى فى مرحلة التخطيط لمنشأة ما؛ وإن كثيرًا منها يفرض قيودًا على الأجل البعيد وقيودًا أكثر على التكاليف قصيرة الأجل للتجهيزات القائمة؛ وكلما اقتربنا من الأنماط الفعلية لحياة الأعمال، فإننا نفقد أكثر وأكثر رؤية ذلك المنطق البحت، وبخاصة لأن القيود تمنع حتى الخدمات القابلة فورًا للتكيف - كالعمل الذى يمكن أن يُستأجر لأسبوع أو يوم أو ساعة - وأسعار هذه الخدمات من التصرف وفقًا لقواعد الإنتاجية الحديدية، وذلك حتى بمعزل عن أن حقيقتى التوازن التام والمنافسة البحتة

لا يجرى إدراكهما بصورة تامة قط. والقارئ سيفهم أيضاً أن بعض الاقتصاديين سوف يعبرون عن هذا الوضع بالقول: 'إن نظرية الإنتاجية الحدية تسرى سريانا عاماً على مستوى عالٍ من التجريد'، بينما سيفضل اقتصاديون آخرون أن يقولوا: 'إن نظرية الإنتاجية الحدية خاطئة'. وباستثناء الحالات الكثيرة، المؤسفة، من الفشل بفهم معنى النظرية، فهذه هي كل حصيلة السجال حول جانب الإنتاج من 'المبدأ الحدى'، الذى امتد حتى يومنا هذا^(٤٤٦). وبشكل خاص، فإن كل ما يمكن أن يكون باريتو قد قصده بتخليه عن نظرية الإنتاجية الحدية هو أننا لا نستطيع الاكتفاء بمعالجة حالة الخدمات القابلة للإحلال - حالة علاقة الإحلال الوحيدة - أكثر مما نستطيع الاكتفاء بدراسة حالة المعاملات الثابتة، بل ينبغي علينا أخذهما معاً بنظر الاعتبار، وكذلك مراعاة حالات أخرى تتغير فيها معاملات الإنتاج عند تغير الكمية المنتجة^(٤٤٧) وهذا ببساطة يضاهى القول إن المخطط التحليلي الأساسى الذى

(٤٤٦) لتجسيد هذه العبارة، يمكن تقديم أمثلة توضيحية من السجال بين البروفيسور ر. أ. لستر R. A. Lester: 'Shortcomings of Marginal analysis for Wage-Employment Problems' (American Economic Review, March 1946) والبروفيسور ف. مجلوب F. Machlup: 'Marginal Analysis and Empirical Research' (ibid. September 1946) و غ. ج. ستغلر: Professor Lester and the Marginalists (نفس المصدر السابق، آذار ١٩٤٧، حيث يجد القارئ أيضاً رد لستر على مجلوب ورد الأخير). وفى هذا السياق، لابد أيضاً من تنبيه القارئ إلى ما يلى: عند تقييم وجهة نظر كاتب ما بنظرية الإنتاجية الحدية، فمن الضرورى التأكد مما يقصده هذا الكاتب بهذا المصطلح: فباريتو وستغلر، مثلاً، لا يقصدان فى بعض المواضع، كما يبدو، سوى تلك النظريات التى تفترض كل 'العوامل' التى تربطها علاقة واحدة فقط، العلاقة المعبرة عن مقولات الإحلال الشامل universal substitutability Statements، والتى يمكن أن تصح بالنسبة إلى هذه الإنتاجية الحدية، والتى قد لا تصح على نظريات إنتاجية حدية تعترف بعلاقات أخرى أيضاً بين العوامل. والمعنى الأخير هو الذى يتبناه هذا الكتاب. فمثلاً، إن نظرية فالراس الأصلية التى استعملت معاملات إنتاج ثابتة ولم تسلم بأى إحلال باستثناء إحلال إنتاج سلعة معينة محل إنتاج سلعة أخرى وكذلك نظرية فيزر التى فعلت المثل هما نظريتان للإنتاجية الحدية بالنسبة لنا رغم ذلك. ومن المهم أن نتذكر ما يلى: إن الظرف المتمثل فى أن نظرية ما تتضمن شروطاً حدية boundary conditions تمنع بعض العوامل من تحقيق الكسب عند معدل الإنتاجية المادية الحدية مضروبة أما بأسعار المنتج أو بالإيراد الحدى لا يمنعنا من تسمية هذه النظرية نظرية إنتاجية حدية.

(٤٤٧) لقد قاده هذا إلى تعريف معاملات الإنتاج بطريقة جديدة لا تغيد إلا إذا شئنا الاحتفاظ بهذه المعاملات رغم تخلصنا من فرضية ثباتها. لقد عبر باريتو عن الكميات المستخدمة من الخدمات الإنتاجية كدوال للكميات المنتجة. وعليه، فإن معاملات الإنتاج لديه هي المشتقات الجزئية لهذه الدوال من بالنسبة للخدمات المختلفة (Manuel, p. 607). ثمة فكرة مماثلة كان قد استخدمها و. ي. جونسون (The Pure Theory Of Utility Curves, 'Economic Journal', December 1913)، وعممها من بعض النواحي أ. و. زوتوف (Notes on the Mathematical Theory of Production, ibid, March 1923) - وهى مساهمة لأمعة يهيىء إهمالها مادة لمحاضرة وعظية أخرى عن الطريقة التى يعمل بها الاقتصاديون). هذا ولم يسلم أى كاتب بفضل باريتو.

يستعمل علاقة الإحلال فقط بحاجة لعلاقة أخرى تكمله إذا شئنا الاقتراب أكثر من الواقع^(٤٤٨)، ولكن هذا المخطط يبقى صحيحاً ضمن حقله الدقيق.

[ج) فرضية التجانس من الدرجة الأولى] إذا قمنا، اهتداء بفيكسند، بتزويد دالة الإنتاج بفرضية التجانس من الدرجة الأولى، أى إذا فرضنا عدم وجود وفورات حجم economies of scale أو عدم وجود عوائق يخلقها الحجم لكفاءة المشروع diseconomies of scale، فإننا نضمن الحصول على تبسيطات أخرى تفسر تمسك كتاب كثيرين بهذه الفرضية^(٤٤٩)، رغم التسليم العام فى وقتنا الحاضر بأننا لسنا بحاجة لهذه الفرضية لإثبات أن التوزيع وفقاً لقواعد الإنتاجية الحدية يستند المنتج بالضبط. ومرة أخرى، يتعين على أن أتطرق إلى مناقشة^(٤٥٠) طويلة، غير حاسمة، وصارمة على نحو غير ضرورى، لا تكاد تستحق أكثر من التعليقات التالية:

(٤٤٨) حينما نحاول أن نفعل ذلك، نكتشف طبعاً إن المدى الذى يمكن فى إطاره إحلال 'العوامل' محل بعضها بعضاً يتقلص بسرعة كلما جعلنا العوامل متخصصة أكثر فأكثر specific. فإن قابلية الإحلال تسرى بشكل تام تقريباً فى المخطط الثلاثى لخدمات الأرض والعمل ورأس المال، الذى قدسه الزمن. وحينما يتعلق الأمر بتتوب دوغلاس (*) شجر من الفصيلة الصنوبرية)، وأطباء الأسنان، وأدوات القطع، فإن قابلية الإحلال تختفى تقريباً فى الأجل القصير. وهذا يعنى ببساطة أنه ينبغي علينا أن نحدد فى كل حالة نوع العوامل الإنتاجية، والفترات، والمشاكل التى نحملها فى أذهاننا، وأنه لا داع للزراع سواء حول الإنتاجية الحدية أو حول 'الطريقة' عموماً. فهذا النزاع يبدو خلواً من القيمة تقريباً، ومع ذلك، فالحقيقة هى أن هذا الموضوع قد ظل مصدرًا للجدال حتى يومنا هذا - لجدال بقى حياً ومنغصاً، جزئياً على الأقل، ذلك لأن كلا الطرفين تصورا، عن خطأ، إن النزاع تكمن خلفه مصلحة سياسية ما.

(٤٤٩) لكى يقتنع بهذا، فإن القارئ لا يحتاج إلا إلى ملاحظة تكرر ورود تلك الفرضية (ودون ضرورة ما أحيانا) فى معالجة البروفيسور آلن Allen لمشاكل الإنتاج (انظر عمله: Mathematical Analysis for Economists, passim). ويشكل عمل هيكس: 'Distribution and Economics Progress', Review of Economic Studies, October 1936 مثالاً آخر أكثر دلالة. هذا وتشير إحدى تلك التبسيطات الأكثر أهمية إلى معامل مرونة الإحلال.

(٤٥٠) نتعذر متابعة هذه المناقشة بالتفصيل، وليس من شأنها أن تغيد فى شئ ما. وعليه، سوف أشير هنا، إضافة إلى فيكسند وناقده الأقدم والأكثر صرامة: إديجورث، إلى بضع مساهمات معاصرة فقط: F. H. Knight, Risk, Uncertainty and Profit (1921) ; N. Kaldor, 'The Equilibrium of the Firm', Economic Journal March 1934 ; A. P. Lerner, Economics of Control (1944), pp. 143, 165-7 ; G. J. Stigler, Theory of Price (1946), p. 202n - وكل هذه المراجع تشير إلى فرضية التجانس من الدرجة الأولى. ومن وقف بقوة على الجانب الآخر من السباق: P. A. Samuelson, Foundations, p. 84 ; and E. H. Chamberlin, 'Proportionality, Divisibility, and Economies of Scale,' Quarterly Journal of Economics, February 1948. انظر المصدر الأخير، شباط ١٩٤٩، للحصول على اثنين من الانتقادات ورد تشامبرلين.

أولاً، إن مَنْ يشدد على فرضية التجانس من الدرجة الأولى لدالة الإنتاج إنما يؤكد واقعاً معيناً، بشكل افتراضى على الأقل. ونظراً إلى أن هذا الواقع لا تتضمنه أى من الصفات الأخرى التى سبق أن اتفقنا، على العموم، أو عادةً، أو لأغراض محددة، أن ننسبها إلى دالة الإنتاج، فلا يمكن إثبات أو إنكار هذه الفرضية إلا من خلال أدلة وقائية، هذا إن أمكن ذلك أصلاً^(٤٥١). إن نقد إديجورث المبكر لاستعمال فيكسند لفرضية التجانس من الدرجة الأولى يشوّهه حقاً تهكمه المصطنع. ولكن هذا النقد كان يتميز، على الأقل، بإدراكه الصحيح أن الوقائع، وليس التأمّلات، هى المطلوبة حقاً لتفنيذ هذه الفرضية: وهذا يفسر لماذا كان إديجورث يفتش عن الأمثلة المتناقضة. بيد إن الغالبية العظمى من المشاركين فى المناقشة حاولوا، حتى هذا اليوم، 'إثبات' أو 'دحض' الفرضية من خلال الاستدلال المنطقي أو بالإشارة لوضوحها أو افتقارها للوضوح،^(٤٥٢) مما يقود إلى مأزق بالضرورة.

ثانياً، لا ينبغي أن ننسى أن التشديد على (أو إنكار) الإمكانية العملية لمضاعفة كل 'العوامل' بثابت مثل λ هو شيء، والتشديد على (أو إنكار) أن الإنتاج من شأنه أيضاً أن يتضاعف بمقدار λ إذا أمكن عملياً مضاعفة كل 'العوامل' ب λ هو موضوع آخر^(٤٥٣). فلا أحد ينكر إن الإمكانية العملية، فى

(٤٥١) إن صفة الغرض المحدد particular-purpose property هذه تكمن فى أن كل 'العوامل' قابلة للإحلال محل بعضها بعضاً. ويبدو أن بعض الكتاب يعتقدون، ولو فى الغالب ضمناً أكثر مما بشكل صريح، أن فرضية التجانس من الدرجة الأولى تنتج عن هذه الصفة. بل إن ه. شولتز H. Schultz حاول أن يثبت ذلك ('Marginal Productivity and the General Pricing Process,' Journal of Political Economy, October 1929, Appendix 1). وهذه غلطة.

(٤٥٢) إن الاستشهاد بالوضوح يمكن الرد عليه طبعاً بمجرد إنكار ذلك، ولكن لا ينبغي الرد عليه بالقول، كما قال البروفيسور ساملسون (Foundations of Economic Analysis k p. 84) إن الفرضية 'لا معنى لها' نظراً إلى أن كل مَنْ يقول إنها صحيحة لوضوحها، سيدافع عنها، عند تحديه، بوصف أى وقائع متعارضة بأنها 'أشياء لا تقبل التجزئة' indivisibilities (انظر الهامش ٣٥، أدناه)، جاعلاً الفرضية، بهذا الشكل، صحيحة بالتعريف. والأمر ليس كذلك، رغم أنني لا أنكر أن الاعتماد الأعمى على عدم قابلية بعض العوامل للتجزئة، 'التي لا بد من وجودها طبعاً إذا كانت دالة الإنتاج لا تبدو تجانس من الدرجة الأولى'، يضيف بعض المصادقية على التهمة: إذ إن ال indivisibilities، أيضاً، هى وقائع تتطلب وتسمح بالتدقيق القائم على الوقائع. وليس من الملائم أيضاً القول (انظر ساملسون، المصدر السابق، ص 84n) إن أى دالة يمكن جعلها متجانسة فى حيز متنوع أو متعدد له بُعد أرفع in a variety or hyperspace of higher dimension: فالسؤال المهم هو ما إذا كانت الدالة المتجانسة فى n من العوامل (أو مجموعة متفرعة من هذه العوامل) هى التى يمكن على الدوام تعدادها بصورة كاملة.

(٤٥٣) فياريتو، مثلاً، أنكر صحة فرضيات التجانس من الدرجة الأولى وفقاً لكلا الأساسيين (Cours 11, § 714).

الغالب، معدومة أكثر مما هي قائمة. وعليه، ينبغي اقتصار المناقشة على الموضوعات theorems التي تعتبر الفرضية ضرورية وكافية معاً بالنسبة لها. وما دامت أى فرضية غير ضرورية بالنسبة لموضوعات الإنتاجية الحدية العادية، فمن الواضح حالاً إن عدم الاتفاق كان يمكن تقليله بدرجة كبيرة لو جرى استحضار هذا التمييز فى الذهن. وأن عدم تحقيق هذا بشكل مثلاً صارخاً على افتقاد المناقشة الاقتصادية إلى الصرامة.

ثالثاً، إن إحدى عقبات فرضية التجانس من الدرجة الأولى، التي يسلم بها أنصار هذه الفرضية بشكل عام، هي فرضية عدم قابلية تجزئة indivisibility أو 'ضخامة' lumpiness عامل ما أو عوامل كالإدارة أو السكك الحديدية أو الطاحونات الهوائية. إذ لا يمكن تجزئة هذه العوامل إلى كميات صغيرة حتى بالنسبة لمنشأة ما تزال فى طور التخطيط- حيث ما يزال من الممكن تغيير حجم المنشأة- ويتعذر هذا بدرجة أكثر بالنسبة منشأة ما قائمة^(٤٥)، حيث لا يتيسر تغيير

(٤٥) إن إنكار وجود أو أهمية هكذا indivisibilities وعلاقتها، فى الغالب، بفترات intervals واسعة جداً من تزايد الغلة المادية يمكن أن يكون أمراً غير معقول. وعليه، فإن الادعاء بأن عدم قابلية التجزئة indivisibilities تفسر بشكل مرضى الانحرافات الملحوظة عن فرضية التجانس من الدرجة الأولى يمكن بالتأكيد إثباته إلى حد ما، وأن المنظر، وبخاصة معلم النظرية الأولى التي تفترض تجانس دالة الإنتاج (مع تحفظ سليم بصدد العلاقة المباشرة بين الإنتاج وكمية 'عامل' أو بعض 'العوامل')، الذى تزعمه الـ indivisibilities، يمكنه أن يشعر بالثقة بأنه ربما يغطي الأرضية التي يهتم بتغطيتها. وكذلك، فإن مشكلة عدم قابلية التجزئة indivisibilities يمكن التقليل من شأنها بأن نأخذ بالاعتبار الحالات التي يمكن فيها تجزئة عوامل 'ضخمة' lumpy كالمدرء عن طريق استئجار خدمات المستشارين لساعات عمل محددة أو، مرة أخرى، الحالات التي يمكن فيها تفسير 'ضخامة' عامل ما (كوحدة المكانن المكلفة، مثلاً)، ببنية الطلب عليها وليس بالضرورة التكنولوجية. وأنا لا أنكر أى شيء من هذا. وأن كل ما أريد توضيحه هو، من ناحية، كيف أن هذا يفسر طول المناقشة وطابعها غير الحاسم، ومن ناحية أخرى، كيف أن من السهل الانجراف، من التأكيد المعقول على هذه الوقائع، إلى اللجوء المعتاد وغير المدروس إلى فكرة عدم قابلية التجزئة indivisibility بشكل عام. إن عدم قابلية التجزئة تتداخل طبيعياً أيضاً مع الفرضيتين الأخريتين: استمرارية، وإمكانية تفاضل، دوال الإنتاج. حول هذا، انظر ساملسون، المصدر السابق، وبخاصة ص ٨٠-٨١.

أخيراً، من الضروري الإشارة إلى حالات يتم فيها طرح فرضية غياب التجانس من الدرجة الأولى (وجود وفورات حجم) كمرادف لفكرة indivisibility (والعكس بالعكس) بحكم التعريف (ستغلر وكالدور). وليس ثمة جدوى من التنازع حول التعاريف. وفى هذه الحالة، فإن البروفيسور ساملسون على حق فى الاعتقاد أن indivisibility تخلو من المحتوى الوقائعى empirical content (وإنها 'غير ذات معنى' meaningless بهذا المفهوم)، ولكن هذا لا يشكل سبباً لعدم تطوير نظريات تقوم على فرضية التجانس التي تحتفظ بمحتوى وقائعى مهما كان الاسم الذى نطلقه على الحالات التي لا تسرى فيها. ومن ناحية أخرى، فإن اختيار كلمة indivisibility يوحي بأن الأستاذين ستغلر Stigler وكالدور Kaldor يقصدان أكثر من تعريف معين. فقد يقصدان الاتفاق مع البروفيسور نايت Knight الذى أعلن أن غياب وفورات الحجم 'أمر واضح' evident إذا كانت كل الخدمات ضمن=

الإنتاج إلا من 'الحجم' المعطى القائم حصراً أو أساساً. ونختتم هذه النقطة بإلقاء نظرة سريعة على ظروف من نوع أخرى.

نلاحظ، إذن، رابعاً، إن من الممكن تدقيق فرضية معينة ليس وفقاً للملاحظات التي تتعلق بصحتها بصورة مباشرة فقط بل أيضاً وفق ملاحظات تحقق هذا بشكل غير مباشر عبر قيام هذه الملاحظات بتدقيق النتائج التي تترتب على الفرضية: فهناك فرضيات مادية كثيرة لا تُدَقَّق إلا بهذه الطريقة. وهنا، فإذا كان هناك أى معنى من الحديث أصلاً عن دالة ناتج قومي معين، فيمكن لفرضية التجانس من الدرجة الأولى لهذه الدالة أن تقدم تفسيراً بسيطاً لواقع ملحوظ جداً وهو الثبات النسبي للحصص النسبية للعوامل من الدخل الوطنى. فبالنسبة لعاملين، v_1 و v_2 ، فإن دالة إنتاج (اجتماعية) من الشكل: $(\alpha < 1, x = v_1\alpha v_2^{1-\alpha})$ كان قد اقترحها فيكسل لأول مرة (Lectures, 1 p. 128) واستعملها دوغلاس وكوب على نطاق واسع^(٤٥٥).

لقد عرفنا في هذا القسم، لحد الآن، الدرجة الحدية من الإنتاجية بواسطة مشتقة جزئية، أى أن ناتجنا الحدى يمثل الزيادة فى الناتج التى نحصل عليها حينما نضيف كمية صغيرة جداً إلى الكمية المستعملة من خدمة معينة بينما تبقى كميات كل الخدمات الأخرى ثابتة بشكل صارم^(٤٥٦). وفى الواقع، كنا قد رأينا أن هذا الأمر الأخير غير ممكن دائماً من الناحية التكنولوجية، وحينما يتعذر ذلك، فإن

=تشكيلة معينة والمنتوج 'قابلة للتجزئة بشكل مستمر'. وهذا تأكيد على وقائع لا يمكن تحديدها كما يفترض وإنه ليس خلواً من المعنى بمفهوم ساملسون: إذ يمكننا تحدى أما الوقائع أو، حتى حينما لا نتحدى أية حالة خاصة، إنكار أن الفرضية المعنية 'واضحة' كلياً universally evident. فإذا احتاجت سلعة معينة إلى n من أنواع الخدمات، وإذا كانت إحدى هذه الخدمات هى شحم التزبييت- حيث كلها يمكن أن تحل محل أحدها الآخر وقابلة للتجزئة كما تحب- فليس من الواضح لى أن كمية شحم التزبييت المستعملة يجب زيادتها بنفس النسبة حتى إذا توجب زيادة كل الخدمات الأخرى. (٤٥٥) C. W. Cobb and P. H. Douglas, 'A Theory of Production' American Economic Review, Supplement, March 1928. وكانت هذه هى المقالة الأصلية التى تبعتها فيما بعد عدد مؤثر من دراسات القياس الاقتصادى، دراسة البروفيسور دوغلاس حول: 'The Theory of Wages', (1934) ودراسات أخرى وردت فى خطابه الرئيسى: 'Are there Laws of Production,' American Economic Review, March 1948 V. Edelberg, 'An Economic Model of Production,' Econometrica, July 1936. وقد أدخل الأستاذان كوب ودوغلاس ثابتاً آخر فى الصيغة المذكورة آنفاً بحيث جعلها تبدو هكذا: $x = cv_1\alpha v_2^{1-\alpha}$ ، ولكن هذا لا يغير من الأمر كثيراً. (٤٥٦) انظر مارشال: p. 465 Principles.

فكرة الإنتاجية الحدية تنهار. ولكن يجب أن نضيف هنا أنه حتى إذا أنتجت الإضافة من كمية صغيرة جداً من خدمة معينة، مع بقاء الأشياء الأخرى على حالها، زيادة محددة في الناتج، فهذه الطريقة قد لا تكون بالضرورة الطريقة الأكثر اقتصادية لتحقيق هذه الزيادة: فتكثيف كميات الخدمات الأخرى المستخدمة قد يكون اقتصادياً أكثر. صحيح أن هذه التكاليف قد تكون من الدرجة الثانية من الضلالة، وبخاصة إذا كنا صارمين بشأن ضلالة الزيادة التي نفكر بإضافتها في المقام الأول. ولكن هذا الأمر لا يتطلب أن يكون كذلك. وصحيح أن هناك أغراضاً أخرى التي من الصحيح والمفيد بالنسبة لها أن نبقى كل الخدمات الأخرى ثابتة وذلك من أجل عزل آثار الخدمة، التي اخترنا إضافتها، على المنتج^(٤٥٧)؛ ولكن يمكن أن يكون من المضلل تماماً أن نفعل هذا بالنسبة لأغراض أخرى، من بينها تحليل سلوك الأعمال وتحليل سلوك الحصص التوزيعية. لقد أفلقت هذه الإمكانية مارشال ودفعته إلى التشديد على المفهوم الخطر: الناتج الحدى الصافى Net Marginal Product^(٤٥٨)، أى مفهوم الناتج الحدى الناشئ عن زيادة كمية عامل معين، بعد إعادة ترتيب مناظرة للعوامل الأخرى. فالإنتاجية الحدية بهذا المعنى لم يعد من الصحيح التعبير عنها بمعامل تفاضلى جزئى ما^(٤٥٩).

(٤٥٧) وعندئذ يمكننا إثبات منحنيات الإنتاجية الحدية بواسطة، مثلاً، محطات التجارب الزراعية. وهكذا يمكن إبقاء الثور فى شروط لا يتغير فيها أى شيء بشكل صارم سوى عدد الباوندات من التبن التي يتغذى عليها: فهذا يعزل تأثير الزيادات المتتالية من التبن على وزنه. أو يمكن بهذه الطريقة دراسة محصول القمح الذي تنتجه قطعة معينة من الأرض كدالة لكمية النتروجين التي يتضمنها السماد المستعمل. سنلاحظ إن هذه الطريقة تنتج عدداً غير محدد نظرياً theoretically infinite من منحنيات الإنتاجية الحدية لكل 'عامل'، منحنى لكل عدد غير محدد نظرياً من التشكيلات من الشروط الأخرى.

(٤٥٨) انظر مارشال: Principles, p. 585-586. الناتج الحدى الصافى هو مفهوم قيمى وإن الصعوبة المعنية تبرز فى حدود مشكلة التكلفة أكثر مما فى الجوار المباشر لدالة الإنتاج. ومع ذلك، يمكننا طرحها هنا من خلال تعريف الدرجة الحدية من الإنتاجية بواسطة معامل عادى معين بدلاً معامل تفاضلى جزئى. افترض وجود عاملين فقط، v_1 و v_2 بحيث تبدو دالة الإنتاج هكذا: $x = f(v_1, v_2)$. اكتب المفاضل الكلى the total differential

وعندئذ، بالقسمة على dv_1 مثلاً، يمكننا أن نعرف الدرجة الحدية من الإنتاجية بوصفها: وللإستعمال الذى نطرحه بعد قليل، لاحظ أنه إذا كانت $dx = 0$ ، فيكون لدينا:

(٤٥٩) لقد لاحظ مارشال أيضاً بأننا، إذ أخذنا الترتيبات الجديدة rearrangements بنظر الاعتبار، فإن الإنتاجية الحدية تتغير وفقاً للزمن الذى نسمح به لإجراء التكثيف. حول هذا، انظر إى. شنايدر E. Schneider (المصدر السابق، ص ٢٨) ومفاهيمه حول التكثيف الكلى والحدى.

ونظراً لوضوح إمكانية قياس الإنتاج، فإن دالة الإنتاج لا تتعرض للانتقاد الذى دفع الاقتصاديين، أو معظمهم، إلى إسقاط دالة المنفعة: فبوسعك أن ترى وتعد أرغفة الخبز؛ ولكنك غير قادر على رؤية وقياس الإشباع، بنفس المعنى على الأقل. ومع ذلك، فمن الممكن، من الناحية التقنية، الاستغناء عن دالة الإنتاج بقدر إمكانية الاستغناء عن دالة المنفعة بالضبط: فالموضوعة الأساسية القائلة إن الإنتاجية الحدية (المنفعة) لما قيمته دولار واحد من كل 'عامل' (سلعة استهلاكية) يجب، بالنسبة للمنشأة (الأسرة)، أن تساوى (على الأقل) الإنتاجية الحدية (المنفعة) لما قيمته دولار واحد من أى 'عامل' آخر (سلعة استهلاكية)، ترد فى كلتا الحالين، ولو بصورة مختلفة، سواء استعملنا دوال إنتاج (منفعة) أو معدلات حدية للإحلال أو التحويل فحسب. ويمكن أن نصور هذا، إذا اتفقنا على التسليم بعاملين اثنين للإنتاج: V_1 و V_2 وتعيين كميتيهما: v_1 و v_2 على محورى نظام الاحداثيات المتعامدة، تاركيين المحور الثالث للمنتوج: وعندئذ يتضخم هذا الأخير من زاوية مستوى عاملى الإنتاج factor plane على شكل رغيف، مشكلاً حيز الإنتاج^(٤٦٠). إن الأقسام المناظرة لمستوى العاملين ستعطى خطوط الارتفاع contour lines التى هى مواضع المنتج الثابت. وعند تصويرها عند مستوى العاملين، فإن هذه الأقسام ستعطى الربع الموجب من هذا الأخير بمنحنيات الناتج المتساوى equal-product curves أو isoquants^(٤٦١)، التى يصور كل واحد منها كل التشكيلات من العاملين التى تنتج كمية معطاة من الناتج^(٤٦٢)، ويقوم بشكل ملائم بفصل علاقة قابلية الإحلال عن العلاقة الأخرى التى ترد حينما ننقل من أى منحنى ناتج متساوى إلى منحنى أعلى، أى عند زيادة الناتج^(٤٦٣). ولم تتم صياغة كل هذا والاستفادة منه-

(٤٦٠) من الأفضل، بالنسبة للقراء غير المطلعين على هذا البناء الذى أصبح كلاسيكياً الآن، الرجوع إلى: Allen, op. cit. no. 11-8, pp. 284-9. وللإطلاع على اشتقاق دوال الطلب (المستقر) على العوامل: pp. 370-71 and 502-3.

(٤٦١) أدخل المصطلح 'isoquant' من قبل ر. فريش R. Frisch ولكنه أدخله، فى الأصل، لمفهوم آخر كان يجب الاحتفاظ بالمصطلح له.

(٤٦٢) أى أن $dx = 0$ على طول كل منحنى ناتج متساوى. يخضع المعدل الحدى للإحلال (dv_2 / dv_1) إلى القيود المعتادة (التي يمكن أو لا يمكن إضافتها إلى تجانس دالة الإنتاج). إن 'قانون تناقص الغلة' من أى خدمة قابلة للاستبدال يعبر عنه الشرط القائل إن منحنيات الناتج المتساوية تكون محدبة تجاه نقطة الأصل فى الفترة المعينة operative interval.

(٤٦٣) أتردد فى تسمية العلاقة الأخرى بـ علاقة التكامل لأن هذا المصطلح يحمل الآن معنى آخر (آلن، نفس المصدر السابق، ص ٥٠٩). ولكن الرسم البيانى الذى يضم عاملين (آلن، ص ٣٧١) قد يمثل أفضل طريقة، عند مستوى أولى، لإيضاح كيف أن الخدمات التى تتعاون فى الإنتاج يمكنها، =

واستعماله بصورة عامة- إلا في وقتنا الحاضر بفضل جهود الأستاذين آلن وهيكس وأتباعهما بشكل رئيسي. وترمى إشارتي إلى ذلك هنا للتشديد على الحقيقة المهمة تاريخياً التي تتمثل في أن هذا الأمر يعود إلى إديجورث وباريتو وأن كل عناصر النظرية الحديثة كانت جاهزة عند العام ١٩١٤، بشكل جنيني على الأقل. وبالمثل، فمن الواضح غريزياً أن نظرية دوال الإنتاج ونظرية عائلة منحنيات الناتج المتساوي قدمتا من كل بد الكثير لتطوير نظرية التكلفة. والمساهمة العظيمة للفترة حتى عام ١٩١٤ هي نظرية تكلفة الفرصة البديلة opportunity cost- وتطبيقاتها على مشاكل تكوين الدخل- التي سبق لنا أن عالجناها في الفصل السادس والتي ينقصها قليل من الإحكام الصارم في حقل ظواهر التكلفة التي نهتم بها الآن^(٤٦٤). ولكن هذه المساهمة في ذاتها لم تمس إلا من بعيد مشاكل النظرية التي نفهمها الآن كنظرية تكلفة. وبقدر تعلق الأمر بالجوانب الدقيقة، فإن نظرية التكلفة لدى باريتو تشكل الإنجاز الرئيسي^(٤٦٥). ومع ذلك، وبدلاً من الدخول في هذه التطورات، فأنتى أخلص إلى الإشارة إلى تطور آخر ينبع من مارشال مباشرة. وإذا فعل ذلك، فإننا نعاود دخول حقل التحليل الجزئي ولكن في منطقة تقع على تخوم التحليل العام.

(د) تزايد الغلة والتوازن من المؤكد أن مارشال نفسه قد فعل أكثر من أي اقتصادي بارز آخر لإقحام أكثر ما يمكن من الوقائع المتعلقة بنشاط الأعمال في مخططة النظرى. ولا تتجلى سعة إطلاعه في أى مكان مثلما تتجلى على نحو

ضمن حدود، أن تتنافس مع بعضها بعضاً والعكس بالعكس وكيف تسند العلاقتان إحداهما الأخرى في حالة العاملين القابلين للإحلال.

(٤٦٤) ربما ليس من الزائد أن نذكر أن صياغة صارمة لنظرية التكلفة من زاوية مشكلة التعظيم في المنشأة الفردية- مع إدخال دالة الإنتاج كقيّد- تمثل إحدى أفضل الطرق لحسم قضية تسعير العوامل التي لا تملك تكاليف فرصة بديلة من استخدامها، أو لا تملك تكاليف فرصة بديلة ذات وزن. ومن هذه الزاوية، فإن مبدأ تكلفة-الفرصة البديلة يتجلى كحالة خاصة من مبدأ أكثر شمولية. ولكن هذه الطريقة ليست بالطريقة الممكنة الوحيدة. إذ تهتم نظرية العزو imputation النمساوية أيضاً بهذه الحالة (فحقول الكرم، ما لم تستعمل كحقول كرم، يتعذر استعمالها قط، أو تستعمل لتربية الماشية ليس إلا)، وقد قال بوهم-باورك، بشكل خاص، كل ما يلزم قوله حول هذا الأمر.

(٤٦٥) للحصول على عرض جيد لنظرية باريتو حول التكلفة، انظر ه. شولتز، المصدر السابق، القسم الخامس. كما ينبغي الإشارة، إضافة إلى باريتو، إلى دبليو. إي. جونسون W. E. Johnson مرة أخرى. وبالنسبة للمعروض المعاصرة: Allen, passim ; J. R. Hicks, Value and Capital (1939), part 11 ; P. A. Samuelson, Foundations, ch. 4. von Stackelberg, انظر كذلك: Grundlagent einer reinen Kostentheorie (1932) and L. M. Court, 'Invariable Classical Stability of Entrepreneurial Demand and Supply Functions,' Quarterly Journal of Economics, November 1941.

مؤثر في نظرية الإنتاج. ولكننا عمل مارشال هذا قد يعجبنا بقدر ما يستحقه وأن نشعر، رغم ذلك، بأن فهمه المدهش للجوانب التحليلية البحتة و'الواقعية' معاً قاد إلى عرض يبدو أنه تضمن كثيراً من المواضيع الرخوة هنا وهناك وترك بالتأكيد كثيراً من المشاكل لمن جاءوا بعده. وهكذا، فإن تشديد مارشال على عنصر الوقت بالارتباط مع ظواهر تناقص التكلفة الحدية والمتوسطة^(٤٦٦) يشكل مساهمة كبرى^(٤٦٧). إن مفاهيمه المألوفة: التكاليف الأولية والإضافية، شبه-الريع، المنشأة النموذجية^(٤٦٨)، الربح العادي، وقبل كل شيء، الوفورات الداخلية والخارجية، سوية مع اهتمامه بأنماط خاصة من المعطيات التي تضيف طابعاً فردياً على بيئة كل منشأة تقريباً^(٤٦٩)، قد ذهب بعيداً باتجاه تقديم كل التلميحات الضرورية لمعالجة تناقص التكاليف بصورة كانت مرضية في كل معانيها وجوانبها. ومع ذلك، فما نحصل عليه هو تلميحات ليس إلا وأن كينز كان على حق بتشديده على أن مارشال، في هذا الحقل، كان أقل كمالاً مما في أي موضع آخر وأنه ترك معظم

(٤٦٦) على طول المناقشة التي نوشك أن نستهلها هنا، فإن المفاهيم: تكلفة متناقصة وغلة متزايدة، غلة متناقصة وتكلفة متزايدة، إنما تعامل كمترادفات، وهي ليست كذلك، طبعاً. وفي وقت متأخر يعود إلى عام ١٩٤٤، وجد البروفيسور ليرنر Lerner أن من الضروري التنبيه إلى ذلك (Economics of Control, p. 164). ولكنني لا أعرف أي خطأ يمكن أن ينسب إلى هذا التقليد السيئ. ومع ذلك، فربما كان هذا التقليد قد أربك كثيراً من المبتدئين.

(٤٦٧) إن الكتاب الوقائعيين الحديثين، ممن دأبوا على اكتشاف وجود، وأهمية، فترات intervals هيوط التكلفة الحدية والمتوسطة في منحنيات التكلفة في المنشآت الفردية- فترات، كما سبق أن رأينا، يمكن أن تغطي كل النطاق المشاهد من منحنيات التكلفة هذه - ويعتقدون أن هذه الاكتشافات تهز أسس التحليل 'الكلاسيكي الجديد' للتكلفة، إنما يعيدون حقاً اكتشاف مارشال: وهذا مثال صارخ يوضح حقيقة أن غالبية الاقتصاديين لا يقرءون.

(٤٦٨) إن النية التحليلية، التي خلقت التخيل المنهجي المعروف باسم: المنشأة النموذجية Representative Firm، تبرز على صفحة ٥١٤ من Principles؛ وكذلك هو شأن صلتها بمفهوم تناقص التكاليف. وفي المناقشة اللاحقة، طرح البروفيسور بيجو مفهوم المنشأة التوازنية Equilibrium Firm التي لا تختلف عن منشأة مارشال النموذجية إلا في أن المفهوم الثاني يمثل، والأول لا يمثل، الظروف النمطية modal conditions للصناعة (انظر: Economics of Welfare, 3rd. ed. p. 788). إن هذا المفهوم حول منشأة نمطية معينة مهم لأكثر من غرض واحد من النظرية الواقعية ولكنه لم يُستخدم كلياً قط (ومع ذلك، انظر: S. J. Chapman and T. S. Ashton on 'The Size of Business,' Journal of Royal Statistical Society, April 1914. (Mainly in the Textile Industries,)).

(٤٦٩) انظر ص ٥٠٦، مثلاً، من principles. ولكن الفصلين العاشر والحادي عشر من الكتاب الخامس فيضآن بالملاحظات الموحية - والتنبيهات - من هذا النوع. ون الضروري التشديد على أن مارشال جعل من الصعب عليه أن يعبر عما يقصد، ومن الصعب على قرائه أن يفهموه، وذلك بمقارنته الزائفة، أو المضللة على الأقل، التي وضعها سابقاً (pp. 397-8) بين 'قوانين' تزايد وتناقص الغلة، والتي كان قد أنكرها هو نفسه غير مرة كما في، مثلاً، عبارته القائلة إن تزايد الغلة يندر أن يتجلى في الأمد-القصير (pp. 511-13).

الأشياء لتستكمل من بعده. وهذا يعود، كما اعتقد، إلى نفور مارشال من إكمال المخططات التحليلية البحتة وإلى ميله نحو واقعية مفرطة. فقد شدد مارشال على تضمين الوفورات الداخلية والخارجية جداول 'عرضه' (الصناعي) (رغم أنه لاحظ الاعتراض على هذا الأمر: Principles, p. 514n) - وذلك لجعل هذه الجداول أكثر واقعية، كما أرى - رغم حقيقة أنه دمرَ بذلك إمكانية عكس تلك الجداول reversibility وجعلها غير ذات نفع لأغراض النظرية الستاتيكية: فهي تمثل حقاً قطعاً من التاريخ الاقتصادي في شكل رسوم بيانية^(٤٧٠). وهكذا لطّخ مارشال التوضيحات التي تميّز بين منحنيات تناقص التكلفة وانتقالات منحنيات التكلفة نحو الأسفل وبين التكاليف التي تهبط رغم بقاء دوال الإنتاج في مكانها والتكاليف التي تهبط كنتيجة لتغير دوال الإنتاج^(٤٧١). على أي حال، فمن المفهوم أن كلتا مبادرتي مارشال والمواضع الرخوة التي تركها كانت لا بد من أن تستثير المناقشة في أي بيئة لها اهتمام بأسس النظرية الاقتصادية بأية حال. وأن الشيء الوحيد الذي يبعث على الاستغراب هو الوقت الطويل الذي أخذه نشر المناقشة هذه وطرح النتائج على الجمهور العلمي بشكل عام. فمثلاً، لم تظهر إلا في أيلول ١٩٣١ (Zeitschrift für Nationalökonomie) مقالة البروفيسور فاينر المشهورة: 'Cost Curves and Supply Curves'، بانطلاقها من مارشال، مهدت قسماً كبيراً من الأرضية؛ وإن مقالة البروفيسور أ. أ. يونغ 'Increasing Returns and Economic Progress' ظهرت في كانون أول ١٩٢٨ (Economic Journal). سوف نركز تعليقاتنا الموجزة حول موضوعه: تزايد الغلة والتوازن، بل وسنقتصر

(٤٧٠) إن انتقادات البروفيسور ستغلر لمفاهيم الوفورات الخارجية لدى مارشال ليس لها من مبرر كامل إلا من زاوية النظرية الستاتيكية (op. cit. pp. 68 et seq): إذ إن الوفورات الداخلية والخارجية معاً هي وقائع غير قابلة للإنكار تستحق أن تنقسم إلى هاتين الفئتين (ومع ذلك، انظر: F. H. Knight, Fallacies in the interpretation of Social Cost Ethics of Competition, الذي تم نشره، لأول مرة، عام ١٩٢٤، أي في مرحلة مبكرة جداً من السجال حول تناقص التكلفة؛ والذي أعيد نشره في ١٩٣٥). لن نفهم الوفورات الخارجية سوى كانتقالات نحو الأسفل في منحنيات التكلفة الحديثة والمتوسطة في المنشآت الفردية يمكن أن تنتج عن النمو التاريخي في بيانات هذه المنشآت (وليس من نمو 'صناعاتها' بالضرورة) مستحضرين في الذهن أن مارشال عبّر عن هذه الحقيقة 'بمنحنيات تكلفة' هابطة - تماثل في طبيعتها منحنيات طلب يمكن أن تزداد لأسباب مماثلة وهي، كهذه، مجرد منحنيات جرت ملائمتها مع نقاط رسم بياني معين - وإن قسماً من أتباعه، وبخاصة البروفيسور روبرستون Roberston، التزموا بهذه الطريقة.

(٤٧١) قد يمكن بصورة مماثلة تفسير ما يبدو لي كتشديد مبالغ فيه على 'جداول عرض' صناعية مقابل جداول تكلفة. ويتعذر علينا تناول هذا الموضوع، ولكننا لن نستعمل، لأغراض عرضنا، سوى منحنيات تكلفة فردية.

على بضع من مساهمات كثيرة قيمة كان من الإنصاف أن تتم دراستها^(٤٧٢).

بعد قعقة يتعين إهمالها، ظهرت، في مجلة Economic Journal December (1926)، مقالة البروفيسور سرافا المشهورة التي كانت مخصصة لتقديم الفرع الإنجليزي من نظرية المنافسة غير الكاملة imperfect competition^(٤٧٣). ولكن بالنسبة لموضوعنا الحالي، فإن انتقاد سرافا لم يكن 'غير بناء'، كما وجده كينز، بحسب ملاحظاته التي وردت في المقدمة التي كتبها لـ Symposium. فما أوضحه سرافا ببساطة هو أنه ليس بوسع منشأة ما، في ظل شروط المنافسة البحتة، أن تكون في توازن تام ما دامت الزيادة في ناتجها تصحبها وفورات داخلية^(٤٧٤).

(٤٧٢) بضربة عقوبة في حق النشر، رتب كينز مجموعة من الآراء Symposium (د. ه. روبرستون D. H. Roberston، غ. ف. شوف G. F. Shove، وب. سرافا P. Sraffa) حول الموضوع (Increasing Returns and the Representative Firm,' in Economic Journal, March 1930) ما تزال جديرة بالقرءاء، كما هو واضح. وقد قدم كينز لها مثبت مراجع جزئي أحيل القارئ إليه. كما أحب أن أضيف بضع مقالات مهمة كتبها ر. ف. هارود R. F. Harrod، وبخاصة مقالته: 'Laws of Decreasing Costs,' Economic Journal, June 1930، وNotes on Supply، وكذلك مقالة السيدة روبنسون Robinson في نفس المصدر السابق، كانون أول ١٩٣٢ ومقالة البروفيسور روبنز Robins في نفس المصدر السابق، آذار ١٩٣٤. (٤٧٣) Piero Sraffa, 'The Laws of Returns under Competitive Conditions'.. ولكن أفكاره الرئيسية، النقدية والبناء، ظهرت بعد سنة من ذلك: 'Sulle relazioni fra costo e qyontita prodotta,' Annali di Economia, 1925 التي تبين نقاط انطلاق سرافا وطبيعة عمله الأصلي بصورة لامعة على نحو أفضل مما تفعل المقالة الإنجليزية. انظر كذلك مساهمته في الـ 'Symposium'.

(٤٧٤) هذا يعني فقط، مفترضين وجود سعر سوقي تستطيع عنده أي منشأة فردية أن تتبع بقدر ما تشاء، أنه سيكون دائماً في صالح المنشأة، بقدر تعلق الأمر بالمنطق البحت، أن تزيد ناتجها إذا أمكن القيام بهذا بتكاليف حدية متناقصة في الأجل القصير وبتكاليف متوسطة متناقصة في الأجل-الطويل، وإن الناتج التوازني بالتالي لا يمكن بلوغه قبل أن تكف هذه الاعتبارات عن التأثير. وعليه، فإن الفرضية الواردة في المتن أنفا تبدو بديهية. كما أن الفرضية لم يرفضها مارشال الذي ينبغي أن تستند نقاطه التوازنية على منحنيات العرض الهابطة - منحنيات العرض الصناعية - على وقائع الوفورات الخارجية، مثلما سنرى بعد قليل. إلا إن مارشال كان متلهفاً لإيضاح الظروف الكثيرة التي تمنع، في الواقع العملي (حيث لا تسود المنافسة البحتة قط عملياً)، المنشآت التي يمكننا مشاهدتها، من التصرف وفقاً لفرضيتنا التي لا تتجلى في أي مكان بصورة واضحة. لقد اعتقد أتباعه، وبخاصة البروفيسور روبرستون، ممن تأثرت معرفتهم الفطرية بالوفورات الداخلية، كليا بوجود والمهمة، حتى في صناعات تعد صناعات تنافسية، إن إنكار الوفورات الداخلية معناه، في هذه الحالات، إنكار حقيقة واضحة. ومن المهم أن نلاحظ سبب ذلك: فقد فعلوا ذلك لنفس السبب الذي يجعل اقتصاديين كثر ينفرون من التسليم بالفرضية القائلة بعدم وجود أرباح صافية عند التوازن التام في المنافسة البحتة (انظر الهامش ٥٦ والقسم الفرعي ه، أدناه). إذ تصح كلتا الفرضيتين على حالات التوازن التام فحسب، ولما كان التوازن التام لا يوجد في الحياة الحقيقية حتى بأقل من وجود المنافسة البحتة في الغالب، فإن الوفورات الداخلية، كالأرباح الصافية بالضبط، يمكن أن تكون كلية الوجود في الواقع دون أن تضعف، بهذا، صحة أو أهمية أي من=

وبتأثره بسرًا جزئيًا وفى سياق تطوير تعاليم مارشال فى جزء آخر، أوضح البروفيسور بيجو فى عمله: 'Analysis of Supply' (Economic Journal, June 1928)، الذى تم إدخاله فى الطبعة الثالثة من كتابه Economics of Welfare, (Appendix 111)، بأنه إذا أسست تناقص منحنيات العرض الصناعية على الوفورات الخارجية فقط، فإننا ما نزال نحتفظ بمنحنيات عرض متزايدة بالنسبة للمنشآت الفردية وبذلك نتجنب - شكليًا على الأقل - أى تعارض بين 'تزايد الغلة' وشروط التوازن التنافسى، على فرض أننا نسلم حقًا بوجود هكذا تعارض أصلاً. وقد أضاف بيجو أنه إذا حفز نمو صناعة معينة أو بيئتها زيادة التخصص وإذا شجع هذا بدوره على زيادة حجم المنشآت، التى تشكل تلك الصناعة، وزيادة فرص جنى الوفورات الداخلية، فإننا نحصل على نوع من وفورات داخلية-خارجية (كما أسماها البروفيسور روبرستون) يمكن أن تكون لها بعض الفائدة التحليلية. والأهم كان هو مقترحه بجعل تكاليف المنشآت دوالاً لكل من نواتجها هى نفسها ونواتج الصناعة أو المجموعة التى تعود المنشآت إليها - هذا على فرض أن بوسعنا أن نستخلص معنى محددًا من هذه المفاهيم. لقد فعل هارود، وشوف، وفاينر ويونغ الكثير لوضع الموضوع فى شكل واعد أكثر، ولكننى قلت كل ما يمكننى قوله، ضمن المجال المتاح، لإبلاغ القارئ بهذا المثال الصارخ على التباطؤ والطابع الملتوى roundaboutness للتقدم التحليلي^(٤٧٥)، ولدفعه إلى التأمل حول السؤال: لماذا جرى فى العام ١٩٣٠ وما بعده إثبات نتائج كان يمكن إثباتها بسهولة فى العام ١٨٩٠.

وبدلاً من محورة تعليقاتنا حول تناقص التكاليف، فقد كان بوسعنا أيضاً تركيزها على مذهب مارشال المعقد حول 'الربح العادى' الذى تواصل حتى وقتنا

=الموضوعتين. ولكن إذا جرى التخلي عن شرط 'فى نقطة التوازن التام' وحتى إذا وضعنا فرضيتنا فى الشكل الخاطئ الذى يجعلها تبدو هكذا: 'المنافسة البحتة والوفورات الداخلية متعارضتان'، فإننا نكف حالاً عن الاستغراب كيف كان من الممكن لفرضية معينة أن تعتبر خاطئة بشكل واضح لدى البعض وبديهية لدى البعض الآخر.

(٤٧٥) لا ينبغي على القارئ أن يتصور - كما قد يحمله على هذا التصور تقريرى الموجز هذا - إن هذه القطعة من المراجعة housecleaning تمثل كل ما نتج عن العمل الذى تضمنته المناقشة. فهناك التمييز المفيد بين الناتج القيمي الحدى marginal value product بالنسبة للمنشأة الفردية (الناتج الخاص الصافى الحدى) والناتج الاجتماعى الصافى الحدى كان قد طوره بيجو وشوف. وبمعنى ما، فإن هذا العمل قد بلغ ذروته فى المقالة التى كتبها ر. ف. كان R. F. Kahn: 'Some Notes on Ideal Output,' Economic Journal, March 1935.

الحاضر، حيث ما يزال من الممكن تمامًا أن نجد معلمين يقسمون بند الربح إلى الأرباح العادية المارشالية والأرباح القدرية windfall profits^(٤٧٦). وما دمنّا قد عالجنّا هذا النطاق من المشاكل (انظر الفصل السادس، أعلاه)، فلا يتعين علينا سوى أن نضيف نقطتين من الأسهل تناولهما على المستوى النظري الأعلى السذّي نتحرك عليه هنا: تشير النقطة الأولى إلى العلاقة بين دوال الإنتاج ودوال التكلفة بشكل عام، وتشير النقطة الثانية إلى 'ميل الأرباح نحو الزوال' بشكل خاص.

[٥] ميل الأرباح نحو الزوال] ولكن ما دام موضوع الأرباح قد ابتلي بالخلط حتى بأكثر مما ابتلت به الموضوعات الأخرى، فمن الملائم أن نعيد، أولاً، ذكر بضع فرضيات معينة تساعد على فصل النقاط التي تهمنّا الآن عن نقاط أخرى ترتبط بها عادةً. فقد درسَ مارشال، كقاعدة عامة، بند الربح في الميزانيات الختامية من نشاط الأعمال - وبخاصة الميزانيات الختامية للمنشآت التي يديرها مالكوها - أكثر مما درسَ أي شيء آخر يمت بأية صلة إلى ما يمكن تسميته 'الربح البحت'، وأنه درسَ بند الربح هذا كما هو قائم أكثر مما يمكن أن يكون عليه في التوازن (الستاتيكي) لعملية راکدة معينة. ومع أن بوسع التحليل الدقيق، في هذه الحالة كما في حالات أخرى، أن يكتشف بالتأكيد أبعاد مخطط شامل يأخذ كل شيء فيه موضعه المناسب - ولكنها أبعاد مخطط غامض غموض الأوديسا بالنسبة للأذهان الأقل قوة - بيد أن القارئ العادي يجد ببساطة مزيجًا fricassee من أشياء مثل: مكاسب الإدارة من كل الأنواع الممكنة، بما في ذلك مكاسب الإدارة رفيعة المستوى أيضًا؛ المكاسب الناشئة عن المجازفة وتحمل عواقب عدم التأكد uncertainty-bearing، أي ذلك الشيء الذي يعطى ترجيحًا ملائمًا للعلاقة بين

(٤٧٦) لقد جرى تنقيح مفهوم: المعدل العادي للأرباح من قبل عدة اقتصاديين محدثين، وبخاصة السيدة روبنسون، والسيد شوف والسيد هارود. انظر بشكل خاص مقالة هارود 'A Further Note on Decreasing Costs,' Economic Journal, June 1923. أما مفهوم الأرباح القدرية، فيستعمل الآن بشكل رئيسي للأرباح الكلية aggregate profits التي تنشأ (إذا استعملنا، لهذا الغرض، مصطلحات كينز الواردة في عمله Money and Treatise) عن زيادة الاستثمار على الادخار بحيث تميل الأرباح الفردية، التي تتكون بالمصافاة، نحو الاختفاء. قد يقال إن هذا الترتيب يفتقد إلى جوهر ظاهرة الربح ويتخلف عن المستوى الذي بلغه مارشال. وقد يُحاجج بأن تعريف هارود - المعدل العادي للربح هو معدل الأرباح المتوقعة التي لا تترك لمنشأة ما أي دافع سواء لزيادة أو تخفيض استثمارها الرأسمالي - يعيد طرح العلاقة بين الأرباح ومردود رأس المال المادي، حيث يشكل الفصل بينهما الإنجاز الرئيسي للفترة التي تسبق عام ١٩١٤. ولكن كل هذا لا يعيننا هنا حيث نهتم فقط بالسؤال المتعلق بالفائض في الإيرادات بالنسبة للمدفوعات (الفعليّة أو المفترضة imputed) المدفوعة للعوامل التي هي على صلة ببناء منحنيات التكلفة.

النتائج المتوقعة والفعلية؛ المكاسب من المزايا التي تعود إلى السيطرة على عوامل خاصة من شأن بعضها، حينما تكون في منشآت أخرى، أن لا تساهم كثيراً في النتائج مثلما تساهم حيث هي في المنشأة المعنية؛ المكاسب العرضية *chance gains* التي تذهب إلى المالك كمدعى أخير *residual claimant* كما يعبر عن ذلك مثل غوته القائل إن المصادفة السعيدة تخدم الأغنياء فقط؛ ومن بين أشياء أخرى، المكاسب التي تتراكم لدى منشأة ما حينما تنمو، أو بخلاف ذلك، لأنها كانت قد نمت، بالمقارنة مع منافسيها أو بشكل مطلق أو في كلتا الحالتين؛ عنصر من الاحتكار يرد، ضمناً أو صراحة، حيثما يبدو ضرورياً. ومن الواضح أن هذه البنود لا تشكل كياناً متجانساً بصورة منطقية كما هو حال الأجور، مثلاً، رغم كل التحفظات التي يمكن طرحها في حالتها أيضاً. ومع ذلك، فقد خلق مارشال، من بين هذا المزيج، نوعاً من معدل عادي للربح - شاقاً طريقه بحذر وسط مخاطر التفكير الدائري - كان قد ربطه بصورة مناسبة بالمنشأة النموذجية أكثر مما بالمنشأة الحدية^(٤٧٧). إن معدل العادي الربح العادي هذا *normal rate of profit* يمكن تعريفه بصورة رخوة بوصفه المعدل الذي يبرر الدخول في حياة الأعمال والبقاء فيها (إن هذه التعابير تعنى الشيء نفسه في النهاية) وأنه، بهذا الشكل، يكتسب ما يميزه عن راتب المدير الذي يسهل تبريره على أساس البداهة أكثر مما على أساس المنطق الصارم. وقد تحول هذا المعدل، بصورة أو بأخرى، إلى مفهوم الربح العادي المبسط *simplified normal profit* لدى أتباع مارشال ومن ثم إلى مفهوم الكفاية الحدية *marginal efficiency* في عمل كينز *General Theory*.

وهنا، فإن أحدًا لم يؤكد قط أن هذا المعدل يزول أو أنه يميل نحو الزوال. كان فالراس قد قصد شيئاً آخر تماماً حينما وضع مفهومه *entrepreneur ne faisant ni benefice ni perte* {المنظم الذي لا يربح ولا يخسر}^(٤٧٨). فما قصدَه يمكن فهمه

(٤٧٧) لاحظ الحكمة من هذه النقلة. فإذ يهتم منظراً بالمنشأة الحدية، فإنه يهمل الجبهة الواسعة من أصناف المنشآت الحدية *submarginal firms* التي يهيمن وجودها على وضع صناعة ما ويثير شكوكاً على تعريف المنشأة الحدية نفسه. وهذه حجة أخرى لصالح مفهوم المنشأة النموذجية الذي لم ينصف حتى في الوقت الحاضر.

(٤٧٨) وعليه، فإن النفور الشديد تقريباً من مفهوم فالراس، الذي أبداه إديجورث أولاً ومن ثم خط طويل من الاقتصاديين حتى يومنا هذا، غير مبرر قط ولا يقوم على شيء غير الفشل التام بفهم فالراس. ومع ذلك، إضافة إلى هذا، بودى أن أكرر اعتراضين أثيرا ضده وهما غير صحيحين وفق الأسس المنطقية. أولاً، لقد جرى التشديد، كما فعل إديجورث بالفعل، على أن زوال الربح، في تحليل اقتصاد رأسمالي يشكل الربح قوته المحركة، هو شيء غير معقول في حد ذاته. ولكن ليس ثمة =

بأسهل ما يمكن حينما نعدّد الأسباب التى تخلق معدل الربح المارشالى. كما ندرك أيضاً، عندئذ، أن النظرية المارشالية التى لا تشير إلى زوال الأرباح، والنظرية الفالراسية التى تذهب إلى أن الأرباح تميل إلى الزوال، ليس فقط لا تناقضان إحداهما الأخرى بل إنهما، عند الإشارة إلى نفس المستوى من التجريد، تبدوان متمثلتين. ويمكن للقارئ أن يتأكد من هذا بملاحظة، أولاً، إن نظرية مارشال، كما قدّمها هو نفسه، موجهة نحو ظواهر التغير أو النمو التى يستتبعها التوازن الستاتيكي^(٤٧٩)؛ وثانياً، إن العناصر الاحتكارية التى تدخل تحليل مارشال، ولو ضمناً أكثر مما صراحة، والتى لا تستتبعها بالضرورة فرضيات التوازن الستاتيكي، تنتهك حقاً فرضيات المنافسة البحتة، وأنه إذا صمنا على إظهار الصفات المنطقية للتوازن التام فى المنافسة البحتة، فإن أرباح مارشال تزول تماماً مثلما تفعل هذا أرباح فالراس.

لاحظ إن هذا لا يستتبع بالضرورة المكاسب المؤسسية مثل تلك التى يمكن أن يحصل عليها النادل بفضل علاقاته الجيدة مع الشرطة^(٤٨٠). كما أنه لا يستتبع وجود فوائض صافية فى النظام. إلا أنها لا ينبغي أن ترتبط، وفق المنطق السليم، بالأرباح أكثر مما بالسيطرة على الشيء الذى يؤدى إليها. فحتى فى المنافسة الأكثر كمالاً، كثيراً ما تحصل 'العوامل' على أكثر مما هو ضرورى (أ) لكى تعرض خدماتها للاستعمال الإنتاجى؛ (ب) لعرض خدماتها فى أى مكان من

=شئ غير معقول أو متناقض داخلياً فى الاعتقاد إن دافع الربح هو القوة المحركة للاقتصاد القائم على المشروع الخاص مع الاعتقاد، فى الوقت نفسه، إن الربح يمكن أن يزول فى التوازن التام للمنافسة البحتة. ثانياً، لقد جرى التشديد على أن فرضية زوال الربح ipso facto {بذاتها} يحدّثها الواقع الاقتصادى. ولكن للسبب ذاته، فحتى إذا كان وجود فوائض صافية يمكن أن يشكل واقعاً راسخاً أكثر مما هو عليه، فليس ثمة معنى فى مثل هذا التبدل فى الاحتكام، من فرضية توازن من النوع المذكور، إلى وقائع يتم اختيارها من واقع تطورى لا يكون فى توازن قط، وليس هو أو يمكن أن يكون وضعاً تنافسياً بحتاً قط. لاحظ لللمحة المهمة التالية من الوضع: فهنا لدينا فرضية ينسدر أن تسرى على الواقع فى ظل أى ظروف متصورة؛ ولكنها، رغم ذلك، ذات أهمية قصوى لفهم هذا الواقع.

(٤٧٩) وبشكل خاص، يستتبع التوازن الستاتيكي وظيفة مواجهة أوضاع عدم التأكد uncertainties التى ترتبط بأهميتها بالتغير.

(٤٨٠) إن مثل هذه الأوضاع المؤسسية المتميزة institutional positions of vantage، حينما يتم التشديد على أهميتها، ينبغي تعريفها وإثباتها، وإلا فإن الإشارة إليها لا يكون لها معنى حقاً. ولكن لما كان بوسع المنظرين التشديد عليها كما يشاءون، مع الخضوع لهذا الشرط، فلم أستطع قط أن أفهم لماذا كان يجب أن يشكل إنكار فرضية زوال الربح العلامة المحببة للمنظرين ذوى الميول الراديكالية. وعلاوة على ذلك، ومما يعزّيه، إن هناك دائماً عنصراً من الاحتكار بوسعهم الاستناد عليه.

النظام^(٤٨١). وكما أشير سابقاً، فإن باريتو أيضاً كان قد لاحظ، من زاوية مختلفة نوعاً ما، الفوائض التي يمكن أن تنشأ عن وجود عقبات تكنولوجية أو مؤسسية أمام التخصيص الأمثل للموارد (transformations incomplete) والتي تشكل حجب الزاوية لنظرية الريع لديه. إن المعالجة غير الدقيقة لهذه الفوائض يمكن أن تقود بسهولة إلى التفكير الدائري أو إلى اللجوء 'بدون معنى' إلى ضرورة منطقية معينة، 'ينبغي' بمقتضاها أن ترتبط هذه الفوائض بعامل ما أو بآخر. ولكن وجود الفوائض، وهذا الارتباط أيضاً، هي وقائع مؤكدة ليس من الصعب إثباتها. وعليه، فلا أشعر أنني قادر على إعطاء أمثلة من الأدب يمكن أن توضح بجلاء أى من هذين الخطأين^(٤٨٢). أخيراً، من الملائم استغلال هذه الفرصة للإشارة إلى العلاقة بين تناقص التكاليف والأرباح، حتى ولو أننا قد رأينا من قبل أن ليس ثمة سبب يدعو للقلق بشأنها، بقدر تعلق الأمر بالتوازن التام في المنافسة البحتة.

ولهذا الغرض، لا نملك أن نفعل أفضل من استعارة محاجة ماركس. فماركس، كما نعلم، قد جعل من استثمار المكاسب من الاستغلال الصناعي - التي هي ليست أرباحاً بل مكاسب رأسمالية، رغم أنه يسميها أرباح - المحرك الرئيس للتطور الاقتصادي. فإذا حولنا هذه العملية إلى مخطط لمنحنيات تكلفة تتناقص بفضل الوفورات الداخلية والخارجية^(٤٨٣)، وارتباطاً بذلك، بفضل زيادة حجم المنشآت الفردية، فيمكننا أن ندرك حالاً شيئين اثنين: أولاً، إن هذه العملية، رغم أنها لا تفيد المنشآت الفردية أو الطبقة الرأسمالية ككل في نهاية المطاف، بيد أنها تقترن، في كل خطوة، بمكاسب مؤقتة هي أرباح وفق مفهومنا وتؤول إلى منشآت تنمو بهذه الطريقة بصورة أسرع أو أكثر نجاحاً من المنشآت الأخرى. إن عدم التوازن يسود في كل مكان، ولكن ماركس وجد أن عدم التوازن هذا يشكل صلب

(٤٨١) لا تبرز هاتان الحالتان بصورة متميزة دائماً. وهكذا، فإن السيدة روبنسون (Economics of Imperfect Competition, 1933) تعرّف مثل هذه الفوائض بالمعنى الأول على ص ١٠٢ وبالمعنى الثاني على ص ١٠٣. ولكن ينبغي ملاحظة أن تمييزها بين منحنيات التكلفة التي تتضمن؛ ومنحنيات التكلفة التي لا تتضمن، هكذا فوائض (الفصل العاشر) يشكل تقدماً مهماً. إذ إنها أسمت كل هذه الفوائض ريعاً. وسبق أن لاحظنا أن هذا المفهوم للريع (الذي تتبأ به سنيور وج. س. ميل ومارشال) يرد على نحو مفيد لبعض الأغراض.

(٤٨٢) إن صعوبة الاتفاق على مثل هذه الأمثلة تزداد كثيراً نتيجة لحقيقة أن الكتاب الذين يفرضون هذا الثمن، من مارشال إلى ساملسون، قد امتنعوا بشكل ثابت عن إعطاء أمثلة. وبطبيعة الحال، يمكن أن يكون هناك الكثير منها في المراجع المدرسية الضعيفة.

(٤٨٣) هذا غير صحيح بصورة تامة طبعاً. ولكنه يصح بالنسبة لغرضنا الحالي.

حياة الرأسمالية^(٤٨٤)، وأن الأرباح البحتة ترتبط بشكل رئيسى بعدم التوازن هذا، من ناحية، وبتناقص التكاليف بهذا المعنى، من الناحية الأخرى. ثانيًا، ينبغي لعملية ماركس، كما لم تقوته أن يلاحظ هذا، أن تقود، وفق المنطق الصارم، إلى احتكارات فردية واحتكارات أقلية من تلك المنشآت التي كسبت الميزة الأولية ذات مرة. إن معالجة مارشال لنفس المجموعة من المشاكل عمومًا، ومعالجته لتناقض التكاليف بشكل خاص، تتوصل بالفعل إلى نفس النتائج في كليتا النقطتين، إذا حسبنا حساب تقنيته الأفضل وشغفه بأن يقدر حق التقدير كل الوقائع، الاحتكارية وغير الاحتكارية، التي تمنع تلك الشجيرات الفردية من أن تنمو وتتحول إلى مرتفعات عالية. سيتعين علينا أن نعود ثانية إلى هذه القرابة المذهبية المهمة تاريخيًا، مع أنها قرابة 'موضوعية' ليس إلّا. وبعد أن مهدنا الأرضية بهذا الشكل، أصبح بوسعنا أن نحسم قضيتنا بسرعة.

إن الاعتراف الصريح بظهور دالة الإنتاج، وهو تطور يمكننا لغرضنا الحالي ربطه بعمل فيكستد (Distribution 1914)، قد أثارَ مشكلة التنسيق بين نظريات الإنتاج ونظريات التكلفة، وهى مشكلة لم تكن مطروحة من قبل. إن نظرية الإنتاج القديمة، كالتي نجدها لدى ج. س. ميل وحتى لدى مارشال، كانت مجرد مناقشة 'لعوامل إنتاج' وقد تمت ملائمتها بسهولة مع 'قوانين التكلفة'. ولكن إقحام دالة الإنتاج، مهما كان لها من دور فعال فى إيضاح مشاكل أخرى، قد أخفى لوقت طويل مشكلة العلاقة بين التكنولوجيا وعلم الاقتصاد المتعلق بالإنتاج، أو كما يمكننا أن نقول أيضًا، بين التكنولوجيا من ناحية والتكلفة والتوزيع من الناحية الأخرى. وهذا يمكن توضيحه بأفضل ما يمكن بواسطة محاولة فيكستد نفسه أن يشق فرضية معينة لتوزيع الدخل الوطنى national dividend، أى الفرضية القائلة إن الحصص التوزيعية، المحددة بحسب مبدأ الإنتاجية الحدية، إنما تستنفد الدخل الوطنى بالضبط just exhaust، وفقًا، كما يبدو^(٤٨٥)، لصفة معينة فى دالة الإنتاج وهى صفة التجانس من الدرجة

(٤٨٤) لابد من أن فكرة غامضة حول هذه الحقيقة كانت فى ذهن آ. سميث حينما كتب إن المنشآت التى لديها أقل متوسط تكاليف فى الصناعة هى التى تضع سعر السلعة. وهذا لا يناقض، كما تصور مارشال (Principles, p. 484) تأكيدات ريكاردو المعاكسة: فقد كان سميث يفكر فى عملية تطويرية بينما كان ريكاردو يفكر فى عملية راكدة حيث يوجد، فى الواقع، ميل لأن تسود التكاليف الدنيا فى الحالة الأولى، وميل لأن تسود التكاليف القصوى فى الحالة الثانية.

(٤٨٥) أقول 'كما يبدو' apparently للتشديد على أن هذا التفسير غير ملائم وليس فقط بسبب تراجع=

الأولى. ومن السهل أن نرى الآن أن دالة الإنتاج وحدها لا تحدد تكلفة الإنتاج أو التوزيع، وبشكل خاص، أنها لا تخبرنا بذاتها بالكثير عن وجود أو عدم وجود مكاسب صافية للمنشآت. وليس أقل سهولة أن نرى - الآن - كيف أن دالة الإنتاج تتوافق مع ظاهرتي التكلفة والتوزيع. فكل ما نحتاجه لهذا الغرض هو أن نستحضر في أذهاننا إن مشكلة الإنتاج، في حقل المنطق الاقتصادي البحت، هي مشكلة تعظيم الفرق بين إيرادات المنشأة وتكاليفها وأن هذا التعظيم يخضع للقيود التكنولوجية التي تجسدها دالة الإنتاج^(٤٨٦). ولكن على أعتاب العام ١٩٠٠، لم يكن من السهل جدا بالنسبة للاقتصادى العادى رؤية هذا، وبخاصة إذا لم يعتد على وضع أفكاره فى شكل رياضى بسيط، الأمر الذى يوضح كل شىء فى حالتنا هذه. وقد شكلت فرضية زوال الربح طبعاً، التى بذلنا جهداً عظيماً لتوضيحها، مركزاً لمثل هذا الخلط والإرباك الذى يمكن أن يركَّب^(٤٨٧).

ومما سبق قوله، ينبغى أن يكون من الواضح، فى الطريق نحو التوازن التام فى ظل المنافسة البحتة، ومع التحفظات التى ذكرت - والتى لا تحيل الفرضية إلى تفكير دائرى أو كلام مكرر - إن هناك طريقة مقبولة جداً لكى نتأكد من إن الأرباح البحتة تميل نحو الزوال. فكل ما ينبغى علينا أن نفعل هو أن نعدّد كل المصادر التى يمكن أن تخطر على البال^(٤٨٨) لتتحقق مثل هذه الفوائض بالنسبة للتكاليف المدفوعة أو المفترضة imputed وأن نبين، من ثم، السبب الذى يجعل كل هذه المصادر تنقلص وتختفى فى الحالة القصوى على ذلك الطريق. إن المساواة بين الإيرادات المتوقعة والتكاليف المتوقعة (بعد خصمها بصورة ملائمة) يمكن استخلاصها بهذه الطريقة بشكل صحيح - ولو فقط مع التحفظ القائل إن فرداً ما قد يقدم ذات يوم أمثلة محددة فى الاتجاه المعاكس - وهى تتعزز أكثر باعتبار مفاده إن المنشآت التى

=فيكسند اللاحق. وترد الشروط الأخرى بصورة صريحة جزئياً وبصورة ضمنية فى جزئها الآخر. (٤٨٦) يمكن أن تكون هناك قيود أخرى طبعاً. وأحد هذه القيود مهم جداً من زاوية أى منشأة فردية ولم يزل الاهتمام الذى يستحق، وهو الأرصاد المتاحة للمنشأة. (٤٨٧) لا أحب، مرة أخرى، أن أشير إلى أمثلة. إذ أجد، بحكم طرق الاقتصاديين الرخوة فى التعبير عن أنفسهم، من الصعب جداً أن أضع جنباً إلى جنب كتاباً يمكن لتعبيرهم أن تتقبل تفسيرات محابية أكثر.

(٤٨٨) مما له أهمية خاصة أن نتذكر، إن التكاليف الذاتية المفترضة imputed لنشاط المدراء، عند المعالجة الصحيحة لنظرية العزو imputation، لا تتيح أى مجال للتفكير الدائرى أو circularity أو الكلام المكرر tautology. على العكس، فإن من يدعى الموضوعية objector هو الذى يركب هذه الأخطاء حينما يشير بصورة غامضة إلى إمكانات غير محددة لنيل مكاسب غير محددة.

تكسب أقل من التكاليف الكلية بالمعنى الموضح آنفاً تخرج من نطاق الأعمال فى الأجل الطويل وإن الأفراد الذين يتوقعون كسب أكثر من التكاليف الكلية بالمعنى المبين أعلاه سينجذبون إلى ممارسة الأعمال فى الأجل الطويل^(٤٨٩). ولكن برهاننا أكثر صرامة، وإن كان أولياً، قد جرى تقديمه وأحرز بعض النجاح فى التدريس.

وبغية الاختصار، فإننا نستبعد كل العوامل غير القابلة للإحلال - بحيث تشكل دالة الإنتاج المعتادة أو 'العادية'، كما عُرِفَت أعلاه، القيد الوحيد على سعى المنشأة للتعزيز - وكذلك المشاكل التى تبرز فى حالة عدم استمرارية منحنيات التكلفة^(٤٩٠). وفى التوازن التام والمنافسة التامة، فإن التكاليف الحدية لمنشأة ما تساوى سعر المنتج الذى تقبله المنشأة كمعطى مثل قبولها بأسعار كل العوامل. إن هذا الشرط يحدد الناتج بشكل فريد فى طائفة واسعة من الحالات. ولما كانت المنشأة، بالمنطق الصارم، تقلل إلى أدنى حد ممكن التكاليف الكلية والمتوسطة لأى ناتج، فإن التكاليف المتوسطة ينبغى أن تكون أقل ما يمكن لهذا الناتج أيضاً. ولكن فى نقطته الدنيا، يتقاطع منحنى التكاليف المتوسطة، من الأسفل، مع منحنى التكاليف الحدية. ولذلك، فإن التكاليف الحدية والمتوسطة تتساويان فى هذه النقطة وتساوى كلتاهما السعر. صحيح أنه فى نظرية كمبريدج، فى أوائل ثلاثينيات القرن العشرين (ر. ف. كان R. F. Kahn وج. روبنسون J. Robinson)، تتضمن التكاليف المتوسطة الربح العادى. ولكن هذا المخطط لا يصح إلا على أوضاع المنافسة غير التامة: ففى المنافسة غير التامة فحسب، يمكن أن يتضمن الربح العادى هذا أى شىء إضافة إلى عوائد العوامل المملوكة ذاتياً والمقيمة وفقاً لأسعار هذه العوامل فى السوق. وعليه، فإن الأرباح البحتة تزول فى المنافسة التامة^(٤٩١).

(٤٨٩) لا ينطوى تفسير أعداد وأحجام المنشآت على أى مشكلة قط حتى فى حالة فرضية التجانس من الدرجة الأولى. وأنا أشير إلى هذا الأمر، مرة أخرى، للفت الانتباه إلى الواقعة المثيرة للاستغراب - بقدر تعلق الأمر بالنظرية العامة ومع استثناء مارشال دائماً - التى تتمثل بالإهمال الكلى تقريباً لهذه المشاكل ذات الأهمية الواضحة أو إعلان أنها غير قابلة للحل.

(٤٩٠) لا يسمح المجال لنا بتناول هذه المشاكل التى اجتذبت بعض الاهتمام فى وقتنا الحاضر. يكفينا مرجع واحد: G. J. Stigler, 'Note on Discontinuous Cost Curves,' American Economic Review, December 1940.

(٤٩١) من العسير أن يكون هناك أى تبرير لصياغة البروفيسور ساملسون لهذه النظرية فى ص ٨٣ من عمله: Foundations؛ وليس هناك أى تبرير قط لعبارة على ص ٨٧ التى تفيد أن 'الإيراد الصافى' - إذا كان هذا يعنى 'الأرباح البحتة' - لا يميل إلى الزوال فى (التوازن التام فى ظل) المنافسة البحتة.

قد يكون هذا 'كلامًا مجردًا' بصورة مفرطة. ولكنه لا ينطوى على أى خطأ من الناحية المنطقية.

ملحق الفصل السابع ملاحظة حول نظرية المنفعة

سوف استعرض، فى هذه الملاحظة، فى أضيق نطاق ممكن، التطور الكامل لنظرية القيمة القائمة على المنفعة بحيث يشمل كلاً من تطوراتها المبكرة واللاحقة وصولاً إلى تحولاتها فى وقتنا الحاضر. لنضع فى أذهاننا دائماً: رغم أننا نعالج الآن نظرية المنفعة (ومن يتابعها من الكتاب) كنظرية لسلوك المستهلك، بيد أن أهميتها تمتد إلى ما هو أبعد من هذا الحقل لتشمل حقل الإنتاج وتكوين الدخل، كما جرى إيضاح هذا فى الفصل السابق.

١- التطورات المبكرة

نعلم أن هذه النظرية قد طُوِّرت، من جذور ارسطية، على يد العلماء السكولائيين الذين ينقص تحليلهم للقيمة والسعر من خلال 'المنفعة والندرة' أى شىء سوى الجهاز الحدى. كما نعلم أيضاً، إلى جانب تعاليم السكولائيين وربما ليس دون تأثيرهم كلياً، بأن أفراداً عاديين - الذين يبرز دافنزاى Davanzati بينهم بوصفه مثالنا اللامع - شرعوا بتدريس نظرية القيمة القائمة على المنفعة utility theory of value التى واصلت تطورها بصورة طبيعية تماماً حتى أيام آ.سمث - حيث يشكل عمل غالينى Galiani ذروة إنجازات تلك الفترة، مع أننا لا ينبغي أن نغفل اسم غينوفيسى Genovesi^(٤٩٢). وحتى 'لغز القيمة' - القائل إن المجوهرات 'غير النافعة' نسبياً لها قيمة أعلى من الماء 'النافع' - كان قد تم طرحه بصورة صريحة وجرى حله على يد كتاب مثل جون لو John Law. كما كانت هناك صيغة دانييل بيرنولى Daniel Bernoulli للمنفعة الحدية للدخل (الجزء

(٤٩٢) [تجرى مناقشة هؤلاء الكتاب وأعمالهم فى الجزء الثانى].

الثاني، الفصل السادس، القسم ٣ب)، رغم أنها ظلت قائمة بذاتها في خط جانبي. ولكن هذا التطور توقف بعد ذلك: فرغم إشارة اقتصاديين كثير، وبخاصة من أوروبا، وبشكل أخص من فرنسا وإيطاليا، إلى عنصر المنفعة كشيء طبيعي - ومع أن بنثام صاغ صراحة ما عُرف فيما بعد بقانون غوسن للحاجات القابلة للإشباع - بيد أنهم فشلوا كلياً في الاستفادة أكثر من هذا العنصر. وأن البعض، ممن حاولوا أن يفعلوا هذا، إنما فعلوه بصورة غير ملائمة بحيث أساءوا له أكثر مما عملوا على توسيع استعماله. فكانديلاك، مثلاً، الذي يمكن أن يعتبر أهم أنصاره في الربع الأخير من القرن الثامن عشر، فسّر منفعة الهواء والماء بالجهد المبذول في استنشاق الأول وشرب الثاني. وأن آ. سمث، وعملياً كل 'الكلاسيك' الإنجليز الذين اقتنوا أثره باستثناء سنيور^(٤٩٣)، لم يدركوا بوضوح إمكانات منهج المنفعة بالنسبة لظاهرة القيمة الاقتصادية وابتعدوا عن مفهوم 'القيمة الاستعمالية' value in use بالنسبة للغز القيمة الذي لم يكن من المفروض أن يبقى لغزاً بعد. دعوني أكرر أن من الخطأ تماماً تفسير هذا الموقف، وبخاصة موقف ريكاردو، بالقول إنهم، رغم رؤية كل ما تتبغى رؤيته عن المنفعة، لم يهتموا بإحكام هذا الجانب الواضح جداً من الأشياء: فمن الواضح تماماً - وهذا يمكن إثباته، بالنسبة لريكاردو، من مراسلاته - أنهم لم يتابعوا التلميح المتعلق بالمنفعة لأنهم لم يبصروا طريقهم لاستعماله بشكل فعال. ولكن معالجة سنيور هي خطوة مؤكدة إلى الأمام. وفي فرنسا وإيطاليا، لم ينقرض كلياً التقليد القديم الذي يفضل منهج المنفعة. ولكنه لم يؤت ثماره أيضاً. إذ إن ساي، الذي قام بمحاولة على هذا السبيل، أضاع فرصته حينما عالج الموضوع بطريقة غير بارعة وسطحية ولم تثمر عن شيء.

ومع ذلك، شرع عدد من 'الرواد' بالظهور، رغم أن أحداً منهم لم ينل أي اعتراف في ذلك الوقت. أشرنا سابقاً إلى الكاتبين اللذين نالا أعظم شهرة بعد وفاتهما: هـ. هـ. غوسن H. H. Gossen وج. دوبيو J. Dupuit. وكان هناك آخرون كثير، ولكن يكفي أن نذكر ثلاثة منهم: فالراس - والد ليون فالراس؛ ولويد الذي ظهر عمله بعد ثلاث سنوات من ذلك؛ وجيننغس^(٤٩٤). وتتماثل الأعمال الثلاثة

(٤٩٣) في نظري، لا ينبغي إدراج مالثوس كاستثناء آخر، رغم أن انتقاده لنظرية القيمة لدى ريكاردو يشير باتجاه نظرية معينة للمنفعة.

(٤٩٤) (١٨٣١) A.A. Walras, De La Nature de la richesse et de l'origine de la valeur. أما عمله: (Theorie de la richesse sociale) (١٨٤٩)، فلا يضيف أي شيء إلى نظرية القيمة، بقدر ما =

فى طبيعتها ونتائجها. وبشكل خاص، فإن مفهوم المنفعة الحدية (مفهوم فالراس: rarete؛ ومفهوم المنفعة الخاصة special utility لدى لويدي^(٤٩٥)) يرد بصورة واضحة لدى الكتاب ثلاثتهم، وكذلك أيضاً تلك الحاجات العامة بشأن كيفية ارتباط الحاجات والمنفعة بالقيمة، والتي اشتهرت بعد نصف قرن فيما بعد.

٢ - بدايات التطور الحديث

يخبرنا فالراس بأنه أنطلق من تعاليم والده. ولكن من المؤكد إن جيفونس ومنجر قد أعادا اكتشاف النظرية لنفسيهما. وحينما فعل هؤلاء الثلاثة هذا الأمر، فإنهم حسّنوا ووسّعوا النظرية، ولكن إنجازهم التاريخي يتمثل بالبنية النظرية التي وضعوها، وليس بهذه التحسينات. وكما سبق أن رأينا، فقد أعاد كلهم صياغة قانون غوسن أو بنتام أو بيرنولى حول الحاجات القابلة للإشباع؛ وعند قيامهم بذلك، فكلهم عالّجوا المنفعة (أو إشباع الحاجات) كحقيقة نفسية psychological fact يتم التعرف عليها من خلال المعاينة الداخلية introspection، وبوصفها 'السبب' للقيمة؛ وأنهم

يمكننى أن أرى، ولكنه يتضمن عدة نقاط أخرى ذات أهمية مثل تعريف رأس المال بوصفه سلعة تصلح للاستعمال أكثر من مرة واحدة. دبلويو. ف. لويدي W. F. Lloyd - 'الباحث' فى الكنيسة المسيحية (إن هذا اللقب الباهر، الذى قد يكون اللقب الوحيد الذى يطابق عمل العلماء السكولانيين، هو لقب السيد هارود Harrod حالياً) وبروفيسور الاقتصاد السياسى فى جامعة اكسفورد، عمله هو: 'A Lecture on the Notion of Value.. ' الذى قدّمه لجامعة اكسفورد عام ١٨٣٣ (١٨٣٤). ومن الغريب أن يكون بروفيسور اقتصاد فى اكسفورد بحاجة لإعادة اكتشاف. ومع ذلك، فقد كان الحال كذلك. ويعود الفضل فى إنقاذ اسم ليود من النسيان إلى البروفيسور سيليجمان (On) 'Some Neglected British Economists,' Essays in Economics, pp. 87 et seq., وهو عمل سبق أن أشرنا إليه غير مرة). ومع ذلك، فإن دراستنا فى المتن تبين أن سيليجمان أخطأ حينما نسب إلى ليود 'المكانة المهيبة فى كونه المفكر الأول، بالنسبة لجميع البلدان، الذى يطرح ما تُعرّف الآن بالنظرية الحدية للقيمة، وتفسير اعتماد القيمة على المنفعة الحدية' (ص ٩٥).

(٤٩٥) إلم يكمل ج. شومبيتر هذا الهامش. حول ريجارد جينغس Richard Jennings (Natural Elements of Political Economy, 1855): انظر المقالة الواردة فى قاموس بالغراف Palgrave

Dictionary وكذلك عمل جيفونس: 3. Ch. [Theory of Political Economy, 2ed.

(٤٩٦) وكما يعرف الجميع، فإن ليون فالراس احتفظ بمصطلح rare؛ وأن غوسن تحدث عن 'منفعة الذرة الأخيرة'؛ وأن جيفونس أدخل عبارة المنفعة الأخيرة والدرجة الأخيرة من المنفعة؛ وإن مصطلح المنفعة الحدية marginal utility (Grenznutzen) يعود إلى فون فيزر؛ وأن فيكستد اقترح المنفعة الجزئية fractional، وج. ب. كلارك: المنفعة المحددة specific بينما اقترح باريتو ophelimitaire.

كانوا يشعرون بتردد قليل، أو بلا شيء منه، بشأن إمكانية قياسها^(٤٩٦)؛ وقد ذهب كلهم إلى جعل منفعة كل سلعة، بالنسبة لمالكها، تعتمد على كمية تلك السلعة فقط^(٤٩٧).

ولم يمض وقت طويل حتى قام العمل الإضافي، الذي حفزه جزئيًا النقد العدائي، بتطوير هذه النظرية 'النفسية' أو 'الذاتية' أو 'الحديثة' للقيمة. ولإبلاغ القارئ بأساسيات قصة، نتعذر روايتها ضمن المجال المتاح، فإننا نقتصر على حد أدنى من الأسماء، ونحول إلى سياق من الخطى المنطقية ما كان بالفعل سلسلة من سجالات، كانت لازعة أحيانًا بقدر ما كانت بدون معنى.

٣- صلة نظرية المنفعة بالمذهب النفعي

كانت المهمة الأولى التي واجهت أنصار النظرية 'الجديدة' للقيمة هي الدفاع عنها ضد كل أشكال سوء الفهم - التي كان بعضها صبيانيًا تمامًا - التي خلقتها هذه النظرية^(٤٩٨). وقد تمخض هذا حتى عن وضع صياغات جديدة أكمل - غذتها تطبيقات لحالات خاصة لم تكن غير ذات قيمة، رغم تعرضها للسخرية

(٤٩٧) لقد أُنقِع فالراس نفسه أخيرًا أو أن هنري بونكار J. Henri Poincare، عالم الرياضيات الكبير، قد أقنعه بأن المنفعة كان يتعذر قياسها، رغم أنها كمية. ولكن هذا لم يدفع فالراس إلى أن يحذف، من نص عمله Elements، العبارات والمضامين التي تشير إلى عكس ذلك. انظر مثلاً ص ١٠٣ من عمله (1926) edition definitive، حيث يعرف مفهومه rareté (المنفعة الحدية) بوصفها مشتقة المنفعة الكلية بالنسبة للكمية التي يمتلكها المرء، مستعيرًا التشبيه الذي يستعمله والده بشأن سرعة التداول: مشتقة التغير بالنسبة للوقت derivative of displacement.

ولكنهم، بخلاف غوسن، لم يسلموا بخطية دالة المنفعة الحدية. أما أن هذا لا ضرر منه وتفصيل غير مهم، فهذا يمكن إيضاحه بأن نسأل أنفسنا أسئلة من قبيل: كيف يؤثر تضخم معتدل على المنفعة الحدية للدخل النقدي بالنسبة لأولئك الأفراد الذين يبقى دخلهم ثابتًا أثناء العملية. تختلف الإجابات تبعًا لشكل الدالة. وما دام الشكل الخطي غير واقعي بالتأكيد (إلا بالنسبة للتغيرات الطفيفة جدًا)، فإن الجواب المستخلص منها من المؤكد عمليًا أنه خاطئ. انظر: R. Frisch, New Methods of (Measuring Marginal Utility) (1932).

(٤٩٨) كان بوهم-باورك هو زعيم المجموعة النمساوية التي قدمت معظم هذا العمل. سأشير فقط إلى سجله مع ديتزل Dietzel في: Jahrbuch für Nationalökonomie (1890-92) وفي كل من نص وملاحق الطبعة الثالثة من عمله العظيم حول رأس المال والفائدة (Kapital und Kapitalzins). ثمة عرض باهر ودقيق للحجج والحجج المضادة قدمه ب. ن. روزشتاين-رودان P. N. Rosenstein-Rodan في مقاله 'Grenznutzen' المنشورة في الموسوعة الألمانية (Handwörterbuch der Staatswissenschaften, 4th ed., vol. 1 v. 1927).

كحذقة عقيمة- مهدت السبيل لتحقيق تقدم إضافي. فالنمساويون، مثلاً، الذين واجهوا الخصوم الألمان ذوى الميول المعادية بقوة للمذهب النفعى، كانوا قد أدركوا بسرعة ضرورة تطهير عباراتهم المراوغة من مذهب اللذة hedonism. إن التحالف التاريخي بين نظرية المنفعة والفلسفة النفعية كان واضحاً. ولا نستطيع أن نلوم كتاباً، لم يكونوا منظرين، على شكهم بوجود تحالف منطقي أيضاً. وعلاوة على ذلك، فقد كان بعض أبرز أنصار نظرية المنفعة الحدية نفعيين معروفين: فغوسن كان كذلك، وهذا هو شأن جيفونس وإيجورث. إذ استعمل هؤلاء، وغيرهم أيضاً، لغة تميل لخلق الانطباع القائل بأن نظرية المنفعة الحدية تعتمد على مسلمة نفعية أو مسلمة تقوم على مذهب اللذة hedonist- فمن المؤكد إن بنثام كان يفكر هكذا- وكان يمكن مهاجمة تلك النظرية بنجاح عبر مهاجمة هؤلاء الكتاب. وجيفونس كان هو المتهم الرئيسى: فقد ذهب بعيداً إلى حد تسمية النظرية الاقتصادية 'بتفاضل اللذة والألم'- وهذا ما كان فيري Verri قد فعله من قبل- دافعاً مارشال إلى توبيخه على ربط علم الاقتصاد 'بأنصار مذهب اللذة' hedonics.

كان لمعالجة مارشال لنظرية المنفعة مزايا عدة يتمثل أحدها فى أنه أسف على، وهجر، التحالف مع المذهب النفعى (انظر، بشكل خاص، هامشه على ص ٧٧-٧٨ من عمله Principles، الكتاب الأول، الفصل الخامس). ولكن مارشال، فى ناحية واحدة، تبع جيفونس فى الأخذ بتدريس مذهب ينبع بصورة أكثر طبيعية من كاتب نفعى، رغم أن العلاقة بينهما، مرة أخرى، هى علاقة توافق association أكثر مما هى علاقة منطقية. فمن زاوية تفاضل اللذة والألم، فإن 'المشقات' disutilities - وهذا مصطلح جيفونس- كان ينبغي تقديمها حقاً على نفسه المستوى كمنافع utilities. كان هذا ما فعله جيفونس. ولكن فالراس لم يأخذ به، وكان النمساويون، وبخاصة بوهم-باورك، يعارضون ذلك بقوة. بيد أن مارشال وبيجو أخذاً بوجهة نظر جيفونس، التى طورها مارشال إلى مذهبه للتكلفة الحقيقية (الجهود والتضحيات efforts and sacrifices) الذى كان، بصورة ما، غصن الزيتون الذى قدّمه مارشال لأسلافه 'الكلاسيك'. كما قبلها أيضاً ج. ب. كلارك، وأوربتز Auspitz وليبين Lieben فى فينا. لاحظ أن وجهة-النظر هذه، مهما جرى التوصل إليها بصورة مستقلة، تتماشى مع التقليد القديم (قارن، مثلاً، ما سبق قوله آنفاً عن نظرية القيمة لدى غاليلانى)؛ وأنها، خارج إطار تيار نظرية المنفعة، نالت

الدعم من آ. سمث (وكثيرين من فلاسفة القانون الطبيعي). وفي إنجلترا، تبناها كيرنس، ولكن فيكستيد رفضها، وكذلك كينز بدرجة أقوى. إن أهمية هذا الموضوع تأتي من صلته بمفهوم عرض العمل، وبمفهوم رأس المال حينما نتبنى نظرية للفائدة تقوم على الامتناع. أما من النواحي الأخرى، فليس ثمة فرق كبير أن نأخذ كمية العمل ككمية معطاة أو أن ندخل، في نظامنا، معادلة أخرى لتحديد (المنفعة الحدية للأجور الحقيقية = المشقة الحدية للعمل).

وليس من الصعب بالفعل أن نبين أن نظرية القيمة القائمة على المنفعة مستقلة كلياً عن أى مسلمات أو فلسفات لذة hedonist. ذلك لأن هذه النظرية لا تنص أو تفترض أى شيء عن طبيعة الحاجات أو الرغبات التى تنطلق منها^(٤٩٩).

٤- علم النفس ونظرية المنفعة

ما أن ندرك الطابع الأساسى البحت purely formal لمفهوم المنفعة لدى المنظر، فإننا نقاد بصورة طبيعية لإثارة العلاقات بين نظرية القيمة القائمة على المنفعة وعلم النفس. ويبدو أن بعض الكتاب النمساويين الأوائل اعتقدوا بأن جذور نظريتهم تكمن فى علم النفس، بل إنهم كانوا بصدد تطوير ما كان فرعاً من 'علم النفس التطبيقي' من حيث الجوهر.

وقد شجع على هذا الاعتقاد بعض علماء النفس النمساويين، مثل فون ماينونغ von Meinong وفون إيرنفيلس von Ehrenfels، ممن اعتقدوا أن منجر قد قدّم مساهمة قيمة لعلم النفس قابلة لأن تسرى بصورة أكثر عمومية. وقد تم بالفعل

(٤٩٩) سبق أن رأينا أيضاً أن تلك النظرية لا تفترض أى فرضية حول دور الأنانية egotism فى السلوك البشرى وإنها نظرية غير 'فردية' individualistic بشكل خاص. ومع ذلك، فمن المهم أن نلاحظ، أولاً، كم كان من الصعب أن يدرك هذا الأمر أفراد يتحقق كل تفكيرهم من خلال مصطلحات 'فلسفية' ويهتمون أساساً بالمضامين الفلسفية المحتملة؛ وأن هذه الصعوبة تزداد كثيراً عند وجود حالات يقتدر فيها بنى النظرية فعلاً بفلسفات أو سياسات تقوم على مبدأ اللذة hedonist أو فردية أو، حتى عند غياب مثل هذه التفضيلات الفلسفية أو السياسية، حينما تشجع لغة كاتب معين على تفسيره ككاتب hedonist أو فردى. وفى الحالة الثانية، فإن من المستحيل تقريباً التخلص من الدلالات غير المرغوبة التى تشجع عليها الكلمات المستعملة. وهذا ما يفسر المحاولات الكثيرة التى بُذلت لاستبدال كلمة: منفعة، التى يبدو أنها توصل أكثر من حقيقة أن شيئاً ما مرغوب فيه بالفعل، بمصطلحات أخرى مثل desiredness (فيشر) أو ophelimity (باريتو).

إجراء بعض التطبيقات على علم النفس الخاص بالدين، مثلاً، وهى تطبيقات من المستحيل الإشارة إليها دون ابتسامة ما، رغم أنها لم تكن تكون هراءاً. وهكذا تحدث فون إيرنفيلس عن تقوى حدية وعن فرد تقى حدى. ولكن اقتصاديين غير نمساويين كثر، متعاطفين مع النظرية النمساوية، اعتقدوا أيضاً (بل ويعتقدون) بالأهمية الكبيرة للجوانب النفسية من هذه النظرية. حول هذا، قارن: Maurice Roche-Agussol, La Psychologie economique chez les Anglo-Americains (1918) and Etude bibliographique des sources de la psychologie economique (1919)؛ وكذلك عمل نفس المؤلف: Psychologische Okonomie in Frankreich, Zeitschrift fur Nationalokonomie, May 1929 and January 1930.

لنلاحظ، فى هذا السياق، موضوعاً جانبياً لم ينل قط الاهتمام الذى يستحقه. فإذا كان على علم النفس أن يقدم دعماً فعالاً للاقتصاد أصلاً، فلا نبغى على الاقتصاديين طبعاً إهمال علم النفس التجريبي، وبخاصة العمل الذى ينصب على قياس الحواس. إنها حقيقة متميزة، إن لم نقل أكثر، إن إحدى أقدم المآثر فى هذا الحقل، المأثرة التى قام بها إى. ه. فيبر E. H. Weber، كانت قد قادت إلى نتيجة، طورها غ. ت. فيشنر G. T. Fechner (انظر الفصل الثالث، القسم الثالث، أعلاه) إلى 'القانون الأساسى للطبيعة النفسية' fundamental law of psycho-physics الذى يتطابق أساساً مع فرضية بيرنولى-لابلاس المتعلقة بالمنفعة الحدية للدخل: حيث ينص القانون على أنه إذا رمزنا إلى شدة الإحساس ب y ، وإلى الحافز الخارجى الذى يمكن قياسه مادياً ب x ، وجعلنا k ثابتاً فردياً، فإن $dy = k dx/x$.

وهذا ما لاحظته بعض الاقتصاديين بالفعل. بيد إن الكتاب النمساويين الأساسيين، كفيشر مثلاً، قد رموه جانباً، معلنين (Theorie der gesellschaftlichen Wirtschaft, § 1) أن هذا القانون لا يمت بأية صلة لقانون غوسن حول الحاجات القابلة للإشباع. ولكن مهما كان ذلك العمل، فإن جهود علماء النفس لقياس الكميات النفسية لا يمكن إهمالها من قبل أى اقتصادى لا ينقصه كنيًا الخيال العلمى. وللحصول على أمثلة عن التقدم الحديث فى قياس الحواس، انظر، بشكل خاص، عمل البروفيسور س. س. ستيفن S. S. Stevens: 'A Scale for the Measurement

of a Psychological Magnitude: Loudness, ' Psychological Review, September 1936 وكذلك عمله وعمل ج. فولكمان J. Volkmann: The Relation of Pitch to Frequency, 'American Journal of Psychology, July 1940.

ولكن النمساويين والآخرين معاً أدركوا حالاً أن 'علمهم النفسى' كان غلطة: فنظرية القيمة القائمة على المنفعة من حقها أن تُسمى نظرية القيمة القائمة على المنطق أكثر بكثير مما على علم النفس. ومع ذلك، فإن خصوم هذه النظرية لم يبصروا هذا الأمر فى البداية بأكثر مما فعل أنصارها. وبالنتيجة، كان على أنصار 'النظرية النفسية للقيمة' أن يواجهوا تهمتين إضافيتين: أولاً، أنهم كانوا يستكشفون جوانب نفسية من القيمة الاستعمالية value in use، لم تكن لها صلة بالوقائع الموضوعية للعملية الاقتصادية؛ ثانياً، إن علمهم النفسى كان سيئاً. لا تمتلك التهمة الأولى أى أساس غير الفشل فى فهم فحوى النظرية^(٥٠٠). والتهمة الثانية كان يمكن أن تكون صحيحة لو إن نظرية القيمة القائمة على المنفعة، مأخوذة كنظرية للتوازن الاقتصادى، تتطوى حقاً على أى علم نفس. فلو سألنا كيف يتصرف المستهلكون، كما يتصرفون بالفعل، فى كل تلك المشاكل العريضة من السلوك البشرى، التى أصبحت فرضيات نفسية محددة ذات صلة بها، فينبغى علينا فى الواقع اللجوء إلى كل ما يمكن أن يقدمه لنا علم النفس المهنى الحديث- بكل تنوعاته، من مذهب فرويد إلى المذهب السلوكى.

وكقاعدة، فرغم إن الضرورة لمثل هذا اللجوء لا تبرز فى الاقتصاد التقنى- بيد إن الأمر مختلف طبعاً فى السوسولوجيا الاقتصادية. إذ يمكن لمعظمنا أن يجد من الصعب، أو من غير الملائم كثيراً على الأقل، أن يتجنب كلياً أى إشارة

(٥٠٠) صاغ تلك التهمة ماركسيون كثر مثل كارل كاوتسكى فى مقدمته لعمل ماركس Theorien uber den Mehrwert: تصف النظرية النفسية شعور الأفراد بعملية التقييم التى، إذ تحددها عوامل اجتماعية فوق- فردية hyperindividual، تشق طريقها بصرف النظر عن هذه المشاعر، تماماً مثلما تحدث حوادث القطارات بمعزل عن شعور الركاب بها. ينبغى على القارئ أن يميز بدقة بين الخطأ فى هذا- المتمثل فى إنكار مدى نجاح النظرية النفسية فى أن تفسر بدقة تلك الوقائع الموضوعية جدا التى تعتقد هذه الحاجة أنها فى غير متناول تلك النظرية- وبين المبدأ السليم تماماً الذى يفيد بوجوب عدم خلط وقائع عملية اجتماعية معينة بالتصورات التى يرسمها الأفراد عنها فى أذهانهم. ولكن كتاباً غير ماركسيين كثر سلموا أيضاً بأن نظرية المنفعة، وفقاً لتفحصها 'لعلم نفس' القيمة-الاستعمالية، لم تسهم بشيء فى فهمنا للعمليات الاقتصادية. انظر، كمثال، إلى المقالة 'Grenznutzen' التى كتبها دبليو. ليكسس W. Lexis فى الطبعة الثانية من: Handwörterbuch der Staatwissenschaften.

إلى الدوافع، والتوقعات، والتقدير المقارنة للإشباع الحالية والمقبلة، وما شابه، وذلك مهما تطلعنا إلى نظرية اقتصادية لا تستعمل غير الوقائع التي يمكن مشاهدتها إحصائياً. ولكن مثل هذا الاستعمال للمشاهدات النفسية لا ينبغي خلطه باستعمال الطرق أو النتائج المستعارة من علم النفس المهني. فنحن، كغيرنا من كل الباحثين الآخرين، ومهما كان حقل اهتمامهم، نستمد وقائعنا من حيث نجدوها، بغض النظر عما إذا كانت العلوم الأخرى تهتم بها أيضاً أم لا. فنحن لا نصبح باحثين هواة في علم الطبيعة dilettantes حينما نستعمل وقائع طبيعية يتضمنها القانون الكلاسيكي بشأن تناقص الغلة في الزراعة. كما أننا، أكثر من ذلك، لا نصبح باحثين هواة في علم النفس - أو أننا نستعير من علم النفس المهني - حينما نتحدث عن دوافع أو حاجات أو إشباعات. ولكن رغم إن هذه الممارسة لا تطرح أى مشاكل حول العلاقة بين علم الاقتصاد وعلم النفس، بيد أنها تطرح مشاكل أخرى. فقد تحدث منظرو المنفعة الأوائل عن الوقائع النفسية بمنتهى الثقة. إذ أدخلوها في كشكول التجربة العامة - ذلك المصدر للمعرفة بشئون الحياة اليومية، الذى لا يشك أى إنسان عاقل بأى عنصر منه. ولكن بقدر ما نتعرف على هذه الوقائع من معاناة ما يجول في نفوسنا الفردية فقط - من المعاينة الداخلية introspection - فإن أهميتها تترك لدينا بوضوح رغبة بشيء ما، حتى إذا كان معظم الوقائع، كالإشباع الناجم عن إطفاء ظمأ المرء، هي وقائع بسيطة جداً ولا تثير سوى أقل مشاكل، بحيث إن مَنْ يعترض عليها إنما يورط نفسه بسهولة في وضع صعب في أعين مَنْ لديهم وعى منهجى أقل دقة. ومع ذلك، فلن ينكر أى فرد إن استخلاص مجموعة معينة من الفرضيات من وقائع يمكن مشاهدتها خارجياً أو 'موضوعياً'، إذا أمكن هذا، أفضل من استخلاص نفس المجموعة من الفرضيات من مقدمات تم وضعها عن طريق المعاينة الداخلية introspection. وكما سنرى بعد قليل، فمن الممكن تحقيق هذا بالفعل في نظرية القيمة القائمة على المنفعة، على الأقل ما دمنا لا نطلب منها سوى تقديم الفرضيات أو 'القيود' التي نحتاجها في إطار نظرية التوازن للقيم والأسعار. وهذه هي Leitmotiv { الفكرة التي تهيمن وتتكرر } في التطورات اللاحقة (٥٠١).

(٥٠١) قبل أن أمضى، بوى أن الفت الانتباه إلى نوع من علم نفس مزعوم لا يمثل سوى فهم خاطئ لعلم النفس abuse. يشكل القانون النفسى المعروف عن الميل للاستهلاك (كينز) مثالا بارزاً على ذلك. فالقانون يشدد على أن الأفراد والمجتمعات معاً، عند تحقق زيادة في الدخل، يقومون عادة بزيادة=

٥- المنفعة القابلة للقياس

دعوني أكرر ثانية: لقد تم في البداية اعتبار المنفعة، الكلية والحدية معاً، كحقيقة نفسية psychic reality، كشعور نتيجته المعاينة الداخلية introspection وغير مرتبط بأى مشاهدة خارجية - وبالتالي، لنكرر هذا أيضاً، لا ينبغي استخلاص هذه المنفعة من وقائع السلوك التى يمكن مشاهدتها خارجياً فى السوق، والتى (الوقائع) كان يجب تفسيرها بها - وككمية قابلة للقياس بشكل مباشر^(٥٠٢). هذا هو رأى منجر وبوهم-باورك، كما اعتقد. أما مارشال، فرغم أنه تحدث بصورة واضحة عن المنفعة ككمية قابلة للقياس، بيد أنه شذّب هذا الأمر، فى حجته الدقيقة بشكل بارز فى الأقسام ٢-٩، الفصل الخامس، الكتاب الأول من عمله Principles، بواسطة تبني الفرضية الأضعف القائلة بأنه، مع أننا لا نستطيع قياس المنفعة أو 'الدافع' أو الشعور بالسرور أو التعاسة بشكل مباشر، بيد أننا نستطيع قياسها بصورة غير مباشرة من خلال آثارها التى يمكن مشاهدتها- فالسرور مثلاً يمكن قياسه بمبلغ النقود الذى يكون الفرد على استعداد للتنازل عنه للحصول على ذلك السرور وذلك بدلاً من التضحية به^(٥٠٣). وهذه خطوة إلى أمام بالتأكيد. ولكننا، من

= الإنفاق أو الاستهلاك ولكن بمقدار يقل عن مقدار الزيادة فى الدخل. وسواء صح هذا أم لا، فإن ما يرفعه كينز إلى مصاف فرضية معينة assumption هو تعبير statement عن حقيقة واقعة مشاهدة إحصائياً. ولا نكسب شيئاً، سوى قوة زائفة، من تسمية هذا التعبير قانوناً نفسياً a psychological law. وأن خبرتنا مع 'قوانين الطبيعة البشرية' هذه، بدءاً من القرن السابع عشر، هى خبرة غير مشجعة بالتأكيد. ولكن لم يكن بوسع حتى جيفونس أن يعمل من دونها (Theory of Political Economy, p. 59).

(٥٠٢) يهيب قياس الطول أحسن مثال على معنى قابلية القياس المباشر direct measurability. إذ يمكن تعريف هذه القابلية بوصفها الارتباط بين الإحساس بالمنفعة وبين عدد حقيقى، الذى هو فريد بغض النظر عن الوحدة المعينة المختارة له، يُراد تفسيره كوحدة إحساس as a unit sensation. لم يقل أحد إن من الممكن تحقيق هذا بنفس القدر من السهولة الذى يمكن أن يتحقق به فى حالة الطول. ولكن بعض الكتاب قد اعتقدوا فعلاً بأنه لم تكن هناك صعوبة بصدد المبدأ المعنى. إن وجود صعوبة معينة - من شأنها اختزال قياسات المنفعة إلى 'تقديرات' تقريبية - كان قد أدركها بوهم-باورك (Kapital und Kapitalzins, 3rd ed. Appendix).

(٥٠٣) لقد حرص مارشال على حماية ذلك من التفسير الدائرى. إذ يمكن للتعريف الدقيق لقابلية القياس أن يضى كما يلى: من الممكن أن نربط بين كل إحساس بالمنفعة وبين عدد حقيقى، الذى هو فريد بغض النظر عن اختيار وحدة معينة، يُراد تفسيره كوحدة من كمية لحافز يمكن مشاهدته خارجياً، خالفاً رد فعل يمكن ملاحظته من الخارج. وتقدم طريقة قياس الحرارة بواسطة المحرار مثلاً=

الآن فصاعداً، سوف ندمج كلتا النظريتين لقياس المنفعة في مفهوم واحد نسّميه (نظرية) المنفعة القابلة للقياس Cardinal Utility. تثير كلتا النظريتين صعوبات معينة ويمكن الاعتراض عليهما، ولكن أيًا منهما ليست مجرد هراء.

ومع ذلك، وحتى على هذا المستوى، وبمعزل عن مجرد الدفاع والإحكام، فما ينبغي عمله كثير. ولتوضيح ذلك، سوف أذكر ثلاث مساهمات لها أهمية كبرى. أولاً، لم يمنح الآباء المؤسسون، أو حتى فالراس، اهتماماً كافياً للأساسيات^(٥٠٤). إذ كانت النظرية بحاجة لإعادة صياغة صارمة. وقد حقق هذا انتونيلي Antonelli بطريقة تستبق الكثير من التطورات اللاحقة^(٥٠٥). ثانياً، أنهى إديجورث الفرضية القائلة إن منفعة كل سلعة هي دالة لكمية هذه السلعة فقط وجعل المنفعة، التي يستمتع بها فرد معين، دالة لكل السلع التي تدخل في ميزانيته. وقد رحّب مارشال بتطور بهذه الخطوة (إن لم نقل أكثر) ربما لأنه فكّر بالتعديلات الرياضية التي يفترضها هذا الأمر في جعل معادلات نظرية المنفعة معادلات جزئية بدلاً من أن تكون معادلات تفاضلية عادية. وكمثال ثالث، نختار محاولة مارشال لتيسير قياس المنفعة بواسطة مفهوم: ريع المستهلك.

يعود مصطلح فائض أو ريع المستهلك Consumers' Surplus or Rent إلى مارشال، ولكن فكرته الجوهرية - وليس كل تفاصيله - تعود إلى دوبو Dupuit. ينبغي على القارئ، عند الضرورة، تنشيط ذاكرته بالعودة إلى العمل Principles، الكتاب الثالث، الفصل السادس، بحيث يمكننا تخصيص هذا الحيز للتعليقات فقط. وفي هذا الموضوع، لم يشر مارشال إلى اسم دوبو ولم يدخل سوى تعديلات طفيفة على الفكرة من خلال عبارة ترد في موضع آخر بعيد جداً (الكتاب الخامس، الفصل الثاني عشر، الهامش الختامي)، أي أن 'الطريقة البيانية كان قد تم استعمالها، بطريقة تماثل نوعاً ما الطريقة المستعملة في الفصل الحالي، من قبل دوبو العام ١٨٤٤ ومن قبل فليمنج جنكن Fleeming Jenkin بصورة مستقلة العام ١٨٧١'. إن فكرة 'قياس' المنفعة الكلية، التي يحصل عليها المرء من استهلاك كمية معطاة من سلعة معطاة، بواسطة مبلغ من النقود، يمثلها التكامل المحدد

=لتوضيح هذا، وإن كان غير كاف بصورة تامة.

(٥٠٤) قد يثير هذا استغراب القراء الذين يتذكرون تعليقات النساويين المسهبة. ولكن افتقاد فيزر وبوهم-باورك حينذاك إلى الرياضيات الضرورية كان قد أعاقهما كثيراً.

(٥٠٥) G. B. Antonelli, Sula teoria matematica della economia politica (1886).

definite integral، مأخوذاً من الصفر إلى الكمية المعطاة، لدالة طلبه الفردية (وعندئذ، فإن فائض المستهلك هو الفرق بين هذا التكامل والسعر المدفوع بالفعل مضروباً في الكمية المشتراة). تعرضت هذه الفكرة لأول وهلة لعدد من الاعتراضات، كانت قد أثرت بالفعل، ولكن معظمها يقوم على سوء فهم لمفهوم مارشال. إن أفضل طريقة لتقدير أهمية هذه الأداة تكون بإبداء فهم صريح للقيود التي تخضع لها، على الأقل وفقاً لصياغة مارشال الأصلية لهذه الأداة. أولاً، كان المقصود بالأداة أساساً أن تكون أداة لتحليل الجزئي؛ حيث يُتاح لسعر سلعة معينة فقط أن يتغير مع إبقاء الأسعار الأخرى ثابتة. ثانياً، وحتى في هذا الإطار، يجسد مفهوم فائض المستهلك طريقة تقريبية (مع أنه يمكن أن يكون دقيقاً في حالات معينة). ذلك لأنه يفترض أن المنفعة الحدية للدخل لا تتغير حينما يواصل الفرد، بعد أن يكون قد أخذ وحدة أولى من السلعة المعنية مقابل ١٠٠ دولار مثلاً ووحدة ثانية مقابل ٩٩ دولار مثلاً ووحدة ثالثة مقابل ٩٠ دولار مثلاً، إنفاق أكثر وأكثر على وحدات إضافية كلما تُعرض له أسعار متناقصة. وهذا غير مقبول إن أخذناه هكذا بشكل حرفي. ولكن إذا شكّل هذا الإنفاق جزءاً طفيفاً من إنفاق الفرد الكلي - بحيث إن من غير المحتمل أن تتأثر إنفاقاته الأخرى بهذا الإنفاق - فيمكننا أن نهمل، ككمية من درجة ثانية، التغيرات في المنفعة الحدية للدخل التي تحدث بالفعل. وبطبيعة الحال، فإن هذا يُحد كثيراً من الطريقة: إذ يتعذر تطبيقها على أشياء كالغذاء عموماً أو غرفة السكن أو يمكن تطبيقها على نطاقات ضئيلة فقط من أسعار هذه الأشياء، وإن مارشال كان يعرف لماذا استخدم الشاى كمثال يُظهر به هذه الطريقة. ولكن في إطار هذه الحدود، فإن الطريقة ليست غير صحيحة أو عديمة النفع. وحتى أن مجموع ريع كل المستهلكين الذي يستمتع به فرد ما - وهو مفهوم بدا غير معقول لبعض النقاد - ومجموع ريع كل المستهلكين الذي يستمتع به كل الأفراد الذين يشترون سلعة فردية معينة يمكن جعلها مفاهيم ذات معنى بواسطة فرضيات ليست أسوأ من الفرضيات التي نضعها عادة. ومع ذلك، فقد كان استقبال مفهوم ريع المستهلك سيئاً من البداية، وأن البروفيسور بيجو، الذي طوّر تعاليم مارشال بإخلاص من نواح أخرى، لم يُلْقِ بثقله لصالح هذا المفهوم. ولكن في الفترة الأخيرة، فإن البروفيسور هيكس، متأثراً بأهمية المفهوم بالنسبة لاقتصاد الرفاه (انظر القسم الثامن، أدناه)، انتشلته - أو شيء من هذا القبيل - من الإهمال والنسيان الذي يلف القضايا الميتة باعثاً فيه ما يشبه الحياة الجديدة. انظر مقالته

للفصل الثانى من عمله: Value and Capital وكذلك مقالاته: 'The Rehabilitation of Consumers' Surplus' (Review of Economic Studies, February 1941) ; 'Consumers' Surplus and Index Numbers' (ibid. Summer 1942) ; and 'The R. L. Bishop, [قارن أيضاً: (Four Consumer's Surpluses' (ibid. Winter 1943 'Consumer's Surplus and Cardinal Utility,' Quarterly Journal of Economics, [May 1943

١- المنفعة الترتيبية

وبطبيعة الحال، لو إن قابلية القياس كانت العقبة الوحيدة التى تحول دون قبول نظرية المنفعة الحدية، لكان بالإمكان إرضاء النقاد بإعادة صياغة معينة تحتفظ بمفهوم المنفعة أو الإشباع ولكنها تجعل منه كمية غير قابلة للقياس^(٥٠٦). ذلك لأنه ليست هناك ضرورة قاهرة للتشديد على قابلية القياس ما دمنا لا نهتم سوى بمشكلة تعظيم معينة: فثمة طرق لمعرفة ما إذا كنا أم لا على قمة مرتفع معين من دون قياس ارتفاع المكان الذى نقف عليه. وما دام الاعتراض على قابلية القياس يمثل الاعتراض الأكثر جدية بين الاعتراضات التى أثارها، من البداية، الخصوم غير-الرياضيين على الأنصار غير-الرياضيين لنظرية المنفعة الحدية، فقد اكتشف حالاً بعض هؤلاء، وبخاصة فيزر، أن بوسعهم حل المسألة^(٥٠٧)، على الأقل بالنسبة للمنفعة الكلية total utility بالمقارنة مع المنفعة الإضافية incremental. فباريتو، الذى كان قد سلم فى البداية بنظرية المنفعة الحدية بشكلها

(٥٠٦) تُعرف الكمية أو المقدار (الكلمة $\mu\epsilon\gamma\epsilon\nu\omicron\varsigma$ الإغريقية) بأنها أى شيء قابل لأن يكون أكثر أو أقل من أى شيء آخر. ولا تتضمن هذه الصفة سوى مفاهيم التعدى transitivity واللاتماثل asymmetry و aliorrelativity (والمصطلح الأخير يعنى أن ليس ثمة شيء أكبر أو أصغر منه هو نفسه). كما يشمل مفهوم الكمية أيضاً علاقة المساواة التى هى، رغم ذلك، متماثلة symmetrical و reflexive (حيث يعنى هذا المصطلح عكس ما يعنيه مصطلح aliorrelative). وهنا، فإن الكمية، بهذا المعنى العام جداً، لا تفترض قابلية القياس التى تتطلب تحقيق شرطين آخرين: (١) إمكانية تعريف وحدة معينة؛ (٢) إمكانية تعريف الإضافة بصورة عملية operationally، أى حتى يمكن تحقيقها بالفعل.

(٥٠٧) أتصور إن هذا هو ما قصده فيزر حينما قال إن المنفعة ليس لها 'مدى' extension ولكن لها 'حدة' intensity فحسب. وإذا صح تفسيرى هذا، فإن طريقة التعبير هذه كانت غير موفقة إلى حد بعيد.

الفالراسى، عاد وتخلّى عنها حوالى العام ١٩٠٠^(٥٠٨)، وأثار أساساً هذا الاعتراض الذى لم يعد جديداً حينذاك: 'أرتى منفعة أو إشباعاً يعادل، مثلاً، ثلاث أمثال منفعة أو إشباع آخر'! ولكن أحداً لم يشك بمقدرة الناس على مقارنة الإشباع المكتسب من امتلاك مجموعات مختلفة من السلع دون حاجة لقياس هذا الإشباع، أى مقدرة الناس على ترتيب هكذا مجموعات فى إطار 'سلم تفضيل' فريد معين. وهذا هو ما نقصده بالمنفعة الترتيبية Ordinal Utility.

ليس بوسعنا أن نقدم سوى إشارة أشد إيجازاً لمسألة لم يستطع الاقتصاديون أن يتفقوا بشأنها حتى يومنا هذا. وكما ذكرنا توّاً، فنحن نستطيع وضع مجموعات افتراضية من السلع بشكل ترتيبي. تصور أن هناك فرداً ما يخبرنا بأنه يفضل مجموعة من السلع B على مجموعة أخرى منها، A، وأنه يفضل المجموعة C على المجموعة B؛ وعليه، فإن يفضل C على A (صفة التعدى). ولكننا هل نستطيع أن نمضى أبعد ونفترض، عند القيام بالتجربة، إن الزيادة فى الإشباع، التى لا بد من أن يشعر هو بها حينما يضمن B لأنه كان قد ضمن A، قابلة لأن تكون أكثر أو أقل أو تساوى الزيادة فى الإشباع التى كان بوسعه الحصول عليها لو أنه يضمن C لأنه كان قد ضمن B. إن هذا الموضوع لا يخلو من الفائدة لأن البعض قد شدّد على، بينما أنكر البعض الآخر، إن إمكانية قبول هذه الفرضية تعيدنا إلى مسألة قابلية القياس (ولو أن الفرضية، بحد ذاتها، لا تكفى لتأمين قابلية القياس). لا نستطيع تناول هذا الموضوع هنا ونكتفى بالإشارة إلى المقالات الثلاثة الأكثر أهمية بشأنه. وهذه المقالات هى: O. Lange, 'The Determinateness of the Utility Function' (Review of Economic Studies, June 1934); P. A. Samuelson, 'The Numerical Representation of Ordered Classifications and the Concept of Utility' (ibid. October 1938); وكذلك بشكل خاص: F. Alt, 'Über die Messbarkeit des Nutzens' (Zeitschrift für Nationalökonomie, June 1936). وسأضيف الأمر التالى بالنسبة للقراء الذى يمكن أن يهتموا بقضايا من هذا النوع:

(٥٠٨) تشكل منشورات باريتو خلال تسعينيات القرن التاسع عشر، وبخاصة عمله: Cours، نظرية منفعة حدية بدائية أساساً (أو نظرية ophelimity، كما كان يسميها). وأنصور أن التغيير فى رأى باريتو ورد أولاً فى المحاضرات التى أعطاهها العام ١٩٠٠ فى معهد Ecole des Hautes Etudes فى باريس. وكان عمله الأول، مما أعرف، على هذا الخط الجديد هو: 'Sunto di alcuni capitoli di un nuovo trattato di economia pura' المنشور فى عددى آذار وحزيران من مجلة degli Economisti, 1900.

يعود الفضل إلى لانغه Lange في رؤية أهمية هذه الفرضية. ولكنه لم يدرك أنها شرط ضروري فقط، ولكن غير كاف، لإثبات إمكانية القياس. وتبين مقالة ساملسون Samuelson هذا بصورة صحيحة. ومع ذلك، فإن حجة ألت Alt (التي لم يكن ساملسون على معرفة بها) كافية منطقياً وتختزل المشكلة بصورة مُرضية إلى مشكلة تدقيق للفرضيات السبع المعنية وفقاً للوقائع empirical verification للفرضيات السبع المعنية (وهو أمر لم يحاول أحد القيام به لحد الآن حقاً).

مضى باريتو لتطوير فكرة المنفعة الترتيبية وقد قَدَّم أخيراً ما يجب، للإِنصاف، اعتباره أصل نظرية القيمة الحديثة^(٥٠٩). لم يكن باريتو منسجماً تماماً بشأن هذه الفكرة وأنكأ غير مرة إلى العادات الفكرية التي كان قد اكتسبها في سنوات تكوينه. ومع ذلك، فقد تحقق تقدم أبعد بفضل جهود جونسون Johnson وسلوتسكي Slutsky، مع إن العمل لم يكتمل تماماً قبل عام ١٩٣٤ على أيدي هيكس وآلن^(٥١٠). وقد تراكت مشاكل إضافية في مجرى هذه العملية، أخذ بعضها

(٥٠٩) انظر ملحق عمله: Manuel في كليته. ولكن المقالة الأحدث في الطبعة الفرنسية من موسوعة العلوم الرياضية (Encyclopedia des sciences mathematiques pures et appliquees, 1911) تتضمن تطورات عدة (أما مقالته الأبر في الطبعة الألمانية، فلا أهمية لها).

(٥١٠) W. E. Johnson, 'The Pure Theory Of Utility Curves,' Economic Journal, December 1913.. تتضمن هذه المقالة المهمة نتائج عدة ينبغي أن تؤمن لمؤلفها مكاناً في أي تاريخ لعلمنا. ولكن نظراً لعدم معرفة المؤلف، على ما يبدو، بعمل باريتو عند كتابتها، فأنها استثارت غضباً ليس غير طبيعي من جانب الاقتصاديين الإيطاليين لعدم اعترافها بأسبقية عمل باريتو في معظم الأساسيات. وقد نشر الاقتصادي والإحصائي الروسي، البروفيسور في جامعة خاركوف، يوجين سلوتسكي Eugen Slutsky، في مجلة: Giornale degli Economisti, July 1915، مقالة عنوانها: "Sulla teoria del bilancio del consumatore" يمكن أن نعتبر إهمالها بشكل كامل خارج إيطاليا أمراً مشروعاً بسبب الظروف السائدة في ذلك العام. تلتزم المقالة بفكرة أن المنفعة هي كمية معينة، مع إنها كمية غير قابلة للقياس؛ وهي تفترض فرضيات معينة بشأن صفاتها؛ ثم تطور نظرية سلوك المستهلك التي لا يمكن العثور فيها إلا على خطأ طفيف ما دامت فكرة المنفعة تلك قد أصبحت مقبولة. وقد تم تصحيح ذلك الإهمال إلى حد بعيد من قبل هنري شولتز Henry Schultz (Interrelations of Demand, Price, and Income,' Journal of Political Economy, August 1935)؛ ور. غ. د. آلن R. G. D. Allen: 'Professor Slutsky's Theory of Consumers'؛ و. ج. ر. هيكس J. R. Hicks الذي أسمى المعادلة الأساسية لنظرية القيمة الحديثة باسم سلوتسكي وذلك في عمله Value and Capital. إن قراءة مقالة البروفيسور آلن، وهي مثال ساطع لما يعتبر في هذا الكتاب السلوك الصحيح في حالة الاكتشاف غير المتوقع لكتاب سابقين، ستحيط القراء غير القادرين على القراءة بالإيطالية بكل ما هو ضروري عن عمل سلوتسكي. كما أثق بعدم ضرورة التعليق على العمل المشهور لآلن وهيكس: 'Reconsideration of the Theory of Value', Economica, February and May 1934 الذي يشير إلى تقدم كبير يتجاوز سلوتسكي.

أشكالاً مختلفة عدة، ولكن الحصلة المعروفة يمكن عرضها بإيجاز كما يلي^(٥١١). لقد تم فهم المنفعة القابلة للقياس cardinal utility كدالة حقيقية محددة بشكل فريد^(٥١٢) لكميات السلع (فى كل فترة معينة من الزمن) التى هى تحت تصرف الفرد أو الأسرة. أما المنفعة الترتيبية ordinal utility، فيتعدى فهمها هكذا. ولكن ما يزال من الممكن وصف سلوكها بواسطة أى دالة حقيقية لنفس السلع حيث أنها (الدالة) تزداد كلما مضينا من أى مجموعة معطاة من السلع إلى مجموعة أخرى يفضلها الفرد، وتتناقص كلما مضينا من أى مجموعة معطاة من السلع إلى أخرى يعتبرها الفرد أقل قبولاً، وتأخذ قيماً ثابتة (لا تتغير) كلما مضينا من أى مجموعة معطاة من السلع إلى مجموعة أخرى مقبولة لديه بنفس الدرجة - تماماً كحزمى القش بالنسبة لعمار بوريدان. تمثل مثل هذه الدالة 'سلم تفضيل' الفرد، المذكور آنفاً، ولكنها، بخلاف الدالة التى تمثل المنفعة القابلة للقياس cardinal utility، لن تفعل ذلك بطريقة محددة بشكل فريد - لأن كل ما صُممت تلك الدالة لإبلاغنا به هو ما إذا كانت هناك زيادة أو نقصان أو مساواة فى المنفعة. وأن كل شيء آخر عنها، أى صفات أخرى جبرية أو عددية قد تبديها هذه الدالة، هى أشياء اعتباطية كلياً وليس لها أى معنى اقتصادى حقاً. وعليه، فإذا كانت φ هى دالة كهذه^(٥١٣)، فإن أى دالة متزايدة بصورة ثابتة لـ φ ، سمّاها دالة $f(\varphi)$ ، من شأنها أن تخدم بصورة ملائمة. وقد أسمى باريتو مثل هذه الدالة: الدالة القياسية Index Function (funzione-indice). وكان على هذه الدوال أن تلعب نفس الدور فى نظرية القيمة التى تتمشى مع المنفعة الترتيبية كما كانت قد لعبته دالة المنفعة فى نظرية القيمة التى تمشت مع المنفعة القابلة للقياس - وفى الواقع، يمكن أن نعتبرها دوال منفعة تنقضى الاعتراض على مسألة قابلية القياس.

(٥١١) ليس بوسعى سوى أن أشير إلى المعالم الأكثر أهمية على الطريق الرئيسية. فلم يعد من المجدى ذكر أعمال أخرى كثيرة. فمثلاً، إن جزءاً من التطورات، التى أحاول أن أصف فى هذا النص، وإزاه فكر النمساويين المحدثين، رغم أنهم، بسبب نواقص طريقتهم غير الرياضية، لم يذهبوا بعيداً. حول هذه التطورات فى فينا، انظر: A. R. Sweezy, 'The Interpretation of Subjective Value Theory in the Writings of the Austrian Economists,' Review of Economic Studies, June 1934.

(٥١٢) ينبغى، طبعاً، التحفظ على هذا من اتجاهين: فنحن أحرار دائماً فى اختيار وحدة معينة، ونحن أحرار فى اختيار نقطة الصفر بالنسبة لنا. ومن هاتين الناحيتين، فإن الدالة القابلة للقياس cardinal utility أيضاً اعتباطية - ولكن ليس بأكثر من أى طريقة قياس أخرى.

(٥١٣) ومع ذلك، فإننا نحتاج، لأسباب تقنية، صفات أخرى معينة مثل الاستمرارية وقابلية التفاضل.

ومع ذلك، فى الواقع، فليست الدالة القياسية ذاتها، بل نظرية أخرى، هى التى أصبحت تميز هذه المرحلة من نظرية القيمة، أى حيز السواء indifference surfaces أو، فى حالة سلعتين، منحنيات السواء indifference curves (منحنيات الخيار المتساوى، curve di scelti uguali). ومن المهم أن نلاحظ أن هذه المنحنيات، من الناحية التاريخية، كانت قد 'أكتشفت' بصورة مستقلة، لأغراض ليس لها صلة بالمنفعة الترتيبية، من قبل إديجورث^(٥١٤) الذى سلم كلياً بمذهب المنفعة القابلة للقياس الكمى. دعونا نعود إلى هذه المذهب للحظة. فإذا اقتصرنا على حالة سلعتين، فيمكن لنا أن نضع كميات هاتين السلعتين على اثنتين من إحداثيات شكل بياني ثلاثى الأبعاد وجعل الاحداثى الثالث يمثل الكميات المختلفة من المنفعة الكلية المكتسبة، التى تناظر كل التشكيلات الممكنة من السلعتين. والنتيجة هى تكون حيز منفعة معين ينطلق من نقطة الأصل كلما زادت كمية السلعتين، والذى قد يتسطح فيما بعد، راسماً شكلاً لا يختلف عن شكل رغيـف الخبز (كان باريتو قد أسماه la colline du plaisir). وهكذا فإن تتابع المستويات الأفقية horizontal planes - أى المستويات المناظرة لمستوى محورى إحداثيى السلعتين - سيعطى منحنيات تشبه الرغيـف والتى تكون المنفعة الكلية ثابتة على كل نقطة من نقاطها وحيث تتغير كميات السلعتين بطريقة ما بحيث إن زيادة فى إحدهما تعوض بالضبط عن النقص فى الأخرى. تمثل هذه المنحنيات، التى يقوم كل معناها على فرضية إن المنفعة قابلة للقياس، ما أسماها إديجورث: منحنيات السواء indifference curves. وحينما نصور هذه المنحنيات على مستوى السلعة، فإننا نحصل على 'خريطة السواء' indifference map المعروفة. وقد استعملها إديجورث بصورة دقيقة فى نظريته للمقايضة، وبخاصة لى يعين مدى شروط المقايضة الممكنة أو نسب المبادلة^(٥١٥).

ولكن ما أن نصور خطوط السواء على مستوى السلعة، فإن بُعد المنفعة

(٥١٤) ظهرت هذه المنحنيات فى عمله: (Mathematical Psychics) (1881)، وبالتالى فهى كانت قد سبقت

تحليل المنفعة الترتيبية من نوع تحليل باريتو بعشرين سنة تقريباً.

(٥١٥) لقد تأثر مارشال كثيراً بهذه القطعة من العمل بحيث إنه أعاد تقديم جوهرها فى ملحق عمله:

Principles. ولكن هذا هو كل ما تعين عليه أن يفعل مع منحنيات السواء. وليس من الصحيح أن

نقول أنه بشر الفكرة من خلال جهاز المنحنيات الذى استعمله فى عمله: Pure Theory of Foreign

Trade (1879).

يختلف من الصورة بحيث تكف معانيها عن الاعتماد على أى فرضية حول قابلية القياس. وعندئذ، فإن هذه الخطوط لا تخبرنا بأكثر من (١) إن الفرد يعتبر تشكيلات معينة من السلعتين مقبولة بنفس الدرجة؛ (٢) أنه يفضل التشكيلات التى يمثلها أى منحنى سواء 'أعلى' على تشكيلات يمثلها أى منحنى سواء 'أقل'. وكان ارفنج فيشر أول من أبصر مضامين هذا الأمر^(٥١٦). لم يعترض فيشر على فكرة قابلية القياس. على العكس، فقد حاول أن يجعلها أمراً ممكن التحقيق operational (انظر ملاحظة الناشر على القسمين السابع والثامن، أدناه). بيد أنه، حينما فعل ذلك، واجه صعوبات معينة فى الجزء الثانى من عمله عندما نبذ الفرضية التى يتعذر الدفاع عنها والتى تقول إن منفعة كل سلعة تعتمد على كميتها هى وحدها فقط ((السلع المستقلة 'independent goods')^(٥١٧)). وعند هذه النقطة، فإن الشكوك كانت تتجه صوب ليس إمكانية قياس المنفعة فقط بل حول وجودها هى ذاتها أيضاً. ولذلك، قدم فيشر تحليلاً متحرراً كلياً من فرضيات المنفعة التى تمشت فقط مع خرائط السواء بالمعنى الحديث. وقد شكلت منحنيات السواء نقاط الانطلاق فى التحليل بالنسبة له- كما هى بالنسبة لآلن وهيكس فيما بعد؛ ولم تكن هذه المنحنيات مشتقة من حيز المنفعة utility surface، كما كانت مع إديجورث.

ومع ذلك، فإن منحنيات السواء هى جزء من الدوال القياسية ويمكن أيضاً اشتقاقها منها. وهذا هو ما فعله باريتو. ولكن هذه المنحنيات مستقلة تماماً عن الدالة القياسية الخاصة التى يتم اختيارها، بقدر ما هى مستقلة عن الشكل الخاص لدالة المنفعة القابلة للقياس cardinal utility كما يحددها بصورة فريدة سلم التفضيلات. وهذا يوحى بفكرة العمل من دون الدوال القياسية أيضاً، وبخاصة لأنها تقود إلى نفس الصعوبات التى واجهها البروفيسور فيشر فى حالة دوال المنفعة^(٥١٨). ولكن تفعيل الفكرة بشكل كامل، وتطوير نظرية معينة لا تمثل سوى

(٥١٦) Mathematical Investigations (انظر الفصل الخامس، القسم ٧ب، أعلاه). ولم يتم الإدراك بصورة كافية أن هذا الكتاب قد استبق الجزء الأفضل من نظرية القيمة الحديثة وذلك بشكل صريح جزئياً وضمناً على الجزء الآخر.

(٥١٧) تتبين طبيعة هذه الصعوبات فى الهامش التالى. وأخمن- وهو تخمين لا ينطوى على مجازفة، كما أتصور - إن هذه الصعوبات هى التى دفعت مارشال إلى اعتناق مفهوم السلع المستقلة independent goods.

(٥١٨) مع أننا نستطيع دائماً أن نمضى من دوال قياسية معينة نحو منحنيات السواء، بيد أننا لا نستطيع =

منطق للاختيار، قد أخذ وقتاً طويلاً حتى عام ١٩٣٤: إن نظرية آلن وهيكس، التي نُشرت في ذلك العام، كانت، بقدر ما أعرف، أول نظرية مستقلة بصورة تامة عن وجود دالة قياسية معينة وهي متحررة كلياً عن أى بقايا حتى لنظرية المنفعة الحدية التي حل محلها المعدل الحدى للإحلال في نظامهما^(٥١٩). وبالنتيجة، فإن مرونيات الإحلال والتكامل تُعرّف وفقاً لسلالم التفضيل حصراً وتتفصل عن المنفعة بالمثل. لا نستطيع أن نتناول أكثر من هذا. ويكفى أن نذكر أهم المشاكل التي لم تُحل لحد الآن في نطاق نظرية الاختيار هذه: فلحد الآن، يجري تعريف منحنيات السواء بصورة مرضية بالنسبة للأسر الفردية فقط؛ والسؤال الذى يبقى هو أى معنى يجب إعطاءه لمنحنيات السواء الجماعية -كمُنحنيات السواء لبلد، ما على سبيل المثال- التي أستخدمت في قسم من العمل النظرى الأكثر المعية في وقتنا الحاضر^(٥٢٠).

[إن الأقسام الستة الأولى من: ملاحظة حول نظرية المنفعة قد اكتملت أساساً وتم طبعها. أما الفقرات القليلة التالية، فقد عُثر عليها فى مخطوطة غير مكتملة، ومعها هوامش غير مكتملة مكتوبة باليد وتشير إلى المحاجة التي يجري التفكير بها. انظر إلى ملاحظة الناشر فى نهاية هذا القسم.]

٧- مسلمة الانسجام

يعلم القارئ إن تحليل منحنى السواء أصبح أخيراً جزءاً من التعاليم المتداولة. فالمهنة كانت قد تعودت عليها، وقد اندثرت حتى المناقشة بشأن ملائمتها

=دائماً أن نمضى من منحنيات سواء معطاة نحو دوال قياسية. فلكي تتحقق الإمكانية الأخيرة، أى لى 'توجد' exist دالة قياسية معينة، فمن الضروري أن تكون المعادلة التفاضلية لمنحنيات السواء قابلة للتكامل. وفي حالة متغيرين فقط (سلعتين)، ثمة عنصر تكاملى على الدوام integrating factor؛ وفي حالة ثلاثة متغيرات أو أكثر، لا ينبغي أن يكون هناك هذا العنصر. إن مسألة إمكانية التكامل هذه كانت جدية جداً بالنسبة لمنهج باريتو. وقد جردت التطورات اللاحقة هذه المسألة من أهميتها.

(٥١٩) قد يكون من الملائم أن نبين أن هذا يتضمن نبذ قانون غوسن حول الحاجات القابلة للإشباع.
(٥٢٠) انظر، مثلاً، مقالة البروفيسور ليونتييف Leontief حول: 'The Use of Indifference Curves in the Analysis of Foreign Trade,' Quarterly Journal of Economics, May 1933.

لمقرر طلبية السنة الثانية. ولكن كان ينبغي أن يكون واضحاً من البداية إن الأشياء لن تتوقف عند تشكيلات السواء indifference varieties، وإن هذه التشكيلات، رغم كل شيء، ليست سوى بناء غير مكتمل midway house. فهي بناء أنيق، وآمن منهجياً أكثر من تحليل المنفعة القديم، ولكنها لم تساعدنا على الوصول إلى نتائج لم يكن بوسع الأخير بلوغها؛ وأنها لم تثبت بصورة واضحة خطأ أى من نتائج التحليل الأخير. وعلاوة على ذلك، فإذا كانت هذه التشكيلات 'تضع فرضيات أقل' مما يفعل تحليل المنفعة، فإنها تفترض، لأغراض نظرية التوازن، أكثر مما تتطلب افتراضه الضرورة والملائمة. وإذا كانت هذه التشكيلات لا تستعمل أى شيء غير قابل للملاحظة من حيث المبدأ، فإنها تستعمل بالفعل مشاهدات 'محتملة' potential لم يصبح أى فرد، لحد الآن، قادراً على وضعها بالفعل؛ ومن زاوية عملية، فإننا لا نكون، حينما نرسم منحنيات سواء تصورية بشكل بحث، فى حال أفضل مما نكون عليه حينما نتحدث عن دوال منفعة تصورية بشكل بحث^(٥٢١). وعليه، فقد أوضح البروفيسور بوننيسغنى Boninsegni فى وقت مبكر يعود إلى عام ١٩٠٢، ومن ثم بارون من بعده ببضع سنين^(٥٢٢)، أننا لا نحتاج أيًا من النظريتين لأغراض كتابة معادلات نظرية التوازن^(٥٢٣). فماذا، إذن، نحتاج لهذا الغرض إذا أهملنا أيًا منهما؟

(٥٢١) حول إمكانات 'The Empirical Derivation of Indifference Functions' {الاشتقاق التجريبي لدوال السواء}، انظر المقالة التى كتبها دبليو. آلن والس W. Allen Wallis وميلتون فريدمان Milton Friedman تحت هذا العنوان فى: Lange et al. Editors, Studies in Mathematical (Econometrics, 1942 (Henry Schultz memorial volume) - مع أننا، هنا ثانية، لا يجب قط أن نقول قط؛ انظر، مثلاً، المقالة المهمة للبروفيسور والد The Approximate Determination of Indifference Surfaces by Means of Engel Curves,' Econometrica, April 1940. وبطبيعة الحال، لا ينبغي السماح لهذا بطمس الاختلاف المنطقي: فثمة فارق طبعاً أن تكون أو أن لا تكون نظرية ما 'على صلة بتجربة يمكن أن تحدث' (Relation auf mogliche Erfahrung) إذا استعملنا عبارة عمانوئيل كانت Immanuel Kant. وكذلك، فإن من الممكن طبعاً، كما فى حالة تحليل المنفعة تماماً، أن نبين إن تحليل تشكيلات السواء ليست عرضة لأى اتهام من ناحية التفكير الدائري أو الخواء.

(٥٢٢) P. Boninsegni, I Fondamenti dell' economia pura,' Giornale degli Economisti, (٥٢٢) E. Barone, 'II Ministro della produzione,' ibid. September and ٢ February 1902 ; and October 1908 (see above, sec. 5).

(٥٢٣) لقد أدركا طبعاً ضرورة الفرضيات المقيدة بالنسبة لسلوك المستهلك التى يمكن أن تتنبأ عنها صفات دوال الطلب. وهذا يميز وجهات نظرهما عن وجهات نظر غ. كاسل G. Cassel الذى دافع ببساطة عن التخلص من أى شيء خلف دوال الطلب لجعلها المعطيات النهائية. انظر عمله: Grundriss (einer elementaren Preislehre,' Zeitschrift für die gesamte Staatswissenschaft (1899) الذى يستحق الذكر لأنه أول هجوم راديكالى بصورة لا تقبل المهادنة على كل بنية نظرية المنفعة=

إن قليلاً من التأمل يبين أن حتى النظرية المبكرة للقيمة القائمة على المنفعة لم تستعمل قط بالفعل أى مسلمة أخرى غير المسلمة التالية: إن كل فرد، أمام مجموعة معطاة من الأسعار و'دخل' معطى، يختار أن يشتري (أو يبيع) بطريقة محددة بصورة فريدة. وكل ما عدا ذلك هو ديكور زائد ولا تبرره، إن أمكن تبريره أصلاً، سوى الأهمية التى يمكن أن تُعطى له من زاوية أغراض أخرى. وقد أبصر بارون هذا ولكنه فشل فى صياغة هذه المسلمة بدقة وفى إثبات كفايتها معاً. ولكن الأمر أنجزه ساملسون^(٥٢٤) الذى صاغ مسلمة الانسجام: إذا

$$\psi_i = h^i(p_1, \dots, p_n, I) \quad (i = 2, \dots, n),$$

$$\sum_{i=1}^n \psi_i p_i - I = 0,$$

وأثبت بصورة باهرة إن هذا يعطى كل القيود التى نحتاجها لمعادلتنا

$$\sum_{i=1}^n p_i d_{\psi_i} = 0 \quad \text{and} \quad \sum_{i=1}^n dp_i d_{\psi_i} < 0 \quad (\text{not all } d_{\psi_i} = 0)^5$$

[ملاحظة الناشر: إن خطة الجزء الباقي من هذا الملحق للفصل السابع (Note on the Theory of Utility) غير واضحة بصورة تامة. ليس ثمة شك فى إن ج. شومبيتر كان يعتزم أن يجعل معالجته لاقتصاد الرفاه جزء من هذا الملحق، وهى معالجة يجرى وصفها كاستطراد أو ملاحظة حول المنفعة (انظر الفقرة الأولى من القسم الخامس من هذا الفصل: نظرية التخطيط والاقتصاد الاشتراكي) وثمة بعض الأدلة على أن هذه المعالجة كان يجب أن تشكل القسم الفرعى الثامن (من القسم الثامن). يمثل القسم المتعلق باقتصاد الرفاه، الذى يلى، معالجة تمهيدية يحتمل أنها كانت قد كتبت عام ١٩٤٦ أو ١٩٤٧. ومن الواضح أن الأقسام الستة

=من جانب اقتصادى رياضى. وفى عمله: Theory of Social Economy، كرّر كاسل نفس الحاجة من حيث الجوهر.

In his A Note on the Pure Theory of Consumer's Behavior, *Econometrica*, February (٥٢٤) 1938; see also The Empirical Implications of Utility Analysis, *Econometrica*, October 1938. Cf. N. Georgescu-Roeger, The Pure Theory of Consumer's Behavior, *Quarterly Journal of Economics*, August 1936

الأولى من Note on the Theory of Utility كُتبت في نهاية عام ١٩٤٨. وقد تمت طباعة هذه المادة وقراءتها من قبل ج. شومبيتر. وقد كتب الأخير، في وقت ما فيما بعد، خلاصة القسم السابع (The Consistency Postulate - مسلمة الانسجام) كما أنه كتب ملاحظات لقسم ثامن (The Corpse Shows Sighs of Life) {الفقيد يُبدى علامات على الحياة}. ومن الواضح أن اقتصاد الرفاه كان سُنْاقش هنا. ومع ذلك، فقد كان 'The Corpse' موجزًا جدًا بحيث أنني قدمته في الفقرتين التاليتين كجزء من هذه الملاحظة وجعلت من 'اقتصاد الرفاه' القسم الثامن من ملحق الفصل السابع.

٨. الفقيد يُبدى علامات على الحياة لقد استعرضنا ما يبدو، رغم الارتدادات والانعطافات، خطأ واضحًا جدًا من التطور بالنسبة لهدف يبدو إن ساملسون كان قد بلغه. ومع ذلك، فإن الصورة كانت ستبقى غير كاملة لو أخفقنا في ملاحظة عدد من الأعراض يبدو أنها تختلف عن هذا الخط وتشير باتجاه آخر. ولو كان من الممكن تفسير هذه الأعراض كبقايا من وجهات نظر قديمة، لما كانت هذه الأعراض جديرة بالذكر. فمن الطبيعي إن مفهومًا مثل المنفعة، ذي الجذور الممتدة عميقًا في كل تقليد القرون المبكرة وفي عادات فكر ولغة كل فرد، ما كان ليتحى جانبًا بسهولة. ولكنه ينطوى على أكثر من هذا. صحيح أنه جرى بقوة إثبات أن مفهوم المنفعة هو مفهوم زائد بالنسبة لنظرية قيم التوازن - وهذا يمثل حقًا ليس فقط أقوى حجة ضده بل الحجة الضرورية الوحيدة. ولكن لم يتم إثبات - ولا يمكن إثبات بمقتضى طبيعة الأشياء - إن المفهوم لا يمكن أن يكون مفيدًا لأى غرض كان. فمهما كان شعورنا تجاهه، فلا نستطيع إنكار الخدمة التوجيهية heuristic التي أسداها في الماضى - تاريخيًا، يعود اكتشافه إلى ذات النظرية التي بوسعها أن تعمل من دونه الآن - وليس ثمة معنى من القول إن جدواه تم استنفادها بالنسبة لوقتنا. وفى هذا السياق، فمن الملائم أن نلاحظ أن بعض الحجج المضادة له ليس لها وزن، وإن الحجج الأخرى ذهبت بعيدًا جدًا. بل إن الممكن حتى أن نقول إن المحاجة ضد إمكانية القياس تتدرج ضمن هذه الحجج الأخيرة. وبطبيعة الحال، بقدر ما يصح هذا الأمر، إذا كنا نبتكر دائمًا طرقًا للقياس، فإن مفهوم المنفعة يمكن أن لا يبقى تلك الحقيقة النفسية القديمة: فمن الممكن أن نتطلع إلى شىء ما محتمل

potential؛ بل إن هناك إمكانية معينة أن نكون قادرين على القياس من دون الحقيقة الذاتية [ملاحظات مكتوبة باليد].

‘وفي هذا السياق [ملاحظات مكتوبة باليد]، فمهما أثرت ضدها من اعتراضات [ملاحظات مكتوبة باليد].’

[ثم دون ج. شومبيتر المراجع التالية التي إن من الواضح أنه كان يعتزم مناقشتها.]

١. Irving Fisher, Mathematical Investigations in the Theory of Value and Prices (1925)، وهي رسالته لنيل شهادة الدكتوراه التي نشرت أولاً في: Transactions of the Connecticut Academy of Arts and Sciences, 1892.

٢. Aupetit (شيء غير محدد، كتابة تتعذر قراءتها)

٣. Irving Fisher, A Statistical Method for Measuring Marginal Utility and Testing the Justice of a Progressive Income Tax, in Economic Essays (Contributed in Honor of John Bates Clark (1927

٤. Ragnar Fischer, ' Sur un Probleme d' economie pure, Norsk Matematisk Forenings Skriften, 1926.

٥. Ragnar Frisch, New Methods of Measuring Marginal Utility (1932).

٦. Paul A. Samuelson, ' A Note on Measurement of Utility,' Review Of Economic Studies, February 1937

... غير صحيح [ملاحظات مكتوبة باليد] اقتصاد الرفاه [ملاحظات مكتوبة باليد] الانسجام [ملاحظات مكتوبة باليد] مؤشر، مظاهر [ملاحظات مكتوبة باليد] كامن، [ملاحظات مكتوبة باليد] منحنيات أنجل'

٨- اقتصاد الرفاه (٥٢٥)

قد يعرف القارئ التمييز، المنتشر في التعاليم المتداولة، بين الاقتصاد 'الوضعي' *positive economics* واقتصاد الرفاه *welfare economics*. قد لا يبرر هذا التمييز شيئاً تقريباً غير متطلبات العرض، وأنه لا يعنى سوى إن الاقتصاد الوضعي يقوم بالتفسير واقتصاد الرفاه يقوم بالتوصية بشيء ما. ذلك لأن كل فرضيات اقتصاد الرفاه يمكن صياغتها بصورة تعبر عن واقع أو حالة معينة *indicative mood* مثلما يمكن بالضبط تحويل كل فرضيات الاقتصاد الوضعي إلى فرضيات أمرية *imperative* وذلك بإدخال مسلمات قيمية ملائمة *axiological* *postulates*. ومع ذلك، فما دام اقتصاد الرفاه المعاصر قد اكتسب، طبعاً، منزلة متميزة خاصة به، فمن الملائم أن نشير إلى تطوره بصورة منفصلة. كما نمتلك دافعاً إضافياً لكي نفعل هذا نظراً إلى أن هذا الموضوع يتصل بمسألة المقارنة بين الإشباع من فرد إلى آخر *interpersonal comparison of satisfactions*، وهى مسألة لم تمس بعد.

نحن نعلم بمدى قدم اقتصاد الرفاه، الذى اكسب هذا الأخير قدسيته: إذ إن جزءاً كبيراً من عمل كارافا *Carafa* وخلفه، إضافة إلى العلماء السكولانيين وخلفهم، كان يمثل اقتصاد رفاه. كما نعلم أيضاً أن وجهة نظر الرفاه كانت واضحة فى القرن الثامن عشر، وإن عبارة *felicita pubblica* {المصلحة العامة} كانت تظهر كثيراً على صفحات العناوين فى إيطاليا. وبالنسبة لبنتام والنفعيين الإنجليز عموماً، فإن وجهة النظر هذه هى جزء جوهري من تعاليمهم، طبعاً. وعليه، فرغم الروح الوضعية للاقتصاد الريكاردى، فإن وجهة نظر اقتصاد الرفاه نجدها لدى 'الكلاسيك' الإنجليز، وبخاصة ج. س. ميل. وإلى هذا الحد، فإن اقتصادى الرفاه الحديثين لم يفعلوا غير إحياء تقليد بنتام.

وقد قدّم الانتصار المؤقت لنظرية المنفعة دافعاً جديداً بطبيعة الحال. ويمكننا أن نرى هذا لدى الرواد مثل دوبو وغوسن. ولكن العمل الحالي فى اقتصاد

(٥٢٥) [ثمة معالجتان لاقتصاد الرفاه (واحدة مطبوعة وأخرى مكتوبة باليد) تجمعهما عدة نقاط مشتركة. وتطرح هنا المعالجة المكتوبة باليد. وكانت كلاهما مساهمة تمهيدية، وقد تمت كتابتهما قبل الأقسام السبعة من هذا الملحق حول نظرية المنفعة.]

الرفاه يعود إلى تعاليم مارشال كما طورها بيجو، وإلى إديجورث وباريتو. طرح مارشال مساهمتين، إضافة إلى تقديم كثير من الاعتبارات العامة التي توافق كثيرًا ميله نحو الوعظ. أولاً، وكما أشير آنفاً، أعاد مارشال اكتشاف مفهوم دوبيو حول فائض أو ريع المستهلك، مقدّمًا، بهذا الشكل، اقتصاد الرفاه مع أداة تحليلية تم تبنيتها لاستعمالها في هذا الحقل بشكل خاص، أو هكذا تم تصور هذا الأمر. ثانيًا، صاغ مارشال عدة فرضيات من النوع المميّز لاقتصاد الرفاه المعاصر. وفي الهامش، أدناه^(٥٢٦)، تجرى الإشارة إلى أشهر فرضية من هذه الفرضيات. ولا تكمن أهمية هذه الفرضية في ذاتها، بل في حقيقة أنها شكلت مدخلًا جديدًا: إن مزايا حالة التوازن التنافسي التام - التي أسماها مارشال مذهب الإشباع الأقصى doctrine of maximum satisfaction - جرى التشكيك بها حقًا غير مرة في السابق من زوايا عدة؛ ولكن هذه كانت هي المرة الأولى التي طُرح فيها هذا الأمر في نطاق النظرية البحتة لتلك الحالة، المرة الأولى، على المستوى النظري، لدرس إمكانية تحويل الأفعال الفردية إلى قنوات تساعد على الرفاه العام أكثر مما تفعل هذا قنوات سياسة عدم التدخل. أما مساهمات إديجورث الكثيرة، فقد يمثلها أحسن تمثيل ذلك الجزء من نظريته لفرض الضريبة المتعلق بالعدالة. تجرى معالجة إديجورث بروح من عمله: (New and Old Methods of Ethics (1877)، أى بروح من مبدأ اللذة hedonism أو المذهب النفعى. والنقاط الرئيسية لهذه المعالجة تتمثل فيما يجريه إديجورث من تمييز بين، وتعريف وتكميم، مفاهيم التضحية المتساوية والمتناسبة والدنيا equal, proportionate, and minimum sacrifice، علمًا بأن المضمون المساواتي للفكرة الأخيرة المذكورة تواءم على نحو ملائم^(٥٢٧). لقد توجهت جهود إديجورث بشكل رئيسي ضد الأخطاء الشائعة في التفكير كالأخطاء

(٥٢٦) شدد مارشال (Principles, p. 533 et seq.) على أن المجموع الكلي للإشباع في مجتمع ما يمكن أن يتجاوز الحد الأقصى الذي يمكن الحصول عليه في ظل سياسة عدم التدخل في حالة من التوازن التام في المنافسة التامة وذلك عن طريق فرض ضرائب على إنتاج السلع الخاضع لتناقص الغلة واستخدام الحصيلة لمساعدة إنتاج السلع الذي يخضع لتزايد الغلة. إن هذه الفرضية، التي يتعذر علينا مناقشتها هنا، تم توسيعها كثيرًا على يد البروفيسور بيجو، وبشكل خاص، على يد السيد ر. ف. كان R. F. Kahn، الذي يمثل المرجع الرئيسي في هذا الحقل. انظر مقالة الأخير: 'Some Notes on Ideal Output,' Economic Journal, March 1935.

(٥٢٧) تتمثل الفكرة الحاسمة، من أجل تقليل التضحية الكلية إلى أقل ما يمكن عند زيادة الضريبة بمقدار معين، في أن الضريبة يجب، بالنسبة للمبلغ المطلوب، أن تستوعب كليًا، أولاً، الفائض في الدخل الأعلى بالنسبة للدخول التي تليها من حيث الارتفاع، ومن ثم الفائض من هذين الدخلين على الدخل بالنسبة الأقل منهما، وهكذا.

التي يتضمنها الاعتقاد واسع الانتشار أن تناقص المنفعة الحدية للدخل يمثل كل ما يجب افتراضه لجعل مبدأ التصاعد progressiveness في فرض الضرائب يخضع لفرضية التضحية المتساوية^(٥٢٨).

وهذا كله مجرد مذهب بنتامى وقد أعيد إحياءه - أو بالأحرى، مذهب بنتامى مسلح بتقنية أفضل - وهو يفترض ليس فقط مفهوماً كمياً للمنفعة أو الإشباع أو الرفاه بل أيضاً الفكرة الأبعد التي تقول بإمكانية مقارنة الإشباعات لدى الأفراد المختلفين، وبشكل خاص، تجميع هذه الإشباعات في: الرفاه العام للمجتمع ككل - فكرة 'إمكانية مقارنة المنفعة من فرد إلى آخر' interpersonal comparability of utility. إن هذه الفكرة، التي يحرص بعض الاقتصاديين على الدفاع عنها في وقتنا الحاضر^(٥٢٩)، رغم أن آخرين استعملوا حججاً كانت تقترضها، تمتلك سجلاً ينجح حيناً ويخفق حيناً آخر: فقد تحداها جيفونس منذ البداية، ثم جرى تحديها غير مرة من قبل كتاب لم يعترضوا، وكتاب اعترضوا، على صعوبة إمكانية مقارنة المنفعة. ولكنها ظلت حاضرة بقوة، ذلك لأنها، طبعاً، كانت مفيدة لأغراض اقتصاد الرفاه بشكل رئيسي، كما يبدو. فمارشال نفسه لم يعترض عليها كما هو واضح^(٥٣٠)، كما بذل فيكسل ما استطاع للقول إن المناقشات في البرلمان حول قضايا فرض الضرائب لن يكون لها معنى إذا كان من المستحيل مقارنة منافع الأفراد المختلفين^(٥٣١). وهذا القول يذهب بعيداً نوعاً ما، ولكنه، من الناحية الأخرى، يذهب

(٥٢٨) يمكن العثور على هذا الخطأ، كشاهد على عاداتنا الرخوة في التفكير، في كتابات اقتصاديين مشهورين جداً، مع إنه يجب أن يكون من الواضح، على فرض وجود نية باقتطاع 'مبالغ' متساوية من الإشباع من دافعي الضرائب، أن لا شيء يترتب على 'قانون' تناقص المنفعة الحدية للدخل سوى أن الدخول الأعلى يجب أن تدفع مبالغ مطلقة أكثر مما تدفعه الدخول الأصغر: أما أن الضريبة، المصممة لتحقيق تلك النية، هي ضريبة تصاعدية، تناسية أو تنازلية، فهذا أمر يعتمد على الشكل الخاص الذي نختار تبنيه لذلك القانون بشأن التناقص.

See L. Robbins, 'Interpersonal Comparison of Utility,' Economic Journal, December (٥٢٩) 1938.

(٥٣٠) صحيح أنه قال (Principles, Book 1, ch. 5, p. 76): 'لا نستطيع بشكل مباشر مقارنة الاستمتاع الذي يشعر به شخصان مع التذخين؛ أو حتى ذلك الاستمتاع الذي يحصل عليه نفس الشخص منه في فترتين مختلفتين'. ولكن التشديد هو على كلمة 'بشكل مباشر'؛ وأن الجملة لا تعني سوى القول: مثلاً إن قياس رغبات فرد معين بتحقيق بالضبط دائماً بصورة غير مباشرة بالمعنى الموضح آنفاً، فإن المقارنة بين الأفراد يجب أن تلجأ إلى طرق غير مباشرة. وفي الواقع، فإن محاجة مارشال تفترض غير مرة إمكانية المقارنة من فرد إلى آخر.

(٥٣١) انظر، مثلاً، مقالته حول نظام كاسل، المنشورة كملحق أول للطبعة الإنجليزية من عمله: Lectures, vol. 1, p. 221.

بعيدًا نوعًا ما أيضًا ليشير دون تحفظ إلى أن المقارنة بين الأفراد من حيث المنفعة^(٥٣٢) لا معنى لها بأى مفهوم كان ولأى غرض كان.

على أى حال، فمن زاوية أولئك الاقتصاديين الذين هم خصوم ثابتون لكل من المقارنة بين المنافع الفردية وقياسها، فإن المحاولة فى أى من الأمرين ليست طبعًا أفضل من العوم فى الغيوم. ومع ذلك، فهم لم يفكروا بالتخلّى عن اقتصاد الرفاه. وفى هذا الشأن، فقد كان باريتو أيضًا هو من تقدّم لإنقاذ الوضع، جزئيًا على الأقل. فهو، وبارون من بعده، أوضح أن الاعتراض على المقارنة بين المنافع الفردية (أو إمكانية قياسها) لا يبطل تلك الفرضيات من اقتصاد الرفاه التى تشير إلى أحداث تفيد أو تضر بعض أعضاء المجتمع دون أن تفيد أو تضر أعضاء آخرين^(٥٣٣). إن هذا المبدأ يساعدنا أيضًا، بمعنى ما أكثر تقييدًا، على الحديث عن حدث معين يكون 'مفيدًا اجتماعيًا' حينما يتضرر بعض الأفراد (عند فقد شيء ما) ولكن من يتضررون يمكن كليًا التأمين عليهم (بحيث أنهم لا يعودوا يفضلون وضعهم القديم على الوضع الجديد) على حساب من كانوا قد استفادوا وبحيث يصبح هؤلاء الآخرون فى وضع أفضل مما كانوا عليه من قبل حتى بعد إجراء هذا التأمين^(٥٣٤).

إن العمل النموذجى الذى ينبع منه اقتصاد الرفاه الإنجلو-أمريكى الجديد: عمل البروفيسور بيجو^(٥٣٥) (Economics of Welfare (1920 ; 3rd rev. 1929)، يتجاوز كثيرًا الحدود التى رسمها مقترح باريتو، وبخاصة بالنسبة لتحويلات الثروة من الأفراد الأغنياء نسبيًا إلى الأفراد الفقراء نسبيًا، رغم أنه يراعى إلى حد ما وجهة النظر التى أشير إليها توفًا. ولكن اقتصاد الرفاه الأنجلو-أمريكى الجديد نفسه

(٥٣٢) ربما يتعين على، مثلما قمتُ بالتفسير بالنسبة لإمكانية القياس والتكامل، تفسير إن هذا لا يجب أن يرقى إلى أكثر من القول أنه قد يكون من الممكن صياغة فرضيات حول العلاقة بين أهمية دولار واحد بالنسبة للفرء الفقير، A، وأهمية دولار واحد بالنسبة للفرء الغنى، B، التى تعطى نتائج معقولة فحسب.

(٥٣٣) وهذا يعنى، طبعًا، أن هذه الأحداث، الترتيبات الجديدة، أو الإجراءات، يمكن أن نسميها 'مفيدة' أو 'ضارة' بغض النظر عن أى مقارنة بين الأفراد وبصرف النظر عن السؤال عن حجم استفادة أو تضرر المستفيدين أو الضحايا. إن الحالة التى يكون فيها كل الأفراد مستفيدين أو متضررين تغطيها صياغتنا كما هو واضح.

(٥٣٤) سيدرك القارئ، عند التأمل، إن هذا أكثر مما يكون عليه كما يبدو للوهلة الأولى، أى تعريف مصطنع جدا لما يُراد بجعل 'المجتمع' فى حال أفضل.

(٥٣٥) (Wealth and Welfare (1912 أصلاً).

يحاول احترام تلك الحدود، رغم أن انتهاك الأرض الممنوعة ما يزال يحدث بصورة متكررة. أى أن هذا الاقتصاد يحاول، كقضية مبدأ، الاقتصاد على الفرضيات التى يمكن وضعها دون اللجوء إلى مقارنة المنافع من فرد إلى آخر أو قياسها. إن قيذا ذاتيًا كهذا كان يمكن أن يبدو مثيرًا للاستغراب بسبب حقيقة أن نتيجته الرئيسية هى تجريد الكثير من البنود المساواتية، التى يتعلق بها عاطفيًا معظم الاقتصاديين المعاصرين، من أسسها العلمية أو العلمية المزعومة. ولكن الأمر لا يتطلب حقًا من اقتصادي الرفاه تقييد أنفسهم كثيرًا ذلك لأنه قد تم اكتشاف خطة تساعد على الالتفاف على تلك القيود. تسمى هذه الخطة بالتقييم الاجتماعى Social Valuation وتتمثل باستبدال مفهوم الرفاه الاجتماعى، المعرف كمجموع للإشباع الفردية، بالقاعدة التى تضعها جهة ما لتحديد الأوزان النسبية التى يجب إعطاؤها لرغبات أعضاء المجتمع (التى يتعذر قياسها) ^(٥٣٦). أما أن هذه الجهة ما هى إلا *volonte generale* {قوة الإرادة العامة} التى انتشرت فى القرن الثامن عشر، فهذا أمر ينبغى أن يكون واضحًا؛ وكذلك يتعين أن يكون جليًا الخطر المتمثل فى إن هذا الجهة لم تعد سوى عنوان لاهتمامات ومثل الكاتب الذى يقوم بالتحليل.

وفى ظل هذه الظروف، يبرز السؤال التالى مرة أخرى: بم يختلف اقتصاد الرفاه الحالى عن ذاك الخاص 'بالكلاسيك' الإنجليز ^(٥٣٧). أولاً، يختلف اقتصاد

(٥٣٦) يمكن توضيح هذا من خلال المناقشات البرلمانية حول قضايا فرض الضرائب التى أشار فيكسل إليها. فوفقًا لوجهة النظر الحديثة، لا يستطيع البرلمان أو أى فرد آخر مقارنة منافع الأفراد الذين يتعين عليهم دفع الضرائب ومنافع الأفراد الذين يحصلون على المردود أو النفع بأشكال أخرى من خلال الإنفاق الحكومى المناظر. ولكن هذا لا يهم حقًا؛ فالغالبية البرلمانية نفسها تضى ببساطة قيمة (ترتيبية) مقارنة على التضحيات والمنافع المعنية. وبالمثل، فإن القارئ، دون شك، سيقى القيمة، التى يفضلها، على كل من المزايا المقارنة والمطلقة لكلا الخطوتين.

(٥٣٧) نظرًا إلى أنه يتعذر علينا أن نتناول طرق ونتائج اقتصاد الرفاه، فقد يرحب القارئ بالمراجع التالية. A. Burk (Bergson), 'A Reformulation of Certain Aspects of Welfare Economics,' Quarterly Journal of Economics, February 1938 ; H. Hotelling, 'The General Welfare in Relation to Problems of Taxation and of Railway and Utility Rates,' Econometrica, July 1938 ; N. Kaldor, 'Welfare Propositions in Economics and Interpersonal Comparisons of Utility,' Economic Journal, September 1939 ; J. R. Hicks, 'The Foundations of Welfare Economics,' Economic Journal, December 1939 ; T. de Scitovszky, 'A Note on Welfare Propositions in Economics,' Review of Economic Studies, November 1941 ; O. Lange, 'The Foundations of Welfare Economics,' =Econometrica, July-October 1942 ; G. Tintner, 'A Note on Welfare Economics,'

الرفاه الحالى بتقنيته الأفضل. وثانيًا، أنه يختلف أيضًا بموقفه من نشاط الأعمال وسياسة عدم التدخل وذلك، جزئيًا، لأن هذه التقنية الأفضل تقدم نتائج أفضل، ولكن أكثر بكثير، لأن اهتمامات وجذور الفرد الراديكالي الحديث تختلف عن اهتمامات وجذور الفرد الراديكالي القديم. ولكن اقتصاد الرفاه الحالى، ثالثًا، يختلف أيضًا بظرف معين ليس فى صالحه. إذ إن فرضيات الرفاه الكلاسيكية - بما فى ذلك فرضيات جرمى بنتام - تُبدى إدراكًا واضحًا للتحفظات التى أصبحت تخضع لها الاعتبارات الخاصة بحقائق الرفاه الآنى بمجرد أن نأخذ المستقبل بنظر الاعتبار. وليس أقل وضوحًا، إن مثل هذه الاعتبارات تغيب كليًا عن كتابات اقتصاديى الرفاه الحديثين. إذ إن موضوعهم الوحيد، عمليًا، هو إدارة الوسائل التى تقدمها بنية صناعية قائمة. وهذا الموضوع لا يثير أى اعتراض على فرضيات الرفاه بقدر ما تبقى هذه الفرضيات كتدريبات *exercises* محصورة فى مجال النظرية البحتة وهى توصف هكذا بشكل صريح. ولكنه يثير أكبر اعتراض بمجرد أن يتقدم الاقتصادى المهتم بالرفاه نحو 'التوصية بوصفة ما'، مكرّرًا غلطة منهجية قديمة العهد. إن الاعتراض الرئيسى على الوصفة الأكثر شعبية بين كل وصفات الرفاه - المساواة فى الدخول - لا يتمثل بأن الوصفة لا تمتلك أساسًا يمكن الدفاع عنها بشكل صارم؛ بل يتمثل هذا الاعتراض، حتى حينما يمكن الدفاع عن هذه الأسس، فى أن الوصفة لا تثير الاهتمام قط عند مقارنتها بمسألة آثارها على التطور الحضارى والاقتصادى.

=Econometrica, January 1946.. وتحتل مقالة هوتلنغ Hotelling أهمية خاصة لأنها تتضمن ما قد يكون الفرضية 'العملية' الأكثر شهرة، أى أن تعظيم الرفاه الأقصى (بمعنى ما محدد) يتطلب إنتاج واستهلاك السلع والخدمات بكميات معينة بحيث يمكن مساواة تكاليفها الحدية وأسعارها حتى حينما يتضمن هذا، بسبب تناقص معدل التكاليف، خسائر للصناعة المنتجة - وهى فرضية لها أهمية نظرية كبيرة. وثمة مثال ممتاز آخر حول 'اقتصاد الرفاه الحديث فى وضع عملى at work' وهو عمل البروفيسور ساملمسون: 'Welfare Economics and International Trade,' American Economic Review, June 1938
 'Gains from International Trade,' Canadian Journal of Economics and Political Science, May 1939
 Foundations (1947), ch. 8.

[حينما كتب هذا القسم أصلاً، كانت الإحالة الأخيرة فيه إلى عمل مقالة تنتشر فى مجلة *Econometrica*, January 1946. أما الإحالة إلى عمل ساملمسون (1947) Foundations، فقد أضيفت لاحقًا بقلم رصاص.]

الفصل الثامن النقود والائتمان والدورات

- ١- المشاكل العملية
 - (أ) قاعدة الذهب
 - (ب) نظام المعدنيين
 - (ج) التعاون النقدي الدولي
 - (د) سياسة الاستقرار والإدارة النقدية
- ٢- العمل التحليلي
 - (أ) فالراس
 - (ب) مارشال
 - (ج) فيكسل
 - (د) النمساويون
- ٣- أساسيات
 - (أ) طبيعة ووظائف النقود
 - (ب) النظرية الحكومية حول النقود لدى ناب]
- ٤- قيمة النقود: طريقة الأرقام القياسية
 - (أ) العمل المبكر]
 - (ب) دور المنظرين الاقتصاديين]
 - (ج) هابرلر، ديفزيا، كينز]
- ٥- قيمة النقود: معادلة المبادلة و'منهج الكمية'
 - (أ) تعريف المفاهيم]
 - (ب) التمييز بين معادلة المبادلة والنظرية الكمية]
 - (ج) تكافؤ القوة الشرائية وآلية المدفوعات الدولية]
- ٦- قيمة النقود: منهج الرصيد النقدي ومنهج الدخل
 - (أ) منهج الرصيد النقدي]
 - (ب) منهج الدخل]
- ٧- الائتمان المصرفي و'خلق' الودائع

٨- الأزمات والدورات: النظريات النقدية

٩- التحليل غير-النقدى للدورة

(أ) عمل جوغلار

(ب) أرضية مشتركة و'نظريات' متصارعة

(ج) مناهج أخرى

١- المشاكل العملية

مرة أخرى، كان الجزء الأعظم من الأدب الضخم حول النقود والقضايا المرتبطة بها، الذى قدمته الفترة محل الدرس، نتاجاً للمناقشات التى دارت حول المشاكل الجارية. وقد تضمن هذا الأدب، كما هو شأن الأدب حول النقود على الدوام ماضياً وحاضراً، كمية كبيرة من أعمال ليس لها أى قيمة قط وكمية أكبر من أعمال ليس لها من أهمية من زاوية تاريخ التحليل، مع أنها قيمة فى نطاقها إلى هذا الحد أو ذاك. ومع ذلك، فمن الضرورى، إذ نستعيد ما سبق قوله فى الفصل الثانى، القسم الثانى، أن نشير ثانية، إلى قسم من تلك المشاكل العملية التى حفزت مناقشات هامة إلى حد ما.

(أ) قاعدة الذهب: إن الأدب الغزير حول الاتجاه الذى ساد فى السياسة النقدية خلال الفترة محل الدرس، والمتمثل بتواصل الأخذ قاعدة الذهب أو تبنيها، يستحق تحليلاً أكثر دقة مما نستطيع تقديمه. فقد كان هناك فى كل البلدان، بين مَنْ ناقشوا وقائع actualities السياسة النقدية الوطنية بروح عملية، 'أنصار' مخلصون كثر لهذه القاعدة. وكان بين هؤلاء، على عادة كل مجموعة فى كل مناقشة عملية، متعصبون ضيقو-أفق ليس لهم أى أثر علمى، ولكن مجموعتهم كانت محترمة فى مستوياتها العليا. سوف أشير، على سبيل المثال، إلى بامبيرغر وغيفن ودى بار، رغم أن هناك 'دزينة: دسنة من أمثال هؤلاء الثلاثة من الكتاب من شأنها أن تخدم غرضنا بصورة مماثلة^(٧٠٢).

(٧٠٢) كان لودفيك بامبيرغر Ludwig Bamberger (١٨٢٣-١٨٩٩) ليبرالياً نظرياً نمطياً من الطراز الألمانى-ثورياً عام ١٨٤٨، وخصماً عنيداً للاشتراكية، والحماية، وحتى للضمان الاجتماعى فيما=

وبسبب الحكم السطحي الذي اعتاد بعضنا على تمريره بشأن الفكر النقدي فى تلك الفترة، فمن الضروري أن نلاحظ، أولاً، إن وجهات نظر وتوصيات 'الأنصار' المخلصين كانت تتعرض للهجوم دون انقطاع- بحيث يتعذر أن يكون هناك شيء ما أبعد عن الحقيقة من الفكرة القائلة إن اقتصادى تلك الفترة بشكل عام كانوا، كمجموعة، يولّعون البقرة الذهبية- وثانياً، إن وجهات النظر هذه لم تتلق سوى دعم مشروط من لدن قادة الاقتصاد العلمى ممن اهتموا بالحقل فعلاً. وكما سنرى، فلا يمكن تسمية جيفونس، أو فالراس، أو مارشال، أو فيكسل، أو فيزر، أو فيشر، كأنصار نظريين أو عمليين، دون تحفظ، للنظام المعدنى الأحادى القائم على الذهب. وفيما بعد، علاوة على ذلك، فإن الكساد الذى حدث فى الثمانينيات والتسعينيات أثار مسألة مسئولية الذهب أما عن هبوط الأسعار أو التقلبات الدورية فى الأسعار. وقد أثار ظهور قاعدة الصرف بالذهب -gold-exchange standard السؤال المتعلق بمزايا التداول الفعلى للذهب، الذى كان ريكاردو من قبل، كما نعلم، قد أجاب عليه إجابة سلبية^(٧٠٣).

=بعد ذلك العام. وكعضو فى الرايخشتاغ، فرض بامبيرغر نفسه كمرجع له بشأن النقود وكان هدفه هو جعل ألمانيا تأخذ بقاعدة الذهب وإبقائها هناك. وكان بامبيرغر يعادى نظام المعدنين بقوة (انظر القسم الفرعى ب) وأجهز على حجة هذا النظام بالإشارة إلى ما تخفيه هذه الحجة من مصالح فى الفضة. ولكن المهمة الخاصة التى سعى بامبيرغر بشكل مثابر إلى تحقيقها والظروف التاريخية الخاصة التى فى إطارها طرحت تلك المهمة نفسها أمامه ينبغى أخذهما بنظر الاعتبار قبل أن ندين وجهات نظره من ناحية عدم كفايتها النظرية. وقد نشر ك. هيلفيرخ K. Helfferich الأهم من خطبه ومقالاته العام ١٩٠٠ (Ausgewählte Reden und Aufsätze über Geld- und Bankwesen). السير روبرت غيفن Robert Giffen (١٨٣٧-١٩١٠)، صحفى اقتصادى وموظف حكومى، يعود إلى فئة الاقتصاديين الجديرين بالتقدير وحتى البارزين ممن ليس بوسع هذا الكتاب إنصافهم. ويشكل عمله: Growth of Capital (1889) معلمين فى تاريخ الإحصاء الاقتصادى. وينبغى علينا، هنا، أن نشير إلى دفاعه الباسل عن قاعدة الذهب (Case against Bimetallism, 1892; Evidence before the Royal Commission on Gold and Silver, 1886-8) ومقته الشديد: للأنظمة النقدية الوهمية Fancy Monetary Standards (أى غير الذهبية).

كان ف. ي. دى بار F. E. de Parieu (١٨١٥-١٨٩٣) أهم هؤلاء الكتاب الثلاثة إلى حد بعيد. كان دى بار فرداً عادياً- نصف سياسى، نصف موظف حكومى -وقد تخصص فى حقول فرض الضرائب (ضريبة الدخل وما يرتبط بها من قضايا) والسياسة النقدية. وبدءاً من العام ١٨٥٧، إذ أدرك الاندفاع الحتمى للأشياء، فقد دافع دى بار عن قاعدة الذهب - ولكن مع مراعاة ملائمة لمشاكل الفضة الفرنسية - والتعاون النقدى الدولى (انظر القسم الفرعى ج، أدناه). أما عمله حول النقود، فيرد فى تقاريره المختلفة. وسبق أن أشرنا إلى عمله حول المالية العامة. [اعتزم ج. شومبيتر أن يفعل ذلك فى القسم السادس، غير المكتمل، من الفصل السادس، ولكنه لم يفعل].^(٧٠٣) تعود فكرة قاعدة الصرف بالذهب إلى أحد المهنيين أساساً. ولم يكن للتحليل العلمى سوى شأن=

(ب) نظام المعدنين: كان نظام المعدنين أخصب المصادر للمناقشة 'العملية' طوال الفترة. يتضمن الأدب الشعبى والسياسى لأنصار الفضة- إنصاف الفضة؛ عملة الأجداد؛ إن البشرية لن تُصلبَ على صليب ذهبي- حججاً كثيرة تواصلت على مستوى أوطأ بكثير من أى شيء يمكن العثور عليه لدى أنصار الذهب. وبشكل خاص، فقد ابتلى ذلك الأدب بأعمال ذات طبيعة شبه-مرضية لأن نظام المعدنين كان فى مقدمة مصادر الأوهام النقدية فى ذلك الوقت. ومع ذلك، فالحقيقة هي أن حجة نظام المعدنين، فى مستواها الأرفع، كانت هي أفضل ما فى المناقشة حقاً، حتى بمعزل عن الدعم الذى قدمه عدد من الكتاب البارزين لنظام المعدنين^(٧٠٤)- وهى حقيقة تميل إلى طمسها تلك الأعمال شبه المرضية وكذلك انتصار مجموعة أنصار نظام الذهب.

(ج) التعاون النقدى الدولى: إن الاتحادات والاتفاقات النقدية العالمية مثل الاتحاد اللاتينى، الاتحاد الاسكندنافى، الاتحاد الألماني (قبل تكوين الإمبراطورية) قد أوحى بصورة طبيعية بمخططات أكثر شمولية. وبمبادرة من فرنسا، انعقد فى باريس عام ١٨٦٧ مؤتمر نقدي عالمي نجح إلى حد مدهش، بقيادة دي بار de Parieu، فى البقاء بعيداً عن وكر أنصار نظام المعدنين وقام بدرس مسألة سك الذهب على مستوى عالمي موحد وتبنى ما كان، إلى حد بعيد، أكثر المقترحات جرأة منذ أيما وقت مضى لتكوين اتحاد نقدي عالمي. ولكن ضغط الولايات المتحدة

=ضئيل بهذا 'الاكتشاف'، إن كان له أصلاً. ومع ذلك، فتمهت عدد من التفسيرات المهمة لقاعدة الصرف قدمها الاقتصاديون العلميون نكتفى منها بما يلي، L. von Mises, 'The Foreign-exchange Policy of the Austro-Hungarian Bank,' Economic Journal, June 1900 ; J. M. Keynes, Indian Currency and Finance (1913) ; Fritz Machlup, Die Goldkernwahrung (1925) ; C. A. Conant, 'The Gold-Exchange Standard,' Economic Journal, June 1909 وعدد من المقالات والتقارير الهامة قدمها إي. دبليو. كيمرر E. W. Kemmerer: انظر، مثلاً، تحليله لحالة مستوطنات ستراتس فى مجلة: Political Sciences Quarterly, xix and xx1 (December 1904 and December 1906).

(٧٠٤) ومع ذلك، فمن المستحيل اختيار أمثلة من ذلك السيل من المنشورات. وبدلاً من ذلك، سوف أذكر عملياً لهما مكانة علمية لا يرقى إليها شك ويصلحان كمدخل إلى الأدب المتداول أيضاً: J. S. Nicholson, Treatise on Money and Essays and Monetary Problems (1888), and F. A. Walker, International Bimetallism (1896). كانت هناك جمعية لأنصار نظام المعدنين نوصى القراء الذين يرغبون بمتابعة الموضوع أكثر الإطلاع على منشوراتها. كما يمكن العثور على مادة إضافية فى التقارير والكتابات الأخرى ل س. دانه هورتون S. Dana Horton الذى يأتى بعد ووكر، المدافع الأمريكى البارز عن نظام المعدنين العالمى. أما العمل التحليلي البحث، البارز، فهو عمل فالراس: (Elements, leçons 31 and 32).

فى المؤتمرات اللاحقة، ١٨٧٨، ١٨٨١ و ١٨٩٢ أدى إلى حَرف المناقشة والمقترحات باتجاه نظام المعدنين، قاتلاً بذلك الفكرة الأصلية^(٧٠٥). ومع ذلك، وفى مؤتمر عام ١٨٩٢، قدّم الاقتصادى الألمانى يوليوس وولف Julius Wolf فكرة جديدة مفادها إيداع احتياطى عالمى من الذهب فى بلد محايد وأن يجرى إصدار البنكنوتات العالمية على أساس هذا الاحتياطى - وهى الفكرة التى حقّقها جزئياً فيما بعد، ولو فى شكل آخر مختلف كلياً، الصندوق الدولى المعروف بمؤتمر بريتن وودز Bretton Woods.

(د) سياسات الاستقرار والإدارة النقدية إن الفتنة الرئيسية لحجة نظام المعدنين، على الأقل بالنسبة للأفراد الذين ليس لهم مصلحة مباشرة بإنتاج الفضة، تتمثل طبعاً بالآفاق التى أتاحها هذا النظام بسبب الأسعار المرتفعة. ومع ذلك، ومن الناحية الرسمية، فقد فضّل أنصار نظام المعدنين التحدث عن العمل على استقرار مستوى السعر stabilizing the price level. ولكن كانت هناك مخططات أخرى لسياسات الاستقرار stabilization، لا ترتبط بالفضة، كالمخططات الساعية لإبعاد الذهب عن التداول كلياً واستعمال نقود ورقية. ومع أن مستوى السعر، خلال ثلاث عقود من تذبذب الأسعار، يمثل أساساً ما عمل الناس على استقراره (وكما هو الحال دائماً، فثمة خلط، مقصود أو غير مقصود، بين هذا وبين هدف إبقاء أسعار فردية معينة مرتفعة، وبخاصة أسعار المنتجات الزراعية)، بيد أن وجود أهداف أوسع لم يكن غائباً قط. فحتى مجرد هدف استقرار الأسعار يفترض الاهتمام باستقرار الوضع الاقتصادى للبلاد المعنى - بوصفه الدافع الرئيسى للاقتصادى البحث له. وإضافة إلى ذلك، وبخاصة بالارتباط مع المناقشات حول قاعدة الصرف بالذهب، كان هناك حديث واسع عن استقرار المعدلات النقدية للفائدة money rates^(٧٠٦).

(٧٠٥) حول هذه المؤتمرات، التى تتضمن تقاريرها مساهمات كثيرة لها قيمة تحليلية، انظر: H. B. (Russel, International Monetary Conferences (1898).

(٧٠٦) إن 'كوميديا الأخطاء'، الموجود فى كل مناقشة بشأن السياسة الاقتصادية تقريباً، يمكن توضيحه بصورة مفيدة من خلال مثال واحد يخص ذلك النطاق من المشاكل. فحينما تبنت النمسا، فى التسعينات، قاعدة الصرف بالذهب، ذهب السياسيون والصحافة إلى أن أحد مزايا هذا الترتيب هو ضمان أسعار فائدة أقل مما يمكن أن تكون عليه فى حالة عملة ذهبية متطورة fullfledged gold currency. ومن السهل بالتأكيد فصل الحقيقة عن الزيف فى هذا القول. إن مصرفاً مركزياً يريد أن يُبقى أسعار الصرف ضمن نقاط الذهب ينبغي عليه، فى المدى الطويل، أن يفعل كل ما يفعله مصرف مركزى فى ظل قاعدة الذهب المتطورة ويمتنع عما يجب أن لا يفعله مصرف كهذا. وعليه، فإن أسعار الفائدة، فى سوق للنقود يعمل فى ظل قاعدة الصرف بالذهب، لا يمكن عادة أن =

وهذا كله كان يعنى الحديث عن فكرة الإدارة النقدية من هذا النوع أو ذاك. فنظام المعدنين، مثلاً، يعنى الإدارة كلما كان من الضروري، لكى يعمل هذا النظام، تنظيم سعر الفضة- أى تثبيت هذا السعر عن طريق شراء الفضة بغية منعها من إقصاء الذهب عن التداول- ذلك لأن النظام النقدي فى هذه الحالة يكف عن العمل بصورة تلقائية. كما أن كل المخططات التى ذهبت أبعد من هذا تضمنت المزيد من الإدارة، طبعاً. وكمثال، أشير إلى مقترح استحق بعض الدعم: مقترح تكوين عملة ورقية غير قابلة للتحويل يتولاها قسم حكومى معين يقوم بشراء السندات الحكومية مقابل هذه العملة- لزيادة السيولة- كلما هبط مستوى السعر، ويبيع هذا القسم السندات الحكومية - لتخفيض السيولة - مقابل هذه العملة كلما زاد مستوى السعر. يمكن اعتبار هذا المقترح أحد بشائر عمليات السوق المفتوحة لنظام الاحتياطي الفدرالى. ولكن فكرة عمليات السوق المفتوحة كانت مألوفة فى أشكال أخرى أيضاً. ذلك لأن الإدارة النقدية لم تقتصر على إدارة العملة. فقد امتدت إلى إدارة الصرف الأجنبى، وبدرجة أهم، إدارة الائتمان المصرفى^(٧٠٧). كما أن الإدارة النقدية لم تبقى فى عالم 'الخطط'. إذ مارسها بصورة متزايدة كل المصارف المركزية الكبيرة^(٧٠٨). وليس صحيحاً أن الإدارة النقدية من هذا النوع والأنواع الأخرى لم يكن لها من غرض سوى حماية رصيد بلد ما من الذهب. فقد مورست هذه الإدارة لأغراض العلاج. لقد اختلفت هذه الأغراض عن أغراضنا فى الوقت الحاضر وإن التشغيل الكامل لم يشكل الهدف المهيمن. ولكن من المضلل أن يُبالغ

=تكون أقل مما يمكن أن تكون عليه فى سوق للنقد يعمل فى ظل قاعدة ذهب متطورة. ولكن، أولاً، إن الكمية الكلية من الذهب الضرورى للشروع بنظام قاعدة الصرف بالذهب تقل عن الكمية الكلية من الذهب الضرورى للشروع بنظام ينطوى على تداول فعلى للذهب. وعليه، فإن أسعار الفائدة النقدية فى البداية ليس من الضرورى إبقاؤها عند مستوى عال لوقت طويل فى الحالة الأولى بالمقارنة مع ضرورة ذلك فى الحالة الثانية. ثانياً، مع سيطرة المصرف المركزى على كل خزين الذهب النقدي فى بلد ما، فإن تجنب ضرورة تغيير سعر المصرف rate عند المرور بمراحل صعبة أسهل فى الحالة الأولى مما فى الحالة الثانية. ومع ذلك، فإن السياسيين والصحافة اليومية زعموا أن أسعار الفائدة ستكون فى ظل قاعدة الصرف بالذهب أقل مما يمكن أن تكون عليه فى ظل قاعدة ذهب متطورة. وحينما تحمس الاقتصاديون المهنيون لدحض هذه الفرضية الخاطئة، فإنهم فشلوا عادة بالتسليم بالفرضيتين الصحيحتين بحيث، وكما يحدث كثيراً فى حقلنا، إن كلا طرفى السجال كانا، من حيث النتيجة، على صواب وخطأ فى الوقت نفسه.

(٧٠٧) وهكذا، فإن قضية السيطرة على الائتمان مقابل السيطرة على النقود، التى امتدت إلى عهود حديثة جداً، كانت قد نوقشت فى عهود سابقة.

(٧٠٨) بالنسبة لإنجلترا بشكل خاص، انظر: W. T. C. King, History of the London Discount Market (1936).

فى التشديد على الأهمية التى مُنحت حينذاك لأداء لعبة قاعدة الذهب لذاتها مثلما إن من المضلل أن يجرى الحديث عن الأنظمة النقدية قبل عام ١٩١٤ 'أنظمة تلقائية' (٧٠٩). وما لم يتم فهم هذا بصورة صحيحة، فمن المستحيل تقدير تطورات المذهب فى ذلك العهد سواء بحد ذاتها أو فى علاقتها بالفكر فى وقتنا الحاضر.

وفى ما عدا ذلك، ينبغى أن نكتفى بملاحظة بعض الأعمال التى كتبها القادة العلميون فى حقل 'الإصلاح النقدى'. فقد صاغ جيفونس خلاصة ما بدا له 'نظام أمثل للعملة' (٧١٠)، يكف فيه الذهب، رغم أنه يبقى كوسيلة للمبادلة وأساس عام للقيمة، أن يكون مقياساً للمدفوعات المؤجلة، 'لمبالغ الديون، مع أنها، معبراً عنها بالذهب، تتغير بصورة عكسية كلما تغيرت قيمة الذهب من خلال سلع أخرى'. وقد أحى هذا 'خطة المقياس-المجدول' tabular-standard plan التى وضعها لو Lowe (انظر، الجزء الثالث، الفصل السابع، القسم الثالث) ويشكل أيضاً النقطة الأساسية فى مقترحات مارشال (٧١١). ومع ذلك، تتضمن المقترحات الأخيرة فكرة جديدة. فببنى مارشال لخطة ريكاردو: ingot plan، فإنه رأى وجوب أن تتألف هذه المسكوكات ingots من الذهب والفضة معاً وأن سبائك فضية من وزن معين يجب

(٧٠٩) بدت هذه الأغراض أكثر تلقائية مما كانت عليه لأن أداءها كان سلساً. وعلاوة على ذلك، فحينما يبدو مصرف إنجلترا وكأنه قد تفاعل (إحصائياً)، عبر سياسة الخصم، مع التدفق الداخلى أو الخارجى للذهب بشكل رئيسى، فينبغى عدم نسيان، فى ظل الظروف التى سادت حتى عام ١٩٠٠ تقريباً، إن التفاعل مع تدفق الذهب داخلياً وخارجياً كان يتضمن جوهرياً نفس السلوك كما لو أن المصرف سيتفاعل مع وضع نشاط-الأعمال المحلى، فى تسع من أصل عشر حالات. وحينما كف هذا عن أن يكون كذلك، فإن المصارف المركزية كانت تلجأ بصورة متزايدة إلى 'الإجراءات الذهبية' gold devices، أى أنها كانت تهجر بشكل متزايد لعبة قاعدة الذهب الأصولية.

(٧١٠) كتب هذا العمل العام ١٨٧٥ ولكنه نشر لأول مرة فى عمله المهم: Investigations in Currency and Finance الذى نشرته، بعد وفاة جيفونس، السيدة جيفونس والبروفيسور فوكسويل Foxwell العام ١٨٨٤. ونلفت النظر إلى مقدمة فوكسويل.

(٧١١) لتوفير المجال، سأهمل الجوانب الأخرى من مخطط جيفونس التى نصب فى اتجاه نقود دولية ونظام مقاصفة يقوم على الذهب. أما مآثر مارشال، فقد أبصرت النور، فى دور 'ساحر-عملة هاوى' (كما صاغها هو)، فى مقالة قدمها فى مؤتمر التعويض الصناعى العام ١٨٨٥ وهى تحمل عنواناً مهماً: How far do remediable causes influence prejudicially (a) the continuity of employment, (b) the rates of wages ? (إلى أى حد تؤثر بصورة ضارة القضايا القابلة للعلاج على (أ) استمرار التشغيل، (ب) معدلات الأجور؟) (انظر مذكرات كينز حول سيرة مارشال: Essays in Biography, p. 204). وفى شهادته أمام اللجنة الملكية حول كساد التجارة والصناعة (١٨٨٦)، وأمام لجنة الذهب والفضة (١٨٨٧-١٨٨٨) وأمام لجنة العملة الهندية (١٨٩٩)، التى نشرت فى (Official Papers (1926) وفى مقالته: 'Remedies for Fluctuations' (F. Y. Edgeworth, 'Thoughts on Monetary Reform,' Economic Journal, September 1895).

‘ربطها’ قانونيًا بسبائك ذهبية من وزن معين بحيث تشكل الوحدة النقدية حقًا معينًا على كميات من الذهب والفضة بنسبة ثابتة (Symmetallism). أما مقترح ارفنج فيشر^(٧١٢): الدولار المعوّض Compensated Dollar، فقد ربطَ تبنى قاعدة الصرف بالذهب بخطة لتغيير محتوى الوحدة النقدية من الذهب وفقًا للتغيرات في رقم قياسي رسمي للأسعار بحيث إن الدولار يجب أن يمثل كمية ثابتة من القوة الشرائية بدلًا من كمية ثابتة من الذهب. أخيرًا، دافع فالراس عن خطة ترتبط بالممارسة الجارية في فرنسا بطريقة أصيلة بقدر ما كانت خطة بسيطة. فالذهب كان يجب أن يبقى المعدن النقدي الأساسي وينبغي سكه للحساب الخاص دون حد. أما الفضة، فكان يجب أن تقدم المادة للعمليات المساعدة (billion) التي كان يتوجب عليها ليس فقط تجهيز قطع النقود الصغيرة (billion divisionnaire) بل أيضًا تجهيز نوع من النقود القانونية الحكومية لاستعمالها لغرض السيطرة على مستوى السعر (billion regateur): إذ كان يتوجب على الحكومة زيادتها حينما تهبط الأسعار وتقلص إصدارها عند ارتفاع الأسعار. إن الصدى الحديث لهذا المقترح لا يحتاج إلى تشديد. وقد أضاف فالراس مقترحًا آخر يجعل منه أحد رواد مشروع ‘الاحتياطي بنسبة ١٠٠%’ الذي طرح في وقتنا الحاضر. إذ أدرك فالراس، ولو في حالة البنكنوتات فقط، حقيقة إن المصارف تخلق وسائل دفع أو، كما صاغها هو، إن المصارف تستطيع إقراض المنظمين دون أن تقترض نفس المبلغ من الرأسماليين (المدخرين). ولكنه لم يستحسن المقترح. فقد اقترح استعمال فائض الفضة لسك عملات فضية إضافية بمبلغ البنكنوتات المعلقة outstanding banknotes - ناقصًا كمية الرصيد من النقود القانونية التي تحتفظ بها المصارف المصدرة - ولكبح الأخيرة^(٧١٣).

ولسنا هنا بصدد مناقشة حسنات وعيوب هذه الخطط. فقد أشرنا إليها لسببين: أولاً، لأنها تبين كيف أن الاعتقاد القائل إن القادة العلميين لم يهتموا بمشاكل الإصلاح النقدي حتى يومنا هذا هو اعتقاد لا يقوم على أساس قط؛ ثانيًا، لأن هذه الخطط كانت تقوم على أساس العمل التحليلي، الذي ينبغي تقدير أهميته الكبيرة بمعزل تمامًا عما إذا كنا نحب هذه الخطط ذاتها أم لا.

(٧١٢) انظر: Irving Fisher, assisted by Harry G. Brown, The Purchasing Power of Money (1st ed., 1911)

(٧١٣) Etudes d'economie politique appliquee, 1 and v

٢- العمل التحليلي

تمثل قصة العمل التحليلي البحث في هذه الفترة- الذى سنقتصر عليه حصراً تقريباً بدءاً من الآن- قصة تقدم ظافر^(٧١٤). فمع أن القادة شاركوا بحماس- كما رأينا توّاً- فى المناقشات حول المشاكل العملية فى وقتهم، بيد أن عملهم كان أقل تأثيراً بهذا الدافع من عمل سلفهم: فقد انطلق التحليل وفقاً لزعيمه الذاتى أكثر من السابق، إذا صح التعبير، وأن الجذور العلمية البحتة للأفكار- للتغير فى المذاهب الذى لا يشكل مجرد رد فعل للوقائع المتغيرة والأمزجة السياسية المتغيرة- تبدو واضحة أكثر مما كان عليه الحال فى الفترة السابقة. وأن الطرق والنتائج القيّمة هنا، أكثر مما فى الحقول الأخرى من علم الاقتصاد، قد تطورت انطلاقاً من رصيد المعرفة القائم مسبقاً: ففى 'النظرية العامة'، إذا اخترنا أن نعبر هكذا، يمكن أن نتحدث عن ثورة؛ أما فى النظرية النقدية، فلم يكن هناك سوى تطور قوى. إذ لم يحدث أى تغيير كبير break فى العمل الذى وضعه ج. س. ميل بشكل نظامى تماماً. ومع ذلك، فقد تم بالفعل غزو معظم الأرضية التى تقف عليها بنية التحليل النقدى اليوم.

إن الصورة العامة، التى أحاول تقديمها، تعترضها إلاّ فى حالات نادرة، استحالة وضع تقرير عن العمل الوقائعى فى تلك الفترة، بحيث يكون، على الأقل، على نفس قدر أهمية 'النظريات' بالنسبة لأغراضنا. ولكن كل ما يكن عمله فى خلاصة كهذه هو أن نشير إلى أنواع من هذا العمل وأن نعطي مثلاً أو مثالين عن كل نوع. هناك، أولاً، تقارير رسمية ممتازة حقاً: فإضافة إلى التقارير الإنجليزية التى تأتى فى الصدارة كما هى العادة، سأشير ثانيةً إلى تلك المؤتمرات النقدية العالمية وإلى اللجنة النقدية الوطنية الأمريكية (١٩١١-١٩١٢). ثانياً، ثمة تواريخ

(٧١٤) تكفي أربعة أمثلة: عمل البروفيسور مارغيت Marget (Theory of Prices, 1934-42) الذى يشكل أفضل دليل إلى تاريخ التحليل النقدى خلال الفترة، رغم أنه لم يكتب من الزاوية التاريخية أساساً؛ كما ينبغى أن نشير، ثانيةً، إلى عمل البروفيسور رست Rist: History of Monetary and Credit Theory (English trans., 1940)؛ كما يقدم عمل البروفيسور هاوارد اليس Howard Ellis: Germany Monetary Theory, 1905-1933 (سوية مع المراجع المقتطف منها هناك أو المذكورة فى ثبت الإحالة) معالجة وافية بالعمل المتحقق فى حقله؛ كما أن عمل ف. ف. فاغنر V. F. Wagner (Geschichte der Kredittheorien (1937) يكمل عمل البروفيسور رست بصورة مفيدة.

حول العملات والصيرفة - مثل عمل دبليو. أ. شاو W. A. Shaw: History of Currency, 1252-1894 (1895) أو عمل دبليو. غ. سامنر W. G. Sumner (A History of American Currency 1874). ثالثاً، قدمت الفترة ذخيرة من المواد ما تزال تحتفظ بأهميتها - حيث يشكل عمل أدولف سوتبر Adolf Soetbeer (1814-1892): Materialien zur Erläuterung der wirtschaftlichen Edelmetall-verhältnisse (1885؛ الترجمة الإنجليزية من الطبعة الثانية، 1877، التي يتضمن الجزء السابع منها: جداول الأسعار التي يشتهر بها) المثال البارز على هذا النوع من العمل الوقائي. النوع الرابع يمثل العمل الإحصائي للسير ر. ه. انغلز بالغراف R. H. Inglis Palgrave حول المصارف المركزية، وبخاصة مصرف إنجلترا (الذي يجرى تلخيص معظمه في عمله: Bank Rate and the Money Market, 1903 الذي يمثل تحفة فنية تجعل الأرقام تتكلم: من الصعب جداً صياغة استنتاجات محددة، ولكن من يقرأ هذا العمل صفحة صفحة يكشف موضوعه بغة. خامساً، ينبغي أن نشير إلى تسلسل الطرق الإحصائية الحديثة إلى هذا الحقل - والمثال الأقدم المعروف لدى هو عمل ج. ب. نورتن J. P. Norton: (Statistical Studies in the New York Money Market (1902).

فلماذا، إذن، يُشار أحياناً باستخفاف إلى عمل تلك الفترة وأن كثيرين منا يضع مسافة غير واقعية قط بينه وبين عملنا في وقتنا الحاضر؟ أحد الأجوبة يتمثل في إن نوعية الجهد المبذول لتطوير evolutionary quality تلك الطرق والنتائج الجديدة يبدو وكأنه مجرد صياغات جديدة للمادة القديمة. ولكن ثمة إجابة أخرى، إجابة تثير اهتمام من يدرس آليات 'التقدم' العلمي. إذ فشلت تلك الفترة في تطوير وأنظمة systematize فتوحاتها بشكل ما يضعها في متناول كل الاقتصاديين بشكل جاهز، سوية مع كل المضامين والتطبيقات التي صُيغت وتجلت بصور ملائمة على طبق كبير من فضة. ولذلك، لم تتغلغل هذه الفتوحات في التيار العام للأدب، وبخاصة في المراجع المدرسية، بحيث إن النقد الذي يحط من مكانتها، رغم أنه يستثير الازدراء ذاته لدى علماء كالبروفيسور مارغيت Marget، كان في وضع يسمح بتعزيز نفسه بمقتطفات من التيار العام - بل ومن كتب معروفة، وناجحة، وممتازة (بطريقتها هي) كعمل كارل هيلفرش Karl Helfferich: Das Geld (1903)، أو كتاب ج. ل. لوالن J. L. Laughlin: Principles of Money (1903)، أو

عمل هوراس وايت (Horace White: 1904) (Popular Money and Banking)، أو كتاب ديفيد كنلى David Kinley: (1904) Money، أو عمل الفريد دى فوفل Alfred La Monnaie (1907: de Foville). بل إن عمل أدولف فاغنر Adolf Wagner: (1909) Sozialökonomische Theorie des Geldes الذى يخلق عاليًا ويتضمن عدة نقاط أصيلة، ليس فى حال أفضل كثيرًا، وإن عمل كارل نيس Karl Knies: Geld und Kredit (1873-9) لم يصف سوى القليل إلى الموضوعات التى يشملها عنوانه، رغم أهميته من نواحٍ أخرى.

ومع ذلك، وللإنصاف، ينبغى علينا بالتأكيد أن نشير، على الأقل، إلى تلك المراجع المدرسية التى تبرز من بين بقية المراجع لهذا السبب أو ذاك: عمل جيفونس: (1875) Money and the Mechanism of Exchange الذى صدر فى عدة طبعات - وهو عمل جذاب تتزين فيه أحياناً عناصر مبتذلة إلى حد ما من خلال لفئات أصيلة؛ عمل ج. شيلد نيكولسون J. Shield Nicholson: Treatise on Money (1888) (and Essays on Monetary Problems) - وهو عمل لم يزل قط التقدير الذى يستحقه؛ كتاب ف. ووكر F. Walker المدرسى الشهير: (1878) Money الذى قد يمثل أفضل وسيلة للتعرف على المذهب القائم فى تلك الفترة فى أفضل أحواله؛ عمل تيوليو مارتيلو Tullio Martello: (1883) La Moneta الذى لا تقلل من قيمته إلا قليلاً بعض الأوهام الليبرالية حول حرية السك؛ عمل أ. ميسداغليا A. Messadaglia: (1882-3) La Moneta... - وهو أحد أفضل أعمال الأدب العلمى حول النقود التى سبقت أعمال فالراس-مارشال-فيكسل-فيشر. وإضافة إلى ذلك، تتبغى الإشارة إلى الأجزاء، أو الكتب، أو الفصول، التى تُعنى بالنقود، من الأبحاث العامة - كأبحاث بيرسون أو ديفزيا أو كولسون^(٧١٥) ولكن يجب علينا أن نقتصر على الكتاب الثالث من عمل كاسل Cassel: Theoretische Sozialökonomie (1918, 4th ed., rev. 1927; English trans., 1927, new ed. 1932). إن هذا العمل يستحق أن يتم تمييزه لأنه يطرح، بوضوح لا يترك مجالاً للشك، مثلاً حول وجهة النظر القائلة إن المنطق الأساسى للعملية الاقتصادية مستقل كلياً عن الظاهرة النقدية التى تتمثل نظريتها أساساً فى نظرية مستوى السعر فحسب - التى وفقاً لها، تتحول الأسعار النسبية (نسب التبادل)، إلى أسعار نقدية مطلقة وفق خطوط

(٧١٥) حول بيرسون Pierson، ديفزيا Divisia، وكولسون Colson، انظر الفصل الخامس، أعلاه.

النظرية الكمية - مما يجعلها حقاً وليس ظاهراً فقط خارج كيان النظرية الاقتصادية العامة. ومن هذه الناحية، فقد فات كلياً على كاسل أن يفهم أهمية رسالة فالراس التي تتبّعها هو بدقة من نواح أخرى. ولكن إذا أخذنا هذه المعالجة كمثال على وجهة نظر حول الموضوع تم نبذها كلياً، فينبغي علينا أن نضيف أن كاسل يمثل وجهة النظر هذه أحسن تمثيل وبالتالي فإن معالجته تحتفظ بأهميتها. كما أن هذه الأهمية ليست تاريخية فقط. إذ يمكننا أن نستعمل كاسل كلما شئنا أن نعرف ما يعنيه حقاً تقدمنا نحن.

إن وصفاً موجزاً لطبيعة ومصير الأعمال التحليلية الرئيسية في الفترة سيوضح هذه الحالة المتناقضة للأشياء.

(أ) فالراس أولاً، كان عمل فالراس أكبر تلك الأعمال إلى حد بعيد^(٧١٦). وبنفس المعنى الذي يصح فيه القول إن فالراس قد خلق الستاتيكا الاقتصادية، النظرية الحديثة للتوازن الاقتصادي، فمن الصحيح أن نقول إنه خلق النظرية الحديثة للنقود. وفي الواقع، لا تشكل نظريته للنقود والانتماء سوى جزء من نظريته العامة للتوازن الاقتصادي. ولذلك، فقد حقق فالراس، إلى حد بعيد، الأهمية الكبرى التي جرى التشديد عليها في السنين العشرين الأخيرة، أي ضرورة دمج تحليل النقود بنظام النظرية العامة بدلاً من تطويره بشكل مستقل ومن ثم لصقه بها. وبقدر تعلق الأمر بالستاتيكا النقدية، فإن كل الفرضيات المطوّرة حول النقود والعمليات النقدية ترد أما في نظامه أو يمكن اشتقاقها منه بواسطة فرضيات إضافية. وهكذا، وكما أوضح لانج^(٧١٧)، فإن تحليل كينز، الوارد في عمله General Theory (وليس في عمله Treatise الصادر العام ١٩٣٠) لا يمثل سوى حالة خاصة من النظرية العامة حقاً لفالراس. ولكن فالراس، كما رأينا، لم يصل إلى تحليله الخاص به حتى العشرينيات. فالتأثير الذي أحدثه خلال الفترة محل

(٧١٦) لا نجد نظرية فالراس البحتة حول النقود وهي مطوّرة تطويراً كاملاً إلا في الطبعة الرابعة من عمله: (Elements d'economie politique pure (1900). لقد استغرق تقدمه البطيء نحو هذه القطعة الأكثر أهمية من التحليل النقدي الفترة ١٨٧٦-١٨٩٩ حيث تجلت نقطة البداية والخطى الفردية في الطبعت الثلاث الأولى وفي عدد من المذكرات حول المشاكل التطبيقية التي تحولت أخيراً إلى عمله: Etude d'economie politique appliquee (انظر الفصل السابع، القسم ٥، أعلاه).

(٧١٧) انظر: O. Lange, 'The Rate of Interest and the Optimum Propensity to Consume' Economica, February 1938.

الدرس تم عبر فيكسل وبانتليوني بشكل رئيسي. ولم يقدّر حتى هذا الكاتبان أهمية عمله عن النقود بصورة كاملة. بل إن خلفه المباشر: بارييتو، لم يبصر تلك الأهمية قط وأنكفى أكثر مما تقدّم في هذا الحقل المحدد. وقد عثر فالراس على اثنين من الأتباع الممتازين. بيد أنهما لم يكونوا معروفين قط تقريباً: أوبييت وشليسنغر^(٧١٨).

وبقدر تعلق الأمر بالفترة محل الدرس، فإن نظرية النقود لدى فالراس ليس لها وجود بالنسبة للغالبية العظمى من الاقتصاديين. ومع ذلك، أنتهز الفرصة للإشارة إلى العمل الأصيل لدليل فكيو، الذي انطلق، من أسس فالراس جزئياً، في السنوات الأخيرة من تلك الفترة^(٧١٩).

وقد يكون من الملائم أن نشير هنا إلى كيان آخر من العمل حول النقود يرتبط بعمل فالراس وهو عمل ارفنج فيشر. لقد جاء معظم هذا العمل متأخراً جداً بحيث لم يحدث تأثيره في حدود هذه الفترة. وحينما ظهر بالفعل، كان الاهتمام المهني منصباً على كتاب واحد لفيشر: (The Purchasing Power of Money (1911) الذي حجب نجاحه حقيقة أنه يقدم جانباً واحداً فقط - وهو ليس بالجانب الأهم - من النظرية النقدية لمؤلفه، كما تفهم هذه العبارة في وقتنا الحاضر. فمنذ نشر هذا الكتاب، جرت العادة على تصنيف فيشر كنصير لشكل جامد بشكل خاص من النظرية الكمية (انظر القسم الخامس، أدناه) وتم إهمال كل مساهماته الأخرى في التحليل النقدي للعملية الاقتصادية ككل - التحليل النقدي بالمعنى الذي يمثل فيه عمل كينز: General Theory تحليلاً نقدياً. ويعود هذا الأمر، حينذاك والآن، إلى أن فيشر لم يسم هذه المساهمات تحليلاً نقدياً أو تحليل دخل بل اختار عناوين أخرى مثل نظرية الفائدة أو الازدهار والكساد. وبالنتيجة، فإن قراءه لم يحصلوا قط على تصور كامل عن عمله حول النقود، ولم يلاحظوا خط فالراس فيه بشكل خاص^(٧٢٠).

A. Aupetit, Essai sur la theorie generale de la monnaie (1901) ; Karl Schlesinger, (٧١٨) Theorie der geld und Kreditwirtschaft (1914). يشكل هذان الكتابان، وبخاصة الثاني، مثالين مدهشين على حقيقة أن العمل من الدرجة الأولى ليس شرطاً ضرورياً أو كافياً للنجاح. (٧١٩) شرع غوستاف ديل فكيو Gustav Del Vecchio، البروفيسور في جامعة بولوغنه، بنشر سلسلة من المقالات العام ١٩٠٩. وقد تم تجميعها في عمله (Grundlinien der Geld-theorie (1930)، وبشكل أكمل، في عمله (Ricerche sopra la teoria generale della moneta (1932).

(٧٢٠) وعملياً، فإن كل الكتب والمقالات الكثيرة للبروفيسور فيشر هي أعمال مهمة بالنسبة للعالم الذي قد=

(ب) مارشال، يمثل عمل مارشال العمل العظيم الثانى فى العقود الثلاثة الأخيرة من القرن التاسع عشر^(٧٢١). وكما فعل فالراس، ولو بصراحة أقل، فقد أبصر مارشال المشكلة النقدية كجزء من التحليل العام للعملية الاقتصادية وكأحد الأبواب المؤدية لنظرية التشغيل. وعلى نحو أكثر وضوحاً من فالراس، ولو بتشديد أقل من فيكسل، فإن مارشال قد علم أهمية التمييز بين سعر الفائدة 'الحقيقى' و'النقدى'، وأهمية الاعتناء بتفاصيل الآلية التى تؤثر فيها التغيرات فى كمية النقود على النظام الاقتصادى. وكانت هناك تلميحات كثيرة توحى بتطورات مستقبلية، مع أن بضعا منها فقط سيجرى ذكرها فى هذا الفصل. وقد أمسك مارشال بكل العناصر اللازمة لخطوة حاسمة إلى أمام، مع أنه هو نفسه لم يُقدم على هذه الخطوة. وبخلاف فالراس، كان مارشال فى وضع قيادى فعال حقاً. فبدءاً من عام ١٨٨٥، كان يمكن لكل اقتصادى العالم أن يصغوا إليه لو أنه خاطبهم. ولكنه تصدق عليهم بتلميحات فقط من وجهات نظره حول المشاكل النقدية إلى أن نشر، فى شيخوخته، عمله: (Money, Credit, and Commerce) (1923) حينما لم يعد أى شىء فيه يبدو جديداً. ولكن تلاميذه فى كمبريدج وأتباعه الآخرين قد أصغوا إليه بالفعل. ومن الضرورى، للإنصاف التاريخى، التشديد على أن هاوترى، ولافنتون، وكينز، وبيجو، وروبرتسون، عند تطوير النظريات النقدية الإنجليزية

يحاول يوماً ما القيام بمهمة تنسيقها. سأذكر هنا فقط أهم تلك الأعمال التى سبقت الإشارة إليها فى الفصل الخامس، القسم ٧ب، أعلاه: Appreciation and Interest (Publications of the American Economic Association, August 1896) ; The Purchasing Power of Money (with H. G. Brown, 1911 ; rev., 1913) ; The Money Illusion (1928) ; Booms and Depressions (1932). (ولكن عمله 1907 Rate of Interest) الذى تطور كلياً إلى العمل Theory of Interest (1930)، المذكور سابقاً، ما تزال له أهمية أكثر بالنسبة للنظرية النقدية بمعناها فى وقتنا الحاضر. سوف تتم الإشارة، فيما بعد، إلى عمل فيشر عن الأرقام القياسية.

(٧٢١) سبق التقديم النهائى لمساهماته، التى سيتم ذكرها فى المتن بعد قليل، عدد من الرسائل، وبشكل خاص فى اللجان الرسمية للبحث، التى أعيد نشرها فى عمله Official Papers ويمكن تكملتها بعدد من الفقرات ترد فى مذكراته Memorials. ولكن عمله Principles أيضاً يتضمن عناصر مهمة ذات حصيله جذابة. ويجد القارئ عرضاً بمعظم النقاط الجوهرية فى عمل كينز التذكارى (Essays on Biography, pp. 195-206)، ولكن من الضرورى التنبيه إلى أن هذا العمل التذكارى كان قد كتب من قبل نصير متحمس (حينذاك). وفى بعض النقاط، يتوجب بالتأكيد استبعاد الادعاءات الضخمة التى طرحها هذا النصير لصالح أصالة وأسبقية أستاذه. وفى ما عدا ذلك، فإن إشارة كينز إلى أن مارشال طور كل نظريته النقدية خلال السبعينيات ينبغى قبولها دون تحفظ - ولو دون غمط حقوق فالراس وفيكسل. ثمة ملاحظة أخرى لابد من الإشارة إليها: إن التحليل النقدى لمارشال، كما هو شأن تحليله الاقتصادى بشكل عام، ينطلق من ج. س. ميل بوضوح وينبغى اعتباره تطويراً لتعاليم هذا الأخير.

الخاصة بوقتنا الحاضر، كانوا قد طوّروا تعاليم مارشال - ولو وفقًا لخطوط خاصة بهم.

ليس ضروريًا التعليق على أعمال هي الآن في متناول كل باحث. فكل ما ينبغي توضيحه هو صلة هذه الأعمال بمارشال. قد لا يجوز تسمية البروفيسور ر. ج. هاوترى R. G. Hawtrey كتلميذ لمارشال بنفس المعنى الذى يصح فيه هذا المصطلح على آخرين. ولكن معظم الفرضيات التى تضىف طابعًا خاصًا على تعاليمه - الموجهة، كما يعرف القارئ، نحو مشاكل الدورات التجارية بشكل رئيسى - يمكن ردها إلى مارشال (ورد بعضها إلى فيكسل). قد يجسد القول إن تحليل هاوترى هو تطوير أصيل، فى اتجاه محدد، لتحليل مارشال، أفضل طريقة لتمثيل علاقة هاوترى بمارشال. ومن بين كتبه الكثيرة، يكفى أن نشير إلى: Good and Bad Trade (1913), Currency and Credit (1st ed., 1919), The Art of Central Banking (1932), Capital and Employment (1937). أما أعمال فردريك لا فتغنون Frederick Lavington، فهى غير معروفة كما ينبغي: The English Capital Market (1921), and The Trade Cycle... (1922). وهما عملان مارشاليان بصورة مؤكدة. وكذلك هو شأن مقالة البروفيسور بيجو: 'The Value of Money', in the Quarterly Journal of Economics, November 1917 التى تمثل مساهمته الرئيسية فى النظرية النقدية بذاتها. كما يمكن العثور على مساهمات أخرى له فى عمله: (Industrial Fluctuations 1927). ومن بين كل أعماله المتبقية، سأذكر فقط تحليله النقدى للعملية الاقتصادية: Employment and Equilibrium, 1941. إن الهيكل العظمى النظرى لأول عمل للورد كينز: Indian Currency and Finance (1913) كان مارشاليًا أيضًا؛ وقد أشار كينز، عند كتابته عمله: Tract on Money (1923), إلى أن عرضه [لنظرية النقدية] يتبع الخطوط العامة للبروفيسور بيجو والدكتور مارشال (p. 85n)، رغم وجود ملاحظات خاصة به حول نقاط حساسة. أما عمله الأكثر طموحًا: A Treatise on Money (1930)، فيمكن أن يوصف كتطوير لخطوط مارشال وفيكسل (ولو بعيدًا عنهما أيضًا) رغم أن خطوط فيكسل كان قد أعيد اكتشافها ولم تؤخذ من فيكسل. ولم يتخل كينز أساسًا عن الولاء لمارشال إلا فى عمله: The General Theory of Employment, Interest and Money (1936). وهذا يجعل من المهم جدًا أن نلاحظ أن الاختلافات النظرية لم

تكن هي التي خلقت هذه القطيعة مع مارشال بعد وفاته بقدر ما هو الاختلاف في الرؤية الاجتماعية- في تشخيصات مارشال وكينز للوضع القائم في زمانهما. فيقدر تعلق الأمر بالنظرية، وليس بالفرضيات الوقائية والتوصيات العملية، كان هناك فارق مهم واحد فقط- يخص آلية الادخار والاستثمار- ولكن حتى هذا الفارق الوحيد كان يمكن رده إلى مسألة اختلاف في التأكيد، ما لم يكن من المهم بالنسبة لكينز إبعاد نفسه عما أسماها هو 'النظرية الكلاسيكية'. أما عمل البروفيسور د. ه. روبرستون D. H. Roberston، الأصيل بصورة آخذاً: Banking Policy and the Price Level (1926)، فقد تجاوز مارشال حقاً أكثر بكثير مما تجاوزه كل الأعمال التي ذكرت في هذه الفقرة. ولو أخذنا هذا العمل لوحده، فكان سيكون من غير الملائم تصنيف روبرستون في صف المارشاليين. كما يتعذر تصنيفه هكذا على أساس نظريته حول الدورات التجارية. ولكن أعماله حول النقود (بما في ذلك مرجعه المدرسي حول المبادئ)، التي أعيد نشر الأهم منها في عمله: Essays in Monetary Theory (1940)، يمكن القول إنها تطورت عن جذور مارشالية.

ولكن هذا النجاح لتعاليم مارشال عن النقود كان سيأتي في ما بعد، في وقت متأخر جداً بحيث إن مارشال فقد جزءاً من الفضل الذي يستحقه. فحتى عام ١٩١٤، لم يمتد التأثير المارشالي، عملياً، إلى النظرية النقدية خارج كمبريدج.

(ج) فيكسل، إن عمل فيكسل هو العمل الثالث العظيم الذي ينبغي ذكره^(٧٢٢). وقد حصل فيكسل، كمنظر نقدي، بعد وفاته على شهرة عالمية أوسع من مارشال وفالراس. ويعود هذا المصير الأفضل إلى واقعة إن أتباع فيكسل السويديين لم يكفوا عن تسمية أنفسهم فيكسلانيين حتى حينما كانوا ينتقدونه

(٧٢٢) ترد مساهمات فيكسل الرئيسية في عمله: Geldzins und Guterpreise. وقد ظهرت، عام ١٩٣٦، ترجمة ر. ف. كان R. F. Kahn لهذا العمل: Interest and Prices، مع مقدمة حول تطور فكر فيكسل كتبها البروفيسور أوهلن. ولكن بعض أفكار فيكسل الأساسية، وبخاصة 'العملية التراكمية' الشهيرة لديه، كانت قد قدمت إلى الجمهور الإنجليزي في المقالة: 'The Influence of the Rate of Interest on Prices'، وذلك في مجلة Economic Journal، June 1907 وفي المجلد الثاني من عمله: Lectures on Political Economy: (الأصل السويدي ١٩٠٦؛ الترجمة الإنجليزية ١٩٣٤). وتحمل أهمية كبيرة مقالاته (السويدية) حول النقطة الغامضة في نظرية النقود: Den Dunkle Punkten I Penningteorien, Ekonomisk Tidschrift, December 1903، وذلك لتشديد المقالة على نقاط محددة لم تبرز بقوة في العملين المذكورين توأ. وكما هو الحال مع مارشال، فقد انطلق فيكسل من ميل، وأن نظريته النقدية تطورت عن نقد الأخير ومن وراءه من الاقتصاديين الإنجليز، وبخاصة توك Tooke.

ويتجاوزونه، وواقعة أن رسالته أصبحت في متناول ألمانيا في وقت مبكر نسبيًا وبشكل لم يكن منقرًا كما هو شأن ذلك الخاص بفالراس. ولكن الأمر أخذ منه عقودًا ليصل إلى المجال الأنجلو-أمريكي.

ومرة أخرى، يندر إن يكون من الضروري أن نذكر أسماء معروفة مثل ميردال، وأوهلن، ولندال، ولوندبيرغ. غونار ميردال (Gunnar Myrdal: Monetary Equilibrium (Swedish 1931 ; German 1933 ; English 1939) برتل أوهلن Bertil Ohlin عن نظرية التوسع، بالسويدية: 'Penning-politik, offentliga arbeten, subventioner och tullar som medel mot arbetsloshet' التي نشرت، العام ١٩٣٤، في تقرير حول السياسة النقدية قُدم إلى لجنة البطالة، السويدية؛ خلاصة مساهمات اريك لندال Erik Lindahl بالإنجليزية (Studies in the Theory of Money and Capital, 1939). أما عمل اريك لوندبيرغ Erik Lundberg (Studies in the Theory of Economic Expansion (1937: فيمثل التطور في فترة ما بعد فيكسل. إن الواقعة الجديرة بالملاحظة في تاريخ التحليل هي إن هذا التطور، إلى ما قبل عشر سنوات تقريبًا، قد زامن، وفي بعض النقاط الهامة استبق، التطور الإنجليزي (الكينزي) دون أن يصبح معروفًا لدى الاقتصاديين الإنجليز. وقد تمخض طبعًا عن هذه الحالة من الأشياء بعض الاحتجاجات الخفيفة وكذلك بعض المناقشات حول الاختلافات بين، والمزايا النسبية لهذين الكيانين من الفكر. انظر مقالة أهلن: 'Some Notes on the Stockholm Theory of Savings and Investment,' Economic Journal, March and June 1937 والمناقشات اللاحقة في نفس المجلة (انظر الجزء الخامس، الفصل الخامس، أدناه). ولا ينبغي أن نغفل البروفيسور د. ديفيدسون D. Davidson، الناقد المعاصر والبناء لفيكسل. ويجد القارئ كل ما يجب أن يعرفه عن مذاهب ديفيدسون النقدية في المقالة الممتازة: 'The Monetary Doctrines of Professor Davidson,' التي كتبها السيد برنلي توماس Brinley Thomas (Economic Journal, March 1935). وتتطوى مقالة الأخير: (Monetary Policy and Crises (1936 على عرض موجز، ولكن مفيد، حول النظرية النقدية السويدية منذ فيكسل.

(د) النمساويون وفى المقام الرابع، هناك مساهمات المجوعة النمساوية. أنطلق النمساويون كلهم من منجر^(٧٢٣) الذى، مع ذلك، لم يخط خطاً معيناً لنفسه: فنظريته، رغم أنها عمل مقتدر إلى الحد الذى وصلت إليه، كانت مجرد مسئلة من دافنازاتى Davanzati. ولكن فيزر كان هو مَنْ حاول الانطلاق من منطلق جديد^(٧٢٤). وحينما نحاول إنصاف هذا العمل، فإننا نواجه الصعوبة التى واجهتنا حينما حاولنا تحديد مكانته فى تاريخ النظرية العامة. إذ إن رؤية فيزر الرحيبة للظاهرة النقدية لا تتجلى بصورة كافية حينما نسميه نصير 'منهج الدخل'^(٧٢٥) أو نصير مستوى الاستهلاك consumption standard. فهى تتطوى على أكثر من ذلك بكثير، وبشكل خاص، تتطوى على مفهوم لنظرية نقدية للعملية الاقتصادية ككل. ولكن فيزر كان ضعيفاً جداً فى تقنيته ويتمتع بقدرة ضئيلة جداً فى صياغة مادته إلى حد أن شيئاً من هذه الرؤية لم يظهر كما ينبغي. وهكذا لم يتجاوز تأثيره بضعة أفراد فحسب. ومن المؤكد أن أحد هؤلاء الأفراد كان هو مؤلف العمل الأساسى للمجموعة حول النقود: فون مايس^(٧٢٦)، الذى كان أيضاً المعلم الأول فى هذا الحقل - بل المؤسس حقاً لمدرسة معينة خاصة به. ولكنه لم يكن يتعاطف مع وجهات نظر فيزر إلا إلى حد ما فقط.

(٧٢٣) انظر: Collected Works (4 vols., London School Reprints, 1933-6). وتتمثل مساهمات منجر الرئيسية حول النقود فى الفصل الخاص بالنقود من عمله: Grundsätze, والمقالة 'Geld' المنشورة فى الطبعة الثالثة من (1909 Handwörterbuch).

(٧٢٤) تطورت أفكار فيزر حول النقود، كما هو شأن أفكار فالراس، فى سياق إنجاز عمله الأسمى حول النظرية العامة. وتتمثل مساهمته، فى هذا الحقل، فى محاضراته التى دشن بها عمله عند تعيينه فى كرسي منجر فى جامعة فيينا: 'Der Geldwert und seine geschichtlichen Verdrungen', (Zeitschrift für Volkswirtschaft, Sozialpolitik und Verwaltung, 1904). ثمة نسخة مطبوعة قُدمت كخطاب إلى مؤتمر فيينا لجمعية السياسة الاجتماعية العام ١٩٠٩ ونشرت فى مجلة الجمعية: Schriften, vol. 132. كما أن هناك نسخة أخرى تتمثل بمقالته: 'Geld' (Allgemeine Theorie) des Geldes المنشورة فى الطبعة الرابعة من عمله: Handwörterbuch, 1927.

(٧٢٥) حول فيزر كنصير لمنهج الدخل، انظر القسم ٦ ب، أدناه.
(٧٢٦) Ludwig von Mises, 'Theorie des Geldes und der Umlaufsmittel' (1st ed., 1912, 2nd ed., 1924) (الترجمة الإنجليزية تحت عنوان: Theory of Money and Credit, 1934).

٣- أساسيات

(أ) طبيعة ووظائف النقود تواصلت خلال الفترة كلها المناقشات حول طبيعة ووظائف النقود وبالتالي حول قضية التعريف. ولكن هذه المناقشات، ما عدا الاستثناء الذى يلاحظ فى القسم الفرعى ب، لم تستثر كثيراً من الاهتمام، وأنها، دون أى استثناء، لم تتمخض عن أى نتائج مهمة. اعتقد أن غالبية من الكتاب كانت تقبل، أو يمكن أن تقبل، تعريف روشر^(٧٢٧). فقد فعل ذلك منجر وأتباعه مع تشديد خاص- دون أن يقصدوا بذلك إلزام أنفسهم بكل مضامين ذلك التعريف. وقد قبل الآخرون، وبخاصة الأمريكيان، عبارة ووكر المرتبّة- 'النقود هي كل ما تفعله النقود' بروح لا تلتزم بمضامين التعريف بنفس الدرجة. لقد ميّز معظم الكتاب بين النقود أو النقود الأصلية primary money (بمعنى العملة المعدنية coin والأوراق الحكومية government fiat، وغالباً وإنّ ليس دائماً، الأوراق المصرفية أو الأوراق التى تصدرها المصارف المركزية، على الأقل) وبين 'الائتمان' أو النقود النائبة fiduciary money (بمعنى وسائل دفع تبرز من بين معاملات الائتمان)- وهو تمييز منحه البعض أهمية كبيرة^(٧٢٨) والذى، فى حالات معينة سيتم ذكرها، يشير حقا إلى شيء له أهمية أكثر من مسألة مصطلحات. كنا قد رأينا آنفاً أن الاقتصاديين البارزين حول النقود لم يكرسوا أنفسهم لتقديس قاعدة الذهب بصورة عمياء. وحينما ساندوا قاعدة الذهب، كما فعلوا فى إيطاليا، فقد كانت هناك أسباب عملية وجيهة وكافية وراء موقفهم هذا. ولكن عملياً ينبغي تصنيفهم كلهم كمعدنين

(٧٢٧) تنقسم التعاريف الزائفة للنقود إلى مجموعتين رئيسيتين: تلك التى تعتبر النقود شيئاً أكثر من، وتلك التى تعتبرها شيئاً أقل من، السلعة الأكثر رواجاً 'most salable commodity' (Roscher, Grundlagen, Book 11, ch. 3, § 116 [الترجمة ل ج. شوميتير]. وكمثال على وجهة نظر معاكسة، أشير إلى عمل ريجارد ريتشارد (ابن برونو Bruno، الأكثر أهمية) هيلدبراند (Hildebrand: Theorie des Geldes 1883)، حيث نتعلم إن النقود، البعيدة عن أن تكون سلعة ما، تمثل 'النقيض ذاته لسلعة معينة'. ويستشهد فيكسل بهذين الكاتبين معاً فى عمله Interest and Prices. وتوضح تعليقاته ضالة ما تعنيه هذه التعبيرات العامة بالنسبة للباحث الجاد. ولكن التناقضات بينهما تساعد على نبذ الاقتصاد فى أعين كل أولئك الأفراد العاديين والمؤرخين ممن يأخذونهما بشكل حرفى ويسلمون بأى شيء آخر يصدر عنهما.

(٧٢٨) انظر، مثلاً، لاولن Laughlin، المصدر السابق، أو مايسيس Mises، المصدر السابق. وفى الوقت الحاضر، ثمة كتاب لا تقل منزلتهم عن البروفيسور رست Rist (المصدر السابق) يمكن الاستشهاد بهم لدعم وجهة النظر القائلة إن إهمال ذلك التمييز كان وراء أخطاء كثيرة، نظرية وعملية. ولكن الأخطاء يمكن تجنبها حتى إذا أدخلنا 'الائتمان' ضمن النقود ويمكن اقتراحها ما لم نفعل ذلك.

نظريين وفق مفهومنا لهذا المصطلح^(٧٢٩). إن النقاط التالية تبدو جديرة بالذكر.

أولاً، واصلت هيمنتها عادة تطوير نظرية النقود انطلاقاً من وظائفها القديمة الأربع: كوسيلة للمبادلة، ومقياس للقيمة، ومخزن للقيمة، ومقياس للمدفوعات المؤجلة - حيث يشدد كتاب كثر على كل من إمكانية الفصل بين هذه الوظائف والأسباب العملية التي تفسر لماذا نجدها مجتمعة من الناحية الفعلية. فبالرأس، مسبقاً طبعاً بكل أولئك الكتاب الذين استعملوا العمل كمقياس للقيمة مثل سمث ومالطوس، أدخل التقليد المفيد الذي يميز بين numeraire - وهي سلعة معينة تُستخدم الوحدة الواحدة منها للتعبير عن الأسعار والقيم ولكن قيمتها هي نفسها لا تتأثر بهذا الدور - وبين monnaie: وهي السلعة التي تستخدم بالفعل كوسيلة مبادلة وبالتالي تتأثر قيمتها لأن دورها النقدي يستوعب جزءاً من عرضها.

ثانياً، حرص كتاب كثر على التشديد على وظيفة النقود كمخزن للقيمة. وهذا أمر مهم لأنه يثير قضية: إلى أي مدى كان اقتصاديو تلك الفترة يعون الظاهرة التي تسمى تفضيل السيولة liquidity preference في الاقتصاد الكينزي في وقتنا الحاضر. لقد تحدث مارشال عن قانون بشأن الاكتناز: وبمقتضاه، كان طلب الأفراد على المكتنزات من الذهب يزداد كلما زادت قيمة الذهب (Official Papers, p. 6). ومن حين إلى آخر، كان يبدو عليه وكأنه قد تنبّه إلى حقيقة أن الأفراد، أحياناً، يكفون عن الإنفاق مع أنهم يمتلكون القدرة على ذلك^(٧٣٠). وفي هذا السياق، لاحظ مايسس أن النقود يحتفظ بها أحياناً كأصل (Vermögensanlage). وبذهابه أبعد، شدد كيمرر (Kemmerer, Money and Credit Instrument, p. 20) على أن 'مبالغ كبيرة من النقود جرى اكتنازها' وأن 'النسبة التي تكتنز من وسيلة التداول من وقت إلى آخر... تتغير بحسب كل المؤثرات التي تؤثر على... الثقة بنشاط- الأعمال'. وعلاوة على ذلك، فإن مارشال وآخرين، وبخاصة فيشر، أدركوا الدور الذي يلعبه الاكتناز، بمعنى عدم الرغبة بالإنفاق، في آلية الكساد. ولكن الكتاب الغرباء فقط (♣ أي الاقتصاديين غير المهنيين)، مثل هوبزن، منحوه 'أهمية فائقة'

(٧٢٩) ذهب باريو، المصاب بالغبثان بصورة واضحة من مشاكل العملة في إيطاليا، بعيداً إلى حد اعتبار النقود الورقية 'نقوداً زائفة' false money (moneta falsa). كما اعتبرها إيطاليون آخرون، مثل بانتاليوني Pantaleoni، حالة مَرَضِيَّة. إن مذهباً معدنياً بنفس القوة، ولو أنه يُفسر بصورة مختلفة، يمكننا إيجاداه لدى ماركس فقط.

(٧٣٠) حدث هذا في عمله: Economics of Industry، انظر ج. م. كينز: General Theory, p. 19n.

كسبب للاضطراب عموماً وللبطالة بشكل خاص^(٧٣١). ولما كان هذا الجانب هو الذى يشكل نظرية تفضيل السيولة، فينبغى علينا فى نظرى أن نعزو إلى اللورد كينز - أو أن نأخذ عليه - تقديم هذه النظرية (ومع ذلك، انظر القسم السادس، أدناه).

ثالثاً، لم تشكل نظرية النقود فى تلك الفترة تحليلاً نقدياً سواء بمعنى بيكر Becher وكنيهه^(٧٣٢) أو بالمعنى المعاصر؛ أى أنها لم تشكل النظرية العامة لاقتصاد نقدى معين. وكنا قد رأينا حقاً أن نظرية النقود لدى فالراس تتكامل كلياً مع نظريته العامة للقيمة والتوزيع. وسبق أن لاحظنا، كما سنلاحظ ثانية، خطوات من التقدم بذلك الاتجاه، وبخاصة التقدم المرتبط باسم فيكسل. ومع ذلك، وعلى العموم، فقد ظلت النظرية النقدية فى حجرة منفصلة و'نظرية القيمة والتوزيع' فى حجرة منفصلة أخرى. كما بقت الأسعار (بما فيها معدلات الدخل rates of incomes) كنسب تبادل أساساً تقوم النقود بتحويلها إلى أرقام مطلقة دون التأثير عليها فى أى شىء باستثناء إلباسها لبوساً نقدياً معيناً. أو، بعبارة أخرى، إن نموذج العملية الاقتصادية، فى كل أساسياته، كان نموذج مقايضة يمكن لأدائه أن يتسبب فى إحداث تضخم وانكماش، بيد أنه نموذج تام وتلقائى منطقياً. وعملياً، فإن العمل الأهم فى هذه الفترة - بقدر عدم تعلقه بالمشاكل النقدية على وجه التحديد - هو تحليل حقيقى Real Analysis حتى حيثما كان يعبر عن مفاهيمه من خلال النقود^(٧٣٣).

وقد وجد هذا الوضع تعبيره فى ابتكار مفهوم مهم كان قد ظهر واختفى سوية مع هذا الوضع. فمن ناحية، إذا كانت وقائع القيمة والتوزيع مستقلة منطقياً عن النقود بحيث يمكن توضيحها بالإشارة إلى النقود إشارة عابرة فقط، ولكن، من ناحية أخرى، إذا كان يُعترف بأن النقود يمكن أن تتصرف كعامل اضطراب

(٧٣١) A. Hobson, Physiology of Industry, p. 102. الذى استشهد به كينز مستحسناً؛ انظر الهامش السابق.

(٧٣٢) حول بيكر وكنيهه فى هذا السياق، انظر الجزء الثانى، الفصل السادس، أعلاه.
(٧٣٣) قد تخلق هذه العبارة بعض الصعوبات للمبتدئ، التى يمكن أن يزيلها المثال التالى. إن مفهوم مخصص الكفاف لدى بوهم-باورك هو مفهوم حقيقى real يشير إلى كل أنواع السلع التى يمكن استهلاكها. ومع ذلك، فهو يتحدث عن هذا المفهوم من خلال النقود. ولكن هذا لا يعنى أن بوهم-باورك يقبى مفهوماً نقدياً لرأس المال أو أنه ينسب إلى النقود أى تأثير على العملية التى يصفها. فنقوده - كنقود ريكاردو بقدر تعلق الأمر بالنظرية العامة الواردة فى عمله Principles - ليست سوى تعبير متجانس عن خليط من كميات من السلع المادية.

disturber، فالمشكلة التى تبرز هى تحديد الكيفية التى سيتعين على النقود أن تتصرف بها بحيث لا تتأثر العمليات الحقيقية لنموذج المقايضة. وكان فيكسل أول من أبصر المشكلة بوضوح وصاغ لها المفهوم الملائم: النقود الحيادية Neutral Money. إن هذا المفهوم بذاته لا يعكس غير الاعتقاد الراسخ بإمكانية التحليل 'الحقيقى' البحت pure real analysis. ولكنه أيضًا يوحى بإدراك حقيقة إن النقود لا ينبغى أن تكون حيادية. وعليه، فإن إنكار هذا المفهوم ينطوى على تلميح بالظروف التى تكون فيها النقود محايدة. وقد قادت هذه النقطة أخيرًا إلى اكتشاف تعذر صياغة مثل هذه الظروف، أى عدم وجود شئ من قبيل النقود المحايدة أو النقود التى هى مجرد حجاب يغطى الظواهر التى تهم حقًا - وهى حالة طريقة يقدم فيها مفهوم معين خدمة قيمة حينما يثبت تعذر إمكانية استعماله unworkable^(٧٣٤).

رابعًا، طوال وبقدر ما تبقى نظرية النقود فى حجرة منفصلة بالفعل، فإن مشكلتها المركزية - والوحيدة، عمليًا - كانت تتمثل فى القيمة التبادلية للنقود أو قوتها الشرائية. لقد برز هذا الأمر فى العمل التحليلى لهذه الفترة بوضوح أكثر مما فى عمل الفترات السابقة. ومن هنا يأتى انتشار الكتب التى تحمل عنوان 'النقود والأسعار'، التى تواصلت فى أوقات ما بعد الحرب^(٧٣٥). ونظرًا لتأثر الكتاب بالتأكيد بما حدث من تقدم فى طريقة الأرقام القياسية^(٧٣٦)، فلم يتأخر معظمهم،

(٧٣٤) انظر: J. G. Koopmans, 'Zum Problem des 'neutralen' Geldes' in Beitrage zur Geldtheorie (1933) إن المشكلة المعنية لا ينبغى طبعًا خلطها بمشاكل أخرى مثل استقرار مستوى السعر أو استقرار التشغيل أو ما شابه. فما أن نعتقد أن نظامًا أو سياسة معينة تضمن مثل هذا الاستقرار، فإننا نعتزف بالذات بأن النقود تمارس تأثيرًا معينًا وبالتالي فهى غير محايدة. وتقدم سلسلة أعمال البروفيسور بيجو المثال البارز، بعد مثال فيكسل، على تطور نظرة اقتصادى معين من الاعتقاد بنموذج المقايضة وإمكانية وجود نقود حيادية باتجاه الاعتقاد بعدم إمكانية تأكيد شئ معين بشأن العمليات الاقتصادية دون إشارة محددة إلى سلوك معين للنقود. إن نقطة التحول لدى بيجو ينبغى، فى نظرى، العثور عليها فى عمله (Theory of Unemployment) (1933).

(٧٣٥) ثمة بضع أمثلة، إضافة إلى أمثلة أخرى ذكرت فى مواضع أخرى: Antonio DE Viti de Marco, Moneta e prezzi (1885) ; L. L. Price, Money and its Relations to Prices (1896) ; Richmond Mayo-Smith, 'Money and Prices,' Political Science Quarterly (June 1900) ; E. W. Kemmerer, Money and Credit Instruments in Their Relation to General Prices (1907). والأخير هو عمل لامع كان من سوء حظه أن حجه عمل فيشر، الأعظم. انظر أيضًا: J. L. Laughlin, Money and Price (1919) and A New Exposition of Money, Credit and Prices (1931) ; Albert Aftalion, Monnaie, Prix et change (1927).

(٧٣٦) لم يكن هم الوحيديين الذين فعلوا ذلك بطبيعة الحال. والمثال الأمريكى هو لاولن Laughlin. وبشكل عام، فإن الأرقام القياسية فرضت نفسها على المهنة ككل عبر عملية تسال بطيئة أجبت التنازع أكثر مما عملت على تسويته (انظر القسم الرابع، أدناه).

وبخاصة فى الولايات المتحدة، عن تعريف قيمة القوة الشرائية للنقود كمقلوب لمستوى السعر. ولكن النمساويين لم يتقوا بالأرقام القياسية، وكانت لديهم شكوك نظرية أكثر بشأن طبيعة قيمة النقود.

ومن الملائم التعليق على هذه الشكوك بإيجاز. فمنذ البداية، احتفظ النمساويون برغبة، ليست غير طبيعية من زوايتهم، فى تطبيق نظريتهم للمنفعة الحدية على حالة النقود- وهو أمر أعلن استحالة كل من خصوم هذه النظرية، والبعض من أشد أنصارها مثل فيكسل. وهنا، كان من السهل تطبيق نظرية المنفعة الحدية على الأهمية التى يمنحها الأفراد لدخولهم النقدية. وقد فعل هذا دانييل بيرنولى Daniel bernoulli من قبل (انظر الجزء الثانى، الفصل السادس، القسم الثالث، أعلاه). ولكن هذه الأهمية بالنسبة للوحدة واحدة من الدخل النقدى للفرد- قيمتها التبادلية الذاتية، كما أسماها منجر- لا تساعدنا قط حينما نريد تفسير القوة الشرائية أو القيمة التبادلية للنقود- القيمة التبادلية الموضوعية لدى منجر. ذلك لأن الأخيرة ينبغى أن تكون معلومة للفرد- فالفرد يجب أن يعلم ما تشتريه نقوده - قبل أن يضى أى قيمة ذاتية على هذه النقود. وعليه، وبحسب ظاهر الأمر، فمن المستحيل، فى حالة النقود، القيام بما يمكن القيام به فى كل حالة أخرى، أى استخلاص قيمتها التبادلية من منحنيات أو جداول المنفعة الحدية: إذ تبدو محاولة القيام بذلك وكأنها حاجة دائرية. لا نستطيع مناقشة جهود فيزر، وجهود مايسس بشكل خاص، للتغلب على هذه الصعوبة والاعتراضات التى أثارها أندرسون Anderson ضد حلها^(٧٣٧). ولكن ينبغى أن نوضح، بمعزل تمامًا عن هذه القضية، إن الطريقة النمساوية فى التشديد على سلوك أو قرار الأفراد وفى تعريف القيمة التبادلية للنقود بالنسبة للسلع الفردية أكثر مما بالنسبة لمستوى سعر من هذا النوع أو ذاك هى طريقة لها مزاياها، وبخاصة بالنسبة لتحليل عملية تضخمية ما: فهى تميل إلى استبدال لوحة بسيطة، ولكن غير كافية، بلوحة أخرى أقل وضوحًا ولكنها أكثر واقعية وأغنى فى نتائجها.

لقد اتفق معظم الاقتصاديين- أو كان يمكن أن يتفقوا لو سئلوا- على أن تحليل المنفعة الحدية لا يسرى على حالة القيمة التبادلية للنقود. ولكن معظمهم كان

(٧٣٧) انظر: von Mises, Theorie des Geldes (2nd ed., p. 100); B. M. Anderson, The Value of Money (1917)

قد أجاب بالإيجاب على السؤال عما إذا كان جهاز العرض والطلب يسرى عليها أم لا. وكان هذا هو الموقف الطبيعي للكتاب الذين كانوا على استعداد لمعاملة النقود كأى سلعة أخرى، كالنمساويين وإي. كانان E. Cannan. ولكن من الممتع أن نلاحظ أن كثيرًا من أولئك الذين شهدوا، بتبنيهم صيغة خاصة للنقود كمعادلة المبادلة أو صيغة الرصيد النقدي (انظر القسمين الخامس والسادس أدناه) على عدم إمكانية معاملة النقود بهذه الصورة، كان لزامًا عليهم أيضًا اتخاذ ذلك الموقف. وفي الواقع، فإن أنصار وخصوص 'النظرية الكمية' معًا قد اتفقوا على وصف هذه النظرية كتطبيق لجهاز الطلب والعرض على حالة النقود^(٧٣٨).

[(ب) النظرية الحكومية حول النقود لدى ناب] فى ألمانيا، أثار عمل ناب: State Theory of Money ما يمكن أن يوصف كزوبعة فى فنجان^(٧٣٩). يقدم هذا الكتاب نظرية للنقود تنصب على القول الدارج 'إن النقود هى ابتكار قانونى'. ولو إن ناب قد شدد فقط على أن الدولة يمكن أن تعلن شيئاً أو رخصة أو بطاقة أو تذكاراً ما (يحمل علامة معينة) كنقود قانونية وأن تصدر إعلاناً proclamation بهذا الشأن أو حتى الإعلان الذى يفيد قبول قسيمة-دفع أو بطاقة معينة فى تسديد الضرائب لابد من أن يمضى بعيداً باتجاه إضفاء بعض القيمة على تلك القسيمة أو البطاقة، لكان ناب قد شدد على حقيقة معينة، مع أنها حقيقة بديهية. ولو أن ناب قد شدد على أن مثل هذا الفعل من جانب الدولة سوف يحدد قيمة القسيمة أو البطاقة، لكان قد شدد على فرضية مهمة، رغم إنها فرضية زائفة. ولكنه لم يفعل هذا أو ذاك. فهو ينكر صراحةً أن يكون مهتماً بقيمة النقود. إذ إن نظريته هى مجرد نظرية حول 'طبيعة' النقود بوصفها الوسيلة المقبولة قانوناً للدفع. وإذا أخذناها بهذا المعنى، فهى نظرية حقيقية وزائفة مثلما يمكن القول، مثلاً، إن مؤسسة الزواج هى ابتكار قانونى.

(٧٣٨) حقق هذه الفكرة بالفعل البروفيسور بيجو فى مقالته: 'The Exchange Value of Legal-Tender' (Money) (see Essays in Applied Economics, 1923).

(٧٣٩) هذا هو عنوان الترجمة الإنجليزية (الموجزة) التى أنجزها ه. م. لوكاس H. M. Lucas و ج. بونار J. Bonar (١٩٢٤) لعمل غ. ف. ناب G. F. Knapp: Die Staatliche Theorie des Geldes (1905). لن أتناول الأدب الواسع حول ناب الذى يجد القارئ عنه أكثر مما هو كاف فى عمل البروفيسور الس Ellis: German Monetary Theory, 1905-1933 (انظر القسم الثانى، أعلاه). كما أنه يجد هناك تقييماً لعمل ناب أكثر كرماً وسماحة مما أنا قادر على تقديمه.

ولكن، إذا كان الأمر كذلك، فكيف نفسر النجاح المذهل لعمله، رغم أنه اقتصر على ألمانيا أساساً؟ إن محاولة الإجابة على هذا السؤال يمكن أن تقدم دراسة مهمة في علم النفس الاجتماعي للتحليل الاقتصادي. أولاً، عرض ناب كتابه بصورة فعالة إلى أقصى حد. فعقائديته القوية dogmatism ومفهمته الأصلية حول نظريته^(٧٤٠) قد ألهمت الفرد العادي وأولئك الاقتصاديين ممن هم أفراد عاديون في حقل النظرية الاقتصادية. ثانياً، رحب أفراد كثير، وبخاصة رجال الحكم في ذلك الوقت، بنظرية معينة كان يبدو أنها تقدم أساساً للشعبية المتزايدة للنقود التي تديرها الدولة - وفي الواقع، فقد جرى استعمال هذه النظرية على نطاق واسع خلال الحرب العالمية الأولى لـ 'إثبات' أن زيادة إصدار العملة لا شأن له بارتفاع الأسعار. ثالثاً، مع الجهل الكامل تقريباً بالأدب ومنطق الموضوع معاً، آمن ناب بأن نظريته قد قدّمت ليس فقط بديلاً معيناً للمذهب المعدني النظري - الذي يملكه بشدة - بل أيضاً البديل الوحيد الممكن وأنها النظرية الوحيدة التي كانت قادرة على تفسير إمكانية وجود شيء ما كالنقود الورقية أصلاً. وقد تم قبول هذا الادعاء غير المعقول على نطاق واسع، رغم أن ناب فشل كلياً في تطوير نظرية غير -معدنية حول قيمة النقود^(٧٤١). رابعاً، شعر فيزر وهاوترى، اللذان كانا يتقدمان باتجاه نظرية كهذه، ببعض التعاطف مع هذا العمل الذي حمل شبهة شكلياً بعمليهما. إن مَنْ يهتم بالسؤال: 'ما الذي ينجح وكيف ولماذا' وأن مَنْ يعتقد أن الإجابة على هذا السؤال تكشف، أكثر من أى شيء آخر، الظروف السائدة في حقل من حقول المحاولة الإنسانية، إنما يحسن صنعاً حينما يتأمل هذا الموضوع.

(٧٤٠) فقد كان ناب أستاذاً بارعاً في فن صياغة مفاهيم جديدة والتعبير عنها بأسماء ملائمة. وينبغي أن نشير إلى أن الكلمات اليونانية، التي استعارها لهذا الغرض، خدمته على أحسن وجه: فالاقتصاديون الألمان، في ذلك الوقت، لم يكونوا منظرين جيدين كقاعدة عامة، ولكن معظمهم كان يحمل تعليماً كلاسيكياً ويعرف اللغة اليونانية.

(٧٤١) لقد حقق ذلك، إلى حد ما، أحد نقاده الذي يستحق أن نشير إليه: Friedrich Bendixen, Wesen des Geldes (4th., ed. 1926)؛ إضافة إلى الكثير من أعماله الأخرى.

٤- قيمة النقود: طريقة الأرقام القياسية

إن ما كان أهم بكثير من المناقشة النظرية حول القوة الشرائية للنقود هو مكملها الإحصائي: فالتطورات الضخمة في حقل الأرقام القياسية للأسعار خلال تلك الفترة تشكل حقاً إحدى أهم الوقائع في كل تاريخ الاقتصاد وإحدى أهم الخطي نحو نظرية اقتصادية يمكن أن تكون ليس كمية فقط بل عددية أيضاً. ثم تلت الأرقام القياسية للإنتاج بعد فجوة زمنية كبيرة خلف الأرقام القياسية للأسعار، ولكن الأسس لتطورها في فترة ما بعد الحرب كانت قد أرسيت. كما كانت ثمة بداية لبناء أرقام الأجر والتشغيل القياسية. ولكن نظراً لتوسع الموضوع إلى أبعاد ضخمة بالضبط، فمن المتعذر أن نحاول استعراض تطوره هنا. سأذكر فقط الجهود البارزة لأنظمة systematization ما كان يتحول إلى تخصص أو علم شبه-مستقل، ومن ثم أ طرح بضع تعليقات، قد تساعد القارئ على ربط الموضوع ببقية التحليل الاقتصادي ورؤية مضامينه الأكثر عمومية^(٧٤٢).

[أ) العمل المبكر] بعد أن جذبت الأرقام القياسية انتباه الجمعية الإنجليزية لتقدم العلم، فإن إديجورث، كسكرتير للجنة التي شكلت لدرس الموضوع، كتب تقريره الشهيرين (١٨٨٧ و ١٨٨٩)^(٧٤٣)، المتميزين ليس بفضل التوصيات المقدمة فيهما حول الطرق العملية لوضع الأرقام القياسية بقدر ما كان ذلك بسبب التحليل الشامل للمعاني والأغراض كمستوى العمل labour standard، ومستوى الاستهلاك consumption standard، وقضية الرقم متعدد-الأغراض، وما شابه. وفي العام

(٧٤٢) يجد القارئ ما يحتاجه، كخلفية، في مقالة س. م. والش S. M. Walsh حول 'Index Numbers' في موسوعة: Encyclopaedia of Social Sciences. وحول الأرقام القياسية للإنتاج، انظر: A. F. Burns, 'The Measurement of the Physical Volume of Production,' Quarterly Journal of Economics, February 1930. أما أفضل إحالة إلى الأرقام القياسية للأجر والتشغيل، فهي إلى الأعمال البارزة ل. أ. ل. بولي A. L. Bowley، وبخاصة العمل: Statistics of Wages in the United Kingdom during the Last Hundred Years، وهي أربعة عشر مقالة نشرت في مجلة: Journal of the Royal Statistical Society, 1898-1906 (وتم تأليفها، جزئياً، بمشاركة غ. ه. وود G.H. Wood الذي يكمل عمله: 'Real Wages and the Standard of Comfort since 1850,' ibid. March 1909 هذا البحث) والعمل: 'Measurement of Employment,' July 1912. (٧٤٣) يشكل عمله: Papers Relating to Political Economy (vol. 11, sec. 111) أسهل الطرق للوصول إليهما، حيث جرى إعادة نشرهما تحت عنوان: 'Measurement of Change in Value of Money'.

١٩٠١، نشر س. م. والش S. M. Walsh عمله Measurement of General Exchange Value، الذى وضع أيضاً مناقشة التقنية الإحصائية على أساس نظرية اقتصادية شاملة للأرقام القياسية كان قد أحكمها فى عمله المهم The Fundamental Problem in Monetary Science (1903). ثم يتعين علينا أن نشير إلى دراسة البروفيسور دبليو. س. ميتشيل W. S. Mitchell بشأن الأرقام القياسية لأسعار الجملة: Index Numbers of Wholesale Prices in the United States and Foreign Countries (النشرة ١٧٣ من المكتب الأمريكى لإحصاءات العمل، ١٩١٥، فى طبعها المنقحة، النشرة ٢٨٤، ١٩٢١). ولكن القرن الأمريكى فى حقل الأرقام القياسية كان سيقوده العمل التذكارى للبروفيسور ارفنج فيشر: The Making of Index Number (1922)^(٧٤٤)، الذى يشكل، تقريباً، الأساس لأفضل العمل اللاحق كله. ولكن كل ما يمكن ملاحظته هنا بشأن ثراء نتائجه هو ما يلى: قام فيشر بتحليل، وتصنيف، و'تنقيح' طرق الأرقام القياسية القائمة والممكنة بواسطة 'اختبارات' tests معينة تم وضعها من قبل؛ أى أن فيشر صاع شروطاً معينة ينبغى أن تفى الأرقام القياسية بها؛ وأن معظم نظرية الأرقام القياسية تشكلت حقاً من نظرية هذه الاختبارات منذ ذلك الحين. وهذا أهم بكثير من البحث عن 'رقم قياسي مثالى' بحد ذاته، رغم أن هذه الاختبارات كانت مصممة لترشيد هذا البحث.

[ب) دور المنظرين الاقتصاديين] أن النقطة التى تخص الأرقام القياسية، التى هى الأكثر صلة بتاريخ التحليل الاقتصادى، هى الدور المهيمن الذى لعبه المنظرون الاقتصاديون فى تطويرها. وبحسب ظاهر الأمور، فإن الأرقام القياسية تعود إلى مملكة التقنيين الإحصائيين وبالتالي فإن نظريتها ينبغى أن تشكل جزءاً من الإحصاء كما هو بالضبط شأن نظريات العينات مثلاً. وفى الواقع، فإن قسمًا كبيراً من العمل حول الأرقام القياسية أنجزه إحصائيون أو اقتصاديون ممن لم يهتموا 'بالنظرية الاقتصادية إلا قليلاً. فمثلاً، إن الصيغة التى أظهرت، بين كل الصيغ، أشد حيوية تعود إلى كاتب لا يمكن قط أن يسمى اقتصادى دون تحفظ:

(٧٤٤) إن الصلات مع النظرية النقدية تبرز أكثر فى تلك الأجزاء من عمله Purchasing Power of Money (1911) المخصصة للأرقام القياسية. وتتبعى قراءة هذه الأجزاء سوية مع الكتاب المذكور فى المتن.

لاسبيراس Laspeyres^(٧٤٥). ولكن كل الدوافع والأفكار الحاسمة تقريباً قد وردت من المنظرين الاقتصاديين كما حدث في القرن الثامن عشر والنصف الأول من القرن التاسع عشر. ولإثبات هذه النقطة، يكفي أن نذكر أسماء جيفونس وإديجورث وفيشر التي ينبغي أن نضيف إليها أ. أ. يونغ^(٧٤٦). ولكن هذه لم تكن حالات منعزلة. فثمة عدد متزايد دوماً من الاقتصاديين، ممن يمكن لأي فرد أن يعتبرهم منظرين أساساً، اهتموا أما بتطوير طريقة الأرقام القياسية أو توضيح معناها وأغراضها بصورة نقدية وبناءة. فقد اقترح مارشال نظام السلاسل^(٧٤٧). وساهم ليكسس وفالراس وفيكسل وفييزر وبيجو، إذا اقتصرنا على ذكر بعض القادة فقط، في الأسس النظرية بدرجة رئيسية^(٧٤٨). وقد استمر عملهم خلال العشرينيات والثلاثينيات على نطاق متزايد. ولكن لن نستطع، مع الأسف، أن نلاحظ التطورات منذ العشرينيات بأى درجة من التفصيل. ومع ذلك، نشير، في ما يلي إلى ثلاث مساهمات تحققت خلال الفترة - وهي تعود إلى ديفيزيا وهابرلر وكينز.

(٧٤٥) نشرى. لاسبيراس الصيغة $\sum p_1 q_0 / \sum p_0 q_0$ (ترجيح الأسعار بكميات السنة الأساس)، التي ضمنت له الخلود - حيث ليس بوسع أى طالب اجتياز أى دراسة كاملة فى الاقتصاد دون أن يسمع باسم لاسبيراس أكثر مما بوسعه أن يفعل ذلك دون أن يسمع باسم آ. سمث - وذلك فى مجلة: Jahrbucher fur Nationalökonomie und Statistik, 1864; also 1871.

(٧٤٦) إن مقالتي جيفونس اللتين قدمتا دافعا حاسما حقاً، ولكن لا تبرران عبارة فيشر القائلة إن جيفونس 'ربما يمكن اعتباره مؤسس الأرقام القياسية' أو عبارة كينز التي تحمل نفس المعنى، هما: 'A Serious Fall in the Value of Gold ...' (1863) and 'The Variation of Prices and the Value of the Currency since 1782' (1865)، والمقالان كتباهما تردان فى عمله: Investigation in Currency and Finance. وهما تمثلان عملاً ممتازاً له أهمية واحدة ولكنهما، لا تهتمان، بصورة تأثير الاستغراب بالنسبة لكاتب منظر، بالموضوعات النظرية ذات الصلة. كما سبقت الإشارة إلى عمل إديجورث، الذى سد هذا النقص إلى حد ما، وكذلك عمل فيشر. أما عمل آلن أ. يونغ فى هذا الحقل Alle. A. Young، فهو أقل عرضة، من بقية عمله، لخطر النسيان الكامل لأن قسماً منه يرد ضمن المساهمة المعروفة ل. ه. ل. ريتز H. L. Rietz: Handbook of (Mathematical Statistics (1924).

(٧٤٧) وذلك فى مقالته: Remedies for Fluctuations of General Prices, 'Contemporary Review', 1887.

(٧٤٨) كان ليكسس Lexis، طبعاً، منظرًا اقتصاديًا أساساً. ولكن مقالته: 'Uber gewisse Wertgesamtheiten.. 'in Zeitschrift fur die gesamte Staatswissenschaft (1886 من المحاجة النظرية لها أهمية عظيمة، رغم أنها لم تنتزع سوى قليلاً من الاهتمام. وقد وردت مساهمة فالراس ضمن عمله: Etudes d'economie politique (ed. definitive, 1936, pp. 20 et seq.). أما مساهمة فيكسل، فوردت ضمن عمله: Interest and Prices, ch. 2؛ ومساهمة فيزر (Uber die Messung der Veränderungen des Geldwerts) فى: (Schriften des Vereins fur Sozialpolitik (vol. 132, 1910 ومساهمة بيجو، فى عمله: Economics of Welfare (Wealth and Welfare, 1912، وقيل ذلك، فى عمله: ١٩٢٠).

وقبل أن نمضى، دعونى أكرر السبب الذى يجعلنى اعتقد إن من الضروري التشديد على مساهمات المنظرين الاقتصاديين فى تطوير طريقة الرقم القياسى. إذ يبدو أن بعض الإحصائيين وبعض الاقتصاديين ذوى التوجه المعادى للنظرية يعتقدون إن هذا الجزء 'الواقعى' هو شئ جرى تطويره لمواجهة البنى المهلهلة للنظرية، شئ تم ابتكاره، بروح علمية صادقة، ليحل محل التأمل المجرد. ويبدو إن من الضروري تصحيح وجهة النظر هذه. فموضوع الأرقام القياسية يقدم مثلاً جيداً على الطريقة التى يرتبط بها حقاً البحث النظرى والبحث الإحصائى، وبشكل خاص، كيف أن الطرق الإحصائية يمكن أن تتطور انطلاقاً من عمل المنظرين.

[ج] هابرلر، ديفيزيا، كينز] باستثناء فيزر، أخذ معظم النمساويين البارزين موقفاً انتقادياً، إن لم نقل عدائياً، من فكرة 'قياس' التغيرات فى القوة الشرائية للنقد (مقلوب مستوى السعر) بواسطة الأرقام القياسية. فقد كانوا يميلون لرفض منح الجنسية لمفهوم مستوى السعر price level، وفى جميع الأحوال، إنكار إمكانية قياسه من حيث المبدأ^(٧٤٩). وبسبب حقيقة إن كثيراً من الاقتصاديين وضعوا ويضعون ثقة عمياء بالأرقام القياسية دون تمحيص معانيها^(٧٥٠)، فقد هبى هذا الموقف تريقاً مطلوباً بالحاح. بل ليس هذا وحسب. فالنقد، الذى كان سلبياً فقط فى البداية، تحول أخيراً إلى نقد بناء فى كتاب البروفيسور فون هابرلر حول معنى الأرقام القياسية^(٧٥١).

يتمثل جوهر تحليل هابرلر فى تقديم تفسير للأرقام القياسية ينصب على الفرضية التالية. بالنسبة لفرد معين له أذواق لا تتغير، فإن السعر يكون قد هبط (ازداد) بين نقطتين من الزمن، t_0 و t_1 ، إذا كان الفرد، عند بقاء دخله النقدى على حاله، قادراً فى t_1 على شراء تلك التشكيلة من السلع التى يفضلها على التشكيلة التى كان قادراً على شرائها فى t_0 (يكون قادراً فى t_1 على شراء التشكيلة

(٧٤٩) وجد هذا الموقف تعبيره الأقوى فى عمل البروفيسور فون مايسس Theory of Money and Credit: von Mises.

(٧٥٠) يسرى هذا على أى أرقام قياسية بما فى ذلك أرقام الناتج المادى. وفى السنوات العشر الأخيرة أو نحو ذلك، ثمة ارتداد بدأ بالظهور، ومن أعراضه الأكثر أهمية أن اللورد كينز، الذى كان، فى عمله (Treatise on Money 1930)، قد منح أهمية كبيرة إلى الأرقام القياسية للأسعار، تجنب كلياً استعمالها فى عمله: (General Theory 1936).

(٧٥١) G. von Haberler, Der Sinn der Indexzahlen.

من السلع التي يفضلها على التشكيلة التي كان قادرًا على شرائها في to). إن هذا التفسير يربط الأرقام القياسية باقتصاد الرفاه. ولكن أهميته الرئيسية تكمن في حقيقة أنه يؤسس هذه الأرقام على نظرية الاختيار ويجعلها هكذا ترسو في مركز نظرية القيمة الحديثة ذاته^(٧٥٢).

وبينما هجر هابرلر فكرة مستوى سعر 'موضوعي' معين واستبدلها بما يمكن أن نسميه مستوى سعر ذاتي، فقد طرح ديفيزيا نظرية مستوى السعر الموضوعي أو المؤشر النقدي، أو الرقم القياسي النقدي (indice monetaire) - وهذا إنجاز هام من الدرجة الأولى. وفي الهامش^(٧٥٣)، أدناه، ثمة محاولة لتقديم تفسير بسيط لفكرته الجوهرية.

ومن البديهي، إن فكرة مستوى سعر - شامل معين، حتى إذا كانت مقبولة، هي أقل نفعًا لأغراض عدة من فكرة مستويات السعر القطاعية: كمستوى سعر

(٧٥٢) يصب مقترح باريتو في اتجاه مماثل (Cours, vol. 1, pp. 264 et seq.) وهناك عدد من المقترحات المرتبطة (ومن بينها مقترح يرد في تقريرى إديجورث المذكورين في المتن، أعلاه) كانت أقل إقناعًا. ومع ذلك، لا نستطيع أن نبقي هنا لتوضيح ذلك.

(٧٥٣) إذا كان الإنفاق على كل السلع والخدمات، E ، يتغير بزيادة معينة (موجبة أو سالبة)، ΔE ، فمن الممكن بوضوح، بطريقة شكلية بحيث لا تتضمن أى شيء من السببية، تقسيم ΔE إلى ثلاثة أجزاء: جزء 'يعود' إلى التغيرات التي حدثت في الأسعار - حيث يساوى هذا الجزء الكميات المشتراة سابقًا مضروبة، كل واحدة منها، بالتغيرات في الأسعار المناظرة، أو أنه، رمزيًا، يساوى $\sum q\Delta p$ ؛ وجزء آخر 'يعود' إلى التغيرات في الكميات المشتراة ويساوى الأسعار القائمة من قبل مضروبة، كل واحد منها، بالتغيرات في الكميات المناظرة، أو أنه، رمزيًا، $\sum p\Delta q$ ؛ والجزء الثالث 'يعود' إلى حقيقة أن الزيادات في الكميات تم شرائها أيضًا عند الأسعار التي تغيرت وبالتالي فهو يساوى تلك الزيادات في الكميات مضروبة بالزيادات في الأسعار المناظرة، أو أنه، رمزيًا، يساوى $\sum \Delta q\Delta p$. وهنا، إذا كانت التغيرات في الكميات والأسعار (Δp 's و Δq 's) تشكل أجزاء صغيرة من الكميات والأسعار نفسها (p 's و q 's) - وهو ما يحدث حينما نكون أمام فترة قصيرة جدا من الوقت - فإن ما ينتج عنها سيكون أكثر ضلالة، ضئيلاً جداً بحيث يمكننا إهماله لأغراض عملية. ولكننا، عندئذ، نترك مع مقدارين فقط، يعبر المقدار الأول عن ذلك 'التأثير' على الإنفاق الذى ينبغي أن نلاحظ حينما لا تتغير الأسعار وبالتالي فهو حر من 'تأثيرات' أى تغيرات فى الكميات. وعندئذ، فإن الرقم الأحدث ($\sum q\Delta p$)، معبراً عنه كنسبة من الإنفاق الأصلي ($E = qp$)، يصلح لتحديد التغير الذى كان قد حدث فى مستوى السعر أو الرقم القياسى النقدي - الذى يكتسب، بذلك، معنى واضحاً ومهماً تحليلياً. وقد نشر البروفيسور ديفيزيا Francois Divisia هذه النظرية، التى كان البروفيسور ليكسس Lexis (المصدر السابق) قد تنبأ بها جزئياً، فى عدة أعداد من: *Revue d'economie politique*, 1925-6 تحت عنوان: 'L'Indice monetaire et la theorie de la monaie' وكذلك، مرة أخرى، فى عمله: *Economie rationnelle* (1928), ch. xlv

السلع الاستهلاكية (مستوى الاستهلاك consumption standard) والخدمات الاستهلاكية بالمقارنة مع مستوى سعر السلع الإنتاجية (أو السلع الاستثمارية)، أو مستوى سعر المنتجات النهائية بالمقارنة مع مستوى سعر الخدمات الإنتاجية، وهكذا... إن مستوى السعر الشامل يخفى، بشكل خاص، الحركات النسبية لهذه المستويات القطاعية بعضها عن بعضًا، وإن هذه الحركات النسبية لها أهمية محورية بالنسبة لنظريات معينة للدورة التجارية، وبخاصة بالنسبة لنظرية فون هايك. كما إن لها أهمية محورية بالنسبة 'للديناميكا النقدية' المعروض في عمل كينز: Treatise، الذى يمثل الكتاب الثانى منه، المخصص كليًا لهذا الموضوع، المرجع الرئيسى لهذا النوع من التحليل. [هذا القسم غير مكتمل].

٥- قيمة النقود: معادلة المبادلة و'منهج الكمية'

كنا قد رأينا، بقدر تعلق الأمر بالغالبية الكبيرة من الكتاب الذين كتبوا حول النقود، إن هناك بعض الحقيقة فى العبارة القائلة إن التحليل النقدي فى تلك الفترة كان يقع فى حجرة منفصلة، إذا صح التعبير. ومن الصحيح أيضًا - مع أننا لاحظنا استثناءات كفالراس والنمساويين، مثلاً - إن تجهيز تلك الحجرة كان مُعدًّا لغرض خاص هو تفسير قيمة النقود أو قوتها الشرائية، ولم يكن يهدف إلى أى غرض آخر. وهنا فحينما نعتزم تفسير سلوك متغير منفرد من النظام الاقتصادى، فمن الملائم بوضوح أن نحزم كل الأشياء الأخرى فى بضع مجاميع كبيرة few big aggregates وأن ننظر إلى هذه المجاميع بوصفها 'الأسباب' التى تحدد المتغير المراد تفسيره. إن ما تسمى معادلة المبادلة Equation of Exchange تمثل بالتأكيد أبسط نظام ممكن لمثل هذه المجاميع التى تتضمن قيمة النقود أو مستوى السعر على الإطلاق. وإذا كان الأخير هو المتغير المراد تفسيره، فإن المجاميع الأخرى تتحول بصورة طبيعية (وإن بصورة غير منطقية) إلى دور 'أسباب' لذلك المتغير - وإن معادلة المبادلة، التى هى ذاتها ليست سوى تعبير عن علاقة شكلية لا تحمل أى دلالة سببية، تتحول أو يمكن أن تتحول إلى النظرية الكمية Quantity Theory. وهذا يفسر لماذا شهدت معادلة المبادلة والنظرية الكمية، خلال تلك الفترة، انبعاثًا جديدًا ولماذا أن كثيرًا من المناقشة حول نظرية النقود أخذ شكل

محاججات لصالح أو ضد النظرية الكمية. وعليه، فمن الضروري أن نتعرف على ما كانت تعنيه حقاً النظرية الكمية لدى هؤلاء الكتاب. ولتحقيق هذا بأكثر الطرق فائدة بالنسبة للقارئ، سنركز على العمل البارز في هذا الخط: نظرية القوة الشرائية للنقود لدى البروفيسور فيشر^(٧٥٤).

ليس هناك ما هو جديد في ما أصبحت تسمى معادلة فيشر أو معادلة فيشر-نيوكمب بحد ذاتها. فمستوى السعر (P) تربطه هذه المعادلة ببساطة ب (١) كمية النقود في التداول (M)؛ (٢) 'فعالية' هذه الكمية من النقود أو سرعة تداولها (V)؛ و (٣) الحجم (المادى) من المعاملات. لنعبّر عن هذا بكتابة العلاقة: $P = f(M, V, T)$. إن معادلة فيشر تضيف على هذه العلاقة الدالية الشكل الخاص التالى: $P = f(M, V, T) \equiv MV / T$ or $MV = PT$. ومرة أخرى، فإن هذه المعادلة لا تشكل متطابقة بل شرطاً توازنياً معيناً. ذلك لأن فيشر لم يقل إن MV هى الشئ نفسه ك PT أو إن MV تساوى PT بالتعريف: فإذا كانت قيم معطاة لـ M و V و T تميل ل توليد قيمة محددة من P ، بيد أن هذه القيم لا تعنى ببساطة مستوى معيناً من P . ولكن التحليل النقدي المهم حقاً يبدأ من خلف بناء المعادلة. ثمة مجموعتان من الأسئلة.

[أ) تعريف المفاهيم] أولاً، ما هى المعانى الدقيقة لـ P, M, V و T ؟ من المؤكد إن النظرية الكمية تمتلك ميزة واحدة أياً كان ما يمكن قوله ضد منهج هذه النظرية: فالقرب الواضح لمفاهيم هذه النظرية من المادة الإحصائية يجبر المنظرين على أمر معين غالباً ما يفشلون فيه من دون هذا الإكراه، أى تحديد مفاهيمهم بشكل دقيق وعملى operational. لا نستطيع أن نناقش أو حتى أن نذكر قائمة بكل المشاكل التى تتخفى خلف السؤال التالى، فكل ما بوسعنا هو أن نشير إلى هذه المشاكل فقط: ما هى الأسعار التى ينبغى، للأغراض العامة لمعادلة

(٧٥٤) وعند القيام بذلك، فإننا نأخذ تحليل النظرية الكمية عند مستواه الأرفع. وبشكل عام، فإن التكلفة، التى نتحملها عندئذ فى صورة معطيات عن صياغات أخرى كثيرة، ليست باهظة. ولكن يتوجب أن نشير إلى أن عمل كيمرر (Kemmerer) Money and Credit Instruments in Their Relation to General Prices, 1907 من شأنه أن يخدم هدفنا بنفس الدرجة من الجودة تقريباً، رغم أن عمل فيشر كان قد حجه. وقد أثنى فيشر بسخاء على معالجة سيمون نيوكمب Simon Newcomb بشأن التداول المجتمعى Societary Circulation (Principles, 1885؛ انظر الفصل الخامس، القسم ٧، أعلاه) الذى يشكل مساهمة مهمة حقاً. ولكننا لا نستطيع الدخول فى موضوع المزايا التى ينفرد بها هذا العمل.

المبادلة، إدخالها في P وبالتالي أى معاملات ينبغي إدخالها في T^(٧٥٥). ومع أن فيشر، فى أفكاره التمهيدية، قد عرّف T بحيث تشمل 'السلع' التى تُشترى بالنقد، بيد أنه هو نفسه تبنى مفهوماً أوسع - يشمل السندات - فى عمله الإحصائى. ولكن تتبغى الإشارة إلى بعض المشاكل بشأن تعريف M.

أبدى معظم الكتاب نفورهم من تسمية الودائع التى يتم سحبها بصاك checking deposits كنقد - على الأقل حينما يتم هذا دون تحفظ. وكما كنا قد رأينا، فهو لا يشددون على الاختلاف بين النقود و 'الائتمان' (انظر القسم السادس، أدناه) أو بين النقود 'الأصلية' primary و 'النائبية' fiduciary. ولكن حين تعلّق الأمر بأداء معادلة المبادلة، فإن غالبية الكتاب - وبخاصة الأمريكان الذين أنجزوا القسم الأعظم من العمل الإحصائى - أدخلوا، كشيء طبيعى، النوع الأهم كمياً من 'وسائل الائتمان': checking deposits، ذاهبين بعيداً فى الغالب إلى حد تسميتها 'عملة إيداع' deposit currency. وهكذا، فإن M، فى معادلتهم للمبادلة، كانت تعنى أساساً النقد المعدنى coin، الأوراق النقدية الحكومية government fiat، البنكنوتات، الودائع تحت الطلب. ولما كان هذا، عملياً، يعنى إدخال كل شيء يمكن الشراء به،^٧ فيبدو أنه كان ينبغي عليهم، من ناحية، أن يأخذوا المقايضة بنظر الاعتبار (وكذلك حقيقة إن جزءاً من الناتج الاجتماعى يُستهلك من قبل منتجيه بصورة مباشرة)، ومن ناحية أخرى، أن يستبعدوا النقود التى لا يجرى تداولها (كالاحتياطات النقدية لدى المصارف والمكتنزات). إن الصعوبة الأولى لم تؤخذ جدياً، بقدر ما أعلم؛ أما بالنسبة للصعوبة الثانية، فسوف استشهد فقط بوجهة نظر كيمرر (المصدر السابق، ص ٢٣): 'ليس ثمة فرق، من زاوية صحة النظرية الكمية، سواء أن تُعرض النقود الجديدة مقابل السلع فوراً، أو ببطء، أو أن لا تُعرض قط' لأن النقود التى لا يتم تداولها تكون سرعة تداولها صفرًا ببساطة.

(٧٥٥) يمكن تكوين فكرة عن هذه المشاكل عن طريق قراءة ملاحق عمل فيشر: Purchasing Power of Money (1911). إن فكرة التخلّى كلياً عن مفهوم مستوى عام للسعر لكل ما يُباع ويُشترى مقابل النقود (وهى فكرة حُملت فيما بعد، فى العشرينيات، إلى حدودها القصوى من خلال مفهوم كارل سنيدر Carl Snyder حول المستوى العام للسعر، انظر: 'A New Index of the General Price' (Level from 1875,' Journal of the American Review Statistical Association, June 1924) وفكرة استبدالها بعدة مستويات سعر قطاعية (سلع الاستهلاك، و سلع الاستثمار، وهكذا) لم تكن تتناقض، بقدر ما أعلم، أثناء تلك الفترة، باستثناء إنها كانت مفترضة ضمن عداء المجموعة النمساوية لمفهوم مستوى السعر. إن اتجاه الفكر لصالح فكرة عدة مستويات سعر تكلفت، أخيراً، بالنصر بشكل واضح فى عمل اللورد كينز: Treatise الصادر العام ١٩٣٠، الكتاب الثانى.

فى أوروبا، وبخاصة فى قارة أوروبا، كان هذا المخطط النظرى مألوفاً بدرجة أقل، جزئياً، لأن معظم الأوروبيين لم يواجهوا المهمة الإحصائية. وكمثال من الدرجة الأولى على مخطط بديل: كان فيكسل (ومن قبله رودبرتوس) قد قصرَ M على النقود المعدنية (وكذلك، فى نظرى، النقود الورقية الحكومية التى لا تحمل أى حق بتحويلها إلى معدن)، وفسّر البنكنوتات والودائع كوسائل لزيادة سرعة تداول 'النقود' - بحيث إن الاحتياطات المصرفية، بدلاً من أن تكون سرعة تداولها صفراً، من شأنها أن تمتلك سرعة تداول عالية (مفهوم فيشر حول 'سرعة التداول الفعلية'). وينبغى على القارئ أن يلاحظ أن أيًا من هذين المخططين لا ينطوى على ميزة أو عيب متأصل فيه. فالملائمة هى معيار الاختيار بينهما. وهذا المعيار هو فى صالح 'البديل الأمريكى' بقوة. ولكن ثمة نقطة أخرى لابد من التنبيه إليها. فقد أدخل فيشر checking deposits (M') مع سرعة تداول خاصة بها (V')، فى معادلته بصورة منفصلة لجعل هذه المعادلة تبدو هكذا: $MV + M'V' = PT$. ولكن فيشر أدخل فرضيتين إضافيتين. أولاً، افترض فيشر أن هناك علاقة مستقرة جداً بين النقود الأصلية (النقد المتداول من يد إلى أخرى) التى يحملها الناس فى جيوبهم أو يضعونها فى خزانتهم أو فى القبو وبين المبالغ من الوسائل السائلة التى يضعوها فى حساب يمكن السحب منه بصك checking account. ثانياً، افترض فيشر أن هناك، عند التوازن، ولفترات غير طويلة جداً، علاقة مستقرة جداً بين احتياطات النظام المصرفى والمجموع الكلى من الودائع التى يمكن سحبها بصك checking deposits. لنأمل ما يعنيه هذا. إن موقف فيشر، بحكم هاتين الفرضيتين، يقع نوعاً ما بين موقف مَنْ لا يُدخل فى M سوى الودائع تحت الطلب إلى جانب 'العملة الموجودة خارج المصارف' دون التمييز بين هاتين الفئتين (بقدر تعلق الأمر بمشاكل القوة الشرائية) وموقف أولئك الذين، مثل فيكسل، يُدخلون النقد المعدنى والأوراق النقدية غير القابلة للتحويل فقط. ذلك لأن ذلك الجزء من كمية النقود، الذى أسماه فيشر 'النقود الأصلية' والذى، مستشرفاً الظروف الإنجلو-أمريكية للعام ١٩١١، طابقه فيشر بالذهب، يتطلب موقفاً لا وجود فيه لـ checking deposits. فهذه الودائع تبقى 'عملة إيداع' حقاً، ولكن الفكرة المقترحة هى أن التغيرات فى كمية هذه العملة تحكمها التغيرات فى كمية 'العملة الأصلية'، أو الذهب فى ظل تلك الظروف. ولابد من أن يلاحظ القارئ مدى تمشى هذه الفكرة مع خطة الدولار المعوض التى تهدف إلى السيطرة على مستوى السعر

عن طريق إجراء تغييرات ملائمة في المحتوى الذهبى للوحدة النقدية.

لابد من الإشارة إلى نقطتين إضافيتين حول V - أى إضافة إلى الملاحظة التى طُرحت أعلاه من إن سرعة التداول تعتمد على مفهوم الكمية الذى نختار أن نتبناه. أولاً، لم يتحقق تقدم كبير يتجاوز ميلاً فى تحليل العوامل الكامنة خلف سرعة تداول النقود^(٧٥٦). وفى الواقع، لم يجرِ بوضوح، قبل نشر عمل بيجو^(٧٥٧): Industrial Fluctuations، التمييز بين الأنواع المختلفة من سرعة التداول، وأن النوع الأهم منها: سرعة تداول الدخل، المؤلف الآن، أصبح مفهوماً لدى المهنة إلى حد كبير. ولكن لا ينبغي أن يُقال إن اقتصاديين تلك الفترة كانوا بصورة معتادة يعتبرون سرعة التداول ثابتة. وكفى تشديد كيمرر Kemmerer^(٧٥٨) على إمكانية تغيير سرعة التداول كدالة لوضع نشاط الأعمال بشكل عام لدحض الاتهام الذى يتكرر باستمرار والذي خلق لدى كثيرين انطباعاً غير واقعى قط مفاده أن الفضل الرئيسى فى إدراك إمكانية التغيير هذه يعود إلى التحليل المعاصر. ثانياً، يجب أن نعبر عن احترامنا لبعض الجهود الرائدة فى القياس الإحصائى لسرعة التداول - وهى معالم على الطريق نحو الاقتصاد العددي، حتى وإن كانت موفقة جزئياً فقط، وترتبط أساساً بأسماء ديس إيسارز des Essars، وكينلى Kinley، وكيمرر، وارفنج فيشر قبل الجميع^(٧٥٩).

(٧٥٦) حول مصائر مفهوم سرعة تداول السلع، انظر: مارغيت Marget، المصدر السابق، مواضع متفرقة منه. وقد أدخل كيمرر هذا المفهوم فى معادلته حول المبادلة.

(٧٥٧) A. C. Pigou, Industrial Fluctuations (1st. ed., 1927), part 1, ch. 15. وقبل هذا العمل لم يكن هناك الكثير، إضافة إلى مساهمة فيكسل (6) (Interest and Prices, ch. 6).

(٧٥٨) انظر القسم ٣، أ، أعلاه.

(٧٥٩) Pierre des Essars in 'La Vitesse de la circulation de la monnaie' Journal de la societe de statistique de Paris, April 1895 ; David Kinley, Doc. No. 399 in Reports of National Monetary Commission, 'The Use of Credit Instruments in Payments in the United States,' and also two papers in Journal of Political Economy, 'Credit Instruments in Retail Trade,' March 1895, and 'Credit Instruments in Business Transactions,' March 1897; كيمرر، المصدر السابق؛ وارفنج فيشر، المصدر السابق، ولكن أصلاً فى: 'A Practical Method of Estimating the Velocity of Circulation of Money,' Journal of the Royal Statistical Society, September 1909. ويعد أن استخلص أرقامه لسرعة التداول، فقد تقدم فيشر (فى عمله: Purchasing Power.. وفى المقالات المقطّعة منها هناك، ص ٤٩٢) لطرح كل معادلة المبادلة بتعابير عددية - محققاً نصراً نابليونياً حقاً حتى ولو كان يشبه بورودينو Borodino أكثر مما يشبه أوسترليتز Austerlitz.

[ب) التمييز بين معادلة المبادلة والنظرية الكمية] تنصب المجموعة الثانية من الأسئلة على التمييز بين معادلة المبادلة والنظرية الكمية. إلى أى حد كان كتاب تلك الفترة قد تجاوزوا بالفعل صيغة العلاقة التوازنية الأساسية $MV = PT$ ؟ إن ما يجعل الإجابة أكثر صعوبة هو حقيقة إن كتاب تلك الفترة لم يخلقوا ذلك التمييز بأنفسهم بل إنهم غالباً ما وصفوا أنفسهم كأخصار للنظرية الكمية فى حين إن كل ما قصدوه هو أنهم وجدوا بعض الميزة فى استعمال معادلة المبادلة أو ما يعادلها. على أى حال، فبقدر تعلق الأمر بالكتاب من الدرجة الأولى، يمكننا أن نأخذ وجهة النظر، التى عبر عنها بيجو قليلاً فيما بعد، كوجهة نظر نظمية (The Value of Money, 'Quarterly Journal of Economics, November 1917')^(٧٦٠): 'غالباً ما يجرى الدفاع عن "النظرية الكمية" Quantity Theory أو معارضتها كما لو إنها مجموعة محددة من الفرضيات ينبغى أن تكون أما صحيحة أو خاطئة. ولكن فى الواقع، فإن الصيغ المستخدمة فى عرض تلك النظرية هى مجرد وسائل لتمكيننا من ضم الأسباب الرئيسية، التى تحدد قيمة النقود، إلى بعضها بعضاً فى صورة منظمة'. إن هذه العبارة، التى ينبغى فيها استبدال كلمتى: النظرية الكمية بكلمتى: معادلة المبادلة Equation of Exchange، تصح بالتأكيد على مارشال نفسه وعلى كل المارشاليين: فهم لم يتجاوزوا قط استعمال نسختهم من معادلة المبادلة. ويسرى الأمر نفسه على معالجة فيكسل لكيفية تأثير التغيرات التلقائية فى كمية النقود على مستويات السعر: إذ إن فيكسل قد شدد كثيراً على دور سعر الفائدة بحيث إنه لم يترك سوى مجال ضئيل للتأثيرات المباشرة للتغيرات التلقائية فى كمية النقود. وبطبيعة الحال، فمن زاوية أولئك الخصوم المتطرفين للنظرية الكمية، ممن سنذكرهم بعد قليل، الذين أنكروا أن يكون للتغيرات التلقائية فى كمية النقود أى تأثير على قيمتها، فإن فيكسل-ومارشال - كان ينبغى أن يصنفاً كمنظري كمية^(٧٦١). أما حالة فالراس فتختلف، على الأقل كما تبدو من السطح.

(٧٦٠) انظر القسم ١٣، أعلاه.

(٧٦١) انشغل فيكسل كثيراً جداً ببيان فكرته القائلة إن التغيرات التلقائية فى كمية النقود تؤثر على العملية الاقتصادية، عبر سعر الفائدة على القروض المصرفية، بواسطة توسيع الائتمان المصرفى بحيث أنه اقترب كثيراً من إنكار التأثير المباشر. ولكن فيكسل كان يراجع نفسه دائماً. لقد أوضح، مثلاً، إن الزيادة فى خزين الذهب يجب أن يكون لها تأثير مباشر على الأسعار، على الأقل إلى الحد الذى تزيد فيه هذه الزيادة فى الخزين من مدخولات وإنفاق منتجى الذهب. حول هذا، انظر: القسم ٦ ب، أدناه. ويوضح موقف فون مايسس von Mises إلى حد الكمال الصعوبات التى يتعين علينا أن نواجهها =

من العسير جدا فهم موقف فالراس. ففي عمله التحليلي البحث حول المشكلة (انظر معالجته في عمله: Elements وفي عمله: "Note sur la Theorie de la Quantite," in the Etudes d'economie politique appliquee, pp. 153 et seq. يقدم فالراس، قبل كل شيء، جانباً غاية في الأهمية: فهو لم يفترض ببساطة أن قيمة النقود تتناسب عكسياً مع كميتها، ولكنه حاول أن يستخلصها بطريقة عقلانية من مبدأ المنفعة الحدية، ذاهباً إلى حد القول إنه يتعين على المرء أن يرفض الأخير لكي يكون من حقه أن يرفض الأولى. ثمة جانب مهم آخر يتمثل بأن فالراس يدع كميات رءوس الأموال الثابتة والمتداولة تتحدد سلفاً كدالة لمعدل فائدة معطى. ولكن إذ جرى إثباتها في ظل هذه القيود، فإن الموضوع المعينة، رغم صحتها طبعاً، موضوعة ضعيفة إلى أقصى حد ومعرضة كلياً للاعتراض الذي نصادفه كثيراً والقاتل إن النظرية الكمية لا تصح إلا في ظل فرضيات معينة تحيلها إلى شيء مبتذل وعديم القيمة تماماً. ذلك لأن موضوعة فالراس لا تعنى حقاً، إذا بقيت الأشياء الأخرى على حالها strictissime {بشكل صارم}، سوى أن مقداراً معطى من المعاملات يمكن أن يتحقق أيضاً بمقدار أقل من الوحدات النقدية إذا تم تخفيض كل الأسعار بنفس النسبة. ومع ذلك، فإن فالراس ليس فقط أسمى هذه الموضوعة theorie de la quantite - الأمر الذي يمكننا بحد ذاته من تصنيفه ضمن خصومها ذلك لأنه إذا كانت هذه هي حقاً formule exacte {صيغتها الدقيقة} فليس فيها إذن ما هو صعب بالتأكيد - بل يبدو أنه كان ضحية للوهم المتمثل بأن هذه الموضوعة تمثل كل ما كان يحتاجه الأساس التحليلي اللازم لخطته بشأن الإصلاح النقدي، أي أن فالراس طابق هذه الموضوعة بالفرضية القائلة إن السيطرة العملية على مستوى السعر يمكن تحقيقها بالسيطرة على كمية النقود، وهي فرضية، سواء أكانت صحيحة أم خاطئة، لا تمت إلا بصلة ضعيفة إلى الموضوعة المثبتة.

إن فرضية كيمرر القائلة إن مقدار وسيلة التداول التي يتم اكتنازها تتغير

=فهو الناقد الأول لمفهوم مستوى السعر. وأنه قد أنكر أن يكون هناك معنى في الاعتقاد بأن زيادة معينة في كمية النقود ستزيد دائماً مستوى السعر بنفس النسبة. فكل ما شدد عليه (المصدر السابق، الطبعة الثانية، ص ١١١) هو أن هناك 'علاقة' بين التغيرات في قيمة النقود والتغيرات في النسبة بين الطلب على النقود وعرضها. وقد اعتبر فون مايس أن هذا هو العنصر المفيد في النظرية الكمية - والذي، علاوة على ذلك، يدافع عنه ضد اعتراضات كثيرة. وأرى أنه كان من الأفضل لنا أن نأخذ التلميح الذي قدمه هو نفسه وتصنيفه ضمن خصوم النظرية الكمية بالمعنى التاريخي، أي ما قصد خصوم النظرية الكمية أن يعارضوه.

على نطاق واسع في المدى القصير هي بمثابة تخلى عن النظرية الكمية بمعناها الأكثر تحديداً وتقلل الكثير منها بحيث يمكن أن ننسب إليه العبارة القائلة إن P تحددها المتغيرات الثلاثة M و V و T ، بينما لا نستطيع أن نقول بنفس القوة إن M تحددها P و V و T أو إن V تتحدد ب P و M و T أو أن T تتحدد بـ P و M و V . وقد عبّر فيشر (Purchasing Power, p.172) عن هذا بالقول 'إن مستوى السعر هو عادةً المستوى الذي يمثل العنصر السلبي بصورة مطلقة في معادلة المبادلة' (٧٦٢). بل إن فيشر قد ذهب أبعد من ذلك. فقد آمن أيضاً، وإن في شأن لا يخص النظرية العامة حقاً بل كقضية ذات طبيعة إحصائية، أنه عملياً في كل حالات التقلبات الكبيرة في مستوى السعر، فإن M فقط، وليس V أو T ، هي التي كانت تتغير إلى حد يكفي لاعتبارها المتغير المفسر *explaining variable*، وبعبارة أخرى، إن M كانت عادةً المتغير 'الفعال' *active* الأكثر أهمية بينما كانت P هي المتغير السلبي *passive* عادةً. ويندو أن هذا يقترب من قبول تعاليم النظرية الكمية بقوة وعلى نحو لم يفعله من قبل أي اقتصادي مرموق (٧٦٣). وإذا تذكرنا، إضافة إلى ذلك،

(٧٦٢) يدرك القارئ أن للكلمات 'بنفس القوة' *just as well* الواردة في الصياغة الأولى و'عادةً' *normally* في الثانية أهمية جوهرية. ويتكرر الملاحظة التي قدمناها في الجزء الثالث، الفصل السابع، فلم ينكر أحد وليس بوسع أحد أن ينكر أن هبوط (زيادة) مستوى السعر سوف يشجع على تخفيض (زيادة) إنتاج الذهب وتدفقه نحو الخارج (نحو الداخل) بحيث، في حالة العملة الذهبية الحرة *free gold currency*، إن السعر لا يمكن أن يكون 'سلبياً بصورة مطلقة'. وعلاوة على ذلك، فإن تأكيد فيشر يسرى فقط على الحالات الواقعة في مجال التوازن، وليس على حالات الاختلال ('الفترات الانقلاية') كما سنرى بعد قليل - وهذه حقيقة من المؤكد عملياً أن يغفل عنها، وعن مضامينها، القارئ غير الحذر.

(٧٦٣) من الممتع مقارنة عرض فيشر بعرض الاقتصادي الوحيد المرموق الذي ذهب بعيداً إلى نفس الحد: كاسل (انظر، مثلاً، *Theory of Social Economy, Third Book*). إذ يطرح كاسل في البداية نظرية كمية محددة *strict* ولكن فقط للحالة التصورية من وضعين منفصلين من الاقتصاد، متمثلين تماماً في كل شيء باستثناء اختلافهما في M - وبالتالي في P . ثم يشدد كاسل، بصورة لم يفعلها أحد قط يمثل هذه الحيوية، على أن هذا لا يثبت أي شيء مهما كان بشأن الأثر الذي يمكن أن يحدثه تغير معين في M ، الذي يتم إدخاله في اقتصاد حقيقي - متبنيًا، بشأن هذه النقطة، وجهة النظر التي يحملها خصوم النظرية الكمية عادة. ولكنه، فيما بعد، بعد أن أشار إلى عدم إمكان قول أي شيء مسبقاً حول أثر الزيادات الفعلية في M في الحياة الحقيقية، وإلى أننا يجب أن ننظر إلى الواقع فقط، يجد، بالنسبة للفترة ١٨٥٠-١٩١٠ (والى النصف الأول من القرن التاسع عشر، بنقطة أقل)، إن النظرية الكمية تسرى رغم كل شيء ليس كنظرية ولكن كواقعة إحصائية. وإذ يعتمد كاسل بقوة انطلاقاً من هذا، فإنه يطرح قانونه الشهير 'قانون النسبة ٣ %': كان الرقم القياسي *Sauerbeck* هو نفسه تقريباً بين العامين ١٨٥٠ و ١٩١٠، وأن خزين العالم من الذهب كان قد زاد بمعدل ٨،٢ تقريباً سنوياً خلال الفترة، وإن T لابد من أن تميل نحو الزيادة بذلك المعدل تقريباً - وبالتالي، فإن مستوى السعر سيزداد أو ينخفض تبعاً لما إذا كان إنتاج الذهب سيزيد خزين العالم من الذهب بأكثر أو أقل من هذا المعدل كل سنة. هذه نظرية غير عادية حقاً. ولكنها تثير الاهتمام ليس بذاتها فقط بل =

الفرضيات الصارمة التي وضعها فيشر حول العلاقة بين الودائع الكلية التي يمكن سحبها بصك total checking deposits والذهب، والتي بمقتضاها تتقرر الكمية الكلية من وسيلة التداول (في ظل الظروف الأنجلو-أمريكية السائدة عام ١٩١١) بإنتاج الذهب وتصدير الذهب أو استيراده، فيبدو أننا نحصل ليس فقط على نظرية كمية لقيمة النقود بل أيضاً (بالنسبة لتلك الظروف الخاصة) على نظرية كمية ذهبية بالنسبة لقيمة النقود.

إن الأمر المهم جداً هو إدراك خطأ مَنْ صَنَّفُوا فيشر كنصير للنوع الأكثر صرامة والأكثر ميكانيكية من النظرية الكمية والذين، على هذا الأساس، وجدوا فجوة كبيرة يتعذر جسرها بين النظرية النقدية في الفترة محل الدرس، كما يمثلها فيشر، والنظرية النقدية في العشرينيات والثلاثينيات. فهم على خطأ لسببين: (١) إن النظرية النقدية في العشرينيات والثلاثينيات كانت تقع تحت تأثير النظرية الكمية أكثر بكثير مما هو معروف بصورة عامة^(٧٦٤)؛ (٢) لا بد من أن نفهم بوضوح، ليس فقط وفقاً لكل كتابات فيشر الأخرى ولكن بشكل خاص وفقاً لعمله: Theory of

= بسبب منهجيتها أيضاً. وينبغي على القارئ أن يلاحظ أن عالماً في الفيزياء يمكن أن يثير اعتراضاً على هذه الأخيرة أقل بكثير مما فعله معظم الاقتصاديين. حول الوقائع، انظر، مثلاً: J. T. Phinney, 'Gold Production and the Price Level ...,' Quarterly Journal of Economics, August 1933.

(٧٦٤) يتعذر مع الأسف أن نطرح كلياً هنا هذه الواقعة الأكثر أهمية. سوف أقدم مجرد مؤشرات نحو الجسر بين تحليل النظرية الكمية القديمة والأعمال الأحدث. فكل أولئك الكتاب، وبخاصة الأمريكيين الذين كتبوا حول النقود ممن، مثلاً، بالارتباط مع عمليات السوق المفتوحة لنظام الاحتياطي الأمريكي، كانوا يحتاجون بطريقة تتضمن الاعتقاد بإمكان السيطرة على (*) العمل على استقرار (stabilizing) نشاط الأعمال عبر السيطرة على وسيلة التداول، كانوا من منظري النظرية الكمية الإقحاح - وهي حقيقة متخفية إلى حد ما لأنهم، إذ تواجههم بنية مؤسسية مختلفة، عبّروا بصورة طبيعية عن أنفسهم بطريقة تختلف عن كتاب مدرسة العملة. والأمر المهم بشكل خاص في هذا السياق هو النظرية القائلة إن المصارف كانت تزيد القروض عادة "loaned up"، أي أن المصارف توسّع من قروضها عادة إلى الحد الذي تسمح به التشريعات التي تنظم ذلك. وتتمثل الأهمية النظرية لهذه الفرضية في أنها تجعل كمية "النقود" (الودائع) تعتمد بصورة صارمة على تصرف السلطات النقدية، أي من زاوية العملية الاقتصادية، أن M تصبح معطاة أو متغيرةً مستقلاً بصورة صارمة. للإطلاع على مثال نمطي عن هذا النوع من النظرية الكمية الجديدة، انظر: L. Currie, Supply and Control of Money in the United States (1934). ولكن حتى المجموعة الكينزية، التي شددت على النفور من النظرية الكمية أكثر من أي مجموعة أخرى، لم تكن بعيدة عن تأثير هذه النظرية. فاللورد كينز نفسه قد أعلن قبوله بها في البداية (انظر: Tract on Monetary Reform, p. 81). ولكنه، مثل بيجو، لم يقبل بالفعل سوى معادلة المبادلة. وفي عمله: General Theory، أعلن كينز تخليه عنها. ولكنه لم ينجح كلياً في تحرير نفسه من قيودها. فكل مَنْ يعامل M كمتغير مستقل، لا بد من أن يعتبر عن بعض احترامه للنظرية الكمية.

Interest، إن من المتعذر تصنيف فيشر إلى جانب منظري الكمية إلا في حالة خاصة.

أولاً، ابتعد فيشر عن الموضوعات الكمية بأكمل معنى ممكن لها حينما اعترف بتأثير T على V و M معاً (Purchasing Power..., ch. 8, § 6) - وهذا يُضعف الموضوعات الكمية إلى حد بعيد، على الأقل كفرضية تتعلق بالأمد البعيد، لأنه يُدخل علاقة معينة بين المتغيرات المستقلة تتداخل مع الآثار المباشرة للتغيرات في T على P . ثانياً، ما دامت الموضوعات الكمية تسرى على حالة من التوازن فقط، فليس طبعاً من باب التحفظ أو الاعتراض أن نقول أنها لا تسرى على ما يسميها فيشر 'الفترة الانتقالية'. ولكن مادام النظام الاقتصادي بالفعل هو في حالة من الانتقال أو الاختلال على الدوام عملياً، فإن الظواهر التي تبدو غير متمشية مع الموضوعات الكمية والتي أمنت لخصومها الكثير من حججهم بالفعل، هي ظواهر جلية دائماً تقريباً. وحينما أظهر فيشر اهتماماً دقيقاً بهذه الظواهر - وبخاصة بأحد أنواعها: أي ميل سعر الفائدة لتكييف نفسه لتزايد وتناقص الأسعار معاً بعد فترة إبطاء معينة (انظر القسم الثامن، أدناه) - فإنه قد غير موقفه كلياً^(٧٦٥). وإذا شئنا المنطق الصارم، فإن فيشر طبعاً لم يفعل بذلك غير إكمال الفكرة التي توصلها الموضوعات الكمية. ولكن لأغراض عملية، وبشكل خاص، إذا وضعنا أنفسنا موضع الأنصار والخصوم السذج للموضوعات الكمية، فيمكن أن نقول، بنفس الإنصاف تقريباً، إن فيشر قد وَضَعَهَا على الرف في جزء كبير ومهم بشكل خاص من عمله. ثالثاً، لم يمل فيشر من التشديد على أن M و V و T تشكل 'الأسباب المباشرة' فقط لـ P . إذ توجد خلفها دزينة: دسنة تقريباً من المؤثرات غير المباشرة على القوة الشرائية (المصدر السابق، الفصلين الخامس والسادس) والتي تؤثر على مستويات السعر عبر M و V و T . إن من شأن كل منظري الكمية في كل العهود قبول هذا، على الأقل تحت وابل النقد الحاد. ولكن ثمة نقطة معينة يبدأ بعدها التشديد على تلك المؤثرات غير المباشرة بإضعاف أهمية الأسباب المباشرة، حيث تتحلل حينذاك تلك المؤثرات إلى أسباب وسيطة وإلى، أخيراً، مجرد أسماء لما

(٧٦٥) لابد من الإشارة، في هذا السياق، إلى إحدى مساهمات فيشر الأكثر أصالة، أي عمله حول مشكلة فترة إبطاء التوزيع. انظر مقالاته في مجلة Journal of American Statistical Association، 'The Business Cycle Largely a "Dance of the Dollar," December 1923, and 'Our Unstable Dollar and the So-Called Business Cycle,' June

نقاد عندئذ إلى تسميتها أسباباً 'حقيقية'. ويبدو أن فيشر كان قد وصل إلى هذه النقطة: ففي التحليل الديناميكي بشكل خاص (تحليله للفترات الانتقالية)، الذي هو الشيء الهام حقاً، فإن الأسباب غير المباشرة تلك تصبح مهمة أكثر من السؤال عما إذا كان يمكن أم لا حصرها ضمن M و V و T كأطر ضيقة straitjackets.

ولكن لماذا يتحتم على ذلك الكاتب العظيم الإصرار على تبني ما يظهر، عند التدقيق، كشكل ضيق وغير كاف بشكل خاص، إن لم نقل مضلل فعلاً، لفكره الخاص؟ أجازف بطرح إجابة افتراضية: كان فيشر يفكر بمخطط معين - خطة الدولار المعوض - آمن بأنه يمتلك فائدة كبيرة وأنيّة؛ ذلك لأن البساطة أمر جوهرى لنجاح مخطط عملي معين^(٧٦٦). وهكذا فإن الجانب الأبسط من تحليل فيشر: جانب النظرية الكمية، هو الذى قدّم نفسه إلى ذهن فيشر وغلبَ على عرضه. إذ إن النظرية الواردة فى عمله: Purchasing Power of Money فهُمت كمرتكز للعمل الإحصائى الذى بدوره كان يجب أن يخدم قطعة من الهندسة الاجتماعية. وهذا هو الذى نحى جانباً كل الاعتبارات الأخرى. ولكن هذه الاعتبارات كانت هناك، وبفضل وجودها، فإن نظريته الكمية، إذا تحتم على نظريته أن تكون نظرية كمية، هى شىء مختلف تماماً عن النظريات الكمية الأخرى.

وكما توضّح بإسهاب المحاجة المبينة آنفاً، فليس من السهل أن نرسم خطأ فاصلاً مقنعاً بين الاقتصاديين الذين ناصروا الموضوعة الكمية والاقتصاديين الذين أنكروها. ولكن كان هناك أعداء معلنون لها دائماً - حيث شكّلوا الأغلبية فى ألمانيا^(٧٦٧) وفرنسا - آمنوا بأن الموضوعة يتعذر الدفاع عنها، أو إنها عديمة القيمة تماماً بخلاف ذلك. وعند مقارنتها بعمل فيشر وبأعمال أى من أولئك القادة ممن

(٧٦٦) أما إذا كانت البساطة عاملاً أساسياً، فهذا أمر يمكن استخلاصه من واقعتين: أولاً، كون فيشر قد استبعد كل الأشياء الأكثر أهمية ووضّعها فى الحجيرات التى أسماها 'الفترات الانتقالية'، وهو اسم يوحى برغبته بتركيز انتباه القارئ على فرضية التوازن البسيطة؛ ثانياً، كونه قد عبّر عن هذه الأخيرة بمعادلة واحدة بدلاً من التعبير عنها، بصورة مرضية أكثر، بنظام من المعادلات كان يمكن 'دينمتها' بسهولة بحيث إن فرضية التوازن كان يمكن أن تأخذ بصورة طبيعية مكانها الصحيح كحالة خاصة. ولو كنا أمام كاتب آخر، لكان من السهل أن نفهم الفشل فى تبني السبيل الثانى. أما فى حالة عالم رياضى خبير مثل فيشر، فإن الرغبة فى التبسيط وحدها تستطيع أن تفسر ذلك.

(٧٦٧) انظر: S. P. Altman, 'Zur deutscher Geldehe des 19. Jahrhunderts' in Festgabe für Schmoller, 1908. 1.

يمكن الثناء عليهم (أو مؤاخذتهم) لأنهم استعملوا الموضوع الكمية بهذا المعنى أو ذلك، فإن حجج أولئك الأعداء المعلنين لا تتجلى على نحو جيد. وهذا يعود، بقدر تعلق الأمر بمنظري النظرية الكمية البارزين أولئك، إلى حقيقة إن الخصوم كانوا يحاربون طواحين هواء حقاً: فكما يحدث كثيراً في علم الاقتصاد، كان هؤلاء الخصوم يحاولون الإجهاز على وهم قد صنّعه خيالهم؛ يحاولون دحض أمر لم يطرحه أحد قط - كالقول، مثلاً، إن كمية النقود الموجودة في التداول هي المنظم الوحيد لقيمتها - أو يحاولون الدفاع عن أشياء معينة كانوا يجهلون، وهي أشياء كانت تأخذها كلياً بنظر الاعتبار كل العروض الجيدة للموضوعة الذميمة. وهكذا غالباً ما أثار الخصوم اعتراضات لم تشدد إلا على ما كان صحيحاً وقائعيّاً ونظريّاً، ولكنها لم تكن صحيحة كاعتراضات، رغم ذلك. وعلى العكس، فحينما كان يمكن لحججهم أن تشكل اعتراضات صحيحة - كالحجة القائلة، مثلاً، إن كمية النقود لا تمت قط بأية صلة إلى قيمتها - فإنهم أخطئوا بشكل واضح في كثير من الأحوال. وأخيراً، فإنهم وضعوا أحياناً نقاطاً صحيحة ومهمة معاً ولكنها غير حاسمة: وهذا يصح على انتقاد أندرسون الذي، بمعزل عن ذلك، يبرز بين البقية بصورة لامعة^(٧٦٨). إن هذه النواقص تضعف المضامين الانتقادية للبحث الوقائي، اللقيم جدا بذاته، الذي تم تحقيقه بقصد 'دحض النظرية الكمية'. ومرة أخرى، فإن ظواهر معينة من قبيل: إن الأسعار كانت تزداد بأقل من M في المراحل الأبركر من تضخم ما، وبأكثر من M ، في المراحل التالية منه، كانت قد استخدمت ضد صحة تلك النظرية - وهي ضربة فشلت تماماً في إصابة الهدف^(٧٦٩). إن محاولة

(٧٦٨) B. M. Anderson, Value of Money (1917). قد يخدمنا المثال التالي عن انتقاده. افترض إن أجور الخدم المحليين ازدادت (دون طرد أي خادم). وإن هؤلاء الخدم يستعملون دخلهم الإضافي بنفس الطريقة بالضبط التي كان يستعمل بها مستخدموهم نفس المبلغ من قبل. وعليه، فلم يتغير شيء باستثناء أن سعر الخدمات المستهلكة بشكل مباشر، التي يجب إدخالها في الرقم القياسي لمستوى السعر، أصبح أكثر من السابق: فالسعر كان قد ازداد، مع أن M و T بقيتا على حالهما. وفي عرضه لكتاب أندرسون في مجلة: *Economic Journal*, March 1918، رد إيجورث على هذا بقوله: مع أن M و T تبقيان ثابتتين، بيد أن V كانت قد ازدادت. ولكن من الواضح أن الزيادة في V ، التي تحدث تلقائياً في حالات معينة من تغيرات السعر، لا يمكن إثارتها ضد اعتراض أندرسون. وعليه، فهو على حق. ولكن اعتراضه، رغم أنه يبقى وارداً، لا يدل بقوة ضد أي نظرية كمية لا تطمح أن تكون أكثر من مقارنة عريضة.

(٧٦٩) قد يرحب بعض القراء بالعينة الصغيرة التالية من هذا الأدب: H. P. Willis, 'History and Present Application of the Quantity Theory,' *Journal and Political Economy*, September 1896 ; Alfred de Foville, 'La Theorie quantitative et les prix,' *L'Economiste Francais*, April and May 1896 ; D. Berardi, *La Moneta nei suoi rapporti*

فيشر القيام بالتدقيق إنما هي أفضل كثيراً من أي شيء قدمه الخصوم، مع إن هذه المحاولة عرضة لانتقادات معينة بشأن ارتباط السلاسل الزمنية^(٧٧٠). ومع ذلك، فإن هؤلاء لم يستسلموا. وكان موقفهم مبرراً حينما رفضوا أن يفعلوا ذلك. فقد كانت لديهم فكرة ما.

إن مثلاً بسيطاً من شأنه توضيح هذا الوضع المتناقض على ما يبدو. تخيل ثمة حالة من التضخم المصاحب للحروب war inflation تمضى كما يلى. إن الاضطراب disturbance الذى يحدث للإنتاج المحلى وتجارة التصدير والاستيراد يرفع من معظم الأسعار فى البداية، كما أن طلب الحكومة الحربى يُمول بوسائل

quantitativi (1912); J. L. Laughlin, A Theory of Prices, 'Publications of the American Economic Association, 3rd series (February 1905) ; W. C. Mitchell, Gold Prices and Wages under the Greenback Standard (1908) and 'Quantity Theory of the Value of Journal of Political Economy, March 1896 ; L. Lescure, 'Hausses et baisses 'Money,' generales des prix, Revue d economie politique, July 1912; B. Nogaro, 'Contributions a une theorie realiste de la monnaie,' ibid. October 1906 ; E. Dolleins, la Monnaie et les prix (1905) وبالنسبة لألمانيا، سأذكر اثنين من أفضل كتاب الفترة حول النقود والسياسة النقدية، مع أنهما لا يقدمان أنفسهما بصورة ملائمة فى حاجتهما ضد الموضوع الكمية - وهى المحاججات التى تطورت جزئياً لغرض خاص يهدف إلى بيان أن هبوط الأسعار خلال السنوات ١٨٧٣-١٨٩٨ لا يمت بأية صلة إلى إنتاج الذهب أو توسع المناطق التى تأخذ بقاعدة الذهب: ارون ناس 'Das Sinken der Warenpreise.. 'Jahrbucher fur Nationalokonomie,)) Erwin Nasse (July and August 1888) ودبليو. ليكسس W. Lexis (عالم الإحصاء الشهير، الذى كتب مقالات كثيرة؛ انظر، مثلاً، نقده لخطة فالراس فى مقالاته الاستعرافية: 'Neuere Schriften uber Geld' und Edelmetalle' (Ibid. July 1888) ومع ذلك، انظر رست Rist (المصدر السابق، ص 253n) للحصول على مقتطفات تفيد بأن ليكسس كان يقبل النظرية الكمية من حيث المبدأ. وتثير الاستغراب عدم قدرتهم على أن يعالجوا بصورة صحيحة حجة لم تكن، رغم كل شيء، حجة معقدة جداً. وكذلك هو شأن كارل ماركس الذى فشل فى أن يفهم إن تكلفة إنتاج النقود (مهما كان تعريفها) لابد أن يؤثر على أسعار السلع من خلال تأثير تلك التكلفة على عرض النقود: فهو ينكر أى تأثير لكمية النقود على الأسعار: Das Kapital (الترجمة الإنجليزية، طبعة كير، المجلد الأول، ص. ١٣٦). (٧٧٠) إن المحاولة الأخرى التى تؤيد استنتاج فيشر تشهد بوضوح على براعة العمل: 'Ockar Anderson, Ist Quantitatstheorie statistisch nachweisbar ? 'in Zeitschrift fur Nationalokonomie (March 1931)). وينبغى علينا فى هذا السياق أن نلاحظ أحد الأسباب التى تفسر فشل كل من التدقيق والدحض وفقاً للمادة الإحصائية: إذ إن قبول، أو رفض قبول، دليل إحصائى معين هو قضية ذاتية جداً إلى حد بعيد. فما دامت أى مادة تعجز دائماً عن تأييد النظرية الكمية بنسبة ١٠٠ % من الدقة ونظراً إلى أن المادة التى تغطى، مثلاً، ١٠ سنوات على الأقل، لا يمكن قط أن تفشل فى إيضاح شيء ما من العلاقة بين P و T و M، فلا بد من أن يكون هناك، فى معظم الحالات، مجال لاختلاف معقول فى وجهات النظر من ناحية ما يمكن أن تعنيه اكتشافات إحصائية معينة. إن من مزايا الطرق المنقاة، كطرق و. اندرسون، أنها تقدم معايير يمكن الاعتماد عليها أكثر من مجرد الانطباع.

كانت سُنْفَق من قبل الأفراد لولا الحرب؛ إن هذا الارتفاع في الأسعار، سوية مع زيادة معينة بمعدل متزايد في الطلب الحربى فى صورة مادية، يعزز عندئذ اللجوء إلى صنع 'النقود' (أو وسائل ائتمان لا تمتلك، فى هذه الحالة، صفات وسائل الائتمان المعتادة لغرض التجارة)؛ وأخيراً، يتطور طلب المنتجين المتزايد على القروض - أى توسع ائتمان بالمعنى التجارى، ولكنه توسع تغذيه باستمرار الأسعار التى تواصل زيادتها. ومن المؤكد هنا أن يصف المؤرخون والسياسيون ورجال الأعمال عملية كهذه من خلال الحرب نفسها وعبر الاضطراب، من ناحية، وفائض الطلب الذى تستتبعه الحرب، من الناحية الأخرى. ولا بد من أن يثير دهشتهم أن يعلموا، بدلاً من الحرب والاضطراب الذى تثيره والطلب الذى تزيده، إن V و M و T بالضبط هى التى 'تسبب' التضخم وإن M و V فقط هما العنصران اللذان يهتمان حقاً. وحينما يُقال لهم إن هذه هى 'الأسباب المباشرة' proximate causes، بينما إن الحرب والاضطراب الناشئ والطلب الحربى تمثل الأسباب 'غير المباشرة' - ويتعين دومًا على منظر الكمية التسليم بالدور 'المباشر' للتغيرات فى T - التى هى أسباب فاعلة operative ولكن لمرحلة واحدة فقط، فإنهم لن يقتنعوا. بل إنهم ينزعجون، إن فعلوا شيئاً ما أصلاً، وبشكل خاص عند شكهم بأن ما يمكن أن يضيع لا ينحصر بالمحاجة النظرية فقط. وقد كانوا على حق فى هذا طبعًا: فى القرن التاسع عشر، إضافة إلى عشرينيات وثلاثينيات القرن العشرين، كانت ثمة نظرية كمية جامدة rigid، النظرية التى نسبت إلى M دورًا فى مجال المعالجة الاقتصادية يتعذر تبريره قط، قد شقت طريقها فجأة وسط صياغات أدق للنظرية. فى الولايات المتحدة بشكل خاص، كانت لدى أنصار النقود القوية - وكل أولئك الاقتصاديين الذين شعروا عن حق كامل بأن مشاكل العملة ليست سوى انعكاس لأشياء أعمق - أسباب كثيرة لعدم الثقة بالمضامين العملية الممكنة للموضوعة الكمية، وهى عدم ثقة امتدت حينذاك إلى تحليل النظرية الكمية نفسها، مهما كان هذا أمرًا غير منصف. ولكن كان بوسع هؤلاء الأنصار والاقتصاديين أن يطرحوا أسبابًا علمية بحتة أيضًا. فالتغيرات التى وصفتها كأطر ضيقة straitjackets قد تكون مفيدة لأغراض معينة محددة تمامًا كما هو شأن كل مثل هذه البنى التى تغالى فى التبسيط كالنظام الكينزى، مثلاً. أما خارج نطاق هذه الأغراض، فهى غير ملائمة وعقبة فى طريق التحليل الأكثر جوهرية. وعلاوة على ذلك، فإذا سلّمنا بإمكانية التغيير الدورى فى V وشدّدنا على أهمية أسباب 'غير مباشرة' كسعر

الفائدة، ومعدل التغير في P (مقابل P نفسها)، وما شابه ذلك، فإنها تصبح عديمة الجدوى أيضًا. وليس من المبالغة في شيء أن نقول إن التقدم الرئيسي في النظرية النقدية في الأوقات الأكثر حداثة كان نتاجًا للميل نحو تمزيق الأطر الضيقة والتعامل الصريح والمباشر مع كل ما أبعدته الصياغات الفضلى للنظرية الكمية بوصفه مؤثرات غير مباشرة. درس: في الاقتصاد أكثر مما في غيره، نجد أن السبب الوجيه والذي ينجح أخيرًا قد لا يجرى الدفاع عنه بشكل كاف بحيث إنه يبدو كسبب سيئ لعقود عدة.

[ج) تكافؤ القوة الشرائية وآلية المدفوعات الدولية] قبل أن نستمر، دعونا نطرق موضوعين آخرين. إذ نجد في جوار الموضوع الكمية، في تلك الفترة بصورة أوضح من السابق، حليفها القديم: نظرية سعر الصرف القائم على تكافؤ القوة الشرائية purchasing-power parity theory of foreign exchange، أى الفرضية القائلة إن سعر الوحدة النقدية لبلد ما، معبرًا عنها من خلال العملات الأجنبية، يميل إلى التناسب العكسي مع العلاقات بين مستويات السعر في هذه البلدان، وذلك عند عدم التدخل في ذلك السعر. لقد أُشير غير مرة إلى هذه الفرضية، من قبل مارشال وشليسنجر Schlesinger على سبيل المثال، ولكنها أدهشت معظم الناس كاككتشاف جديد حينما استعملها كاسل بصورة فعالة في المناقشات التي دارت حول مشاكل الصرف التي برزت أثناء وبعد الحرب العالمية الأولى^(٧٧١). وكما سبق لى أن ذكرت، فإن الفرضية لا تبدو مثيرة جدا. فقد لاحظها مارشال وشليسنجر بصورة عابرة دون أن يشددا عليها كثيرًا. وقد لا نلتبس، من كثرة الأعمال التي كان يمكن أن تقدمها فرضية 'تكافؤ القوة الشرائية'، سوى مدخل ضيق جدا من المناقشات حول مزايا تلك الفرضية كأداة للتحليل^(٧٧٢). أما

(٧٧١) بدأت أعمال كاسل حول الموضوع العام ١٩١٦. والإحالة التي يحتمل أن تغيد القارئ أكثر هي إلى عمل كاسل: (Theory of Social Economy (ch. 12) وإلى عمل البروفيسور ه. اليس H. Ellis: German Monetary Theory (part 111) الذي تجاوز كثيرًا المناقشة الألمانية وسوف يثبت فائدته بالنسبة للقراء الذين يهتمون أكثر بالموضوع الذي ليس بوسعى سوى أن الفت الانتباه إليه. (٧٧٢) لقد تغذى هذا المدخل على موارد إنجليزية بشكل رئيسي. انظر بشكل خاص، أ. س. بيجو: 'The Foreign Exchange,' Quarterly Journal of Economics, November 1922 وكذلك ج. م. كينز: Tract on Monetary Reform (الفصل الثالث، الذي تزيه معالجته الممتازة حول المضاربة بالعملات الأجنبية). وقد كان لهذه المناقشة الفضل في إثارة عدة موضوعات تستحق الاهتمام، ولكنها انتهت إلى النتيجة الضعيفة القائلة إن موضوع تكافؤ القوة الشرائية، حينما صيغت بصورة صحيحة، يندر أن كانت لها أى قيمة. وهذا غير صحيح في الواقع، وقد كان بوسع اللورد كينز =

الإثارة، فنبعت من حقيقة أن كاسل قد ربطها بنظرية كمية محددة، وبمشاكل التضخم المصاحب للحرب وذلك كتطبيق لها. وكنتيجة لهذا، فقد تحولت نظرية تكافؤ القوة الشرائية purchasing-power parity theory إلى ما يسمى 'نظرية التضخم' لسعر الصرف { أو نظرية سعر الصرف القائم على 'التضخم'، أو 'نظرية التضخم' كتفسير لسعر الصرف } inflation theory of foreign exchange التي تفيد: إن زيادة M ترفع من مستوى السعر؛ وأن الزيادة في مستوى السعر في بلد ما تخفّض من قيمة وحدته النقدية معبراً عنها بعملات البلدان الأخرى التي لم ترتفع الأسعار فيها. وقد قُدمت حجج مضادة تحت علم نظرية 'ميزان المدفوعات'، ذهبت بعيداً، في الغالب وإن ليس دائماً، إلى حد أن جعلت التسلسل السببي يبدأ من سعر الصرف إلى مستوى السعر بدلاً من مستوى السعر نحو سعر الصرف. ولا نستطيع الدخول في هذا السجال الذي لم يقابل فيه الخصوم بعضهم بعضاً بحجج على نفس المستوى من الحقيقة والتجرد والذى، رغم أنه لا يخلو من نتائج جيدة، يقدم مثلاً محزناً على عقم كثير من السجلات الاقتصادية وذلك لعدم كفاية القوة التحليلية لدى المشاركين فيها.

وانتهز هذه الفرصة للإشارة إلى سجال آخر (أو مجموعة من سجلات) أثبت أنها أكثر نفعاً: السجال حول آلية المدفوعات الدولية. اختط هذا السجال دربه وقدم ثماره في العشرينيات والثلاثينيات، ولكن مصادره تعود إلى عمل القرن التاسع عشر، وإن قسماً من أهم المشاركين فيه يستمدون إلهامهم من الخلاف بين ثورنتون وريكاردو (انظر الجزء الثالث، الفصل السابع، القسم الثالث، أعلاه) (٧٧٣). تمثّل أمامنا هنا حالة نمطية حقاً من التطور العلمي العادى. إذ لاحظ الكتاب القدامى كل العناصر الجوهرية من المشكلة بشكل صريح تقريباً. ولكن رغم ذلك، فحينما

=الوصول إلى تعريف لسعر الصرف التوازنى أفضل مما قدّمه عند تحضير خطته بشأن اتحاد المقاصة ومؤتمر بريتن وودز Bretton Woods لو أنه لم يكن قد أهمل باستخفاف ما يشكل نقطة بداية قيمة جدا.

(٧٧٣) إن التعليقات الموجزة وغير الكافية، التالية في المتن أعلاه، والتي لا تستطيع أكثر من أن تؤشر 'الجسر' بين عملنا في الوقت الحاضر والماضى، يمكن تكملتها بمعالجة الموضوع من قبل ج. فاينر J. Viner في عمله Studies in the Theory of International Trade (الفصلين السادس والسابع). ومن الطريف انتقاد هذا المؤلف لأنه أضعف لوحته بتشديده غير الكافى على أهمية مساهمته هو نفسه فى عمله (١٩٢٤) Canada's Balance of International Indebtedness. وإذ اعتمد على هذا المرجع مرة أخرى، فسوف أذكر، فى ما سياتى، المساهمات بإيجاز شديد.

لخص ج. س. ميل عملهم، فإن الصورة التي تكونت عنها كانت غير كاملة ووحيدة الجانب، أى مخطط آلية المدفوعات الدولية من طرف واحد (اتاوة، قروض، أو إعادة دفع قروض) حيث، وفقاً لميل، يقوم البلد الدافع بتحويل الذهب أولاً، رافعاً بذلك من مستوى السعر فى البلد المستلم ومخفضاً من مستوى السعر فيه هو ذاته، بحيث يتحقق له فائض تصدير معين يتولى عندئذ تسوية المدفوعات اللاحقة. إن عدم الكفاية الواضحة فى هذا المخطط، الذى ليس فقط يضع كل عبء التسوية على مستوى السعر بل أيضاً يهمل ظواهر معينة ترتبط بالضرورة بتسوية كهذه، كان قد شعر بها ولاحظها باستيبل Bastable ('On Some Applications of the Theory of International Trade,' Quarterly Journal of Economics, October 1889) وآخرون، ولكن النظرية أثبتت أنها نبذة قوية واستمر تدريسها لغاية العشرينيات، رغم الاحتجاجات (كاحتجاج فيكسل الوارد فى عمله: 'International Freights and Prices,' Quarterly Journal of Economics, February 1918). وحينما لفتت مشكلة التعويضات الألمانية انتباه كل فرد إلى هذه القضايا من الآلية، فإن تقدماً سريعاً نسبياً كان قد تحقق فى بناء جهاز معين للتحليل كان جديداً بصفته هذه، رغم إن أياً من عناصره لم يكن جديداً. يشكل عمل أوهلين (Ohlin 'Interregional and International Trade, 1933) معلماً ملائماً فى هذا الجهاز، كما هو شأنه من النواحي الأخرى. ولكن تتبغى ملاحظة تعاليم تاوسك Taussig بشكل خاص. فقد انطلق تاوسك من مخطط ميل ولم يهجره شخصياً قط، رغم التطويرات العديدة التى أضافها. ولكن بحكم ما أثاره تاوسك من نقد وبفضل عمل تلاميذه، ممن ألهمتهم قيادته، فإنه قد ساعد على ولادة التحليل الجديد بشكل فعال كما لو أنه قد خلقه هو نفسه تقريباً. فمن ناحية، تطور عن تعاليم تاوسك الكثير من العمل النظرى الأكثر أهمية، وبخاصة عمل فاينر. ومن ناحية أخرى، أطلق تاوسك سلسلة من البحوث الوقائعية^(٧٧٤).

(٧٧٤) بشكل عام، يشكل البحث الوقائعى حول حركات رأس المال الدولية فى تلك الفترة أحد موضوعاتها الكبرى التى تستحق تقديرنا. ويصلح مثلاً على ذلك عمل س. ك. هوبزن C. K. Hobson: The Export of Capital (1914).

٦. قيمة النقود: منهج الرصيد النقدي ومنهج الدخل (٧٧٥)

تم استعمال معادلة فيشر-نيوكم حول المبادلة والصيغ المشابهة لها على نطاق واسع (أو قد جرى افتراضها في الأحاديث اللفظية المواربة) ولكن ليس بصورة شاملة. ونتجه الآن لإلقاء نظرة سريعة على صيغتين أخريتين. ومن المهم في كلتا الحالتين أن ندرك أن هاتين الصيغتين تعادلان معادلة فيشر-نيوكم من حيث الجوهر بقدر أهمية أن نفهم طبيعة اختلافهما عن هذه الأخيرة، والذي شجع على تفضيلهما. أو، إذا صغنا الأمر من زاوية أخرى، إن الشيء المهم هو إدراك لماذا إن هاتين الصيغتين، رغم تماثلهما الجوهرى مع معادلة فيشر-نيوكم، قد مثلتا تقدمًا جوهريًا باتجاه مختلف.

(أ) منهج الرصيد النقدي تحدث فالراس عن كمية النقود كثيرًا. ولكن المفهوم المركزى فى تحليله للنقود هو *encaisse desirée*، أى كمية النقد التى يرغب الناس فرديًا بالاحتفاظ بها فى أى لحظة. وبالمثل، فإن اقتصاديى كمبريدج، سيرًا على مبادرة مارشال والتزامًا بتقليد بتي-لوك-كانتيلون، قد تبنوا صيغة معينة عكست الفكرة ذاتها. فإذا رمزنا إلى 'النقد فى التداول' لدى الجمهور بـ n ، وإلى الرقم القياسى لتكلفة المعيشة بـ p ، وإذا رمزنا بـ k إلى عدد 'وحدات الاستهلاك'، التى هى رقم قياسى أيضًا، وتمثل المقابل المادى للنقد الذى يتداوله الجمهور، وإذا رمزنا بـ k' إلى عدد وحدات الاستهلاك التى تمثل بصورة مماثلة المقابل المادى للودائع تحت الطلب التى أودعها الجمهور، وإذا رمزنا بـ r إلى ذلك القسم من k' الذى تحتفظ بها المصارف كاحتياطي نقدى مقابل k' ، يكون لدينا^(٧٧٦):

(٧٧٥) يتعين أن نشير، مرة أخرى، إشارة خاصة إلى معالجة البروفيسور مارغيت لهذه الموضوعات (المصدر السابق، المجلد الأول، الفصول ١٢-١٦).

(٧٧٦) انظر، مثلاً، ج. م. كينز: *Monetary Reform*، الطبعة الأمريكية، ١٩٢٤، ص ٨٢-٨٦. ثمّة أشياء ثلاثة تتبغى ملاحظتها من ناحية هذه الصياغة الخاصة. (١) إن 'الجمهور' يشمل قطاع الأعمال *business*: فرغم أن قطاع الأعمال لا ينقق على السلع الاستهلاكية، بيد أن المقابل المادى *physical complement* لما يحوزه من نقد فى يده وفى المصارف إنما يقاس، رغم ذلك، فى 'وحدات استهلاك' كما هو بالضبط المقابل المادى لنقد وأرصدة المستهلكين. (٢) فى الفصل الذى يُقدّم فيه كينز هذا العرض لنظرية كمبريدج، فإنه خلط-كما فعل كثيرون غيره - استعمال معادلة المبادلة مع قبول النظرية الكمية؛ وفى الواقع، فهو لم يقصد قبول الموضوعة الكمية بأى معنى =

$$n = p (k + rk')$$

وهذه هي ما تسمى بمعادلة كمبريدج التى تجسد منهج الرصيد النقدي Cash Balance Approach. إن هذه المعادلة تفترض وتشدّد على تفترضه وتشدّد عليه معادلة نيوكم-فيشر بالضبط. وبشكل خاص، فهي تمثل مطابقة معينة لا أكثر ولا أقل. إن الجانب الذى يمكن أن يبدو لأول وهلة كفارق أساسى بينهما، أى غياب سرعة التداول، لا يمثل فارقاً مهماً جداً: ذلك لأن كل المشاكل التى تُعالج فى معادلة فيشر-نيوكم تحت عنوان: سرعة التداول تبرز بنفس الشكل إلى حد بعيد حينما نحاول أن نعمل وفقاً لمعادلة كمبريدج. ولكن رغم ذلك، فإن هذه المعادلة تتطوى على شىء يستحق الملاحظة لأنه يلقي ضوءاً على جانب مهم من: جذور الأفكار العلمية Filiation of Scientific Ideas. فحينما نعبّر عن معادلة كمبريدج بكلمات، فمن الطبيعى أن نقول -كما قال كل اقتصادى كمبريدج بالفعل - إن 'الجمهور يختار' أو 'يختار' الاحتفاظ بـ $p(k + rk')$ كنقد وأرصدة، وإن هذه الطريقة فى الحديث تشكل جسراً نفسياً إلى الآراء اللاحقة، وبخاصة الآراء الكينزية: ذلك لأنها تشير نحو القرارات الفردية التى تكمن خلف سلوك الجمهور فى مسألة الاحتفاظ بأرصدة سائلة وتوحى بتحليل الدوافع التى تحركهم. وبشكل خاص، إذا عبّرنا عن المسألة بالقول إن هناك شيئاً ما من قبيل 'ميزان مفاضلة' بين الاحتفاظ بالنقد والاحتفاظ بأشكال أخرى للثروة، فلا نستطيع تجنب رؤية المعلم الذى يشير نحو نظرية تفضيل السيولة الكينزية. ولكننا يجب أن نضيف، مرة أخرى، إن هذا لا يرقّ إلى نظرية تفضيل السيولة liquidity preference theory. فمن الواضح، وبخاصة فى حالة مفهوم فالراس: encaisse desiree، إننا نحتاج فرضيات أخرى عن موقف الناس من حيازة النقد لكى ننقل من المنهج الأول إلى المنهج الآخر.

=محدد. (٣) وبشكل خاص، فإن كينز قد شدد أصلاً فى عمله: Monetary Reform، على إمكانية الواسعة لتغير k و k' و r ، وأنه أحتج، ولو بصورة خفيفة، ضد الفرضية غير المدروسة التى تفيد أن 'تغيراً فى كمية العملة فقط لا يمكن أن يؤثر على k و k' و r - وهى عبارات تبشّر بجوانب محددة من التحليل فى عمله: General Theory. ويقدم عمل كينز Treatise موقفاً وسطاً تتمثل جوانبه الرئيسية بتحويل: المستوى العام للسعر إلى مستويات سعر قطاعية وإدخال الادخار والاستثمار ضمن المتغيرات بشكل صريح. إن معادلات Treatise (الكتاب الثالث) ينبغى النظر إليها كتطويرات للمعادلة المذكورة أعلاه. فهى توضح عبارتى القائلة إن تقدم النظرية النقدية فى العشرينات والثلاثينات انصب أساساً فى نبذ المجاميع الشاملة comprehensive aggregates التى يتضمنها تحليل معادلة المبادلة وبأنه أدخل بشكل صريح المتغيرات المعبرة عن 'المؤثرات غير المباشرة'.

(ب) منهج الدخل سبق أن لاحظنا أن توك Tooke، فى رسالته الثالثة عشر، اقترح وجوب ابتداء تفسير الأسعار النقدية من دخول المستهلكين. وقد اقترح توك هذا الأمر، كما نعلم، كبديل لتفسير السعر عن طريق كميات النقود الذى كان قد رفضه. ومنذ ذلك الحين، فإن منهج الدخل Income Approach قد سحر المحللين - رغم تبنيه من قبل كتاب آخرين أيضاً - الذين بغضوا النظرية الكمية أو حتى معادلة المبادلة^(٧٧٧). ولكن من السهل أن نرى إن المنهج الأول بحد ذاته لا يشكل سوى طريقة أخرى لكتابة المنهج الثانى. وعلاوة على ذلك، فقد لا يكون للتعديل الذى أدخله توك غير قيمة مشكوك فيها ما دامت الدخول بشكل واضح 'تحدد' الأسعار بنفس الطريقة التى 'تحدد' فيها الأسعار' الدخول. ومع ذلك، فإن تفضيل فيزر Wieser^(٧٧٨) وهاوترى Hawtrey لمنهج الدخل مفهوم تماماً، رغم أنه لم يتمخض عن أى نتيجة يتعذر الحصول عليها بواسطة معادلة المبادلة. فمنهج الدخل، كما هو شأن منهج الرصيد النقدى، يشير إلى السلوك الفردى؛ وأنه، أكثر من منهج الرصيد النقدى، يقصى مجرد كمية النقود من منزلة 'سبب' مباشر لمستوى السعر' ويستبدلها بكمية أقرب أكثر إلى الأسعار: الدخل أو حتى إنفاق المستهلكين^(٧٧٩)؛ وأخيراً، فإن منهج الدخل يريح نظرية الأسعار النقدية من أسئلة من قبيل ما هى الأشياء التى ينبغى اعتبارها نقوداً. إذ إن أثر زيادة معينة فى النقود على الأسعار لا يمكن تحديدها ما دمنا لا نعرف من يحصل على النقود الإضافية، وماذا يفعل بها، وماهى النظام الاقتصادى الذى تصطدم به النقود

(٧٧٧) يسرى هذا على أ. افتاليون A. Aftalion (1932) L et sa distribution mondiale) أو على ر. لايفمان R. Liefmann (1916) Geld und Gold) الذى أشار بشكل قاطع إلى أن: الدخول تحدد الأسعار، وعلى تابع توك: ادولف فاغنر Adolf Wagner، ولكن ليس على أبرز نصير لمنهج الدخل: ر. غ. هاوترى R. G. Hawtrey (1928) Currency and Credit ; 3rd ed.) الذى انطلق من إنفاق المستهلك، الذى 'يتناسب بشكل مشترك مع المقدار غير المنفق [الذى يعادل encaisse - desiree - ج. شومبيتر] وسرعة تداول النقود'. وقد أسمى هاوترى هذا 'شكلاً من النظرية الكمية' (ص ٦٠). ومع ذلك، فقد رفض كتاب ألمان كثر هذا الأمر وكان يتعين على هانس نايسر Hans Neisser (1928) Tauschwert des Geldes) أن يعلمهم أن ليس ثمة تناقض بين منهجى الدخل والنظرية الكمية.

(٧٧٨) انظر عمله: Social Economics أو مقالته: 'Geld' المنشورة فى: Handwörterbuch (4th ed., 1927).

(٧٧٩) لابد من أن القارئ يتذكر إن هذه الميزة الخاصة لا تعنى الكثير إذا أولينا، عند استعمال معادلة المبادلة، اهتماماً دقيقاً بالعوامل التى تحكم التغيرات فى سرعة التداول، وبخاصة تغيراتها الدورية. ومن الناحية الأخرى، يمكن أن يقال بأننا، حينما نفعل هذا، نكون قد قبلنا بالفعل ما يريد منهج الدخل إيصاله.

الجديدة. إن صيغة الدخل بذاتها لا تأخذ كل هذه الأسئلة بنظر الاعتبار ولكنها توجه اهتمامنا إليها وتساعد التحليل النقدي بالتالى على هجر حجبرته المنفصلة. وهذا يتضح بشكل خاص عند تحليل عملية تضخمية معينة. فمع إنه ليس هناك ثمة معنى من التنازع حول ما إذا كانت الزيادة فى كمية النقود أم الزيادة فى جدول الرواتب هى التى 'تسبب' التضخم أكثر من المعنى الذى يمكن أن ينطوى عليه التنازع حول ما إذا كان المسدس أم نية القاتل هى التى 'تسببت' فى وفاة الضحية، بيد أن هناك شيئاً ما يمكن قوله فى صالح التركيز على الآليات التى بواسطتها تصبح الزيادة فى كمية النقود فعالة operative - هذا فضلاً عن الميزة الإضافية التى لها أهميتها فى علم الاقتصاد، أى أن صيغة إنفاق-الدخل لا تواجه بعض الأحكام المسبقة التى تواجهها معادلة المبادلة.

٧- الائتمان المصرفى و'خلق' الودائع

إن التطورات الهامة التى حدثت خلال تلك الفترة فى أنظمة المصارف فى جميع الدول التجارية وفى وظائف وسياسات المصارف المركزية جرت طبعاً ملاحظتها وتوصيفها ومناقشتها. ولا نستطيع استعراض الأدب الضخم الذى حقق هذه المهمة والذى قد تشكل الجزء الأهم منه تقارير اللجان الرسمية ومقالات أفضل المجلات المالية، مجلة Economist اللندنية بشكل خاص. كتب هذا الأدب رجال أعمال، وكتاب ماليون، واقتصاديو أعمال من مختلف الأنواع الذين كانوا يعرفون كل شئ عن وقائع وأساليب الصيرفة ومشاكلها العملية الجارية وممن لم يهتموا 'بالمبادئ' إلا قليلاً- باستثناء أنهم لم يكفوا قط عن الإشارة إلى الشعارات المجربة- وممن لا يمكن أن يقال إن أفكاراً واضحة كانت لديهم حول معنى الاتجاهات المؤسسية التى كانت قائمة أمامهم. ولذلك، فإن هذه الأعمال من زاوية التحليل العلمى، يكشف عن أنها كانت عبارة عن مادة خام أكثر من كونها منتجات جاهزة. ونظراً أساساً لإخفاق 'المحللين العلميين' للنقود والائتمان فى القيام بنصيبهم، أى لتحضير هذه المادة وتكييف بناهم التحليلية وفقاً لمثلها، فيمكننا تقريباً- وإن ليس تماماً- وصف الوضع بالقول إن أدب الصيرفة والمالية كان

محصوراً في حجرة منفصلة ضمن أدب النقود والائتمان بقدر ما كان الأخير يشكل حجرة منفصلة ضمن الأدب الاقتصادي العام.

هناك عدد من الكتب حول إنجلترا بشكل خاص مثل عمل دبليو. ت. س. كنج: (W. C. T. King, History of the London Discount Market (1936) والكتب التاريخية المختلفة حول مصرف إنجلترا (كالتاريخ الحديث الذي كتبه السير جون كلافام: John Clapham, Bank of England, 1944) التي تهياً جزءاً من المعلومات لا يمكن تقديمه هنا. وبالنسبة للمراجع الأخرى، انظر: ثبت المراجع الصغير المرفق بالمقالة حول 'Banking Commercial' المنشورة في موسوعة Encyclopaedia of Social Sciences (وبخاصة كتب المؤلفين: C. A. Conant, A. W. Kerr, A. Courtois, E. Kaufmann, A. Haurt, J. Riesser, O. Jeidels, C. Supino, C. Eisfeld, H. Willis). يتضمن ثبت المراجع هذا عملين ينبغي أن نشير إليهما بشكل خاص نظراً لنوعيتهما الرفيعة: عمل س. ف. دونبار S. F. Dunbar: Theory and History of Banking (الطبعة الخامسة ١٩٢٩، ولكن العمل يعود إلى القرن التاسع عشر من حيث الجوهر)؛ ف. سومري F. Somary Bankpolitik (1st ed., 1915 ; 2nd ed., 1930). إن قراءة عمل ل. م. مينتس L.W. Mints (History of Banking Theory, 1945) تبين إلى أي حد كان الأدب الوصفي قد 'غلب' على كتب النظرية النقدية والصيرفة، رغم أن عرض الكاتب لمادته الضخمة يضعفه نوعاً ما التشديد المفرط على نواقص النظرية التجارية للصيرفة commercial theory of banking، المعرفة تعريفاً ضيقاً بشكل خاص ('مذهب الأوراق-الحقيقية' the real-bills doctrine).

إن الوضع الذي وصفناه آنفاً بتشبيهه بحجرة منفصلة يفسر نشوء نوع خاص من الكتب تمت كتابتها ليس للجمهور العام من القراء فقط بل للاقتصاديين أيضاً لتتويرهم بوقائع ومشاكل الصيرفة أو المالية. إن نجاح هذه الكتب يثبت، أكثر من أي شيء آخر، إلى أي حد بالفعل كان قد ذهب فصل تلك الأقسام، التي سعت هذه الكتب أن تربط بعضها ببعض. ثمة مثالان مشهوران لا بد من ذكرهما. الأول هو كتاب دبليو. باجهوت: W. Bagehot, Lombard Street: A Description of the Money Market (1873) - وهو عمل يقتطف منه أكثر مما من غيره، وبإعجاب أكثر من غيره، في كل الأدب خلال الفترة. ولا شك أنه قد جرت كتابة هذا العمل

بصورة تثير الإعجاب. ولكن من يهرع إليه الآن، وفي ذهنه شهرته هذه، لابد من أن يُصاب بخيبة أمل. فما عدا حاجة معينة حول إعادة تنظيم إدارة مصرف إنجلترا وحول إصلاح الممارسة الإنجليزية بشأن احتياطات الذهب، فإن الكتاب لا يتضمن أى شيء جديد بالنسبة للباحث الاقتصادى. ومع ذلك، فمن الواضح أنه كان قد عَلم اقتصاديين كثر أشياء لم يعلموا بها وأسعدتهم معرفتها. أما مثالنا الثانى، فهو الكتاب الذى لا يقل ألمعية، كتاب هارتلى ويثرز: *Hartley Withers, The Meaning of Money* (2nd. ed., 1909) الذى تكمن ميزته، كما سنرى بعد قليل، فى حديثه الواضح عن 'صنع' النقود من قبل المصارف. ولكن هذا كان لا ينبغى أن يدهش أحداً. ومع ذلك، فقد تم اعتباره مذهباً جديداً ومبتدعاً نوعاً ما.

وهكذا فإن التحليل الأكاديمى للانتماء والصيرفة - بما فى ذلك مساهمة كتاب يكتبون وفقاً للخط الأكاديمى، دون أن يكونوا أكاديميين هم أنفسهم، كما فعل بعض المصرفيين - مضى سوية مع خزين الأفكار الموروثة من الفترة السابقة لينقى ويوضح ويطور دون شك ولكن دون أن يضيف جديداً. ومن حيث الأساس، كان هذا يعنى هيمنة النظرية التجارية للصيرفة *commercial theory of banking* التى جعلت من الورقة التجارية *commercial bill* أو على نحو أكثر عمومية، من تمويل تجارة السلع الجارية، حجر الزاوية للانتماء المصرفى. سوف نرجع هذا الموقف إلى توك وفولارتون Fullarton طبعاً. ولكن تأثير مدرسة العملة كان أقوى مما يبدو على السطح. فعلى أعتاب نهاية الفترة، أكدت هذه المدرسة نفسها، وبخاصة فى نطاق نظريات الدورات (انظر القسم الثامن، أدناه).

أما بشأن الصيرفة المركزية، فقد وسَّع الاقتصاديون حقاً من مفهومهم لوظائف المصارف المركزية، وبخاصة السيطرة وتنظيم وظيفة 'المقرض الأخير' *lender of last resort*. ولكن معظمهم تباطؤوا بصورة تثير الاستغراب فى الإدراك الكامل لمضامين الإدارة النقدية *Monetary Management* التى كانت تتطور أمام أعينهم، كما كنا قد رأينا. وبطبيعة الحال، فإن التمسك بالنظرية التجارية كان مسئولاً عن هذا إلى حد ما. وبسبب هذا، فإن وظيفة السيطرة لما تزل تعنى - ليس كلياً بل أساساً - السيطرة عن طريق 'سياسة الخصم'. بل إن المهنة الاقتصادية لم تكن واثقة حتى مما إذا كان يوسع المصارف المركزية أن تضع الضوابط لمعدلات الفائدة السوقية *market rates* أو ما إذا كان سعر المصرف *bank rate* هو مجرد

سعر 'إعلاني' (٧٨٠). لقد ناقش أنصار كلتا وجهتي النظر حينذاك آثار سعر المصرف من خلال modi oprandi {طريقتي العمل} الكلاسيكيتين الاثنتين: ممارسة الضغط على الأسعار عن طريق تقييد الائتمان (الذي يعادل تقريباً كمية الأوراق التجارية المقدّمة للخصم)، من ناحية؛ واجتذاب الأرصدة الأجنبية من الخارج أو استعادة الأرصدة المحلية من الخارج، من الناحية الأخرى.

أما بالنسبة للصيرفة بشكل عام، فمن الصحيح تماماً إن التمسك الصارم بالنظرية التجارية جعل الاقتصاديين يهملون أو يسيئون فهم بعض أهم التطورات المصرفية في ذلك الوقت. ومع ذلك، فإن النقد الازدراي الموجّه في وقتنا الحاضر ليس مبرراً بشكل تام. فالنظرية التجارية، أولاً، لم تكن غير واقعية بالنسبة لإنجلترا، وأن الهيبة الإنجليزية في قضايا الصيرفة كانت تميل إلى جعل الممارسة الإنجليزية هي الحالة الأساسية. ولكن بمعزل عن هذا تماماً، فمن الضروري التشديد على أن قبول النظرية التجارية لا يتضمن بالضرورة التفاؤل الأعمى بأداء آلية الخصم. لقد شدّد الاقتصاديون على 'مرونة' النظام الذي يعنى بتمويل تجارة السلع. ولكنهم كانوا قد تطوروا، أو كانوا يتطورون، انطلاقاً من وجهة النظر القائلة إن النفود والإنتاج يمضيان بانسجام وأنه لا يحدث أى اضطراب حينما تمول المصارف 'احتياجات التجارة' فحسب needs of trade - وهذه هي الرسالة المثيرة للاعتراض حقاً. فمن ناحية، أدرك معظم الاقتصاديين، كما فعل ريكاردو وتوك من قبلهم، عدم وجود شيء من قبيل حاجة محددة كمياً للقروض أو الخصومات وأن الكمية الفعلية التي يطلبها المقترضون هي مسألة تعود إلى ميل المصارف إلى الإقراض وإلى الأسعار التي تتقاضاها مقابل ذلك بقدر ما تعود إلى طلب المقترضين على الائتمان. ومن ناحية أخرى، أدرك الاقتصاديون أكثر وأكثر أن ممارسة تمويل التجارة الجارية فقط - خصم الورقة التجارية السليمة good commercial paper - لا تضمن استقرار الأسعار أو استقرار أوضاع نشاط الأعمال بشكل عام، أو سيولة المصارف، عند الكساد (٧٨١). وكان عمل فيكسل هو

(٧٨٠) إن عقم هذه المناقشة التي كان يمكن حسمها بالرجوع إلى الوقائع يجب أن تكون واضحة. ومع ذلك، فيمكن أن نفكر بها برأفة أكثر لو لاحظنا أن طريقة 'جعل سعر المصرف فعالاً' كانت تتطور ببطء خلال تلك الفترة وأن الاقتصاديين كانوا حتى أكثر بطأً في اكتشاف ما كان يجري بالفعل. ومن دون هذه الطريقة، فمن المشروع حقاً أن نسأل ما إذا كان بوسع المصارف المركزية أن تفعل شيئاً أكثر من تتبع السوق - وهذا هو المقصود بالعبارة القائلة إن أسعارها هي أسعار 'إعلانية' declaratory. (٧٨١) وبعبارة أخرى - إذا وضعنا المسألة من زاوية سياسة السيطرة على الائتمان - كان هناك إدراك =

الذى أدخل كلنا الواقعتين فى النظرية العامة للنقود عن طريق نموذجيه الشهير للعملية التراكمية Cumulative Process (انظر القسم الثامن، أدناه).

أخيراً، ثمة نقطة لابد من ملاحظتها وهى مستقلة تماماً عن كل هذا: الضيق الغربى وافتقاد الواقعية فى مفهوم طبيعة الائتمان المصرفى خلال الفترة. ولكى تبرز هذه النقطة بصورة واضحة، دعونا نذكر، ثانيةً، كيف كان سيفسر الاقتصادى النمطى، وهو يكتب على أعتاب العام ١٩٠٠، موضوع الائتمان، واضعين فى أذهاننا، مع ذلك، كل القيود والأخطار الكامنة فى الحديث عن وجهات النظر النمطية. إن هذا الاقتصادى يمكن أن يقول كلاماً كالكلام التالى. النقود تأتى فى البداية (المنطقية) - إذ يبدأ بهذا كل كتاب مدرسى حول النقود والائتمان والصيرفة. وللاختصار، دعونا نفكر بعملة ذهبية فقط. وهنا فإن الحائزين على هذه النقود، بقدر عدم قيامهم باكتنازها أو إنفاقها على الاستهلاك، 'يستثمرونها' أو، كما يمكننا أيضاً أن نقول، إنهم 'يقترضون' مدخراتهم' أو 'يقدمون رأس المال' أما لأنفسهم أو لأفراد آخرين. وهذه هى حقيقة الائتمان الأساسية^(٧٨٢). وعليه، ومن حيث الجوهر، فإن الائتمان مستقل تماماً عن وجود أو عدم وجود المصارف وإن من الممكن فهمه دون أى إشارة إليها. وإذا قمنا، كخطوة أخرى فى التحليل، بإدخال المصارف فى الصورة، فهذا لا يغير من طبيعة الظاهرة. فالجمهور ما يزال هو المقرض الحقيقى. وإن المصارف هى مجرد وكلاء له، وسطاء يقومون بالإقراض الفعلى نيابة عن الجمهور، وأن وجودهم هو مجرد مسألة تقسيم عمل. إن هذه النظرية مقبولة إلى حد كافٍ فى حالات 'الإقراض' الفعلى 'نيابة عن آخرين' 'actual savings deposits' ولكنها طبقت أيضاً على الودائع التى تُسحب بصك checking deposits^(٧٨٣) وحالات ودائع المدخرات.

=متزايد بأن العناية بالغرض المطلوب تمويله (المعاملة السلعية الجارية) ونوعية وسائل الائتمان المعنية (الورقة التجارية السليمة good) لم تمكن المصارف المركزية من الاستغناء عن الاهتمام بكمية الائتمان المعلق outstanding credit: وهذا ما تتضمنه نظرية سعر المصرف theory of the bank rate، ولو ربما بدرجة غير كافية.

(٧٨٢) نعلم بأن المنظرين الأساسيين وصفوا العملية من خلال السلع التى كانت عمليات الائتمان تهدف إلى تحويلها فى آخر الأمر. ولكن ليس من الضرورى، بالنسبة لغرضنا الحالى، الدخول فى مناقشة هذا الأمر مرة أخرى.

(٧٨٣) نقصد بذلك ترتيباً تعاقدياً معيناً يتمكن بواسطته المالك لأموال كبيرة لا يحتاجها فى الحال، كمنشأة صناعية كانت قد استلمت تَوّاً حصيداً ما أصدرته من سندات، من استخدام خدمات مصرف معين لإقراض هذه الأموال العاطلة مؤقتاً فى سوق رأس المال، إلى وسطاء أسهم أو وسطاء سندات.

(الودائع تحت الطلب demand deposits، الحسابات الجارية، الإنجليزية، current deposits). وهذه الودائع، أيضاً، قد جُعِلَتْ تنشأ عن إيداع الأفراد لدى المصارف الأموال التي كانوا يملكونها (عملتنا الذهبية). فالمودعون يصبحون وبيقون هم المقرضون سواء بمعنى أنهم يقرضون ('يودعون' entrust) أموالهم إلى المصارف وبمعنى أنهم المقرضون النهائيون في حالة قيام المصرف بإقراض جزء من هذه الأموال. وعليه، ورغم وجود فروقات تقنية معينة، فإن الائتمان الذي تقدمه مصارف الإيداع deposit banking - الجزء الأعظم من الائتمان التجاري في المجتمع الرأسمالي - يمكن فهمه على أساس نمط عملية الائتمان التي تجرى بين اثنين من الأفراد الشخصيين. فما دام المودعون يبقون هم المقرضون، فإن المصارف أيضاً تبقى كمجرد جهات وسيطة تجمع رأس المال السائل من برك صغيرة كثيرة لتجعله في متناول التجارة. فالمصارف لا تضيف شيئاً إلى الكتلة القائمة من وسائل السيولة، مع أنها تجعلها تقدم خدمات أكثر. وكما صاغ البروفيسور كانان Cannan هذا الأمر، في مقالته المنشورة في مجلة Economica ('The Meaning of Bank Deposits') التي ظهرت في وقت مبكر يعود إلى كانون ثان ١٩٢١: 'حينما يتمكن خدم غرفة إيداع القبعات من إعاره ثلاثة أرباع القبعات المودعة لديهم بالضبط... فلا ينبغي علينا بالتأكيد اتهامهم 'بخلق' عدد من القبعات يساوي الزيادة في القبعات المودعة على تلك القبعات الموجودة في الغرفة'. هكذا كانت وجهات نظر ٩٩ من بين ١٠٠ من الاقتصاديين.

ولكن إذا أراد أصحاب القبعات استعمالها، فينبغي عليهم استعادتها ممن استعاروها الذين يتوجب عليهم عندئذ أن يسيروا دون قبعات. ولكن الأمر ليس كذلك مع مودعينا وعملياتهم الذهبية. فهم لا يعيرون شيئاً بمعنى التخلي عن استعمال نقودهم. وهم يواصلون الإنفاق بواسطة دفع صكوك بدلاً من العملة. ورغم أنهم يواصلون الإنفاق كما لو أنهم كانوا قد احتفظوا بعملتهم، فإن المقرضين ينفقون بالمثل 'المبلغ نفسه في الوقت نفسه'. من الواضح أن هذا أمر خاص بالنقود وليس له مثيل في عالم السلع. إن أي حق claim على الخروف لا يزيد عدد الخرفان. ولكن الوديعة، مع إنها تشكل حقاً على النقود القانونية legal-tender money وفقاً للقانون فقط، بيد أنها تخدم ضمن حدود واسعة جداً نفس الأغراض التي من شأن هذه النقود نفسها أن تخدمها. إن المصارف، طبعاً، لا 'تخلق' نقوداً

قانونية، وأكثر من ذلك، أنها لا 'تخلق' المكان. ومع ذلك، فهي تفعل شيئاً ما - قد يكون من الأسهل رؤية هذا في حالة إصدار البنكنوتات - أقرب، في آثاره الاقتصادية، إلى خلق النقود القانونية، والذي قد يقود إلى خلق 'رأسمال حقيقي' يتعذر خلقه دون هذه الممارسة. ولكن هذا يغير الوضع التحليلي بصورة عميقة ويجعل من غير المستحسن جداً فهم الائتمان المصرفي وفق النموذج الذي يقوم على سحب أرصدة قائمة من استعمالاتها السابقة عن طريق فعل ادخاري، متصور كلياً، ومن ثم قيام أصحاب المدخرات بإقراضها. ومن الواقعي أكثر أن نقول إن المصارف 'تخلق' ائتماناً، أى تخلق ودائع حينما تقوم بالإقراض، مما أن نقول إنها تقرض الودائع التي أودعت لديها. ويعود الإصرار على هذا إلى وجوب أن لا نضفى على المودعين أى علامة تشير إلى دور لا يؤدوه. إن النظرية التي يتمسك الاقتصاديون بها بشدة تجعل من المودعين مدخرين، مع أنهم لا يدخرون ولا ينوون أن يفعلوا ذلك. فهي تعزو إليهم تأثيراً معيناً على 'عرض الائتمان' ليس لهم. إن نظرية 'خلق الائتمان' credit creation تعترف ليس فقط بوقائع جلية دون أن تخفيها بمفاهيم مصطنعة؛ بل إنها أيضاً تبرز الآلية الخاصة بالادخار والاستثمار التي هي صفة مميزة للمجتمع الرأسمالي المتطور وتمثل الدور الحقيقي للمصارف في التطور الرأسمالي. وعليه، وبتحفظ أقل مما يتعين قوله في حالات أخرى، فإن هذه النظرية تشكل تقدماً واضحاً في التحليل.

ومع ذلك، فقد كان من العسير جداً على الاقتصاديين إدراك إن قروض المصارف واستثمارات المصارف إنما تخلق ودائع. وفي الواقع، فأنهم رفضوا أن يفعلوا ذلك بالإجماع عملياً طوال الفترة محل الدرس. وفي العام ١٩٣٠، حينما تحولت الغالبية الكبيرة منهم وقبلت ذلك المذهب كشىء طبيعي، فقد شعر كينز حقاً بضرورة شرح المذهب والدفاع عنه بالتفصيل^(٧٨٤)، ويتعذر القول إن جوانبه الأهم

(٧٨٤) 2 Treatise on Money, ch. علاوة على ذلك، فمما له مغزى كبير، أنه، في وقت مبكر يعود إلى حزيران ١٩٢٧، ظهرت مقالة ف. دبليو. كريك F. W. Crick: 'The Genesis of Bank Deposits' (Economica) التي تفسر كيف أن قروض المصارف تخلق ودائع وأن إعادة الدفع إلى المصارف تبطل هذه الودائع - بطريقة كانت يجب أن تكون حقاً 'نظرية قدسها الزمن'، ولكنها لم تكن كذلك حتى حينذاك كما هو واضح. ومع ذلك، ثمة أثر، لمعالجة اللورد كينز لموضوع خلق الائتمان الواردة في عمله: Treatise الصادر العام ١٩٣٠، لا بد من أن ملاحظته في هذا السياق. ففكرة القرض المصرفي، الخالق للوديعة، ودوره في تمويل الاستثمار دون أى ادخار سابق للمبالغ التي تقرض بهذا الشكل كانت قد اختفت عملياً في المخطط التحليلي لعمل كينز: General Theory حيث إن جمهور المدخرين هو الذى يسيطر على المشهد من جديد. وفي الواقع، كان المذهب =

مفهومة بصورة تامة حتى في وقتنا الحاضر. وهذا مثال غاية في الأهمية لتوضيح العوائق التي يتعين على التقدم العلمي أن يصطدم بها، وبشكل خاص، حقيقة أن الناس يمكن أن يتعودوا تمامًا على ظاهرة معينة لعهود - حتى إن ناقشوها كثيرًا دون إدراك أهميتها الحقيقية ودون دمجها في مخططهم العام حول الفكر^(٧٨٥).

ذلك لأن وقائع خلق الائتمان - على الأقل خلق الائتمان في صورة بنكنوتات - كان يجب أن تكون مألوفة لكل اقتصادي في كل وقت. وعلاوة على ذلك، وبخاصة في الولايات المتحدة، كان الناس يستعملون بحرية مصطلح: عملة الصكوك Check Currency ويتحدثون عن قيام المصارف 'بسك النقود' coining money، منتهكين بذلك حقوق الكونغرس. قدم نيوكم Newcomb عام ١٨٨٥ وصفًا أوليًا للعملية التي تُخلق بواسطتها الودائع من خلال الإقراض. وقد فعل فيشر المثل على أعتاب نهاية الفترة (١٩١١). كما شدد نيوكم أيضًا على الحقيقة الواضحة القائلة إن الودائع والبنكنوتات هما شيء واحد من حيث الجوهر. كما اعتنق هارتلي Hartley ويثرز Withers فكرة أن المصارف لم تكن عبارة عن وسطاء بل 'صناع' نقود. وعلاوة على ذلك، فقد كان لدى الكثير من اقتصاديي القرن السابع عشر والثامن عشر أفكار واضحة عن خلق الائتمان وأهميته بالنسبة للتطور الصناعي، مع أنهم بالغوا في ذلك أحيانًا. ولم تتلاش هذه الأفكار كليًا. ومع ذلك، فإن المحاولة الأولى - ولو غير الناجحة كليًا - لوضع نظرية نظامية لتلائم الائتمان المصرفي بدرجة كافية، وهي المحاولة التي قام بها ماسليود Macleod^(٧٨٦)، لم

=الكينزي الأصولي قد ارتد إلى وجهة النظر القديمة التي بمقتضاها تعالج الوقائع المركزية لسوق النقود من خلال ميل الجمهور للادخار سوية مع تفضيله للسيولة. وليس بوسعي سوى التنبيه إلى هذه الواقعة. أما هل إن هذا هو تقدم أم تراجع، فهذا أمر ينبغي أن يحدده كل اقتصادي بنفسه. وبالنتيجة، فقد تكون هناك ميزة وحتى جذة في قطعة من التحليل يمكن إثبات أنها لم تقل شيئًا لم يكن قد قيل من قبل بشكل أو بآخر - وهو أمر سبق أن لاحظناه غير مرة بالفعل. ويبدو لي أن تقرير البروفيسور مارغيت Marget حول تطور مذهب خلق الائتمان (المصدر السابق، المجلد الأول، الفصل السابع) لا يعطي أهمية كافية لهذا الاعتبار.

(٧٨٦) كان هنري دوننغ ماسليود Henry Dunning Macleod (١٨٢١-١٩٠٢) اقتصاديًا له مزايا كثيرة، وقد فشل نوعًا ما في نيل الاعتراف أو حتى أن يؤخذ بجدية كاملة وذلك بسبب عدم قدرته على صب أفكاره الكثيرة، الجيدة، في قالب مقبول مهنيًا. ولا نستطيع في هذا الكتاب تعويضه عن ذلك سوى أن نذكر الأعمال الثلاثة التي وضع فيها أسس النظرية الحديثة للموضوع قيد المناقشة، رغم أن ما نجح فيه بالفعل هو الإساءة إلى هذه النظرية لوقت طويل: Theory and Practice of Banking (1st ed., 1855-6 ; Italian trans. 1879) ; Lectures on Credit and Banking (1882) ; The Theory of Credit (1889-91).

تجذب سوى اهتماماً قليلاً، وحتى اهتماماً أقل لصالحها. ثم جاء فيكسل الذى قاده، تحليله لآثار المعدلات التى تتفاضها المصارف على الأسعار، بشكل طبيعى إلى إدراك جوانب معينة من عملية 'خلق الائتمان'، وبشكل خاص ظاهرة: الادخار الإجبارى^(٧٨٧) Forced Saving. وفى ما بعد، كانت هناك مساهمات أخرى نحو نظرية كاملة، وبخاصة فى الولايات المتحدة كما هو متوقع. ويمكن لدافينبورت وتابلور وفيلبس أن يخدموا كأمثلة^(٧٨٨). ولكن العمل النظرى لم يكتمل قبل عام ١٩٢٤، وذلك فى كتاب هان Hahn، بيد أن النجاح لم يكن قريباً حتى حينذاك^(٧٨٩). ومن بين القادة الإنجليز، فإن الفضل يعود أساساً إلى روبرستون وبيجو ليس فقط فى جعل النظرية مقبولة لدى المهنة بل أيضاً فى وضع تطويرات جديدة لها^(٧٩٠).

(٧٨٧) لم تكن الفكرة ذاتها جديدة، انظر: F. A. von Hayek, 'Note on Development of the Doctrine of 'Forced Saving,' Quarterly Journal of Economics, November 1932, republ. in (Profits, interest and Investment (1939)). ولكن الفكرة ظهرت هنا فى سياق أكبر وبشديد جديد. وقد تعرض المفهوم لازدراء لا يستحقه خلال العقد الأخير. بيد أن هذا المفهوم يمتلك مزايا معينة. وبشكل خاص، فهو يوضح نقطة معينة خلقت صعوبات لكثيرين. فعمليات الصيرفة، كما كان ريكاردو قد قال، لا تستطيع أن تخلق 'رأسمال' (أى وسائل إنتاج مادية). إذ إن الادخار وحده يقدر على ذلك. وهنا، فحينما يودى الإنفاق، الممول بالودائع التى خلقتها المصارف، إلى زيادة الأسعار، أى فى ظل شروط التشغيل الكامل (وفى ظل حالات أخرى أيضاً)، فإن تضحية معينة فى الاستهلاك تفرض على الأفراد الذين لم تزد دخولهم نسبياً، مما يحقق ما كان سيحققه الادخار لولا ذلك، وثمة معنى من تسمية هذا، مجازاً، بالادخار غير الإرادى Involuntary Saving أو الإجبارى Forced Saving وعند مقارنته بما يعرف عادة بالادخار (الادخار الإرادى voluntary saving). أما أن مثل هذه التضحية لا تفرض بالضرورة فى ظروف البطالة والطاقة الإنتاجية العاطلة، فهذا لا يشكل سبباً لنبذ المفهوم.

(٧٨٨) تمثلت مساهمة دافينبورت Davenport بتلميحات فقط طرحها دون اكرثا فى عمله: Value and Distribution (1908) ودون أن يستخلص منها الكثير: فقد شدد دافينبورت مثلاً على أن من غير الصحيح أن نقول إن المصارف 'تقرض ودائعها'. أما و. غ. ل. تايلر W. G. L. Taylor، فقد ذهب أبعد من ذلك بكثير وذلك فى كتاب له لم ينل الاعتراف الذى يستحقه (كما هو شأن كتاب دافينبورت). وقد خطى خطوة واسعة س. أ. فيليبس S. A. Phillips (1920) Bank Credit الذى لم يفعل الكثير لتوضيح القضايا النظرية المعنية فقط ولكنه أيضاً أوضح الفرق بين توسع القروض والاستثمارات، الذى هو ممكن بالنسبة لمصرف فردى يتنافس مع المصارف الأخرى والتوسع الذى يمكن تحقيقه من قبل نظام من المصارف المتنافسة مأخوذة ككل.

(٧٨٩) Albert Hahn, Volkswirtschaftliche Theorie des Bankkredits (3rd ed., 1930). ومع ذلك، فثمة سبب وراء عدم اقتناع اقتصاديين كثر بهذا الكتاب يتمثل بحقيقة أن نظرية الائتمان المصرفى، المقدمة فيه، تم ربطها بوجهات نظر معينة متفائلة كثيراً من ناحية إمكانية تحقيق ازدهار دائم مما جعل بعض الاقتصاديين يتعاملون ضد إنجازهِ الجوهري.

(٧٩٠) D. H. Roberston, Banking Policy and the Price Level (1926). ويبرز هناك مفهوم الادخار الإجبارى تحت عنوان: العوز المفروض Imposed Lacking. أما عمل بيجو، فهو: Industrial Fluctuations (1927), Part 1, chs. 13 and 14.

أما في البلدان الأخرى، وبخاصة في فرنسا، فقد بقت المقاومة قوية حتى يومنا هذا.

ولا يتطلب الأمر أن نذهب بعيداً للعثور على الأسباب التي جعلت بطء التقدم أمراً محتماً. أولاً، إن المذهب لم يكن مألوفاً، وكانت تشويه مسحة من الفسوق تقريباً في أعين البعض - وهي حقيقة ليس من الصعب فهمها إذا تذكرنا إن جون لو John Law هو من بين رواد هذا المذهب^(٧٩١). ثانياً، اصطدم المذهب بعادات تفكير راسخة لأن هذه العادات نشأت على الفهم القانوني 'للودائع': فقد بدا التمييز بين النقود والائتمان واضحاً جداً، وفي نفس الوقت، مهماً جداً لعدد من القضايا بحيث إن النظرية التي مالت لإخفائه كان من المؤكد أن تبدو ليس فقط عديمة القيمة ولكن خاطئة في الواقع: بل ومذنبه في ارتكاب خطأ أولى يتمثل بخلط النقود القانونية ببنود مسك الدفاتر التي تعكس العلاقات التعاقدية بشأن هذه النقود القانونية. ومن الصحيح تماماً أن تلك القضايا لا ينبغي إخفائها^(٧٩٢). أما أن نظرية خلق الائتمان لا تفعل هذا الأمر بالضرورة، فقد بدا هذا عزاء ضئيلاً لمن كان يخشى إساءة استعمالها.

٨- الأزمات والدورات: النظريات النقدية

رأينا، بشكل عام، أن التحليل النقدي خلال الفترة محل الدرس تركّز على مشاكل قيمة النقود (أو مستوى السعر) من ناحية، ولكننا، من الناحية الأخرى، رأينا إن بعض الاقتصاديين الأساسيين كانوا يهينون أنفسهم لتحليل نقدي للعملية الاقتصادية ككل تحتل فيه مشاكل مستوى السعر مكاناً ثانوياً. وقد أوضح مضامين هذا الاتجاه منهج الرصيد النقدي ومنهج الدخل ولكن الاتجاه أكد نفسه في أشكال أخرى أيضاً. فمما له مغزى، مثلاً، إن مارشال أراد، أصلاً، أن يحمل مجلده

(٧٩١) وهكذا، فإن فالراس قد أبصر ظاهرة خلق الائتمان بوضوح تام (رغم أنه اقتصر على البنكوتات). ولكنه اعتبرها كتجاوز ممين abuse كان ينبغي كبحه وأنه رفض لهذا السبب أن يجعلها عنصراً عادياً من مخططة العام (Etudes d'economie politique appliquee, ed. of 1936, p. 47 and pp. 339 et seq).

(٧٩٢) وإحداها هي القضية القديمة: السيطرة على 'النقود' مقابل السيطرة على 'الائتمان'. وقد جرى التلميح بأفكار مماثلة لتفسير نفور كتاب فرنسيين كبار كثر من فكرة خلق الائتمان. فمثلاً، إن مقاومة الخلط بين النقود والائتمان هو أحد الأغراض الأساسية لعمل رست Rist: History of Monetary and Credit Theories.

Money, Credit and Commerce {النقد والائتمان والتجارة} العنوان Money, Credit and Employment {النقد والائتمان والتشغيل} وإن هذا العمل قد تضمن بالفعل أشياء كثيرة تدخل ضمن نطاق التحليل الحديث للدخل والتشغيل. ومما كان له مغزى أكبر بكثير هو أن فيكسل، بطريقته المترددة نوعاً ما والأخاذه في الوقت نفسه، توصل أخيراً إلى أننا نحتاج لمفهوم عن الطلب النقدي على الإنتاج ككل^(٧٩٣). وهذا قد أحيى الفكرة المalthusية وبشر، وإن بشكل غير متماسك تماماً، دالة الاستهلاك الواردة في عمل كينز General Theory.

ولكن التقدم الأهم باتجاه التحليل النقدي بمعناه المعاصر قد حدث في إطار مشاكل الفائدة والدورات الاقتصادية. وسبق أن لاحظنا علامات على ميل الاقتصاديين المتزايد للتسليم بمفهوم نقدي لرأس المال واستعمال هذا المفهوم. ولم يثمر هذا عن شيء ما، كما إن المحاولات التي بُذلت لتفسير الفائدة كظاهرة نقدية بحثة لم تحقق أى نجاح^(٧٩٤). فطوال الفترة، ولدى كل الاقتصاديين عملياً، ظل معدل الفائدة rate of interest كمعدل عائد rate of return - أياً كان تفسيره - من رأس المال المادى وأن المعدل النقدي للفائدة ظل كمجرد شيء يُشتق من المعدل الحقيقى للفائدة^(٧٩٥). وبطبيعة الحال، كان هناك اعتراف بأن الاثنين يمكن أن

(٧٩٣) إن الإحالة، الأعظم فائدة للقارئ، ستكون إلى عمل ميردال Monetary Equilibrium: Myrdal (الطبعة السويدية ١٩٣١؛ الترجمة الإنجليزية ١٩٣٩، انظر القسم ٢ ج، أعلاه). ومرة أخرى، فإن النقطة التي يلزم فهمها هي: إن جدول الطلب يُعرّف بالنسبة لسلعة منفردة. ووفقاً للنظرية 'الكلاسيكية' (قانون ساي)، لن يكون ثمة معنى من الحديث عن جدول طلب على كل السلع والخدمات (أو كل السلع والخدمات الاستهلاكية) مأخوذة معاً. ومع ذلك، فحينما نفعل ذلك، فإنما نفعل، لغرض خاص، شيئاً ما لا تغطيه نظرية الطلب العادية وبالتالي نأخذ خطوة تتجاوز هذه النظرية. إن هذا الغرض الخاص قد يكون له معنى وقد لا يكون. وقد يكون من الممكن خدمة هذا الغرض بواسطة طريقة الطلب الكلى وقد لا يكون هذا ممكناً. ولكن ينبغي التسليم به فى جميع الأحوال كشيء sui generis (قائم بذاته) يحمل مشاكله الخاصة به. وكان تبنى فيكسل له بمثابة إنكار لقانون ساي. وهكذا فإن فيكسل هو رائد كل أولئك الاقتصاديين الذين ينكرون قانون ساي فى الوقت الحاضر.

(٧٩٤) ولم تتم الإشارة إليها إلا قليلاً أو أنها نُسيت كلياً بحيث إنها لم تذكر فى مناقشة الثلاثينيات بشأن هذا الموضوع. ومع ذلك، فقد أنقذ اللورد كينز إحدى هذه المحاولات من النسيان، وهى محاولة سيلفيو غيسيل Silvio Gesell: انظر: General Theory, ch. 23, V1.

(٧٩٥) ينبغي عدم خلط هذا المعنى للمعدل الحقيقى أو 'الطبيعى' real or natural rate بالمعنى المختلف كلياً الذى يستعمل به مارشال هذا المصطلح (Principles, Book VI, ch. 4, concluding note) أى بمعنى المعدل النقدي money rate (أو المعدل 'الاسمى' nominal rate) بعد تصحيحه من التغيرات فى مستوى السعر. والمعنيان مرتبطان أحدهما بالآخر ولكنهما لا يتطابقان، وإن مارشال، بقدر ما يمكننى أن أرى، لا علاقة له بفكرة فيكسل التى أنا بصدد مناقشتها الآن. ويشارك أرفنج فيشر =

ينحرفا أحدهما عن الآخر: فتفسير ريكاردو للكيفية التي تزج بها النقود الجديدة نفسها في التداول يتضمن اعترافه بهذه الحقيقة، كما أن من المؤكد أن كتاب الصيرفة كانوا قد أدركوها على الدوام. ولكن أحدًا لم يهتم كثيرًا بهذه الحقيقة إلى أن جعل فيكسل منها مركز نظريته لقيمة النقود وموضوعًا لتحليل محكم أنتج مفهوم العملية التراكمية لدى فيكسل: فقد أوضح فيكسل بأن المصارف، حينما تبقى سعر الإقراض أقل من المعدل الحقيقي - الذي كان فيكسل، كما نعلم، قد فسره وفقًا لخطوط نظرية بوهم باورك - إنما تمنح علاوة لتوسيع الإنتاج، وبخاصة الاستثمار في التجهيزات المعمرة والمعدات؛ وإن الأسعار ترتفع في نهاية الأمر؛ وحينما ترفض المصارف أن ترفع من سعر قروضها حتى عندئذ، فإن الأسعار ستواصل ارتفاعها بصورة تراكمية دون حد معين، حتى إذا كانت كل بنود التكلفة الأخرى تزداد بنفس النسبة^(٧٩٦).

يمكن توضيح الوضع التحليلي الذي خلقتة هذه المحاجة كما يلي. إن تشديد فيكسل بحد ذاته على آثار الانحرافات الممكنة بين المعدلين النقدي والحقيقي للفائدة ليست سببًا يحتم ترك الموقف القائل بأن الحقيقة الجوهرية للفائدة تتمثل بأن الفائدة هي عائد صافي من رأس المال المادي *net return to physical capital*، وهو موقف لم يهجره فيكسل نفسه قط. ومع ذلك، فإن هذا التشديد هو سبب وجيه وكاف لمعاملة المعدل النقدي كمتغير متميز بذاته يعتمد، جزئيًا على الأقل، على عوامل أخرى غير تلك العوامل التي تحكم العائد الصافي من رأس المال المادي (المعدل الطبيعي أو الحقيقي). يرتبط الاثنان أحدهما بالآخر، طبعًا. وحتى يتساويان في حالة التوازن. ولكنهما لم يعودا يمثلان 'الشيء نفسه أساسًا' fundamentally the same thing^(٧٩٧).

= (Appreciation and Interest, 1896) في الفصل الذي يعود إلى مارشال فيما يمكن تسميته التمييز بين المعدل الاسمي nominal rate والمعدل الفعلي actual rate.

(٧٩٦) كان تعليق بوهم-باورك على هذه المحاجة هو: 'لا بد إن فيكسل كان يحلم حينما كتب ذلك'.
 (٧٩٧) قد نقدينا إعادة الصياغة التالية للفقرة المذكورة آنفا: في نظام فالراس، يدخل معدل واحد فقط من الفائدة وهو معدل العائد الصافي على 'رؤوس الأموال' المادية. وهذا يفترض، بشكل محدد، إن معدل الفائدة النقدي ليس فقط يساوي هذا المعدل من العائد الصافي عند التوازن بل أنه يتطابق معه، بمعنى أن المعدل النقدي هو مجرد تعبير نقدي عن معدل العائد الصافي على 'رؤوس الأموال' المادية. وحينما نريد أن نعترف صراحة بأن المعدل النقدي يمتلك درجة ما من الاستقلالية، بدلًا من أن يتطابق مع هذا المعدل من العائد الصافي (مما يعادل القول إنه 'الشيء نفسه أساسًا' fundamentally the same thing)، فيتعين علينا تقيمه كمتغير آخر وافترض مساواته مع=

وما أن ندرك هذا، فإنهما يبتعدان أكثر فأكثر عن، كما نبتعد نحن أكثر فأكثر عن، الفرضية القائلة إن العائد الصافي من السلع المادية من هذا النوع أو ذاك يمثل الحقيقة الجوهرية لمعدل الفائدة على سوق القروض - وهي الفرضية التي أرجعناها إلى باربون Barbon والتي أدانها اللورد كينز فيما بعد على أساس أنها تتطوى على 'خلط' بين معدل الفائدة والكفاية الحدية لرأس المال (المادى) (٧٩٨). وعندئذ، فإن عوامل أخرى، كسياسة المصارف بالنسبة للقروض، تبدو لنا أساسية بنفس القدر، وإن الدرب يفتح نحو النظريات النقدية البحتة للفائدة التي ظهرت فيما بعد والتي يمكن للنظرية الكينزية منها أن تجتذب من الاهتمام أكثر من غيرها. ومع ذلك، لنذكر ثلاثة أشياء. أولاً، نحن ما نزال نرسم خطأ من تطور المذاهب غاية في الأهمية، ابتداءً بباربون واختط سبيلاً انتهى بكينز، حتى هذه اللحظة. ولكن لا يفترض أن مَنْ اعتبروا أنفسهم مسئولين عن النظريات النقدية الأحدث للفائدة كانوا قد توصلوا عن وعى إلى استنتاجاتهم عن طريق إبراز مضامين الوضع الذى خلقه تحليل فيكسل: وهذه قد تكون حالة أتباعه السويديين - رغم أننى لا أقصد التشكيك بالأصالة الذاتية لأى كاتب - ولكن من المؤكد أن الأمر ليس كذلك مع الآخرين. ثانياً، عند استعادة خطى باربون، لا يفترض إن اقتصادى وقتنا الحاضر قد عادوا إلى النظريات النقدية التى سادت فى أوقات ما قبل باربون: فمع أن نظرياتهم تشابه هذه النظريات الأخيرة من نواحٍ مهمة - وبخاصة نظريات السكولائيين - بيد أنها جديدة من نواحٍ أخرى دون شك. ثالثاً، عند تعريف المتغير الجديد لنظامنا الاقتصادى: الفائدة النقدية، كشئ نقدى فى طبيعته وليس فى شكله

=المعدل 'الحقيقى' كشرط توازنى إضافى. وهذا ما فعله فيكسل. إن بحوث فيكسل حول شروط التوازن النقدى لم تكن موفقة بصورة تامة. ومع ذلك، فإنها صنعت تاريخاً من التحليل عبر الحافز الذى قدمته للبحث حينذاك والبحث اللاحق، وبخاصة لأتباعه السويديين (انظر، مثلاً، ميردال، المصدر السابق).

(٧٩٨) إن معدل الحقيقى أو الطبيعى للفائدة $real\ or\ natural\ rate\ of\ interest$ لدى فيكسل هو الإنتاجية الحدية لرأس المال (المادى) (وبدقة أكثر، الإنتاجية الحدية للعملية غير المباشرة $marginal\ productivity\ of\ roundabout\ process$ لدى بوم-باورك). وعليه، فهو لا يتطابق مع مفهوم الكفاية الحدية $marginal\ efficiency$ لدى كينز، الذى هو نفس مفهوم معدل العائد الحدى من التكلفة $marginal\ rate\ of\ return\ over\ cost$ لدى فيشر (Theory of Interest, p. 169) ويعنى الإنتاجية الحدية للاستثمار الجارى. ولكن المفهومين يقفان بعلاقة فريدة أحدهما إزاء الآخر بحيث يمكن استعمالها كمترادفين بالنسبة للغرض قيد الدرس. ومن هنا يمكن أن يقال بأن اللورد كينز قد أدان الخلط بين المعدل النقدى والمعدل الحقيقى للفائدة أو، بعبارة أفضل، قد أدان اعتياد اقتصادى القرن التاسع عشر على الربط بينهما بقوة. وقد تبين فيما بعد أن فيكسل كان أول من قوّض هذه العادة.

فقط، فإننا لا نزيح بشكل تام العوامل 'الحقيقية' من مشكلة سعر القروض كما يتصور بعض الاقتصاديين المعاصرين: فمعدل العائد الصافي من الاستثمار المادى يبقى، على الأقل، عاملاً فى الطلب على القروض وبالتالي لا يمكن أن يختفى من أى نظرية كاملة للمعدل النقدى للفائدة^(٧٩٩).

إن مكانة فيكسل فى تطور النظريات النقدية الحديثة للدورة تماثل تماماً مكانته فى تطور النظريات النقدية الحديثة للفائدة. إذ لم يعتنق فيكسل نفسه نظرية نقدية بشأن الدورة بأكثر من اعتناقه نظرية نقدية بشأن الفائدة. ولكنه فتح الطريق بالنسبة للأولى مثلما فتحه بالنسبة للثانية. وفى الواقع، فإن العملية التراكمية نفسها cumulative Process لا تحتاج إلا إلى تكييف لجعلها تعطى نظرية بشأن الدورة. تخيل إن المصارف تخرج من فترة نقاهة أو خمول وهى بحالة جيدة من ناحية السيولة. إن مصلحة هذه المصارف ستدفعها نحو زيادة قروضها. ولكى تفعل هذا عموماً، فإنها لابد أن تشجع الطلب على القروض بتخفيض أسعار هذه القروض إلى أن تصل هذه الأسعار إلى أقل من المعدل الحقيقى لدى فيكسل، الذى هو معدل بوهم-باورك الحقيقى كما نعلم. وبالنسبة للمنشآت بالاستثمار - وبخاصة فى المعدات المعمرة التى يؤثر عليها معدل الفائدة بقوة^(٨٠٠) - إلى حد أبعد من النقطة التى كان سيتعين عليها أن تتوقف عندها مع المعدل النقدى الأعلى والذى يساوى المعدل الحقيقى. وهكذا تنطلق عملية من التضخم التراكمى، من ناحية، وتتشوه البنية الزمنية للإنتاج، من ناحية أخرى. ومع ذلك، فإن هذه العملية لا يمكن أن تستمر إلى ما لا نهاية - فهناك أسباب كثيرة ممكنة لهذا الأمر يتمثل أبسطها بأن المصارف تصطدم بالحدود التى تضعها احتياطاتها على قروضها - وحينما تتوقف هذه العملية ويلحق المعدل النقدى بالمعدل الحقيقى، نكون فى وضع يتعذر الدفاع

(٧٩٩) هذه الحقيقة مهمة بالضبط لأنها كثيراً ما تتعرض للإنكار ولأن عرض كينز، فى عمله General Theory، كان يميل إلى حجبها، مع إنها ليست أقل أهمية، بالنسبة لنظريته النقدية للفائدة، مما هى بالنسبة لأى نظرية أخرى. فهذه الحقيقة ترد بالارتباط مع الشرط القائل إن الكمية التوازنية من الاستثمار الجارى هى الكمية التى تساوى 'الكفاية الحديثة'، بالنسبة لها، المعدل النقدى. إن العبارة القائلة إن الفائدة هى العامل الذى يحدد الاستثمار هى عبارة صحيحة بقدر صحة القول إن سعر السيارات يمثل العامل الذى يحدد الطلب عليها، وهى عبارة غير كاملة بنفس الدرجة.

(٨٠٠) من الواضح، أن سعر الفائدة، الذى هو عامل ضئيل الأهمية بالنسبة للاستثمار قصير المدى، يمثل عاملاً له أهمية كبيرة فى الاستثمار طويل المدى كالاستثمار فى الآلات المعمرة، السكك الحديدية، المرافق، الذى تزداد قيمته الرأسمالية بسرعة حينما ينخفض سعر الفائدة [كان ج. شومبيتر يعتزم التوسع فى هذه النقطة - فقد كتب بقلم رصاص: 'وهذا ما تحجبه المخاطرة - وإلا']

عنه حيث يثبت الاستثمار، الذى كان قد أُقيم على أساس معدل ضئيل، بصورة مصطنعة، إنه مصدر للخسائر: فتنتهى حالات الازدهار إلى التصفية liquidation^(٨٠١) مما يرادف الكساد.

إن هذه النظرية كان قد رسم خطوطها البروفيسور فون مايسس^(٨٠٢) الذى، إذ عبّر عن تقديره لفيكسل، وصّفها كتطور فى وجهات نظر مدرسة العملة. وقد طورها أكثر البروفيسور فون هايك إلى بنية تحليلية محكمة خاصة به^(٨٠٣)، حققت، عند تقديمها إلى جمعية الاقتصاديين الأنجلو-أمريكية، نجاحًا ساحقًا لم يضاهيه قط أى عمل نظرى تحديدًا أى كتاب نظرى صارم دون أن يعمد، للتخفيف من صرامته، إلى تقديم خطط وتوصيات بشأن السياسة Policy أو أن يدارى ما يحبه أو يكرهه قرأؤه بصورة أو بأخرى. وقد تبع ذلك تفاعل ناقد قوى لم يخدم، فى البداية، سوى تأكيد ذلك النجاح، بيد أن المهنة انعطفت نحو قادة آخرين واهتمامات أخرى^(٨٠٤). وتشكل السايكولوجيا الاجتماعية من هذا الأمر موضوعًا شيقًا للدراسة.

إن تحليل هاوترى^(٨٠٥) يجعل الدورات الاقتصادية، كما يقول هو نفسه، ظاهرة نقدية بحتة بمعنى معين لا يشبه تحليل مايسس-هاييك. لم يستفد هاوترى من

(٨٠١) يعنى مفهوم التصفية liquidation: إغلاق الشركات، التى لم تعد قادرة على تسديد ديونها، وبيع أصولها لاستخدام حصيلة ذلك فى تسديد الديون.

(٨٠٢) Theorie des Geldes ... 1924, Third Part, ch. 5, secs. 4, 5. وهذه الإحالة هى إلى الطبعة الثانية التى يُقدّم فيها نمط المحاجة، المبين أنفاً، كتفسير كان جوهرياً للدورات. ومع ذلك، فإن الأفكار الأساسية ترد من قبل فى الطبعة الأصلية الصادرة العام ١٩١٢.

(٨٠٣) Geldtheorie und Konjunkturtheorie (1929) ; Prices and Production (1931). وقد ظهرت طبعة جديدة عام ١٩٣٩ غيّرت المحاجة من عدة نواح مهمة: Profits, Interest and Investment؛ كما ظهرت عام ١٩٤١ حلقة جديدة غطت مساحة جديدة واسعة: The Pure Theory of Capital.

(٨٠٤) إن النجاحات الأخرى للكتب النظرية فى وقتنا الحاضر، كنجاح عملى. ه. جامبرلن E. H. Chamberlin: Monopolistic Competition وعمل هيكس: Value and Capital، كانت أكثر دوامًا وبالتالى أعظم فى النهاية. ولكنها تفتقر إلى النوعية المثيرة لعمل هايك Hayek. أما النجاح الأعظم لعمل كينز General Theory، فلا يمكن مقارنته بغيره لأنه، مهما كانت مزايا هذا العمل كقطعة من التحليل، لا يمكن أن يكون هناك أى شك فى أنه يدين بنجاحه الساحق أساسًا إلى حقيقة أن حاججته استخدمت بعض أقوى التفضيلات السياسية لعدد كبير من الاقتصاديين المحدثين (انظر، الجزء الخامس، الفصل الخامس، أدناه). أما عمل هايك، فقد سبج ضد التيار من الناحية السياسية.

(٨٠٥) R. G. Hawtrey, Good and Bad Trade (1913) وأعمال أخرى كثيرة له. إن قراءة عمله Capital and Employment (1937) تبين المدى الذى غيّر به السيد هاوترى وجهات نظره المبكرة.

عنصر الاضطراب disturbance (أو التعديل غير الملائم maladjustment) فى البنية الزمنية للمعدات والتجهيزات؛ وأن التقلبات فى الدخل النقدي، التى تنتج هى نفسها عن عوامل نقدية حصرًا، تشكل السبب الوحيد للتقلبات الدورية العامة فى التجارة والتشغيل. ولكن هاوترى يستخدم العملية التراكمية ويرجعها، مثل مايسس، إلى عدم الاستقرار الكامن فى نظام الائتمان الحديث. وهكذا، مرة أخرى، يُعتقد أن المصارف تشجع على نحو غير عادى بتقديم قروض بشروط سهلة. بيد أن الصلة الرئيسة لهذا بظروف الزواج العام لا تتمثل بزيادة الطلب على التجهيزات والمعدات الجديدة بل بزيادة الخزين الذى تحتفظ به تجارة الجملة التى تستجيب هى الأخرى للتغيرات الطفيفة فى أسعار القروض. إن التوسع يقود إلى مزيد من التوسع وبالتالي إلى زيادة الدخل النقدية وإلى خسارة المصارف للنقد المتداول من يد إلى أخرى بحيث إن عدم قدرة هذه المصارف على الاستمرار بتوسيع القروض إلى ما لا نهاية تقود إلى زيادة أسعار قروضها الأمر الذى يقلب العملية- وهذا ما يفسر الدور الكبير الذى يلعبه سعر المصرف المركزى فى هذا التحليل. وهكذا فإن التشابهات تكفى لتمكيننا من الحديث عن نظرية نقدية واحدة لم يختلف أنصارها إلا على نقطة واحدة فقط: وهى ما إذا كانت أسعار القروض المصرفية تؤثر على رأس المال المعمر 'durable capital' بشكل مباشر أم من خلال خزين تجار الجملة. لقد انتشرت نظرية هاوترى على نطاق واسع فى العشرينيات. وفى الولايات المتحدة بشكل خاص، كانت هذه النظرية تمثل العقلة البارزة للإيمان الأعمى بالفعالية غير المحدودة لعمليات السوق المفتوحة التى سادت حينذاك والتى كان يمارسها النظام الاحتياطى الأمريكى.

كما أن الإجماع على ما هو جوهرى بين أنصار النظرية النقدية^(٨٠٦) للدورات لم يؤثر عليه بصورة جدية الاقتصاديون الذين يلقون مسؤولية الظاهرة

(٨٠٦) حينما نتحدث عن النظريات النقدية للدورات، فثمة معنى مزدوج يرد على الذهن لكلمة: نظرية (انظر الجزء الأول). إذ إن النظرية النقدية للدورات هى فرضية تفسيرية معينة للدورات تتم من خلال النقود والإقراض. ولكن أحدا لا ينكر أن أى تفسير للظاهرة ينبغى أن يأخذ بعين الاعتبار مظاهرها النقدية. وعليه، يمكننا أن نستعمل كلمة: النظرية النقدية للإشارة أيضًا إلى المجموع الكلى من الفرضيات حول الأشكال التى تتصرف بها النقود والائتمان خلال الدورات. وإذا أخذنا محاججات كثيرة كمساهمات فى نظرية نقدية للدورة بهذا المعنى، فإن هذه المحاججات، كمحاجة هاوترى، تحتفظ بأهميتها حتى بالنسبة لأولئك الذين لا يعتبرون هذه المحاججات كافية كفرضية تفسيرية.

على تقلبات الذهب. لقد كسبت هذه الفكرة تأييداً أكثر حينما أُستعملت 'لتفسير' تلك الفترات الأطول من الازدهار السائد أو من الكساد السائد، التي ترتبط حقاً (إلى هذا الحد أو ذاك) بتغيرات مهمة في معدل إنتاج الذهب كتلك التي حدثت خلال الفترة (١٨٤٩-١٨٧٢) أو (١٨٧٢-١٨٩١)، تقريباً. ولكنها أُستعملت أيضاً 'لتفسير' الدورات الاقتصادية بالضبط. وفي هذه الحالة، فما دامت زيادة الذهب تؤثر على احتياطات المصارف وبالتالي تجعل المصارف أكثر رغبة وقدرة على الإقراض، فإننا نملك هنا سبباً محدداً، بدلاً من السبب الأكثر عمومية الذي يطرحه مايسس وهاوترى، لتوقع التوسع. ولكن فيما عدا هذا، فإن المحاولة تبقى هي نفسها إلى حد بعيد: فهناك، مرة أخرى، توسع في الائتمان بسبب المعدلات النقدية المتدنية، وثمة، مرة أخرى، النقطة التي تلحق الفائدة عندها بالأسعار، وانقلاب العملية. وكان ارفنج فيشر، وهو النصير الأكثر بروزاً لهذا النوع من النظرية النقدية، قد صاغها أولاً بهذه الصورة غير المشدّبة في عمله: (1911, Purchasing Power of Money, ch. 4).^(٨٠٧) ولكن فيشر، رغم دأبه على التشديد على الجوانب النقدية من الظاهرة، قد وسّع كثيراً من أساس تحليله بحيث انتهى إلى نظرية الديون والانكماش Debt-Deflation Theory، وهي نظرية، بعكس ادعاءه الضيق جداً، تسرى على كل الدورات الاقتصادية المشاهدة، وليست تحليلاً نقدياً قط من حيث الجوهر. فالعبء الرئيسي يُلقى، ظاهرياً، على حقيقة أنه، في أجواء الازدهار، تتراكم الديون، وإن تصفيتها المحتومة، مع ما يصحب هذا من انهيارات في بنية السعر، تشكل جوهر الكساد. وخلف هذه الآلية الظاهرية، تكمن العوامل الفاعلة حقاً - الإمكانيات التكنولوجية والتجارية الجديدة بشكل رئيسي - التي لم يعجز فيشر عن رؤيتها ولكنه يبعدها كثيراً إلى منزلة ثانوية على ما يبدو من خلال مفهومه 'المبتدئين بتصفية شركاتهم لتسديد الديون' (debt starter) (Econometrica, October

(٨٠٧) إن النسخة الواردة في العمل: Purchasing Power كانت قد قُدمت من قبل، بشكل ملخّص، في مجلة Moody's Magazine تحت عنوان: 'Gold Depreciation and Interest Rates,' February 1909. والمقالات التالية لفيشر تشكل المعالم الرئيسية على الطريق نحو نظرية الديون والانكماش لديه: Debt-Deflation Theory: "The Business Cycle Largely a 'Dance of the Dollar,'" 'Journal of American Statistical Association, December 1923, and 'Our Unstable Dollar and the So-Called Business Cycle' (ibid. June 1925) حيث تركز كلتا المقالتين على تقلبات الأسعار وأسعار الفائدة التي تعزى إلى شروط نقدية بحتة؛ وكذلك عمله: Booms and Depressions (1932) الذي يلخصه جزئياً ويكمّله جزئياً عمله: 'The Debt Deflation Theory of Great Depressions,' Econometrica, October 1933 الذي يُشار إليه في المتن.

348, p. 1933) إلى حد أن الأبعاد الحقيقية لعمله العظيم حقاً تتخفى تماماً عن ذهن القارئ، على غرار ما حدث بالضبط بالنسبة لتحليله النقدي العام (انظر القسم الثاني، أعلاه)، بحيث تُلزِمُ جهودٌ مضنية لإبراز هذه الأبعاد، التي لم تؤثر قط على المهنة كما كان ينبغي بالفعل.

٩- التحليل غير النقدي للدورة

من الملائم أن نستمر لإلقاء نظرة سريعة على بعض التحليلات للظواهر الدورية، غير تحليل هايك، التي هي تحليلات غير نقدية بنفس المعنى الذي عرفناه آنفاً^(٨٠٨)، رغم أننا نتجاوز على حدود هذا الفصل حينما نفعل هذا. ولكننا لن نذهب أبعد مما هو ضروري لإثبات فرضية واحدة مهمة، أي أن كل الوقائع والأفكار الجوهرية حول تحليل الدورة الاقتصادية كانت ظهرت على أعتاب العام ١٩١٤: فالسنة الثلاثون الأخيرة قد جلبت حقاً سيلاً من المادة الإحصائية والتاريخية، وطرق إحصائية ونظرية جديدة كثيرة؛ ويمكن القول بأنها، بالتوضيح والإحكام، قد وسَّعت من نطاق الموضوع وحولته إلى فرع متميز من علم الاقتصاد، بيد أنها لم تضيف مبدأً أو حقيقة لم تكن معروفة من قبل^(٨٠٩).

(٨٠٨) ينبغي تذكر هذه الكلمات المائلة لأن أي تعريف أقل تحديداً للنظريات النقدية البحتة، في ضوء الحقيقة التي لاحظناها في القسم السابق، أي أن الطلب على النقود، وبخاصة على الائتمان المصرفي، يجب أن يلعب في تفسير التقلبات بعض الدور على الدوام، دوراً مهماً في الغالب، من شأنه أن يدخل فيها نظريات أكثر. ولكن حتى عندئذ، فإن الخطوط الفاصلة تخضع للتقدير الشخصي إلى حد بعيد ويتعذر وضعها بصورة دقيقة. فلن يعتبر كل المؤرخون نظرية مايس، مثلاً، كنظرية نقدية بحتة أو نظرية هايك كنظرية غير - نقدية.

(٨٠٩) إن هذه العبارة وكذلك فشلي في إنجاز المحاولة (المستحيلة) في عرض أعمال هذا الأدب المتأخر عن الدورات لا ينبغي تفسيرهما تفسيراً من شأنه أن يحط من هذا الأدب. على العكس، فإنني أعتقد أن العمل المجسد في هذا الأدب قيم بقدر قيمة أي عمل آخر كتبه الاقتصاديون في أيما وقت مضى. ولابد من أن يتضح هذا، على الأقل، مما سأقوله عنه في الجزء الخامس. ومع ذلك، فمن الضروري إدراك المدى الذي يعتمد فيه هذا الأدب على الأسس التي أرسيت قبل عام ١٩١٤. نلقت الانتباه إلى عمل ر. أ. غوردن R. A. Gordan: 'Selected Bibliography of the Literature of Economic Fluctuations, 1930-36,' Review of Economic Statistics, February 1937 Bureau of Business Research، وإلى قائمة الكتب حول: الدورات الاقتصادية Business Cycles التي نشرها University of Illinois, College of Commerce and Business Administration, 1928 ونوصي بعرض البروفيسور فون هابرلر von Haberler، البارع، للمادة الحديثة (Prosperity and Depression, 1937; 3rd enlarged ed., 1941) وذلك كمقدمة للموضوع: إذ لا أملك أي عذر للإيجاز في ملاحظاتي على هذا العمل سوى اعتمادي على حقيقة أن بعض الاقتصاديين فقط، إن=

(أ) عمل جوغلار رأينا أننا أن الظاهرة المثيرة: 'الأزمات' crises، والظاهرة الأقل إثارة ولكن الأكثر إزعاجاً، رغم ذلك: حالات الكساد (أو 'الفوائض' ('gluts') depressions، هي التي اجتذبت أولاً انتباه الاقتصاديين في الفترة السابقة. بيد أننا وجدنا أيضاً إن نظرية بعض هؤلاء قد تجاوزت حالات الكساد بالفعل. فثمة كتاب، مثل توك واللورد أوفرستون، أدركوا كلياً أن الأزمات والفوائض لم تكن سوى حوادث أو مراحل من عملية أكبر؛ بينما أبدى آخرون كثير علامات تتم عن إدراك هذه الحقيقة بشكل ما غامض. ومع ذلك، فإن الفترة محل الدرس هي التي شهدت بصورة مؤكدة إقصاء مفهوم 'الأزمات' من عقول الاقتصاديين من قبل مفهوم 'الدورة' cycle وتهيأت فيها الأرضية لتطوير التحليل الحديث للدورة الاقتصادية، رغم إن كل الكتاب في هذا الحقل، عملياً، دأبوا على استعمال العبارة القديمة - وهي حالة مهمة من 'فترة إبطاء المصطلحات' terminological lag. وهذا يبين لماذا تجرى دراسة العمل الحاسم في هذه الفترة، رغم أنه كان قد نُشر عام ١٨٦٢. يعود هذا العمل إلى كاتب كان طبيباً من حيث تعليمه، ولكنه يجب أن يُصنّف كأحد أعظم الاقتصاديين في كل العصور وفقاً لموهبته وتمكنه من الطريقة العلمية: كليمنت جوغلار^(٨١٠). يستند هذا التقييم على ثلاثة وقائع. أولاً، كان جوغلار أول من استعمل بصورة نظامية مادة السلاسل

=كان هناك أصلاً، لم يراجعوا هذا العمل. ومع ذلك، يدرك القارئ أن إعجابي بهذا العمل لا يعنى اتفاقى معه فى كل شيء. إن العمل الصادر قبل عام ١٨٩٥ يغطيه بصورة ملائمة كتاب كان قد صدر فى ذلك العام: E. von Bergmann, Geschichte der nationalökonomischen Krisentheorien. ومن بين قائمة طويلة من الأعمال التاريخية والناقدة، سوف أختار فقط: Alvin F. Lutz, Das Business Cycle Theory (1927)؛ ومن ثم، مرة أخرى: W. C. Mitchell, Business Konjunkturproblem in der Nationalökonomie (1932) (وبخاصة الفصل الأول).

(٨١٠) هُجِرَ كليمنت جوغلار (١٨١٩-١٩٠٥) الطب لصالح الاقتصاد العام ١٨٤٨. ولم يتلق تعليمًا رسميًا في هذا الأخير، وكان يهتم بالنظرية المتداولة حتى بدرجة أقل مما كان يعرفه عنها. كان نبوغه من النوع الذى يدفعه للمسير فى طريق رسم هو فقط مشروعه ولم يسلك غيره طريقاً قط. ثمة كثرة من الناس يفعلون هذا فى موضوع مثل الاقتصاد. ولكنهم يقدمون نزوات فى الغالب. أما النبوغ فىأتى حينما يقدم كاتب ما، بجهده الخاص كلياً، حقيقة يُقدر لها أن تدوم. ومن بين أعماله الكثيرة، من الضروري أن نذكر فقط: Les Crises commerciales et leur retour periodique en France, en Angleterre et aux Etats Unis (الذى 'مجدته' أكاديمية العلوم الأخلاقية والسياسية، عام ١٨٦٠، ونشر ككتاب العام ١٨٦٢، الطبعة الثانية ١٨٨٩، الترجمة الإنجليزية أنجزها دبليو. توم W. Thom من الطبعة الثالثة العام ١٩١٦). ثمة ملاحظة حول حياته وعمله كتبها البروفيسور بول بورغارد Paul Beauregard فى Comptes rendus التابع لأكاديمية العلوم الأخلاقية والسياسية (١٩٠٩).

الزمنية (وبشكل رئيسي: الأسعار، وأسعار الفائدة، وأرصدة المصرف المركزي) حاملاً في ذهنه غرضاً واضحاً هو تحليل ظاهرة محددة. ولما كان هذا يمثل الطريقة الأساسية للتحليل الحديث للدورة الاقتصادية، فيمكن القول بحق إن جوغلار كان رائد هذه الطريقة. ثانياً، إذ اكتشف جوغلار الدورة ذات السنوات العشر تقريباً التي كانت الأكثر وضوحاً في مادته - فهو، إذن، مَنْ اكتشف القارة؛ أما الجزر القريبة منها، فقد اكتشفها كتاب كثر من قبل - فقد تقدم لتطويع كيان معين morphology لهذه الدورة في صورة 'مراحل' (صعود تدريجي upgrade explosion، 'انفجار'، تصفية liquidation). ورغم أن توك وأوفرستون كانا قد فعلا المثل، فإن الكيان الحديث للدورات يبدأ مع جوغلار. وكذلك هو شأن 'الدورية' periodicity، بنفس المعنى. فهذا الكيان من عملية 'دورية' periodic هو ما قصده جوغلار حينما تباهى باكتشاف 'قانون الأزمان' دون أى فهم مسبق لنظرية أو فرضية ما^(٨١١). ثالثاً، وأصل جوغلار محاولة الشروع بالتفسير. ويتمثل الجانب الأساسى من هذا الأمر بالفكرة المثلى تقريباً حينما جعل 'جوجلار' الوقائع تتفاعل مع 'النظرية'. إن معظم تلميحات جوغلار للعوامل التي تخلق الانعطاف نحو الكساد downturn (فقدان المصارف لرصيدها النقدي وعجزها عن المشتريات الجديدة) لا تعنى الكثير بحد ذاتها. ولكن الأمر المهم جداً هو تشخيصه لطبيعة الكساد الذي عبّر عنه بسخرية لاذعة في جملته الشهيرة: 'السبب الوحيد للكساد هو الازدهار'. وهذا يعنى إن الكساد هو مجرد تكيف، من جانب النظام الاقتصادى، لأوضاع قد خلقها الازدهار السابق وبالتالي فإن المشكلة الأساسية لتحليل الدورة تُختزل إلى السؤال: ما الذى يحدث الازدهار - وهو سؤال فشل جوغلار في تقديم أى إجابة مرضية له.

لقد تباطأ الاقتصاديون في اقتفاء أثر مبادرة جوغلار في البداية. ومع ذلك، فقد تبنى معظمهم منهجه العام فيما بعد، وحتى مَنْ كانوا يميلون أكثر منه لإلزام أنفسهم بفرضيات خاصة عن 'الأسباب' - وإلى حد بعيد بحيث إن عمل جوغلار

(٨١١) لا يبدو أن جوغلار قد تأمل مضامين حقيقة أن دورته ذات ال ٩-١٠ سنوات كان يمكن أن لا تكون الحركة التمرجية الوحيدة في مادته. فقد اكتشف الباحثون اللاحقون دورات أخرى طبعاً. ومن الضروري، على الأقل، أن نذكر ن. د. ن. كوندراتف N. D. Kondratieff (١٩٢٢) وجوزيف كيجن Joseph Kitchin (١٩٢٣) (حول هذين الكاتبين وسابقيهما، انظر: ميجل، المصدر السابق، ص ٢٢٧ و ٣٨٠). ولكننا لا نستطيع سوى أن نلفت النظر إلى هذا اللون من التقدم. ومن العسير أن نقلل هذه التطورات من ميزة جوغلار - وفي الواقع، فهي لا تخدم سوى تعزيز منزلته التاريخية.

يبدو اليوم كقصة قديمة تُروى بصورة بدائية. وقد برز في نهاية الفترة المدروسة عمل معين تشبّع كلياً بروح عمل جوغلار، من ناحية، وبشرّ بالجزء الأهم من تحليل الدورة في وقتنا الحاضر، من ناحية أخرى: إنه عمل وسلي س. ميجل Business Cycle :Wesley S. Mitchell (٨١٢).

(ب) أرضية مشتركة و'نظريات' متصارعة إذن، فقد أرست تلك الفترة طريقة معينة، أو مبدأً أساسياً من طريقة معينة على الأقل، اتفق حولها عند نهاية الفترة غالبية محللي الدورة الاقتصادية وأنها خدمت الجزء الأعظم من العمل في حقبتنا الحالية. بيد أن الاتفاق قد تجاوز ذلك. فعند نهاية الفترة، كانت قائمة الخصائص أو الأعراض التي تصف مراحل الدورة متشابهة كثيراً - وقد وضعها اقتصاديون مختلفون أو كان يمكنهم أن يضعوها. ولم يقتصر الأمر على ذلك: ففي نهاية هذه الفترة، وافق معظم الكتاب - أو افترضوا ضمناً - على أن الحقيقة الأساسية في التقلبات الدورية تكمن في القلب الذي يميز إنتاج التجهيزات والمعدات plant and equipment. وهنا يبرز السؤال: كيف صار هؤلاء الكتاب إلى ذلك؟ يبدو أننا بصدد اكتشاف أرضية مشتركة واسعة لابد من أنها قد أمنت التشابه في الكثير من الجهود والكثير من الاتفاق في النتائج. ومع ذلك، فليس هذا ما يكشف عنه استعراض ذلك الأدب. على العكس، إذ يبدو أننا نشهد كثيراً من الاختلاف والجهد المتنافر - اختلاف وتنافر ذهباً بعيداً إلى حد الإساءة إلى العلم وحتى تعريضه للسخرية. ومع ذلك، فهذا الاختلاف ظاهري ليس إلّا. إذ إن الاتفاق على قائمة الخصائص، حتى لو كان تاماً^(٨١٣)، لا يعنى الاتفاق على العلاقات بين

(٨١٢) Business Cycles (1913) ؛ والنسخة التي أعيدت كتابتها كلياً منه: Business Cycles: The Problem and its setting (1927)؛ وعمل أ. ف. بورنس A. F. Burns وديليو. س. ميجل W. C. Mitchell (1946: Measuring Business Cycles). وأنا لا أقصد الإيحاء بأن البروفيسور ميجل استنبط منهجه من جوغلار بأكثر مما كنت سأوحي بأن مخترعي 'بارومتر هارفارد' كانوا قد اعتمدوا عليه ذاتياً. فكل ما أريد توضيحه هو الخط الموضوعي لتطور تلك الطريقة - إذ إن جذور الأفكار العلمية Filiation of Scientific Ideas هي عملية موضوعية يمكن أن تتضمن، ولكنها لا تتطلب بالضرورة، أى شأن ذاتي. وبالمثل، فإن منجر Menger لم يسمع بغوسن Gossen إلا بعد فترة طويلة من نجاحه بتطوير نسخته من تحليل المنفعة الحدية. ومع ذلك، فإن عمل منجر يندرج في سياق موضوعي معين يسبقه غوسن فيه من حيث الزمن.

(٨١٣) كان الاتفاق أساسياً ولكن ليس تاماً. ويوضح المثال التالي هذا الأمر: لن يعجز أحد عن إدراك أن الأسعار تتحرك بصورة نمطية خلال الدورة؛ ولكن سلوكها غير منتظم بصورة كاملة وثمة حالات ازدهار لم ترتفع فيها الأسعار؛ وهذا يترك مجالاً للاختلاف في الرأي حول ما إذا كانت هذه الأسعار تدخل، أم لا، ضمن قائمة معينة من الخصائص 'العادية'.

تلك الخصائص بعضها بعضاً، وأن تفسير هذه العلاقات، وليس تفسير قائمة الخصائص ذاتها، هو الذى يميز مخططاً تحليلياً أو 'نظرية' معينة للدورة الاقتصادية. وحتى الاتفاق على أن النشاط فى صناعات التجهيزات والمعدات ('السلع الرأسمالية') هو الذى يشكل الخصيصة البارزة فى التقلبات الدورية لا يقدم الكثير لتأمين الاتفاق فى النتائج ما دام هذا الأمر يترك القضية الحاسمة بشأن التفسير معلقة بشكل واسع. وينبغى علينا، لتجنب سوء الفهم، التشديد حالاً على أن الخصيصة البارزة فى مراحل الدورة، أيًا كانت هذه الخصيصة، لا تتطلب أن تتضمن هى ذاتها السبب الذى يفسر حصول تقلبات دورية: فقد يقع هذا 'السبب' فى موضع آخر، فى مجال الاستهلاك، مثلاً. ولكن رغم كل هذا، يبقى من الصحيح والهام إن الاتفاق قد امتد إلى أبعد مما يوحى به السطح من مشاكل وأن معظم محلى ظاهرة الدورة الاقتصادية، ممن قدموا نظريات بدت مختلفة جداً، انطلقوا من أساس مشترك حقاً.

١. إن الحقيقة القائلة إن 'البعد الواسع نسبياً من الشركات فى صناعات البناء بالمقارنة مع الاستهلاك' هى واحدة من 'الصفات العامة من التقلبات الصناعية'، الأكثر وضوحاً^(٨١٤)، يندر أن تفوت على الكاتب^(٨١٥) الذى تعلم أن ينظر إلى الدورة ككل، مع أنها قد تفلت من انتباه المرء حينما ينظر إلى مرحلة الكساد فقط. ومع ذلك، فإن التسليم بتلك الحقيقة بصورة واعية مع الإدراك الكامل لأهميتها المحورية كان قد أخذ وقتاً. ويمكن، بصورة تقريبية جداً، أن نربط هذا الإنجاز - أو جزء حاسماً منه - بعمل توغان-بارنوفسكى^(٨١٦). بيد أن الميزة

(٨١٤) Pigou, Industrial Fluctuations (1927), Part 1, ch. 2.

(٨١٥) من المهم ملاحظة أن فالراس قد اعتبر، من قبيل المعرفة العامة، واقعة إن production des capitaux neufs {إنتاج رؤوس الأموال الجديدة} يمضى فى مد عال ومد منخفض (الذين يتميزان، على التوالي، بمعدلات عالية ومنخفضة للخصم والأسعار) وأنه طابق هذه الواقعة (عام ١٨٨٤) بما نسميها نحن دورة اقتصادية طولها عشر سنوات تقريباً. وهو لم يستشهد بجوجلار، بل بجيفونس. (Etudes d'economie politique, 1936, p. 31).

(٨١٦) كان ميخائيل إيفانفجيج توغان-بارنوفسكى Mikhail Ivanovich Tugan-Baranowsky (١٨٦٥-١٩١٩) أبرز اقتصادى روسى فى تلك الفترة، وربما كان ينبغى أن يُشار إليه فى سياقات أخرى أيضاً. ويحتل الجانب المنهجي من عمله أهمية خاصة: إذ إنه قدم الكثير من العمل التاريخي ذي النوعية الرفيعة؛ ولكنه كان 'منظراً' أيضاً، جَمَعَ أو لَحَمَ ضمن كيان أرفع، هذين الحقلين بطريقة كان قد تعلمها من ماركس ولم تكن مألوفة قط. كما أنه تعلم التنظير من ماركس أيضاً، مع أنه جرب تأثير كل من 'الكلاسيك' الإنجليز والنمساويين بما قاد عمله، فى النهاية، إلى أن يصبح=

التاريخية لهذا العمل تتمثل فقط بتشيده على الأهمية المحورية لتلك الحقيقة. إن أهمية تفسيره الخاص لها- أى نظريته المتميزة- الذى يجرى من خلال تعاقب التراكم وتحرير ادخار سائل تكمن فقط فى أنه يقدم مثالاً على قصر المسافة بين نقطة انطلاق واحدة وبين درب مسدود وذلك حتى بالنسبة لكاتب مقتدر وجاد.

٢. يعود العمل البارز فى الخط قيد الدرس إلى آرثر شبيثوف Arthur Spiethoff^(٨١٧). يُدرج مخطط شبيثوف التحليلي أولاً عددًا من البدايات الممكنة من عملية توسع فى التجهيزات والمعدات، وهى عملية تُفسر حينذاك، دون صعوبة، كل الظواهر الأخرى المشاهدة من حالات الزواج، مع الاهتمام كثيرًا بتفسير الخصوصيات الفردية فى كل حالة تاريخية. ويتجلى هذا التشديد على توسع التجهيزات والمعدات فى اختيار استهلاك الحديد (الإنتاج زائدًا الاستيراد ناقصًا التصدير) لدور رقم قياسى أساسى. والمشكلة الباقية، أى لماذا، أخيرًا، يتحول التوسع إلى حالة عامة من الإنتاج الخاسر ('فيض الإنتاج' overproduction)، فأنها تُحل عندئذ من خلال عوامل عدة كالنقص فى رأس المال التشغيلي working capital والتخمة المؤقتة فى الطلب فى اتجاهات خاصة. وهذا المخطط، الذى يترك مجالاً للبدائل فى كل خطوة فيه، يصلح بصورة باهرة لأن يستوعب، فى مواضعها الملائمة ودون المبالغة فى أهميتها، عوامل أخرى كثيرة، كانت نظريات أخرى قد شكّلت منها محركات فريدة لحركة الدورة كالعوامل 'النفسية'، والعوامل النقدية،

= "تأليفًا نقديًا" critical synthesis. ولكن لم يترك أى أثر عمله: theoretische Grundlagen des Marxismus (1905) أو عمله: (Soziale Theorie der Verteilung) (1913). ولم يكن هذا غير طبيعى لما كان فى هذين العاملين من نقص فى صرامة التفكير، وهو أمر يبعث على الرثاء بقدر ما هو غريب بالنسبة لكاتب بمنزلته. وكان يحتل أهمية أكثر عمله حول الرأسمالية الصناعية فى روسيا (الطبعة الروسية الأولى ١٨٩٨، الترجمة الألمانية ١٩٠٠) والعمل: Modern Socialism in Its Historical Development (1906 ; English trans. 1910). أما السجل الآخر الذى يلزم ذكره، من بين حصيلة تفرض نفسها دون شك، فهو أكثر كل أعماله أهمية لأنه كان قد ترك أثرًا ومارس تأثيرًا واسعًا، أى تاريخه للدورات التجارية فى إنجلترا (الذى صدر بالروسية أولاً، ١٨٩٤؛ بالألمانية ١٩٠١؛ بالفرنسية ١٩١٣). ومرة أخرى، كان الفصل الأول والنظرى من هذا العمل بائسًا بشكل واضح. أما الباقي، فيأخذ مكانه فى تاريخ علمنا.

(٨١٧) حول شبيثوف (انظر الفصل الرابع، القسم ٢، أعلاه). يعود السبب الرئيسى لتطور عمله ببطء إلى تصميمه القوى على إنجاز برنامج واسع من البحث الوقائى الدقيق- عمليًا، دون أى مساعدة قط. ومع أنه شرع بنشر نتائج جزئية العام ١٩٠٢ (فى: Schomler's Jahrbuch)، بيد أن عرضًا مؤقتًا للعمل ككل- مع أنه أولى فقط حقًا- لم يُنشر قبل عام ١٩٢٥ فى المجلد السادس من الطبعة الرابعة من Handwörterbuch der Staatswissenschaften، المقالة: "Krisen". وأعلم بأن هناك تحضيرات لنشر نسخة أكمل من العمل فى إنجلترا.

والتعجيل، ونقص الادخار. وهكذا أقترَب تحليل شببثوف كثيراً من أن يكون كتأليف عضوى من العناصر المهمة ومن الاستغلال الكامل للقدرة على التنسيق التى تتمتع بها نقطة الانطلاق تلك. كما أنه يتميز بميزة أخرى أيضاً: فمع إمكانية استثناء ماركس، كان شببثوف أول من أدرك بشكل صريح أن الدورات ليست مجرد شيء غير جوهري يرافق التطور الرأسمالى بل إنها الشكل الأساسى للحياة الرأسمالية. كما إنه كان أحد أوائل من لاحظوا أن هناك فترات مطوَّلة تتشدد خلالها مراحل الازدهار من الدورات بفضل ظروف ملائمة ('فترات ازدهار') وأن هناك فترات مطوَّلة أخرى تتشدد خلالها مراحل الكساد ('فترات كساد'). بيد أن شببثوف رفض ضم هذه النوبات المطوَّلة من الازدهار أو الكساد لتكوين 'دورات طويلة' واحترز فى الحكم على سببها.

ومن الممتع جداً مقارنة عمل شببثوف بعمل روبرستون الذى يبدى جوانب هامة من التشابه، وإن بصورة مستقلة عن عمل شببثوف^(٨١٨). ليس ثمة تشابه فى

(٨١٨) تبدأ أعمال البروفيسور د. ه. روبرستون D. H. Roberston عام ١٩١٤ بمقالة مهمة ولكن غير معروفة تقريباً ('Some Material for a Study of Trade Fluctuations') نشرت فى مجلة: Journal of Royal Statistical Society وتم فيها تقديم مادة تاريخية لدعم الفكرة الواعدة- التى عجز روبرستون عن استغلالها ولكنها لم تغب عن ذهنه قط- القائلة إن الدورات تمت ببعض الصلة إلى التأثير، على العملية الاقتصادية، الذى تمارسه الصناعات الجديدة، حيث يرتبط بعض الرواج ببناء السكك الحديدية مثلاً ويرتبط رواج آخر بالاختراعات فى مجال إنتاج الحديد، والكهرباء، ومآكنة الاحتراق الداخلى، وهكذا. ثم جاء عمله: (Study of Industrial Fluctuations (1915) الذى رسم لوحة تشبه لوحة شببثوف إلى حد بعيد. وقد أضيف الملحق النقدى (الادخار، الادخار الإجبارى، خلق الائتمان، وما شابه) فى عمله الشهير: Banking Policy and the Price Level (1926 ; 3rd. ed., 1932)، الذى أحكمه بمقالات عدة أعيد نشرها فى العمل: Essays in Monetary Theory (1940). ثمة فقرة ترد فى صفحة ٥ من عمله: Banking Policy.. لها أهمية كبيرة بالنسبة historie intime {للتاريخ الطويل} للتحليل النقدى الحديث بحيث إن من الضروري الاستشهاد بها: 'كانت لى مناقشات كثيرة مع السيد ج. م. كينز حول موضوع الفصلين الخامس والسادس [الذين يتضمنان التحليل النقدى] وقد أعدت كتابتهما بصورة صارمة وفقاً لمقترحاته بحيث لا يعلم أى منا كم منهما يعود. إليه وكى يعود إلى'. وكان هذا، طبعاً، كينز فى عمله Treatise وليس كينز العمل General Theory، ولكن عمل روبرستون اشتمل على مؤشرات نحو هذا الأخير أيضاً. ونظراً للاختلافات التى برزت بينهما فيما بعد، فمن المستحسن أن نلاحظ، بغض النظر عن السبب المباشر لتلك الاختلافات، إنه كان هناك دائماً التباين الأساسى التالى: شدد كينز، من البداية، على الجوانب النقدية والسياسة النقدية، بينما شدد روبرستون، من البداية، على 'العوامل الحقيقية'- مقابل العوامل النقدية والنفسية معاً. وهكذا كانت هناك مساحات واسعة تخص روبرستون شخصياً لم يتغلغل فيها تحليل كينز قط. وضمن إطار هذه المساحة، تكتسب الفرضيات النقدية معنى معيناً- معنى له صلة قوية بالتطبيقات العملية- يختلف كلياً عن معنى ومضامين تفيدها نفس الفرضيات النقدية حينما تؤخذ بذاتها.

المنهج بينهما. فقد انطلق شبيثوف، بروح من عمل جوغلار، من البحوث الدقيقة التي أتاحتها الإحصاءات؛ بينما عمل روبرستون، أولاً وأخيراً، 'كمُنظّر' دون أن يأخذ بنظر الاعتبار سوى الوقائع الأعم والأوضح كأساس، مركزاً على صياغة أدوات للتفسير. وعليه، فإن عمل شبيثوف وروبرستون إنما يكملان، أكثر مما ينافسان، أحدهما الآخر. ولكن رؤيتهما العامة لعملية الدورة وتفسيرهما لها كانا متشابهين إلى حد بعيد^(٨١٩).

٣. تكفينا بضع أمثلة لإظهار حقيقة إن معظم نظريات الدورات ليست سوى فروع من ذلك الكيان العام: 'التجهيزات والمعدات'.

أولاً، يدرك القارئ دون صعوبة إن من الممكن إدراج حتى النظريات النقدية البحتة للدورة ضمن 'نظريات الاستثمار'. فرغم أن هذه النظريات تشخص أسباب الحركة الدورية في المجال النقدي، فمن المؤكد إن الآثار على صناعات التجهيزات والمعدات تلعب دوراً فيها. فحينما يتمحور التفسير على معدل الفائدة النقدي بشكل خاص، فإن الاضطراب في بنية 'رأس المال المادي' لا بد من أن يشكل على الدوام عاملاً ما في الأوضاع الدورية، مع أن هذا الأمر لا يتطلب أن يكون هو العامل الحاسم، وبخاصة من وجهة نظر قصيرة الأجل كوجهة نظر هاوترى. أما إذا جعلناه العامل الحاسم، فإننا نحصل على نظرية هايك غير النقدية أو نصف النقدية: زيادة إنتاج التجهيزات والمعدات ('تطويل فترة الإنتاج') عبر انخفاض معين في معدل الفائدة النقدي إلى أقل من المعدل الحدى للربح.

ثانياً، إن الكتاب الذين يوافقون على تفسير الدورات الاقتصادية كدورات استثمار أساساً - بالمعنى المادي لمصطلح استثمار - يمكن أن يختلفوا، رغم ذلك، بالنسبة إلى 'البداية' starter وأن مثل هذه الاختلافات لا بد من أن تضاف عندئذ طابعاً خاصاً على نظريتهم. وهكذا، فإن ما يمكن تسميتها نظرية theory perpetuum-mobile {نظرية التحول الدائم} تكفي بحقيقة أن الكساد نفسه لا بد من أن يخلق في سياقه ظروفًا ملائمة للانبعاث أولاً ولبناء التجهيزات والمعدات من ثم.

(٨١٩) عثر روبرستون، غير مرة، عن إدراكه لهذه الحقيقة، ملمحاً بأسف إلى عتية اللغة. ولا يمكن أن يحدث إلا في علم الاقتصاد، في نظري، أن يترك باحث معين تلك الحقيقة هكذا. ولا أقول هذا من باب اللوم. ولكني أقولها لأن هذا المثال يوضح حالة من الأشياء عامة جداً وتفسر الكثير في تاريخ علم الاقتصاد.

وإذا أعطينا مثلاً آخر ينطوى على إدراك أحد لضرورة الحصول على سبب ما أكثر إقناعاً، فقد أشارت السيدة انغلاند إلى نشاط الرواد promoters أو، بصورة أعم، إلى اجتياح الإمكانيات التكنولوجية والتجارية الجديدة لدائرة المنظمين^(٨٢٠).

ثالثاً، أياً كان الشيء الذى يهيج الدافع للازدهار، فيمكننا أن نستنبط نظرية متميزة من خلال التشديد على الحقيقة المؤكدة القائلة إن التجهيزات والمعدات، التى يجرى بنائها استجابة لمثل هذا الدافع، تأخذ وقتاً إلى أن تظهر للوجود وتصبح فى وضع جاهز للعمل - وقتاً لا تضعف خلاله حدة ذلك الدافع. وعليه، فيما بعد، حينما يؤثر تدفق السلع الإضافية على سوق السلع الاستهلاكية، يمكن أن يحدث شيء من قبيل 'فيض الإنتاج'، أى يحدث هبوط فى الأسعار يقلب الأرباح المتوقعة إلى خسائر فعلية. وإذا آمنا بهذا التفسير إلى حد كاف، فيمكن أن نتحدث عن 'نظرية فترة إبطاء' للدورة of cycle lag theory. كما نحصل على رؤية أخرى حينما نضع التشديد الرئيسى على الزيادة فى سعر بنود التكلفة بدلاً مما على الهبوط فى أسعار السلع الاستهلاكية. يمكن توضيح الرؤية الأولى بأمانة من أعمال بونيايتيان وأفتاليون، كما يمكن توضيح الرؤية الثانية بمثال عمل ليسكر، رغم أن هناك الكثير لدى ثلاثتهم مما يمكن به تخفيف الضغط عن العامل الذى يقع التشديد عليه بشكل رئيسي^(٨٢١). وبالارتباط مع ذلك، يمكن أن نستنبط من هذا أن مَنْ يقول إن الدورات الاقتصادية هى دورات فى الأسعار بشكل رئيسى يمكن أن يعنى بالضبط الشيء نفسه الذى يعنيه مَنْ يقول إنها دورات فى الاستثمار بشكل رئيسى.

رابعاً، وكما فى الفترة السابقة، ثمة حصيلة من تلك النظريات التى أرجعت، بطريقة أو بأخرى، مسؤولية الكساد إلى عدم كفاية الدخول النقدية بشكل عام - وبعبارة أدق، إلى فشل هذه الدخول فى التوسع pari passu {بنفس نسبة}.

(٨٢٠) من بين مقالات ميني ثروب انغلاند Minnie Throop England، نشر بشكل خاص إلى: 'Promotion as the Cause of Crises,' Quarterly Journal of Economics, August 1915, and 'An Analysis of the Crisis Cycle,' Journal of Political Economy, October 1913.

(٨٢١) Mentor Bouniatian, Wirtschaftskrisen und Ueberkapitalisation (1908) الذى تم توسيعه بوصفه Les Crises economiques (الطبعة الروسية الأصلية ١٩١٥؛ الترجمة الفرنسية ١٩٢٢)؛ A. Aftalion, Les Crises periodiques de surproduction (1931) ; J. Lescure, Des Crises generales et Crises generales et periodiques de periodiques de surproduction (1906 ; 3rd., 1923). ويُعرف هؤلاء الكتاب الثلاثة، وبخاصة الاثنان الأخيران، بمناصرتهم الشديدة للمبادئ المنهجية لدى جوغلار.

إنتاج السلع الاستهلاكية، الفعلى أو الممكن^(٨٢٢) - أو إلى عادات الأفراد الادخارية أو، أخيراً، إلى عدم كفاية دخول بعض الطبقات مقابل اعتياد طبقات أخرى على الادخار. وسبق لى أن علقت على الحيوية الهائلة التى تدين بها هذه النظريات إلى جاذبيتها الشعبية. وإلى هذه الجاذبية - القوية، بشكل خاص، فى الفترات المطولة من الكساد السائد - يعود بقاء هذه النظريات، وليس إلى التطور الكبير فى أسسها التحليلية. ومهما كان الأمر، فقد دأب المذهب العلمى السائد على عدم استحسان هذه النظريات، كما دأبت هى على العيش فى عالم علمى سرى - إذا استعرنا العبارة الموقفة للورد كينز. وقد كانت الحال هكذا إلى حد أن الاقتصاديين الأساسيين لم يكلفوا أنفسهم حتى عناء وضع التسويات التى كانت مطروحة بصورة واضحة. فمع أن المحاجة ضد نظريات فرط-الادخار قد تكون قوية ما دامت هذه النظريات تشدد على إن الادخار هو 'سبب' نهائى ومستقل للاضطراب، ولكن، من ناحية، لا ينبغى أن ننكر قط أن هناك كثرة من التوقفات hitches فى آلية الادخار - الاستثمار، ومن الناحية الأخرى، إن الادخار، فى كساد كان قد بدأ لأسباب أخرى غير الادخار، يمكنه، عند أخذ كل شىء بنظر الاعتبار، أن يجعل الأشياء أسوأ مما كانت ستكون عليه لولاه، وبخاصة حينما يأخذ الادخار شكل اكتناز، مثلما يحتمل أن يحدث فى كساد ما. ولكن قادة المذهب السائد، رغم أنه كانت لديهم تلميحات حول كل هذا أحياناً^(٨٢٣)، بيد أنهم فشلوا تماماً فى تناول الموضوع بصورة صحيحة - وهى حقيقة تفسر الكثير من التاريخ الحديث لعلم الاقتصاد. فمن الواضح أنهم لم يمنحوا سوى أهمية قليلة لإمكانات الاضطراب هذه. إذ لم يشددوا حتى على الدور الذى يلعبه، فى الدورة، ذلك الادخار الذى يستعمل لإعادة تسديد القروض المصرفية. وهكذا، فإن رقعة مهمة من الأرض المفتوحة تركت دون حماية لتستقر

(٨٢٢) كان هذا يسمى أحياناً 'الخلل فى نظام الأسعار'، ويمكن أيضاً التعبير عنه بالقول إن توسع الإنتاج فى المجتمع الرأسمالى يصبح عادة ميل الأسعار نحو الهبوط فى المدى الطويل ('الانكماش' deflation). إن مما يميز كثيراً عادات التفكير، التى تسود فى علم الاقتصاد، إن هذه الحقيقة، التى حظيت باهتمام واسع، يندر أن نظر إليها وهى فى دلالتها العضوية. فقد استحسنها بعض الاقتصاديين - كان مارشال من بينهم، فى نظرى - بقدر ما استحسن آ. سمث 'الرخص والوفرة'. وبالنسبة للآخرين، فإنها كانت مجرد 'خلل'. إن أفضل ما يمكن تسجيله هو أن بعض الكتاب أوضحوا أن الأسعار الهابطة لم تكن تعنى الاضطراب حينما تنتج عن تحسينات تخفض من التكلفة؛ وإن كتاباً آخرين أشاروا إلى إن العلاج النقدي للأسعار الهابطة من شأنه أن يخلق اضطراباً خاصاً بها (تضخم الربح).

(٨٢٣) لتلميح كهذا، فى حالة مارشال، انظر عمل كينز: General Theory, p. 19n.

فيها شخصية ج. أ. هوبزن J. A. Hobson وهى مكللة بالغار فى أعين كثيرين، كما يبدو الأمر للاقتصاديين المعاصرين حينما يراجعون الماضى. وفى الواقع، فإن هوبزن لم يكن مثالا منزها. كما أنه لم يقترب كثيرا من التنبؤ بمذاهب الكينزية المعاصرة. بيد أننا سنقتصر فى دراستنا عليه^(٨٢٤).

فى معظم الحالات، ليس ثمة خط فاصل بصورة واضحة بين نظريات نقص الاستهلاك والنظريات الأخرى. إذ يمكن التعبير عن بعضها، وإن ليس عن كلها، من خلال فيض الإنتاج أو فرط الاستثمار، النقدي أو 'الحقيقي' - وعندئذ، فمن السهل أن نجد أن هذه النظريات ليست سوى فرع آخر من شجرة التجهيزات والمعدات. وهذا واضح بشكل خاص فى حالة ذلك النوع من حجة فرط الادخار الذى اعتنقه هوبزن. واليوم، يؤكد معظم الكتاب، الذين يلقون اللوم على الادخار، على إن الضرر ينشأ عن عدم قيام المدخرين بالإنفاق قط سواء على الاستهلاك الجارى أو على 'السلع الاستثمارية': وعندئذ، فالمشكلة تكمن فى بيان كيف أن الأفراد، بعد قيامهم بالادخار، يرفضون الاستثمار، خالقين بذلك بطالة وبركا من النقود العاطلة^(٨٢٥). ولكن مع أن هوبزن قد لاحظ هذا الجانب من الموضوع، بيد أنه أسس، بصورة منطقية غير كاملة، تفسيره للتقلبات الدورية وما يرتبط بها من بطالة على حجة أخرى مختلفة تماما. فالادخار، فى نظره، يخلق حالات متعاقبة من الازدهار والكساد وذلك بالضبط لأن المدخرين يستثمرون على الفور promptly ويزيدون بذلك من الطاقات الإنتاجية للماكنة الاقتصادية بأكثر من إمكانات البيع بأسعار تغطى التكلفة. يمكن أن نسمى هذا اللون من التفكير: فيض إنتاج عبر الادخار، وهو لون غير كينزى بالتأكيد. ولكن هوبزن، كما فعل توغان-بارانوفسكى من قبله، قد دأب على القول إن معظم الادخار يأتى من الأفراد الأغنياء نسبيا واستخدم هذه الحقيقة للوصول إلى الفرضية القائلة إن السبب النهائى للاضطراب الدورى وما يصحبه من بطالة هو عدم تساوى الدخل. وهكذا نفهم

(٨٢٤) انظر الفصل الخامس، القسم ٢، أعلاه. إن عملى هوبزن اللذين يتصلان بموضوع هذا القسم بشكل مباشر أكثر هما: The Industrial System (1909) and Economics of Unemployment (1922).

(٨٢٥) إن هذه الطريقة فى النظر إلى الموضوع ترتبط، طبعاً، بحقيقة إن التحليل فى الوقت الحاضر هو تحليل قصير الأمد. فى الأمد-القصير، يخلق الادخار مشاكل فقط حينما يجرى اكتناز المدخرات: فلو أن المدخرات تدفع بسرعة نحو قنوات من الاستثمار، فأنها تعزز النشاط فى المقام الأول، وإن آثارها طويلة-الأمد لا تتدخل فى لوحة الأمد-القصير.

لماذا أن الاقتصاديين، الذين لا يهتمون بغير النتائج المهمة سياسيًا، سيحيون هوبزن كسابق forerunner لكينز^(٨٢٦).

خامسًا، لم أضع ماركس في مؤخرة قائمتنا من الأمثلة إلا لغرض الملائمة. فمن حيث الاستحقاق، كان ينبغي أن يوضع في مقدمتها لأنه، أكثر من أى اقتصادى آخر، طبق الدورات بعملية الإنتاج وتأثير التجهيزات والمعدات الإضافية.

واجه أتباع وخصوم ماركس معًا صعوبة فى أن ينسبوا إليه أى نظرية واضحة حول الدورات. ويكمن السبب الواضح لذلك فى أن ماركس لم يعش ليضع بصورة نظامية أفكاره حول الموضوع: فقد ظلت نظريته للدورة تشكل 'الفصل غير المكتوب' من عمله. ولكن ثمة سبب آخر أكثر جوهرية. فموضوع ماركس كان هو التطور الرأسمالى. وإن كل ما كتبه، حتى مخططه بشأن مجتمع راكد معين، كان قد كتبه لتوضيح ذلك الموضوع. والتطور الرأسمالى كان سينتهي حتمًا بانتهيار النظام. ولكن ماركس قد تبنى مبكرًا الفكرة - الواردة أصلاً فى Communist Manifesto - التى تقول إن الأزمات الجارية تشكل مشاهد تمهد لهذا الانهيار، أى أنها تمثل نفس النوع من ظاهرة لا تحتاج سوى إلى تشديد نفسها لإحداث الانهيار النهائى (الجزء الاقتصادى من الثورة)^(٨٢٧). وعليه، فإن كل عناصر الواقع الرأسمالى كانت، بشكل مباشر أو غير مباشر، على صلة أيضًا برؤيته للظاهرة الدورية. وكان سيتعين على 'الفصل غير المكتوب' أن يلخص كل تحليله للرأسمالية. وأن كل هذا التحليل بدوره يتركز على (١) إنتاج 'رأس المال

(٨٢٦) وكما أوضح اللورد كينز نفسه (General Theory, ch. 23, v1)، فإن حقوق غيسل Gesell بذلك الشرف أقوى بكثير.

(٨٢٧) وهذا يبين لماذا كان من الجوهرى بالنسبة لماركس أن يفترض، وأن يثبت لو استطاع، إن الأزمات تزداد فى شدتها مع مضى الزمن - وهى فرضية نبذها هلفردنغ Hilferding (١٩١٠)، وأخيرًا كاوتسكى Kautsky أيضًا الذى قدّم لها أحكم دفاع العام ١٩٠٢. إن معظم كتاب الدورة الآخرين فى تلك الفترة أما لم يدلوا برأيهم حول الموضوع - مما يعنى، كما افترض، أنهم لم يجدوا أى سبب لحتمية تصاعد حالات الكساد سواء بحدّة أكثر أو أقل - أو أنهم كانوا يميلون للأخذ بوجهة النظر المعاكسة. ومن المهم أن نستحضر فى الذهن أن وجهة النظر المعاكسة هذه يمكن أن تأخذ معنيين مختلفين: (١) إن الحركة الأساسية ستتخفّف فى أبعادها أو (٢) إن الناس سيتعلمون معالجة الظواهر والآثار التى تبرز على السطح (المضاربة، الخداع، إفلاس المصارف، تقليص الإنفاق بسبب البطالة) بحيث إن الأبعاد المشاهدة تنمو بمعدل أقل مع أن العملية الأساسية تبقى على حالها. ومع ذلك، فإن أيًا من الكتابات الأكثر تأثيرًا لم تضع مثل هذا التمييز بشكل محدد، بقر ما أعلم.

الحقيقى' و(٢) العوامل التى تغيّر تركيبته(الزيادة النسبية فى رأس المال الثابت بالمقارنة مع رأس المال المتغير^(٨٢٨)). وهذه هى عناصر التوحيد التى يتعين أن نحيل إليها ما يمكن بسهولة، لولا ذلك، أن تبدو كتلميحات مفككة أو حتى متناقضة. فهناك طبعاً الكثير من هذه التلميحات مثل: توق الرأسمالى للتراكم على نحو يتعذر تجنبه (مهما كان العائد من التراكم) مما يُفترض أن يفسر انفجارات النشاط الاستثمارى- وهذه أضعف التلميحات، مع أنها تتعزز بإيحاءات مختلفة من عوامل أكثر جوهرية؛ الدافع الأزلّى الذى يخلق الهوس والانهيّارات (الذى وصفه انجلز بصورة حيوية، ولكن سطحية)؛ ميل معدل الربح نحو الهبوط (سواء أكان تفسيره صحيحاً أم لا)؛ فيض الإنتاج وفوضى (عدم يقين uncertainty) القرار الرأسمالى؛ تكرر فترات إعادة الاستثمار (تجديد الجهاز الإنتاجى المادى) التى تعقبها فترات يتقلص فيها النشاط. ثمة تلميحات أخرى، ومنها إشارة واضحة نحو فكرة نقص الاستهلاك لدى الجماهير الكادحة باعتباره السبب النهائى لكل الأزمات الحقيقية' (Das Kapital, 111, p. 568) ونحو ما ينتج عن ذلك من عدم مقدرة الرأسماليين على 'تصريف' realize القيمة الفائضة التى 'توجد' exist فى السلع التى تم إنتاجها. إن وجود أدلة متعارضة يجعل من المستحيل أن نعزو إلى ماركس نظرية دورات تقوم على نقص الاستهلاك، مع أن من الممكن أن نعزو إلى نقص الاستهلاك دوراً معيناً فى توليد حالة ركود نهائية^(٨٢٩).

ولكن أيّاً من هذه التلميحات، مأخوذة فى ذاتها، أو فى مجموعها الكلى، لا ترقى إلى نظرية للدورات. فبقدر تعلق الأمر بماركس نفسه، فإن مؤرخ التحليل، بعد أن يكون قد لاحظ المفهوم الأساسى لدى ماركس، وربما معالجته غير المرضية بشكل خاص للنقود والائتمان، لابد من أن يتركها كما هى. ومع ذلك، فهناك عدد من النظريات الماركسية للدورات. ولكن لا ينبغي إرجاع هذه النظريات إلى ماركس بل إلى مؤلفيها- الماركسيين الذين أما يختارون تلميحات كانت قد

(٨٢٨) لا يمثل رأس المال الثابت والتجهيزات والمعدات الشئ نفسه، طبعاً، ولكن الزيادة النسبية فى هذا الأخير تشكل النقطة البارزة فى تلك العملية.

(٨٢٩) تنتشر الأدلة المتعارضة فى أماكن واسعة. ولكن انظر: Das Kapital, vol. 11, p. 476، حيث يشير ماركس إلى أن حصة الطبقة العاملة من الناتج القابل للاستهلاك تزداد فى الفترة التى تسبق أزمة ما. إن أهمية هذه الفقرة لا تعززها كثيراً حقيقة أن ماركس كان قد أعلن، قبل ذلك بوضع سطور، إن الفرضية القائلة إن الأزمات تنتج عن 'ندرة المستهلكين المقتدرين' هي 'كلام زائد تماماً' وكذلك حقيقة أن هذه الفرضية تنتج بشكل منطقي عن مخطئه الخاص به.

فتنتهم أكثر من غيرها أو يحاولون تطوير أفكار خاصة بهم من الأساس الماركسي لتقديم بدائل عن 'الفصل غير المكتوب' أكثر من كونهم يعيدون بناءه- الذين يعتقدون بأنهم يشرحون ماركس بالتأكيد ويستحضرون في أذهانهم العلاقة الأثرية بين الأزمات التي تحدث فعلاً والكارثة النهائية التي ستحل بالرأسمالية. ويتعذر استعراض هذه النظريات في خلاصة كهذه^(٨٣٠).

(ج) مناهج أخرى رغم أن من المستحيل استعراض كل الأفكار الأخرى التي ظهرت خلال تلك الفترة حول طبيعة وتفسير التقلبات الاقتصادية، بيد أن من الممكن والضروري معاً الإشارة إلى أن معظم هذه الأفكار، إلى جانب أن مشاهدة سطحية كانت قد أوجت بها، كان من المرجح جداً أن تروق للاقتصاديين الذين كانوا قد طوروا الستاتيكا الاقتصادية بوصفها رائعة علمهم. فقد بالغ هؤلاء بأهمية إنجازهم المركزي طبعاً، كما رأينا آنفاً. إذ وجدوا فيه أكثر مما نجد نحن، أى أكثر من مخطط منطقي، مفيد، لتوضيح علاقات توازينة معينة، ولكنه، ذاته، غير قابل للتطبيق مباشرة على العمليات المحددة من الحياة الواقعية. فهم لم يدركوا حجم ومدى أهمية الظواهر التي تفلت من هذا المخطط وأحبوا الاعتقاد بأنهم يسيطرون على كل ما كان جوهرياً و'عادياً'. وهنا فمن الطبيعي، من زاوية هذا النوع من التحليل، تشخيص موضع 'أسباب' الاضطرابات المشاهدة أما خارج النظام الاقتصادي^(٨٣١) أو في حقيقة إن الماكنة الاقتصادية، كأى ماكنة أخرى، لا تعمل قط

(٨٣٠) يثبت عمل ب. م. سويزي P. M. Sweezy، مرة أخرى، إنه عمل مفيد للمزيد من الدرس، رغم أنه يضعف نوعاً ما كنتيجة لرغبة المؤلف الواضحة بتحويل ماركس إلى كينزى من ناحية هذه القضية. سأكتفى بذكر أسماء جرت الإشارة إليها من قبل: و. باور O. Bauer، بوخارين Bukharin، غروسمان Grossmann، هلفردنغ Hilferding، كاوتسكى Kautsky، لوكسمبرغ Luxemburg وشرنبرغ Sternberg. إن أفضل تحليل لوجهات نظر ماركس نفسه، بقدر ما أعلم، هو تحليل ه. سميث H. Smith: 'Marx and the Trade Cycle,' Review of Economic Studies, June 1937.

(٨٣١) إن العوامل التي تؤثر على النظام الاقتصادي من خارجه تسمى عوامل خارجية exogenous factors، وتسمى النظريات التي ترتبط بمثل هذه العوامل نظريات خارجية exogenous theories (بالمقارنة مع النظريات الداخلية endogenous). ومع ذلك، فمن الضروري أن نتذكر أن هذا المفهوم لا يحمل معنى محدداً كما يبدو عليه ذلك. فمن ناحية، يتغير محتواه تبعاً لما ندخله نحن فى النظام الاقتصادي من محتويات: فكل واحد يستبعد الحوادث الطبيعية التي يتعذر السيطرة عليها، ولكنه لن يستبعد الجميع 'التفضيلات السياسية' أيضاً. ومن ناحية أخرى، فحتى إذا استبعدنا من المفهوم كل شيء لا تغطيه نظرية 'سلوك الأعمال' - مع أن هذا صعب فى حالات مثل تأثير المصرف المركزي، وما شابه - فإن محتوى المفهوم يتغير، رغم ذلك، تبعاً لما إذا كنا نقصد بالعمليات الداخلية: فقط العمليات التي يحددها بصورة فريدة وضع ابتدائي معين حصراً (مفهوم =

بدقة تامة. وبشكل هذا الموقف من التقلبات المشاهدة الجذر المشترك - أو الصفة المشتركة - لمجموعة أخرى من نظريات لا تبدو أيضاً، لأول وهلة، أنها ترتبط بعضها ببعض بصلة ما^(٨٣٢). سنشير إلى ثلاثة أمثلة عنها.

أولاً، إن العامل الخارجى الأكثر تأثيراً بين كل العوامل التى تؤثر على الحياة الاقتصادية هو تغير الحصاد بسبب المناخ حصراً، وهو عامل قد سخره دبليو. س. جيفونس وه. س. جيفونس H. S. Jevons (ابنه) وه. ل. مور H. L. Moore لغرض تفسير التقلبات الاقتصادية^(٨٣٣).

ثانياً، يمكن استخدام حقيقة إن الماكنة الاقتصادية يمكن أن تتوقف stall لأغراض تحليل الدورة الاقتصادية بطرق مختلفة. والطريقة الأكثر مباشرة تتمثل فى إرجاع المسؤولية إلى عدم التأكد بشكل عام uncertainty مما يقود إلى اتخاذ قرارات 'خاطئة'. ولكن لما كان عدم اليقين هذا، من نواح عدة، يعود إلى السمات الجوهرية لاقتصاد المشروع الخاص، فيمكن اتهام مؤسسات هذا الأخير بصورة مباشرة^(٨٣٤). ونظراً لتعذر الاعتقاد بشكل مقنع بأن الأخطاء الفردية تخلق

=تتبرجن (Tinbergen) أم أيضاً عمليات كتلك التى تتأثر بعوامل لم تكن موجودة فى الوضع الابتدائى كإدخال طرق إنتاج جديدة بصورة غير متوقعة.

(٨٣٢) ثمة مجموعة أخرى من النظريات، من شأنها أن تتداخل مع مجموعتنا، يمكن أن ترتبط بالنقطة المفرطة التى أودعها أفضل منظرينا فى الفترة محل الدرس فى تحليل التوازن. يمكن تسمية هذه المجموعة نظريات الاختلال Disproportionality theories وهى تشكل النظريات التى تشخص مصدر الاضطرابات الدورية فى 'التسويات غير الملائمة' maladjustments بين المجموعات المختلفة من الأسعار والكميات. إن هذه الفكرة ترد بشكل طبيعى على ذهن من يؤمن بقانون سى كنفطة انطلاق لتحليله للدورات (وليس بالضرورة لنظريته العامة للعملية الاقتصادية)، ومن السهل، علاوة على ذلك، إثبات هذه الفكرة من مشاهدة وقائع معينة واضحة جداً. ويمكن الاستشهاد بعدد كبير من الاقتصاديين الذين اقتنعوا بها- مع أنهم بشكل رئيسى لم يكونوا اقتصاديين مختصين بتحليل الدورات الاقتصادية. ولم أختَر وجهة النظر هذه للمناقشة لأن الاختلال يبقى عبارة خاوية ما لم يرتبط بعوامل محددة من شأنها أن تفسره ولأنه، ما أن يكون له مثل هذا الارتباط، فإن تلك العوامل، وليس الاختلال ذاته، هى التى تميز نظرية كاتب ما. وكمثال على التحليل الذى يشدد على أنواع محددة من الاختلال- التى تعود إلى فترات الإبطاء بشكل رئيسى- يمكن الإشارة إلى: E. (Lederer, Konjunktur und Krisenn (in Grundriss der Sozialökonomik, Part 1 v, xi, 1925 (٨٣٣) أعيد نشر مقالات دبليو. س. جيفونس فى عمله: Investigations in Currency and Finance (1884)؛ H. S. Jevons, The Sun's Heat and Trade Activity (1910); H. L. Moore, Economic Cycle: Their Law and Cause (1914).

(٨٣٤) يدرك القارئ إن هذا 'التفسير' ينحل إلى عموميات مؤكدة بقدر ما هى خاوية. والمثال التقليدى على هذا هو العبارة القائلة: 'أن 'سبب' ... الدورات الاقتصادية ... ينبغى البحث عنه فى عادات=

اضطرابات كبيرة، إلا إذا كانت هذه الأخطاء تحدث في اتجاه واحد، فيمكن أن نضع ثقتنا في 'موجات التفاؤل والتشاؤم' - وهذه رؤية كانت شائعة جدا وفتنت فيما بعد كتابًا كبارًا مثل بيجو وهارود^(٨٣٥). ثمة أنواع أخرى كثيرة من هذه الموضوعات لا يخلو كليًا أي منها من مقدار بسيط من الحقيقة، بيد أنها كلها لا تقوى على النهوض بالعبء الذي ألقى عليها.

ثالثًا، بقدر ما لا نجد أساسًا قويًا للاعتقاد بأن النظام الاقتصادي يولد تقلبات عامة بحكم منطقته الداخلي، فيمكننا بسهولة الاستنتاج بأن هذه التقلبات تظهر ببساطة كلما حدث خطأ في شيء له أهمية كبيرة، مهما كان سبب ذلك. وقد أسلم روشر نفسه لهذا الرأي، وإن كاتبًا بمنزلة بوهم-باورك أشار مرة إلى الرأي القائل^(٨٣٦) بعدم وجود تفسير عام سواء للدورات أو للأزمات: فموضع هذين الموضوعين هو 'فصل أخير' من بحث اقتصادي معين حيث ينبغي إدراج كل أسبابهما المحتملة. إن هذا الرأي ينطوي على أكثر مما يبدو عليه لأول وهلة - وأميل للاعتقاد بأن مارشال كان سيوافق على هذا القول - مع أن عمل جوغلار يكفي لكشف عدم كفايته. إذ يأخذ هذا الرأي بعين الاعتبار، ولو بصورة مبالغ فيها، الحقيقة التي غالبًا ما يهملها 'المنظرون' المتوهجون، وهي أن كل دورة هي دورة تاريخية فردية إلى حد ما وأن تشكيلة فريدة من الظروف يجب أن تدخل إلى حد بعيد في تحليل كل حالة معينة. وعلاوة على ذلك، فإن هذا الرأي يصدّ بشكل فعال كل التفسيرات القائمة على عامل واحد التي لا تستند على شيء سوى نفور أصحاب هذه التفسيرات من العوامل الأخرى - كالتفسيرات القائمة على الادخار أو الاستغلال. أخيرًا، يشجع هذا الرأي على الدرس المستفيع للآليات الفردية التي

=وأعراف الأفراد [المؤسسات] التي تشكل الاقتصاد النقدي ... (L. K. Frank 'A Theory of Business Cycles,' Quarterly Journal of Economics, August 1923).

(٨٣٥) انظر عمل بيجو: (Industrial Fluctuations (1927) وعمل هارود Harrod: Trade Cycle (1936)). ومع ذلك، فلإنصاف كلا الكاتبين، ينبغي إضافة أن مساهماتهما الخاصة في فهمنا للظواهر الاقتصادية هي مساهمات مستقلة عن ولعهما بتلك النظرية وإن هذا الوبع لا يضعفها إلا قليلًا. أما في إنجلترا، فإن البروفيسور روبرستون Roberston هو أبرز نصير لتلك الرؤية.

(٨٣٦) أنا واثق من ذلك ولكنني غير قادر على تقديم المرجع. وإذا أسعفتني الذاكرة، فإن بوهم-باورك قد أورد ذلك في استعراض ما. [يعتقد البروفيسور هابرلر، الذي قرأ مخطوطة هذا الكتاب، إن ج. شومبيتر كان يشير إلى استعراض بوهم-باورك لعمل إي. فون بيرغمان E. von Bergmann: Geschichte der nationalökonomischen Krisentheorien (1895) Zeitschrift für Volkswirtschaft, Socialpolitik und Verwaltung (vol. vii, 1898).

تحملنا إلى مسافة بعيدة من الدرب، وإنْ ليس إلى الدرب كله. ومع ذلك، فإن الجزء الأعظم مما تحقق على هذا الخط يعود إلى فترة ما بعد الحرب: فالأساليب الضرورية للتحليل كانت تتطور ببطء^(٨٣٧). [حول تطورات ما بعد الحرب هذه، انظر، أدناه، الجزء الخامس، الفصل الرابع: الديناميكا وبحث الدورة الاقتصادية].

بيد أن هذا كله -سوية مع ما سبق قوله في القسم الثامن- يثبت موضوعتنا القائلة إن أساسيات كل من المناهج وأسس التفسير التى تخدم تحليل الدورة الاقتصادية فى وقتنا الحاضر، إذا استثنينا التطويرات فى التقنية، تعود إلى ما قبل عام ١٩١٤- وهذه حالة غاية فى الأهمية من الاستمرارية فى التطور أو فى جنور الأفكار لأن الجهد الواعى كان يفكر على نحو آخر. وكان من الممكن 'موضوعيًا' حينذاك إنجاز تجميع synthesis مرضى تمامًا كان من شأنه أن لا يترك واقعة كبرى دون تفسير وأن يشكل أساسًا ممتازًا للبحث اللاحق. فلماذا لم تتم مثل هذه المحاولة؟ يبدو أن الجواب يكمن فى إن الإمكانية الموضوعية شىء وأن تحقيقها شىء آخر تمامًا: ليس بوسع تاريخ البحث، أكثر من أى تاريخ آخر، أن يهمل العنصر الشخصى. فنظرًا لوقوع الاقتصاديين فى فخ السجال الذى كان بائسًا فى الغالب، ولافتتان هؤلاء الاقتصاديين بأفكارهم وتأكيداتهم الخاصة، فقد نجحوا فى التباطؤ إلى حد الكفاية. ولكن أحدًا منهم لم ينهض للقيام بما كان سيكون حقًا أصعب عمل فذ من أعمال القيادة^(٨٣٨).

ونظرًا لعدم وجود أساس قط للنقد الذى اعتاد كثير منا على توجيهه ضد عمل تلك الفترة، فمن الضرورى أن نضيف أن الاقتصاديين لم يفشلوا فى تقديم تفسيرات للبطالة، وهى تفسيرات لم تكن بالتأكيد غير وافية على نحو واضح. فلو رجعنا مرة أخرى إلى المساهمات التى تم ذكرها وأنعمنا النظر فى مضامينها من ناحية البطالة، فإن القارئ يمكن أن يتأكد من هذا بسهولة. فكل أنواع البطالة: القطاعية والشاملة، التكنولوجية و'النقدية'، المؤقتة و'الدائمة'، كانت موجودة فى

(٨٣٧) ومع ذلك، فقد استفاد عدة كتاب الفترة محل الدرس من مبدأ 'التعجيل' (انظر: هايرلر، مصدر سابق، ص ٥، وما بعدها). وكانت هناك مساهمات أخرى بشرت بتطورات لاحقة، رغم عدم الانتباه إلى تلك المساهمات. إن 'دورة التخمّة' مثلًا hog cycle تم اكتشافها من قبل س. بينر S. Benner فى وقت مبكر يعود إلى العام ١٨٧٦ (Benner's Prophecies of Future Ups and Downs in Prices).

(٨٣٨) فى فترة ما بعد الحرب، ربما كان يجوز (المصدر السابق) الأقرب من إنجاز ذلك العمل الفذ.

اللوحة التي كان يمكن أن يقدمها تأليف متوازن balanced synthesis - وقد كانت هناك حتى أخطائنا. وأن التهمة التي تقول إن اقتصادي تلك الفترة تخلصوا من كل أنواع البطالة على أساس أنها مجرد بطالة احتكاكية frictional لا تصح إلا حينما نتبنى تعريفاً واسعاً جداً للاحتكاك بحيث تصبح التهمة كلاماً زائفاً^(٨٣٩).

ولكن ثمة تهمة أخرى تقف بوجه الغالبية العظمى من اقتصادي تلك الفترة، لو صح أن نسميها تهمة ما، وهي تتعلق بالوضع التحليلي الذي كان يعمل هؤلاء الاقتصاديون في إطاره: فمع بضع استثناءات يعتبر ماركس أكثرها تأثيراً، فأنهم عاملوا الدورات الاقتصادية كظاهرة مفروضة على المسير العادي للحياة الرأسمالية وكحالة مَرَضِيَّة على الأغلب؛ إذ لم يخطر ببالهم أن ينظروا إلى الدورات الاقتصادية كمادة يمكن استخدامها لبناء النظرية الاقتصادية للواقع الرأسمالي^(٨٤٠).

(٨٣٩) يمكن أن يتسنى الدفاع أكثر عن تلك التهمة عند إعادة صياغتها بحيث تعنى، دون إنكار البطالة كشيء واقع، إن محلي تلك الفترة عاملوا التشغيل الكامل 'كمعيار' norm كان النظام 'يميل إليه' باستمرار. فلو قصدنا بمصطلح 'norm' صفة معينة في المخطط المنطقي للتوازن التام في ظل المناقشة التامة، فإن التهمة تسقط لأن من الممكن إثبات أن البطالة الإجبارية لا يمكن أن توجد حقاً في إطار ذلك المخطط المنطقي. وإذا قصدنا بذلك المصطلح صفة معينة من الواقع، أى ميل النظام الرأسمالي، كما هو شأنه بالفعل، للاقتراب من التشغيل الكامل، فيصح عندئذ القول إن الاقتصاديين من نوع فالراس-مارشال كانوا يعون بدرجة غير كافية الشروط التي يمكن تأكيد خضوع مثل هذا الميل لها. ومع ذلك، فإن التهمة لا تعنى أكثر من هذا.

(٨٤٠) [وهذا هو طبعاً ما حاول ج. شومبيتر أن يفعله في عمله التذكاري الفخم: Business Cycle: a (theoretical, Historical and Statistical Analysis of the Capitalist Process (2 vols., 1939) كما حاول شومبيتر أن يفعله قبل ذلك بكثير في عمله: Theorie der wirtschaftlichen Entwicklung (1912 ; 2nd rev. ed. 1926 ; English trans. Theory of Economic Development, 1934)].

الجزء الخامس

الخاتمة

مسودة حول التطورات الحديثة

الفصل الأول المدخل والخطة

- ١- خطة الجزء
- ٢- تقدم الاقتصاد النظرى خلال السنوات الخمس والعشرين الأخيرة
(أ) محاضرة تمهيدية حول نطاق المقرر الدراسى
(ب) نظام مارشال- فيكسل وتطوره
(ج) الديناميكا الاقتصادية
(د) تحليل الدخل
(هـ) خلاصة المقرر الدراسى
- ٣- خلفية وأنماط

١- خطة الجزء

ها نحن نغيّر قواعد عملنا مرة أخرى. فالاستعراضات التى قُدمت فى الأجزاء الثلاثة السابقة لم تكن كاملة حقًا. بيد أنها، رغم عدم اكتمالها، سعت إلى تقديم لوحات شاملة بكل معنى الكلمة. وبقدر تعلق الأمر بالاقتصاد العلمى بالمعنى المعتاد، فلم يتم إهمال أى كاتب أو عمل أو حركة مهمة- بشكل مقصود على الأقل- وقد فعلت ما كان بوسعى فى حدود هذا الكتاب لتناول الإطار والقضايا الجديدة الأكثر أهمية. وفى هذا الجزء، سنكف عن الأخذ بهذه الخطة. وبمعنى ما، فإن دراستنا تنتهى، عند سفوح جبل مارشال- فيكسل، مع إلقاء النظرة الأخيرة على الوضع الكلاسيكى الناشئ حوالى العام ١٩٠٠. وإذا كنا نواصل البحث أصلاً، فإنما نفعل هذا لغرض مختلف، ومحدد جداً. إذ يبدو أن من المرغوب، أولاً، أن نبين كيف تبنى عمل تلك الفترة فى وقتنا الحاضر^(١)؛ ثانياً، أن نبين بعض الدروب

(١) كان ج. شومبيتر، بدراسة كبيرة، قد فعل ذلك من قبل فى الجزء الرابع. إذ نتذكر ما كتبه حينما رسم خطة الجزء الأول من هذا الكتاب: 'يقدم الجزء الرابع تقريراً بمصائر الاقتصاد التحليلى أو العلمى=

التي تفرعت عنه وتجاوزته؛ وثالثاً، أن نحاول تشخيص والتنبؤ بنتائج الجهود المتزامنة. بيد أن هذا، في أفضل الأحوال، لا يتيح سوى نظرة عامة على بضع أبعاد عامة فقط، مع إهمال كل التفاصيل وكل القضايا البعيدة. وعلاوة على ذلك، فإن هذه النظرة لابد من أن تكون انتقائية إلى حد بعيد.

وليس بوسعى حتى تحديد ما أنوى إهماله. ولكننى سأوضح هذا من خلال كاتنين: غوتل Gottl وشبان Spann. إن رسائل هذين الكاتنين، المختلفة كثيراً كما هو واضح حقاً من الأدب المهم الذى قدّمه أتباعهما، كانت قد شكّلت عقول ناس كثيرين. وبهذا المعنى، فهذان الكاتبان قد يكونا أهم من أى كاتنين آخرين من التقنيين المتصلعين بالنظرية الاقتصادية. ولكنهما ليسا مهمين بالنسبة لنا. فنحن نهتم بالكتاب التقنيين^(٢). فمن يكتب تاريخ التكنولوجيا الزراعية، مثلاً، لا يثبت بذلك أنه يعتقد أن ذلك التاريخ أكثر أهمية من تاريخ الدين. إلا أنه بقدر ما إذا كان هذان الكاتبان - أو أى كاتب آخر من نفس النوع - قد حاولا بالفعل القيام بعمل تحليلي، بالمعنى الذى يأخذ به هذا الكتاب، فإن فشلنا بالاهتمام بهما يحمل مضامين يمكن لهما أو لأنصارهما أن يعترضوا عليها. فهل هذا مفهوم تماماً؟

[لم يكمل ج. شومبيتر قط هذا المدخل إلى: الخاتمة Conclusion أو أن يكون قد غطى بعض الموضوعات التى عزم على تغطيتها. وبدلاً من المدخل الذى كان سيكتبه، فإن القسم القادم ينطوى على خلاصة من خمس محاضرات جرى تلخيصها فى الوقت نفسه الذى عزم فيه شومبيتر على كتابة الجزء الخامس والفصلين أو الفصول الثلاثة الأخيرة من الجزء الرابع التى قد تلخص ما كان يعتبره شومبيتر الخطوط الرئيسية للتقدم فى الفترة الأخيرة.

فما عزم شومبيتر على تغطيته فى الخاتمة Conclusion (إضافة إلى الفصول ٢، ٣، ٤ و ٥، أدناه) لا يمكن تقديره إلا وفقاً للصفحتين من الملاحظات المختصرة (التي كُتِبَ معظمها بخط يد يُذهب العقل) التى تم إعادة تقديمها فى

=منذ نهاية الفترة 'الكلاسيكية' حتى الحرب العالمية الأولى، مع أن تاريخ بعض القضايا سيُمدّد (لغرض الملائمة) حتى وقتنا الحاضر. فالجزء الخامس هو مجرد خلاصة بالتطورات الحديثة بعد أن تم تخفيف العبء عنه بدرس التنبؤات فى الجزء الرابع، التى ذكرت تَوّاً، والخاصة بتلك التطورات، وأن هذا الجزء لا يهدف إلى أكثر من مساعدة القارئ على فهم ارتباط العمل الحديث بالعمل المنجز فى الماضى.^[١]

(٢) technicians بمعنى أصحاب أساليب أو مناهج أو طرق methods.

الملحق. ومن بين 'الأشياء التي ما تزال مفقودة كلياً في (الجزء) الخامس'، أدرج شومبيتر:

Morgenstern and von Neumann, Theory of Games and Economic (١)
Behaviour (1944).

Leontief 's Linear Programming (٢)

(٣) تحليل الدخل - المحاسبة الاجتماعية

(٤)... تشنيري Chenery (دوال الإنتاج الهندسية...) فريش Frisch

(٥) (عدة سطور تضم ملاحظات مكتوبة باليد)

ويتضح من الفقرة الثانية من القسم الثالث (من هذا الفصل) إن شومبيتر كان يعترم التعليق على 'الثروة غير المعهودة في الوقائع الإحصائية' وحول القياس الاقتصادي: 'العلاقة الجديدة بين النظرية الاقتصادية والطرق الإحصائية'.

٢- تقدم الاقتصاد النظري خلال السنوات الخمس والعشرين الأخيرة^(٣)

(أ) محاضرة تمهيدية حول نطاق المقرر لقد قادت الحرب العالمية الأولى إلى تغير كامل في السياسات الاقتصادية، لكل الأمم، التي تواصلت منذ ذلك الحين. ويعود هذا، أولاً، إلى حقيقة أنه كان يتعين على كل الأمم أن تواجه مشاكل جديدة نجمت عن أوضاع سياسية واقتصادية لم تواجهها هذه الأمم من قبل قط. ولكن هذا التغير في السياسات يعود، أيضاً، إلى حقيقة أن الحرب كانت قد قلبت كلياً التوزيع القائم للقوى السياسية. وهكذا نلاحظ ليس فقط مشاكل جديدة وأوضاع جديدة بل مواقف جديدة منها أيضاً.

(٣) [قدّم ج. شومبيتر مقررًا تعليميًا من خمس محاضرات، في كانون ثان ١٩٤٨ في مدرسة الاقتصاد في جامعة ميكسكو، حول هذا الموضوع، يتطابق تقريبًا مع ما عزم ج. شومبيتر عليه في الجزء الخامس (المعروض، جزئيًا، في الجزء الرابع). وما يلي هو خلاصة موجزة لتلك المحاضرات كتبت كمقدمة للترجمة الأسبانية وتقدم هنا بدلًا من: المدخل والخطة التي لم تكتمل قط. وقد جرى نشر الخلاصة بكاملها رغم وجود تكرارات معينة؛ حيث تبين الإشارات في الأقواس المربعة [] الموضوعات التي تعالج في هذا الكتاب: تاريخ. وكانت هذه المحاضرات، بطبيعة الحال، معدة لجمهور متنوع، وهي بالضرورة عامة وأولية إلى حد ما.]

علم الاقتصاد والاقتصاد السياسى لقد واكب الاقتصاديون تغير الأزمنة، وثمة تغير مهم فى وجهات نظرهم حول القضايا العملية. إن المجموع الكلى لوجهات النظر هذه، سوية مع مخطط القيم الاجتماعية التى يشكل أساس وجهات النظر هذه، نسميه الاقتصاد السياسى Political Economy. وعليه، نقول إن اقتصاداً سياسياً جديداً كان قد برز عام ١٩١٨. ولكن مهما كانت أهمية وصف هذا الاقتصاد السياسى الجديد ودرس جذوره السوسيولوجية، فهذا الأمر ليس من مهمة هذا المقرر. فوجهات النظر الجديدة حول السياسة الاقتصادية لن يتم تناولها إلا بقدر صلتها بتطور الاقتصاد العلمى.

نقصد بالاقتصاد العلمى أو التحليلى Scientific or Analytical Economics، بالمقارنة مع الاقتصاد السياسى، ذلك الخزين من الوقائع والطرق التى نجم عنها بقصد تفسير ظواهر الحياة الاقتصادية. ومن الممكن توضيح الفرق بين هذا الاقتصاد التحليلى والاقتصاد السياسى من خلال المقارنة بالمواد التى تُدرس فى كلية طبية ما. فى كلية كهذه، ثمة أساتذة فى الجراحة، والطب الباطنى، وما شابه، ممن يدرسون الفن العلمى لمعالجة المرضى. ولكن هناك أيضاً أساتذة فى الكيمياء، والفلسفة، والأحياء، ممن يدرسون الأسس العلمية لذلك الفن وليس ذلك الفن نفسه. ونحن نهتم بالمواد التى هى من هذا النوع الأخير.

علم الاقتصاد والنظرية الاقتصادية سنضيق أكثر بعد من موضوعنا. فالنقد الأهم الذى حدث فى الاقتصاد العلمى قد يتمثل بالزيادة الهائلة فى سيطرتنا على الوقائع. فقد تجاوزت الزيادة فى أنواع المعلومات المتعلقة بالوقائع أكبر أحلام الأجيال السابقة، ولكن وقتنا الحاضر يتميز بشكل خاص بزيادة فى المعلومات الإحصائية كانت كبيرة جداً إلى حد أنها فتحت إمكانات جديدة تماماً للبحث العلمى. وإلى جانب هذه الزيادة فى المادة الإحصائية، ثمة زيادة على نفس القدر من الأهمية فى الطرق الإحصائية. ولكن سنهمل كل هذا ونركز اهتمامنا على التطورات فى ذلك الحقل الذى يحمل اسم: النظرية الاقتصادية Economic Theory.

ما يزال ثمة سوء فهم كثير جداً يسود حول طبيعة واستعمال ومحدودية النظرية الاقتصادية بحيث إن من الضرورى توضيح مفهومنا لها. فقد كان هناك زمن كانت فيه النظرية الاقتصادية تعنى بالضبط ما أسميته الاقتصاد السياسى توما. إذ كانت هناك نظريات 'لبرالية'، و'اشتراكية' و'ميركانتيلية'، وإن كل هذه

النظريات كانت، إلى هذا الحد أو ذاك، تعنى المذاهب السياسية أو، على الأقل، التوصيات العملية. وهذه ليست وجهة النظر الحديثة. فالاقتصاد الحديث يعتبر النظرية كمجرد أداة للبحث. إن طابع الأداة هذا الذى تحمله النظرية الاقتصادية ستوضحه أمثلة معينة تفسر أيضاً العلاقة التى توجد، رغم ذلك، بين النظرية الاقتصادية والسياسة الاقتصادية.

وبالضبط لأن النظرية الاقتصادية هى مجرد أداة للبحث، فإنها لا تستطيع خلق نتائج محددة دون الوقائع التى يقدمها الإحصاء أو الوصف غير-الإحصائي. وقد أدرك الاقتصاديون الأسباب هذا الأمر خلال القرنين السادس عشر والسابع عشر. ولكن التحالف بين الإحصاء والاقتصاد النظرى لم يكتمل قبل ظهور القياس الاقتصادى الحديث modern Econometrics.

الخطوط الرئيسية للتقدم فى إطار النظرية الاقتصادية إن الطريقة الأكثر وضوحاً لتقدم العلوم هى المنطلقات الجديدة departures، أى اكتشاف وقائع جديدة، أو جوانب جديدة من الوقائع القديمة، أو علاقات جديدة بين الوقائع. ستقدم ثمة أمثلة من تاريخ الطبيعة والاقتصاد. ولكن ثمة طريقة أخرى. فحينما نستعمل المفاهيم والموضوعات التى نتوارثها من سابقينا، فإن هذه المفاهيم والموضوعات- التى نسميها الجهاز التحليلى لعلم ما- تتغير على أيدينا. وإذ نضيف هنا ونصحح هناك، فإن الجهاز يتطور ببطء إلى جهاز آخر مختلف. وإن مهمتنا الأولى هى أن نبين كيف أنه، بين عام ١٨٩٠ وعام ١٩١٤ تقريباً، قد تعزز نظام معين من النظرية الاقتصادية وكيف شكّل هذا النظام أساساً للعمل اللاحق الذى ابتدأ فى عشرينيات القرن العشرين وحوّله دون أن يقصد ذلك [الجزء الخامس، الفصل الثانى، من هذا الكتاب: تاريخ]. وسنرى عندئذ كيف تطور جهاز تحليلى جديد يعرف باسم الديناميكا الاقتصادية [الجزء الخامس، الفصل الرابع، من هذا التاريخ]. كما سندرس أيضاً منطلقاً آخر يرتبط باسم اللورد كينز بشكل رئيسى [الجزء الخامس، الفصل الخامس]. وأخيراً، سنقوم بتلخيص ما تم إنجازه وما يمكن توقعه فى المستقبل القريب.

(ب) نظام مارشال-فيكسل وتطوره إن الاقتصاد العلمى قد عثر على شكله النظامى فى القرن الثامن عشر (فى أعمال بيكاريا Beccaria، وآ. سميث، وتورغو Turgot)، وبعد 'ثورات' مختلفة، فى عمل ج. س. ميل: Principles of Political

Economy. وقد تم تثوير هذا النظام بدوره عن طريق إدخال مبدأ المنفعة الحدية (جيفونس Jevons، ومنجر Menger، وفالراس Walras). ولكن عملية تعزيز أخرى قد حدثت بين عام ١٨٩٠ وعام ١٩١٤ حينما ظهر نظام نظرى للجهاز تجسده أعمال مارشال وفيكسل الأساسية. سنخصص بضع دقائق لوصف الخصائص البارزة من هذا النظام ومدى قبوله من قبل المنظرين المهنيين فى مختلف البلدان (الجزء الرابع من هذا الكتاب: تاريخ). ثم نمضى لمناقشة الخطوط الرئيسية للتقدم، التى انطلقت من هذا النظام.

نظرية المنشأة الفردية والمنافسة الاحتكارية لم يهمل مارشال أو فيكسل مهمة تحليل سلوك المنشآت الفردية. ولكن موضوعاتهما، إلا فى حالة الاحتكار، كانت تشير فى الغالب إلى مجموعة كاملة من المنشآت (صناعة) أو حتى إلى كل نظام الاقتصاد الاجتماعى. إذ يندر أن أدرك مارشال وفيكسل أن من الضروري بدقة أكثر دراسة سلوك الوحدات الفردية التى تجتمع لإنتاج الظواهر التى تربطها نحن بصناعة معينة أو الاقتصاد الاجتماعى. وعند تحليل هذا السلوك، اكتشف المنظرون حالاً أن حالة المنافسة التامة أو الحرة هى استثناء نادر أكثر مما هى قاعدة، وأن النظام الاقتصادى، وبخاصة فى حالات هبوط التكلفة المتوسطة، لا يعمل كما كان يمكن أن يعمل فى ظل المنافسة التامة أو البحتة. وقد ترتب على هذا كيان جديد من الموضوعات: نظرية المنافسة غير التامة (روبنسون Robinson) والمنافسة الاحتكارية (جامبرلن Chamberlin) التى سيتم وصف خصائصها الرئيسية بشكل موجز [الجزء الخامس، الفصل الثانى، من هذا الكتاب: تاريخ].

تشكيلات السواء رغم احتجاجات باريتو وغيره، فقد استخدم المنظرون من جيل مارشال وفيكسل مفهوم المنفعة الحدية بصورة عمياء. وقد نبذ هذا المفهوم بسرعة خلال عشرينيات وثلاثينيات القرن العشرين لصالح طريقة 'منحنيات السواء'. سوف نناقش باختصار سبب هذا ومزايا طريقة منحنيات السواء (انظر: Hicks, Value and Capital, 2nd ed., 1946) [الجزء الرابع، الفصل السابع، القسم الثامن، وملحق الفصل السابع، وكذلك الجزء الخامس، الفصل الثانى]. إن نتائج تمرير نظرية المنفعة الحدية القديمة إلى اقتصاد الرفاه لا يمكن أن نتناولها إلا بشكل روتينى [الجزء الرابع، الفصل السابع، الملحق: ملاحظة حول نظرية المنفعة].

تطويرات أخرى فى جهاز مارشال-فيكسل ومع تزايد الصرامة العلمية، وبخاصة مع تزايد استخدام الرياضيات فى النظرية الاقتصادية، تمكن المنظرون، فى السنوات الخمس والعشرين الأخيرة، من تطوير العديد من مذاهب مارشال وفيكسل ومن تصحيح مذاهب أخرى. إن نظرية الإحلال هى مثال على هذه التطويرات التى خلقت مفهوم مرونة الإحلال. إن أهمية هذا المفهوم تكمن فى أنه يضع، بوضع سطور، مشاكل كثيرة كانت تتطلب صفحات وحتى مجلدات فى الماضى (كمشكلة تأثير إدخال المكائن على مصالح العمل). أما التصحيحات، فقد طبقت بشكل رئيسى على نظرية الإنتاج القديمة عبر تحليل أدق لخصائص دوال الإنتاج [الجزء الرابع، الفصل السابع، القسم الثامن].

(ج) الديناميكا الاقتصادية نسمي علاقة ما علاقة ستاتيكية حينما تربط هذه العلاقة كميات اقتصادية تشير إلى نفس اللحظة من الزمن. وهكذا، فإذا تم اعتبار الكمية من سلعة ما، التى ستطاب عند لحظة زمنية معينة (t)، تعتمد على سعر هذه السلعة فى نفس النقطة الزمنية (t)، فهذه علاقة ستاتيكية. ونسمي علاقة ما علاقة ديناميكية حينما تربط كميات اقتصادية تشير إلى نقاط زمنية مختلفة. وهكذا، فإذا كانت الكمية من سلعة ما، التى تعرض عند نقطة زمنية معينة (t) تعتمد على السعر الذى ساد فى النقطة الزمنية ($t - 1$)، فهذه فرضية ديناميكية. إن هذه التعريفات لمصطلحات 'ستاتيكي' و'ديناميكي' ينبغى تمييزها بدقة عن مصطلحات أخرى قد جرى استعمالها وأنها ما تزال تستعمل أحياناً. وكان نظام مارشال-فيكسل ستاتيكيًا أساساً.

أهمية نظرية ديناميكية ما: إن ضرورة تطوير نظرية ديناميكية معينة تستند على ثلاثة وقائع. (١) من الواضح أن معظم الكميات المطلوبة والمعروضة، من كل من السلع النهائية وعوامل الإنتاج، إضافة إلى الأسعار والدخول، هى كميات ترتبط فى الواقع بكميات اقتصادية أخرى تعود ليس إلى نفس النقطة الزمنية بل إلى الماضى أو إلى المستقبل المتوقع. فمن الواضح، بشكل خاص أن المحكرين لا يريدون تعظيم أرباحهم حالاً بل لفترة قادمة من الزمن. (٢) ليس من الواضح إلى هذا الحد ولكن من الصحيح، رغم ذلك، إن هذا الأمر يحدث اختلافاً كبيراً فى النتائج. فإذا أسقطنا الفرضية القائلة إن كل عنصر فى الاقتصاد يعتمد فقط على العناصر الأخرى من نفس النقطة الزمنية، فإن نتائج مختلفة تماماً وظواهر جديدة

تماماً تظهر مثل ظاهرة التقلبات الناشئة عن عوامل داخلية endogenous fluctuations. (٣)، أخيراً، إن تطوير نظرية ديناميكية هي مهمة صعبة جداً ولا يمكن إنجازها بمجرد إضافة خصائص ديناميكية إلى النظرية الستاتيكية. فهي تتطلب أساليب جديدة وتثير مشاكل جوهرية خاصة بها. وتشكل نظرية معادلات الفرق theory of difference equations مثالاً على الأساليب الجديدة المطلوبة. ويشكل التوازن الاقتصادي مثالاً على المشاكل الجوهرية الجديدة، والذي يظهر في ضوء جديد حينما يُعالج من زاوية ديناميكية.

مثال توضيحي: مشكلة شبكة العنكبوت حينما يلاحظ المزارعون العلاقة الجارية بين أسعار الخنزير والعلف مثلاً، فهم يقررون إنتاج خنازير أكثر أو أقل وذلك تبعاً لما إذا كان إنتاج الخنازير يعود أم لا بالربح عند هذه العلاقة الجارية بين أسعار الخنزير والعلف. ولكن هذا القرار لن يحدث أثره قبل مرور فترة من الزمن. وحينذاك، فإن العرض الناتج من الخنازير سيؤثر على السوق ويغير العلاقة القائمة مسبقاً بين أسعار الخنازير والعلف. وهذا ما يحفز المزارعين على اتخاذ قرار جديد، وهكذا. ستنم مناقشة 'مشكلة شبكة العنكبوت' هذه cobweb problem أو 'دورة الخنزير' hog cycle من خلال مخطط بسيط، في ظل فروض تبسيطية. إن هذه المشكلة تشابه مشكلة ما يسمى 'بدورة بناء السفن' التي درسها تيرجن (Weltwirtschaftliches Archiv, 1931) [إن كل المشاكل الواردة في هذه المحاضرة حول: الديناميكا الاقتصادية تُعالج في الجزء الخامس، الفصل الرابع، من هذا الكتاب: تاريخ].

(د) تحليل الدخل ثمة مصلحة علمية قوية في تخفيض عدد المتغيرات الاقتصادية التي نتعامل معها. فلو حاولنا تدوين المعادلات التي تحدد التوازن الستاتيكي لملايين المنشآت والأسر، فإننا لن نستطع إكمال مهمتنا قط. وبشكل خاص، فإننا لن نتمكن من تطوير علم الإحصاء الذي من شأنه أن يشكل المكمّل الضروري لنظام كهذا. وهذا يطرح فكرة تخفيض عدد المتغيرات إلى بضع مجاميع اجتماعية كبيرة. وهذه الفكرة قديمة جداً. فقد حاول الاقتصاديون منذ البداية التفكير من خلال الدخل القومي، والمجموع الكلي القومي من الأجور، وما شابه. ولكن لم يؤخذ بهذه الفكرة بصورة نظامية إلا في السنوات الخمس والعشرين سنة الأخيرة. ومن الواضح، إننا لا بد أن نكون في وضع أفضل لتطبيق النظرية على

الإحصاء والإحصاء على النظرية لو استطعنا، لبعض الأغراض أو كلها، الاقتصاد على متغيرات معينة كالدخل القومى، والاستهلاك والاستثمار القوميين، وكمية النقود، والتشغيل ومعدلات الفائدة. ويسمى التحليل الذى يحاول أن يفعل هذا التحليل الكلى Macroanalysis (ر. فريش R. Frisch). ولأن الدخل القومى هو المتغير المركزى الذى نهتم به بشكل خاص، فإن هذا التحليل يسمى أيضاً تحليل الدخل Income Analysis.

النظرية الكينزية يمثل النظام الستاتيكي المرتبط باسم اللورد كينز النظام الأكثر نجاحاً بين كل الأنظمة النظرية التى ألهمتها هذه الرغبة بتبسيط بنية النظرية الاقتصادية. ثمة أنظمة أخرى تم بنائها من قبل، مثلاً، أموروسو Amoroso، فريش، وكاليسكى Kalecki، وبيجو، وتينبرجن Tinbergen وفرنسى Vinci. لقد استعمل اللورد كينز أربعة متغيرات فقط بصورة صريحة: كمية النقود (الودائع)، والاستهلاك، والاستثمار ومعدلات الفائدة. ويستعمل كينز متغير الدخل أيضاً ولكن هذا الأخير يتطابق ببساطة مع الاستهلاك زائداً الاستثمار. كما جرى استبدال مفهوم مستوى السعر باستعمال مفهوم 'وحدات-أجر' أو ساعات عمل وذلك للتعبير عن كل الكميات. وقد تم ربط التشغيل بالدخل على أساس فرضية إن التشغيل يتناسب بشكل صارم مع الدخل معبراً عنه بوحدات الأجر. وقد تم تحقيق الارتباط بين هذه المتغيرات بواسطة علاقات ثلاث: دالة تفضيل السيولة؛ دالة الاستهلاك (التي تتضمن مفهوم 'المضاعف' الشهير)؛ ودالة الاستثمار، وهى علاقات سنقوم بتفسيرها كلها بشكل مختصر.

مناقشة النظرية الكينزية قدم كينز نظريته كنظام كلى ستاتيكي. ولكن من الممكن تحويلها إلى نظام كلى ديناميكي دون صعوبة كبيرة. إن الأمر الخطير هو إن كينز قد افترض ليس فقط ثبات طرق الإنتاج بل إن كمية المعدات الصناعية لا تتغير أيضاً. وهذا يُحد من تحليله ويختزله إلى فترات قصيرة جداً (٣-١٠ شهور). وعلاوة على ذلك، فلما كان التغير التكنولوجى هو جوهر العملية الرأسمالية ومصدر معظم مشاكلها، فإن هذه الفرضية تستبعد الخصائص البارزة من الواقع الرأسمالى.

إن الشيء الجديد فى نظرية الادخار لدى كينز هو ما يلى. قبل كينز، اعتاد الاقتصاديون على الافتراض بأن المدخرين يستثمرون عادة أى مبلغ يقومون

بادخاره. أما كينز، فقد افترض بأن الأفراد يدخرون دون أن تكون لديهم نية بالاستثمار، وأنهم، عندما يكونوا قد ادخروا، يمكنهم أن لا يقرروا الاستثمار بتأناً ولكن الاحتفاظ بمدخراتهم فى صورة نقود (General Theory of Employment, Money and Interest, 1936, p. 165-166). وعلى هذا فقط تقوم المعالم الخاصة لنظرية الفائدة لدى كينز. ولكن الادخار دون استثمار لا يحدث إلا فى حالات الكساد العميقة، أى فى سنة واحدة بين عشر سنوات فى متوسط المدى البعيد. إن مفهوم الكفاية الحدية لرأس المال لا يشابه المفهوم القديم - الإنتاجية الحدية لرأس المال، ولكنه يعبر عن الوقائع نفسها من حيث الجوهر.

إن نظرية الأجر لدى كينز هى نظرية مهمة لأنها، كما يبدو، تقدم تفسيراً للبطالة الدائمة بالمقارنة مع البطالة الدورية. ولكن هذه النظرية لا تفعل هذا إلا استناداً على الفرضية القائلة إن معدلات الأجر النقدية تتميز بالجمود. بيد أن أحدًا لم ينكر قط أن البطالة يمكن أن تستمر إلى ما لا نهاية فى هذه الحالة.

نجاح النظرية الكينزية رأينا أن كينز يقبل، أساساً، الجهاز المارشالى للنظرية الاقتصادية وأنه لم يكتفه إلا فى عدد من النقاط. ولكن هذه النقاط كانت مهمة جداً لتفسير كساد الثلاثينيات وبالتالي فإنها اجتذبت الاهتمام عن حق. وعلاوة على ذلك، كان من السهل التمكن من نظامه البسيط ذى المتغيرات القليلة والتحكم به. ومع ذلك، فإن عوامل النجاح العلمى هذه ينبغي تمييزها عن العامل الأقوى لنجاحه السياسى. فقد بدا أن كينز يقدم حجة مفادها أن الادخار، وهو الفضيلة التى أثنى عليها غالبية الاقتصاديين البرجوازيين على الدوام منذ آ. سميث، هو نقيصة حقاً تشكل السبب ليس لتكوين رأس المال بل للبطالة وتدمير رأس المال. وقد اجتذب هذا رأى أفراداً أكثر كانوا، لأسباب أخرى، قد رفضوا الولاء لقيم المجتمع الرأسمالى وبالتالي جعل من المذهب الكينزى - بصورة منطقية غير كاملة - علماً للراديكالية الاقتصادية. [إن كل النقاط البارزة فى هذه المحاضرة حول: تحليل الدخل يجرى تطويرها فى الجزء الخامس، الفصل الخامس: كينز والاقتصاد الكلى الحديث].

(هـ) خلاصة المقرر من المستحيل التنبؤ بموقف الأجيال القادمة من العمل المنجز فى النظرية الاقتصادية من عام ١٩٢٠ إلى عام ١٩٤٥. إن بوسعنا أن نستعرض النقاط التى يتعين على الأجيال القادمة أن تحكم عليها ولكننا لا

نستطيع الحكم على قيمتها. ومع ذلك، فثمة شيء واحد لا بد من تذكره. إن النظرية الاقتصادية الخاصة بوقتنا الحاضر وبكل العهود القادمة لا يمكن أن تكون مثيرة بالنسبة للجمهور العريض مثلما كانت في الأزمنة الماضية حينما كانت هذه النظرية في متناول فهم أى فرد متعلم وحينما بدا أنها تثبت 'القوانين الأزلية' والقواعد العملية. فكل فرد يمكن أن يفهم آ. سميث. بيد أن فهم تفاضل المصفوفات والمعادلات الدالية لن يكون فى متناول غير المختصين. ويهتم كل فرد بمبدأ حرية التجارة أو الحماية. ولكن المختصين يهتمون بقضايا التحديد determinateness والاستقرار فقط.

التقدم فى التكنيك: إن الشيء الوحيد الذى يمكن تأكيده بثقة حول عمل الفترة، الذى قمنا بعرضه، هو إن نظرية عام ١٩٤٥ كانت أفضل من نظرية العام ١٩٠٠ من ناحية التقنية. فالنتائج يُعتمد عليها أكثر، والبراهين أدق. وهذا بذاته أيضاً يعنى نتائج أكثر ونتائج متخصصة أكثر تلائم بصورة أفضل التنوع الذى لا نهاية له فى أشكال الحياة الاقتصادية. وفى الوقت نفسه، ينبغى الاعتراف بأنه لم تكن هناك، كلياً تقريباً، أفكار جديدة من حيث الجوهر. لقد استخلصنا الكثير من الأفكار التى ورثناها من الفترة السابقة وقدمنا هذه الأفكار فى ضوء جديد فى الغالب، ولكننا لم نضيف إليها إلا قليلاً. وكمثال واضح: سنباش نظرية الدورة الاقتصادية باختصار لنبين أن كل الأفكار الجوهرية تم تطويرها قبل عام ١٩١٤ [الجزء الخامس، الفصل الرابع].

النظرية الاقتصادية فى خدمة السياسة الاقتصادية لم تعد النظرية الحديثة تُعنى بإظهار أن حرية التجارة هى السياسة الصحيحة لكل الأزمنة وكل البلدان. ولكن هذه النظرية تبيين، بأفضل بكثير مما كان بوسع سميث أو ميل أن يفعلاه، ماهية النتائج التى يتركها إجراء معين من إجراءات الحماية على مصالح كل طبقات المجتمع. ولم تعد النظرية الحديثة تعباً بإثبات أن المنافسة التامة هى حالة مثالية. ولكنها تستطيع أن تبيين النتائج التى تفوق إليها انحرافات معينة عن المنافسة. ولم تعد النظرية الحديثة توصى بالادخار تحت جميع الظروف. ولكنها تقدم للسياسة الاقتصادية وصفاً كاملاً بعمليات الادخار وبالتأثيرات التى تمارسها الأنواع المختلفة من الادخار على الوضع الاقتصادى لبلد ما. ويمكن تقديم أمثلة أخرى كثيرة لإظهار أن المنظرين المحدثين هم بصدد تطوير جهاز لم يعد بسيطاً حقاً

ولكنه، فى النهاية، يقدم للسياسة الاقتصادية نفس الخدمة التى تقدمها الفيزياء النظرية للهندسة.

التخطيط والاشتراكية يمكن تطبيق ما قيل تَوَّا على كل أنواع التخطيط الاقتصادى. إن النظرية الاقتصادية تطوّر ببطء الأدوات الفكرية الضرورية 'لترشيد' التخطيط وإبلاغ المخططين بما يترتب عليهم أن يفعلوه أو يتجنبوه للوصول إلى نتائج معينة معطاة. ولو عرفنا مجتمعاً اشتراكياً ما كمجتمع مخطط بصورة تامة، فيمكن لنا عندئذ أن نذهب أبعد ونقول إن النظرية الحديثة تبنى أسس اشتراكية 'علمية' حقاً [الجزء الرابع، الفصل السابع، القسم الخامس]. إن القول إن النظرية البحتة لا أهمية لها بالنسبة للممارسة هو قول غير معقول تماماً كالقول بأن الميكانيكا البحتة ليس لها أى أهمية بالنسبة لبناء الآلات التى نحتاجها. إن الأهداف نفسها، أى نوع المجتمع أو الثقافة التى نريدها ينبغى أن نختارها بأنفسنا. وليس بوسع أى علم يمكنه أن يقدم شيئاً غير توضيح الطرق التى يمكن بها تحقيق ما نسعى إليه.

٣- خلفية وأنماط^(٤)

تعود بدايات ما اعتقد أنها فترة جديدة فى تاريخ التحليل الاقتصادى إلى الحرب العالمية الأولى بصورة تقريبية جداً. ولكن هذه كانت مصادفة. فمن الناحية السببية، لم يكن لتلك الحرب أى صلة بالميول الجديدة التى كان يمكن ملاحظتها قبل عام ١٩١٤ حقاً. وبطبيعة الحال، كان الجمهور يتصور، كما يحدث دائماً فى كل حقبة تشهد أحداثاً مثيرة، إن الظواهر الاقتصادية التى كان يشاهدها كانت جديدة تماماً، وغير معهودة، وذات طبيعة تقلب الاقتصاد التحليلى تماماً. وكانت تجربة جديدة، بالنسبة لقسم من الناس، أن يكونوا فقراء بدلاً من أن يكونوا أغنياء ولقسم آخر أن يكونوا أغنياء بدلاً من أن يكونوا فقراء، ولقسم ثالث أن يشهدوا رجال الحكم يدافعون عن مصالحهم بدلاً من إهمالها وأن يشهد آخرون إن مصالحهم

(٤) [يبدو إن ج. شومبيتر كان ينوى أن يطرح هنا بإيجاز ما طرحه بالنسبة للفترة السابقة فى الجزء الرابع، الفصل الثانى.]

تتعرض للهجوم من قبل رجال الحكم بدلاً من أن يدافع هؤلاء عنها، كما تعودوا أن يشهدوا ذلك. ولكن أى واقعة أو عملية اقتصادية يمكن ملاحظتها أثناء تلك الحرب وآثارها لم تمتلك أى شيء جديد يمكن للاقتصادى العلمى أن يتعلمه. فالعمليات التضخمية بشكل خاص تم استيعابها بصورة جميلة ضمن أقدم المخططات القديمة. وليس من شأن هذا أن يثير الاستغراب. فالالاقتصاد علم غير مُرضى للغاية. وكان يمكن أن يكون غير مرضى أكثر مما هو عليه لو إن حدثاً كالحرب، مهما توسعت ودمّرت، كان كافياً لقلب تعاليمه.

إن الاستقلال الجوهرى، عن تأثيرات الحرب، للتطورات التى ولدت عهداً جديداً من التحليل الاقتصادى يمكن إثباته بسهولة من خلال تعداد هذه التطورات. فقد كانت هناك، أولاً، الثروة غير المعهودة فى الوقائع الإحصائية؛ وثانياً، نتائج جديدة انبثقت عن استعمال الجهاز القديم؛ وكان هناك، ثالثاً، التطور فى الديناميكا؛ ورابعاً، كانت هناك العلاقة الجديدة بين النظرية الاقتصادية والطرق الإحصائية (القياس الاقتصادى). إن هذه الجوانب الأربعة- التى يعتمد بعضها على بعض كما هو واضح- من العمل القائم حينذاك هى التى ستناقش فى الفصول التالية. أما بقية هذا الفصل، فتخصص لمناقشة قضية تتعلق 'بالمناخ'.

إن وقتنا الحاضر هو وقت انتقالى، ليس فقط بالمعنى الذى يكون فيه كل وقت انتقالياً بالضرورة، بل أيضاً بالمعنى الخاص الذى تحدده سرعة التغير الاجتماعى، ذى الطابع الجوهرى، الفعلى والموشك على الحدوث، وكذلك وجود إدراك وتوقع عام لهذا التغير. سينكر البعض هذا. ومن الملائم أن نشير حالاً إلى الطريقتين اللتين تؤثر بهما تلك الحقيقة على العمل العلمى فى حقنا.

إن الأشياء الأولى التى تخطر على بال معظمنا هى الأنماط الجديدة والمشاكل الجديدة. ولكن بقدر تعلق الأمر بهذه الأشياء، فإن إدراك المدى الذى لا نجد فيه سوى صحبتنا القدامى وهم فى زى سوسيولوجى جديد هو أكثر أهمية من إدراك المدى الذى نواجه فيه حقاً ظواهر علمية جديدة. فأولاً، يمكن أن نكرر بالنسبة للتاريخ الاقتصادى الحديث ما قيل توأ بالنسبة للتاريخ الاقتصادى للحرب العالمية الأولى. إذ إن الأنماط الاجتماعية، والسياسات الاقتصادية وغير الاقتصادية، والأوضاع الاقتصادية، هى أشياء جديدة تماماً، ولكن هذا بحد ذاته لا يفترض أن الأسس الاقتصادية الجديدة هى أما موحى بها من قبل هذه الأشياء أو

إنها ضرورية لفهم هذه الأخيرة. وهكذا فإن السياسات الأجنبية، الاقتصادية وغير الاقتصادية، التي تثير دهشة الفرد اللبرالي القديم الجيد كبداية جديدة، وتدهش المراقبين الأكثر حماساً كاككتشافات كبرى، كانت ستبدو عادية جداً بالنسبة لمالينيس Malynes وميسلندن Misselden، كما سبق أن رأينا. فعقد العمل لم يعد 'حرًا'. ولكن هذا العقد ليس فقط لم يكن حرًا قط إلا خلال مراحل قصيرة نسبياً، ولكنه أيضاً لا يعنى مشكلة جديدة بالنسبة للمحلل - فكل ما يتعين على هذا الأخير أن يفعله هو استخراج نموذج من صندوق أدواته. كما أن الريع السياسية - المبالغ المدفوعة، من الصناديق الاجتماعية، إلى جماعات خاصة دون أن تقابلها خدمة محددة - تمثل صفة بارزة في المجتمع الحديث؛ ولكنها لم تكن أقل أهمية في مجتمع لويس الخامس عشر: فواقعة أن المتلقين كانوا يحملون دلالات طبقية مختلفة إنما تمثل، بالنسبة لأغراض التحليل الاقتصادي البحث، أهمية أقل مما يمكن أن تبدو عليه. كما أن أنصار وخصوم السياسة الاقتصادية الجديدة New Deal قد اتفقوا على النظر إليها كسياسة جديدة. وهي كانت كذلك في أكثر من معنى. ولكن ليس بمفهومنا نحن. فعملياً، إن كل إجراء يغطيه ذلك الشعار كانت قد تمت ملاحظته وتحليله كلياً من قبل. وليس هذا كل شيء. فهناك حوادث ممكنة كان من شأنها أن تخلق أوضاعاً جديدة تاريخياً. وتشكل الاشتراكية المتطورة (غير-البلشفية) التي يتبنّاها المجتمع الصناعي الحديث مثلاً على ذلك. ولكن هذه الاشتراكية ما كانت ستطرح مشكلة جديدة بالنسبة للاقتصادي. فالنظرية المتعلقة باقتصاد اشتراكي معين تتوافر بشكل جاهز، إذ تم تطويرها كلياً من جانب، جزئياً، اقتصاديين برجوازيين بكل معنى الكلمة في وقت لم يكن فيه أمل أو خطر من إن توضع تلك الممارسة في النظرية البحثية في خدمة أغراض عملية قط. ومن هذه الناحية، كان الاقتصاديون في حال أفضل مما توحى به سمعتهم.

ومع ذلك، فثمة أنماط ومشاكل جديدة تحليلياً. ومن بين الأمثلة على ذلك، كان يمكنني أن أشير إلى: التخلي عن قاعدة الذهب 'going off gold'، تخفيض قيمة العملة devaluation، استخدام التخفيض كأداة للإدارة النقدية depreciation، السيطرة على الصرف exchange control، ومظاهر أخرى من الإدارة النقدية كأمثلة على إجراءات قدسها تقادم الزمن - إلا أنها لم 'تقدس' على الدوام وبالتالي كانت معروفة بأسماء تحط من شأنها. ولكن هذا صحيح من حيث الجوهر فقط،

وليس بصورة تامة. فنحن نبصر بالفعل جوانب أخرى منها لم نشاهدها من قبل، كما تعلمنا أن نفكر بها بطرق مختلفة. وعلاوة على ذلك، فإن النظرية تميل - عن قصد أحياناً، وعن غير قصد حتى أكثر - إلى أن تصبح متخصصة بينما يتطلع المنظرون لفترة طويلة، بموافقتهم الضمنية، إلى نفس النمط الاجتماعي والاقتصادي. وعندئذ، فإن صفاته تؤخذ ضمناً على أنها صحيحة، وتوضع فرضيات عدة لتستوعب حتى أقل هذه المظاهر دواماً. فإذا كانت المصارف المركزية بمثابة شُعَب خزانة من الناحية العملية؛ وإذا فقدت تقريباً المصارف الأخرى كل وظائفها باستثناء وظائف الدكاكين المتمثلة بتصرف الصكوك وشراء السندات الحكومية؛ وإذا كان المعدل السوقي للفائدة لا يعنى شيئاً ما دامت آليات سوق النقود والبورصة مشلولة تقريباً؛ وإذا كان دافع الربح لدى المشروع الصناعي يتلاشى بسرعة؛ وإذا كان المستخدمون الذين يستلمون الرواتب يديرون المنشآت الأهم؛ وإذا كفّ التوفير الخاص والاستثمار الخاص عن أداء دوره، وأن توليد الدخل عبر الإنفاق الحكومي يُنظر إليه كعنصر عادي من العملية الاقتصادية التي يمتص بها فرض الضرائب الدخل الأعلى؛ وهكذا - وعندئذ، فإن الأهمية النسبية للأجزاء المختلفة من الماكينة الرأسمالية تتأثر تأثيراً كاملاً (حيث إن أجزاء كثيرة لا تعمل قط، بينما يمكن عن حق إهمال الأجزاء الأخرى قبل أن تأخذ دوراً مهماً) بحيث تكتسب كل الحقول 'التطبيقية' طبيعة مختلفة تماماً. وسيعمد المنظرون إلى إعادة توزيع تشديدهم على النماذج المختلفة بحيث يصوغوا بعضها على نحو أكمل بينما ينحون جانباً نماذج أخرى. ولكن من المهم إدراك أن هذا هو كل شيء، وإنه، من زاوية طريقة التحليل، يعنى أقل مما يميل إلى تصويره الفرد العادي.

[غير مكتمل؛ ثمة ملاحظات كثيرة مكتوبة باليد ومن ثم جملة تبدأ: 'الطريقة الأخرى التي يؤثر بها وعى التغير الفعلى والموشك على الحدوث...']

الفصل الثانى

التطورات التى انطلقت من جهاز مارشال- فيكسل

- ١- النظرية الحديثة لسلوك المستهلك والنظرية 'الجديدة' للإنتاج
- ٢- نظرية المنشأة الفردية والمنافسة الاحتكارية

١- النظرية الحديثة لسلوك المستهلك والنظرية 'الجديدة' الإنتاج

تطورت النظرية الحديثة لسلوك المستهلك، كلياً تقريباً، خلال السنوات الخمس والعشرين الأخيرة،، بقدر تعلق الأمر بالمذهب الذى يستعمل ويُدرّس من قبل ذلك القطاع من المهنة الاقتصادية الذى يهتم أساساً بالنظرية بهذا المعنى. ولكن ما كان وما يزال يتطور إنما هى طرق ونتائج ترتبط بشكل رئيسى بعمل فيشر، وباريتو، وبارون Barone، وجونسون Johnson، وكذلك سلوتسكى Slutsky إذا فكرنا بإضافة مقالة ظلت غير معروفة عملياً لعقد أو أكثر بعد نشرها. وهذا يعنى أن الأفكار الجوهرية كانت قائمة قبل انتهاء الحرب العالمية الأولى ليس فقط فى صورة تلميحات جنينية، إذ إنها صُيغت أيضاً بأشكال تقع فى متناول أى منظر مهنى، كما ينبغى أن نقول، من قبل كتاب يتمتعون بشهرة عالمية أساساً. ولم ينقص هذه الأفكار سوى عمق أكثر، وأن يجرى توضيحها وتوسيعها وتطبيقها، وتشذيبها أحياناً. ولكن الجديد جوهرياً، الذى كان يتعين إضافته إليها، كان قليلاً. وهذا يشبه وضع صناعة السيارات: فرغم كل التحسينات وكل الأدوات الجديدة، فإن السيارة الحديثة ما تزال تمثل، إلى حد بعيد، نفس النوع الذى كان موجوداً عام ١٩١٤^(٥).

(٥) رغم اعتقائى بضرورة التشديد على هذه الحقيقة لأنها جوهرية تماماً لفهم الوضع القائم، فلا أحب أن يُساء فهمى. فقد يحدث سوء الفهم هذا، مثلاً، فى أى انطباع يمكن أن يكونه الناس بما معناه أن تلك الحقيقة تتضمن ازدياداً أما العمل المنجز فى وقتنا الحاضر أو الموهبة التى صُبت فيه: فقد يضاهى عالم ما فى الطبيعة، ممن يكتب العام ١٧٣٠، نيوتن فى منزلته الفكرية، ولكن كان من المستحيل 'موضوعياً' بالنسبة له أن يقدم عملاً يشبه عمل نيوتن: Principia Mathematica (1687): فقد كان يتعين عليه أن ينكب على مهام أسهل 'موضوعياً' و'ذاتياً'. وبالمثل، فليس ثمة انتقاص من فيشر أو ساملسون حينما يوضع عملهما فى صنف العمل الذى من شأنه إحكام أو مواصلة عمل معين. على=

ويصح هذا بالضبط على ما يمكن أن نسميها نظرية الإنتاج الجديدة، رغم ذلك. كما إن مفهوم مرونة الإحلال يوضح جيداً ليس فقط ما تم إنجازه بل أيضاً ما كان يمكن تحقيقه في هذا الحقل في ظل الظروف المعطاة^(٦).

إن المؤرخ، الذي كانت قد أعجبته ملاحظاته حول حوادث مشابهة في الماضي، ربما يتوقع أن فالراس كان سيضيع فرصته، أى إن عمله، بعد أن بات الزمن قادراً على فهمه أخيراً، كان سيُرمى في عالم النسيان الذي ترقد فيه الأعمال التي، إذ لم تُقدّر حق قدرها في زمانها ذاته، قد جرت إدانتها حينما جاء زمنها الحقيقي وذلك على أساس نواقص جهازها التقنية. بيد أن الأمر ليس كذلك، على أى حال. فالعمل حول سلوك المستهلك وحول الإنتاج، الذي يمكن موائمته مع نظام فالراس والذي قام بارييتو بموائمته جزئياً، قد قدّم نظاماً فالراسياً محدثاً، وليس منع فالراس من احتلال موقعه الحقيقي. وقد امتدت هذه العملية من عام ١٩٢٤، حينما جعل عمل البروفيسور بولي Mathematical Groundwork of Economics نظام فالراس حول التوازن في متناول العالم - عاملاً على تحديثه من نواح عدة بالفعل - إلى عام ١٩٣٩ حينما أكمل هذه المهمة عمل البروفيسور هيكس: Value and Capital أو جزاءه الأولان^(٧). وقد نجح هذا الكتاب بشكل

=العكس، فكلهما يوضحان جيداً أنواع الأصالة التي كانت ممكنة في حقل سلوك المستهلك في الوقت الذي كتب فيه: إذ قدّم كلا العملان أشياء جديدة ولكنها جديدة كجدة المحرك الأوتوماتيكي وليس محرك Otto { نسبة إلى Nicolaus August Otto 1832-1931 }.

(٦) للإطلاع على استعراض عام لطبيعة واستعمالات مفاهيم المرونة الكلية والجزئية للإحلال، انظر، مرة أخرى: 512 and 504, 372, 341-5, pp. Allen, Mathematical Analysis. فالمفهوم، الذي جرى إدخاله أولاً بشكله الأبسط من قبل هيكس (Theory of Wages, 1932) وجوان روبنسون (Economics of Imperfect Competition, 1933) قد وُضع حالاً في استعمالات جيدة من هذين الكاتبين عند صياغة الفرضيات التي تكتسب بذلك بساطة مريحة (انظر أيضاً، مثلاً: J. R. Hicks, 'Distribution and Economic Progress: A Revised Version,' Review of Economic Studies, October 1936). ولذلك، ولفترة من الزمن، أصبح المفهوم شعبياً عن حق، ولكن هذه الشعبية ضعفت حالاً لأن المفهوم لا يعود بسيطاً هكذا بمجرد أن تكون هناك أكثر من سلعتين أو 'عاملين' ولأنه يسرى بصعوبة حينما يُطبق على المعطيات الإحصائية. وأنا أشعر بالأسف لعدم قدرتي على عرض نتائج الأدب الواسع التي قاد إليها هذا المفهوم. ومع ذلك، انظر المناقشات في: Review of Economic Studies, February 1934 and February 1936. والمثال الآخر على هذا النوع من الأداة هو مقياس أ. ب. ليرنر A. B. Lerner للقوة الاحتكارية (The Concept of Monopoly and the Measurement of Monopoly Power,' Review of Economic Studies, June 1934) وحتى في هذين الجزأين، قام هيكس أكثر بكثير من تحديث فالراس. وإلى الحد الذي يصل إليه التحديث، فإنه قد قام بتحديث مارشال أيضاً. وأنا لا أقصد الإيحاء بأن 'التحديث' modernization يصف هذين الجزأين بصورة وافية. ومن الناحية الأخرى، فإن معالجة هيكس موجزة جداً بحيث لا =

خاص إلى حد ما في كشف مشاكل معينة لدى فالراس لم يكن يعيها حتى فالراس نفسه. ويتأثيره جزئياً، وبمعزل عنه في جزء آخر، فقد تدفق فيض غنى من المساهمات سأذكر منه 'بالأسماء فقط' أعمال لانجه Lange، ومتزلى Metzler، وموساك Mosak، وساملسون Samuelson - الذي لا نذكره في الآخر إلا وفقاً للترتيب الأبجدي. يتمحور كثير من هذا العمل أو معظمه حول قضايا التحديد determinateness وحول شروط الاستقرار stability وبالتالي فهو يشكل الجزء الأعظم من عمل وقتنا الحاضر في حقل النظرية الأساسية أو حتى Grundlagenforschung.

٢ - نظرية المنشأة الفردية والمنافسة الاحتكارية

وعلى أي حال، فما يحتل نفس القدر من الأهمية، وأهمية أكثر بكثير من ناحية التطبيق المباشر على القضايا العملية وبالتالي بالنسبة للمهنة الاقتصادية ككل، هو تطور آخر ينبع من مارشال موضوعياً - نظرية المنشأة الفردية، وبالارتباط معها، نظرية المنافسة الاحتكارية أو المنافسة غير التامة^(٨). يعرف الجميع أن هذه الذراع الجديدة من الماكينة التحليلية للاقتصاد كانت قد أضيفت بأشكال مختلفة من قبل كتاب إنجليز وأمريكان عملوا بشكل مستقل أحدهما عن الآخر - وهذا برهان مثير على الحاجة الفكرية، الأكثر حتى من الحاجة العملية،

=يستطيع تحديث فالراس ومارشال بصورة كاملة؛ ومن الأجدر أن يقال إنه قدّم مادة جوهرية لعملية التحديث.

(٨) في هذه الحالة، حتى أكثر مما في الحالات الأخرى، أنثلف لتجريد تشديدي على جذر تاريخي معين من أي إحياء بالازدراء. فهذا التشديد يبدو ملحقاً بسبب مجموعتين من الوقائع. أولاً، لقد تم اتهام مارشال أحياناً، بسبب كثرة استعماله مفهوم الصناعة الفردية (الصغيرة) الذي تشير إليه معظم أشكاله البيانية بشكل خاص، بإهمال اقتصاد المنشأة الفردية. ولكن كما أوضحنا سابقاً، ومثلما يمكن أن يثبتته تحليل حاجته (وتحليل مفاهيم معينة كالمسوق الخاصة بمنشأة معينة أو الوفورات الخارجية)، فإن مارشال، على العكس، كان قد أهتم على نحو غير عادي تماماً بمشاكل المنشأة الفردية وقدم تلميحات كانت تتطلب التطوير حقاً، ولكنها، لهذا السبب بالضبط، تجبرنا على أن ننظر إلى العمل اللاحق، وبخاصة عمل المارشاليين، كعمل متفرع من عمله. ثانياً، إن مفاهيم مارشال ومعالجته للصناعة الفردية وتزايد الغلة تشجع على النقد: فنواقصها كثيرة؛ وهي تنطبق بصوت مؤكد مفاده أن المهمة البناءة للناقد ستكون في محلها بالنسبة لمارشال.

لهذا النوع من النظرية، وهو مثال يوضح، بصورة لا تقل إثارة، كيف إن منطق الوضع العلمى يمكن أن يقود عقولاً مختلفة نحو خطوط متماثلة من التقدم^(٩). ففى الولايات المتحدة عام ١٩٣٣، برز فى ذهن البروفيسور إى. ه. تشامبرلين E. H. Chamberlin العمل: The Theory of Monopolistic Competition دون استئذان وهو مجهز تجهيزاً كاملاً^(١٠). وحقق هذا العمل نجاحاً مماثلاً يعود إلى قوة وألمعية عرض هذا المؤلف بقدر ما يعود إلى نضوج الوضع العلمى. وقد طالب هذا العمل بإعادة بناء كل نظرية القيمة عن طريق التأليف بين، أو دمج، نظريتين الاحتكار

(٩) إن هذا، زائداً حقيقة أننا يجب هنا أن نعمل ضمن حركة واسعة يشارك فيها كثيرون رغم أن قلة منهم فقط تصنع الأعمال الحاسمة التى يسجلها التاريخ، يبرز بشكل أكثر وضوحاً إذا أخذنا بالاعتبار أيضاً الأدب المرتبط به والخاص بأنماط احتكار القلة. ويمكننا أن نلاحظ حركة مماثلة فى دول الشمال (انظر بشكل خاص: F. Zeuthen, Mellem monopol og konkurrence, Nationaløkonomisk Tidsskrift, 1930 and Problems of Monopoly and Economic Welfare, 1932) وفى ألمانيا (انظر: von Stackelberg, Marktform und Gleichgewicht, 1934) الذى لاحظ وناقش معظم المساهمات الألمانية، إضافة إلى المساهمات غير الألمانية).

(١٠) كان الفصل الثامن (حول التوزيع)، الذى وردت محتوياته أولاً فى مقالة قدمت إلى الجمعية الاقتصادية الأمريكية (فى اجتماع فيلادلفيا ١٩٣٣) ونشر بعدئذ in extenso {بشكل موسع} فى: Explorations in Economics (على شرف ف. دبليو. تاوسك F. Taussig ١٩٣٦)، قد أضيف إلى الطبعة الثانية من الكتاب (١٩٣٧). والفصل السابع - وهو الفصل الثانى بشأن تكاليف البيع - كان قد حُذِف من رسالة الدكتوراه التى سُلِّمت إلى جامعة هارفارد الأول من نيسان ١٩٢٧ التزاماً بالفترة المحددة لتقديمها، مع إنه كان قد اكتمل حينذاك. لا تختلف الأطروحة، من حيث الأساسيات، عن الطبعة الأولى من الكتاب، ونظراً إلى إنها كانت فى طور التنقيح النهائى منذ عدة شهور سابقة، فهى لا تدين بأى شئ إلى مقالة سرافا Sraffa 'The Laws of Returns under Competitive Conditions' التى ظهرت فى: Economic Journal, December 1926. وكان المؤلف قد قدم الموضوع لرسالة الدكتوراه فى وقت مبكر يعود إلى عام ١٩٢١ حينما كان طالباً فى جامعة ميشيغان (من مراسلات المؤلف). ورغم التأثيرات غير المحسوسة التى قد تكون وردت من التعليم المارشالى المبكر، فنحن إزاء مثال مثير من الأصالة الذاتية والموضوعية - أصالة من النوع النظرى البحت الذى لا يدين بشئ إلى 'جمع الأدلة الوقائعية المباشرة'، مع أن توافر 'مبدأ مرشد' كان سيخلق بالتأكيد نظرية ما من شأنها أن تلائم الوقائع بصورة أفضل مما فهمها تشامبرلين على إنها نظرية المناقصة القائمة فى ذلك الوقت (مراسلات المؤلف). وفى هذه الحالة، يبدو أن من الملائم أن نهجر مبدأ الإيجاز الذى يحكم عرضنا، وبخاصة فى هذا الجزء، ليس فقط بسبب أهمية الكتاب - الذى يأتى بعد كتاب كينز: General Theory من حيث الأهمية وبمستوى أهمية كتاب هيكس: Value and Capital ومساهمة هايك Hayek - الذى ينبغى بالتأكيد اعتباره كأحد الكتب الأكثر نجاحاً فى الاقتصاد النظرى التى قدمت فى الفترة منذ عام ١٩١٨، ولكن أيضاً لأن مؤلفه، مثل معظم الكتاب الذين ورد ذكرهم فى هذا الكتاب، ليس بعيداً عن متناول الاتصال الشخصى. وإن الاتصال الشخصى، ولو بطريقة واحدة من بين طرق عدة لدرس أشكال التفكير البشرى وبخاصة الشكل الذى يظهر به العمل الأصيل ويُحدث أثره، تمثل طريقة مهمة ومفيدة بشكل خاص فى توفير اختبار بالنسبة للآخرين. ثمة ثلاثة عناصر واضحة بشكل خاص من الإنجاز العلمى فى هذه الحالة: نضوج الوضع العلمى؛ القدرة على فهم فكرة مهمة بقوة وحماس؛ القدرة على البقاء معها وإبعاد النفس عن المؤثرات المزعجة التى تأتى من أفكار أو جوانب علمية أخرى.

والمنافسة، المنفصلة عن بعضها لحد الآن. كما أنه لم يكتف بذلك. فقد طالب أيضاً بـ Weltanschauung {نظرة فردية} اقتصادية نتيج، من زاويتها، ظهور كل المشاكل الاقتصادية عملياً في ضوء جديد. ورغم ذلك، فإن المساهمات الأصلية الأهم في هذا العمل - التي ترد بشكل رئيسي في الفصول ٤-٧ المتعلقة بتتويج المنتج وتكاليف البيع - لم تقابل سوى باعتراض محدود جداً من حيث الجوهر، إن كان هناك أى شيء منه حقاً. ولكن إن أدباً شاملاً يدور حول توسيع وتطبيق هذه المساهمات قد جاء في أعقابها مباشرة.

وفي إنجلترا، فإن عمل السيدة جوان روبنسون: Joan Robinson, Economics of Imperfect Competition الذي ظهر عام ١٩٣٣ أيضاً، قد اصطدم بمهنة أقل استعداداً، وصادف، لهذا السبب وأسباب أخرى، نجاحاً أقل إثارة. فكما نعلم، كان بيرو سرافا Piero Sraffa قد رفض عام ١٩٢٦ الفكرة القائلة إن اللجوء لنظرية الاحتكار كان لعلاج صعوبات التوازن التي ظهرت بالارتباط مع بمفهوم تزايد الغلة. وحينما فعل هذا، فإنه ذهب إلى القول إن الظروف الفعلية في الصناعة تقع عموماً بالمنطقة الوسطى بين الاحتكار والمنافسة، وإنه ما دامت النظرية التنافسية هي التي كانت تسود الحقل، فكان من الضروري إذن 'الانعطاف نحو الاحتكار'. وإذا وجدت الاحتكار ينزاح هكذا عن 'حظيرته غير المريحة' (روبنسون، المصدر السابق، ص ٤)، التي كان يوجد فيها منعزلاً عن الكيان الرئيسي للتحليل الاقتصادي، فقد اقترحت السيدة روبنسون 'إعادة بناء نظرية القيمة بترك الاحتكار' 'يبتلع التحليل التنافسي' 'swallow up the competitive analysis - حيث تشكل كل منشأة محتكراً فردياً، أى بائع منفرد لمنتجاتها الخاصة بها، وأن المنافسة تأتي بالتدريج إلى أن نصل إلى الحالة القصوى حيث يوجد عدد كبير من أمثال هؤلاء البائعين المنفردين الذين يبيعون، في سوق تامة منتجات يمكن استبدالها بغيرها بصورة تامة، وحيث يصبح الطلب على منتج كل واحد منهم مرناً مرونة تامة، وهي الحالة التي توصف عادةً كمنافسة تامة (المصدر السابق، ص ٥) (١١). تنبغي ملاحظة أن هذا المفهوم للاحتكار ليس هو المفهوم التقليدي.

(١١) في: التمهيد والمقدمة لكتابتها، لم تعبر السيدة روبنسون عن امتنانها إلى مارشال وبيجو فقط بل أيضاً أقرت بالفضل الكبير لسرافا مما يجعل من الضروري الرجوع إلى مقالاته - كل من مساهمته الإنجليزية والإيطالية المذكورة في الجزء الرابع، الفصل السابع، القسم ٨، أعلاه - في كل القضايا التي تتعلق بنواياها التحليلية الأساسية. ومما يجعل هذا أكثر صعوبة حقيقة أن سرافا (انظر الجملة =

وفى الواقع، فإن المفهوم التقليدى لا يمكن تعريفه بصورة مرضية إلا بواسطة المعيار الذى مفاده إن المفهوم يسمح بتطبيق نظرية كورنو-مارشال للاحتكار Cournot-Marshall theory of monopoly. ولكن هذه النظرية بدورها تفترض مسبقاً وجود منحنى طلب معطى بصورة مستقلة ومحصن ضد تأثيرات المنشآت الأخرى على سلوك المنشأة المعنية. وعليه، فإن النظرية التقليدية غير قادرة بحكم تكوينها على 'ابتلاع' *sallow up* أى حالات يتعذر فيها إهمال هذه التأثيرات وبالتالي فإن المفهوم التقليدى للاحتكار يصبح غير قابل للتطبيق.

=التالية فى المتن) لم يستعمل كلمة: احتكار بمعناها لدى روبنسون ولكن بالمعنى العادى. بيد أن روبنسون أقرت أيضاً بفضل أو بنوع من الشراكة الروحية لعدد من الزملاء الاقتصاديين الآخرين ممن ينبغي أن نذكر ثلاثة منهم بشكل خاص. فهناك هارود Harrod الذى ينبغي تقدير مساهمته فى تحليل الأنماط التنافسية غير البحتة أو غير التامة على نحو أرفع مما تشير إليه مقالاته بحد ذاتها (بما فيها: 'Doctrines of Imperfect Competition,' Quarterly Journal of Economics, May 1934 ; 'Imperfect Competition and the Trade Cycle,' Review of Economic Statistics, May 1936 ; and 'Price and Cost in Entrepreneurs' Policy,' Oxford Economic Papers, May 1939) وبخاصة عند أخذ تواريخها بنظر الاعتبار. وكان هناك شوف Shove وكان Kahn اللذان قد يدين اسمهما، فى وقت ما من المستقبل، بالجزء الأعظم من الاعتراف بهما إلى ثناء السيدة روبنسون عليهما بصورة سخية. وهذا الثناء فى محله تماماً (كما هو شأن ثناء كينز على كان Kahn، انظر الفصل الخامس، أدناه). فكلاهما عالم من نوع معين تقدمه جامعة كامبريدج بصورة جاهزة أكثر مما تفعل مراكز الاقتصاد العلمى الأخرى أو بالأحرى مراكز العلم عموماً. وقد طرحا أفكارهما فى بركة عامة. وعند طريق الاقتراحات الناقدة والبناءة، فأنهما ساعدا أفكار الكتاب الآخرين على الظهور بشكل واضح. وكان لهما تأثير مجهول الاسم- تأثيرهما كقادة -يتجاوز كثيراً أى فضل يمكن أن يُنسب إليهما بشكل محدد بفضل أعمالهما. وانتهز هذه الفرصة للإشارة إلى نقطة شددت عليها السيدة روبنسون كثيراً فى تمهيدها، وفى كل كتابها حقاً: "منحنى الإيراد الحدى". فهى ترجع الفضل، فى هذا الشئ وفى تسميته، إلى العديد من معاصريها، وبخاصة السيد هارود والأستاذين ينيتمة Yntema وفاينر Viner. ومن الطبيعى تماماً أن استعمال هذه الأداة الملائمة كان قد فرض نفسه فى ذلك الوقت على كثيرين (بمن فيهم تشامبرلين)، وبخاصة على من تصارع سابقاً مع منحنيات مارشال الكلية الأقل إحكاماً. ومع ذلك، فلا ينبغي أن ننسى إن الأداة كانت قد استعملت، أولاً، من قبل كورنو Cournot وأن أيًا من كتاب العشرينيات والثلاثينيات لا يستطيع ادعاء أى حق موضوعى فيها.

الفصل الثالث علم الاقتصاد فى الأقطار 'الشمولية' (١٢)

١- ألمانيا

٢- إيطاليا

٣- روسيا

ليس من دأع لتفسير ما يبدو لبعض القراء كإهمال غير مبرر لآداب الاقتصادىة 'الشمولية' totalitarian economic literatures. ومع ذلك، فأنى أحب أن أشير إلى أن مثل هذا الإهمال لا شأن له بالتحامل السياسى. فليست لدى أى نية لإهمال أى عمل تحليلى تم إنجازه أو يجرى إنجازه فى الأقطار 'الشمولية'، وأن مجرد حقيقة إن مثل هذا العمل يُقدّم فى إطار الفلسفة الشمولية أو ينوى حتى خدمتها وتحقيقها لا تشكل سبباً لإهمال هذا العمل مثلاً لا يشكل نفورى الشخصى القوى من المذهب النفعى utilitarianism سبباً لإهمال عمل بنتام التحليلى. ومع ذلك، فإننا نستبعد الفلسفات الشمولية المختلفة نفسها- كما هو شأن الفلسفة النفعية كفسفة- ليس لأنها 'شمولية' بل لأنها 'فلسفات'، أى لأنها تأملات speculations خارج نطاق العلم التجريبى. وفى هذا فإننا لا نفعل سوى تطبيق مبدأ معين أخذنا به منذ البدء وجرت مناقشته فى الجزء الأول حينما طرحنا التمييز بين مسألة الاقتصاد التحليلى والاقتصاد السياسى وذلك لتجسيد هذا المبدأ أساساً. ونظراً لتباين هذا الرأى تبعاً لمعتقدات المرء النهائية، فإننا ندعو القارئ لتنشيط ذاكرته بشأن ما قيل آنفاً.

ومع ذلك، فإن هذا المبدأ لا يفسر كلياً أن الأدب الاقتصادى المقدم فى الأقطار الشمولية لا يبرز كثيراً فى الموجز الذى سىلى. فهذا الأمر يعود إلى سببين آخرين. أولاً، إن جزءاً من المساهمات الأهم كعمل ستاكلبيرغ Stackelberg أو جزء من عمل فيكيو Vecchio حول النقود سبق أن جرت الإشارة إليها فى الجزء

(١٢) [هذه هو الفصل الوحيد المكتوب للجزء الخامس، الذى لم يُذكر نطاق موضوعه فى محاضرات المكسيك (الفصل الأول، القسم الثانى، أعلاه).]

الرابع حيث تمت متابعة تاريخ عدد من الموضوعات لغاية الوقت الحاضر؛ ثانيًا، إن المادة من هذا النوع والتي تتعلق بتاريخ التحليل الاقتصادي لم تكن وفيرة في الأقطار الشمولية. وفيما عدا ذلك، فإن الأعمال المقدّمة في الأقطار الشمولية الرئيسية الثلاثة، إيطاليا وألمانيا وروسيا^(١٣)، هي أعمال مختلفة جدا بحيث يتعذر إخضاعها لتعميم واحد.

١- ألمانيا

في ألمانيا، كانت طرق التعليم والبحث قد تحسنت بسرعة في فترة جمهورية وايمار Weimar Republic ١٨٣٢-١٩١٨. فالعمل التحليلي والعمل المتعلق بالمشاكل الجارية (من النوع الذي ترعاه جمعية السياسة الاجتماعية Verein fur Sozialpolitik) قد مضى كما كان جاريًا في السابق؛ وكما لوحظ في الجزء الرابع، الفصل الرابع، فقد فقد هذان النوعان من العمل ميلهما المنهجي المعادي للنظرية، كما ازداد الاهتمام 'بالنظرية' والتمكن بها معًا بحيث بات الاستعمال الواسع لبحث كاسل^(١٤) أمرًا هامًا كنتيجة وسبب وعرض على حد سواء؛ وعلاوة

(١٣) لم تكن اليابان وأسبانيا بلدين 'شموليين' بأي مفهوم ذي معنى لهذا المصطلح. ولكن بالنسبة لليابان، فلا بد من ملاحظة أن انقطاع الاتصالات أثناء الحرب وعدم معرفتي باللغة اليابانية قد خلقت فجوة تعذر على سدها ضمن الوقت المتاح لي. وكل ما تمكنني علاقاتي السابقة للحرب من قوله هو إن أهمية هذه الفجوة ليست ضئيلة بالتأكيد وأنها يمكن أن تكون كبيرة. إبعد سنتين من وفاة ج. شومبيتر، نشر طلبته اليابانيون السابقون ترجمة، أو حضروا للترجمة، كل كتب ج. شومبيتر ومقالاته الطويلة. وهذا يتضمن أعماله المبكرة باللغة الألمانية وهذا الكتاب: تاريخ. أما عمليه: Das Wesen und der Hauptinhalt ... (1908) and Theorie der Wirtschaftlichen Entwicklung (1912)، فقد جرت ترجمتهما عامي ١٩٣٦ و ١٩٣٧.

(١٤) سبق غير مرة أن جرت الإشارة إلى غوستاف كاسل Gustav Cassel. ومع ذلك، فمن الملائم أن نستعيد، في هذا المكان، مراحل مسار هذا القائد العالمي الأكثر تأثيرًا لعلم الاقتصاد في عشرينيات القرن العشرين - لأن كاسل كان كذلك مهما قال عنه نقاده (بمن فيهم أنا شخصيًا). نتذكر، أولاً، أول ثلاث قطع من العمل كان كاسل قد أثبت نفسه بها (موجزه حول نظرية معينة للأسعار، المنشور في مجلة Zeitschrift fur die gesamte Staatswissenschaft, 1899، والمقالة، التي لم تذكر لحد الآن بعد، حول أسباب التغييرات في المستوى العام للأسعار: 'Orsakerma, till forandringar I den The Nature and Necessity of allmanna prisen', Ekonomisk Tidskrift, 1905 (Interest, 1903). وجزئيًا، بفضل ما كان لكاسل من ميزة 'كمحايد'، فإنه حصد سمعة عالمية أثناء وبعد الحرب العالمية الأولى - وذلك أساسًا كخبير مثابر في النقود والعلاقات الدولية ومشارك في=

على ذلك، فقد كانت هناك الرسائل الأصلية لمعلمين مثل فون غوتسل von Gottl، ولايفمان Leifmann، واوبهايمر Oppenheimer، وشبان Spann، التي لا ينكر حتى أقسى منتقديها فضلها في تشجيع أفكار كثيرة؛ كما كانت هناك أعمال ديبل Diehl، ويوكن Eucken، وآخرين، وقبل الجميع، أعمال شبيثوف Spiethoff وسومبارت Sombart التي هي أقرب إلى الفهم الإنجلو-أمريكي (وإلى فهمي الشخصي). ورغم أن مجموعة فينا، بقيادة البروفيسور ل. فون مايسس L. von Mises، حافظت على كيان حيوي إلى أن، بالنسبة لذلك الوقت في جميع الأحوال، تلاشت في ثلاثينيات القرن العشرين، بيد أن هذه المجموعة قد دخلت في علاقات أوثق من السابق مع بقية الاقتصاديين الألمان وأصبحت بهذا الشكل في وضع تستطيع فيه أن تقرض مذهبها الخاصة بها.

ثمة اتجاهان نحو الأمركة Americanization يتعذر إهمالها في هذا الموجز. الأول هو التقدم المثابر نحو التخصص. فمع إن المقررات الشاملة حول الاقتصاد العام، والسياسة الاقتصادية (والاجتماعية)، والمالية العامة، قد حافظت على مواقعها المهيمنة، بيد أن المجموعات المتخصصة بدأت باكتساب وجود محدد أكثر فأكثر؛ وصار من الممكن بعد عام ١٩١٨، وبمعنى أهم من السابق، التحدث عن اقتصاديين زراعيين، اقتصاديين عمل أو اقتصاديين صناعيين. وقد توسعت مرة أخرى معاهد البحث كالمعهد الوطني للبحوث الاقتصادية أو مكتب الاقتصاد الزراعي وذلك في إطار وخارج إطار الأقسام الحكومية المعنية بالمشاكل الاقتصادية. ويكفي أن نذكر معهد Institute fur Weltwirtschaft في جامعة كيل، الذي أسسه أحد أكفأ مَنْ نظموا البحث منذ إيما وقت مضى: البروفيسور ببرنارد هارمس Bernard Harms، ومعهد Institute fur Konjunkturforschung الذي أسسه منظم كفء بصورة مماثلة: البروفيسور ارنست فاغمان Ernst Wagemann، في

=المؤتمرات الدولية حول هذه الموضوعات (وكمثال، لا أشير سوى إلى عمله: Money and Foreign Exchange after 1914, 1922، وأن أسوأ ما يمكن أن يفعله الخبراء النقديون في وقتنا الحاضر هو عدم درس هذا الكتاب). أخيراً، فقد حقق كاسل نجاحاً كبيراً، على الأقل خارج نطاق الاشتراكية الأصولية، عبر عمله: Theoretische Sozialökonomie الذي نشره بالألمانية (١٩١٨) مستقيماً من المصادفة أو، بخلاف ذلك، من بصيرة نفاذة. لقد كتبت بنفسى استعراضاً للطبعة الرابعة (١٩٢٧) من هذا العمل، لم يكن في صالحه، كما هو شأن استعراض فيكسل الملحق بالطبعة الإنجليزية من المجلد الأول من عمله الأخير: Lectures. ولا أظن أننا، فيكسل أو أنا، كنا قد قلنا شيئاً ينبغي سحبه. ولكننا أهملنا شيئاً ما، أي أن الكتاب كان يمثل بالضبط ما كان يحتاجه الاقتصاديون الألمان.

برلين^(١٥) - حيث أضاف كلا المصدران مجالات اقتصادية جديدة إلى المجالات القائمة. ثمة نقطة واحدة فقط في هذه اللوحة ينبغي، من زاوية هذا الكتاب، تسجيلها بالنسبة لما حدث من تقدم كبير وعن تقدم موعود أكثر. فحينما استقرت جمهورية الوايمار، فإن حكومات الولايات الأعضاء - لم تكن هناك جامعات فيدرالية أو خاصة بل جامعات للولايات الأعضاء فقط state universities - قد استجابت بصورة متزايدة لطلب الأحزاب السياسية، وبخاصة الحزب الاشتراكي الديمقراطي وحزب الوسط، بأن التعيين في كراسى الاقتصاد المهنية يجب أن يأخذ بالاعتبار الميول السياسية للمرشحين. والحجة، التي نوقشت بصراحة كاملة، هي كما يلي: إن الاقتصاد، بعكس علم الطبيعة وعلى غرار الفلسفة، هو Weltansschauungswissenschaft، أى 'علم' يُعنى بالبحث والتعليم، تدخل فيه بالضرورة المعتقدات والولاءات النهائية للباحث أو المعلم. لقد تجسدت هذه المعتقدات والولاءات النهائية في الحزب الاشتراكي وحزب الوسط (الكاثوليكي) وفي تجمع لبعض الأحزاب الأخرى التي عُرفت، وفقاً لنقيضها، بأنها أحزاب غير اشتراكية أو أحزاب كاثوليكية؛ ومن هنا، فإن مناصب الأستاذية يجب أن توزعها بالتساوى قدر الإمكان بين أعضاء هذه المجموعات السياسية الثلاث، مع أن أحداً بالتأكيد لم يقل إن هذا الأمر ينبغي أن يتحقق بغض النظر عن مؤهلات المرشحين. وليس من داعٍ لمناقشة هذا الأمر مرة أخرى. إن الاتجاهات التي تعكسها نظرية Weltansschauungswissenschaft يمكن الشعور بها، بصراحة أقل، في ظل جميع الظروف وفي كل الأقطار. بيد أنها لم تهيمن كلياً في أى مكان - إلا في روسيا الحديثة. أما في جمهورية الوايمار، فقد عملت مقاومة الكليات ومقاومة الأعضاء المتنفذين في الجهاز البيروقراطي على إبقاء هذه النظرية ضمن حدود ضيقة نسبياً.

(١٥) لقد انطلق المعهد الأخير من منحنيات بارومتر هارفارد بصورة صريحة، مع إن عمله، الإحصائي أساساً، قد توسع حالياً ليتجاوز ما تفتقره هذه المنحنيات - شأنه في ذلك شأن عمل جمعية هارفارد الاقتصادية إلى حد بعيد. وربما شكّل هذا المعهد التأثير الأهم الوحيد في نشر معرفة طرق الإحصاء الحديثة (كما فهمت حينذاك). وهكذا، فإن عمله يحتل أهمية تاريخية. وهو يرد بشكل رئيسي في ملاحق مجلة المعهد، the Vierteljahrshefte zur Konjunkturforschung؛ انظر، مثلاً، الملاحق رقم (٤) حول (The Analysis of Economic Curves (H. Hennig)، والملاحق رقم (١٦) و(١١) حول (Seasonal Variations (O. Donner)، والملاحق رقم (٩) حول (Trend (P. Lorenz)، والملاحق رقم (١٢) حول (Russian Contributions (A. L. Wainstien, S. A. Perwuschin, M. W. Ignatieff). وكان هناك تعاون وثيق مع مكتب الإحصاء الفيدرالي الذي نشر سلسلة من الدراسات التاريخية، إضافة إلى منشوراته الجارية.

وفي ظل هذه الظروف، فإن ظهور الاشتراكية القومية National Socialism لم يشكل تغييراً كبيراً بشكل تام ولم يسبب كل الدمار الذى يمكن أن يتصوره المراقب الأجنبى. فالنظام الاشتراكى القومى لم يتحمل ليس فقط انتقاد سياساته بل أيضاً ظهور أى نقص فى التعاطف مع فلسفة الحزب. إذ إنه شجع أعضاء الحزب واحتقر اليهود. ومع إن هذا النظام لم يشدد على مذاهب الفكر المقبولة لديه، فإنه رحب بها. وفي الحالات الفردية، فإن الحزب أو المجموعات داخل الحزب أو حتى ذوو النفوذ authorities ذهبوا أبعد كثيراً مما يفترضه كل هذا. وإضافة إلى ذلك، يجب الأخذ بالاعتبار الآثار المزعجة للظروف العامة على البحث والدراسة، والتي سادت حينذاك. ورغم ذلك، فقد تواصل معظم العمل المهنى ولو بدرجة أقل مما هو الحال فى حقل العلوم الطبيعية. وبشكل خاص، فلم يكن من شأن أحد أن يتعرض لمشاكل كنتيجة لتطوير أدوات نظرية أو إحصائية جديدة. فعمل كعمل كينز: General Theory، كان يمكن أن يظهر دون أن يضايقه أحد- وقد حدث هذا بالفعل^(١٦). ولا ينبغي أن ننسى أن العقيدة الاشتراكية القومية لم تكن عقيدة اقتصادية بشكل رئيسى أو أساسى وبالتالي فهي تتمشى ليس فقط مع كل أنواع الاقتصاد التقنى بل أيضاً مع الدفاع عن سياسات تتباين تبايناً واسعاً.

٢- إيطاليا

ونجد فى إيطاليا وضعاً مماثلاً، إلا أنه أكثر وضوحاً. فالنظام الفاشى كان يستاء من انتقاد سياساته بقدر الاستياء فى ألمانيا أو حتى أكثر نظراً إلى أن سياساته المختلفة كانت أكثر ارتباطاً بالقائد شخصياً^(١٧). كما شدد هذا النظام أما على تعاطف موقف الاقتصاديين، أو على حيادهم على الأقل- وقد يمكن التعبير

(١٦) انظر: Carl Fohl, Geldschöpfung und Wirtschaftskreislauf (1937). ويخبرنا هذا الكاتب فى المقدمة أن مخطوطته قد اكتملت فى كانون أول ١٩٣٥. والأمر المهم هو التشابه الكبير، ولو غير الكامل، بين محاجته ومحاجته كينز (انظر الفصل الخامس، أدناه).

(١٧) فقد ترك هتلر السياسات المختلفة، وبخاصة الاقتصادية منها، لنوابه الذين بقوا فى مواقع القيادة لمراحل طويلة نسبياً وسمح لهم بنيل الشهرة وتطوير سياسات خاصة بهم. بينما لم يسمح موسوليني بذلك. وعليه، فإن السياسات الاقتصادية للفاشية، وحتى فى التفاصيل، كانت تميل إلى أن تصبح، فى أعين الجمهور، سياسات شخصية خاصة به.

عن الوضع بأفضل صورة بالقول إن ما شددت عليه الحكومة هو ضرورة أن لا يكون هناك عداء فعال للمبادئ الفاشية. لقد اضطررنا للانعزال بعض الكتاب القيايين- مثل ريسي Ricci وبريسيانى-تورنى Bresciani-Turroni - ولكن لم يتم التعرض بمعظمهم بصورة خطيرة. أما العمل العلمى البحث، فلم يتم التعرض له قط^(١٨). وفى ظل هذه الظروف، فقد واصل الاقتصاد العلمى تحركه عند المستوى العالى الذى رأيناه فى الجزء الرابع، فى إطار مدرسة باريتو وخارجها على حد سواء، ولغاية الحرب. ولم يكن هناك أى تغيير باستثناء آثار الحرب، كما لم تكن ثمة آثار بعد سقوط النظام.

٣- روسيا

ولكن حالة علم الاقتصاد الروسى^(١٩) فى المرحلة الستالينية تختلف عن حالتى ألمانيا وإيطاليا ليس فقط من حيث الدرجة بل من حيث النوع أيضاً. وهذا الأمر لم يكن كذلك بصورة تامة فى العقد السابق لتلك الفترة- أى بين عامى ١٩١٧ و ١٩٢٧ تقريباً. فخصوم النظام السوفيتى، وحتى المحايدون، قد جرت

(١٨) من المهم التشديد على أنه حتى فى البحوث التى كانت تتعاطف بشكل علنى مع *cita corporativa* (المدينة التعاونية)، فإن الأجزاء التحليلية من هذه البحوث لم تختلف عن المذهب الاقتصادى المقبول بصورة عامة وكان يمكن أن يكتبها أعداء للفاشية أيضاً. وكمثال، أشير إلى عمل البروفيسور لوى أموروسو (Luigi Amoroso: 1938) *Principii di economica corporativa*. (يعنى الجزءان الأولان من هذا العمل بنظريات النقود والتوازن على التوالى وهما يخلوان من أى مضامين سياسية، فاشية أو غيرها. إلا أن الجزء الثالث يطور ما يمكن تسميته الفلسفة الاقتصادية للفاشية - التى من شأن كثير منها، كما صاغه أموروسو، أن ينل استحسان الاقتصادى الأمريكى النمطى modal. وكمثال آخر، أشير إلى مقرر معين، من محاضرات حول السياسة الاقتصادية أو الاقتصاد السياسى، لم يلزم البرج العاجى لما نسميه نحن هنا 'العمل العلمى البحث'، ولكنه، مع ذلك، لا ينطوى على قيود كثيرة: أنه عمل البروفيسور جيوفانى ديماريا Giovanni Demaria: *La politica economica* (1937) *aei grandi sistemi coercitivi*).

(١٩) أكرر: أننى لا أعرف الروسية وأن الملاحظات التالية تستند على ما يلى: (أ) أعمال روسية كذلك التى تتوافر بلغات أعرفها كالإنجليزية والألمانية؛ (ب) محادثة مع زملاء يعرفون الروسية، ولكن لا ينبغي اعتبارهم مسؤولين عن الانطباع الذى أخذت من تلك المحادثة؛ (ج) أدب ثانوى ذو قيمة متفاوتة ويحمل عظمه، وإن ليس كله، ميلاً معادياً للبلشفية. وأشير فقط إلى العمل الذى وجدته أكثر فائدة، وأكثر دقة من غيره وذلك بقدر قدرتى على الحكم: A. Zauberman, 'Economic Thought in the Soviet Union,' *Review of Economic Studies* (vol. xvi (2), 1948-49 and vol. xvii (3), 1949-50). [من الواضح أن ج. شومبيتر لم يقرأ سوى المقالة الأولى من مقالات زاوبرمان الثلاث].

معاملتهم دون رحمة أكثر مما حدث لخصوم نظام الاشتراكية القومية أو النظام الفاشي. فالبحث العلمى نفسه، وليس فقط مناقشة السياسات، قد تم التحكم به regimented بصورة لم تكن مألوفة فى ألمانيا أو إيطاليا، وذلك ليس فقط بسبب طبيعة وطرق الإدارة البلشفية بل أيضاً لسببين آخرين عززا أحدهما الآخر، رغم تناقضهما. فمن ناحية، كانت العقيدة السوفيتية، أيديولوجياً على الأقل، عقيدة اقتصادية من حيث الجوهر وأن أى انحراف عن الكتب المقدسة، حتى وإن كان نظرياً بحثاً، كان يكتسب أهمية يصعب علينا فهمها؛ ومن ناحية أخرى، فإن الحكومة السوفيتية، طبعاً، استغلت إلى أقصى حد العواطف الساذجة للناس الثوريين الذين تصوروا بالضرورة، بعد بلوغ الألفية السعيدة، أنه لم تعد هناك 'قوانين اقتصادية' وبالتالي فليست ثمة حاجة لأى تحليل اقتصادى قط. وفى هذا الوضع، فقد مالت المناقشة حصراً نحو الرغبات الآتية للرجال الذين كانوا، أو يُتصور أنهم كانوا، فى القيادة أو قريباً منها، وأن حججاً من قبيل أن وجهة نظر معينة كانت 'رجعية' أو 'يسارية' - وفى الواقع، مجرد اشتباه - شرعت بإزاحة وجهات النظر العلمية. ورغم ذلك، فإن التغيير break لم يكن كاملاً. فما سهل اعتناق الأصولية السوفيتية هو حقيقة أن الماركسية، التى هى العقيدة المفروضة الآن، كانت لها سطوة قوية على الاقتصاديين الروس حتى قبل عام ١٩١٧ وحقيقة أن المبادئ الماركسية تتيح فسحة واسعة للتحليل العلمى ضمن حدودها. ولكن ما دام الأنصار الماركسيون حقاً، كبوخارين، يلعبون بعض الدور، فيمكننا أن نشير، نوعياً أكثر مما كمياً، إلى أن العمل التحليلى حقاً كان فى انحطاط، ولكن ليس ثمة سبب للشك بوجود عمل علمى حقيقى - كما يشهد على ذلك مجرد وجود معهد ماركس-انجلز. وعلى أى حال، فقد كانت هناك معاهد أخرى: معهد للبحث فى الاقتصاد الزراعى ومعهد آخر للأعمال وبحوث الدورة، على سبيل المثال، تمتعت حينذاك ببعض الحرية ليس فى جميع البيانات فقط ولكن فى تفسيرها أيضاً. وقد قاد عمل كوندراتيف Kondratieff، الذى أشرنا إليه من قبل، إلى تشجيع كبير^(٢٠)

(٢٠) نشرت نظرية ن.د. كوندراتيف N. D. Kondratieff للدورة الطويلة فى كتب ومجلات كثيرة يتوافر بعضها بالروسية فقط. ثمة ترجمة مختصرة، عن مقالة ألمانية، أنجزها البروفيسور و.ف. ستوبلر =

وشكلاً، بقدر ما أعلم، ذروة العمل الذى قدمه عدد كبير من الاقتصاديين المقتدرين (برفوشين Perwuschin، وأبورين Oparin، وسوكولنيكوف Sokolnikoff، وآخرون)؛ وإن هذا العمل، رغم المضامين المنحوسة لحقيقة اختفاء بعض المؤلفين منذ ذلك الحين، يمكن أن يؤخذ كبرهان على أن علم الاقتصاد الجدى كان قد تواصل إلى أن فرضت نفسها القيود الشديدة للنظام الستالينى. وعندئذ، فإن التغيير break قد حدث رغم كل شيء، وأن التعليم، إضافة إلى عمل معهد الاقتصاد فى الاتحاد السوفيتى، تحولاً أكثر فأكثر إلى معالجة وصفية للمشاكل العملية التى تواجهها الحكومة السوفيتية وإلى اتهامات متبادلة بين العبيد وبصورة متواصلة وذلك خشية على حياتهم^(٢١). نقتصر على تناول نقطتين تعدان بأشياء أفضل فى المستقبل. أولاً، لقد ورثت روسيا السوفيتية، من عهود ما قبل الاتحاد السوفيتى، تقليداً ممتازاً من العمل فى الطرق الإحصائية وخلفيتها الرياضية - المتصلة بالاحتمالات بشكل رئيسى. فقد تواصل هذا العمل، المعرض للتهجم السياسى أكثر من علم الاقتصاد، ودأب على تقديم مساهمات متميزة عالمياً. ثانياً، من الواضح أن من المستحيل 'تخطيط' الاستثمار دون تطوير جهاز معين، مهما كان بدائياً، للمقارنة بين الطرق البديلة لتنفيذ هذا الاستثمار، وذلك حتى إذا جرى تحديد الهدف من هذا الاستثمار بأمر دكتاتورى، ولمقارنة أهداف الاستثمار البديل إذا كانت هناك بعض الحرية فى الاختيار. ولكن معايير التأمين ومفاهيم القيمة، والإنتاجية الحدية، والفائدة، تدخل

=W. F. Stolper، والتى اعتقد كوندراتف نفسه أنها تعطى زبدة نظريته ويمكن إيجادها فى: Review of Economic Studies, November 1935، واستعراض، قدمه السيد جورج غارفى George Garvy، للسجال الذى حدث بشأنها ('Kondratieff's Theory of Long Cycles') فى نفس المجلة، تشرين ثان ١٩٤٣. يبين هذا السجال جيداً، من ناحية، الوحشية الشديدة التى أبدرت بها السجلات فى تلك البيئة، ومن ناحية أخرى، فإنه يبين حقيقة أن وجهات النظر العلمية لم تكن غائبة وحقيقة إن العمل العلمى كان ما يزال ممكناً. وكان كوندراتف قد نفى إلى سيبيريا العام ١٩٣٠.

(٢١) تتضمن مجلات أكاديمية العلوم فى الاتحاد السوفيتى (قسم الاقتصاد والقانون) ملاحظات حول هذه الحالة من الأشياء (دون استخدام المصطلحات الواردة أعلاه) تتراوح بين إدانة، وإدانة مضادة، لماركسية مجدية. ولكن يبدو أن من المشكوك فيه ما إذا كان العمل التحليلى من النوع المطروح للمناقشة الآن، مع محاولته الصبغانية لإعادة اكتشاف عناصر من المنطق الاقتصادى دون الوقوع فى الهرطقة، يمكن تفضيله بالفعل على التوقف الكلى لهذا العمل. ويبدو أن أهمية هذه المحاولات قد بولغ بها من قبل البروفيسور س. لاندوير S. Landauer: 'American', From Marx to Menger, Economic Review, June 1944. انظر كذلك: (John Somerville, Soviet Philosophy (1946).

بحكم الضرورة المنطقية في أى محاولة لتحقيق ذلك. بيد أن مهمة الاقتصاديين السوفيت كانت وما تزال تتمثل ليس بتحسين هذه المفاهيم بل إقصائها بطريقة من شأنها إخفاء تشابهها الجوهري مع المفاهيم 'الرأسمالية' المناظرة^(٢٢). إن التقدم على هذا الخط صعب وبطيء خشية التهديد الدائم بالشجب الذى يتخفى خلف التعليقات السلبية التى يبدو إن المنشورات من هذا النوع قد حصلت عليها لحد الآن. ومع ذلك، فإن هذه الأعمال تتطوى على بعض الأمل بالنسبة للمستقبل، وبخاصة حينما نتوقع بأمان أن تصبح الاتهامات من هذا النوع اتهامات عتيقة: فمن المؤكد أن الاقتصاديين البلاشفة يكتشفون، فى آخر الأمر، ما أدركه باريتو وبارون قبل نصف قرن، أى ثمة منطق اقتصادى لا ينطوى على أى شىء 'رأسمالى' تحديداً. وليس هذا كل شىء. فمحاسبة الدخل القومى وطرق وضع الميزانية تتطور بسرعة فى الأقطار غير البلشفية- التى يصعب أكثر تسميتها أقطاراً 'رأسمالية' - وأن الاقتصاد التقليدى يتعين عليه أن يكيف نفسه لها [عزم ج. شومبيتر على كتابة قسم حول محاسبة الدخل القومى فى هذا الجزء الختامى، ولكنه لم يفعل ذلك]. وما تزال هذه الأساليب وطرق التحليل المناظرة ضرورية فى الدولة السوفيتية كما هو واضح. وهكذا فثمة أسلوبان، كانا قد نتجا عن احتياجات مماثلة، شرعا بتأكيد نفسيهما بصورة مستقلة فى روسيا وكل مكان، وبخاصة فى الولايات المتحدة،

(٢٢) إن المثال المرضي تقريباً كان قد قدمه هولاند هانتر The Planning of :Holland Hunter 'Investments in the Soviet Union,' Review of Economics and Statistics, February 1949. لقد ترجم البروفيسور هانتر، هناك، فصلاً من كتاب مدرسى وضعه البروفيسور خاتشاروف Khacharturov حول (Economic Principles of Railroad Transportation (1946 وحلّ معامل الفعالية النسبية للاستثمار Coefficient of Relative Effectiveness of Investment فى ظل الجانب المذكور فى المتن، بطريقة منورة إلى أبعد حد. ويجد القارئ أمثلة أخرى، ولو أنها مطوّرة بصورة أقل كمالاً، فى [المقالة الأولى من] المقالات [الثلاث] التى كتبها زاوبرمان Zauberman الذى أبرز عمل س. غ. ستروملين S. G. Strumlin. كما يشير أيضاً ((xvi, 1), p. 3n vol. إلى محاولة مبكرة قامت بها السيدة ب. كيملنيتسكايا B. Khmielnitskaya لتأمين مجال للنظرية الاقتصادية وذلك بتعريفها (على نحو معقول تماماً) بوصفها العلم الذى يُعنى بمعايير norms الإدارة العقلانية لمجتمع اشتراكى ('منظم'). ومن الممتع أن نلاحظ أنها، عند قيامها بذلك، تبنت لأغراضها مفاهيم فون غوتل Gottl الألمانية حول الـ idiography (وصف الوقائع الفردية، أما الكلمة المذكورة هناك: ideographic فلا بد أنها غلطة مطبعية misprint) والـ nomothesis (التعبير المعمّم للقوانين الذى حولته هى إلى normography، مستبدلةً بكاء مفهوم 'القواعد' nomos لدى غوتل بكلمة 'معيّار' norm).

وهما يميلان إلى التقارب والالتقاء فى نقطة معينة- مثلما تفعل هذا الأمر أساليب أخرى كثيرة. ورغم ذلك، فلا نستطيع أن نذكر شيئاً أكثر من هذا بالنسبة لتاريخ التحليل الاقتصادى، ولن يستغرب من هذا سوى مَنْ لم يفهم، حتى عند هذه اللحظة، هدف هذا الكتاب^(٢٣).

(٢٣) يعود، طبعاً، أحد أسباب عقم علم الاقتصاد الروسى فى الفترة المدروسة إلى حقيقة أن بعض الحكام، وبخاصة لينين وتروتسكى Trotsky، وحتى ستالين، كانوا يكتبون كثيراً وبصورة أمريئة فى قضايا تعود عادة إلى حقل علم الاقتصاد المهنى. وهكذا، فقد يعترض، حتى القارئ الذى يدرك هدف هذا الكتاب ويعرف كيف يميز التحليل الاقتصادى عن الاقتصاد السياسى، على عدم إشارتى إلى أعمال هؤلاء الرجال الثلاثة أو لينين على الأقل. وقد سبق لنا أن قدمنا الجواب: فمساهماتهم فى التحليل الاقتصادى هى مساهمات ضئيلة، مهما عظمت أهميتهم التاريخية من نواحٍ أخرى.

الفصل الرابع الديناميكا وبحوث الدورة الاقتصادية

- ١- دينمة النظرية الكلية: الديناميكا الكلية
- ٢- المتمم الإحصائي: القياس الاقتصادي
- ٣- التفاعل بين الديناميكا الكلية وبحوث الدورة الاقتصادية

لنستعد مرة أخرى إن الديناميكا، في كل مكان من هذا الكتاب، تعنى حصراً التحليل الذي يربط كميات تعود إلى نقاط مختلفة من الزمان النظري - بالمعنى الذي تم تفسيره سابقاً غير مرة - وليس نظرية العمليات التطورية التي تسير مساراتها في الزمان التاريخي: الديناميكا تكون coextensive عملياً (أي تمتد على مكان أو زمان واحد) مع تحليل السلاسل sequence analysis وأنها تتضمن ونه يتضمن تحليل الفترة period analysis كحالة خاصة، بيد أن الديناميكا ليست coextensive مع نظرية النمو أو التنمية أو 'التقدم' الاقتصادي^(٢٤). وعند تعريفها هكذا، فإن الديناميكا تشكل مدخلاً جديداً على نحو حقيقي. سبق أن رأينا بالفعل، في محطات مختلفة من دربنا وبخاصة في حالة سيسموندى، إن الاعتبارات الديناميكية، بمفهومنا، كانت قد تطلعت على التحليل الاقتصادي مرات كثيرة، ضمناً بشكل رئيسي ولكن بصورة صريحة أيضاً. ولكن الجوهر الدقيق لعلم الاقتصاد كان ستاتيكيًا رغم ذلك، وتم الاعتقاد بأنه يشكل كياناً مذهبياً قائماً بذاته body of self-contained doctrine، كياناً اشتمل، علاوة على ذلك، على كل البصائر الجوهرية أو جليها. وهذا واضح في حالة فالراس. ولكنه يصح على مارشال أيضاً^(٢٥). فمن المؤكد أن الأخير أضاف كثيراً من الاعتبارات فوق الستاتيكية

(٢٤) نكرر هذا هنا لأن هناك الكثير من المؤلفين المحدثين يطابقون الديناميكا بنظرية النمو. فريش Frisch وهيكس Hicks هما المرجعان الرئيسان اللذان يساندان مصطلحاتنا. بينما يمثل هارود Harrod (كل خاص، عمله: Towards a Dynamic Economics, 1948) وستغلر Stigler مثالين بارزين على تمييز مصطلحات أخرى. ويقف آخرون في موضع وسيط مثل جارس ف. روس Charles F. Ross (Dynamic Economics, 1934). كما أكرر أن تشديدي على هذا التمييز لا يعود إلى أي رغبة في التنازع على كلمات بل لمجرد رغبتي بتقادي الخلط.

(٢٥) ولكن ليس على يوهانسون. انظر، الجزء الرابع، الفصل السادس، القسم الخامس، أعلاه.

considerations extra-static المتعلقة بالنمو بشكل رئيسي ولكنها تخص السلاسل أيضًا بحيث يمكن القول حقًا أن مارشال رسم مهمة النظرية الديناميكية المستقبلية (انظر عمله، Principles, p. 19n) مثلما رسم بالضبط مهمة القياس الاقتصادي المستقبلي؛ ولكن رغم أن مارشال قدّم لهذه الأشياء ما يلزمها من المادة، ووجهات النظر، والرغبة، بيد أنه لم يعبر نهر الروبيكون Rubicon. وفيما عدا ذلك، فإن مارشال كان قد لاحظ تلميحات بانتليوني Pantalioni وباريتو الموحية، ولكنه لم يتقدم باتجاه الهدف الذي أشار إليه.

إن عبارة 'عبور نهر الروميكون' أقصدُ بها ما يلي: مهما كانت أهمية الغزوات الموسمية إلى مفهوم تحليل السلاسل، بيد أن هذه الغزوات قد تركت الكيان الرئيسي للنظرية الاقتصادية على الضفة الستاتيكية من النهر: فما ينبغي عمله ليس هو إكمال النظرية الستاتيكية بالحصيلة التي غنمتها تلك الغزوات بل استبدالها بنظام من الديناميكا الاقتصادية العامة الذي يمكن أن تدخل الستاتيكا فيه كحالة خاصة. إن إدراك حقيقة أن من المتعذر حتى تطوير نظرية ستاتيكية تطويرًا كليًا من دون مخطط ديناميكي صريح (ساملسون)^(٢٦)، وهي حقيقة كنا لاحظناها من قبل، هو خطوة أولى بهذا الاتجاه، وكان من الممكن أن نشير إلى بضع خطوات أخرى لو تيسر لنا المجال^(٢٧). ومع ذلك، فلم يتطور بعد أي هجوم على كل جبهة نظرية فالراس وإن تشبيه هذه الجبهة بـ building plot ما يزال قائمًا بشكل صار: إذ إن عددًا متزايدًا من الكتاب يبصرون الهدف الجديد؛ ولكن هذا هو كل ما قد تحقق عمليًا بالنسبة للوقت الحاضر ما دامت جهود ه. ل. مور H. L. Moore لم تتجاوز الستاتيكا المقارنة أساسًا. بيد أن الجهود التي تنصب على دينمة النظرية الكلية dynamize aggregative theory قد حققت نجاحًا وضعيًا أكبر.

(٢٦) انظر عمله: Foundations, part 11 وبخاصة الفصل الثاني. وانتهاز هذه الفرصة للتأكيد على أن البروفيسور ساملسون Samuelson، هناك وفي الملحق B، وكذلك في عمله: 'Dynamic Process Analysis' ومساهمته في: Survey of Contemporary Economics (الذي نشره ه. س. إلز H. S. Ellis)، كان قد أنجز مهمة تعليمية ممتازة إلى أبعد حد؛ فليس ثمة مدخل أفضل إلى معنى وطرق الديناميكا الحديثة.

(٢٧) ومع ذلك، فإن ضيق المجال المتاح لا يشكل السبب الوحيد لامتناعي عن ذلك: إذ لا أحب إرباك الخطوط الرئيسية بالتفاصيل، من ناحية، وتحويل هذا الموجز إلى ثبوت مراجع bibliography، من ناحية أخرى. وإن تصفح مجلدات مجلة Econometrica يمثل تقريبًا كل ما يحتاجه القارئ للوصول إلى تفاصيل هذا الأمر.

١ - دينمة النظرية الكلية: الديناميكا الكلية

وهذا مفهوم. فمن الواضح، من ناحية، أن النظرية الكلية aggregate theory، التي تختزل أعدادًا كثيرة جدا من المتغيرات إلى نصف "ذينة: دسنة" وحتى أقل، يمكنها أن تبرز بصورة أفضل من النظام الفالراسى فى ظل التعقيدات التي لا يخلو منها حتى أبسط مخطط ديناميكي. وكمثال توضيحي، تأمل أداة دينمة بسيطة جدا مثل إدخال فترات الإبطاء lags. فوفقاً للطرق المتاحة، وإلى أن يتم اختراع طرق قوية أكثر مما متوفر الآن، فلا يوجد ما يمكن قوله سوى القليل جدا حينما نعطي مؤشرات زمنية مختلفة different time indices إلى كل الكميات التي تدخل نظام فالراس، باستثناء أن هذا يجعل إدارة ذلك النظام أمراً متعذراً. ولكن الأمر لا يكون كذلك حينما تقتصر المتغيرات التي ينبغي الاهتمام بها على: 'الاستهلاك'، و'الاستثمار'، والدخل القومي الذي يساوي الاستهلاك الجارى زائداً الاستثمار الجارى بالتعريف. تصور أننا نفترض، اعتباطاً، إن الاستهلاك (C t) فى فترة معينة (t) يساوى نسبة ثابتة (α) من الدخل فى الفترة (t-1) أى αY_{t-1} ؛ وإن الاستثمار (I t) فى الفترة t يساوى نسبة ثابتة (β) من الفرق بين الاستهلاك الجارى والاستهلاك فى الفترة السابقة، $(C_t - C_{t-1})$ أو $\beta (C_t - C_{t-1})$. وإذا تذكرنا بأن $Y_t \equiv C_t + I_t$ ، فإننا، على أساس رياضيات المدرسة الثانوية، نحصل على ما يلى كما هو واضح^(٢٨):

$$Y_t = \alpha (1 + \beta) Y_{t-1} - \alpha\beta Y_{t-2}$$

وهذه معادلة فرقية متجانسة من الدرجة الثانية مع معاملات ثابتة من السهل حلها وفق طريقة أولية تتوافر لدينا بصورة جاهزة وتعطى نتائج مهمة مؤكدة.

(٢٨) هذه هي (زبدة) معادلة هانسن-ساملسون؛ انظر: P. A. Samuelson, 'Interaction between the Multiplier Analysis and the Principle of Accelerator,' Review of Economic Statistics, May 1939، التي أعيد نشرها فى: Readings in Business Cycle Theory (التي اختارتها لجنة من الجمعية الاقتصادية الأمريكية، برئاسة غ. فون هابرلر G. von Haberler، ١٩٤٤).

اقتصادياً. إن الإغراء الذى يدفعنا للاستفادة من مثل هذا التبسيط الهائل لا يمكن مقاومته تقريباً ويرد على كل الاعتراضات التى يمكن أن تثور على أسس نظرية^(٢٩). وهكذا، فليس من الغريب أن تشهد بداية الثلاثينيات ثراء فى مثل هذه المخطوطات الكلية- الديناميكا الكلية لدى ر. فريش^(٣٠). إن هذه المخطوطات ليست كلها دقيقة من الناحية الرياضية- ومن شأن عرض أكمل أن يشير طبعاً إلى مخطوطات أخرى مهمة وضعتها اقتصاديون غير رياضيين كالبروفيسور فون هايك von Hayek. ومن الضروري أن نلاحظ بعناية أن هذا التوجه صوب الديناميكا الكلية كان، بحد ذاته، مستقلاً تماماً عن أى رغبة بإقامة تحالف أوثق بين النظرية الاقتصادية والأرقام الإحصائية: فالديناميكا الكلية كان يمكن أن يؤكد حقوقها حتى لو لم تتغير قط مواقف المنظرين من الإحصاء، بالمقارنة مع الفترة السابقة، وأن كثيراً من الكتاب، ممن لم يُظهروا أى علامة على تغيير كهذا فى موقفهم، كانوا متلهفين كغيرهم بالضبط للاستفادة من مزايا التبسيط الكلى كأمر طبيعى.

٢- المتهم الإحصائى: القياس الاقتصادى

ولكن، من الناحية الأخرى، فإن التوجه القوى بنفس الدرجة نحو علم اقتصاد عددى numerical economics، يعمل إحصائياً statistically operational، هو أيضاً عامل مهيم فى وضعنا العلمى. وإن هذا العامل، مهما كان مستقلاً عن الرغبة بتبسيط نمط النظرية الاقتصادية بحد ذاته، يفضل أيضاً النماذج الديناميكية الكلية. فمع بضع استثناءات، فإن المتغيرات الكلية- وبخاصة حينما يتعزز عددها

(٢٩) من الملائم تأجيل درس هذه الاعتراضات ودرس تعديل مهم ينبغي إضافته إليها. ولكن لنلاحظ حالاً أن مثالنا يوضح حقيقة أن الاقتصاديين عرضة للإغواء الآخر المتمثل بمحاولة تحسين الوضع عن طريق إدخال تبسيطات إضافية: ففي مثالنا، لا يقتصر تبسيط الأشياء على تخفيض عدد المتغيرات بل على فرضية ثبات المعاملات أيضاً؛ ولو لم تكن المعاملات كذلك، لما كان من السهل معالجة المعادلة.

(٣٠) نذكر هنا مثلاً واحداً فقط، أى مخطط البروفيسور ر. فريش R. Frisch نفسه المقدم فى مقالته القوية: 'Propagation Problems and Impulse Problem in Dynamic Economics,' (Economic Essays in Honour of Gustav Cassel (1933)). ويمكن أن يجد القارئ أمثلة أخرى فى العرض الذى كتبه تتبرجن للمقالة، وهو يرد فى الهامش التالى.

بإضافة مستويات الأسعار ومعدلات الفائدة- يسهل مطابقتها مع سلاسلنا الزمنية الأكثر أهمية. وكمثال بارز أشير إلى عمل تنبرجن^(٣١)، الذى يُبدى كلا الاتجاهين بقوة، ويشكل عنصراً مهماً جداً فى البحوث الاقتصادية فى وقتنا الحاضر بحيث إنه لا يغيب عنها مهما كانت هذه البحوث موجزة. إن مخططات تنبرجن الكلية العديدة، التى يستعمل معظمها فى البداية عدداً من المتغيرات أكثر مما تستعمله مخططات المؤلفين الآخرين، تقع بالدرجة الأولى فى صلب الاعتبارات النظرية البحتة التى هى اعتبارات بسيطة تماماً - بحيث قد يكون من المفيد أكثر أن نتحدث عن اعتبارات بديهية *common-sense considerations*: فهى تتضمن، فى نظام من المعادلات الخطية مع معاملات ثابتة (دائماً تقريباً)، تعريفات للمجاميع المهمة بشكل واضح *obviously important aggregates* (المعادلات التعريفية)؛ العلاقات التى توجد بين تلك المجاميع كما توحى البداهة بها (معادلات الموازنة)؛ والعلاقات التى يُعتقد أنها تصف سلوك مجموعات الأسر والمنشآت (معادلات السلوك أو 'القرار')^(٣٢). وهذا يتضمن المبدأ الأساسى القائل إن تشييد البنية النظرية يجب أن يسبق *precede* العمل الإحصائى: فالعلاقات نفسها لا تستوحى من المشاهدات الإحصائية؛ فهى فرضيات، وليست نتائج^(٣٣). إذ إن الأرقام الإحصائية 'تفسر' القيم العددية لبعض المتغيرات بواسطة قيم عددية معطاة لمتغيرات أخرى من خلال طريقة الارتباط المتعدد- وهى عملية تزيل أيضاً تلك المتغيرات 'المفسرة' التى تشير معاملات انحدارها الجزئية إلى عدم أهمية تأثيرها. وعندئذ، فإن النظام، وفقاً لإحلال المتعاقب، يختزل إلى معادلات 'نهائية' تُصوّر الآلية الاقتصادية، كما

(٣١) من القائمة الطويلة من أعمال البروفيسور تنبرجن Tinbergen، فالعمل الذى قد يكون الأكثر ملائمة، بالنسبة للقراء الأمريكان والإنجليز، لوضع مدخل لطرقه النظرية والإحصائية، هو: *Statistical Testing of Business Cycles: I, A Method and its Applications to Investment Activity*; (League of Nations, 1939) (and II, *Business Cycles in U.S. 1919-32*). وكذلك مقالته: 'Suggestions on Quantitative Business Cycle Theory,' *Econometrica*, July 1935، التى هى أكثر فائدة كعرض ما يمكن تسميته، الآن، العمل الأيكر فى الديناميكا. ولا يبعث كلا العنوانين على البهجة كما ينبغي. إذ يتوجب على القارئ، الآن بالذات، أن يهمل الإشارة الخاصة إلى دراسة الدورة الاقتصادية - لسبب سيتضح بعد قليل- وقبول العنوان الأول كمقالة حول الديناميكا العامة والثانى كعرض له.

(٣٢) للوقوف على أمثلة، انظر العمل المذكور فى الهامش السابق. ولابد من أن نتذكر أن أعمال تنبرجن من هذا النوع بدأت عام ١٩٣٤ (بقدر ما أعلم).

(٣٣) وهذا هو الفرق الأساسى بين طرق تنبرجن وتلك الخاصة بـ دبليو. س. ميجل W. C. Mitchel، الذى يشير إلى طرقه أدناه.

يُعتَقَد^(٣٤). إن كل خطوة من هذه الطريقة، بحد ذاتها، عرضة لانتقادات جديدة ولا يمكن أن يُقال بشأن هذه الانتقادات سوى أنها لا ينبغي أن تعمينا عن رؤية عظيمة هذا الجهد الرائد. ولما كان معظم هذه الانتقادات يحمل طابعاً إحصائياً، فإن عمل فريش - الذى أخذه تتبرجن بنظر الاعتبار إلى حد ما - ومجموعته ينبغي أن يُذكر عند هذه النقطة مرة أخرى، وبخاصة عمل هافلمو الذى، أثناء إقامته القصيرة فى الولايات المتحدة ودون أن يقوم بالتدريس، قد مارس تأثيراً يمكن أن يضاهى عمل فترة كاملة لبروفيسور ما^(٣٥). ومع ذلك، وفى جميع الأحوال، فإن الاقتصادى الذى يقبل الديناميكا الكلية كما هى، سواء مع مَتَمِّمِها الإحصائى أو من دونه، يمكنه أن يتحدّث عن فتح حقاً - وليس فقط عن تطوير هجوم ما أو عن تحقيق وضوح أكثر بالنسبة لهدف معين، والذى هو كل ما يمكننا تسجيله بالنسبة لدينمة نظام فالراس أو باريتو.

٣- التفاعل بين الديناميكا الكلية وجوْث الاقتصادى

وكما شجع التوجه صوب القياس الاقتصادى تحديداً - الميّل للتفكير من خلال الأرقام الإحصائية - الديناميكا الكلية، فإن الاهتمام الواسع بمشاكل الدورة الاقتصادية قد شجع المكونات النظرية والعديدية معاً للعمل الديناميكي الكلى. وهذا الاهتمام هو صفة بارزة فى وقتنا الحاضر، كما سبق أن رأينا. ومن التحليل السابق للعوامل التى خلقت الديناميكا الكلية، وبخاصة الديناميكا الكلية الإحصائية، يمكن أن نستنتج أن هذا التطور كان يمكن أن يحدث حتى ولو لم يكن هناك شيء ما من قبيل النوع الخاص من التقلبات التى تُعرّف عادةً كدورات اقتصادية. ومما قيل سابقاً فى هذا الجزء والجزء الرابع، يمكن أن نستنبط من أن الاهتمام بظواهر

(٣٤) أشعر أن من واجبي الاعتذار للبروفيسور تتبرجن على هذا العرض. ولكننى آمل أنه والقارئ سيفضلان حتى هذه الجمل، قليلة القيمة، على مجرد الإشارة إلى أعماله، التى لا يمكن الوثوق بأن كل قارئ سيتابعها.

(٣٥) ترد معظم تعاليمه فى مقالات له نُشرت فى مجلة *Econometrica*. ولكن انظر: Trygve Haavelmo, 'The Probability Approach in Econometrics,' Supplement to *Econometrica*, July 1944 (Cowle's Papers, New Series 4)

الدورات الاقتصادية كان يمكن أن يزداد، بالمقارنة مع الفترات التي سبقت عام ١٩١٤، حتى لو لم تظهر الديناميكا الكلية الحديثة. ولكن من الواضح أن كلا التطورين اتجه لتعزيز أحدهما الآخر وأن طرق ومواد ونتائج بحوث الدورة الاقتصادية تغمر علم الاقتصاد العام أكثر وأكثر، من ناحية، وأن طرق ومواد ونتائج الديناميكا الكلية الحديثة قد تطورت أساساً لخدمة دراسة الدورة الاقتصادية^(٣٦) بحيث إن الإشارة إلى الدورات الاقتصادية أخذت تتطفل حتى على عناوين أعمال ديناميكية كلية كثيرة ذات مدى أوسع بكثير، من ناحية أخرى. ومن السهل الآن أن نصوغ بدقة أكثر طبيعة ونتائج هذه التفاعل^(٣٧).

كنا قد رأينا، في الجزء الرابع، الفصل الثامن، إن الأفكار الأساسية المتعلقة بظواهر الدورات الاقتصادية كانت قد قدمت قبل عام ١٩١٤^(٣٨). فما أضيف في وقتنا الحاضر، إضافة إلى التطوير النقدي لهذه الأفكار، تمثل بالدرجة الأولى بالثروة الجديدة من البيانات والطرق الإحصائية لمعالجة هذه البيانات. وحتى برنامج القياس الاقتصادي، إذا استثنينا الرياضيات 'العالية'، كان قد تحقق على يد باحثين بارزين مثل جوغلار Juglar وميجل Mitchel وشبيثوف^(٣٩). ولكن إمكانات أكبر لا تضاهي طرحت نفسها منذ عام ١٩١٩. وقد اكتفى بعض الكتاب باستعمال أى أرقام كان يمكن أن تصلها أذرع جهازهم التحليلي. والمثال البارز هو البروفيسور بيجو. إذ إن عمله: (Industrial Fluctuations 1st ed. 1927)، رغم أنه يبقى عملاً 'نظرياً'، إلا أنه يختلف عن نوع العمل الذي كان يمكن أن يقدمه

(٣٦) تتوافر للفارئ طريقة بسيطة لإدراك هذا وتتمثل بتصفح عمل البروفيسور م. سوميرز: 'Classified Bibliography of Articles on Business Cycle Theory' الملحق بالمجلد Readings in Business-Cycle Theory الذي تمت الإشارة إليه من قبل، أو إلى بعض ثبوت المراجع الأخرى، المذكورة هناك (ص ٤٤٤)، وبخاصة ثبت المراجع الذي وضعه البروفيسور ر. أ. غوردن.

(٣٧) وهذا يفسر لماذا، عند حديثي عن الديناميكا الكلية بحد ذاتها ودون أن أقصد الحديث عن بحوث الدورة الاقتصادية تحديداً، توجب على رغم ذلك، في هامش سابق، الاستشهاد باثنين من أعمال تبرجن تحمل عناوينها هذه الدلالة. ويعود سبب إصراري على هذه النقطة، مع ما يمكن أن يبدو كحذقة لا مبرر لها، إلى أنها جوهرية ببساطة بالنسبة للتشخيص الدقيق للوضع العلمي الحديث.

(٣٨) وهذا يسرى على نظرية البروفيسور فون هايك أيضاً، إذا أمكن ربطها بنظرية البروفيسور فون مايسس. وإذا تعذر ذلك، فأنتى أعتذر.

(٣٩) صحيح أن العرض الأولي لشبيثوف Spiethoff لتحليله للدورة الاقتصادية ككل لم يظهر قبل عام ١٩٢٣ وأننا ما نزال ننتظر عمله الشامل، إضافة إلى ترجمته الإنجليزية، ولكن سبب هذا كان وما يزال يعود إلى محاولة شبيثوف البطولية لمعالجة مواد هائلة بجهده هو وحده. أما بالنسبة لميجل، فالإشارة الواردة في المتن تعود إلى كتابه الصادر عام ١٩١٣.

اقتصادي ما قبل عام ١٩١٤ وذلك بسبب المادة الجديدة. وقد أبدى كتاب آخرون ميلاً للانغماس في المادة الإحصائية بصورة مباشرة وهجر الجهاز القائم والفرضيات التفسيرية القائمة. ويمكن أن نوضح هذا الميل بعملين لا يجمعهما غير القليل من نواحٍ أخرى، أي عمل لجنة هارفارد (دبليو. م. بيرسونز) وعمل ميكل.

إن لجنة البحث الاقتصادي في جامعة هارفارد، التي ترأسها جارلس ج. بولوك Charles J. Bullock، وأدارها بشكل رئيسي وارن م. بيرسونز Warren M. Persons ودبليو. ل. كروم W. L. Crum، قامت ببحوث تاريخية-إحصائية واسعة وطورت سلاسل زمنية مهمة، ولكنها تدين شهرتها العالمية - إذ إن طرقها كانت تُناقش، وتُستنبط، وتُطور، في كل مكان وبخاصة من قبل إي. ويجمان E. Wagemann من معهد برلين - إلى 'البارومتر ذي المنحنيات الثلاث' three-curve barometer الذي يجد القارئ وصفاً دقيقاً لنسخة منقحة منه في عدد إبريل ١٩٢٧ من مجلة 'The Construction and Review of Economic Statistics' ويتعذر هنا تحليل طريقة عمل هذا البارومتر. إذ يتعين علينا الاختصار على بيان المبدأ الأساسي وعلى إضافة ثلاث ملاحظات نرجو بالاحاح أن يضعها القارئ في ذهنه. يربط هذا المبدأ السلاسل الزمنية التي تشير البدهة common-sense إلى أنها مهمة بشكل خاص وذلك بعد أن يكون هذا المبدأ قد 'أُستبعد' منها التغيرات الموسمية و'الاتجاه الدائم' secular trend بحيث تأتي الدورات كباقي residual (للتفاصيل، انظر: W. M. Persons, 'Correlation of Time Series,' Rietz's Handbook of Mathematical Statistics, 1924, ch. 10).

والملاحظات التي أحب إضافتها هي ما يلي: (١) إن الطرق الإحصائية التي استعملتها لجنة هارفارد تتعرض إلى اعتراضات جدية في ضوء التطورات اللاحقة، وحتى القائمة حينذاك، في الإحصاء 'العالي'. ولكن هذا لا ينبغي أن يحملنا على إهمال الدافع الذي قدمه ذلك العمل الرائد إلى كل من تشكيل الأرقام الإحصائية وتطوير الطريقة الإحصائية؛ أو إهمال حقيقة أن تلك الطرق تتطوى على معرفة فطرية كان يمكن أن تمضي مسافة معينة باتجاه تبرير نتائجها، كمقاربات، لو نهض أحد بهذه المهمة.

(٢) إذا كان النقاد قد أخطئوا حينما فشلوا بإعطاء الوزن المناسب للأهمية التاريخية لذلك العمل، فإنهم أخطئوا أكثر في ذلك الجزء من تقديمهم الذى كان موجهاً ضد مقدرة ذلك البارومتر على التنبؤ. والحقيقة هى أن منحنيات البارومتر قد أشارت إلى الانهيار القادم عام ١٩٢٩ بوضوح كافٍ- ولكن المشكلة كانت تكمن فى إن مفسرئ المنحنيات أما لم يؤمنوا بطرقهم الخاصة بهم أو أنهم، بخلاف ذلك، لم يريدوا تحمل ما اعتبروها هم مسئولية التنبؤ بالكساد، الخطيرة.

(٣) لقد شددَ بناءً بارومتر هارفارد على مصلحة قرائهم وآمنوا بأنهم هم أنفسهم لم يكونوا يستعملون ذلك الكيان الكئيب والباعث على الشكوك: النظرية الاقتصادية. كان البروفيسور بيرسونز يميل تماماً للرد على الاعتراضات النظرية بالإشارة إلى المئات من معاملات الارتباط التى ظهرت فى ظل توجيهه. وفى الواقع، رغم ذلك، فإن هؤلاء البناء قد استعملوا بالفعل نظرية كانت خطيرة جداً لأنها تستقر فى الوعى الباطنى للمرء: فقد استعملوا ما يمكن تسميتها النظرية المارشالية للتطور. أى (إذا أهملنا التصحيح المهم المتعلق بالتغيرات الموسمية، وهو أحد مساهمتهم الأكثر ديمومة، علماً بأن هذا التصحيح ثانوى بالنسبة لموضوعنا الحالى) أنهم افترضوا أن بنية الاقتصاد تتطور بصورة منتظمة أو سلسلة *in a steady or smooth fashion* يمكن تمثيلها (باستثناء التغيرات الحادة التى تحدث من حين إلى آخر، 'المنعطفات' breaks) باتجاهات خطية وافترضوا بأن الدورات هى انحرافات تزيد أو تقل عن هكذا اتجاهات upward and downward deviations وتشكل ظاهرة منفصلة وقابلة للفصل. وهذا خطأ سنشير إليه بعد قليل مرة أخرى. ولكن رغم خطأ وجهة النظر هذه، فهى تشكل نظرية معينة أو العمود الفقرى لنظرية ما. إن السجال المنهجي المحدود بشأن 'بحوث الدورات الاقتصادية دون نظرية ما'، الذى كان يبرز من حين إلى آخر، كانت طبيعته تشابه السجال الذى برز حول عمل ميغل والمكتب الوطنى للبحوث الاقتصادية وبالتالى فسنتناوله سوية مع هذا الأخير.

سبق أن شددنا على أهمية عمل ويسلى كلير ميغل والمكتب الوطنى للبحوث الاقتصادية الذى قاده وألهمه ميغل. وكما قال البروفيسور إى. ويجمان E. Wagemann ذات مرة، بأن أعمال معهده: Institut für Konjunkturforschung كانت مجرد المجلد الثانى من عمله: (Allgemeine Geldlehre 1923)، فقد كان يمكن

لميجل أن يقول بأن (معظم) أعمال المكتب الوطنى شكلت مجلداً ثانياً ضخماً بالنسبة للمجلد الأول الذى كان قد صدر عام ١٩١٣. وكان مجلده الصادر عام ١٩٢٧، Business Cycle: The Problem and its Setting، كعمل ويجمان: Konjunkturlehre الصادر عام ١٩٢٨، بمثابة عرض منظم للمشاكل ووجهات النظر والمواد - وذلك للعمل الذى أنيط به إيصاله، على الأقل، إن لم يكن إكماله، إلى مستوى عمله الفخم (وعمل أ. ف. يورنس (A. F. Burns): Measuring Business Cycles (1946). ولا نستطيع الدخول فى مناقشة الأمر المعروف بطريقة المكتب الوطنى لوصف الدورات وصفاً إحصائياً. فكل ما نقدر عليه هو أن نبين أن هذا الجهد لإثبات ولعرض مقدار ضخ من مادة إحصائية (أولية) إنما يواصل أساساً الخطة التى تحققت جزئياً فى الكتاب الصادر عام ١٩١٣ ولا يدين بشيء ما إلى النظرية الديناميكية الكلية، رغم أنه أخيراً يطرح مشاكل معينة ويوفر اختبارات مهمة لها checks: فعمل ميجل ومجموعته يهدف أساساً إلى بيان ما يتعين علينا تفسيره، وأنه ويوحى، إضافة إلى ذلك، بوجهات نظر للقيام بذلك التفسير.

وانتهز هذه الفرصة للتعقيب بإيجاز على السجل المحدود حول المنهجية المشار إليه. ربما كان يمكن لميجل أن يفعل شيئاً ما للحيلولة دون هذا السجل لو أنه ميّز بوضوح أكثر بين النظرية كفرضية تفسيرية والنظرية كجهاز تحليلي. وكان بوسع معظمنا أن يتفق معه لو أنه شعر بأن صياغة الفرضية التفسيرية ينبغي أن تهتم باكتساب سيطرة أكمل على الوقائع وأن الفرضية التفسيرية، القديمة والجديدة، كما قدّمت، لحد الآن، كان ينقصها البرهان الدقيق وقد تعجز عن الصمود أمام الوقائع التى كان ميجل بصدد جمعها. وحتى فى هذه الحالة، فإن ميجل لم يبد أى عداء قوى لكثير من 'نظريات' الدورات الاقتصادية التى عدّها بتجرد تام فى كتابه الصادر عام ١٩٢٧. ولكنه، علاوة على ذلك، لم يهتم إلا قليلاً بالتقنية التكنيكية 'النظرية'، إذا فهمنا هذا المصطلح كأداة، مثلما لم يبد سوى اهتمام قليل بالتقنية الحديثة للطريقة الإحصائية. وقد تكفلت صلاته القديمة بالاتجاهات التى يمثلها فيبلن Veblenite tendencies بتأمين ما تبقى لكى يظهر ميجل فى أعين المهنة ككاتب معادٍ للنظرية بأكثر مما كان عليه بالفعل - وأكثر من ذلك فى أعين أولئك الأنصار للديناميكا الكلية الذين يميلون للنظر إلى النظرية الاقتصادية والنموذج الرياضى كمتراذفات. ولكن من الناحية الفعلية، نيةً وواقعاً، كان ميجل

يرسّى الأسس 'لنظرية' معينة: نظرية لدورة اقتصادية ما إضافة إلى نظرية عامة للعملية الاقتصادية، ولكن من نوع آخر. وبالمثل، فإن لجنة هارفارد، حينما أعلنت أنها تعمل من دون نظرية، لم تقصد حقاً أى شىء سوى أنهم لم يريدوا، عند قيامهم بعملهم الوقائعى، أن توجههم الفرضية التفسيرية المفهومة فهماً مسبقاً على نحو ما.

ولكن بحث الدورة الاقتصادية هو دراسة للأوضاع المتعاقبة التى يكون عليها نشاط الأعمال sequences of business situations التى تشكل أيضاً موضوع الديناميكا الكلية أو جزءاً منها. وأن التعاون بين الاثنين كان قائماً هكذا بصورة واضحة. ومن المفترض أن كل دارسى الدورات الاقتصادية، ممن لم تعوقهم النواقص الرياضية، قد أدركوا هذا منذ البداية. وأن المنطق الأساسى لفترات الإبطاء، ومعدلات التغير، والتراكمات cumulations، والمنطق الأساسى للتذبذبات التى يمكن لهذه الموضوعات تقديمه، كان من المرجح جداً أن تفيد فى تفسير السلوك المشاهد لمادة السلاسل الزمنية. ويفترض بالديناميكا الكلية أن لا تكون أقل نفعاً فى أى محاولة لوضع المادة النظرية القائمة فى قالب واعد أكثر لحسم، مثلاً، قضايا التحديد determinateness وصياغة شروط الوهن damping أو الانفجار explosiveness، وما شابه ذلك. إن مشاكل الآليات، التى تتطور بواسطتها الحوافز من خلال النظام الاقتصادى، يمكن إيضاحها بواسطة طرق الديناميكا الكلية مما يمكنها، بين أمور أخرى، من المساهمة بقوة فى فهمنا لنقاط التحول فى الدورة cyclical turning points^(٤٠). والمثال اللامع الذى يمكن استخدامه لإثبات جدوى هذه الطرق هو نظرية عوامل التذبذب theory of oscillators، أى نظرية العوامل التى تخلق التقلبات فى النظام، رغم أن هذه العوامل نفسها منتظمة كلياً - خالية من التقلبات^(٤١). لن يكون من السهل على الباحثين 'الأدبيين'^(٤٢) للدورات الاقتصادية رؤية هذه الإمكانية، فهم يميلون للقول بأنه ليس بوسع عامل معين أن يساهم فى

(٤٠) والمثال الجيد على هذا النوع هو المناقشة بين البروفيسور ر. فريش والبروفيسور ج. م. كلارك J. M. Clark بشأن العلاقة بين نقاط تحول كل من الاستهلاك وإنتاج السلع الرأسمالية فى الدورة ('The Interrelation between Capital Production and Consumer-Taking,' 'Reply,'

('Rejoinder,' and 'A Further Word,' Journal of Political Economy, 1931-2

(٤١) ثمة مثال ميكانيكى يوضح هذه الظاهرة. لنضع ساعة الكترونية تأخذ مكانها على طاولة متقلقة نوعاً ما. إن التيار الالكترونى، الذى يُبقى الساعة تعمل، منتظم تماماً. ومع ذلك، فيمكن لهذا التيار أن يحدث حركة متقلقة بالنسبة للطاولة.

(٤٢) أى غير الرياضيين.

التقلبات الدورية ما لم تكن السلاسل الزمنية الخاصة به متقلبة oscillatory هى نفسها. وهكذا، فمن المتوقع أن يُظهر هؤلاء الباحثين بعض علامات الامتتان للديناميكا الكلية لدورها فى توسيع أفقهم بهذا الشكل، مثلما يتعين عليهم أيضاً إبداء هذا الامتتان لها، من نواحٍ أخرى، لدورها فى تعميق وتصحيح حججهم. وحينما لا يفعلوا هذا على الدوام، فالسبب يعود أساساً إلى نواقصهم الرياضية دون شك. ولكن ثمة سبب آخر ينبغى أن نشير إليه.

لقد ذكرنا آنفاً أن الديناميكا الكلية تساعدنا على فهم آليات التطوير mechanisms of propagation. ومما قد يساعد القارئ لو أنه ينظر إلى النظام الاقتصادي كمكبّر صوت يستجيب لتأثير الحوادث المزعجة disturbing أو 'المثيرة' irritating بطريقة تتحدد جزئياً بواسطة بنيتها المادية. تصور، مثلاً، كماناً 'يستجيب' بطريقة ما حينما 'يزعج' عندما يعزف عليه العازف. إن فهم 'قوانين' هذه الاستجابة يساهم فى تقديم 'تفسير' كامل للظاهرة التى نسميها عزف على الكمان violin concert. ولكن من الواضح أن هذه المساهمة، حتى إذا عززتها مساهمة عالم الفلسفة العصبية، لا تفسر كل هذا العزف. وإذا نحننا جانباً التقويم الجمالى وما شابه، فهناك مدى معين من المساحة العلمية البحتة يعجز علم الصوت وعلم الفلسفة تكوينياً عن تغطيتها. وبالمثل، فإن الديناميكا الكلية تعاني من محدوديات واضحة، رغم أنها أساسية تماماً لتفسير معين لظواهر الدورة (٤٣): فنماذجها الدورية هى كنماذج مكبرات الصوت بالنسبة للعزف على الكمان. ولكن أنصار الديناميكا الكلية لن يروا هذا. فهم يبنون نماذج ديناميكية كلية يراد بها تفسير كل ما يراد تفسيره من ظواهر الدورة بالنسبة للاقتصاديين. إن مجرد

(٤٣) يبدو هذا التشبيه واهناً ككل التشبيهات طبعاً. وكذلك هو شأن المقترح التالى الذى هو ليس بتشبيه. إن مسارات الدورات تمضى ضمن التطور التاريخى للاقتصاد الرأسمالى. وحتى لو أهملنا كل الموسيولوجيا الاقتصادية التى، لذلك، يجب أن تدخل بالضرورة فى تفسيرها، فلا يسعنا ألا نلاحظ أن نظريتها أو، لتجنب هذه الكلمة، تحليلها، يجب أن يرتبط إلى حد بعيد بنظرية أو تحليل التطور أكثر مما بالديناميكا، التى هى نظرية أو تحليل للأوضاع المتعاقبة sequences التى لا تحمل أى نقاط زمنية تاريخية historical dates. ومما لا شك فيه أن هناك آليات معينة لعبت دوراً كبيراً العام ١٨٥٧ مثلاً فعلت ذلك العام ١٩٢٩. وينبغى أن تؤخذ هذه الآليات بنظر الاعتبار فى أى دورة مشاهدة وفقاً لمخططات ديناميكية كلية يمكن أن تنطبق انطباقاً عاماً إلى هذا الحد أو ذاك، مثلما ينبغى بالضبط، عند مستوى أقل من التكنيك، أخذ نظرية العرض والطلب العادية بنظر الاعتبار. ولكنها مجرد أدوات ولا تكفى فى حد ذاتها، حتى لو عززت بكل السلاسل الزمنية التى يمكن تصورها، لإعادة بناء الظاهرة ككل وكذلك، طبعاً، وبدرجة أقل، آثارها بعيدة المدى.

محاولة ذلك يتضمن كثيرًا من الأخطاء^(٤٤). فثمة بنى مهلهلة تقوم على فرضيات اعتباطية، 'يجرى تطبيقها' وتقديمها حالًا كدليل للسياسة الاقتصادية، وهي ممارسة تكمل طبعًا قائمة الأسباب لإثارة المعسكر المقابل. ويتكون لدى المرء، أحيانًا، الانطباع بأنه لا توجد سوى مجموعتين من الاقتصاديين: مَنْ لا يفهمون ما تعنيه المعادلة الفرقية difference equation؛ وَمَنْ لا يفهمون أى شيء آخر. وهكذا فحينما أجازف بالقول إن هذا الحاجز غير الضرورى قط- ولكنه غير جديد فى علمنا- للتفاعل المثمر سينهار بمقتضى منطق الأشياء إنما أعبر عن أمل أكثر مما هو نبوءة تتحقق عن قريب.

وما يزال يتعين على أن أشير إلى فرع واعد من الديناميكا لا يشكل أيضًا اقتصادًا جزئيًا microeconomics حقًا لأنه لا يمتد إلى العوامل الفردية المقررة، ولكنه ليس اقتصادًا كليًا أيضًا لأن نماذجه لا تشمل كل الاقتصاد: أنه قريب من التحليل الجزئى لدى مارشال partial analysis لأنه يُعنى (تقريبًا) بصناعات فردية. وتُعطى دورة العلف-الخنازير corn-hog cycle أشهر مثال: فإذا قرر كل المزارعون، بسبب وجود علاقة ملائمة بين سعر الخنازير hog (لحم الخنزير pork) وتكلفة تغذيتها (سعر العلف من الحبوب)، فى وقت واحد تقريبًا زيادة الإنتاج من الخنازير، وإذا خرج كل هؤلاء فى نفس الوقت تقريبًا حينما يزداد عرض الخنازير، كما هو مجرى الأمور فى هذه الحالة، فهذا يمكن أن يسبب هبوطًا حادًا فى سعر الخنازير (وكذلك زيادة فى سعر العلف) مما يمكن أن يحمل غالبية منهم على تقليص إنتاجهم الأمر الذى من شأنه أن يعيد خلق ظروف ملائمة يمكنها بدورها أن تقود إلى توسع آخر فى إنتاج الخنازير. قد تكون الدورة الناتجة دورة واهنة damped، انفجارية explosive، راكدة stationary، وأن من الممكن

(٤٤) يمكن لثلاثة من الأخطاء أن تصلح كأمثلة توضيحية. تبين هذه الأخطاء، فى الوقت نفسه، لماذا لا نخبرنا الاعتراضات المعنية بشيء ما ضد النماذج نفسها ولكن فقط ضد الادعاء المشار إليه. (١) تتضمن نماذج الديناميكا الكلية، المقدمة مع ذلك الادعاء، فرضية إن 'أسباب' الدورات الاقتصادية ينبغى العثور عليها فى التفاعل بين المجاميع الاجتماعية نفسها social aggregates بينما يمكن إثبات إن الدورات تنشأ عن اضطرابات قطاعية. (٢) ومع الشرط نفسه، تحمل النماذج الديناميكية الكلية المضمون القائل إن التغيرات الهيكلية التى تحول الاقتصاد لا تمت تاريخيًا بأية صلة إلى الدورات الاقتصادية، بينما يمكن إثبات أن الدورات هى الشكل الذى تأخذه التغيرات الهيكلية. (٣) يهدف بناء النماذج الديناميكية الكلية، دائمًا تقريبًا، إلى تفسير كل مراحل الدورات (ونقاط التحول) بواسطة معادلة 'نهائية' واحدة. وهذا ليس مستحيلًا حقًا. ولكن من الخطأ افتراض أنه يجب أن يكون ممكنًا وتقييد التحليل بهذا المستلزم.

وضع نموذج عام بسيط لوصف هذه الآلية التي يمكن مشاهدتها بالفعل ليس فقط في سوق الخنازير بل في طائفة كبيرة من الحالات أيضاً^(٤٥). والمثال الثاني، الذى يُظهر الظاهرة بالنسبة للسلع المعمّرة، هو مثال البروفيسور تنبرجن حول بناء السفن^(٤٦). من ناحية، من المعقول أن نقول إنه لن يتم الوثوق كثيراً بالنتائج التى تقدمها مثل هذه المخططات (ظاهراً أكثر مما حقيقة) ولا بد من إبداء عناية قصوى عند تطبيقها، إذا أمكن أصلاً تطبيقها على أى حالات عملية. وهكذا فإن قراء مقالة البروفيسور تنبرجن سيلاحظون بقلق القائمة الطويلة من الفرضيات مما يتناقض مع حقيقة أنه قد طلب منهم قبول هذه الفرضيات. ولكن حتى إذا قبلوها كلها، فإنهم سيجدون أن من الصعب حمل أنفسهم على أن يهملوا إهمالاً كاملاً كل المؤثرات، على بناء السفن، التى تمارسها الصناعات الأخرى وظروف نشاط-الأعمال العام (المصدر السابق، ص ١٥٤) علامات على الدورة الاقتصادية أكثر مما على الآلية التى يفرداها المخطط. ولكن، من ناحية أخرى، فإن مخططات من هذا النوع هى خطى أولى نحو نظرية ديناميكية أكثر كمالاً مما يوجب إدراجها كأعمال رائدة ذات أهمية فائقة: إن القارئ نفسه الذى تدهشه نواقص هذه المخططات - كما كان سيفعل عند قراءة راية سفينة كولومبس - لابد من أن يندهش أيضاً من حقيقة أن عنصرًا من الآلية التى تصفها المخططات يرد بالتأكيد فى كل حالة عملية (تقريباً)، وعلاوة

(٤٥) نجيل القارئ إلى: M. Ezekiel, 'The Cobweb Theorem,' Quarterly Journal of Economics, February 1938 (وقد أعيد نشرها فى المجلد: Readings in Business Cycle Theory) حيث يجد

القارئ كل ما هو ضرورى بما فى ذلك تقريباً كل الأدب المتصل بها.

(٤٦) J. Tinbergen, 'Ein Schiffbauzyklus ? Weltwirtschaftliches Archif, July 1931 .. والنموذج

ممتع جداً. لندع السفن المتاحة حالياً من ناقلات الشحن تتمثل على محور الزمن، لنسميها $f(t)$ ونفترض، كمقاربة أولى، أنها تتغير فقط كنتيجة لإنتاج سفن جديدة مما يمكننا أن نرمز إليها ب $f'(t)$. افترض أيضاً أن تكلفة الشحن ستكون عالية (متدنية) حينما تكون السفن قابلة (كثيرة) بالمقارنة مع اتجاهها مما يشجع (يثبط) الطلبات على السفن الجديدة التى سيثبط (يشجع) تنفيذها من الطلبات الإضافية، وهكذا. فإن زيادة إنتاج السفن فى أى لحظة سوف يعتمد على ندرتها أو

وفرتها النسبية فى وقت ما من الماضى (قل ϕ من السنين): $f'(t) = -\alpha f(t-\phi)$

حيث α هى عبارة عن ثابت يمثل حدة رد الفعل. وهذه معادلة فرقية وتفاضلية مركبة، وهى أول معادلة من هذا النوع تدخل النظرية الاقتصادية. ويصف حل هذه المعادلة التطور فى عدد السفن عبر الزمن، إذا كان التطور معطى فى فترة ابتدائية (نظرياً، وإلى الأبد بعد هذه الفترة). ووفقاً لطريقة أساسية يستعملها علماء الفيزياء كثيراً، فإننا نحصل على الحل بواسطة الإحلال (التجريبى):

$f(t) = e^{\alpha t + \beta}$. وسلاحظ القراء الرياضيون أن هذا الحل سيكون دورياً إذا جعلنا α عدداً متخيلاً (إن علاقة يولر Euler's relation هى $e^{i\alpha t} = \cos \alpha t + i \sin \alpha t$) انظر: J. A. S., Business

[Cycles, p. 533

على ذلك، فإن هذا العنصر يرد في معظم المهام المعرّفة جيّدًا التي تدعو المخططات إلى المزيد من العمل بشأنها على نفس الخط. إن عملاً كهذا لا يمكن أن يكون أكثر من عمل استكشافي (تمهيدى). ولكنه يستكشف الأرضية التي ستقف عليها بنية جديدة ذات يوم.

الفصل الخامس كينز والاقتصاد الكلى الحديث^(٤٧)

- ١- تعقيبات حول الجوانب الأوسع من عمل كينز
- ٢- الجهاز التحليلي في عمل كينز 'General Theory'
- ٣- تأثير الرسالة الكينزية

فى تاريخ التحليل الاقتصادى، فإن الزاوية التى ينبغى أن ننظر منها إلى أكبر نجاح أدبى فى وقتنا الحاضر، عمل كينز: General Theory of Employment, Interest and Money (1936)، هى زاوية الاقتصاد الكلى الحديث، وأنه من هذه الزاوية فقط يمكننا أن نحاول إنصافه. أما من أى زاوية أخرى، فهذا بمثابة إجحاف. فكما هو معظم الاقتصاديين العظام الذين وصلت رسائلهم إلى الجمهور العام، وبخاصة مثل آ. سمث، كان اللورد كينز يعنى شيئاً آخر، إضافة إلى كونه باحثاً فى حقل التحليل الاقتصادى. فقد كان كينز قائداً قوياً وغير هيب لل رأى العام، ومستشاراً حكيماً لبلده - إنجلترا، والذي كان قد ظهر فى الحرب العالمية الأولى، محافظاً فيما بعد، مع مزيد من العمق، على علم الفراسة الاجتماعى physiognomy الذى اكتسبه حينذاك - وممثلاً ناجحاً لمصالحه، كما كان كينز رجلاً يمكن أن يحتل مكانة فى التاريخ، حتى وإن لم يكتب سطرًا واحدًا من العمل العلمى تحديدًا: وكان هو من كتب فيما بعد: (Economic Consequences of the Peace) (1919) مكللاً بالشهرة العالمية فى حين صمت رجال كانوا يمثلون بصيرته ولكنهم أقل شجاعة ورجال يمثلون شجاعته ولكن أقل بصيرة^(٤٨).

(٤٧) [كان هذا هو آخر شيء كتبه ج. شوميتير إلى كتابه: تاريخ. وقد تركه للطبع حينما غادر كمبريدج لعطلة رأس السنة كانون أول ١٩٤٩. ولم يُطبع بعد وفاته. وعليه، فلم تتوافر له فرصة ما لتصحيحه أو تعديله.]

(٤٨) لقد حاولت فى الأجزاء: الثانية، الثالثة والرابعة، من حين إلى آخر، أن أضع خلاصة عن الشخصيات كشخصيات. وهذا غير ممكن فى هذا العرض الموجز. ولذلك، اكتفى بإضافة القول بأن ثنائى كينز - عدلاه. يعجز عن تغطية لوحة معينة عن الرجل وحتى ثراء اهتماماته. وحتى عمه العلمى نحت ن ينحدر نوحتنا من جميع جوانبها. لقد وصفت الكلمات الواردة أنفا كثناء =

وبمعنى ما، كان عمل كينز: General Theory عملاً مماثلاً من أعمال القيادة. فقد علّم هذا العمل إنجلترا، عبر تحليل عام على ما يبدو، وجهة نظره الشخصية بشأن وضعها الاقتصادى والاجتماعى وكذلك وجهة نظره الشخصية حول 'ما ينبغى عمله مع هذا الوضع'. وعلاوة على ذلك، فنظرًا لاصطدام رسالة الكتاب بالمناخ الأخلاقى الذى خلقه الكساد وبالمذ الراديكالى المتزايد، فقد حققت هذه الرسالة، التى انطلقت من الموقع المتميز لكمبريدج والتى أثراها أنصار مقتدرون ومخلصون كثر، نجاحًا مماثلاً فى كل مكان، وبخاصة فى الولايات المتحدة. وقد يبعث هذا على الاستغراب إذا أخذنا بنظر الاعتبار أن موقف كينز كان محافظاً نوعاً ما من نواح كثيرة، وبخاصة فى قضايا حرية النشاط الاقتصادى. ولكن لا ينبغى أن ننسى أن كينز قدّم خدمة حاسمة للمذهب المساواتى equalitarianism فى نقطة ذات أهمية فائقة. فقد تعلّم الاقتصاديون الميالون لهذا المذهب، منذ عهد بعيد، إهمال كل جوانب أو وظائف عدم المساواة فى الدخل إلا الجانب التالى: إذ ظلوا يشكون بآثار السياسات المساواتية على الادخار كما فعل ج. س. ميل. وقد حرّهم كينز من هذه الشكوك. فقد بدا أن تحليله يعيد الاعتبار الفكرى لوجهات النظر المعادية للادخار؛ وقد أفصح كينز عن هذا فى الفصل الرابع والعشرين من عمله General Theory. وهكذا، فمع أن رسالته العلمية قد سحرت كثيرين من أفضل العقول فى مهنة الاقتصاد، بيد أنها سحرت أيضاً الكتاب والناطقين على تخوم الاقتصاد المهنى ممن لم يدركوا شيئاً من العمل General Theory سوى أنه: الاقتصاد الجديد للإنفاق New Economics of Spending، والذين أعاد كينز، بالنسبة لهم، الأيام الخوالى للسيدة مارسية (انظر الجزء الثالث، الفصل الرابع) حينما كانت كل طالبة، بتعلمها استعمال بضع مفاهيم بسيطة، تكتسب المقدرة للحكم على كل القضايا الداخلية والخارجية للجهاز المعقد جداً فى المجتمع الرأسمالى. كان كينز ندًا لريكاردو بالمعنى الأرفع لهذه العبارة. ولكنه كان أيضاً ندًا لريكاردو فى أن عمله يشكل مثلاً مدهشاً على ما أسميناه، سابقاً، نقيصة ريكاردو، أى تحميل عمل أساسى رقيق شحنة ثقيلة من الاستنتاجات العملية الأمر الذى لم ينصف هذا العمل رغم أنه، ببساطته، بدا ليس فقط عملاً جذاباً بل مقنعاً

tribute= ولكن خلف هذا الثناء ثمة ثناء أرحب يبقى غير مكتوب هنا. [انظر العمل: John Maynard Keynes (1883-1946) الذى كتبه ج. شوميتير لمجلة: American Economic Review, September 1946. وقد أعيد نشره ضمن عمله: (Ten Great Economists) 1951].

أيضاً. وقد قطعَ هذا شوطاً بعيداً، ولو ليس الشوط كله، نحو الإجابة على الأسئلة التي تهمنا دائماً، أى: ماذا فى رسالة المرء ما يجعل الناس يصغون إليه ولماذا وكيف. ورغم ذلك، فإن مهمتنا الوحيدة هى أن ندخل فى عرضنا مساهمة كينز فى جهازنا التحليلي. ولكن أهمية عمله تفرض علينا، قبل ذلك، ضرورة تقديم بعض تعقيبات على الجوانب الأوسع من ذلك الجهاز.

١- تعقيبات على الجوانب الأوسع من عمل كينز

أولاً، يقدم عمل كينز مثلاً ممتازاً على موضوعتنا القائلة إن رؤية الوقائع والمعاني تسبق، من حيث المبدأ، العمل التحليلي الذي، إذ يشرع بتحقيق الرؤية، فإنه يمضى معها منذ ذلك الحين يداً بيد ضمن علاقة لا تنتهى من الأخذ والعطاء. ولا يمكن لشيء ما أن يكون أوضح من أنه، فى بداية الجزء المهم من عمل كينز، قد برزت رؤيته للرأسمالية الآخذة فى الكبر فى إنجلترا وتشخيصه الغريزى لها (الذى واصله دون أى اهتمام بالتشخيصات الممكنة الأخرى): فالالاقتصاد المصاب بتصلب شرايين تتناقص فرصه لتجديد شبابه بينما تتواصل عادات الادخار التى تشكلت فى عهود الفرص الوفيرة. لقد تشكلت رؤية كينز هذه فى الصفحات الأولى من عمله: (the Economic Consequences of the Peace 1919) وأنه ألمح إليها بوضوح متزايد فى أعماله اللاحقة. وقد تجلت مبادرة كينز العلمية البحتة الأكثر طموحاً، بشكل خاص، فى عمله: (Tract on Monetary Reform 1923) و (Treatise on Money 1930). ورغم أن العمل Treatise لا ينطوى على فشل بالمعنى المعتاد لهذه الكلمة، بيد أنه قوبل بنقد محترم ولكن مدمر، وفشل، قبل أى شيء آخر، فى التعبير عن رؤية كينز بدرجة كافية. وعليه، وبتصميم يثير الإعجاب، قرر كينز أن ينحى جانباً الأجزاء المعرّقة من الجهاز وأنصرف إلى مهمة وضع نظام تحليلي من شأنه أن يعبر عن فكرته الأساسية وليس عن أى شيء آخر. ويبدو أن هذه النتيجة، التى قدّمها للعالم عام ١٩٣٦، كانت قد أرضته تماماً وإلى حد الشعور بأنه قد انتشل علم الاقتصاد من بين ١٥٠ سنة من الخطأ وأرساه على أرض الحقيقة المؤكدة- وهذا ادعاء يتعذر اختباره هنا، ولكن تم قبوله بصورة جاهزة من قبل البعض، مثلما أنه أساء إلى عمل كينز فى أعين كتاب آخرين.

ثانيًا، يجب أن نسجل اعتراف كينز بفضل السيدة جوان روبنسون، والسيد ر. غ. هاوترى R. G. Hawtrey، والسيد ر. ف. هارود R. F. Harrod (وهو فضل يمكن إثباته في كل حالة بصورة مستقلة عن الحالات الأخرى) ولكن كينز اعترف بشكل خاص بفضل السيد ر. ف. كان R. F. Kahn الذى لم يقف دوره بعيدًا جدًا عن المشاركة في تأليف ذلك الإنجاز التاريخي. وانتهاز هذه الفرصة لأنقذ من النسيان مساهمة أخرى لكان Kahn، إضافة إلى مساهمته في عمل كينز: General Theory وفي نظرية المنافسة غير التامة. فرغم إن مارشال قدّم مادة وفيرة لنظرية العمليات قصيرة الأجل، بيد أنه كان يشدد دائمًا على خصائص الوضع العادى طويل الأمد long-run normal، ربما دون أن يوضح بدرجة كافية أن ما قصده بالفعل كان هو المنطق البحث للعملية الاقتصادية وليس أى حالة أخرى للأشياء يمكن أن تظهر فعلاً في أى لحظة من المستقبل. كان من الضروري إدراك أن ما يظهر حقاً وما يمكن أن يُشاهد هو النتيجة لتتابع حوادث قصيرة الأجل وردود أفعال قصيرة الأمد عليها وأنه يحمل شبهة ضئيلة بحالة التوازن التام التى يمكن أن يظهر إذا أخذت وقتاً لكى يعبر كل شيء عن نفسه دون أى اضطرابات أخرى تحدث أثناء ذلك. إن وجهة النظر هذه، الهامة جداً كما هو واضح لتحسين التحليل الاقتصادى، قد أخذ كان Kahn بها من قبل بشكل منسجم، بشكل منسجم وواع أكثر مما فعل أى اقتصادى آخر في نظري، رغم أنني غير قادر على تأشير أى عمل محدد له من شأنه أن يدعم هذا التأكيد. (حول العلاقة الممكنة بين هذه المساهمة العلمية وفلسفة الأمد القصير في وقتنا الحاضر، انظر الجزء الرابع، الفصل السابع).

ثالثاً، ينبغي، بحسب الحالة، أن يُنسب إلى كينز الفضل، أو أن يؤخذ على، منشأ المذهب الركودى الحديث modern stagnationism. إن المذهب الركودى، بحد ذاته، قديم قدم الفكر الاقتصادى من الناحية العملية. فحينما يستمر التوسع الاقتصادى economic malaise لفترة مطولة، يقم الاقتصاديون نظريات تزعم أن الكساد قد جاء ليبقى، مسافرين في ذلك الأمزجة السائدة في زمانهم كما يفعل بقية الناس. وقد شاهدنا أمثلة على ذلك من قبل. ولكن بقدر تعلق الأمر بوقتنا الحاضر وبالأدب العلمى، فيمكن رد هذا الموقف، كما سبق أن رأينا، إلى عمل كينز: Economic Consequences of the Peace. وفي الولايات المتحدة، وبصورة

طبيعية، لم يتم 'التقاط' هذا الموقف حتى أزمة ١٩٢٩-١٩٣٢، ولكنه قد تم التقاطه بقوة شديدة بعد وقوع الأزمة وبروز آثارها. ثمة مجموعة كان يمكن أن تسمى مدرسة ووجدت التجاوب لدى كل فئات الرأي العام تقريباً- بما في ذلك جماعة رجال الأعمال المرهقة- كانت قد برزت كمجموعة لها أهمية علمية في ظل القيادة اللامعة للبروفيسور ألفن هانسن Alvin H. Hansen الذي أسهب ووسّع مذهب الاقتصاد الناضج أو الراكد mature or stagnating economy وفقاً لخطوط تختلف نوعاً ما عن خطوط كينز. يتعذر علينا أن نحاول هنا تحليل هذا المذهب بصورة معمّقة ونقتصر على ملاحظة أن هذا المذهب قد برز على نحو أفضل مما كان متوقّعا، رغم الأدلة المناقضة ظاهرياً، وذلك لثلاثة أسباب (١) لأن الفرص الاقتصادية الجديدة التي كانت تظهر يمكن أن تُعزى، عن حق جزئياً، إلى نتائج الحرب العالمية الثانية وبالتالي يمكن أن تُفسّر كفاصل غير مهم بالنسبة لقضايا الاتجاه الأساسى؛ (٢) لأن كل فترة ازدهار، مهما طالّت، تبدى ارتدادات setbacks بحيث يمكن على الدوام تفسير هذه الارتدادات كتجلى لذلك الاتجاه؛ (٣) لأن بعض الكتاب، ممن هم غير 'ركوديين' سواء بمعنى كينز أو هانسن، يصلون إلى نتيجة مماثلة لأسباب خاصة بهم^(٤٩). ويبدو الأمر، أحياناً، كما لو أنه يتوجب علينا أن

(٤٩) وهكذا، فمن الممكن عدم الاقتناع بحجج كينز أو هانسن، ومع ذلك التنبؤ بأن التطور الرأسمالى يميل نحو التلاشى- أى أن يستقر عند حالة يمكن أيضاً أن توصف جيداً 'ركود' - ذلك لأن الدولة الحديثة يمكن أن تحطم أو تشل القوى الدافعة لذلك التطور. وتمثل الضرائب الحديثة مثالا واحداً فقط على العوامل الكثيرة التي تفعل بهذا الاتجاه، علماً بأن من الممكن إثباتها كلها بتحليل الحالة القائمة فى إنجلترا. إن كوابح من هذا النوع- التي، علاوة على ذلك، يمكن أيضاً أن نبين أنها نتائج حتمية للتاريخ الرأسمالى- تفعل فعلها إضافة إلى العوامل التي يشدد عليها كينز وهانسن: ومن الواضح أنها تصل إلى الشيء نفسه، فى اقتصاد قائم على الربح، سواء عند تلاشى الفرص الموضوعية للنشاط المربح أو عند فرض ضرائب على الأرباح بعد أن يتم تحقيقها. لنلاحظ، فى هذا السياق، أن هناك، فى بعض النقاط، قرابة قوية بين حجة كينز-هانسن ومحااجة ريكاردو-ج. س. ميل بشأن حلول حالة راكدة معينة stationary state. وهذا واضح بشكل خاص فى حالة كينز الذى تحدث غير مرة فى كتاباته الأولى عن 'تجاوب الطبيعة المتناقص مع جهود الإنسان'- عشية فترة كان يتعذر فيها تصريف المواد الغذائية والمواد الأولية - وعن ضغط السكان. وهذا العنصر ليس فقط يغيب عن محااجة هانسن بل أنه تحول، على يديه، إلى نقيضه بالفعل. ولكن فكرة ميل فرص الاستثمار لتلاشى فى المستقبل، عند مقارنتها بالميل للادخار لدى الأفراد، رغم أنها عولجت بطريقة تختلف عن طريقة ريكاردو، بيد أنها موجودة لدى كلا الكتبيين [هانسن وكينز]. ويمكن الاختلاف الرئيسى فى انهما تنبأ بصعوبات معينة، فى عملية استقرار الاقتصاد عند حالة راكدة، وهى صعوبات لم ترد عند ريكاردو. [كان ج. شومبيتر، فى عمله: Capitalism, Socialism and Democracy, 1942]. قد صرح وجهة النظر القائلة 'إن التطور الرأسمالى يميل نحو التلاشى لأن الدولة الحديثة يمكن أن تحطم أو تشل قواها الدافعة'.

نتحدث ليس عن كتاب ركوديين وكتاب معادين للمذهب الركودى بل عن خطين مختلفين من حجة ركودية واحدة - على الأقل عند إهمال كل أولئك الكتاب المعادين للمذهب الركودى الذين اقتصروا على انتقاد الحجج الركودية المختلفة.

أخيراً، رابعاً، لنلاحظ الحقيقة المهمة - مهمة فى أنها تبين المدى الذى كان فيه عمل كينز: General Theory يمثل استجابة معينة لأفكار مقبولة على نطاق واسع - المتمثلة بظهور أعمال أخرى فى الثلاثينات حاول كل واحد منها بطريقته التعبير عن أفكار تماثل أفكار كينز فى نقاط مهمة. فهناك، مثلاً، كاتب كينزى متحمس تحدث عن 'محطات سويدية نحو كينز'. وإذا أهملنا الحكم القيمى الذى تتضمنه هذه العبارة، فيمكن حقاً الموافقة على أن الاقتصاديين السويديين الكبار، وبخاصة لندال Lindahl وميردال Myrdal وأهلى Ohlin، قاموا بتطوير تلميحات معينة لفيكسل كان قد بناها بمواد مماثلة ووفقاً لخطة مماثلة. ورغم ذلك، سأكتفى بعملين من شأنهما توضيح ما أقصده.

لقد ظهر عمل إريك لوندبيرغ Erik Lundberg: Studies in the Theory of Economic Expansion (1937) بعد سنة من صدور العمل General Theory، وأنه قد أخذ العمل الأخير بنظر الاعتبار بدرجة كاملة ويتضمن عمله اعترافاً صريحاً 'بتأثيره المشجع'. ولكن عملاً بهذه السعة والعمق يتعذر 'تكوينه'، فى سنة واحدة، بتأثير خارجى ما لم يكن مؤلفه كان قد توصل بنفسه إلى استنتاجات مماثلة نوعاً ما. وإضافة إلى ذلك، فإن تأثير فيكسل أوضح بكثير من تأثير كينز، وأن عمل لوندبيرغ، من حيث طرقه ونتائجه، يختلف عن عمل كينز بدرجة تكفى لتأكيد استقلاله الأساسى عن هذا الأخير. وفى الواقع، وباستثناء كفاءة العرض، يمكننا أن نتحدث عن أفضلية عمل لوندبيرغ، وبخاصة (ولكن ليس حصراً) لأن لوندبيرغ قد عالج من البداية مشكلة السلاسل sequence التى كان ينبغى على أتباع كينز عملها لصالحه. والكتاب مهم بالنسبة لنا بشكل خاص لأنه يظهر الجذور الديناميكية الجزئية والكلية للمذهب الكينزى القائم على نحو أفضل بكثير مما يظهره كينز نفسه. أما بالنسبة للكتاب ما بعد الكينزيين فى وقتنا الحاضر post-Keynesians، فلا بد من أن يكون الكتاب مهماً بشكل خاص بسبب التجربة المنورة التى يمكن أن يقدمها لرؤية الفرضيات 'الكينزية' فى ضوء مختلف وفى سياقات مختلفة.

أما كتاب كارل فول: (1937) *Geldschöpfung und Wirtschaftskreislauf*، فلا يدين بشيء ما إلى *General Theory* ذلك لأن مخطوطة الكتاب، كما يقول المؤلف في المقدمة، كانت قد اكتملت في كانون أول ١٩٣٥ بحيث إنه لم يكن قادراً على أكثر من إضافة إحالات هنا وهناك إلى العمل *General Theory*. وما يثير الدهشة هو وجود عدد معين من وجوه الشبه بين فرضياته وفرضيات كينز، رغم أن المدى الكامل لنقاط الاتفاق الفعلية لن تتضح من الوهلة الأولى بالنسبة للقراء الإنجليز والأمريكان. وهذا يعود إلى حقيقتين: لأن الدكتور فول استعمل جهازاً مختلفاً من المفاهيم وتوصل إلى استنتاجاته بطرق تميل إلى إخفاء نقاط الاتفاق تلك؛ وإذ كُتب كتاب الدكتور فول في بيئة مختلفة، فإنه منح مجالاً واسعاً لمشاكل لم تعد هامة بالنسبة للمهنة الأمريكية. ولهذا بالضبط، فإن دراسة الكتاب يمكن أن تكون مفيدة جداً للاقتصاديين الأمريكيين. ونظراً بالذات إلى أن منهج الكتاب هو منهج غير كينزي على ما يبدو، فإنه يكشف عن علاقات مذهبية (موضوعية) ويلقى ما يعد ضوءاً جديداً على مشاكل كينزية عدة، وبخاصة مشكلة البطالة التوازنية *equilibrium underemployment*. وقد مارس هذا الكتاب بعض التأثير في ألمانيا، وتأثيراً كبيراً في الدانمارك كما أخبرني زميل اقتصادي دانماركي.

٢- الجهاز التحليلي في عمل كينز 'General Theory'

أولاً، إن الجهاز التحليلي المستخدم في العمل *General Theory* جهاز ستاتيكي أساساً. سنحاول بعد قليل تفسير التناقض الظاهري المتمثل بأن مكانة هذا العمل في تاريخ التحليل إنما ترتبط، رغم ذلك، بالدافع الذي قدمه للديناميكا الكاية. كما لا أقصد إنكار أن أجزاء كبيرة من الكتاب - يمكن للبعض أن يقولوا: أهم أجزاءه - تخصص للعوامل الديناميكية. بيد أن هذه العوامل قد أضيفت إلى جهاز عظمي^(٥٠) كان ستاتيكياً بشكل حاد بحيث يمكن، كمسألة مبدأ، إهمال كل السلاسل

(٥٠) لقد جرت صياغة هذا الجهاز العظمي بدقة مرات عدة. نكتفى بذكر: O. Lange, 'The Rate of Interest and the Optimum Propensity to Consume,' *Economica*, February 1938, and L. (R. Klein, *The Keynesian revolution* (1947).

والفترات^(٥١). ثانياً، إن هذه النظرية الستاتيكية ليست ستاتيكا الأوضاع العادية طويلة الأمد long-run normals بل نظرية التوازن قصير الأمد. ثالثاً، إن النقطة الأهم في هذا السياق هي إن أثر الاستثمار الجديد على الإنفاق، من بين كل جوانب العملية الاستثمارية، هو الأثر الوحيد الذى يدخل النموذج (وليس الكتاب): فكما شدّد كينز نفسه عن حق، إن رأس المال المادى (المعدات) يُفترض أن يبقى ثابتاً طوال الوقت نوعاً وكماً. وهذا يحدّ من النظرية ويختزلها إلى تحليل للعوامل التى تحدد الدرجة الأعلى أو الأقل من استعمال جهاز صناعى قائم. إن مَنْ يبحث عن جوهر الرأسمالية فى الظواهر التى تلازم إعادة خلق هذا الجهاز بصورة دائمة والثورة الدائمة التى تتواصل فى إطاره يجب أن نعذرهم لهذا السبب حينما يعتقدون إن نظرية كينز تتجرد عن جوهر العملية الرأسمالية^(٥٢). رابعاً، رغم أن التحليل الكينزى هو تحليل كلى aggregative analysis، بيد أنه - لغرض البساطة دون شك - يفترض مسبقاً المنافسة 'الحرّة' فى كل أسواق السلعة والعوامل، وإن لم تكن المنافسة 'البحثة' بالفعل. خامساً، يُعتقد أن كل فرد يستجيب لنوع خاص من القيم 'الحقيقية'، أى لأسعار معبّر عنها بوحدات -أجر أو أسعار تُقسّم على أجر نقدى متوسط لكل وحدة من العمل تحدده المساومات بين أصحاب العمل والمستخدمين- وهو إجراء تبسيطى بئس تقريباً لا يتيح إمكانية المقارنة بين نقطتين زمنيتين مختلفتين ما لم تكن معدلات الأجر هى نفسها فى كلتا الحالتين. ولكن ثمة استثناء هام لهذه الفرضية القائلة بأن الناس يفكرون من خلال القيم الحقيقية بهذا المعنى: فالعمال لا يفعلون ذلك إلا حينما يدخرون ويستثمرون، ولكن ليس فى مساوماتهم حول العمل؛ فحينما يتفاوضون بشأن عقود الأجر، فهم يأخذون بالاعتبار معدلات الأجر النقدى فقط^(٥٣).

(٥١) المثال البارز على هذا هو مضاعف كان-كينز [كان ج. شوميتير قد عزم على مناقشة هذا فى الجزء التالى من هذا الفصل الذى لم يكتمل].

(٥٢) إن هذا لا يمنعنا من إيجاد عدة نقاط من الاتصال بين التحليل الكينزى والماركسى. ورغم ذلك، فهما تقيضان أساساً.

(٥٣) يؤثر هذا ثلاثة أسئلة: (١) السؤال حول واقعية هذه الفرضية بحد ذاتها؛ (٢) السؤال حول مبرر هذا الاستثناء من القاعدة التى تم تبنيها بالنسبة لكل المعاملات الأخرى؛ (٣) السؤال حول آثار هذه الفرضية على نظرية الأجر لدى كينز. ليس بوسعنا أن نجيب على أى من هذه الأسئلة ضمن المجال المتاح: فلا نستطيع سوى أن نوضح أن كينز، بفضل هذه الفرضية، استطاع رفض النظرية المعتادة بشأن دالة عرض العمل التى تستند على فرضية مناقضية. وإذ بالغ كينز كثيراً فى أهمية هذه النقطة، فقد أسماها 'نقطة خروجنا عن النظام الكلاسيكى' (المصدر السابق، ص ١٧). ولكن من الصحيح، وفقاً لخطة محاججته، أن هذه الفرضية هى التى تمكنه من الدفاع عما هى فرضية=

ضمن إطار هذه النقاط الخمس، يطرح التحليل الكينزى- تحليل الدخل القومى الجارى- خمس متغيرات داخلية، أى المتغيرات التى يحددها النظام: الدخل القومى نفسه، التشغيل، الاستهلاك، الاستثمار ومعدل الفائدة؛ ومتغير خارجى واحد، كمية النقود^(٥٤)، الذى يقدّمه إلى النظام سلوك 'السلطات'. يمكن ترك التشغيل لينتج جانبا على أساس الفرضية، التى قد تكون ممكنة فى الأمد القصير جدا، القائلة إن التشغيل يحدده الدخل القومى حصرا. إن القيمة الجارية لهذا الأخير تساوى بالتعريف الاستهلاك الجارى زائدا الاستثمار الجارى على نحو متطابق، علما بأن الكميات الثلاث يتم التعبير عنها بوحدات-أجر^(٥٥). ومع كل 'المعطيات' givens المفترضة، يمكن القول إن القيمة الجارية للدخل القومى 'تتحدد' بثلاثة دوال أو جداول كان كينز قد مجدها بتسميتها باسم 'القوانين النفسانية'^(٥٦): دالة الاستهلاك، ودالة الاستثمار، ودالة تفضيل السيولة، وهى الأدوات العظيمة الثلاثة للتبسيط التى تتولى تحقيق رؤية كينز بالنسبة للعملية الاقتصادية، وبخاصة هدفه فى إثبات وجود توازن البطالة underemployment equilibria، وكذلك، إذا صغنا

=أساسية بالنسبة لنظامه، أى أن عقد الأجر لا يقرر الأجور الحقيقية من حيث المبدأ. لقد تراجع أتباعه، بشكل تدريجى وغير مباشر، عن هذا الوضع الذى يتعذر الدفاع عنه والذى هو، بالنسبة لمحاكمته، أقل جوهرية مما تصور هو نفسه. ومع ذلك، لاحظ العنصر الذى يمكن الدفاع عنه فى هذا الوضع: إن أى زيادة أو انخفاض فى معدلات الأجر، إذا كانت تزيد أو تخفض من الدخل الأجرية فى قطاع مهم من الاقتصاد بدرجة كافية (أو حتى فى موضع محلى)، يكون لها بعض التأثير على الأسعار، وإن هذا التأثير يمكن، جزئيا أو كلياً، أن يعادل التغير فى معدلات الأجر النقدي- وهذه سلسلة من أشياء مترابطة تستحق أن يُشدد عليها بالفعل.

(٥٤) إن أحد النواقص الكثيرة لعرضنا، الذى لا يستهدف سوى استحضار قسم من الأساسيات فى أذهان قراء يُعتقد أنهم على دراية بالعمل General Theory، يتمثل بأنه ينبغي علينا مواصلة تقليد كثير من الكينزيين فى افتراض أن كمية وسائل الدفع تتحدد خارجيا، أى اعتبارها تتحدد بحرية من قبل الحكومات والمصارف المركزية. وهذا الافتراض، رغم كل الاحتجاجات، يضعنا بصورة خطيرة قريبا من نظرية كمية خام، التى يشكل جانباً أساسياً منها، كما رأينا، أن كمية النقود تكون معطاة خارجيا. ومن شأن هذا الافتراض أن يكون غير واقعى بما لا يطاق، حتى بالنسبة لإنجلترا الحديثة، ما لم نعرف، كما أوضح آرثر سميثز Arthur Smithies، كمية النقود لتعنى النقود القانونية زائدا الحد الأقصى من الودائع التى يسمح القانون و'السلطات' للمصارف بخلقها.

(٥٥) ما دامت الادخارات تعرف بوصفها الفرق بين الدخل والاستهلاك، فإن هذه المتطابقة تعطى المتطابقة المألوفة بين الادخارات الجارية و(معدل) الاستثمار الجارى. ولكن لى تصحح المتطابقة الأخيرة، فلا ينبغي مطابقة الاستثمار الجارى بدوره، كما فعل كينز، مع معدل إنتاج المعدات الرأسمالية الجديدة. حول هذا، انظر: P. A. Samuelson, 'The Rate of Interest under Ideal Conditions' Quarterly Journal of Economics (February 1939) pp. 292-5.

(٥٦) إن هذه الدوال أو الجداول لا تملك، طبعا، الحق بهذا الاسم، حتى ولو بالمعنى الذى يجوز فيه، عند الضغط، إطلاق اسم قانون غوسن للحاجات القابلة للإشباع.

الأمر بتشديد مبالغ فيه، إثبات قناعته بأن الادخار (أو، بعبارة أخرى، معدل الفائدة) يلعب دور سلبياً role of villain في اللوحة التي تفقر الشعوب^(٥٧).

وبنفس المعنى الذي الذي ينحدر فيه منحني الطلب المارشالي من كورنو Cournot (ومن فيري أيضاً Verri، موضوعياً)، فإن دالة الاستهلاك الكينزية تنحدر من مالثوس وفيكسل^(٥٨)، ولكن كينز قام بتدقيقها أكثر. وكما يعرف كل فرد، فإن هذه الدالة تمثل الاستهلاك القومي الكلي الجارى (الإنفاق الكلي على 'الاستهلاك' في صورة وحدات-أجر) كدالة للدخل القومي الجارى (في صورة وحدات-أجر) وهى تعبر عن الفرضية الاعتبارية التى تشير إلى إن أى زيادة فى الأخير تقترن دائماً بزيادة فى الأول ولكن بمقدار أقل^(٥٩). أما تغطية دالة الاستثمار ببضع

(٥٧) إن من يعتقدون بأن الوقائع الاقتصادية وتحليل كينز لا تؤيد هذه القناعة وإن عنصر الحقيقة فيها يُختزل إلى القدر الذى لاحظته ج. س. ميل، دبليو. روشر W. Roscher ومارشال (انظر، قبول كينز، وحتى هوبزن Hobson، بهذا الأمر على مضض، المصدر السابق، ص 19n)، سيبحثون بصورة طبيعية عن تفسير غير تحليلي. وقد يجدوا هذا التفسير، أولاً، فى وضع إنجلترا الذى كان يمكن فيه حل صعوبات كثيرة بمصادرة 'الدخل الربعية' rentiers التى كانت، لأسباب سياسية، لا تذلل بأية صورة أخرى من الناحية العملية؛ ثانياً، فى نوع من البشر مثل كينز- الذى أثار، وهو المتفقد المتجرد الذى مقت بشدة الفضائل البرجوازية ولكنه كان متحضرًا جدًا إلى حد كراهية وسائل العنف، على نحو ليس غير طبيعى إطلاقاً 'طلقة الرحمة' على مصالح المقرضين creditor interest.

(٥٨) ورغم ذلك، فيقوم بين حالتى مارشال وكينز الاختلاف التالى. فهما كانا يمكن أن يكونا متماثلتين بالضبط لو كان بوسع المؤرخ أن يقول إن مارشال كان قد وجد منحناه لدى ج. س. ميل وهو فى حالة أقل دقة فاضاف هو إليه هذه الدقة و'الحدة' rigor and edge. ولكن 'المفترض' بالنسبة لمارشال أنه وجد لدى كورنو كل الدقة والحدة التى يتمناها كل واحد. وأن كينز، الذى كان مفتوناً بمالثوس (بينما من الصعب أن يكون قد تعرف على فيكسل حينذاك) كان يتعين عليه أن يقوم بكل ما ينبغى على نصير لميل أن يقوم به فى حالة منحني الطلب المارشالي. ومع ذلك، فإن القرابة (الموضوعية) بين كينز ومالثوس تبرز بوضوح خاص فى بداية العمل (General Theory (p. 25 حيث يصوغ كينز مفاهيم: دالة العرض الكلي ودالة الطلب الكلي وكذلك دالة الطلب الفعال. فهما كانت الأهمية التى نوليها لتحذيرات كينز، فإننا ننقاد إلى اعتبار هذه الدوال، القابلة لأن تتقاطع مرة واحدة (أو مرات عدة) ولكها ليست متطابقات البتة، كتعميمات للمفاهيم الأصلية للعرض والطلب على السلع الفردية. وإن كينز، المدرك لهذا الفخ المستور، لم يعد إلى الاستفادة كثيرًا من هذه الفكرة فيما بعد. ولكنها الفكرة المalthusian لهاها. وإذا صحت، فهى تكفى لوحدها لإثبات إمكانية توازن معين لا يشكل فيه التشغيل الكامل صفة ما. وأكرر أن الحجج، التى يطرحها كينز ضد ما تصور أنها النظرية الكلاسيكية (بمفهومه)، غير مهمة قط ضد أى صياغة صحيحة لنظرية توازن التشغيل الكامل وأن تهمته القائلة إن النظرية الكلاسيكية لا تعرف أى بطالة سوى البطالة الاحتكاكية frictional unemployment لا تصح إلا إذا تم تعريف مصطلح: احتكاكية بمعنى واسع جدا بحيث يجرى التهمة من كل أهميتها.

(٥٩) إن هذا 'القانون النفساني' للميل للاستهلاك ينبغى أن يشير إلى الأفراد طبيعياً. ولكن الفرضية المعنية تشير إلى مجاميع اجتماعية social aggregates. وقد أسميتها فرضية اعتبارية وذلك فقط للتشديد=

كلمات، فهذا أمر أقل سهولة وذلك لصلة هذه الدالة بالعوامل الديناميكية الهامة جدا التى ترد فى الفصلين الحادى عشر والثانى عشر من عمل كينز، والتى لا تدخل فى الصياغة الصريحة لهذه الدالة. تربط دالة الاستثمار معدل الاستثمار الكلى بالكفاية الحدية 'لرأس المال (المادى) بشكل عام التى يخلقها ذلك المعدل من الاستثمار' (المصدر السابق، ص ١٣٦)، علماً بأنه يجرى تعريف الكفاية الحدية لرأس المال $\text{marginal efficiency of capital}$ كعلاقة بين المردود المتوقع من وحدة إضافية (مختارة بشكل صحيح) من أية سلعة رأسمالية وبين تكلفة إنتاج هذه الوحدة^(٦٠). وهذه الكفاية، كما أوضح كينز نفسه، هى نفس مفهوم فيشر: 'معدل العائد الحدى على التكلفة' $\text{marginal rate of return over cost}$ ^(٦١). ولكن الاختلاف التالى يقوم بينهما: فعند فيشر، يشكل معدل العائد الحدى على التكلفة- الذى يتضمن عملية خصم لسلسلة العوائد المتوقعة- الحقيقة الأساسية بالنسبة لظاهرة الفائدة، فى حين ابتعد كينز، عند هذه النقطة، عما أسميته تقليد باربون Barbon ووضع، من حيث نواياه على الأقل، نظرية نقدية للفائدة مفادها إن الفائدة لا تُشتق

= على حقيقة أنها لا تصوغ سوى إمكانية واحدة من إمكانيات عدة. ويمكننا التعبير عن دالة الاستهلاك بكتابتها هكذا: $C = f(Y)$ ، وعندئذ فإن الفرضية تظهر بمعنى أن الميل الحدى للاستهلاك، dC / dy ، يكون أقل من الوحدة على الدوام. ولكن لنلاحظ حالاً، كبديل لدالة الاستهلاك هذه، إن بوسعنا أيضاً أن نكتب دالة الادخار هكذا أيضاً، $S = \Phi(Y)$. وقد صار من المعتاد بالنسبة لكينزيين كثر إدخال متغير آخر فى كلتا الدالتين، أى معدل الفائدة، i ، علماً بأن أهمية هذا التنازل يقلها إلى أدنى حد الافتراض بأن تأثير i ضئيل جداً.

(٦٠) من المعتاد كتابة دالة الاستثمار هكذا: $I = F(Y, i)$ مما يعكس الكفاية الحدية لرأس المال بواسطة شكل الدالة F . وعندئذ، فإن الميل الحدى للاستثمار، عند معدل فائدة معطى، يكون $\delta F / \delta y$. ولكن يمكننا أيضاً أن نهمل i من أجل التشديد على الحالات التى يكون فيها الاستثمار 'لقائياً' autonomous ، أى أما أن يُفرض على النظام بواسطة عامل خارجى معين كالحكومة أو، بخلاف ذلك، يدخل دون مراعاة للظروف القائمة. أو، على العكس، يمكننا أن نعالج الاستثمار على أنه 'محفز' كلياً induced بمشتريات المستهلكين وأن نكتب دالة الاستثمار عندئذ كما يلي: $I = \Phi(C, i)$ ، كما فعل لانجه Lange (انظر الهامش رقم ٤، أعلاه). إن هذه التعابير وتعابير أخرى تطرح نفسها لغرض تأكيد هذه الإمكانية أو تلك، ولكن أياً منها، إذا أخذ على حدة، لا ينصف بصورة كاملة فكر كينز الذى امتنع بشكل حكيم عن تقديم أى منها بنفسه.

(٦١) $\text{Theory of Interest}$ (1930). ومع ذلك، يمكننا أن أبين حقيقة إن كينز، الذى لم تكن له معرفة من الدرجة الأولى بالأدب الاقتصادى، وبخاصة الأدب القائم حينذاك وغير الإنجليزى، توصل إلى مفهومه بصورة مستقلة تماماً وأنه أورد اعترافه المعنى حينما كان انتباهه مشدوداً إلى صيغة فيشر. وأنه بالغ فى امتنانه حينما التقط الفكرة. وهذا هو رأي البروفيسور ليرنر على الأقل. ومن ناحية أخرى، يمكن القول إن كلا المفهومين يمثل حقاً تحسيناً لمفهوم الإنتاجية الحدية لرأس المال، كما طوره مارشال، وفيكسل بشكل خاص- وهذا يعيدنا إلى بوهم باورك مرة أخرى- ولكن ليس أكثر من هذا. إذ إن 'أفاق' prospectiveness مفهوم الإنتاجية الحدية لرأس المال وصلته بتكاليف استبداله لا يمكن أن ينكرها إلا قلة من المؤلفين الذين استعملوها، هذا إن أنكرها أحد.

من، أو تعتبر عن، أى شيء يمت بصلته إلى العائد الصافى من السلع الرأسمالية، مهما كان شكل هذا الشيء^(٦٢).

وهذا يحملنا إلى الثالثة من دوال أو جداول كينز الأساسية: دالة تفضيل السيولة. ففي الفصل الثالث عشر من عمله General Theory، يبدو كينز وكأنه يقبل النظرية التى تجعل معدل الفائدة 'يعتمد على تفاعل جدول الكفاية الحدية لرأس المال مع الميل النفسانى للدخار' (التفضيل الزمنى). ذلك لأن كينز قد أشار، كاعتراض وحيد له، إلى أن من المستحيل استنباط معدل الفائدة ببساطة من هذين العاملين فقط لأن معدل الفائدة يعتمد أيضًا على الشكل الذى يريد المدخر أن يحفظ به ما يشاء ادخاره. فبعد أن يكون المدخر قد قرر مقدار ما يريد 'الاحتفاظ به بشكل ما لتأمين المقدرة على الاستهلاك المستقبلى' (ص ١٦٦، لاحظ الطابع الكلاسيكى لهذه العبارة)، فما يزال يتعين عليه أن يقرر ما إذا كان، وإلى أى حد، سيتخلى عن المقدرة الآنية لفترة محددة أو غير محددة، أى يتخلى عن تفضيله

(٦٢) نظرًا إلى أن هذا قد يشكل، من زاوية التحليل النظري فقط، المساهمة الأصلية الأكثر أهمية فى العمل General Theory، فتكفي بعض تعقيبات. أولاً، إن النظرية النقدية للفائدة لدى كينز كانت نظرية أصلية ذاتياً كنظرية نقدية للفائدة، ولكنها ليست كذلك من الناحية الموضوعية. فإن التفسيرات التى قدمت لظاهرة الفائدة، بدءاً من السكولانيين، مروراً بخلفائهم البروتستانت، إلى الكتاب الحديثين ما قبل الكينزيين، تربط الفائدة بالنقود ويمكن لكل مؤلفيها أن يوافقوا على الطلاق الذى أعلنه كينز بين مردود رأس المال غير النقدي والفائدة. وتتمثل الأهمية الموضوعية لعمل كينز، إلى المدى الذى وصله هذا العمل، بالنجاح الذى حققته تعاليمه: فقد حول كينز بالفعل عدداً كبيراً من زملائه الاقتصاديين الذين، لعشرين سنة أو تقريباً قبل ذلك، يندرون أن اهتماموا بشكل جدى بأى نظرية نقدية للفائدة. ثانياً، يتعين علينا مجدداً أن نستعيد حقيقة أن فيكسل، دون أن يتبنى نظرية نقدية معينة، كان قد خطا خطوة مهمة جداً نحو هكذا نظرية إلى حد أنه ألهم أتباعه السويديين للأخذ بها. إن هذا الخط الفيكسلى للتقدم يتوافر للقراء الإنجليز بأفضل ما يمكن من خلال عمل البروفيسور اريك لندال Erik Lindahl: (1939) *Studies in the Theory of Money and Credit* وكذلك فى مقالاتى البروفيسور برتل أولهن Bertil Ohlin and 'Some Notes on the Stockholm Theory of Savings and Investment', *Economic Journal*, March and June 1937. وقد قادت هاتان المقالتان إلى مناقشة بين كينز، وأوهلن، وروبرستون Roberston، وهاوتري Hawtrey، تبعها عدد من المقالات لاقتصاديين آخرين. ولكن يجب أن نكتفى، ثالثاً، بإضافة أن الشكل الخاص الذى أعطاه كينز لنظريته النقدية كان أصيلاً ذاتياً وموضوعياً معاً. ربما يختلف هذا الشكل كثيراً أو قليلاً عن الشكل السويدى أو عن الشكل الذى يتبناه البروفيسور هيكنس (Value and Capital, ch. 12) الذى قد يكون الأقرب إلى الهيمنة على الحقل فى ذلك الجزء من الأدب الأنجلو-أمريكى الذى يقبل النظرية النقدية للفائدة أصلاً؛ ولكن الشكل الكينزى يختلف كثيراً عن الأشكال الأخرى - بحيث إن رغبة المرء بمعرفة ما إذا كانت هناك أى قرابة أصلاً بينها وبين الشكل الكينزى هى مسألة مزاج ليس إلا.

للسيولة^(٦٣). ظاهرياً، لا يبدو هذا سوى مجرد تعديل. ومع ذلك، وفيما بعد، وحتى في عمله General Theory، فإن كينز نفسه وبعض أتباعه الأصوليين، وبخاصة البروفيسور ليرنر^(٦٤)، ذهبوا أبعد بكثير من ذلك باتجاه الفرضية القائلة إن الفائدة هي مجرد مبلغ يُدفع للتغلب على نفور المرء من التخلي عن الأصل الأكثر سيولة (own-rate theory of interest) وفرضية أن كمية النقود، مأخوذة بالمقارنة مع كمية النقود المستعملة في المعاملات، هي العامل الوحيد الذي يؤثر بشكل مباشر على تحديد الفائدة^(٦٥). إن الادخار الجارى current saving والاستثمار الجارى current investment ليس بوسعهما تحديد أى شيء لكونهما متساويين بالتعريف. بيد أن الادخار المخطط (ex ante) والاستثمار المخطط (ex ante) يحددان الدخل (الناتج الصافى الكلى) ولكن ليس الفائدة. ثم يتبع ذلك عدد من الألباز المحيرة التى يتيح الوضع العجيب للكساد العميق^(٦٦) بعض التدقيق لها.

(٦٣) من المعتاد، عند الصياغة الدقيقة، تقديم تفضيل السيولة هذا فى معادلة من الشكل: $\bar{M} = L(Y, i)$ الذى يقارن المقدار المتاح من النقود (انظر الهامش رقم ٨، أعلاه) - لقد وضعت خطأ فوق M للإشارة إلى أنها معطاة - مع 'طلب' على النقود يحدده جزئياً حجم المعاملات، التى يمثلها Y ، وتحدده، فى جزئه الآخر، توقعات الناس حول السلوك المستقبلى لأسعار الفائدة المختلفة (دافع 'المضاربة')، التى يمثلها i .

(٦٤) حول حاجة البروفيسور ليرنر Lerner، انظر: Franco Modigliani, 'Liquidity Preference and the Theory of Interest and Money,' *Econometrica*, January 1944, p. 79. وانتبه هذه الفرصة للتوصية بهذه المقالة كتعقيب عام حول هذا المدى الكامل من القضايا.

(٦٥) بين أمور أخرى، لاحظ أن الفائدة ينبغي حقاً أن تساوى أيضاً بين مزايا حيازة النقود والأصول الأخرى. وهذا مثال آخر على طريقة كينز الريكاردية فى التفكير: حقيقة أن معدل الفائدة يجب أن يكون هكذا بحيث يعوض المدخرين عن 'امتناعهم' الحدى - ولو أن معدل الفائدة لم يفعل ذلك، لما استطاع أن يكون كما هو عليه بالفعل - لا تكفى بوضوح لإثبات نظرية الفائدة القائمة على الامتناع. لاحظ أيضاً، مثل كل الأشياء الأخرى، أن كلتا الفرضيتين - نظرية الفائدة القائمة على السيولة التى تتمتع بها النقود own-rate theory ونظرية الامتناع - يمكن جعله صحيحاً أساساً بواسطة افتراض عدد كاف من 'العوامل المعطاة' givens، مع ميزة إضافية تتيح بسهولة قصوى قلب الطاولة بوجه من يعترض على أساس أنه لا يفهم فرضيات الحاجة. انظر، فى هذا السياق، W. Fellner and H. M. Somers, 'Alternative Monetary Approaches to Interest Theory,' *Review of Economic Statistics*, February 1941.

(٦٦) نكتفى بمثال واحد: تعطى النظرية النقدية، إذا أخذناها حرفياً، الاستنتاج الذى يفيد إن زيادة معينة فى التحفيز inducement أو الميل للاستثمار، أو فى الميل للاستهلاك، لا تزيد سوى التشغيل، ولكنها لا تميل لزيادة معدل الفائدة. والعكس واضح فى أى وضع عادى وقد تم تقديمه كموضوع من قبل البروفيسور ساملسون ليس كاعتراض على المذهب الكينزى بل كجزء منه (انظر: J. R. Hicks, 'Mr. Keynes and the "Classics": A Suggested Interpretation,' *Econometrica*, April 1937, pp. 152-3).

٣- تأثير الرسالة الكينزية

من الممكن، بواسطة تلك الدوال أو الجداول الثلاثة، كتابة نظام من ثلاثة شروط توازنية (معادلات) ومتطابقة واحدة من شأنها، في ظل فرضيات ملائمة، ومع اعتبار كمية النقود كمعطاة تُفرض من الخارج، أن تحدد بصورة فريدة الفائدة والاستثمار، والادخار أو الاستهلاك، ويمكن توسيعها لتشمل أيضاً متغيرات أخرى مثل معدلات الأجر لدى كينز^(٦٧). ولكن ما أثار الإعجاب لم يكن هو هذه الترجمة الدقيقة والمجزأة لرسالة كينز، بل مجموعها اللامع كله. وبشكل خاص، فقد بدت هذه الرسالة، بصلتها بالادخار والفائدة والبطالة، كما لو أنها تكشف وجهة نظر جديدة للعملية الرأسمالية ليس فقط، كما رأينا من قبل، بالنسبة للجمهور العام و'الكتاب الانشقاقيين' writers on the fringes بل أيضاً بالنسبة لأفضل العقول في التحليل الاقتصادي المهني - وهي وجهة نظر كانت جذابة بالنسبة للبعض بقدر ما كانت تبعث على النفور لدى البعض الآخر^(٦٨). وقد خلق هذا، في الحال تقريباً،

(٦٧) المتطابقة هي $Y \equiv C + I$ أو $S \equiv I$. وفي الحالة الأولى، يمكننا استعمال المعادلتين $C = f(Y, i)$ و $I = \Phi(C, i)$ ، وفي الحالة الثانية، المعادلتين $S = \Phi(Y, i)$ و $I = F(Y, i)$. للمزيد، انظر مودغلياني Modigliani، المصدر السابق، ص ٤٦. ولكن النظام، وبخاصة أى نظام موسع، ليس مسألة بسيطة كما قد يبدو الأمر للمراقب العادي. وهذا هو السبب الذي يفسر لماذا، رغم أنني لا أستطيع الدخول في المشاكل المعنية، حاولت التزام جانب الحذر من خلال الكلمات 'في ظل فرضيات ملائمة'. ليس من الصعب أن نصوغ نظاماً يبدى عدم الانسجام inconsistencies ويفشل في تعريف توازن معين أو حتى توازنات عدة. ومن المهم أن نلاحظ هذا لأن مثل هذه الأنظمة غير التوازنية تلعب دوراً ما في المناقشة الكينزية: فبالنسبة للكينزيين، يمكن لهذه الأنظمة أن تكون وسيلة لإظهار أن الاقتصاد، من دون الإنفاق الحكومي ('السياسة المالية')، قد لا يقدر على بلوغ حالة توازنية معينة، وبخاصة توازن التشغيل الكامل.

ونلاحظ نقطة مهمة أخرى في هذا السياق. فحينما نتحدث ليس عن استهلاك جار واستثمار جار بل عن استهلاك مخطط واستثمار مخطط، يكون لدينا عندئذ شرط معين لاستقرار النظام مفاده إن مجموع الميل الحدي للاستهلاك والميل الحدي للاستثمار - الميل الحدي للإنفاق - أقل من الوحدة. فإذا كان مجموع هذا الميل يساوي أو يزيد على الوحدة، فإن النظام سيكون محدداً determined حتى في هذه الحالة ولكنه سوف 'ينفجر' بدلاً من أن يتقارب نحو التوازن عند انتقاله when displaced. وهنا، فمشكلة كتاب عدة يميلون للمحاجة كما لو أن شرط الاستقرار هذا يمكن استعمله 'لإثبات' أن الميل للإنفاق أقل من الوحدة بالفعل ذلك لأن النظام الاقتصادي، في الواقع الرأسمالي، لا ينفجر كما يقولون. إن هذه المحاجة غير مقبولة قط لأسباب منطقية، أذكر منها سبباً واحداً فقط: فقد يكون نظام نظري قصير الأمد انفجارياً بينما لا يكون كذلك النظام المناظر طويل الأمد، وإن نظاماً نظرياً طويل الأمد قد يكون انفجارياً في حين أن الواقع المناظر لا يكون كذلك.

(٦٨) يتعذر وصف انقسام المهنة بطريقة واحدة بالنسبة لجميع الأقطار: فالانقسام لم يكن سوى تموج على سطح الماء في بعض الأقطار. ولكنه ذهب بعيداً إلى العمق في إنجلترا والولايات المتحدة، حيث=

مناخاً كان ملائماً بصورة مثالية لإحداث صراع حافل بالحماس - وهو يشبه فى ذلك، من حيث المبدأ، الجو الذى خلقه ريكاردو عام ١٨١٧، ولكنه كان أكثر من ذلك بسبب الزيادة الضخمة فى عدد الاقتصاديين المهنيين. وكل ما يمكننا فعله فى هذا الموجز هو أن نورد المهام الثلاث التى بوشر بها والتى تفسر معاً سيل الأدب الكينزى إلى هذا الحد أو ذاك الذى يميز العقد الذى تلا عام ١٩٣٦.

لقد نبعت المهمة الأولى، طبعاً، من الحاجة التى شعر بها كل اقتصادى تقريباً لمعرفة وتحديد كيف يكون موقفه من رسالة معينة لم يكن بوسع أحد تجاهلها. لقد مضى معظم العمل المهنى على النحو المعتاد ولم يتأثر بتلك الرسالة إلا قليلاً. ولكن بالنسبة لكل المنظرين، الاقتصاديين العاميين، والباحثين فى حقول النقود والصيرفة والدورات الاقتصادية، فإن تلك الحاجة لم يكن بالإمكان تلبيتها إلا بالتحليل الجهد والنقد والتطوير. وإذ يتعذر علينا أن نعطى بصورة مرضية كل الأدب من هذا النوع^(٦٩)، فإننا نكتفى بالإشارة إلى حقيقتين: الحقيقة الأولى هى أن الرسالة قد ولدت رد فعل كان، بحد ذاته وبشكل تلقائى، إنجازاً يشكل الاعتراف الصريح به أعظم إطراء لذكرى اللورد كينز وأعظم إنصاف له. ولم يكن الإنجاز التحليلى لكينز هو الذى فعل ذلك؛ كما أنه لا يعود إلى ما أثاره هذا الإنجاز التحليلى من جاذبية بالنسبة للقضايا العملية. فكما هو الحال بالنسبة لريكاردو، فإن امتزاج العمل الفكرى - حقاً أو ظناً - مع قضايا العصر الساخنة هو الذى خلق فى حقلنا ما كان يتعذر على العمل تحقيقه من تلقاء نفسه. فعيوب عمل كينز الفكرى ذاتها والاعتراضات ذاتها التى يمكن إثارتها ضد إجاباته العملية ساهمت فى خلق

=برزت ظاهرة معينة فرضت نفسها بصورة ملائمة تستحق الملاحظة. فقد سحر المذهب الكينزى المنظرين الشباب أساساً بينما كانت غالبية المنظرين الكبار فى السن معادين له بهذه الدرجة أو تلك من القوة. إن جانباً من هذا الواقع واضح جداً بحيث ليس من داع للوقوف عنده، إضافة إلى أنه قد جرى التشديد عليه فى أغلب الأحوال: فمن الصحيح، طبعاً، أن جزءاً من المقاومة التى يلقاها كل مذهب جديد هى ببساطة مقاومة تصلب شرايين. ولكن ثمة جانب آخر. فالعالم العجوز أو حتى الناضج قد لا يكون ضحية فقط، بل قد يستفيد من عادات التفكير التى بناها عمله السابق. ولا اقصد هنا الفهم الأعمق للأشياء الذى لا يكتسب إلا بعمل عقود من السنين: فيمعزل عن هذا، وعن الاختلاف فى الموقف من السياسة policy الناشئ عن ذلك، فثمة شئ ما من قبيل الخبرة فى التحليل. وهذا العنصر، فى حقل كعلم الاقتصاد الذى غالباً ما يكون التعليم فيه معيباً والذى لا تكون فيه معرفة العلماء الشباب كافية فى الغالب بكل بساطة، أهم بكثير مما هو فى علم الطبيعة حيث يكون التعليم فعالاً على الدوام، رغم أنه قد لا يبعث على البهجة.

(٦٩) يجد القارئ مثلاً على ذلك الأدب فى العمل: The New Economics، الذى نشره وكتب مقدمته س. إى. هاريس S. E. Harris، ١٩٤٧، رغم أن العمل مكتوب 'لصالح' كينز بقوة.

النجاح المذهل وفى توسيع السجل بحيث يمتد إلى كل الحقل الذى يشمل التوصيات وقضايا المنهج المنطقية البحتة. والحقيقة الثانية هى الطابع المتراكم للنجاح من هذا النوع والذى يمكن توضيحه بأفضل ما يمكن من خلال التعليم. فكل عمل ناجح، هام علميًا، يتعين إدراجه فى المقررات المدرسية ضمن الموضوع المناسب له. ولكن المعلم، ما أن يكتشف إن تلاميذه يهتمون بموضوع ما بمعزل عن تدريسه هو أو أن يتأكد من أنهم صاروا ملّمين به قبل سماعهم محاضراته هو، فإنه سوف يكتشف أيضًا المزايا التدريسية التى تتراكم من الإشارة إلى هكذا معرفة سابقة والبناء عليها؛ كما أنه سيتعامل مع مثل هذا العمل، بغض النظر عن وجهات نظره، على نحو أوسع مما كان سيفعل لو أن العمل يستند على مزاياه الخاصة به فقط. وهكذا، وكما هو الحال فى الصيرفة والتأمين، فإن النمو يحفز المزيد من النمو بمجرد تزايد الاحتياطات وأن النجاح يدفع لمزيد من النجاح.

والمهمة الثانية التى طرحها العمل General Theory هى التطوير، سواء النقدى أو البناء، وفى الحقل النظرى أو الوقائى، لعدد كبير من النقاط الفردية.^(٧٠) وتشمل هذه النقاط المفهوم الكينزى لتوازن البطالة، قضية نظرية الفائدة 'القائمة على السيولة التى تتمتع بها النقود' own-rate theory of interest مقابل تلك التى تقوم على 'الرصيد المعد للإقراض' loan-fund theory of interest، قضية مبدأ النظرية الجمعية theory principle of aggregative (نظرية الاقتصاد الكلى)، قضية العلاقة بين الأجور النقدية والحقيقية، وقضايا أخرى كثيرة خلقت كلها 'آدابًا خاصة' تحمل طابعها الخاص بها. ولكن يكفيننا مثال واحد وهو العمل الذى كان وما يزال يُقدّم حول دالة الاستهلاك. فلا يستطيع أى منظر، إن كان جديرًا بهذا اللقب، أن يقبل كعبارة دقيقة exact statement الفرضية التى تربط الإنفاق على

(٧٠) بقدر تعلق الأمر بالآثار على محتوى نظرية معينة، ينبغي أن نلاحظ أن الانتقاد أو الإحكام أو حتى التبرير تعنى الشيء نفسه إلى حد بعيد. فيمعزل عن نية الباحث، فإن عمله يتغير بالتدرج إلى أن تصبح المعانى الأصلية باطلة فى آخر الأمر. ولكن هذا الأمر ليس كذلك بالنسبة لشهرة عمل ما أو المنزلة التى سيحتلها أخيرًا فى تاريخ علم ما. فموقف الباحث أو أحكامه القيمية أهم بكثير هنا حتى بالنسبة لوجهة نظر المنظرين المستقبليين بل إنها، طبعًا، أهم بالنسبة لوجهة النظر المستقبلية للمهنة وجمهور القراء. فمن السهل، مثلاً، تأليف قائمة من المحاججات (كلها صحيحة)، من كتابات هيكس، ولانجه Lange، ومودغلياني Modigliani، وساملسون Samuelson، مثلاً، التى إن وقعت فى أيدي كتاب أقل ودًا من هؤلاء، لشكلت انتقادًا مدمرًا. ولكنهم لم ينووا الإيذاء. أما فى حالة كينز، فقد اجتمع الاستحقاق والحظ لإضعاف شفرات النقد لدى البعض ممن كانوا أكثر قدرة على الإيذاء - قارن موقف مارشال من ريكاردو.

الاستهلاك (معبّرًا عنه من خلال وحدات-أجر) بالدخل فحسب (معبّرًا من خلال وحدات-أجر). وما لا يمكن قبوله حتى أكثر هو الصفة الكينزية المميزة لهذه الدالة (dY / dC ، انظر الهامش ١٣، أعلاه) كصفة صحيحة بصورة عامة. وعليه، فنحن نمتلك هنا مقارنة معينة. ولكن ما مدى دقة هذه المقاربة، وبشكل خاص، كم من الضروري بالضبط أن نضيف مقدارًا معينًا a term بالنسبة لتحويلات الدالة عبر الزمن؟ وما مدى خطورة الخطأ الذي نرتكبه حينما نقضى بأن الدالة خطية؟ أو، ألا ينبغي أن نتساهل ونسلم بوجود متغيرات مستقلة أخرى غير الدخل - مثل مقدار الأصول أو، على الأقل، الأصول السائلة التي قد يمتلكها الأفراد من قبل؟ إن كل هذه الأسئلة هي أسئلة نظرية تتبغى الإجابة عليها في المقام الأول على أساس استقلال^(٧١) الدالة وعلى أساس انسجامها مع العلاقات الأخرى التي نقصد القبول بها على نفس المستوى من المحاجة. ولكن من الواضح أن هذه الأسئلة لها جانب وقائعي في غاية الأهمية. وليس من الغريب، بل مما يستحق التهئة، إن "دزينة: دسنة" أو نحو ذلك، من علماء القياس الاقتصادي قد كرسوا ويكرسون اهتمامهم لها.

أما المهمة الثالثة، فتتبع من ضرورة 'دينمة' النظام الكينزى أما وفقًا للخطوط التي أوحى بها كينز نفسه أو وفقًا لخطوط أخرى. وقد أصبحت هذه الضرورة واضحة بمجرد أن بدأ الناس 'بتشغيل' النظام الكينزى بصورة جديدة. ذلك لأنه، كما سبق أن رأينا، حتى مجرد قضية استقرار نظام ستاتيكي معين إنما

(٧١) يعود مفهوم استقلال autonomy دالة أو معادلة ما إلى البروفيسور فريش Frisch. ففي نظام العلاقات (الرياضية أو غير الرياضية) التي يُعتقد أنها تسرى أنيًا ضمن إطار معطى من البيانات، يمكن أن تسرى بضع علاقات بشكل فردى وذلك فقط إذا كانت تسرى العلاقات الأخرى وربما أيضًا إذا لم يتغير إطار البيانات المعطى، ولكن هناك علاقات أخرى تحتفظ بصحتها الفردية حتى إذا لم تسر بعض العلاقات الأخرى (وضمن إطار آخر من البيانات). إن هذه العلاقات الأخيرة نسميها 'مستقلة' (أو تلقائية) autonomous، رغم أننا نستعمل هذا المصطلح بمعانٍ أخرى (كما في 'autonomous investment' - الاستثمار المستقل أو التلقائي). وهذه الصفة ليست مطلقة: إذ يمكن أن تتأثر علاقة معينة إلى هذا الحد أو ذاك بفشل ما في العلاقات الأخرى. وعليه، فمن الأفضل أن نتحدث عن درجة أكثر أو أقل من autonomy. وتشكل مقالة فريش (التي لم تنتشر، بقدر ما أعلم) واحدة من أهم المساهمات في المنطق البحث للنظرية الحديثة في وقتنا الحاضر. [فى رده على سؤال للناشر، أشار البروفيسور فريش إلى أن فكرة استقلال autonomy دالة أو معادلة ما يتم توضيحها كثيرًا في العديد من محاضراته المنسوخة في النرويج وأنها، فى شكل مطبوع، ترد بإيجاز فقط فى المقالة: 'Repercussion Studies at Oslo' American Economic Review, June 1948.

تقود إلى العوامل الديناميكية. ولكن إضافة إلى ذلك، فقد شرع كينزيون كثير بتضمين نماذجهم 'عوامل الدينامية' المعتادة dynamizers، وبخاصة فترات الإبطاء. وكأمثلة على ذلك، أشير إلى نموذج البروفيسور سميثز^(٧٢) ومن ثم، مرة أخرى، إلى معادلة هانسن-ساملسون التي مرت بنا من قبل. وهكذا فإن تحليل التوازن، الكينزي، قد أدخل مكانه تدريجياً إلى 'تحليل العملية' الكينزي وإن تحليل العملية الكينزي هذا يميل حالياً للاندماج بالديناميكا الكلية الأقدم والأوسع التي ألقينا نظرة عليها. وهنا، وبعد طول انتظار، نكون قد أدركنا النقطة التي يمكن من عندها تعريف وتحديد موضع الأهمية التاريخية للمساهمة التحليلية البحتة لكينز في علم الاقتصاد. ولأهمية هذا الأمر ولعدم سهولة تحقيقه بسبب عرضنا الموجز، فإننا نلفت نظر القارئ إلى الموجز التالي.

إن نظام كينز هو نظام ستاتيكي أساساً، بقدر تعلق الأمر بجوهره الدقيق. وقد كانت هذه النظرية الستاتيكية كافية للأغراض الأهم لدى كينز، وبخاصة لمذهبه المتعلق بتوازن البطالة *underemployment equilibrium*. ومع ذلك، فقد غمرت الديناميكا الكلية عمل كينز وذلك، جزئياً، لأنه كان من المحتم على كينز أن يضيف العوامل الديناميكية إلى ذلك الجوهر، ولأن عمله، جزئياً، اصطدم بوضع في حقل النظرية البحتة كان يهيمن فيه الاهتمام الجديد بالديناميكا الكلية (بصورة مستقلة عن كينز). ولكن بسبب المكانة التي احتلها عمل كينز في فكر المهنة، فإنه لم ينغمس بالديناميكا الكلية فحسب، بل إنه ساعد بدوره على صياغة وتشجيع هذا الأخير-

(٧٢) Arthur Smithies, 'Process Analysis and Equilibrium Analysis,' *Econometrica*, January 1942. سبق أن أوضحنا أن معظم الكينزيين (أو الكتاب الذين استعملوا الجهاز الكينزي أو جهازاً مماثلاً) قد أدخلوا الادخارات والاستثمارات المخططة *planned (or ex ante) savings and investments* وذلك لكي يكونوا قادرين على جعل التساوي بين الادخارات والاستثمارات شرطاً توازنياً بدلاً من التطابق في حالة الادخارات والاستثمارات المتحققة بالفعل. وهذا يتوافق مع موقف كينز لأن من المؤكد أنه شدد على الفجوة بين قرارات الادخار والاستثمار بقوة كافية. كما أن هذا بحد ذاته لا يعنى الخروج من حدود الستاتيكا الكينزية. ولكنه يعنى ذلك بمجرد أن نربط الادخارات والاستثمارات بشكل صريح بكمية معينة سابقة، كدخل الأمس مثلاً. وهكذا نقاد بسهولة، وإن ليس بحكم الضرورة المنطقية، بعيداً ليس فقط عن الستاتيكا الكينزية بل أيضاً عن البنية الكينزية ككل. خذ مفهوم الادخارات العاطلة، مثلاً *idle savings*. يتصور الأفراد العاديون أحياناً أن الحاجة الكينزية تتضمن أنه يجب أن تكون هناك، في مكان ما من الاقتصاد، ادخارات عاطلة بمعنى إنها غير مستثمرة. ولكن هذه الفكرة لا معنى لها في إطار الحاجة الكينزية. ومع ذلك، فهي تكتسب المعنى حالا حينما ندخل فترات الإبطاء. كما أنه ليس من الصعب أن نبين إلى أين يقودنا إدخال هذه الفترات، إن كانت تقودنا بعيداً عن كينز: فهي تحملنا باتجاه روبرستون Roberston ولونديبرغ Lundberg.

الذى كان يلائمه نموذج كينز بشكل خاص لبساطته. وهكذا فقد أصاب هيكس بوضوح حينما قال 'إن العمل General Theory of Employment... ليس بداية أو نهاية الاقتصاد الديناميكي' (٧٣). ولكن من الصحيح أيضاً، دون قصد من كينز وربما بالصدفة من إرادته (٧٤)، إن عمله قدّم دافعاً هائلاً للاقتصاد الديناميكي - فكل العمل تقريباً فى الديناميك الكلى يبدأ الآن من شكل 'مديمّن' معين لنموذجه. وهذا هو الجدير بالتشديد فى تاريخ التحليل (٧٥). أما توصيات كينز المتعلقة بالسياسة policy - التى كانت مرتبطة بزمانها - ومذاهب كينز المحددة بصورة متميزة - التى بدأت بفقد معقلها بالفعل - فيمكن أن تكون أكثر أهمية بالنسبة لتاريخ الفكر الاقتصادى.

[تتوقف المخطوطة عند هذه النقطة؛ ثمة ملاحظات موجزة كان قسم منها مكتوباً باليد: "يجب إضافة نقاط أخرى... الاقتصاد الكلى بحاجة لجهاز جديد من المفاهيم... موضوعات عامة جديدة... المضاعف... المعجل..."]

(٧٣) Mr. Keynes and the "Classics" 'Econometrica, April 1937, p. 159

(٧٤) 'أنس كل ما يتعلق بالفترات' هكذا قال كينز ذات يوم لأحد التلاميذ.

(٧٥) يمثل عمل ليود أ. ميتسلر: 'The Nature and Stability of Inventory Cycles.' Review of

Economic Statistics, August 1941 مثلاً ممتعاً على نموذج ديناميكي كلى حول دورات

المخزون، يستفيد من دالة الاستهلاك لدى كينز ويوضح بالتالى ما كنت أحاول إيضاحه.

قائمة الكتب المقتطف منها كثيراً

إن القائمة التالية هي قائمة غير كاملة قط بالنسبة للكتب المقتطف منها فى هذا الكتاب {تاريخ التحليل الاقتصادى}، بل إنها لا تمثل حتى الكتب التى أقتطف منها مرات عديدة. فهى تقتصر على الكتب التى أقتطف منها بصورة متكررة أو الكتب التى تكون طبعاتها المستعملة طبعة هامة وحيث لا يتم إعطاء معلومات محددة عنها فى كل مرة يجرى الاستشهاد بالكتاب.

Allen, R. G. D. Mathematical Analysis for Economists, London, 1938.

Aquinas, Saint Thomas, Summa Theologica [Latin, 6 vols.], Turin (Italy), Libreria Marietti, 1932.

Bohm-Bawerk, Eugen V., Capital and Interest: A Critical History of Economic Theory [1st German ed. 1884; English trans. 1890], Reprint, New York, 1932.

Bohm-Bawerk, Eugen V., The Positive of Capital [1st German ed. 1889; English trans. 1891] Reprint New York, 1923.

Bowley, A. L. The Mathematical Groundwork of Economics: An Introductory Treatise, Oxford, 1924.

Gairnes, J. E., Some Leading Principles of Political Economy Newly Expounded, London 1874.

Cannan, Edwin, A History of the Theories of Production and Distribution in the English Political Economy from 1776 to 1848 [1893], 3rd ed. 1917; 4th printing, London, 1924.

[Cantilon, Richard], Essai sur la nature du commerce en general [1755], Reprinted for Harvard University, Boston, 1892.

Chamberlin, Edward Hastings, The Theory of Monopolistic Competition: A Re-orientation of the Theory of Value [1933]. 5th ed.. Cambridge, Mass., 1946.

Cournot, Augustin, Researches into the Mathematical Principles of the Theory of Wealth [1st French ed., 1838 : English trans. by Nathaniel T. Bacon, 1897] New York, 1927.

Custodi, Pietro, Scrittori classici italiani di economia politica (50 vols.), Milan, 1803-16.

Fisher, Irving, *Mathematical Investigations in the Theory of Value and Prices* [1892] New Haven, 1926.

Hayek, Friedrich, A., *The Pure Theory of Capital*, London, 1941.

Heckscher, Eli F, *Mercantilism* [1st Swedish ed. 1931], London, 1955.

Hicks., J. R. *Value and Capital: An Inquiry into Some Fundamental Principles of Economic Theory*, Oxford, 1939.

Jevons, W. Stanley, *Investigations in Currency and Finance* [Papers written 1862-82], ed. with introd. By H. S. Foxewell, London, 1884.

Jevons, W. Stanley, *The Theory of Political Economy* [1871] 2nd ed., rev. and enlarged, London, 1879.

Keynes, John Maynard, *Essays on Biography*, London, 1933.

Keynes, John Maynard, *The General Theory of Employment, Interest and Money*, London 1936.

Keynes, John Maynard, *A Tract on Monetary Reform*, 1923 . *Monetary Reform* (American ed. Of above) New York, 1924.

Keynes, John Maynard, *A Treatise on Money* (Vol. 1 , *The Theory of Money* ; Vol. 11, *The Applied Theory of Money*) London, 1930.

Malthus, T. R. *Principles of Political Economy, Considered with a View to Their Practical Application*, London, 1820.

Marget, Arthur W., *The Theory of Prices*, New York, 1938-42.

Marshall, Alfred, *Principles of Economics* [1890] 4th ed., London, 1898.

Marx, Karl, *A Critique of Political Economy*.

Vol. 1 , *The Process of Capitalist Production* [1867], original English trans. by Moore and.

Aveling, rev. and amplified according to 4th German ed. by Ernest Untermann, Chicago,

Charles H. Kerr & Co., 1906

Vol. 11 *The Process of Circulation* [1885]

Vol. 111 *The Process of Production as a Whole* [1894].

Vols. 11 And 111, trans. by Untermann, Chicago, Charles H. Kerr & Co., 1909.

- Mill, James, Elements of Political Economy, 1st ed., London, 1821.
- Mill, John Stuart, Autobiography, London, 1873.
- Mill, John Stuart, Principles of Political Economy with some of Their Applications to Social Philosophy [1848] 7th. Ed. 1871 ; with introd. By sir W. J. Ashley, London, 1909.
- Pareto, Vilfredo, Cours d' economie politique, Lausanne , 1896-7.
- Pareto, Vilfredo, Manuel d' economie politique [Italianed. 1906], Paris, 1909.
- Ricardo, David, The Principles of Political Economy and Taxation [1817] 3ed. ed. 1821, Everyman' s Library ed., London and New York, 1912, reprinted 1917.
- Rist, Charles, History of Monetary and Credit Theory from John Law to the Present Day [1st French ed. 1938], New York, 1940.
- Robinson, Joan, The Economics of Imperfect Competition, London, 1933.
- Roscher, William, Principles of Political Economy [1st German ed. 1854], New York, 1878.
- Samuelson, Paul Anthony, Foundations of Economic Analysis, Cambridge, 1947.
- Say, Jean Baptiste, A Treatise on Political Economy ; or The Production, Distribution k and. Consumption of Wealth [1st French ed. 1803] trans. from 4th French ed. by C. R. Prinsep, Boston, 1821.
- Seligman, Edwin R. A. Essays in Economics, New York, 1925.
- Sempere y Guarinos, Juan, ed., Biblioteca espanda economico-politica (4 vols.), Madrid, 1801-21.
- Senior, Nassau William, An Outline of the Science of Political Economy [1836], Library of Economics Reprint, London, 1938.
- Smith, Adam, An Inquiry into the Nature and Causes of the Wealth of Nations [1776], ed. by Edwin Cannan from text of the 5th ed., Modern Library, New York.
- [إن الإشارة في كل هذا الكتاب هي إلى طبعة Modern Library باستثناء الجزء الثاني ، الفصل الثالث ، القسم ٤ ج ، في حين إن الإحالات المقترنة بالصفحات هي إلى طبعة Everyman' s Library, London and New York, [1910, reprinted 1917].

- Stigler, George J., *Production and Distribution Theories*, New York, 1941.
- Sweezy, Paul M., *The Theory of Capitalist Development: Principles of Marxian Political Economy*, New York, 1942.
- Tagliacozzo, Giorgio, *Economisti naloletani dei sec. XV11 e XV111*, Bologna, 1937.
- Thornton, Henry, *An Enquiry into the Nature and Effects of the Paper Credit of Great Britain* [1802], *Library of Economics Reprint*, London, 1939.
- Took and Newmarch, *A History of Prices and of the State of Circulation from 1792 to 1856* [6 vols., 1838-57] reproduced from original with an introd. By T. E. Gregory, New York, 1928.
- [Turgot, Robert Jacques], 'Reflexions sur la formation et la distribution des richesses,' *Ephemerides du citoyen*, 1769, vols. 11 and 12 ; 1770, vol. 1.
- [وقد أعيد نشر هذا العمل في Oeuvres {مؤلفات تورغو} التي نشرها دويون دي نومور عام ١٨٠٨ ، المجلد الخامس ، باريس.]
- Viner, Jacob, *Studies in the Theories of International Trade*, New York, 1937.
- Walras, Leon, *Elements d' economie politique pure (Theorie de la richesse sociale)* [1874-7] 5th ed. , Paris and Lausanne, 1926.
- Walras, Leon, *Etudes d' economie politique appliquee (Theories de la production de la richesse sociale)* [1898] Paris and Lausanne, 1936.
- Walras, Leon, *Etudes d' economie sociale (Theorie de la repartition de la richesse socioale)* [1896] Paris and Lausanne, 1936.
- Wicksell, Knut, *Lectures on Political Economy* [1st Swedish ed. 1901-1906], English trans., ed. with introd. By Lionel Robbins, London, 1934.

المؤلف في سطور:

جوزيف شومبيتر

قدّم الاقتصادي وعالم الاجتماع النمساوي جوزيف شومبيتر ١٨٨٣-١٩٥٠ عدداً من المساهمات المهمة بالنسبة لفكر القرن العشرين. فإنه نقدَ ماركس وكينز، وطوّر أفكاراً متقدمة لتأمل الدورات الاقتصادية والمؤسسات السياسية والعمليات الاجتماعية في العالم الحديث. ويُعد عمله "نظرية التنمية الاقتصادية والدورات الاقتصادية" أحد أهم دراساته الاقتصادية. أما عمله "الرأسمالية، الاشتراكية والديمقراطية"، فهو بحث متعمق حول طبيعة ومستقبل الرأسمالية وعلاقتها بالاشتراكية والديمقراطية [وهو عمل مُعَرَّب]. ولكن كتابه "تاريخ التحليل الاقتصادي" يبقى عملاً لا يضاهي في حقل التحليل الاقتصادي وتاريخه.

المترجم في سطور:

حسن عبد الله بدر

نال د. حسن عبد الله بدر شهادة الدكتوراه في الاقتصاد من معهد الاقتصاد في موسكو عام ١٩٨٤، وشهادتي الماجستير والبيكالوريوس في الاقتصاد من جامعة بغداد عامي ١٩٧٥ و ١٩٧٢. وقد عمل د. حسن بدر مدرساً للاقتصاد في جامعة الموصل وجامعة عدن وجامعة طرابلس، وقام بترجمة ومراجعة عدد من المقالات الاقتصادية من الإنجليزية إلى العربية، كما إن له أعمالاً ومقالات تدور حول أثر الاستثمار على النمو الاقتصادي في العراق.

المراجع فى سطور: عصام الخفاجى

د. عصام الخفاجى كاتب وأستاذ جامعى مختص بالعلوم الاجتماعية، درّسَ لسنوات عدة قضايا العولمة والتطور الاقتصادى والاجتماعى فى العالم الثالث، ونظريات الدولة، فضلاً عن قضايا الشرق الأوسط فى جامعة أمستردام ونيويورك. وإلى جانب التدريس، عمل الخفاجى فى مجالات عدة، ومنها العمل كمستشار للبنك الدولى فى واشنطن. صدرت له ثلاثة مؤلفات بالعربية، وعشرات الأبحاث والمقالات بالعربية والإنجليزية والفرنسية. وقد تُرجم عدد من أعماله المكتوبة بالعربية إلى لغات أجنبية كالإنجليزية والفارسية، كما أنه قام بترجمة كتب عن الإنجليزية والفرنسية إلى العربية. فى مايو ٢٠٠٤ صدرَ له بالإنجليزية كتاب بعنوان "مسارات الحداثة فى أوروبا والشرق الأوسط: ولادات عسيرة"، لندن، دار I. B Tauris.

يقصد بتعبير "تاريخ التحليل الاقتصادي" تاريخ الجهود الفكرية التي بذلها الإنسان لفهم الظواهر الاقتصادية أو - وهو ما يعنى الشئ نفسه - تاريخ الجوانب التحليلية أو العلمية من الفكر الاقتصادي. ويصف الجزء الثانى من هذا الكتاب تاريخ تلك الجهود، وذلك من البدايات المبكرة التى يمكن إدراكها، وحتى آخر عقدين أو ثلاثة من القرن الثامن عشر. ويغطى الجزء الثالث الفترة التى يمكن نعتها بفترة "الكلاسيك" الإنجليز، وحتى بداية سبعينيات القرن التاسع عشر تقريباً. ويقدم الجزء الرابع كشفاً بمصير الاقتصاد التحليلي أو العلمى منذ نهاية الفترة الكلاسيكية وحتى الحرب العالمية الأولى. تشكل هذه الأجزاء الثلاثة الكتلة الأساسية للكتاب والبحث الوارد فيه. أما الجزء الخامس فهو مجرد مسودة للتطورات المعاصرة، ويهدف إلى مساعدة القارئ على إدراك صلة الجهود المعاصرة بالجهود الماضية.